

تاريخ الحضارات العالم

١

الشرق

واليونان القديمة

منشورات هويدات
بيروت - باريس



تاريخ الحضارات العام

تاريخ الحضارات العام

موسوعة في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه ايمار جانين أوبوايه
أستاذ في السوربون أمانة متحف غيمه

٢

روما وأمبراطوريتها

أندريه ايمار جانين أوبوايه
أستاذ في السوربون أمانة متحف غيمه

٣

القرون الوسطى

إداور بروجي أستاذ في السوربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنيه أستاذ في السوربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنيه أرست لابروس
أستاذ في السوربون أستاذ في السوربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيروب أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه مفتش المعارف العام في فرنسا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد الأول

تاريخ الحضارات العظام
الشرق واليونان القديمة

تأليف

جانين أوبوايه
أمينة متحف غيمه

أندريه إيمار
أستاذ في السوربون

نقله الى العربية

فؤاد ج. أبوريحان

فريد م. داغر

منتشورات عويدات
بيروت - باريس

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار
منشورات عويدات
بيروت - باريس
بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية
Presses Universitaires de France

الطبعة الثانية ١٩٨٦

سام في ترجمة هذا المؤلف كل من السيدين :
يوسف أسعد داغر و أحمد عويدات

مقدمة الطبعة العربية

التاريخ علم حي وواحة غضة تتفيا في ظلها العلوم اجتماعية كانت أم سياسية أم طبيعية الخ . والتاريخ واجهة الحضارة الانسانية ، فلا عجب من ثم ان استولى على قلوب هواة المعرفة وغدت له المنزلة الرفيعة عند الطالب والعالم وجمهرة الشعب . وقد اهتم مؤلفو الغرب الاهتمام الكلي لتبيان مراحل تطور الشعوب ورقبها وربط نتائجها بأسبابها ، فكانت من ثم اجباثهم واقعية ومنطقية استلهموا فيها الآثار من رسم ونقش وبناء الخ والاستنتاج المنطقي اذ العاديات بمحذ ذاتها مادة لا حياة فيها ولا تسلسل ، يحياها العقل وينسقاها ويفسرهما فتنتطق اذ ذاك لتعلمنا بما ابقاه السلف تراثا قيا للخلف . ولا يعرف هذا التطور هوادة أو نهاية اذ تميز سنة الرقي بالانسان من حسن الى أحسن ويبني بنو آدم التاريخ لبنة لبنة ، ولن يتم هذا التطور الحضاري الا مع آخر حي عاقل .

وما أفدح خطأ من يعتبر التاريخ سلسلة حوادث وسجلا لأسماء تنتثر هنا وهناك في الزمان والمكان اذ التاريخ كما سبق القول علم له أساليبه ومبادئه وفلسفته التي أوجد لمحتها وسداها العربي الخالد ابن خلدون . وليست الحضارة - مادة التاريخ - ثمرة جهود فرد او شعب او مجموعة امم ، بل هي صنع الانسان في مختلف عصوره القديمة والحديثة والمستقبلية ، يتضافر ويتكافل لخلقها مع أخيه الانسان للسير مرحلة مرحلة والانتقال من حسن الى أحسن . وقد تولى أمة اهتمامها لناحية حضارية دون الأخرى وتسهم من ثم على قدر طاقتها في تشييد صرح هذه الحضارة الانسانية العالمية التي ينعم بها الجميع على تفاوت تبعاً للمؤهلات والظروف . فلا فضل والحالة هذه لشعب على آخر اذ لا حياة ولا استقرار ولا استمرار للجهد الانساني الكبير ان لم يعضده الافراد في أي قطر وجدوا وفي أي وقت عاشوا . وهكذا تظهر بوضوح كلي تلك الصفة الاجتماعية - الاشتراكية ... التي تربط الانسان بأخيه الانسان مهما اختلف اللون وتميز العرق وشجعت المسافات . لذا ما أوهى قول بعضهم « الحضارة الشرقية ، أو « الحضارة الغربية » اذ الحضارة الانسانية للانسان ونتيجة جهد الانسان وفي خدمة الانسان !

والبحث في تاريخ الحضارة - وان تجزأت اقسامها دون ان تتصادم ! - هو نسبياً حديث

العهد ، اذ كثيراً ما كان يحصر المؤلفون عنايتهم بدرس حضارة شعهم أو قطرهم دون استقراء حضارة الغير والفوس عن جوهرها ومعالمها معها بلغت شأراً في الرقي والتقدم . ولكن أخذ المؤرخون في القرنين التاسع عشر والعشرين بتعاليم ابن خلدون فأولوا عنايتهم المجاري الحضارية والثقافية عند مختلف الامم معها اختلف الزمان والمكان فكوتوا من أبحاثهم والحالة هذه مادة موحدة « تاريخ الحضارات » وان تميزت المراحل واختلفت الحلقات .

وقد عثرنا على موسوعات عدة في اللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية تشرح بأسباب منطق هذه الحضارة الانسانية الجماعية ومادتها ، مؤلفة من شتاتها وحدة تلد وتروق وتفيد . ولا يسعنا مفاضلة هذه على تلك اذ لكل منها ميزات وخصائص . ولكننا مع هذا توقفنا عند هذه الموسوعة الكبرى باللغة الفرنسية التي أصدرتها « دار المطبوعات الجامعية الفرنسية » ، وأشرف عليها العلامة الاستاذ موريس كروزيه *Maurice Crouzet* ، وأسهم بتدريج أجزائها نخبة من المؤرخين الثقة المشهود لهم بالمعرفة والتدقيق فأعجبنا بها الاعجاب الشديد سيما وان كل مؤلف أخذ على عاتقه درس حضارة القطر أو الشعب أو العصر الذي أشبعه تمحيصاً . وعمق الابحاث التي وردت في هذه المجموعة وجديتها من حيث تقصي الحقائق والوقوف على الآثار وتحليلها منطقياً وربطها مع زميلاتها ربطاً محكماً لاطهار مختلف مراحل التطور الحضاري الانساني حملنا على انتخاب هذه الموسوعة وتقديمها لقراء الضاد دون ان نغبط حق زميلاتها أو ننتقص من صفاتها .

وتأتي هذه المجموعة الفرنسية على درس الحقائق التاريخية منذ أقدم عصور الحضارة الانسانية وأعرق الشعوب ، فتشرح الشرح العلمي المستفيض الوقائع والحوادث والأحداث التي عاشتها الامم في العالمين القديم والجديد على مر الأجيال والقرون... وهكذا تبدو هذه المجموعة سجلاً حافلاً من حيث الواقع والعلم لتاريخ الانسان منذ أطواره الأولى المتوعدة في القدم حتى عصرنا الحاضر دون التوقف عند هذه الأمة أو ذاك البلد فتظهر اذ ذاك حضارتنا المعاصرة ابنة الجهود الغابرة .

ومن مميزات هذه المجموعة انها أتت شاملة كاملة فوصفت لنا طرق العيش ونظام الحكم والاسس الاجتماعية والاساليب التجارية والمعتقدات الدينية والنشاطات الفكرية والاطوار الفنية الخ... فلم تترك شاردة إلا ولجتها أو واردة إلا واحلتها في اطار واقعي ومنطقي عز نظيره ، فغدت من ثم معلماً وهادياً لابن القرن العشرين ، ان استوعبها وقف على حقيقة تاريخ الانسان . وقد بسطت مجموعتنا المذكورة هذه المادة الخصبة بأسلوب رشيق متسلسل ، وضمت من الخرائط والرسوم العدد الوافر ، ووقفت على ما اكتشفه رواد وعلماء الآثار حتى سنة ١٩٦١ ، وأعملت القياس والمنطق أو التخمين - عندما يعجز المنطق والاثر المادي - ... حتى غدا معها التاريخ علماً حياً شيقاً .

واننا لا نلقي القول على عواهنه بل نضع أمام القارئ اللبيب عناوين أجزاء هذه الموسوعة وأسماء مؤلفيها فيتأكد بأن القوس أعطيت بارها .

المجلد الأول : الشرق واليونان القديمة *L'Orient et la Grèce Antique*

لؤلفيه اندريه ايمار *André Aymard* عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية في باريس ، وجانين أوبويه *Jeannine Auboyer* امينة متحف غيمه .

المجلد الثاني : روما وامبراطوريتها *Rome et son Empire*

لؤلفيه : اندريه ايمار *André Aymard* عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية في باريس وجانين أوبويه *Jeannine Auboyer* امينة متحف غيمه .

المجلد الثالث : القرون الوسطى *Le Moyen Age*

اتساع الشرق ومولد الحضارة الغربية

لؤلفه : ادوار بروي *Edouard Perroy* استاذ في السوربون .

المجلد الرابع : القرنان السادس عشر والسابع عشر *Les XVI et XVII siècles*

تقدم الحضارة الاوروبية وتضع الشرق (١٤٩٣ - ١٧١٥)

لؤلفه : رولان مونييه *Roland Mausnier* استاذ في السوربون .

المجلد الخامس : القرن الثامن عشر *Le XVIII siècle*

عصر النور (١٧١٥ - ١٨١٥)

لؤلفيه : رولان مونييه *Roland Mausnier* وارنست لابروس *Ernest Labrousse* استاذين في السوربون .

المجلد السادس : القرن التاسع عشر *Le XIX siècle*

ذروة الاتساع الاوروبي (١٨١٥ - ١٩١٤)

لؤلفه روبير شنيرب *Robert Schnerb* استاذ الصف الاول العالي في ليسه كليرمون - فران

المجلد السابع : العهد المعاصر *L'Epoque Contemporaine*

بحثاً عن حضارة جديدة

لؤلفه موريس كروزيه *Maurice Crouzet* ، مفتش المعارف العام في فرنسا

ويؤسفنا القول إن المكتبة العربية تفتقر الى مثل هذه الموسوعات المفيدة العلمية على غنى تراثنا القومي ووفرة كتبه . وكم تشوقنا الى الوقوف على مراحل الحضارة العالمية من خلال مؤلفات عربية يضعها أبناء الضاد أنفسهم ، وما كان العرب يوماً الا سباقين في مضمار المعرفة والعلم والتأليف ، وقد استنار الغرب بكتبهم الموضوعية أو المنقولة . وما كان أسعدنا لو ان أبناء

عالمنا العربي قاموا بمثل هذه الدروس الموسوعية بالاستناد الى غنى شرقنا — مهد الحضارة ومنهل الأمم — وفتحتهم على الثقافات العالمية .

ورغبة في سد هذه الثغرة والتعاون مع من أخذوا على عاتقهم محو هذا النقص نقدم لعالمنا العربي أبحاث هذه الموسوعة الفرنسية في لغة الآباء والاحفاد ... مع ما في الأمر من صعوبة وارهاق .

ولا مجال هنا للبحث في طرق النقل أو الترجمة . فقد ارتأى بعضهم في هذا المجال ان يزدوا على النص الاصيل أو ينقصوه أو يفسروه طبقاً لرغبة أو تنويراً للقارئ أو تقويماً لأفكار المؤلف . أما نحن فقد تقيدنا تقيداً أميناً بنص الموسوعة الفرنسي ونقلناه نقلاً حرفياً — دون اعتبار صحة الآراء أو بطلها — وان كنا لا نجاري المؤلف في بعض آراء أو نظريات أو استنتاجات ، اذ اننا نقدم لقراء الضاد ما قاله المؤلف الفرنسي على علاقاته وهنائه ؛ وتشويه الأفكار أو تحويرها أمر غير مستحب وان كان تقويمها ضرورياً ... ولكن في بحث مستقل ! ووضعنا نصب أعيننا مجازاة النص الفرنسي كما ورد دون تقديم أو تأخير — جهد المستطاع — على ما في هذا النص من تشابك صرفي وتركيب نحوي واستدارات في السبك وتطويل في الجمل . وحرصنا الحرص الكلي على التقيد بروح المؤلف واستدراكاته وتمييزاته البيانية حتى في بسط الاسلوب مع ما في الامر من جمل اعتراضية ونقط وفواصل الخ . لذا قد يبدو هنا وهناك بعض الوهن في حسن التركيب من حيث قواعد اللغة والادب ؛ ولا نرى غضاضة في ذلك ، اذ المؤرخ — ولو كان أديباً بالسليقة — لا يتوخى التنميق وجمال التعبير بل سرد الحقيقة المجردة دون خيال مجنح أو لجوء الى أساليب بيانية . ونقل مثل هذه التراكيب والعبارات الى لغة الضاد — مع المحافظة على الكلمة روحاً ونصاً — قد يضطربنا بعض المزار الى تخطي حسن السبك والاسلوب العربيين بغية التوفيق بين الاصل الفرنسي ومرادفه العربي ، اذ لكل لغة نفس وتقنية نحوية .

واعتمدنا في نقل أسماء العلم على اصولها ومواطنها الأولية مراعين قدر المستطاع ما غدا أمراً متداولاً . وهكذا سعينا جهدنا لكتابة الاسم اليوناني مثلاً كما ورد في لغته الاساسية ... باستثناء الاسماء التي جرى التعارف في كتابتها ولفظها على امر مستقر كاسم ارسطو بدل ارسطوطاليس . وقد استمعنا لنفسنا أيضاً ، عند تعذر كل وسيلة ، ان نعتمد كأساس الكلمة الفرنسية التي وردت في النص المنقول . وحرصاً على الدقة والامانة اللفظية لجأنا الى سفارة الجمهورية الهندية في بيروت لتعيننا على حسن كتابة الاسماء الهندية الصرفة فلاقينا منها تجاوباً وحسن مساعدة تذكر فتشكر ، اذ غني عن البيان بأن الحرف اللاتيني قد لا يعبر التعبير الصحيح الدقيق عن كيفية لفظ وكتابة الكلمة الغريبة عنه هندية كانت أم عربية أم صينية .

ولا بد من الجهر أيضاً بأنه من الصعب الوقوف على كلمة عربية واحدة لبعض المصطلحات الفرنسية التي نحتوها للتعبير عن مبدأ فلسفي أو عقيدة دينية مما أهاب بنا الى تأدية معناها بأكثر من لفظة أو احياناً بنقش كلمة عربية — مثلاً استغرق نسبة الى تبني حضارة الاغريق —

قد توافق لفظ المصطلح الفرنسي، او باعتماد طرق الاشتقاق اللغوية العربية، ولا نرى في الأمر خرقاً لقاعدة او تجاوزاً على صلاحية .

واننا وقد ألزمتنا أنفسنا بأمانة النقل نرى من واجبنا استطراداً لما قيل أعلاه بأن نؤكد من جديد بأننا لا نتبنى ولا نؤيد شخصياً بعض النظريات التي ساقها المؤلف ، دينية كانت أم اجتماعية ، او بعض المبادئ السياسية والوقائع التاريخية التي اعتبرها المؤلف كحقائق . هذا مع لفت النظر الى ان تفسير الاحداث والحوادث التاريخية قد يتطور، وقد يناقض عالم تاريخي ما قاله زميل له على اعتبار ان المصادر والآثار لم تستنفذ بعد تماماً؛ وقد يكشف الغد وثائق تقلب بعض الاعتبارات التاريخية رأساً على عقب . ومن الحق القول إن مؤلفي هذا الكتاب يجهران صراحة بأن الرأي الذي ابدياه هو اجتهاد قد يحوله ويحوره ما سيعثر عليه عالم آخر من آثار أو يحلل من رموز كتابية لا تزال مجهلة الى يومنا .

ومع علمنا بوجود كتب تاريخية عربية قيمة نقلت عن لغات غربية يسعدنا بأن نقدم لقراء الفضاد المجلد الأول من موسوعة موريس كروزيه التاريخية هادفين الى اعلاء كلمة العلم وشاكرين لدار « منشورات عويدات » في بيروت ما لا قينا من تشجيع ، هذه الدار التي أتحفت المكتبة العربية ولا تزال بكتبها الفلسفية والقانونية والاجتماعية والقصصية ، والتي لن تألو جهداً لتقديم سائر أجراء موسوعة كروزيه التاريخية للعالم العربي .

والمولى ولي التوفيق وعليه الاتكال .

هيئة الترجمة

مقدمة عامة لتاريخ الحضارات العام

انها لأول مرة على ما نعلم ، يصدر في تاريخ الادب الفرنسي ، كتاب بهذا العنوان يتوج مجموعة من الكتب تتجه للرأي العام ، بمثل هذا الشمول . فهل في الامر ما يدعو للاستغراب ، بعد ان سبق للوسيان فيفر واوضح كيف ان كلمة « حضارة » دخلت مصطلح العلوم متأخرة في الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، وان مدلولها الكامل لم يتضح على الوجه الامثل ولم يستقر مشتمله الأوفى الا بعد ذلك بكثير .

وعلى نقيض البربرية ، عنى المصطلح الجديد ، على لسان فلاسفة القرن الثامن عشر العقلين وكتابه الشعوبيين ومن لف لفهم ، مجموعة من الخطط والنظم القمينة باشاعة النظام والسلام والسعادة ، وبتطوير البشرية الفكرية والادبي ، وبتأمين انتصار الانوار . فالحضارة والحالة هذه ، « وضع مثالي وحقيقي في آن واحد ، عقلي وطبيعي ... ، سبيبي وغائي » .

وراح القرن التاسع عشر بدوره يكتن هذه الفكرة الاوروبية المحور ويرستخ لها في الازدهان . ووضع تقدم العلوم والتكنولوجيا بين ايدي الاوروبيين طاقة مادية بلغ من شأنها ما ادخل في روعهم تسامي حضارتهم وافضليتها على سواها من الحضارات الاخرى . وهكذا « اخذ القرن التاسع عشر ينظر الى حضارته كالحضارة البشرية الفضلى » ، وراح يعتقد أن من حقه فرض هذه النظرية على العالم كله بالقوة حتى تبناها وعمل بها ونهج عليها . الا ان طمأنينة الضمير الاوروبي لم تتعد هذا القرن ، وقد انتهى امرها الآن ، كما يستدل من التعابير التي درجوا على اصطلاحها تشاؤماً ، اذ كثيراً ما يتردد على شفاه الكتاب عبارات كهذه : « ازمة الحضارة » ، و « الحضارة في خطر » و « الحضارة على المحك » .

لهذه الاسباب ، فتاريخ الحضارة في مفهومه القومي الرحب ، هذا التاريخ الذي يتناول بالدرس سجل الجماعات البشرية والمدنيات ، ويرى في هذا التراث المتأني الينا مراحل التطور الذي عرفته الانسانية في رقيها الصاعد ، ويحصى على كل جماعة ما اسدته من خير للتراث المشترك ، يصعب تجريده من غاية تجعل الحضارة وقفاً علينا نحن الاوروبيين ابناء القرن العشرين .

صحيح اننا شهدنا ، في غضون العصور الاخيرة ، تحت تأثير اوروبا الحاسم نفسها توارى او زوال معالم حضارات كثيرة واصيلة ، وذلك اقله تحت ستار الدعوة الملحة لتوحيد نظم الحياة .

ولهذا اخذ يتبدى لنا ان هنالك حضارة موحدة آخذة بالتكون ، مستوحاة على الاخص من الغرب في مدلوله الاوسع . كل هذا صحيح . غير ان هذا التطور نحو الوحدة لم يتم الا من عهد قريب ، وهذه الالوف من السنين التي يتألف منها تاريخ البشرية ، مرت بادوار من الركود والقهري ، واطوار من الانعزالية والقطيعة ، بحيث تفرض علينا الحكمة العزوف عن مثل هذه النظرية .

اما ان نكون امام حضارات متعددة لا حضارة واحدة وحيدة ليس بينها ما يدعي الرئاسة المتهومة ، فهذا امر مسلم به اليوم بين علماء الاجناس البشرية والمؤرخين والعلماء الاجتماعيين اذ يقر هؤلاء بالاجماع ان لكل جماعة بشرية على شيء من النظام ، مدنياتها الخاصة حتى ان للاقوام المتوحشة حضارتها الخاصة بها .

كذلك من الامور المسلم بها اليوم عدم الاخذ بالنظرية الضيقة التي تقول بتاريخ واحد للحضارة .

لقد شهدنا بالفعل في السنوات العشرين - وفي فرنسا على الاخص ، منذ ظهور البحث الداوي الذي وضعه مارسيل موس - تطوراً حوّل انظارنا من نظام سام وحيد للحضارات يفرض مقولات سامية - الفنون والآداب ، والذوق حتى والعلم - ليردها الى مظاهر الواقع الحيائي ، المادية غالباً والاقول بروزاً واثراً . فقد حاولوا ، تارة عن طريق المؤثرات الثقافية (فكرة ، أداة ، مهارة فنية ، وصفة مطبخية ، حركة في اللبس) وطوراً عن طريق الحقب الثقافية (الاسس الجغرافية للحضارات) ان يستبدلوا الدروس التقليدية ، بدروس موضوعية لا اثر فيها لهذه التجريدات الغيبية المليئة بالاحكام المقومة . وهكذا حاولوا بمعزل عن الناس وعن اعمالهم (مشاهير الرجال وآثارهم الباقية) وبمعزل عن تيارات العوامل المؤثرة ان يحددوا الشروط المادية والاجتماعية وغير ذلك من العوامل التي كثيراً ما عاجلها التاريخ التقليدي معالجة سقيمة او مر بها على الاقل مروراً عابراً

نرى في ماضي البشرية وتاريخها السحيق ، حضارات عديدة لكل منها مجموعة من الافكار والنظم السياسية ، ومستوى من العيش المادي والتقنية ، وطاقات على الانتاج وقدرة على تأمين العلائق الاجتماعية على اختلاف مظاهرها : الدينية والفكرية والفنية . ليس من قصد الاجزاء التي تتنظم هذه المجموعة التي تظهر بعنوان « تاريخ الحضارات » ان تتبنى هذه او تلك من النظريات الضيقة التي جيء بها باسم العلم ، او هذا المعنى الخاص على حساب غيره او باستثناء غيره . فالتاريخ ليس إيثراً او تخيداً ، بل استحضاراً للماضي بكل مظاهره وواقعه . فعلينا اذا ان نصف بدقة المظاهر الحياتية المتعددة التي تؤلف مجتمعة كلا متجانساً وان نستحضرها للانفهام في وحدتها الزمنية والمكانية ، كما يتوجب علينا ان ندرس المؤثرات التي تفاعلت بها

هذه الحضارات وانفعلت . هذا ما يهدف اليه التاريخ العام الذي وضعناه للحضارات .

نقطة الانطلاق عندنا جهد موصول سداه التحاليل ولحمته الوصف بغية ابراز الخصائص المفردة لكل حضارة ، وتحديد ما اسدته من خدمة للتراث الانساني النامي . هل بالامكان الذهاب الى ما هو ابعد ، ورسم خط بياني منحني لكل من هذه الحضارات نستبين معه مراحل التقدم او التأخر التي قطعتها ؟ وهل بالاستطاعة السير الى ابعد لنستخلص من هذه المشاهد والمرئيات الملاحظات التي توحى بها النواميس التي تنهض عليها الصيرورة الاجتماعية التي رسمتها هذه الحضارات المتباينة ؟ ان محاولات التأليف العظيمة الباهرة التي شهدناها حديثاً والتي قامت على اساس من التفسير الجدلي في الازمنة الحاضرة والمستقبل الطالع ، واتفاق الرأي لدى المؤرخين وعلماء الاجتماع ، كل ذلك اوضح بصورة جلية ضرورة الاعتصام بالفطنة في مجالات البحث الحديثة العهد هذه . ان تصنيف الحضارات ، ومبادئ « الرقي » و « التأخر » كل ذلك يجعل للتطور البشري مدلولاً ميتافيزيقياً ، يجب ان يبقى بطبيعة تعريفه بعيداً عن المؤرخ .

وستحاول هذه المجموعة ان تتفادى ما يتصل « بفلسفة التاريخ » ، هذه الفلسفة التي تبقى دوماً من العنديات العرصة ابداً للحدس والجدل ؛ يهنا قبل كل شيء ان نصف وان نفسير الامور ، لا ان نصدر احكاماً قوامها لون من الوان الحضارة المثالية .

تجاهلت البشرية وحدتها مدة طويلة . فلم يكن هنالك بشرية واحدة بل بشريات وحضارات . فقد ارسيت في اواخر القرن الخامس عشر مع الاكتشافات الجغرافية العظيمة الحاسمة الاسس والامكانات التي تدعم وحدة كرتنا الارضية ، هذه الوحدة التي كان علينا تشييدها فعلاً . ففي القرن الثامن عشر تمكن الانسان من استكشاف مجاهل اوقيانيا واوستراليا ، كما قام خلال القرن التاسع عشر باكتشاف المناطق المجهولة في افريقيا وقطبي الارض الشمالي والجنوبي . ووحدة عالمنا هذا كانت تبقى وحدة منقوصة لو لم تقم على اسس علمية ، وكانت بقيت عجزرة مخرومة لو لم ينتظمها اقتصاد عالمي متماسك . هل بدا شيء من هذا قبل ظهور السفن الشراعية في القرن الثامن عشر ، او بالاحرى ، قبل الثورة التي اطلقها البخار ، هذه الثورة التي لم تبلغ اوجها الا في منتصف القرن التاسع عشر ؟ لا واهم الحق . وعلى هذا يجب ان نقيس احداث التاريخ العام ، اذ يطالعنا في البدء السحيق ، فبحر الحضارات الاولى ، والانتقال بالسير البشري من عصور ما قبل التاريخ الى التاريخ ، فتعاقب التواريخ والمدنيات على اساس من الترابط والتفاعل الى ان مطلع علينا عالم موحد .

ان عرض هذه المادة التاريخية الوافرة في المجلدات السبعة التي تتألف منها هذه المجموعة الار في وجهنا صعوبات دقيقة . « فالسرعة التي يتكون بها التاريخ » ونحو معارفنا وازديادها حتياً

علينا ان نخص كل جزء من هذه الاجزاء ، دوراً من ادوار التاريخ العام يقصر او يطول كلما دنونا من التاريخ المعاصر .

لم يكن في الامكان ان نستعرض في المجلد الاول من هذه المجموعة ، ونحن بعد عند عتبة التاريخ ، بروز هذه الحضارات وتطورها وفقاً للترتيب الزمني ونتولى درسها وإجالة النظر فيها وتتبع احداثها من ذاتها وبذاتها باعتبارها كتلة قائمة . ومن اين نأتي بتواريخ صادقة صحيحة لكل هذه المدن المتعاقبة ، بما فيها مدن الهنـد والشرق الاقصى ؟ وكيف نتفادى التكرار في مثل هذه الحال ؟ هنالك مدنيـتان من اضخم المدن التي ظهرت في التاريخ القديم : المدينة المصرية ومدينة بلاد ما بين النهرين ، تؤلفان معاً كتلتين متجانستين بالرغم مما بينها من فوارق وخصائص مفردة ، استمرت اكثر من ثلاثة آلاف سنة . فدرسها درساً افقياً في ادوار تاريخية منفصلة امر يتعذر الاخذ به والوقوف عنده . ان هذه المدن وغيرها مما ضرب صفحاً عن ذكره هنا قلما تأثرت بعوامل من الخارج ، وان حدث ذلك احياناً اقتصر التأثير فيها على الاطراف الخارجية ، وظهور المدن العارضة وتطورها في الأقطار المجاورة لهذه المدن قد حال دونها او أخر ظهورها معارك طاحنة دارت رحاها بين هذه المدن الضخمة ، في نفس هذه الاقطار. لا شك في ان نهجاً من هذا النوع كان افضى بنا الى صورة ناقصة حيناً، ممزقة احياناً لعدم تكافؤ معلوماتنا من جهة او لتفاوت ظاهر بين هذه المدن مستويات وشأناً .

وقد حدث ، بعد ذلك بكثير ، اي بعد اوائل العهد الميلادي ، في نطاق العالم القديم على الأقل - : آسيا واوروبا وافريقيا - اولى المحاولات لمقارنة هذه التواريخ ولربطها ببعض فجاءت اجزاؤها متنافرة غير محكمة كما ان هذه التواريخ بقيت اجيالاً طوالاً متشابكة متراكبة. الا ان توطد العلاقات بين الشعوب واشتداد اواصرها بين مختلف الحكومات والحضارات المنعزلة فيما بينها من قبل ، والعثور على المزيد من الأصول والوثائق التاريخية كل ذلك مكن للأخذ من جديد بنظرية الاطوار الزمنية والاعتصام بها واتاح للمؤرخ ان يشدد ، اكثر فاكثراً، على بعض الاحداث والشخصيات التاريخية البارزة ، واطهار ما لها من اضواء كاشفة . ولكن لم يلبث ان اتضح شيئاً فشيئاً وجوب التحرز من التبسط في السرد والاستطراد في القسول والوصف ، اذ ان المهم في هذا كله ان يرسم المؤرخ للحقبة التاريخية التي يتناولها صورة واضحة جلية ، ما امكن ، تأتلف كل الائتلاف وتنسجم مع الاكتشافات العلمية الحديثة .

ولا بد للقارئ الواعي من ان يلاحظ ان كثيراً من الاحداث التاريخية التي يحلو لبعض الكتب التقليدية سردها بالتفصيل قد ضرب صفحاً عنها او لم يؤت على ذكرها الا لما . ولا يتوهم احد قط اننا « ننتقص من اهمية الاحداث الثابتة الآخذ بعضها برقاب البعض وفقاً للتسلسل الزمني » او انه سها عن البال تعريف التاريخ كما حدده البعض من انه « علم الواقع المحيـز » . فنحن اول من يقدر المحاذير المترتبة على « تجريد التاريخ من الواقع القائم » ، ولا يدور في خلدنا ، في ردة عكسية ضد مفهوم التاريخ قديماً الذي كان لا يهتم الا للأمور السياسية

والحربية والدبلوماسية ، ان نفضي عن ذكر هذه الوقائع التي تؤلف أسس المدنيات والحضارات البشرية . فنحن اول من يعترف باهمية هذه الوقائع ، وقد حرصنا على احلالها الحل اللائق في تضاعيف هذا التاريخ وتقدير الدور البالغ الذي كان لها في الحضارات المتعاقبة . وقد همتنا منها ، في الدرجة الاولى الأمور الاقتصادية والاجتماعية ، وشددنا بنوع خاص ، على التطور التقني وعلى القضايا التي تتصل بصميم السكان ، كلما استطعنا الى ذلك سبيلا . ان حرصنا الشديد الا " نولي هذه المجموعة من المجلدات اهمية اكثر مما تستحق ، واليسر الذي يستطيع معه الباحث التوثق من الاحداث السياسية المعروفة ، كل ذلك حدا بنا احيانا الى التنويه بها في الجداول الزمنية الترتيب او في الابزائيات التي تصكّون الاطار الوضعي لتاريخ الحضارات .

ان تاريخ الحضارات الذي يعنى بوضعه هنا انما يتجه في الدرجة الاولى من الرأي العام المثقف وليس من العلماء الاختصاصيين . ولذا فقد ضربنا صفحاً عن ذكر الشواهد والمراجع والمناقشات الجدلية التي جيء بها لاثبات رأي او لدحضه . فقد حرصنا على اثبات قائمة موجزة متواضعة من المصادر والمراجع يمكن لمن يرغب في التوسع اعتمادها والركون اليها . اما الصور والرسوم ، فتمتد لتوضيح النص باعادة جانب من الجو التاريخي الذي سيطر على هذه المدنيات دون ان يكون الغرض الاول منها التوثيق .

لست ارى بعد هذا ، موجباً يدعوني لتقديم المؤلفين الذين قبلوا القيام بوضع هذا التاريخ العام للحضارات البشرية ، اذ لهم من مؤلفاتهم ومن آثارهم في حقل التعليم والتدريس ما احلهم الحل اللائق بين زملائهم المؤرخين في فرنسا . وهل لي ان ازيد هنا ان هذه المجموعة من المجلدات التي يتألف منها هذا التاريخ لم يكن في الامكان تحقيقها ، لو لم يقم منذ ربع قرن تيار جارف يتمثل على اشده في المأسوف على علمه المرحوم مارك بلوك الذي له الفضل الاكبر في تجديد الدراسات التاريخية في فرنسا ، فسدد الابحاث ووجهها شطر تاريخ مبسط يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلوم البشرية الاخرى ؟ فقد كان من اولى واجباتنا هنا ان ننوه بفضل الرواد في هذا الحقل الذين مهدوا السبل امامنا .

موريس كروزيه

مدخل

من وحدة العصرالظرا في الى الشقّ التاريخي

ظهور الانسان يضع ظهور الانسان على الارض بين العصور الجيولوجية السحيقة . وقد اصبح ظهوره ممكناً منذ الدور الجيولوجي الثالث إذ كانت ظهرت فصائل البهيموث . ويتمرجح هذا الظهور في أواخر الدور الجيولوجي الثالث ، عندما كانت تسرح في بطاح الارض وقرح وحدات من فصائل الفيل الجنوبي . ويتأكد هذا ويثبت في الطور الاول من الاطوار ما بين الثلجية الاربعة التي عرفها الدور الجيولوجي الرابع . أما اذا ما حاولنا ان نحدد الازمنة والاقوات لهذا الظهور فلا بد من ان يأخذنا الدوار . وراح بعض علماء الهيئة في تعليلهم الادوار الجليدية وتقدير مداها ، يقدرون الفترة الاعدادية للدور الرابع بمائة وخمسين الف سنة ، بينما يجعل غيرهم امتداد هذه الحقبة لاكثر من خمسمائة الف او ستمائة الف سنة . اما الدور الجيولوجي الثالث فيقدر بعضهم امتداد حقبته ثلاثين مليون سنة . ولا نعرف تاريخ اي شعب من شعوب الارض يرجع الى ما قبل الميلاد باربعة آلاف سنة . ويعتري الواحد منا قشعريرة عندما ترقص امام عينيه ارقام مثل ٤٢٤٥ - ٤٢٤٢ قبل الميلاد وهو التاريخ الذي يحدده التقويم المصري القديم ، بدءاً للتاريخ المصري القديم .

فالانسان في مثل هذه الحقب المتهالكة في القديم هو الانسان الحيوان ، او الانسان الشبيه بالبشر . اما الانسان المنتصب القوام ، ولا سيما الانسان العاقل ، المدرك ، فلم يظهر إلا بعد ذلك بوقت طويل . فالانسان العامل ، صنع اليدين ، الذي يستعمل الادوات ويتحسسها ، قد تقدم الاول كما تقدمه بدوره جنس من شبه الآدميين . وكثيراً ما اكتشف علماء الآثار بعض مصنوعاته دون ان يعثروا على شيء من بقاياها العظمية ، وان وجدوا شيئاً منها فهو نادر ومبعثر . والذي يجعل اهمية خاصة للانسان الصيني الذي عثروا على بقاياها في تشو كوتيان ، على بعد ١٠٠ كيلومتر الى الجنوب من مدينة بكين ، وللانسان القرد الذي اكتشفوا بقاياها في بلدة ترينيل ، على مقربة من جافا هو ما يجعل العلماء قادرين على ان يتبعوا ، في هذين المكانين ، بعض معالم التطور الذي بلغ معه الانسان منزلة الانسان العاقل . اما الاماكن الأخرى ، فعلى عكس ذلك تماماً كما يظهر

في افريقيا الجنوبية مع الانسان القدد الجنوبي ، في الترانسفال وفي اوروبا ، حيث يوجد فجوات من الفراغ محيرة .

ففي اوروبا على الأخص نجعل كل شيء عن إنسان عصور ما بين الجليدية إلا بعض بقايا نادرة جداً من هيكله العظمي الرميم ، دقيقة الحجم . وقد عرّف العلماء المصنوعات الرئيسية المتخلفة عن هذا الانسان ، بمصنوعات العصر الحجري المشطّى . أما انسان العصر الجيولوجي الرابع او العصر الموستري كما اصطلاحوا على تسميته فهو معروف أكثر بكثير ، إذ انه يتمثل بانسان العصر النياندرتالي الذي انتشر على مساحات واسعة ، هو هو نفسه تقريباً بشكله الواحد ، أينما وجد : في اوروبا الغربية ، وفي جميع انحاء افريقيا او في البلدان الشرق الاوسطية ، ومع ذلك فهو ليس من جنس الانسان الحقيقي . وهكذا نرى أنفسنا امام جنس آدمي جديد أو بشرية جديدة ، طلعت اصولها من أقاصي آسيا لم تلت ان قضت على «البشرية القديمة» ومحقتها .

ولكن هؤلاء الاقوام الجدد ينتمون الى ما اصطلاح المؤرخون على تسميته العصر الحجري القديم بانسان العصر الحجري القديم ، مشطّى كان ام مصقولاً ، عاصروا منه احداث ادواره او الدور الحديث منه ، عاشوا في العراء كلما سمح لهم الجو بذلك ، وسكنوا الكهوف ومخابئ الارض ، يعولون في معاشهم أكثر ما يعولون عليه ، على الصيد والقنص ، وعالجوا استعمال حجر الصوان واتخذوا منه سلاحاً بعد صقله ، ودببوا منه الرأس ، وحددوا الاطراف ، كما اتخذوا ادوات لهم من عظام الحيوان وقرونه ، وعرفوا النقش والحفر والرسم ، وتوصلوا الى افراغ بعض الادوات في قوالب واشكال معينة .

وقد حفظت لنا جدران المغاور والكهوف التي سكنوها بعض معالم الفنون البدائية التي زاولوها على شيء من الذوق والصناعة الفنية ، متخذين لهم في بادىء الأمر مادة لصورهم بعض الحيوانات التي دجّنوها ، وبعد ذلك بكثير ، الجسم البشري ، محاولين جهدهم في كل ما عالجوه ان يتركوا مسحة من جمال ترسموه . ففي عالم مجهول غامض ، كل ما فيه يدعو الانسان للعجب والخيرة والتحرز ، تترصده الاعداء ، من كل جانب ، حاول الانسان ان يدرأ عنه الغوائل والمخاطر فيتخذ سلاحاً له كل ما تصل اليه يده ، واداة لخدمته ، كل ما يعينه على العيش . تعرّف الى العلائق والاصداف والاساور فاتخذ منها زينة له وحلية كما اتخذ من بعضها تعاويذ واقية ورقى . وتوصل الى صنع بعض دميّ ، بشرية الصورة ، انثى الشكل ليرمز منها الى الخصب والانسال ، واصطنع صوراً شتى للحيوان يدرأ بها العين الشريرة والسحر الذي كثيراً ما وقع تحت تأثيره . وهو في كل هذا يحاول فرض سيطرته على الحيوانات المفترسة ، كما يحاول تدجين الانواع التي يفيد منها في معاشه او تؤمن له الصيد الوفير . وكان يشارك باحتفالات ومناسك دينية يترأسها سحرة ينصرفون اليها في المغاور المظلمة . وهكذا من تعاطيه اعمال السحر واستسلامه لطرق السحرة ظهرت الفكرة الدينية عنده ، وكان السحر والفكرة الدينية يصطبغان كلاهما بمسحة من الفن البدائي .

ويؤيد أكثر من اكتشاف علمي ان الانسان ، منذ العصر الحجري القديم ، أخذ يهتم باطراد صاعد ، بموته وتأمين دفنهم ، وإعداد اجسادهم وتجميعها في محل معين وبمجاجاتهم إذ تراه يندُرُّها بالمَغْرَةِ ويمدها بالحلي والزينة والتقدم وبيع اللحم . وقد تحدت معالم هذه المناسك وعم استعمالها ، بعد ان كانت في الاصل تعبيراً عن مشاعر الانسان يتقي بها مغبة الثأر والانتقام المتوقعين . إلا ان هذه المراسم لم تلبث ان اصبحت عزيزة عليه كريمة عنده ، إذ رأى فيها ايماناً بعقيدة الخلود والبقاء . وهكذا نرى كيف ان السحر افضى بالانسان الى ابعد مما كان يتوقع له : الى عبادة الموتى وتكريمهم .

استطال امد العصر الحجري القديم في اوربا من حضارة العصر الحجري الحديث الى عصر الحديد اكثر منه في اي مكان آخر ، ولا سيما في غربي جنوبي فرنسا ، وفي الغرب الشمالي من شبه الجزيرة الايبيرية . واستقرت الاجناس البشرية فيه على عروق مشهورة كالعرق المغدلاني ، والعرق الازيالي . الا ان ظهور اجناس بشرية أخرى ادى الى زوال العروق التي كانت تنهض بهذه الحضارة او الى إقصائها وابعادها الى اماكن نائية صعبة المنال ، كإفريقيا مثلاً حيث عجزت عن القيام باي دور بارز . فلم يحدث هذه المرة ، اقله في اوربا ، تطور محلي ، بل غزو جارف طلع من الشرق المتوسطي قادماً من الجنوب ، ومن جهات أخرى اقصى ولا شك ، من الشمال الشرقي . فلم يؤلف الغزاة القادمون ، كما في الماضي ، بشرية جديدة ، بل كانوا من صميم الجنس البشري السائد الذي تمكنت بعض عروقه ، في اماكن معينة ، من التطور في المظهر الخارجي وفي الحضارة . وقد استطاعوا ان يؤلفوا ، من الوجهة العرقية جماعات كبيرة متباينة بينها الطوائف المتوسطية والجليليون (القوقاس - والألتاي) والطوائف الشمالية . والاهم من هذا كله ، هو ان الحضارة استطاعت في عهود متباينة بتباين البلدان التي قامت فيها ، ان تتجه اتجاهاً مغايراً للاتجاه الذي سارت فيه حضارة العصر الحجري القديم . ويجب الا يغرب عن البال ان كلا الحضارتين عرفت اتصالات سابقة فقد تعرضت حضارة العصر الحجري القديم لتسربات ومؤثرات طارئة ، كما انها اعطت لدى زوالها الحضارة التي عقيبتها عادات واعرافاً تتعلق بالجنائز والمآتم . ومع ذلك فقد كانت حضارة جديدة لم تلبث ان انتشرت وعم استعمالها .

وهذه الحضارة الجديدة ، عرفت لدى المؤرخين بحضارة العصر الحجري المصقول . فقد لبث الحجر العنصر الرئيسي الذي استمد منه الانسان اجهزته وادواته الضرورية ، الا انه حفر اقصى من الصوان ، آثره الانسان لما فيه من صلابة بعد ان عرف كيف يصقله ويهذب كما يشاء . وقد سجل الانسان مراحل عديدة في تطوره الصاعد ، فقد اصبغ راعياً وتمكن من تدجين بعض الحيوانات ، ولم يلبث ان اقبل على الارض يحرثها ويستنبثها ، فقطع الاحراج وعزف على التربة يستخلصها من الاعشاب المؤذية ، واخذ يتخير بعض فساتل الزرع يستجيد منها الانواع ويستطيب كريم الاصل حتى استقر به المقام ، فتحضر ورأى نفسه مرتبطاً الى حد بعيد بما

لديه من زرع وضرع وبما يحرق من اراضٍ وحقول. واخذ في بناء اكواخ له ومنازل لسكناءه، ثم تألب جماعات ما لبثوا ان ألفوا مجتمعاً يربط بين افراده روابط من العمل المشترك والدفاع المشترك عن سلامة المجموع . واتخذ له من صوف الحيوانات ومن بعض الالياف النباتية ألبسة خاطها ملبساً له استبدل بها جلود الحيوانات التي كان يعول عليها في لباسه من قبل . وعرف كيف يتخذ له مادة مما تقع عليه عينه من معرّش النبات والقصب ومن الدلغان المزوج ليصطنع من هذا كله السلال والخزف .

ثم تعلم كيف يستخدم خامات المعادن كالنحاس والذهب وكيف يستخرجها من مزيج الفلزات ، ثم توصل تدريجياً الى اخلاط كثيرة ، كالخلط بين النحاس والقصدير لاصطناع الشبهان او البرونز . وبعد ذلك نرى الحصان والعجلة والحديد في خدمة الانسان .

كلها خطوات تصاعدية في سلم الحضارة تدعو للاعجاب ، وتشهد من الانسان الرغبة في المزيد . نود ولا شك لو نستطيع تحديد هذه المعالم في مدارج الرقي والتطور والتأريخ لها واقتفاء ما كان لها من اثر بّين ومن شيوع كرّس استعمالها . ولعل اكثر هذه الكشوف واقدامها كلها هي التي طلعت علينا بها مدنيات الشرق الاوسط ، ولا سيما مدنية مصر وبلاد ما بين النهرين ، وهما من اخصب بلاد العالم طراً ومن اكثرها دعة للحياة البشرية . اما الحصان ، فقد وصل اليها من مناطق ابعد وانأى ، اما الحديد فان كان صنعه التقني يعود اصلاً للشرق ، الا ان ندرته في مناطق البحر المتوسط تجعل من العسير جداً تطور هذه الصناعة في تلك المنطقة . فالاكشافان المذكوران يسجلان معاً تطوراً جديداً : هنا معاصراً وهناك لاحقاً . وقد طلعت علينا اقوام جديدة جاءت من الشمال او من الشرق الشمالي : من التركستان والقوقاس والبلقان، تتمثل في غزوات الهند والاوروبيين الذين في غزوات متباعدة متلاحقة ، اخضعوا تبعاً : الهند وايران وآسيا الصغرى واليونان . وقد أخذ الشرق الاوسط يشعر بوطأة هذه الغزوات ابتداءً من سنة ١٤٠٠ حتى اواخر الألف الثاني قبل الميلاد فزعزعت اركان الحضارات التي كانت مزدهرة منذ عهد بعيد ، في هذه الاقطار المحظوظة . اما الغرب الاوروبي ، فقد وصلت اليه صناعة النحاس والشبهان من الجنوب والجنوب الشرقي ، وعرف معها ان ينشئ له حضارات مستقلة قامت على هذه الصنائع . ولم يكن اثر حضارات الشرق الكبرى بلسنح الغرب باستثناء بعض المهارات التقنية . فمن الشرق ، دخلت الغزوات والحضارات اوروبا مارةً بوسط القارة وذلك ابتداءً من الألف الاول قبل الميلاد ، كما يظهر من آثار بلدة هولستات في النمسا ومن آثار بحيرة لا تان في سويسرا وكلها تعود الى عصور ما قبل التاريخ في اوروبا .

غزوات وتهجين
اذا ما اردنا ان نتقصى بالتفصيل معالم هذا التطور الذي رسمنا بايجاز مراحلها الكبرى، كان لا بد لنا من ان نلاحظ هنا هذا العدد العديد من الغزوات التي انقضت على اوروبا من اقاصي آسيا او من سهول اوروبا الشرقية التي تعتبر بحق امتداداً لها

باتجاه الغرب . فلم نعرف غزوة منها نالت من النجاح ما نالته الغزوة التي حدثت في اواخر-الدور الحجري الوسيط المعروف بالعصر الموستري واوائل العصر الحجري الاعلى . وهنالك غزوات اخرى انطلقت في ما بعد متبعة لمرقا اخرى ، فبلغت مشارف البحر الأبيض المتوسط والمحيط الاطلسي معاً . وقد لاقت في سيرها صعوبات كانت تشتد مع مرور الزمن ، إذ وجدت نفسها وجهاً لوجه مع حضارات اكثر تطوراً ، واقوى على المقاومة . غير ان تززع اركان الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث للميلاد ، وانهيار هذه الامبراطورية في ما بعد ، في القرن الخامس ، يدلان على ان ليس ثمة صعوبة لا يمكن التغلب عليها .

ولذا كان لا بد لنا من العودة الى ما قبل التاريخ لنعثر على « عرق » بشري أصيل ، يراد منه فريق كبير من الناس لهم ملاحظهم الخارجية السوية الطابع . ان جيل العصر الموستري هو آخر من يستجمع هذه الصفاتية او من فرض وجودها . وهذا الجيل هو جيل شقيق لانسان العصر النياندرثالي ، باستثناء بعض الفروق النادرة التي تؤلف بمحد ذاتها فوارق ثانوية لا يؤبه لها . ولكن انسان العصر الحجري الاعلى يمثل هو نفسه انساناً هجيناً كما يسميه مرسلين بول . وقد تكاثرت في ما بعد عمليات التهجين او التضالاب ، مع تنالي الغزوات المتعاقبة ، بحيث لم يبق لكلمة « عرق » اذا ما اسقطنا من مدلولها الميزة الخارجية سوى الطابع او النموذج الذي يفرّد الحضارة .

هنا يجب ان نلاحظ ان الانتقال من حضارات ما قبل التاريخ وحدة الحضارات وتنوعها الى الحضارات التاريخية يجعل المدى التاريخي للاخيرة منها يضيق وينكمش . فلم تتكرر ابدأ الوحدة التي ميّزت الدور الموستري المعروف بالعصر الحجري الوسيط ، او طلائع الدور الاعلى للعصر الحجري القديم . وكانت هذه الحضارات اوسع الحضارات التي عرفتھا الانسانية انتشاراً وذيوعاً . فهل من عجب في الأمر وهو واضح كل الوضوح ؟ فالطقس الجليل يحفز للظعن والريادة اناساً مهمم العثور على الاراضي المطيرة ، يكثر فيها القنص والصيد او اقتفاء قطعان الحيوان التي تؤم الحديث من المراعي الخصبة والارض المخضلة . ثم يأخذ الانسان يألف تدريجياً الاستقرار في بقاع ورقاع من الارض تساعد طبيعتها الجغرافية طوائف من الناس على الإقامة فيها ، ولا يلبث بعد ان أمن على سلامته ، ان ينقطع لحراثة الارض وفلاحتها يطلب من خباياها رزقه الحلال .

ومع ذلك ، فقد تطرأ ادوار تسيطر فيها وحدة تعم شطراً كبيراً من الناس ، كما لاحظ ذلك علماء الألسنيّة ولا سما من يعنون منهم باسماء الامكنة الجغرافية . من ابلغ الأمثلة على ذلك ، الاسل اللغوي : « Car » الذي يعني كلمة صخر او حجر . ومن هذا الاصل اشتقت المفردات او الكلمات : *Carpathes , Karawanken , Carso , Crau , garrique* ، وغير ذلك من الاوضاع اللغوية . ومن هذا الأصل الألسني جاءت الكلمة العربية قلعة ، والتركبة كاله

والليتوانية *gala* وكلها تعني في هذه اللغات : القلعة او الحصن . مثل هذه الكلمة وغيرها من المصطلحات اللغوية الاخرى ، مشاع بين بلدان كثيرة ، وكلها دوائر او بقايا لغة تقدمت بكثير اللغة الهندو الاوروبية التي درج استعمالها في هذه الرقعة الجغرافية الممتدة من القوقاس الى جبل طارق فبحر البلطيق . وهنا لا بد لنا من ان نتساءل ما عسى ان تكون هذه الاقوام او الشعوب التي في عهد العصر الحجري الجديد ، او في عهد اسبق واقدام ، تعارفت وتفاهمت فيما بينها بهذه اللغة ، مع العلم ان اسماء الامكنة الجغرافية ومسمياتها تبقى على اللسنة يستعملها الناس ويحرون عليها حتى بعد زوال الحضارات التي مكنت لها في الاستعمال . كذلك نرى مثل هذه المفارقات والمواصفات تظهر في الحضارات التي سبقت الحضارات السلافية في مصر وبلاد ما بين النهرين وبين الحضارات التي ازدهرت فيما بعد حول هارابا وموهنجو - دارو في حوض نهر الهندوس . فالاعتقاد بانها تحدثت من جذع واحد لا يزال منه في جهل مطبق ، ليس بكفر .

وهكذا ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار قديم ظهور الانسان على الارض ، فان الحضارات لم تأخذ بالتنوع والتفرد وبالتالي بالتمركز جنبا الى جنب ، في حيز ضيق الانبعاث تدرجية ، وفي عهد قريب منا جداً . وقد برز هذا التنوع واصبح الطابع المميز لحياة الناس في التاريخ القديم ، ردياً طويلاً من الزمن . وقد كانت هذه الظاهرة امراً لازماً . فمنذ ان اخذت فئات من الاقوام البشرية في الاستقرار والتحضر ، راحت كل فئة تتطور في المحيط الذي ارتضته لها مقراً وفقاً لعوامل زمنية ومكانية ، خضعت لها ، ولؤثرات حسية وخلقية عرفت بها ودرجت عليها . والحق يقال ، ان التفتت الذي ألم بالحضارة الوحداية وتشعبها الى حضارات متعددة ليس إلا النتيجة المنطقية للرقى الذي حققه الانسان ولتطوره الصاعد الذي زاد حياته المادية والعقلية تعقيداً وتشابكاً ، ووفر له اسباب التباين والتغاير والتفرد . فربما برعم لم يثره له عند ظهوره وبروزه كان سبباً في قيام ساحات من الغابات الظليلة والاحراج الغضة .

ليس لعمري من مدنية قامت وعاشت في قوقعة مطبقة لم تتأثر في كثرة او قلة بما تقدمها من الحضارات التي ازدهرت من قبل . وقد يكون خطر لبعض هذه الحضارات مثل هذا الشعور من الاكتفاء الذاتي . من ذلك مثلاً الحضارة الفرعونية القديمة التي لم تستطع ان تحقق مثل هذه المثالية وان كانت أكثر المدينيات اقتراباً منها . فكل هذه الحضارات دونها استثناء عولت على مصنوعات ومحاصيل جاءتها من الخارج . ويعتري المرء الدهشة عندما يرى ، منذ اقدم العصور ، المسافات الطويلة التي كان يقتضيها وصول بعض المواد الأولية . صحيح ان معظم هذه المواد المستوردة كانت خفيفة الحمل والوزن يستعملها الانسان في حليه وزينته لندرتها وغلاء ثمنها . من هذه المواد مثلاً اصداق مقاطعة التورين ، في العصر الحجري القديم الاعلى ، والكهرمان المستورد بعد ذلك بكثير من شواطئ بحر البلطيق ، والحديد الذي اتخذت منه ادوات الصياغة في مصر وبلاد ما بين النهرين . وصناعة البرونز او الشبهان اقتضت كميات وافرة من القصدير جرى شحنها الى بلدان الشرق الادنى واقطاره . فالتبادل التجاري كان سبباً في اقامة اتصالات

مباشرة . والمهم في هذا كله ان هذه المادلات التجارية والاتصالات التي بعثتها وهيأت اسبابها ، تمت واستمرت دون ان تمس ، بشكل محسوس ، اصالة كل هذه الحضارات التي انتظم عقدها واستبطر شأنها . والظاهر هو ان التاجر والبحار في نقلها السلع التجارية ومقايضتها بها ، كانوا اقل اهتماماً بنقل المهارات الفنية والتقنية ، واقل منها ، معاطاةً بالامور الفكرية والروحية . وهنالك امثلة مستمدة من الازمنة التالية للتاريخ القديم ، يمكن ان يستدل بها على أنفعتها من ذلك إذ يفقدان بها سبب وجودهما . فالتبادل انما يعني التباين .

الامبراطوريات القديمة ووحدة الحضارة
هل عاد هذا التجزؤ الحضاري الذي ميز التاريخ القديم بالضرر على غير التجار ؟ فان لم يعاود الناس اخبار تلك الوحدة التي زالت من الوجود بعد ان عجزوا عن الاحتفاظ بذكرها فقد يكون راودهم الشعور بان حضارة مشتركة تتحقق تساعد الجميع على العيش معاً بسلام ؟ قليلة جداً هي الاصوات التي عبرت متأخرة عن هذه الامنية ، وهي امنية كان علينا ان نلتظر طويلاً ظهور من يعبر عنها بجلاء ووضوح كالاسكندر الكبير في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد . والمحاولة القصيرة الامل التي تمت على يدي الفاتح المقدوني لم يقم من يحاولها من جديد رسمياً الا الامبراطورية الرومانية في القرن الثاني للميلاد التي نسجت على هذا المنوال دون ان تعلن عنه او تفصح به .

فالتاريخ القديم يعج بالامبراطوريات ، كما يفيض باخبارها ومصائرهما وارتفاعهما وهبوطهما الى غير ذلك مما يدخل في صميم التطورات السياسية . وكل من هذه الامبراطوريات التي طلعت عبر التاريخ : من مصرية ، واشورية ، وفارسية ، ومقدونية واخيراً رومانية كان يبرز اللاحق منها السابق باتساع الرقعة وضخامة السلطان ، بحيث يدخل في روع المستقرىء ان نقطة الانطلاق اقوى في اللاحق منها في السابق وان الاندفاع كان في كل مرة يقترب اكثر فاكثراً ، من الهدف المشترك الذي وضعه الفاتحون نصب اعينهم ، الا وهو الامبراطورية الشاملة . وكأن بهذا الجهد الموصول لتحقيق هذا الهدف السامي تعبير عن نزعة حاش بها قلب الانسانية الا وهو تحقيق وحدة شاملة ليست جغرافية فحسب بل بشرية ايضاً .

وبالفعل ليس شيء من هذا كله . فمهما كانت العوامل المختلفة المتفاعلة دائماً والمتشابكة ، التي ادت الى ظهور هذه السلطنات الشاسعة المتتالية ، فلا نلمس في أيٍّ منها الرغبة الصادقة في نشر حضارة الفاتح وفرضها على المغلوب ، اذ ان اهتماماً من هذا النوع لا بد ان يتبلور ويبرز باعمال واجراءات موضوعية لا نجد بالفعل شيئاً منها . فالفاتح او الغازي الذي تم له الفتح ، كان يرى في الحضارة التي ادت به الى النصر المبين خير الحضارات وامثلها كما رأى فيها سر تفوقه وتعاليه ، يحرص عليها ويصونها من كل عبث وانفعال ويحتفظ لنفسه بالمنافع الجزيلة التي امنتها له . فلم يحاول يوماً ان يصطنع المغلوب على امره او ان يتمثله او يتقرب منه تحت ستار او مظهر من مظاهر التشبع والدعوة . فالفاتح انما يهيم من الفتح الفوز بالاعداء والاسلاب ، ولذا فلم

تهتم الامبراطوريات التي قامت في التاريخ القديم يوماً بامتلاك القلوب والنفوس .

من الطبيعي جداً ان لا تخلو مساكنة الغالب للمغلوب وتعايشها معاً زمناً طويلاً من تفاعلها معاً وانفعالها بمؤثرات وعوامل مشتركة . فبالرغم من تمسك المصريين مثلاً وتشبثهم بعناد بتقاليدهم الموروثة ، في كلا الوضعين او الحالين ، فقد كانت تظهر عليهم معالم هذا التفاعل المتبادل يحملون اثره ظاهراً . غير ان الحصول على نتائج عميقة محسوسة من جراء هذا التعايش الطارىء فقد كان يقتضي له أمد طویل من الزمن لم يتوفر لكثير من هذه الامبراطوريات التي كانت تتهوى وتنهار سرعاً . واذا اعوز هذه السلطنات الوقت الكافي الذي يتطلبه اي تطور من هذا النوع كانت لا بد للحكومة المركزية ، والحالة هذه ، ان تحاول بنفسها تحقيق هذا التقارب وتستحث منه الخطى بادارة حازمة .

الا ان مثل هذه الفكرة لم تخطر يوماً على بال احد قبل الاسكندر . فمجرد طروئها في ذهنه ومحاولته الصادقة لتحقيقها وتمييزها قولاً وفعلًا ، كل ذلك يضيف على الفاتح المقدوني ميزة خاصة تفرده وتميزه بين كبار الفاتحين . ومن المفيد مع ذلك ان نلاحظ هنا ان هذه الفكرة لم تخطر على بال الفاتح اليوناني في بدء حملته على الفرس بل نشأت عنده إبان الفتح والحملة العسكرية . ولذا جاز لنا ان نعتقد دون ان نشك باخلاصه في ان الفكرة تبذرت له وسيلة من وسائل التغلب على المقاومة العنيدة التي لقيها عند خصمه . الا ان حنق رفاقه وقملهم امام صعوبة المطلب ، وموت الفاتح فجأة كل هذا حد من التجربة وانتقص من امكانيات تنفيذها بالزخم المرتجى والمدى المرغوب .

وقد قام بين خلفائه ، هنا وهناك ، من عاود الكرة ، اما مدفوعاً اليها كرهاً عنه بقوة الاستمرار ، وبالتالي بخشية ولين ، إما بتوعية اكبر وادراك اوسع وب نشاط اوفر وعلى نسبة اكبر ، ولا شك انهم رأوا في الكرة يعاودونها من جديد وسيلة مثلى لترسيخ ما اقاموه من سلطان سياسي وعسكري فعملوا على تدعيمه بملاط الوحدة الروحية .

وها هي رومة تطل اخيراً علينا فتنشئ امبراطورية تمتد اطرافها من الشرق الى الغرب هي اقوى الامبراطوريات التي عرفها التاريخ القديم واوسعها طراً واطولها مدى ، اوشكت تتحقق من ضمنها وحدة الحضارة . ولكن رومة لم تسع الى هذه الوحدة ، بل فرضتها عليها عوامل عديدة ودوافع متنوعة : ادارية وسياسية ، وعسكرية واقتصادية ، حتى ودينية . فالمسؤولون فيها لم يمتنعوا الفكرة ، ولم يماشوها الا متأخرين جداً ، بعد ان اتضح لهم فشل فكرة الامبراطورية . ثم من الجائز ايضاً الافتراض انهم لم يتذوقوا النتائج التي ادت اليها هذه الجهود الفورية اولاً ثم المنهجية . الا انه لا يجوز الانتقاص من اهميتها والخط من شأنها . ولكن ما عسى ان تكون افضت اليه هذه الجهود وهذه النتائج لو لم تستعجل غزوات البرابرة ، مع عوامل اخرى تضافرت وتفاعلت بها ، انهيار مثل هذه الوحدة البشرية الواسعة التي اوشكت ان تتم ؟

لتاريخ الحضارات التي ظهرت في العصور القديمة طابع مؤثر . فقد تفتح من المدينيات
المسكونية البدائية حضارات مختلفة اخذت بالتطور والتكامل الى ان ازدهرت ورالت الواحدة
تلو الاخرى . وقد اسهمت كل منها في نماء التراث البشري المشترك . ومن جهة اخرى
فالحضارات الكبرى التي نشأت واستشرى امرها ضمت في كينونتها ممالك ودولاً تعايشت معاً
وتفاعلت على فترات من تطورها . وهكذا بدا العالم القديم وكأن قوة خفية تحركه وتدفعه من
حيث لا يدري نحو وحدة تتجدد دهرأ بعد دهر . فالحضارات تتعاقب وتتهاوى بعد ان تحاول
كل منها ان ترفع درجة اعلى من سابقتها ، صخرة الوحدة التي آل اليها امرها فترة من الدهر .
ولا تلبث الصخرة ان تهوي الى الارض محطمة كل شيء في انهارها المدوي .



القسم الأول

حضارات الشرق الأدنى والأمبراطورية

في هذه الرقعة الواسعة من الأرض التي يصطلحون اليوم على تسميتها بالشرق الأدنى ، برزت وازدهرت أقدم حضارتين بين الحضارات التي قامت على مقربة من حوض البحر المتوسط . ففي مصر وبلاد ما بين النهرين ظهرت أولى السلطنات العظيمة التي تستأثر باقتبائها للمجهود البشري العظيم الذي بذلته .

والسبب الذي حققه الإنسان في هذه البلدان على أمثاله في العوامل التي ساعدت على هذا النجاح في مصر وما بين النهرين . الاقطار الأخرى إذ كان نهجهم في العيش من قبل نهجاً واحداً سوياً، يجب رده في الدرجة الأولى إلى حلم الطبيعة والاحوال الجوية فيها . فكلتا البلدين يتألف سواده من سهول فساح ووديان ظليلة يؤمن لهما المناخ الحرارة اللازمة كما يردفها بالرفء والخصب انهار غزيرة . وهكذا في قلب منطقة صحراوية جرداء ، بعض فيافيها من اخشن ما قام من أمثالها في الأرض ، توفرت الشروط المؤاتية لبروز واحتين لا أوسع منها ولا اخصب تقع احدهما على شواطئ البحر الأبيض المتوسط كما تطل الثانية على مشارف هذا البحر .

وراح الإنسان في هذه البقاع الباردة يتلمس طريقه وينمي خبراته مكتسباً مهارات جديدة في استثمار هذه الأراضي الخيرة . مهمة ظاهرها هين يسير بينما يخفي الواقع صعوبات كأداء لا تثنين . ففي الحين الذي كان يحاول فيه الإنسان استنباط تكتيكه الزراعي وتحسين عدته وادوات عمله كان عليه ان يهيمن على المياه وان يتفادى منها الطغيان والنقصان ، وان يردأ عنه بخطر المستنقعات وهجوم الصحراء عن طريق اقامة شبكة من اقنية الصرف والترع اللازمة للسقي ليحقق من هذا كله سيطرته الكاملة على الأرض واستثمار خيراتها الطائلة ، على منهجية واصل .

فامام مهمة بهذا الشمول وبمثل هذه الجسامة كان لا بد لمجهود الفرد من ان تصاب بالعجز ويبدو سعيه ومحاولاته بالفشل ، فيقصر عن تحقيق اي شيء نافع له ولغيره من بني جنسه لو لم يتكتل مع غيره وينتظم من جماعات لها كيانه السياسي والاجتماعي ولها القدرة والسلطات الكافية لتنسيق الدروس وتحقيق المشروعات الموضوعية واستثمارها على وجه يعود بالنفع على المجتمع . وبالفعل فقد كان بحاجة ماسة الى زعماء وقادة يتمتعون بالسلطة والاحترام اللازمين .

فضرورة القيام بمثل هذه المهمة السلمية والنفع الذي تعود به على الجميع ليسا من الحقائق التي تبرز للعين بروز واجب الدفاع عن الوطن من اعتداءات المعتدين . ومن جهة اخرى فالحرب

وضع طارئ، وحالة حادثة تمر وتنقضي ، بينما إعداد الأرض للزراعة عملية يجب معاودتها كل سنة وإتيانها من جديد عاماً بعد عام بعد ادخال التحسينات عليها . فلكي يستطيع القادة اصدار الاوامر في هذا المجال وانتزاع الطاعة ، يجب ان يتمتعوا بسلطة قوية تنطلق من مجموعة من التعاليم والعقائد الدينية التي تحتم على الانسان الطاعة التامة والخضوع الكامل والتسليم المطلق ، ان لم يكن تفاني الفرد المطلق وانسكابه في مجهود مشترك نظم .

هنالك ثلاثة عوامل تضافرت وتفاعلت معاً فأدت الى هذا النجاح ، هي :
سر هذا النجاح الظروف الطبيعية المؤاتية في خدمة ادارة جماعية يشدها الى الدين روابط وثيقة متينة . ولكن كيف تم للعاملين الانسانيين الاخيرين الظهور وكيف تم لهما مثل هذا الانتشار والشيوع واكتسبا مثل هذا الحول والطول ؟ هنا السر الكامن الذي لا يمكن ادراكه والنفوذ اليه ، اذ ان نشأة الدين وطلوع الفكرة الدينية ، لا يأتلان بشيء مع التسليم بفكرة المنفعة المادية . والاخذ بهذا التسليم يعجز عن تبرير هذا الرضوخ المستمر ، من قبل جماعات تعمل تحت الاكراه والضغط .

ومما يزيد هذا السر اغلاقاً واطباقاً ، وبالتالي اثرأ في النفس هو اننا امام ظاهرتين لا ظاهرة واحدة وامام نشأة حضارتين متعاصرتين تقريباً . فالحضارة المصرية وأختها الحضارة البابلية نفسها، شارفتا على التام وتمت لهما الخصائص المفردة ، بضعة قرون قبل اواخر الالف الرابع قبل الميلاد اي حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م ، بحيث يستحيل على المؤرخ اليوم ان يقطع في من منها سبق الاخرى للظهور .

ولو فرضنا وقام دليل قاطع على اسبقية احدهما للآخرى ، تعذر القطع ايضاً على الباحث في من منها تأثر بالآخرى ونهج نهجها واحتذى حذوها . فبين الحضارتين اكثر من خاصة واكثر من ميزة مشتركة . ولكن ، في النظام العقائدي الذي ارتضته كل منهما ، وفي الانظمة السياسية الاجتماعية التي عملتا بها ، قامت مفارقات اساسية جذرية تجلت كذلك في العلاقات التي شددت الدين الى السلطة الشرعية . والنتائج العملية التي أدت اليها المناهج والاساليب التقنية التي استخدمت هنا وهناك في استثمار الأرض ، هي متشابهة ان لم نقل واحدة . ولكن اذا ما نظرنا الى مظاهر الحياة الاقتصادية نفسها رأيناها تتلبس اشكالاً والواناً هي في مصر غيرها في بلاد ما بين النهرين . فنحن امام حضارتين اصيلتين نشأتا الواحدة بمعزل عن الاخرى ، ودون نقل او نسخ الواحدة منها للآخرى ، مع بعض اقتباسات طفيفة . ولكل من هاتين الحضارتين فجرها الخاص وضحاها المميز ، وكلاهما يستدعي تبني مئات الألوف من الناس واقتباسهم لمجموعة من العقائد والمذاهب ، ذات فعالية مدهشة كان اثرها قبل التجربة غامضاً مجهولاً ، يصعب تحديده او تبيانها ، صحت اساساً وطيداً لهذه الحضارة ، ونقطة انطلاق لها نحو الظهور قالهجلي فالازدهار .

اهلية الشرق الادنى للسيطرة والسؤدد

وهذه الحضارات الفرعونية والبابلية التي يكتنف الغموض نشأتها المبكرة ويلفّ كينونتها لفاً ، عرفت ، بما تمّ لها من موارد طبيعية هائلة ورفد كريم ، وبما امتازت به في الداخل من تماسك وتراصٍ زادت بها النجاحات التي سجلتها والتفوق الذي حققته قوة ومتانة ، ان تكفل للشعوب التي قامت عليها ونهضت بها ، تفوقاً ساحقاً على ما حولها من امم مجاورة وطوائف دارت في فلكها . فقد تم لذين القطرين منذ الفجر الباكر وسائل ساعدتها على الفتوحات العريضة وبسط سيطرتها بعيداً .

وهذا السلطان جاء استعماله واستخدامه عندهما على غير استواء . فالحاجة للمزيد من الطمأنينة عن طريق تدوين المزيد من الشعوب المجاورة ، الفينة بعد الفينة كانت اكثر غيباً لدى المصريين منها لدى البابليين . وهكذا يبدو لنا ، بعيداً عن كل نظرة سيكولوجية ، ان « شهادة السيطرة » التي وُصِّت بها هذه الحضارات ، لا تلازم تاريخ مصر الفرعونية بصورة مستمرة . ومع ذلك فقد اضطرت مصر ، بدافع من موقعها الجغرافي ، لتحقيق وحدتها في الداخل ولمراقبة الصحاري المحيطة بها من الشرق والغرب ، على السواء تفادياً للمفاجآت المزعجة ومنعاً لكل طارق طارئ ، بحيث تستطيع الانصراف للاستمتاع بدعة الوادي وبخيرات الوافرة . ومهما يكن ، فقد اضطرتها ظروفها الخاصة ووضعها الجغرافي لان تصبح وتبقى دوماً ، من الوجهة الجغرافية والاسكانية ، دولة كبيرة واحدة موحدة ، بالرغم مما تم لها من صروف وظروف .

فالشرق الادنى ميزة خاصة لا يشاركه بها قطر من اقطار حوض البحر المتوسط ، وهي ان حدوث الحضارات الكبرى لا يلبث ان يعقبه ، بعد فترة قصيرة ، طلوع امبراطوريات عريضة . فاذا ما نظرنا الى هاتين الميزتين مستقلتين او في إطار التاريخ العام ، رأينا ان ليس بينهما شيء من الترابط والتداعي ، اذ اننا نلاحظ في غير مكان ، او في ازمة تاريخية اخرى ، طلوع حضارات ضخمة تزدهر ، بالرغم مما يتخللها من انقسامات سياسية . وعلى عكس ذلك تماماً ، هنالك امبراطوريات واسعة تقوم وتستمر في الوجود بالرغم مما هي عليه من تخلف في تطورها . فهذا التوافق والتزامن الزماني يبقى ابداً من مواصفات الشرق الادنى المميزة .

وهذا التوافق ليس حدثاً عارضاً ، بل جاء نتيجة منطقية . ففي هذه الحقب الموعلة في التاريخ ، جاء مجهود السكان المشترك ، في حقل الحضارة والتكوينات الجغرافية ، سبباً وعلّة في آن واحد . ومن جهة أخرى ، عندما تأخذ شمس هذه الحضارات والامبراطوريات بالغروب تترك وراءها شيئاً مما كان في الاصل ضرورة عضوية لها .

فالشرق الادنى عرف ان يحافظ ، مع توالي الاجيال ومرار القرون ، على قسبات صورته الاولى . ومن جهة ثانية ، نرى الانطلاق الحر للفرد امراً عسيراً . فمن وجهة عدد السكان الاجمالي او من جهة كثافة السكان ، لم يكن لوحدة الدولة ، من الناحية المادية كبير اهمية . كذلك امر

الفرد من الناحية الادبية ، اذ كثيراً ما كان يضيع بين غمر الجماهير . وكل شيء يشير الى ان الضغط الذي كانت الجماهير تحدثه من الخارج ، كان اكثر من كافٍ ليعيق انفتاح الشخصية وبرزها . من العسير ان نتصور كيف لا يؤول التجنيد في سبيل نفع مشترك كالشغل والحرب ذباً عن الوطن الى التجنيد العقلي والادبي معاً . ومن جهة اخرى ، كانت هذه المنطقة منطقة الشرق الادنى ، ابدأ ودوماً الارض المختارة او الارض المدعوة لاطلاع الممالك الكبيرة . يبدو ان قادة هذه الشعوب لم يستطيعوا مقاومة ما للافق المديد من سحر وفتنة ، فوقعوا تحت تأثير هذه الآفاق صرعى اغرائها وفعلها الاختاذ ، وقاموا يذرعون مشارق الارض ومغاربها طولاً وعرضاً ، ويقطعون مضائق البحار وبرازخها ، تحقيقاً منهم لحلم راودهم بفتح مابين . وهكذا نرى الامبراطورية الايرانية التي آلت اليها تركة امبراطوريات بابل ومصر ، تحاول بدورها بلوغ ما لم تبلغه سابقتها من قبل .

وهكذا نرى الحضارات الامبراطورية الكبرى الثلاث : الفرعونية والبابلية والايرانية التي توارثت الشرق تباعاً ، قديماً ، تنتصب ، بما لها وفيها من نزعات عريقة اصيلة ، وجهاً لوجه امام مدنيات دقت رقعتها الجغرافية وتواصفت خططها السياسية . وهكذا نرى ثلاث مدنيات كبرى تبسط سرادقها على الملايين من البشر تنتصب وجهاً لوجه امام مدنيات تركت للجهد الفردي حرية اكبر واوسع . ففي الصورة الكبيرة التي رسمنا ، كما هي الحال في كل صورة مكبرة ، لا بد من التحفظ في ما تبدى عليها من فوارق . الا انها في جملتها وفي خططها الكبرى تبدي الواقع المجرد .

الكتاب الأول

الحضارة المصرية

ودون ان نقطع في امر اقدم الحضارات واسبقها في الترتيب الزمني ، لنبدأ بمصر .

مدى الحضارة المصرية واستمرارها
الحضارة الفرعونية التي زهت وازدهرت في مصر منذ اواسط الألف الثالث قبل الميلاد عمرت نحواً من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة . ففي عهد الامبراطورية الرومانية كان القوم يقدمون لآلهة مصر العبادة التي نهجوا عليها وفقاً للمراسيم التقليدية المتعارفة ، ويبنون لهم الهيكل وينقشون على جدرانها رسوم الطقوس الدينية بالخط الهيروغليفي . ولم تتلاش ديانة مصر القديمة وتنسخ مناسكها ومراسمها الا مع ظهور المسيحية وغلبتها في نهاية الأمر وسيطرتها على اطراف البلاد ، بعد ان عرفت كيف تحافظ على نفسها سليمة وتحفظ بحيويتها بالرغم من وقوع مصر تحت سيطرة الفاتحين الاجانب كالليبيين والاثيوبيين ، والاشوريين والفرس والمقدونيين . فاذا كان الاولون منهم اعتنقوا الديانة المصرية وتبنوها ، فالباقيون ادخلوا معهم آلهتهم الوطنية لاستعمالهم الخاص . اما الاهلون فقد احتفظوا بآلهة جدودهم القدامى واحاطوا بعضها بمظاهر التكريم وبالغوا في السير على مناسك عبادتها . فالانسان لا يعرف حضارة من حضارات التاريخ القديم عمرت ما عمرت الحضارة الفرعونية ، وبرهنت عن عراقة ورسوخ لا مثيل لها قط .

وغني عن القول ان الاستمرار لا يعني عدم التبدل . ففي مثل هذه الحقبة المديدة التي استطالت لها الحضارة المصرية القديمة ، عرفت مصر اكثر من تبدل وتغير وتطور في جميع نواحي الحياة وفي كافة المجالات . والديانة نفسها التي يعني مدلولها المحافظة تقدم الدليل على ما نقول ، ناهيك عن التطورات المديدة والعميقة معاً التي أملت بالحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد ، ولا سيما في العهود التي وقعت مصر فيها تحت سيطرة الاجنبي .

كذلك ، غني عن القول ، ان مصر ، خلال الخمسة والثلاثين قرناً التي استطالت لها الحضارة الفرعونية ، لم تحافظ على مستوى واحد من الحيوية والنشاط . فقد مرت بها عهود ازدهار وتوسع واشعاع كما عرفت عهوداً اخرى من الانحطاط والخسف والسبات العميق . فقد تعاقب على

الوادي ، منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، ثلاث امبراطوريات ، من الاسرتين الثالثة والرابعة - اي من بناء الاهرام - حتى اواخر القرن الثالث عشر قبل المسيح ، تاريخ زوال السلالة التاسعة عشرة التي ينتمي اليها رعمسيس الثاني . وبعد ذلك في القرنين السابع والثامن ، اي بين ذهاب سيادة آشور . والفتح الفارسي ، عاد الى مصر شيء من حيويتها مع اسرة سايس . فاذا شئنا ان نرسم للحضارة المصرية رسماً بيانياً لم يتبع الرسم خطأ منحنيّاً ، مديد الطول مع مدى الأزمنة التي استطالت لها هذه الحضارة ، بل سار متعرجاً ومتكسراً بين هبوط عظيم وارتفاع شاق .

فالحديث ، والحالة هذه عن حضارة مصرية « واحدة » ووضع صورة بيانية عامة لها عملية رهان ومجازفة ، ولكن المحاولة لها ما يبررها في ما اعتقد به المصريون واستقر في اذهانهم وما جاهروا به عالياً من ان حضارتهم حضارة استمرت دونما انقطاع .

اذا تبينا عند شعوب كثيرة الاعتقاد بعصر ذهبي ، وبوضع مثالي تحقق في الماضي الاسطوري ، فمن النادر جداً ان تتخذ هذه الشعوب ، من هذا العصر المثالي قسطاساً تنهج عليه وهدياً تأتم به . ولا يولي الظهر للتطور عن قصد ، لما يتبينون فيه من مفسدة ، الا قوم لفتهم العقيدة الدينية لفاً فتلبسوها وراحوا يستلهمونها في كل تصرفاتهم وافكارهم . فقد هالهم التفاوت بين الأمل الذي عقدوه على نعم الالهة وعللوا النفس بها وبين البؤس الحقيق بالناس فراخوا يعللونه بالخروج على التعاليم الالهية ، ويردونه لما كان عليه الجدود من جحود لنعم الالهة ومن جهل وجهالة فنالوا حزاء عملهم ما يتضرسون به اليوم من شقاء بعد ان فقدوا النعم والخيرات التي كانت لهؤلاء الجدود من قبل . ويبدو ان المصريين كانوا من هذا النوع من الناس . فمع انهم كانوا يقولون بالتمسك بالقديم والحفاظ عليه ، لم تبق ارادتهم جامدة . صحيح انهم لم يكونوا من المستسلمين للكآبة والقنوط ، فقد حملهم ما عرفوا به من اندفاع طبيعي ، على إحياء الماضي الجيد مع تحسره عليه وتحرقهم اليه . فالشعب ، في مجموعه لم يعمر قلبه بفكرة الرقي الذين كان في مكنة المستقبل ان يحملها لهم . فقد اعوزهم ، ولا شك في ذلك ، الخيال المجنح المطمئن الذي يستطيع وحده ان يستجليه . كانت نفوسهم تهفو الى ماضي اسئل كانوا عليه ، انما قضى ومضى وزال ؛ الا انه يمكن لهم ويتحتم عليهم استعادته وحيأؤه . ولذا حاولنا على شاكلتهم استحضار هذا الماضي وتفهمه وتكوين صورة مثالية لهذه الحضارة الباهرة .

وحدة وفوضى « مصر هبة النيل » كلمة مأثورة طالمما نسبها الناس الى هيرودوتس المؤرخ اليوناني المشهور . والصحيح كما يصرح به هيرودوتس نفسه ان هذا القول نقله هو عن اسلافه الاغريق ولا سيما عن هيكاتيه الميلي ، احد مؤرخي اليونان ورحالتهم المشهورين في اواخر القرن السادس ومطلع القرن الخامس قبل الميلاد . وكان اليونان يطلقون القول على دلتا النيل وحدها بينما وجد هيرودوتس ان القول يجب اطلاقه على مصر كلها .

وبالفعل ، قللنا من الامة الطاغية على تكوين مصر وعلى تطورها عبر التاريخ ما لا يمكن فكرانه ولا يصح تجاهله ، ولا يحتاج بالتالي الى دليل يحتج به . فالحياة في مصر ترتبط في جميع مظاهرها ونواحيها البشرية والحيوانية والنباتية بالنيل وبما يردف به مصر ، في ابان الفيضان من ماء وفير وظمي يكسبها الخيرات والبركات الطائلة ، وهو فيضان يقع في فصل القيظ ، اي من حزيران الى تشرين الاول فتكون معجزة الماء احدى عجائب الخلق في هذا البلد . فمصر هي ، قبل كل شيء آخر ، النيل نفسه الذي يؤلف بواديه الطويل شريطاً اخضر كان ، منذ القدم ، امثلاً وسيلة للمواصلات ، يفيض الرفء على ما حول ضفافه من الاراضي الخضراء فتكتسي حلة سندسية . ولا تتجاوز هذه الاراضي ثلاثين الف كيلومتر مربع مساحة — اي ما يوازي مساحة بلجيكا مثلاً ، والف كيلومتر طولاً خطاً مستقيماً ، اي ما يوازي المسافة بين دنكرك في شمالي فرنسا وبرينيان في جنوبها ، او اطول من ذلك بكثير ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار عطفات النهر وتعاريجها اذ ان سيره ومجراه ليس بالسير السوي القويم .

ولذا كان لا بد من وحدة للوادي ، يستطيع معها الانسان مراقبة ارتفاع مياه النهر ابان الفيضان وتنظيم عملية صرفها وتقنياتها ، وهي وحدة سريعة العطب ، سريعة الزوال اذا لم تتمكن الادارة المركزية من التغلب على عقبة المسافات والابعاد التي كانت تعترضها . والمقاطعة او المتصرفية التي نشأت حول التجمعات البشرية التي قامت على جنبات الوادي كانت تضيي على الحياة اطاراً طبيعياً . ويجب ان ننوه هنا ، ولو من طرف خفي ، بالتضاد او المنافسة القائمة بين الوادي او مصر العليا التي لم يكن عرضها ليتجاوز عشرة كيلومترات ، وبين الدلتا او مصر السفلى التي تألفت من مثلث طول ضلعه ٢٠٠ كيلومتر تقريباً حيث كانت المياه الجارية منها والراكدة تتشعب الى اقنية وترع متعددة ، فتحدث البحيرات والفيضات والاجات الغضبية التي كثيراً ما اعتصم فيها المتمردون والخارجون على القانون والشرعية ، هرباً من وجه العدالة . وبفضل اتصال الدلتا بالبحر تم لهذه المنطقة وسائل وخدمات تجارية لم تعرف مثلها مصر العليا او الصعيد ، فقامت في الدلتا مدن عديدة كان لها من الامة التجارية ما لم يترفر بعضه لمدن الصعيد ، وقام لها من المشاغل والمصالح الخاصة ما تعارض مع مصالح الريف في الوادي .

ويتوجب علينا ان نشير هنا الى عامل آخر ، عمل فعله باستمرار منذ القدم الى جانب عامل الوحدة ، الا وهو وجود قوى مركزية دافعة ، استطاعت اكثر من مرة تحقيق اهدافها معتمدة في ذلك اما على نفسها او على مساعدات الاجنبي وأثره الهدام على البلاد من الداخل . غير ان الشعور المرير بفقدان الوحدة لا يلبث ان يشتد عند مرأى المصائب والاحن التي كانت تنزل بالبلاد ، فتحول دون استثمار الارض الاستثمار المرغوب فيه كما كانت تسيء الى الاهلين في سيرتهم المألوفة والعيش الذي افوا نهجه . ناهيك عن انها كانت تضعف الموارد التي تنهض عليها معالم

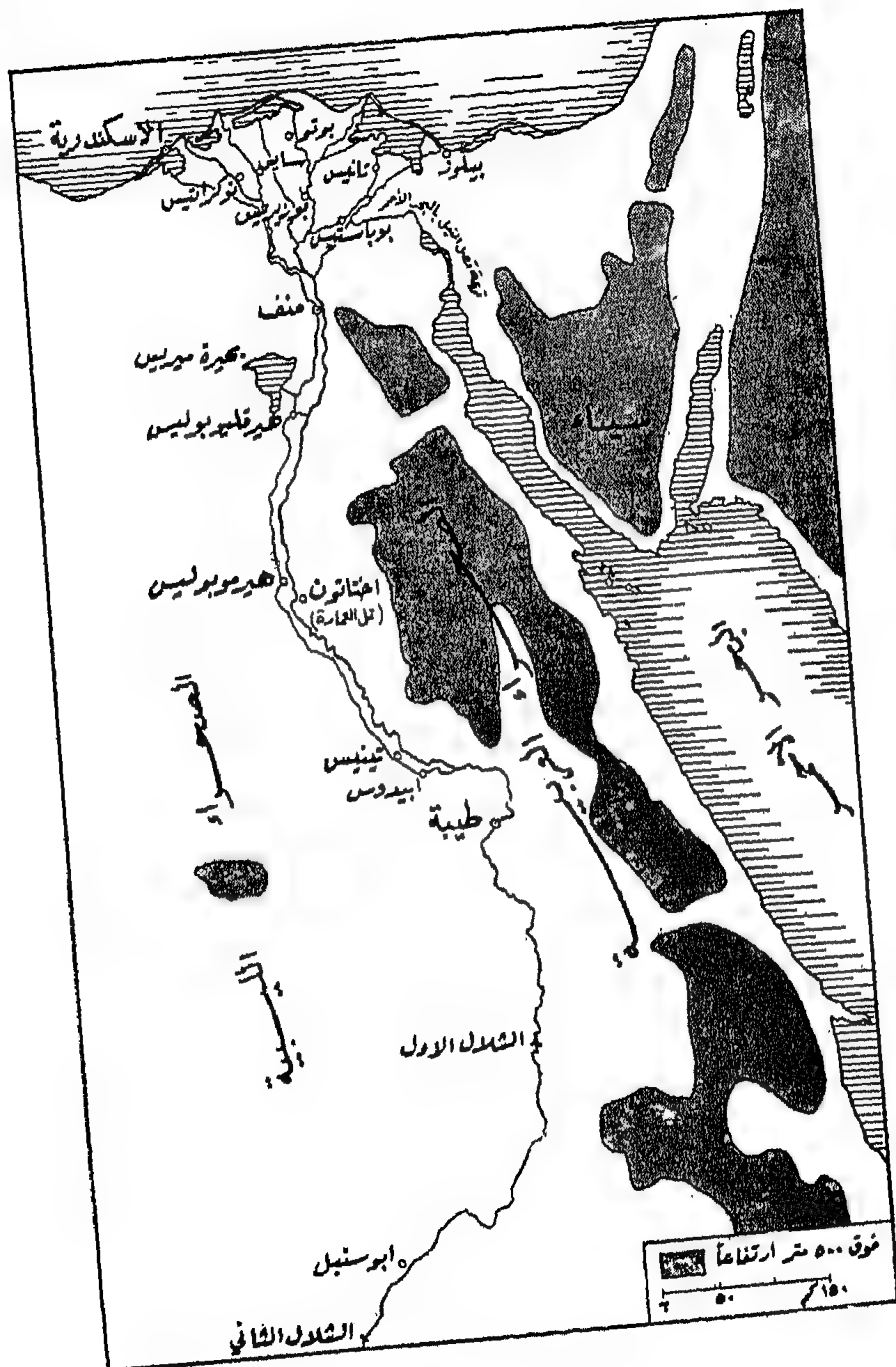
الحياة الدينية التقليدية . وهكذا ندرك حق الادراك كيف ان الشعور بالاسف كان يغمر البلاد في تلك الازمنة التي كان يضطرب فيها جبل الأمن في الداخل ، فتعاود الناس ذكرى تلك الايام الحلوة وعمود الرخاء التي كانت فيها البحبوحة والرفاهية يخيمان فيها على مرافق البلاد كافة . وهكذا نجد ان التعلق بالماضي والحنين الى أيامه الحلوة ، هذا الماضي الذي عرف الوحدة وحضنها وحافظ عليها كان الدافع اليه المصلحة العامة المشتركة .

عزلة وأصاله
كره المصريين للجديد له ما يبرره العزلة التي نعموا بها . فما من حضارة توفرت لها ظروف البروز والازدهار والبقاء بنأى عن المؤثرات الاجنبية كأنها في وعاء مغلق ، كالحضارة المصرية .

كانت مصر بفضل موقعها الجغرافي الممتاز ، اقل دولة تعرضاً للخطر من الخارج ، وهي ميزة تستلقت النظر والانتباه ، اذ ان الازدهار الذي نعمت به من شأنه أن يثير أطماع الراغبين وجشعهم . اما حدودها فكانت ، أقل ما يمكن ان يتصوره انسان لحدود طبيعية . فقد كانت الشلالات في الجنوب معاقل في وجه الغزاة يرومونها من هذه الناحية . والصحارى المحيطة بالوادي من الشرق والغرب على السواء كانت تؤلف سدوداً منيعه لا ترام ، كما أن حدودها البحرية كانت هي الاخرى ضيقة محدودة . والى هذا ، لم يحتم على حدود مصر ، عدو شديد الشكيمة ، يتهددها باستمرار . ولا يعني هذا الوضع المحيز ان مصر نعمت باستمرار براحة البال لم يساورها القلق على سلامتها ومصيرها . فباستثناء الصحارى العربية والليبية القاحلة الجذباء التي عزلتها من الشرق والغرب والتي كانت على الاجمال خالية من السكان ، كان لا بد لمصر من قوة بوليسية دوماً متيقظة للعمل والتدخل عندما تدعو الحاجة . وكثيراً ما اضطرتها الظروف ودعتها للمقاومة والجهاد المرير في جنوبي الدلتا وشماليها ، ولا سيما الى الشمال الشرقي ، إذ يشدها الى القارة الاسيوية برزخ ضيق . فحاربت واستماتت دفاعاً عن سلامتها او استخلاصها لارضيتها من مغتصب مستبد . وهذه المخاطر التي استهدفت لها من الخارج في العهود المتأخرة من تاريخها المديد ، لم تسبب لها قبل مطلع الألف الأول قبل الميلاد ، سوى أزمات ونكسات عابرة . وليس في تاريخها الطويل ما يصح مقارنته او معارضته بهذه الحروب الاكول المنهكة التي اضطرت لحوض غمارها شعوب اخرى ذوداً عن أوطانها وذباً عن حياضها .

فالتلاحم في ساحات الوغى كثيراً ما أدى بالمدينيات القائمة وجهاً لوجه للاحتكاك والتصادم ، الا أن الحضارة المصرية قلما تعرضت لمثل هذه الامور في تاريخها السحيق . وهكذا استطاعت هذه الحضارة ، أن تحافظ على أصالتها ، بإيسر مما استطاعته أية حضارة اخرى . وكان من أثر هذا كله على المصريين ، ان حرك فيهم كغيرهم من الشعوب الاخرى ، الشعور بالفخر والمباهاة ، وهو شعور أشد عندهم وأقوى منه عند الغير ، كما نلاحظ ذلك من كلام كهنتهم لبعض الرحالة اليونان عندما خاطبهم قائلين : « انتم اليونان لستم سوى اولاد صغار » . وعندما بلغ تحوتس بحافله الحرارة ، شواطئ الفرات ، في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، قام في مصر من

ينشقد هذا التوسع ويشجبه ، اذ رأى فيه مسأ بنقاء الحضارة المصرية .
فاذا كان هناك من حضارة تستدعي عرضاً عاماً لمدينتها لجلو وجوه التطور الذي عرفته
خلال تاريخها المديد ، فهي لعمرى الحضارة المصرية .



الشكل ١ - مصر

الفصل الأول

النظم السياسية

الحضارة المصرية والملكية ، هما واحد ، في المجال السياسي . فمصر تفقد معناها وتخرج عن ذاتها عندما لا يتولى الحكم فيها فرعون قوي الشكيمة . فالضعف ينزل بالسلطان في مصر الفرعونية ، انما يعني ، في نظر المصريين الهوان فالفوضى تعم البلاد ، فالغزو من الخارج يقوم به الطامعون بخيراتها لا يلبثون ان يتزوا بزوي الفراعنة ، اجتذاباً لرعاياهم .

١ - الملك

الملك محور الوحدة وخالقها يعزو المصريون الى ملكهم الاول مينس مؤسس الاسرة الاولى ، تنظيم البلاد على اساس توحيدها . فالملكية في نظرهم ، بدء تاريخ الانسان في البلاد . وقد جعلوا من نقطة الانطلاق هذه حدثاً الهياً دبرته الآلهة وهيأت له الاسباب ، وسخرت في سبيل تحقيقه مينس وجعلت منه خلفاً مباشراً للارواح انصاف الآلهة الذين شدوا منه الازر . وقد وقع هذا الحدث التاريخي في نظرهم في الحين الذي برزت فيه الاكتشافات البشرية الاولى التي تعد من اركان حضارة الانسان : كالكتابة ، والفن واختراع فنون الزراعة والصناعة .

ويأبى علم الآثار التسليم بهذه الاحكام ، اذ لديه الدليل القاطع على المحاولات الاولى التي اخذ الانسان فيها يتلمس طريقه نحو التقدم والارتقاء ، كما عندها الدليل على المراحل التي مر بها بين صعود وهبوط وارتفاع ونزول استغرقت وقتاً طويلاً من الحضارة . كل هذا من شأنه ان يضفي اهمية خاصة على تحقيق الملكية بعد ان عرفت في البلاد ، ولادة صعبة ، بطيئة ، اذ كان عليها ان تتغلب تباعاً على النزعات المحلية الممثلة في الاربعين « حاكمية » وعلى الازدواجية او الثنائية التي قسمت مصر الى منطقتين متباينتين من الوجهة الطبيعية : الدلتا والوادي ، او مصر العليا ومصر السفلى ، متعادلتين تقريباً بمواردهما المادية والبشرية .

والحقبة التي مرت على المملكتين تركت اثرها بارزاً في خطط المملكة الموحدة ، اذ عرفت البلاد مدة طويلة ادارتين مختلفتين ، وسلسلتين او دورتين من الالقاب المتوازية ، وبيتين للمال او خزينتين ، اقله من الوجهة الرسمية . وهذه المراسم التي لم يكن بدّ منها في بادىء الامر لم تلبث ان زالت وتوارت بينما بقيت حية الرموز والشارات المميزة للملكية والتي كرستها التقاليد الخاصة بتكريس الملوك وتتويجهم . ولعل ابرز هذه الرموز طراً التاج الذي كان يتألف من تاجين مزدوجين ، اشارةً للملكتين اللتين اندجتا وذابتا في مملكة واحدة ، يتوج به الفراعنة في الحفلات الرسمية ، يعلوه تاج الجنوب الابيض المستدير الشكل من اعلاه ، مرتكزاً على قبعة الشمال الحمراء يعلوها من وراء سيخ عمودين تزيينه من الامام ريشة لولبية الشكل . ومن القاب الملك الكبرى : « رب التاجين » وهو لقب يولي صاحبه صفة خاصة اذ ان للتاجين صفة التأليه ، ولهما بالتالي المرتبة الثانية بين مراتب المراسم والتشريفات . وتنتهي الى الذوبان والانصهار في الذات الملكية هذه الازدواجية الممثلة بهذه الانشطة الملتفة حول عمود العرش وهي أنشطة تتألف من البردي ، وهو من منابت الغياض في الشمال ، ومن زهرة البشتين او اللوتس رمز الجنوب ، ومن الشارة البارزة في التاج الملوكي والتي ترمز الى الشمال والجنوب معاً: النحلة والشعبان اللولبي الشكل من جهة ، والقصب والنسر من جهة اخرى .

اختيار العاصمة منف وأثر ذلك
لا شك ان الملك مينس ، طلع من الجنوب ، من الصعيد ، اذ ان تاريخ مصر الرسمي يرجع السلالتين المصريتين الاولى والثانية ، الى مدينة قديمة من مدن الصعيد هي مدينة تينيس اتخذها ملوك الاسرتين المذكورتين عاصمةً لملكهم ، فاستحقوا بذلك ان يوصفوا بالاسر الثانية . وقد وقع اختياره على نقطة تقع الى الجنوب من الدلتا ، على بعد يسير من الرقعة التي تقوم عليها مدينة القاهرة اليوم . في هذا المكان ، تأسست منذ السلالة الاولى ، قبل إنشاء مدينة منف التي برزت بعد ذلك بقليل ، قلعة تعرف « بالجدار الابيض » وهي بمثابة حصن منيع يتحكم بطريق الوادي ويهيمن عليه ، كما كان يشتمل على قصر ملوكي تقام فيه حفلات التتويج .

والمكان الذي وقع عليه الاختيار نزولاً عند مقتضيات الجغرافية والحفاظ على التوازن بين الشطرين الشمالي والجنوبي ، كان يستجيب تماماً لاهداف الملكية الاتحادية ومتطلباتها التي طالما شبهوها مجازاً ببليضة القبان او ميزان المنطقتين . وقد قررت السلالة الثالثة نقل المقر الملكي الى هذا المكان وجعله بالتالي مركزاً للحكم والادارة العامة ، وعلى ذلك سارت الاسر الفرعونية التالية حتى الثامنة منها، ولهذا استحققت ان تلقب بالاسر « المنفية » نسبة الى منف ، بينما تعرف اسر الامبراطورية الوسطى والحديثة بالاسر « الطيبة » لان ملوكها الاول طلعوا من طيبة في مصر العليا او الصعيد ، وكان هؤلاء الملوك ابناء اله هذه المدينة « أمون » الاله الملكي الاعظم ، وهكذا اصبحت طيبة المدينة العاصمة . وبعد ذلك بكثير قامت سايس في الدلتا ، ثم الاسكندرية خارج الدلتا او على مقربة من مصر ، كما ورد وصفها في النصوص الرسمية .

وفي العصر اليوناني نفسه ، اي في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، كانت مراسم التتويج لا تجري الا في مدينة منف ، وهو تقليد 'عمل به باستمرار لما كان يمر اليه من اتحاد شطري البلاد في شخص الملك الواحد الوحيد .

الملك الاله كان الملك في مصر ، منذ بدء الملكية فيها ، الها ، ولكن ليس بصورة رمزية او مجازية للتدليل على سلطته المطلقة وتساميه فوق العامة بل على عكس ذلك تماماً ، فالنص الحرفي انما ينم على هذه العقيدة التي تكون احدى مميزات مصر الفرعونية . وهي عقيدة تطورت بالطبع على مر السنين والاجيال الا انها لم تفقد شيئاً من قوتها وفعاليتها .

فالملك هو قبل كل شيء « هوروس » الاله النسر او الاله الشمس ، ابن اوزيريس . وتحت تأثير عبادة الاله رع ، اله الشمس الاكبر في هليوبوليس بالقرب من مدينة منف ، مركز الثقل في الامبراطورية المصرية القديمة ، يصير هوروس تابعاً لرع ، والملك يصبح بالتالي : هوروس - رع او بالاحرى رع - هوروس ، ثم فيما بعد ابن رع . ولم تلبث هذه البنية ان رمز اليها منذ الباكر بصورة حسية ، ظهرت على اتمها وباهية وحلال في عهد الامبراطورية الحديثة عندما اصبح امون طيبة الاله رع ، وذلك لاسباب ودوافع سلاسية ، واستحال بالتالي الاله امون رع . وعوضاً من ان يكتفى بوصف هذا كله شفويّاً اي بالكلام ، راح المصريون يرسمون هذا كله على جدران الهياكل ، فيصورون الاتحاد الحسي بين امون والملكة كما راحوا يصورون حسيّاً العون يسديه الاله والآلهة التوابع للطفل عند ولادته وفي تربيته . وهي تقاليد بقيت حية ، قوية ، ثابتة ثبات الحضارة الفرعونية نفسها .

ففرعون الاله في الحياة ، يبقى الهاً بعد الوفاة . فهو الاول بين المصريين وبالتالي يستحق مناسك العبادة والتكريم المتوجب للملك المتوفي باعتباره اوزيريس ، اذ قام على الارض من محل محل ابنه هوروس . فمن المطلق والطبيعي ، والحالة هذه ، ان يصبح اباه الالهي . والتعاليم الدينية التي سيطرت على هليوبوليس لم تغير شيئاً من طبيعة الاعتقاد الذي لا يتفق ، حسب منطقنا ، مع العقيدة التي تجعل من الملك ابناً للاله رع ، الا ان الديانة المصرية لم تبال كثيراً بهذه المتناقضات . ولما كان اوزيريس ملك الاموات كان لا بد للفرعون الراحل ان يتسم بهذه الصفة الملازمة للملكية . وهكذا حق لرعمسيس الثاني ان يخاطب اباه قائلاً : « انت في مسكن الراحة في الدار السفلى مع اوزيريس ، بينما انا أتألق هنا امام الشعب بصحبة رع ، متربعا على عرشي مثل هوروس » .

وهذا التأليه في الدارين ، الفانية والباقية ، ليس من نزوات ملك عاتٍ مستبد اوجب على رعاياه الخانعين الاخذ به . فهو ينبثق رأساً ويصدر عن الايمان الوطيد ، بانه اله واله عظيم دوماً على اتصال مباشر وثيق بالآلهة الكبار ، له القدرة على الطبيعة يصرفها في الوجه الحسي النافع .

فالملك ، كما يقول احد الوزراء الذين عملوا في عهد الامبراطورية الحديثة ، « اله اعماله تساعده على الحياة » . أفليس له الفضل في إخصاب المواسم وازدهارها واقبالها ، لانه اله النيل ، مصدر كل ازدهار . واسمع ما يقوله هنا أحد الفراعنة المتوفين : « كنت ملكاً أو من طلوع الشعير » . وعندما يعتلي فرعون العرش ، كان على الناس ان يفرحوا ويبتهجوا لأن أحد الارباب اقيم رئيساً على كل البلاد ... والمياه ترتفع ولا يهبط منسوبها ، والنيل المياه الخيرة المدارة ... والحياة نهب بين ضحك وهو « ففي الرقشم والكتابات المصرية ، يرافق اسم الملك شارات ترمز الى : « الحياة والصحة والقوة » ووجودها على هذا الشكل يُمن يرفع ليس للذات الملكية فحسب ، بل ويتجه ايضاً بواسطته لكل المملكة وما فيها من سكان . وحتى بعد الوفاة يبقى فرعون يجذب على مصر ويعطف عليها ، ولذا حق له اكثر من أي انسان آخر ، ان يخلد ذكره ويبقى حياً الى الأبد .

تعيين الملك وتتويجه الملكية بمثل هذا المفهوم وعلى مثل هذا الشكل ، نظرية لا بد وان تترك ، من قريب او بعيد ، اثرها العميق على كل ما يتصل بالملك وشؤونه . فهل قام في مصر ، بالفعل ، حق ملكي وراثي راسخ ثابت وطيد ؟ ليس من يستطيع إثبات ذلك ، ان كل الدلائل تشير الى ان الابن البكر كان يخلف ابيه الملك ، ولكن هذا الأخير كان يعتمد في بعض الأحيان ، الى تأمين خليفته بنفسه فيختاره او يشركه باعباء الحكم وهو في قيد الحياة فيحكم كوصي مشارك . غير ان تدابير كهذه من شأنها ان تجعل الملك يؤثر ابنه الاصغر او ابن احدى زوجاته الاخرى . ولذا فالوثائق الرسمية التي بلغت الينا من ذلك العهد لا تقتصر على التنويه بحق الولادة وحده . ففي حالات اغتصاب الملك والاستيلاء على العرش عنوة واقتداراً — وهي حالات كثيراً ما تكررت حوادثها علانية ولم يلطف من حدة وقوعها زواج المفتصب من احدى اميرات الاسرة السابقة — تسكت الوثائق التي لدينا عن تبرير مصير الملكية بقوة الحق او بالنجاح . فالكل ينسب هذه الامور لرغبة الآلهة ومشيتهم ، وهو بالذات ما تفرضه تماماً نظرية البنوة الالهية . ولا بد ان يكون حدث — وقد حدث ذلك بالفعل اكثر من مرة — في عهد الامبراطورية الحديثة التي بلغت فيها عظمة اله الطيبين امون الارج ، كما كان لنفوذ الكهنة اذ ذاك الشأن الكبير فكانت مداخلات الكهنة والسحرة والعرافين مثاراً للشك من حيث عدم تحيزهم .

وعلى كل ، فالملك لا يصبح بالفعل ملكاً الا بعد حفلة التتويج ، وهي حفلة تتم مراسمها في مدينة منف بسلسلة من الطقوس الرمزية والادعية التقليدية التي في اتيانها تذكير بتوحيد المملكتين او شطري البلاد في شخص الملك ، فيدخل بين مصاف الآلهة ويصبح مساوياً لهم . وخلال حفلة التتويج يسلم الملك التي توليه القوة الالهية كالصوبجان والسوط . وبعد ذلك « ينتصب » ناهضاً وعلى هامته تاج الجنوب الابيض وتاج الشمال الاحمر ثم البشنت (*Pschent*) ، الذي يجمع بينهما ، ويجلس على العرش فوق البردي واللوتس ويقوم بدورة حول « الجدار الابيض » ،

وهي حركة ترمز لتوليه امر الدفاع عن مصر ، اسوةً بالشمس التي تقوم بدورة حول الارض . وهكذا يحمل الملك الجديد الالقاب الرسمية الخمسة التي ينص على حملها مرسوم ملكي يعود صدوره لعهد الامبراطورية المتوسطة : هوروس رع ، ورع التاجين ، وهوروس الذهبي لمحاكاة الذهب الشمس ، وبالتالي رع ، و « ملك القصة والنحلة » رمزي مصر العليا ومصر السفلى ، وابن رع . وهكذا نرى رعمسيس الثاني يلقب بالاسماء التالية : ١ - الثور القوي المصفح بالعدل ؛ ٢ - حامي مصر وصلة الوصل بين البلدان الاجنبية ؛ ٣ - المهتلى سنين وفتوحات ؛ ٤ - المسربل بعدل رع والمصطفى من رع ؛ ٥ - حبيب امون ، رعمسيس . والتاريخ لم يُبقِ الا على هذا الاسم الذي اعطي له عند مولده . اما الاسماء والكنى الاخرى فلم يعرف بها الا بعد اعتلائه العرش ، اذ انه لا ينال الرابع منها الا في حفلة التتويج . وهكذا يتسربل فرعون صفة الملك الفائقة الطبيعية بصورة تأخذ الالباب وتدعو للرهبنة والخشية لما لها من وقع في النفس .

حياة الملك وتجري في عهد الملك حفلات من هذا النوع ، وذلك في الاعياد التذكارية وهي اعياد لها من المعنى والمدلول ما يتجاوز بكثير مفهوم الاعياد المألوفة . والغرض من هذه الاعياد تجديد الاعتبار الذي كان للملك من قبل والاعتراف بما له من سطوة دينية وقوة خارقة يتوقف عليها خصب مصر ورفاهية الوادي . بالطبع لم تكن هذه الاعياد الموسمية سوى العودة بالذكري الى تلك التقاليد والعادات البربرية التي كثيراً ما كانت تنتهي بقتل الملك واستبداله بخلف له اوفر شباباً وصحة .

فحياته على مر الايام ، حياة اله وابن اله . هو موضوع عبادة الجميع وتكريمهم . الكل يعفّر جبينه امامه ويتشرف اسعدهم حظاً بتقبيل قدميه . حركاته وسكناته الرسمية تجري وفقاً لمراسم معينة فلا يظهر للناس الا برداء خاص مرصع بالجواهر والاحجار الكريمة ، وبلحية صغيرة مستعارة ، كذلك يقوم بمراسم خاصة من التطهير . ووجبات الاكل التي يتناولها هي بمثابة قرابين يقدمها للآلهة .

فهو يحب ويستطيب بالطبع كل ما يدخل البهجة الى قلبه ، شأنه في هذا كله شأن الآلهة . له اوقاته الخاصة للترفيه والتسلية ولا بأس اذا ما تحدث الناس عن هذه او تمثلوها . فاذا ما نهض للصيد والقنص قام بعمل مألوف متعارف لدى الملوك ، فيعطي الدليل على ما أوتي من قوة وصحة وبأس في صيد التماسيح وفرس البحر التي تألف الغياض والمستنقعات ، فيطهر البلاد من السباع والحيوانات التي تعيث فيها فساداً وتنزل الرعب والضرر في العباد . وهو الى هذا كله ، ومع هذا كله بحاجة الى مياهج اخرى تسري وتدخل الغبطة في النفس : كاللحم اللذيذ الوافر ، والطيوب ، والموسيقى والرقص والمصارعين ، والرفاق والاسرة ، التي تتألف من العديد من الزوجات والسراري ، يختار من بينهم ما احلولى له ملكة ، يستعوض عنها باخرى بعد حين . وقد افرد للحريم داراً يعج بالخدم والحشم والوصيفات . فلا عجب ان يقوم في مثل

هذا المحيط وهذه البيئة دسائس وتحاك الفتن وتنسج المؤامرات وتدور المناورات ، كما وقع ذلك مثلاً في عهد الاسرة الثامنة عشرة اي في اواخر عهد الملك تحوتمس الثاني ، وهي المغامرة التي كانت بطلها الملكة حتشبسوت التي حفظت لنا الوثائق الرسمية الكثير من اخبارها .

وظائف الملك : الدين
وبين المراسم الدينية التي يؤتى بها موعظة وعبرة ويحرص الملك على القيام بها بوصفه ملكاً للبلاد ، وظيفته الدينية التي كان يؤديها بكل امانة باعتباره ابن رع او ابن الاله امون . فهو يعرف اكثر من سواه كيف يعبر للآلهة ، عن شكر مصر ويستمطرها شآبيب النعمة ودوام البركات . فالواجب الديني هو اول الالعاب العائلية التي يضطلع بها ، والواجب الاول المفروض على الابن نحو ابيه ، وعلى الوريث نحو ذويه من اباعد واقارب . فهو الكاهن الاعظم الذي يرتب مصاف الكهنة ويقيم من بينهم نواباً له او مساعدين لهم في الخدمة الدينية التي لا بد من تأدية مراسمها المفروضة كل يوم من ايام السنة .

نادرة جداً في تاريخ مصر القديم المناسبات التي استحال الحكم فيها ثيوقراطية ، آلت فيها حقيقة الحكم والادارة الى طائفة الكهنة . نرى في بعض الاحيان بعض الكهان يلقنون الملك القرارات التي تحتم عليه اتخاذها ، الا انه كان دائماً حريصاً على التظاهر بان ما يصدر ليس سوى الالهامات والتجليات التي يوحى بها اليه ابوه الالهي ، وانه يأتي ما يأتي وفقاً لمشيئته . ومع ذلك عرفت مصر النظام الثيوقراطي البحت في اواخر عهد الامبراطورية الحديثة ، بُعيد السلالة التاسعة عشرة ، سلالة رعمسيس الثاني ، اي مع سلالة كهنة امون العظام ، وهي المعروفة بالسلالة العشرين . كل هذا والملك يعرف جيداً كيف يحول دون التجاوز هنا على حقوقه . فهو باعتباره الكاهن الاعظم في حياة البلاد الدينية ، يقوم بواجباته وبوظيفته الدينية على الوجه الامثل .

فالقرايين تقدم باسمه في الهياكل كل يوم من ايام السنة . وهو الذي يصدر الاوامر والتعليمات ببناء ما يرغب في بنائه وترميم ما يجب ترميمه من هياكل ، ويؤمن لها الاصلاحات التي يستدعيه وضعها ، هذه الهياكل العظيمة او المدافن الملكية التي شادها السلف الصالح . والملك هو الذي يُسبل الوقوفات ويقطع الاعطيات للآلهة ولهاكلها ، ويسهر على تأمين ادارتها واستثمار مرافقها عن طريق الكهنة ، كما يحرص على الظهور امام الناس بالخشوع والتقوى والامتثال الوديع في التنفيذ .

ولا يتردد ، الى جانب ذلك ، بفعل كونه اوسع اطلاعاً من اي شخص آخر ، في ان يعزي لشخصه سلطان اللاهوتيين المعتقدي . واذا اكتفى في عهد الامبراطورية القديمة بتأييد تعاليم اللاهوت الشمسي المعمول بها في معبد رع في هليوبوليس ، فهو لا يهمل الاستفادة منها لمصلحته وخيره . وفي عهد الامبراطوريتين الوسيطة والحديثة ، لا يمكن فصل النجاحات التي احرزتها عبادة امون عن الاهداف السياسية التي سعت وراءها الاسر الطيبية الاصل . واكثر من ذلك

فاننا نرى الفرعون اخناتون الذائع الصيت ، في الربع الثاني من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، يستخدم ما له من سلطان وقوة مادية للدفع بعبادة الاله اتون الى الامام . انها لازمة قصيرة ولا شك ولكنها اتصفت بعنف نادر وكان بمكنتها ان تؤدي الى نتائج راسخة لو قيّض لخناتون ان يعيش طويلاً .

وظائف الملك : الحرب
الدفاع عن مصر والدود عن حياضها وصيانة استقلالها ، مهمة وطنية عليا يضطلع الملك نفسه بمسؤولياتها . فاذا ما انعمنا النظر ملياً في تاريخ مصر القديم ألفينا هذا الدور من المهمة الملقة على كاهل الملك اقل بروزاً في مصر منه في معظم الممالك والدول القديمة التي قامت في بلدان واقطار كانت اكثر تعرضاً من وادي النيل لاطماع الغزاة والفاحين الذين جاشت نفوسهم برغبة التوسع . كان وضع مصر الجغرافي مدعاةً من الوجهة السيكلوجية لطمأنينة لم يتوفر مثلها لغيرها من البلدان المجاورة . فقد توالى على الحكم في مصر عدد كبير من الملوك حكموا البلاد وعاشوا بدعة هائنين لم يعرفوا الحرب ومتاعبها المقضة . فلاشادة بحب السلام ، والاستمساك بعراه والتغني بنعمائه بعبارات ولهجة لا تنبو عن نزعات العصر الحديث ، كل ذلك من المميزات التي اتسم بها الادب السياسي في مصر قديماً . ومثل هذه النزعة تبدو واضحة بارزة في مجالات اخرى من الوضع الاجتماعي الذي سارت عليه البلاد .

وهناك مع ذلك حد ادنى للاستسلام للدعة والطمأنينة لا يمكن لاية دولة تجاوزه او تخطيه جزافاً : فملك ايفتو لم يتغنّ بغير المثل التي تدغدغ خيال شاعر مجنح الخيال . اما الفرعون فعليه ان يسهر على مراقبة الصحارى المحدقة بمصر وعلى أمن مسالكها ومداخلها ولا سيما ما افضى منها الى ثغور البحر الاحمر ومراقئه التي كانت ترفد البلاد بمحاصيل بلاد البونت . وكان عليه ان يضع دوماً نصب عينيه تحت اشرافه ومراقبته بلاد النوبة وشبه جزيرة سيناء وكلاهما غني بالمعادن والخامات النادرة . فكل الدول والامبراطوريات التي قامت في مصر ، في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد حرصت على ان تبسط سيطرة تامة على سيناء وشيئاً من ذلك على النوبة ، فكان البلدان ابدأ من البلدان التوابع لمصر . وكان على الفرعون ان يتصدى اكثر فأكثر للغزاة الطامعين بمصر من آسياء عبر السويس . فمصر تأثرت ولا شك ولا تزال بكل الموجات البشرية التي يصل مداه الى سواحل آسياء الغربية وبالفتوحات التي تنهض لها شعوب المنطقة .

فالغزو الذي قام به ملوك الرعاة (الهكسوس) في اعقاب الامبراطورية الوسطى سجل عهداً جديداً في تاريخ مصر كما احدث تغييراً ملحوظاً في القيم المثالية التي سيطرت على مصر الفرعونية . فقد ترتب على ملوك السلالة الثامنة عشرة ان يطردوا الاجني المعتصب من البلاد وان يطاردوه الى ما وراء الحدود الشرقية ويجدّوا في إثره حتى مشارف الفرات ، محاولين ان يجعلوا من المنطقة الواقعة شرقاً بين مصر وبلاد ما بين النهرين درعاً واقياً لهم . ولذا اخذت

الامبراطورية الحديثة تحاول بسط سيطرتها المباشرة على فلسطين وسوريا ووضعها تحت حمايتها المباشرة ، حتى ان ملوك ما بين النهرين اصبحوا في فترة معينة من التوابع لها . وعلى كل ، فهذه صفحة جديدة في تاريخ مصر . فبعد ان كانت البلاد ، من قبل ، في شبه عزلة ، نراها في هذه الحقبة تقوم بدور نشيط وحاكم في مصير الشرق الادنى ، سياسياً حيناً ، وحربياً او عسكرياً في اكثر الاحيان . وكان من بعض نتائج هذا الوضع الطبيعية ان فراعنة ذلك العهد ، برزوا ، شأؤوا ام ابوا ، قادة حرب مجربين بالرغم من النفور او الكره الذي بدا على بعضهم في هذا المجال ، مثل امنوفيس الرابع . فشخصية تحوتس الثالث ورعمسيس الثاني الحربية تكشف من حولهم من فراعنة ذلك العهد ، من جراء الفتوحات العريضة والانتصارات المبينة التي حققوها ، هذا في مجدو وذلك في قدش ، كما تشهد بذلك مرويآت تحوتس وقصيدة بنتاوار . وهذه النصوص الخالدة التي طبقت شهرتها الآفاق تعيد الى الذاكرة نصوصاً اخرى من عهد ملوك السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، تنبض بالنزعات ذاتها . من الطبيعي ان تنسب الوثائق الفضل في هذا النجاح يصيبه الجيش المصري ، لعناية الآلهة ورضاها ، الا انها تشدد هذه المرة وباعتداد ظاهر ، على صفات هؤلاء الملوك الحربية والنبوغ العسكري الذي تحلوا به . فنحن امام مفهوم جديد للقيم يطبع ذهنية الفراعنة ، كان من قبل في المرتبة الثانوية ، واذا به اليوم يبرز الى الصف الاول .

فإقبال الملك على الالعاب الرياضية العنيفة والاستسلام لها بشدة يوليه قوة بدنية لا بد منها لتحمل الاعباء الحربية . فهو يظهر الآن اكثر منه في الماضي ، يصطاد الفيل على ضفاف الفرات كما يصطاد فرس البحر والتمساح ووحيد القرن بين غياض النيل ، ويطارد الاسد في الصحارى . والناس يتندرون بقوته السحرية ويتفاكهون بأحاديث مهارته الفنية وبقدرته على وتر أشد الأقواس بعد ان يرتد عنها الآخرون خاسئين ، ويسمرون حول مهارته في تسيير دفة السفن وترويض الخيل الجفول وغير ذلك من ألعاب الفروسية التي حرص المؤرخون على تسجيل وقائعها في الكتابات التي خلفوها والرقم المنقوشة .

ومع ذلك ينقص هؤلاء الملوك شيء لم يتم لهم ولم يتوفر فيهم ، هو انقطاعهم لمهنة السلاح والاهتمام بالامور العسكرية كخبراء مجربين وقادة محنكين ، فليس ثمة من استعراض للجيش او تفقد سلاح يقوم به الملك ، ولا من تمارين ومناورات عسكرية خلال ايام السلم ، فاذا ما ارتفعت الحرب وخيم السلام على البلاد ، تنوسي امر الجيش . فالمصري نفر دوماً من الحياة العسكرية ، فلا يتقبل الفكرة ولا يقبل عليها باختياره . واذا لم يسقط رجال الحرب من الفراعنة ، مكافأة الشجعان وتقدير البطولة والبسالة ، فانهم لم يستطيعوا مع ذلك ان يحدثوا أي تغيير في عقلية رعاياهم . ولذا فهم يحاولون باصرار واستمرار لهما مغزاهما البعيد ان يتفادوا الصعوبات التي يصادفونها في اوقات التعبئة العسكرية وعلان النفير العام ، وذلك عن طريق استخدام جيش من المرتزقة كالليبيين والنوبيين وأجناس شتى من الاسيويين ، وغير ذلك من شذاذ الآفاق ،

واخيراً الاغريق . وكم عباد عليهم الاتكال على الاجنبي في الذود عن حياض الوطن بالمهاذير والمفاجآت المقضة أقلها اغتصاب السلطان على أيدي رؤساء مصريين . فكم آل الحكم في مصر الى سلاسل ليبية ونوبية حتى الى اليونان انفسهم مع ما عرفوا به من نفرة وأنفة من تمثل للحضارة المصرية ، فكثيراً ما زرعوا الاضطرابات الدامية في الداخل ، في عهد الدولة ..

من الصعب ، وأيم الحق ، حقن شعب بالروح العسكرية وتحجيب هذه الروح اليه . الا انه كان في مقدور هؤلاء الملوك لو اعتصموا بالصبر واستخدموا الاساليب والطرق الموصوفة ان يثيروا في الشعب المصري اكثر من هبات عابرة واستشاعة آنية .

واخيراً كان على فرعون ان يؤمن لبلاده ادارة رشيدة ولشعبه العدل بالسوية . فسلطته لا حد لها وليس لارادته مبدئياً من وظائف الملك : استتباب النظام واشاعة العدل وازع او حسيب . فالكلمات التي ينسب بها « موحيات » تخرج من فم اله . وهذا اله يبريء ويبدع ويخلق : « فكل ما يتهوه به صاحب الحلالة يجب ان يتم وان يتحقق بالحال » . فمشيئة الملك وارادته هي القانون ولها ما للعقيدة الدينية من قوة وشكيمة . « فهو يعمل ما يجب ، ولا يأتي قط ما يكره او يبغض » . هذه النصوص التي نستشهد بها هنا تعود بحرفها الى الامبراطورية الفرعونية القديمة ، اي الى عهد بناء الاهرام . وهذا الشمول المطلق الذي تتضمنه لم تفقده الاجيال المتعاقبة شيئاً من قوته ومدلوله . واقواله لها من الحتمية بحيث لايسع المصري الا التسليم والخضوع لاوامر ونواه منها بدت له قاسية لا تحتمل او بغیضة لا تطاق . فبعد ان أعرب الحكيم المصري إيبور عن اسفه للفوضى التي ضربت اطنابها في مصر ، خلال الحقبة الواقعة بين الامبراطورية القديمة والامبراطورية الوسطى ، راح يكشف الملك دونما خوف او وجل او تردد قائلاً : « ان ما تشهده البلاد بعض نتائج الاضطراب الذي زرعه يداك في طول البلاد وعرضها وسط السجس والجلبة . ولذا ترى الناس يلجأون للعنف بعضهم ضد البعض الآخر » . ثم لا يلبث ان يضيف قائلاً : « ان الشعب يمثل لأوامرك » . فالدعوة للثورة على الملك ، للانتفاض على الحكم لم ترتد يوماً رداء العقيدة . وسلطة الملك ، حتى ولو اصبحت مدعاة للضرر والأذى ، تحافظ على طابعها الالهي .

ولكن إيبور هذا يحتكم من الملك الواهم الى الملك الحسن الاطلاع . فقد كان مفهوماً من الاساس ومقبولاً لدى الجميع ان الارادة الملكية لا يمكن ان تهدف الا لسعادة مصر . وبعبارة اخرى فالتفاؤل الذي تجيش به النفس المصرية والتسليم للمقدّر انما يعني في نظر المصري التسليم لمشیئة الآلهة الخيرة والنزول عند رغبتها ومشيتها . كذلك من الأمور البديهية عنده ان ارادة الملك وقضائه احكام لا يمكن ان تأتي كيفية ، اعتبارية ، هنالك تجريدات الهية تجعل من هذا كله اشبه باليقين . وبما ان « هو Hôu » هو القوة المبدعة ، فالاحكام التي تصدر عنه والרגائب التي تتجلى فيه ، هي « سيا » اي تفهم . وما « مآت » الا « عدل » و« حق » .

وعلى هذا المبدأ فنظام الحكم المطلق في مصر الفرعونية يتكشف عن الوان من التقييم بدت وتجلت على وجهها الصحيح منذ نهاية الالف الثالث قبل الميلاد. وقد برزت بوضوح وجلاء في عهد السلالة الثانية عشرة ، اي في عهد الامبراطورية الوسطى. وبقيت منذ ذلك الحين مهيمنة على النفوس ، مستبدة بالاذهان حتى زوال السيطرة المصرية الوطنية. وتستمر هذه السمات على صفائها واستقرارها حتى في مثل هذه الحال ، لتنتقل كاملة غير منقوصة الى النظرية الملكية التي حملها معهم الفاتحون الفرس وعملوا بها لينقلوها الى الاسرة الملكية اليونانية التي آل اليها الحكم بعد دوال الدولة الفارسية ، بحيث ان البطالسة ، هؤلاء المقدونيين الذين تربعوا على دست الملك في وادي النيل ، لا يتخرجون ولا يجدون كبير عناء باستعمال التعابير والالقاب الرسمية نفسها التي عمل بها الفراعنة من قبل واستعمال الشعائر التي عمل بها وعلمها هؤلاء الفراعنة انفسهم حقبة تريد على الفي سنة . وليس من الجس واطوع ايجاد الحضارة المصرية القديمة ان تكون استطاعت - ان لم تكن الوحيدة والاولى بين الحضارات التاريخية القديمة ، وبمعزل عن كل تأثير احني - ان تحدد وتلطف من طغيان السلطة المطلقة في نظام ملكي الهي .

وبالفعل مفهوم الملكية المؤله المثالي الذي يقول ب : « مات » تفرض نفسها بنفسها على الملك بشكل لا يرد وبقوة لا تقاوم . هنالك نصوص صريحة ، بغاية الأهمية تطلعنا على « ارشادات » ملك لابنه ، وعلى « تعليمات » ملك لوزيره ، وهي نصوص وارشادات تتفق نصاً وحرفاً ، يكفي الواحد منها لاعطائنا فكرة عامة : « ترغب الالهة في ان يحق الحق وهي تكره اشد ما تكره ، الاخذ بالوجوه والتحيز » هنا كل الناموس . هنالك قصة شعبية تضع على شفاه فلاح فصيح اللسان ، حسن الكلام ، يتقن القول ويحيد الكلمة البليغة بحضرة صاحب الجلالة ، فيمطره بوابل من الالتماسات والتوسلات ترفع عنه في نهاية الأمر الحيف النازل به ، وتزيل اسباب الشكوى التي آذته وآلمته . « يا مولاي ! إقطع دابر اللصوصية وارحم البائسين واحم المساكين ، ولا تكن إعصاراً يطيح بمن جاءك يشتكي ظلامته ... إجر عدل ملك العدل ، واسلك عدالة العدل ... واعمل بحسب القول المأثور الذي خرج من فم رع نفسه ... قل الحق ، وأبت العدل ، فالعدل قوة ، والحق شيء عظيم ، فكلاهما راسخ رسوخ الجبال الشوامخ ... شكوت امري اليك ، فلم تصنع الى طلبتي وصمت اذنك عن شكواي ، ولذا فاني ارفع امري منك الى اله الأموات ... يا لها من حرارة ومن جسارة في صاحب هذه القصة الذي انما اراد ان ينفذ منها الى اثاره الابتسامة ولكن اعديدة هي هذه الممالك التي اتيح للروح الساخرة فيها ان تتفوه امام العزة او الجلالة المؤله ، بمثل هذه الألفاظ ، وان تتفجر بمثل هذه الاقوال حول موضوعات من هذا الشكل ومن هذا الوزن ؟

هذه التعاليم التي عمل بها والضرورة الملحة بضبط ادارة بلاد شاسعة كمصر ، كل هذا جعل من فيرعون مشترعاً . كانت الحياة في مصر تفرض وضع مثل هذه القواعد الاساسية التي تضبط السلوك البشري ، الى جانب القضاء الملكي الذي كان عليه ان يفقي ويقضي في امور كثيرة

تعرض له . وهذه القواعد المكتوبة المرعية الجانب لم تكن شيئاً غير المبادئ التي خطها ملوك مصر من قبل ونهج القوم عليها من بعد . فمصر القديمة عرفت ولا شك ، الى جانب الاعراف المحلية او الاقليمية المعمول بها ، مجاميع من الشرائع والقوانين سنّها نظام ملكي مركزي . ولكننا لم نجد بينها للآن ما يشبه ، من قريب او بعيد ، الدساتير التي عثر عليها في ما بين النهرين . نحن هنا امام تقاليد ومراسم حفظها لنا مؤرخو اليونان . فذيوذوروس الصقلي الذي استقى معلوماته عن مصر ، من مؤرخ مصري عاش في مطلع القرن الثالث قبل الميلاد ، هو اكثر الرواة والمؤرخين سرداً للتفاصيل المسببة . فهو يسمي لنا قبل الفتح الفارسي لمصر ، خمسة فراعنة ويقدمهم لنا بكونهم « مشترعي مصر » بينهم مشرع واحد استرسل بذكر اخباره هو الفرعون بوخوروس الذي ملك على مصر في اواخر القرن الثامن قبل المسيح ، واليه يعود الفضل في مد البلاد بدستور ينظم الحياة التجارية فيها . الا ان فقر مصادرنا حول هذه الناحية من نشاط الفراعنة يجعلنا نجعل الكثير من معالم الحضارة المصرية .

ومهما يكن من الامر ، فالملك ، في مصر ، هو المرجع الاعلى والموئل الرفع . اليه وحده يرفع طلب الاسترحام الذي لا يُحرّم منه اي من رعايا فرعون ، مهما اتضع قدره وانحط شأنه ، وبذلك يتاح له مراقبة اعمال عماله المتصرفين بشؤون مملكته الشاسعة ، والضرب بشدة على ايدي العابثين منهم بأمورها او الخارجين على ارادته .

٢ - الحكومة والادارة

اذا لم تعوزنا المصادر المتعلقة بالناحية الادارية من تاريخ مصر الفرعونية فلا بد مع ذلك من ان نبين نوع وطبيعة هذه المراجع لنوضح حدودها . نحن نفتقر لنصوص القوانين والمراسم والوثائق الميدانية ، أي تنقصنا الاضبارات الادارية نفسها التي تتألف من اوراق أصلية تتصل مباشرة بعمل الجهاز الاداري الحكومي . في بلاد ما بين النهرين الوثائق عديدة كثيرة تتيح لنا شيئاً من المراقبة المتبادلة والمعارضة . اما في مصر ، ولا سيما في عهودها اليونانية والرومانية المتأخرة ، فلدينا مجموعات ضخمة من البرديات والفخاريات ، بينها بعض المراسيم العامة والكثير من الرسائل والتقارير والبيانات ، والعرائض والكشوف المالية المتعددة الوجوه . اما بشأن الازمنة التاريخية المتقدمة فعلينا ان نعول على مصادر من الصنف المتدني باستثناء بعض فترات تاريخية خاصة تتوفر لها بعض البرديات النادرة . فنحن على الغالب تارة امام نصوص رسمية تحمل الثناء الكثير على الملك وتفيض بذكره ومدحه وحمده ، وطوراً امام كتابات مدفنية تسرد لنا على جانب من المديح والثناء سيرة الملك المتوفى ، وحيناً امام نصوص ذات طابع خرافي اسطوري ، وطلبات وتضرعات تقوية او غير ذلك من المرويات . كل هذه الوثائق تحمل طابع الصنعة والاصطناع وبالتالي التحريف للحقيقة والواقع . ولذا يرى الناقد نفسه ، في كل

لحظة ، وجهاً لوجه امام صعوبات كأداء ليس من السهل تذليلها ، فتختفي وراءها تفاصيل ومعلومات ثمينة تتخذ مادة في ايضاح رأي أو دليلاً على نظر .

الصفات العامة كثيرة هي الانطباعات التي لها ما يؤيدها او تنهض على أساس ثابت . فازدهار مصر واستثمار خيراتها ومواردها الطائلة ، كل هذا وما اليه يفرض قيام ادارة رشيدة ، منظمة قادرة على ان تؤمن وسائل التبليغ والتنفيذ ، والأخذ بما رسمه سيد البلاد الوحيد الاوحد . فالمركزية في الادارة هي من هذه السمات الأساسية المفردة للحضارة الفرعونية . فكل تراخٍ او توانٍ او ضعف ينتابها يفضي في الحال الى بعض ما تفضي اليه الفوضى : الى البؤس والى ما هو أدهى وانكى منه ، الى الرعب ، والقلق والاضطراب العام ينزل بالبلاد ويشل منها أسباب الحياة . هذه حقيقة أساسية راسخة من حقائق التاريخ المصري القديم تؤيدها التجربة المبررة والاختبارات المتكررة . فهي توضح لنا حاجة البلاد والناس فيها للنظام ، للاطار الاداري المستحكم ، للسلطة القوية ، إذ طالما شعر الناس بمثل هذه الحاجة وشعروا بوطأتها . وهذا ما يفسر لنا جيداً روح الخضوع والامتثال التي ميزت الشعب المصري . فالفكرة الدينية ، مهما بلغ من قوتها وشدة تأثيرها لم تكن لتستطيع وحدها ان تضي على النفس المصرية مثل هذه المشاعر والاحاسيس التي جاشت بها هذه النفس طيلة آلاف السنين ، وهي مشاعر وأحاسيس كثيراً ما اتخذ منها الفراعنة يداً لكبت البدوات الفطرية والنوازع الامارة بالسوء ، ولكبت ما تحرّق اليه الارباب من الاستئثار بالسلطان ، والحدّ من الدعوات الاقليمية والمحاولات التي قامت بها فئات نزعت لشيء من الاستقلال الاداري . فقد استطاعوا مراراً كثيرة ان يقيموا لهم في البلاد نظاماً ادارياً كادوا يبلغون به التمام لم يكن يضاهيه ، في التاريخ القديم ، غير النظام الذي اقامه فيها خلفاؤهم من بعدهم ، ملوك الدولة اليونانية . وليس من باب المصادفة قط ان تبلغ مصر في هذه العهود التي تم لها فيها مثل هذه النجاحات الباهرة ، سدة المنتهى في الحضارة التي صاغتها وانشأتها .

فأمام هذه المشاهد يرغب المرء ويتمنى لو يحدد بشيء من اليقين ، المبدأ الاساسي الركين الذي نهضت عليه الادارة في مصر الفرعونية وكان عمادها الاكبر . أكانت مصر إذ ذاك ، ملكاً خاصاً لسيدها وربها الفرعون ، يستثمرها كما يستثمر عقاراً خاصاً به ، او انها كانت تؤلف بملكة — او بالاحرى بملكتين هما مصر السفلى ومصر العليا — انيطت به مسؤولية ادارتها ؟ ليس ما ينفي في الواقع ، قيام الفكرتين معاً كما انه ليس هنالك دليل على ان الخواطر خامرها ادنى شك بوجود اي تضاد او تنافر بين الفكرتين . كإله وابن إله ، الفرعون هو رب ارض مصر وسيد من عليها وما عليها . فلم نر قط اي اثر للتمييز ، ولو فكرياً ، بين تملك خاص او تملك تابع للتاج وبين دولة قائمة بذاتها تتألف من رقعة جغرافية قائمة بمحدوداتها المميزة ولها مجتمعها الواحد . والدليل البسيط الى ذلك هو ان الناظر او القمّ العام للادارة المالية في البلاد ، كان من ضمن مسؤولياته ومن واجباته الاولى ان يؤمن حاجات البلاط . ومع ذلك ، فقد رأينا

كيف ان هنالك واجباً ادبياً على الملك ، هو واجب اشتد التحسس به على مر السنين . وقد ادت فكرة هذا الواجب بصورة لاشعورية ، الى فكرة دولة مستقلة ، متميزة عن شخصية رجل فرد ، ولو كان الهاً وابن اله . وعندما كان فرعون يتكلم عن : « وظيفته العظمى » - وقد أتى ذلك على لسانه اكثر من مرة - كان كلامه هذا تعبيراً عن فكرة لا تزال غامضة طي الضمير ، غير مستوفاة التحليل والتركيز ، لم يكن الناس ليتبينوا جيداً نتائجها ومستلزماتها النظرية إذ انهم لم يروا فيها تضاداً مع فكرة التملك ، ولم يستخلصوا منها النتائج العملية .

الحكومة المركزية
قالفكرتان مع ذلك تلتقيان من حيث ان كل شيء في مصر الفرعونية يتوقف على الملك وعلى الملك وحده . هذه هي القاعدة الذهبية التي قام عليها تاريخ مصر قديماً .

فقصر الملك « الصرح الكبير » ، برعا ، ومن هذه اللفظة المصرية نحت اليونان كلمة فرعون ، هو مجمع الادارة المركزية التي يرجع اليها حتماً كل شيء . فالملك يتولى امرها ويقبل عليها يتدبر شؤونها منذ الصباح بعد قيامه بالمراسم الدينية ، ويتحرى كل امر ويتقصى كل شيء ، ويطلع على الرسائل والمعاملات الواردة والتقارير ، ويستقبل اصحاب الاعمال ويشرف على ديوان المظالم ، ويسترشد بأراء ذوي الخبرة ويتخذ في نهاية المطاف الرأي ، ويصدر الاوامر والتعليمات التي يقتضيها الوضع ، فتبلغ باسرع ما يمكن بعد ان تفرغ بصيغة المتكلم .

والى جانب الملك يقوم وزراؤه او معاونوه وهم اشبه برؤساء دواوين عليهم تبليغ الاوامر وتنفيذها . وكثيراً ما تشير النصوص الرسمية اليهم فتصفهم طوراً بـ « فم الملك » ، و« لسان الملك » ، وطوراً « بعينه » او « اذنيه » ، يعينهم ويعزلهم كيفما يشاء . وبينهم من يلعب دوراً رئيسياً هو الوزير « ثاني » ، موضع ثقة الملك ، يلقيه تعليماته وتوجيهاته والارشادات العامة وكيفية مباشرة السلطة والقيام باعباء الادارة . فاختصاصات البلاط الملكي الواسعة وما اليه من مهام واعمال وعمال ، كل هذا يأتي على نسبة تفهم الفرعون لمقتضيات « الوظيفة العظمى » . وهذا الاهتمام يختلف كما ونوعاً باختلاف شخصية الجالس سعيداً على اريكة العرش الذي يبرز لنا دوماً من خلال لغة الدواوين والتعابير الرسمية المكرسة . فصورة الفرعون الادبية والسياسية تتباين تبين صورته المادية او الطبيعية .

ففي عهد الاسرة التاسعة عشرة ، نرى الوزير يرأس احياناً مجلساً أعلى له ، من الوجهة الادارية على الاقل ، صلاحيات واسعة . الا انه ليس ما يدل على ان القضاء ، تمتع في مصر القديمة ، من الوجهة الادارية على الاقل ، بشيء من الاستقلال وتميز بذلك عن الادارة وانفصل عنها . وهذا المجلس ، هل كان وحيداً في البلاد ؟ وما كانت وظيفته والعمل الذي يقوم به ؟ ومن يتألف وعلام يقوم ؟ كلها اسئلة مغلقة تبقى دون جواب . وقد حلا لبعض المؤرخين ان يروا فيه هيئة وطنية ضمت عدداً من اعيان البلاد واشرافها ، نجعل كل شيء عن طريقة اختيارهم

وثعيبينهم ، وهو رأي فيه الكثير من الجرأة ومن الحطل . والافصل ان نرى في هذا المجلس اشبه بلجنة من كبار الموظفين واصحاب المقامات العالية والنبلاء ليس إلا ، وهم كثر في القصر يؤلفون بطانة الملك ويحملون ألواناً من الالقاب الشرفية او الادارية . في الامكان اعداد قائمة طويلة من هذه الرتب والالقاب ، ليس فيها من طائل او كبير منفعة ، إذ يبقى علينا ان نعرف من جهة ، ما اذا كانت الالقاب التي يحملونها بالفعل هي وظائف عملية يقومون بها ، كما يجب علينا من جهة أخرى ان نتساءل ما اذا لم يكن في البلاط قائمة رديف للاولى . فقد كان في عهد الامبراطورية القديمة في مصر ، احد عشر « رئيساً للاسرار » كلهم من رتبة واحدة تتميز الواحدة عن الاخرى بنعت او وصف يضاف الى حاملها فيفرده عن سواه . وهكذا يرى في البلاط عالماً من الموظفين يتوزعون على سلم من الرتب والدرجات لا يعرف عنها في اكثر الاحيان ما يشفي الغليل ، كلهم يعيش في « الصرح العظيم » ويعمل في دوائره واقسامه ودواوينه . رؤساء ورش ومأمورو مخازن ، ورؤساء عنابر ، وقهرمان علي خزينة الدولة ، تحت امرتهم جيش لجب من المأمير والكتاب والمحاسبين والحراس والعبيد ، هم على الغالب اسرى حرب وغزو .

ومهما بلغت هذه الادارة المركزية من كمال التنظيم المحكم ، كان لا بد الادارة الاقليمية والمحلية ان تتراخى عراها وتلين حلقاتها امام المسافات الشاسعة التي كان يترتب اجتيازها باسرع ما يمكن على قلة وسائل النقل وضعفها ، إذ كان فيضان النيل السنوي الرتيب يحول دون انشاء وبناء طرقات جيدة تربط اقاصي البلاد بدواينها ، كما ان الحصان الذي دخل استعماله متأخراً في البلاد ، بقي وقفاً على الاغنياء والاثرياء . ولذا كان جل اعتماد الادارة على السعاة المشاة او على التنقل في النيل بواسطة المراكب الشراعية ، وما الى النيل من شبكة الاقنية والترع . فكان على العامل ، والحالة هذه ان يقطع بالامور ويبت بالقضايا العارضة باتخاذ قرار محلي ، بالرغم مما يستهدف له ، اذا ما اشتط عن الصراط وخرج عن الصدد ، من تعنيف وتكدير ورجوع عما اتخذ من قرارات او اصدر من تعليمات .

وفي بعض عهود مصر الفرعونية يزدوج مركز الوزير ويتضاعف ، اذ يقوم واحد في منف وآخر في طيبة ، وفي هذه الثنائية ، تذكير بالملكيتين الموحدين معاً في شخص الفرعون . وقد قام احياناً ، لا سيما في عهد الامبراطورية الحديثة حاكم خاص في النوبة ، عرف عندهم بـ « نائب ملك » . وكان حكام الولايات يتمتعون ولا شك بصلاحيات ادارية واسعة .

كانت الوحدة الادارية المحافظة او المديرية ، قسمت البلاد الى اربعين منها ، وهو تقسيم حافظت عليه البلاد ، كما حافظت على حدودها المرسومة . وكانت المحافظة تتألف من دائرة جغرافية لها تنظيمها الاقتصادي والديموغرافي ، لها حاضرتها او قاعدتها الادارية ، وهي على الغالب قرية كبيرة اطلقوا عليها في عهد حكم اليونان في مصر اسم : « متروبول » . وفي بعض عهود مصر الفرعونية ، ولا سيما في عهد الامبراطورية المصرية الوسطى التي اقامت في البلاد شبكة

ادارية محكمة الحلقات ، نرى المحافظة ، او بالاحرى ، جميع المحافظات ، تقسم ادارياً الى أقضية : واحد في الشمال وآخر في الجنوب ، ويأتي في اسفل السلم ، القرية التي تمثل الوحدة الاساسية ، اذ كانت مصر تجهل المجتمعات السكنية المتفرقة من حراء فيصايات النيل فكانت المساكن تتجمع فوق مرتفعات الارض من رواب وتلال .

وعلى كل مستوى من هذه المستويات الادارية ، كان يقوم موظف اداري يمثل الفرعون في الناحية او المنطقة ، اختلفت رتبته وسلطته وطريقة تعيينه باختلاف العصور والازمنة والعهود التي تعاقبت على تاريخ مصر القديم . ففي العهود التي اخذ الحكم بأشد انواع المركزية ، كان يتولى الأمر في القرية العمدة الذي يعين من وجوه سكانها . وكان لكل قضاء « مجالسه » ، مقصور بعضها على الفلاحين والصناع والكهنة ، وهي مجالس تقوم بوظائف قضائية ومالية ومدنية . من الصعب على المرء ، ان لم نقل من المستحيل عليه ان يستطيع تحديد مدى صلاحيات هذه المجالس ، ومدى ما كانت تتمتع به من استقلال اداري تجاه الحكام الذين كانوا يعينونها . ومهما يكن من الامر فقد كان عدد الموظفين كبيراً وكبيراً جداً . بعضهم يعمل بصورة دائمة في الديوان والآخرون يملكون غباً بين سعاة بريد ومفتشي ادارة ، ومراقبين ، تأميناً للصلة بين البلاط والادارات في الملحقات . والمفهوم ان هذا العدد العديد من الموظفين والاعمال التي يعهد اليهم القيام بها كان من شأنه ان يجعل واهياً او صورياً اي استقلال اداري ، اعترف به يوماً من الايام لأي من هذه الهيئات الاقليمية او المحلية .

وهكذا نرى ان الموظف الرسمي في مصر القديمة ، تمتع دوماً بسلطة ونفوذ عظيمين ، كثيراً ما تجاوز حدود وظيفته ، فاتسع امامه مجال التآدي في العبث والتجوز . والموظف النموذجي هو « الكاتب » . وهو على الغالب رجل عليم ، ثقيف ، مفتن بامور الكتابة والخط والقراءة . على صعوبة الكتابة وقراءتها اذ ذاك . فاستطاع مع الزمن بما اوتي من ذكاء وعلم ومراس وخبرة ان يرقى درجات السلم الاداري فتنتفتح امامه ابواب الوظائف العالية . وسنرى بعد قليل صورة للكاتب وللشأن الذي يمثل ، في حديثنا عن الوضع الاجتماعي في البلاد ، اذ يمثل فيه دوراً بارزاً بفضل الوظيفة الادارية التي يقوم بها والتي كانت توليه سلطة مطلقة فتجعل منه ممثلاً للسلطة المركزية .

اما الغاية لهذه الادارة والغرض الذي تسعى اليه فتأمين خدمة آلهة الادارة والحياة المادية في مصر مصر على الوجه الاكمل حتى اذا ما تم لها الرضى احالته رفاهاً وازدهاراً على البلاد واهلها . ويجب الملاحظة هنا ان النظام الديني وجه متصل من وجوه الادارة المدنية . فالملك الاله هو سيد الامرين ورب الاثنين ، يرعى الاول تأميناً لخير الثاني ، ولا يرضى قط ان يجعل منهما ميدانين مختلفين يؤمن مصالحهما اشخاص مختلفون هم من الدرجات العليا سواء ينتقل الواحد منهم ، من هذه الى تلك ، دونما تخرج . فالوظائف الكبرى في كلا السلكين تتناوب وتبادل على السواء .

ويستتبع هذا من الوجهة المثالية، ان الملك الاله، يوجه عن طريق الادارة، حياة مصر برمتها ويسيرها في جميع مظاهرها ومعالمها، وان دور الاهلين فيها يقتصر على تنفيذ الاوامر والتعليمات التي يبلغونها حتى ما وقع منها ضمن حياتهم الخاصة. وهذه المثالية الصورية تقتضي بأن يكون الملك ليس رب البلاد ومالكها الأعلى فحسب، بل السيد المطلق الفعلي للأرض وما عليها، ولما اليها من صنائع وفنون ومقتنيات، ولما يدب عليها من حيوان وانسان.

وكم نرى هذه المثالية الصورية تصطدم عملياً بالواقع المرير. فباستثناء ارمات الفوضى والاضطرابات التي صاحبت تاريخ كل امة ولازمت كل حضارة، كان على الملكية ان تحسب حساباً لماجريات الحياة وللاختبارات الواقعية. كان عليها ان تحسب حساب النزعات الى الاستقلال الاقتصادي اكثر منه الى الحرية الفردية، وان شئت فقل التوق الى التملك والكسب الشخصي. ومثل هذه النوازع تجلت في مصر كما تجلت في أي بلد آخر الا انها هيمنت عليها في مصر مشاعر أقوى حدثت من سورتها وكبتت من شكيمتها.

وبالفعل نرى السلطة الملكية في مصر، تبلغ الذروة في عهد الامبراطورية القديمة، أي في عهد الاسرتين الرابعة والخامسة، اذ كانت رغبة الملك واراदته هي القاعدة التي يؤتم بها ويعمل بها، وهي ارادة يفرضها على اناس هم عبيد اكثر منهم رعايا. وفي عهد الامبراطورية الوسطى، استطاعت الاسرة الثامنة عشرة أن تعيد الى البلاد الهيبة التي كانت للسلطة من قبل، كما استطاعت ان تقيم لها نظاماً ادارياً غاية في الدقة، وذلك تحت ستار من مثالية العدالة أقصرت الملكية نفسها عليها واثمت بها. ولم يستطع ملوك الامبراطورية الحديثة من الاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ان يحققوا شيئاً من هذا أو شبيهاً به. الا ان هذه المثالية بقيت مهيمنة لارتباطها بجمعية مصر نفسها، فأفاد منها الملوك المقدونيون في القرن الثالث قبل الميلاد وتوارثوا العمل بها، فكانوا أسعد حظاً من أسلافهم الذين تعاقبوا على الحكم مدة ألف وخمسة سنة قبلهم، كما كانوا اكثر تفوقاً منهم في وضع هذه المثالية موضع التنفيذ.

لدينا من الوثائق ما يقيم الدليل القاطع على ما بلغته الادارة في عهد مراقبة الحياة المادية وغنى التاج
الامبراطورية الوسطى اذ ذاك، من الدقة والانضباط وشدة المراقبة لنظام الحياة المادية في مصر الفرعونية. فهي تعطينا فكرة صحيحة صادقة للكيفية التي كانت تجري عليها عمليات الاحصاء العام في البلاد، وهو احصاء يضبط بيان الاشخاص الذين تتألف منهم الاسرة الواحدة او الاشخاص الذين يعيشون تحت سقف واحد، وتبيان ما تملكه الاسرة من ماشية وعقارات قيد الاستغلال، كل ذلك تحت مراقبة واشراف عدد من المراقبين الاداريين، بينما كانت عمليات البيع والشراء والهبات والوقوفات، والارث وغير ذلك من وسائل التصرف خاضعة بصرامة لقيود التسجيل الرسمية.

ان تنظيمًا بمثل هذه الشدة والضبط من شأنه بالطبع ان يتيح للادارة الملكية ان تؤمن ولو

مبدئياً، لكل فرد وسائل العيش وأرد الحياة ، فتعين له عملاً تتحكم هي بجميع أسبابه ومقوماته، اذ لم تكن الارض تزرع والمهن تمارس وتحترف الا باسم الملك الاله الذي في شخصه تتمثل الدولة وتتجسم .

عاد هذا النظام الاداري الآسر بفوائد عظيمة على السلطة ، وبمنافع جليلة ، فضربت على الناس السخرة ، وألزمتهم السهر على صيانة الاقنية وسلامة الترع النهرية واجرتهم بتشديد السدود وبناء الطرقات ، وتأمين أعمال النقل والبناء ، كما تفرض ذلك مرضاة الآلهة وخدمة الدولة النصوحة . وكانت الادارة تسهر على جباية ضرائب مختلفة ليس بالامكان تحديدها بالدقة المطلوبة في أي عهد من عهود مصر الفرعونية ، ولا تحديد تفاصيلها ومعدلها . وكان بين احكام الخراج ما يتعلق بجباية الميرة على الاشخاص والرسوم المفروضة على الماشية ، وضريبة الاعشار التي كان يتعهدوا متعهدون مشايلة أو على أقدار مميعة ، وعلى محاصيل الارض وغلة كل شجرة ، وغير ذلك من الرسوم المختلفة .

كان كثير من هذه الضرائب والاعشار يجبي عيناً ، كما كان الملك يدفع عيناً ايضاً بعض مرتبات موظفي الادارة هو الآخر . وكانت الاعطيات التي يقدحها على المحاسب وذوي الخطوة ، تدفع لهم من غلال بعض الاملاك او من الرسوم العائدة بجبايتها للملك . فلا عجب بعد هذا ان تنعم الادارة بكنوز طائلة وخيرات لا تحد ، فتخزن المعادن الثمينة خامات او صنائع فنية ، وان يوضع تحت تصرفها حواصل واهراء تفص بالحبوب والثمار والشراب والجلود وغير ذلك من غلال الارض . وكان الداخل والخارج يضبط في قيود دقيقة ينظمها محاسبون مجربون ، كما يتضح ذلك من بعض البرديات التي بلغت الينا .

وكان من نتائج هذا الجهاز الاداري الحكم الذي كاد يبلغ سدره الكمال ان يؤول ، حتى في المواسم المتوسطة المردود ، الى هذا الغنى الاسطوري الذي رفلت به الملكية في مصر . ليس باستطاعتنا ان نعطي هنا أرقاماً لما بلغه فيء الدولة المصرية ولا نفقاتها ، وهي ارقام بالطبع يسيل لذكرها اللعاب وتدهش من يسمع بها ، كما كانت تثير الشهوة الجامحة والنهم في نفوس الأغراب ، وشذاذ الآفاق الذين كانوا يتشفون الى غزو مصر والاستمتاع بخيرات الوافرة والاستيلاء على الكنوز المخبوءة في عنابر الملك . فقد استهدفت مصر الفرعونية للعديد من هذه الغزوات والفتوحات التي كان يمكن ان يتضاعف عددها لو لم تنعم البلاد بموقع جغرافي عازل ممتاز جعلها، الى حد كبير ، بأمن من المستبشرين وبمعزل من الطامعين .

ان مجرد السيطرة على البلاد ، مهما قصر مداها وضاق عهدها ، كان كافياً ليؤمن لصاحب الأمر فيها الذي عرف ان ينشر لواء سلطته فوقها ، موارد طائلة ، ودخلاً هائلاً . فكيف به ، وما عسى ان يكون أمره ، اذا بسط نفوذه العسكري فوق النوبة وما تحويه من مناجم الذهب ومن موارد غنية اخرى كالعاج والاشخاب الثمينة ، وفوق شبه جزيرة سينا ومناجها الفنية ،

وعلى ما يحاورها من أقطار آسيا الغربية التي كانت تستأثر بتجارة العالم اذ ذاك فكانت مجالاً لحركة الاعمال والصنائع وأغنى بقاع الارض بغلال الحنطة . وبفضل الخراج الذي كان فراعنة الامبراطورية الحديثة يجبونه من هذه الممتلكات ، واستثمارهم لحسابهم الخاص املاك الدولة في كل من النوبة وسيناء ولا سيما مناجمها الغنية ، استطاعوا ان يخففوا بعض الشيء من وطأة شبكة النظام الاداري الذي أحكموا حبكه ، وان يخفّضوا من حدة رسوم الجباية المرزحة التي كان الشعب المصري يثن منها .

والى هذه الرسوم والضرائب القانونية المفروضة ، يجب ان نضيف بالطبع ، ولو نظرياً ، وان نحسب حساب أعمال الابتزاز والاعتصار والاعتساف التي كان ينزلها بهذا الشعب الراح المستكين ممثلو السلطة في المقاطعات والأقضية ؛ والموظفون الاداريون كانوا جميعاً يحكمون ويديرون امور البلاد والعباد باسم الفرعون ، فيجدون في النظام الاداري الذي ينتظمهم اكثر من مهرب أو فجوة للعبث بمصالح الناس والاثراء . وتاريخ مصر القديم مليء بأخبار التشاكبي والتباكي من المظالم تقع على السكان ، فتتصاعد زفرات محرقة وتنهيدات كاوية لما يتعرضون له من مغارم ، وهي امور لا بد ان يقع مثلها في كل نظام مهما اشتدت فيه الرقابة . ولذا نرى الفلاح المصري يرضخ مستسماً للواقع ، قلماً يرفع صوته شاكياً وقلماً يحاول الانتفاضة منجاة له من مظلمة تصيبه . فالفلاحون والغزاة الأجانب الذين سوّلت لهم النفس بفتح مصر وغزوها ، كثيراً ما عوّّلوا على ما عُرف به المصري من روح الاستسلام فباء فألهم وعادوا بأكثر من خيبة عندما حاولوا العبث بتقاليد البلاد الحضارية ولا سيما بتقاليد الدينية .

وقد عاد هذا النظام الاداري الآسر على السلطة بفوائد عظيمة ومنافع طائلة فأقصرتهم على اعمال شاقة اخذتهم بها كالسخرة والاشغال الشاقة ، واكرهتهم على تأمين سلامة الاقنية والترع النهرية وتشديد السدود ، وبناء الطرقات ، وغير ذلك من اعمال النقل والبناء والصيانة التي يقتضيها كسب رضى الآلهة وخدمة الدولة . وكانت الادارة تسهر على جباية الضرائب العديدة ، وهي ضرائب لا نستطيع ، في أي عهد من عهود مصر الفرعونية ، ان نحدد بالدقة المطلوبة ، تفاصيلها واقدارها او معدلاتها ، ومقدار الفياء الذي تؤمنه للتاج . وبين هذه الضرائب ولا شك ما يتعلق بجباية ضريبة الاعناق ، والضريبة المفروضة على رؤوس الماشية ، وضريبة الاعشار التي كانت تلزم للمتعهدين مشائلةً أو على أنصبه معينة ، وغيرها مما يتناول محاصيل الارض وغلل الحقول ، ورسوم الحرف والمهن ، وغير ذلك .

فالغنى الذي رفل به الفراعنة أتاح لهم انشاء دولة ذات جهاز اداري صارم محكم الحلقات يعج بالموظفين ، كما أتاح لهم تكوين جيش لجب لم يكن دوماً من العزة والقوة المرتجاة ، كثير التكاليف ، باهظ النفقات لاعتماده بالاكثر على المرتزقة من الاغراب ، وانشاء بلاط فخم وبطانة تعج بالخدم والحشم والعبيد لم يقيم في الارض ما يضاھيها . ومع ذلك فالتكاليف الباهظة كانت تلك التي تذهب في سبيل الآلهة وخدمة الفراعنة الآلهة ، الأموات منهم والأحياء . فالمراسم

الدينية التي كانت تأخذ احتفالاتها بمجامع القلوب مكنت الفن الوطني من التجلي والظهور في أبدع صوره . وفي هذا السبيل سخّرت الحكومة كل ما في البلاد ومن عليها لتحقيق هذه الحضارة الفرعونية الباهرة وما بلغته من عظمة ساحقة صادقة . ويكفي المؤرخ ان يسجل هذه الحوافز دون ان يكون لديه من المعايير ما يسمح له الجزم بالتكافؤ بين هذه الشقة وتلك .

الموظفون والنظام الملكي في تاريخ مصر الفرعونية مثال قد يكون ابرز ما تقدمه لنا الملكية المطلقة . فالحق الالهي الذي هو الاساس والنتيجة المحتومة لكل الانظمة من هذا النوع ، وجد في هذا النظام تعبيره الأقوى والأمثل وعاد بأبعد النتائج وأقصاها . ولكن لكل نظام على هذه الشاكلة مساوئه الداخلية التي تتمثل بهذه الغريزة التي تجيش في نفس كل موظف ، من أي فئة كان ، فتتزع به للتحرر من كل مراقبة وتحدوه لتوسيع الصلاحيات التي اولته اياها السلطة العليا لتنفيذ الاوامر والتعليمات ، فراح يستخدمها للاثراء . وهذه النزعة لا تكون المحذور الاكبر في نظر السلطة ، اذ كثيراً ما كانت تنزع نفوس كبار العمال والموظفين الاداريين ، للارتقاء الى مصاف صغار الملوك فيتصرفون بالاقطاع الذي قطع لهم كما يرغبون ، وتشرئب نفوسهم احياناً الى مصاف الملوك الذين يبسطون سلطتهم فوق مصر برمتها . فكان على الملكية ان تعرف كيف تتفادى دوماً خطر الوهن يدب الى نظامها ، والانحلال يُصيب وحدة البلاد فتعرض معه لخطر اغتصاب السلطة الشرعية . ولم نر ان النظام الملكي عرف كيف يتجنب هذه المخاطر حقبة من الدهر زاد امدها على اكثر من مائتين او ثلاثمائة سنة .

وحركة الاغتصاب للسلطة التي كانت تتكرر بالمظاهر الواحدة تقريباً من شأنها ان تحدث بعض الدهش في النفس . فقد كان على الفراعنة امام هذه التجارب المرة المتكررة ان يبرهنوا عن فطنة اكبر للحيلولة دون مواجهتها مرة اخرى .

فامام هذا الخرق الذي برهن عنه الفراعنة ، يحق لنا ان نتساءل عما اذا كانت مصر قديماً اصبحت بعقم بالرجال الاكفاء الخليقين بالاضطلاع باعباء الوظائف العليا مع بقائهم في الحدود المرسومة لهم . فمن بين جمهرة السكان السليبين القابعين في اشغالهم اليومية ، لم يُبرزوا - ولم يجربوا ان يبرزوا - نخبة مختارة من الموظفين الاكفاء ، ثقافياً وخلقياً ، تكون من الكثرة والوفرة بحيث يختارون من بينها القدر الكافي لتأمين الادارة . لم يتوفر لكل الشعوب في كل ادوار تطورها التاريخي ما يلزم الدولة من موظفين اكفاء يجمعون بين الاختصاص والاخلاق وصدق الولاء ويحققون مثالية الدولة التي راودت الحضارة المصرية لتشييد البناء الديني والعلماني ، والمدني والعسكري .

ولعله من المفيد ان نحسب هنا حساباً لهذه الذهنية التي سيطرت على النظام الملكي المطلق في مصر ، وجعلت فراعنة مصر يعتقدون ان مصر 'ملك' خاص او متاع خاص بهم ، فيستندون

بوجوبها ذوي قرباهم المتكاثرون عددهم بتعدد الزوجات ، ويقربون رجال بطانتهم ومحاسبيهم ، وقد اطمأنوا الى ولائهم في البدء . الا اننا على مر الاجيال وكر السنين نرى محاولات عدة للتحرر يقوم بها اصحاب الخطوة للاستبداد بامر السلطة . ويمدنا التاريخ بالكثير من الامثلة على ذلك .

على مثل هذا الشكل الموصوف تم ، على الاخص ، انحلال الامبراطورية
المصرية القديمة ، كما يتضح ذلك ، بصورة لا تدع مجالاً للشك ، من الوثائق
القديمة وزوالها
العديدة ، ودون ان ندخل في تفصيل ذلك يكفي ان ننوه هنا لِمَا
ببعض الاحداث المميزة .

نالت الهياكل العديدة هبات واعطيات واسعة من الاراضي والعقارات اعفاها الملوك الذين اسبلوها من الرسوم وغيرها من الضرائب المالية المعمول بها اذ ذاك ، كما انهم حولوا لها رسوم الجباية التي كانت تُفرض على مستثمري الاراضي العائدة للملك . كل هذه الهبات ذهبت منافعها بالطبع لرؤساء الكهنة الاقليميين او المحليين الذين حاولوا ان يجعلوا مناصبهم وراثية في ولدهم واسرتهم .

كثيراً ما كان هؤلاء الزعماء الدينيون يجمعون بين المراتب الدينية والوظائف المدنية ، هذه الوظائف التي كانت تولي صاحبها او « المحافظ » ، كما يسميه الاغريق — رئاسة المحافظة ، وقد حصل هؤلاء الموظفون ولا سيما الكبار منهم على إقطاعات عريضة من الارضين نالوا معها حق نقلها بالوراثة الى ابناءهم من بعدهم .

ففي الوقت الذي كان فيه جميع من في البلاط يفاخرون بقربانهم بالملك ويعتدون بصداقتهم له وتقربهم منه وملازمتهم لبطانته ، اخذت اوامر هذه القرى وشائج هذه الصداقة تتراخي بسرعة مع الزمن وتخف عراها . والضعف الذي اعترى السلطة المركزية كان من بعض نتائجه الوخيمة ان يحمل بعض مرضى النفوس ممن يتوقون للسلطان ، على مناصبة الملك العداء المكشوف فنشأ عن هذا الوضع في المقاطعات ، طبقة من النبلاء او الاشراف المحليين ، كما زاد من توسيع نفوذ الموجودين فيهم من قبل ، وكلهم يحاول التجاوز على امتيازات التاج او اختلاس حقوق الارتفاق الملكية المفروضة على مساحات شاسعة من الاراضي المصرية ، او يتألبون ضد الملك تحت سلطة احدى الاسر البارزة ، ويتنافسون فيما بينهم ويتحاربون احياناً ، محاولين إخضاع الفلاحين لسلطانهم . فنتج عن هذا كله فوضى قاصمة في البلاد وما الى الفوضى من ضعف السلطان ووهن السلطة المركزية ، وانفصال المقاطعات وتناثرها بدهاء . فقد كان هذا الوضع الاجتماعي الذي برزت عليه مصر الفرعونية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد اولى سوابق نظام الاقطاع الذي ساد المجتمع الاوروبي في القرون الوسطى .

استطاع ملوك طيبة الأوّل من الامبراطورية الوسطى ، في اواخر السلالة
الإصلاح الاعرج
الحادية عشرة وبداية الثانية عشرة ، ان يعيدوا الى البلاد وحدتها المثلومة

فيعود الأمر الى نصابه والنظام الى محرابه . واستفادوا كزملائهم ملوك الامبراطورية الحديثة درساً واتخذوا لهم عبرة من هذه التجربة المريعة التي مرت بها البلاد . فخسر منصب «المحافظة» على الاخص ، في عهدهم ، كثيراً من اهميته ولم يبق له من الوجهة العملية كبير شأن فاستحال الى رتبة شرفية لا غير . وكذلك حدث للوظائف الكبرى الاخرى ووفروا لها من يقوم بها بعد ان رفعوا اليها من برهن عن كفاءته واخلاصه وولائه للملك ، في الوظائف الدنيا التي اسندت اليهم .

ومع ذلك فالخطر لم يُقَضَّ عليه تماماً ، إذ رفض الملوك التخلي عن الاساليب التقليدية البالية التي نهج عليها اسلافهم من قبل ، لما كانت تؤمنه لهم ولذويهم ولبطانتهم من منافع مادية . فالقضاء على هذه الاساليب كان يقتضي له تقويض النظام القائم من اساسه وإلغاء الاعراف والتقاليد التي سار عليها المجتمع المصري إذ ذاك .

ففي عهد الامبراطورية الوسطى كاد النظام الاداري يبلغ الكمال . لا شك في انه بقي في بعض المناطق والاقاليم وظائف هامة لها شأنها تشري وتباع . فالارشادات والتعليمات التي اصدرها الفرعون مريكاره والتي كانت تتنوّى بعاطفة انسانية كريمة ، كانت توصي بالاحتراز من العملاء الفقراء والموظفين المتوسطي الحال لما تجيش به نفوسهم من حسد وجشع ، كما كانت توصي بالتوسيع حول الكبار منهم او «العظام» الذين لهم من الغنى والثراء والبجوحة ما يسد مطلب النفس ويحد من نهمهم فيعتصمون بجبل التجرد بعيدين عن المحاباة والاخذ بالوجوه . والملاحظ على الاجمال هو ان حمى التوريث ظهرت من جديد واستمر العمل بها ، كما يبدو ذلك واضحاً في عهد الامبراطورية الحديثة عند وفاة كبار الموظفين ورؤساء الكهنة . وقد خضعت الوزارة ، كما نحسب ، لنظام الوراثة بالرغم من الصفة الخاصة التي تلبسها ، وبذلك استقر منصب الوزارة مدة طويلة في بعض الاسر . كذلك أعيد الاخذ بنظام إقطاع الاراضي للجنود والموظفين مكافأة لهم على خدمات قاموا بها او تسديداً لمرتباتهم ، كما أعيد العمل بنظام جمع وظائف عدة في شخص فرد واحد .

فلم يلبث أن أطلّ الخطر من جديد على نظام الملك في مصر ، هذا الخطر الذي تمثل في الدور الذي لعبه الجيش في تسهيل مهمة المغتصبين للسلطة العليا في البلاد . ولعل خير شاهد على هؤلاء القادة المحدودين هو مثل القائد حورمحيب الذي بعد ان حقق انتصارات باهرة في ساحة الوغى وحمل ألقاباً عالية ، مثل : « قائد قواد الجيش » ، و « المدير العام للأعمال » هذا اللقب الذي كان يوليه سلطات عسكرية ومدنية واسعة جداً ، نودي به ملكاً على مصر بعد ان سبق لكاهن امون وتنبأ بصيرورة الملك اليه ، ثم تزوج من احدى الاميرات لتأييد شرعيته في الحكم وترسيخ سلطانه على البلاد ، ثم بادر الى تقديم تاريخ وصوله للحكم فجعله توطئة بعد وفاة امنوفيس الثالث ، ضارباً عرض الحائط بالملوك الأربعة الذين تقدموه على العرش ، بعد ما عرفوا به من عداء لاله طيبة امون ، كامنوفيس الرابع ، او من تنكّر له .

رئيس كهنة أمون تبين هذه الحادثة المنزلة العالية التي تمتع بها رئيس كهنة أمون والدور السياسي الذي لعبه في البلاد . فليس بغريب قط ان يصبح رئيس الكهنة الشخصية الاولى في الدولة بعد الملك وان يحل محله احياناً .

كان الملك يرأس حفلة تنصيب رئيس الكهنة الأعظم ، ملتصقاً من الاله امون وضارعاً اليه ان يستجيب لتحقيق رغائبه ومشيتته التي يعبر عنها بالتأاسات ومراسم كانت تخفي وراءها الكثير من الدسائس والتطبيقات والمناورات والألاعيب . وكان على الملك ان يستدرج رضى الاله بالاكثر من الأعطيات والتقدم التي كانت تذهب للهيكل فتزيد من سلطة كهنة امون وبالتالي من شأن رئيس الكهنة الذي كان يعيش عيشاً مترفاً ويسكن في دائرة خاصة تعج بالحشم والخدم فتشمل سلطته جميع الكهنة والعاملين في الاملاك والعقارات التابعة لهيكل امون . وكثيراً ما كانت سلطته الدينية تمتد الى جميع اطراف البلاد فتشمل الكهنة القائمين على خدمة الهياكل الاخرى . وكان رئيس الكهنة يمارس الى جانب وظيفته الدينية وظائف مدنية اخرى حتى العسكرية منها . فمن الطبيعي والحالة هذه ، ان تطمح نفسه ليجعل منصبه وراثياً في أسرته .

فالاصلاح الذي قام به امنوفيس الرابع اخناتون لم يستهدف الاله امون فحسب ، بل طغمة رجال الدين ورؤيس الكهنة نفسه الذي اخذت الملكية تخشى الوقوع تحت وصايته ، الا ان المحاولة باءت بالفشل واستفحل بالتالي خطر رجال الدين . وفي اواخر اسرة رعمسيس اي السلالة العشرين ، في نهاية الالف الثاني قبل الميلاد ، اصبحت وراثة مركز رئيس الكهنة القاعدة التي سير بموجبها في البلاد .

والظاهر ان هذه الوراثة لم تصبح مراقبةً للشخص الذي عرف ان يفيد من هذا التطور هريحور . ومع اننا نجعل الكثير من الوشائج العائلية التي كانت تلابسه ، فاننا نراه بعد ارتقاؤه الى رئاسة الكهنوت ، نائباً للملك في النوبة ووزيراً له ، وقائداً اعلى للجيش في الوجهين البحري والقبلي . وتتيح لنا الرسوم والنقوش في هيكل الكرنك ان نتبع المراحل التي مرّ بها الى ان آل اليه التاج الملكي . وفي هذه المرحلة بالذات نرى الوجه البحري يؤول الامر فيه الى وزير سابق تزوج من احدى اميرات الاسرة المالكة . ومع ان هريحور يرسخ دعائم الاستقلال التام فهو يسمح بان يلقبوه هو وزوجته بملوك الصعيد . وبعد ذلك نرى لقب الملك يصير في عدة اجيال متلاحقة ، اي في عهد السلالة الحادية والعشرين ، من ألقاب رئيس كهنة الاله امون . وهكذا نرى الملكية تعجز عن الدفاع عن امتيازاتها ضد تعديات كبار الموظفين وتجاوزات رؤساء الكهنة فتوغل في الفوضى .

وهكذا نرى ايضاً البون الشاسع بين الحقيقة والمثال الاعلى . فالوضع في مصر القديمة يعطينا بوضوح وجلاء ، صورة صحيحة للخطر المزمن الذي احاق بالنظام الملكي المطلق ، هذا الخطر الذي تمثل خير تمثيل في كبار الموظفين .

الفصل الثاني

النظم الاقتصادية والاجتماعية

ان استعراض هذه النظم يوجب ابداء الملاحظة التالية : من العسير جداً تكوين فكرة شاملة وواضحة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر القديمة . أجل نحن لا نفتقر الى ما يستعيد أمامنا هذه الحياة ، فالرسوم والكتابات والروايات اكثر من أن تعدّ ولكننا نفتقر الى الايضاحات العددية والاحصائية . ولذلك فعلينا الاكتفاء بلوحة لا يتساوى فيها توزيع الاضواء تتضح لنا فيها تقنية الانتاج المادية والمقايضات دون ان تيسر لنا رؤية نتائجها وتوزيعها أي ارتباطها بالحوادث الاجتماعية التي تسببها مع ذلك وتتأثر بها في آن واحد .

النظام المثالي من النافل التشديد على النتائج الاقتصادية والاجتماعية التي يستلزمها المفهوم المثالي للملكية المصرية : كان على الفرعون الاله ، منطقياً ، ان يمارس في كل شيء دور وكيل الاله العظماء على الارض ، وعملياً ، بالتالي ، دور صاحب الملك وصاحب العمل المباشر . وكان عليه بفعل سلطته المطلقة ان يعين لكل شخص عمله وأجره .

سبق وبيتنا ان هذه النتائج النظرية ، اذا ما ألقينا نظرة شاملة على التاريخ القديم ، لم يعمل بها الا في حالات وظروف نادرة . فباستثناء عهود ازدهار الامبراطوريتين القديمة والوسطى ، وهي لا تتعدى القرون الخمسة ، عرفت مصر ، دونما انقطاع ، ما يعرف عنه اليوم « بالنطاق الحر » . فمن يا ترى أوجد هذا النطاق ؟ هل هي حرية أنعمت بها السلطات أم غش واغتصاب اغضت عنها هذه السلطات ؟ من ذا الذي كان يفيد من هذا النطاق بالاضافة الى الكهنة والمتنفذين الذين رزح الأهالي تحت وطأة مطالبهم كما رزحوا قديماً تحت وطأة مطالب الملك ؟ كلّها اسئلة لا جواب عليها لأن هذا الجواب يختلف دون شك باختلاف الازمنة والعهود .

ولكن بالرغم من هذا الغموض ، يسود الشعور بأن فقدان البادرة الفردية وحرية الفرد الاقتصادية والاجتماعية كامن في صميم منطق الحضارة المصرية القديمة . فنظام هذه الحضارة المثالي يفرض واجبات دقيقة يحول افعالها دون تحيزه في كاله وبهائه . ويبدو ان الامبراطورية الحديثة وحدها قد بلغت هذا الكمال دون الاضرار بعظمة الحضارة القومية ، أقله في الفترات المجيدة

من حكم السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . ولكن هاتين السلالتين استثمرتا في آن واحد البقاع المصرية نفسها وممتلكات خارجية واسعة الاطراف من شأن مواردها ان تقلب معطيات القضية نفسها .

١ - الحياة الاقتصادية

الزراعة مورد البلاد الكبير العجيب الذي لا ينضب . في صيف كل الموارد الطبيعية واستثمارها سنة ينقل فيضان النيل الى الارض التي فلعتها الحرارة المياه والاحوال المحيية فيستقبله السكان بالمزيد من الفرحة وعرفان الجميل . وفي الخريف يأخذ النهر في الانخفاض ، فتبدأ أعمال الحراثة والبذر في المساحات الصالحة للزراعة التي لا أثر فيها للأرض البور ، والتي لا تحتاج ، بفعل غمر المياه ، الا الى حراثة سطحية . وكثيراً ما كفى لطمر البذار ان يستعمل المحراث البدائي أو ان تقرر الحيوانات الأرض بأقدامها .

دون الرحالة الأغريق اعجابهم بسهولة العمل ووفرة المحاصيل في مصر وقد بدت لهم تربة بلادهم ، بالمقارنة ، وكأنها أم جافية رديئة . ولكن لا نأخذن حرقاً بالتأكيدات والأرقام التي وردت على أقلامهم . فالفلاح المصري ، كأبي فلاح آخر ، يتعب ويتعنى ولا يذوق للراحة طعماً الا في أسابيع معدودة اذ تغمر المياه البلاد بأجمعها فتستحيل كل قرية جزيرة صغيرة . وما ان ينخفض النهر حتى يتوجب على السواعد البشرية تأمين أعمال الري المغذية ومعاونتها وتسييرها... وقد أوجب تنظيم الري وتجفيف المستنقعات ان تشيد السدود وتحفر الأقنية ويعنى باصلاح هذه وتلك بثبات ، كما كان يقتضي في مراحل نموّ المزروعات ان تمدّ الأقنية الصغيرة بالمياه ، أقله في البساتين ، وذلك يجمعها ونقلها من الغدران أو الآبار أو النهر نفسه بواسطة رقاص خشبي خاص أو باستعمال أوعية ثقيلة . قامت السواعد البشرية في سبيل ذلك كله بأعمال فيها الكثير الكثير من العناء والمشقة . وكان الحصاد يتطلب بدوره يدأ عاملة لا تحصى توزع فرقاً تنتقل نزولاً من الوادي نحو الشمال تابعة في سيرها توقيت نضج المزروعات .

ومن نافل القول ان هذه الجهود الجبارة كثيراً ما أعطت ثمارها . فيكفي أن يبلغ الفيضان منسوباً وسطاً - ١٣ متراً في الوادي و ٧ امتار في الدلتا - حتى تأتي المكافأة غاية في السخاء يتلمس فيها السكان عطف الآلهة عليهم . ولكن يتعذر القطع في من كان يفيد عملياً من هذا المن .

كانت الحبوب ، لا سيما الشعير والقمح ، قوام المحصول الزراعي . وكان هنالك ، بالإضافة الى الحقول نفسها ، البساتين بخضارها وشجرها المثمر وكرمتها المعرشة ، وتربية المواشي ، لا الحصان - الذي أدخله الغزاة الرعاة مصر في النصف الثاني من الألف الثاني واستأثر به العظماء - بل الثور والحمار ولا سيما الخنزير والخروف والعنز والطيور الداجنة من أوز وبط . ولم يكن الدجاج معروفاً بعد.

توفر لنا النقوش المدفنية بدقة كل تفصيل حول هذا النشاط الزراعي بحيث يمكننا ، انطلاقاً منها ، ان نسير في هذا الاحصاء الى أبعد حد . ويصح القول نفسه عن القنص والصيد اللذين مارسهما المصريون بجميع الوسائل والادوات المختلفة واللذين لم تنحصر الغاية منهما في التسلية والرياضة : فبالرغم من الحظر المفروض هنا وهناك على استهلاك هذا أو ذاك من الطير والحيوان ، اسهم الصيد والقنص الى حد بعيد في تنمية الموارد الغذائية .

استطاعت ارض مصر ان تؤمن للملايين البشر الغذاء والداس في اقليم ملائم عطوف ووفرت لهم في الوقت نفسه المستوجات المادية الضرورية لحضاره كبيرة .

أجل كانت مصر تفتقر الى الحديد وخشب البناء . فالحديد لم يستخرج من قبل ولمدة طويلة سوى من النيازك ، فكان بالتالي نادراً جداً يستعمله الصاغة معدداً للزخرف . ولم يعم استعماله ، بفضل الاستيراد ، الا قبيل الألف الأول . ولم تكن الاشجار مادرة في مصر ، غير ان أشجارها من نخيل وائل وما اليهما كانت جميعها عقداً لا تصلح للبناء . ولم تقم في مصر على كل حال غابات ظليلة ، فتحتم عليها ان تأتي من النوبة بالأخشاب الاستوائية ، ومن سوريا ، عن طريق فيديقيا ، بخشب الأرز والصنوبر . وقد اعتمدت أعمال بناء السفن خاصة على الأخشاب المستوردة من الخارج .

كل ما عدا ذلك كان كثيراً ووافراً . فالأسوار الصخرية في الصحارى القريية تؤلف مناجم لا تنضب لحجارة البناء الجميلة المختلفة ، والوحل ، اذا خلط بالقش أو بالقصب وجفف تحت أشعة الشمس المحرقة ، يوفر للمهندسين احدى مواد البناء الكثيرة ، والذهب المستخرج من الصحراء العربية ومن النوبة يكاد ينافس الفضة . أضف الى ذلك وفرة النحاس في سيناء والحجارة الكريمة على انواعها من زمرد وفيروز وما اليهما في الصحراء والنوبة وسيناء .

ولم تقتل هذه الحامات من جوف الارض ، وشأنها في ذلك شأن الحصائد ، الا بالمزيد من الجهود الناصبة . روت النصوص أخبار بعض البعثات في الصحراء ، وأعمال حفر الآبار ، واستخراج الفدرات الضخمة ، واكتشافات عجيبة في بقاع خالية ، ولكنها اقل اداء ، على العموم ، من تلك المشاهد المصورة التي تمثل نشاطات الفلاح والصيد وقاطف العنب . ولا شك في ان قسمة عمال المقالع والمناجم - وهم في الغالب من اسرى الحرب الارقاء - كانت أشد وأدهى من قسمة الفلاح ، فهم يشقون عطاشاً تحت أشعة الشمس المحرقة يحيط بهم الجنود الذين يتولون حماية الثروات المكتشفة والمؤن من غزوات البدو . وفي الواقع كان على الطبقات الكادحة في مصر ان تصبر ، في سبيل حياة مصر وازدهار حضارتها ، على نظام لا يقيم وزناً لآلم ولا يأبه غالباً للحياة الفردية نفسها .

توفر لمعالجة هذه الحامات عمال على قسط كبير من المهارة والتقنية والفن . التحويل والمقابض . ولم يكن يومذاك من تميز بين أصحاب الحرف والفنانين . وقامت المعامل

على أنواعها في كل مكان ولكننا لا نعرف منها سوى تلك التي تتعدها المعابد والبلاط الملكي لاحاطة الآلهة والملك الاله وحاشيته بمختلف ادوات الزينة والزخرف . واكتفى السواد الاعظم من السكان بالعادي العادي من الاواني الخزفية . فلفظ المناخ يحد من حاجتهم الى المنسوجات التي تؤمنها الصناعات البيتية ، ولم يكونوا بحاجة للاستعانة بعمل الاختصاصيين المأجور سوى في ظروف الجنائز . وكان بمكنة الحماكة والنجارين والصاغة والحكاكين والنقاشين ان يصنعوا التحف الجميلة لطبقات المجتمع العليا . اما القسم الاكبر من هذا الانتاج فقد أضيف الى كنوز المعابد او خبيء في المدافن المظلمة بانتظار عبث الناهبين في غفلة من السلطة ، او تنقيب الأثريين موتاني المتاحف .

وكان بمكنة التجارة الداخلية ان تتصف بنشاط واسع لأن موارد الدلتا والوادي غالباً ما تكامل ولأن الانهار والترع تسهل حل معضلة النقل . غير ان المثل الاعلى لتنظيم البلاد لم يكن ليشجع المقايضات الخاصة ولو طبق بالتام لأفضى الى الاحتكار الكامل لصالح الدولة ، اذ يصبح من واجب السكان المنخرطين فرقاً في خدمة الآلة الحكومة الضخمة ان يتلمسوا بمثابة اجر من المخازن الرسمية كل ما يحتاجون اليه . وهذا ما حصل في اكثر الاحيان لبعض طبقات المجتمع التي يستحيل تحديد نسبتها في مجموع السكان : عمال الحرف وفلاحو املاك كل من المعابد والدولة ، الجنود والموظفون والكهنة الذين غدت هذه التخصصات محاصيل اقطاعاتهم . ولا عجب بعد ذلك اذا ما رأينا ان التجارة ، حتى الصغرى الصغرى منها ، تبدو في مصادرها جذيرة بكل انتباه واهتمام .

وتجدر الاشارة هنا الى ان مصادرها هذه محصورة مواضعها في مصر العليا تقريباً إذ انها سهلة المراقبة والادارة بفعل المحاصرها . ويبدو ان الدلتا جاشب على الدوام بحياة حضرية لم يعرفها الوادي وقلت ببعض السهولة من المركزية التي اضاعت جهودها في هذه الشبكة من الشعب النهرية والمستنقعات . وكانت المجموعات البشرية اكثر انعزالاً فيها فشعرت بصوالحها وبقوتها الحقيقية ، وشدت الى الخارج علائق كثيرة اتاحت لها الاخذ بالاساليب المعتمدة في حضارات الشرق الادنى الاخرى . وليس من الصدفة ان يكون الملك بوخوريس ، الذي اشار ديودور الصقلي الى تشريعه حول العقود ، ملك سايبس احدي مدن الدلتا . ولكن هذا الدليل والأدلة الاخرى التي تثبتته - وجود التجار الاجانب ورواج النقد الاجنبي الخ . - لا يعود تاريخها الى ابعد من اواخر القرن الثامن قبل الميلاد .

وبالفعل لم يعرف النقد في مصر حتى عهد متأخر جداً مع انه الاداة الضرورية لنشاط المقايضات : فالاسكندر وخلفاؤه البطالسة هم الذين عمموا استعماله . كذلك لم تظهر سبائك الذهب والفضة والنحاس إلا في اواخر الالف الثاني بعد ان تكاثر سلب الكنوز والمدافن . ومن قبل ، اي في عهد الامبراطورية القديمة والعهود اللاحقة ، اعتمد المصريون للتقويم والتخمين ، منذ ايام الاسرة التاسعة عشرة ، وزناً معدنياً كوحدة حسابية مثلى ، ثم اخذوا يتقايضون

محاصيل او سلعاً تعادلت قيمتها مضطرين احياناً لاضافة هذه او تلك من المواد الاخرى تعويضاً عن فرق في القيمة او الوزن . وجليّ ان هذه الاساليب وما اليها قد شلّت حركة الصفقات لانها لم تكيّف وفقاً للحاجة .

التجارة الخارجية
ظلت التجارة الخارجية في حالة من الوهن والخور لا سيما اذا ما قورنت بوفرة المحاصيل المصرية وجودتها . ولا تترك لنا معلوماتنا ، على قلتها ، مجالاً للشك في هذا الموضوع .

واذا ما اركننا الى هذه المعلومات ، جاز لنا القول ان التجارة الخارجية منوطة بالملك وحده تقريباً . هو وحده يتصرف بما يمكن تصديره من فائض الانتاج الزراعي او المهني ويقدر الحاجات الملحة لمواد الاستيراد ، لان المعابد والبلاط ، التي تستهلك وحدها هذه المواد ، تتعلق به دون غيره : فصر التي تكفي نفسها بالضروريات لم تلجأ الى الخارج إلا للكاليات من مصنوعات الزينة والزخرف ، والملك وحده اخيراً يمتلك الوسائل المادية لهذه التجارة اعني بها المراكب القادرة على ركوب « الخضراء الكبرى » والفرق العسكرية التي تواكب القوافل في مسالك الصحراء . لذلك غالباً ما ارتدت العلائق الاقتصادية بالخارج ، على الاقل في العهود الفرعونية ، صبغة التجريدات والمشاريع تتولاها الدولة نفسها .

وجب الحصول على الاخشاب من الموانئ الفينيقية وامها جبيل التي ترتقي صلتها بمصر الى اوائل التاريخ والتي كثيراً ما بدت ، حتى ابان استقلالها الحقيقي ، وكأنها من توابع مصر : فاعتبر المصريون المقايضة في رواياتهم كتأدية للضرائب يليها تسليم الهبات . حصلوا فيها على العوارض الخشبية وبنوا فيها بعض المراكب تبسيطاً لعملية النقل . وقدم الفرعون بالمبادلة قطعاً فنية ومعادن ثمينة ومصنوعات متنوعة . وقد جاء في احدى الروايات ان اتفاقاً تمّ التوصل اليه في اوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، بعد مفاوضات عسيرة اجراها احد موفدي هريحور رئيس كهنة امون الذي ما لبث ان جلس على العرش ، لمقايضة الاخشاب المهددة لمعبد الكرنك ، بقطع المصوغات والاقشة الكتانية وخمسائة لفافة من البردي وخمسائة جلد بقر وخمسائة كيس من العدس وثلاثين صاعاً من السمك المجفف الخ ..

وقد جرت المقايضات مع الجزيرة العربية ايضاً ، فكانت السفن تبلغ البحر الاحمر مروراً في شعب الدلتا الشرقية وفي قناة تنتهي الى البحيرات المالحة ومنها الى خليج السويس . وعمدت السلطنة المصرية ، كلما اشتد ساعدها ، الى ترميم هذه القناة المهددة على الدوام بغزو الرمول . وغالباً ما قطعت احدى التجريدات الصحراء العربية انطلاقاً من منطقة طيبة ولحقت بالاسطول على الشاطئ . فيبدأ البحث بعد ذلك في الجزيرة العربية وبلاد « البونت » وابعد الى الشرق في الخليج الفارسي وعند مصب الهندوس ، عن مصنوعات الشرق البعيدة المعجبة من جواهر ثمينة وعطور وطيوب . وقد حاول المصريون اكثر من مرة ان يقتلعوا الاشجار البخورية نفسها وينقلوها

يجذورها وأتربتها الى بلادهم وقد توفقوا الى ذلك فعلاً بأمر الملكة حتشبسوت، في اواسط الألف الثاني، فجاؤوا ببعضها وأعادوا زراعتها في أملاك دير البحري وخلدوا هذه الذكرى بالمزيد من الكتابات والرسوم على جدران المعبد. وقد توجهت بعثات اخرى كثيرة أقل شهرة أو أقل توفيقاً الى المناطق نفسها أو الى بلاد النوبة.

ولكن الأبهة نفسها التي كانت ترافق ذهاب هذه البعثات وعودتها والأبجاد التي يسعى اليها الملك من وراء نجاحها تكفي للدلالة على انها أبعد من أن تؤدي خدمات تجارة منتظمة.

لم تعرف هذه التجارة المنتظمة في الحقيقة الا في عهد متأخر ويعود الفضل الأول في ظهورها، على ما يبدو، الى الأجانب لا الى المصريين. واذا ما عرفت قبل ذلك، على الأقل في الدلتا، فلأن «الخضراء الكبرى» مخرتها سفن أخرى كثيرة غير سفن الفرعون. فقد عثر على مصنوعات كريتية في مصر كما عثر في كريت على مصنوعات مصرية المصدر. وتشير النقوش والرسوم والكتابات الى أجانب، إيجيين أو اسيويين، نقلوا الى مصر مصنوعات بلادهم. ولكن النصوص الرسمية تجعل منهم مندوبين جاؤوا يعلنون ولاءهم لسيّد أو لصاحب إخاذة. وتشير الأوديسيّة من جهتها الى اعمال قرصنة قام بها المغامرون الأغريق، ولعل الحقيقة في القول انها أعمال تجارية سلمية. وما من شك ايضاً في ان بعض التجار الفينيقيين أقاموا في مصر اقامة دائمة. ولكن مهما يكن من الأمر، فقد بقيت هذه العلائق عرضية حتى القرن الثامن عندما احتاج ملوك سايس الى اليونانيين كمرتزقة فسمحوا لمواطنيهم بتعاطي التجارة على هذه الأرض التي كانت مطمح الأنظار الجشعة. وبعد التلمّسات الاولى التي اثارت في الرأي العام ردّة فعل صاخبة، حدّوا من حريتهم في نواحي البلاد المختلفة وفي الدلتا نفسها، ولكنهم مع ذلك خصصوا اليونانيين بسوق تجارية هي نوكراتيس حيث أقاموا متاجر دائمة تمكنوا بواسطتها من مقايضة نبيذهم وزيتهم وخزفياتهم ومصنوعاتهم المعدنية بالقمح الذي كانت مدنها اليونانية بحاجة اليه. ثم جاء ملوك الفرس فكانوا اكثر تسامحاً وتساهلاً. وهكذا فان مصر كانت آخذة في الانفتاح على التجارة العامة حين انتزعها الاسكندر نهائياً من عزلتها بتأسيس ميناء الاسكندرية «على مقربة» منها.

كانت مصر الفرعونية اذن أبعد من أن تحقق جميع امكاناتها
عزلة مصر الاقتصادية ونتائجها الاقتصادية. فقد تعنت وتأثرت، في رجالها النشيطين الوادعين، من الافراط في نسبة ما أقطع من محاصيلها تخصيصات للآله والملك والاله والموتى المؤهلين. ولجأت اقتصادياً في نموها الطبيعي بتجميد معادنها ومصنوعاتها الثمينة في كنوز معابدها وفي مدافنها. كما انها تعنت وتأثرت ايضاً بفعل انكماشها الطوعي والعرضي معاً على نفسها.

كان بمكنتها ان تنتج كثيراً وقد انتجت كثيراً في الواقع. كما كان باستطاعتها ان تضاعف انتاجها لو حسنت تقنياتها باعتماد اكتشافات الشعوب الأخرى وأساليبها. وكان باستطاعتها على كل حال ان تسدّ الى حدّ بعيد العجز التقليدي المزمّن في الشرق الايجي الذي يوفر لها

الحاجات اللازمة لأدواتها، وهي قد بذلت جهوداً متواصلة للتوفق الى ما يقوم مقام هذه الأدوات. كان من شأن المقايضات ، لو حصلت ، ان تؤدي الى خير كلا الطرفين ، ولكنها لم تحصل بالاتساع المرغوب فلحق الضرر بالجميع هنا وهناك .

قد تكون مصر توصلت الى تشديد حضارتها الكبرى قبل غيرها من نادلتهن المقايضات ، وهذا دليل سخاء الطبيعة عليها. غير ان الظروف الجغرافية ، من جهة اخرى ، حالت دون اقامة العلائق السهلة المنتظمة .

فيبدو والحالة هذه ان مصر القديمة نزعت الى العيش بنفسها ولنفسها خاضعة في ذلك لمثل أعلى في الاستقلال الاقتصادي - وهذا المثل الاعلى فطري عند الشعوب والأفراد على السواء ، الا ان الشعوب تعرف كيف تهمله عندما تكون سلامتها بأمن من الاخطار - وقاصرة طلباتها الاستثنائية من الأجانب على ما يكمل مواردها الخاصة . فهي لم تبحث في الخارج الا عن الاستزادة فقط . وقد أحاطت على الدوام هذه الزيادة ، تبذل الجهود للحصول عليها ، بما يضيف عليها سمات الأهمية والندرة والزهو . عاشت مصر داخل اطار مقفل ، كلما استطاعت الى ذلك سبيلا ، عازفة عن امتلاك الغابات اللبنانية نفسها وحاصرة في النوبة وسيناء أفق مطامعها الاستعمارية .

ألا يجوز لنا الجدّ في كشف أسرار سيكولوجية الشعوب ؟ وهل يجوز لنا ، على الأقل ، ان نعتقد بأن هذه الوقائع تفسر جزئياً تلك المشاعر التي أشار الأغريق اليها عند المصريين وثبتتها أدلة كاشفة كثيرة في مراحل التاريخ القديم : تمسكهم المستميت بالتقاليد القومية وفخارهم الفطري بصفات حضارتهم ورسوخها في القدم وشعورهم بتفوقهم الأدبي والديني على الشعوب الاخرى ومقاومتهم كل اندماج بالغير واحتقارهم الأجنبي حتى وكراهيتهم له . فيمكننا دون تهوّر ودون عناء اثبات حقيقة التبادل بين فعل وتفاعل الأحداث والمشاعر في هذين النطاقين .

٢ - المجتمع

الأوضاع الاجتماعية : الرق ان فقدان المستندات القانونية حول الأوضاع الاجتماعية في مصر القديمة يفسر جهلنا المطبق الخيف الذي لا يجوز اخفاؤه .

لا شك في ان الرق كان منتشرأ . ويبدو أن الأرقاء كانوا أجانبا في الأصل : أسرى حرب وأسرى قرصنة أو لصوصية قدمتهم سلطات بلادهم بمثابة جزية أو تم شراؤهم من الخارج . وكثيراً ما حدث ان أعطي هؤلاء النوبيون والليبيون والأسويون أسماء مصرية جديدة تثير الشك أحياناً حول حقيقة جنسياتهم . ولكن ليس من مثل واحد اكيد على وجود عبد مصري بحصر المعنى ، مع اننا نجعل مصير الأولاد الذين أنجبتهن في مصر النساء الأجنبية المستعبدات .

ويبدو في هذه الظروف ، ان العبيد قد تفاوت عددهم وفاقاً لمتانة وطبيعة علائق مصر بالخارج . ولكن هذا العدد لم يبلغ يوماً نسبة مرتفعة اذا ما قيس بمجموع السكان . وكان امتلاك العبيد دليل يسار ومحبوذة لم يحدث ان توفر عملياً للطبقات الاجتماعية الدنيا ، اذ ان وجود العبيد ، عند مثل هذه الطبقات ، مما يثير الشبهات كما تكشف عن ذلك بعض التحقيقات حول نهب المدافن .

وكان الملك نفسه سيّد غالبية هؤلاء العبيد الأوّل يحتفظ بالقسم الأكبر منهم ويستخدمهم في خدمة البلاط او في أعمال العناية بالاملاك العامة او في أعمال المناجم والمقالع الشاقة . ولا شك في ان بعض الممتازين منهم قد عينوا في فرق المرتزقة وان غيرهم قد شقوا طريقهم في وظائف الادارة بعد ان أسندت اليهم في البدء اعمال الترجمة : فحدث يوسف مثلاً ليس بالبعيد البعيد عن الحقيقة .

ولكن الملك قد وهب بعضهم ايضاً للمقربين اليه وخصوصاً لمحاربيه فجعلهم بذلك يهتمون بمغانم النصر . وقد ادى عمله هذا الى توزيع العبيد على طبقات المجتمع المصري المختلفة لانهم ما لبثوا ان استحالوا مواد تجارية تباع وتؤجر وتقرض . هنالك بعض الروايات عن عبيد يهربون فيطاردهم رجال الامن، ولكننا نميل الى الاعتقاد بان الهاربين هم من عبيد الملك لان اصحاب الاملاك الخاصة عزل من السلاح امام الخسارة والسرقة كما هي حالهم امام الاعتداء على ممتلكاتهم الاخرى . وهنالك بعض الامثلة النادرة عن تحرير العبيد التي يمكننا الجزم في طوعيتها .

هذا كل ما يمكن قوله حيال هذا الموضوع . ويجوز لنا بالاضافة الى ذلك التأكيد ان قسمة العبيد ، المرغم على العمل تحت تهديد العصا الدائم ، ما كانت لتختلف عملياً عن قسمة الفلاح نفسه . وهو لم يتصف قط بصورة مجتمعية مميزة ، وما لبث ان امتزج وانصهر في مجموع السكان بالرغم من تميزه اصلاً بلغته ودينه واخلاقه وربما بصورته الطبيعية ايضاً .

الاسرة : المرأة
الاسرة نطاق مظلم آخر . في الشعر المصري يدعو الشاب حبيبته « اخي » كما تدعوه هي بدورها « اخي » . ودرج على ذلك كل من الزوج والزوجة . فهل يُستنتج ان القاعدة كانت في زواج الشقيق من شقيقته ؟ انقسمت الآراء حول هذا الموضوع . فالذين يرتأون الايجاب يستندون الى مثل اوزيريس وايزيس في الميثولوجيا المصرية والى اقسام الملوك ، في بعض السلالات على الاقل ، على التزوج بالفعل من شقيقاتهم . اما القائلون بالنفي فيجيبون ان الحرص على نقاوة الدم في اسرة الهية قد يبرر مثل هذه العادة الغريبة وان التسميات المجازية واردة في جميع اللغات . ولا تزال ابواب هذا الجدل مفتوحة على مصراعها .

ويبدو ايضاً ان الاسرة المصرية موسومة باعراف تحمل المرأة في مركز مرموق بل في مركز الصدارة احياناً . فعالباً ما انتسب الابناء الى أمهاتهم انتسابهم الى آبائهم . واذا ما توفي زوج ، وليس بين ابنائه من بلغ سن الرشد ، انتقلت سلطته الى امرأته حتى في علائق الاسرة بالدولة .

وقد عرفت رسمياً ، لا سيما بعد الامومة ، « بـسيّدة البيت » ، متمتعة بكل ما في هذا التعبير من مدلول قانوني ، وذلك بالرغم من ان البيت مصدره الزوج . ولكن الشك لا يزال يحوم حول تحديد ذلك في الزمن او التعريف عنه بوضوح .

والادلة على ما يعارض ذلك ليست بقليلة . ويبدو انه قد عمل احياناً بعقد زواجي يحدد مساهمة كل من الزوجين المادية ويحتفظ لكل منها بملكية ما يقدمه . وقد سمح بتعدد الزوجات الذي درجت عليه دون شك بعض طبقات المجتمع المتنعة بالفنى التي تستطيع تحمل ما يجبر ذلك من نفقات : فقد رزق رعمسيس الثاني مثلاً اكثر من مائة وستين ولداً . ولعل مركزاً شرفياً مرموقاً اعطي لاحدى الزوجات التي نعجز عن تعيينها بالضبط . وبالإضافة الى هذه الزوجات الشرعيات اتيح للرجل ان يحتفظ لنفسه في منزله ببعض السراري . وعلى نقيض ذلك كان تعدد الأزواج محرماً على المرأة التي يؤدي بها زناها الى القتل حتى ولو لم يقبض عليها بالجرم المشهود . ولكننا نجعل ما اذا كان على المحاكم ان تتدخل دائماً في هذه الحالات .

اجل ان في الادب الخيالي الكثير الكثير من الروايات التي تلعب فيها المرأة دوراً شديداً البعد عن الفضيلة ، وهي إما لو اذع اصطلاحية واما انتقام الحقيقة والواقع من تشريع ظالم اعرج . ولنعترف هنا ايضاً بجهلنا المطبق ، لا سيما ونحن نرى بازاء هذه الروايات ، التماثيل العديدة لزوجين جالسين او واقفين جنباً الى جنب وقد تشابكت ايديهما او القيت يد المرأة منها على كتف الزوج ، مما يدل على ان الموت نفسه لا يفصل بينهما . غير ان للفن ، وللفن المدفني بنوع خاص ، ما للادب نفسه من مصطلحات .

ويحذر بنا هنا ، دون رغبة منا في التعميم والشمول ، ان نلفت الانتباه الى الدور السياسي الذي لعبته في بعض الظروف نساء معينة من السلالة المالكة اشهرهن على الاطلاق الملكة حتشبسوت في اواسط الالف الثاني . وكذلك ، في القرن الثامن قبل الميلاد ، خلفت بعض « عابدات امون » ، في السلطة الروحية والزمنية على السواء ، رؤساء كهنة امون الذين لم يتح لزوجاتهم معهم ، لاجيال واجيال ، ان يحتلن مركزاً يذكر . فيمكن القول ، على وجه التأكيد ، ان مصر القديمة لم تنظر ، مبدئياً ، الى المرأة نظرتها الى كائن ادنى ، ولعل عزوفها النسبي عن الامور العسكرية وعدم اهتمامها بها يفسر لنا خير تفسير هذه الغرابة الخاصة .

نحن نجعل كل شيء عن التشريع في موضوع الاولاد ولكن الولد والاحصائيات البشرية
الاخلاق تتراءى لنا بشيء من الوضوح . وجب ان يكون للمصري ابن يؤمن له الدفن بعد موته وفقاً للطقوس واعراف الجنائز ، إذ يجب ان تدوم الاسرة جيلاً بعد جيل . لذلك يتحتم على الابن ، اذا ما بلغ سن الرجولة ، ان يقوم بدور رب الاسرة حيال امه الارملة وشقيقاته . غير ان ولادة الذكر التي من شأنها ان تؤمن الاعقاب لم تؤد يوماً الى التضحية بمن يولد بعده من اخوة او اخوات . وقد لاحظ الاغريق ببعض الدهشة ان

المصريين يرضون « بتربية » جميع الاولاد . ونفهم من ذلك ان المصريين لم يدرجوا شأن الاغريق ، على « عرض » المولودين حديثاً ، اي على اهمالهم وتركهم يستهلكون بين نفايات الحياة المادية .

وبالفعل فان العطف على الولد كولد صفة من احب صفات الحضارة المصرية ومن اكثرها ندرة في الحضارات القديمة . فهل هو دمية من نوع الحيوان المنزلي الصغير يطفح بحياة فطرية نضيرة ، ام انسان المستقبل ، اي وعد يجب مساعدته على التحيز في تفتح وجوده . ان الافتراض الاول اقرب للصواب لان الفرد لم يكن له كبير شأن او قيمة . ولكن لا نتوقف عند هذه التفاصيل والفروقات الدقيقة . فيكفي ان نعرف ان الفن المصري كثيراً ما طرق موضوع الولد بحيويته والعباه وعطفه والعطف عليه . ويكفي كذلك ان نعلم ان النصوص كثيراً ما تصف مسرات الطفولة وتعتبر احياناً بقوة مؤثرة جداً عن الافراح التي تنسي الوالدين عناءهم ومشقتهم .

كان من شأن خصب البلاد ان يزيل شبح القسوة اللفظة التي فرضتها فرضاً ، في غير مكان ، طبيعة اقل سخاءً . ومن المؤكد ايضاً ، بالرغم من غزارة المياه وعدوبتها ، ان الوفيات بلغت نسبة مرتفعة . ومع هذا فلا شك ان المعنيين بامر الاحصائيات البشرية قد قدروا احياناً حرجة الموقف وواجهوا بعض المضاعفات الاقتصادية : فمهما بلغت ارض النيل من خصب مغذٍ ، لم يكن بمكنتها ان تتسع لهذا التكاثر البشري المتزايد . كانت الادارة في وضع يمكنها من استدراك الخطر ، إذ ان القانون يقضي ، ولو نظرياً ، بالتصريح عن كل ولادة هي لها بمثابة فم جديد لا يجوز لها ان تدعه يوماً يصرخ من الجوع . لذلك كلما استعادت السلطة الملكية قوتها وشعرت بواجباتها وقضت على خطر الفوضى ، اخذت على نفسها اعمال تصريف المياه والري رغبة منها في استخلاص اراض زراعية جديدة من المستنقعات والرمول . لذلك فان كل عهد ازدهار وعظمة من عهود مصر القديمة قد تجلّى بتوسيع رقعة زراعة القمح في الفيوم على حساب بحيرة ميرييس ، وهي هبطة طبيعية فسيحة الارجاء ، الى الجنوب الغربي من الدلتا ، تنتهي اليها مياه فيضان النهر . اما في عهود الانحطاط فتغير الرمول على المنطقة نفسها وتكتسحها النباتات المائية . ولذلك فان رسماً بيانياً لمستويات البحيرة وشواطئها المختلفة في العهود المتعاقبة — فيما لو امكن وضعه — يصوّر التطور المتوازي في نظام المملكة وازدهارها وسكانها ، لان هذه الظواهر تعود ، في زمن واحد ، الى مجموعة منسجمة واحدة .

لما كان الصالح العام يستتبع سلطة ادارية مطلقة مثالية ، اصبح من المحتوم ان تتجه الادارة ، رغبة في تبسيط مهمتها ، الى تقسيم المجتمع ، المنتظم رتباً وفرقاً ، الى طبقات وراثية تؤلف الاسرة لها إطاراً طبيعياً . فاذا ما توفقت الى ذلك ، وجدت معضلة الاستفادة من الكفاءات ، وهي مستعصية بفعل

الاتجاه المحتوم
الى الطبقات الوراثية

تحدد لها المتواصل ، حلاً يكاد يكون آلياً . وهكذا يتم تلقائياً تأمين ملء الفراغ في الحرف والمهن ولا يبقى سوى إيجاد العمل لمن هم أصغر سناً .

ولكن هذه النزعة لم تفض قط الى جمود شامل . فهي ، بدلولها هذا ، وبفعل تجاوبها ومنطق النظام الضمني ، قد أدت الى نتائج عملية ، فنحن نرى ، في مراحل تاريخ مصر القديمة المختلفة ، امثلة اجتماعية شبه ثابتة تسيطر عليها الوراثة سيطرة تامة . كان الأب ، بفعل الغريزة ، يكتشف الابن على صورته ويطلعه على أوّليات معرفته وفنه بإشراكه في عمله وينقل اليه بسهولة المهنة المدونة باسمه في السجلات الملكية كما لو كان ينقل اليه ملكاً عائلياً خاصاً . وإذا ما اتفق ، من جهة ثانية ، ان لمس فيها بعض الفائدة ، كان من السهل عليه ، بموافقة الادارة ، ان يؤجرها او يبيعها . ولكننا نعتقد بأنه ما كان ليقدّم على ذلك اذا تيسر له ان يحلّ محله فيها . احدى ابنائه . أو أنسابه . وهذا ما يفسّر ، في جميع العهود ، رسوخ وركانة المجتمع المصري . وإذا أغفلت المصادر في غالبيتها ذكر هذه الوراثة المفترضة والمقدرة ، فان الكتابات المدفنية ، التي تشدد بفخار وكبرياء على انتساب الميت الاجتماعي ، لا تترك اي مجال للشك حيال هذا الموضوع .

ويجب لفت النظر الى اننا نستخلص وجود بعض هذه الامثلة الاجتماعية استخلاصاً فقط . قالتجار مثلاً وسكان المدن على العموم يكتنفهم الغموض الشامل لأن المدن ، ولا سيما مدن الدلتا العديدة التي كانت تجيش بحركة تجارية ناشطة ، امنع من ان يدركها البحث والاستقواء بعد ان غاصت ، منذ عشرات القرون ، تحت طبقات الاوحال الرسوبية المتركمة . ويصح القول نفسه عن المقابر التي قد يسفر التنقيب فيها ، فيما لو امكن التنقيب ، عن الكثير من النقوش والرسوم والكتابات الكاشفة . ومن المدهش ان الأدب المصري لم يتعرض قط عملياً لامور سكان المدن ، ولعل مرد ذلك الى ان الادب يتوجه اساساً الى العظماء المقيمين في اقطاعاتهم المتميزين باحتقار هؤلاء السكان وجهل كل شيء عنهم ، لا سيما وان نفوذهم الاجتماعي كان يقف عند مداخل المدن .

لذلك كان علينا ان نقصر الكلام على عدد من الامثلة النموذجية التي
الأمثلة الاجتماعية : الفلاح
حيّزها الفنانون والكتاب المصريون نهائياً بالرغم مما فيها من
صفة اصطلاحية .

اما المثال الواجب رسمه قبل غيره ، بسبب ديمومته وشموه ، فهو الفلاح ، المثال الاول للمصري وللشواد الاعظم من المصريين في كل جيل . فهو فلاح قبل أي شيء آخر ، بالرغم من توليه اعمالاً اخرى مختلفة في بعض الظروف : تهيد الاراضي ونقل الاحمال على ظهره او الاشتراك بحمل الثقيل منها في صفوف طويلة من امثاله . يتوقف انتزاع المحاصيل المغذية من التربة السوداء وحياة مصر نفسها وبهاء حضارتها على عمله خلال الفصول المتعاقبة ، وفاقاً لفيضان النهر وانخفاضه .

ولكي تتمثل حالة الفلاح ، يهون علينا ان نرسم وجهي لوحة مزدوجة تتباين منها الطلال والانوار ، فالمصادر المصرية ، ولو تعاصرت ، تدعو الى ذلك .

كان فدادياً في الامبراطورية القديمة ، وما زال فدادياً ، عملياً ، حتى اذا بدا حراً فيما بعد ، من الوجهة القانونية ، لأنه اليد العاملة الضرورية التي لا يبقى للأرض قيمة بدونها . فهو مرتبط « بحقول الفرعون » والمعبد - وقد شملت مصر بكاملها في بعض الاحيان - او ان عمله يعطى ويباع مع الاملاك التي لا يستطيع ان يهرب منها . اجل انه يملك بيتاً شيدته يده من لبن وعوارض خشبية حين اقدم على الرواح ، كما يملك حديقة وبعض الطيور الداجنة . ولكن الارض الصغيرة المؤلفة من بيته وداره وحديقته لم تكن سوى هبة الغاية المبيتة منها احكام ابقائه في الارض التي يعمل فيها تحت سلطة المتولي عليها . وقد يكون الملك ، في بعض العهود ، قد آثر اعتباره مزارعاً يستثمر على هواه حقلاً يعادل حقل جاره من حيث المساحة ، ولا شك في ان ذلك استتبع تأجير بعض الحيوانات وبعض الادوات الزراعية . ولكن قسمته المادية لم تتغير قط ، موجهاً كان عمله ام حراً . فهو لا يزال يرح تحت كاهل السخرة التي لا بديل عنها لعمال السدود والاقنية . ولا يزال الحق بمصادره قائماً لصالح الادارة المدنية او العسكرية . كما لا يزال سيده يقطع حصصه دون هوادة ، إما مباشرة ، إما عن طريق اقتسام المحاصيل او بدلات الاستثمار او الضرائب . وتميل النصوص الى التشديد على تجاوزات الموظفين في سلطتهم وصلاحياتهم . وأشهر هذه النصوص « هجاء المهن » الذي يعود ما يصفه الى عهد الامبراطورية الوسطى . وبعد ان يعدد الاضرار التي انزلتها بالمحاصيل الحشرات الطفيلية والجردان والطيور والحيوانات البرية واللصوص ، نراه يفصل بقرينة تصويرية ضربات العصي يكيلها للفلاح مرافقو جابي الرسوم وضروب قسواتهم ومظالمهم : « حينئذ يضربونه مطروحاً على الارض ثم يوثقونه بالحبال ويلقون به في القناة فيغوص في الماء ورأسه الى اسفل ويحرك يديه على غير هدى . ثم توثق امرأته بالحبال امام ناظريه ويكبّل اولاده بالسلاسل . فيتخلى عنه حيرانه ... »

قبالة هذه اللوحة التي تثير الشفقة ، نستطيع ان نشير الى تهديدات الملك المتكررة لمأمويره والتحقيقات المشددة يأمر باجرائها والعقوبات ينزلها بالخالفين والعدل يوزعه بنفسه . ولكن هذه الاجراءات التي تستحيل ، منذ اواخر الالف الثالث ، مجرد مادة للترديد ، تفقد فعاليتها وثقة السكان بها . وللحصول على الوان اكثر نقاءً وجلاء يترتب علينا ان ننظر الى رسوم جدران المدافن . فهي ايضاً تصف بقرينة حادة افراح الحياة الريفية واعمالها على السواء وتستعيد امامنا الظلال الوارفة والمياه العذبة وتعب عن حرارة فرق العمل التي تقوم ، على الحان المزامير ، بالحصاد او بدوس العنب . والى جانب الاشخاص ، كتابات تكرر كلامهم الرشيقي والمرح الذي لا يعرف للمرارة معنى . الحصادون ينشدون : « عملنا هو ما نحب » . ثم يسيطر على الجميع جو من المزاح والمداعبة . وبعد الفراغ من العمل يستسلمون للراحة يجرعون خلالها البعة فرحين بالعب اولادهم امامهم . ويبدو كل منهم راضياً عن قسمته وسعيداً بان يلفت ،

بهارته واخلاصه انظار سيده الذي يوجّه نشاطاً ضرورياً لسعادة الجميع .

واذا نحن خيّرنا ، تبدو اللوحة الاولى أقرب الى الحقيقة ، فهذه المدافن المزدانة بالمشاهد الريفية انما هي مدافن العظماء المتعاضدين عن آلام خدامهم ، والاطار المثالي لهذه الكتابات الراحوية انما هو حقول العالم الثاني . وقد ذهب بعضهم الى وضع مثل هذه الأغنية على أفواه حاملي أسياهم : « نؤثر الحمل الملائن على الحمل المارغ » . ولكن « هجاء المهن » من جهته يدعو الى الانتفاض . وكان من شأن هذا الشقاء ان يفضي طبيعياً الى الثورات ، غير ان هذه الثورات لم تتميز مرة واحدة بالشمول ، كما ان حوادث الهرب نفسها لم تتكرر الا نادراً . وهل هناك من خيار بالمعنى الصحيح ؟ فليس بمكنة الفلاح ان يلمس شقاءه الا بمقارنة قسمته بقسمة غيره من الفلاحين التي لا يعلم عنها شيئاً . الآلهة أنفسهم هم الذين وضعوا النظام الذي رزح الفلاح تحت وطأته المادية ، وهذا النظام في نظره لا يمس . لا شك في انه حاول المطالبة بحقه في هذه الدنيا ، ولكنه سيحصله على كل حال في الآخرة ، بينما سيلقى العقاب فيها ذلك الذي حرّمه منه . وقد دفع به كل هذا الى السلبية والاسسلام ولم يبق له الا ان يستمتع بتلك الافراح العادية التي لا يمكن لأحد ان ينتزعها منه : أفراح الطبيعة الهادئة وأفراح حب الأسرة وأفراح الصداقات بين أمثاله . ونرى ، بعد كل هذا ، ان وجهي اللوحة المزدوجة يتكاملان دون تعارض بالرغم من تباين الألوان فيهما ، وان تقاربهما وحده هو الذي يحدد ويقرب الى الفهم ميرة من أخص مزايا مصر القديمة ومن أكثرها تأثيراً . فلم يتح قط لعظماء هذا العالم ، في غير مكان ، ان يتصرفوا بهذا القدر العظيم من الادوات البشرية الناشطة المطواعة والهائنة والمتواضعة والمتجلدة . فليس ابعد ، في مصر القديمة ، من مفهوم الرجل الحر والشخص المجدد الذي يتلقى مساعدة الجماعة لتكون له هويته ، لا لينصهر في الجماهير .

العامل يمكن ان نستخلص بوضوح كاف أمثلة اجتماعية اخرى .

يلف « هجاء المهن » وغيره من النصوص جميع العمال بما يماثل شقاء الفلاحين ولا تهمل الاحصاءات المؤثرة لا مهنة صغيرة ولا حرفة يدوية : الحلاق يستدرج الزُّبُن في الأزقة والحداد يلتزم « فوهة الكور » وينشر الروائح الكريهة « اكثر من بيوض السمك » والحكاك الذي « حقله الخشب » و « معوله الازميل » والنحات والملاح والحائك والخراز وغيرهم ينهكهم عمل سواعدهم ويتضورون جوعاً او يكادون يتسوّلون .

ان اصحاب الحرف ، في الواقع ، اكثر تميزاً من الفلاحين . اما اولئك الذين يمارسون مهن الساحات العامة فيختلطون بعامة الشعب ، والذين يحكم عليهم بالاشغال الشاقة تستثمر عقوباتهم افطع استثمار .

لا شك في ان العمال المرتبطين باشغال المعابد والملك قد لاقوا معاملة اقل سوءاً، فهم يقصدون المخازن الطافحة بالمواد ويتسلمون منها اجورهم في مواعيد منتظمة ، مأكلًا وملبسًا . ولعلمهم ،

بالإضافة الى ذلك ، انتظموا جماعات متجانسة واستخدموا ما لديهم من وسائل للضغط على اصحاب الاعمال . ولدينا امثلة متأخرة عن تهديدات بالاضراب ساعدتهم على الفوز بمطالبهم . ومثل هذه الحوادث مما يثير الشك حول النشاط الذي تعزوه الرسوم اليهم لا سيما في اعمالهم الزراعية .

وكان بودنا ان نتعرف الى قسمة اولئك العمال الاختصاصيين المتميزين الذين جمعوا رصيذاً مدهشاً من التقنية فاحلّوا متوحاتهم في مصاف المصنوعات الفنية الرفيعة . فهل حظوا بالتقدير الذي هم جديرون به ؟ وهل نعموا بتكريم المجتمع لهم او هل كوفئوا مادياً مقابل بهجة الجمال يوزعونها ذات اليمين وذات اليسار ومقابل الخلود يؤمنونه للمقتدرين من زبنهم ؟ من المغالاة والتهور نفى ذلك اطلاقاً لان بعضهم بلع الثروة والجاه بفضل براعتهم . وقد بلغنا اسم الصانع نفسه في بعض الاحيان النادرة النادرة . ويبدو ان عهد امنوفيس الرابع — اخناتون قد تجاوز كل عهد غيره في رفع المستوى الاجتماعي لا سيما للنقاشين . ولكنه عهد قصير الامد اذا ما قيس بالتاريخ المصري المتطاوّل في الزم . وفي اكثر الاحيان لا تحول كفاءات الفنان النادرة ونجاحاته الباهرة دون غمره ، كعامل يدوي عادي ، في جماعات الشعب المجهولة . ولكن حضارات قديمة كثيرة قد ارتكبت في هذا المجال ، قروناً طويلة ، الاخطاء نفسها التي ارتكبتها الحضارة المصرية .

كان اسهل على الجندي ان يبلغ الشهرة . فكثيرة هي الظروف في ساحات الوغى الجندي التي تتيح للفرد ان يفرض بطولته فرضاً . ولكننا لا نستطيع التأكيد مع ذلك ان بمكنة محارب الرتب السفلى في مصر ان يتعالى ويبلغ المراتب التي تولبسه النفوذ وتحوله حق القيادة . وهنالك نصوص تثبت تدرج بعض العسكريين المبرزين في سلك الجندي ، غير ان واحداً منهم لم ينطلق من الرتبة الدنيا بل هو ينحدر اساساً من اسرة تحتل مكانة اجتماعية مرموقة وينتقل يافعاً الى المدارس الحربية التي تجنّب ، منذ دخوله اليها ، الاختلاطات المحطة من شأنه . اما الانطلاق من رتبة الجنود العاديين ، وهو دليل الانحدار الوضيع ، فيكاد يحتم الغمر والاغفال .

وقد سبق ورأينا ان الروح العسكرية لم تنتشر قط بين افراد طبقات الشعب الدنيا لان مزاجهم السلمي لا يصلح ان يكون حقلاً خصباً لاستثارتها فيهم لا سيما وان الانظمة الدينية والادارية السائدة قد شجعت فيهم هذه السلبية وغذتها . ولم تشد على هذه القاعدة ، في بعض العهود القصيرة ، سوى امثلة نادرة لا يجوز ان نغالي في اهميتها ونشمل بها المجتمع كله . ويبدو ان الفلاح لم يبرهن ، في خدمته العسكرية ، عن اهلية تذكر إذ ان مثال الجندي ، عند الفراغة ، اي ذلك الضابط الذي تأتي الوثائق العديدة على ذكر ابحاده ، لم يكن مصرياً بل غريباً ومأجوراً .

لم يعجب الرأي العام بهذا الجندي بل شعر نحوه بالخوف والازدراء . ولم يكن ابن الشعب ليرى نفسه فيه لا سيما وان الجهود لم تبذل لايجاد هذا التقارب بينهما . ولم يعرف الجيش ، على ما نعلم ، اي تخالط اذ كانت وحداته متجانسة من حيث قوميات افرادها . اما اذا حصل التخالط ، خارج الجيش ، فيكون ذلك نتيجة غير مباشرة لاسلوب تمثب عليه الادارة تأمينا لدوام خدمات هؤلاء الغرباء بجؤولها دون المطامع التي تثيرها فيهم ثروة البلاد .

فكان الملك يرعى المرتقة باقطاع كل منهم ارضا ، فيعنى بزراعتها واستثمارها تأمينا لحاجاته وحاجات عائلته . وقد افضى ذلك ، في عهد البطالسة الى « مستعمرات المهاجرين » . وفي عهود سلالات سايبس ، بلغ عدد الجنود ، على ذمة هيرودوتس ، ٣١٠٠٠٠ وقد اقطع كل منهم ثلاثة هكتارات وربيع الهكتار في الدلتا ، وحق لمن انخرط منهم في الحرس الملكي ان يتسلم حصصا غذائية سخية . فليس من المعقول ان يجيء كل هؤلاء من الخارج . وليس من المعقول خصوصا ، ألا يكونوا من اصل مصري ، شريطة ان نعود جيلا او اجيالا الى الوراء .

فاذا كان الملك يحتفظ مبدئيا بحق تملك هذه الاراضي ، واذا كان من حق ادارته بالتالي ان تبقي فيها عائلات الجنود ، ما دام هؤلاء صالحين للخدمة العسكرية فقط ، اصبح من السهل رسوخ قدم الوراثة التي كانت تؤمن مصالح الطرفين . فاذا خلف الابن أباه كجندي ومزارع ، احتفظت العائلة بقطعة الارض وأمن الجيش بديلا عن رجل أصيب بمرض او تجاوز سن الخدمة . وهكذا فالمصري الذي يقيم نهائيا في مصر يصبح بعد حين اصلا لفروع كثيرة ويتمصر احفاده رويدا رويدا فيستحيل ، بعد ذلك ، التمييز بينهم وبين المصريين الاصليين المخرطين في الجندية الخاضعين لنظام مماثل . وتنظم مع الزمن طبقة « المحاربين » الوراثة التي ألمح اليها كتبة الأغريق . ولكن يرجح ، قبل العهد الذي تصح فيه شهادة هؤلاء ، ان الجنود اقطعوا الاراضي منذ السلالة الثالثة عشرة وان المرتقة تضخم عددهم منذ اواخر عهد السلالة الثامنة عشرة .

ولا حاجة بنا لأمثلة اكيدة حتى نتصور نتيجة هذا النظام المحتومة . فوراثة الاراضي المقطعة لم تكن سوى مرحلة من مراحل التطور ويكفي ان تخف وطأة المراقبة الادارية حتى يستحيل استثمار الاراضي ملكية فعلية قابلة للنقل بالهبة او بالبيع ، كما يطيب للمالك ، وتزول مع الزمن فريضة الخدمة العسكرية التي كانت في الاصل الشرط الاساسي لاقطاع الارض . وتتحتم بالتالي العودة الى البدء كلما مست حاجة الملك الى المحاربين الجدد . ان المصادر المتوفرة لدينا ليست من الوضوح والكمال بحيث نستطيع معها الجزم بان مصر قد قطعت هذه الدورة بكاملها ولكن منطق الحوادث يبيح ذلك .

من الثابت ان طبقات الشعب المصري الميسورة لم تقدم للفراعنة جميع ضباط الجيش والاسطول ، لا سيما في جميع العهود ، لان المرتقة قد احتفظوا احيانا.

برؤسائهم الأجانب ، مما عرض البلاد في بعض الفترات للقلق والاضطرابات . ولكن الضباط قد جاؤوا ، دائماً تقريباً ، وباعداد كافية ، من أسر هي في خدمة الجيش او الادارة الراحنة . كثيرة هي الكتابات المدفنية التي تشير باطراء دائم الى المآثر العسكرية واعمال البطولة والتضحيات ، غير ان توزيعها في الزمن ليس متساوياً لأن السلطنة لم تهتم على الدوام للشؤون العسكرية . ولم يكتمل مثال الضابط في المجتمع المصري الا في عهد الامبراطورية الحديثة بنوع خاص وهي التي تولت تحرير البلاد أولاً ونهضت بالفتوحات في آسيا ثانياً . وقد استقر هذا المثال في الازمان بعد هذا التاريخ بسبب الحاجة الدائمة الى الدفاع عن مصر وصد الغزوات عنها

ويشدد « هجاء المهن » على ما يلزم مهنة الضابط من مشقة . في المدرسة الحربية ، وفي المراتب الدنيا نفسها ، لجأ الرؤساء الحازمون الى العصا لتلقين الشاب خفة الحركة والانتباه . يضاف الى ذلك عناء الأسفار الطويلة القسرية في المناطق الريفية ، والأمات تعترض العربات ، والجروح ، وغير ذلك مما هو أدهى . ولكن هذا النص يغير وجه الحقيقة هنا شأنه في تغيير وجه حقيقة مهن أخرى كثيرة ، لا بل يفضي عما فيها من تشويق ، أعني بذلك المكافآت الفخرية وغيرها ، وهبات الفرعون ، وتقاسم الغنائم المادية والبشرية ، والأوسمة عقوداً وأساور ، والتدرج السريع ، وخصوصاً التعيين في الوظائف المدنية ، او الحصول على الاقطاعات المحترمة ، عند بلوغ السن او الاصابة بعاهة ، وكلها تثير في النفس الرغبة والشهوة . وتعطينا الكتابات أمثلة لا تحصى على صحة ما نقدم . اجل لن يجسر اي مستاء على ان ينسب لسيدته نكران الجليل ، ضمناً ، بالكلام عن عوزه في شيخوخته . ولكن الوقائع هي الوقائع . ولن يحظى الملك بخدمة مخلصه الا اذا اعترف بحميل خدامه المخلصين . ويبين لنا مثل حورمحيب ان اقرب الناس الى الملوك واكثرهم حظاً وشجاعة كانوا يحملون أحياناً بالمزيد من السمو والارتفاع .

يبقى أخيراً أولئك الذين نعموا بثقافة ارفع . درجت العادة ان تبدأ الدروس منذ الكامن عهد الطفولة في المدارس الملحقه بالبلاط او بالمعابد حيث تحتل مادة الخط المركز الاول . ثم تتفرع بغية تلقين الطلاب المعارف الخاصة بالمهنة التي يعدّ الوالد ابنه لها ، وهي غالباً تلك التي اختارها لنفسه بين اثنتين : الكهنوت او الادارة .

ونتيجة لانهماكهم في نشاطات المعابد الدينية والزمنية على السواء ، كرّس كثير من المصريين والمصريات نفوسهم لخدمة الآلهة . ولكن في هذا الجمع الغفير علمانيين عديدين بما فيهم فئات عامة الشعب المختلفة : الفلاحون مستثمرو « الارض المقدسة » ، وعمال المصانع الاختصاصيون والمعاونون على انواعهم ، حتى والراقصات والمغنيات والموسيقيات . ولم يحل ذلك دون تضخم عدد الكهنة انفسهم الذين توزعوا فئات كثيرة تختلف القابها وانظمتها ، وربما اعمالها ، باختلاف المعابد . وتعين هذه المهام منوط مبدئياً بالاله اي بالملك ، ولكن المهام نفسها غالباً ما تصبح ،

مع الايام ، ملكاً للقائمين بها . وقد حدث ، في عهد الانحطاط على الاقل ، ان تقسمت هذه المهام حصصاً زمنية غاية في القصر - اجزاء من اليوم - واصبحت موضوع تجارة وبيع وشراء .

وقد يصح الكلام عن كهنوت نسائي قوامه « سراري الآلهة » أو « المعتزلات » . ولكننا نجعل كل شيء عن تربيتهم ودورهم في العبادة . ومع ذلك يمكن التأكيد انهم كن ينتخبون ، للمراكز العليا على الاقل ، في صفوف المجتمع الراقي ، بل في البلاط نفسه احياناً . وكانت الملكة مبدئياً ، منذ الامبراطورية الحديثة ، رئيسة الكهنوت النسائي المكرس لخدمة معبد الاله امون في الكرنك وتلقب « باليد الالهية » و « عروس الاله » او « عابده » . وكانت تقوم مقامها عملياً تلك التي يمكن تسميتها رئيسة الكاهنات .

ويصح القول نفسه عن درجات الكهنة الذكور التي يرأسها في القمة « النبي الاول » و « اعظم الانبياء » ، وبكلمة ، رئيس الكهنة ، الذي عرف بغير ذلك من الالقاب . وكان في كل معبد رئيس كهنة يقوم مقام الملك الذي يعينه لهذه المهمة . وقد احتل بعض رؤساء الكهنة مكانة ضخمة وواسعة بفضل ما للاله الذين يديرون شؤون معبده من نفوذ وطيد وثروة طائلة . ومما لا شك فيه طبعاً ان واحداً منهم لم يتقدم على رئيس كهنة امون في الكرنك الذي افضى ضعف بعض الملوك الى رفعه الى مرتبة « مدير الانبياء في مصر العليا والسفلى » اي الى مرتبة رئيس الكهنوت الوطني الاعلى . والملكية ، كما سبق ورأينا ، تعرضت لخطر الاغتصابات على يد رجال الدين ولم تفلح دائماً في صدّه وابعاده .

وكثيراً ما وقع الخيار على رئيس الكهنة من خارج الدرجات الكهنوتية ، ولكنه اشرف مباشرة على سلسلة كاملة من « القراء » و « الاطهار » و « الآباء الالهيين » و « الانبياء » . وكان باستطاعة هؤلاء الكهنة ، المنتظمين فئات متميزة ، ان ينتقلوا من مرتبة الى اخرى ، غير ان تدرجهم يخضع لعوامل متعددة اهمها التعلق للبلاط وصلة القربى بذوي المناصب الرفيعة . واليك مثلاً عن نجاح كهنوتي باهر احرزه احدهم في عهد رمسيس الثاني : دخل احد ابناء « نبي امون الثاني » المدرسة في سن الخامسة ، اصبح « طاهراً » في السابعة عشرة ، و « اباً إلهياً » في الحادية والعشرين ، و « نبياً ثالثاً » في الثالثة والثلاثين ، و « نبياً ثانياً » في الثامنة والاربعين ، و « نبياً اولاً » في الستين حتى مماته في السادسة والثمانين . وهذا مثل آخر يعود الى عهد متأخر : احد رؤساء كهنة امون يعلن باعتزاز وكبرياء ان ابنه البكر « نبي ثان » في معبده وحفيده « أب إلهي » ، ان لم يكن « نبياً رابعاً » ، بينما يرتبط ابنه الثاني بمعبد آخر .

هذه ، ولا ريب ، نجاحات وأسرع غير عادية زادت انجادهما في القوة الادبية والمادية التي نعم بها كهنوت هو ادارة في آن واحد . فشكّل هذا الكهنوت طبقة اجتماعية شبيهة بطبقة الموظفين المدنيين . ولم يختلف الكاهن عملياً عن الكاتب . فهو ينتقى في الاوساط الاجتماعية نفسها ويربى التربية المدرسية عينها . وهو مدين ، في قوته ، الى مثل أعلى واحد هو التنظيم القميين بان يؤمن

للشعب السعادة التي يهبها الآلهة بسخاء للدلالة عن رضاهم ، وهو أخيراً يحيش برغبة واحدة في اعتبار الوظيفة التي يشغلها ملكاً خاصاً لا خدمة عامة .

نصل ، مع الكاتب ، الى مثال سيد مصر الفرعونية الحقيقي بكل نقائه وجلائه .
الكاتب ولا يشدد « هجاء المهن » ، بتلك المرارة ، على آلام المهن الأخرى واطارها ، إلا لبرز ما تنطوي عليه مهنة الموظف من قوة اغراء واجتذاب . وليس الشخص نفسه ، الذي يرسم هذه الصور السوداء ، إلا موظفاً صغيراً يحض ابنه على الاجتهاد ، وهو يقوده الى مدرسة البلاط ، منبت موظفي الادارة . وهنالك نصوص كثيرة تعرب عن هذا التوق نفسه باعجاب البسطاء دون ان تتم عن حسد او قتل . وتجمع هذه النصوص على القول بقيام حالة راهنة يجب الاعتراف بحقيقة واقعها : « فالكاتب هو الأمر » كما جاء في كثير من هذه الكتابات .

تحرر الكاتب من السخرة التي اخذ يفرضها على غيره وابعد عنه شبح التعب الجسدي وضمن مؤونته من بيت الملك . فتوقف نجاحه على ذكائه وحميته دون غيرها . وكان من الطبيعي ، في مثل هذه الظروف ، ان يحمل الأمل في السعادة المرجوة ، كلاً من الطالب والمبتدئ ، على الابتعاد ، في عمر الطيش ، عن ملذات الرقص التافهة وعن المسكرات والمنكرات ، وعلى كشف اسرار الخط والحساب والادارة ومنافسة اترابه في الدرس والاجتهاد .

ويصور هذا المثال احسن تصوير ، منذ الاسرة الخامسة في اواسط الألف الثالث ، تمثال « الكاتب المقرص » الذي يعبر عن حدة محسوسة في الانتباه عند قدوة الموظفين .

واذا ما حالف الجدارة حسن الطالع ، يرتقي هذا الموظف الوضيع في الدرجات الكهنوتية الى ان يبلغ اكثر المناصب ابتغاءً ، بفعل الجاه الذي تؤمنه ، واوفرها عطاء سخياً ، مما تستتبعه من مرتبات وهبات . وان لم يتيسر له ذلك ، يرافقه دائماً ، حتى في الدرجات الدنيا ، شعور أخذ باشتراكه الشخصي في سلطة لا حد لها وبتساميه على الجماهير بمراقبته الشاملة لاعمالها . وهو مبدئياً يتلقى التوجيهات حتى يوجهها للغير ، ولكن الملك ، عملياً ، ابعد من ان يضمن عليه بالثقة واضعف احياناً من ان يعاقبه على تجاوزاته .

وكثيراً ما يتاح للكاتب المنتمي الى هذه الدولة الالهية ، بفضل وراثة الوظائف وفقدان فعالية آلة الحكم المعقدة ، ان يستفيد منها استفادة مباشرة كبرى ، حالما يتراخى ، في القمة ، ذلك الحزم الذي تبقى المبادئ الاخلاقية بدونه حرفاً ميتاً .

وبذلك تكون الحضارة المصرية قد شُيدت لمجد الآلهة الاعظم ولمجد الفرعون ابنهم ورضيعهم وخليفتهم ، معتمدة مادياً على مجهود الطبقات الكادحة التي أرهقتها بالواجبات ، ومستهلكة المزيد من الثروات بالرغم من سخاء الطبيعة في عطاياها المتكرر . ولكن انانية الانسان الفطرية قد سخرت منها الارضيات لصالح اولئك الذين عملوا تحت سبتار تلك القوى الالهية وباسمها ، اغني عظماء مصر الحقيقيين : الكهنوت والادارة ، الكاهن والموظف .

الفصل الثالث

المظاهر الدينية

ليست الحضارة المصرية مدينة الا بجزء من عظمتها لقوة الالتحام والمنطق — من الوجهة المثالية على الاقل — في نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي . فقد تجلت قوتها الخلافة ، بكثير من التأثير ايضاً ، في نطاقات بشرية اخرى .

ترتب علينا اكثر من مرة ، فيما سبق ، التنويه بقوة الفكرة الدينية في مصر القديمة . وكان هيرودوتس يعتبر المصريين « اكثر الناس دقة في التدين » قاصداً بذلك حرصهم الشديد ، حتى في العادي من اعمالهم ، على العمل بموجبيات دستور العادات والمحرمات الذي سلته تقواهم الملزمة . وهذا الاثبات يحتفظ بقوته حتى ولو رفمناه الى مستوى أعلى . ففي الديانة وخدمها ما يبرر نظرياً تنظيم البلاد العام . وبما ان البلاد ملك للآلهة ، فهي تعيش لاجلهم وفاقاً للمبادئ التي وضعوها والاوامر التي تصدر عنهم يومياً .

١ - الآلهة

عدد هؤلاء الآلهة مرتفع جداً ولا حد لتنوع طبيعتهم .
ويعتمد الاساسي وبحكم الضرورة ، سعى اللاهوتيون في نظرياتهم ، اكثر من مرة ، لادخال نظام ما على هذه الكثرة التي يكاد لا يحصرها عد . وحدث ، لاسيما لاسباب سياسية ، ان قاربوا التوحيد ان لم يتوصلوا اليه بالفعل احياناً . وقد حصل ذلك ، في حال حصوله ، مكرراً وخداعاً باخضاع الآلهة الآخرين لإله يجعل لهذه الغاية أعلى منهم شأنًا وسلطاناً . ولكن هذه الطرائق لم تلق قط ترحيباً يذكر حتى ولو كانت السلطات عوناً لها ولم تحرز إلا نجاحاً محدوداً في المجتمع والمكان والزمان على السواء . فمن الجلي ان تعدد الآلهة كان أمراً اساسياً ولم ترض غالبية المؤمنين عنه بديلاً .

هل كان هنالك ، على الاقل ، فكرة مشتركة وراء هذا التعدد ؟ هل كان هؤلاء الآلهة

يُساوون في الانحدار من مبدأ أعلى ؟ يميل كثير من علماء مصر القديمة ، منذ ما يقرب الأربعين عاماً ، الى اثبات ذلك ويحاولون ان يستشهدوا ، لهذه الغاية بلفظة « كا » التي جاءت على ذكرها نصوص قديمة قدم الاهرام : « هوذا انت ، « كا » جميع الآلهة ، تقودهم وتحكمهم وتحبهم » . ولكن هذه النصوص النادرة والغامضة لا تتيح الاجماع على تحديد مدلولها والانتهاء منه الى ما يغرينا في اكتشاف مدلول ذات الالهية . جوهر اساسي او سائل هولي تنصب عناصره في الاغشية المختلفة ، او مجموع القوى الفائقة الطبيعة ، او مبدأ الحياة الكامن في الاطعمة ، او مبدأ التناسل ، او مجموع الصفات الطبيعية والادبية والعقلية التي تكون الشخص الكامل ، لا فرق كان هذا المجموع واحداً او متعدداً : هذا قليل من تحايد كثيرة قدمها بعضهم . وكل منها يستند الى حجة بعيدة إما الى النظريات العامة وإما الى الاستعارات السهلة ، ويكفي ذلك وحده لان تحوم حولها الشكوك .

ومهما يكن من الامر ، من جهة اخرى ، فما كان بلوغ هذا التجريد يمكن الا لنخبة محصورة العدد ، ولا يبدو ان هذه النخبة انهمكت ابدأ ودائماً في بناء مذهب منسجم ومعقول . ولو حاولت ذلك ، لاصطدمت بواقع ديني برز قبلها مستقلاً عنها مستعصياً على جهودها التنظيمية . ولو وفقت جدلاً الى مذهب مرضٍ ، لقابله المصري بالامبالاة وعدم الاكتراث .

تعكس الديانة المصرية ، بوضوح لا مثيل له الا في الفن الذي تربطه بها الواقع والخيال
 صلة وثيقة ، بعض الخطوط الأساسية للسيكولوجية الجماعية . وقد يرسم
 في الفكرة الدينية بعض هذه الخطوط ، بوضوح متفاوت ، عند الشعوب الاخرى . ولكن
 لمصر خطوطها المميزة .

ومن حيث ان الفكرة الدينية المصرية قد نشأت ، كما في غير مكان ، من المضلات التي واجهها البشر في علاقتهم بالعالم المحيط بهم الذي تستبد حياته بحياتهم ، فهي قد انبثقت بديهاً من المادة الجامدة ومن المحسوس ، مع بعض التفضيل للرثيات . وهي لم تحد عن هذا قط ، مع انها غالباً ما تعدتها ، يستهويها في ذلك خيال حاد . ولم يتح لها هذا الخيال ان تسكب الحياة في الاشياء نفسها فحسب ، بأن اعطتها قيمة ارفع من قيمة الرموز ، بل قادها الى اعتماد التأليف والجمع كي تخلق من معطيات الواقع كائنات جديدة لم يدخل في خلق احد انها دون هذه المعطيات واقعية . ولم يلعب التجريد في كل هذا الا دوراً ثانوياً ، اذ كان يكفي ، لبلوغ الهدف ، بذل مجهود في تأويل الواقع المنظور والاستمرار في الاستفادة من معطياته بحيث يدخل ، في نطاق الاختبار العادي ، اغرب ما يتعرض له الانسان وبيئته المباشرة من احداث وظواهر .

وفي سبيل عملية الخلق هذه ، وفق المصري بين صور مختلفة متناورة ، لانه كان يؤمن بالحياة في الصور . وبما ان الصورة منقولة عن حقيقة في الحاضر او في الماضي ، فهي تضاعف وجود هذه الحقيقة ، أو تعيد الوجود اليها كل مرة يعاد رسمها ، او طالما هي في حيز الوجود .

وهي في البدء ترسم دون قصد ، ثم تتجسم وتعطي الحياة لنفسها . ولذلك فالحاق الضرر بالصورة انما هو الحاق الضرر بمن لا وجود له بدونها . وكانت هنالك طريقة اخرى للخلق ، في التسمية لفظاً او كتابة : فمقابلة إسمي إلهين مثلاً كانت بمثابة جمعها في واحد وكان من شأنها ان تفضي الى النتيجة نفسها التي تفضي اليها صورة من ينتمي الى جنسين مختلفين . وتتصل هذه الطريقة بفكرة الكلمة الخالق التي اعتمدها اللاهوتيون في تفسير تكوين العالم تلبية لنداء الاله الخالق . كما تتصل ايضاً بفكرة السلطة التي تمنحها ، على الاشياء والكائنات الحية ، معرفة اسمائها الحقيقية ، وهي التي كثيراً ما لجأ السحرة اليها . ولكن هذه الطريقة ، على الاجمال ، لم تؤد الخدمات التي أدتها الصورة ؛ منبت الفن المصري الوحيد ، او الاول على الاقل .

وبفضل الواقع من جهة ، والخيال من جهة اخرى ، توفر للفكرة الدينية امكانيات خيار تكاد لا تحصى . ولكن يبدو ان نزعة تفاؤلية ، تلفت النظر بحدتها ، قد وجهت هذا الخيار . لا شك في ان المصري كان محاطاً بقوى كثيرة تبدو له وكأنها تناصبه العداء ، او تهدده تهديداً فقط . وهو قد رآها بام العين وحاول تهدئتها . ولكنه ، على ما يظهر ، لم يرض قط بأن ينظر الى وجهها الخيف ، فحصر في نطاق ضيق ، على نقيض الحضارات الاخرى ، الهول والذعر اللذين اثارتهما فيه . فتمثل آلهته آلهة خير ، وغضبهم غضباً سريع الزوال . ولم يستطع أبالسته قط من توفير نصرة الشر . ولم يحدث في أي بلد آخر ، ان ادرك الانسان معنى الموت بهذا الجلاء وهذه الطمأنينة ، ناظراً اليه نظرتة الى باب الحياة الثانية الابدية . وهكذا فان الديانة المصرية قد سبقت الكثيرات غيرها في املاء عرفان الجميل على اتباعها وفي حمل الامل اليهم . ومن حيث هي علة ومعلول في آن واحد ، فانها قد اندمجت بكثير من التآلف في مجموع حضارة لا سبيل لادراكها اذا نحن اغفلنا ، ولو دقيقة واحدة ، ما ينطوي عليه الشعب في الفطرة من صبر جميل وانس لطيف ، والحضارة كما نعلم تعبير جماعي عن هذا الشعب .

لما كانت اعراق الديانة المصرية ترتقي الى ماض سحيق ، فانها قد حددت تشبيه الالهة بالانسان احتفظت على مر الايام بالظواهر البدائية ، وبرزها بلا ريب عبادة الحيوانات .

ونحن نجد ، قبل بدء الازمنة التاريخية وتوحيد البلاد ، « شارات » المناطق المصرية المميزة مرسومة على المراكب والابنية التي تزين الخزفيات . وهي عبارة عن صور حيوانات او نباتات او أدوات مثبتة في اعلى الاعمدة الخشبية . وباستطاعتنا ان نتصور بسهولة تأليه حيوان نافع او مرهوب ونبات خيّر كالبنطم او النخيل . ولكن كيف نتصور تأليه المترس والخاطوف والنبال وما الى ذلك ؟ ولنفرض انها رموز واصنام ، او ان لها أي تفسير آخر ، فما لا ريب فيه ان لهذه « الشارات » مدلولاً دينياً .

ظهر التشبيه او التجسيد ، قبل عهود السلالات الفرعونية . ولكنه لم يفلح قط في ان يفرض

نفسه كلياً . ففي اوج الحضارة المصرية نفسه ، استلذمت صورة الاله ، على العموم ، تفصيلاً او صفة على الاقل يعبدان الى الذهن الرسوم البدائية غير البشرية ، شريطة ان يكون اصل هذا الاله راسخاً في القدم ، وان يكون متصللاً بالآلهة المحليين . والشذوذ عن قاعدة استمرار الماضي هذه نادر جداً . ولكن اكثر الرسوم انتشاراً هي تلك التي عريت من كل عنصر بشري او تلك التي تمثل الثغولات .

وفيا يلي مثل واضح يبين ، اكثر من اي تحديد ، تنوع الحلول المعتمدة وسرعة الانتقال من حل الى آخر . بين الرموز البدائية قحف الثور الذي انتشر منفرداً في البدء . ثم أُضيف اليه المزهري فقام هو مقام الهيكل المعدني للمهر . ثم اصبحت البقرة إلهة المنطقة التي انتشر فيها . وبين الآلهات التي تمثلت بهذا الحيوان ، لاقت حاتور اوسع ترحيب حتى خارج إطار هذه المنطقة . فنتج عن ذلك ان حاتور تمثلت دائماً بشكل امرأة لها اذن البقرة ، او يعلو رأسها زوج قرون حيناً ، وقحف الثور والمزهري احياناً .

وقلماً صادفت عبادة النباتات والجمادات انتشاراً وحيوية ، لأن الحركة اعوزتها والحركة دليل الحياة الاول . وعلى نقيض ذلك استمرت عبادة الحيوانات زمناً طويلاً حتى ولو اتصفت بالبروز آنأً والانكماش آنأً آخر . وفي عهود الانحطاط نفسها ، لم تمل الى الهبوط ، بل بعثت حيويتها بكل قوة . ولا تفسير آخر للمكانة التي يحلها هيرودوتس فيها ، بعد رحلة الى مصر في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد ، والتي تؤيدها جميع الكتابات القديمة اللاحقة . وكثيراً ما يشير الكتبة الاغريق واللاتين ، بدهشة واشمئزاز ، الى الاكرام يحاط به هذا او ذاك من الحيوانات ، وعقوبة الموت او الجزاء النقدي تفرض على من يخالف القانون ويستحل قتله ، والاحترام يؤدي الى ممثل الفصيلة الحيوانية المعتنى به في احد المعابد والى جميع حيوانات هذه الفصيلة بعد الموت . وليس من النادر ايضاً ان يلفتوا النظر الى ان حيواناً قد يكون مقدساً هنا وعدواً هناك . فالتمساح مثلاً يكرم في منطقتي طيبة وبحيرة ميرييس ويطارد ويقتل ويستهلك في منطقة الفيلة . ومن الجلي ان هذه المتناقضات الظاهرة تلاقي تفسيرها في ما تتميز به محلياً هذه الحيوانات الالهية .

وقد أيد علم الآثار شهادات المعاصرين هذه . فقد اسفرت اعمال التنقيب عن مقابر كثيرة دفنت فيها وفاقاً للطقوس ، جثث مخنطة كثيرة لحيوانات معينة : الهررة والكلاب والحباري والصقور والاسماك . . المنتمية لهذه الفصيلة او لتلك الفصيلة الاخرى . ويبدو ان هذه الاعراف لم تنتشر الا في عهد متأخر . غير ان عبادة الثور أبيس في منف تعود الى السلالة الاولى على اقل تحديد . وقد تم العثور على مدافن ثيران هذه الفصيلة العائدة الى ما بين القرنين الرابع عشر والاول قبل الميلاد . ففي معبد سيرايبس الذي اكتشفه مارييت ، عثر على اربعة وعشرين مدفناً تتوزع في الزمن منذ رعمسيس الثاني حتى العهد اليوناني . كان هذا الثور الأبلق يُنصب وفاقاً لطقوس احتفالية ، ويعيش في معبده ، بازاء « فتاح » الاله العظيم الذي هو « بشيره »

و « صورته الحية » ، ويحيب ، باسم الاله ، على اسئلة المتعبدين ويتقبل التقادم ويشترك في التطوافات ، وعند موته ، يحفظ ويوضع في ناووس ويخضع لطقوس جنازية تستمر سبعين يوماً ثم يودع سرباً صغيراً بازاء اسلافه . وبالرغم من ان عبادة ابيس كانت اشهر العبادات طراً ، فانها لم تكن الوحيدة من نوعها . فعبادة الكبش في منديس من اعمال الدلتا ليست دونها رسوخاً في القدم . ويتكلم قدماء الكتبة اينذا عن ثيرات منيفيس وبوخيس ، وقد ايدهم علم الآثار في ذلك .

يتضح اذن ان التشبيه او التجسيد قد اصطدم بعقبات لم يقوَ على التغلب عليها وازالتها من دربه . غير ان المصريين قد درجوا باستمرار على ان ينسبوا للآلهة ما يتميز به الانسان من شهوة للأكل وعاطفة وذكاء وافكار ويكيفونهم على صورتهم أدبياً وروحياً ان لم يكن مادياً ايضاً . وباكرأ جداً ، جمعوا سوادهم الاعظم أسراً على النحور البشري لا سيما المثلث الذي قوامه اب وام وابن .

وليست هذه المثلثات من المعطيات البدائية . فالواقع الديني
الآلهة الهليون : تعدد وجمعهم
المصري السحيق يتمثل بعدد لا يحصى من الآلهة الهليين الذين يُنظر اليهم كأسياذ منطقة معينة . ولم تقتصر سيادتهم على امكنة معابدهم فحسب ، وهذا يصح لجميع الآلهة على السواء ، بل امتدت ايضاً ، اما منذ عهد تطاول في القدم ، واما بنسبة حقهم في التملك الى مصدر غير الهبة الملحقة ، على الارض المجاورة للمعابد ، وعلى كل ما عليها من بشر وحيوانات واشياء . وتركت هذه التجزئة الاولى آثارها بالرغم من ضيق البقعة وانعزالها . وقد تقام عدة معابد للاله الواحد في رقعة بصورة الاتساع . ولكن ، في الواقع ، اطلق على كل معبد اسم خاص ، كما اتيح ايضاً ، لشخصية اله كل معبد ، ان تبرز ، من وراء هذه السمية السطحية ، بواسطة لقب او تسمية او زاوية معينة او صفة لا يصح نسبتها الاله . وكانت باستطاعة المؤمنين ، والحالة هذه ، ان ينوعوا تقوالم وفاقاً لتفضيلاتهم الشخصية او للعادة السائدة . وهم لم يبخلوا على انفسهم بذلك .

وقد توصل المصريون بعد لأي الى تخفيض عدد الآلهة الهليين بطرائق مختلفة . فلبجأوا الى المماثلة ، انطلاقاً من اوجه تشابه عرضية في غالب الاحيان . فالبقرة مثلاً لم تكن في الاصل ولم تبق قط الحيوان الرامز لحاتور دون غيرها ، ولكن حينما وجد اله ترمز اليه البقرة ، سهل على حاتور ان تحل محله . ولجأوا الى التركيب والضم ايضاً فجمعوا المميزات والصفات والرموز المتقاربة او الواحدة . وقد اصبحت هذه الطريقة واسعة الانتشار واعتُمدت لكل الآلهة على السواء . ولجأوا اخيراً الى توزيعهم مثلثات قد تختلف المناطق على تصنيفها او على تعيين الاله الرئيسي فيها . وهكذا يرجح ان حاتور قد اشتركت احياناً في بعض المثلثات كأم هوروس ، ويقودنا الى هذا الاعتقاد اسمها نفسه الذي يعني « مسكن هوروس » . ولكنها اعتبرت زوجة

له على الاجمال ، متوارية امامه ، في ادفو ، جنوبي طيبة ، في المقاطعة الثانية من مصر العليا ، ومتقدمة عليه ، في دندره ، شمالي طيبة في المقاطعة السادسة .

وليس من شك في ان هذه المحاولات تعكس الصراع على النفوذ والمنافسة في السياسة بين جماعات بشرية تنتصر كل منها بقوة السلاح لالهها الخاص . قد سعى بعض علماء الآثار المصرية الى استعادة وجوه ماضي مصر السحيق بالمقارنة بين تقدم بعض العبادات المحلية وتقهرها ، ونجاح اتباعها وفشلهم . ولكن التوصل الى نتائج موضوعية ، انطلاقاً من هذه الطريقة ، يستوجب ، قبل كل شيء آخر ، ان يوضع تاريخ هذه العبادات المحلية على أساس وطيء . وهذه الطريقة ، من حيث المبدأ ، لا غبار عليها . فالمتصورون يأتون بالهم الرئيسي ويدخلونه المنطقة المغلوبة على نفسها ، وان لم يحلوه المقام الاول : فحق آخر تاريخ مصر القديمة ، أتيح دائماً للعبادة التي ترعاها السلطة السياسية القائمة ان تنتشر ويتسع نفوذها .

الى هؤلاء الآلهة الخصوصيين الذين يضيع سر وجودهم في ظروف محلية ، والآلهة الكونيون والذين هبطت عبادتهم حتى الزوال احياناً ، او تقدمت بفضل ظروف بشرية مؤاتية ، انضم آلهة آخرون كثيرون ، في تواريخ لا نعرف الا القليل منها ، تأرجحت مصائرهم بين صعود وهبوط ، لاسباب مختلفة ، كثيراً ما يكتنفها الغموض ايضاً .

انبثق بعض هؤلاء الآلهة من تأليه عناصر او قوى كونية كالشمس والفلك والارض . وليس من غرابة في طريقة الوصول الى ذلك . شعر الانسان ، في كل مكان ، بضعفه وعجزه ، امام هذه المعطيات الكونية ، فشده ميل طبيعي فيه الى تأليها . وقد تميز مصر القديمة بانها لم تنصب إلا العدد القليل منها . فكان الاهمال نصيب الكواكب باستثناء الشمس ، وما كان القمر نفسه ليحتل مكانة ما لولا ارتباطه بالاله المحلي طوخ ، الاله الحبارى المعد لدور إله الكتابة والحساب والنشاطات العقلية . وتتميز ايضاً بانها انتهت الى عدة آلهة لكل من العناصر التي صادف تأليها نجاحاً كبيراً . ومرد هذا التعدد ، الثابت بالاسماء المختلفة والمفضي الى إيجاد آلهة معلنين في التنافس احياناً ، بالرغم مما في طبيعتها من عمق الوحدة ، التشديد هنا او هناك على ظواهر او بواحد متباينة . وقد يكون مرد ذلك ايضاً ان جماعات بشرية مختلفة قد شقت او سلكت طرقاً مختلفة . ومهما يكن من الأمر ، فان صفة الشمول ، في اصل هؤلاء الآلهة ، بالرغم مما قد اصبحت به من اذى ، اتاحت اكثر من فرصة لاولئك الذين حاولوا جاهدين ان يوطدوا وحدة مصر عن طريق العبادة . وقد استخدمت الشمس قبل غيرها ، بهذا او ذاك من الاسماء ، في سبيل بلوغ هذا الهدف . وكان من الطبيعي ، في بلاد اشعت فيها الشمس قوتها اشعاعاً ، ان تتجه الافكار اليها ، قبل غيرها من القوى الكونية ، لتحلها في القمة من المراتب الالهية او لتجعل منها ، احياناً ، محوراً لمحاولة توحيدية .

ومن نافل القول ان فصل الآلهة المحليين عن الآلهة الكونيين غالباً ما يبدو نظرياً . فهو انما

يستند الى اصل هؤلاء الآلهة ؛ ولكن هذا القياس يكتنفه بعض الغموض احياناً . فليس للآلهة الكونيين ، عادةً ، معابدٌ وعبادات يومية خاصة بهم . غير ان هذه القاعدة لم تكن مطلقة . وكان من جهة اخرى ، للممثلة والتركيب ، اثرهما بين عدد من هؤلاء والآلهة المحليين ، وداسك باستخدام بعض اوجه الشبه الخارجية التي من شأنها اخفاء تباين الآراء في اصولهم .

لذلك تداخلت ، في كل هذا ، عوامل تطغى عليها الناحية البشرية . ولا عجب ، فقد جمعت بين هاتين الفئتين من الآلهة صفة مشتركة ، وهي انهم بمجموعهم كانوا موضوع عبادة رسمية دظمتها الدولة ، تحت رعاية الفرعون الذي حرص كل الحرص ، وهو اله ايضاً ، على ان يؤدي الاكرام لامثاله . ولكن هذه الرعاية نفسها جعلتهم عرضة للتأثر بعواقب التقلبات السياسية .

الآلهة الشعبيون
كم نود الوقوف على مكانة كل من هؤلاء الآلهة بين عامة الشعب . ولكن اشاع هذه الرغبة من المستحيلات في اغلب الاحيان ، لان شواهد التعبد التي بلغتنا مصدرها الاول ملوك وكهنة وموظفون . فباستطاعة العظماء والاغنياء ، دون غيرهم ، اظهار تقواهم بتقادم وانصاب وابنية تنقش عليها كتابات قيمة بان تسخر من عوادي الزمن . وتعتبر النصوص الشعرية والادبية نفسها ، المحفوظة على اوراق البردي ، عن افكار اللاهوتيين والمثقفين الذين يأنفون ، بفعل انتمائهم الى اوساط اجتماعية رفيعة ، من التوجه الى عامة الشعب كما يأنفون ، على كل حال ، عن التكلم باسم هذه العامة . غير انه لا يستنتج من ذلك ان هذا الورع لم يرافقه الصدق دائماً . ولكن هل يصح ان نستقرئ من خلاله ورع الشعب ؟

بالحقيقة اذا نحن استندنا الى وثائق اقل شأنًا يغلب عليها الاغفال ، كبعض التائم والتعاوين الصغيرة المصنوعة من مواد عادية ، وجدنا ان عبادة الشعب تميل ، بالفضل ، وباندفاع مماثل ، الى آلهة آخرين يطلق عليهم لقب « ثانويين » للفصل بينهم وبين الآلهة « الرئيسيين » ؛ ويغلب ان هؤلاء مدينون بلقبهم هذا الى صفتهم الرسمية . اما الآلهة الثانويون فلم تأبه الاوساط الحاكمة لان توفر لهم مقومات العبادة ولم تمن على البعض منهم إلا بالقليل القليل كتلميح اليهم في نشيد او غيره من النصوص الدينية ، او زاوية لتمثال في هيكل ، او قسم من معبد احياناً .

من العسير وضع لائحة كاملة بهؤلاء الآلهة الشعبيين . لذلك نكتفي باعطاء فكرة عن تنوعهم . لنضرب صفحاً عن الآلهة الغرباء ، ومعظمهم من اصل اسوي . ولكن نفور المصريين الدائم من الاعراف المستوردة يحملنا على الاعتقاد بأن عباد هؤلاء الآلهة كانوا في اغلب الاحيان ، شأن عباد الآلهة اليونانيين في عهد السيطرة المكدونية ، اجانب استوطنوا البلاد ، كالهكسوس الغزاة والعبيد الارقاء . واذا وجد من عبدتهم من اهالي البلاد ، فلا بد انهم من الجنود والموظفين الذين أقاموا في فينيقيا وسوريا . ولا مكان هنا لأن نفكر بالتجار قبل التأكد من ان التجارة الخارجية أفسحت المجال للمحاولات الفردية . ومما لا ريب فيه على كل حال ، ان مصر قد اعطت الاجنبي ، على الصعيد الديني ، فوق ما تلقته منه .

ثم كان هنالك آلهة مرتبطون بالحياة الزراعية ، كالاله الفيل ، والاله الحية ، والكثير غيرهم من القوى الواقية في ظرفي الحمل والولادة على الارض . واشهر هؤلاء « بيس » حامى المنزل وهو قزم قبيح مضحك ، مقنع بقناع اصفر ، مشهور بترويض الاسود ، محاط بالقرود الاليفة ، متمتع بصفات آلهة كثيرين . وكان هنالك حيوانات من كل نوع ، تلك التي سبق الكلام عنها ، وغيرها ايضاً ، نخص بالذكر منها الجمل الذي انتشرت تماثيله التعويذية انتشاراً واسعاً جداً . وكان هنالك اخيراً بشر مؤلهون لم يبلغوا ، من حيث العدد ، نسبة كبيرة في مثل هذا التاريخ الطويل . ولا شك في ان كل ملك وكل انسان احيط دفنه بجنائز طقسية اصبح لها عند الموت ، ولكن لذريته فقط ؛ وما كان يتيسر ، الا للتأليه الخاص ، الذي يتوقف انتشاره على عوارض سرية تحمل الجماهير على الذكرى والتحويل ، ان يوسع آفاق هذا التأليه العام . وقد استفاد من ذلك بعض الملوك ولا سيما « المحوتب » وزير الملك جيسر (الاسرة الثالثة) ومهندسه وطبيبه ، و « امنحوتب » ابن « هابو » ، مهندس امنوفيس الثالث (الاسرة الثامنة عشرة) . فاصبح كلاهما الها شافياً . وقد شهدت كتابات عديدة على آمال وشكر الحجاج الذين توافدوا حتى في العهد الروماني القريب ، يطلبون منها الشفاء في معبدها المشترك داخل هيكل الملكة حتشبسوت في دير البحري بالقرب من طيبة . وقد اقيمت لها في مصر عدة معابد اخرى .

لم تنتشر هذه العبادات الشعبية الا في عهد متأخر ، ولكن حرارة تقوى الجماهير اوزيريس قد اسهمت باكراً في انتشار عبادة اله على الاقل هو اوزيريس . وكل شيء يفرض علينا هنا ان نفرد له مكاناً خاصاً : طبيعته الخاصة بين الآلهة المصريين ، والعون الذي صادفه في ورع الاوساط الشعبية وأسهم من قريب او بعيد في استمالة الشخصيات الرسمية اليه ، وانتشار عبادته الصاعد ، الذي جعله يلعب دوراً اساسياً في ديانة مصر الفرعونية وحضارتها .

الاسطورة الوحيدة ، بين الاساطير المصرية ، التي صادفت شهرة واسعة ، هي اسطورة اوزيريس الذي قتله اخوه شيت ، وقطعه اربا اربا ، وبكته زوجته واخته ايزيس ، وبجثت عنه ، وعثرت عليه ، وثأر له ابنه هوروس من القاتل . ولعل مرد هذه الشهرة ذبوع عبادة اوزيريس ، الذي استحال الى سيرابيس ، خارج مصر في العهد اليوناني الروماني ، ولا سيما ذبوع عبادة ايزيس في كل مكان تقريباً من الامبراطورية الرومانية . فاثارت هذه الاسطورة اهتمام الكتاب الاغريق واللاتين ، ولا سيما « بلوتارك » الذي وضع فيها كتاباً صغيراً في اواخر القرن الاول للميلاد استقى منه ، باستمرار ، التقليد اللاتيني واليوناني . غير ان نصوصاً مصرية كثيرة تختلف ، في روايتها للاسطورة ، اختلافاً بينا ، وحول نقاط هامة ، عن رواية « بلوتارك » . ومهما يكن من الامر ، فان الفكرة التي تكونت عن اوزيريس في مصر قد تباينت وفاقاً للزمان ووفقاً للمكان احياناً وحاولت ، على كل حال ، الجمع بين عناصر مختلفة .

لذلك نرانا امام معاضل كثيرة لا تزال موضوع اخذ ورد ، لعل ادقها اصل هذا الاله . فقد

جاء في مؤلف بلوتارك ان جثة اوزيريس قد بلغت جبيل في فينيقيا حيث لم يصعب على ايزيس ان تعثر عليها وتستعيدھا . فأخذ بعض المفسرين من ذلك حجة للتأكيد بان آسياس هي مصدر عبادة اوزيريس ، بينما رأى غيرهم ان اغفال ذكر فينيقيا في الروايات المصرية يكفي للدلالة على ان هذا المصدر هو مصر نفسها . واذا ما افترضنا جدلا ان الخارج هو المصدر ، يبقى ان مصر قد ميزت « اوزيريسها » الى حد بعيد . وهذا يبرز بقوة لدى درس صفاته الرئيسية ، لذلك سنقوم بهذا الدرس دون توقف عند هذا الجدل وغيره .

كان اوزيريس ، وهو ابن الارض الالهة والسماء الالهة يموت ويبعث حيا ، كما كان اله زراعة النباتات بوجه عام وزراعة القمح بوجه خاص . والقمح يخضع لدورة دائمة ترمز اليها اهم مراحل الاسطورة وترينا اياه على التوالي مخضوضراً وبامياً وناضجاً وهاوياً تحت المنجل ومتقطعاً تحت النورج ومطموراً في الارض على رجاء البعث .

لذلك سهل اشراكه في قوة مصر المحيية الكبرى ومماثلته لها . وليست هذه القوة سوى « الماء الصافي » و « ماء التجدد » ، اي الفيضان الذي يخضع لدورة دائمة ، ايضاً فيندفع صعوداً حتى القمة ثم يهبط نزولاً ثم يتوارى على امل الظهور ثانياً بقوة مستعادة . وقد قيل لاوزيريس : « النيل منبعه نضح يديك » لان إلقاءه في مياه النهر قد سكب فيها صفاته الخيرة . وقيل له ايضاً : « انت النيل ؛ الالهة والبشر يحيون من جريانك » . وقد حظي الفرقي ، في عهد الانحطاط ، باكرامات إلهية خاصة بحيث دعي الفريق « السيد » او « المحمود » .

كان من شأن هاتين المزيّتين وحدهما ان تجعلا اوزيريس إله مصر كليهما . ولكن الاسطورة جعلت منه ، بالاضافة الى ذلك ، ملك مصر الموحدة . فهل استندت في ذلك الى ذكريات تاريخية ؟ نحن نرجح ذلك ، لان مقتل اوزيريس ، على يد شيت ، يتجاوب الى حد بعيد والصراعات الكثيرة في سبيل السيطرة على جميع البلاد ، التي وصلتنا بعض اخبارها . واذا صح ان بوزيريس في الدلتا كانت عاصمة ملكه ، كما يعتقد ، فقد يكون اوزيريس اقدم انساب الالهة الديانة الشعبية . وعلى كل حال ، قد ربطته بالملكية صلة وثيقة مستمرة . فاذا جسّد الفرعون هوروس ابن اوزيريس ، لا اوزيريس نفسه ، فان الدعامة « جد ged » ، احد رموز هذا الاخير ، لعبت دوراً هاماً في الاحتفالات الملكية ؛ وان اوزيريس يحمل دائماً ، في الرسوم التي بلغتنا ، التاج والصولجان وهما من الخاصيات الملكية .

وقد افضى الخوول دون مماثلته بالملك الحي الى احلال مكانته سدره المنتهى والى انضمام الجماهير الغفيرة الغفيرة الى صفوف عباده . فملكته مملكة الاموات قبل كل شيء آخر . وقد اجريت على جثته ، لأول مرة ، المراسم التي تؤمن البعث والحياة الابدية . فاذا ما اجريت على غيره من الاموات ، امننت لهم هذه الامتيازات العظمى نفسها . وقد تاق كل البشر لان يعاملوا بمثل ما عومل به اوزيريس ، حتى يصبحوا بمائلين له على غير طمع منهم في منازعته المقام الاول .

فهم رعايا ملك الاموات يخضعون لدينونه بعد اقتدائهم به ، ويجوبون بميعته مياه العالم الثاني وحقوقه . وكانت عبادة مثل هذا الاله املا بالبعث لجميعهم . « فإله الزرع » و « إله الفيضان » و « إله الحياة الجديدة » أسماء مختلفة لاله واحد . ويدل على ذلك ، كل سنة ، استفاضة المزروعات وتجدد الفيضان .

ان خاصيات اوزيريس الثانوية ، الى جانب ذلك ، كثيرة جداً ايضاً . فقد اشار المفسرون ، على غير اتفاق حول اهمية ما اشاروا اليه ، انه غالباً ما يبدو وكأنه اله الارض الخصبة ، او اله السماء المنتجة او اله القمر . وما هذه التأويلات المتعددة ، التي تدعها كلها حجج قوية ، الا الدليل على ما احرزه من نجاح وعلى ما فيه من قوة جاذبة عجيبة . ولا غرابة في الامر . فأسطوره المأساة نفذت الى قلب كل من زوجته وولده ، وحركت فيها المشاعر العائلية المؤثرة ، تلك المشاعر نفسها التي يتوق كل مصري لان يحاط بها . وعبادته طردت شبح الرعب من الموت . فكيف والحالة هذه لا تندفع الجماهير نحوه اندفاعاً تلقائياً أتاح له « سوغ » آلهة كثيرين ، او ربطهم به ، بعد ان كانوا مستقلين عنه ، فغدوا انساباً له او معاونين . وهكذا قامت « اسرة اوزيريس » التي لم يكن هوروس وايزيس سوى عضويها الرئيسين . ولم يقيم الكهنة بأي جهد لاحتلاله في المقام الاول ، بل حاول بعضهم ، على نقيض ذلك ، في عهد الامبراطورية القديمة ، ان يحاربوه مداورة عن طريق بعض الآلهات من أسرته ، ولم يدخلوه الا على مضض في هامش مذاهبهم اللاهوتية . وقد استفادت الملكية كثيراً من نفوذه على غير رغبة منها في توسع هذا النفوذ ، وهو على كل حال اوسع من ان يعوزه التأييد الرسمي .

دعتنا الحاجة اكثر من مرة للاشارة الى المحاولات المتكررة في سبيل تنظيم المذاهب اللاهوتية الآلهة المصريين الكثيرين تنظيمياً متجانساً ، وهي محاولات متعددة ومتباينة . فكان لكل اله ، في نظر عبده ، من القوة ما يسمح برفعه الى المرتبة الاولى . وليس هناك من عقيدة سابقة مفروضة ، كما ليس ما يحول دون الخوض في اكثر البحوث النظرية تطرفاً وجراً . وقد وردت بعض هذه البحوث في نصوص كاملة حيناً ، ومجزأة احياناً ، يستلزم تفسيرها منتهى الدقة . وكم منها ما لم يعد يقرأى امامنا فاصبحنا لا نقدّر وجودها تقديراً .

غير ان هذه المحاولات ، في الواقع ، لم تكن في متناول الجميع . فهي تفرض ثقافة دينية عالية ، ومقدرة نادرة على التجريد ، وبراعة في استخدام المجازات والرموز ، كما تفرض ايضاً دعائم بشرية قوية تتيح لها الانتشار الواسع ، ويجب ان تشمل كلها نظرية في الخلق وتنظيم العالم : فهي في الوقت نفسه علوم في تكوين العالم وعلوم في نواميسه . وعلى كل منها ، في الدرجة الثانية على الاقل ، ايجاد حل لمشكلة الموت المقضة . لذلك وجدت معظم النصوص العائدة لهذه المحاولات في المدافن والقبور ، « كنصوص الاهرام » ، و « نصوص النواويس » مثلاً . وكان على كل منها اخيراً ان تنتهي الى مذهب الهي يقول بتفوق اله معين . وكان بناء هذا المذهب الهدف المقصود للقائمين بهذه المحاولات . ويغلب ان هؤلاء من الكهنة حاملو الشهادات

الذين انطلقوا من رغبتهم في تبيان تفوق الههم ، على نحو قناعتهم به . ولم يقيم امنوفيس الرابع نفسه بعمل هواة في ما عمله في هذا الحقل مع بعض المساعدين . وكانت الصعوبة تكمن في اقناع الآخرين باعتماد المذهب . فحدث احيانا ان السلطة السياسية نفسها ، بالرغم مما لديها من وسائل نافذة ، قد اخفقت في هذا الاقناع .

لا يسعنا هنا ان نغفل بعض هذه التعاليم اللاهوتية بسبب الاهمية
مذاهب هليوبوليس ومنف :
التي اسبغتها على بعض الآلهة . ولكن يتعذر علينا ان نخصص لها
« رع » و « فتاح »
دراسة ولو موجزة ، لاسيما وان العبادات هي التي اثرت ، اكثر
من العقائد النظرية ، في حياة البلاد الدينية . لذلك فاننا سنحاول هنا ، قبل كل شيء آخر ،
تبيان النتائج العملية التي اسفرت عنها هذه العقائد .

هل المذهب الذي انتشر في هليوبوليس ، بالقرب من منف شمالاً ، اقدم من غيره من
المذاهب ؟ لا يسمح تضارب آراء الاختصاصيين باثبات ذلك ، بالرغم من انتشاره الباكر . وقد
كان له أعمق اثر باختياره الشمس الها رئيسياً . فما الشمس ، حين يعتبرها خالقة كل شيء حتى
ذاتها — لانها خرجت ببلء ارادتها من المياه — سوى « اتوم » . ولكنه كان يلبسها شخصية
ثانية فيسميها « رع » اي الشمس بالمعنى الحضري ، وبهذا الاسم تمت سيطرتها على مصر كلها .
ويبدو انها احرزت نجاحاتها الحاسمة في عهد السلالتين الرابعة والخامسة على الاخص ، اذ ان
الملكية ، بعد ان كانت مرتبطة بهوروس وحده ، ارتبطت حينذاك بالشمس ايضاً واضيف
لقب « ابن رع » الى لائحة ألقاب الفرعون الرسمية . وقد تسرب اللاهوت الشمسي الى مذاهب
دينية اخرى عديدة فاضيف اسم « رع » ، بما يشبه الشمول ، الى اسماء الآلهة التقليدية . وليس
ما يمنعا ، على كل حال ، عن الاعتقاد بان كهنة كثيرين تولوا عملية هذا الاشراف حتى ينال اله
كل منهم قسطه من عظمة الشمس الشاملة .

ولعل الاله الوحيد ، باستثناء اوزيريس طبعاً ، الذي استطاع ، بين الآلهة العظام ، ان
يحافظ على استقلاله ، هو « فتاح » اله منف . وقد سبق ورأينا ان ملوك السلالة الثالثة جعلوا
من هذه المدينة ، القائمة بين شطري مصر ، المركز السياسي للبلاد . فكان هذا الخيار خدمة
جلى « لفتاح » الذي تبوأ المقام الاول بفضل مذهب وضعه لاهوتيو منف . فقد وصفه هذا
المذهب « بالخالق الاكبر » ، الذي ينحدر منه روحياً آلهة اخرون بما فيهم « اتوم » ، ليسوا
سوى « اسنانه وشفتيه » . فهم وسطاء الكلمة الخالق يعبرون عن ارادته العاقلة وينفذونها .
وقد احتفظ « فتاح » ومعبد بهرموق ، حتى عندما انصب عطف الملوك على
آلهة آخرين .

قد يمكننا هنا ان نهمل المذهب الذي ساد مصر الوسطى ، في اهم المدن
امون وامون رع
التي اطلق الاغريق عليها اسم هرموبوليس ، بالرغم من رسوخه في القسم

رسوخ العقيدة السائدة في هليوبوليس ، وبالرغم من اهميته لتاريخ النظريات حول تكوين العالم .
وغني عن البيان ان الاله الذي توخى هذا المذهب ورفع شأنه هو الاله المحلي « طوخ » ، ولطوخ
مكانة مرموقة خاصة حتى لو حرّماه من كل صلة بسواه . ويبدو ان آلهة كثيرين جداً قد
انصهروا فيه . آلهة افاع ، وآلهة ضفادع ، واله قرد ، واله حبارى ، واله قمر . وقد نسب اليه
القيام بالوساطات والايحاء الى البشر بجميع النشاطات الفكرية من كتابة وحساب وعلوم
وسحر ، فكان بالتالي الاله الكاتب والاله المثقف ، وغداً مساعد اورريس الاول ورئيس
الدوائر القضائية والادارية في مملكة الأموات . وهذا يعني اناطته باوزيريس بحيث انه لم يكن
اولاً الا في نطاق معابده الخاصة .

ولكن هنالك الهة انفصل عن الآلهة الذين احاطهم لاهوتيو هرموبوليس « بطوخ » ، هو
« امون » ، ومعناه الاشتقاقي « السري » و « الخفي » . فمادعا الى هذا الخروج وما هي
المراحل التي مرت بها عبادته قبل ان تستقر في طيبة ، في مصر العليا ؟ نحن لا نعلم عن ذلك
شيئاً . وجل ما نعلم هو انه كان لا يزال شبه مغمور ، في نطاقه الجديد ، حين توصل احد عبده
المحليين ، امنمحت (ومعناه « امون في الطليعة ») ، الى عرش الملك . وقد اسس هذا الفرعون
السلالة الثانية عشرة ، فعظم شأن امون بسرعة تكاد تكون من المعجزات ان نحن نظرنا اليها من
الناحية الدينية دون غيرها . ولكن يستحيل علينا تفسير هذه السرعة ان نحن لم نفكر بالقوة
المطلقة التي تمتعت بها السلطنة الفرعونية حتى على الصعيد الروحي والتي هي ابرز مظهر من
مظاهر هذه السلطنة . وكم كنا بود الاقتناع ، بصدد هذا الاله ، بان بوادر العبادة الرسمية
عبّرت ، عند كل من اشترك فيها ، عن حقيقة ايمان صميم . ولكن افتقارنا الى وسائل التدقيق
يوجب علينا الاكتفاء بالاشارة الى ان الحكم قد تباروا خلال احيال طويلة في السير على
خطى الملكية .

كان أمون ، في الواقع ، الاله العائلي للملوك الذين تعاقبوا على عهد الامبراطوريتين الوسطى
والحديثة ، وبعدهما ايضاً ، طوال الالف الثاني تقريباً . ففدما مع الزمن ، ومغالاة في تصويره
مادياً ، والدأ للملك الحي . كما ان عقيدة « الزواج الالهي » ، اي اتحاد الفرعون جنسياً بالدة
الفرعون المقبل ، قد بلغت اوج الكمال في عهد الملكة حتشبسوت ، حوالي الف وخمسمائة سنة قبل
المسيح ، في الكتابات والنقوش التي تزين جدران معبد دير البحري . وقد دامت هذه العقيدة
باستمرار حتى عهد البطالسة . وكان من المفروض ايضاً في الاله ان يسهر شخصياً على طفولة
الملك وتربيته ، وعلى اختياره وتعيينه خلفاً لابيه المزعوم ، والهامه السلوك السوي وسط اعباء
حكمه ، والاسراع الى نجاته في القتال .

لا عجب والحالة هذه في النجاحات التي حققها « أمون » . فما لبث ، في اوائل الامبراطورية
الوسطى ، ان اصبح إله منطقة طيبة . ثم أشرك « برع » ليكون معه « أمون رع » الذي
استأثر بامتيازات الاله الشمس . وقد لقب « بملك الآلهة » . ثم الحقت به ، بالاضافة الى اسمته

التي اختير اعضاؤها بين آلهة طيبة ، حاشية من آلهة آخرين تبين عددهم حتى بلغ الستة عشر احياناً . ولكن كل ذلك ليس دليلاً على وجود نزعات توحيدية . فالآلهة مصر العديدون يدومون باستمرار ولكنهم يخضعون لآله السلالة الحاكمة كما يخضع بانقياد للفرعون كل كائن حي في البلاد .

الثورة « الاتونية » وفشلها
أدت هذه النجاحات لفترة طويلة خدمات جمة للملكية . ولكن تطور الامور ، بفعل هذه النجاحات ، لم يخل احياناً من اخطار تهدد هذه الملكية التي اسبغت الثروات والامتيازات السخية على كهنة معبد طيبة . فافضى الأمر هؤلاء الى الامعان في الوساطات السياسية العلنية ، بعد ان كانوا يستجدونها استجداءً . وعندما دعت الحاجة الى اصلاح جذري ، ارتدى هذا الاصلاح ، بشكل غريب ، صفة ثورة لاهوتية يلزمها اسم الفرعون امنوفيس الرابع .

ولم تقتصر هذه المحاولة على الناحية اللاهوتية فحسب ، بل تداخلت فيها غايات واهداف زمنية أيضاً : الحرص على تحرير الملكية من نير وصاية الكهنوت الاموني الثقيل ؛ والتصميم الثابت ، بالرغم من الغموض الذي يحف به ومن مساعي بعض المؤرخين ، على ايجاد توافق ديني بين مصر وبين البلدان التي احتلتها في الخارج منذ أوائل عهد السلالة الثامنة عشرة : النوبة وسوريا ؛ واخيراً المقاومة التي اصطدم بها الملك المجدد والتي بلغت حد المؤامرة ، لا بل حد التمرد العلني ، فأخذ تصلبه يتضاعف شدة . وتطور هذا المذهب الجديد باتجاه نوع من الحصرية ، جديد في تاريخ مصر الديني ، اضافى على المحاولة الشيء الكثير من غرابتها المبتكرة .

ولم يكن الآله « أتون » ، الذي بذلت هذه الجهود في سبيله ، خليفة اوجدها امنوفيس الرابع من العدم ، لا ولا عبادة اتون ايضاً . بل كان « اتون » الهاً شمسياً ، او بالحري مظهراً من مظاهر الآله الشمس . ولا ضير في ذلك إذ انه قد استفاد من الفتوحات السابقة التي احرزها لاهوتيو هليوبوليس والتي كانت قد انتقلت الى امون باسم « امون رع » . ولكن في هذا الانتقال ما يمكن ان يظهره بمظهر عملية اغتصاب . وقد برز فعلاً ، في ايام بعض اسلاف امنوفيس الرابع ، ميل الى التخفيف من وثاق الاتحاد بين امون والشمس ، ان لم يكن الى فصله نهائياً . وفي عهد امنوفيس الثالث ابيه ، ارتسم اتجاه اكثر وضوحاً ، فأصبح « اتون » ، وهو اسم نكرة يعني قرص الشمس ، اسماً لآله انتظمت عبادته ، مع ما تستلزمه من كهنة ومعابد ، قبل ان يشترك اخناتون ، حوالي سنة ١٣٧٠ ، بسلطة أبيه الملكية . وبمكنتنا ان نستشهد بسوابق اخرى كثيرة .

ولكن توضيح هذا التجديد لا يعني قط الانتقاص من اقدام امنوفيس الرابع وجراته . فكل ما حدث قبله لم يخرج عن نطاق الرغبات المترددة التي لم تقتن باي اجراء جدي محدّد الاهداف . وهو لم يضطلع بالتجديد إلا منذ تفرد به بالسلطة مشدداً تارة على تنظيم ما ورثه من معالم شبه

دارسة ابصر هو ما تعرم به من امكانات لتحقيق هدفه ، وجازماً تارة اخرى في رفض كل ما لا يتفق ونظامه الجديد .

وفي عداد ما احدثه الصفة الشخصية التي أحاط بها وحي العقيدة ونشرها في صفوف الرعايا . فحتى ذاك العهد كانت التعاليم اللاهوتية مغفلة لا تترأى فيها شخصية واضعها . اما هذه المرة ، فكل ما لدينا من مصادر يدل على ان الملك وحده ، دون غيره ، هو واضع التعاليم . والمعالجة في ذلك واضحة . فلا يعقل انه لم يستشر احداً او انه حرّر وحده ذلك الاثر الادبي الرائع اعني به النشيد الطويل لاتون . وكان من مستلزمات انتشار عبادة الاله ان يغامر الفرعون بنفسه في هذا السبيل . ولكن هنالك امراً آخر برز لأول مرة ولمدة وجيزة في الحضارة المصرية والنسجم مع الاتجاه الواقعي الملحوظ في الفن : الاندفاع نحو الفردية ، والتصميم على الاقلاع عن التصحية بالانسان في سبيل عمله ، وبذل الجهود في سبيل احكام نزع الغلاف المثالي عن الكائن الحقيقي لظهاره على حقيقته العارية صافياً وواحداً ومكوّناً من لحم ودم وعواطف ، حتى لا يطبق عليه هذا الغلاف مرة اخرى .

ان الاضواء الخافتة التي تلقىها الوثائق المعاصرة على امنوفيس الرابع نفسه مما يشير القلق ويحرك المشاعر . فالملك يعتبر نفسه ابناً لاتون ، بغير مدلول بوّة اسلافه لامون ، مستعيضاً عن الزواج الالهي بعملية خلق تتجدّد كل يوم كما لو كان « صورة » الاله . ويؤكد ايضاً انه نبي الاله ينزل الوحي عليه دون وسيط : « انت في قلبي » وليس من يفهمك سواي ، انا ابنك » . والانسان ، اذا ما شاهد مثل هذه الرؤى لا يعلن عن حبه وثقته وشكره فحسب ، بل يندفع ، مستسلماً بكلّيته للانفعالات التي تتركها في نفسه ، وراعياً في ان يخضع كل شيء لهذه الانفعالات عينها . يصمّم على العمل ويعمل بالفعل بنشاط لا يتصوره احد في كائن تدل كل تماثله على هواله وبحوله . وينسب البعض ذلك الى سيكولوجية كبار الملهمين ؛ ويرده غيرهم الى مرض نفسي . غير ان التعمق في التحليل يتعدى ما لدى المؤرخ من وثائق ومصادر .

ان اللاهوت الاتوني ، اذا ما قورن بالتعاليم اللاهوتية السابقة ، يتميز بطريقته المباشرة الساذجة . فلم تمثل الرسوم اتون انساناً او حيواناً او نغلا بل شمساً كما يراها البشر كل يوم . فانما هو قرص الشمس تضاف اليه بعض الرموز فقط : الحية الملتفة وايد تتناول ، عند اقصى الاشعة المتجهة نحو الارض ، التقادم الموضوعة على المذابح ، او تعرض ، امام وجه الملك ، الصليب المعقوف التقليدي الذي هو رمز « الحياة » الخير . وهكذا نرى ان الاله يعمل وحده دون آلهة وسطاء . ليس له عائلة او حاشية . كان هو الخالق الوحيد ولا يزال هو وحده يوزع القوة الحيوية اليومية على كل الموجودات التي تتجدد ولادتها ، بفضل ذلك ، مع كل فجر . لذلك فالطبيعة كلها تعترف بحمليه باستخدامها المختير للحرارة المتجددة : البشر ينصرفون الى اعمالهم والحيوانات تسرح في المراعي والطيور تنطلق من اوكارها والمراكب تمخر عباب النهر صعوداً

والمحداراً والاسماك ترقز في المياه ، كل ذلك يشترك في الانسجام العام الذي اراده والذي هو ناسقه الاعظم .

كان من شأن هذا التعليم ان يفضي الى التوحيد . وما من شك في ان الملك قد ادرك ذلك . ولكن شتان بين الادراك والتنفيذ . فعقيدة « ماهات » او « العدالة - الحقيقة » قد روعيت على الدوام لانها تعبير عن دافع ادبي لا يمكن فصله عن السلطة الملكية . وقد جرت ايضاً ، في بادىء الامر على الاقل ، محاولة تسوية مع الاله « رع » . ولكن هل هذه التسوية لاهوتية على اعتبار ان العبادة الشمسية ، مهما كانت ، لا يمكن فصلها عن تعاليم هليوبوليس العقائدية ؟ ام هي تسوية سياسية يقصد منها الحصول على تأييد كهنة هليوبوليس ضد كهنة طيبة ؟ لا سبيل امامنا للإجابة على ذلك . وعلى كل حال لم تدم هذه المحاولات زمناً طويلاً . وباستثناء هاتين الحالتين ، رفض تعدد الآلهة بشكل صريح .

لجأ نبي اتون الى صلاحياته الملكية فعمّم عبادة الهه وألغى ، في كل مكان ، العبادات التي سبق ان نظمتمتها الدولة ومهدت امامها الطرق خدمة لآلهة لا يريد هو الاعتراف بهم . بيد انه ما كان ليستطيع الحؤول دون التعبد الخاص ، لا سيما في ما يعود الى عبادة الاموات حيث ترك هذا التعبد آثاراً ظاهرة . لكن المعابد تعطلت بعد انقطاع مواردها وخفت حركة الاحتفالات بالذبائح والاعياد وتوقفت الدعوات الكهنوتية وتشتت الكهنة . فانتهى ارتباط العبادات بالدولة الى اضعاف الآلهة القدماء بعد ان كان مصدر قوتهم . وبزوال مرتكز العبادة الزمني انتهت العبادة نفسها الى الزوال .

تحولت هذه اللامبالاة ، بما انطوت عليه من عواقب عملية خطيرة ، الى اضطهاد استهدف الاله امون . كان هذا الاله وكهنته يحتلون مراتب اكثر ثباتاً واغراء من ان يتنازلوا عنها بسهولة ، فأثارت مقاومتهم الخطرة في العلن والخفاء تصلباً من جانب الملك . ومنذ السنة الرابعة لاعتلائه العرش ابدل الفرعون اسمه « امنوفيس » (امون راض) « باخناتون » (خادم اتون) فحذا حذوه رجال بلاطه والمقربون اليه بأن ابدلوا اسماءهم الامونية باسماء اخرى تنسب الى الاله الجديد . وفقدت طيبة مركزها كعاصمة وحلت محلها مدينة « اخناتون » (افق اتون) الجديدة التي انشئت بسرعة مذهشة في مصر الوسطى . ثم عقب الاضطهاد هذه التخلية ففرض الحظر في كل مكان على معابد امون وشنت كهنته ولوحقوا واتلفت صورهم وعفّي اسمه ، حيثما نقش ، بدق المطارق . وقد تناولت هذه الاعمال البربرية المدافن ورؤوس المسلات نفسها . ولم ينج ما نجا من الصور والرموز الا بفضل الاهمال في التنفيذ هنا او هناك . بيد ان المجازفة باءت بالفشل . فما هي الاسباب يا ترى ؟ نحن لا نرى في الحقيقة سوى اسباب بشرية . وليس باستطاعة التفسير التاريخي ، مرة اخرى ، تقدير نسبة صدقها او نسبة عكسها لمشاعر المؤمنين الحقيقية . فتحن نترأى مثلاً عداء اولئك الذين لحق الاذى بصوالهم بعد ان كانوا ينعمون بالعيش في المعابد . ونعلم ايضاً ان الملك ، بانصرافه كلياً الى الامور الدينية ، قد اهل ممتلكات مصر في آسيا إبتان تعرضها للمزيد من الاخطار . وما من ريب في ان اخناتون

نفسه اخذ يتراجع شيئاً فشيئاً . وعند وفاته ، بعد ولاية دامت عشرين عاماً ، انهار مشروعه انهياراً سريعاً . اما خلفاؤه الاولون ، وبينهم « توت عنخ اتون » (صورة اتون الحية) الذي اطلق على نفسه ، فيما بعد ، اسم « توت عنخ امون » ، فقد اکتفوا باجراءات تسكينية . غير ان جلوس « حورحبيب » على العرش ، بمساعدة كهنة طيبة ، قد كرس نهائياً انتصار العقيدة القديمة على الهرطقة . فاستهدف الاضطهاد اخناتون والاله في صورهما وفي كل كتابة ورد فيها اسمها . وصبت اللعنة على عاصمته التي ما كانت لتعرف الشهرة ، باسم تل العمارنة ، لولا الاكتشافات الاثريّة .

عاد امون فاصبح إله السلالة المالكة واستعاد ووطد سيطرته على مصر وعلى الحكومة . فعرفت عبادته ازدهاراً بعيداً لم تعرفه قبل الثورة وجمع كهنته ثروة طائلة وتمتعوا بسلطة نافذة . ولم يضع حداً لهذا الازدهار وهذه الثروة وهذه السلطة سوى الفوضى ونقل الملكية الى الدلتا والاحتلال الاجنبي في نهاية المطاف .

٢ - عالم ما بعد الموت

الايان بالحياة الثانية من الجلي ان المصري لم يابه كثيراً للتعالم اللاهوتية النظرية ، بل وجه جل اهتمامه الى المصير الذي ينتظر البشر . ولكنه لم يستطع مع ذلك ان يشايح بثبات اي تعليم عقائدي .

منذ ما قبل التاريخ حتى آخر التاريخ القديم ، احيطت جثث الموتى بعناية خاصة فدفنت وفقاً للمراسم ووضعت على مقربة منها ، في المدافن ، الادوات البيتية او الصور والنصوص الرمزية ، وقدمت لها هدايا اعقاب الميت . وتدل هذه العادات والاعراف على استمرار وشمول الايمان بحياة ثانية ، وعلى اثر هذا الايمان العميق في الحضارة المصرية خلال مراحل تاريخها الطويل وتتضح هذه الصلة خاصة في النطاق الفني . فلن نغالي ان نحن رأينا فيها تعبيراً آخر للتفاؤل الذي اشرنا اليه اكثر من مرة ، كميزة هامة من ميزات السيكولوجية المصرية .

اجل هنالك بعض النصوص الناشئة : نص « حوار بين انسان تعب من الحياة وبين نفسه » الذي بلغنا في كتابة وحيدة على ورق البردي ، وخصوصاً نص « اناشيد ضارب العود » المحفور في بعض مدافن الامبراطوريتين الوسطى والحديثة ، الى جانب صورة ضارب العود . وقد وردت في النص الاخير ، بعد التنويه بان المدافن عرضة للهدم ، مقاطع يقود ما فيها من افكار وتشاؤم الى الاخذ بهذا المبدأ : « عس ليومك ولا تعباً بغيرك » . لا احد يعود من هناك ليطلعنا على واقع الموتى ويعرفنا بحاجاتهم فتهدأ قلوبنا بانتظار ساعة لحاقنا بمن سبقنا الى حيث ذهبوا . فافرح اذن واشبه رغبتك ما حييت ... لا تستطيع الشكاوي انقاذ احد في القبر . اجعل يومك

سعيداً . لا تستسلم لهم . انظر . فليس من يصطحب ثروته وليس من يعود بعد الذهاب .. »

ولكن هذا الانكار — الذي ينتهي على كل حال بنداء الى الفرع ، لا الى التشاؤم — لم يخرج قط عن نطاق الشذوذ . وتكفي كثافة مثل هذه المقاطع الشعرية ، في المدافن ، للدلالة على ان واضعها لم ينظروا الى الشكوك التي تم عنها نظرتهم الى حقائق ثابتة : وقد اجتمعت مصر كلها تقريباً على رفض اقنات الانسان باعتبار الموت نهاية لا غد بعدها . فقد اعتبرته بجمرة ، على تقيض ذلك ، انتقالاً الى حياة اخرى . وقد اتاح ذلك للفلاح تعزية كبرى مقابل شقائه على هذه الارض . اجل ، لم يعن ذلك ان الانتقال غير مخوف بالخطر ، او ان الحياة الابدية دائمة الهناء . ولكن هذه الحياة ليست ، على كل حال ، بالعدم او بجهنم .

يتبقى علينا ايضاح فكرة العالم الآخر . ولكننا نميل الى الاعتقاد بان عامة الشعب لم تكن لتشعر بحاجة الى ذلك ، بل تكفي ببعض الارشادات العملية الوثيقة الاتصال باحدى العقائد . ولذلك استهواها السحر استهواء مستمراً . اما العقيدة نفسها فقد رضى منها ببعض الضمانات المبهمة التي تنسج مخيلته حولها ما شاءت من الممكنات والمتناقضات احياناً .

كانت ابواب النظريات مفتوحة امام العقائدين فولوجوها بخيرين .
نقل العقائد حول الحياة الثانية
الى مستوى الشعب
حاولوا ، بالطبع ، ان يطبقوا آراءهم على الموت ، اذ ان الخلود من مستلزمات الالهة . ولكن حريتهم في هذا النطاق كانت اضيق منها في النطاق اللاهوتي نفسه ، لانه ترتب عليهم هنا مراعاة الشعور الشعبي الحذر . وان تسليماتهم الكثيرة معه لحدث فريد من نوعه وباهيته في تاريخ الحضارة المصرية . فهذه الحضارة تقوم في جوهرها على مبدأ تسلسل الرتب وهي ، فيما يتعلق بالحياة الارضية ، عميمة الفائدة للطبقات الحاكمة ، وقاسية في الوقت نفسه على الوضعاء والكادحين . ولكنها اضطرت ، فيما يتعلق بالحياة الثانية ، الى الأخذ بمبادئ تختلف عن ذلك اختلافاً بيناً .

وليس من شك حول هذا التطور . فبموازاة كل حقبة من حقبة مصر الفرعونية الثلاث ، نجد سلسلة من النصوص المدفنية ترافق الميت في قبره وتترأى فيها الحياة الثانية التي يلجأها : « نصوص الاهرام » في عهد مصر القديمة ، وقد حفرت على جدران هذه الضرائح منذ اواخر السلالة الخامسة (حوالي ٢٥٠٠ سنة قبل المسيح) وطيلة ايام السلالة السادسة ؛ و « نصوص النواويس » في عهد الامبراطورية الوسطى ، منذ السلالة الحادية عشرة قبيل السنة ٢١٠٠ ، وقد حفرت على جوانب هذه النواويس ، و « كتب الاموات » في عهد الامبراطورية الحديثة (ابتداء من السنة ١٥٠٠ تقريباً) والعهود اللاحقة ، وهي لفافات من البردي مليئة بالكتابات والرسوم توضع الى جانب الموميا . بيد ان الفرق كبير بين هذه المجموعات الثلاث من النصوص . وليس من واحدة بينها تتميز بالجددة . فقد انتقلت ، من سلسلة الى اخرى ، مقاطع طويلة احياناً كاملة قارة ومجتزأة اخرى . وما من ريب في ان « نصوص الاهرام » نفسها تتضمن مقاطع تتعدى ،

في قدمها ، زمن استنساخ هذه الكتابات . اصف الى ذلك ان التلاحم المتين مفقود في كل من هذه السلاسل التي كان وضعها عملية جمع لا عملية تأليف . ولكن بالرغم من هذا الاستمرار وهذا الانتقال ، في نصوص المجموعات الثلاث ، تبرز ثلاث نظريات يستحيل رد احداها الى الاخرى . وتحديدأ لاتجاه هذا التطور العام ، تكلم بعض المؤرخين عن « نقل الى الديمقراطية » . ويبدو ان الفكرة التي تعتبر عنها هذه الكلمة تنطبق على الواقع شرط أن لا تؤخذ بمعناها الحصري السياسي . فاذا كان على العقائدين ارضاء ميول الشعب ، توجب عليهم تطوير نظرتهم الى العالم الثاني وتوسيع آفاق تطبيقها .

لا نعلم شيئاً ، في عهد الامبراطورية القديمة ، عن المصير المحدد للفقراء العقيدة الشمسية
في الامبراطورية القديمة بعد موتهم . ولكن نرجح انه كان وضعاً جدياً . وقد زادت في وضعته تلك الهالة من البهاء التي احاطت بمصير الفرعون . فهل يعقل ان يهوي عن مرتبته عند الموت من كان إلهاً على الارض ؟ وان هو استقر في قوة سلطانه ، جنت مصر الخيرات العميمة لانه سيدخلها بعطفه المستمر . ولا سبيل ، خارج هذا الاقتناع ، الى فهم الجهود الجبارة المتمثلة في تشييد الاهرام الكبيرة . وبالرغم من استنساخ « نصوص الاهرام » بعد ذلك بسنتين ، فانها لا تتناول سوى مصير الملك الذي ، دون غيره ، يهتم له المؤلفون .

تشدد هذه النصوص على صفة الملك الميت الالهية وعلى عظمة دوره . بيد ان التناقضات ، حول تحديد هذه الالوهة ومظاهرها ، تبرز في هذه النسخة الواحدة او تلك . ولذلك لا يجمع علماء الآثار المصرية على التفسير الواحد . ولنضرب صفحاً هنا عن « الاله العظيم » الذي قد لا يكون لا اوزيريس ولا رع ، وعن روااسب عقيدة غامضة حول النجوم . يبقى امامنا ، حينذاك ، مذهبان متقاربان غالباً ، متمازجان احياناً ، متباينان اصلاً .

تشبه هذه النصوص احياناً الملك الميت باوزيريس . اجل ، انها تتضمن تعريضات مستقبحة بهذا الاله وتهجمات مباشرة احياناً على آلهة اسرته او حاشيته . ولكنها لا تخلو من تمجيد اوزيريس ايضاً . ومن الطبيعي ، ما دام اوزيريس ملك مصر القديم ومثال الاله الميت والملك الميت ، يضمن الخلود لنفسه بفعل اكرام ابنه هوروس ، ان يصبح الفرعون اوزيريس آخر لا سيما وهو نفسه هوروس ما دام حياً وما دام يخلفه على الأرض ابنه هوروس الجديد . وهو يملك ، بهذه الصفة ، على « الغرب » ، مملكة الاموات .

واحياناً اخرى تحل محل عقيدة اوزيريس عقيدة اخرى اقدم عهداً واعظم قوة تتصل اتصالاً مباشراً وثيقاً بتعاليم هليوبوليس . استطاع اوزيريس ، من قبل ، ان يلج الى النظريات المدفنية ، ولكنه لم يفرض نفسه فيها دون سواه . اما هذه المرة فالفرعون الميت يصعد الى السماء كي يصبح هو نفسه الاله الشمس « رع » ، او يعلوه رتبة ، كما يقال احياناً . وبهذه الصفة يملك على مملكة السماء التي تنقسم ، شأن مصر ، الى قسمين .

وتلقي هذه النقطة الاخيرة ، على ضالة اهميتها ، نوراً على القياس الذي اتاح تعميم الافادة من العقيدة الشمسية على اشخاص آخرين . فالمقابلة القائمة بين المملكة الارضية والمملكة السماوية تفضي حتما الى تخيل المقابلة في تنظيمها . لذلك يقتضي ان يكون للملك الميت اسرته وبلاطه وادارته كما كان له كل ذلك في حياته . وكان من الطبيعي ان يحاط ، في العالم الثاني ، بمن احاط به على الارض . وقد درجت العادة ان يمنح من يريد شملهم بعطفه الارض والترحيل للآلهة لدفنهم على مقربة منه ، وفاقاً لمراسم دفنه نفسها ، في رموس مماثلة لمرسه شكلاً ، اقل منه حجماً . فيستمر هؤلاء المحظيون في مشاركتهم حياته المعينة . ولكن فتح هذه الثمة ، لادخال بعض الاصدقاء والمعاونين المختارين ، قد ادى بصورة حتمية ، مع مرور الزمن ، الى توسيعها .

وقبل ان نصف ونرسم هذا الاتساع ، تجدر الإشارة الى نتيجة اخرى من نتائج هذه العقيدة . فحتى يصبح الملك « رع » ، عليه ان يكون « مستقيم الفم » و« مستقيم الصوت » ؛ وفي طريقه الى مملكته السماوية ، عليه الاجابة على اسئلة الملاح الذي يجتاز هو النهر في بطاحه . احل قد تكون هذه الايضاحات الدقيقة استلزمت فكرة دينونة اخلاقية تتناول اعمال حياته الارضية . ولكن لا شيء يفرض هذا التفسير . فالاجراء المتبع لبلوغ الصلاح ، حسب معرفتنا ، انحصر في صيغ كلامية يجب معرفتها . وهكذا يكون الفرعون قد امن انتقاله من الملكية على هذه الارض الى الملكية في العالم الثاني . اما المقربون المدعوون للحاق به الذين يشعرون بحاجة للدلالة على انهم خضعوا دائماً للعدالة ، قد يقصدون بذلك العدالة الملكية وحدها ، وهذا يعني انهم يعلنون عن اخلاص خدمتهم . اجل اخذت تنتشر ، من قبل ، فكرة واجب ادي فرضته الالهة على عظماء هذه الارض ، ولكنها ، على ما يبدو ، لم تسيطر سيطرة تامة . ان هذه الجرثومة الراهنة ستتمو ولكن السحر الراهن ايضاً سينافسها ويتفوق عليها بجاحاً .

تعميم العقيدة الشمسية في البدء استمر الذين بلغوا حياة الملك الشمسية خاضعين للملك ، ولكن ضعف الملكية في اواخر الامبراطورية القديمة أثار الفوضى في هذا الصعيد نفسه . ولم تراجع بعض الشخصيات الكبيرة امام اغتصاب الملك اغتصاباً كاملاً ؛ وقد اعلنت كتابات مدافنهم ، دونما اهتمام لسلطة خلعوا نيرها ، اتحادهم الشخصي بالشمس . وهكذا كانت الفوضى السماوية نتيجة وانعكاساً للفوضى الارضية . وفي الوقت نفسه تراخى حبل النظام الاداري والاجتماعي فتضخم عدد ذوي الامتيازات بعد ان كان ضئيلاً . وقد أمّن بعض الموظفين الصغار لانفسهم الاستفادة من خلود مجيد بفضل مجاملة رؤسائهم او بفضل سلطتهم الشخصية . وقد احتذى بهم اخيراً كثيرون من عامة الشعب وانتشرت المراسم الحنائزية الموضوعة اصلاً للملك وحده وعم الجميع العمل بها . وقد كرس الامبراطورية الوسطى هذا التطور يجعلها من مصر ، كما سبق ورأينا ، ادارة واسعة يقوم كل رجل فيها ، وفاقاً لدرجته ، بالمهمة التي عينتها له .

الدولة . وبعد تعميم الوظيفة العمومية في مجتمع منظم تنظيمياً جديداً ، اتيح لكل شخص الاحتفاظ بدرجة في العالم الثاني تحت قيادة الفرعون . تنبىء « نصوص النواويس » التي يعود تاريخها الى هذا العهد بان العقيدة الشمسية ما زالت حينذاك تسيطر على المعتقدات حول الحياة بعد الموت . فهي انما تشير دائماً الى « رع » ولا تأتي على ذكر اوزيريس الا نادراً ولا تعطيه سوى دور غير ذي اهمية . لا ريب في ان هذه النصوص مصدرها بعض الاوساط الكهنوتية التي بقيت على تمسكها باولوية الهها . وكان استنساخها على جوانب النواويس بمثابة قربان طقسي بغية الفوز بقوتها الطلسمية . ولكن وثائق اخرى معاصرة ومتنوعة — لا سيما ما جاءنا منها من المدافن الحقيرة — تتكلم عن اوزيريس كما عن اله يتحد الميت به او يصبح احد رعاياه . وهكذا فقد عمل بالعقيدتين في آن واحد . ولكن عقيدة اوزيريس احرزت تقدماً لا مراء فيه .

ان فكرة الدينونة الاخلاقية قد رسخت . وتعود الى عهد الامبراطورية الوسطى ، من حيث المعنى على الاقل ، اكثر النصوص وضوحاً حول واجب الملك نفسه في الطاعة « لماهات » إلهة الحقيقة — العدالة . وفي بعضها ايضاً اثبات لحصول امتحان بعد الموت . اليك مثلاً « تعاليم » ملك لابنه : « تذهب النفس الى مقر اولئك الذين يعرفونها ... انت تعلم ان القضاة الالهيين الذين يحكمون المظلوم لا شفقة عندهم ... ساعة تنفيذ القانون » . وقد درجت العادة في نسبة هذه الدينونة الى رع . ولكن فكرة عقيدة اوزيريس لم تلبث ان لابستها . فقد اطلق على الميت اسم « اوزيريس المستقيم الصوت » ، الماحاً الى حادثة في اسطورة الاله : الدعوى التي اثبتت حقه في الملك بالرغم من مزاعم شيت .

بيد ان المصريين العاديين ، على ما يبدو ، قد استوعبوا هذه الآفاق البعيدة . فلا ذكر للراسم والادعية ، على وجه التأكيد ، إلا فيما يتعلق بالملك ؛ وهذا نفسه مما يضعف اهميتها . وان ذلك اكثر صحة عند باقي البشر ، إذ ان خوفهم ، عندما يعبرون عنه ، لا يتعلق إلا بالصيغ الكلامية الجاهزة وقيام انساخهم بدقة بما هو مطلوب منهم . ويبرز شعور مماثل في الطريقة المعتمدة للتخلص من العمل في الحياة الثانية ، وهم لم يواجهوا هذه المشكلة إلا بعد ان تيسر للجميع ولوجها . ولم يشرعوا ، الا في عهد الامبراطورية الوسطى ، بوضع تماثيل صغيرة في القبور يطلقون عليها اسم « الكفلاء » ويعتبرونها صوراً للميت نفسه او لخدمه ويفرضون عليها تنفيذ ما قد يطلب منه من سخریات . وهكذا فان السحر او ما يماثله اتخذ له مكاناً ، يتسع يوماً بعد يوم ، في العقائد حول الحياة الاخرى .

انتصار عقيدة اوزيريس
كان انتصار اوزيريس ناجزاً في عهد الامبراطورية الحديثة ، ولم يبق من اثر لما اصطدم به من منافسة طويلة سوى بقاء بعض الآلهة ، الى جانبه ، من مجموعة الاله رع ، كـ « ماهات » ابنة رع و كـ « طوخ » مثلاً . وتخلت هليوبوليس عن نفوذها لمركزين رئيسيين من مراكز عبادة اوزيريس هما بوزيريس في الدلتا ، وهي عاصمة هذا الاله ابان حياته

الملكية ، وابيدوس ، شمالي طيبة ، حيث عثر على رأس جثته المقطعة . وهكذا تغلبت العاطفة الشعبية على نظريات اللاهوتيين الكونية .

يعيش الموتى اذن في « الغرب » بوجه خاص ، و « الغرب » هو مملكة اوزيريس تحت الارض . ولا ذكر ، الا عرضاً ، لوجود بعضهم في الزورق الذي تجوب عليه الشمس مناطق السماء . ويسلك رع ، في الليل ، طريقاً باتجاه آخر مستحضراً النور والحرارة للمناطق المظلمة . ومن العبث هنا ان نرى الدقة والتلاحم في جغرافية ما وراء الارض . فهي تلجأ الى عبارات غامضة ومتناقضة احياناً « كحقل القصب » و « حقل يالو » الذي جعل منه اليونان « حقول ايليزيه » . ويكتنف الغموض نفسه وصف كيفية تصرف الاموات بوقتهم . فهم تارة يستسلمون للراحة بفضل خدمة « الكفلاء » ، ويحرقون تارة اخرى الارض التي يهبهم اياها اوزيريس ، او يقيمون في قبورهم ، او يعودون ، هائثين وغير منظورين ، ليتلوا بمشهد الاحياء على الارض . ولعل القصد من مقابلة هذه الاعمال المختلفة ترك الخيار لهم في انتقاء الوسيلة التي تحقق سعادتهم . ولعل قدرة سامية ايضا تقوم بهذا الاختيار باسمهم . ولكن لو نظمت هذه الآراء التي تتخللها تيارات كثيرة تختلف زمنا ومصدراً ، لفقدت الكثير مما فيها من فتنة واغراء .

وزن النفس وما ينيه لم تكن هناك ، على الأرجح ، رغبة في الايغال في فهم معنى « وزن النفس » ، ذلك الاجراء الذي يخضع له الميت قبل دخول مملكة اوزيريس . ان منطقنا ، وقد يكون اداة غير صالحة في هذا المدى ، يرى ان المفهومين اللذين يعكسهما هذا الوزن لا يمكن التوفيق بينهما . فقد اعتقد المصريون ، من جهة ، ان الميت ، كل ميت ، يخضع لدينونة صارمة وزودوا كل ميت ، حتى المجرم ، من جهة اخرى ، بما يضمن له صدور الحكم لصالحه . وهكذا فقد تقابلت المبادئ الاخلاقية والاعتقادات السحرية .

كان للمبادئ الاخلاقية شأنها . فيجلس اوزيريس على عرشه راثماً الهيئة الحاكمة ، وينتظر وحش غريب الحلقة الحكم الذي سيسلمه المحكوم عليه . يوضع قلب الميت وريشة ماها في كفتي ميزان كبير حيث يجب ان يتعادلا للحصول على النعمة المرجوة . انها لرموز مؤثرة حتى في سداجتها . يدعى قلب الميت للشهادة عليه عند الاقتضاء . وهذه الفكرة ليست بالفكرة الثافهة ، ولكن المهم ان يظل القلب حراً في شهادته .

كان الميت يأخذ المبادرة في الكلام فيعترف « اعترافين سلبين » متوجهاً ، في الاعتراف الثاني الاكمل ، الى اثنين واربعين قاضياً منكراً ارتكاب اثنتين واربعين خطيئة يعددها واحدة واحدة . وكانت القائمة طويلة متشابكة غير منظمة تتجاوز فيها الاهانات الملحقة بالآلهة ، والجرائم المقترفة ضد السلطات المدنية ، والاضرار المنزلة بأرزاق الغير وشخصه ، والزلات الاخلاقية نفسها .

ان هذا المثال الاعلى الذي تحدد بمضاداته بوضوح ، لا يخلو في مجموعه ، من مفهوم سام للوجدان الاجتماعي والفردى على السواء . ولكنه بسبب اكتماله ، قد عز بلوغه وتحقيقه . فكم من الأكاذيب انطوت عليها هذه الانكارات المتسلسلة ، يا ترى ؟ كان الميت ينادى القصادة باسمائهم ، التي يعرفها تماماً ، وكان له ، بسبب هذه المعرفة ، بعض التأثير عليهم . وبالحقيقة كانت المحكمة ، بالرغم من قساوة مظهرها ، تخشى التشهير وتقل بالمساومة . وبعد هذا ، يبقى الميزان وهو المرحلة الاخيرة او المستحدثة ، ويبقى القلب الذي يجب ان لا يتجاوز وزنه وزن الريشة . لكن هذا القلب كان موضوع مناشدات ملحة هي اقرب للابتهالات الحارة : « ايه يا قلبي بل يا قلب امي ... لا تقف شاهداً ضدي ؛ لا تجعل من ورنك حجة علي ... » لا تقل ... » .

ان « كتاب الاموات » الذي يتصم ، في ما يتضمن ، التفصيلات التي اوجزناها ، يدعى بالحقيقة « صيغ لاجل الخروج الى النهار » . يبين هذا الاسم بصورة كاملة ما في هذا الكتاب من منتخبات مجموعة على غير تلاحم ترود الميت بكل ما يحتاج اليه للتغلب على المكاييد الكثيرة ، المادية والروحية ، التي تنتظره في طريقه الى « الغرب » . وبالرغم من انتقادات بعض المفسرين المعاصرين ، لا تبدو عملية « وزن النفس » ناشرة في هذا المجموع . وكان لا بدّ من ان يقلق لها الانسان عند اقتراب ساعة الموت . لكن هذا الامتحان مما تستطيع فيه الذاكرة البيقطة ، بمساعدة الكتابة الموضوعية الى جانب الميت ، ان تخرج الانسان ظافراً بتلاوة بعض العبارات المضمونة المفعول . فكيف يمكن صرف النظر عن كلمة « سحر » ، والامتناع عن الاعتقاد بأن اللجوء الى هذه الصيغ كان قميناً بمحو اخطاء الحياة الارضية ؟ لا شك في ان المؤمن كان مدعواً لأن يترفع عن هذه الاخطاء ولا يأتيها حتى يكون خلاصه المقبل مضموناً . ولكن ما من اثر ، في اي مكان ، لتحفظ يحصر فعالية هذه الصيغ التي يحرص المؤمن ، وان مجرم عنيداً ، على ان يتزود بها .

حددت حضارة مصر الفرعونية علماً للاخلاق خاصاً بها جاعلة اياه ، منذ القديم ، على صلة بفكرة الحياة الثانية التي تتيح امكانات كثيرة للعقوبة . ولكنها تفننت في اكتشاف وتعميم وسائل التهرب من هذه العقوبة . فماذا يكون علم الاخلاق عملياً ، يا ترى ؟

٣ - العبادة

كانت النتيجة الحتمية لهذا التهرب ازدياد اهمية العبادة والطقوس . وكان من الضروري ، على كل حال ، ان تكون هذه الاهمية بالغة لان على مصر ، المزدهرة بفضل الآلهة ، ان تعرب لهم عن شكرها واعترافها بحمليهم . ولكن عبادة الاموات لم تلبث ان رافقت عبادة الآلهة الحقيقيين . فهي ضرورية لحياتهم الثانية . واذا كان من المسلم به ان الاموات العاديين أعجز من ان

يلحقوا ضرراً كبيراً بالأحياء ، حتى المهملين ، فمن الواجب ان يحسب حساب لتضامن الأجيال المتلاحقة منهم .

وكان بين عبادة الآلهة وعبادة الأموات كثير من النقاط المشتركة ، ولا عجب في هذا الالتقاء بينهما . فالطقوس الجنائزية انما وضعت لصالح الملك الميت ، استبقاء لقدرته العاطفة على مصر ، قبل ممارستها على غيره أولاً وعلى الجميع أخيراً . ولا عجب ايضاً اذا ما قلنا ان هذا التشابه بين العبادتين مصدره اثرُ اهم العقائد ، عقيدة رع وعقيدة اوزيريس بنوع خاص ، على هاتين المجموعتين من الطقوس . فمجموعة طقوس عبادة الآلهة العظماء انفسهم مشبعة بأفكار عقيدة اوزيريس ، فكيف بطقوس عبادة الاموات ؟ وفي العجالة التالية ما يسمح بالوصول الى بعض المقارنات بينهما .

عبادة الآلهة سارت عبادة الآلهة ، من حيث مبدأها ومظاهرها ، على قواعد عامة بالرغم من تنوعها وفاقاً للآلهة والمعابد .

ودلت هذ العبادة على الاعتقاد الثابت بأن الاله يشعر بما يشعر به اي انسان . فالمعبد هو مسكنه الذي تُدخل اليه الحياة والحركة جوقة من الخدم ولا يتاح الا لأرفعهم مقاماً ولوج الحجرة الخاصة حيث يقيم الاله تحت اعراض تمثاله . وهو كالانسان بحاجة الى الكثير من العناية والملاطفة ، والترفيه والبذخ ، والمأكل والمشرب ، والراحة والنوم ، واللهو والاعیاد ايضاً . وكل هذا كان مضموناً باسم الملك الذي يحزل الهبات السخية والذي يتولى الخدمة الكهنوتية بنفسه ، اذا سمحت له ظروفه بذلك ، بحكم كونه ، قانوناً ، الكاهن الكاهن .

كانت تقام كل صباح وفي كل المعابد ، مراسم متماثلة : حركات طقسية وسجادات وصلوات وانشيد واحراق بخور . كان الكاهن يفتح الحجرة الالهية « ويوقظ » الاله ويقدم له ، قبل اي شيء آخر ، « عين هوروس » التي فقدتها هوروس في صراعه ضد شيت ثم عثر عليها وقدمها لأبيه اوزيريس . ويقدم له بعد ذلك تمثلاً صغيراً « لماهات » ابنة « رع » . ثم يغسله ويلبسه ثيابه ويزينه ويمسحه بالطيوب ويخضبه . ويقدم له أخيراً ما لذ وطاب من انواع الطعام والشراب على سباط او حصير امام التمثال . وفي ساعات معينة من النهار تفتح الحجرة مجدداً لكي تقدم له وجبة اخرى . وعند حلول المساء ، يرتدي ثياب الراحة ويستسلم للنوم ، بعد ان يقفل المكان المقدس .

اما الذبائح فلم تقدم له لأنه لم يهتم ، على ما يبدو ، لنحر الحيوانات وتقطيعها وطهيها . غير ان الكاهن القائم بالخدمة كان يحرك مطرقة ، ولعل في هذا الرمز ذكرى ماض سحيق لم تخل فيه الاحتفالات من اطعمة مستهجنة .

كان الهدف من الاعیاد ادخال البهجة الى قلب الاله المنفرد . ويبدو ان معظم هذه الاعیاد ، على ضعف معرفتنا بها ، كانت تستلزم كمشهد اولي ، تطوفاً في الهواء الطلق ، على الاقل في بهو

المعبد الكبير حيث كان باستطاعة المؤمنين ان يدخلوا . اما التمثال ، الذي لا يراه عادة الا نفر من المحظيين ، فكان يشترك في التطواف جالساً ، شأن رع في السماء ، في قارب يحمله الرجال على اكتافهم . وكان الاله في هذا الظرف خصوصاً ، وربما في ظروف اخرى ووفقا لكيفيات اخرى ، يجيب على اسئلة العلمانيين باهتزازات من تمثاله يجيد الكهنة تفسيرها .

تأتي المستندات على ذكر اعياد اخرى على جانب كبير من الاهمية او الشعبية . لنترك جانباً الاعياد الملكية ، وهي دينية قبل كل شيء ، لان الفرعون اله على الارض له كهنته وعبادته اليومية واناشيده الخاصة . فكان له اذن اعياده ايضاً : اعياد الجلوس في منف ، والاعياد التذكارية السوية ، وخاصة اعياد « سد » التي تجدد نشاطه الالهي في مواعيد دورية منتظمة . اما الاعياد الكبرى في المعابد المحلية فان تنوع احتفالاتها الدينية وخاصياتها ، على معرفتنا المحدودة بها ، تفوق كل وصف ويتعذر تفسيرها احياناً . كان بعضها يستغرق اياماً عدة تتخللها انتقالات آلهة يزورون او يردون الزيارة في موكب فخم يسير على مياه النيل . وكان يرافق كثيراً منها مشاهد ايمائية او ناطقة احياناً تستعيد اسطورة الاله وتشترك فيها ايضاً بعض التماثيل . والاسطورة التي استغلت بالتفضيل ، في هذا الصدد ، بسبب تأثيرها الكبير وشعبيتها الواسعة ، هي اسطورة اوزيريس التي استوحتها اعياد كثيرة لا سيما عيد ابيدوس الذي اطلق عليه هيرودوتس اسم « الاسرار » . ولكن الرحالة اليوناني والنصوص المصرية الكثيرة التي تشير اليها تعتمد الغموض حول ما يستطيع الحاضرون استنزله فيها من إلهامات قد تطمئنهم سلفاً عن بعثهم الآتي .

المراسم الجنازية وعبادة الاموات
ويفرض هذا البعث ، على كل حال ، القيام بطقوس تؤمن
الشروط المادية الضرورية للحياة الثانية التي لا يمكن تغييرها ،
على نقيض الشروط الاخلاقية .

فكان من المهم حفظ الجسد اولاً كي تستطيع النفس التي انفصلت عنه عند الموت ان تستقر فيه . وامعاناً في الحرص على ذلك ، توضع في المدفن تماثيل يستعاض بها عن الجسد . بيد ان الجسد نفسه افضل من كل هذه التماثيل . وبما انه قابل الانحلال وجب تحويسه الى مومياء وفقاً لطريقة فنية عولجت بها جثة اوزيريس لأول مرة : انتزاع الاحشاء ووضعها في اربعة آنية من الالبستر ، فصل اعضاء الجثة على مثال اوزيريس وغمرها في محلول من الاملاح المعدنية ، حشو الجثة بمواد راتنجية وعطرية واعادة شكلها بواسطة كتل من النسيل والقش وتقيطها بعصيات كثيرة من الكتان . ويقوم بهذه الاعمال كلتها مهنيون يعتبرون كهنة من درجة دنيا . وهكذا تغلبت ألوف الموميات على الزمن ، بفضل مناخ مصر الواقي ، بعد جفافها . ومنها ما يرتقي عهده الى الامبراطورية القديمة ، على الرغم من ان طريقة التحنيط هذه قد استمرت ، بعد ذلك ، اكثر من ألف وخمسمائة سنة في طريق التقدم والاكتمال .

ثم تأتي الجنائز مع موكب الاقارب وتماثيل الآلهة والنائحات: الابحار على النيل — على غرار اوزيريس — ، الصعود البطيء نحو المقبرة عبر الاسوار الصخرية الغربية ، وضع الناوروس في مدفن مصمم كمسكن للميت . ويقوم اخيراً كاهن يمثل هوروس بأعمال سحرية ، اهمها « فتح الفم والعينين » ، الغاية منها اعادة الوظائف الحيوية للميت بصورة نهائية . ثم يوصد المدفن وتشهر لعنات هائلة على كل من تسول له نفسه اطلاق راحته .

ومع ذلك لم تكن مطالب الميت لتقتصر على هذه المراسم الجنائزية . فهو بحاجة الى الغذاء ؛ وهناك نصوص عديدة تكشف عن وسواس الجوع والعطش عنده اللذين يدفعان به الى احقر التسويات . من هنا كان النداء الى القرايين الغذائية التي ترافقها الصلوات والايماء الطقسية . وكانت هذه القرايين مبدئياً من واجبات الابن اولا والحفيد ثانياً وغيرهما الى ما حد له في هذا التسلسل ، وكانت تدعى « عين هوروس » ، على غرار الرمز المقدم كل صباح الى التمثال الالهي في المعبد ، وتقابل الوجبات المقدمة للآلهة . ومن الممكن عملياً ان يستعاض بالتماثيل عن الاحفاد ؛ فكان في الهياكل المدفنية خاصة كهنة وايرادات لهذه الغاية . وليس من ذكر عمياً الا ويمحي ومن وقف الا ومصيره الحجز . والاموات صائرون حتماً الى الاهمال في يوم قريب او بعيد . وسعداء جداً اولئك الذين لم يعتد على قبورهم سوى الاثريين المماصرين . وشغلت مكافحة ناهي القبور اجهزة أمن جميع الفراعنة الذين حرصوا على استتباب النظام ؛ فهاذا نقول عن تلك العهود التي تراخت فيها الادارة مفسحة المجال امام مخاطر اللصوص الجريئة في سبيل الاستيلاء على القرايين الثمينة المودعة الى جانب النواويس ؟

من الواضح ان ما قيل هنا لا يختص إلا بعظماء هذا العالم الذين عندهم من الثروة والنفوذ ما يزيل كل عقبة مادية تحول دون العناية ببثثهم . ولا تتكلم الوثائق عن غيرهم ممن اصطدم حقهم بالخود ، من طبقة اجتماعية الى اخرى ، بالعقبات العملية الكثيرة التي جعلته نظرياً فحسب . لذلك يعثر على موميائهم الرضيعة دخيلة على القبور القديمة ، او على آثارها فقط لان الوفرة في التحنيط لا يكون إلا على حساب جودة النوع . وحتى يغدو ابن الميت هوروس لأوزيريس جديد ، كان لا مندوحة له من ان يملك الحد الأدنى من الموارد . وهكذا كان للمجتمع المصري ، شأن مجتمعات اخرى كثيرة ، ضحاياه حتى في العالم الثاني ، وهم هم في كل زمان : اكثر الناس ضعة في هذا العالم .

الدين والحضارة
في جميع هذه العبادات ، للآلهة كانت ام للاموات ، لم يكن للأفعال المادية ، رسمياً ، من قيمة الا اذا سمت بها التقوى الصادقة واخلاق الكاهن القائم بالخدمة ومن يمثله . بيد ان ظاهر الحق ، في هذا المجال ، يفرض علينا موقفاً حذراً حكيماً ، بالرغم من ان المثل الاعلى قد دام طويلاً . فالحضارة المصرية ، الى جانب المعابد والتقادم للآلهة والقبور والماراسم الجنائزية والتقادم للاموات ، اسندت الى عمود فقري هو معتقداتها التي لا يهيم

كثيراً ان تكون رأت فيها اولاً ، عملياً ، العمارات والمراسم الالرامية بنوع خاص . فهي قد شيدت العمارات وبذلت جهوداً صادقة في اقامة المراسم . وهذه المهمة المزدوجة شاقة جداً حتى على بلاد تنعم بمثل هذه الثروة . فقد انك الفلاحين ما كان يقتطع من نتاج كدحهم . وهم دفعوا ، من يؤسهم الخانع ، بذخ الآلهة وبذخ الاحياء العظام المدعوين لان يصبحوا الاموات العظام . وكان قربانهم ، المحظيين في هذا النظام السياسي الساحق ، الفن المصري المغفل والفتخم .



الفصل الرابع

المظاهر الفنية والعقلية

١ - الفن

ان الارتباط بين الدولة والدين ، هيكل الحضارة المصرية ، من القوة بحيث يتعذر القطع في الصبغة التي تسيطر على الفن المصري ، الملكية هي ام دينية . وهاتان الصبغتان تتعارضان بل تتداخلان ، فالملك الاله متسلط على الحياة الدينية ، والقبور الخاصة نفسها منوط امرها ، عملياً ، بالمؤسسة الملكية ، وهو الملك ، في عهد الامبراطورية القديمة ، الذي يملك كل شيء ويهب ، على هواه ، الارض والمواد اللازمة لبناء القبر . وفي العهود اللاحقة نفسها ، كان الافراد الذين يملكون من الثروة ما يتيح لهم تحسين عمارتهم المدفنية ، مدينين بسعتهن الى خدمة في الجيش او في الادارة او في الكهنوت .

ولذلك يتضح كيف ان عهود ازدهار الفن المصري تقابل عهود ازدهار الملكية الفرعونية . فقد تسنى لهذه الاخيرة ، بفضل الموارد الكثيرة التي وفرها لها حسن سير الآلة الحكومية واستثمار المقاطعات الخارجية ، ان تكثر من البناء وتوسع مجالات سلطتها وتوجه جهود الفن نحو مشاغلها الخاصة . وفي العهود المعروفة بالمتوسطة - الفوضى بين الامبراطوريتين القديمة والوسطى ، غزو الهيكسوس ، السيطرة الآشورية والفارسية - لم ينخفض الانتاج فحسب ، بل انحط ، من حيث القيمة الفنية ، مظهراً استرخاء موازياً للتدخل السياسي والاجتماعي ولتصدع التقاليد القومية .

وهكذا فقد تطور الفن المصري عاكساً في ذلك تطور الملكية
ابداع الامبراطورية القديمة
نفسها . يعود للامبراطورية القديمة ، التي ارجدت ما يمكن ان
نسميه قاعدة الدولة وطقوسها ، الفضل في تركيز تقاليد الفن وامثلته الكبرى باستثناء الهندسة المعمارية ، لان تصميم المعبد قد تأخر في بلوغ صورته النهائية ولان الاهرام الملكية الكبرى التي شيدت في عهد السلالة الرابعة لم تؤخذ مثالا لاي بناء آخر. غير ان امثلة الاعمدة الرئيسية وضمت

نهائياً : الاعمدة التي عرفت ، بعد شنبوليون ب « بروتودوريّة » لانها ، بخلوها من القاعدة وبضلوها المحوفة وبتاجها البسيط ، تذكر بطرار من الاعمدة ابدعه الاغريق فيما بعد ، والاعمدة ذات الجذوع التي تنتهي بزهرة بردي تقوم مقام التاج . كما ان النحت الذي توصل الى تقنية رفيعة اخذ يحقق التماثيل ويزين الانصاب وجدران المدافن بنقوش بارزة تعالج المواضيع التي ستتوارثها الاجيال : الملك ، الآلهة ، ابو الهول ، الميت وعائلته ، القربان للاله او للميت ، مشاهد الحياة اليومية ، الخ .. فتحدت منذ ذلك الحين المصطلحات الهامة لما يتعلق بالجسم البشري واوصاعه وازيائه وخاصياته .

وجد الفن القديم المتدع نفسه امام اتجاهين كبيرين : الواقعية والمثالية اللتين على كل فن ان يختار بينهما ، فمكسها معاً واعطى كلا منها نصيبه المتفاوت وفقاً لغاية عمله . احتفظ الفن الخاص بحرية اكبر ، دون ان ينحرف عن القاعدة العامة لموضوعه ، وتقيد بالواقع الذي يعبر عنه دون ان يهتم للمبالغة في تعظيمه ، صارفاً النظر فقط عما فيه من ضعة وابتذال وبؤس ومتمسكاً بما في الحياة من فتنة ومن نكتة احيانا . اما الفن الرسمي فقد كان والفن الخاص على طرفي نقيص لان جموح الخيال فيه لا يليق بالآلهة ولا بالملوك ، ولذلك فقد انطلق من الواقع المراقب ، اي من الصورة ، ولكن احترام القدسيات قد دخل عليه لاضفاء الجلالة الصافية عليه .

التميز كل من العهود الكبرى التالية بطابع خاص يضيف الى الفن شيئاً جديداً جرياً مع التيار العام الذي يبرز فيها .

حققت الامبراطورية الوسطى تنظيمًا داخلياً كبيراً . وتبنى الفراعنة انفسهم هذا الواجب الذي عينت الدولة باسمه ، لكل مواطن ، مكانه وعمله في المجهود الجماعي . لذلك نلصق ، على اوجه بعض التماثيل الملكية على الاقل ، انسانية اكثر احساساً وتألفاً وتأثيراً ، حتى في خشونتها . فالواقعية ، هنا ، تتقدم بقوة .

في الامبراطورية الحديثة نلصق عودة الى المثالية . غير ان الاناقة الرشيقة تلتطف من تصنع النبل . فلم تكن الطبقات الحاكمة المصرية ، في يوم من الايام ، اوسع ثروة واكثر سعادة مادية واوفر وسائل لارضاء اذواقها الرقيقة .

اما ثورة امنوفيس الرابع - اخناتون - القصيرة الامد فقد كانت شاملة ، على الاقل في البلاط الذي انتقل الى تل العمارنة العاصمة الجديدة ، وتميزت ، في الفن كما في العقيدة الدينية ، بواقعية جريئة تصور العيوب الطبيعية نفسها الا في شخص الملك . ولكن اخلاصها يسهل عليها التعبير عن الحياة الروحية العارمة التي تجيش في « ملهم » اتون .

ويرافق الجهد ، الذي بذل في عهد سلالات سايس لاستعادة الوحدة الداخلية وبعث السلطة الخارجية ، تصميم حازم على الرجوع الى الفن القديم ، فعاد الفنانون ، بملء اختيارهم ، الى الامثلة العامة في الامبراطورية القديمة ، واخذوا يقلدونها ، مدخلين على الصورة الواقعية ، خطوطها الكبرى الضليعة نفسها .

مصر القديمة في فنها مهما كان من حقيقة هذا التنوع ، فانه لم يُطرح بوحدة الفن المصري العميقة الجذور . ومن كل ما انتجه هذا الفن ، تبرز ، بقوة غريبة ، بعض التعاليم التي تأتلف مع خطوط جوهرية اخرى في الحضارة الفرعونية .

توفرت دائماً لاهم 'زبن' هذا الفن سلطة تؤمن لهم وسائل عمل تفوق بضخامتها كل تصور . وقد نزع هذا الفن ، لا سيما في الهندسة المعمارية ، وفي صناعة التماثيل احياناً ، الى ان يصبح فناً واسعاً جباراً يتعدى الاقيسة البشرية . فكانت مصر ، حتى في هذه الناحية ، ارض الآلهة ، وكان الناس فيها لا يقفون عند حد في خضوعهم وانقيادهم لهؤلاء الآلهة . وتفرض علينا روائع هذه الفن المميزة ، كما جرى للرحالة الاغريق ، ان نفكر بالجماهير التي اقتلعت الفدرات ونقلتها ودفعت بعرق الجبين اثمان المواد الضخمة او الثمينة ، قبل ان نفكر باولئك الفنانين الذين صمموها وحققوها .

فهذه الروائع نفسها ايضاً دليل على الايمان الذي عمر قلوب هذا الشعب ، فتحمل التضحيات الفائقة في سبيل ايمانه بآلهته وايمانه بخلود امواته وايمانه بملوكه .

وقد رافق هذا الايمان ، من جهة ثانية ، رجاء دائم ، فأوجد في الشعب تقاليداً وبهجة والهاماً . اجل لم يستسلم الفن المصري لهذه الاتجاهات في كل مكان . ولكنه اتاح لها فرصة الانطلاق ، كلما استطاع الى ذلك سبيلاً ، مضافاً عليها تمجّناً بريئاً غداً هو نفسه ، في معالجة بعض المواضيع ، ضرباً من ضروب الطقس .

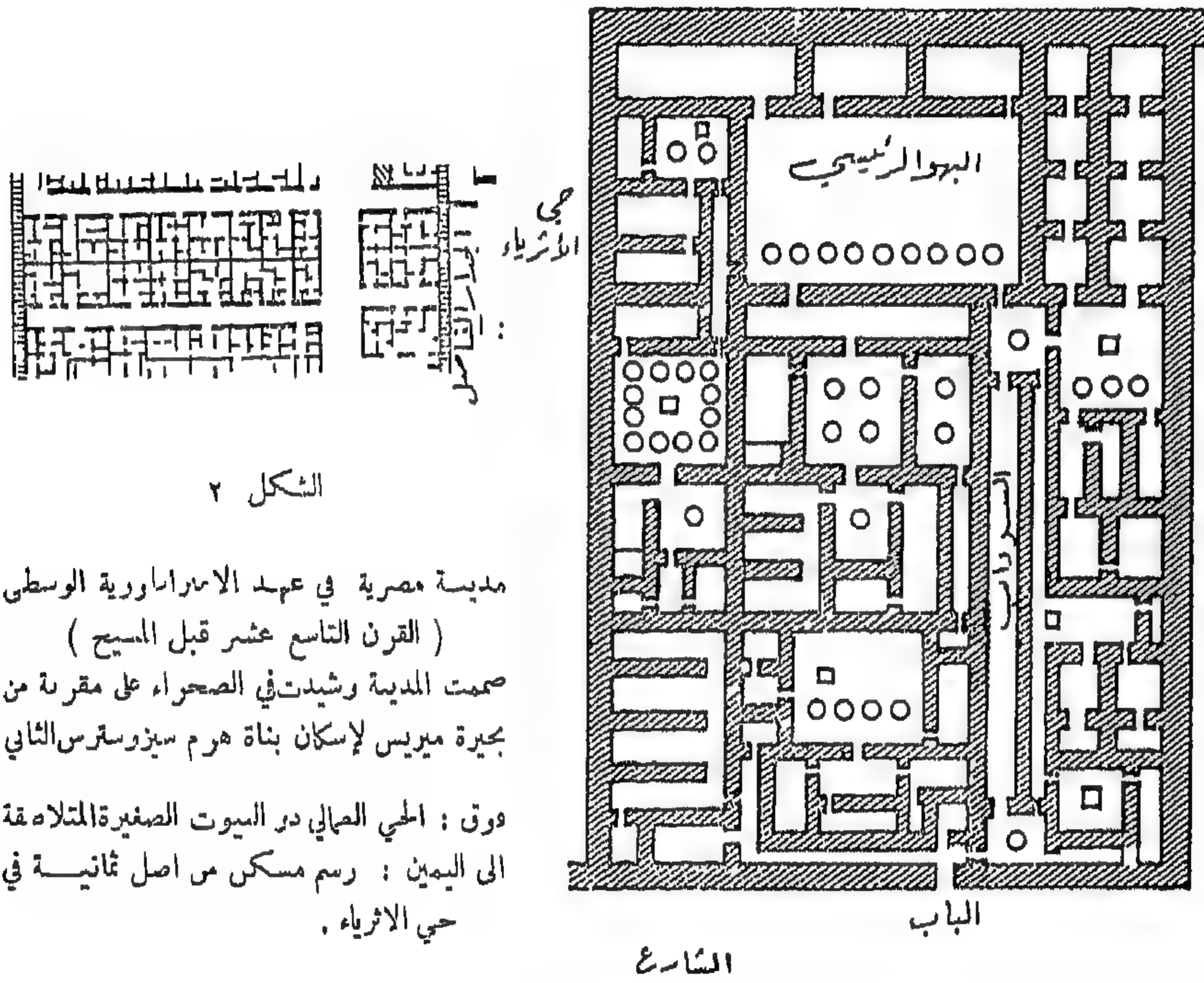
١ - الهندسة المعمارية

يتجلى طابع العظمة على الاخص في ما تبقى من الآثار البنائية . ولا غرابة مساكن الاحياء في الامر ، اذ ان لمعارفنا حدوداً تقف عندها . هنالك الحدود الزمنية اولا : فالامبراطورية الوسطى اقل انتاجاً ، وغالبية مدافن هذا العهد مبنية بالآجر وليست اليوم سوى انقاض متراكمة لا شكل لها ، كما ان المعابد ، على كثرة عددها ومتانة بنائها ، قد ادخلت عليها فيما بعد تحويرات جمة .

وهناك ايضاً الحدود المنطقية . فكل ما كان معداً للناس في حياتهم على الارض قد قام بالتفصيل ، رغبة في الاسراع ، على مواد يسهل منالها ، لا سيما اللبن الذي ما لبث ان انهار وتفتت . والقصور الملكية نفسها ابعد من ان يتيسر تخطيطها اليوم لان الآثار التي تركتها لا تتعدى بعض ما ازدانت به الجدران وبعض حفر قامت فيها احواض السباحة التي تشير اليها النصوص . وجلي ان هذه الآثار تضمحل اهميتها اذا ما قورنت بالكثير غيرها من الآثار البنائية

الضخمة . واذا كانت هذه هي حالة القصور ، فماذا عسانا نقول عن المساكن الخاصة ، لا بل عن المدن نفسها ؟

بيد ان اعمال التنقيب قد قدمت لنا بعض الادلة . وهكذا فقد كان اكتشاف معالم مدينة مؤقتة ، مبنية في عهد الامبراطورية الوسطى على مقربة من احد المحامل ، اكثر تيسراً ، كما افضى انتهاء اعمال المعمل الى الاجلاء عنها بسرعة . فاتيح وضع تخطيط مساكن مماثلة لموظفي الادارة كما للعمال . ولكن في ذلك كله من الابهام ما لا يسمح بتحديد الغاية من الغرف المختلفة ، حتى في المساكن الكبيرة نفسها . ولنكتف بالاشارة هنا الى سياج البيت من الخارج ، والممر



الشكل ٢

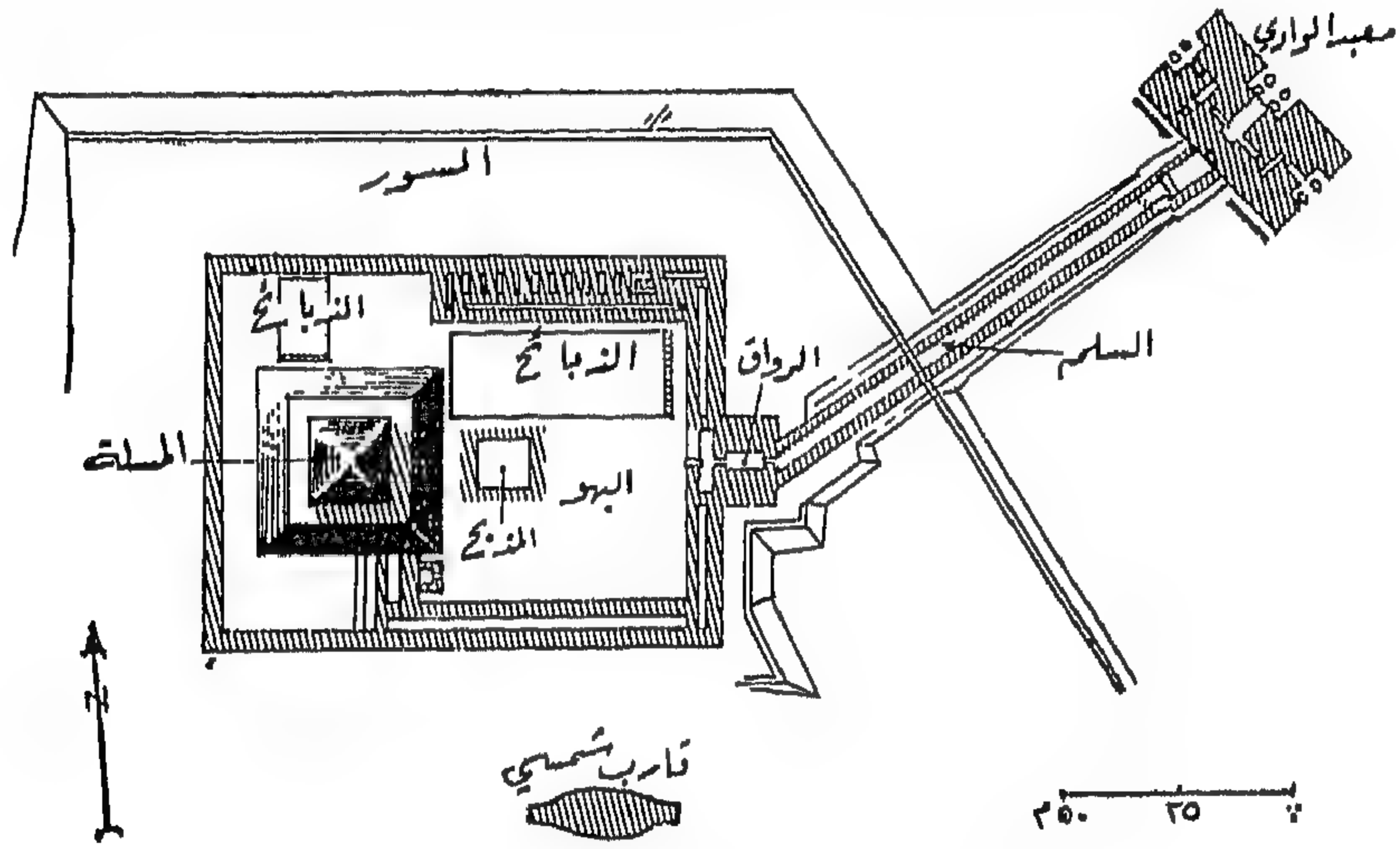
مدينة مصرية في عهد الامبراطورية الوسطى
(القرن التاسع عشر قبل المسيح)
صممت المدينة وشيدت في الصحراء على مقربة من
بحيرة ميريس لإسكان بناء هرم سيزوسترس الثاني
فوق : الحلي الصالي في البيوت الصغيرة المتلاصقة
الى اليمين : رسم مسكن من اصل ثمانية في
حي الاثرياء .

الطويل ذي الزوايا المؤدي الى البهو الرئيسي الذي يحاذيه امام حهته الكبرى رواق مستطيل ، والفناءات الداخلية باعمدها واحواضها ، وسطوح الغرف التي توفر التنعم ببرودة الليل ، وهذا التخطيط انما يستجيب لرغبة مزدوجة : صفاء المنزل والرفاهية . اما المساكن الشعبية المبنية في حي خاص يفصله جدار عن حي الاغنياء فتقتصر على ثلاث غرف او اربع تؤلف جزءاً من كل هندسي رتيب هو اشبه برقعة الشطرنج .

وباستثناء الحداثق والمساكن المتلاصقة ، وجد العلماء في غير امكنة ، وفاقا للطبقة الاجتماعية المعنية ، هذا السعي وراء الحياة اللذيذة تارة وهذا التواضع تارة اخرى . ولكن ليس في كل ذلك

اي شيء مبتكر يثير العجب ، سوى المعابد والمدافن ، تلك الابنية المشيدة بالحجر الصلب والمعدّة ، اساساً ، لان تبقى مدى الدهر ، فبقيت مدى الدهر .

المعبد لم تستقر هندسة المعبد إلا بعد وقت طويل . ولا يبدو ، في عهد الامبراطورية القديمة ، انها كانت واحدة لكل المعابد ، إذ كان لكل إله كبير تقريباً معبده الخاص به . واشهر هذه المعابد معبد الاله الشمس ، وهو طلق السماء كما يليق به ان يكون . استغيب فيه عن التمثال الالهي برمز شمسي كان في البدء ثقيلاً وموضوعاً على قاعدة كبيرة هرمية الشكل ، وقد اخذت عنه فكرة المسلة . وبعد حقبة طويلة من الزمن ، ادت عبادة اتون ، التي نهض بها فرعون ني ، الى تشييد معبد شمسي مماثل في تل العمارنة . ولعلّ ما بقي من هذا التخصص



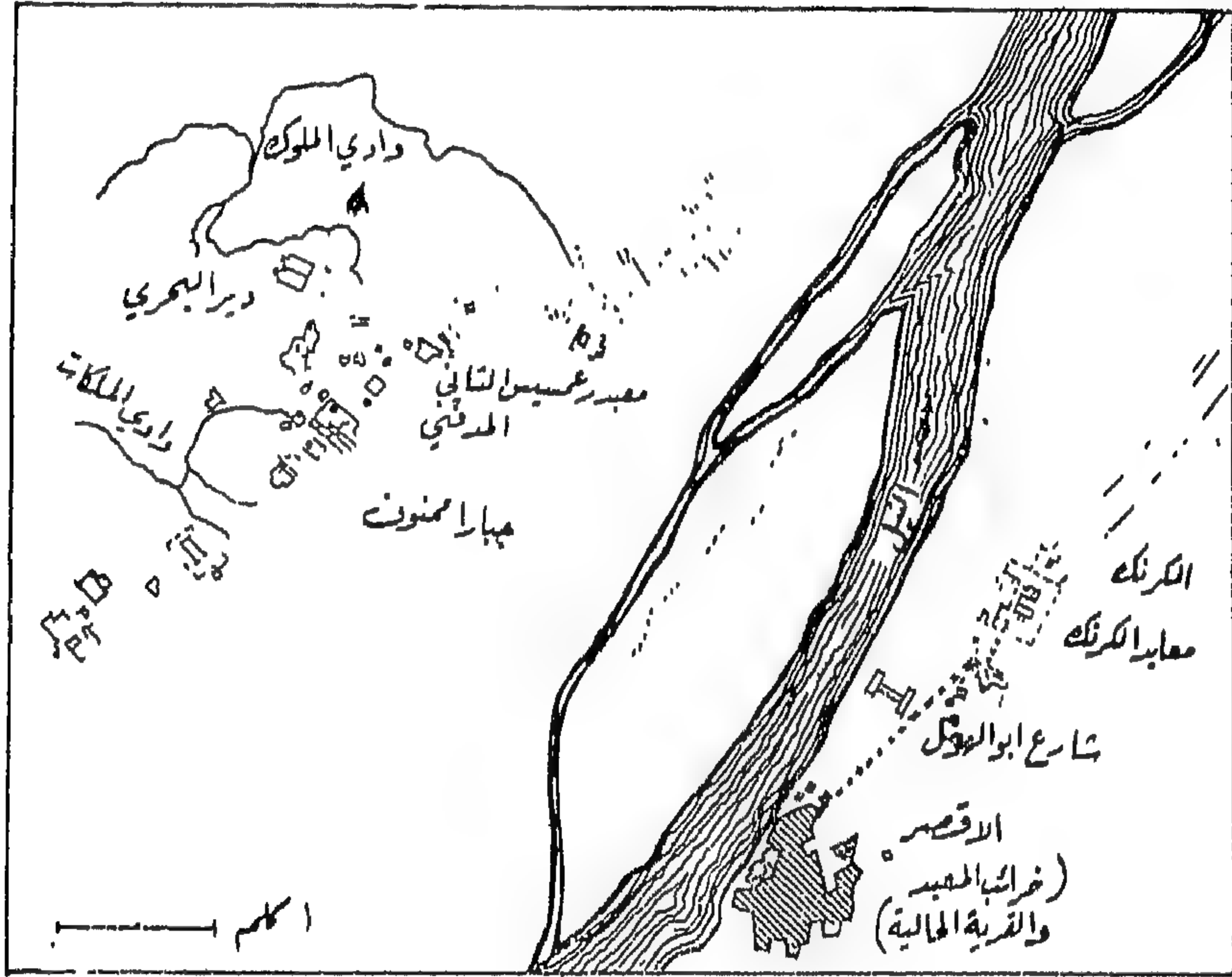
الشكل ٣ - معبد شمسي شيده الملك نيوسري
(السلالة الخامسة : حوالي السنة ٢٥٠٠ قبل المسيح)

الأول قد عاد وبرز ، على عهد الامبراطورية الوسطى ، في ظهور تاج العمود « الحاتوري » الذي رسم فيه ازميل النحات مزهراً ورأس امرأة ذا اذني او قرني بقرة . وقد خصص هذا العمود بالمعابد المكرسة على اسم الآلهات . بيد ان هذا العهد قد ابتكر ايضاً ، ولا شك في ذلك ، العمود « الاوزريسي » ، الذي يسند اليه الظهر تمثال للملك بشكل اوزريس . وقد اعتمد هذا العمود في المعابد المكرسة للاموات ايضاً . وان في هذين الابتكارين ، لعمرى ، دليل النفوذ الذي تمتع به اوزريس وحاتور احدى آلهات اسرته . وقد توصل اللاهوت الشمسي ايضاً الى فرض بعض الرموز على جميع المعابد . وهذا برهان جديد على ما لعقائد هليوبوليس واوزريس من اثر عميق : فكان لا بد لوحدة الطقوس من ان تقود الى وحدة التصميم الهندسي .

فبعد التنوع القديم ، توصل المصريون ، اذن ، في عهد الامبراطورية الوسطى كبعد حد ، وربما قبل ذلك ، الى مثال نموذجي موحد للمعبد الالهي . اجل كان هنالك بعض الفروق في الواقع ،

خصوصاً في معبدي الكرك والاقصر ، عند مداحل طيبة ، حيث نشاهد كل تركيب عجيب ، لان فراغة كثيرين ارادوا ان يسموا ملكهم ، فيها ، بأبديّة شخصية ، وقد حققوا ذلك اما بتوسيع بعض الاقسام من عمل اسلافهم واما باضافة اقسام اخرى مماثلة اليها . ولكن باستطاعتنا ان نستخلص تحطيّطاً عاماً شاملاً لاسيا وانه قد حقق ، اكثر من مرة ، في عهود متأخرة جداً وحتى في ايام الاحتلالين المقدوني والروماني .

كانت تؤدي الى المعبد ، من المدينة او السهر ، طريق مرصوفة بالالواح الحجرية يحف بها من الجانبين صفان من تماثيل ابي الهول . وقد يستعاض احياناً عن رأس ابي الهول برأس الكبش .



الشكل ٤ - منطقة طيبة

كانت مدينة طيبة مبنية على الضفة اليسرى قبالة الكرك والاقصر

والكبش حيوان مكرس لأمون ، فمن الطبيعي بالتالي ان ينتصب تمثاله في طريق تؤدي الى معبد هذا الاله . وتنتصب عند آخر الطريق ، نقلاً عن العبادة الشمسية ، مسلتان شاحختان منحوتتان من حجر واحد تلتهيان عند القمة بشكل هرم صغير ، استرسل المصريون في وصف اعمال البطولة التي تطلبها اقتلاعها ونقلها وايقافهما . وبعد المسلتين يقوم السور بجدران الضخمة محيطاً ببית الاله الذي هو المعبد نفسه . وقد حافظ هذا البيت ، نظراً لقوة مالكة ، على مظاهر القلعة الحصينة من الخارج . وكان يدخل اليه بواسطة باب يقوم على جانبيه عمودان مربعان كبيران تسند اليهما الظهر تماثيل ضخمة للفرعون الباني .

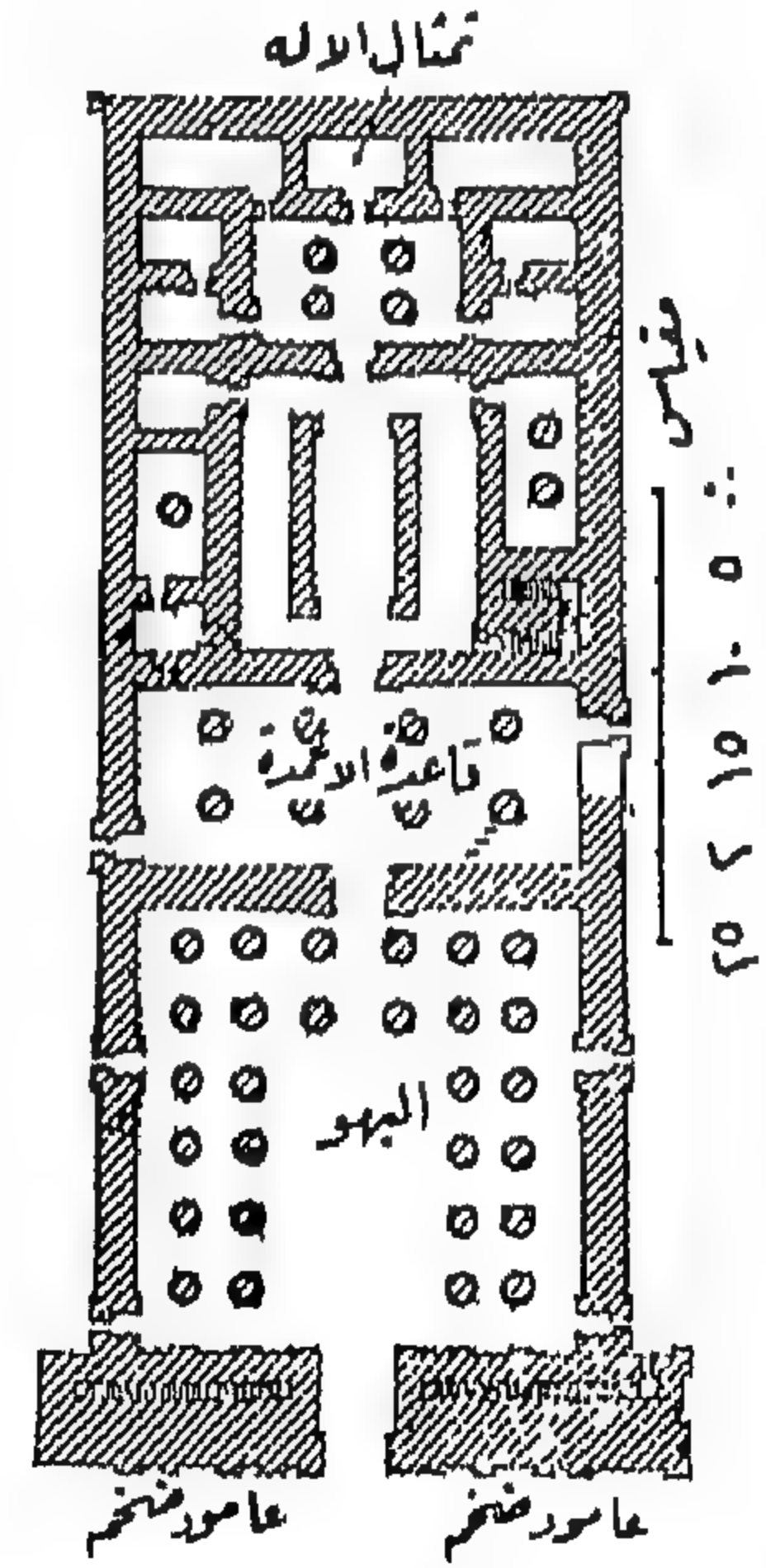
يلي هذا الباب هو كبير تحيط به اروقة ذات اعمدة يستطيع ان يدخل اليه جمهور غفير من

الشعب إبان الأعياد التي ينظم فيها التطواف بتمثال الإله وهو يرتجّ على قاربه. أما بعد ذلك فلم يكن مسموحاً بالولوج إلا لبعض أصحاب الامتيازات الذين يتضاءل عددهم شيئاً فشيئاً لاسيما وإن قياسات الأبنية والغرف نفسها تتضاءل أكثر فأكثر. وعلاوة على ذلك كانت الأرض، بين قاعة وقاعة، ترتفع شيئاً فشيئاً بواسطة درجات، بينما كان السقف ينخفض باتجاه الطول ومن جهتي المحور. ويرمز ذلك إلى صعود الشمس وانحدارها يومياً في السماء. وقد اشتركت تيجان الأعمدة نفسها أحياناً بهذه الرمزية، فتبدو الأزهار، التي تستوحىها، متفتحة على مقربة من المحور ومنغلقة إلى اليمين واليسار، شأن الأزهار الحقيقية التي تفتح أوراقها في وضوح النهار وتطبقها عند اقتراب الليل.

وهكذا فإننا نجد، بعد البهو، «قاعة الأعمدة» وهي مسقوفة بألواح حجرية ملقاة على أعمدة مختلفة الارتفاع، مما يوجد فسحاً بين الألواح يتسرب منها النور والهواء. وبالرغم من أن القياسات نموذجية، فإننا نذكر هنا بعضها لما تمطيه من إيصاحات ضرورية: تبلغ القاعة الكبرى في معبد الكرنك، التي أتم بناءها رعمسيس الثاني، ١٠٣ متراً طولاً و ٥٠ متراً عرضاً وينتصب فيها ١٣٤ عموداً يزيد ارتفاعها عن العشرين متراً عند محور القاعة ويبلغ قطرها ٣ و ٤٠ م. فلا عجب إذا ما تركت في دهوس زائريها انطباعاً لا ينسى عن جلال وعظمة ما فوق الطاقة البشرية.

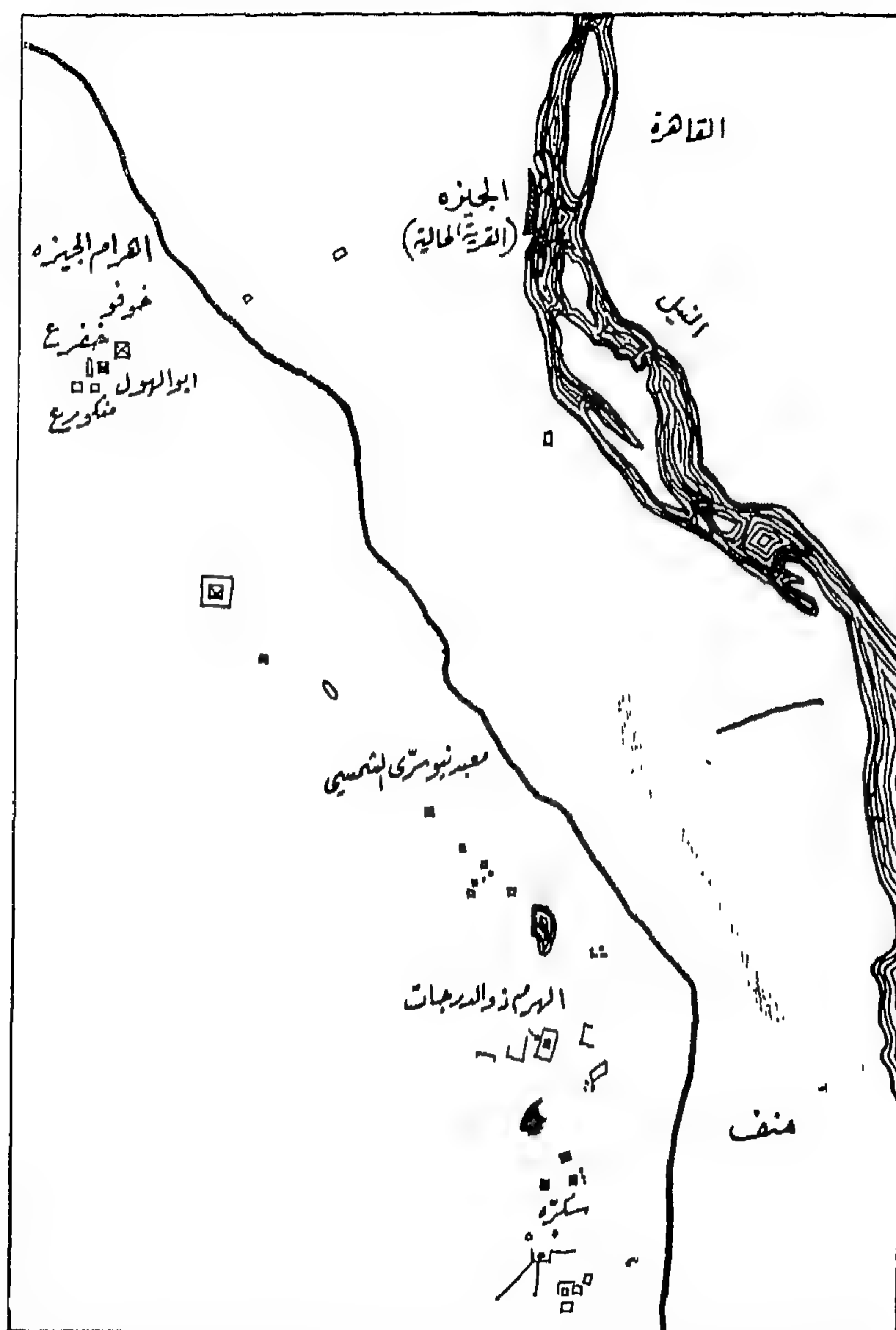
وتقوم أخيراً، في آخر المعبد، الحجرة المعدة لسكنى التمثال أي الإله نفسه، وهي غارقة في ظلام دامس يفصله عن النور الذي يغمر فناء البهو نور خافت في قاعة الأعمدة. ولا يستطيع سوى كائن بشري واحد هو الملك أو منوّضه أن يفيض الخاتم الغريبي الموضوع على باب الحجرة ويدخلها ويحتفل بمراسم العبادة.

وتحيط بهذه الحجرة غرف مختلفة تستخدم مستودعات لللبسة والمصنوعات الثمينة. ولكن يتوجب علينا أن نتخيل أيضاً أراضي محاطة بسور أكثر اتساعاً تتوزع فيها مساكن خدام الهيكل والمكاتب والمخازن والمصانع والحدائق والبحيرة المقدسة، أي كل ما هو لازم لرفاهية الإله ولضروريات طائفة الخدم المكرسين لخدمته والعناية بملكاته.



الشكل ٥- رسم معبد خنصور في الكرنك (القرن الثاني عشر قبل المسيح)

وقد حدث أن دفعت الرغبة في بذل مجهود يتصف بالجدة إلى اختيار مكان المعبد في بقعة وعرة عسيرة المسالك جداً، كما هي حال بعض المعابد «المدفنية» حيث يحتفل بعبادة الميت المؤله، وهي هامة جداً حين يشيّدها الملوك إبان ولايتهم وتنسجم مع النموذج العام الذي سبق



الشكل ٦ - منطقة منف

وصفه . ولم يقر الرأي ، إلا في عهد متأخر ، على تشييدها بعيداً عن المدفن القائم خارج السهل المروي والمحروث ، فأقيمت في الامكنة الوعرة . واهم هذه المعابد المدفنية تلك التي بنيت عند لحف اسوار دير البحري الصخرية والمتميزة بسقوف تصل بينها السلام الحجرية وتقوم عليها الفناءات ذات الاروقة : معبد منتوحوتب الاول والثاني الذي يعود الى عهد الامبراطورية الوسطى وخصوصاً معبد الملكة حتشبسوت حيث وفق المهندس الى الجمع بين عمله البشري وبيئة طبيعية جليلة الوعرة .

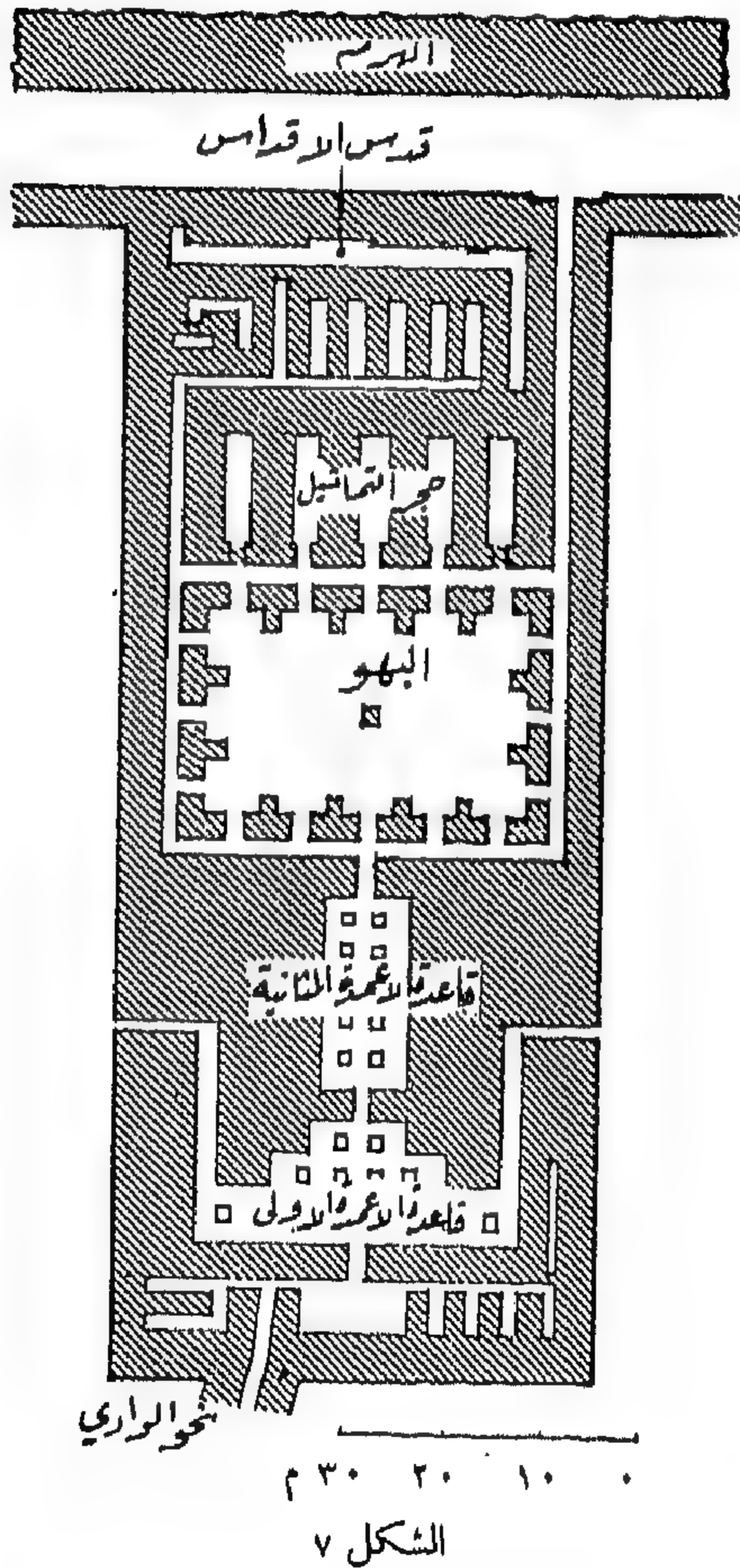
نحتت هذه المعابد جزئياً في الصخر الصلد ؛ وحدث ان نحتت فيه معابد كاملة . فقد امر رعمسيس الثاني بنحت اثنين منها في جبل ابي سنبل امام الشلال الثاني ، تتقدمها فناءات في الهواء الطلق وتغوص اقسامها الاخرى في الجبل ، يجدرانها واعمدتها التي ابقى عليها ، من اصل الصخر ، اثناء النحت والتفريغ . وامام اكبر المعبدین ، تقوم اربعة تماثيل ضخمة تمثل الملك جالساً ، وتتعاقب ، في جوف الصخر ، عدة غرف ، بما فيها غرفة الاعمدة ، تركز على ثمانية اعمدة اوزريرية .

لقد اوحى المدفن ، المعد لاستقبال المومياء والتماثيل الكفلاء ولتأمين مسكن للميت المدفن الذي عادت نفسه الى جسده ، تحقيقات اكثر غرابة ايضاً ، اذا جار هذا القول ، لاننا ، اذا ما ذكرنا المدفن في الكلام عن مصر ، ترتسم امامنا في الحال ، صورة تلك الاكداس الثلاثة الهائلة من الحجارة المجموعة التي تنتصب في الجيزة الى الجنوب الغربي من القاهرة . بيد ان الاهرام الكبيرة لا تمثل سوى فترة قصيرة من تاريخ المدفن المصري او بالاحرى ، في نطاق اضيق ، من تاريخ المدفن الملكي .

ان عناصر المدفن الاساسية تبرز بكل وضوح في الابنية المدفنية الاولى التي خلفت ، في عهد الامبراطورية القديمة ، الحفر العادية . فالقبر نفسه محفور على بعض العمق في الارض ، ينزل اليه الناووس في بئر مستقيمة الزوايا . وبعد الدفن ، تؤخذ الاحتياطات القمينة بالمحافظة على سلامة القبر اثناء ردم البئر . وترتفع فوق الارض اكمة صغيرة ما لبثت ان اصبحت نجفاً من الآجر او من الحجر المنحوت وعرفت ، بسبب شكلها العام ، بالمصطلح العربي « مصطبة » . يدخل من جهتها الشرقية الى غرفة اولى هي مكان عبادة الميت ، يتوسطها ، فوق الناووس ، منضدة التقدم الى جانب نصب مدفني . وتقوم وراء هذا النصب غرفة اخرى في المصطبة نفسها وهي « الممر » او السرداب الذي يضعون فيه تماثيل الميت . فالنصب اذن حد فاصل بين عالمين : عالم الاحياء وعالم الاموات لا يتصل احدهما بالآخر سوى بواسطة فرجة ضيقة لا يتجاوز علوها طول الانسان . وينحت هذا النصب بحيث يرمز الى باب — ولذلك دعي « باباً مُضلاً » — كما ينقش احياناً في اطاره تماثيل يرمز الى الميت العائد الى عالم الاحياء . وقد يطل احياناً ، من كوة فوق مصراعي الباب ، تماثيل نصفية يرمز الى الميت مترقباً زائريه .

فهر ومستودع تماثيل ومعبد ، هذه هي الاقسام الثلاثة الرئيسية في المدفن . وقد اضيفت اليها ، في « مصاطب » الاغنياء ، غرف اخرى تقل او تكثر وفقاً لمكانة الميت . ومن الطبيعي ان يصبح عددها كبيراً في المدافن الملكية .

جرت منذ اوائل عهد السلالة الثالثة محاولات متروكة ادّت الى مثال الهرم القياسي . ولكن لا مراء في ان المجدّد الجريء هو المحوّد ، مهندس الملك جيسر ، الذي صمّم وحقق هرم سكره ذا الدرجات منضداً فيه ست مصاطب الواحدة فوق الاخرى . وقد شيّد مؤسس السلالة الرابعة اول هرم مربع القاعدة ومتساوي الانحدار . ثم شيّد خلفاؤه الثلاثة المباشرين الاهرام الثلاثة الكبيرة المعروفة : الاول باسم « اقق خوفو » والثاني باسم « عظيم هو خفرع »



معبد خفرع المدفني في الوجه الشرقي من هرمه

الهرم هو مأوى القبر الامين . والقبر هنا ليس محفوراً في الارض بل قائماً في الهرم نفسه الذي تتشابك فيه الاروقة الكثيرة تسدّها المسالف الساقطة وتتفرع عنها معابر لا منفذ لها . ولكن جميع هذه الاختياطات لم تكن لتثني اللصوص عن عزمهم ، فتوصلوا الى النواويس منذ

والثالث باسم « الهي » هو منكورع . ويجدر بنا ، هذه المرة ايضاً ، ان نذكر بعض الارقام . تغطي قاعدة الهرم الاول اكثر من خمسة هكتارات ويتجاوز ضلعها ٢٣٠ متراً ، ويبلغ علوه الاساسي ١٤٦،٥٠ متراً وحجمه الاساسي ٢٥٢١٠٠٠ متراً مكعباً . ويكاد الهرم الثاني يعادل الاول في قياساته (ضلع القاعدة ٢١٥ متراً والعلو ١٤٣،٥٠ متراً) . اما الهرم الثالث فلا يبلغ ضخامة الاول والثاني (ضلع القاعدة ١٠٣ امتار والعلو ٦٦،٤٠ متراً) .

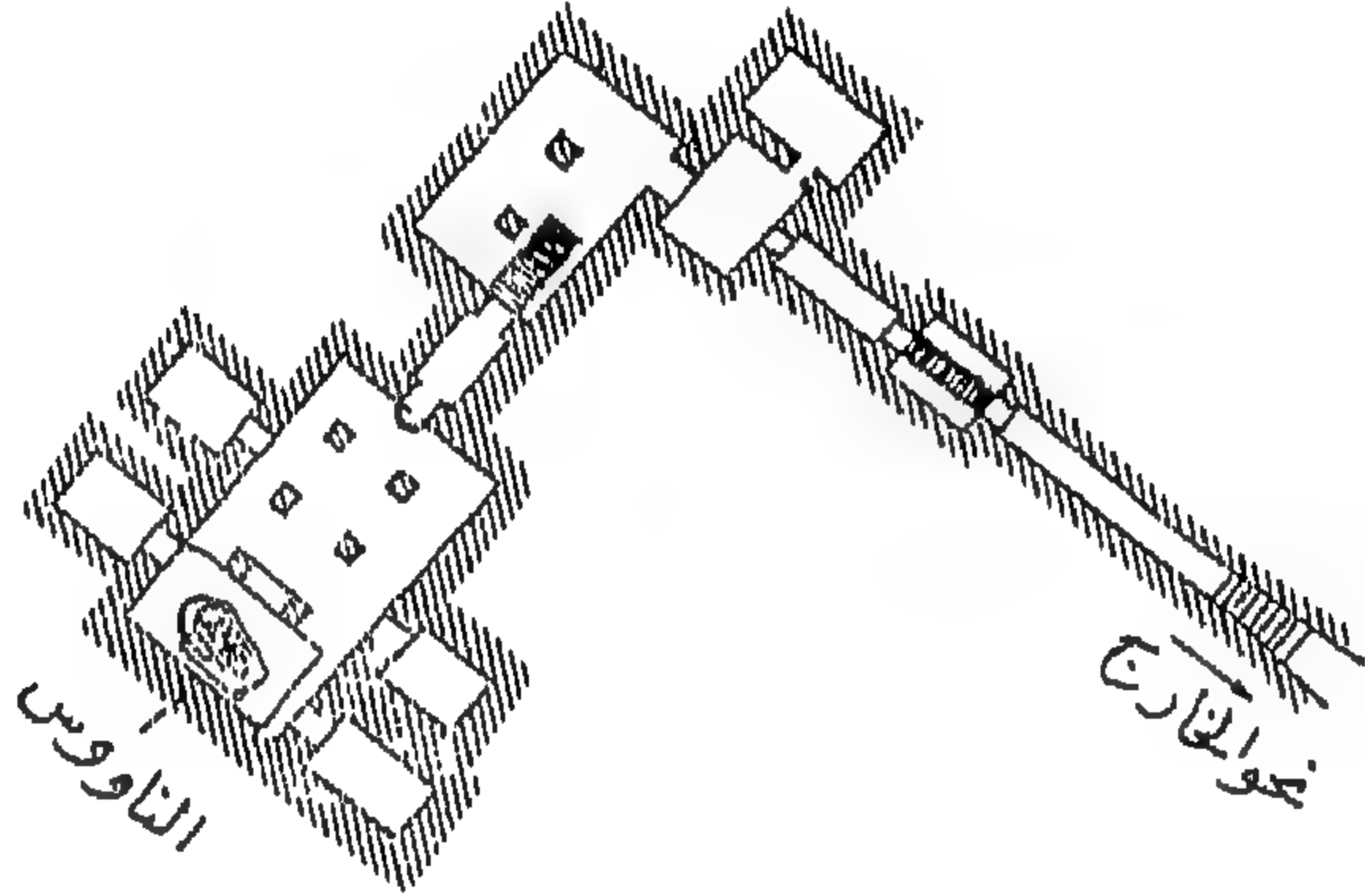
ان الخيلة لتعجز عن تقدير الجهد العظيم الذي بذلته في هذا العمل الجبار جماهير غفيرة مسخرة . ذكر هيرودوتس ان بناء هرم خوفو استغرق عشرين سنة كاملة ، بعد عشر سنوات مكرسة للاعمال التحضيرية وحدها . فهل يمكننا التحقق من هذه الاعداد ؟ ولكن ضخامة المجهود تفترض شيئاً آخر ، غير السوط في خدمة الكبرياء ، هو انسياق الشعب في معتقدات تدفع سيده لان يلزمه بهذا القدر من الجهود .

اوائل العهد القديم . وقد قام خارج الهرم امام جهته الشرقية هيكل مدفني يأوي ، في الوقت نفسه ، السرداب والمعبد . وبما ان كل هذه الابنية مشيطة في السجاة الصحراوية ، قام اخيراً في الوادي معبد آخر مسقوف ينسلق المنحدر .

فكل هرم من الاهرام الكبيرة ، والحالة هذه ، جزء من كل تبرز فيه ، بالرغم مما يفصل بينها ، عناصر المدفن القياسي موسعة حتى الضخامة او منكسثة القياسات ، بالإضافة الى الصخر الناتئ القريب منه الذي استنادوا من شكله الطبيعي لكي ينحتوا منه مثلاً لابي الهول يعلوه رأس خفرع ، وبالإضافة الى العديد العديد من المدافن والمصاطب والاهرام الاخرى المبنية لأعضاء الاسرة المالكة ولذوي المكائات الرفيعة . والى « الغرب » من منف عاصمة الملوك الاحياء ، او بالحري الى الشمال الغربي منها ، خلدت المدافن جلالهم الالهي وعظمة رجال بلاطهم .

كان منكورع قد خفض قياسات هرمه . ولم تقم بعده اهرام ضخمة لان الجهود الذي تتطلبه مرهق جداً . بيد ان مثال الهرم ، الذي تنسأه حتى الافراد العاديون والذي تحقق على نطاق ضيق وبمواد اقل جودة ،

كالقرميد مثلاً ، قد دام حتى الامبراطورية الوسطى . كان مركز هذه الامبراطورية قد انتقل من منف الى طيبة ، والنجاة الصحراوية ، في مصر العليا ، اكثر تشققاً من الشمال فلا تصلح بالتالي لاستواء الابنية الضخمة . كانت المدافن منذ القديم ، في هذه المنطقة ، تفوص



الشكل ٨ - رسم ديماس امنوفيس الثاني
(السلالة الثامنة عشرة ، القرن الخامس عشر قبل المسيح)

في السور الصخري ، لا سيما مدافن الامراء المحليين الذين حررتهم عهود الفوضى . وقد منى فراغنة السلالة الثامنة عشرة النفس ، من جهة ثالثة ، بان تنجو موميائهم من عبث اللصوص فاعتمدوا قبوراً تحت الارض او « دياميس » . اما معبد المدفني فقد بقي في السهل ، على مقربة من النيل ، لا صلة تربطه بالقبر المحفور في جوف صخر من صخور احد الوديان القفرية الجافة ، سوى صلة الصوفية . وقد استحق احد هذه الوديان ، بسبب وفرة مدافنه الملكية اسم « وادي الملوك » ، كما اطلق اسم « وادي الملكات » على واد آخر . وكان مدخل القبر ، بعد المراسم الجنائزية ، يسد بكل عناية باكوام من الانقاض والهيبار . ثم يدخل في الصخر سرداب - يدعى في اليونانية سيرنغوس وهو اسم آخر يطلق على هذه القبور - تكثر فيه المنعطفات والمنحدرات والسلام يتفرع الى غرف متباينة الاحجام تستند الى الاعمدة عند الحاجة .

بعد اواخر الامبراطورية الوسطى يكتنف الغموض تطور المدفن الملكي ، إذ ان البيئة الطبيعية ، في الدلتا ، حيث انتقل مركز الملكية الرسمي ، غير مؤات للمحافظة على الابنية . فقد اختفت آثار فراعنة سايبس . وقد عثر في تانيس ، نحو الشرق ، على مدافن السلالتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين ، ولكنها متواضعة ومحفورة في سور المعابد ولا اثر فيها للمصاطب . كانت الملكية سريعة الزوال إذ ذاك فحدثت ، راضية ، من الجهود التي فرضتها لاجل امواتها .

في العهد نفسه استمر حفر السرايب للأفراد في مصر العليا . وقد سعى الافراد دائماً في نطاق ثروتهم ، ولو متأخرين ، الى تقليد العادات الملكية ، معتمدين الهرم وحده او الهرم والمصطبة معاً ، وحافرين الخلايا في الاسوار الصخرية الغربية من مناطق ابيدوس وطيبة . اما الفقراء فلا غرابة في ان يكتفوا دائماً بالحفر الوضيعة او ان ينتهزوا ظروف الفوضى والاهمال وانقراض السلالات كي يملأوا بموميائهم القبور المحفورة لسواهم من الاموات .

٢ - النقاشة والتصوير

ارفع الفنون الاخرى هو النقاشة التي لم تعوزها الظروف لتنتشر . فخلق صناعة التماثيل الصورة هو بمثابة خلق الحياة . والتماثيل ضرورية للدلالة على الآلهة والبشر على السواء ، إذ ان نفس هؤلاء بحاجة الى ما يحل محل المومياء الكريهة العطب ، اذا ما ارادت العودة الى الجسد . اضيف الى ذلك ما في تزيين جدران المعابد والمدافن واعمدتها من تشويق واغراء . وهكذا فقد وجدت النقاشة المصرية نفسها امام حلفي عمل : التماثيل والنقوش الناقشة ، وقد حققت في كليهما تحملاً فنيًا مدهشة في ضخامة بعضها حيناً ، وفي كمال تجلّتها الفني احياناً ، وخصوصاً في ما يتجلى فيها من صفات جمال وسمو مقصد ودراسة نفسية وفهم للحياة البشرية والحيوانية .

والنقوش الضخمة كثيرة اشتهر منها عدد كبير لا يزال حتى اليوم في حالة جيدة : ابو الهول في الجيزة ؛ والتماثيل التي تسند الظهر الى الاعمدة المربعة الزوايا عند مداخل المعابد ، « كيجتاري ممنون » مثلاً ، وهما الاثران الوحيدان اللذان بقيتا من معبد امنوفيس الثالث المدفني في سهل طيبة وقد اطلق الاغريق هذا الاسم عليها لانه طاب لهم ان يروا فيها احد ابطال اسطورة طروادة ؛ والتيجان الهائلة ؛ وتماثيل الملوك على شكل اوزريس الداخلة في الاعمدة ؛ الخ . وقد حققت كل هذه النقوش بقياسات تتناسب وقياسات الانشاءات الهندسية الضخمة ، فعبّرت مثلها عن قوة غير محدودة ، ووثبة لتجاوز المستوى البشري ، وتوق الى غير المحدود ، وكلّها نزعات تكاد تكون طبيعية في بلاد ثرية وخاضعة لقانون قوتين تتحديان عمل الانسان : النيل والشمس .

ولنذكر بسرعة ايضاً التقنيات التي برع فيها المصريون منذ القرون الاولى من الالف الثالث . استفاد النقاش ، منذ ذاك الحين ، من الارث الذي تركه له ناحت الاواني الحجرية ، فعرف معالجة اقصى المواد ، كالحجر البركاني والحجر السماقي والرخام السماقي ، وصقلها صقلاً مَلِصاً متوفقاً في الاستفادة من الوان الحجر وانعكاساته وعروقه . وقد توصل الى استخدام المعدن في صناعة التماثيل الكبيرة : فتمثال الملك ببي الاول ، منذ السلالة الرابعة ، قد صنع من الالواح النحاسية المطروقة باداة خشبية ، ونزلت عيناه بحجارة كريمة مادرة ، والبس وررة من ذهب . ويستنتج منه ان هذه التقنية لم تكن حينذاك في اول عهدها ، بالرغم من اننا نجهل كل شيء عن المحاولات التي سبقتها . وما من شك في ان هذه التقنية قد تكاملت فيما بعد واعتمدت التدويب والالمام ، لا في التماثيل الكبيرة ، بل في التحف والتماثيل الصغيرة الكثيرة التي سدق مصر منتجتها الكبرى والتي ستصدرها الى العالم الهليني بأسره وإلى العالم الروماني من بعده .

وقد فرضت الديانة والجلال الملكي على النقاشة مصطلحاتها وقديسياتها بفعل وثوق الصلة بينهما . فلا يهدف الفنان المصري الى الجمال كجمال ، ولكن في سبيل غاية محدّدة سمو على ارضاء هواه . فلا مجال اذن لتغيير الهيئات . وقد لاحظ افلاطون الحظر الموضوع على ابتداع كل ما هو خارج عن التقليد . اجل قد نجد بعض الحرية في التماثيل المعدة للزينة لخصوصيين ، وقد نجد بعض الحرية في التماثيل الرسمية نفسها . ولكن هذه الحرية ، اذا ما استثنينا مرحلة تل العمارنة ، في عهد اخناتون ، تبقى محدودة ونادرة . والتمثال ، حالساً كان ام واقفاً ، يصنع وفاقاً لما يفرضه نوعه من مميزات ويرتب ساقاه وذراعا ويدها ترتيباً معيناً . وهو يبدو في اغلب الحالات كوحدة من كمية تجارية كبيرة .

وغالباً ما يحدث ، في الواقع ، ان الفنان لا يعير الساقين والذراعين سوى اهمية محدودة فيصنع الجسم وفاقاً لقياسات قانونية ويكرس للوجه جل مجهوده . وهو يحرز هنا اكمل نجاحاته . فقد توصل الى تحقيق التشابه الضروري لهوية من يجب تأمين الحياة له ، وتحقيق المثل الذي يعكس تصميمه المجتمع الالهي والبشري والذي يتيح له استخلاص مميزات العقلية والادبية ومشاعره النقية . وهكذا ، من عهد الى عهد ، ومن تحفة الى تحفة ايضاً ، بحسب صفة الشخص الممثل الرسمية او الخاصة ، اختلفت الاهمية المعطاة لهذين الاتجاهين اللذين تسهل دائماً مع ذلك رؤيتهما .

يتعذر علينا هنا ان نذكر كل شيء . ولكن كيف لا نعدد على الاقل اكثر التحقيقات سحرأ وهي اليوم مفخرة المتاحف التي تعرضها ؟ وسنقوم لذلك باختيار شاق لانه يفرض علينا التضحية بالكثير منها .

فمن عهد الامبراطورية القديمة نذكر رأس خفرع بحميه جناحان يسطها وراءه صقر هوروس ويبرز فيه صفاء جلال لا حدود له ؛ والتمثال الخشبي لاحد موطفي السلالة الرابعة وهو قوي

الدلالة وينم عن سلامة القلب ، حتى ان عمال مارييت قد لقبوه بشيخ البلد ؛ وتمثال الكاتب المقرفص المعروض في متحف اللوفر ، وهو من الخشب ايضاً ، تشع عيناه انقباهاً وذكاء حاداً وتمثل وظيفته في وجهه . من الامبراطورية الوسطى نذكر تماثيل حتشبسوت وامنوفيس الثالث الرشيق ، بالرغم من آثار التخثث فيها ، والتمثال المعروض في متحف تورينو والذي يحمل اسم رمسيس الثاني . ومن عهد سايس اخيراً نذكر رؤوس شيوخ عدة قعرها الهام فوق ما قعرتها السن .

بيد انه يجدر بنا ان نفصل تحف عهد تل العمارنة عن هذا الرواق المستطيل في الزمن والمتصف بالوحدة بالرغم مما فيه من فروق ظرفية ؛ فعهد تل العمارنة قد ادخل ، على التماثيل والنقوش الناتئة معاً ، لهباً من الواقعية والقسوة : بدانة الاوراك ، وانتفاخ البطن ، وسماجة الجمجمة ، وطول الاعضاء والرقبة وضعفها ، وتواء الذقن في الوجه . وقد برز كل هذا في عهد اخناتون منذ بداية ملكه ، حتى قبل ان يقاطع امون . فبعد رفض مصطلحات القانون حول الشكل الخارجي ، املت الهيئات التي اتصفت بعد ذلك بالميوعة والحقارة والتصنع ولم يعد يشع منها اي جلال . غير ان هذه النقوش نفسها ، التي تشبه الصور الاستهزائية الى حد بعيد ، تأسر القلب بخلوص المشاهد العائلية - الملكة او الاميرات الصغيرات على ركبي الفرعون مثلاً - وبسحر رأس نفرتيتي المعروض في متحف برلين الذي لم يفقد شيئاً من صفاته المستحب بالرغم من انتشار نماذجه التجارية ، وبدراسة الشهوانية في اجسام الفتيات ، وبالروحانية الفائضة في نظر الملك الذي ينيره وحي مسكر انزله الهه عليه . اجل ليس هذا العهد سوى هنيهة في تاريخ النقاشة المصرية ، ولكنها هنيهة لا تنسى بسبب قصرها الذي لم يتح لها تثبيت مصطلحات فنية جديدة تفسد هي معها في تصنع يميل الى الزوال .

النقش الناقء والتصوير
اضيفت الى الكتابات التي ازدادت بها جدران الابنية نقوش ناتئة اتسعت لها مساحات كبيرة يجب تجميلها في هذه الجدران . ولكن النقوش لم تملأها كلها ، لا بل انها ، حتى في المساحات التي زينتها ، تتصف بطابع من السرية ابعد من ان يؤثر في شعور بالعظمة تحدته رؤية الجدران بعناصرها المتناسقة . واذا ما استثنينا انصاب الابواب المضلة ، فاننا لا نشاهد نقشاً كثير النتوء . اما النقش القليل النتوء فيكاد يكون منعدم السباكة بحيث لا يظهر فيه الظل سوى قسمه الدائري . وقد يحدث ان لا يكون هنالك نتوء البتة ، لا سيما في النقوش المقعرة ، المعتمدة في خارج الابنية للأقلال من خطر التعديات ، وفي داخلها ، بدافع السرعة الذي نلمسه خصوصاً في عهود عظام البنائين من فراعنة الامبراطورية الوسطى ، كرمسيس الثاني مثلاً .

وبرزت في بعض الغرف المظلمة او القليلة النور حاجة الى ابراز الرسم فاوجب ذلك ، منذ البداية طلي النقوش بالالوان . ولم يمض وقت طويل حتى استعملت الالوان وحدها بسبب تدني

سعر كلفتها وسرعة وسهولة انجازها ، فاستعيض بها عن النقوش الناتئة وظهرت فعلاً في بعض المدافن الخاصة العائدة الى عهد الامبراطورية القديمة . ثم انتشر استعمالها حتى كادت تستعمل دون غيرها ، في السراذيب عموماً وحق في سراذيب الملوك انفسهم ، بسبب شوائب الصخر ، الذي يكفي ان يطلى بالدهان حتى يصبح صقيلاً .

لذلك كانت من الطبيعي ان يخضع هذان الفنان اللذان تجمع بينهما غاية واحدة ، اعني بهما التصوير — دونما ظلال — والنقاشة الناتئة ، الى قواعد واحدة هي قواعد الرسم . وكانت هذا الرسم اصطلاحياً بسبب رفضه تصوير الاشياء بحسب رؤية العين وتمثيله الجسم البشري تمثيلاً كيفياً . ففي الجسم مثلاً ، لا يرى الرأس الا من جانبه ، بينما ترى العين مقابلة وترى مقابلة ايضاً ، الا في حالات نادرة جداً ، الاكتاف واعلى الجذع الذي لا يرسم فيه سوى ثدي واحد . ولا ترسم الاعضاء الا من جانبها ، وترى في اليد الاصابع الخمسة بينما تخفي ابهام الارجل الاصابع الاخرى كلها .

يسهل علينا ان نطيل لائحة هذه المصطلحات . ومن نافل القول انه لا يجوز ردها الى خرق الفنان بل الى احترامه لتقاليد دائمة ثابتة . فمهاراة الرسام ليست بحاجة الى دليل .

وهو لم يتصرف بموجب مهارته الا بحكمة عندما يعالج المواضيع الرسمية . والمواضيع الرسمية كثيرة تقتصر هنا على ذكر بعضها : مراحل العبادة الرئيسية ؛ والزواج الالهي اي اتحاد امون بوالدة الملك المقبل ؛ وعناية الآلهة بهذا الملك ؛ والاعياد الملكية الكبرى ؛ وتشيد المعابد وزخرفتها ؛ وقيام الغرباء بتقديم الجزية ؛ والانتصار على العدو ؛ والى ما هنالك ... ولكن ما هو عدد هذه المواضيع يا ترى ، اذا ما قورن بالمساحات المطلوب تجميلها : اعمدة المعابد المربعة الزوايا ، واروقتها ، وجدران غرفها ؟ كل هذه المواضيع قد عولجت دون ملل ودون طابع الفردية بحيث ان الفرعون قد استطاع اكثر من مرة ، ان ينسب لنفسه نقوشاً ناتئة انجزت في عهد احد اسلافه . وفي تكرارها الرتيب دليل قاطع على استمرار الديانة والمثل الملكي الاعلى طيلة الوف السنين .

ولكن لا يصح القول نفسه في غير ما للملوك من قصور وبيوت ومدافن . فتقسم هذه الى غرف عديدة قد ضاعف منها الجدران وزاد في رغبة الانتفاع بها للتزيين . ولم تقف عبادة الاموات دون ذلك ، بل دعت اليه بكل تشويق . فرسمت عليها مشاهد الجنائز وعمليات وزن النفوس . ولكن الجنائز ووزن النفس انما يقودان الى حياة ثانية لا يمكن تخيلها اكثر سعادة الا بتشبيهها بالحياة الفانية . وكان لا بد ، بالاضافة الى ذلك ، من مواجهة امكانية انقطاع خدمة القرابين على يد الاحفاد او الكهنة الاختصاصيين . فكانت افضل طريقة ، للحؤول دون هذه الامكانية ، اللجوء الى ما في الصورة من قدرة خلاقية وتصوير كل ما قد يحتاج اليه الميت وكل ما يمكن ان يدخل البهجة في قلبه . وكما ان باستطاعة تماثيل السرداب ان تقوم مقام المومياء ، كذلك يكون باستطاعة النقوش او الصور ان تحل محل واقع غير متوفر .

هذا كان المنطلق العقائدي لرسوم متنوعة لا تحصى . فهناك مشاهد التقادم مع كل ما يمكن تخيله من مأكل ومشرب وازهار والبسة تتمثل بمنتهى السخاء والشاهية والبذخ . وهنالك جميع مشاهد الحياة الريفية والمهنية الشاقة ، وقد رسمت للدلالة على اغلال هذه الحياة ولإعادة الميت الى وسط اراضيه والعمال الذين اشرف على نشاطهم . وهنالك اخيراً مشاهد القنص والصيد والملاحة والتنزه والخلوص العائلي والولائم التي تتجلى البهجة فيها بالموسيقى والرقص والبهلوانيات والشعوذات ، وهي مشاهد غنية كسابقاتها بما توحى من ذكريات وذكريات . وتكاد هذه اللائحة لا تقع تحت حصر . ولو جاز لنا ان نثق بهذا النشاط الداعب المنسوب دائماً الى اليد العاملة ، لاستعادت هذه المجموعة الكبيرة من الصور كل عمل وكل هنية من اعمال وهنيتها الحياة المادية في مصر ، بمهامها وافراحها اليومية ، لان مصر قد استحررت في مساعيها لان تنقل الى العالم الثاني طيب العيش الذي لم يعوزها منه شيء على هذه الارض .

بيد ان هذه اللائحة لا تخلو من مواضيع تقليدية يكثر تكرارها في حقل الاجتماع والفن على السواء . ومن النادر ان لا يعالج الموضوع الواحد مراراً عدة ، ولكن بفروق تسترعي الاهتمام . وفي الواقع تحرر النقاشون والمصورون من بعض قيود الطلبات الرسمية وعملوا بوحى خيالتهم ، دون ان يتركوا لها العنان ، فأدخلوا على الهيئات بعض التغيرات في الجزئيات خصوصاً . وهكذا تسربت الى المشاهد النموذجية نفسها اشياء جديدة مستمدة غالباً ، مفتنة ولطيفة دائماً ، وغير مستقبحة ابداً . فالشبهون انفسهم وحتى الشبهات يحتفظون باناعتهم عندما يتقيأون اطعمتهم . وفي الوقت نفسه استطاع التصوير ، الذي احتل مركز النقاشة في هذه المواضيع الخاصة ، ان يبلغ مستوى الفنون الرفيعة في اواسط الامبراطورية الحديثة . فقد لفت تمثيل الحيوانات الانظار منذ زمن بعيد ، ولكنه بلغ القمة ، حينذاك ، بحدة الملاحظة والحياة المصطفقة التي تملأ الهررة البرية والطيور وحتى الحيوانات المجترة .

الفنون الثانوية لو اتيح لنا القيام باستعراض الفنون المصرية كلها لوجدنا كثيراً من الفنون الثانوية التي تستحق ذكراً خاصاً ، لا سيما الصياغة التي تبهر النظر بدقتها وقيمتها ، والحكاكة التي كشفت مفروشات مدفن توت عنخ أمون عن قطعها الفخمة العجيبة . وان في كل هذه الفنون دليلاً على مهارة في التقنية لا تجاريها مهارة وعلى ابتكار يحافظ على الالاقة في اغرب التحقيقات وعلى انتاج مكثف نادر . ولا عجب في ذلك ، اذ ان زين هذه الفنون من الطبقات الرفيعة التي لم تكن غريبة عن أي مظهر من مظاهر الظرف والالاقة . واذا ما قل عدد هؤلاء الزين في مصر ، بفعل مصائب الدهر القاسية ، تلجأ مصر الى التصدير على نطاق واسع مع انها لم تلجأ اليه الا عرضاً في عهود ازدهارها .

وان ندرة هذا التصدير نفسها ، قد أسهمت ، خلال أجيال طويلة ، في رفع أثمان القطع واذاعة شهرتها في العالم المتوسطي الذي سبقته مصر بأشواط بعيدة . فانصبت الاطماع من كل

جهة على منشأ هذه الروائع ، بينما وقف الرحالة والمرتزة معجبين بتلك الأبنية الضخمة التي استطاعت مصر وعرفت ان تشييدها . فتحت مصر ابوابها للأجنبي ، وحتى اواخر التاريخ القديم ، استألت اليها السياح وقدمت للهواة حاجاتهم من التحف الجميلة والشمينة . وبالأجمال لم ينقل الأجانب عن فنها الا بعض التقنية ولم يستلهموا قط ما فيه من احياء عميق . ولم يبرز الفن المصري ، على صعيد الجماليات ، مريباً او موجهاً لأي فن قديم .

ولعل مرد ذلك ان الفن المصري قد جهل الانسان . فهو لم يخصص له مكانه ، بل اهمله كما اهملته كل الحضارة التي هو لها ، في اكثر الأحيان ، بمثابة إزهار عظيم . ولم يدرسه كفرد الا قليلاً ، كما لم يخدمه الا نادراً خارج الطبقات الحاكمة التي أحاطها بالجلال والعظمة أولاً وباللطف والظرافة ثانياً . ونظراً لارتباطه الوثيق بها ، بسبب رسالته الدينية والسياسية ، تعذر عليه التخلص من قيود التقاليد الرسمية ومن الاحتذاء بماض قديم سحيق . وكان مكتوباً له ، في عالم نزعت قواه الفنية الى مثل أعلى آخر منذ قبل اواسط الألف الأول ، ان ينكمش على نفسه ولا يؤثر في غيره ويعيد الصيغ نفسها أو يتكلف الرقة .

ب - الحياة العقلية

لم تترك الحياة العقلية في الحضارة المصرية طابعاً شبيهاً بذلك الذي تركه كل من الديانة والفن . فقد كانت ، شأن الفن ، في اكثر مظاهرها ، بمثابة ملحق للديانة تشتق منها وتخدمها . ولكن تحقيقاتها متواضعة جداً اذا ما قورنت بتحقيقات الفن . وهي قد شابهت ، في كثير من خطوطها ، الحياة العقلية التي قابلتها في النمو في بلاد ما بين النهرين . فهي قد انطلقت من نقطة واحدة ، من تلك الأرومة الروحية التي لم ترض قط ان تنفصل عنها ، وسارت في اتجاهات مماثلة ، خاضعة لمشاغل وتصرفات تكاد تكون واحدة ؛ ولم يتفرد بصفات مميزة حقاً سوى الأدب بمعناه المصري . بيد ان سكان ما بين النهرين قد تخطوا المصريين في كل نواحي هذه الحياة تقريباً . لذلك سيكون من الجدوى بمكان ان نفرد للفصل الذي سيخصص بهم بياناً اكثر استفاضة عن الوسائل المعتمدة والنتائج المحصلة . وفي نظر الاغريق ، يبدو ان المصريين قد بلغوا بل تجاوزوا ، على صعيد الفكر والعلم ، الشهرة التي بلغها سكان ما بين النهرين . ولعل مرد ذلك الى ان مصر المفتوحة على البحر والداخلية ، قبل فتح الاسكندر ، في صراع ضد ملك الفرس ، عدوهم ، كانت تستهويهم وتفتنهم اكثر فأكثر . ولعل لذلك سبباً أقل تعقيداً ، وهو ان المصريين ، الذين يجيدون الكلام ، قد تفوقوا في التباهي والتفشير .

ونحن ابعد ، على كل حال ، من ان يحق لنا احتقار تحقيقات العقل المصري .

المكتبة
مارس المصريون الكتابة منذ اواخر الالف الرابع قبل المسيح . وقد توصلوا اليها بانفسهم دون ان ينقلوا شيئاً عن اسلوب غريب ، لان الرموز التي اعتمدها مستعارة من المشهد الذي تبسطه بلادهم امامهم ، لا سيما الحيوانات والازهار الخاصة بها . ولكنهم شأن سكان ما بين النهرين الذين استنبطوا هم ايضاً كتابة قد تكون اقدم عهداً ، لم يعرفوا او لم يريدوا تبسيط طريقتهم في سبيل جعلها اسهل منالا .

تنطلق هذه الطريقة من مبدأ رسم الكلمات - او اجزائها - بصورة المسمى بها . فصورة الساق تعني « الساق » مثلاً وصورة الساعد تعني « الساعد » . ولكن ما لبث الرسم الواحد ان انطوى على معان اخرى كثيرة ؛ المعنى الرمزي ، لتجريد العمل الذي يقوم به المسمى المرسوم او الفكرة التي توحىها رؤيته ؛ والمعنى الصوتي ، لنسخ كلمات يؤديها صوت واحد ؛ والمعنى المقطعي ، لكتابة كلمة مركبة من اكثر من مقطع واحد برموز يقابل كل منها كلمة ذات مقطع واحد ؛ والمعنى الایجدي اخيراً لاربعة وعشرين رمزاً يقابل كل منها حرفاً اما صحيحاً ولما قريباً من حروف العلة . وقد وجب ، امام خطر الالتباس والتشويش الدائم ، توضيح معنى كل رمز من الرموز بسبب انطوائه على مثل هذه الفروق الكثيرة . لذلك وضعت اشارات تحديدية الى جانب الكلمة التي يراد كتابتها بهذا الشكل او ذاك . وهكذا ، بعد ان توصل المصريون الى الایجدية بتحليل الاصداء التي ترافق الصوت ، لم يهملوا ، حين اعتمدوها ، الاساليب الكتابية القديمة ، بل جعلوا من الایجدية طريقة اخرى جديدة واستعملوها بالاضافة الى الاساليب الاخرى . فكانت النتيجة تعقيداً كلياً .

لم تبسط الا الرموز نفسها . فكان الرسم الاساسي يتطلب مهارة ورشاقة ويحد من السرعة في الكتابة بما يستلزمه من تفاصيل وفوارق . ولم يحتفظ به ، على نمطه هذا ، الا للكتابة على الخشب او الحجر او المعدن ، اي ، عملياً ، للنصوص الرسمية التي اوجد بها عنصراً زخرفياً للابنية التي تكاد تضطبع كلها بصيغة دينية . لذلك اطلق الاغريق على هذه الرموز اسم « الهيزوغليف » اي « النقوش المقدسة » . اما الكتابة الرائجة التي شوهت واقتصرت فيها على القسم الدائري من الرموز ، فهي اولا الكتابة « المقدسة » (وهذه التسمية كاذبة) المعتمدة على البردي في العهد الفرعوني كله ، وثانياً الكتابة « الشعبية » في عهد الانحطاط .

ومها يكن من الأمر ، فان تعلم القراءة والكتابة كان امراً شاقاً يتطلب سنوات مراس طويلة . وكان هناك « علم » حقيقي للكتابة يحصل ببطء في مدارس القصر او المعابد التي يبدأ التردد اليها منذ الصغر . فالتارين تبدأ على الواح من الحجر الطريء ، او على قطع خزفية ، قبل ان تلامس على البردي . ولم يهمل استعمال هذه الخزفيات قط ، حتى في الادارة ، للوثائق الثانوية . وقد توافر في مصر النبات المائي الذي يؤمن المادة الخام للبردي ؛ ولكن اليافه تقضي تحضيراً طويلاً قبل ان تصح لفافات وترسم عليها الرموز بواسطة منقش نخضل في الحبر .

الكاتب : المدارس
و « بيوت الحياة »

ولم يقتصر التمرين على الناحية المادية ، بل رافقه ، بحكم الضرورة ، ترويض عقلي صاعد يستلزم ، فيما يستلزم ، قراءة النصوص ونسخها وتفسيرها واستظهارها . وبهذه الطريقة ، كانت معارف كثيرة تسلك طريقها الى ذهن التلميذ ، فيتدرج رويداً رويداً الى تعاليم تتباين فيها صفة التخصص ، ويقطع فيها اشواطاً بعيدة ، اذا ما اقترن انقياده بالنشاط اللازم . فكان طبيعياً والحالة هذه ان يسود الاعتقاد بان العلوم جميعها ، من حيث انها تؤلف كلا مع الكتابة التي هي بمثابة المفتاح لها ، اوحاها للبشر الاله الكاتب « طوخ » .

وتفسر هذه الظروف المادية ، الى حد بعيد ، النفوذ الذي تمتع به الكاتب ، بصرف النظر عن سلطته كعضو في الادارة او الكهنوت . فهو قد استقى العلم ، طيلة سني طفولته ، من مصادر يستحيل على الجاهل الاقتراب منها . لذلك فهو لا ينتخب من الطبقات الاجتماعية الدنيا ، اذ ان هذه الدروس الطويلة اعتبرت ترفاً كالياً . فكان تعقيد طريقة الكتابة ، والحالة هذه ، حاجزاً اجتماعياً لا يمكن تجاوزه .

وكان في بعض المعابد ، الى جانب مدارس الكتبة ، معاهد تعرف « بيوت الحياة » لان الطب كان احد التعاليم الرئيسية التي تتلقاها فيها نخبة الطلاب . وكان قوام هذه « البيوت » الاول مكتبة كاملة ؛ وينناول التدريس فيها الاستطلاع ، والحساب وتدوين حوليات الاله او الملك المقدسة ، والتعمق في العقائد الدينية .

تباهى كثير من الملوك بمعارفهم الواسعة ، ولا عجب في ذلك . افلا يعرفون اكثر من امثالهم ، بفضل مركزهم ، كل الاسرار الالهية ؟ وتباهى كثير منهم ايضاً بعلائقهم ببيوت الحياة وبسخائهم عليها ، لا لانها ملحقه بالمعابد فحسب ، بل لانها بيوت الحياة . وفي عهد الاحتلال الفارسي نفسه ، جرى ترميم احد هذه البيوت في معبد سايس الرئيسي باسم داريوس الاول : « اسسته وادخلت اليه كل تلامذته الذين اخترتهم من اصل عريق لا من بيئة وضيعة ؛ وجعلت عليهم ، لكل الاعمال ، علماء في كل الحقول ... » وبالرغم من ذلك ، فاننا لا نلمس هنا مجهوداً او تعطشاً للمعرفة شبيهين بما ينم عنه قيام مكتبة اشوربانيبال في القصر الملكي نفسه . ربما كان امنوفيس الرابع اخناقون لاهوتياً ؛ ولكن اسلافه وخلفاءه ، على معرفتنا بهم ، يبدوون وكأنهم كرسوا نفوسهم لمهامهم الملكية ، مؤثرين الاستفادة من نشاط العلماء العقلي على الاسهام شخصياً فيه .

العلوم الصحيحة
ثم ان العلم نفسه ، في معناه المحصور ، يخضع للرغبة في فعاليته العملية لا للرغبة في المعرفة الحقيقية عن طريق التفسير . فهو انما يبحث عن صيغ ذات فعالية دون اكتراث لبلوغ التجريد في اكتشاف الصلة القائمة بين ما يلاحظه من محسوسات .

يحتل علم الحساب ، الصروري للإدارة ، مركزاً رفيعاً مرموقاً ؛ وله المقام الأول في تربية كاتب الغد . ومع ذلك فانه لا يزال علماً أخرق . وإذا طبق المصريون القاعدة العشرية ، فانهم ، كغيرهم من شعوب التاريخ القديم ، قد جهلوا الصفر . عرفوا الجمع والطرح وجاهلوا العمليات الحسابية الأخرى التي لم يستطيعوا اجراءها الا بالاستناد الى العمليتين الأوليين . اما الهندسة فلا تسمو ابدأ الى النظرية . فيبدو ، بكلمة مختصرة ، ان الاغريق قد جتأوا الواقع الراهن الراهن حين نسبوا الى اقدم علمائهم تحقيقات كثيرة منقولة عن مصر . لا شك في ان نجاحات المهندسين المصريين التقنية ، في حفر الاقنية وتشديد الابنية الضخمة ، امر لا ينكره احد عليهم . ولكن هل يدل ذلك على شيء آخر غير المهارة التي هي ثمره التجربة والاختبار ؟

وما من ريب في ان التبصر في السماء قد أثار اهتمام شعب اسكن فيها كبار الآلهة ، وبنوع أخص ، اهتمام كهنة هليوبوليس المكرسين لعبادة الشمس ، رع . وقد حمل رئيس كهنتهم هذا اللقب الرسمي : « اكبر الرائيين » . فقد لاحظوا اذن بعض الاحداث الفلكية ، ولكن لم يبلغوا بملاحظاتهم ما بلغه سكان ما بين النهرين من علم منظم مفيد . فلم يعيروا اهمية ، متلاً ، للكسوفات الشمسية ولم يهتموا لادراكها قبل حدوثها . اجل انهم قد حققوا فتحاً مبيناً في اعتماد الروزنامة الشمسية ، ولكنهم لم يقدموا على تحسينها بالرغم مما اطوت عليه من شوائب .

وقد انطلقوا ، للتوصل الى هذه الروزنامة ، من اتفاق غريب لا يصح الا على خط واحد من خطوط العرض ، هو خط منف - هليوبوليس ، مما يحدد مكان الملاحظة بالصبط والوسط العلمي الذي استخلص نتائج هذا الاتفاق . فكل سنة ، في التاسع عشر من تموز ، وهو اليوم الذي تظهر فيه « مياه التجديد » الأولى ، اي ابتداء الفيضان الذي تتوقف عليه حياة البلاد ، تبرز فوق الافق ، مع اشراق الشمس ، النجمة سوتيس (الشّعرى) التي يمثّلونها بها ايزيس . وبين هذا التاريخ والتاسع عشر من شهر تموز التالي تمر ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً قسموها ، بتأثير من الروزنامة القمرية القديمة ، الى اثني عشر شهراً متساوياً من ثلاثين يوماً ، و اضافوا اليها خمسة ايام متممة . وهنالك ، كما نعلم ، نقص يقارب ربع النهار ، يتولد منه في البدء انحراف طفيف لا يلبث ان يلاشي التوافق بين الروزنامة الرسمية وبين مواعيد تعاقب الفصول وفيضان النيل وبزوغ سوتيس مع اشراق الشمس .

استناداً الى هذه المعطيات ، استطاع علماء الفلك المعاصرون ان يثبتوا ، بعملية حسابية ، ان الاتفاق الذي كان منطلق هذه الروزنامة الشمسية قد حدث اما بين ٢٧٨٥ و ٢٧٨٢ ، واما بين ٢٢٤٥ و ٢٢٤٢ قبل المسيح . ومن الجائز مبدئياً ان نتردد بين هذين التاريخين ، ولكن بعض الدلائل تدفع بنا ، على العموم ، الى تفضيل التاريخ الاقدم . ومهما يكن من الامر ، لا سيما وان الشيء لم يتقرر الا بعد سنوات طويلة من الملاحظات السابقة ، فان هذا النجاح الباهر يرتقي الى عهد متطاول في القدم .

انه لنجاح هام ، ولكنه نجاح غير مكتمل . ولم يتقرر على معرفتنا ، اضافة يوم سادس

متعم الى الايام الخمسة الاخرى ، الا في السنة ٢٣٨ قبل المسيح في عهد احد البطالسة . وهنالك على نقيض ذلك ، بصوص كثيرة تعرب عن الحزن الذي تسببت به « السنة العرجاء » . وقد مست الحاجة عملياً الى اصلاح عيوبها ، ولدينا الدليل الثابت على ان العلماء قد شرعوا بالفعل يجرون العمليات الحسابية اللازمة . ولكن روزنامة الثلاثمائة وخمسة وستين يوماً ما زالت ، مع ذلك ، تعتبر رسمية دون غيرها .

كان امام الطب ، بفضل معالجة الجثث ، حقل اختبار واسع وكبير العلوم الطبيعية والسحر الفائدة ، فاستثمره ايما استتار وبلغ شهرة واسعة جداً اعترفت له بها الشعوب المجاورة . فطلب الملك الفارسي قورش طبيب عيون من الفرعون واعجب الاغريق بعدد الاطباء المصريين المرتفع وبتخصصهم في الحقول الصحية المختلفة : العيون والرأس والاسنان والبطن والامراض الداخلية ، كما يذكر هيرودوتس . واعجبوا كذلك بأرائهم الصحية الدقيقة حول تناول الاطعمة مع ما تفرضه من ادوية منظفة ومقيئة متكررة استعملها المصريون بانقياد وطوعية فجعلت منهم ، بمساعدة المناخ ، « اوفر الناس صحة سليمة » . ربما كانت هنالك « كتب مقدسة » طبية ، اي مستظهرة ومحفوظة في المعابد ، ولكن البرديات التي تعطينا اليوم فكرة عنها توحى لنا ان العلم الذي انطوت عليه ، بما في ذلك علم التشريح ، كان علماً موجزاً ويفتقر ، في اكثر الاحيان ، الى مبادئ الاساليب العلمية نفسها . وقد ذكر ذيودوروس الصقلي ان الطبيب يتعرض للدعاوى وعقوبة الموت اذا ما انحرف عن التعاليم الطبية القانونية ، لان « المشرع قد ارتأى بانه يصعب اكتشاف طريقة علاجية افضل من الطريقة المعتمدة منذ امد بعيد التي توصل اليها رجال الفن » . وبدهي ان هذه المحاذير لم تكن لتشجع المحاولات في سبيل التقدم .

يصح القول نفسه عن علم الكيمياء المقتصر على الاختبار التقني في صنع المعجونات الملونة والقيشاني والزجاج وفي استخراج المعادن ومزجها ويجدر التنويه هنا بما توصل اليه هذا الاختبار من ابداع واتقان .

ولسنا بحاجة للتشديد على « بيوت الحياة » الكهنوتية ، لنلمس مرة اخرى ان للديانة تأثيرها . فهي قد افرزت في نطاقها الخاص مركزاً هاماً للسحر فكيف لا يتمتع السحر ، منذ البسء ، بمركز رفيع في النطاق العمي او في النطاق الذي قد يصبح علمياً ، لا سيما وان العمل فيها يتناول الطبيعة نفسها ؟ لذلك فقد استمر وجود السحر بصورة دائمة . والعقل لا يخضع البتة لقوانين المنطق وحدها . لا بل انه ما شعر قط بوجودها . ويسهل علينا هنا ان نسرد الامثلة الكثيرة . فالروزنامة مثلاً تنطوي على أيام فال وايام شؤم تبرزها بعض الحوادث في حياة هذا او ذاك من الآلهة ؛ وهذه الايام ذكريات سنوية لهذه الحوادث . وهنالك ادوية تشفي المرضى في بعض الاشهر ، بينما هي تبقى دون جدوى في اشهر اخرى . وترافقها ، عند الاستعمال ، الرقى

والمراسم . وقد حرص الناس على ان يحملوا التائم والعوذ من كل نوع . ولم يكن ذلك وقفاً على الشعب وحده . ففي عهود الانحطاط على الاقل طغت موجة السحر في كل مكان .

وكان للسحر اثره البين في الطب بنوع خاص ، لأن علمي التنجيم والكيمياء لم يبرزوا قط في مصر ببرزهما في بلاد ما بين النهرين . غير ان الرومان والاغريق ، الذين تأثروا بالسحر الى حد بعيد ، لم يحسنوا التدقيق في ما رأوا . فقد بدا لهم الشرق عموماً مهداً للمعارف السرية التي كثيراً ما نهلوا منها عن طريق اشخاص التبس في جنسياتهم .

يستدل من احد التقاليد المشكوك بها كثيراً ان افلاطون قد أقام اقامة طويلة في مصر الأدب وانه أمعن في التحدث الى كهنة هليوبوليس . واذا هو لم يحصل بالقرب منهم على معارف فلكية جديدة ، فان في قوة عقيدتهم حول الحياة الثانية ما اثر فيه وعمل فيه عمله . وان « نصوص الاهرام » ، في هذا الموضوع ، جديرة بكل تقدير . ولكن الأدب المصري الذي لا يزال يحرك منا الشعور احياناً ليس مديناً بديمومته الى هذه النصوص .

كان الأدب المصري مكثراً ولم يصل الينا منه الا النذر اليسير . وقد أتاحت لنا الظروف ، اكثر من مرة ، فيما سبق ، ان نذكر بعض انتاجاته ، لا سيما ما يتصف منها بصفة سياسية واخلاقية ، كـ « التعاليم » و « الأحاديث » التي تعبر ، بفهم الملك او بفهم احد العظماء ، عن افكار يتجلى فيها نبل رفيع صارم . ويبدو ان العصر الذهبي ، لمثل هذا الأدب ، هو عهد الامبراطورية الوسطى ، الخليفة المباشرة لعهد الفوضى الذي بلبل الروح المصرية في اعماقها ، ومقيمة النظام الجديد الذي ارسته على مثالية لها نزعاتها الجديدة . ولكننا لا نعرف هذه النصوص الا عن طريق نسخ متأخرة عنها ، مما يثبت استمرار شهرتها .

وهناك مؤلفات اخرى تنتسب الى ألوان أدبية مختلفة . فقد ترك لنا عهد تل العمارنة نشيداً لأتون ينسب الى الملك نفسه ويفيض بنفحة شعرية أوحاها له منظر الطبيعة المباشر . ولكن هذه السذاجة وهذه النضارة اللتين سميتا هنا الى مستوى اللاهوت ، تبرزان ايضاً في مؤلفات معدة لعامة الشعب ، اعني بها القصص . تظهر القصص منذ الامبراطورية الوسطى وتنتشر انتشاراً كبيراً ابتداء من السلالة الثامنة عشرة . وهي على قسط كبير من الواقعية والخيال المجنح والسخرية ، وكأنها الند الطبيعي للنقوش النائية والصور التي تعالج مواضيع الحياة اليومية . ولكنها هي ايضاً تفسح مجالاً كبيراً للسحر ، ايماناً من مؤلفيها بالحصول على رضى سامعها اذا ما نقلوهم الى نطاق ما هو مدهش وعجيب . وكيف لا نذكر اخيراً الشعر الغنائي الشهواني الذي يسوغ كل شيء في « اناشيد الحب » ؟ قد يكون هذا الأدب الخيالي نهل من منبع مشترك واحد في الشرق الأدنى ، وقد يكون هو نفسه أسهم في تكوين هذا المنبع . بيد انه من الجلي ، مثلاً ، ان في « قصة الغريق » بعض اوجه التشابه بحوادث مغامرات أوليس او سندباد البحري وان « اناشيد الحب » تذكر احياناً بنشيد الاناشيد .

الخاتمة

الحضارة المصرية والعالم القديم

ان الحضارة المصرية ادن ، بالرغم من انكماشها البالغ ، قد اتصلت أحياناً بالأجنبي . غير ان هذا الاتصال لم يتصف بطابع الامة عملياً .

وهي مدينة باستقلالها الى التلاحم الذي ربط كل مظاهرها بسلطة الدولة والآلهة المطلقة . اجل ، قد نجد في غير مكان مبدأ تلاحم مماثل ، ولكن مصر وحدها طبقته بمثل هذه الشدة وهذا التطاول ، وفي بلاد على مثل هذا الاتساع وهذه الثروة ، وعلى شعب بمثل هذه الكثرة وهذا الخنوع . واذ ، اتفاق هذه الظروف المؤاتية التي توفرت بفضل الانسان والطبيعة معاً يضيف عليها صفة مميزة باللغة الأهمية .

كانت مصر القديمة ولا تزال مدينة لها بمكانتها وشهرتها . وبالرغم من ان الحضارة المصرية قد عثرت اكثر من اية حضارة قديمة ، فانها قد اندثرت اليوم واضمحلت . وقبل زوالها بألف سنة تقريباً ، لم تقوَ على البقاء الا بالمزيد من التحايل والعناء ، عاجزة لا عن النهوض والتجدد وحسب ، بل ايضاً عن ادراك المعنى الحقيقي للتقاليد التي لم تتخل عنها . فهناك مدلولان : الانسان والتقدم ، اجتماعاً وانتصراً في كل مكان ؛ اما هي فقد جهلتها وعجزت بالتالي عن استساغتها والافادة منها .

ولكنها قبل زوالها بزمان طويل قد أثرت في بعض الحضارات الاخرى . فوفرت للملوك كثيرين مثلاً اعلى للعقيدة الملكية التي تهرر سلطتهم المطلقة ، ولتنظيم الادارة التي توجه الثروات نحو الحكومة المركزية . اما الملكيات الهلينية بنوع خاص - وقد أقامت احداها في مصر - والامبراطورية الرومانية فقد اخذت عنها بعض الاتجاهات العامة على الأقل ، واقتبست احياناً بعض نظمها المحكمة . كذلك اقتبست عنها الحضارة الاسكندرية ، التي ترعرعت واردهت « على مقربة » من مصر ، الميل الى الافتان والسخرية والاحساس بالظرف الرفيع ، وكلها يميز بعض مظاهر فنها وادبها . وقد انتشرت اخيراً عبادة ايزيس الهيا في بلدان عديدة ، كما كان للسحر ، احد مظاهرها ، سوق رائجة في الكثير من المناطق .

ولكن واحداً من هذه المنقولات لم يمس جوهر الامور الحقيقي . ولا عجب فانما خلق هذا الجواهر لمصر ، ولا سيما لمصر في الالفين الثالث والثاني .

الكتاب الثاني

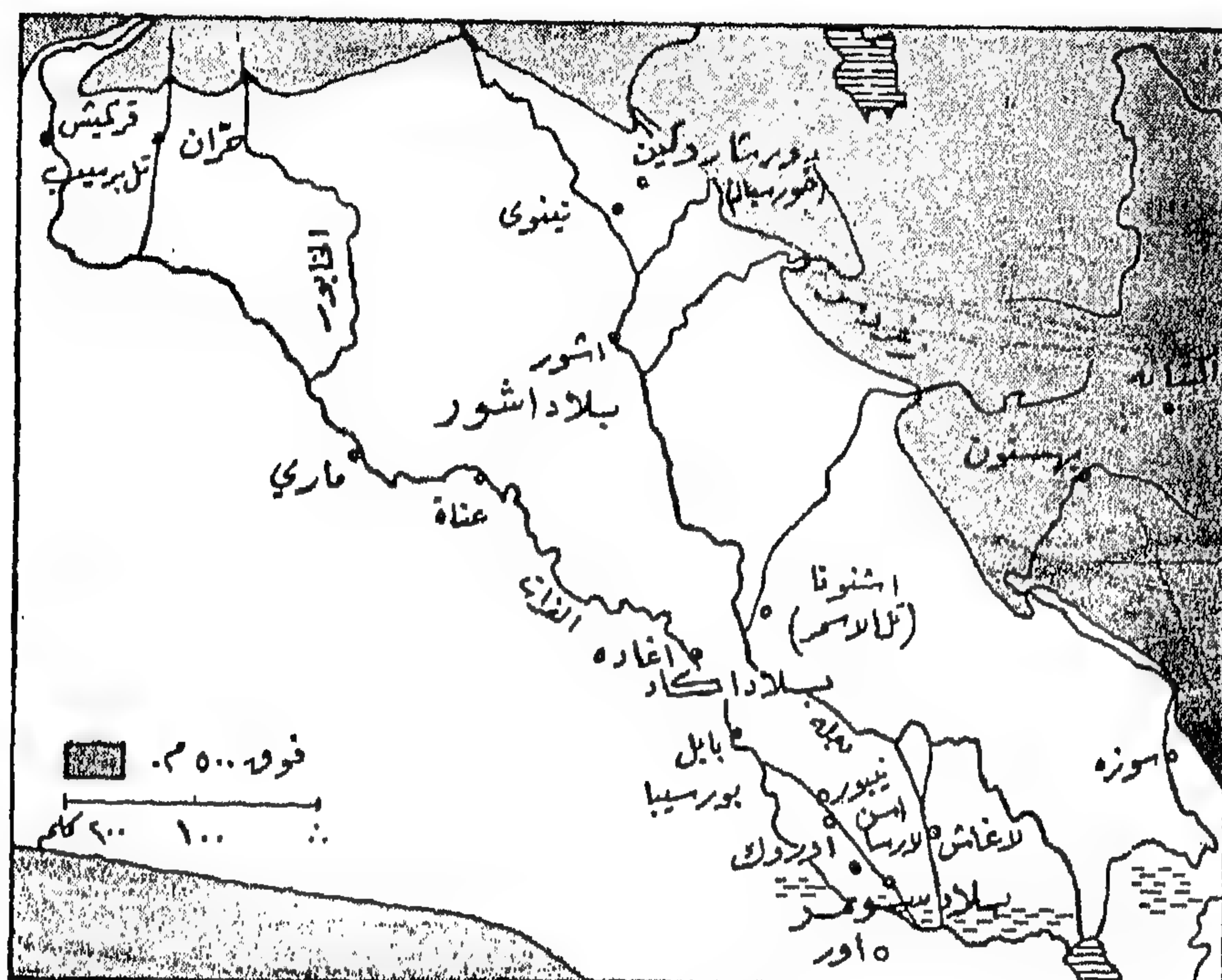
حضارة بلاد ما بين النهرين

ان القاء نظرة خاطفة على مجمل حضارة بلاد ما بين النهرين لا يعد مجازفة اكبر من تلك التي خضناها عند قيامنا بالعمل نفسه نسبة لحضارة وادي النيل .

ان حضارة مصر وحضارة بلاد ما بين النهرين ، وقد اعقبنا
حضارة مشتركة لا بل حضارة شاركتها فيها اقطار اخرى ،
ولدتا واتخذتا شكلاً في تواريخ متقاربة ، وان عسر علينا تحديدها
بدقة . وقد فقدت كل منها سيادتها في فترتين لا تبعد الواحدة عن الاخرى اكثر من خمسة عشر
عاماً ، تحت ضربات عدو مشترك هو المملكة الفارسية . ولكن استمرت كل منها ، بعد ان
زال استقلال الدول التي اتحدت معها اتحاداً ذاتياً ، على شيء من الحيوية ايام الحكم الاجنبي . ولا
عبرة من ثم ان هوت حضارة بلاد ما بين النهرين قبل الحضارة المصرية اذ كان قد قضي فعلاً على
هذه الاخيرة منذ مدة بعيدة . ونسبة للزمن فان سرد الوقائع الذي يظهر الحقائق الثابتة بقوة
اشد من قوة اظهار الاختلافات التي يسببها الوقت والبيئة ، لا يجب ان يلاقي من ثم صعوبات
كبيرة : وهنا ايضاً فان حبك الحوادث يجمع الشتيت من آلاف السنين .

ان صعوبات اخرى تنشأ عن اختلاف الواقع الجغرافي قد تعترض
سرداً مثل هذا ، ولكن تذليلها نسبة الى مصر اسهل ، اذ ان
الطبيعة ، باستثناء الجهة الجنوبية ، تعين لمصر حدوداً ، وتدعوها
للوحدة . وتختلف الحالة ان اعتبرنا بلاد ما بين النهرين ، اذ ان الصحارى التي تحيط بها ،
باستثناء جهة البلاد العربية ، اقل عداوة للانسان من الفيافي التي تحد مصر . وان اعتبرنا ناحية
سورية خاصة نر بان لهذه الباديات بالاحرى منظر السباسب دون البراري الحقيقية ، وعلاوة على
ذلك فان الشواطىء الفينيقية والسورية هي قريبة نوعاً ما ومغرية ايضاً لتعوض عن الجهد الذي
يتطلبه اجتيازها ، هذا الاجتياز الذي يقلل بصورة جدية المسافة . وعلاوة على ذلك فان بلاد
ما بين النهرين تتصل دون صعوبة باقطار اخرى تناسب حياة الانسان .

لذا لم تُجد بلاد ما بين النهرين نفسها محصورة ضمن حدود طبيعية تفرض ذاتها على الجميع ، وذلك تحت عوامل داخلية وخارجية . وخلافاً للشعوب المصرية فإن سكان بلاد ما بين النهرين لم يُدعوا للوحدة ولم تلجهم اطماع رؤسائهم التوسعية التي لم تتعثر بعراقيل طبيعية الا في البعيد البعيد عن بلادهم . ودون اي ضرر جلل يسهل تقسيم البلاد الى دول عدة ، كما تستوعب باكثر سهولة المؤثرات والنفوذ الاجنبي لا بل هي اكثر عرضة للغزوات . وبالمقابلة فهي تواقه اكثر الى ان تلقي بقواها ورجالها خارج حدودها وتصر بواسطتهم حضارتها .



الشكل ٩ - بلاد ما بين النهرين

لذا فان حضارة بلاد ما بين النهرين تبدو للمؤرخ اكثر ترجيحاً في ديمومتها الزمنية واقل وحدة وتماسكاً ، اذ تظهر عليها المؤثرات القطرية باشد جلاء ، ومن نقطة الانطلاق هذه يتضح لنا ، ولو جزئياً ، كيف انقرضت هذه الحضارة قبل الحضارة المصرية . واذا كانت اكثر استعداداً للذوبان والتشتت ، غدا من الطبيعي ان لا تبدي مقاومة ضارية ضد الحضارات المنافسة .

ان الفوارق والتقلبات التي طرأت على حضارة بلاد ما بين
رحدة حضارة بلاد ما بين النهرين
النهرين في الزمان والمكان لا تحول مع هذا دون وجود هذه
الحضارة واعتبارها ، بما فيها من ابداع وتناغم ، وحدة مستقبه من السهل مقارنتها مع الحضارات
المعاصرة والمجاورة . فهي نشأت في بلاد ما بين النهرين السفلى ، في المنطقة المدعوة سومر . وفيما

يتعلق خاصة بالدين والكتابة فقد وسما التأثير السومري بأثر عميق قاوم آلاف السنين ، حتى بعد ان قضت على السومريين عناصر عرقية اخرى . وفي هذين المجالين تبرز الديمومة بشكل واضح : ولكن الدرس والتحليل سيكشفان لنا بصورة تكثرا او تقلل سهولة مواطن اخرى لهذه الديمومة .

والحق يقال بانه ، في مصر كما في بلاد ما بين النهرين ، وبشعور اقل استمراراً فقط في مناطق دجلة والفرات مما هو في وادي النيل ، توخى المرء في عصر دعوه بالذهبي احياء الماضي السحيق الاكثر قدماً .



الفصل الأول

الأشكال السياسية

التجزئة ليست الوحدة السياسية التي تشمل قطراً شاسعاً عنصراً أساسياً في حضارة بلاد ما بين النهرين . لقد تحققت أحياناً ولكنها لم تدم فترة طويلة الأمد . وعلى كل فإننا لا نجد لها ، في الحقبة الأولى ، في بلاد ما بين النهرين السفلى حيث ، باكراً جداً ، تبلورت الخطوط الرئيسية لحضارة مدعوة لأن تستمر وقتاً طويلاً .

والدولة — المثال هي البلدة ، أعني المدينة : مركز قطر يتعذر علينا ، لغموض معطيات الجغرافية التاريخية ، تحديد مساحته إلا نادراً جداً . ففي هذا السهل المنخفض حيث تنتفي العروض الطبيعية ، ما عدا شعاب الأنهر والقنوات — وقد أحدثت فيضاناتها ، ولا تزال إلى يومنا ، أكثر من تغيير مكاني لما تسببه من ارتفاع في مستوى الماء والطمي — فإننا لا نرى أي أثر لحدود مستديمة ، لكونها طبيعية ، لقطر معين . وقد نشأت مدن لا يزال موقعها إلى يومنا مجهولاً : كأغاده (أو اكتاد) التي فرضت اسمها على منطقة كاملة لما كان لها من سطو وعظمة . وما القول عن تخوم المدن التي غدا ضرورياً لحفظها بذل جهود جبارة ومستديمة ضد المستنقعات والرمال ؟ ولكن لا يرقى الشك إلى وجود الكثير منها وإن استحال علينا تقدير مساحتها التقريبية .

وتركت المدينة هنا آثاراً أكثر مما تركت زميلتها في مصر مع أنه ، في منطقة الدلتا أقله ، لم يختلف الوضع اختلافاً كبيراً في أول العهد . ولا يشعر المرء قط في بلاد ما بين النهرين ، كما يلحس ذلك في مصر ، بأي توق إلى نظام موحد اعتبر لازماً لاسعاد حياة السكان . وكانت باستطاعة هذا التنظيم أن يثمر هناك أيضاً نتائج حسنة لما يحققه من تجانس وتناسق في أعمال الري والتجفيف . ولكن للفيضانات النهرية هنا تأثيراً أخف على الانتاج ، ولربما كان السكان أيضاً أقل كثافة . وعلى كل حال فإن التجزئة السياسية التي اعتبرها المصريون فوضى لم تعد هنا محمداً ذاتها عاملاً سوء .

مع هذا فقد غدا من الحتم ان تتعدى البلاد مستوى التجزئة . ولا جرم
بانه نشأت منازعات بين المدن المتجاورة . ونتيجة للحروب او للمحالفات
حيث يفرض احد الفرقاء سيادته ، نشأت دول اكثر اهمية ، لا بل ولدت
مراراً امبراطوريات بكل ما في الكلمة من معنى .

الاستمرار على مفهوم
مقومات البلدة

ان الالقاب الرسمية التي كان يحملها الملوك تكشف لنا بعض الشيء عن مفهوم الدولة .
ويتراوح هذا المفهوم ، كما يبدو ، بين البلدة التي تتسع قليلاً او كثيراً وبين المنطقة . ومع اسم
المدينة ، كمدن أور وأوروك ولاغاش وغيرها برز ، باكراً جداً ، لقب « ملك البلاد » : وهذا
ما ينطبق على سومر التي لم تعدد بلدة . ولكن لقب « ملك اكاد » هو شديد الغموض ، إذ مع
الزمن اطلق اسم هذه المدينة على مجمل القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين السفلى ، ومن ضمنها
بابل . وينطبق الامر نفسه على لفظة « اشور » التي عنت في البدء احدى مدن بلاد اشورية
العديدة ، ثم اطلقت بصورة واقعية على المنطقة بكاملها بعد ان تضاءلت امامها سائر المدن .
وهكذا فقد حافظت الدولة ، بعد ان اتسعت رقعتها كثيراً ، على ذكر وسمه الخلية الاولى التي
منها نشأت .

وفي الوقت ذاته نلاحظ استعمال تعابير يختلف مفهومها اختلافاً كلياً . فان
لقب « ملك المناطق الاربع » قد يشير في البدء ، علاوة على سومر واكاد ،
الى منطقتين اخريين في الشمال - الغربي والغرب امورو وسوبارتو يصعب تعيين حدودهما بصورة
واضحة . وقد تشمل هذه التسمية ، استناداً الى تعبير كان رائجاً يومئذ ، مناطق تمتد من
البحر الاسفل (الخليج الفارسي) الى البحر الاعلى (البحر الابيض المتوسط) . ولكن يفضي
بنا هذا اللقب الى لقب آخر هو « ملك مناطق العالم الاربع » الذي يفرض تفسيراً اشد اتساعاً
لانه يعيد الى الذهن الجهات الاربع الاساسية . ومما يؤكد هذا التفسير لقب « ملك الكل »
و « ملك العالم » الذي لن يتوانى بعض الملوك الاشوريين والبابليين ان يتخذوه . فالدولة ، التي
تسلسلت من مفهوم البلدة ، تنتهي بالتساوي مع مفهوم الامبراطورية العالمية .

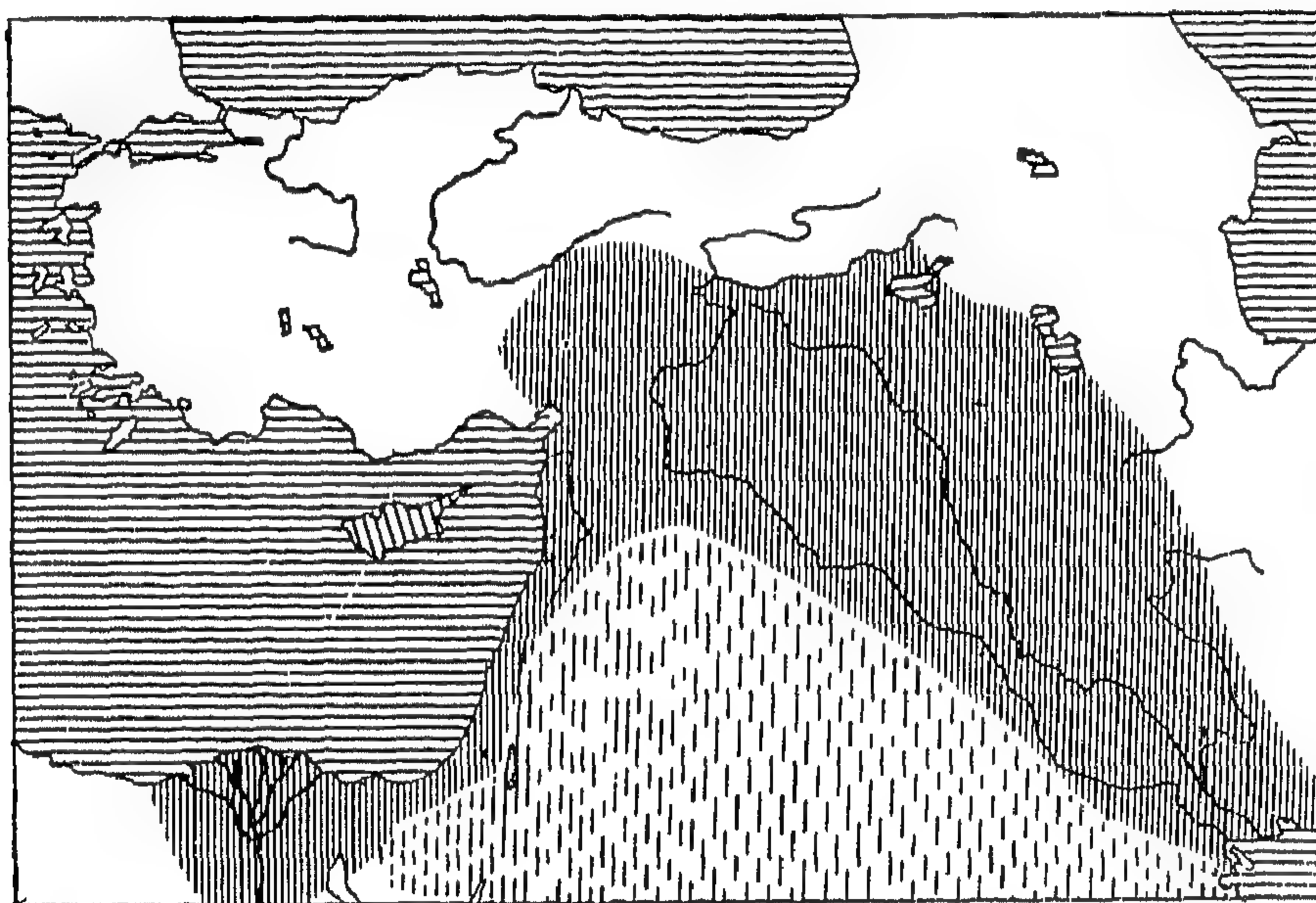
مفهوم الامبراطورية

ان هذا المفهوم نظري دون شك اذ لم يحققه عملياً اي من الملوك الذين اتخذوا لانفسهم مثل
ذاك اللقب ، ولكنه يشير اقله الى ادعاءات لم يعتبرها المعاصرون في القرن السابع مغالاً فيها ،
اي في عهد اوج عظمة سلالة الاشوريين السرجونيين الذين امتد سلطانهم من بحيرة « فان » الى مصر
العليا ، ومن كيليكية الى بلاد الماديين *Mèdes* .

وفعلاً بقيت هذه الامبراطوريات ، عظيمة او صغيرة ، عرضة
لزعزاع الامبراطوريات
للزوال السريع .

وقد سعى لتشييدها كل الذين ، هنا وهناك ، توصلوا الى بعض السلطة . وانتقلت السيادة من

تلك البلدة في سومر الى ساميتي كيش الذي استقر ملكها سرجون (القديم) في اكاد واسس اول امبراطورية عظيمة في بلاد ما بين النهرين . ثم نرى سلسلة من الممالك السومرية تلتها اول امبراطورية بابلية اعلى شأنها في القرن الثامن او السابع ق.م. الملك حمورابي العظيم . ولم تكون بلاد ما بين النهرين في كل مرة الا نقطة انطلاق يسعى منها الاباطرة لاختضاع بلاد عيلام وسلسلة جبال زعروس شرقاً ، ووادي دجلة الوسطى اعني اشورية شمالاً ، ووادي الفرات مع ماربي في الشمال الغربي ، ثم عرباً الشواطىء السورية ولربما ايضاً — كما يزعم اقله سرجون القديم — جزيرة قبرص . وهكذا تبدو روح السيطرة الاشورية ، ان اعدائها الى اطار تلك الحقبة التاريخية الطويلة ، كأنها وريثة تلك الاتجاهات التوسعية التي لم يكتب لها النجاح طويلاً ، وان هي أوصلتها الى مدى اوسع .



الشكل ١٠

امتداد الامبراطورية الاشورية في عهد اشوربانيبال

اذ كان البناء يتزعزع كل مرة ثم ينهار تحت تأثير الثورات الداخلية او غزوات الشعوب المتدفقة من الجبال او السبابس المجاورة ، هذا البناء الذي كان قد شيد بصعوبة كلية وغدا ثمرة غزوات سنوية متكررة . واتخذ البطش الذي يرافق كل فتح او اخماد ثورة اشكالا أشد قسوة ، وقد بلغ الزبى اثناء الحروب التي خاضها الملوك الاشوريون . ولكن لم يحصل الابداع في خطط التنكيل دون ازدياد المساعي الفاشلة .

وعبثاً سعى فاتحو بلاد ما بين النهرين ان يجمعوا تحت سلطانهم المدن التي اعتقدوا بأن

مدنيتها قريبة مما اعتبروه اساس سيطرتهم . فما هو القول اذن عن المدن او القبائل الغريبة ؟ ان النزعة الفردية التي انبثقت عن المفاهيم الاولى تستمر قوة لا تقهر .

ولكن نتيجة لكثرة الحروب والثورات التي لا يخمد لها لهيب ضعفت قوى شعوب ما بين النهرين . وقد سهل هذا الوهن تحقيق اهداف فاتحي المستقبل من امثال كورش الايراني واسكندر المقدوني .

النظام الملكي وجماعة المواطنين
تتطلب الحرب وحدة القيادة ، أعني قائداً حربياً يسعى حتماً ليصبح زعيماً سياسياً ، لذا فلا عجب اذا غدا النظام الملكي في بلاد ما بين النهرين كما في وادي النيل اساس الادارة السياسية . ولكن الفرق واضح بين هذين النظامين الملكيين اذ ان مبدأ التجزئة الى دويلات مستقلة هو أكثر شيوعاً في بلاد ما بين النهرين ، كما ان المدينة في تلك البلاد قد اتبعت لربما في الاصل النظام الجمهوري دون الملكي .

ويستحيل حقاً على نفر من المؤرخين الثقة بتفسير بعض النصوص ان لم يستندوا الى وجود نظام يمت الى « الديموقراطية البدائية » حيث كان مسيرو الامور « الشيوخ » يستشيرون ندوات الرجال الاحرار . ولم تنتخب هذه الندوة رئيساً واحداً الا في حال نشوب أزمة وحل هذه الأزمة فقط . وقد حوّل تكاثر الأزمات وعبقورية بعض الزعماء هذا النظام العارض الى نظام مستديم .

والحق يقال ، إن هذه النظرية تسيء الى المبدأ العام ، الذي لا يحتمل اي شواذ ، القائل بشيوع النظام الملكي . ولكن في زمن لاحق ، وفي بعض المدن التي كان يحكمها ملك ، كما نرى ذلك مثلاً في مستعمرات الآشوريين ببلاد كبادوكية في اوائل الألف الثاني ، نشهد بعض المنظمات الجماعية التي تسيطر عليها طبقة ارسقراطية بوجوازية .

الملك « نائب الآلهة »
لا مشاحة بأنه ، نسبة الى تطور النظام السياسي ، يجب ان نحسب حساباً للآلهة كما نفعل ذلك مع المواطنين وطالبي السلطة .

فكل مدينة تسيطر عليها آلهة معينة . ومع ان آلهة اخرى تعبد في تلك المدينة ، فان لهذه الآلهة فيها حق السيادة والاولية ، كما ان هيكلها يفوق سائر الهياكل عظمة وغنى . وهي التي توحى القرارات سواء اتخذها المجلس او الشيوخ او الملك !

لذا فان السلطة الملكية تستند دوماً الى أساس الهي . « لقد هبط النظام الملكي من السماء » ، وهذا ما يحلو للنصوص ان تؤكد . وعلاوة على هذا فان اللقب الذي يحمله ذوو السلطة ليس دائماً ، اقله في اوائل العهد ، لقب « الملك » . لذا غالباً ما تتلاقى مثل هذه الكلمات « حاكم المدينة » ، خاصة متى احتكر ذو السلطة مسؤولية الكاهن الأعظم ايضاً و « نائب » و « مندوب » .

الآلهة . لذا فان الملوك الاشوريين الاوائل مع تسمية ذاتهم بـ « الملوك » ، لا بل « ملوك العالم » لا ينفكون عن اعتبار انفسهم « نواب الاله آشور » ، ولم يعد يمنح لقب « الحاكم » — وقد فقد من حقيقة مغزاه وقيمته الاولى — الا الى الامراء التابعين او الى الموظفين .

وبالعكس ، ولفترة طويلة ، نرى بأن لقب هذا الاله او تلك الإلهة هو « ملك » او « ملكة » المدينة .

يظهر كل هذا الدور السياسي الذي ، نظراً للمعتقد الديني وغنى تعيين وتنصيب الملك الهيكل ، يلعبه رجال الكهنوت او الكاهن الاعظم في شؤون المدينة او المملكة . وهكذا فان النظام يحتفظ ، من وجهات عدة ، بالمظهر الشيوقراطي . فالسلطة الملكية لا تصبح علمانية ، لا بل انها لا تتجه نحو العلمنة ، بل تسعى لتستفيد من وضع سبقها في الزمن .

وفعلاً يفترض في الآلهة امر تعيين صاحب السلطة . فهي « تنظر اليه بحذب » او « تلفظ اسمه » . وكانت تتم هذه الوقائع بموجب طقوس لا تزال نجعلها . ولا غرابة في التوفيق بين هذا الاصطلاح وبين مبدأ الوراثة إذ ان الملوك يفخرون بالاصل الملكي الذي ينتسبون اليه . ولكنهم مع هذا لا يتناسون في الوقت نفسه عن التذكير بالانتخاب الذي وقع عليهم من قبل الآلهة . وفي عهد اوج الامبراطورية الاشورية يباشر الملك ، زيادة في الاطمئنان ، وهو على قيد الحياة ، بانتخاب احد بنيه . وهذا يعني دون شك بانه يعرض من ينتخبه لتقره الآلهة ، إذ لا اثر لمبدأ البكورية : فاشوربانيبال يعلن بكل صراحة بانه اصغر سناً من « اخوته الزناة » .

وبعد المصادقة على الانتخاب ، يستحصل الوالد على يمين الخضوع والاحترام لابنه ، ويلج المنتخب « بيت الوراثة » حيث يدرب على مهام منصبه المستقبلية . ويوم ارتقاء العرش تجري احتفالات دينية يمنح اثناءها المنتخب اسمه الملكي ويُقلد الشعارات ، رمز السلطة الالهية . وتقام هذه الاحتفالات في آشور ، مدينة الامبراطورية الاشورية المقدسة ، وليس في المقر الملكي ان كان في نينوى او في مدينة اخرى .

لذا يغدو من السهل فهم الاسطورة التي تجعل من سرجون القديم ابناً لاحدى الكاهنات ، وقد ربي عند بستاني ، او تلك التي تؤكد بان اشورناسيرابلي الثاني — ملك اشوري من القرن التاسع — يعتبر نفسه من اصل جبلي وضيع ، مع انه ابن ملك ، ويقول من ثم : « انت يا اشتار ، سيده الآلهة الرهيبة ، قد القيت نظرك علي ، واردت ان اصبح ملكاً ، وانتشلتيني من بين الجبال .. وعهدت إلي بصولجان العدالة » .

ان التقوى ، والحالة هذه ، هي صفة من صفات الملك اللازمة ، واجبات الملك الدينية وواجباته الدينية هي اولى واهم واجباته .

ومنها واجبات طقسية . فالملك هو الكاهن لا بل الكاهن الاكبر للاله الوطني ، حتى ولو لم تقر له الكتب صراحة بهذه الالقب . وهو الذي يقدم شخصياً طقوس العادة ، وهو الذي يشيد ويرمم ويكرس المعابد . وهو اكثر من اي كان مؤهل للقيام بطقوس التطهير ، وتقديم الذبائح ، واستشارة الآلهة .

ومن هذه الواجبات ، او التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالمذكورة اعلاه ، واجبات ادارية . فهو الذي يراقب ادارة اموال الهياكل التي يقوم بها رجال الدين ويتدخل لتقويم ما اعوج منها . وهو الذي يعين في المناصب الكهنوتية ، اقله في المراكز الاكثر اهمية ، كوظيفة كبير الكهنة ، ولا يتردد في اسنادها الى افراد من اسرته ، استناداً بطبيعة الحال الى اوامر الآلهة التي يعجب لها بكل سذاجة .

واخيراً فان بعض هذه الواجبات هي معنوية . ومن المؤكد بان كلمات « عدالة » و « اصف » و « حقيقة » تذكر اكثر من مرة . فحمورابي عندما اعلن قانونه اراد ان يرضي شمس إله العدل ، وان « يؤمن الحق في البلاد ويقضي على فاعل الشر والرياسة » ، ويمنع القوي من الحاق الاذى بالضعيف . ولكن في الاساس تتحد العدالة اتحاداً ذاتياً بارادة الآلهة التي يستعصي فهم اسبابها على ادراك البشر الذين لا يحق لهم من ثم مناقشتها والحكم عليها .

وهكذا فان واجب الملك المعنوي الاول قبل الآلهة ، بصورة عملية ، هو الطاعة العمياء . انه يسمى لمعرفة ارادة الآلهة ، لذا فهو يراقب ويأمر بمراقبة وتفسير كل الدلائل الممكنة : احلامه ، الظواهر الفلكية ، اجوبة الآلهة ، كبد المحرقات الخ . . . انه يضرع الى الآلهة لتلهمه ؛ وبالمقابلة عليه ان يخضع لايحاءات الآلهة فيبدأ المعركة عندما تأمره بذلك ، ولا يخوضها الا عندما تشير عليه بذلك . ولدينا نصوص عدة تظهر لنا علماء التفسير يطمثون باله ان ساوره شؤم ، لا بل يلحون عليه كيلا يهمل الرقي والتوضؤ ، او يأمرونه ، حتى اشعار آخر ، بالمشاورة على صيام مضمّن ينهك قواه ، او على عدم تبديل ثيابه ، وعدم تقديم المحرقات وركوب العربات الخ . . . وهكذا يغدو الملك فعلاً عبداً لعلماء تفسير ارادة الآلهة اذ يجب عليه ان يظهر بمظهر التقى الشديد الورع .

يبدو من السهل ، استناداً الى هذه العلاقات مع الآلهة ، ان نجد اوجه شبه الملك صلة الوصل بين النظام الملكي المصري والنظام الملكي في بلاد ما بين النهرين . ولكن لا تقل الاختلافات بينها وضوحاً ايضاً ومن اهمها دون شك عدم اعتبار ملوك بلاد ما بين النهرين انفسهم عادة وبشكل اساسي آلهة .

ففي بعض مدن بلاد ما بين النهرين السفلى نجد نفراً من الملوك الاقدمين في الزون (البانتيون) المحلي ؛ ولكن حتى بعد المئات فان الرجال الذين يكتسبون صفة الالهية يعدون من الشواذ . ويصبح هذا المبدأ اصدق حقيقة ما دام الملك على قيد الحياة . ويمثل لنا نصب اللوفر الشهير ،

وقد اقامه الخليفة الثالث لسرجون القديم نارام سن ملك اكاد ، الذي كلل هامه بالتاج ذي القرون ، وهذا امتياز لا يعطى إلا للآلهة . ولكن هذا امر لا ثاني له ! ففي الالفين الثالث والثاني يسبق اسم بعض ملوك بلاد ما بين النهرين السفلى نعت يدل القارىء على ان الاسم الذي يلي هو اسم « إله » . ولكن لم يعمّ قط هذا الاستعمال وقد زال مع عهد حمورابي على ابعد تقدير . وحتى مع هذا الملك الاخير فلا يبدو الامر بعيداً عن كل شبهة ، ويظهر الخلاف على اشدّه بين المؤرخين عند تفسير لقب « إله الملوك » الذي يطلقه الملك على نفسه في قانونه .

ولا نجد امثلة اخرى الا في عصر قديم وفي حالات افرادية . وقد يستعمل اسم ملك بدل اسم إله لتكوين اسماء اشخاص من امثال « حمورابي هو اهي » . فلا تدل هذه العادة مع هذا الا على احترام شخصي وليس على تأليه رسمي . وقد تذكر قصة نكاح الملك إلهة انتخبته عوض زوجها الالهي ، ولكن لا يعني ذلك الا طقس خصب . وهناك تقاليد اخرى اكثر ديمومة تسترعي الانتباه في العهد الاشوري : التضرع الى العاهل مشفوع بالدعاء الى الآلهة في عبارات يمين ، او تأكيد من الملك بانه ينتسب بوشائج القربى الى الآلهة كما يمت بالوقت نفسه الى اصل بشري . ولكن لا يتعدى مداها الحقيقي حداً بعيداً .

والحقيقة هي انه بينما يرى الفرعون المصري المنحدر من صلب اهي والمتزعزع على يد الآلهة يرتقي حين اعتلائه العرش الى مصاف الآلهة ليستمر على هذا الصعيد حتى بعد مماته ، نجد بان الملك في بلاد ما بين النهرين هو ممثل الآلهة فقط قبل البشر ومندوب البشر لدن الآلهة . فهو اذن والحالة هذه صلة الوصل بين العالمين الرباني والانساني . وهو لمرؤوسيه نوع من الطلاسم ، يدافع عنهم ويسعى لتنفيذ رعبات الآلهة نحوهم ، اي انه يخلق لهم جواً ملائماً لحياتهم وسعادتهم بالاتفاق مع القوى التي تفوق الطبيعة ، ويسهر على ديمومة هذا الجو .

السلطات والنظم الملكية
سبق واشرنا الى الحدود التي تقررهما هذه النظرية للسلطة الملكية المطلقة . ولكن لا تجعل هذه الحدود من الملك رجلاً شبيهاً بامثاله الآخرين ، إذ ان خصومه للرغبات الالهية تقابله من جهة اخرى طاعة مرؤوسيه العمياء التي تسهل له القيام بالموجبات الملقاة على عاتقه . لذا تشمل سلطاته جميع مرافق الحياة الجماعية . والى اي حد تكون سلطاته هذه حقيقة وتتستر بحجج دينية ، ام ظاهرية فقط لتخفي والحالة هذه ايحاءات تنتسب الى اصل كهنوتي ؟ انه من المحال تقرير ذلك على ضوء النصوص الرسمية التي وصلت الينا . وتختلف الطبائع دون شك في هذا المجال باختلاف الملوك ، فتبرز من ثم حالات عدة متنوعة .

وعلاوة على امتيازاتها الدينية فللملكية مهام حربية وادارية .

القيادة الحربية
ان الملك هو قائد الجيش الاعلى ، ولربما غدت هذه المنزلة في الاساس سبب وجوده . وغدا من ثم لازماً عليه ان يحارب بصورة مستديمة وعلى رأس

جيوشه . ويتباهى الفن والأدب لاعلان بطولاته . وتعدده الآلهة بالصبر وتمنحه اياه ، لذا غدا وصف المعارك شبيهاً بتقارير يقدمها للآلهة التي ترعاه وتحميه . وتظهر كثرة هذه التقارير المهمة القيادية التي يأخذها على عاتقهم ملوك الدولة الاشورية في عصرها الذهبي . ومن النادر ان تنقضي سنة دون ان يخوض الملك فيها حرباً ، وبادرة الغزوات التي يلقي رمام قيادتها ، عند غيابه ، الى التورتانو ، ترثان التوراة ، اعني نائبه . غير انه بالواقع من المحتمل جداً بان هذا الاختصاص يقوم بعمله جنباً الى جنب مع الملك كانه القائد الحقيقي . ولكن عظمة الملك تحتم على هذا النائب بان يختفي وراء الرئيس الاصلي .

ولا بد ان يظهر هذا النشاط الحربي بصورة ما ، وان لم يحتل دوماً الصدارة في حياة الملك . لذا يحتم وجود جيش . وتعرف حالة هذا الجيش من خلال الآثار المنقوشة والادبية معرفة لا بأس بها وان تفاوتت تبعاً للشخص والزمن .

الجيش الاشوري نستطيع ان نتتبع بشيء من الدقة تطور المعدات الحربية وخطط القتال . وسنجد في هذا المجال الاساطير والخيالات . ولكننا نكتفي ، استناداً الى نتائج هذا التطور في قوته ، بان يلقي نظرة على الجيش الاشوري في القرنين الثامن والسابع ، هذا الجيش الذي يعد بحق اشد وارهب اداة حربية حققتها دولة في بلاد ما بين النهرين : ويفسر لنا تفوق هذا الجيش عدد انتصاراته واستمرارها .

ان تقسيم الفرق وتنوع معداتها نسبة الى المهمات الملقاة على عاتقها دقيقان جداً .

لم يظهر الحصان إلا في وقت متأخر - وكانت الخمر تجر العجلات السومرية القليلة العدد - . وقد استخدم لهدفين . فهو كدابة حمل يجر العجلة الحربية التي يعلوها رجال عدة : ففي المقدمة يقف السائق الذي يوجه الحصانين المشدودين الى جانبي المجر ، ويليه المحارب وبالقرب منه حربة وجعبة كبيرة للسهم ؛ وخلف الاثنين « الثالث » الذي يقلب بين يديه ترساً دفاعاً عن رفيقيه . وكحيوان ركوب ساعد الحصان في اوائل القرن التاسع على تكوين فرق للخيالة . ولم يكن آنثذر ركباً او سرج بل فرش . واوجب ركوب الخيل معرفة فن الفروسية الذي ما برح يتقدم تقدماً مستمراً لتقدم وتطور السلاح الهجومى . ورافق في اول الامر المقاتل الخيال مساعداً يمتطي صهوة جواد ليقود فرس الجندي ويحميها معاً . غير انه مع الزمن استغني عن هذا المساعد اذ ألبس الحصان قطعاً وازاد المحارب الى خوذته درعاً معدنية واتخذ المسماة . وغدت عجلات القتال وفرق الخيالة الثقيلة اهم عناصر الجيش الاشوري الهجومية .

ويتألف جيش المشاة ، وهو الاكثر عدداً ، من فرق الرماة وحاملي الحربات ، وقد اعتمر بعضهم الخوذ ولبسوا الدروع والاحذية وحملوا الدرق . ولم يكن لفرق المشاة الخفيفة التي ضمت رماة المقلاع الا سلاح دفاعي اقل وزناً وعدداً ، يحتاز رجالها سباحة ، دون شك ، بحاري المياه مستعينين بظروف من جلد منفوخة او يملكون مجاذيف القوارب على حوافي الاتراس المرتفعة .

والجيش ايضاً فرق من العملة المجهزين بالفؤوس والمعاول لشق الطرقات في الجبال ونصب الجسور والاسراع في اعمال الحصار . لا بل اصبح للجيش فرق للتموين لامدادها بالغذاء والعتاد ، تحملها الجمال والحمير ، إذ ان موارد السلال الوعرة حيث يقود الرئيس جيوشه لا تكفي لحاجاتها .

وهكذا اصبح الجيش آلة معقدة يفرض حسن قيادتها على هيئة الاركان مشا كل تقنية دقيقة . ولا شيء يظهر بوضوح الاتقان الذي توصل اليه الجيش في مختلف المرافق والحلقات اكثر من التقدم الذي احرزه في فن الحصار اذ لم يجد العدو ، امام تفوق الاشوريين في المعارك ، وسيلة افضل من الاحتباء وراء اسوار مدنه . ولكن كان الاشوريون إذ ذاك يشددون الحصار ببراج متحركة يصبون منها نبالهم على المحاصرين ويقذفونهم بكوم من التراب للسيطرة عليهم . وللأشوريين آلات متحركة عليها اكباش ثقيلة لدك الجدران . ثم يقومون بهجوم صاعق لا يُغلب بواسطة السلام او من ثغر الاسوار يتبعه النهب والتقتيل وتعذيب الملك المتمرّد وجلاء الاسرى وآلهتهم الذين يصبحون فريسة لتكامل المنتصر بشراسة وبطش .

ولكن مهما بلغ هذا الجيش من القوة والكمال فلا بد ان يلاقي يوماً ما من يصبح له سيداً ، مع انه ، حسب معرفتنا ، لم يتعرض لاي تضعضع او تحاذل داخلي . وقد يفاجئه اعداء لم يتعود اساليبهم — او بالاحرى لا يعرف لهم اساليب ! — بأسراب من الخيالة لا قرار لهم اكثر خبرة من خيالاته ينقضون من السباسب الشمالية والشمالية — الشرقية . ومع ان الغزاة (السيت *Scythes*) والسياريين (*Cimmériens*) ، هؤلاء الرحل الشكس ، لم يستطيعوا ان يوجهوا ضربة قاضية الى الجيش الاشوري الذي لم يعرف الانكسار مدة طويلة ، فانهم مع هذا اضعفوه الى ان هوى تحت وطأة الماديين (*Mèdes*) — وهم ايضاً خيالة اكثر مهارة — والبابليين المتمردين . وهكذا حيت متافات الغبطة والخلاص والضعف المتأكلة حسداً وتشفيماً التي فجرتها الشعوب المغلوبة على امرها حريقاً مدينتي اشور ونيوى وقد هوتا ودمرتا .

التعبئة
لا وجود لجيش دون قوانين تنظم اشكال التعبئة . ولكن باستثناء بعض الحقب المعينة ، يبرز جهلنا في هذا المجال .

وقد ظهرت باكرأ جداً الخدمة العسكرية الالزامية ايام الحرب ، وذلك منذ نشوء الدولة دون شك : إذ بدونها يصعب علينا ان نتصور كيف تقدم مدينة صغيرة على مغامرة الحرب والفتح . ولكن هذه الكيفية في التعبئة لا تأتي إلا نادراً جداً بجنود ذوي جدارة . لذا فان قانون حمورابي ، زمن كانت بابل تتحكم في مصير امبراطورية ، يكشف القناع عن وجود جنود اتخذوا الجندي مهنة لهم ، فيخدم بعضهم بصورة مستديمة في فرق الحرس الملكي ، ولا يجند بعضهم ، وهم اكثر عدداً ، إلا اذا اقتضت الحاجة ، ويقبض جميعهم اجرهم . وبالعكس ، في

ايام السلم، فانهم يعيشون مع اسرهم باستثمارهم ارضاً اقطعهم اياها الملك، مع بيت للسكن وقطيع، ملزمين فقط بتلبية نداء اسناداً الى تطور التعشة. ولم تصبح وراثه هذه الاقطاعية حقاً ولكن غداً ذلك امراً متبعاً. ومن المعتقد، اسناداً الى تطور سار عليه كل نظام مماثل، بان هذه الارص اصبحت فيما بعد ملكاً للمعطى اليه، ويستطيع ان يبيعها.

ولا نجد شيئاً لهذا الأمر، كما نعرف اقله، في الامبراطورية الاشورية. فان الحنود الحقيقيين يمثلون، نسبة الى عدد السكان، عدداً اقوى بكثير، وهذا مما يدل دون شك على وجود الخدمة العسكرية الاحبارية الفعلية مع تدريب اسد تغلغلاً في الجماهير. ونجمل ايضاً، سدياً، اذا كان الاختلاف بين فرق الجيش يتناسب مع التفاوت الاجتماعي. وهذا من المحتمل ان رجل الحياة او المقاتل على العجلة مثلاً هو دون ريب من طبقة ميسورة الحال. ولكن، حتى وان شملت التعبئة مجالاً اوسع، فان المحنود الحربي اقوى من ان يتحملة الاشوريون وحدهم. لذا يستعين الملوك بفرق من المرتزقة تقدم افرادها الشعوب الخاضعة لطاعتهم. لا بل يبدو مراراً بان الملوك فرضوا تعشة ما على البلاد المغلوبة على امرها. ولكن تبقى صفوف الجيش الاساسية دون ريب من اصل اشوري.

وهكذا تتكون مجموعة من التقاليد والنظم الحربية ترثها الامبراطورية الفارسية، حتى ان آخر دولة من دول بلاد ما بين النهرين، المملكة البابلية الثانية، تساهم بدورها في اغناء هذه المجموعة اذ انها، في مدة سيطرتها الوجيزة التي تمتد من تصعصع بلاد اشور الى الفتح الفارسي لا تتوانى عن تجنيد مرتزقة يونان فيخدم نبوكدنصر شقيق الشاعر ألسه (Alcibiades). وفي الفترة نفسها يقدر فراعنة سايس (Sais) مزاياء اليونانيين الحربية. وعندما يتخذ ملوك الفرس مرتزقة من اليونان منذ اواخر القرن الخامس، فانهم بذلك يحذون حذو الممالك التي قضوا عليها.

الادارة والموظفون
ان ملك بلاد ما بين النهرين هو رأس الادارة كما هو القائد الحربي في الدولة، توجهه اسباب اضطرارية مختلفة نحو المركزية حتى ولو لم ينجح خلقه الى ذلك. ويلزمه لجيشه كفاءات مادية وبشرية، وعليه ايضاً ان يسعى لتقوية وحدة الاقطار والشعوب التي يسيطر عليها. ولا تتحقق هذه الرغبات إلا اذا فرض طاعته، ولا يتسنى له ذلك الا اذا اوجد ادارة محكمة او اقله مراقبة يقظة.

واهتمت هذه الادارة، في اول الامر فقط، وذلك بصورة لا يرقى اليها الشك، بتدبير الاملاك الملكية. واذا اتخذ من القصر مركزاً لها فهي تنظم «كبيت» الملك ولها نظار وموظفون يقومون بخدمات معينة. ونرى هذا التنظيم، ولو بصورة مصغرة، في «بيوت» الملكة وولي العهد. ولكن رويداً رويداً امتدت صلاحيات هذه الادارة الى الدولة بأسرها، وذلك بسهولة

اذ يظهر نانه لم يجز قط اي تمييز بين املاك العاهل الشخصية وبين الدولة بمعناها الحقيقي .

وتنشأ الصعوبة الكبرى بطبيعة الحال من كسفية التوفيق بين السلطة الملكية واستقلال المدينة ، وقد كانت دولة قديمة ضمت الى دولة اكثر اتساعاً . وفي هذا المصارع لم ينجح نظام المركزية الملكية اكثر من نجاحه في المملكة البابلية ايام حمورابي ، حتى ان اعظم الملوك الاشوريين لم يأتوا بشيء يفوق اتقاناً ما اتي به حمورابي . انهم لربما تعاطوا اكثر منه مع جماعات بشرية من قبائل جبلية او قبائل على بصف بدواة ، وهي اقل تنظيمياً وقل حصوعاً حتى ارتضت بنظام اقطاعي اكثر رخاوة .

وبالعكس فان السلالة البابلية الاولى اخضعت لارادتها حياة الجماعات المركزية ذم حمورابي
المغلوبة على امرها من كافة النواحي ، وقد تبقي على الامراء المحليين تاركة لهم لقب « حاكم » - وقد كانت لقبهم قديماً « الملك » - . ولكن معظم هؤلاء الحكام ليسوا الا موظفين يعينهم العاهل وينقلهم متى اراد من مدينة الى اخرى . ويحتفظ الملك ، اعني الادارة المركزية التي تسيّر الامور بالقرب منه وتنفذ اوامره المباشرة ، بمراسلة دقيقة مع مختلف الجهات . فهو يتسلم التقارير وهو الذي يقرر ويقوّم ، معتن مراراً بامور تافهة جداً وبسلوك موظفين ثانويين .

ولا يظهر تأثير الملك باكثر وضوحاً وقوة ، في اي من مرافق الحياة الاجتماعية ، مثل ظهوره في مضمار العدالة . فلقد استغل حمورابي ، وهو الملك المشرع ، سلطاته القضائية ليوحد ويوطد المركزية . والى جانب الجهاز القضائي في المدن والهيكل ، يوحد جهاز قضائي ملكي يعين العاهل فيه ممثليه . وعلاوة على ذلك اباح حمورابي لجميع رعاياه امكانية مراجعته او مراجعة وزيره الاعلى .

وهكذا فان الموظفين الذين لا يحصرهم عدد يؤلفون قسماً هاماً من الامة البابلية ، وهم ينالون اجرهم مستثمرين ارضاً يقطعهم اياها الملك اسوة بالجنود الذين اتخذوا الجنودية مهنة لهم .

الالهة الملكية
ان للملك على كل حال حياة ابهة تحجبه عن سائر البشر ، حتى عندما تبدو المركزية اقل شأنًا والهيئة الادارية اقل عظمة . فالقصر هو « البيت الكبير » يسحق بشموخه وعظمته سائر مباني الدولة ، ما عدا الهياكل ، يحشر فيه عالم من الجنود والعبيد والخدم والكتبة ، وتراعى فيه قوانين آداب اجتماعية صارمة ، مما يجعل الوصول الى الملك امراً صعباً .

والآثار المنقوشة ، وهي تكثر خاصة ايام الملوك الاشوريين ، تظهرهم لنا في الحرب او في الصيد والقنص - وهي الاعمال التي تنوب مناب الحرب - او الحفلات الرسمية . ويبدو لنا فيها

العاهل كرمز اكثر مما يبدو كفرد . وحتى في المشاهد العنيفة ولا تحور حركاته ، وهي دائماً دليل النصر ، شيئاً من جلالة الملك التي تبدو ناكثراً وضوح في مشاهد الاستعراضات . فله اللحية والشعر المجمع ، يكلل هامه التاج العالي وسط رجال حاسري الرأس ، يتزين بالحلى ويرتدي ثياباً طويلة مزركشة ، تحميه مظلة ويتبعه رهط من الخدم يلوحون بالمرآح . وقد يجلس على العرش ، او يقف ، ورجلاه على الأرض ، حاملاً عصى طويلة ترتفع حتى الوسخ ، او ينتصب على عجلة تجرها الاحصنة المزينة . وهو يمثل ، في كل حال ، بعظمة وثبات حنان ، جبروت الانسان الكلي القدرة الذي انتخبته الالهة ليكون « مندوبها » على الأرض .



الفصل الثاني

الأشكال الاجتماعية والاقتصادية

القصر يؤلف القصر الملكي ، بطبيعة الحال ، عالماً على حدة في حياة مدينة بلاد ما بين النهرين . ويسكن فيه جمهور اجتماعي تشده الى العاهل عرى تتعدى الوشائج التي تصل الاقرباء بعميد الاسرة او العبد بسيده . ولقد وجد المنقبون في اور - اور في بلاد الكلدان حسب التوراة ، ووطن ابراهيم - قبوراً لا يتعدى تاريخها اوائل الالف الثالث غنية جداً بالاشياء الثمينة مما يحمل على الاعتقاد بان بعضاً منها اقله هي اجداث ملكية . ويحوي كل منها على اقل تقدير هيكلية عظام ، ومراراً عشرات وعشرات رقت على احسن دقة ونظام . ولم تحدث دون شك اعمال عنف او مشاجرة . وهناك اشخاص يضحون طوعاً بحياتهم - ولا فرق ان فرضتها التقاليد - وهم ينتمون الى حاشية الملك ليرافقوه في عالم غير عالمنا الارضي . ولم يعثر على اي قبر يرتقي الى عهد اسبق في بلاد بابل او آشور لم تمتد اليه اليد . ولكن تذكر لنا بعض اللوحات الآشورية الطقس المتبع عند دفن العاهل : وهي تفيدنا بأنه كان يجري في الوقت نفسه دفن « سيدة القصر » اعني الزوجة الاصلية . ولم يجر هذا الدفن الا صورياً لربما اذ نعرف ، في اواخر القرن التاسع ، ملكة - امّا اصبحت وصية في بدء ولاية ابنها وهي سامون - رامات التي دخلت الاسطورة باسم سميراميس . ولكن هذا كاف للتدليل على ان العادات القديمة تركت لها اثرأ زمنأ طويلاً ولو بشكل ملطف .

وهذه المجموعة الاجتماعية هي كثيرة العدد ومختلفة التركيب اذ نجد فيها عمالاً ينتسبون الى كل المهن ، واجراء ، وكتبة ، وصناعيين ، ورجال اعمال ، وفلاحين ، ورعاة ، وحراس مخازن الخ وكلهم يخضعون لاوامر ناظر اذ ان الاملاك الملكية المشتتة والمتشعبة الخيرات تجعل من القصر نوعاً ما مشروعاً اقتصادياً واسماً تساهم ارباحه بتثبيت وتقوية سلطة الملك المادية .

ويسلخ الملك عن املاكه اقطاعات يخصصها للملكة ولاولاده الملكيين ، كما انه يقتطع ايضاً منها ، اقله زمن حمورابي ، اقساماً يوزعها على سبيل المكافأة ، لجنود اتخذوا الجندية مهنة لهم او لموظفين . ويستثمر ما تبقى من هذه الاملاك مباشرة حسب اوامر الملك الذي يتصرف كمالك كبير يهتم بارباحه . انه لا يوجد بكل تأكيد اي تمييز بين عقار يملكه الفرد وآخر يخص التاج . لا بل

يحصل التباس اكيد بين املاك التاج والدولة ، اقله فيما يختص بالافعال المادية ذات المنفعة العامة . وان سهل التمييز نسبة الى الضرائب والجزى ، فالعكس مؤكد ان اعتبرنا اعمال السخرة التي تفرض على المواطنين لحفر قنوات الري والاعتناء بها وبناء الطرقات والنقل ومصادرة الحيوانات الحلوبة وحيوانات الجر والمراكب والعجلات . وعلى كل فان الاهراء حيث تكس غلال املاك العاهل والدولة مشتركة . وللملك الحق بان يتعاطى اعمال الصيرفة ، ويقرض مالا لقاء فائدة ، ويشترك في مشاريع خصوصية . ومع انه مالك كبير لاراض وقطعان ، وصاحب معامل فهو ايضاً رأسمالي واسع الثراء . وهكذا يلعب الملك في مختلف المرافق دوراً اساسياً في حياة البلاد الاقتصادية .

الهيكَل وتقوم الهياكل ، نسبة لعددها ، بدور اشد خطورة . فلكل مدينة عدة هياكل : فقد وجد في لاغاش في اوائل الالف الثالث نحو خمسين هيكلًا . وتصنف هذه الهياكل درجات وفئات ، وعلى كل تعود الاولوية الى هيكل الإلهة سيدة المدينة . وهذا المعبد هو عادة اكبر المعابد واكثرها زينة الا اذا عطف على هيكل آخر ، وبصورة استثنائية ، ملك ينتسب الى مدينة اخرى . وهذا الهيكل هو اكثر الهياكل غنى ، لذا فهو احسنها تجهيزاً من حيث رجال الكهنوت ورجال الادارة والاستثمار .

وهكذا يكون كل هيكل ، على غرار القصر ، عالماً مستقلاً . ونسبة الى بعض الفئات التي تتلاقى مع نشاط طقسي او مهام اخرى بعض الممار ، فان المجتمع الذي يتخذ له من الهيكل مركزاً رئيسياً يصبح كأنه طبقة مغلقة . وهناك اساليب وفنون لا يتعلمها المرء الا في الهيكل ، وفي عهد الصبا . كما توجد مهن تبدو وكأنها لا تمت الى الدين بصلة ولكنها تستوجب مع هذا ، بالنسبة الى الهيكل ورجال الكهنوت ، معرفة بعض الطقوس وممارستها ؛ وعلى النقاشين والنساجين والخبازين وحتى البوابين ان يقفوا عليها . ولا شك في ان اعمال الزراعة وحدها تستثنى من هذا الواجب .

ويلاحظ المرء ، على كل حال ، عدداً وفيراً من المهن يلتحق اربابها بالهيكل . وتمثل فيهم كل الطبقات الاجتماعية ابتداء من العبد حتى ابن الملك او ابنته ، ويكوتون ، تحت رعاية الكاهن الاعظم او الكاهنة الاولى ، جماعة كبيرة تحيا لخدمة الاله ، وتعتاش من ثم من مدخوله ، اعني من غلة ارزاقه او مما يفيض عن التقادم والذبائح .

ولكن لا يستنكف افراد هذه الفئات المختلفة من الاندماج في الحياة المدنية ، فهم لا يأتون بثرواتهم الشخصية الى الهيكل الذي ينتمون اليه ويملكون ارزاقاً شخصية يستثمرونها كما يحلو لهم .

حتى ان اصحاب الحرف الذين يعملون لمصلحة الهيكل يشتغلون ايضاً للجمهور لقاء أجر ان سححت الظروف .

لا يخلو هذا التنظيم من خلل . فباكراً جداً بدأ التذمر من الالتباسات التي لا مفر منها . ومنذ الالف الثالث افتخر احد ملوك لاغاش بانه وضع حداً نهائياً للخداع الذي استخدمت بموجبه « ثيران الاله » لاعمال زراعية في ارض يملكها شخصياً احد الكهنة . ومع الزمن اصبحت هذه الوظائف الدينية كأنها حق ارثي : فيرهن الواحد او يبيع او يهب لمدة اشهر او ايام هذه الوظيفة او تلك ، لا بل انتهى بهم الامر مراراً في اعمال تقسيم الارث او اجراء البيع الى تجزئة يوم من الخدمة اجزاء عدة . واستمرت هذه العادة حتى في العهد اليوناني ، في بلاد بل على اقل تقدير ، بعد ان كان قد انهار الاستقلال السياسي . وتدل ضمناً هذه المواقف بان رُضوع كان يتعلق بفوائد تلازم وظيفة ما . ومع هذا فلربما فرض تحصيل مثل هذه المنافع القيام ببعض الموجبات . وعلى كل يجب الرجوع الى فترة انتقالية غدت فيها الوظيفة ، كوحدة بما لها من حقوق وواجبات ، موضوع مساومة ، مع ما سبق ذلك من تطور يسهل تصور مراحله .

وهل غدت املاك الاله موضوع استملاك مماثل ؟ ان الامر ممكن اذ في زمن متوغل في القدم اقتطعوا منها حصصاً ووهبوا الى الافراد . وقد استثمر هؤلاء العقارات تلك ليؤمنوا معيشتهم ومعيشة اسرهم . ومع الاحتياطات المتخذة فلا يجب استثناء هذه الحصص من مبدأ اغتصاب اراض وزعها الملك على جنوده او موظفيه .

ومها تقلبت الظروف يحتفظ الهيكل باملاك يؤجرها من الغير واخرى يستثمرها مباشرة بما يملكه من ادوات وحيوانات ويد عاملة تعززها اعمال السخرة ، ويتم كل امر باشراف النظار . وللهيكل ايضاً مصانعه يصنع العمال فيها ما يلزم لطقوس العبادة او لرجال البيعة . وله ايضاً مخازن ومستودعات وكنز ورجال اعمال .

وهكذا تهيمن الهياكل ، في مختلف المرافق ، على قسط وافر من حياة البلاد الاقتصادية . ويتشابهك تشابكاً متيناً نفوذهم المادي مع امتيازاتهم الروحية . وقد يسخر الهيكل احياناً سلطانه هذا للخير والرحمة ، اذ تفيدنا نصوص ترتقي الى عصر حمورابي بان الهياكل تقدم قروضاً بفائدة تقل عن الفائدة القانونية القصوى ، لا بل تنقص عن الفائدة المعتدلة . وتقرض الهياكل ايام الجماعة الحبوب دون ربح ، وتسلف العبد الذي يريد ان يبتاع حريته . ويأمر الملك ايضاً بان يقرضوا الجندي الذي وقع اسيراً في يد العدو والذي يعجز ، نسبة لفقره ، عن دفع الفدى . وبعض اعمال الرحمة هذه تلقائية ! وعندما فرضها حمورابي فرضاً اكتفى بتثبيت تقاليد متبعة . وهكذا يسعى الهيكل لتأمين مصالح الاله والقيام بافعال رحمة خليقة به . وقد قرأنا اعلاه كيف حدد حمورابي مشيئة شمس .

ان طرحنا جانباً عالمي القصر والهياكل فاننا لا نعرف مثلاً معرفة حسنة المجتمع الميزوبوتامي الا في عهد حمورابي ، وخاصة من خلال قانونه . ويكون هذا المجتمع العلاني

التشريع النص الاساسي الذي يسمح لنا بتفسير مستندات لا عد لها ، وعقود يختلف زمانها ومكانها . وان وقفنا على نبذ من قوانين اخرى سنها ملوك اور واشنونا وأسين ، او ملوك آشوريون من الالف الثاني ، او اذا وجدت بعض نصوص عقود لاحقة في الزمن تكشف لنا القناع عن اختلافات تتعلق بنقاط خصوصية ، فان الجوهر والعادات لم تتبدل كما يبدو .

ان قانون حمورابي يؤكد بصورة قاطعة وجود ثلاث طبقات اجتماعية ، اقله في المدن : « الانسان » اي الانسان الكامل اعني الفرد الحر ، « والشخص الذي ينحني » المروؤوس الوضيع اعني الفرد الذي يتمتع بقليل من القيم ، واخيراً العبد ، ملك شخص آخر ، حرّاً كان هذا الاخير ام مروؤوساً .

ان الغرابة في هذا التقسيم هو وجود الطبقة الوسطى . اننا نجعل اصلها كما لا نعرف المروؤوس ان كانت قد حصرت فقط في بعض المهن المحددة . وعلينا ان نقرر بوحودها ونعترف بان القانون وضعها على مفترق الطرق بين الفئتين الاخرين . فالذي يضرب مثلاً ابنة رجل حر ويسبب لها من ثم اجهاضاً يدفع غرامة تعادل عشرة مثاقيل ^(١) فضة بينما لا ينقد ابنة المروؤوس سوى خمسة اثقال ، وابنة العبد الا مثقالين فقط . ويظهر هذا التفاوت ايضاً في الاحر المستحق لقاء احدي الخدمات اذ يقض الجراح الذي اجري عملية ما عشرة مثاقيل او خمسة او مثقالين تبعاً لفئة المريض الاجتماعية .

ان العبد ، ذكراً كان ام انثى ، يتساوى قانوناً مع الشيء المادي الممتلك المنقول العبد ويوسم غالباً . ويجب بتر يد الطبيب الذي يزيل هذا الوسم . ويعاقب معاقبة صارمة من يساعد او يقبل عنده عبداً هارباً ، لا بل قد يحكم عليه بالموت ان كان الهارب من عبيد القصر . ونسبة الى سلسلة تصنيف الممتلكات المنقولة ينزل العبد منزلة وسطى بين المعادن الثمينة والحيوانات الاليفة . وهو مثل هذه الكائنات يباع ويستبدل ويرهن ويودع . وفي عهد حمورابي غدا الثمن التجاري العادي للعبد الذكر الذي بلغ اشده عشرين مثقالاً ؛ وهذا هو ثمن حمار وهو اقل دون شك من ثمن الثور . وتتم مثل هذه الصفقات بموجب عقود مكتوبة حسب المتعارف : ويكفل البائع حقوق المشتري ، ان وجد في العبد عيوب مستورة ، وذلك لفترة اختلفت مدتها قديماً ولكن جعلها القانون شهراً .

ان حقيقة حال العبد القديمة والتي تركت لها اثرأ في معجم اللغة ، نسبت اليه اصلاً غريباً ، فهو اما من الاسلاب او حصيلة عملية شراء قانونية تمت خارج حدود البلاد . ومنذ القدم فعلاً ولد بعض العبيد في الوطن اما من ابوين عبيدين او حتى من ابوين يتمتعان بحريتهما ، لانه ان اعتبر الاولاد الذين هم ثمرة زواج فتاة حرة مع عبد احراراً كوالدتهم ، فان الاولاد الذين

(١) وزن المثقال ٦ غرامات .

يستولدهم سيد خليفة عبدة لا يعتقون بلء الحق في الوقت الذي تصبح والدتهم حرة ، الا عند وفاة والدهم . وعلاوة على ذلك فانه باستطاعة الآباء الاحرار ان يبيعوا اولادهم ، وللدائن الحق باسترھان مديونه وامراته واولاده منها . وفي هذه الحالة الاخيرة فمن الحق القول ان القانون لا يقر العبودية الا لفترة لا تتعدى ثلاث سنوات . ولكن مددت هذه الفترة القصوى فيما بعد قانونياً وواقعياً .

ولا يوجد الا حالة واحدة ، وتبدو غامضة - حالة عبد ولد في بلاد بابل واقتيد الى الخارج واعتق هناك - يأمر فيها القانون بالعتق بصورة آلية . ولكن يستطيع العبد دوماً ان يذال الحرية ان وهبه اياها سيده دون مقابل او منحه اياها لقاء مبلغ ما . وكسب الحرية بالمال ، وقد كثر اللجوء الى هذه الوسيلة ، يؤكد انه بإمكان العبد جمع قنوة ، ولكن لا نعرف كيفية هذا الكسب . ويقدر العبد ان يقترض من الهيكل مبلغاً لا كمال القنوة او ليقوم مقامها . وقد يفرض عقد العتق على العتق بعض الواجبات نحو سيده ما دام هذا الاخير على قيد الحياة . وللعق مفاعيل معجلة التنفيذ فيما يختص بالاحوال الشخصية . وكان التحرير يتم ، ايام حمورابي ، في احتفال ديني يظهر اثناء جبين العبد حتى غدا لكلمة « التطهير » معنى « العتق » .

وكل هذه المعلومات ، وهي ذات قيمة عظيمة ولا نرى لها مثيلاً في القرون القديمة الا في المجتمع الروماني ، لا تفيدنا مع هذا لسوء الحظ كيف كان يحيا بالواقع افراد طبقتي المرووسين والعبيد .

وتسري هذه الملاحظة ايضاً على الاسرة .

تشرع الاسرة يحقق نظام الاسرة للمرأة الاستقلال لشخصيتها القانونية خصوصاً في موضوع ادارة املاكها ، وهذا امر يسترعي الانظار . والذي يقدمه الزوج المقبل لحمة عند اعطاء الوعد بالزواج لا يصبح ملكاً للزوجة ، ولكنها تبقى المالكة الوحيدة للبائنة التي تجلبها لزوجها . اما الهدايا التي من الطبيعي ان يقدمها الزوج لزوجته فلا تستطيع هذه الاخيرة ان تبيعها ولكن لها ملء الحق بالانتفاع منها . وللأمراة وحدها حق التصرف بكل حرية بما هو ملك لها من اموال منقولة او ثابتة . وللعقد الذي هو شرط ضروري واساسي لكل زواج صحيح ان يمنع القاء القبض على شخص الزوجة من قبل دائن زوجها . ولكن لا يسري عادة هذا البند الا على الديون التي توجبت على الزوج قبل زواجه . ولكن ينفذ مبدأ التكافل والتضامن للديون التي تعقد بعد الزواج . ولا يستأثر اذ ذاك الزوج بادارة المنافع المشتركة بل نرى الزوجة تتدخل ، اقله كشاهدة ، عند عقود البيع . وان كان الزوج جندياً ، وطلب للخدمة فيعود اذ ذاك للزوجة حق ادارة املاكه ، ان لم يكن له ابن بلغ اشده ، وتصبح الزوجة في مثل هذه الحالات مالكة لثلث الربيع .

ويستطيع الزوج دون شك ان يطلق امرأته ، ولكن القوانين تحميها اذ ذاك ضد قراره

التعسفي ، اذ عليه ان يلجأ الى المحاكم ويثبت شكواه بادلة عادلة وقوية . وعلاوة على ذلك فان سوء سلوك الزوج يعطي الزوجة الحق باقامة دعوى ماثلة لتعود الى عند ذويها . وفي كل من الحالتين تأخذ معها كل ما يخصها وغالباً ايضاً تعويضاً تقدره القوانين . ويبقى جرم الزنى المشهود : اما جرم الزوج فلا يذكره القانون ، كما نعلم ، بينما يمكن القاء الزوجة المحرمة مع غريمها الى الماء ، اذا لم يصفح عنها زوجها . وهذا ، على ما يبدو ، هو التفاوت الحقيقي الوحيد .

ونظام الزوجة الواحدة هو القانون ، يحد من شدته حق تأمين ذرية للرجل ، لذا فان عقم الزوجة ومرضها هما من اسباب الطلاق الشرعية كرفض المرأة القيام بواجباتها كزوجة وربة بيت او تهاونها في اداها . ويحق للزوجة العاقر ان تهدي زوجها عبدة بمثابة خلية . ولربما هدف هذا التدبير الى منعها من اتخاذ اي تدبير قبله ان اتخذ له السراري ، اذ ان القانون ، في مثل هذه المواقف التي لا تشرف ، يكتفي دون شك بالتلطيف من افعال لا مفر منها . ونعرف حوادث انجب فيها الرجل اولاداً من زوجه ومن خليلته ايضاً . ولا يمكن بيع العبد التي غدت موضوع انتخاب كهذا ، لا بل تعتق مع اولادها عند موت سيدها . ولكن عليها مع هذا ان لا تنافس سيدتها وان تنجب اولاداً . وان اخلت باي من هذه الشروط يحق اذ ذاك للزوجة ان تعيدها الى العبودية .

ويسمح القانون اخيراً للزوج ، ان لم ينجب اولاداً من زوجته او من خليلته ، وفي مثل هذه الحالة فقط ، ان يدخل الى بيته زوجة من رتبة ثانية . وعلى هذه الزوجة ان تحترم افضلية الزوجة الاولى . وقد ينص صراحة عقد النكاح الثاني على ان الزوجة الثانية « تغسل رجلي الاولى ! » .

وبعد ايجاد الحلول لختلف هذه الحالات تبقى مسألة التبني ويتم التبني بموجب عقد . وان جرى وفقاً للاصول ودون اي ضغط فان القانون يحمي المتبني في حال جحود المتبني او والديه الطبيعيين . فالمتبني الذي يتنكر لاسرته الجديدة يباع كعبد ، ويستطيع المتبني ، ان رزق الاولاد فيما بعد ، ان يفسخ العقد ولكن شرط ان يعطي للمتبني الذي يرذله ثلث الحصة الارثية القانونية باستثناء الاملاك الثابتة .

ويحدد القانون بدقة بالغة قوانين الارث ، فان كل ما تملكه المرأة ، حتى ولو استرجعته معها عند عودتها الى اسرتها ، يعود الى اولادها . ولكن يوجد تمييز وتفریق نسبة الى المهور بين الاولاد الذين هم ثمرة عقود زواج متتالية . والشيء نفسه يقال عن اموال الوالد . ومع هذا فبوسع الوالد ان يهب الهبات لامراته او لاي من بنيه او حتى لشخص غريب عن الاسرة . ولكنه لا يستطيع ان يحرم من الميراث اياً من اولاده الا اذا سمحت له المحاكم بذلك بسبب ذنب خطير اقترفه المحروم . ويجري تقسيم الارث بالمساواة التامة ، اقله بين اولاد الزوجة ، لا بل يأمر القانون بالاحتفاظ بما هو ضروري لهدايا العرس التي سيقدمها العزب ، ويحرم من الارث اولاد الخلية ان لم يكن الوالد قد اعتقهم وهو على قيد الحياة . وان كان قد اعتقهم فعليهم

لمع هذا ان يدعوا لاختوتهم افضلية الخيار بين الحصص . وتحرم البنات من الارث ان كن قد اخذن البائنة والا فلهن حق استثمار حصة ما .

وتكفي هذه الايضاحات ، ومن السهل الزيادة عليها ، لظهار روح قانون الاسرة الذي يهتم الاهتمام الدقيق بكل ما هو موضوع ملكية منقولا كان ، بما في ذلك العبيد ، ام ثابتاً .

واستناداً الى البقايا التي وجدت من قانون يرتقي الى الالف الثاني ، تظهر الاسرة ، عند الاشوريين ، اقل تماسكاً : فيذكر مثلاً بأنه باستطاعة الزوجة ان تعيش في البيت الوالدي ، حيث يزورها زوجها ويقدم لها كل ما تحتاج اليه . ولكن الفرق الاساسي هو ان للمرأة اهلية مدنية اقل مدى . فلا نراها فقط الا في القرنين الثامن والسابع ، ايام سلالة السرجونيين ، فريفاً في عقود البيع او افعال مماثلة ، وذلك بصورة اكثر ندرة مما هو الحال في بلاد بابل . ويعاقب القانون كل من يقرضها حتى ولو كان غريباً عن الاسرة ويجهل بأنها متزوجة . ويمكن طلاقها دون تعويض او لجوء الى المحاكم . ويجبرها القانون ، بعد موت بعلمها ، على الزواج من اخيه او من احد الاولاد الذين انجبهم من زواجه الاول . ويحق للزوج ان يتخذ خلية او خيلات عدة ، ويرفعهن الى مرتبة الزوجات .

ان قانون حمورابي سبق بقرون عدة التشريع الاشوري ، ومع هذا فهو يعبر بصورة جازمة عن حالة اجتماعية قد يعتبرها المرء اكثر تطوراً . ولكن في هذا المجال يجب اعتبار الطبع القومي . فلا عجب من ثم ان بقيت المرأة في مستوى قانوني دون مستوى الرجل عند شعب حربي كالشعب الاشوري .

ويسهل تصور ما ينقصنا في هذا الجانب او ذاك . ومن الطبيعي بان مجموعة قوانين ، حتى ولو طابقت دوماً - مع ان بعض العقود تنقض هذا القول - الحقيقة العملية ، تعتبر على مستوى واحد اوضاعاً تتوفر كثيراً في حياة مجتمع مع اوضاع اخرى تعد نادرة وشاذة ، هذا ان لم نقل مجرد تخمين وتكهن . والاخلاق التي تنتج عن وضع وسط بين هذه النظرية وتلك لا تنعكس بصورة واضحة في القوانين التي تبقى دون وزن ان استثنيتها . ويلزم لاهياء الحقيقة امور غير العقود التي لا عد لها والأسناد القضائية التي قد يأتي تنظيمها المنطقي نتيجة المصادفة . اعني مراسلات شخصية وطرائف وقصصاً . ان المستندات الكثيرة عن تاريخ بلاد ما بين النهرين تساعد المشتري اكثر من المؤرخ .

يدلنا كل ما تقدم على اهمية وقوة وتنوع الحياة الاقتصادية . ويعتقدون بأنه من واجبات المؤسسات الجماعية الاساسية السهر على هذه الحياة وتنظيمها لتأمين ازدهارها وابقائها على مستوى من الاستقرار العادل .

الحياة الاقتصادية :
العمل الرسمي

وتهدف العبادة في الدرجة الاولى الى استجلاب عطف وحذب الآلهة على الاعمال التي تؤمن

للإنسان طعامه ورفاهيته . ويعطي المثل والقذوة مالكو الأراضي والهيكل والقصور واصحاب الكنوز والخيرات منها احتلفت انواعها . فهم يتأثرون مباشرة بالاردهار العمومي لما تفدقه عليهم من خيرات مادية فصائل التقوى والطاعة وعرفان الجميل . لذا فهم يقومون بدور منظمي الحياة الاقتصادية . ولكن هذه النظرية هي أشد وطأة في مصر: اذ لا نجد أثراً لاقتصاد موجه، ولا يعتبر الملك او الآلهة المالكين الوحيدين لجميع اراضي البلاد التي يصح المزارعون فلاحيتها . ولكن في بعض المرافق ، يشتد تدخل الدولة بصورة اوضح واعمق مما يجري في وادي النيل ، حسب معرفتنا اقله ؛ ويعتبر قانون حمورابي ، بعد ان حدد الراتب والشمس في محلات عدة ، اوسع تجربة ، في عهد قديم ، لتأمين رسمي ، وبود ان نعرف ، اسناداً الى وثائق اكثر عدداً وأشد وضوحاً ، فعالية هذا العمل في الحياة اليومية وتطورات التاريخة .

الزراعة
تنبؤ الزراعة مركزاً مرموقاً ، الاول دون شك ، في حقل اهتمام المسؤولين عن مجموع الامة ، وقد مسحت الارض ، ناكراً حداً ، وعدا ضرورياً تسجيل كل تغيير يطرأ على تقسيمها او ملكيتها او حتى على طرق استثمارها . وتحفر قنوات التجفيف والري ويسهر على صيانتها تحت اشراف السلطات ، تبعاً لنظام اعمال سخرة لا يعفي منها الا امتياز ملكي . ويدير مهندسون جهابذة مكاتب فن ودراسة ليضعوا تصاميم احواض وخزانات المياه وقنواتها ، كما تنظم القوانين والتقاليد اسس توزيع المياه المنعشة ، ومعاقبة كل اهمال او غش يلحق الضرر بالمجاورين . ويحدد القانون ايضاً شروط المزارعة وواجبات المزارع وكيفية تقسيم الاضرار التي تسببها تقلبات الجوبين المالك والمزارع او المستأجر ، ومبلغ اجرة الفلاح والبقتار والراعي ، وبدل استئجار ثور او حمار ، ومسؤولية الحوادث او الخسائر التي تحمل بالقطيع ، وعملة العامل اليومي في الحقول .

وتكشف هذه الدقة التي تصل غالباً حد المغالاة عن نظم حياة زراعية شديدة التطور ومبدإ الملكية العقارية المصغرة جداً، وترتيبات لا حصر لها في كيفية ملكية وتوزيع الأراضي الزراعية . ومما لا جدال فيه بان الارض ، في منطقة بابل ، مهد حضارة بلاد ما بين النهرين ، غدت المظهر الاول للثروة، واثارت المطامع، وبسبب انتقالها من يد الى يد خلقت المشاكل التي لم يستطع حلها الا الهيكل والدولة . لذا اصبحت الارض المادة التي اجريت عليها اقدم التجارب لحياة اقتصادية تخلق علاقات بين السكان وتستحث مخيلتهم .

وتمتعت ، عن جدارة واستحقاق ، بلاد بابل طوال الازمنة القديمة، وهي الارض الرسوبية المروية ، بشهرة حصص اسطورية تفوق شهرة تربة مصر . ولقد افاد هيرودوتس وسترابون بان الحبوب كانت تعطي غلة تعادل ٢٠٠/ او ٣٠٠/ للوحدة ، وتسمح لنا حقا المستندات والوثائق الاعتقاد بغلة عادية تفوق ٥٠ للشعير ، هذا الصنف من الحبوب الاكثر شيوعاً والذي غدا عياره مقياساً لمعظم الاثمان والتعويضات التي حددتها القوانين . وحسب اقوال هيرودوتس ايضاً فان

نبتي : السمس ، الذي يستخرج الزيت من حبه ، والجاورس أصبحتا كالشجيرة ! ولتأكد هيرودوتس بان احداً لن يصدقه ، استنكف من الاشارة الى طول هذه الشجيرة . ويعترف «ابوالتاريخ» بعدم وجود الكرمه وشجرتي الزيتون والتين ؛ ولكنه ، وقد حذا حذوه سترابون ، يشدد في الكلام على عدد شجر النخيل وتنوع المذافع التي تؤديها : انما قد تعتبر المادة الغذائية الاساسية ، وخمرة ، وعسل ، وخل ، والياق للنسيج ؛ حتى ان نواة البلح تصلح وقوداً للاجداد ، وهي ان طحنت غدت علفاً للحيوانات « ويقال ، كما يعترف سترابون ، بان اغنية فارسية تعدد نحو ٣٦٠ استعمالاً لشجرة النخيل » .

لذا فان اساليب لبقة ترشد عمل الاسان وتساعد ، وقد بلورتها حقب عدة من التجربة والاختبار . فقد عرفوا اثاره تلقيح شجرة النخيل ، واستطاعوا ان يجعلوا من الثور الذي يقرون الطويلة الممتوية ، ومن الحمار ، والحزير ، والصأن ، وطيور القن حيوانات داحنة ، وهم يحاربون ، مستندين الى المهارة والقوة والحيلة ، الحيوانات المضرة التي تعيش في المناطق المجاورة من الصحاري والجبال او في مناطق المستنقعات . ولم يكتفوا باستعمال الحراث الذي تجره الحيوانات بل عرفوا ايضاً المدرّة .

ان هذه الاوصاف الجميلة تنطبق على بلاد بابل ، اعني السهل المنخفض الذي حبه الطبيعة . وكسبب ومُسبب في الوقت ذاته للازدهار الزراعي الذي لا يعكسه احد ، فان كثافة السكان ، التي لم تخضع لاي احصاء ، تصل الى نسبة كبيرة جداً ، يؤكد ذلك عدد المدن التي تذكرها النصوص والذي يفوق عدد المدن التي عثر عليها . وتتغير الحال في المناطق الاقل غنى ، اعني مناطق الجبال والسهول والسباسب . ويغدو الصيد من اساس وسائل التغذية في كل مكان يجري فيه نهر او تنساب قناة . ويذكر هيرودوتس بان ثلاث « قبائل » على شاطئ الخليج الفارسي ، وهو من اكثر مناطق الدنيا فقراً وجذباً ، لا تأكل الا سمكاً مجففاً في الشمس او مسحوقاً ليصبح دقيقاً . وهناك بدو يتنقلون سعيّاً وراء المراعي لقطعان الماعز والضأن والجمال . وهناك سكان الجبال الذين لا يجنون الا غلالاً ضئيلة ولكنهم يتعاطون الصيد الذي يصبح عندهم من ثم ضرورة مستمرة والذي يغذي فيهم النزعة الحربية ، بينما يعتبر في مناطق اخرى لهواً نبيلاً لا بل محصوراً بالملك . وفي فترات مختلفة تصبح هذه الجماعات ، التي تعيش على الحدود ، والقريبة من مواسم السهول الغنية ، خطراً عظيماً على رجال الزراعة الذين يعرفون الاستقرار . وبقيت هذه الجماعات ، رغم الحملات التأديبية المتكررة ، سبب ازعاج مستمر للدول النظامية التي لا تتغاضى عن اي تجاوز على القانون او عصيان .

العمل الصناعي

ان مهارة الصناعيين لا تقل عن مهارة الفلاحين ودأبهم على العمل . ويكفي ان نتفحص ما وجد في قبور أور الملكية لتتأكد من دقة الصناعات اليدوية في اعمال على الخشب والمعادن ، خاصة منذ اواخر الألف الرابع او اوائل الألف الثالث . فهم عرفوا

خمسـة معادن : الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص . وقد اتقنوا تنقيتها من الشوائب والاقذار ، وقاموا بأعمال المزج واللحام والصقل والصياغة والترصيع والتزيين بالمينا . وقد استبدل الخزف بالمعدن للاواني الثمينة . ومع الزمن فان الجمهور الذي يتعاطى مع الهياكل والقصور التي تغذي المصانع المختصة بالنسيج والتطريز والصياغة والنقش والحمر الخ ، ساعد على تطور الفنون اليدوية وتقدمها المستمر . والتدريب على هذه الاعمال ، وقد اصدر لها حمورابي تشريعاً دقيقاً ، يؤمن توارثها .

المواد الأولية ان ما تحتاج اليه بلاد ما بين النهرين لتتخذ صناعاتها المدى الواسع الذي يبرره كمالها وجودتها هو المواد الأولية ، وخاصة المواد المعدنية . ويصر المؤرخون اليونان على ذكر « الزيت » اي القار في حالته الجامدة او شبه الجامدة في بلاد بابل ، الذي تطلى به السفن او تشد به آجر الحيطان ، وان كان سائلاً ، النفط الذي ينبع من ارض سوسة والذي يستعمل زيتاً لاشعال القناديل . وهذه ثروة جوف الارض الوحيدة تقريباً ، اذ لا اثر للمعادن او انها سرعان ما نضبت ، لابل تنتقص المنطقة الاكثر خصباً وسكاناً ، اعني سهول الاودية الرسوبية ، الخشب والحجارة .

لذا على المرء ان يسعى لاستيراد هذه المواد عندما يصل الى درجة من الحضارة التقنية . ومنذ تاريخ متوغل في القدم استوردوا بعض هذه المعادن من امكنة بعيدة جداً : فالعاج والحجارة الكريمة من الهند ، والنحاس من قبرص وارمينية او آسية الصغرى ، والقصدير من القفقاس وربما . ولكن قد يتعرض التموين بهذه المواد الى مخاطر كنفاد المعادن او انقطاع سبل المواصلات . ويختلف العلماء بخصوص تحديد تاريخ مقابر اور الملكية حيث الشبه ، وطبقة لاغاش حيث ادوات النحاس ، ولكن ليس من المستحيل ان تكون اور قد استحصلت على القصدير وقد خلت منه لاغاش في زمن لاحق .

ولدينا دليل على تصدير الحمر والقماش والاشياء المصنوعة . غير اننا لا نجد اثراً لتصدير المواد الغذائية . ومع هذا فمن المؤكد بانه كان سهلاً على بلاد بابل ان تقدم كمية كبيرة من هذه المواد . ولكن تسعى البلاد الغربية جهدها لكفاية حالها بحالها وتستنكف من ثم عن دفع ثمن هذه المواد الغالي اذ لا تجري التجارة الا على بضائع ترتفع اثمانها لما يطرأ عليها من مصاريف باهظة نتيجة للنقل وللأخطار المحتملة والمضاربة .

وسائل النقل تطرح ضرورة التصدير الى البلاد البعيدة على بساط البحث مشاكلاً النقل . وفي بلاد بابل يحل وجود القنوات هذه الصعوبة باهون الطرق فنذ اوائل الالف الثالث غدت المراكب تتسع لمحولة ذات وزن محترم (اكثر من مائتي هكتوليترا) . وهي تسير بواسطة المجداف او الشراع . ويحدد قانون حمورابي بصورة واضحة شروط بناء هذه المراكب وتأجيرها واستخدام ربابنتها . وتصلح الانهر ، خاصة الفرات ، لاسفار اكثر بعداً . ويلعب « الرصيف » دوراً رئيسياً في المدن التي اقامها الملوك الاشوريون او التي جددوا بناءها ،

اذ تصبح الكلمة التي تعني « رصيف » جزءاً من اسم المدينة . وهكذا تأتي الاخشاب الكبيرة التي تنقلها القوارب او الاطواف من آسية الصغرى او سورية ، وتستخرج الاحجار الكبيرة من الجبال الشمالية - الغربية او الشمالية - الشرقية .

ولكن لا بد من اللجوء الى وسائل النقل البرية . مع ما يرافق ذلك من صعوبات تولدها حالة الطرق السيئة وشروط الجر البدائية . ويحصر استعمال الحصان او العجلة تقريباً بالاعمال الحربية فقط . ولضرورات الحياة العادية يلجأون اذن الى حيوانات الجر كالحمير والبغال والجمال . واذ كان الامن شبه مفقود على الطرق في المناطق الصحراوية او الحبلية يجتمع التجار قوافل قوافل تبعاً لتقليد سيستمر الشرق عليه آلافاً من السنين .

استثمرت بلاد ما بين النهرين موقعها الجغرافي ، وهو اقل عرلة من
التجار ومستعمراتهم
موقع مصر . وترجع علاقات بلاد ما بين النهرين مع اقطار بعدت
عنها كثيراً كمناطق وادي الاندوس والقفقاس وآسية الصغرى الغربية الى اقدم العصور التاريخية
والى اكثر عهود ما قبل التاريخ قدماً . وبصورة شبه مستديمة ، باستثناء فترات سببتها هجرة
الشعوب اكثر من الغزوات الحربية ، فقد استمرت هذه العلاقات مسهلة والحالة هذه تبادل
الخيرات وتلاقي الحضارات وتشابك العناصر العرقية المتباينة .

وقد اثبتت المستندات المدعوة « اللوحات الكبادوكية » بانه في اواخر الالف الثالث ،
كان يوجد في اواسط آسية الصغرى ، في ضواحي جبل « أرجيه » ، جماعات من التجار الاشوريين
يتعاطون اعمال السمسرة للاستيراد والتصدير . وهم يديرون شؤونهم كما لو كونوا جمهوريات
صغيرة مستقلة ، « الارصفة » ، ويبقون على اتصال مع بلاد ما بين النهرين . وان اختفت هذه
المؤسسات دون ان تبقي لها اثرأ فقد غدا لسواها ديمومة اطول عمراً . ومما يثير الدهشة ان
يلاحظ المرء في بدء القرن السادس وجود يونان في مملكة نبوكدنصر ليس لهم صفة المرتزقة ،
اذ تشير مستندات تجارية الى وجود تجار « ايونيين » في بابل . ولكن يصعب على المرء خاصة ان
يفهم توسع الاراميين الآتين من السباسب الممتدة بين دجلة والفرات ، دون ان يتبادر الى ذهنه
دور الوسطاء في حياة اقتصادية فتحت المجال رحباً للتبادل بين الاقطار لا بل بين الدول .
وسنجد في هذه الدراسة اكثر من مناسبة للآتيان على ذكرهم .

تنظيم المعاملات
يولد اتساع العلاقات الاقتصادية المختلفة الاشكال ، وذلك باكرأ جداً جداً ،
اشكالا متطورة للتنظيم التجاري حتى والمصري .

والقرض لقاء فائدة هو موضوع معاملات عادية ، لجهة الغلال كان ام لجهة المال . ويعين
القانون حد الفائدة الاقصى منذ الالف الثالث . وان اعتبرت الغلات الزراعية - وتذكر
النصوص « الشعير » ، ولكن اتخذت هذه الكلمة مدلولاً واسعاً - فالفائدة هي ٣٣ و ٣٣ بالمئة

سنوياً ؛ وان اعتبر المال تبلغ الفائدة ٢٠ بالمئة فقط . ونعرف بعض حالات بادرة جداً تفوق الفائدة الحقيقية هذا الحد ، وحالات كثيرة جداً تنقص عنه . وهذه الفائدة هي في هبوط مستمر ، اقله في بلاد بابل الاكثر انتاجاً . ففي العهد البابلي الجديد لا تتعدى الفائدة العادية للشعير الحد الذي قرره حمورابي للمال . وعلاوة على ذلك ، ومنذ القدم ، فان على القصر والهيكل واجباً معنوياً ، وهو ان يظهر ا تساهلاً وحداً اكثر من الافراد . وهكذا فقد اكتفى احد الهياكل بفائدة تبلغ فقط ٦ بالمئة ، كما استلف الفقراء والمرضى الحبوب دون اي فائدة .

وهناك ايضاً امثلة اخرى عديدة عن اعمال عادية : كالايجار والرهن والكفالة ، وفيما يختص بالتجارة ، الشراكة لمدة قصيرة او طويلة ، وفي هذه الحالة ، المحاسبة في اوقات محددة ، وشركة المضاربة ، والسمسرة والتوكيل الخ . . . وتحدد القوانين شروط هذه الاعمال ، كما فعلت للدين ، وتستدرك حالات عدة مختلفة .

ويتم كل عمل بموجب عقد ينظم ويوقع حسب الاصول ، مع ايضاحات صريحة ، وذلك امام شهود يوقعون اختامهم ، وغالباً ايضاً ، خاصة في مجال الديون ، امام موظف يحمي اشرافه المديون ضد قساوة المراي الذي يستغل الفرص للكسب . فرجل الاعمال الذي يخضع له مستخدمون وعملاء هو شخص له اهميته في مجتمع بلاد ما بين النهرين وحياة شعوبها . واذ يكون غالباً وكيلاً عن الثروة الملكية او الالهية فهو يعمل ايضاً باسم رجال احرار آخريين او باسمه الشخصي ، وهو يعتبر ، منذ السلالة البابلية الاولى ، جد الصيرفي العصري .

تسهيلاً للتبادل وتبسيطه لم ينقص ذاك المجتمع سوى معرفة النقد . وقد عوض المعايير والقيم عنه ، بصورة تزداد حسناً او تقل ، باستعماله الشعير والمعادن ، كمعايير للثمن والقيمة . ففي اول الامر لجأوا الى النحاس فقط ، وعند الاشوريين الى الرصاص غالباً ؛ ولكن بشكل مستمر ، خاصة في عهد حمورابي ، استعملوا الفضة التي يضاف اليها الذهب ، بكميات قليلة للتعامل مع الغريب . وللهياكل والقصور مكاييل ومعايير معينة ، وينص القانون على معاقبة الغش . ويتعاملون بالمعدن على شكل سبائك او صفائح او حلقات ، قد انتهى الامر بهم الى ختمها بختم للدلالة على نقاوتها . ولكنهم لم يسكوا قط نقوداً معدنية ، وقد حفظت الاقدار هذا الاختراع للحضارات الغربية .

وتظهر بعض النصوص بان نسبة التقدير ، حتى بين البضائع المتخذة كمعايير ، غدت عرضة للتغيير . وقد يحمل الحصاد على انزال كمية الشعير التي يمكن الحصول عليها بوزن من الفضة (عادة هكتوليتراً واحداً لكل ٣,٣ غرامات من معدن الفضة النقي) الى النصف او اكثر . وتزداد نسبياً من ثم قيمة الذهب ، وهو في كل وقت مادة اندر من الفضة ويحتكرها الصاغة . ومع هذا فلا نلاحظ قيمة تصاعدية مستمرة : واذ كان الذهب يساوي في البدء تسعة اضعاف وزنه من الفضة ، فقد هبطت قيمته ايام حمورابي الى ستة اضعاف لترتفع من جديد الى اثني عشر ضعفاً في القرن

السادس . ولكن ايام الامبراطورية الفارسية غدا المعدل المتعارف عليه عشرة اضعاف فقط .
وينخفض هذا التقلب دون شك الى كميات الذهب المتوفرة التي هي عرضة بدورها للتبدل الحاصل
في ملكية المناجم . وتكثر هذه المناجم او تقل تبعاً لاتساع ممتلكات الدولة جغرافياً .

ويكون عدم وجود النقود، او اقله عدم توفر عيار موحد ذي قيمة ثابتة، النقص الوحيد في
حياة بلاد ما بين النهرين الاقتصادية . ولكن ان اعتبرنا بمثل هذه الحياة فان الوقوف على حيويتها
وليونتها وتشعبها ، هذه الصفات التي تثبتها لوحات القيود والمحاسبة المكتشفة ، يحملنا على
الشعور بانها حياة اقتصادية شبيهة جداً بحياتنا العصرية .



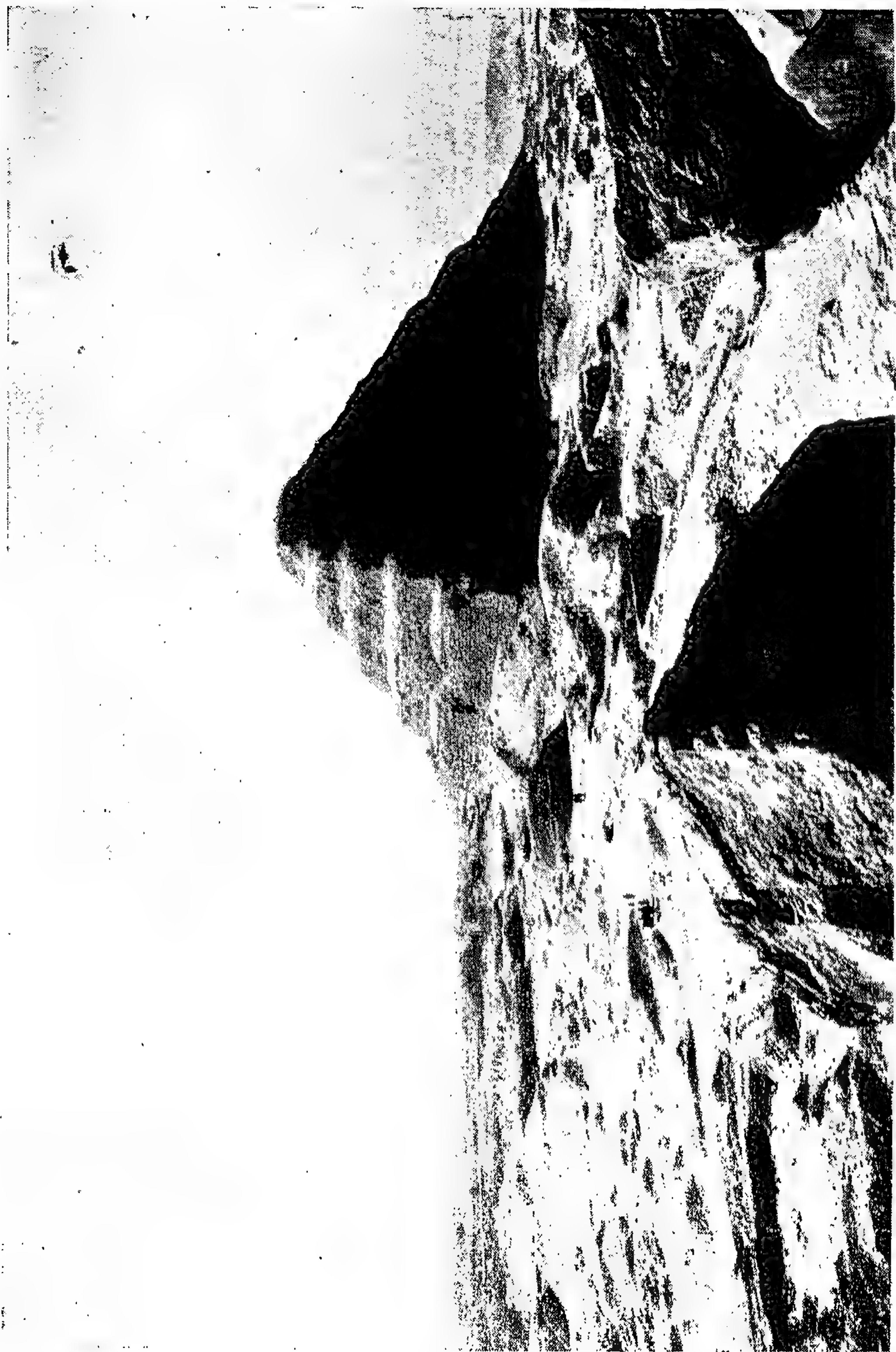


١ - افرير الأيائل السوداء في مغارة لامسكو



٢ - سيدة دامارالند البيضاء

٦- هرم سكره ذو اللرجان

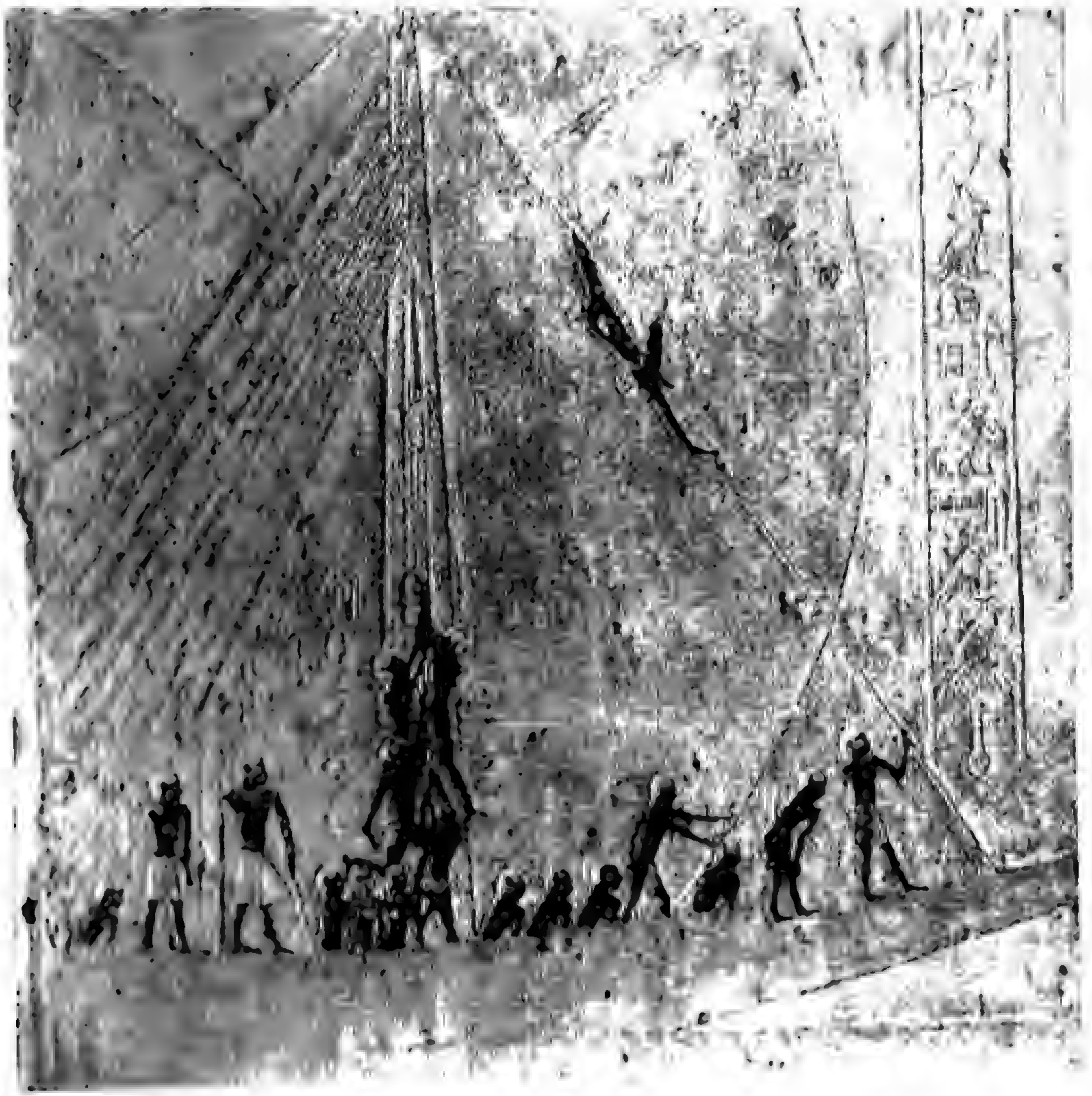




٤ - أهرام الجيزة



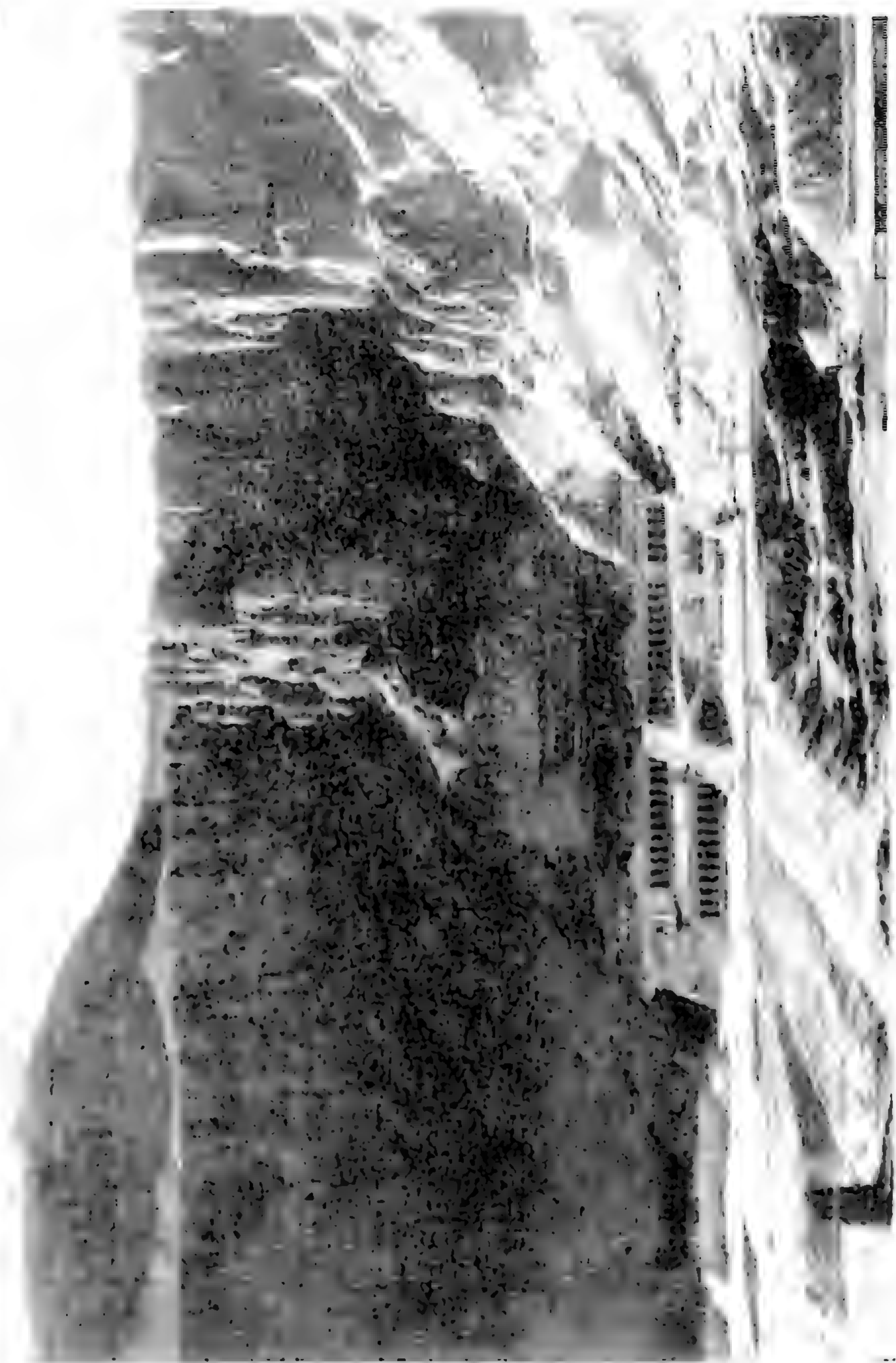
ه - أبو الهول في الجيزة



٦ - نقش ناتىء فى مصطفىة اخوتحوتب



٨ - معبد حنيسوت في دير البحري



٩- معبد امنوفيس الثالث في الاقصر





١٠ - غداة الأميرة



١١ - قاعة الأعمدة في الكرنك



١٢ - معبد امون في الكرنك



١٣ - سيتي الأول والالهة حاتور



١٠ - معهد ميكي الأول في أيلدوس

١٥ - القليل الخارقي معني سنبل، السادة العشرة عشرة





١٦ - المعبد المدفني لرعيس الثاني في طيبة . السادة التاسعة عشرة

الفصل الثالث

الحياة الروحية

ان الطرائف المالية والتجارية التي وقفنا عليها لا تكون الحصة الوحيدة التي اسهمت بها حضارة بلاد ما بين النهرين في مجموعة اختبارات العالم القديم . ولا تقل حيويتها وضوحاً واهمية في مضمار الحياة الدينية والعقلية والفنية . وان اعتبرنا بعض المعالم ، خاصة علم التنجيم ، ان لم نعر اهتماماً إلا هذه الناحية الاكثر اشراقاً ، نر بان هذه الحضارة لم تعرف لها منافساً ، وقد تركت اثرأ لا يمحي في مناطق تبعد كثيراً عن احواض دجلة والفرات .

اولاً - الافكار والوقائع الدينية

يعسر على البحث الوقوف على اصول ديانة بلاد ما بين النهرين . وعندما يصبح بالامكان التقصي عن هذه الديانة ، فستظهر لنا اذ ذاك متينة التكوين من حيث المظاهر الاساسية والاهداف الرئيسية ، ان لم نقل في الكثير من نواحيها التفصيلية . فهي موجودة منذ العهد السومري ، قبل اوائل الالف الثالث . ولا يعني هذا جزمأ بانها من صنع السومريين الذين يكونون قد اكتفوا بتبني او تعديل عقائد او عبارات سبقتهم في الزمن . ولكن بقي التقليد امينأ لما اورثوه . واستمرت معرفة لغتهم محصورة زمنأ طويلاً بين الاوساط الكهنوتية ، لا بل يشعر المرء ايضاً بان التغييرات العرقية التي فرضتها الغزوات في وقت لاحق لم تبدل كثيراً في ديانة ثبتت اسسها منذ عهدهم . لا بل فان العكس صحيح اذ ان الشعوب التي تلتهم اعتنقت هذه الديانة التي فرضت نفسها فرضاً عليهم لما لها من ابهة وفضائل .

الديانة : السومريون
والساميون

ولا اوضح في هذا المجال من المقارنة مع الديانات السامية . فهناك نقاط ثلاث لا شك فيها . فلشعوب بلاد ما بين النهرين اله للزرع ، دوموزي ، وهو الاله تموز بالدات ، اي ادونيس عند الفينيقيين والسوريين . ولهم اله للزوبعة والعاصفة ، يتخذ عند الامم المذكورة اسم حداد . ولكن عبادة هذه الالهة في بلاد ما بين النهرين هي اسبق في الزمن من اقدم تغفل

سامي ، حتى ان نظرية الاقتباسات التي اعتمدها الساميون ، المدعوون « غربيين » ، لها من الاحتمال ما للنظرية المعاكسة .

وعلى كل تبقى دوماً مثل هذه الآلهة في ديانة بلاد ما بين النهرين على هامش المذاهب الالهية الاكثر احكاماً وتبلوراً . وقد قبل كل الساميين المدعوين « شرقيين » ، اعني ساميتي بلاد اكداد واشور ، الخضوع لهذه المذاهب مع ما هم عليه من تفوق حربي وسياسي . ففي بابل الاكادية يتبع حمورابي الديانة نفسها التي خضع لها غوديا في لاغاش السومرية ، فيكرم الآلهة نفسها ويقيم لها ذات الطقوس وفي الهياكل عينها ، لا بل يظهر نابونيد ، عشية الفتح الفارسي ، اي بعد اكثر من خمسة عشر قرناً على انقراض مملكة اور ، تعبد لاله سن ، الاله القمر في اور القديمة ، احدي مدن بلاد الكلدان .

ومع هذا يلوح هنا او هناك تطور ما : إذ لا يستمر قط امر انساني على حاله . وتبدو هذه الحقيقة اكثر دقة عند البحث بالافكار المتعلقة بالموت ، تكريم الموتى : عدم النظام في قبور اور فتتكشف اذ ذاك عن وضوح ووحدية تحيّر المؤرخين .

ولم يمض بعد ثلاثون عاماً على اكتشاف قبور اور التي يرجع تاريخها الى نحو ثلاثة آلاف سنة . ولكن اظهر هذا الاكتشاف المدى القوي الذي كان يتمتع به الاعتقاد بوجود حياة ثانية . فقد وجدت كل الجثث في هذه القبور والى جانبها ادوات تستعمل في هذه الحياة الدنيا ، من الادوات الخزفية السيئة الصنع والشكل المختصة بالفقراء المدفونين في جوف الارض دون تابوت الى الآلات الثمينة التي يستعملها عظماء هذا الكون ، وقد شيدوا لهم اقبية من آجر . ولا يُفسر وجود بعض من هذه الاواني الا اذا كانت ملأى بالمواد الغذائية . ونرى العجلات والاسلحة التي يتخذونها للآلهة والعظمة كالخناجر والخوذ من الذهب الخالص ، وزنانير الفضة وآنية الطعام الذهبية ، ومعدات التزيين والتبرج ، والحلى ، حتى والآلات الموسيقية . وعلاوة على ذلك فان جثث الحيوانات والحراس والخدم والجواري تؤلف بعد الموت ، كما فعلت اثناء الحياة الارضية ، الموكب الذي يعتبر ضرورة لظهار عظمة السيد الميت ، الذي سيحيى حياة لا نهاية لها في عالم آخر نجهل عنه كل شيء .

ولم يمتد قط على قبور كقبور اور تخبرنا الحقيقة - على قلة النقوش التي وجدت فيها - مهما توغلنا في القدم او بحثنا في المناطق التي ازدهرت فيها حضارة بلاد ما بين النهرين . ولم يشهد لهذه القبور مثيل . ولا شيء يفهمنا حقيقة مثل هذا التصرف مهما قلبنا في الآداب السومرية او البابلية او الاشورية . ولقد اكتشف امر وحيد مقارب ينبه الفكر : الطقوس التي يذكرها هيرودوتس والتي كانت تقام في زمن الملوك الفرّ (او السيت Scythes) . ولكن نسبة للبعد لا يسع المرء الا ان يشك في قدرته على استئثارها ليستنتج وجود تأثير عرقي او غيره .

فقد الاحياء ، مع الزمن ، بعضاً من الاهتمام الذي كانوا يبدونه نحو الموتى ،
الافكار المتداولة
بخصوص الموت
فلا يمثل القبر امودجاً من فنون بلاد ما بين النهرين ، على عكس ما نراه
في معظم الحضارات القديمة ؛ لذا نجد انفسنا مقيدين بالنصوص التي ، على
ما فيها من تكتم ، تساعدنا على معرفة العقائد التي تفرضها اكتشافات أور الباهرة .

ولا يعني هذا بان الموت يعادل العدم الكلي . ولكن لا يصبح الميت إلهاً كما الحالة في مصر .
وقد نعد على اصابع اليد الاشخاص الذين اعتبرتهم الميثولوجية آلهة . وفي الوقت الذي تنقلص
فيه الحياة يغادر الجسد ظل او روح ، وان لم يُعدّ لهذا الروح رمس ، وبصورة ثانوية مواد
غذائية ، فهو ينكد عيش الاحياء اذ هو بطبيعته شرير ويهم دون راحة . لذا فان مصالح
الاحياء تتفق مع منفعة الميت ، وهذا ما يفسر لنا الرغبة الملحة في ان يكون للميت ولد ، حتى
ولو كان بالتبني ؛ وهذا الابن يؤمن طقوس الدفن المناسبة ويصبح فيما بعد « مريق الماء » ومنظم
وجبات طعام الميت ؛ لانه ان اقيمت الفروض الاخيرة المتوجبة نحو الجثة ، يهبط اذ ذاك هذا
الروح نحو « الارض الكبيرة » « الارض التحتانية » « الارض التي لا عود منها ! »

ويقدم لنا قصيد « نزول إشتار الى الجحيم » وصفاً غير شيق عن هذه المملكة الجهنمية ، وعن
شروط المكوث اللانهائي الذي سيقضيه فيها حتى اكابر العظماء انفسهم . ويطابق هذا الوصف
الوصف الذي تسوقه لنا ملحمة غيلغميش ، ولا يحتفظ الاموات باي ثوب بعد ان ينزعوا عنهم
كل ملابسهم عندما يعبرون الابواب السبعة التي تبيح لهم اجتياز الاسوار السبعة المتتالعة .
ولا يستطيع هؤلاء الاموات الذين تكتنفهم ظلمات حالكة ويحرسهم الشياطين ان يعودوا الى
الارض ، وذلك لراحة الاحياء الكبرى . ويهجع الجنود الذين يسقطون في ساحات الوغى وقد
رفع ذورهم رأسهم قليلاً واراحت نساؤهم على وسادتهم . وينعم بعض من هؤلاء الاموات ، دون
ان نستطيع تعيينهم لنقص في النصوص ، بسرير ويشربون « ماء قراحاً » . ويقتات العدد
الاكبر من الاموات ، حنى وان اعتنى بهم الاحياء ، من القبار او من التراب المذوب .

ويقلق غيلغميش على مصير هؤلاء الاموات المساكين . وقد يناشدهم قائلاً : « ايها الميت لن
تجد الحياة التي تبحث عنها . وعندما خلق الآلهة الانسان خصصوا له الموت ، اما الحياة فقد
احتفظوا بها بين يدهم » . ومع هذا فهو يكتشف نبذة الصبي الذي يصبح اسمها « الشيخ الذي
يعود شاباً » والتي تكون مادة لمنهاج . ولكن تنتزعها منه اخيراً اقمى مثبتة بصورة قاطعة
مصير الانسان الذي يدعو للشفقة .

والبون شاسع بين هذه الاساطير المحزنة والحكايات التي دغدغت عقول المصريين . واذا لا
ينكشف اي افق مشجع على العالم الثاني يزول من ثم كل استغراب ان بدا تطويل امد الحياة
الدنيا صفوة الاماني ، اذ لا تحقق اي حياة اخرى سروراً للكائن الزائل . وهذا التمديد في
اوروك ولارسا كما عند الاشوريين والبابليين ، هو المكافأة الكبرى لحياة صلاح ، اعني لحياة

خضعت لمشيئة الآلهة ، وملأها صاحبها بأفعال البر ، حتى ان اشوربانيبال العظيم لا يستنكف عن
ترديد هذا الدعاء : « اني ارهب الوهيتك ، فامنحني حياة مليئة بالايام الطوال ، فرحة القلب ،
ولاني اعبدك في هيكلك دع قدمي تشيخان ! »

اتى هذا النص على ذكر خوف الآلهة . وباستطاعتنا ان نورد نصوصاً تفوق
خوف وتقوى الحصر تتلبور من خلالها نفس العاطفة . ولا يفكر المؤمن بالتذمر او الشكوى ،
بل قد يستمخ لنفسه مراراً اظهار استغرابه للبلاوى التي تنزل به والتي لا يبررها مع هذا اي
خطا ارتكبه ، فتتصارع في نفسه عاطفتا الخوف والشكران لكل ما كان يمكن ان يصيبه
وقد نجا منه . وهكذا يغدو الخوف ، ولو بصورة مصغرة ، مرادفاً للتقوى ، وفقدان هذا الفزع
للخطيئة ، والذي يخشى يعتبر نفسه على حق ان التمس ، دون الحاح ، ثواباً لان الخوف يحرضه
على اتيان اعمال تسر الآلهة ، بينما يعد نفسه مستوجباً العذاب الذي لا يعرف للخوف معنى .

انه يوجد ولا ريب شياطين شريريون ، وهم مصدر الامراض والبلايا ، وتقوم مهمة السحر في
تدارك وابعاد اذاهم . ولكن يصبح اعظم الآلهة ، مع حذبهم الاصيل نحو الانسان ، عرضة
لانفعالات غضب يستحيل التكهن بوقت حصولها ومعرفة اسبابها . واذ يعسر على المؤمن
التخفيف من حدتها ، يتوجب عليه من ثم تقبل نتائجها دون استنكار او تذمر . وكما نجد آثاماً
محددة المعالم ومصنفة درجات درجات ، هناك خطايا يرتكبها الانسان عفواً دون ان يفقه بانها
تشكل ضده اسباباً للشكوى . وان وجدت آلهة من مزاياها الاساسية العدالة وحماية الانسان ،
نرى آلهة اخرى لا تتأثر قواها قط بالمبادئ المعنوية . وكما يوجد آلهة يعرف الجميع حقيقة كنهها ،
فهنالك آلهة سرية يحفل المرء عن حقيقتها كل شيء ، فيسهل من ثم اغضاها وعن غير قصد .
وهكذا يغدو الاعتراف بآثامه الوسيلة الوحيدة لاستجداء الرحمة : « ان آثامي كثيرة وخطاياي
ثقيلة ، فلتخمد عاصفة الغضب في قلب سيدي ! فليهدئ الاله الذي اعرفه والاله الذي اجهله !
وليطمئن خاطر الإلهة التي اعرفها والتي اجهلها ! »

ان اصل هذه الطاعة العمياء ، في مستهل نشأة ديانة بلاد الرافدين الذي
الآلهة الكبرى يصعب علينا تحديده هو تأليه القوى الطبيعية العظمى التي تتسلط اهواؤها
على الانسان الاعزل . وفعلاً فسيمثل دوماً في زون (بانتليون) كثير التغير آلهة الرعد والزوبعة
والنار والانهار والجبال . كما تتمثل فيه آلهة الزراعة ، التي على غرار الزراعة نفسها ، تنتقل الى
الموت لتعرف من بعد قيامة مجيدة . وتقام لهذه الفئة من الآلهة او لتلك طقوس تقدم لنا اصدق
تفسير عن تأمين خصب الارض ومن ثم تكثير الغلال .

ومع هذا فان تطوراً طويلاً الامد ، متوغلاً جداً في القدم ، وذا طابع عملي يصعب علينا
من ثم احياء مراحله ، قد اسند المركز الاولي الى آلهة لا تبيح لنا التجارب اليومية والسريعة
معرفة حقيقة قوتها . وتسيطر بعض هذه الآلهة على مختلف العوالم من سماء وارض وماء وعالم

سفلي ، كما تتحد بعض منها اتحاداً ذاتياً مع النجوم الكبرى . وهذه الآلهة الأخيرة بالإضافة الى آلهة السماء كالاله أنو والإلهة أنتوم والتي يستحيل علينا التفريق بينها ، هي دون شك الآلهة الأكثر عظمة : سن الاله - القمر ، شمش الاله - الشمس ، إشتار كوكب الزهرة . لذا فان العلامة التي تسبق اسم العلم وتشير بانها ستدل على إله هي مشتقة من شكل النجمة وتعني في الاساس « السماء » .

يوزع سكان بلاد الرافدين تعبدهم على آلهة لا عد لها . ويقر كل شخص ، مهما كانت منزلته ، بان له الها ومراراً إلهة ايضاً ينتظر منها رعاية خصوصية . وتظهر غالباً هذه العلاقة الفردية في اسم المؤمن حيث نجد الكلمة العادية « يا إلهي » « ربه » ، او اسم هذا الاله او ذاك مشفوعاً بتأكيد نظير هذا... هو حصتي « ... خلقه » ، او بدعاء شبيه بهذا « كن رحيماً » « اعطف علي » الخ ... ويلاحظ غالباً على الخاتم الخاص بكل شخص اسم او رسم هذا الاله ، الملاك الحارس ، او حادثة تمت الى طقوس عبادته او اسطورته . ولا ينسى المرء ان يستجدي حماية الاله بدعائه : « ليقف الهي عن يميني ! ولتنتصب إلهي عن يساري ! وليستقر ملاكي الحارس على جانبي ! » ولكن نظم الفرد ، منذ اقدم العهود ، مجموعة هذه الآلهة التي ينتخب منها من يشاء ، وذلك تبعاً لعاداته ومفاهيمه واحتياجاته كمخلوق اجتماعي .

في جميع الآثار ، المنقوشة منها والادبية ، يبدو لنا المذهب القائل إن للآلهة اشكالاً ومزايا الانسان ، كأنه قاعدة مطلقة . ولا نجد قط اي اثر لمبدأ التعاويذ (*Fétichisme*) . وقد نقى وتطور تطوراً عميقاً المذهب القائل إن النفس هي مصدر كل الامثال (*Animisme*) . وقد نلنا بعض دلائل لما يعرف بمذهب التوتيم *Totémisme* (قالت به بعض القبائل المتوحشة ، خاصة في اميركا الشمالية ، ويؤكد بان جسد الانسان هو حيوان معروف لديهم يقومون من ثم بتكريمه) ولكنها شديدة التشويه ويختلف العلماء في تفسيرها . وانعدمت في بلاد ما بين النهرين عبادة الحيوانات التي اكتسبت في وادي النيل اشكالاً واشكالاً : فلا حيوانات مؤلهة ، ولا كائنات نصفها على شكل انسان والنصف الآخر على هيئة حيوان : وليس الثور المجنح الذي يحمل وجهاً بشرياً الا روحاً للحماية يتمتع بسلطة محدودة . وقد يرافق حيوان مقدس آلهة ما : فنرى إشتار ومعها اسد تجره او تعلقه او تشده الى عجلتها ، ويشبهونها به . ولكن ليس للحيوان ، ان رافق الاله او حل محله ، الا قيمة رمزية او مجازية شبيهة بقيمة قرون الثور ، رمز العظمة ، المرسومة حول التاج الذي يكلل التماثيل الالهية . وهذا دليل على انه ان كانت الديانة قد عرفت مراحل سابقة في الزمن ، فهي تطورت وتجاوزت هذه المراحل منذ العهد السومري .

ان جميع الآثار المنقوشة اضفت على الآلهة الحقيقية لا بل على الارواح الصالحة او

الشريرة مظهراً انسابياً بحثاً ، واعتبرتهم من تم الميثولوجية مساوين في كل شيء للطبيعة الانسانية ، ماعدا الموت ، فاسندت اليهم العواطف والاهواء ، وتحدثت عن اسفارهم ومغامراتهم ، وبطمتهم فئات فئات ، فلكل اله زوجة او « السيدة » استولدها البنين والنات : ومن البديهي ايضاً ان يحد في الميثولوجية بعض الاختلافات ، فان وشائج القربى تتغير ، طبقاً للمكان وخاصة حسب الرمان ، تبعاً لتقلبات واهواء يستحيل عالماً تفسيرها . وتُعرف إشتار بانها ابنة سن من آنو ، ولكن في مكان ما او في فترة لاحقة يقدمونها لسا كانها ابنة آنو التي تصبح زوجة له . وتفسر لنا هذه الملاحظة الى اقصى حد التغييرات اللمة التي تطرأ على علم انساب كثير الترحج . وينشأحر الآلهة ويتحاربون ، وهم يبادلون الرأي في احتمالاتهم ، وقد يندم بعضهم ، ولكن لات ساعة مندم ، بعد ان يكونوا قد خضعوا لضغط الآخرين ، فلا يبقى لهم من ثم إلا ان يبكونا بكاء مريراً .

يستطيع الانسان ان يفسر ما يتحدى التفسير لاول وهلة . فان الآلهة والدول التغييرات التي تطرأ على الدولة تعكس الظروف التي تمر بها القوة النسبية للآلهة التي تحمي هذه الدولة وتعطف دوماً عليها دون ان يغدو لقوتها مع هذا مفعول ايجابي . ولكل مدينة اله او إلهة ، وهي تعتبر نفسها ملكاً لها او له ، كما تتحد معه او معها شبه اتحاد ذاتي ؛ وتحفظ المدينة له — او لها — بافخر هداياها، عربون عبادتها ، وثق به — او بها — لتعيين ملكها الذي بدوره يعرض قراراته ومشاريعه كانها فرضت عليه فرضاً من قبل الآلهة ، او اقله اوحت له بها . وهكذا فان آنو هو ، بالدرجة الاولى ، اله اوروك ، وأنليل رب نيبور، ونرغال معبود كوتا؛ وسن سيد أور، وشمش رب مدينتي لاغاش السومرية وسيبار الاكادية.

ويظهر هذا المثل الاخير كيف ان مدينتين قد تكرمان مراراً الإلهة الواحدة . ولكن حق في هذه الحالة لا يأخذون على انفسهم إلا نادراً ان يضيفوا الى اسم هذه الإلهة صفة خاصة ، كعندما يوضحون مثلاً « إشتار مدينة اربيل » لتمييزها عن إلهة اخرى اشورية تدعى بهذا الاسم كإشتار نينوى او إشتار اشور . ولا يعني غالباً هذا التشابه في الاسماء خداعاً بل يكشف عن صلة استعمار ، او بوجه افضل ، عن تفاعل ديني ، هذا ان لم نقل عن فتح حربي حقيقي . وان عرف سن منذ اقدم الازمنة بانه اله أور في بلاد الكلدان فقد اشتهر بعدئذ بانه اله حران ، في الشمال الغربي من بلاد ما بين النهرين ، عند منعطف الفرات : فكيف يتناسى المرء بان والد ابراهيم كان قد هاجر ، كما تذكر التوراة ، من اور الى حران ؟ ومع هذا فان مثل هذا النزوح او ايجاد مراكز جديدة لا يمان دوماً دون تحويل او تحوير في الجوهر او التعبير ؛ فإشتار التي عُرفت في بلاد بابل بانها إلهة الحب اساساً ، غدت في بلاد آشور ربة الحرب . ولكن وان مالت تارة لهذه الجهة وطوراً لتلك الناحية فقد عنت دوماً وبصورة التلازم هذين العنصرين .

ولذا يسهل التفسير كيف ان بعض الآلهة ارتفعت الى مصاف إلهة شعب او بالاحرى مملكة ، دون ان تبقى بصورة حصرية إلهة مدينة ما . وقد لازم هذا الارتقاء في المنزلة تطور المدينة التي اصبحت مركزاً سياسياً اكثر اهمية او عاصمة دولة . وهكذا فان اشور ، رب مدينة اشور ، اصبحت الإله الرئيسي لجميع الاشوريين ، حتى وان كانوا خارج المدينة التي تحمل اسمه ، ثم غدا اله الدولة الاشورية الاول ، بعد ان انتصر على آلهة الشعوب الغريبة المغلوبة على امرها . ولكن كيف نعرف في هذا المجال ان كانت حقيقة العقائد العنوية تعادل فعلاً العبادة الرسمية التي يبدونها العامل ؟ والحقيقة الواحدة الثابتة هي ان افراد سلالة سرجون قد اظهروا عبادتهم للاله اشور ، واعتبروه حامي سلطانهم وملهم تعلق الشعوب بهم . ومن الجائز طرح مثل هذا السؤال وفي الالفاظ نفسها فيما يختص بالاله مردوك ، رب بابل ، وقد اصبحت معبود الامبراطورية ايام حمورابي ، ثم بعد انقضاء الف سنة ، معبودها في عهد نبوكدنصر .

وترافق هذه التغييرات السياسية تقلبات قد تكون عاطفية ، وتفسر بعض التحويرات الميثولوجية وان هي لم تخضع مع هذا لمعطيات القياس . وهكذا يرتقي هذا الاله الثانوي ، بالاستناد الى حدث جديد ، الى مستوى رب آخر أعلى مقاماً ، بل يحل محله ان اقتضى الامر ويرتفع من ثم الى القمة . وهكذا فان إشتار ، وهي الزهرة الكوكب السيار ، وسيدة السماء ، و « ربة اللذة » و « سيدة الحب » و « إلهة الحرب والمعام » قد حققت ارتقاء مستمراً حتى ان آنو في مدينة اوروك انتخبها زوجة له .. قبل ان تحل محله : وقد طغى نجاحها على كل بلاد ما بين النهرين حتى اصبحت اسمها مرادفاً لاسم « إلهة » . ونجد نصوصاً ترتقي الى العهد الحمواري تروي لنا كيف تنازل اكابر الآلهة لصالح مردوك ، اله العاصمة بابل ، ومنحوه « ملكاً ابدياً » ، « الملك على العالم بأسره » . ففدا بل *Bêl* « السيد » . وقد كان سابقاً هذا اللقب والمركز لانليل . وفي « نشيد الخليقة » اغتصب نحو خمسين اسماً من اسماء الآلهة كما اختلس لنفسه في الوقت ذاته صفة خالق الانسان ، وقد كانت قبلاً لآبيه « إيا » اله اريدو . ولكن في وقت لاحق ، واستناداً الى نص هذا النشيد الاشوري ، استأثر اشور لنفسه بهذه المنزلة . وهكذا تعكس تعديلات الاسطورة ، مداورة بواسطة الآلهة ، مصير الجماعات البشرية المتقلب .

ان عرفت هذه الجماعات افول مجدها لأن الآلهة التي تكرمها قد تخلت عنها او الهيكل خضعت لآلهة اخرى ، فلا يعني هذا الامر بانها تنهار في جهودها للبقاء مع هذا على عطف الآلهة وذلك باستكشاف رغباتها ومن ثم تنفيذها ، إذ تعتبر هذه الجماعات بان عبادة الآلهة باصدق المعاني وادق المظاهر هي فرض لازم لا تستميتح لنفسها التهرب منه .

ويحتاج الاله كالانسان لمنزل له ولاسرته اعني الهيكل . وللهياكل كلها دون استثناء اسم مبتدئ في اللغة السومرية بحرف (اي E) وباللغة الاكادية بحرف « بيت » اي « البيت » . ففي بابل يملك الاله مردوك ال « اي - ساغ - يل *E-Sag-il* » اعني « المنزل ذو الرأس العالي » الذي

يرتفع بقربه حصن يدعى اي - تيمين - أن - كي E - Temen - an - ki اي « بيت اساس الارض والسماء » . ويشمخ عالياً في اشور « بيت اشور القطر » اي هيكل انليل ، كما يرى في « بيت العظمة » ، وهو سور كرّس لاشور ، « بيت جبل البلاد » . وعلاوة على ذلك ، وفي خارج المدينة ، يملك بعض الآلهة بيتاً ريفياً يجلبونهم اليه بمسيرة حافلة في موسم اعيادهم .

ويلزم لتشييد هذه الهياكل وترميمها او توسيعها جهد كبير ووفر من المال ساهم بها الملوك بصورة فعلية وليس فقط ادارياً ومالياً : إذ لا يستنكر الملوك من ان يتمثلوا ، كما حصل في لاغاش ، وهم يحملون على رؤوسهم قفة تملؤها مواد البناء . ويتبع البيت الحاق عدة : كالتخازن والاصطبلات للحياة المادية ، والجنائن والحدائق للترويح عن النفس . وتضاف اليه ايضاً مدرسة للكتابة ، ومخطوطات ومكتبة بغية تأمين الثقافة اللازمة لرجال الكهنوت .

ان هدف العبادة الرئيسي ، لارضاء الاله ، هو تغذيته وذلك بتقديم العباد ورجال الكهنوت المأكّل والاشربة التي تقررهما الكتب الطقسية ، في ساعات محددة واكثر من مرة في اليوم ، على طاولة مقدسة امام الصنم الالهي وسط الاراهير وادخنة البخور المنقي وسيول من الروائح العطرية . وسمحت كثرة ذبائح الحيوانات المنتخبة الاحتفاظ يومياً باحسن الاجزاء للاله ، واذ كان يحب التنوع في الطعام قدموا له لحوم حيوانات داجنة وبرية ، وطيوراً ، وبيضاً ، واسماكاً ، وتمرّاً واثمار عنب وتيناً ، وعسلًا ، وماء ، وجعة ، وخمراً وحليباً .

وكانت الاعياد كثيرة يحتفل بها بابهة عظمى تتخللها تطوافات تشترك فيها الجماهير التي تواكب التماثيل الالهية المحملة على العجلات .

وساد الحفلات ترتيب دقيق شمل الحركات والاناشيد ونصوص الصلوات « أدّ كل يوم واجباتك لالهك : الذبائح والصلوات والبخور اللائق ... قدم له كل صباح الابتهاال والصلاة والسجود وهو يهبك الكنوز ، وتنجح كثيراً بواسطة الهك ... إذ ان الذبيحة تزيد في الحياة والصلوة تطهر من الاثم » .

لذا افتقر كل هيكل الى العديد من رجال الكهنوت الذين قسموا فئات فئات . ففي القمة نجد الكاهن الاعظم الذي ينوب مناب الملك ، ثم جيشاً من مختلف الرتب : فهناك الرقاة والمنتحبون والمنشدون والسحرة والمنجمون الخ .. وهكذا فاننا نعرف اقله اربعين وظيفة كهنوتية . ونجد ، حتى في خدمة الآلهة الذكور ، الكاهنة العظمى والكاهنات ؛ خصوصاً كما نجد في هيكل إشتار بمدينة اوروك ، العواهر اللواتي يعرضن ذواتهن لتتيم طقوس تكريم الربة !

ويبدو بان رجال البيعة هؤلاء كوّنوا ، في كل المناسبات ، الوسيط الضروري بين المؤمن والآلهة . وقد لا نقف قط على فعل عبادة شخصية يقوم بها في منزله فرد علماني . ولم يمنع هذا الفرد من تأدية الصلاة ، ولكن هل من ثقة في جديتها ؟ وحتى هذه الصلاة أفما كان من الضروري

معرفة نصها معرفة تامة ؟ قد تضللنا الوثائق التي نعتمد عليها والتي لا تمت جميعها تقريباً إلا الى اصل كهنوتي . ولكننا نعرف ، ان اعتمدنا عليها ، بانه لم يكن يتم اي امر بدون خبير ، ولم يشترك جمهور المؤمنين في الحفلات الا خارج الهياكل التي كانت توصل دوماً في وجههم . فكلية « الداخل » - الى الهيكل - كانت تعني بالدرجة الاولى الكاهن الذي يساعد دوماً المؤمن الذي يسمح له بالدخول الى « بيت الآلهة » ، وذلك في مناسبات خاصة وللقيام بعمل محدد المعالم كالذبحة او التقدمة او استشارة عرافي الآلهة .

تعددت الظروف التي حتمت على المؤمن مراعاة رجال الكهنوت لقاء أجر السحر محدد . ووضعت الهياكل سحرها وعرافيتها في خدمة الجمهور وخدمة الملك .

والسحر والدين الرسمي متلازمان لا يفترقان . وترقب الانسان في كل لحظة من لحظات حياته اشراك ونحوس ومحالطات دسة ، وشياطين ينشرون الاذى - « السبعة » - مجموعات السبعة - وينفذ اوامرهم سحرة وساحرات ، يترصدون في كل مكان ويوقعون نالف مصيبة ، حتى يغدو المرض شكلاً من اشكالها . واتقاء لشرهم يستنجد الآلهة والملوك بالارواح الحارسة ، هذه الثيران المجنحة ذوات الرأس البشري المهيبة والحنون ، والتي تنتصب امام ابواب الهياكل والقصور . ولكن لا يبطل حضورها مع هذا شر الشياطين ، بل نجد لهذه الغاية طقوساً كثيرة العدد والتنوع من النضح بماء التطهير الى تلاوة الصلوات الى اعمال الرقي الاكثر تعقيداً .

ومن الضروري اجراء المقتضى على الشخص بالدات ، وتطهيره من الخطايا التي يكون قد ارتكبها ، او من الهفوات التي قد اقدم عليها بصورة اللاوعي ضد الاخلاق الانسانية والقيم الدينية ، او من اعمال السحر التي يكون قد تعرض لها . ويجب اتمام الطقوس على كل ما يخصه او يحيط به حتى اصغر ممتلكاته المنقولة العادية كالكرسي والسرير او الطاولة . وتشمل هذه الاعمال ايضاً زوايا بيته ومنعطفات الطرق وثقوب الحفر . ولبلوغ هذا الهدف تتوالى الصلوات والمزامير والادعية . ولكنهم مع هذا قد يحرقون الطقوس المشار اليها على الرسوم والنقوش التي تمثل الشخص المعني ، او حتى ايضاً على اشياء اخرى تلقى من بعد الى النيران او الكلاب . ويستعملون كذلك مواد نافعة شرط ان تعتبر مقدسة من حيث جواهرها او من الطقوس التي اجريت عليها : كالزيت النقي ، « المقدس » ، المطهر الآلهة الذي يسمح فيه المرضى خاصة . وهكذا يأخذ السحر وكأنه من صميم الدين مجراه الى علم الطب .

لا تقل العرافة شأنها واهمية ، وهي تهدف استكشاف نيات الآلهة ومن ثم الخضوع لها وتنفيذها اكثر مما تسعى لايضاح مصير مقدر لا مرد عليه . ويصبون ايضاً في هذا المجال الى التأكد من ان الظروف ستكون سعيداً او شؤماً على المشروع الذي يفكرون به . وهكذا يسعى الانسان ، وهو يحيا في خوف دائم من التأثيرات المضرة التي تحيط

العرافة

به ، لمعرفة الخطر حتى يتخذ حالة دفاع امنع فيجعل حياته اكثر نقاوة او يستجدي عوناً اشد فعالية .

وللوصول الى هذه الغايات المختلفة تصبح جميع الوسائل صالحة شرط ان يقوم بتنفيذها خبراء يملكون مجموعات مخطوطات عملية دونت فيها قواعد واساليب تقليد يغيب في ظلمة القدم . وان تتابع الاحداث الشديدة التنوع والتي لوحظت بكل دقة وسجلت بفائق عناية ، سمح بتقرير قوانين التوافق السري بين مجالات تبدو غريبة بعضها عن بعض . ولكل شيء معنى ، لم يتضح بعد ولكن من الممكن كشف القناع عنه يوماً ما ، إذ لا ينفرد في العالم اي امر : بل يكفي ان يُحدد الاطار ، الفعلي او الرمزي ، الذي يدخل ضمنه الحدث مهما كان تأفها .

لذا تعتمد العرافة اساليب عدة . وتقعدو الاحلام ، واضحة كانت ام بحاجة الى تأويل - وقد ارسلتها الآلهة دون شك - بمثابة انذار او نصح او أمر . ويراقبون حالات وحركات المعننين والاشخاص الثالثيين والحيوانات ، فزجر الطير وتوج الماء واللهيب يعطيان افادات لها مغزى ونفع . وقد يستحصلون ايضاً على مادة التفسير بمزجهم الزيت والماء ، ويفحصون خصوصاً فحوصاً دقيقاً جداً امعاء وكبد الحيوان الذي انتخب للذبيحة . وعرفت هذه الطريقة الاخيرة - اعني فحص الكبد - رواجاً اكثر من سواها . وافاد كثيراً ايضاً درس هذا الجهاز بهذه الطريقة لمعرفة معرفته واسعة من حيث علم التشريح . لذا اكثرؤا من صنع اكباد خزفية وحتى نحاسية استعملوها كآلات للمقابلة حتى يستطيعوا تفسير اي حالة غير طبيعية مهما كانت دقيقة .

ان اعتبار بعض كبار الآلهة متحدة اتحاداً ذاتياً مع كواكب معينة ، علم التنجيم وتفوق العالم الفلكي وآلهة السماء الذي اقترته الشعوب منذ اقدم العصور ، شجعاً على مراقبة الاحداث الفلكية مراقبة دقيقة ، اذ هي تنبئ عن الاحداث الارضية المقبلة وتسيرها وتسيطر عليها : لذا وجب معرفة الصلة المتينة الكاملة التي تربط بين ما يجري في السماء وما سيحدث على الارض .

فالخسوف يخبئ تهديداً ما ، لذا غدا من المفيد معرفة زمن وقوعه ، حتى يبذل الجهد لتدارك نتائجه او تخفيف وطأته جهد المستطاع . ولم تظهر مصادفة الغمامة التي تحول دون ملاحظة الهلال في اوائل الشهر ، ويخضع مصير الانسان لهيئة الابراج ومقتضى اوضاعها وقت مولده . وما الفيضانات والانتصارات والهزائم الحربية ، والامراض الحيوانية ، والابوثة السارية ، والامراض الشخصية إلا تعبير مادي عن حسن استعداد الآلهة او غضبها ، وعن المعارك التي تنشب فيما بينها او ضد القوى المعادية لها .

لذا فباستطاعة الذي يراقب الفلك بصورة مستديمة وعلمية ان يستكشف كل شيء . وان جمع هذا المراقب الى علمه كمفسر لا تفوته شاردة او واردة صفة اللاهوتي والساحر والكاهن غدا بإمكانه ان يعين بكل تأكيد الطريق الواجب اتباعها لتجنب الالم او العوز المدقع ، ان لم يكن

ايضاً طريق الخلاص والازدهار . ولكن لا يدعي احد بانه يملك مثل هذا العلم الدقيق المتبصر . ومع هذا يُدوّن علماء التنجيم دون ملل او وهن في مخطوطات الهياكل الملاحظات التي يقفون عليها اثناء ابجائهم . لذا تقدم مباشرة مراقبة الطوالع والادلة السماوية مواد لا تحصى ، تحرّر منها ، بوعي او بغير وعي ، علم الفلك الاولي .

انقرضت ديانة بلاد الرافدين قبل الديانة المصرية . وحافظت
معطيات ديانة
بلاد ما بين النهرين المستديرة
هياكل اوروك ، احدى اقدم المدن السومرية ، على دورها التقليدي
اكثر من سواها . وكما يحصل غالباً عند نزاع الحضارات الهزلي ،
يلاحظ المرء عند هذه الجماعات الكهنوتية الخاضعة لسلطان الملوك اليونان ، في القرنين الثالث
والثاني قبل المسيح ، ارادة ملحّة للعودة الى الماضي السحيق ، وجهداً كبيراً لحياء اشكال
الحياة الدينية الاكثر قدماً مع معارضة كل تحوير قرره العرف والتقليد . ولكن الزوال محتم ؛
وتعود آخر وثيقة ذات صبغة دينية – وتدل على ملاحظة فلكية – الى القرن السابع ق.م .
اما الصمت الذي يلي فيعني دون شك اضمحلال هذا « المجمع » الكهنوتي ، اضمحلالاً طبيعياً .
وهكذا تكون ديانة بلاد ما بين النهرين قد دامت قرابة ثلاثة آلاف سنة .

ولا نعتقد بان هذه الديانة قد منحت المؤمنين بها الكثير من الفرح . فقد عاشوا تحت وطأة
الخوف الذي اوحى اليهم به والذي كان ينسج بصورة الزومية من فكرة العالم الالهي الذي
صورته لهم . وبقيت المبادئ الاخلاقية والادبية التي قالت بها تلك الديانة تدور في حلقة
ضيقة وقد خلت من كل فكرة عقاب او ثواب في عالم آخر بدا كالحلأ للجميع ، كما اضعفها
الاعتقاد بخطيئة مجهولة يرتكبها الانسان دون وعي . وغدت هذه التعاليم ، كما يظهر ، سلبية
قبل كل شيء ، اقله فيما يختص بالعلاقات مع الآخرين . وان اكتفين بمجموع السؤالات التي كان
يطرحها الساحر الباحث عن اسباب المرض الذي يريد ان ينقذ المؤمن منه ، وجدنا بان الواجب
الايجابي الوحيد المفروض هو تحرير اسير او اطلاق سراح مكبل . اما الآثام الاخرى التي بحث
عنها فهي السرقة والاهانة والعنف . وقبل ان تتلاشى هذه الديانة بزمان طويل كانت حضارات
عدة قد نشرت تعاليمها الاخلاقية متخذة اساليب واهدافاً اكثر اختلافاً وشمولاً .

ولكن مع هذا لم تندثر تلك الديانة تماماً عندما مالت نحو الافول قبل بدء عصرنا بقليل ،
إذ ستعرف امور السحر والتنجيم والرقى – وقد اشتقت جميعها من تلك الديانة – اتساعاً زاهراً
في العالم القديم . فقد لاقى « الكلدانيون » في رومة – ولم يكن لهم دون شك من الصفة
الكلدانية إلا الاسم وممارسة بعض الاساليب التي هزلت قيمتها الى مرتبة وصفات مبتذلة –
منزلة عادت عليهم بالنفع مع ما كان لهم من سمعة غير مستحبة . ومن جهة ثانية ، ان اعتبرنا
الصعيد العقلي او بالاحرى العلمي ، فان علمي الطب والفلك كانا قد استفادا كثيراً من الملاحظات
الدقيقة التي جمعت دون ملل في هياكل بلاد ما بين النهرين

وهكذا فقد غدا لبعض المظاهر التي ثمت الى ديانة السومريين والساميين الشرقيين قوة فاعلية مستديمة .

ثانياً - الاكتشافات الفكرية

الوثائق احتفظت الهياكل ، كما رأينا ، اطول زمن ممكن ، بالكتابة الخاصة بحضارة بلاد ما بين النهرين . وتقاسم الهيكل والقصر ، طوال المدة التي استمرت فيها هذه الحضارة على حيويتها ، تثقيف الكهنة والاستفادة منهم . ولم يفقد هؤلاء المثقفون ، حتى عندما عملوا لمصلحة الافراد او ككتبة عدل ومؤلفين للجماهير ، صفتهم كموظفين او خدمة عند الآلهة . ولدينا عدد لا حصر له من الوثائق الخطية الكلدانية والاشورية . ولم ينشر الكثير منها بعد ، ولكن قد تكشف لنا دراسة الموسوعات التي جمعت منها منذ امد بعيد نصوصاً في غاية الاهمية مرّ عليها لغاية اليوم مرور الكرام . ولكن مهما تعددت اهداف وفحوى هذه الوثائق ، فان لمعظمها صفة ملكية او دينية ، لا بل ان للكثير منها الصفتان معاً .

الكتابة المسارية ان تعقيد كتابة بلاد الرافدين يفوق تعقيد الكتابة المصرية ، وهذا ما يسهل لنا تفسير الحالة التي ألحنا اليها اعلاه . ولا نستطيع ان نجزم باسبقية زمنية لهذه الكتابة او لتلك . وتشير بعض الآثار التي عثر عليها مؤخراً في بلاد ما بين النهرين ، بان البدء باستعمال هذه الكتابة قد يعود الى النصف الثاني من الالف الرابع . وانطلقت الكتابتان من نقطة متشابهة : رسم شكل يمثل الشيء او الكائن الحي او الفكرة ، ولكن اسهم استعمال الخزف كمادة للكتابة في بلاد ما بين النهرين في تحويل الرسوم التصويرية الى جموع اشارات ضمت بعضها الى بعض على الهوى ودون نظام . وقد نحدد الشكل الاصيل الذي انبثقت عنه بعض هذه الجموع ، ولكن يستعصي حل تفسير الكثير منها : فهناك حالات يرى فيها بعض العلماء يداً تحمل صولجاناً ، بينما يتحدث عنها علماء آخرون بانها تمثل مركباً يعلوه شراع ، او برحاً للمراقبة يستند على ركيزة .

وتشبه كل علامة مساراً ذا رأس عريض ، كمسار البيطار . وكان الكاتب يرسم هذه العلامة بواسطة قصبة حدد رأسها بشكل منحن او مثلث الزوايا يغرزها في البدء غرزاً قوياً في الخزف ثم يسحبها بخففاً بصورة تصاعدية الضغط على احدى الزوايا . وتكون هذه المسامير « الجوانب » العلامات للكتابة المسارية . وقد تكون أفقية او عمودية او منحنية ، ومراراً صغيرة الحجم جداً ، تتشابهك معاً عندما تعود الى جمع واحد . وقد رسمت اولاً على الخزف مما يسهل تفسير الامور . وبعد ان استقر اسلوب الكتابة هذه بزمان طويل سعوا لحفر العلامات المسارية على المعدن او الحجر ، فغدا من ثم ممكناً الاحتفاظ بالشكل التمثيلي للرسم الاصيل ، كما حدث ذلك

في مصر . ولكن مع هذا استمروا على استعمال الخزف بسهولة الحفر عليه وكثرة وجوده . وكان يكفي ان يبقي الكاتب هذه المادة الخزفية رطبة قليلاً ولدنة . وحفظ 'تجفيف' صفائح الخزف في الشمس او شيئا الوثائق المكتوبة من اي تحريف او تزوير . وعالماً ما اعطوا هذه الصفائح شكل لوحات مستديرة او مسطحة او قائمة الزوايا .

وصعوبة الكتابة المسماة متأدية عن كثرة عدد جموع العلامات . ولم يتعد تقسيم الكلمات المقاطع الصوتية التي فاقت من ثم دون شك عدد الحروف . ونتجت هذه الصعوبة ايضاً من تنوع المعاني الممكنة لكل جمع من العلامات ، كما حدث ذلك في الاشارات الهيروغليفية المصرية . فقد يعني الجمع قارة فكرة وطوراً مقطعاً صوتياً ، كما قد يدل ايضاً على صفة ، ويختلف معناه ان وضع قبل جمع آخر او بعده .

تضاف الى الصعوبات اعلاه تلك التي تنتج عن تنوع اللغات .
اللغتان السومرية والاكادية
ويشعر المرء بحرجة الموقف في حال الاختصار وفي حصر الامور على وسط بلاد ما بين النهرين ، أي بعد التفاضل عن الاقطار والشعوب المغلوبة ، وعن وثائق جهات ايران الجنوبية الغربية العيلامية ونصوص « بوغاز - كي » في آسية الصغرى .

لقد حدد السومريون معالم الكتابة المسماة . ولم تندثر لغتهم إلا رويداً رويداً مع تفوق الساميين عليهم عدداً ونفوذاً . وبقيت وقتاً طويلاً تستعمل خاصة في النصوص الدينية التي تحافظ اكثر من سواها على التقاليد القديمة . لذا وجب على كل كاتب ، جدير بهذا اللقب ، ان يفهم ويقرأ ويكتب لغة ميتة ، مهما كانت بواقصها ثابتة كعدم ليونتها وخاصة قلة وضوحها .

وللاستعمال العادي او السياسي تغلبت لغة سامية الاصل ، متماز امتيازاً عظيماً بليونة قواعد صرفها وبوضوحها وبمقدرتها على تأدية مختلف انواع الفكر مهما كانت دقيقة : أعني اللغة الاكادية التي لم تكن اللغة الاشورية الا شكلاً من أشكالها . ولكن منذ البدء تبنتى الكتاب الاكاديون جموع علامات الكتابة السومرية . وان هم احتفظوا بمعناها للتعبير عن فكرة ما فانهم مع هذا عدلوا قيمتها كصوت حتى يعطوها القيمة الصوتية للمقطع الذي يعبر عن الفكرة نفسها في لغتهم الخاصة . ونتيجة لذلك فان نفس جموع العلامات الذي كان له ثلاث معان في اللغة السومرية ، اصبح يلفظ بصورة مختلفة اختلافاً كلياً في اللغة الاكادية ويدل من ثم على معنى حقيقي مختلف جداً .

لذا أصبح التدرب الدقيق والطويل ضربة لازب على كتبة المستقبل . وكان من ثم لازماً عليهم ، حتى ولو اقتبسوا ثقافة عالية جداً ، ان يرجعوا في ممارسة مهنتهم الى كتب ومستندات تدلهم على المعاني المختلفة التي كان ممكناً ان يدل عليها اي جمع من العلامات في اللغتين السومرية والاكادية .

وتجدر الملاحظة بأن هذه الصعوبات قد ولدت نتائج مماثلة تقريباً لنتائج شيوع الطباعة والتعليم البدائي في عصرنا الحاضر . فهي وضعت على اقل تقدير حداً لتطور اللغة ، خاصة اللغة المكتوبة ، هذا ان لم تمنع الامر منعاً باتاً . وسعى الكتبة ، وقد اشبعوا من التقاليد ، لحماية هذه اللغة جهد المستطاع من التحريف ، ونجحوا تقريباً في هدفهم . ولم يلاحظ حقاً اي انحراف الا في عصر لاحق : وقد زال تصحيح الاشكال الصرفية اثناء السيطرة اليونانية في القرن الثالث قبل عصرنا . ولكن لم تعرف اللغة الاكادية الا تغييرات طفيفة جداً مدة ثلاثة آلاف سنة تقريباً ؛ ولا يسعنا طبعاً ان نبدي حكماً فيما يختص باللغة المحكية .

اللسنة الاراميه
تفسر هذه الصعوبات وذلك الثبات وذاك التمسك المقصود بالقدم النجاح الهائل الذي لاقته في الألف الاول قبل المسيح لغة اخرى : اللسان الاراميه . وقد نجد اسباباً اخرى لتعليل هذا الفوز . فالقبائل ، وهي سامية ايضاً ، التي نطقت بهذه اللسان انتشرت في مختلف مناطق آسية العليا تقريباً . . . ولعب الاراميون دوراً تجارياً هاماً مما ساعد على انتشار لغتهم التي عدت والحالة هذه شبه لسان « عمومية » اخضعت لسلطانها رويداً رويداً مختلف اللغات التي استعملت في المنطقة والتي لم تنجح أي منها في فرض نفسها خارج نطاق الشعب الذي اتخذها لسان وطنية . ورافق انتشار الكتابة الاراميه توسع اللسان الاراميه ، واتخذت عن الفينيقيين أبجدية ابسط بكثير من الابجدية المسمارية ، وكتبت بالحبر على مواد أخف وزناً واسهل تداولاً من الخزف كالرق او البردي . ومنذ القرن الثامن كتبوا على لوحات مختصراً باللسان الاراميه للوثيقة التي سجلت بكاملها بالكتابة المسمارية . واستخدم الملوك الاشوريون في قصورهم « كتبة على الرق » ، اعني للكتابة باللسان الاراميه ، و « كتبة على اللوحات » اي للكتابة باللسان الاكادية . وغدت الاراميه ، اثناء الحكم الفارسي ، لسان الإدارة ، واضحت من ثم اساس وحدة الامبراطورية السياسية .

ولكن لسوء حظ المؤرخين العصريين ، فان البردي والرق هما اقل مقاومة لعوامل الزمن من لوحة الخزف المشوية أو فقط المجففة ، ومن ثم عرضة للزوال اكثر منها .

المؤلفات الادبيه
قدمت اللوحات والنقوش على الحجر أو النحاس بصوصاً مختلفة المواضيع . فمنها ما هو قانوني : القوانين ، الوثائق القضائية ، العقود المختلفة النواحي . ومنها ما هو اداري : المراسلات الرسمية ، مستندات المحاسبة . ومنها ما هو تاريخي : سجلات الملك ، تقارير وجهت لاله عن غزوات شنها العاهل ، اخبار المدينة او الهيكل . ومنها ما هو ديني : الصلوات ، والمستندات عن المؤسسات الخيرية ، والتقارير عن مراقبة النجوم او احشاء الذبائح ، والرقى السحرية الخ . ولكن للبعض من هذه الوثائق الكثيرة العدد والشديدة التنوع نفس شعري أو نفحة أدبية . وهكذا باستطاعتنا ان نتحدث عن أدب بلاد ما بين النهرين ، هذا الأدب الذي لا يخلو من روائع .

ولا تخلو بعض كتابات ملوك الاشوريين التي تسرد لنا مغامراتهم الوحشية من عظمة فطة . ويحدد تغلتفلसर الاول نفسه قائلاً : « هار مشع يسهر سناه الماطق الاربع ، شعة وهاجسة تهيمن على البلد العدو كطير الزوبعة » . وهوذا اشورناييبال يخبرنا عن اجتياحه مدينة سوره وبلاد سوسه : « في شهر من الايام اخضعت عيلام في كل مساحتها ؛ وضعتُ حداً في اريافها لصوت الانسان ، ولوقع حوافر القطيع الصغير والكبير ، ولهتافات الغبطة ، وتركتها مسرحاً لمار الوحش والابل وجميع اصناف الحيوانات البرية » . ولا تنقص هذه الامثلة الدرة الملحمية والخيالات التصويرية والاستعارات .

وقد تنتهي هذه التصاوير بالغموض ، خاصة في النصوص الدينية ، التي تجنح عالباً نحو السر . وباكراً جداً ، ولربما منذ العهد السومري او على اقصى تقدير في عصر حمورابي ، بدأوا ينسجون الاساطير الميثولوجية ويدونونها . وقد توالى الكتابة احياناً بعد اجيال ، ولقرون عدة ، على نسح هذه الاساطير دون ان ينحشوا تحريفاً او تحويراً . وتعد هذه الاساطير اساس ادب بلاد ما بين النهرين الكلاسيكي .

ستوقف هنا على نشيد من هذه الاناشيد ، وهما مشهوران
الانشيد الميثولوجية الكبرى
بصورة خاصة وعن استحقاق . والاول هو « اوما اليش » اي
« عندما في الاعالي... » ، ودعي كذلك نسبة للكلمات الاولى . وقد دعاه المعاصرون ايضاً
« نشيد الخلق » ، لانه يجبرنا كيف تنظم العالم خارج الفضي الاولى . واول الامر تميز الماء العذب
عن الماء المالح ، وعدا الواحد شفعاً للآخر ، ثم ظهر الصوت او العقل وكان لها خادماً . ومن
هذه الاوليات ولدت الالهة ، زرجاً زوجاً ايضاً . وثار بعضهم على بعض ، وبعد عراك لا هوادة
فيه انتصر اقدمهم - وقد يتغير ، فهو مردوك في الاسطورة البابلية ، واشور في الرواية الاشورية -
وغدا من ثم منظم العالم ، خالق الكائنات الارضية ، اي الانسان والحيوان .

ثم « ملحمة غيلغميش » التي تحكي لنا في روايات عدة مغامرات مؤسس مدينة اوروك
وملكها ، وهو انسان حقيقي ولكن ألهته الاسطورة . ونجد في هذه الملحمة ايضاً قصص صيد ،
وسرد معارك ، وحوادث عراك ضد الوحوش ، واخبار الطوفان ، وقصة السطو على النبات
الشائك الذي يؤمن فتوة دائمة ثم فقدانه ، وذكرى اخي سلاح قدمات . ويكفي هذا المختصر
« المفيد » ليوحى لنا بالصدى الذي لاقتته هذه الملحمة خارج بلاد الرافدين . وليس من
العيب دون شك ان نأخذ بعين الاعتبار المقارنة التي تفرض نفسها بين هذه الملحمة وذاك الفصل
من سفر التكوين او من الاوديسه *Odyssée* او من اسطورة هرقل .

منذ عهد حمورابي انشأت بعض الهياكل مكاتب حيث حشرت اللوحات ، وقد
المكاتب
صنفت بعناية استناداً الى موضوعها ، في سلال تحمل عناوين من الخزف ، حسب
مبدأ استعمال ايضاً لتصنيف المخطوطات وحفظها .

وقد قام بعض الملوك بهذا العمل ايضاً في قصورهم ، غير ان ايتاً منهم لم يظهر في هذا المجال جهداً او مثابرة مثل اشوربانيبال الذي كان يفخر بأن الآلهة وهبته « كل علم الكتابة » . وكان يأمر موظفيه كي يتحروا عن الوثائق والكتابات ويرسلوا الى القصر الاصول او أقله نسخاً عن كل النصوص الطقسية والدينية والسحرية والفلكية والتاريخية الخ . وكان يختتم رسائله بنصائح من هذا النوع يبعث بها الى ممثله في بروسيا في بلاد الكلدان : « وان وجدت بعض لوحات او نصوص طقسية لم اطلبها منك واعتبرتها مفيدة لقصري ، فانتخب وارسلها الي » . واستطاع العلماء الانكليز ان يكتشفوا في خرائب نينوى ألوفاً من اللوحات التي تعد اليوم من أغنى ثروات المتحف البريطاني .

ويثبت جمعها في قصر اشوربانيبال الاحترام العميق الذي كانوا يبذونه لكل عمل حققه العقل البشري في الاجيال السابقة وترك له اثراً مكتوباً . وغدت هذه اللوائح موضوع غزو كالحيرات المادية فهي تغني المرء دينياً وعلمياً . ولم يتوفر مثل هذا الاهتمام في أي عصر منذ ان وجد الانسان ، وسعى بعضهم لتأسيس امبراطوريات . ويعتري هذا السعي دون شك شيء كثير من الخرافات الدينية . ولكن يظهر المدى الذي وصل اليه بأنه اخذ يصبح علمانياً . وهو يعبر من ثم عن توق لمعرفة جامعة يحذر على اي ان يسخر منها .

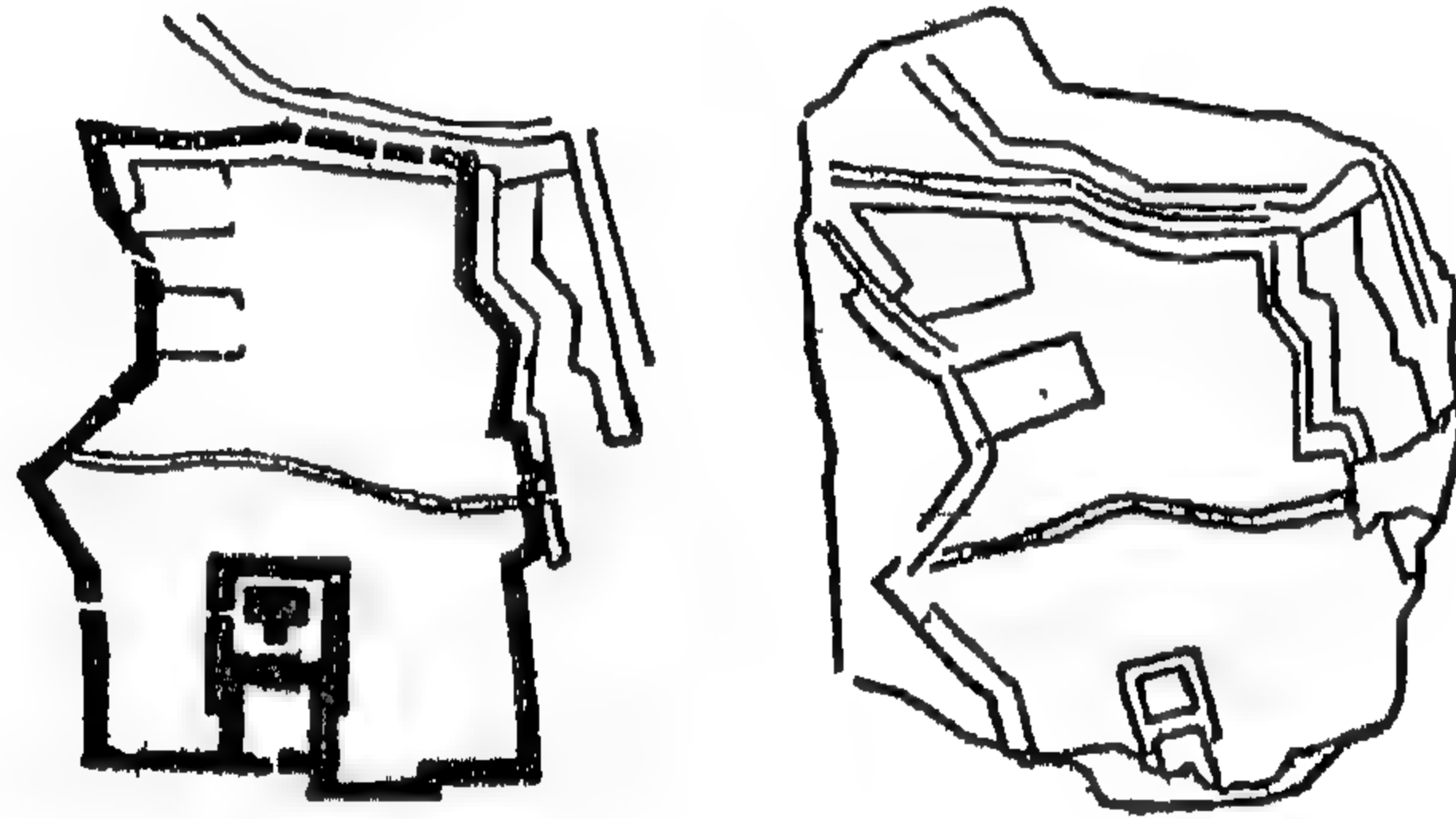
رأينا كيف تفتح الدين عن علوم تشابكت مع معارف اخرى وان العلوم : الطب وعلم الفلك لم تتعد هذه وتلك المهد فانها مع هذا ذات اثر وقيمة .

وعالج الطب المريض ، كما لو انه ارتكب اثماً او مسه شيطان أقله . لذا لم يلس قط اللجوء الى الطقوس الدينية لينقذه من الروح الشريرة . ولكن بدأ رويداً رويداً يقرن الى هذه الأساليب أدوية معدنية أو نباتية أو حيوانية ، فعالج بالنبات والنحاس والرماد والدم والبول والشحم والزيت ومواد اخرى ووافق لاستعمالها بين تعاليم التجارب ومعطيات السحر ، اذ ، مع تحديده الكلمة التي يجب ان تعطى ، لم يتناس المناسبات الطقسية للبحث عن هذه المواد واستعمالها . وسأقت مراقبة طوابع الفلك والاشارات التي تدل على ارادة الآلهة الموافقة او المخالفة الى علم النجوم . فدرسوا الكواكب وراقبوا حركاتها الظاهرية واتفقاها مع شروق وغروب الشمس فحددوا من ثم السمات ومنطقة الابراج ، وتوصلوا الى نتيجة على جانب عظيم من الأهمية اعني التقويم السنوي .

واتتبع دوماً هذا التقويم السنة القمرية ، وجعل بدء الشهر يتفق مع ظهور الهلال . ولكن غداً لزاماً ان يضاف من وقت الى آخر الشهر الثالث عشر وذلك لاعادة التوافق مع فصول السنة . وكان الملك يقرر هذا الادخال بالاتفاق مع السحرة . واخيراً ، وعلى اكثر تقدير سنة ٧٤٧ ق.م . عرفوا بأن عدد ايام مئتين وخمسة وثلاثين شهراً قمرياً يعادل بالتدقيق عدد ايام تسعة عشر عاماً شمسياً . وهكذا أضافوا سبعة اشهر قمرية بعد مرور فترة تبلغ تسعة عشر عاماً . ولكن متى تجري

هذه الاضافة ؟ واستمر القصر يصدر الاوامر بذلك . ولم يعين مبدءاً وقت الزيادة بصورة مستديمة الا اثناء السيادة الفارسية سنة ٣٦٧ ، إذ قرروا اضافة الشهر المشار اليه ست مرات في الربيع ومرة في الخريف في بعض السنوات المحددة في دور يعد تسعة عشر عاماً . وهذه نتيجة فضلى سمحت للمؤرخين العصريين ان يعرفوا ، بالاستناد الى علماء الفلك ، تحديد كل تاريخ يذكره التقويم البابلي دون ان يتجاوز الغلط الممكن يوماً او يومين - وذلك باعتبار الايام التي حالت فيها طبيعة السماء دون مشاهدة الهلال الجديد .

الرياضيات وعلم الموازين
فرض استعمال نتائج علم الفلك هذا معلومات رياضية جمة . اذ كان السومريون فعلاً قد اكتشفوا واستعملوا نظاماً « ستينياً » كاملاً وفتق معه فيما بعد نظام عشري . وقد طبق مراقبو النجوم هذا النظام بسرعة ودقة لا مثيل لهما في العصور القديمة قبل يونان القرنين الرابع والثالث .



الشكل ١١ - رسم نيبور

١ - على لوحة مسبارية ؛ ٢ - حسب اعمال التنقيب الحديثة

واخترعوا باكر جداً نظاماً للموازين والمقاييس قورن ، نسبة لما فيه من توازن داخلي ، بنظامنا المتري - وكان ذلك نتيجة حتمية لما بلغته الحياة الاقتصادية من اتساع ومدى ، اذ يستحيل ان تلتشط التجارة والملكية العقارية دون وجود عيارات ثابتة ، واتخذت الوحدات الاساسية من قياسات الطول - ومن تربيع احداها كوّنوا سلسلة مقاييس المساحة ومن تكعيب اخرى اوجدوا سلاسل المكاييل للاجسام السائلة والجامدة . واشتقت سلسلة الموازين من حجم كمية ماء .

وتسهيلاً للحساب وضعوا جداول معينة . وكان هناك نماذج من اعمال حسابية او هندسية وضعوها لها طرائق حل : وهكذا توصلوا الى حل اعمال من الرتبة الثانية والثالثة ، بتطبيق قواعد عملية سهلة .

قاسوا بدقة المسافات والطرق ، ووضعوا الرسوم الهندسية للمباني والقنوات
عالم الطبيعة وحتى المدن . وقد اثبتت افعال الحفريات التي اجريت في نيبور دقة رسومهم .
ووصلت اليها خريطة عن العالم ، قديمة جداً دون شك ، وهي تضع ولا جرم بلاد ما بين النهرين
في وسط الارض . ويمتد حوالها المحيط او « النهر المر » ، وعلى مسافة ابعد تنبسط اراض اخرى ،
ارض الشمال المدعوة « البلاد حيث لا يرون الشمس » ، ولكن من غير الحكمة ان نفكر بان
البابليين عرفوا الليل القطبي .

وهل بالامكان التحدث عن العلوم الطبيعية ؟ ان مثل هذا التعبير دون شك هو من الكلفة على
شيء كثير . ولكن لدينا اقله عدة جداول قديمة العهد للنبات والحيوان وضعت دون شك بكل دقة .
ولا يكشف النقاب دوماً عن المبدأ الذي هيمن على هذا التصنيف ، لا بل يبدو انه اعتمد
على المظاهر اكثر من اللازم كعندما صنفوا مع الحجارة نواة التمر او الرد . ولكن هناك جهد
واضح للاتيان بتصنيف وتنظيم عملي : فيجمع جدول واحد النباتات التي تحوي القلي ، والتي
يمكن استعمالها كتوابل الخ .

العلم والسحر في العمون
ذهابا من المواد التي تقدمها الطبيعة درجت الصناعة المعدنية والكيمياء
اولى خطواتها .

وكان الحديد اولاً نادراً ، اذ يستعملون فقط الحديد الذي يجدونه صالحاً للاستعمال ، خاصة
الذي يمت اصلاً الى النيارك ، لذا حصروا استعماله لصنع الحلي ؛ لا بل قد يرصعون الذهب فيه .
ولكن ، حوالي آخر الالف الثاني ، اتسع مدى استعماله اذ عرفوا كيف يستخرجونه من المعدن .
واقصبل بهم هذا الاسلوب من اوروبة ، وقد حملته الى بلاد ما بين النهرين ، والى كافة اقطار
الشرق ، الشعوب التي بدأت تفقد منذ القرنين الخامس عشر والرابع عشر ؛ واقتبست بلاد
الرافدين هذا التقدم اما باحتكاكها مع هذه الشعوب او لانها تعرضت الى غزواتهم ، فغدا
استعمال الحديد فيها امراً عادياً منذ الالف الاول .

وبالعكس فان كيفية صنع الزجاج الذي تزينه المينا هي اقدم بكثير ، ولدينا نص مكتوب
لهذه الطريقة وهو يحدد المواد الواجب استعمالها وكميتها المفروضة . ويعود هذا النص الى اوائل
الالف الثاني ، وقد كشفت لنا اعمال التنقيب القناع عن لوحات زجاجية من هذا النوع تعود
الى عصر اشد قدماً : فلا عجب والحالة هذه ان غدا هذا النص نسخة او اقتباساً من نص
يفوقه قدماً .

ويسود هذا النص غموض مقصود : فان كاتبه اتخذ ، وقد اراد ان يسجله خطياً ، كل تحفظ
وحذر كيلا يكشف القناع عن الاسرار التي يحويها ، اذ تحتفظ هذه الصناعة بعري وثيقة مع
السحر والعرافة ، كما هو الحال ايضاً دون شك في الصناعة المعدنية حيث نلاحظ اقله مثل هذا
الحذر : اذ لا يحذر العمل إلا في ايام معينة وساعات محددة ، بعد مراقبة بعض الدلائل ،

والتلفظ ببعض الكلمات . ولا يجب ان يقودنا هذا القول الى علم الكيمياء : فالطريق ، وهي حتى الآن واحدة ، لم تتفرع الا في وقت لاحق فقط فظهرت لنا اذ ذاك طريق ثانوية ستؤدي بنا الى « العمل الكبير » .

هل نُدخل في الأدب او العلوم او الفنون الاختراعات القانونية التي أوجدها
الحقوق : العقود
سكان بلاد ما بين النهرين ؟ ولا نحيد عن الطريق السوي ان اعتبرناها ضمن
أي من هذه المجالات ، أو ضمن مجالات أخرى أيضاً ، اذ أجبرنا على التحدث عنها اكثر من
مرة . وعلى كل حال فانها حقاً مؤثرة .

تظهر لنا الاتفاقيات المسجلة على اللوائح ، مهما توغلنا في القِدم ، قانوناً خاصاً في غاية التطور ،
وبالدرجة الاولى في كل ما له علاقة بالعقود ونقل الملكية . وتكفي ضرورة تثبيت شروط أي
عمل من هذا النوع بصورة خطية ، تحت طائلة البطلان ، لدعوة العقل الى تنظيم منطقي في
مختلف الميادين ؛ وقد اكسبت هذه الضرورة الاعمال المحكي عنها صفة الثبوت والتأكيد الحقيقية .
ولم تتعثر هذه العقود بنظام مفرط من القيود الشكلية . ولكن حوت هذه القيود ، مع التحديد
الواضح للفرقاء والموضوع ولشهود الاتفاق ، بعض التأكيدات التي تتناسب وتحليل العقد المنوي
اجراؤه كعمل قانوني تحليلاً دقيقاً وبيان المصالح المتضاربة وما قد ينشأ من منازعات .

تبدو القوانين ، ومنها ما يعود الى اواخر الألف الثالث ، اكثر وقعاً
القوانين : قانون حمورابي
في النفس ايضاً . وقد زادت الاكتشافات الحديثة عددها : ففي
سنة ١٩٤٨ نشرت بعض اجزاء الشرائع التي سنّها بيلالاما ، احد ملوك اشنونا ؛ كما أُشير سنة
١٩٥٢ الى شرعة أور-نامو ، وهو من ملوك أور الذي يفوق بيلالاما قدماً . ولكن كل هذه
السنن هي دون قانون حمورابي أهمية وشهرة .

وبكل تأكيد فان هذا الصيت متأثر جزئياً عن المسلة العظمى التي عرّفتنا بهذه الشرائع .
ويدعو تاريخ هذه المسلة الى العجب افحوا الى سنة ١١٧٥ ق.م. ساقها شوتروكناخوتته ملك سوزه ، كجزء
من الاسلاب التي غنمها من بلاد بابل ؛ ووجدت سنة ١٩٠٢ بين انقاض عاصمته ، وقد قامت بهذه
الحفريات البعثة الفرنسية في بلاد فارس ، مما اكسب متحف اللوفر حق ملكيتها . وتدعو الى
العجب ايضاً هذه المسلة بحد ذاتها ؛ وهي عبارة عن اسطوانة من الحجر الاسود الصلب مخروطية
الشكل يبلغ ارتفاعها ٢٤٢٥ م ودائرة قاعدتها مترين . وفي اعلى وجه المسلة نرى نقشاً يمثل الملك
واقفاً في وضع المتعبد امام شمس ، اله الشمس . والعدالة ايضاً ، تدلنا عليه شرارات تقدح من
كتفيه . وتغطي كامل وجه النصب رموز مسبارية صنعت على شكل عمد ، أتى الفاتحون على
بعضها بالمطرقة ، كما طرق ايضاً القرص الشمسي الذي كان يعلو هام الاله ! ويعد النص
نحو ٣٦٠٠ سطر .

ولكن بصرف النظر عن هذا النصب الذي لم يكن وحيد دهره اذ كشفت اعمال الحفر ، في

سوزه ايضاً ، نسخة عنه ، فقد اكتسب هذا القانون شهرة حقوقية فائقة في كل اقطار الشرق الادنى . ونسخ هذا القانون على لوائح ولاقى رواجاً في اقطار بعيدة جداً عن بلاد ما بين النهرين واثّر من ثم في قوانين شعوب غريبة عن امبراطورية حمورابي .

وقارن اكثر من معاصر هذه الشرائع مع قانون بابوليون . وتسري هذه المقاربة دون شك ان اعتبرها انتشار هذا القانون ومدى تأثيره ، ولكنها قد تقود الى الخطأ فيما يختص بمفهوم النص وروحه . فبعد استهلال ، يعتبر قطعة ادب ديني وسياسي ومعنوي رائعة ، يعلن « محاكمات عدالة » تهدف الى « اقامة الحق في البلاد » وقد قررها حمورابي ، « ملك الحق الذي وهبه شمس العدل » نقرأ ٢٨٢ قضية . ويبدأ معظمها بهذه الكلمات « لما كان ... » ثم تحدد كل منها حالة عملية معينة ، وتنتهي بقرار يحكم بها . وان نحن اعيننا على هذا التشبيه الذي اقره الزمن ، باستطاعتنا ان نعتبر هذه القرارات كمواد قانون ، صيغت بلغة في غاية الدقة والوضوح ، تقضي جهد المستطاع على كل إشكال وغموض . وان نحن لاحظنا ترتيباً سببياً في تصنيفها ، فاننا نعجز مع هذا ان نتحدث عن مواد قانونية وضعت بصورة منطقية متراسة تسير لنا ان نرى من خلالها تطبيق نظام شرعي بالمعنى المحصور .

اننا نلصق دون شك بعض الاتجاهات العمومية : تثبيت استمرار الاسرة بواسطة الولد ، تأمين الملكية مهما اتخذت من الاشكال الح ، ولكن نلاحظ ايضاً امتزاج مبادئ تختلف لابل تتناقض . فمثلاً نرى العقاب او التكفير ، ومبدأ دم بواء دم او التعويض . وبصورة تبدو مستهجنة يطبق هذا المبدأ او ذاك تبعاً لمركز الصحة الاجتماعي : فالرجل الحر الذي حطم اسنان رجل حر يفقد اسنانه ، ولكنه يكتفي بدفع ثلث « كيل » فضة ^(١) الى من دونه رتبة وحدث له مثل هذا الضرر ؛ والذي يسبب باعتداء اجهاض وموت ابنة رجل حر يشهد مقتل ابنته ، ولكنه يدفع نصف او ثلث مثقال فضة ان كانت ضحيته ابنة عبد او شخص دونه رتبة . ونرى مثل هذا التفاوت في مجال التحقيق : تقبل الادلة وتعد البينة الشخصية منها مع تقرير عقاب صارم للشهود الكذبة ، ولكن قد تعرض اليمين « امام الاله » ، اعني يطلبها الاله ، او الملك ايضاً ، لابل يلجأون في بعض الحالات الى اساليب التعذيب فيلقون في « الاله - النهر » اعني الفرات من اتهم باستعمال السحر او المرأة المتهمه بالزنى . ونلصق بكل سهولة من خلال هذا الوضع اثر تطور في الحق الجزائي او الآداب ، لا يزال مستمراً ، تباطأ هنا وتقدم هناك .

وهكذا فاننا بالاحرى امام مجموعة قرارات ملكية - وليس قوانين - لحل بعض حالات تبدو غالباً على جانب من الصعوبة واللبس ، لا بل منها ما هو لربما وهمي وغير حقيقي : وتعرض علينا هذه القرارات كأنها اجتهادات محاكم وذلك لتوحيد احكام القضاء . واكثر ما يمكننا قوله باننا امام كتابة تقاليد قانونية كانت تنفذ لذاك التاريخ في وسط الامبراطورية ، ثم قررت الارادة الملكية تعميمها على جميع المناطق التي تهيمن عليها .

١ - يعادل الكيل ٥٠٥ غرامات من الفضة .

وبقي علينا في هذا المجال ان نعرف جواباً لسؤال قد بطرح: هل نفذت دوماً هذه الاوامر، وحمورابي لا يزال حياً؟ اذ نرى اكثر من لوحة، فيما يختص بالعقود، لا تتقيد بنصوص هذا القانون، وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بان العادة المتبعة او ارادة المتعاقدين قد احتفظتا بقوة اشد من الاوامر الملكية.

وتُظهر لنا عوامل مماثلة قوانين بلاد الرافدين الاخرى، التي يرتقي بعض منها الى زمن اشد قدماً. وتعتبر كلها عن جهد ملحوظ هو اجتماعي واقتصادي اكثر مما هو علمي. وقد اراد واضعوها ان يكسبوا مختلف علاقات البشر المبدأ القانوني، ويضفوا عليها صفة الشرعية والتأمين، ولكنهم لم يخلقوا، لا بل لم يلحظوا هذه الربط المسندة الى القياس العقلي الذي هو القانون.

وتفرض ملاحظة مماثلة نفسها على معظم مجالات نشاط حضارة بلاد ما حدود الجهد الفكري بين النهرين العقلية: فهي لم تتعد حدود التجربة والعمل. لقد أجاز علماء بلاد الرافدين المراقبة الدقيقة، وسجلوا ملاحظاتهم بسداد واحكام ضمير. وهم قد صنفوها وقابلوا بعضها ببعض. ولكنهم لم يستنتجوا من ذلك الا سلسلة من السوابق الواقعية والنصائح العملية، ولم يرتقوا في اي مجال الى الجو النظري المجرد، ولم يسعوا الا لمعرفة اسباب ما لاحظوه.

حتى ان الرياضيات نفسها، وهي علم نظري في الدرجة الاولى، اتخذت معهم مجرى غير مجراها: لقد استوقفهم المسائل الرياضية، وأشاروا الى الطرق الواجب اتباعها لايجاد حل لها. وهكذا توصلوا الى هذا الحل الصحيح، ولكنهم لم يعللوا ذلك قط علمياً ولم يحلوه، بل اكتفوا بانهم وجدوا سر النجاح، وذلك دون شك بعد ان تلمسوا الحل مرة بعد مرة او اجرؤا التجارب المتعددة. وينطبق هذا القول على مختلف مجالات معارفهم. وهكذا فان معارف بلاد ما بين النهرين بقيت عملية بحتة - حتى انها لم تصبح تجريبية، مع ان المبدأ التجريبي يعتمد في بعض مظاهره على الاختبار - ولم ترتفع الى مستوى التنظيم القياسي.

وكيف يمكن ان تكون الحالة على غير هذا نسبة الى العرى الوثيقة التي كانت تشد العلم الى الدين؟ فقد اعتبروا العلم كأنه الهام او وحي، كأنه هبة يمنحها هذا الاله او ذاك الى الانسان. لذا اكتفى الانسان بالمراقبة والتطبيق: وما كان عليه ان يفقه الكنه والسبب.

وننتج الجمود عن هذا الوضع العقلي بصورة لا مفر منها. وحيث ان المعرفة هي هبة من الآلهة فلا بد بانهم منحوها، باكرأ جداً، الى الاجيال القديمة التي سبقت الجميع في مجال التقوى والطقوس الدينية. لذا غدا واجب الجيل الحاضر الرئيسي جمع عناصر هذه المعرفة وتسليمها الى الغير، ومن العبت من ثم ان يطمع الى زيادة شيء عليها، وكما هو الحال فيما يختص بالعقائد والاعمال الدينية، الذي لا تكون معرفتها الا أمراً تبعاً، فان الكمال محصور في الماضي وليس في المستقبل.

ومن هنا نجد تفسيراً لهذه النسخ التي لا عد لها ، وهذا التردد المستمر ، وهذا الخنوع لاعادة ما كتبه السلف . وفي هذا الفصل لم يرد إلا نادراً ذكر الاشوريين ، وبصورة شاذة بصفاتهم مخترعين . فهم وقفوا أنفسهم على جمع تراث فكري وصيانتته جهد المستطاع . ولجهود اشوربانيبال التي هدفت الى جمع كل ما كتب سابقاً في مكتبة قصره بنينوى مظهر رمزي : فليست معرفة جميع الامور التي يسعون لتسهيل اكتسابها نقطة انطلاق نحو خلق آفاق جديدة اوسع مدى ، ولكن يعد هذا الاكتساب هدفاً نهائياً بمحد ذاته . واعتُبرت بابل في عهد حمورابي مثلاً يحتذى به . وقد جمع فيها حقاً كنز زاه من الثروات العقلية . ولكن الى اي حد غدت هذه الثروات ، حتى في القسم الاول من الالف الثاني ، فتحاً جديداً حققه البابليون معاصرو تلك الحقبة ؟ قد يكون فضلهم ضعيفاً جداً اذ اثبت اكثر من اكتشاف حديث بان ما نقله وجمعه كتبة حمورابي يعود الى ماض سحيق ، ليس فقط من حيث الاصل بل ايضاً من حيث النسخ المباشرة التي اخذوا عنها .

الفصل الرابع

الأثار الفنية

لن يعجب احد اذا وجد بان فن بلاد الرافدين قد ساهى ، منذ بدء وجوده الى آخر عهده ، الحدث الدينى والحدث الملكى ، ويرجح الاول كثيراً على الثانى اذ يتغلغل فيه ويكون دوماً له سنداً : فالدين هو دائماً مصدر الوحي الجزئى اقله للفن ، هذا ان لم يكن غالباً المصدر الوحيد . ولا يحسب أي حساب للعبد القائل « الفن للفن » اذ يقتضى بالدرجة الاولى ان يستجدي المرء نعم الآلهة باظهاره تعبده لهم . ولا يتنكر قط الملوك لهذا الامر ان هم شيدوا الهياكل او وضعوا فيها تقادمهم التي تفوق تقادم المؤمنين السذج أو أقاموا وزينوا منازلهم الخاصة . وهكذا ، واذ لم تنتج ضرورة تأمين الحياة في العالم الآخر اي فن مستقل — حتى ان قبور اور « الملكية » مدينة بقيمتها الفنية لااثاثها ، الذي هو اثاث ارضي ولا تهم تاريخ فن العمارة الا لأنها تثبت استعمال الحنية والقبة باكرأ جداً — فان الهياكل والقصور هي الابنية الوحيدة المهمة ، لا بل الهدف الوحيد للفن الذي تنحصر رسالته بتشيدتها لى سكانها وحراستهم ومجدهم ومسورهم .

مع ان كلمة « فن » تفوق كل مستوى في هذا المجال ، يرغب المرء مع هذا المدن والحصون ان يتمثل التجمع المدني في شكله المادي لهذه الحضارة حيث لعبت المدينة منذ اقدم العصور دوراً هاماً . ولكن سرعة عطب مواد البناء وتنضيد المساكن المتتالية في نفس المواقع مدة آلاف من السنين لا يحيزان لنا معرفة البيوت وتنظيم المدن الداخلي معرفة حسنة : ولا يتعدى ما نجده اليوم ، ليصبح مادة بحث ، انقراض المباني الكبيرة التي يصعب جداً مع هذا تفسيرها لما حل بها من ترميم وتبديل . وباستثناءها فالسور هو عنصر الهندسة المدنية الذي يسهل معرفته اكثر من غيره .

ومن الطبيعى بأن يأتي الاشوريون في هذا المجال بتحسينات ملموسة ، ان لم يكن بامور جديدة كلياً : اذ غدت الحرب همهم الرئيسى بشكل لم تعرفه اي جماعة بشرية سكنت بلاد ما النهرين . واذ سعوا لحماية سيادتهم ضد الثورات الداخلية والغزوات فانهم اكثروا الحصون وحولوا بالأسوار قصور ملوكهم . وورث عنهم هذه الاساليب ملوك الدولة البابلية الجديدة ،

حتى ان اعمال الدفاع التي أقاموها حول عاصمتهم أثارت ، في العهد الفارسي ، إعجاب المسافرين اليونان :

وكان للمدن القديمة دون شك أسوار مستديرة الشكل تقريباً تشبه أزقة ضيقة تتشابك دون اي نظام . وغالباً ما احتفظ الملوك الآشوريون بما وجدوه ليس فقط في المدن التي أخضعوها وأقاموا فيها الحاميات ، كتل برسيب (وتعرف اليوم بتل الاحمر) على منعطف الفرات ، بل ايضاً في المدن الوطنية القديمة كمدينة اشور . وقد استرعى الانتباه ما قاموا به من اعمال فنية حتى على هذه المواقع القديمة ، اذ يعجب المرء مثلاً لكثرة وجودة حصون اشور : ارصعة من الحجر والآجر المشوي على طول دجلة واحدى القنوات ، وحفرة نحو السهول قد تملأها المياه يبلغ عرضها عشرين متراً وعمقها خمسة عشر متراً ؛ واسوار من الداخل والخارج يبلغ ارتفاعها نحو اثني عشر متراً تتخللها ، كل ثلاثين متراً تقريباً ، ابراج ناتئة ؛ وقلاع ضخمة في الاماكن المعرضة للخطر النخ .

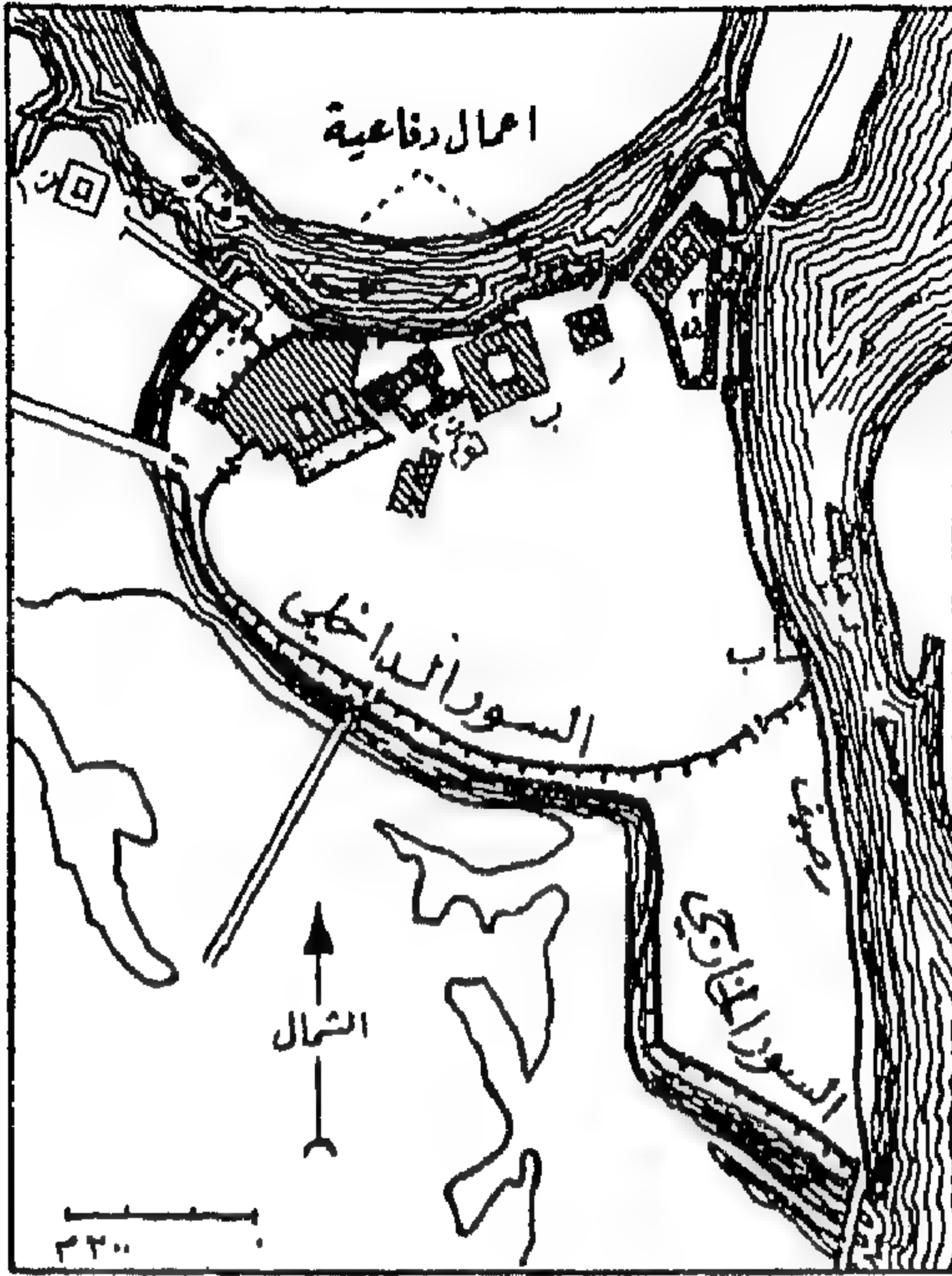
ويزداد التقدم وضوحاً عندما ينشئ الملوك مدناً جديدة ويكونون اذ ذاك احرار التصرف . وقدمت لنا حفريات خرساباد اشهر مثل على ذلك في قصر شيده سرجون الثاني حوالي اواخر القرن الثامن يدعى دور - شروكين اي « حائط سرجون » . وقد حلّ هنا الشكل الهندسي المتوازي الاضلاع محل الشكل المستدير وان لم تظهر هنا الصفة العمودية كاملة ، خلافاً لما اعتقده المنقبون منذ مئة سنة ، فان مجموع البناء يشكل رسماً هندسياً واسعاً مربع الاضلاع وقائم الزوايا تقريباً ، يبلغ عرضه نحو ١٨٠٠ م وطوله ١٧٠٠ م ومساحته ٣٠٠ هكتار . ويشمخ على اساس من الحجر حائط من اللبن يتجاوز ارتفاعه وعرضه عشرين متراً ، ونجد خارج الحصن حيطاناً عدة ذات زوايا ، وسبعة ابواب منيعة وعدداً من العرصات والغرف والمنحنيات تحمي مداخل المدينة (الشكل ١٣ صفحة ١٩١)

ومهما بدت خرساباد جبارة ، فلا شيء يفوق من حيث العظمة والضخامة اسوار مدينة بابل الخارجية التي شيدها نبوخذ نصر ، وهي ايضاً مربعة الاضلاع تمتد على طول ١٨ كلم تقريباً ، مع حيطان مزدوجة يلتصق بعضها ببعض تعززها الابراج . وعلاوة على هذا كان يحدد سور آخر المدينة الداخلية ، وهي اقل مساحة ويلجون اليها بأبواب ضخمة مزينة ومتينة ، أهمها اليوم باب إشتار (الشكل ١٤ صفحة ١٩٧) لانه حفظ بحالة احسن من سواه .

وفي كل ناحية شيدت البنايات العظيمة كالهياكل وخاصة القصور الملكية لتصبح معاقل الدفاع الاخيرة ، وقد كوّنت بحد ذاتها قلاعاً تستطيع ان تقاوم زمناً طويلاً كل حصار ، اذ ارتفعت حولها الاسوار بما فيها من ابراج ذات شرافات ومرام .

واستنفد هذا الجهد البشري والفن الهندسي دون جدوى ، اذ املت دور - شروكين ، مما يفسر لنا كيف حفظت الى يومنا بصورة تمت الى الاعجوبة . واستولى المنتصرون الماديون

والبابليون على اشور ونيوى ودمروها وجعلوها طعمة للنيران . ووقعت بابل بدورها في قبضة الغازي الفارسي ، وتقترن اسطورة بلشاصر « مناتقل وفرسين » باسطورة كومة حطب سردانا بال . ولكن يظهر وجود هذه الاساطير الى أي حد سيطرت سطوة الامبراطرة



الشكل ١٢ - مدينة اشور

قبل تدميرها بوقت قليل في اواخر القرن السابع قبل المسيح
ب ، قصر ؛ ت ١ ، بيت اكيثو « بيت السنة الجديدة » بيت الاله
اشور اليفي ؛ ت ٢ ، مجموعة اربعة هياكل ويملك احدها زقوراتين ؛
ت ٣ ، « بيت جبل البلاد » هيكل الاله اشور الكبير ؛ ز ،
الزقورات الكبرى كرسى في اول الامر لأنيل ثم لأشور .

الاشوريين على الخيلة . وسيقتبس فن
اقامة الحصون عند اليونان الكثير
من مثيله الذي ازدهر في حوضي
دجلة والفرات .

ويسري هذا التأكيد ايضاً على
فن تشييد المدن وقد فرض السيد
رسماً منسقاً للمدن التي شيدها أو
جدها ، اذ ان فن بناء المربعات
الهندسي هو من وضع بلاد ما بين
النهرين الشرقية : ولم يجد
هيبوداموس رجل ميله *Milet* ،
عندما قرر تصاميم بيره *Pirée* في
القرن الخامس ، الا في نقل هذا الفن
للمرة الاولى الى اوروبة . وقد اعطى
الاشوريون الرسم والمثال للأعمال
الفنية الضرورية لتجمع بشري كبير .
وجلب سنحاريب الى نينوى
مياه الجبال بواسطة قناة حملها
فوق واد « جسر من الحجارة
البيضاء » يبلغ طوله ٢٨٠ م ،
وعرضه ٢٢ م ، وارتفاعه ٩ امتار .

ولكن تبقى كل هذه الامور قليلة الاهمية نسبياً ازاء الاكتشافات المدهشة حقاً ، غالب
الاحيان ، والتي ازاحت الستار عنها اعمال التنقيب التي اجريت حيث شيدت القصور والهيكل .
وقد بذل البناؤون لوقاية هذه الابنية جهوداً وتضحيات مادية اكبر ، كما غدت ملاحظات علماء
الآثار اكثر دقة وقد اجروا اعمال تنقيبهم في مساحات صغيرة لان هندسة البناء الديني والملكي
فاقت دون شك عظمة واهية كل هندسة وبناء آخر ولا تزال كذلك .

هناك عامل مادي له تأثير فعال منذ اقدم العهود ، تساعد على استمراره
ظروف مختلفة حتى ولو لم يعد له من سبب حقيقي .

استعمال الخزف

وتخلو بلاد ما بين النهرين السفلى من الحجارة ، وغاباتها قليلة جداً ، لذا غدا لزاماً على الانسان الذي اراد تشييد بناء ضخيم ان يعتمد الى الحزف ، ويصنع منه خاصة لبناً يحفظها في الشمس ويكدها كداساً افقية تلتحم بعضها الى بعض بواسطة رقع من القصب او القش او الزفت . ولم يستعملوا اللبنة المشوية الا بصورة استثنائية في الامكنة المعرضة الى مياه المطر او الانهر ، وكان يلزم لصنعها مواد محرقة . ومن الاكيد بان بلاد الاشوريين كانت اغنى بكثير بالمواد الصلبة من سهول الجنوب الرسوبية ، ولكن غدت حضارتها ، بواسطة بابل ، وريثة الحضارة السومرية ، لذا احتفظت بتقاليد نشأت في مكان آخر وتحكمت فيها عناصر طبيعية اخرى . وقد عملت الفكرة الدينية على تقوية هذا الاستمرار اذ ساد الاعتقاد بان كل حكمة ، املاها الوحي ، تحدثت من السومريين .

وهناك اعتبار آخر ايضاً : سرعة الاعمال وسهولتها . وقد طبع كل ملك سني حكمه بطابع اعمال شخصية وسعى والحالة هذه الى تخليد اسمه فشيده او اصلح مباني تشهد على تقواه وقوته . وهكذا غدا فن النقش عند الاشوريين اكثر ابتكاراً اذ تصرف بصورة اوسع مدى بهذه الحجارة التي اجبر السومريون والاكاديون على جلبها من مكان بعيد وبتكاليف مرتفعة عندما ابوا ان يكتفوا بالحصى الكبيرة التي كانت تحملها الانهر . ولكن لم يحدث الفن الاشوري في مجال هندسة البناء اي تجديد اذ اكتفى بما هو سريع الزوال شرط ان يكون عظيماً ؛ لذا لم يستعمل المهندسون الحجر الا لوضع الاسس . وقد شيد الملوك العظماء على اقل تقدير قصرهم وهياكل عدة ، وهذا ان لم نقل مدينتهم الخاصة كما فعل سرجون الثاني في دور - شروكين .

غدا لاستعمال اللبنة القليلة الصلابة نتائج تقنية اصبحت مع الزمن تقاليد محترمة
النتائج
حقى عندما زالت الضرورة الاولى .

والنتيجة الاولى الاكثر ضرورة هي ايجاد كوم من التراب الاصطناعية وذلك لحماية اسس المباني العظيمة من خطر الفيضانات . وكان على سطحها المنحني ، والذي يغطيه ان دعت الحاجة الزفت او الآجر المشوي ، ان يوجه الماء نحو بواليع اعدت في هيكل هذه الكوم . ولاعطاء فكرة عن ضخامة هذه المباني التي شيدت يكفي القول ان سطح قصر سرجون في خرساباد الذي يغطي مساحة تبلغ نحو ١٠ هكتارات قد ارتفع اكثر من ١٥ متراً ويساوي تراباً منقولاً يبلغ حجمه نحو مليون ونصف من الامتار المكعبة .

ولجعل الجدران اكثر صلابة غدا لزاماً ان تبني سميكة جداً . وهي تضيق كلما اتجه المرء صعوداً من الاساس الى القمة . وانعدمت النوافذ تقريباً ، الا - لربما - عند السقف اذ ارادوا تقليل ، جهد المستطاع ، نقاط الضعف في هذه المباني الضخمة . ووجب على الابواب ، وكان بالامكان جعلها اكثر ارتفاعاً دون كبير ضرر ، ان تؤمن الحاجة الى الهواء والنور . وكانت لزاماً ايضاً ان تنفتح على الهواء الطلق ، لذا وجب الاكثار من العرصات الكبيرة والصغيرة داخل البناء .

ومن هنا يتأتى الشعور بالضخامة الهائلة التي تظهرها المباني الكبيرة . واذ امتدت على مسافة طويلة - وكان من الخطر ان تتوالى الطباق ولم يجرؤ احد حقاً على هذه المغامرة ، حتى في الزقورات - ظهرت كل من هذه المباني ، ان اعتبرنا الخط المستقيم ، ككومة ضخمة شبيهة الى حد ما بجرم متواز ومستطيل السطح ، حفرت فيها بصورة واضحة ، من القمة الى الاسفل ، حفراً على شيء كثير او قليل من الشكل المكعب .

وهذا ما يفسر لنا الجدران التي قامت على وتيرة واحدة . لذا سعوا باكرأ جداً لان يصلحوا الحال وذلك بتبني نظام الحائط المربع الزوايا او نصف الدائري الذي يتخذ اذ ذاك شكل ركن مربع او عمود منتقص . وعمدوا ايضاً الى تغطية المساحات العمودية او المسطحة بمربعات الفسيفساء او الاجر المشوي المطلي بالطين بشكل عادي او نافر ؛ ولحأوا ايضاً الى تغطيتها بمادة تشبه الرخام ينقشون عليها الرسوم ، او اخيراً ، وفي بلاد الاشوريين ، باسنادهم اليها نقوشاً بارزة من الحجر المنحوت . واكسبت هذه الاساليب تشابكاً في الالوان على تلك اللوحة السمراء التي لا مفر منها . وخيم داخل القاعات ظلام خفيف اذ لم يتسرب اليها النور الا قليلاً ؛ والحق يقال ان هذه العتمة اللطيفة التي تدعمها صفاقة الحيطان كانت تحمي من الحر الذي يشتد كثيراً جداً في ذاك الاقليم .

أثار السقف مشاكل لم يوفقوا في ايجاد حل لها . ولم يكن لشكله الأفقي السقف ودعمه كبير أهمية : وحالت كمية من الزيت دون تسرب الماء منه في بلاد خف مطرها . ولكن لم يكن للقوم خشب . واستعملوا للمباني الصغيرة ، كالببوت مثلاً ، نظام القنب . وعرفوا ايضاً نظام العقد واستعملوه للقنوات والجسور ولكن لم يعثروا الا قليلاً على آثار من عقود السقف في انقاض المباني العظيمة . لذا احبوا كثيراً استعمال قطع كبيرة من الاخشاب حصلوا عليها من جذوع الاشجار . ولا شك في انهم اتوا بها ، ان دعت الظروف ، من الغابات البعيدة ، خاصة من سورية مستعينين بالفرات : وتقضي نقوش عدة على كل شك بخصوص شهرة أرز لبنان . ولكن لزمهم والحالة هذه عدد كبير . واكتفوا غالباً بأخشاب قصيرة ، مما اجبرهم من ثم على تقليل عرضها .

واستعمال الآجر لاقامة العمد التي تحمل السقف امر في غاية الدقة . ولعدم توفر اساليب فنية للحصول على الآجر المشوي استحال على هذه العمد ان تصبح متينة ان لم يعمدوا الى زيادة قطرها ، وهذا ما كان يعيق الرؤية في القاعة .

لذا لا نجد للضخامة الخارجية مثيلاً في الداخل ، في مقاييس القاعات او العرصات ؛ وغدا من الصعب جعلها فخمة الا في مجالي الطول والعلو ، وذلك ببذل جهود جبارة استثنائية . ولكن اوحى قصور الآلهة والملوك التي تهيمن على المدن فكرة اجمالية بوجود سطوة تفوق قدرة الاشخاص العاديين .

الهيكل ان الهيكل هو بيت الآلهة ، أعني بالوقت ذاته ، القصر والحصن ، وذلك بعد ان زالت الازمنة الدولية الوضيعة . وتشاهد على ركب أحد تمثالي الملك « غوديا المهندس » لوحة تحمل رسم الهيكل المنوي تشييده : انه رسم حصن منيع ، اذ يحيط بالهيكل الكلاسيكي سور له أبراج لحماية الآلهة وخدامها وكهنتها وكنوزها ضد أي عدو .

ويفرض دور الهيكل الاقتصادي ، وقد رأينا اعلاه اهميته ، وجود منازل ومكاتب للأشخاص ، كما يحتم وجود اصطبلات واهراء ومخازن وكنوز . وفي كل هيكل كثر عدد بيوت العبادة بالمعنى الحضري اذ زيدت مع الزمن دور خصصت لآلهة أخرى استضافتها الإلهة الوحيدة او الإلهتان الرئيسيتان . وهذا ما يدعو دوماً لتغيير هندسة الهيكل . ومع هذا لكل إله رئيسي نجد دوماً تقريباً باحة مخصصة للاحتفالات الدينية تشرف على قاعة نجد في اقصاها الغرفة الالهية السرية بمحصر المعنى حيث لا يدخل الا الكهنة والملوك وحيث يرتفع تمثال الإلهة .

البرج ذو الطبقات تشتمل كل الهياكل الكبرى ايضاً ، في احدى روايا سورها او على مقربة منها ، على بناء خصوصي يعبر احسن تعبير عن حضارة بلاد ما بين النهرين : الزقورات (Ziqqourat) وقد درج المعاصرون على تسميته « البرج ذو الطبقات » . ومع الاختلافات المحلية المتعددة التي طرأت على هذا المبنى ، نراه دوماً « عالياً » - وهذا معنى كلمة الزقورات الاصلي - تقل مساحته ذهاباً من الاساس الى القمة .

وهندسة هذا البناء معروفة : سطوح تعلو بعضها بعضاً تضيق مساحتها باستمرار كلما ارتفعت ، تصلها مع بعضها البعض سلالم او درابزونات . وان ارادوا اعداد قاعات فيها فلا يتوفر لهم ذلك ، في كل سطح ، الا على الجوانب ، وقيمون لها ابواباً تطل على الاعمدة الجانبية التي تتوسط الاجزاء ؛ اذ وجب الامتناع عن اجراء اي ثغرة في جسم البناء الاساسي وذلك لتأمين متانته .

وكان عدد السطوح عرضة للتبديل : فهو سبعة ، حسب احد النصوص ، لا « اي - تيمين - أن كي E - temen - an - ki » ، اي « بيت اساس السماء والارض » ، الذي ارتفع بالقرب من الا « اي - ساغ - ايل E - sag - il » ، اعني « البيت ذو الرأس العالي » ، او هيكل مردوك في بابل ؛ بينما اوهصل هيرودوتس هذا العدد الى ثمانية ، وقد اعتبر دون شك الجزء الذي هو بمثابة الاساس ، ونجد ان هذا الرقم هو سبعة في مواضع أخرى ، بينما لا يبلغ الا الاربعة او الخمسة على بعض النقوش . واختلفت ايضاً المقاييس : فهي تزيد قليلاً عن التسعين متراً طولا وعرضاً وارتفاعاً الا « اي - تيمين - أن كي » ، بينما لا تزيد الا القليل عن ١٦٠٠ م لبرج خرساباد التي لا تزال باقية سطوحه الثلاث السفلى ؛ وهي لا تتعدى ٦٤ م و ٤٣ م للطبقة الاولى ، وهي الوحيدة التي يسهل قياسها ، من برج اور الذي يرتقي الى الالف الثالث .

وحقيقة تفسير تشييد هذا النوع من المباني لم تفرض بعد ، ويجول عدد السطوح الذي يندل هنا وهناك دون اعتباره متصلاً بالكواكب السبع السيارة التي عرفها البابليون ؛ وخصصوا لكل منها طبقة طلوا كلاً منها بلون مختلف . وذكر هيرودوتس انه كان يوجد في القمة « بيت للعبادة وضع فيه سرير كبير وعليه اغطية ، ومحابه طاولة من الذهب » . وقد قضت فيه ليلتها وحيدة امرأة من المدينة « اختارها الاله من بين جميع النساء » . ويرعم سترابون ان سكان بابل اعتبروا الاليم - تيمين - أن - كي قبراً لمردوك ، بينما اورد ديودور الصقلي انهم استعملوا الرقورات كمرصد . اما بعض المعاصرين فرأوا فيه « مكاناً عالياً اصطناعياً » . ومن الجائر اختيار اي من هذه الحلول ، ان لم يكن من الواجب دمجها معاً .

ولكن فانتفاء التفسير الاكيد فلا يغرب عن البال الجهد المادي الذي بذل والاثار الذي تركه مثل هذا البناء طوال العصور القديمة . ولم تعرف بلاد بابل ، وقد خضعت للبرثيين قبل عهد اوغسطس بقرن ، تدفق السياح اليونان والرومان الذي اشتهرت به مصر ، لذا لم تعم اساطير هذه الانقاض العالم القديم كما انتشرت الاساطير التي احدثتها الاهرام الكبرى او تماثيل ممنون الضخمة . ولكن تظهر الدهشة في تعابير هيرودوتس الذي زار الاماكن ، كما تظهر في كتابات سترابون وديودور الصقلي اللذين لم يأتيا اليها . وتحدثنا التوراة عن برج بابل الذي شيده حبروت بني آدم الذين توخوا « تخليد اسمهم » والحؤول دون تشتتهم . ومنذ القرن الثاني عشر من عصرنا ارادوا ان يتعرفوا الى هذا البرج من خلال خرائب « بيت قواد السماء والارض السبعة » الذي كرسوه للاله بانو في بورسيا : اذ ان كمية التراب المنهار الذي يبلغ ارتفاعها ٤٧ م هي اليوم دون شك اعظم آثار بلاد الرافدين .

ساعد الملوك بيدهم لتشييد الهياكل والابرار ذوات الطبقات . وقد الملوك والمبابي الدينية وجدوا نصاً مسهارياً يرتقي الى القرن الثالث ق.م . يعزو هذا القول الى ملك يوناني : « كنت اصنع ، بيدي الطاهرة ، ومن زيت في غاية النقاوة ، الآجر » لترميم هياكل بابل . وابدى اقدم ملوك بلاد ما بين النهرين تقوى مماثلة ، فاشتغلوا بالدوارة والمسطرة والحبل والمنكاش والممر ، واوعزوا الى رسمهم او نقشهم وهم يحملون على رأسهم قفة مملوءة آجراً . وكانوا يضعون في اساسات الهيكل ودائع ثمينة ويرفقونها بوثيقة تثبت تكريس مكان التشييد وتذكر الاحيال القادمة بعزمهم الخير . وعند ترميم الهيكل كان واجب الملك الذي يرأس هذا العمل ان يطلي بالزيت واثق اسلافه قبل ان يزيد عليها وثيقته الخاصة التي تدعو خلفاءه الى تبني هذه الاعمال التقوية وذلك بتهديدهم بأشد اللعنات ، اذ غدا لزاماً ان يستدر عطف الآلهة على الملك الذي هو وسيطهم امام شعبه .

وكان من ثم طبيعياً ان تحوي اسوار القصر الملكي نفسها بيوتاً للعبادة ان لم يكن هياكل ، مع نصوص ابتهالات وصور ارواح حارسة ورسوماً او نقوشاً تمثل طقوس العبادة او مقدمة

الذبايح . ولقد وجدوا شيئاً من هذا في اقدم القصور التي سمحت اعمال التنقيب بدراستها ، كقصور اشنونا في بلاد أكتاد التي ترتقي الى اواخر الالف الثالث ، او قصر ماري على الفرات الوسط والذي دمره حمورابي . ونجد في الفسحة حيث ارتفع قصر سرجون الثاني ، الذي بُني في اواخر القرن الثامن ، ستة هياكل مختلفة الاحجام ، بالقرب من الزقورات ؛ وقد اعتقد المنقبون في القرن السابق بان هذه المباني هي حرم الملك . وعلاوة على ذلك نجد بالجوار المباشر ، ولكن خارج هذه الفسحة ، هيكلاً آخر الحقوه بقصر آخر . فكان الملك يعيش والحالة هذه بمعاشرة الآلهة المباشرة .

ان احدث اكتشافات الدور الملكية في بلاد الرافدين ، اكتشاف ماري ، القصر ليس اقلها اهمية . فهناك مساحة تبلغ هكتارين ونصفاً احصوا فيها ٢٦٠ غرفة ، منها قاعات الحفلات التي تزينها الرسوم ، وغرف السكنى المجهزة تجهيز رفاهية ، ومكتبات المحفوظات ومكاتب العمل ، ومدرسة للكتابة ، والمحالب ، والمجان ، والمخازن والمصانع . ولكن لم يغتصب دون شك قصر سرجون الثاني في خرساباد الشهرة التي لا يزال يتمتع بها منذ قرن تقريباً . وبعد ان هجر لم يطرأ عليه اي دمار الا التخريب الذي انزلته به العوامل الطبيعية ، لذا سهل هنا عمل علماء الآثار اكثر من اي مكان آخر : وهو اليوم خير شاهد على العظمة والفخامة ، ولم يكن له في هذا المجال ، المركز الاول .

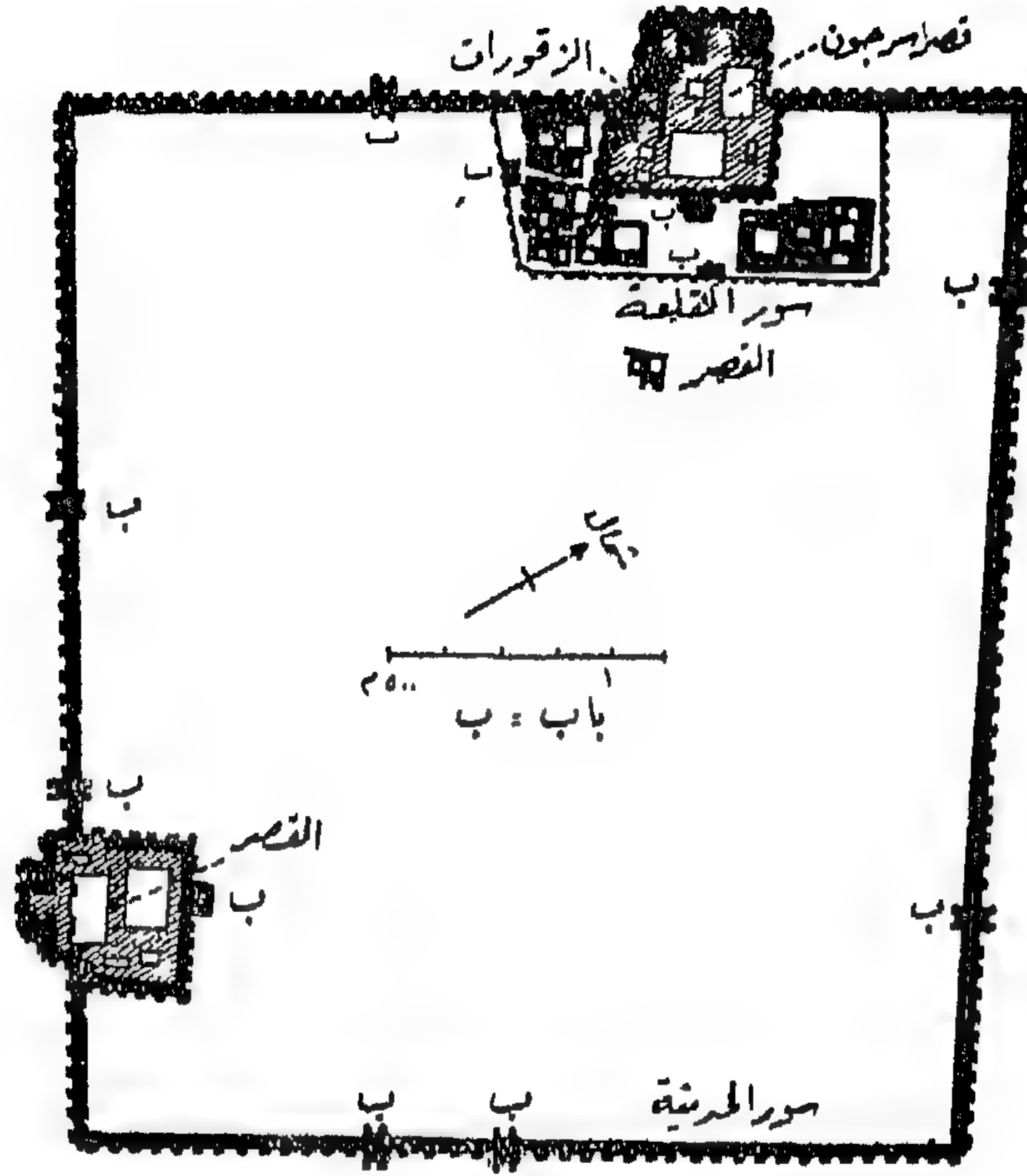
وشمخ هذا القصر على ارض مرتفعة امتدت على جانبي سور المدينة في الشمال الغربي . وبسبب نتوئه نحو الخارج غداً كأنه حصن دفاعي حصين . واتصلت الارض من جهة المدينة بمجموعة من المباني الاخرى تحدها اسوار محصنة اشد اتساعاً غدت كأنها قلعة مستقلة .

واذا اتجه المرء من المدينة الى القصر فانه ، بعد ان يجتاز القلعة ، يصل الى الرصيف بواسطة درج عريض يؤدي الى باب القصر الكبير الذي تحيط به الابراج . وخلف الباب تمتد باحة مكعبة الشكل تقريباً ، يبلغ طول جانبها مئة متر ؛ وتعد هذه الباحة مركزاً للواحق القصر وحياته المادية ، يجتمع فيها الجمهور او أقله الحرس والخدم ؛ ومن حوالها تظهر ابواب مستودعات المؤن المختلفة الانواع ، والاصطبلات والمطابخ . وعلى بعض المسافة ومن الجهة التي هي اكثر بعداً عن المدينة ، تتلاقى حول باحة كبيرة قائمة الزوايا المباني المعدة للسكن والادارة والحفلات : قاعة العرش خاصة ، حيث وجدوا قسمه السفلي ، وكان لها ثلاثة ابواب يفصل بينها عمودان هائلان على احدى جوانب الباحة الطويلة ، وبلغ طول هذه الغرفة نحو ٥٠ متراً ، وعرضها ١٢ م فقط . وهكذا نجد اكثر من مئتي غرفة تشرف بغية الهواء والنور على اكثر من عشرين باحة ، تارة كبيرة وطوراً ضيقة جداً .

مع الاهتمام بفن التزيين ، ويجب ان نعود الى هذا الموضوع ، لا يغربن عن البال الجنائن سعيهم لتأمين الرفاهية . فقد وجدت في قصر ماري القديم كما في قصر تل برسيب

الاشوري الريفي (من القرن التاسع الى القرن السابع) غرف الحمام ، مجهزة احسن تجهيز ، وفيها المغاطس واكوار التسخين ، ولم تنقص المياه اذن وقد جلبت من محل قريب بواسطة القنوات او ، كما الحال في نينوى ، بواسطة قنوات تعلو القنوات .

لا بل توفرت المياه حتى غدا بالاستطاعة خلق جنائن غرست فيها الاشجار . وغدت هذه



الشكل ١٣

دور شروكين (جدار سرجون) حرس اداد اليوم
السور والمباني الرئيسية للمدينة التي شيدها سرجون الثاني حوالي اواخر
القرن الثامن ق.م.

الجنائن هدف احلام سكان هذه المناطق التي تقرب السباب ان لم يكن الصحارى ، وحيث تشتد فيها الحرارة . وكان يلزمهم حدائق يجوار الهياكل ليُسكنوا الآلهة في « بيت يفرح القلب » ؛ وقد ظن البعض بأنهم غرسوا الاشجار على طبقات الزقورات ؛ وعلى كل حال كان لمعابد كثيرة شيدت في المدن بيوت ريفية ألحقت بها ينقلون اليها الاله في بعض المواسم . وغدا ضرورياً ايضاً ايجاد بساتين على اقرب ما يكون من القصور لكي يشعر الملك بطراوة نضرة . وظن علماء التنقيب بأنهم عثروا في بابل على اسس « الجنائن المعلقة » وذلك في مجموعة من الغرف الضيقة جداً . واعتبرت التقاليد اليونانية هذه « الجنائن المعلقة » احدى عجائب الدنيا السبع !

ويقال إن الملك ببوخذنصر اعدّها لزوجّه التي اعتادت على الجنائن الملكية « الفراديس » في بلاد ميديا حيث كانت قد ترعرعت .

ان فن النقش ، ولو ادغموه غالباً في هندسة البناء ، بقي لها
الاصاف العمومية لفن النقش
الخدام والمساعد الذي يقدم عوامل تزيين او يزيدّها غنى وجمالاً .
وفي هذا المجال ازداد دوره اهمية ، خاصة في القصور الاشورية . وحتى في هذه الحالة لم يكن
للزخرفة فقط وقد - والتقدير هذا في غاية الدقة - لم يقصد هذا الهدف . وعلى كل قصدوا من
اللجوء الى النقش ، اول الامر ، ارضاء عوامل مختلفة ، اذ لم تظهر قط للعيان بعض النقوش
وقد دفنوها في الارض . لذا لم يكن الجمال المحرك لتلك الزعة الاولى ، بل وجب ايجاد السبب
في الافكار الدينية او ما شابهها .

وأرادوا من جراء نقش شخص ما ان يؤمنوا ، اطول مدة ممكنة ، حضوره حيثما وضع
- ولا شك في مكان مقدس - حتى تحرسه الآلهة . كما انهم توخوا من نقش مشهد الذبيحة
والعبادة والتقدمة ، والمعركة المظفرة او القنص الموفق احياء ذكرى هذه الافعال او تأمين
استمرار هذه الاعمال التقوية والمجيدة ، او بالاحرى استمرار العطف الالهي الذي كان نتيجة
الاعمال الاولى وسبب الاخرى . وهكذا فان الانتاج الفني ، وقد لازمته الادعية والصلوات ،
لا بل غدا هو دعاء وصلاة ، حاذى حدود السحر وتعداها غالباً .

ولم تختلف هذه الفكرة في جوهرها عن زميلتها المصرية . ولكن ضيق مدى تطبيقها
التفاوت في الاعتقاد بحياة في العالم الآخر . ولم يتطلب القبر تماثيل تقوم مقام الموميا ، كما لم
يقدم جدرانها ليصوروا عليها رسوماً تحيي للميت المؤله افراح الحياة الارضية والثار الحتمية
للعمل الانساني . ولكن بقيت التماثيل والانصاب التي كرسوها للآلهة في الهياكل ؛ واستمرت
ايضاً النقوش التي غدا وجودها في القصور سبب نعم لساكنيها ، ولم تنقطع الادعية وان
خف عددها .

لا يعجب أحد ان خضع فن النقش هذا ، خاصة في عهده القديم ،
مقوماته
لشروط معينة .

ولم يهتم المتفنن لظهار الجسم الانساني في تناسقه الطبيعي : وهو لم يمثل المرأة الا نادراً ، ولم
يتبع مبدأ العري الا نادراً جداً . وبالعكس فقد سلطوا انتباههم على الثياب التي سعوا
جهدهم لظهارها بدقة : ففي اول العهد تنورة من شقف صوفية ، استلهموا شكلها دون شك من
جلد الخروف وجزته ؛ ثم جبة طويلة مشدودة ومطرزة . وقد استرسلت هذه الاثواب حتى
الارض ، ولكن اعدت فيها ثغرة للرجلين . اما الذراعان فكانتا مطويتين عادة دون ان
تتحركا وقد لصقتا بالجسم . وهكذا صعب بتر الاعضاء اذ اتحدت اتحاداً كلياً بكلمة التمثال .

ونبضت الحياة في الرأس بشكل اتضح أكثر فأكثر باستعمالهم حواحب اصطلاحية من الزفت وعيوناً من الحجر الملون ، والصدف الابيض والمينا . ولكن لم يبتسم الوجه الا نادراً جداً ، ورافقت غالباً عدم تأثره مسحة من السويداء ، ان لم يكن من الحزن : فديانة بلاد ما بين النهرين لا تسهل كثيراً أسباب السرور . وغدا الرأس عند السومريين ، دون جدال ، الجزء الرئيسي من التمثال ، وقد جعلوه نسبياً اقوى واكثر ارتفاعاً من سائر اجزاء الجسم . وهل غدا التمثال الصورة الحية لشخص معين ؟ ان التأكيد في هذا المجال يتنافى وملاحظات علماء العرق الذين اكتشفوا فوارق كبيرة بين الهياكل العظمية والتماثيل : فجمجمة هذه الاخيرة تتساوى طولاً وعرضاً ، بينما يفوق طول جمجمة الهياكل عرضها . لذا وجب الرضوخ الى بعض الحقائق المتفق عليها وآخرها - وهي التي تثير اشد استغراب - يؤكد بأن هناك أقلية عرقية قد احتفظت بالسيادة السياسية .

وكان على النقش البارز ان يتجانس مع فن الرؤية : أعني الاسلوب الذي اصطلاحوا عليه لظهار هذا الفن : وهكذا سمح المتفنن لنفسه ان يظهر الاشياء مرتبة فوق بعضها البعض ، ومراراً على شكل طبقات تفصل بينها خطوط ، مع انه كان عليه ان يبررها على شكل يوحى بفكرة العمق . وعندما نقش المتفنن 'الانسان خضع لمبادئ تقرب من مبادئ النقش المصري . ولم ير الوجه بصورة مقابلة الا نادراً جداً وللأشخاص الالهية فقط . ولكن مع انهم ابرزوا الوجه بشكل موارب فانهم اظهروا مع هذا العين والحية بصورة مقابلة ، وقد لجأوا ايضاً الى هذه الوسيلة فيما يختص بالكتفين وأعلى صدر الانسان . وعندما طووا هذا الصدر ، وكان ذلك نادراً جداً ، وبشكل غير كاف ، توخّوا الابقاء على إظهار الدراعين بشكل موارب . وقد لجأوا دوماً ايضاً الى هذا المبدأ لإظهار الاعضاء السفلى ابتداء من الركب ، وذلك بدون اي استثناء اذ ساروا على هذه النظرية حتى عندما نقشوا البطل غيلغميش بشكل مقابل .

ان فن النقش في بلاد ما بين النهرين ، خلافاً لما حصل في مصر ، لا يعتمد على شروطه التقنية اشغال عظيمة الحجم : وهو في هذا المجال على طرفي نقيض من فن الهندسة . وتعمد هذه الاشغال ، ان وجدت ، استثنائية وحديثة العهد نسبياً ، ولا يتعدى أي منها العصر الاشوري العظيم : وخير مثال كلاسيكي في هذا المضمار هو الثيران الهائلة المجنحة ذات الوجه البشري في خرساباد التي تبرز لنا عضلاتها القوية على جوانب قطع حجرية يفوق علوها اربعة امتار ، ووزنها ثلاثين طناً . وبقيت المقاييس قبل هذه الفترة صغيرة نسبياً : واذا وجدوا في سلسلة تماثيل غوديا الكثيرة العدد انموذجاً يظهر فيه جالساً وقد زاد ارتفاعه ١٠٥٨م عن طول قامته الانسان العادية وصفوا هذا التمثال « التمثال الضخم » . وتفسير هذا النقص ، الذي يخف في بلاد الاشوريين ، هو عدم وجود مواد صلبة في بلاد ما بين النهرين السفلى ؛ وقد تأصلت هنا عادات تبنائها الغير مع انه كان اكثر غنى في المواد الاولى . ويجوز لنا ان نضيف الى هذا

التفسير المادي تواضع الرجال ، والملوك ايضاً ، الذين لم يعدوا انفسهم آلهة ، امام عظمة القوى الالهية الساحقة . ولكن 'عدم هذا الشعور عندما أرادوا تمثيل إلهة ما . وفعلاً تحمل الثيران المجنحة ، وهي ارواح حماية ، التاج ذا القرون ، رمز العظمة الالهية . ومع هذا فان قلة تحقيق مثل هذه الاعمال الضخمة تفيد على وجود مثل هذه الاعتبارات واحترامها .

ولا تجد كل هذه الاعتبارات لنفسها تحليلاً منطقياً ، كما تحقق لنا ذلك . ولكن مقدرة المتفان التقنية هي فوق كل شبهة . انها دون شك لا تظهر دوماً على اكمل وجهه . ولكن باكراً جداً ينتصر النقاش ، أقله في بعض الأماكن ، على اصلب مادة ، وهو يحقق بصبر وطول اناة ما يريد وما ينتظر منه . انه يرى ما يجب عليه ان يراه ويعبر عنه كما يريد ان يراه الغير ، ويهيمن دوماً عقله على يده عندما يعبر عن معطيات حواسه وتخيلته .

يكتسب فن صنع التماثيل الأهمية الكبرى في العهود القديمة . وقد عرفت فن صنع التماثيل الشهرة ، في هذا المجال مصنوعات قديمة عدة : وهي لم تكتسبها لجمالها الفني فحسب ، بل غالباً لغنى الأدلة التي تقدمها لنا عن معتقدات سكان سومر وأكاد القديمة .

ولا نجد الا عدداً قليلاً جداً نسبياً لتماثيل الآلهة ذكوراً كان أم اناثاً . ومن اشهرها تماثيل عثر عليه في قصر ماري وهو يظهر لنا إلهة مرتدية ثوباً مزركشاً وتضع على هامها تاجاً مستديراً يحيط به زوجا قرون ، وتمسك على بطنها بيديها وعاء ينسكب الماء من ثقبه - والتمثال فارغ الجوف - على الثوب : انها « إلهة الوعاء المتدفق » ، رمز الرفاهية والخصب الذي نجده مراراً بين يدي تماثيل الانسان .

ونجد ايضاً بعض التماثيل للأرواح الحارسة ، لا بل تماثيل للثور ذي الرأس البشري - وهو يحتو بهدوء - بكلل هامه تاج ذو قرون ، وتعبّر نظراته عن الرصانة ، ان لم يكن الحزن . ومع تماثيل هذه الارواح ، نجد تماثيل كثيرة اخرى تعبر عن حيوانات مختلفة كالأكباش والأبقار الوحشية والأسود التي ترمز الى آلهة او تستدعي عطف هذه الآلهة على القطيع . ولا تخلو هذه التماثيل من ثقوب اعدت لتصبح مستقراً لقطع من صدف ، يتم معها ، ان هذبت ، الشبه التام مع رقطة جلد الحيوانات .

ونجد اخيراً وبصورة خاصة تماثيل كثيرة جداً ، صغيرة أو كبيرة ، للرجال . أما تماثيل النساء فهي أقل منها عدداً . وقد طويت الذراعاں بصورة تسمح لليدين بأن تلتقيا على الصدر ، أو لاحداهما ان تستقر امام الفم : وهذه هي علامات الصلاة والعبادة . اننا دون شك ازاء ملوك او عظماء ارادوا ان يؤمنوا بحضورهم الى الابد في الهياكل ويظهروا للإلهة تقواهم ، وخضوعهم لاوامرها . وكيلا يصبح اسمهم عرضة للنسيان ، فانهم غالباً ما يحفرونه على احد اجزاء التمثال الملصقة .

لنكتف بسرد اشهر التماثيل . اولا « قِيم » قصر ماري ، ايل - ايل . وهو قيم ماري ، غوديا
منقوش في الرخام الابيض ، حجر ابيض لبن ، ونجا باعجوبة من كل خراب
ودمار : ولكن مع هذا فقد فقدت رجلاه . ولا يرتدي الشخص ، وهو جالس على مقعد سلال
ولا يرتدي الا قيصاً من صوف . وتلتقي يداه امام وسطه العاري . ولم يمس رأسه الذي يحوي
كل العناصر التي تفرضها العيون والحواجب والاهداب ، تمدده لحية حريرية بينما حلق شعر الجمجمة
والشارب . وتسدي هاتان العينان على الوجه حياة زاخرة ، تساعداهما على ذلك شفتان يعلوهما
شبه ابتسامة

ولكن علينا ان نتوقف اكثر امام مجموعة تماثيل الملك غوديا العجيبة ، التي عثر عليها في تلو ،
حيث ارتفعت لاغاش القديمة . ونعرف اكثر من ثلاثين تمثالا من هذه المجموعة ، منها ما هو مكتمل
الاجزاء ومنها ما هو مكسور . ويوجد منها نحو اثني عشر تمثالا في متحف اللوفر وقد عثر عليها
منقبون فرنسيون . ولكن لا يحوي هذا المتحف إلا ثلاثة رؤوس . وقد نقش كل هذه التماثيل
في حجر رلب جداً ، وفي غاية الجمال يميل لونه الاخضر نحو الاسوداد . ومع هذا يدل نقشها
على مهارة لا غبار عليها . وتتراوح احجامها من ثلاثين سنتيمتراً حتى تبلغ مع التمثال « الضخم » ،
الذي يظهر الملك جالسا ، نحو ١٥٨ م . ويبدو فيها الملك في مختلف مراحل سنيه ، فتارة في
عهد صباه وطوراً في مكتمل العمر . ولكن يكفي ان نلاحظ بانهم يطلقون على احد هذه
التماثيل صفة « صغير الكتفين » وعلى النموذج آخر منها « عريض الكتفين » لنشك ولو قليلاً في
حقيقة هذه الصور . ولكننا نجد في كل حلقات هذه المجموعة نفس العينين المفتوحتين ، والشفتين
المنقوشتين نقشاً دقيقاً ، والذقن الطويلة المعكوفة . . وتكشف لنا هذه الاوصاف عن مزايا
الشخص النفسانية : فهو كان دون شك ذا ارادة وعزم . ولكن مما يسترعي الانتباه هو الصفة
الكهنوتية التي تظهر مراراً كثيرة على ثيابه وجلسته . ويضم غوديا دوماً يديه ، ان ظهر واقفاً
أو جالسا ، حاسر الرأس او معتمراً نوعاً من العمامة . ويظهر دوماً وقد انحسرت عن كتفه وذراعه
من الجهة اليمنى قطعة قماش كبيرة تمر من تحت ابطه ويغطي جزء منها كتفه اليسرى وذراعه
حتى المعصم . ونجد في نفس الامكنة الثنايا ذاتها وان قل عددها ولطف طيها . ولكن في كل
النماذج وتحت قطعة القماش السميكة ، تبرز لنا الحياة في الجسم ، اقله في الجزء الاعلى ؛ ولا ينقص
قط اي مثال شيء من الاناقة والكياسة . كما تظهر لنا البساطة بصورة مؤثرة ، مهما تجسست
وخلافاً لكل مفهوم ، عظمة الشخص الذي يستجدي وينتظر وحي الآلهة ليقوم بعمل ما وسط
بني البشر .

لم يتوصل قط فن نقش التماثيل في بلاد ما بين النهرين الى درجة
النقش البارز *Bas - relief* كمال كهذه . انه لم ينقرض ولكنه مع هذا ترك المركز الاول في فن
النقش الى ما دعوه النقش البارز .

غدا لفن النقش البارز عند الملوك الاشوريين خطوة لا مثيل لها ، وقد تعاطاه الجمهور باكرأ

جداً على لوائح مصفرة ، او حصى (الكودوروس Koudourrous) ، او اوان او نصب . وكانت بلادهم غنية بالحجارة ، فاستعملوها بكثرة لتغطية جدران الآجر ، خاصة جوانب قصورهم . وتفوق المساحة المنقوشة على هذا المضمار في قصر سرحون الثاني في خرساباد ستة آلاف متر مربع .

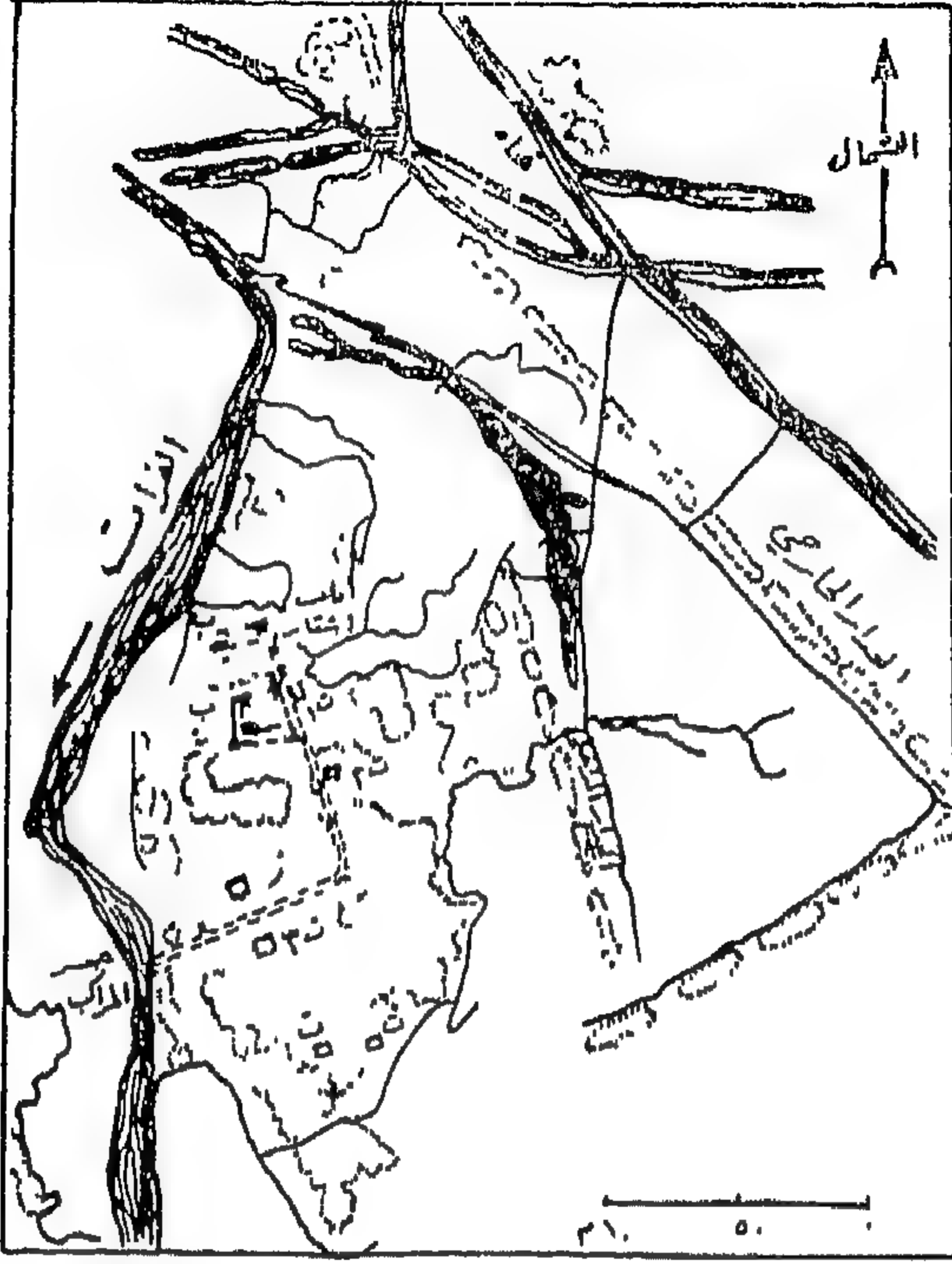
ووجدت هذه الآثار المنقوشة على مقربة من الابواب . وكانت تمثل هناك خاصة الارواح الخيرة التي يحول وجودها دون دخول الارواح الشريرة . وغدا لوجود نقوش الابطال والحيوانات الحقيقية او الخيالية مغزى رمزي . ونُقش هناك اغلب الاحيان بوعان من النقوش . الاول البطل غيلغميش الذي ينتصر على الاسد ويشده الى ذراعه الايسر ، بينما تحمل يده اليمنى سلاحاً معكوفاً يعد اصلاً للحسام ؛ والثاني الثور المجنح ذو الرأس البشري الذي ينتصب على ركائز الباب ، يدير نحو الزائر رأسه المهيّب على ما به من وسائم بشاشة وامن .

ووجدت النقوش ايضاً في الداخل على جدران الاروقة والقاعات . وكانت اقل دقة اذ لولا ذلك لانعدمت رؤيتها لقلة وسوء الاضاءة . وهي تمثل ارواحاً مجنحة خيالية برفقة الملك او وحدها ، ترش ماء التطهير بواسطة ثمرة الصنوبر الطقسية ، نباتات اخرى ، مستدعية والحالة هذه على البلاد بركات الحصب . ونقش ايضاً العبيد وهم يعدون الحفلات حيث سيظهر الملك بكل عظمة . وهناك ايضاً نقوش قنص تظهر الملك وهو يخرق بسهامه او حربته ، من على عجلته ، الاسد الشرس ، او يمسكه من لبدته ويغمد في بطنه الخنجر . وقد يمثلون الملك ايضاً وهو واقف على عربته يحارب في الصف الاول من جيوشه ، وهو على احسن هندام ، وقد جعد شعر رأسه ولحيته بكل عناية . وكثرت مشاهد الحرب والمعامع والحصار والهجوم ، كما تعددت ايضاً مشاهد التقتيل والموتى وجموع الاسرى والامم المسيبة او دافعي الجزية الذين غلبوا على امرهم .

ولطفت من حرمة التقاليد المقدسة حرية في الوحي التعبيري ، لا بل خفت حدة هذه الحقيقة الواقعية القاسية ، ان لم نقل ايضاً الواقع الطبيعي القوي . ولكن استمرت تلك التقاليد على شدتها عندما مثلوا الملك او حاشيته المباشرة ، او عربته واحصنته وخدامه . ولم يفرقوا قط شخص الملك عن اصول اللياقة هذه التي استطاعوا ان يقللوا من اهميتها عندما نقشوا الجنود والاعداء والمواطنين والذين قهروهم في الحروب .

وعبرت هذه النقوش الناتئة من ثم احسن تعبير عن التقارير المظفرة التي كان يقدمها الملوك للآلهة عن معاركهم : ولم يكن الاشوري ، حتى عند عرضه قساوته ، باي تحفظ . ولا تبلغ هذه الاعمال من حيث الفن درجة الكمال . ووجب الاسراع بالعمل لبث الحياة في انصاب شيدت بسرعة وذلك بواسطة هذه الرسوم . وقد استعملوا احجاراً لينية ، كحجر الكلس والرخام الابيض . واشرف على ادارة الاعمال رجل فن ، ولكن انجزها نفر من العملة ،

ولوحظت اخطاء في التنفيذ. ولكن مع هذا استطاعت القريحة ان تكشف عن نفسها من خلال وضمة فنية : فيطلق الخيتال نداء مستعملا يده كوق ، او في المحم تعني الوالدة بابنها او يحبي الصبي الجنود . وقد بلغ الكمال حداً فائقاً بعض المزار ايضاً، خاصة في درس و اظهار الحيوانات . وفي هذا المجال



يحوي المتحف البريطاني روائع راهية صادرة عن قصر اشوربابيال في بينوى ، منها اللبوة المجروحة وهي تجر مؤخرتها المثقلة بالسهم بينما ينفجر من شدقها صراخ الالم الشديد . ويشكل هذا النموذج اروع واشهر وحدات هذه المجموعة التي لن تنسى .

لم يكن النقش
التزيين المرسوم
والمرخرف بالطين
البارز إلا
وسيلة للتزيين،

من ضمن وسائل اخرى متعددة :
إذ كان من المناسب ان لا
تغطي الوتيرة الواحدة على
مسافات كبيرة .

ولهذه الغاية لجأ القوم الى فن
الرسم بالالوان . ولكن لم تحفظ
نماذجه جيداً لسرعة زواله .

الشكل ١٤ - بابل عشية الفتح الفارسي (٥٣٩ ق.م.)
ب ، القصر ، القصر في الجهة الشمالية القصوى ، ويشمله الجدار
الخارجي وهو قصر نبوخذنصر الصيفي ، ت . الهيكل ؛ ت ٢ ،
هيكل إشتار ؛ ت ٣ ، هيكل مردوك زقورات مردوك .

واننا نجد فقط بعض آثار هذا الفن في اكبر وافخم العصور ، وقد اكتشفت لسوء الحظ في زمن لم تبلغ فيها اعمال التنقيب كمالاً تقنياً . لذا وجب انتظار اعمال التنقيب في ماري ، عشية الحرب الكبرى ، ليسهل درس بعض النماذج المهمة ، ان لم يكن اقله جمعها . وتمثل تصاوير ماري ، وان عسر تفسير دقائقها ، مشاهد دينية كطقوس العبادة وتقديم الذبائح . ولكن في قصر تل برسيب الاشوري الريفي استطاعوا ان يتحققوا من وجود رسوم تمثل رسوماً شبيهة برسوم الدور الملكية الكبرى : الصيد والقتال وصفوف الجنود .

وعلاوة على ذلك فقد طليت هذه الرسوم بالالوان ليزيدوا من دقة وجمال الاشكال ، كما انهم

استعملوا الالوان ليضيفوا على الآجر الاسمر نوراً وبهجه . وهكذا نجد مساحات واسعة باللون الاصفر ، والازرق الحفيف ، والاحمر والابيض السح ، عليها رسوم ورود وزهيرات وحيوانات لا تتجاوب غالباً ألوانها مع الالوان الحقيقية .

ولكي يجعلوا في الخارج الالوان اكثر ثبوتاً لجأوا الى مبدأ تزيين الآجر بالمينا كما تقتضيه الاشكال المرسومة . والتحقيق في هذا المجال الذي يدعو الى الدهشة اكثر من سواه هو نزويق باب هيكل إشتار في بابل . ولا تزال انقاض هذا الباب الى يومنا وهي ترتفع الى ١٢ متراً . وقد لوّن كل شيء قديماً ، ولكن دون تشابك الالوان تشابكاً مفرطاً . وكانت الالوان خفيفة . ولوّن الجزء السفلي بالاررق عادة ، اما اعالي الحيطان ذات الشرافات ، فاعطيت ألواناً زاهية تخترقها خطوط من ورود وازهار . وعلى جوانب الابراج والعمد رسموا بصورة نافرة ثلاثة عشر صفاً منضدة تنضيداً تتشابه فيها الثيران والتنانين ذوات رأس الحية المقرّ ، يتعاقب فيها حيوان ابيض وحيوان اسود . وغدا الباب نفسه نقطة نهاية لطريق تصلح لمسيرة الاحتفالات ، حصرت بين اسوار منيعة ايضاً ، تزينها اسود يظهر رسمها المطلي بالمينا نافراً على الحط العمودي . وقدروا انه قد رسم نحو ١٢٠ اسداً و ٥٧٥ تنياً وثوراً على هذه اللوحات الدفاعية وذلك بشكل في يدعو الى الغرابة وان هو لم يخل من بعض الدقة . وتشابكت في هذا المجال اساليب التلوين وتجاوز الحقيقة المبالغى فيه واللجوء الى رموز الآلهة الحارسة مع الهندسة الدفاعية النفعية . واستقى دون شك فن تشييد القصور الفارسية من بابل فكرة الافاريز المطلية بالمينا .

لا يجدر بالذكر ، من بين الفنون الثانوية ، إلا فن النقش على الحجر ، وذلك فن النقش على الحجر لكثرة ما تركه من آثار ، تحوي المتاحف كالمجموعات الخاصة آلافاً منها ، إذ كان يملك كل شخص ، شرط ان يبلغ منزلة اجتماعية ما ، خاتماً يحل الرسم المنقوش عليه محل توقيع الفرد على المعاملات التي يكون فيها فريقاً او شاهداً . وغدا هذا الخاتم لحامله بمثابة تعويذة : اذ كما احتوى كل اسم علم على اسم آلهة ما ، غدا طبيعياً من ثم ان يمثل الخاتم روحاً حارسة ، او حيواناً رمزياً ، او اسطورة ميثولوجية ، او مشهداً تقوياً ، او طقساً يقضي على نفوذ الشياطين الشريرة . ورافقت كل هذا غالباً خطوط كتابة تشدد او تقل وضوحاً .

وحفر الرسم بشكل مقعر حتى يظهر نافراً على الخزف حيث يطبع . ولهذا الغرض استعملوا حجراً منتخبا ، كاللازورد والعقيق وحجر الحية وحجر الدم النخ ، فحصلوا على اختتام مسطحة ومنحروية او نصف كروية ، او خاصة على اسطوانات تحمل ثقبا على خط محورها للرباط الذي يوثق به . ان درس مثل هذه الاشياء يحمل في طياته غالباً فائدة دينية كبرى . وكما يبدو وصلوا الى قمة الفن في هذا المجال حوالي اواخر الالف الثالث عندما اظهر المتفننون حذقاً خصباً في الابداع ، وحساً مرهفاً في الخلق المتزن ، ومهارة تقنية فائقة . ولكن اذ

كثّر الطلب فيما بعد عمدوا الى صنع هذه الاشياء بصورة متواصلة ومتسلسلة مما دعا الى العمل
بسرعة فانتفت الجودة

ان درساً شاملاً لفن بلاد الرافدين يستدعي فقرات اخرى كثيرة للبحث في الآنية ،
والمعادن ، والشباب والاثاث النخ ؛ ولكن لن يظهر هذا البحث شيئاً جديداً اذ ان المصنوعات في
هذه المجالات المختلفة لا تقدم لنا العظمة والجودة اللتين وجدناهما في النماذج التي اتينا لماماً على
ذكرها - هذا ان توقفنا عند النتائج الحالية للاكتشافات الاثرية التي تخضع لعوامل المصادفة
وامكانية حفظ الاشياء .



الخلاصة

اننا دون شك ، ومنها كانت الاعتبارات ، امام حضارة زاهية من حيث ما حققته ومن حيث مدتها . وهي زاهية ايضاً لما اسهمت به في الحضارة الانسانية العامة وللتوجيهات التي وهبتها لمعتقدات واعمال بعض الحضارات القديمة .

انها تفتقر عادة الى عوامل الاغراء والجمال والطلاوة ، ولا نجد فيها الا مكاناً ضيقاً للسخرية والنوح . لا بل ان القساوة والكربة المتأصلتين فيها منذ القدم لا تستميلان النفس ، كما لا تؤثر فيها الشراسة المقصودة التي يظهرها الاشوريون وكثيراً ما تلامس عظمتها فظاظة غير انسانية ، حتى غدت هذه الصفة من مقوماتها المستديمة .

ولكن لن ينكر احد على هذه الحضارة قوتها على التنظيم الجماعي او الابتكارات التي اوجدتها في صلب هذا التنظيم بالذات . وبموجب هذه المبادئ يذوب الفرد في المجموعة التي تذيبه العذاب والهوان : ولا يستطيع المرء في هذا المجال ان يتغاضى عن الحقيقة . ولكن يبدو هذا الواقع اخف وطأة مما هو في مصر ، وعلى كل حال يتجه اتجاهها مختلفاً ، لان عبادة الموتى لا تحظى هناك باهمية كبرى في الدين ، ولان الملك لا يعد هنالك ايضاً في مصاف الآلهة . لذا فان لانصرار الفرد في بلاد الرافدين بالمجموعة الاجتماعية الذي تفرضه عقائد اخف وطأة مما هي في مصر ، وقعا اقل شدة وقساوة . وهذا ما يفسر لنا مداورة كيف ان الفرد في بلاد ما بين النهرين احتفظ بقسط قليل بمبدأ حرية العمل مع خضوعه لمقتضيات الجماعة وللأوامر الالهية ، ومع خوفه من التهديدات والاشراك السرية التي تحيط بحياة الانسان وسعادته .

واستغل الفرد هذه المواقف التي لا تتصل كلياً بالعدم كما هو الحال في مصر . ولم يحمله ذلك طبعاً على تحليل وفهم الحوادث والمظاهر التي اعتقد مبدئياً بانها لا تخضع لاي قياس منطقي . ولكنه استباح لنفسه اقله ان يراقب . لا بل سار على هذا المنوال لاعتقاده المتين بحقارة الانسان وبالتفوق الساحق الذي تملكه القوى التي تهيمن على مصير بني آدم وتفردده . وهذا ما حدا بسكان بلاد الرافدين الى المراقبة وتدوين ملاحظاتهم بكل حماس . لا بل نلصق عندهم الجذ والدقة والمثابرة على العمل . . وكلها عوامل قادتهم الى تخوم بعض العلوم المباشرة . وسيحصد الورثة ثمرة جهودهم ، ولكنهم سيتبعون طرقاً اقل حكمة ، وان كان ذلك بصورة اللاوعي ، واقل تواضعاً ومثابرة ، مما يحملهم على ارتكاب اكثر من خطأ .

آسيا الصغرى وايران

لم يشمل الشرق الادنى ، باستثناء مصر وبلاد ما بين النهرين ، مساحات شاسعة من الاراضي الخصبة ، إذ لم توجد فيه انهار كبيرة ذات فيضانات رسوبية . ولم تستهو هذه الاقطار بني آدم . وعندما كانوا يجتازونها لم يغرم شيء للاستقرار فيها وتكوين جماعات مستديمه . وهكذا لم تظهر فيها حضارات متطورة إلا في زمن لاحق جداً . لا بل هناك عوامل كثيرة اخرى لهذا الواقع سببتها على مدى واسع قلة عطاء الارض . ولم تبلغ قط اي من هذه الحضارات عظمة وقوة ومدى حضارتي مصر وبلاد الرافدين . ولم تجد اي منها مهداً فسيحاً ينتج خيرات بمائلة لخيرات هذين القطرين . وهكذا فانها لم تلد بصورة عفوية كما غدت الحال هناك ، ولم تعبر بشكل نقى عن الفضائل والميول الخاصة بشعب معين . فبرزت من ثم هذه الحضارات مركبة العناصر ومتشعبة الاصول لانها نشأت عن احتكاكات ولدتها سيول الهجرات او المبادلات التجارية . وغدت هذه الحضارات اكثر ميوعة واقل ديمومة . وقد شابت كلا منها نواقص كثيرة ، ولم تملك مجتمعة او منفردة الامكانيات المادية او المعنوية او الوقت للتغلب عليها . ولم تترك هذه الحضارات للخلف في الزمان والمكان إلا إرثاً اقل عظمة وكالا إذ غدت هي نفسها في كل المجالات دون الحضارتين اللتين سلف ذكرهما شروقاً ونبوغاً . ونتيجة لهذه الحقيقة خلفت آثاراً دون آثارهما : ولا تزال الى يومنا هذا نستشف جوهرها بجاهلين مقوماتها وذلك مع ما حققته العلوم الاثرية واللغوية من اكتشافات باهرة .

وتتصل بعض هذه الحضارات بدول شجعت هممتها القوى لتدعيم مركزها الداخلي او توسيع مداها الخارجي لتعاقظ على كيانها ، وذلك على غرار ما جرى لزميلتيها في مصر وبلاد الرافدين . وهكذا نجد انفسنا مضطرين لجمعها معاً هنا وان اختلفت عناصرها واهدافها . واستناداً الى النجاح الكثير او القليل الذي لاقته فاننا نصنفها مع الحضارات التي يمكننا ان نطلق عليها لقب « الحضارات الامبراطورية » ، ولكن شوائبها تقلل من مدى اهميتها الجوهري

والنسي . ومع هذا تتفصل واحدة منها عن المجموعة وان كانت تشارك سائر زميلاتهن بتلك
السمات . ومع انها كانت الاخيرة من حيث زمن ظهورها فانها فرضت مع ذلك سيادتها السياسية
على ابعد مدى ، حتى انها اخضعت لسيطرتها مصر وبلاد الرافدين . انها الحضارة الايرانية
او بالاحرى الفارسية .



الفصل الأول

الحضارة الحثية

جرت العادة على تسمية شعوب آسية الصغرى القديمة « الشعوب الآسيانية » . وقدل هذه التسمية على جهلنا حقيقة تلك الامم ، اذ يتعذر علينا دمجها مع الساميين او مع الهندو - الاوروبيين . ولا اهمية ان ابتكرت هذه الشعوب حضارة زاهرة ، كما فعل السومريون الذين لا يزال اصلهم العرقي مجهولا . ولم يحصل هذا إلا بعد ان توطد فيهم أثر سكان بلاد الرافدين والهندو - الاوروبيين . عندئذ فقط ، وابتداء من اوائل الالف الثاني تقريبا ، ظهرت دول منتظمة كالامبراطورية الحثية ومملكة ميتانتي الحورية .

الحضارات الحثية والحورية :
الخطوط الكبرى

يصعب تعيين حدود هذه الدولة او تلك لأنها كثيراً ما تغيرت ، واتخذت دوماً الامبراطورية الحثية مركزها في الجزء غير الايحي من الانجاد الاماضولية : وغدت عاصمتها مدينة خطوش (بوغاز - كي الحالية) الواقعة داخل المنطقة التي يكونها منعطف نهر كيزيل - إرماك ، الذي عرفه اليونان باسم « هاليس » . ولكن اتسعت هذه الامبراطورية كثيراً نحو الجنوب - الشرقي حتى امتدت الى بابل في بعض اطوارها . ونجد الحوريين ، في أزمنة مختلفة ، في كل من نواحي بلاد الرافدين الشمالية الممتدة من جبال زغروس حتى شواطئ البحر الابيض المتوسط السورية . ويطلق اسم الميتاني خاصة على منطقة منعطف الفرات حيث كان لمصريتي الامبراطورية الجديدة علاقات كبرى مع الحوريين : وفي هذه الحقبة وتلك المنطقة فقط شيد الحوريون دولة عرفت بعض الاهمية والاستمرار . ولكن منذ السلالة التاسعة عشرة خضعوا لسلطة الحثيين واقرضوا تماماً تقريباً . لذا يصعب علينا من ثم التفريق بين حضارتهم وحضارة الحثيين التي قد تتوفر لنا فعلاً عناصر معرفتها بعض الشيء .

واساس حضارة الشعبين هو آسياني . وبدأت الاحتكاكات مع بلاد الرافدين تدخل الى هذا الشعب او ذاك بعض العناصر الثقافية ، خاصة استعمال العلامات المسماة للكتابة ، ويرتقي هذا الواقع الى اواخر الالف الثالث . وقد اتخذ هذا التغفل مدى واسعاً كما يشهد بذلك وجود

جماعات من التجار الاشوريين في بلاد كبادونية . ولكن في هذه الفترة أتت بعض العناصر الهندو - الاوروبية - من تراقية دون شك - الى بلاد الاناضول ، فتلاقت مع حثيتي المناطق الشرقية وحوريي المناطق الشمالية الشرقية . وتزايدت هذه الجماعات مع الزمن حتى انتهى بها الامر الى تكوين فئة ارسوقراطية حاكمة ، خاصة وقد جلبت معها الحصان الذي حقق لها استعماله تفوقاً حربيّاً لا يجادل فيه . واستساغت هذه القوى لنفسها اذ ذاك شن غزوات جريئة ، لا بل تشييد امبراطورية حثية . وفي القرنين الرابع عشر والثالث عشر تفوقت هذه الامبراطورية على دولتي البابليين والاشوريين المنفصلتين واقامت توازناً للقوى مع مصر . وفي هذه الفترة اوجدت العلاقات الدبلوماسية والحربية احتكاكات جديدة مع حضارة بلاد ما بين النهرين وعرفت الحضارة المصرية التي كانت قبلاً بعيدة جداً .

وبعد ذلك حصل الجزر ثم التضعف واخيراً الانقراض السريع او التدريجي . ولكن بقيت لنا نصوص ونقوش تشهد بهذه العظمة القصيرة العمر . ولم تفسر بعد كل هذه النصوص ، وان كان قد اميط اللثام منذ ثلاثين سنة عن سر بعضها التي كتبت بالخط المسماري فلا يزال العلماء يتعثرون لحل رموز تلك التي كتبت بالخط الهيروغليفي . ولكن من الممكن مع هذا ان تأتي على ذكر حضارة اظهرت اللمحة الخاطفة التي سبقت معالمها المتشعبة الاصول .

الدولة
تستند الدولة الى أسس اقل متانة وتنظيماً مما هي عليه في مصر وبلاد الرافدين . ان هناك بالتأكيد عرى وثيقة تربط السلطة الملكية بالآلهة . انهم يستجدون نبوءات عرّافي الآلهة في الشؤون العامة ، ويمثلون الآلهة وهي تقبل الملك والملكة . ويصبو الملك نحو تأليه نفسه لرغبته في التشبه بفرعون مصر : فهو يتخذ لنفسه حوالى منتصف القرن الرابع عشر ، لقب « شمسي » ، ويصبح بعد موته موضوع عبادة ، ويتقبل التقادم الغذائية المخصصة للآلهة . ولكن لم تتبلور قط عملياً هذه المنزلة الدينية بسلطة ملكية مطلقة .

ونجد الى جانب الملك جهازاً يرجع أساسه الى اصل هندو - اوروبي : اعني المجلس الذي يؤلفه افراد من الطبقة الحاكمة . ويقرر هذا المجلس قيام ملك جديد ، ويخلف بين يديه يمين الوفاء ولكنه يتقبل من العاهل عهداً مائلاً . ويسعى الملك لتدبير خلافته على العرش وهو بعد على قيد الحياة . وتوصلاً لهذه الغاية يقدم ابنه للمجلس ويستحصل مسبقاً من هذه الهيئة على يمين الطاعة . ومع هذه الاحتياطات فقد اثار هذا النظام اضطرابات سلافية : وقد حصل منها ما اضعف الدولة الحثية . وتعتبر عن تفوق هذا المجلس المدني امتيازاته القضائية : إذ هو يفصل بالدعاوى التي تساق على اعضائه وعلى اقرباء الملك .

وتستثنى اجزاء شاسعة من الدولة من ادارة الملك المباشرة . ويستثمر الملك مباشرة بعض الاراضي ، وهو يتسلم عائدات ويفرض اعمال السخرة . ولكن عليه ان يحسب حساباً لجماعة الهياكل التي تتمتع بالحصانة ، وللكهنة الاعظم ، في الاوساط الدينية الكبرى ، الذي يتمتع .

ايضا بسلطات مدنية وهناك ايضا الامراء الاقطاعيون الاتباع ، يعقد معهم الملك معاهدات تضمن لذريتهم السيطرة لقاء طاعتهم . ويوجد اخيرا النبلاء الذين ، في اوقات الحرب ، يجمعون فرق الجنود من سكان اراضيهم ويؤمنون قيادتها ، ويطالبون من ثم بحجز من الغنائم . وللملك جنوده الخصوصيون ، ومنهم المرتزقة ، ومنهم المواطنون الذين يهبهم إقطاعات من الارض ، اذ تجري التعبئة بصورة بطيئة ويجب الاحتفاظ من ثم ، على تخوم الدولة المعرضة للخطر ، بحاميات مستديعة في الحصون حيث يوجد حكام يمثلون الملك .

النصوص القانونية وتعاليمها
لدينا مجموعتان من القوانين الحثية وضعت على غرار بلاد ما بين النهرين واوجدت الحلول لمشاكل مماثلة . نملك ايضا عقودا تشريعية حورية . ولم يأت النظام التشريعي بشيء جديد ، وقد تأثر بحصارات أودية دجلة والفرات .

ويظهر لنا كل هذا مجتمعا لا يختلف اختلافا اساسيا عن مجتمع بلاد الرافدين من حيث نظام الاسرة والمهر والطلاق والتبني . ومنع هذا لا بد من الاشارة الى اختلافات هامة . وبما يجب ملاحظته في اول الامر هو ان وجود طبقة حاكمة وحربية ، شبه اقطاعية ، يفرض تعاونا اجتماعيا يعادل على ما يبدو تفاوتاً عرقيا . ويدعى افراد الحرس الملكي عند الحوريين «مارياني» وتشق هذه الكلمة من كلمة ماري الهندو-اوروبية التي تعني «البطل» ويتحكم هؤلاء المحاربون بعملة ممتلكاتهم ، ومعظم هؤلاء من «المسيبين» ذوي نظام اجتماعي أقل شأنا . ونلاحظ ثانيا بان القانون الجزائي هنا هو اخف وطأة من قانون بلاد ما بين النهرين ، وهو يعتمد اكثر على مبدإ الغرامة او التعويض ، الذي يتخذ له مستوى قاسيا جدا . وهكذا فلا تعاقب قط السرقة عند الحوريين بالموت ، ولكن قد يبلغ التعويض ما يوازي ٢٤ مرة قيمة الشيء المفقود . والعقوبات الجسدية هي اقل عددا واكثر ليونا . ويزداد هذا الفرق ، المماس منذ القدم ، قوة مع التطور والزمن .

وتستفيد الحياة الاقتصادية من معطيات زميلتها في بلاد الرافدين ويمارس القوم اعمال التبادل والقروض حسب نظم مختلفة ، مع وجود مبادئ الكفالة والرهن الخ . وعلى ما يظهر نشطت جدا التجارة في مختلف مرافقها . واستحال عكس ذلك في مناطق اعدها وضعها الجغرافي لتلعب دور الوسيط بين سواحل البحر الابيض المتوسط من جهة وبلاد ما بين النهرين وايران من جهة اخرى . وغدا الحديد خاصة مادة تصدير كبير نحو المناطق الشرقية والجنوبية ، وقد استخرجوه من آسية الصغرى وزاد في استعماله كثيرا الهندو-اوروبيون ؛ وكما حدث للقوانين البابلية والاشورية فقد حدد التشريع الحثي الاثمان المفروضة لبيع المنتوجات الزراعية والحيوانات ، وبدلات المثل للخدمات والادوات وفائدة القروض ، ولكن ارتفعت جدا قيمة المعدن الثمين وفائدة القروض ، اقله في الواقع .

الفن والدين
غدا الحثيون بناء عظماء . ويظهر موقع عاصمتهم آثار أسوارها ، وآثار
مبان أخرى مهمة ، ولكن يصعب تحديدها . ووجدوا ، أيضاً في المدن المقدسة
آثار الهياكل . واعتمد القوم كثيراً على النقش . وقد وجدوا ، علاوة على نقوش الأرواح الحارسة
التي تحمي الأبواب كما جرت العادة عند الآشوريين ، نقوشاً على الصخور . وهي تبدو عظيمة
ولكنها غير كاملة ، تمثل آلهة منفردة أو مواكب دينية . ويظهر لنا أشهرها مجموعة من أربعين
ذكراً تتقدم نحو صف من عشرين أنثى أو أكثر : وقد نظم الأشخاص في كلا الصفين حسب
الدرجات ؛ ففي الامام نجد الآلهة الكبرى ، تليها الآلهة الثانوية ، ثم يتبع رجال الكهنوت .
ولهذه النقوش الكبرى فائدة إذ تقدم لنا معلومات عن الديانة ، بالإضافة إلى الدلائل التي تحويها
النصوص في هذا المجال .

يحتوي الزون (البانتيون) الحثي على آلهة كثيرة العدد جداً . وبعد أن يعددوا أسماء بعض الآلهة
في المعاهدات السياسية يستغيثون « يا آلهة الحثيين الالف » : ويذكرون هذا العدد الإجمالي دون
شك للتأكد بأنهم لم ينسوا أي إله . ومع هذا يولد هذا العدد الكبير الحيرة . وفعلاً اقتبس الحثيون
آلهتهم من مختلف الجهات . ولكن لا يعود أكبر عدد من هذه الآلهة وأهمها إلى أصل أسيوي ،
ونحن غالباً ما نجهل اسم الإله الحثي ، أن لم نقل الحوري ، هذا مع العلم بأن الهنـدو – الأوروبيين
قد جلبوا معهم بعض آلهتهم كـ «مترا» مثلاً ، وبأن الحثيين اقتبسوا أيضاً بعض آلهة زون
(بانتيون) بلاد الرافدين كإشتار .

ونجد على رأس هذه اللائحة زوجين من الآلهة حيث تتولى المرأة الصدارة دون شك . إنها
الإلهة – الشمس ، وبصورة أوضح « شمس أرينتا » وقد اتخذت اسم المدينة ، حيث شيد أشهر
معابدها ، ولها حيوانان هما اللبوءة واليامة ، ورفيقها هو إله العاصفة الذي يصبح بالوقت نفسه ،
هنا أو هناك إله الحرب . ويمثلونه برفقة ثورين وترمز إليه الصاعقة أو الفأس أو الحربة أو
مجموعة من الأسلحة . ولكن مع الزمن والتطور تأتي على أوليته إلهة أخرى ، هي بالأساس ابنة
الزوجين المذكورين أعلاه . أننا هذه المرة امام الإله الفتى الشمس الذي يظهره لنا دون حياء ،
ولا يترددون من جعله عشيق والدته ، عندما يعتبرون هذه الأخيرة إلهة الخصب .

وتتأثر العبادة والكتب الطقسية تأثيراً كبيراً بزميلاتها في بلاد ما بين النهرين . فهم يقدمون
الذبائح – وقد يقوم غالباً بهذا العمل الملك نفسه – وينظمون المواكب ، كالمواكب الذي يظهره
النقش الذي أشير إليه أعلاه والذي يمثل إله العاصفة وهو يتقدم نحو الآلهة – الشمس . وما
الأمراض والمصائب إلا قصاص ترسله الآلهة : لذا وجب على المرء ، لتهدئة الآلهة ، أن يتطهر
جسدياً ويقدم الذبائح وينطق بالصلوات والعبارات الطقسية . وللسحر مركز مرموق كما أنهم
يقبلون على مراقبة النجوم ، وزجر الطير ، والتدقيق بكبد الذبائح ليسندلوا من هذه الطقوس
على المستقبل .

لا تستوجب الديانة الحثية الانقباه لكونها تمت الى اصول عده فحسب، بل ايضاً
لأنها تلقي الانوار على مصادر بعض العبادات والطقوس التي نعثرت عليها في
امكنة اخرى وازمنة لاحقة .

استمرار هذه
الديانة وانتقالها

وسنجد إله العاصفة ، المدعو تيشوب عند الحوريين ، والذي نجهل اسمه الحسي ، في سورية
باسم تحدد وفي فينيقية باسم بعل . وسيصبح الإله تحدد - بعل في مدينة دوليخه *Dolichè*
(بلاد كوماجين *Commagène*) الذي يحتفظ بالثور والفأس الإله زوس - دوليخانوس
Zeus Dolichénos ليوناني العهد الهليني ، ثم الإله جوبتير دوليخانوس *Dolichénus* للرومان ؛
وبهذا الاسم ستمتد عبادته الى كل المقاطعات .

وحسب كل الظواهر فان الإلهة الكبرى التي فقدت بصورة تدريجية صفتها الشمسية ليست
إلا « الوالدة الكبرى » ، الإلهة الرئيسية لكل آسية الصغرى تقريباً ، « مروضة الحيوانات
المفترسة » ، خاصة الاسد . وقد اطلقوا عليها اسماء عدة وعرفت تغييرات كثيرة . فدعتها نصوص
فيليقية قديمة باسم كوبابا . وستصبح كيببيه عند الليديين ، وسيبلة *Hybèle* عند اليونان .
وستجلبها رومة ، منذ أواخر القرن الثالث ق.م . من مدينة بستيوننت في فريجية ، المركز
الرئيسي إذ ذاك لعبادتها . وستعرف اتساعاً كبيراً في الامبراطورية الرومانية . ولكن عبادتها
الآسيوية ، كانت هذه الإلهة قد أثرت في ديميتير اليونانية ، وذلك قبل ان يشعر اليونان بزمان
كثير بانغرام عبادتها الآسيوية . وسارع الفرس ، منذ ان اتوا الى آسية الصغرى ، ان يساوا
بينها وبين إلهتهم انهيتا *Anahita* .

ووجد الإله الابن الفتى في الديانات السامية ؛ وقد عرفه اليونان في فينيقية باسم ادونيس .
وبهذه السفة اجتاز البحر الابيض المتوسط منذ القرن الخامس ق.م . ولكن ستعرفه اوروبة
ايام الامبراطورية الرومانية باسم أتيس خاصة وقد دمج مع والدته - وهي حبيبته في الوقت
نفسه سيبلة .

واخيراً اي تفسير نعطي لوجود بعض التقاليد الدينية التي عرفها الحثيون في مدينة رومة
وذلك منذ أقدم الأزمنة ؟ أحصل الامر عفواً ام كان وليد اعمال نهل مستقلة ولكن من معين
واحد مشترك عرفه مدى اتساعه شوائب غريبة ؟ ففي رومة سمى القوم ايضاً لقراءة المستقبل
من خلال كبد الذبائح وزجر الطير ؛ واستعمل العرافون العصا المنحنية ، الليتوس *Litua* التي
كان الحثيون يضعونها بين يدي إله الزوبعة والملك الذي يقوم بالخدمة الدينية . ومن غير المشكوك
فيه بان رومة عرفت كل هذا من الاتروسكيين *Etrusques* ؛ وبما ان هؤلاء قد اتوا من آسية
الصغرى نحو ايطاليا فلن البعض بانهم وجدوا فيهم الحلقة التي كانت تنقص السلسلة المشدودة .

وعلى كل ، حتى ولو لم نأخذ بهذه النظرية ، فافتنا نجد بان الحثيين ، وبصورة ثانوية حوريسي
ميتاني ، قد لعبوا دوراً هاماً في نشر المعتقدات الدينية . ولم يكتف الحثيون بالمحافظة على
الاساس الآسياني واقتباس بعض العناصر من بلاد الرافدين بل سهلوا انتقال كل هذه المعالم الى
امكنة اخرى على سواحل البحر المتوسط الشرقية .



الفصل الثاني

الحضارة الليدية

دخلت الامبراطورية الحثية طور التضعف حوالى أواخر القرن الثالث عشر، خاصة تحت عامل تهيء جماعات هندو - اوروبية ، أتت من الغرب عن طريق المضائق . وعلمنا ان ننتظر قرناً عدة لنعلم من جديد في آسية الصغرى على دولة لها بعض القوة ويمكننا معرفتها بعض الشيء .

ليست هذه حال مملكة او ممالك الفريجيين .

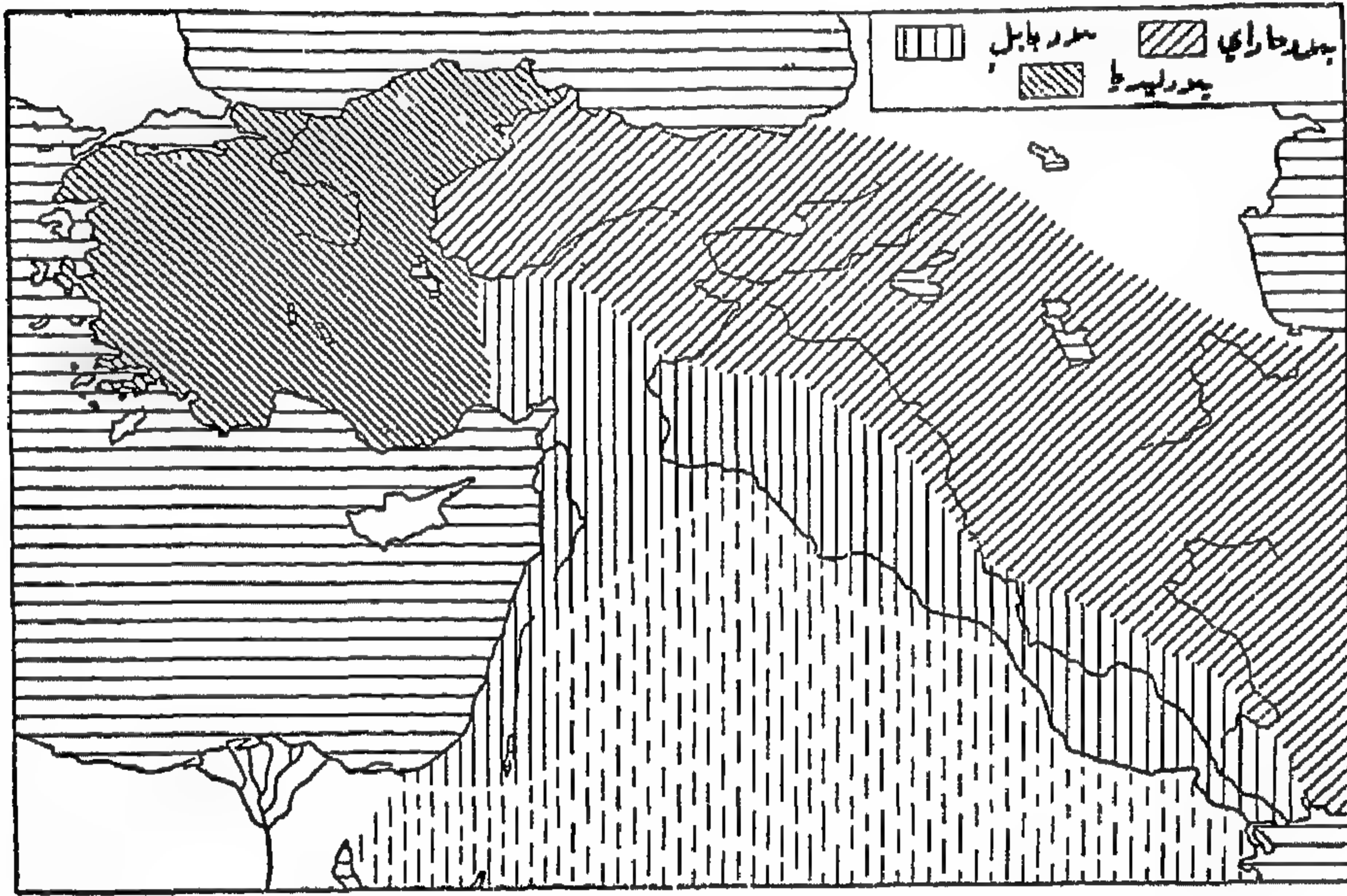
الفريجيون

فمنذ القرن الثاني عشر حتى أواخر القرن السابع تدلنا كتابات الملوكة الاشوريين على وجود الموشكو *Moushkon* في شرقي آسية الصغرى ، وقد ناصبهم العداء وتحاربوا مرات عدة . ومن الجائز الظن بان خلفاء الحثيين هؤلاء هم من تدعوم الالياذة بالفريجيين . وان صدقنا الاساطير اليونانية فانهم حالفوا امسالي طروادة . وكانت ملكتهم هيكوب ، امرأة بريام ، فريجية . وعندما ماوكم خلفاء غوردياس . وقد اشتق منه اسم عاصمتهم غورديون حيث قطع الاسكندر العقدة « الغوردية » . وميداس . واتخذ احد هؤلاء زوجة له امرأة يونانية من الساحل الايحيى وقدم لابلون الدلفي العرش الذي كان يجلس عليه للقضاء . ولا نستطيع تفسير هذه الوقائع إلا اذا قاربنا بلاد الفريجيين من الغرب اقله البحر الابيض المتوسط ، وان هي كانت اقل اتساعاً لجهة الشرق من الامبراطورية الحثية .

وما نستطيع زيادته على هذه الاسطورة او تصحيحه هو امر قليل . فقد اتت زمرة من الفريجيين من بلاد تراقية : وهذا ما تؤكده بعض العلاقات الدينية ؛ ولكنهم حصلوا على إرث الاسيويين والحثيين العريق . ومن الوجهة السياسية لم يكونوا دولة مركزية ، إذ لم يكتشفوا قبوراً كبيرة ، وهي قبور ملكية دون شك ، في غورديون فقط ، بل ايضاً في اقطار شرقية ، في انقرة مثلاً : وتفسر هذه البعثة ضعف دورهم الحربي . وقد كانت لهم علاقات تجارية مع

جيرانهم ، ولكن على مدى قليل . وفي الحقيقة غدت الزراعة وتربية المواشي ، وقد امتدحتهما الاليادة دون ذكر تفاصيل مميزة ، مصدر ثروتهم الرئيسية . واطهر علم الآثار بانهم تأثروا بتيارات مختلفة في مجال الفن والصناعة الخزفية : فهناك تأثير الحثيين ، وقد عمدوا مثلهم الى النقش على الصخور ؛ وتأثير قبرص التي باعتهم العرعى التي تصل اجزاء الثوب والاواني ؛ واخيراً تأثير اليونان الذين اخذوا عنهم الالفباء ومبادئ التزيين في القرن السابع .

وهكذا نجد حضارة مختلفة العناصر ولكنها دون نضارة . ولم تتحدث العصور القديمة عن الفريجيين إلا بشأن هيكل بستيونوت من حيث امتدت عبادة سيبله وأتيس مع ما يرافقها من ادوات موسيقى صاخبة كالصنوج او « النحاس الفريجي » .



الشكل ١٥ - امبراطوريات آسية الوسطى نحو منتصف القرن الخامس قبل المسيح

تقدم لنا الحضارة الليدية وجهاً آخر مختلفاً .
المملكة الليدية
انشقت عن الاقطار الفريجيسية المناطق التي ستصبح في غربي آسية الصغرى المملكة الليدية . ولكن لم يظهر هذا الاسم إلا في زمن متأخر : اذ اسكنت الاليادة في هذه المنطقة الميونيين « Maioniens » الذين كانوا هم ايضاً حلفاء طروادة . وقد ربطت التقاليد اليونانية تغيير الاسم مع اغتصاب العرش على يد جيغس Gyges في اوائل القرن السابع ! وفي الفترة نفسها تشير النصوص الاشورية الى اللودو Loudou وملكهم غوغو Gougou . ودام حكم السلالة الجديدة المدعوة سلالة مرمناد Mermnades ، نحو قرن ونصف وذلك حتى الفتح الفارسي . وفي آخر

عهدا سيطرت على مسافات شاسعة : فقد بسطت نفوذها على آسية الصغرى الغربية بكاملها حتى نهر الهاليس . وخضعت لمهايتها ايضاً السواحل الايجية بما فيها المدن اليونانية . وقد احاطت — ولا تزال — شهرة غنى استثنائي باسم آخر ملوكها كريسوس *Crésus* . وغدت عاصمته سرديس *Sardes* مركز حضارة زاهية .

منذ وصول الهنود — اوروبيين غدت تسيطر على البلاد طبقة من النبلاء لما تملكه من اراضٍ . وكانت تقدم للملك « رفقاء » . وقد ملأ الوزير جيغس هذا المنصب وغدا خاتمته الشهير الختم الملكي . ولم يأت « المرمند » على هذه الفئة الارستوقراطية . وبعد هذه السلالة نجد النبلاء يعيشون في ممتلكاتهم في بيوت ريفية دعاها اليونان « الابراج » وهي تشبه الحصون . وكانوا بعض المزارع اغنياء جداً مما ادهش الملك الفارسي أخشويروش او (*Xerxès Asrcisus*) . وحققت السلطة الملكية ، على زمن خلفاء جيغس ، تقدماً محسوساً ، حتى ان التقاليد تظهر لنا الملوك مطلقي الصلاحية ، لا بل تعتبرهم طغاة حقيقيين . ولم يراعوا خاطر احد إذ كانوا خلفاء مغتصب يواجهون الدسائس والفتن ويلاقون المنافسة عند شغور العرش : وكان والد كريسوس يمزق ثياب النبلاء ويبصق في وجههم إذلالاً واحتقاراً . وامات كريسوس اخاه بين اسنان آلة تمشيط الصوف لانه سعى الى العرش .

الحياة الاقتصادية لم تكن ثروة الملك اسطورة ، وقد اثبتتها هبات منقطعة النظير في بلاد اليونان . وتولد هذا الغنى الفادح عن استثمار املاك الدولة والضرائب التي ادتها الجماعات المحلية . وعلاوة على ذلك كثر المعدن الثمين وقد جمعه على شكل وريقات من رمال الباكثول ، نهر سرديس ، كما استخرجوه من مناجم بعض الجبال . وكان يوجد ايضاً ضرائب على التجارة . وقد يطرحون هذا السؤال : هل ازدهرت التجارة مع الشرق البعيد ؟ ان حفريات سرديس اظهرت لنا اشياء قليلة جداً اتت من تلك النواحي ، ولعلمهم يغالون كثيراً في وصف تجارة القوافل التي كانت تتجول على الطريق الكبيرة التي تخترق آسية الصغرى ، والتي ستدعى فيما بعد « الطريق الملكي » ايام الفرس . ومع هذا يؤكد هيرودوتس بان الليديين غدوا الكابلي *Kapèloi* الاولين ، اعني الذين يبيعون بالتفريق ويديرون الخانات (اي الفنادق) . وعلى كل لا يشك احد في كثرة التبادل التجاري مع مدن الساحل اليونانية التي تقود اليها الاودية النهرية والتي غدت صلة الوصل البحرية مع الغرب .

وقد دعا دون شك هذا التبادل لاختراع النقود المعدنية التي وضعت حداً لمراقبة نوع ووزن السبائك التي عمم استعمالها سكان بلاد الرافدين . وتتردد التقاليد كثيراً في تعيين زمان ومكان اختراعها . وقد يكون حقق ذلك بعض الافراد في مدن الساحل اليونانية . ولكن ان عدت المملكة الليدية مقتبسة ذاك الاستعمال فهي قد اقتبسته باكراً . وسك القوم في اول الامر قطعاً من معدن استحصلوا عليه بمزجهم الذهب والفضة بنسبة غدت عرضة للتبديل ، فأصبحت من ثم

النقود ذات قيمة غير معينة . وظهرت اول عملية سك نقود فضية في بلاد اليونان ، بينما غدا كريسوس اول من سك نقوداً ذهبية في عالم البحر الابيض المتوسط .

ان العلاقات مع العالم اليوناني تفسر لنا تشابك هاتين الحضارتين .
الحضارة الليدية
والحضارة اليونانية
احتفظت الحضارة الليدية بمظاهر جد شرقية . وشابهت القبور الكبيرة التومولي *Tumuli* الفريجية . وغدت سبيلة وأتيس الإلهتين الرئيسيتين . وكان للموسيقى مركز مرموق في الحفلات حتى قد تهجم الجيوش على ميله *Milet* « على انغام المزمار والقيثارة » . واتسمت الدعارة بطابع مقدس ، وكانت امراً طبيعياً للفتيات اللديات . وعلى كل فقد ساهمت الجاريات ، بالاشتراك مع رجال الصناعة والتجارة ، باكبر مبلغ لتشييد قبر والد كريسوس . لذا لم يستنكف اليونان عن ذكر تفاصيل حياة الليديين الانيقة والمختلة : فهم يصفونهم مرتدين غلائل طويلة من قماش زاه ، وواضعين في آذانهم الخرصان ، يهدرون الدهن المعطر على رؤوسهم ، ويتذوق المسك والطيب والعطر من اجسادهم . وهم يفضلون الاكل اللذيذ والحلويات والمرببات ، ويخترعون - لتناسي الجوع والقحط - ألعاب الكعب والزهر والكرة ، وألعاباً كثيرة اخرى . ولا ترمز هذه الالعب الصبائية التي ترفع من المعنويات إلا الى الافتتان الذي شعر به اليونان عندما احتكوا بطبقة اجتماعية استغلت معرفتها فنون الرفاهية التي اوجدتها حضارات الشرق القديمة .

ولم يتوان اليونان عن الحضور . فقد عرضوا خدماتهم كمرتزة وتعاطوا التجارة . وألفوا مستعمرة في سرديس : ففي هذه المدينة ولد الشاعر ألكمان *Alcman* . لا بل توصلوا الى القصر ايضاً إذ ان والده منافس كريسوس السيء الحظ ، وهو اخ له من أبيه ، كانت يونانية . وتفتحت الحضارة الليدية على العناصر اليونانية ، واتخذ الملوك الليديون لنفسهم لقب « محبو اليونان » ، ولم يسلكوا هذا المسلك للدعابة : فهم استشاروا العرافين اليونان ، وظهروا احتراماً فائقاً للاله ابولون في مدينة دلفي ، واكثروا العطايا للها كل والمدن اليونانية ، وتعاقدوا مع المهندسين تاليس . وتذكر التقاليد بانهم عهدوا الى صاغة يونان في بعض اعمالهم ، وقدموا المعونة الى شاعر الامثال ايزوب *Ésope* ، وتحدثوا الى هذا او ذاك من الحكماء السبعة الذين اتوا الى بلاطهم . ولم ينحصر اثر الحضارة اليونانية في القصر الليدي فقط اذ وجدوا اغراضاً خزفية كثيرة من صنع يوناني في قبور سرديس التي ترتقي الى اواخر القرن السابع او الى النصف الاول من القرن السادس . وبعد مضي قرن على الفتح الفارسي كتب المؤرخ الليدي كسنتوس *Xanthos* تاريخ بلاده باللغة اليونانية . وهكذا منذ اواخر العصر المتوغل في القدم بدأ ذاك التطور ، وقد اشتد مع فتح الاسكندر ، الذي سيجعل من آسية الصغرى الغربية ارضاً حصبة للحضارة اليونانية ، وذلك طوال العصور القديمة الاخيرة وفترة طويلة من القرون الوسطى

وبالمقابلة فقد عرف اليونان من معين الحضارة الليدية ، واستغواهم الذهب . ولتفسير وجود

الذهب بشكل كثير ومفاجيء من الممكن الظن بانهم لاقوا مناجم جديدة . وعلى كل فقد ذكروا ، وكانوا بذلك على حق ، « هجوم » اليونان ، وهم تناسوا بسهولة انفتهم امام مثل هذا الغنى . وقد اورد هيرودوتس قصة احد نبلاء اثينة الذي سمح له كريسوس ، مكافأة له لانه اضحكه بشكله الزري ، ان يأخذ من الذهب ما يستطيع حمله ، فملأ النبيل إذ ذاك حذاءه ودييات فميصه وفيه ايضاً ، هذا علاوة عن الهدايا الاخرى التي تلقاها . واخذ اليونان من ليديا العدد الكثير من الكنوز ، إذ غدت هذه البلاد ، وهي قريبة من مدنهم الآسيوية ، إحدى الطرق ، لا بل الطريق الرئيسية ، التي سمحت لهم بالاحتكاك مع الشرق الذي اقتبسوا عنه الطرق التقنية الصناعية والفنية ، والعقائد والعبادات الدينية ، والامثال الميثولوجية والمعلومات العلمية . وهكذا غدت اقتباسات اليونان من الشرق كثيرة العدد وثقيلة الوزن ، إذ تعجز المصادفة ان تفسر التقدم الذي احرزته ايونية على سائر المقاطعات اليونانية ، وقد شاركت لا بل خضعت عملياً لسرديس : ولم تلاق اي من هذه المقاطعات سهولة مثل ما لاقت ايونية للاستفادة من اختبارات الغير .

الفصل الثالث

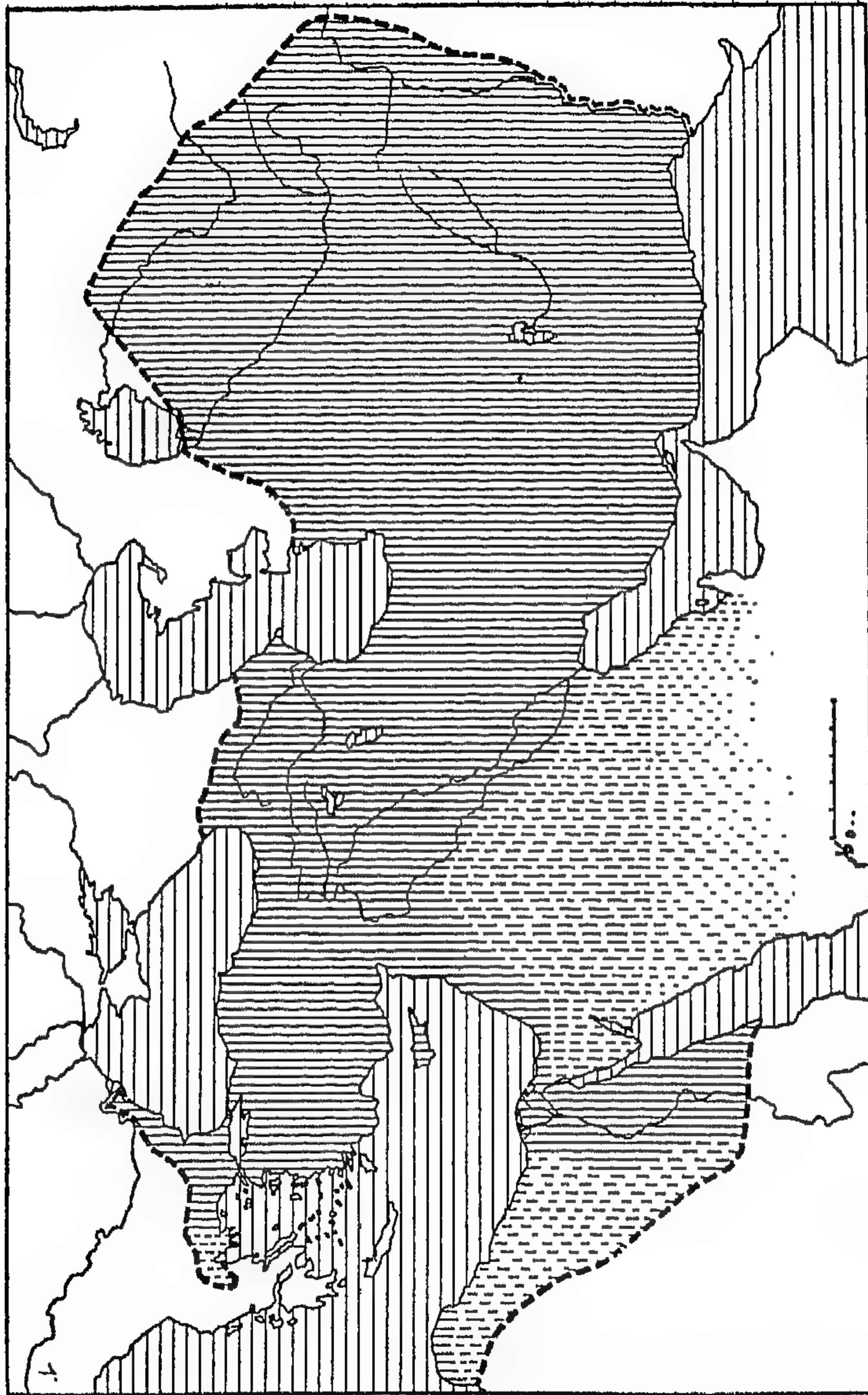
حضارة بلاد الفرس الأخمينية

استولى الملك كورش الفارسي على سرديس سنة ٥٤٦ او سنة ٥٤٥ . وبعد قليل بدأ يونان الساحل بهجماتهم ، وهكذا فوجيء العالم بظهور قوى جديدة سوف يقضي توسعها بشكل صاعق على جميع العقبات ، وذلك اثناء نصف قرن او اكثر .

روح السيطرة الفارسية كانت هذه القوى لشعب لم يعرفه احد قبلاً كبير اهتمام . وينتمي هذا الشعب الى الارومة الهندو - اوروبية ، وكان قد استقر في الالف الثاني ق.م في جهات هضبة ايران الغربية . وجاوره جنوباً السوزيون *Susians* الذين كانوا قد اقتبسوا حياة سكان بلاد الرافدين منذ زمن قديم . ولكن فصلت سلسلة جبال زغروس بين هذا الشعب وبلاد ما بين النهرين . ومع هذا تأتي على ذكره بعض المزارر نصوص آشورية . وعندما يقرؤها المرء يعتقد بأنه ازاء قوم من البدو السرقة والمقلقين . ورويداً رويداً استقر بعض منهم ونظموا حياتهم حسب تطور لا تزال نجهله .

وحالف هؤلاء البابليين واسهموا ، بقيادة الماديين ، بالاستيلاء على نينوى وتدميرها ، وقد نالوا مناطق بلاد الرافدين العليا عندما قسمت الامبراطورية الاشورية . ولم يكفهم هذا . وكان عليهم ان ينتظروا اكثر من ستين عاماً ليظهروا قوتهم الحقيقية دون حاجة الى حلفاء . وفي هذه الاثناء انتقلت القيادة الى الفرس الذين حققوا غرباً فتوحات ساحقة : فاستولى كورش ، اول ملك من السلالة الاخمينية ، على ليديا ثم بابل ؛ واخضع ابنه قمبيز مصر والقيروان ؛ وغدا الملك الثالث داريوس الاول سيد بعض جزر بحر ايجه وتراقية في اوروبه . واثار غزوات اخرى اشد صعوبة دون شك - ولا تزال معرفتنا بها سطحية جداً - دانت لهم هضبة ايران حتى تركستان ونهر الهندوس .

وفي زمن لاحق غدت حدود الدولة هنا وهناك عرضة للتغيير : وهكذا تخلى الملوك نهائياً عن اوروبه اثر انكساراتهم في بلاد اليونان زمن الحروب المادية . وحصلت في الداخل ثورات



الشكل ١٦ - امتداد الامبراطورية الفارسية في بلاد الشرق الخامس قبل المسيح

متتالية لم يستطيعوا قمعها إلا بصعوبة ، كما حصل في مصر مثلاً . ولكن لا تؤخذ هذه الظروف بعين الاعتبار إذ لم يسبق للعالم القديم ان عرف دولة بمثل هذا الاتساع . ولكونها ورثت الامبراطوريات العظمى التي سبقتها فقد هيمنت هذه الدولة على كل الاقطار التي خضعت لتلك الامبراطوريات ، وزادت عليها بلاداً اخرى : ولم يصل اقوى الملوك الاسوريين الى المضائق او الى نهر الهندوس .

وهناك اكثر من ملاحظة جغرافية . فمن ناحية اولى استفاد الماديون والفرس ، وقد برروا في زمن لاحق على مسرح منازعات الترق السياسية والحربية ، من تصعصع شركائهم القدامى وتفككهم . ولم يستطع الذين هددتهم الماديون والفرس ان يوحدوا صفوفهم لما استحكم بينهم من منافسات قديمة ، لا بل كان تحالفهم ، ان تحقق ، اعجز من ان يتبلور في عمل مشترك . ومن ناحية أخرى وجد عواهل الفرس في تراث الممالك العظمى المعنوي التي غلبوها على امرها مبادئ عدة تدعوهم الى السيطرة العالمية . وكان التراث البابلي اغنى من كل رملائه في هذا المجال . لذا ظهر هؤلاء الملوك وكأنهم يحققون منهج الدول الشرقية الاستعماري .

وفي الحقيقة لم يكن اندفاعهم المفاحى إلا تعبيراً عن دفقة حياة جديدة في نظام مرت عليه ألوف السنين . بضعة تلت زميلات كثيرات لها امتدت ابعد منهن مدى ، ولكنها ستعرف مثلهن المصير المنهك . وهناك اكثر من ذلك . فان كان الانكاس الذي تلاها قد تأخر ، ولم يحصل إلا بعد قرن ونصف من الحرب المادية التاية — لكنه عدا اوسع مدى من اي انكاس سابق واتخذ له طابعاً حديداً ، اذ مع الاسكندر عمر العرب لأول مرة اقطار الامبراطوريات القديمة ، ولم يصبح توحيد الترق إلا عاملاً يسهل مهمة الذي سينتصر عليه . وقد ناب المكدونى مناب العاهل الاحمينى ، بعد ان انتصر عليه ، وعدا هو ايضاً وريت المادىء الملكية التى نشأت في مصف وطيوه وبابل وأسور .

الروح الايرانية « أنا أحستويروس ، الملك العظيم ، ملك الملوك ، ملك السلاذ المتعددة أصناف رجالها ، ملك تلك الاقطار الشاسعة ، ان داربوس الملك ، اى احمينى وفارسى وابن فارسى وآرى م عرق آرى » هذا ما تظهره لنا كتابة محفورة على حسم موحد السطح تقريسياً . وتحوي مجموعة هذه الالقاب اموراً عدة . ودون ان بعيد الكره على مزاعم الملك الذي يريد السيطرة على العالم كله سنكتفي بالتعلق على العناصر الاخرى .

بشدت الملك على وصف اصله العائلى والعرقى . فهو يعلن نفسه بكل اعتزاز بأنه ابرانى نبيل؛ ويبقى في الواقع على هذا النسف .

وكان الآريون — وهم الهندو — اوروبيون الذين استوطنوا ايران — اقرباء الغرب والسياريين الذين سكنوا السهول المنبسطة ما بين الدابوب الاسفل وتركستان . ولم تستطع ايران ، وهى بلاد سباس وصحارى ، ان تفقرهم . وعدت المناطق ، التي تقع على سفح الجبال المحيطة بالبلاد

من الشمال ومن الغرب ،البقاع الوحيدة الصالحة لحياة استقرار لمناخها الرطب وسهولة الري . ومع انه أسست هناك المدن فقد استمر مبدأ حياة البداوة يسيطر نوعاً ما . وبقي التنظيم الاجتماعي الطبيعي على ما كان عليه في القبيلة : ست قبائل من الماديين ، كما يقول هيرودوتس ، وعشرة قبائل من الفرس منهم أربع قبائل رحل . وقسمت هذه القبائل الى بطون وأسر : ومن هنا تكاثر عدد الرؤساء الذين يتوارثون السلطة والنبلاء الذين يختلفون فئات وطبقات . ولم يختلف الماديون والفرس في هذا كله عن سائر الايرانيين الا في تكوين نظام ملكي مطلق مبدئياً ولكنه يحسب واقعياً الف حساب للأسر الكبيرة .

واعتقدت بعضها بانها لا تقل شرفاً عن الاسرة الاخمينية نفسها . لقد اكتسب كوروش سلطة معنوية لا حد لها لما احرزه من انتصارات ، ولكن انقرض نسله بموت ابنه . وانتسب داريوس الاول الى اسرة ثانوية ولم يكن رئيساً لها . وانتخب من بين عظماء كثيرين كانوا قد تضافروا ضد احد المغتصبين . وكان احدهم قد تنازل عن ترشيح نفسه ، شرط ان يعفى ، هو وذريته من بعده ، من الاعتراف باي سيد . واسدى الملك الجديد خدمات جليّة اذ قمع الثورات التي نشبت في سوزة وبابل وبلاد ماداي - فاحرز تسعة عشر نصراً ، وادب تسعة عصاة - ونظم الامبراطورية . وقد أضفت عليه هذه الاعمال هالة من المجد استند اليها خلفاؤه . ولكن حصلت اضطرابات عدة كان مصدرها القصر ، وهو مهد الدسائس والمكائد ، او أحدثها نبلاء كان اخلاصهم سريع التضعف . واستند النظام الملكي الفارسي على اخلاص الفرد للفرد ، وذلك على مدى واسع ، اي على النفوذ المعنوي الذي يتمتع به الرئيس عند صحابته .

وتبرز الروح الايرانية بمظاهر اخرى تميز الحضارة الفارسية عن الحضارات الشرقية القديمة . ولا يتم هذا في مجال الدين فقط حيث للاله الاعظم أورموزد طباع مميزة لا جدال فيها ، بل ايضاً - ويصعب تحليل هذه النظرية - في توزيع الامة الى فئات تعتمد كل منها على صناعة ، وذلك حسب مبدأ نظري شبيه بالذي تنفذه اليوم الامة الهندية . واخيراً تبرز تلك الصفة باستعمال نقوش ورموز تعبر عن اساطير غامضة ، يمتد اتساعها الجغرافي دون تعيين حدود ، الى سباسب جنوبي اوروبة واواسط آسية متجاوزاً بذلك حدود ايران . وبين الارواح التي لا يرقى الشك الى دورها الوقائي يحتل الحصان منزلة مرموقة ، إن كان وحده او ضم بصورة غريبة الى حيوانات اخرى كالديك مثلاً . وعندما يخبرنا هيرودوتس بأن داريوس انتخب للعرش لأن حصانه قد صهل للشمس الشارقة قبل أحصنة الطامعين الآخرين بالتاج ، فان معرفة ارادة الآلهة بهذا الشكل تتلاقى مع دلائل اخرى لتظهر لنا الامة العملية والروحية التي كانت للحصان عند شعب بدوي الاصل استمر على تعاطي تربية المواشي .

لا نستطيع والحالة هذه ان نفصم العرى التي تصل المملكة
إرث « الشرق الكلاسيكي »
الفارسية بأصولها الايرانية : وان رجعنا الى الزمن القديم نرى

بأن هذه المملكة هي غريبة عن « الشرق الكلاسيكي » . ولم تفت الاسكندر هذه الحقيقة إذ تظهر السياسة التي اتبعها بأنه شعر ، وهو في ايران ، بأنه اقرب الى مقدونية مما لو كان في مصر او بلاد بابل .

لكن تأثرت الحضارة الفارسية بمجار كثيرة اخرى ، جعلت منها حضارة شرقية . وتعتبر هذه الحضارة ، اكثر من كل زميلاتها السابقة ، نقطة التقاء . ونسبة لما اقام الماديون والفرس من علاقات مع سوسه وبلاد الاشوريين فانهم تخطوا الحياة البدوية الصرفة . ثم جعلت الفتوحات من الاخمينيين ورثة اعظم الامبراطوريات القديمة وسادة اقطار تأصلت فيها اشد الحضارات قدماً . ومع ان هذه الحضارات كانت قد أشرفت على المغيب فانها تركت تقاليد وآثاراً باهرة : فكيف التهرب اذن من اشعاعها ؟ وبرز تأثير الشرق قوياً جداً ، خاصة نفوذ بلاد الرافدين ، وهي اقرب الى وسط الامبراطورية واشد تنظيمًا من مصر البعيدة .

ونشأت عن هذه الحالة ، في المجال السياسي ، صعوبات مباشرة اظهرت حدتها اللازمة التي برزت عند اعتلاء داريوس الاول العرش . وغدا من الضروري ايجاد نظام ، وان كان ادارياً اقله ، لامبراطورية لا تعرف اي وحدة اذ هي فسيفساء بلاد متعددة الشعوب ، تختلف في الدين واللغة والنظام الاجتماعي والحياة الاقتصادية ، ولم يكن الهدف توحيد هذه الحضارات او صهر تلك الامم . ولم يكن هناك سابقة تدعو الى ذلك ، ولم تلاق مثل هذه الفكرة ، ان وجدت ، اي بدء تنفيذ . انهم اكتفوا فقط بنقل بعض السكان من قطر الى آخر وذلك على سبيل القصاص ، فأسكن بعض اليونان في بلاد سوسه ، وكان الاشوريون والبابليون قد لجأوا مراراً كثيرة الى مثل هذا التدبير . وهكذا أسكنت بعض الجماعات الايرانية في وادي النيل وآسية الصغرى الغربية . وقد مثلت هذه الجماعات فرقاً حربية اسندت اليها مهمة الدفاع عن حدود يهددها الخطر او مناطق معرضة للثورات . واكتفى الملوك الاخمينيون ، دون ان يكون لهم هدف واسع المدى والتنظيم ، ان يروا بأن اوامرهم تنفذ ، والحرية تدفع لهم بانتظام ، وتعبئة جيوشهم تتحقق .

وتوصلاً الى هذه الغاية لجأوا الى الطرق التي اتبعها اسلافهم ، خصوصاً ملوك بلاد الرافدين . انهم حسنوها دون شك ونفذوها غالباً كما تقتضيه العدالة والروح الانسانية ، ولكنهم لم يستنبطوا شيئاً جديداً في هذا المصير . ومع هذا فان التطور الذي قد حصل كان خارجاً عن ارادتهم ولم يحددوا المنتفعين منه .

النظام الملكي
الملك هو مطلق الصلاحية . ولا يحق لأي فرد او لأي مجلس جماعي ان يقاسمه سلطاته او يراقب كيف يستغلها . انه يتسامها من اورموزد الذي ينتخبه . وتبتدىء كل النقوش الملكية ، تحت ستار الدعاء الى الإله ، باعادة ذكر هذا التعمين : اورموزد هو الاله الاكبر ، الذي خلق السماء في العلى ، واوجد الارض ، الذي ابدع الانسان

واستنبط له الغبطة ، الذي جعل من داريوس ملكاً ، ووهب لداريوس هذه المملكة العظيمة الغنية بالخيول والسكان . وقد وجد هذا النص منقوشاً على اربعة وعشرين نصباً في مصر . وعلى وجهه النص الآخر وجدوا النص الهيروغليفي المقابل وهو يعزو انتصارات الملك الى عطف إلهة سايس ، والدته . اما في بابل فكان الاله بعل - مردوك ينتخب الملك . وهم يسندون النص الرسمي الى التقاليد المحلية . ولكن لا يتكلم هذا النص الا عن الاله الايراني .

ولا تعتبر السلطة الملكية المطلقة التي تقررها ارادة الاله تجديداً في الشرق . كما لا يعد امراً غير مألوف الرأي القائل إن على الملك ان يحب الحق ، ويؤمن العدالة ، ويحمي الضعيف وذلك طاعة لرغبات الإله . وتعد هذه النظرية جزءاً من مفهوم النظام الملكي المصري ، وقد اشار اليها بشدة حمورابي في قانونه . ولكن يعبر ملوك الفرس عن هذه العقيدة بصورة اشد وضوحاً واكثر استمراراً : « لقد احببت العدل وأبغضت الكذب » كما يؤكد داريوس « وارادتي هي ان لا يلحق ظلم بالارملة واليتيم ؛ لقد جازيت الكذاب وكافأت الفلاح » . وهذا ما يتفق مع المبادئ التي بشرت بها الديانة الفارسية لكل الامم . وان اعتبر بعض الكتاب اليونان الملك الاخميني ، وهو عدو وطنهم ، مثال المستبد الظالم الذي يعد نفسه فوق كل قانون ، فقد اشاد البعض الاخر ، ومراراً الكتاب الاولون ايضاً ، بمثل هذه التعاليم . وعلى كل لم تكن هذه الاشادة مجرد كلمات جوفاء ، فان كتاب السيروبيدي *Cyropédie* لكسينوفون *Xénophon* هو اقدم قصة تاريخية . ولكن اشتهر بحق داريوس الاول بانه مشرع عادل ونشط .

وهناك مظهر كلاسيكي للنظام الملكي الشرقي المثالي ، وقد اشاد بذكره الملوك الاخمينيون الذين انتسبوا الى أصل ايراني : فالملك هو القدوة لكل محارب ، اذ قد غدا مروضاً على مختلف التمارين الجسدية ؛ وعندما وصل الاسكندر الى قبر داريوس نقلوا له بهذه الكلمات ما كان قد نقش على ضريحه : « كنت صديقاً لاصدقائي ، واصبحت امير الخيالة ورماة القوس ، وفقت الصيادين ، وباستطاعتي القيام بكل شيء » . ويعبر هذا الموجز احسن تعبير عن روح النص الاصيل . وان كان اطول .

وفي اول عهد النظام الملكي ، كان باستطاعة النبلاء العظماء ان يقابلوا الملك بسهولة . ولكن بعد داريوس نظمت مبادئ دقيقة جداً جميع اعمال الملك . فهو يعيش في جناح خاص بالقصر دون ان يستطيع احد الاقتراب منه . وتخبرنا قصة استير *Esther* بأن نساءه كن ينتظرن اوامره ليلتحقن به . ولم يشاهده الخاضعون لحكمه الا في ايام الاحتفالات ، يخضع الجميع امامه عندما يطل على عرش العظمة او عربة الابهة يحميه حرس منتخب تخلص لنا تصاوير سوسه اسلحتهم وحليهم . وقد سبب له هذا الانزواء نتائج لا مفر منها : دسائس الحريم والاعتيالات ومكايد الوزراء والخصيان . ويوجد هوة سحيقة بين المملكة القوية التي حكمها كورش الكبير او

داريوس الاول وبين الدولة التي انقضت عليها الاسكندر اذ كان قد هلك ملكات من ملوكها بالسم بينما احتاط الثالث لنفسه فسمم قاتلها خشية ان يصبح هو الضحية .

الحكم والادارة للملك عدة عواصم، فمنها ما هو في بلاد فارس نفسها: بسرغاد *Pasargades* التي اسسها كورش ولكنها اُهملت بالواقع، وبرسبوليس *Persépolis* التي وضع تصميمها داريوس، اول ملك من الفرع الثانوي، لتصبح مقر السلالة الرئيسي والتي لم يكتمل قط بناؤها. وهناك عواصم اخرى كانت قواعد الدول التي اخضعتها المملكة الجديدة: إكبتانا في بلاد ماداي وبابل وسوزه. وقد اُهملت مصر وليديا لبعدهما. وشيد الملك في كل مكان القصور وأقام الحدائق الكبيرة حيث ترتفع الاشجار وتكثر حيوانات الصيد المتنوعة. واسم الفارسي للحدائق الكبيرة حيث ترتفع الاشجار وتكثر حيوانات الصيد المتنوعة. وسريعا ما ينتقل الملك من مكان الى آخر دون ان يجبر نفسه في هذا المجال بمبدأ او نظام. ولكن المقر المستحب هو مدينة سوزه، حتى ان اسم هذه المدينة غدا للمعاصرين كأنه رمز لقوة الامبراطورية وهيئة حكمها.

ويجري طبعا كل شيء باسم الملك. وتتخذ القوانين الملكية العمومية شكل تصريحات شفوية تصدرها دوائر الدولة. ولكن يقوم الى جانب الملك وزير ينتخبه العاهل ويدعوه اليونان «شيليارك» *Chiliarque* ويشترك هذا اللقب من كلمة حربية وهو يعني قيادة جزء من الحرس الملكي.

وترتكز المركزية على وسائل مادية قوية. فقد اعدوا بعض الطرق الكبيرة والحقوا بها سلسلة من الخانات والاصطبلات التي تعتبر كمحطات تؤمن تنقل السعاة السريع. ومن اشهر هذه الطرق الطريق التي تصل سرديس بسوزه، وعلى كل هي الاشهر لان اليونان استعملوها وغدت موضوع اعجابهم. ولكن لا يكفي تبادل الرسائل؛ لذا ترسل الحكومة المركزية مراقبين يراقبون الادارات المحلية؛ وقد دعي هؤلاء «عيون وآذان الملك» حسب استعارة تبنتها الممالك التي سبقت في الزمان.

وهناك وسيلة اخرى تسهل المركزية: اللغة والكتابة. ولم تكتب الفارسية لغة الملوك، قبل داريوس الاول. ولهذا الهدف تبناوا العلامات المسارية. واستعملوا اللغة الفارسية في النقوش الرسمية والاستعراضية، كما استعملوا في الوقت ذاته لغات الممالك القديمة كلغتي بلاد أكاد وسوسه. وقد سمحت هذه النصوص المكتوبة باللغات الثلاث للعلماء المعاصرين ان يحملوا رموز هذه اللغات المنقرضة وذلك لما عرفوه من اللغة الفارسية بواسطة كتب البارسييس الدينية الذين يقيمون في الهند. ولكن لم تصبح هذه اللغة سهلة التداول لانها فرضت استعمال الحذف. وكانت المملكة الاشورية قد بدأت تستعمل اللغة الارامية؛ وهكذا اعتبرت المملكة الفارسية اللغة الارامية اللغة الوحيدة للأعمال الادارية. وعمدت دوائر الدولة في سوزه الى نقل النص

الفارسي الى اللغة الارامية وارسلت نسخاً من مقرراتها الى الدوائر الحكومية المحلية التي كانت تترجمها بدورها الى لغة القطر الوطنية . وهذا ما يفسر لنا التقدم المستمر الذي احرزته اللغة الارامية في الشرق الادنى - وهذه نتيجة غير مقصودة لضرورة سياسية - وقد نتج كل هذا عن اسناد المملكة وظائفها - ولم يكن لها تقاليد عريقة او مؤهلات لخلق ادارة مركزية على شكل آخر - الى جماعة من الكتبة اورثتهم اياها الدول المنقرضة او انتخبتهم من رعاياها الاكثر تنوراً او اطلاعا .

هكذا اكتفى الاخمينيون بتبني اساليب اسلافهم والسير بها نحو الكمال ، وذلك في اكثر من مجال ، ولكنهم اوجدوا مناهج جديدة في مضمار الادارة القطرية ان لم يكن المحلية ، واحترموا الجماعات البشرية والتقسيمات الجغرافية التقليدية كالقبائل والممتلكات العقارية الفسيحة العائدة الى الهياكل والاشخاص ، والمدن والمحافظة . ولكنهم مع هذا قسموا امبراطوريتهم الى عدد من المقاطعات يتراوح بين العشرين والثلاثين دعوها المرزبانات . وكان على رأس كل منها نزيل ايراني يمثل دون شك الملك ، ولكنه يمثل ايضاً في الوقت ذاته الشعب الفاتح او بالاسرى تلك الطبقة الارستوقراطية الحربية التي تصلها بالعاهل عرى وفاء شخصي ، اذ تشترك واياها بحماية وادارة الاقطار التي انتصر عليها بجهودهم المشتركة . وقد برزت الصفة الايرانية في اكثر مظاهر هذا التنظيم اذ عاش المرزبان ، ولو على مستوى اقل ، سيشة الملك ، وكان له قصر وحرس وبلاط واصدقاء شخصيون . ولم تخل هذه الحالة من مخاطر . واتخذ داريوس الاول للأمر احتياطاته اذ اوجد المفتشين والمراقبين ، وانشأ نظام البريد الملكي ، وأقام بجانب « المرزبان » امين سر يرسل مباشرة الوزير ، واسند الى قائد خاص قيادة الجيوش الموجودة في المرزبانة . ولكن ضعف بعض الملوك والتنازع على السلطة في القصر او هنا هذه العرى التي كانت قديماً متينة وقوية . وجند بعض المرازبة مباشرة المرتزقة وطالبوا - ونالوا مبتغاهم - باسناد وظلائفهم الى اولادهم ؛ وقد احدثت هذه التصرفات ، في القرن الرابع ، اضطرابات ملويلة الامد في نواحي الامبراطورية الغربية . وبعد ان كانت هذه القلاقل محلية فقط اتسعت فحدثت اذ ذاك « ثورة المرازبة الكبرى » التي لم يقض عليها ارتحششتا الثالث الا بدعوة كلية .

توسعت هذه الادارة في الدرجة الاولى اعطاء الملك وسائل اظهار
اهداف الادارة
سجبروته .

وانما الهدف الاول توفير الاموال ، لذا اجبر جميع رعايا الدولة على دفع الجزية ما عدا الفرس والماديين ، وهم الشعوب المظفرة . وكان داريوس قد حدد مقدار هذه الجزية لكل من المرزبانات ، ولتوزيع هذه الضرائب على الجماعات التي اجبرت على تأديتها ، اعتمدوا الاساليب القديمة المتبعة وذلك على اساس اعمال مساحة نظمت هنا تنظيماً دقيقاً وهناك حسب تقدير

تقريبى . وغدا للفرس من ثم فضل التوفيق وليس الاختراع . ولم يجر خلفاء داريوس ، كما يبدو ، تغييرات اساسية في هذه الاجراءات . وقد نجد تفسيراً للثورات المتكررة في بلاد بابل دون اعتماد الافتراض القائل بزيادة تلك الضرائب . فهي كانت منذ الاساس المرزبانة الاشد احتفاراً والمفروض عليها ايهظ جزية إذ اجبرت سنوياً على تأدية ألف مثقال فضة وخمسمئة خصي . وكان قسم من الجزية يدفع خيرات طبيعية والقسم الآخر سبائك من المعدن الثمين . واستعمل جزء من هذه الضرائب في كل مرزبانة لإعالة الخنود والموظفين المقيمين فيها . وهكذا قدمت كيليكية ٣٦٠ حصاناً ابيض و ٥٠٠ مثقال فضة يصل منها فقط الى الحكومة المركزية ٣٦٠ مثقالاً . ويلجأ هيرودوتس ، واليه يعود فضل وقوفنا على حسابات عهد داريوس المنصليية ، الى ضرب رقم مثاقيل عيار الذهب التي كانت تدفعها المرزبانة الهندية وهي ، حسب قوله ، اغنى المربانات واكثرها سكاناً ، وذلك للحصول على كمية الفضة المعادلة لذلك العيار الذهبي . وهكذا يؤكد بأن تلك المرزبانة كانت تدفع ما يقابل ١٤٥٦٠ مثقال فضة - اي ما يعادل ٨٧،٣٦٠،٠٠٠ فرنكاً فرنسياً في سنة ١٩١٤ . واعتبر اليونان دوماً بأن ملك الفرس ثروة ضخمة خضع لجاذبيتها اكثر من شخص .

وعلاوة على الابعاء المالية كانت هناك اعباء حربية . وتآلفت القوى التي اخذ الاخميني على نفسه تعيئتها ان دعت الضرورة من فرق تقدمها كل مرزبانة ويغدو قائدها عادة المرزبان نفسه . وهكذا استطاع العاهل جمع اسطول وجيش كثيرى العدد . ولكن لم تسير هذا الجيش وذاك الاسطول اي روح وطنية وقد كانا مجموعة عناصر مختلفة من حيث السلاح وخطط القتال واللغة . وقد استغل اليونان ، اعداء الفرس ، هذا الواقع الى ابعد مدى فذكروا لجيوش الفرس رقماً هيوياً وتحدثوا عن عبيد سيقوا الى المعركة تحت تهديد السوط . لقد وجدت دوماً في خضم هذه الجماهير عناصر حسنة ، خاصة الايرانيين ، خيالة كانوا او رماة ، والمشاة البالغ عددهم عشرة آلاف وهم فخر الحرس الملكي ، ويدعونهم « الخالدون » . ولكن اهاب تفوق الجندي اليوناني التقني بالماوك والمرابضة الفرس لتجنيد المرتزقة اليونان وذلك بصورة تصاعدية ابتداء من اواخر القرن الخامس ؛ وقد اثبتت حوادث عدة هذا التفوق ومن اشهرها مغامرة « العشرة آلاف » من بلاد بابل حتى البحر الاسود . وايام غزوة الاسكندر كان المرتزقة اليونان يؤلفون قسماً هاماً من الجيش الفارسي ، اقله من الفرق التي لم يعوزها كبير وقت للانتقال من مكان الى آخر ، كما كوّن ايضاً اليونان او بحارة شواطئ آسية الصغرى الذين ينتمون الى عنصر يوناني ، بالاشتراك مع البحارة الفينيقيين ، رجال اسطول حسبوا له حساباً .

هل حددت الدولة الفارسية لنفسها اهدافاً اخرى ؟ انها على كل لم تقرر بملء ارادتها ووعيتها منهاجاً اقتصادياً . فقد تركت للأقطار التي اخضعتها حرية الاستمرار على تنفيذ النظم التي ارادتها لنفسها . ولكن حصل مجهود مرموق في حقل التشريع ، وخاصة في بلاد بابل ، ومع ذلك لم تسع الدولة لتوحيد القوانين . وقد سهلت الوحدة السياسية التعامل التجاري اذ قللت

الحواجز والصعوبات واوجدت جو أمن وسلام لتنقل التجار؛ ولكن لم يستفد القوم من الامكانيات التي بررت امام الاتصالات البحرية . ومع هذا استطاع احد الاسيويين الغربيين الذي كان في خدمة داريوس وهو الكاري سكيلاكس من كاريندا ، ان يجاري نهر الهندوس ثم يجاذي سواحل ايران الجنوبية ليدور بعد ذلك حول الجزيرة العربية وينتهي عند السويس . ولكن بقي هذا « الطواف » وحيد جنسه ولم يستفد تجارياً منه احد ، وكان قد نظم لغايات سياسية ، وبصورة ثانوية علمية . وسيظهر نيارك ، امير البحر عند الاسكندر ، جرأة فائقة عندما يتم جزءاً من الرحلة التي قام بها سكيلاكس . والطريق الوحيدة للشرق الاقصى كانت الطريق البرية : فبعد اجتياز ايران كانت هذه الطريق تتفرع نحو افغانستان والهند من جهة ، ونحو تركستان والصين من جهة اخرى . وقد عرفوا هذه الطريق واستعملوها ولكن نجعل مدى استغلالها .

وكانت تنقص الامبراطورية الفارسية لتحقيق امكانياتها الاقتصادية سياسة مالية منظمة ومطرودة . ولم يتبع الاخمينيون الا قليلاً المثل الذي قدمه لهم الملوك الليديون . فهم منذ عهد داريوس الاول ، ضربوا السكة الذهبية « الدارجة » وذلك بكمية قليلة جداً ، ولكنهم لم يعمدوا الى ضرب النقود الفضية الا في زمن متأخر ، كما سمحوا للمرازمة ان يسكوا مثلها باسمهم . وقد قام هؤلاء واولئك بهذا العمل لضرورة معاملاتهم مع اليونان ، وهم المرتقة والتجار ورحال الفن . ولكن يؤكد انتشار قطع النقود اليونانية في الامبراطورية الفارسية التي بعدت بعض اقطارها بعداً شاسعاً عن البحر الابيض المتوسط بأن النقود الفارسية لم تف بالمطلوب الصوري . وفضل ملوك الفرس تكديس الثروات محتفظين بالمعدن الثمين الذي دفع لهم كجزية بشكل سبائك صبت على هيئة اوان . وهكذا بقيت وقتاً طويلاً هذه الثروات دون فائدة . وعندما استولى الاسكندر على العواصم الفارسية وضع يده على كنوز لم يُر لها مثيل في ذاك العصر ! مئة وعشرون الف مثقال في برسبوليس وحدها . . . وهذه القيمة تعادل اكثر من مليار فرنك في سنة ١٩١٤ م . وسارع هو وخلفاؤه لسك نقود من هذه الكميات ؛ محدثين والحالة هذه ثورة اقتصادية حقيقية في بعض الاقطار حيث بقي التبادل التجاري يحتفظ بأشكال متأخرة وقديمة العهد .

واستطاع بعض الملوك ان يراقبوا مراقبة دقيقة حكام المقاطعات المحليين ، فاهتمت الدولة اذ ذاك برعاية رعاياها وحمابتهم من مظالم السلطات . ولا نجد في هذا المجال اوضح من رسالة ارسلها داريوس الاول - ولا نجد دوماً الا هذا الملك ! - الى موظف نجعل رتبته كان يشغل وظيفة ما على الساحل الإيجي . وقد افادتنا عن هذه الرسالة كتابة يونانية غير كاملة ، لسوء الحظ ، ورد فيها : « عرفت بأنك لا تحصى لأوامري بجذافيرها . وبما انك تستثمر املاكك اذ تزرع فيها اشجاراً منمرة بعد ان تنقلها من سورية نحو شاطئ آسية فاني امتدح افعالك وستلقى مكافأتك من القصر الملكي . ولكن حيث انك تستهزئ بتعليماتي التي اصدرها تجاه الآلهة فاني

سأريك ، ان لم تغير سلوكك ، مدى غضبي . فقد فرضت دون حق ضريبة على مزارعي ابوتوت المقدسين وامرتهم بأن يفلحوا ارضاً لا تخص الإله ، مستهتراً والحالة هذه بعرفان الجليل الذي ابداه اجدادي نحو الاله ، الذي علّم الفرس حقيقة شريفة و ... » وهكذا توخت الادارة كاهداف لها ، وقد احسنت مراقبتها ، تقدم الزراعة والعدالة والتساهل نحو الآلهة الغريبة ، شرط ان تعلم الحقيقة ، وهذه كلها موجبات معنوية اخذتها الديانة الفارسية بعين الاعتبار .

الديانة
عرف الشرق قبل هذا التاريخ فاتحين لم يتصفوا كلهم بالتسامح . وقد اعتبر الاشوريون حروباً عدة جرت بين الامم معارك تنشب بين الآلهة . وعندما سبى نبوخذنصر البابلي اليهود الى عاصمته قسا بشراسة ضد الهيكل اليهودي . ولا يفهم سلوك الاخمينيين على حقيقته الا اذا قورن بمثل هذا السهج الذي سار عليه سلفاؤهم مباشرة . وحالما وصل كورش الى بابل قدم « خضوعه لبعل - مردوك » كما اطلق في الوقت نفسه سراح العبرانيين وساعدهم في تعمير مناطقهم . ولم يقدم خلفاؤه على اي اضطهاد ، ولم يفرصوا آلهتهم بالقوة ، لا بل أدوا لساثر معتقدات امپراطوريتهم الاحترام التقليدي الذي كان يؤديه الملوك الوطنيون : وهكذا قدمت في اورشليم كل يوم ذبيحة على اسم ونفقة الملك ، ولم يلحق اي اذى برجال الكهنوت في مصر وبلاد بابل الا بقدر ما اتهموا به من تحريض على الثورة . وان لم يعرف العالم القديم ، منذ هذا التاريخ ، الا بصورة استثنائية التعصب الديني ، فان ذاك يعود الى المثل الذي ضربه الملوك الفرس .

ولم يكن سلوك هؤلاء الملوك في هذا المجال تعبيراً عن عدم مبالاه او بصورة اولية عن كياسة سياسية ، بل اقتسالا لديانة اعتبرت على غير مستوى .

ويصعب علينا تحليل خيوط الكفة التي تؤلف الديانة الفارسية القديمة . وان لم تفسر هذه الديانة امورا أساسية من الديانات الشرقية فانها تحتوي مع هذا على عناصر مختلفة لا يجد لتفسير الكثير منها معلومات مستقلة . وجمعت هذه المبادئ في كتاب ريدافسته المقدس . وقد نعثر على بعض العناصر الهندو - اوروية التي نجدها في كتاب ريهندا الهندي ، وهذه العناصر هي قليلة . ولكن هناك ايضاً مبادئ آرية محتمة ، اي خاصة بالاييرانيين الغربيين ، والتي لم تعم بواسطتهم القبائل الايرانية الاخرى الا في زمن متأخر . وقد اتى احد المصلحين ، زرادست ، بتعاليم في غاية النقاوة ، ولكن شوهاها جمهور المؤمنين بها . وتطرح هذه الوقائع اسئلة لا عد لها ، دون ان يجدوا لها حلاً لتاريخه . وتختص اهم هذه الصعوبات بررادشت نفسه . فقد لاقت تعاليمه دون شك ، وهو بعد على قيد الحياة ، نجاحها الاكبر في ايران الشرقية . ولكن اين بالتدقيق ؟ وخاصة في اي زم ؟ ان الليدي كساتوس هو اول الكتاب المعروفين في التاريخ الذي يأتي على ذكره ويرجعه الى القرن الخامس . ويرجع به المؤرخون المصريون الى عهد اكثر قدماً ، ويذكرون عادة القرن السابع او القرن السادس . وعلى كل يعجب المرء

كيف تجاهلت ديانة الاخمينيين الرسمية زرادشت وتعاليمه .

ان جوهر عقيدة المصلح هو التوحيد بانقى مظاهره . فهي لا تقر الا باله واحد هو اورموزد ، لا قياس لعظمته وقدرته وروحانيته . وتوجد معه وحدات مجردة هي اشكال منه او مبادئ صادرة عنه . ولكن في منزلة اقل من منزلته يتناحر منذ خلق العالم روحان ، احدهما للخير والآخر للشر ، ولا يعرف نزاعهما مهادة وهو يشمل كل شيء . وعلى الشخص ان يحارب عناصر الشر في ذاته وخارجاً عنه ، وعلى هذا الاساس سينال السعادة بعد الدينونة الاخيرة . وتنحصر العبادة في هذا الجهد اليومي المتواصل متحررة من كل تقادم او ذبائح مادية ا « ان رجل التقوى هو قديس : وهو يزيد العدالة بالعقل والكلام والعمل والضمير » . وهكذا يشعر المرء الى اي قمة اوصل هذا المصلح ، الذي يشتمله الغموض ، فكرته .

وتتغير عن هذه المبادئ ديانة الاخمينيين الرسمية التي تظهر لنا من خلال النصوص الملكية . فهي تعتبر اورموزد « اكبر الآلهة » ، ويتحدث داريوس الاول عن « الآلهة الاخرى الموجودة » . انه تعبير غامض وهو يشمل دون شك آلهة غريبة — وهذا ما يفسر لنا التسامح نحوها — وآلهة ايرانية اخرى . ويجب انتظار حفيد داريوس ، حوالي منتصف القرن الخامس ، لنعرف بالتدقيق اسمي إلهتين من هذه الآلهة الايرانية وهما ميترا وأناهيتا . وعلى كل يبقى اورموزد الاله الاعظم ، الاله الملكي بالدرجة الاولى ويمثلونه برسم قرص شمس مجنح يخرج منه نصف الشخص الاعلى يحمل لحية ويكفل التاج هامه . ويشتق هذا الرسم من الرموز الاشورية الدينية . وبما انه خالق العالم ، بما فيه الارض والسماء ، فهو اكثر من الشمس : انه النور السماوي « السيد الحكمة » منظم السعادة والعدالة ، الذي يأمر بحب الحقيقة وبغض الكذب . ومع وجود هذه الغزوة نحو المبادئ الروحانية الطاهرة فقد قدم الملوك الذبائح ، اقله باشعالم شخصياً النار التي لا تنطفئ على المذابح . وقد ابقت الديانة الشعبية ، التي استمرت على شيء كثير من الحيوية ، المركز الاعلى لاورموزد ، ولكنها تلصق به جمهرة من الآلهة التي تمثل قوى الطبيعة والعناصر . واكثر من هذا ، فهي تتخيل ، مقابل عالم الاله الاكبر ، عالم النور واليسر والخصب ، عالماً للدياجير والاشراك والشياطين ، ويسير هذا العالم اهريمان . انها تؤمن بضرورة جهود الانسان الروحية وبدينونة النفس التي قد تفضي الى فردوس افراح مادية جداً . ومع هذا فهي تعتمد كثيراً على طقوس العبادة التي يقوم بها ، او اقله ينظمها ، رجال الكهنوت اعني المجوس ، وتقر ايضاً عبادة النار والاناشيد والتقادم والذبائح الدموية التي ندد بها زرادشت بكل شدة . واستناداً الى هذه المعتقدات فهم لا يحرقون الجثث ولا يدفنونها كيلا يدنسوا النار او التراب ولكنهم يلقونها في اماكن صحراوية . ولا نستطيع لسوء الحظ تحديد الوقت الذي فرضت فيه هذه الفكرة نفسها بتلك القوة .

ان الديانة الفارسية زادت على مجرى التفكير القديم افكاراً جديدة منها الحياة الفكرية الدينونة الاخيرة ومبدأ المثوية ، هذا مع العلم بانها شددت اكثر من الديانات

الآخري على المبادئ الادبية . أما في باقي مجالات الحياة الفكرية فلم يأتِ الفرس بأي جديد . ولا غلّك في هذا المضمار لإبداء الحكم إلا كتاب زندافستا ، وهو كتاب ديني تناقل القوم اجزاءه القديمة بالسماع ، لأنهم لم يلجأوا الى الكتابة الا في اواخر القرن السادس .

ولا يحتوي هذا الكتاب على أمور علمية . لقد كان لدى الفرس اطباء دون شك . وداوى بعضهم بالنباتات ، أما الآخرون فلجأوا الى التعابير الطقسية . ولكن جلب الملوك الى بلاطهم أطباء يونان او مصريين . ولم تظهر ايران كمهد للعلوم او لشبه العلوم التي كلف بها الغرب واطلق عليها اسم زرادشت إلا في زمن متأخر ، أي بعد العصر المسيحي : ومنذ هذا الزمن اتخذت كلمة « مجوسية » معناها الحالي ، وقد اشتقت من اسم الكهنة الايرانيين .

ولا يبدو بان حياة الامبراطورية الفكرية الحقيقية كانت فارسية ، لا بل لم يهتم كثيراً الفرس لهذه الحياة . وقد اصلح التقويم البابلي مرة أخرى سنة ٣٦٧ ق.م . إذ حددوا السنين والفصول حيث كان يجب حشر الشهور التي قرروا زيادتها ، وذلك ضمن اطار الوحدة التي تشمل تسعة عشر عاماً . ولكن فضل الفرس الوحيد في هذا المضمار هو السماح لعلماء الفلك من الكهنة متابعة أبحاثهم . وظهر بعض الايرانيين ميلاً للفلسفة والعلوم ، حتى اليونانية منها . وقد تحدثوا عن وجود شلة منهم بالقرب من أفلاطون في اواخر أيامه . ولكن بقيت مثل هذه العناية أمراً استثنائياً ، ولا يظهر بان أحداً من الملوك رغب فيها .

ان الحالة في مجال الفن على غير ما ذكر اعلاه ، وان كان مؤكداً بانه لم يحتل إلا المن منزلة محدودة في الحضارة الفارسية . اننا لا نجد تماثيل للآلهة ، او هياكل ، إذ اكتفت الآلهة بالمذابح ، لا بل زهدت بهذه الأخيرة مراراً . ولا نجد ايضاً قبوراً ، للأفراد أقله . وحسب علمنا لم يشيد الشخص لنفسه بيتاً كبيراً ، ولم يأت باي ابتكار في هذا المجال من حيث الهندسة او الزينة . ومع هذا يوجد فن فارسي ، إذ وجد ملوك فرس لم يستطيعوا التخلي عن التقاليد التي تربطهم بالملوك الشرقيين . ولأنهم فاقوهم قوة وغنى ، وقد أعلنوا أنفسهم « الملوك الكبار ، ملوك الملوك » ، ارادوا أقله مساواتهم بما خلدوا من آثار . لا بل فرض عليهم مثل هذا السلوك مقامهم في اعين رعاياهم الايرانيين الذين اعتقدوا بان الذي ينتخبه اورموزد هو من جوهر سام جداً .

وهكذا تعرض الفن الملكي ، في مراحل التصميم والتنفيذ ، الى تمجيد الملك والسلالة والسلطة الملكية . ولكن لم تبرز هذه الاهداف منذ البدء : ولم يكن كورش بحاجة الى شيء من هذا وكانت عاصمته يومئذ بسرغاد مدينة متواضعة . وغدت المبادرة في هذا المجال لداريوس الاول الذي نظم الامبراطورية ، فتبنى الانواع الثلاثة من المباني التي لم تفصل قط في دول أخرى عن فكرة السلطة الملكية وهي : النقوش بشكل ضخم وبارز التي تذكر باعمال الملك الباهرة ، ثم القصر وهو الاطار المهيّب للحفلات والبلاط ، واخيراً القبر الذي يحمي شخص الملك من

الاهانات بعد موته . ولكن كان هذا الهدف الاخير رمزياً إذ لم يسع الفرس ، أو سوا قليلاً جداً ، للاحتفاظ بالجثة الطبيعية . وفعلًا كان مبنى ، على شيء كثير من البساطة ، قد حُي ما تبقى من كورش . ولكن أيام داريوس وجد تقليد في غاية السمو يؤكد بان الملك لا يخضع للناموس الطبيعي .

وغدا الفن الفارسي ، وهو فن ملكي ، متعدد النماذج والأصول ، إذ لم يكن لايران تقاليد عريقة ، بينما عرف الشرق الذي خضع للفرس بغناه في هذا المجال وبغنى اختباراته . وقد قدمت المناطق المواد الاولى والعملة



الشكل ١٧ - منطقة برسبوليس

ورجال الفن . ولنصغ الى داريوس الاول في سوزه : « لقد أتيت من بعيد بالمواد التي بنيت بها هذا القصر في سوزه . والشعب البابلي هو الذي حفر الارض وسكّوّم الحصى ، وجلب الارز من لبنان . وقد أتى به البابليون حتى بابل ، واوصله من بابل « الاونيون والكاريون » - وهم مسبيون - الى سوزه . وأتوا بخشب الصندل من الهند ، والذهب من سرديس وبكتريه ، واللازورد والزنجر من سوغديانه ، والفيروز من بلاد خوارزم ، والفضة

والرصاص من مصر ، والمواد التي تزين الجدران من ايونية ، والعاج من اثيوبية والهند ، والعواميد الحجرية من كاريه . وكان نحّاتو الحجارة ايونيين وليديين ، والصاغة ليديين ومصريين وعمّال الخبز بابليين ، ومزينو الجدران ماديين ومصريين . لقد انجز عمل باهر في سوزه . ليحمني الإله اورموزد... » وقد أتى هؤلاء الرجال ، وهم مختلفو الاجناس ، بالحلول التي ارتأوها وعملوا حسب فنونهم . واننا نجهل الشخص الذي نسق هذه الاعمال . ولكن على كل برز القصر وكأنه مختصر للامبراطورية واتخذ من ثم هذا الفن قيمة رمزية .

ولم يستعمل احد غير داريوس النقوش الهائلة التي توخت التذكير . انها نقوش « بهستون » الصخرية وقد حُفرت على علو مئة متر وعلى صخرة تشرف على احدى ممرات جبال زغروس ، وهي الطريق التاريخي الكبير بين بلاد آشور وبلاد ماداي . وتتغنى هذه النقوش بالانتصار الذي احرزه داريوس على الثائرين الذين هددوا أمن وسلامة الامبراطورية غداة تسلمه العرش . وفي اعلى النقوش رسم يرتفع فوقه رمز أورموزد: قائدان والملك وعشرة من الاعداء وقد أُلقي

أسماء أرضها وقبتد القسعة الآخرون ووضع الحبل في عنقهم ، وفي الأسفل نقرأ كتابة بلغات ثلاث تسرد الحوادث . ولم يستطع احد ان يقرأها وهو على الطريق ، وغدا الجهد المبذول لقراءتها اشادة عظمى بعظمة الملك وجبروته .

والقبور الملكية في برسبوليس ونكش - اي - روستم *Naksh - i - Roustem* هي صخرية ايضاً ، وقد أخذوا فكرتها الاولى عن القبور المصرية . ولكن لم يتسع داخلها إلا الى رواق وغرفة دون نقوش او رسوم ، وقد بقي من ثم في غاية البساطة . وصبوا جل اعتنائهم على الخارج . وقسمت الصخرة ، وقد برزت على شكل صليب يوناني كبير ، قسمين عليها النقوش . ويمثل القسم الذي في الوسط ، وهو الاكثر عرضاً ، مجموعة من العواميد تحمل افريزاً : أي واجهة قصر ينشق في وسطها باب القبر . ويمثل القسم الاعلى الملك امام مذبح النار الذي يعلوه اورموزد ، وترى الملك على دكة يحملها رجال يرمزون الى المرزبات .

والقصور هي اشد تأثيراً ايضاً . وقد أراد كل ملك ان يشيد له قصرأ خاصاً في العواصم الوطنية ، او أقله زيادة شيء جديد على مباني أسلافه . وهذا ما يفسر لنا كثرة القصور وتشابك اجزائها . وهذا ما يشرح لنا ايضاً السرعة التي جعلتهم يستعملون الآجر للجدران طبقاً للتقاليد الاشورية ، والاحتفاظ بالحجارة لاطار الأبواب ، مع اننا في مناطق كبلاد فارس حيث لا تنقص المواد الصلبة للبناء . وهذا ما يعلل لنا اخيراً عدم اتمامهم الاعمال مراراً ! ففي برسبوليس بالذات نرى اجزاء الأساطين انتهوا من اعدادها ولكنهم لم يركزوها في مواضعها .

وتعرفنا خاصة اعمال التنقيب الحديثة بقصر سوزه الكبير وبمجموعة المدينة الملكية المهيبة في برسبوليس . وبعد ان شيد داريوس هذه المدينة الاخيرة لتصبح عاصمة السلالة بدأوا رويداً رويداً يتخلون عنها لمصلحة سوزه ، ولم يظهر فيها الملك إلا نادراً جداً وذلك في مواسم الاحتفالات الرسمية . ولكن بقيت برسبوليس مع هذا رمزاً للمملكة الاخمينية اكثر من المدن الاخرى ، وعلى هذا الاعتبار احرقها سحب الاسكندر عندما مروا فيها وذلك ثأراً لما سببه الفرس من خراب في بلاد اليونان اثناء الحروب المادية . وتستند هذه المدينة الى الجبل وتشرف على سهل واسع . وهي تمتد على فسحة مسطحة نصف اصطناعية يبلغ طولها ٥٣٠ م وعرضها ٣٣٠ م إذ قد فرّض الصخر وسويت حافته حيث أقيم جدار من الحجر النحيت . ولم ينجشوا الفيضانات ، ولكنهم حذوا حذو تقاليد بلاد الرافدين فشيّدوا القصور الملكية في مكان يشرف على المدينة التي يقطنها عموم السكان .

وغدت قاعة الاستقبال ، «الأبادانة» ، حيث يجلس الملك على عرشه تحيط به هالة من الوقار والعظمة اهم اجزاء قصر سوزه وبرسبوليس . وتحمل سقف هذه القاعة المصنوعة من خشب الارز اعمدة تعد قليلة العدد نسبة الى مقاييس القاعة - ٣٦ عموداً فقط في مربع يبلغ ضلعه

٤٣٥٠ م - ورفيعة جداً نسبة لعلوها - قطر القصر ١٦٦٠ م لعلو ٢٠ م تقريباً - ونسقوا هذه « الغرفة ذات المثة عمود » على غرار قاعات الهياكل المصرية ، ولكن خفة وزن السقف سمحت بالبقاء على شكل العمود الرشيق . ويوجد تجديد آخر سببه تاج العمود الذي يمثل ، فوق نقوش حلزونية الشكل ، رؤوس ثيران حائية .

وزاد فن التزيين في عظمة هذه الهندسة ، وقد اعتمد كثيراً على اللون ، لا بل على الحجارة الكريمة أو الذهب . ففي سوزة رسموا صفوفاً طويلة من الجنود والاسود او الحيوانات الخيالية على قطع من الحجر الناتيء ، والمطلي بالطين وفقاً للطريقة البابلية ، والذي يظهر في اجزاء السلام والممرات السفلى . أما في برسبوليس فقد اعادت الرسوم المسطحة التي صورت على الحجر باظهار الجنود او المكلفين الذين يحملون الى السيد ، وهم في زيهم الوطني ، ضرائب اوطانهم . وهناك ايضاً رسوم ونقوش نافرة - وهذا ما يحدث نادراً جداً - تستلهم الرسوم الأشورية : الثور المجنح وله رأس بشري ، صراع الاسد والثور ، قتل وحش هائل بيد الملك . ولا نرى اي رسم او ظل رسم لامرأة ، بل نجد دوماً رسوم الملك ورعاياه وجنوده و ثروته وعظمته دون عطفه .

ولذا يبقى كل شيء في هذا المضمار على وتيرة واحدة ، وإن هم سعوا لبعث الحياة فيه . ومع هذا يجدر بنا ذكر تأثير الفن اليوناني على ما سبق لنا وذكرنا من تأثيرات عدة ، وان بدا هذا التأثير محدوداً جداً نسبة لغيره او لم يبرز بصورة عملية الا في تموجات بعض الشباب والستائر ، ولكنه يوجد على كل حال وقد ضم الملك الى امبراطوريته جزءاً من العالم اليوناني وأتاه رجال فن من الاجزاء التي بقيت حرة ؛ غير ان احداً منهم لم يكن من الدرجة الاولى الممتازة ، أو ان احداً منهم لم يستطع ان يعبر كما يرغب عن المواضيع الرسمية : ولا يلاحظ وجودهم هنا وهناك الا في تجعيد أو طية قطعة القماش الذي يغطي الجسم .

تعايشت معاً الحضارة الايرانية والحضارة اليونانية الكلاسيكية ، ولم
الميرة الايرانية والهلينية
تحل المنازعات التي نشبت بين الشعبين دون احتكاك هاتين الحضارتين.

ولكن حذار ان نبالغ في مدى الاقتباسات التي أخذت عن الحضارة الهلينية . لقد سمح الملوك لليونان بالتجول في الشرق والوقوف على حالته . وما قام به هيرودوتس هو اكبر شاهد على هذا التسامح . ولكن تابع الفن اليوناني تطوره وكان قد تجاوز عهد تلمس طريقه . وعرف اليونان الهند بواسطة فارس ، ولكن بقيت معرفتهم لها سطحية جداً : وان وجد عملياً التأثير الهندي فلم يتجاوز حدود بعض المبادئ الطبية وبعض الادوية . ان أفلاطون عرف « فكرة الثنائية » الزرادشتية ، وقد استموته . ولكن انتهى كل شيء عند هذا الحد ، وعلينا ان ننتظر عدة قرون لنلاحظ انتشار عبادة ميترا وعلوم السحر السرية المنسوبة الى « المجوس » الذين لا يمثلون مع هذا، الحضارة الايرانية في القرنين الخامس والرابع .

وبصورة معاكسة فلم يستهوِ الحضارة الهلينية ، وبصورة سطحية فقط ، إلا بعض أفراد الطبقات الحاكمة الدين رأوا فيها أساليب عيش رخاء ورفاهية لم يعرفوها قبلاً ولم يريدوا ان يحرموا أنفسهم منها . وفي زمن الحرب التي انتهت باندحار « سلامين » كان احشويروش الملك قد وضع يده على بعض الآبار الفنية وأتى بها الى سوزه . ودخلت نساء يونانيات الى حرم الملك أو تزوجن مراربة يحكمون المقاطعات الغربية . وخدم بعض الاطباء اليونان في بلاط ملك فارس من امثال ديموسيدس الكروتوني *Democédès de Crotone* في القرن السادس وأبولونيد من جزيرة كوس *Apollonide de Cos* . في القرن الخامس ، ثم كتيسياس *Clésias* ؛ ولكن يقال بان ابقراط *Hippocrate* رفض عروض أحشويروش المغرية . وتجنبدمرتزقة يونان كثيرون في صفوف الجيش الفارسي في القرن الرابع ، وقد لعب بعض من قوادهم دوراً مهماً ، دون ان يكسبوا مع هذا ثقة الملك الكاملة . ولم تجد التجارة الأثينية أي قيود . وباستطاعتنا ان نضيف الى هذه الحقائق حلقات عدة ولكن دون ان نغير شيئاً من النتيجة . وان غدا تقدم الحضارة الهلينية مؤكداً في آسية الصغرى الغربية ، حيث كانت قد استألت اليها السكان الوطنيين ، فان الايرانيين مع هذا لم يستجيبوا كثيراً لهذه الحضارة ..

وفي زمن حروب الاسكندر تواجه الشعبان . وكان كل منهما يمثل عالماً مستقلاً وحضارة مختلفة . ولم تستطع جدارة البطل كما لم يتوصل نبله ان يشيدا جسراً دائماً بينهما .

القسم الثاني

حضارات الانسان في الشرق الأدنى

الكتاب الأول

المقدمات

بالرغم من اللقاءات التي لا يخطر ببالنا قط اسدال الستار عليها - ومن الجلي ان كل تصنيف يخطيء ، حين يبسط ، ويضحى بالكثير من التفاصيل - فان هنالك ، في العهود نفسها ، ابتداء من الالف الثالث قبل المسيح ، حضارات تتميز عن الحضارات الامبراطورية التي جرى استعراضها في الفصول السابقة .

ارتبطت الحضارات الامبراطورية كلها بدول اتسعت رقعتها وارتفع عدد سكانها وفرض وجودها ، واجبات نافذة في كل من التنظيم الاداري والتنظيم السياسي ، وتوجب عليها تأمين سبل العيش لمجاهير غفيرة وتوجيه وتنسيق نشاط اعضاءها الاقتصادي سعياً وراء هذا الهدف ، كما حدث في مصر مثلاً . ومهما يكن من الامر ، فان هذه الدول ، العظيمة بمساحاتها الشاسعة وبارتفاع عدد سكانها ، والمعرضة ، من حيث هي دول برية ، لاطماع وتهديدات جيرانها الذين تقلقهم تارة ويقلقونها اخرى ، والمجرورة جراً الى حروب لا تستطيع ان تحجم عن خوضها ان هي لم ترض بالزوال ، قد واجهت مشاغل عسكرية خطيرة لم تسج من كابوسها الا مصر وحدها لمدة طويلة . وهكذا تضافرت فيها اسباب مختلفة ادت الى اعلاء شأن وسلطة ملك يسمو فوق المستوى البشري قد يؤله احياناً ، والى انصهار الفرد في جمهور الرعايا . ان هذه الحضارات لم تستهدف الانسان بل الدولة المتمثلة بشخص الملك .

اذا ما اخذنا بعين الاعتبار القوة التي بلغتها هذه الامبراطوريات والنفوذ الذي تمتعت به بفضل هذه القوة ، يصبح من الطبيعي الا نرى حضارات معاصرة تعتمد مثلاً على آخر ، او تفكر به مجرد تفكير فقط . وبالحقيقة ، ان « النزعة الانسانية » التي حررت الفرد فاناطت بالدولة مهمة مساعدته في تفتح كيانه المادي والروحي ، لم تبرز ، بشيء من اللاوعي ، الا بعد زمن ، ولم تحظ بالفوز الا بعد زمن اطول ، عاجزة في التاريخ القديم عن ارساء فوزها على اساس وطيء ودائم . ولكن المهم في ذلك ليس عدم الاكتمال وعدم الاستقرار ، بل قلنس جرثومة على الاقل ، هنا وهنالك ، مصيرها الاجهاض حيناً والنمو حيناً ، وسماع صدى آخر مختلف ، حتى ولو تضخم في غير مكان ، او انطفأ ببعض السرعة . ولكن استجلاء هذه المقدمة ليس بالامر اليسير . فقد تختلف

جوهرأ وتكون سياسية او اقتصادية هنا ، او اخلاقية او عقلية او فنية هناك . وقد يحدث احياناً كثيرة الا يكون هنالك شيء ملموس ، فنجد انفسنا امام دلائل لا امام حقائق ، او امام وريث بعيد يشوّه الارث الذي انتقل اليه . ولكن لا نهتمن للامر ، بل فلنمسك بالفارق الذي تضيف عليه دقته قيمة كبرى .

وبودنا ان نجد خطوطاً اخرى مشتركة بين هذه الحضارات التي صنفناها على حدة، ولكننا لا نكتشف الا خطأ واحداً ، جديراً بالتالي ببعض الاعتبار ، وهو ان جميع هذه الحضارات قد نمت في كنف شعوب تؤلف جماعات اقل عدداً من تلك التي الفتها الشعوب الامبراطورية ، وتقيم في رقعة اصغر مساحة ، ويعيش بعضها في مناطق مختلفة لا تخضع لوحدة سياسية . وهي لم تواجه ، بصورة عامة ، معاضل تنظيم ملحة ، وقد عاجلت ما واجهته منها بحلول غير عسيرة . وقد اضطرت الدولة بحكم الضرورة، في غالب الاحيان، الى التراجع عن المطامع الكبيرة ، فوقفت من هذه المعاضل موقفاً حكيماً ، حاصرة مطالبها ومطلقة للانسان حريته في العمل . اجل ، قد فرض عليها التهديد الخارجي ، احياناً ، تعبئة جميع قواها الشعبية ، متجاوزة في ذلك محاولات اعظم الملكيات شأنًا ، ولكنها سلكت حينذاك اوفق السبل امامها ، اعني التوجه المباشر الى الفرد وارتقاب الحصول ، ولو جزئياً ، من قبوله الاختياري ، على ما يعجز اي قسر عن تحصيله . وهكذا تخرج الدولة والانسان، من هذه الازمات نفسها ، اوثق ارتباطاً وتضامناً.

يصح تطبيق هذه المحاولة التحليلية على اليونان بنوع خاص. ولا يزال من المستهجن تطبيقها، كما وردت ، على حضارات الدول الصغيرة التي سنستعرضها استعراضاً سريعاً في الصفحات التالية، لان الغموض ما برح يكتنفها بظلمته . ويجوز لنا الاعتقاد بان الصلة التي تقوم بين واقع الدولة الصغيرة وبين بعض الفوارق الحضارية المعينة ، قد تقابل حقيقة ثابتة ، اذ اننا رأينا ، في حسالة خاصة نعرفها تماماً ، ما يبرر منطقياً قيام هذه الصلة . او ليس من الممكن ايضاً ، والحالة هذه ، ان تكون هذه الصلة قد قامت في غير مكان ، بكثير او قليل من الاسترخاء ؟

الفصل الأول

الحضارة الأيجية

قد يبدو غريباً ان نفرز للحضارة الايجية فصلاً خاصاً في سلسلة الفصول التي سنسندھا الى هذه المحاولة . ولكننا نعتقد مع ذلك بان لهذا التصنيف ما يبرره . فبالرغم من ان الكلام عن «الامبراطوريات» عند الايجيين تقليد موروث وامر مشروع ، فليس المقصود بها سوى دول صغيرة يكاد مجموع مساحة اراضيها لا يذكر اذا ما قورن بالامبراطوريات البرية الكبيرة ، ولا تعوض السيطرة التي بسطتها هذه الدويلات على البحر عما تتصف به من تواضع نسبي . والمقصود ايضاً هو حضارة يرتبط نشاطها الاقتصادي الرئيسي ارتباطاً متيناً بالتجارة ، وخصوصاً بالتجارة البحرية التي تترك للانسان ، او لفرق صغيرة من الناس ، استقلالاً اوسع من ذلك الذي تتركه الزراعة ، لا سيما في المناطق التي تقتضي رياً منظماً . وقد عتبر عن هذه الحضارة ، من جهة ثانية ، فن اكثر انفلتاً وعفوية من فنون الشرق القديم جميعها ، حتى عندما اوجبت على الفنانين معالجة بعض المواضيع الملكية او الدينية . وهي قد تركت اخيراً للحضارة اليونانية ، التي كرس ازدهارها اللاحق انتصار الفردية ، تراثاً اهم من تراث الشرق او اسرع نضجاً على الاقل ، بفضل المجاورة الجغرافية والتنضيد الجغرافي احياناً .

١ - وحدة الحضارة الايجية وازدواجيتها

الحضارة الايجية واحدة ومزدوجة معاً .

العهد الكريتي

ولدت في كريت ، اكبر جزر البحر المتوسط الشرقي ، وهي الجزيرة الوحيدة التي تتغلغلها بعض السهول وتنشط فيها بالتالي الاعمال الزراعية . وعلى الرغم من جودة مناخها ، فان الانسان لم يظهر فيها الا بعد ظهوره في مناطق الشرق الادنى الاخرى برمن طويل ؛ ولم يترك في الواقع اي اثر قبل عهد الحجر المصقول ، في حال ان آثار عهد الحجر المشطوب وافرة جداً في مصر وفلسطين وبلاد ما بين النهرين . وهي لم تسجل ، طوال قرون عديدة ، اي تقدم على ارخييل السيكلاد . اهلت ، وهذا الارخبيل ، بالعنصر البشري نفسه الذي يغلب ان سواحل

آسيا الصغرى اهلت به ايضاً ، وهو عنصر لا يمت بصلة الى العناصر المعروفة الكبرى واطلق عليه لذلك لقب «المتوسطي» . فالأحرى بنا ، كي نفسر هذه المقابلة ، ان نفكر بسهولة الملاحة بين جميع اجزاء هذا العالم الايجي الذي تنتثر جزره هنا وهناك وتكثر فيه الاجوان والخلجان وتهب عليه ارياح منتظمة في فصل الصيف . بيد ان جزيرة ميلوس وحدها ، في مجموعة السيكلاد ، حوت طبقات وافرة من حجر بركاني اسود اشبه بالزجاج (الابسيدين) توفر بيعه وتصريفه صفائح رقيقة دقيقة الزوايا ، ولذلك ربما كانت في البدء اكثر ازدهاراً من جزيرة كريت . ويصح القول نفسه عن جزيرة قبرص الغنية بالنحاس الذي عرف باسمها والقريبة من آسيا التي كانت حضاراتها بمثابة المرشد لها .

اما كريت فلم تأخذ في البروز الا في النصف الاول من الالف الثالث ، اي قروناً طويلة بعد مصر وبلاد ما بين النهرين اللتين اغدقت الطبيعة عليهما نعمها . فها هي تنطلق فجأة في السنة الالفين تقريباً فتشيد القصور في كنوسوس وفايستوس وماليا بنوع خاص . ولكن هذه القصور تهدمت حوالي السنة ١٧٠٠ ، بفعل كارثة شاملة قد تكون زلزالاً ارضياً او غارة صاعقة قام بها الاعداء . ثم اعيد تشييدها وابتدأ حينذاك عهد ازدهار كريت عامة وكنوسوس بنوع خاص التي كتب البقاء لقصرها وحده في الجزيرة منذ السنة ١٥٠٠ تقريباً .

ذاعت حينذاك في كافة انحاء المتوسط الشرقي شهرة كريت ، ولا سيما شهرة مينوس ، الملك الاسطوري الذي تكلم عنه الاغريق والذي يغلب انه اسم لاحدى السلالات لانه لا يعقل ان يكون من اكتشافات غيلتهم فقط . وقد بدا اثر هذه الشهرة في جنوبي اليونان وفي البلوبونيز بنوع خاص .

لم تعرف مناطق شبه الجزيرة اليونانية حتى ذاك التاريخ سوى حضارة فقيرة ومتدنية . وقد تعرضت منذ اوائل الالف الثاني تقريباً ، بفضل اتصالها بالمناطق البلقانية الاخرى ، لغزوات دورية متكررة قام بها الهنود الاوروبيون الذين كثيراً ما نجحوا في الاقامة في البلاد . ومنذ القرن السادس عشر توصل المستوطنون الجدد الى تسلم السلطة ، على الاقل في منطقة ارغوس ، في الشمال الشرقي من البلوبونيز ، وهؤلاء هم الاخيون الاغريق ، او بالأحرى احدى العنصريات التي ستكون الشعب الاغريقي فيما بعد . وقد تأثروا بنفوذ الكريتيين واخذوا ينقلون الكثير عن حضارتهم ، محتفظين في الوقت نفسه باكثر من ميزة من ميزاتهم الخاصة . بيد انه قد مر عهد حققت فيه كريت سيطرة نافذة عليهم تكاد لا تختلف عن السيطرة السياسية ، لا سيما وان كريت وكنوسوس كانتا حينذاك في اوج ازدهارهما .

غير ان الاخيين بفضل صفاتهم الحربية واستخدامهم العربات التي تجرها الخيول والقوى النضيرة التي تجيش فيهم ، وبفعل سحر الثروة التي ينعم بها مربوهم ، قد انتهوا الى مهاجمة هؤلاء المربين . فذلك قصر كنوسوس دكاً حوالي السنة ١٤٠٠ ، ولم

العهد الميسيني

يكتب له ان ينهض بعد ذلك . ويمكننا ان نحدد بهذا العهد اقامة شعب جديد ، كريتي حسب رواية الكتاب المقدس ، في الشاطئ الجنوبي من بلاد كنعان ؛ ويرجح ان هؤلاء الفلسطينيين الذين حملت فلسطين اسمهم من بعدهم ، مهاجرون هاربون من بلاد عمها الدمار . اما الارغوليد ، على تقيض ذلك ، فقد اخذت في الوقت نفسه تتقدم وتزدهر . فكيف لا نجمع بين هذين الواقعين ، الهبوط في الجزيرة والتقدم في شبه الجزيرة ، بافتراض حصول حملة منصورة واستلاب منظم ؟

ويدعم هذا الاعتقاد ان في الحضارة التي نمت حينذاك ، لا سيما في ميسين - التي اعطتها اسمها التقليدي - وفي تيرنثوس ، اثراً كبيراً للحضارة الكريتية . وليس من ريب في ان الأخيين ، في غزوهم الجزيرة والقضاء على الحياة النشطة فيها ، نقلوا منها الكنوز والفنانين والعمال بغية تحسين حياتهم المادية الخاصة ؛ ولكن وجود هذه الأشياء وهؤلاء الاشخاص عندهم ما كان ليبقى دون نتيجة في الحقل الأدبي ، لا سيما على الصعيد الديني .

وقد استثمروا ما ورثوه من كريت على الصعيد الاقتصادي ايضاً . فسيطروا على البحر ومارسوا التجارة مندفعين فيها شطر مناطق جديدة كالليونان وغربي المتوسط مثلاً . وكانوا اكثر خشونة من الكريتيين فحاربوا ونظموا جماعات من المستعمرين ووجهوها هنا وهناك ، الى قبرص وربما الى شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية حيث اسست دولاً جديدة . وقد نهض الأخيون جميعهم بعمل مشترك ضد مدينة طروادة عند مدخل المضائق ، وهو ذاك الحصار الطويل الذي خلدت ذكره الملاحم الهوميروسية . أما تاريخ هذا الحدث فلا يزال موضوع خلاف وجدل ؛ فهل هو وقع في أوائل القرن الرابع عشر ، أم في أواسط القرن الثالث عشر ، أم في أواخره ؟ ولا اتفاق كذلك حول الاسباب التي أوجبت النهوض بهذه الحملة . ولكن ليس من شك في قيام الحملة وانتصار الأخيين .

غير ان هذا الانتصار لم يحل دون تسرب الوهن الى الحضارة الميسينية منذ السنة ١٢٠٠ . لم تصب هذه الحضارة بانهار مفاجئاً سريع ، بل اعترها هبوط تدريجي سببته موجات يونانية جديدة آتية من الشمال هي موجات الدورين . وقد توفر لهؤلاء الحديد الكافي لان يصنعوا منه جميع أسلحتهم فتغلبوا على أسلافهم المتسلحين بالبرونز الذين بسطوا سيطرتهم على العالم الايجي طيلة قرنين كاملين .

وهكذا نرانا امام حضارتين متميزتين بالرغم من صلة القربى بينهما . أجل وحدة وازدواجية
انهما تجاوزتا في المكان مع ان المسافة الفاصلة بين مركزيهما تتجاوز ثلاثمائة كيلومتر . وتجاوزتا في الزمان ، الى حد ما ، ايضاً ، لا بل ان تحديد تاريخ زمنهما التقريبي يلخص علائقهما الواحدة بالآخرى . فقد دامت الاولى من السنة ٢٠٠٠ حتى السنة ١٤٠٠ ودامت الثانية من السنة ١٦٠٠ حتى السنة ١١٠٠ قبل المسيح . نشأت الاولى ببطء في جزيرة متوسطية ، فأثرت في ولادة الثانية أولاً ، ثم امتدت في وريثتها بعد زوالها ؛ ووفقت الثانية بين ما تقبلته

أو استلبته وبين ما جاء به افرادها من السهول الشالية . الأولى محلية ومستقلة والثانية نتاج المهاجرين الذين بنوها بمستوردات خارجية . الأولى تفرغت للتجارة بنوع خاص ، والثانية نزعت الى الحرب واتصفت بانها بحرية وبرية على السواء . الأولى أنيقة ورقيقة ، والثانية اكثر قسوة وسعياً وراء الذهب .

فجلى اذن ان هاتين الحضارتين تتكاملان جزئياً وتتقابلان ايضاً . وليس من سبيل لدرسهما مجتمعتين .

بيد انه يجدر بنا ، قبل الشروع بهذا الاستعراض المزدوج ، ان نلفت حردود المستندات النظر الى واقع يفسر نواقص هذا الاستعراض والتحفظات التي ستتخلله أحياناً كثيرة : ان حل رموز الكتابات التي استعملها الايجيون لم يتوصل بعد الى النتائج المتوخاة . وليست المستندات ما يعوزنا ؛ فهناك ، على الأخص ، اكثر من ١٥٠٠ سبورة غرينية مجففة بالحرارة اكتشفت في اطلال كنوسوس وحدها ، وعدة مئات اخرى عثر عليها في بيلوس من اعمال البلوبونيز . ويستدل من ذلك ان القصور كان لها مكاتبها ومحفوظاتها وربما مكاتبها ايضاً ، ثم ان كريت قد زودتنا ، بالإضافة الى ذلك ، بالكثير من العاديات ، لا سيما الاختام والخزفيات التي تحمل رموزاً كتابية . فالكتابة اذن لم تكن وقفا على الادارات ؛ واذا اعتمدنا على وجه استعمال بعض هذه العاديات ، جاز لنا الاستنتاج ان الافراد ، حتى في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، كانوا يفهمون هذه الرموز . وقد اعتمدت في الكتابة ثلاث طرائق على الاقل احداها هيروغليفية والاخريان كتابيتان ، وقد بذلت جهود كثيرة غير مثمرة لكشف سرّها . فقل : «تنتظر كريت شموليونها» ؛ غير ان شموليون قد وفق الى حجر الرشيد الذي نقش عليه كتابة في لغتين مختلفتين ، وهذا ما لا يتوفر هنا . ولكن العلماء البريطانيين ، في اواخر السنة ١٩٥٣ ، قد كشفوا عن النتائج التي انتهوا اليها في تطبيق اساليب جديدة على احدى الكتابات . وما لبثت هذه النتائج ان فرضت نفسها على المعنيين بهذه الكتابة . ويمكن القول اليوم ان الأخيين تكلّموا وكتبوا ضرباً من ضروب اللغات اليونانية التي اصبحت بعض مفرداتها ، منذ اليوم ، سهلة القراءة والفهم . وليس من ضرورة للتنويه بالآمال المعلقة على هذا الحل . فاذا ما استجلى واكتمل وتناول المستندات الاخرى ، قد تنقلب النظريات المأخوذ بها رأساً على عقب ، حتى تلك التي اوجزناها في الصفحات السابقة . ولكن الحل لا يزال في بدايته .

لذلك يجدر بنا ، في الوقت الحاضر ايضاً ، ان نكتفي بالتقاليد التي نقلها الاغريق وشوّهوها أحياناً وبما اسفرت عنه اعمال التنقيب من آثار وافرة منذ السنة ١٨٧٥ في البلوبونيز ومنذ السنة ١٩٠٠ في كريت .

٢ - الحضارة الكريتية

الملكية المينوسية ليس لدينا من الحقائق الثابتة حول الملكية المينوسية الا النزر اليسير .

فتعدد القصور في النصف الاول من الالف الثاني يحدو بنا الى الاعتقاد بتعدد الممالك . ومع ذلك فليس من مدينة احيطت بالاسوار، ولم تظهر القصور بمظهر الحصون الا لفترة قصيرة . فلم تكن الجزيرة اذن ساحة حرب بين اطماع متنافسة . ومهما يكن من الامر ، فان كنوسوس قد ضمنت لنفسها الغلبة الاخيرة كما يشهد بذلك الازدهار الذي انتهت اليه والذي يثبت سيطرتها على الجزيرة بكليتها . اما الحياة النشطة التي استمرت في المساكن القروية الغنية فلا يجب ردّها بالضرورة الى الملوك الصغار، بل الى الحكام الذين تعينهم السلطة المركزية . وان الغنى المادي الذي تتصف به الحضارة الكنوسوسية لدليل ثابت على غنى هذه الملكية . وكان للقصر مصانعه ومخازنه وجمهور غفير من العمال والخدم . واذا ما استندنا الى اهمية المكاتب والمحفوظات الكتابية، جاز لنا التأكيد بان الملكية قد سعت لتحقيق نوع من المركزية . بيد انه يتعذر علينا الادلاء بشيء عن الاساليب الادارية المتبعة .

لا تجوز المغالاة هنا في الكلام عن ملكية قوية او عن امبراطورية مينوسية . اما القوة البحرية فلا يرقى اليها شك، اذ بدونها يصبح تحصين المرافئ والمدن والقصور امراً لا مفر منه . ويعتبر مينوس في التقليد اليوناني مؤسس اول ملكية بحرية ايجية . ويثبت اتساع حركة المقايضات ، مع جميع بلدان المتوسط الشرقي، ان هذا البحر، كما يؤكد توسيديد ، قد طهر من القراصنة . ويضيف المؤرخ نفسه ان مينوس قد اقام «ابناءه» رؤساء للمستعمرات في معظم جزر السيكلاد، مما يحمل على الاعتقاد بسيطرة سياسية على الجزر . غير ان علم الآثار لم يكشف عن اي نفوذ هام خلال عهد الازدهار في كنوسوس . ولولا اسطورة المينوطور ، وهو مسخ مينوس الذي توجب على الاثينيين ان يقدموا له كل سنة ضحية بشرية ، لكنا اكتفين بالقول ان اثر الحضارة الكريتية في اليونان قد اقتصر على الاشعاع فقط . فهناك اذن صلة انتساب وخضوع لم ينج منها ، بالتأكيد، سوى الارغوليد وقبرص والساحل الآسيوي . اما تلك المواقع القليلة المتشتتة التي احتفظت باسم مينوس فلا تكفي لان نرسي عليها القول بامبراطورية كبيرة حقيقية .

وعلى نقيض ذلك كانت القوة العسكرية اقل شأنًا . اجل ، ان على «اناء الرئيس» رسماً لضابط صابرٍ على حمل الاسلحة ، وان اخربة كنوسوس حوت مخازن للأسلحة . ولكن هذه الادلة تبقى محدودة الاهمية . فالملكية الكريتية اعتمدت على بحريتها ، ولم تقو بحريتها على ان ترد عنها هجمات الغزاة المستلبين ولا الكارثة الكبرى النهائية .

كان للملكية صفة دينية . وليست الرسوم التي تزين قاعة العرش في كنوسوس والغرف الملاصقة لها مجرد رسوم جمالية فحسب . الملك يقبض على صولجان وتحيط به بعض الرموز : زهرة الزنبق وخصوصاً الفأس المزدوجة التي كثيراً ما رسمت على الأعمدة والجدران ايضاً . وكانت هذه الفأس ، عند بعض شعوب آسيا الغربية ، شعاراً دينياً وخاصة من خاصيات بعض الآلهة كـ « تيشوب » الحوري و « حدد » الدوليكاني . وقد نقل الأغريق اسمها الآسيوي « لابريس »؛

وليس ما أطلقوا عليه اسم « لايرنت » سوى قصر كنوسوس ، قصر الملكية التي ترمز إليها الفأس المزدوجة . فليس من ريب إذن حول العلاقة بين هذه الملكية والديانة . ولكن لا شيء لدينا يساعد على توضيح هذه العلاقة ، حتى تلك القصة التي رواها افلاطون .

لسنا بحاجة الى التقليد اليوناني كي ننسب الى الملك مهام قضائية . فهو قد تدخل ، في كل مكان ، في واقع السلطة الملكية وجوهرها . ولكن هل يجوز لنا ، اذا جعل الاغريق من مينوس قاضياً للجحيم لا تلين له قناة ، ان نستنتج ان سلالة من بعده قد اشتهرت بتقشف خاض ؟

ويستدل من قلة ما نعرفه وكثرة ما نجعله ان الملكية المينوسية ، حتى لو حملت الحضارة الكريتية طابعها واستحال ادراكها بدونها ، أبعد في الوقت الحاضر من ان تجعل درس هذه الحضارة أمراً مغرياً يوجب الاهتمام .

بيد ان الأمر على خلاف ذلك في بعض مظاهر الحياة الاقتصادية على الأقل . النشاط الاقتصادي ويمكننا القول ان الزراعة كانت مزدهرة ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار نسبة الجودة المحدودة في تربة البلاد الايجية ، واحتلال الجبال للقسم الأكبر من مساحة الجزيرة ، واستطالة فصول الصيف الجافة فيها ، والحاجة للري بسبب فقدان الانهار الكبيرة .

ولم تتمكن الديانة نفسها وتستقر الا بتأثير الحياة الزراعية دون غيرها تقريباً . ولم تتطور بعد ذلك حتى عندما تنوعت اعمال الانسان ومشاغله . وقد اشتهر الكريتيون الى حد بعيد في الاستفادة من كل الموارد الطبيعية ، ويشير حذقهم ، مع حفظ الاقيسة ، الاعجاب نفسه الذي يثيره العمل الزراعي المنظم في الاودية النهرية الكبيرة من الشرق . يغلب على الظن ان انتاج الحبوب ، ابان عهد الازدهار ، لم يكن ليفي بحاجة السكان ، في حال ان انتاج الاشجار المثمرة ، الكرم والزيتون خصوصاً ، يفيض عن الحاجة ويصدر بعضه . وقامت ، الى جانب ذلك ، تربية المواشي حتى الابقار منها ، وقد كيّف بعض الفلاحين حياتهم ، بفضل المساكن الفصلية ، وفاقا لحركة ارتياد الكلأ بين السهول والجبال . وعرف الحمار منذ زمن بعيد ، ثم ظهر الحصان قبيل الالف الثاني غير ان استخدامه لم يصبح شاملاً . وكان الصيد ناشطاً جداً في بعض النقاط من الشاطئ ، يستهدف ، بالاضافة الى سدّ حاجة من حاجات التغذية ، الحصول على صدف « الموركس » الثمين الذي يستخرج منه الارجوان . وفي استطاعتنا ان نطيل هذا الشرح الموجز بالكلام عن القفران والازهار والاحراج وغيرها . ولكن هذه الاشياء كلها ، ولو مجموعة ، ابعد من ان تعلّل ازدهار كريت الذي ارتكز دونما ريب الى قواعد اخرى راسخة .

يؤيد نشاط الصناعة اكتشاف المعامل الملحقة بالقصور ومدينة اصحاب الحرف ، غورنيا ، في اقصى الخليج القائم الى الشمال الشرقي من الجزيرة . وقد اكتشفت واستسيغت في جميع حقول الانتاج تقنيات على قسط كبير من الكمال . ويستدل من دقة الحزفيات ان الكريتيين استعملوا مخرطة سريعة الدوران . وقد توصلوا ، باكراً جداً ، في حقل التعدين ، الى

اتقان التنزيل والتغشية والالهام . اما الصياغة وصناعة الاسلحة من البرونز والمعادن الثمينة فلم تكن ادى مستوى من اجود الصناعات في مصر وبلاد ما بين النهرين .

وأفضت الصناعة الى تجارة عارمة لم تعوزها التجهيزات الفنية اللازمة . أجل ليس الانسان من أنشأ المرافىء ، فلم يقتض للملاحة سوى الشطآن الطبيعية : ونحن لا نعلم شيئاً عن المراكب التجارية ، ولكن يكفي ان نحيط علماً بالمراكب الحربية ، اذ ان الاعمال الانشائية قد تقرر لها وحدها في البدء . وقد توفرت في الداخل شبكة من الطرقات المرصوفة بالألواح الحجرية والمعدّة في الاساس للحيوانات قبل العجلات ، تؤدي الى المدن التجارية والقصور . وقد عمل في الجزيرة ، على غرار الشرق ، بنظام معين للميادين والمكايل ؛ فكانت هنالك سبائك من نحاس واسطوانات من معدن ثمين تسهل المقايضات ، وقد وسمت احياناً بعلامات خاصة للدلالة على قانونيتها ، ولكن لا شيء ، ويا للأسف ، يخبرنا عن القانون التجاري . فكيف نتصور ان كريت التي ربطتها بعالم ما بين النهرين علائق ثابتة قد اهتمت بالمقارضة على انواعها : المقايضة والشراكة وغيرهما ؟ ولا يمكن ادراك تطور هذه التجارة دون جهاز قضائي يراعي الظروف الخاصة للتجارة البحرية .

فكان من الواجب ، وذلك عن طريق البحر فحسب ، تموين الصناعة بال خامات غير المتوفرة في الجزيرة وتصريف انتاجها في الخارج . وقد أمس النقل البحري خير تأمين هذه المهمة المزدوجة ، فلم تعوز الفنانين الكريتين الحجارة ولا المعادن المختلفة . وقد عثر على بعض مصنوعاتهم في مصر وقبرص وعلى الشاطئ الفينيقي (جبيل وأوغاريت ورأس شمرا) وعلى شواطئ آسيا الصغرى وفي اليونان ، كما عثر على الكثير منها في جزر السيكلااد حيث كانت جزيرة ميلوس خاصة ، على ما يبدو ، فرعاً اقتصادياً تابعاً لكريت .

لقد استهدفنا قبل اي شيء آخر ، من هذه العلائق المتعددة ، تفسير طريق بحر ايجه المعترضة
الثروة البادية في الحضارة الكريتية . ولم ينطفئ الاثر الذي تركته بل اتسع مكانه في التقليد اليوناني حتى ان هوميروس سيتكلم عن الجزيرة . « الجميلة والخصيبة والمروية والآلهة يسكان لا حصر لهم وذات المدن التسعين » .

وهنالكَ اكثر من هذا . فمع هذه الحضارة تبرز للمرة الاولى في العالم القديم ، حياة اقتصادية تسيطر عليها التجارة البحرية . وتضفي عليها هذه الميزة جدّة اكيدة بين الحضارات الشرقية التي تمت اليها باكثر من صلة . وكان ذلك بحكم المحتم في جزيرة فرضت الطبيعة فيها على الانسان ظروفًا حياتية تختلف كل الاختلاف عن تلك التي فرضتها عليه في وادي النيل والفرات وقد اعدّها موقعها لدور قامت به خير قيام ، وهو انها ، تسهلاً للاتصالات والمقايضات المتنوعة ، فتحت طريقاً جديدة تمر في المتوسط الشرقي من الشرق الى الغرب وتلتقي ، عند قبرص ، الطريق الشمالية الجنوبية الموارية للشواطئ الاسيوية والمعروفة والمتبعة منذ امد بعيد ،

كما تشهد على ذلك علائق مصر بجيبيل . قبل ذلك ، كان الاتصال التجاري بين اوروبا وآسيا يتم عن طريق المضائق بنوع خاص . وانما «طروادة الثانية» ، احدى المدن التسع المشيدة فوق مرتفع هيسارليك ، مدينة لهذا الاتصال بازدهارها حوالى السنة ٢٣٠٠ قبل المسيح تقريبا ، وان كانت مدينة به ايضا لعلائقها ببلدان البحر الاسود . غير ان هذه الطريق ، عندما سيطر الكريتيون على البحر ، لم يسلكها تقريبا سوى جماعات الهنود الاوروبيين المصممين على استيطان آسيا الصغرى . وهكذا فان كرييت قد ابدلتها بطريق اقصر جدا لان مراسي سفنها في الشرق اكثر قربا من مواطن الحضارة الكبرى في الشرق الادنى .

لا نعلم الكثير عن الحياة الاجتماعية ، ولذلك فان ما سندي به عنها سيكون على المجتمع كثير من الاجزاء والنقصان .

انه لمن الامة بكان ان نستطيع سبيلا الى تعقب خروج الانسان من الجماعة الكبيرة وتوزع المجتمع الى اسر صغيرة . ويعتقد البعض بان في علم الآثار دليلا على ذلك . فقد عثر بالفعل على بعض المساكن القديمة الوضيعة المقسمة غرفا حتى العشرين تقريبا ، في حال ان البيوت العادية ، بعد ذلك ، كلها بيوت لاسرة واحدة . ولكن الغموض لا يزال يكتنف حقيقة تعليل هذه المساكن الجماعية . ومن خطئ الرأي ومزيد الجرأة ان نتكلم عن الاحزاب في جزيرة كرييت .

وهناك ، في موضوع الاسرة ، واقع يبرز بجلاء من المستندات ، وهو ان المرأة في المجتمع الكريتي تتمتع بمركز وبحرية لم تعرفهما في ذلك الزمن نفسه ، في أي مكان آخر ، وسيقتضي لها وقت طويل جداً حتى تبلغها . فسواد الآلهة من الاناث وللكهانات الدور الأول في الاحتفالات . وغالبا ما تظهر الرسوم نساء خارج بيوتهن ، في الساحة العامة والمسرح وحلبة الملعب . ولكن علينا الاكتفاء بالتأكد من حقيقة هذه الاعراف الخاصة ، دون محاولة تعليلها . نحن نجهل كل شيء عن النظام الزراعي وعن تنظيم الطبقات الاجتماعية الدنيا التي نهضت بالانتاج الزراعي والصناعي واعباء النقل التجاري . ويعطينا تراكم البيوت - المصانع الصغيرة التي تتدرج المنحدر الى الورا من غورنيا ، الدليل على واقع غني عن البيان ، وهو وجود الفقراء في كرييت كما في كل مكان .

لن نتوقف هنا سوى امام المساكن الكبيرة والقصور . فهي قد زخرت بحياة متألفة بهجة صافية ، أي بحياة بلاطية . وقد وفّر الذهب والفضة والبرونز والآلئ والحجارة النادرة المادة الضرورية لأسلحة الابهة والحلى والجواهر والخواتم والفصوص التي جمعت الذوق اللطيف الى كمال الصنع . وقد شاع زي نسائي مستحب يستلزم «التنانير» الناقوسية ذات الاطار ، والصُدَر التي تكشف العنق والكتفين ، والأكام الفضفاضة . وقد استعمل الرجال حلاهم أيضا ورغبوا في الأقمشة والجلود الملونة ، ولكن تبرجهم كان أقل تعقيدا . وكان للشرفات والازهار وسعة العيش مركز مفضل . وكانت هنالك اقنية محكمة التصميم لتوزيع الماء على المساكن التي لم تخل

حتى من البواليع ؛ وسينقضي بعد ذلك وقت طويل قبل ان يفكر الانسان ، من جديد ،
بالاهتمام للتدابير الصحية المعتمدة الى حد بعيد ، في كريت المينوسية ، اكثر من ألف وخمسمائة
سنة قبل المسيح .

ولكن كل هذا ، بالرغم من فتنة هذه الأدلة ، لا يتعدى المظهر المادي لحياة اجتماعية نتمنى
لو نستطيع تحليل اجزاء نظامها المختلفة .

الديانة يصح القول نفسه تقريباً عن الديانة التي لا سبيل للدنو منها إلا من
خلال الفن .

ان اسهام كريت في النظريات الدينية التي اخذت بها الحضارات الشرقية المعاصرة لها أبعد
من ان يكون شاملاً . بيد انه يمكننا ان نحاول ، انطلاقاً منه ، تحليل وفرة الكائنات الوهمية
الشرطانية ذات الوجه الاصفر : رجال ونساء برؤوس حيوانات ، ابو الهول ، العنقاء المغربية ،
الجنّ المجنّح . وما المينوطور في علم الاساطير اليونانية ، على الأرجح ، سوى أثر من آثار هذه
الكائنات المسيخة . ويبدو بصدد الآلهة انفسهم ، ان الكريتيين أخذوا بمبدأ التشبيه . ويغلب
ان الاسلحة (الترس والفأس المزدوجة) والطيور والحية والثور لم تكن سوى خاصيات أو
رموزاً . بيد ان الامعان في تمثيل الشجرة وسط الاحتفالات الطقسية او على المذبح احياناً يحملنا
على الاعتقاد بانها كانت موضوع عبادة مباشرة هي من رواسب الوثنية البدائية . وعلى كل
حال ، فليس هناك ، على نقيض الشرق وعلى ما نعلم ، أي جرم مؤله . كما ليس من إله للهواء أو
إله للبحر ، وهذا ما يثير العجب اذا ما اعتبرنا دور البحر في الحياة الكريتية . ويغلب ان
الديانة انما تستهدف تمجيد خصب الارض المغذية . فوفرة الرسوم النسائية ، والميل للملوس الى
ابرار الكشجين وتعزية الشدين بوضع اليدين متشابكتين عليها احياناً ، وإشراك هذه الرسوم
برسم الشجرة والحية التي هي حيوان ما تحت الارض الاول ، كل ذلك يحدو بنا الى الاعتقاد
بوجود عبادة اولى تتجه الى ما يمكن ان نسميه « بالأم الكبيرة » ، اعني بها إلهة الارض
والاخصاب . والإله الذكر المفروض وجوده الى جانبها لا يتمتع إلا بمركز ثانوي اكيد . ولكن
هل يجوز لنا ان نرد كل ما لدينا بعض آثاره الى هذه الازدواجية؟ يجب علينا قبل الاقدام على هذه
المحاولة ، ان نتمكن من قراءة الاسماء الالهية .

ان المعبد الذي لا مناص عنه للعبادة في غير مكان لا أثر له هنا . ولسنا نجد سوى بعض
المساجد الصغيرة قائمة في المساكن الكبيرة أو منشورة في البلاد، أو سوى المذابح وحدها احياناً.
وهكذا فان العلاقة بالشرق لم تفض الى اعتماد الابنية المخصصة لسكن الاله . اما الاعياد ، على
نقيض ذلك ، فأكثر تشابهاً بالعادات الشرقية . فهي تظهر ، هنا ايضاً ، المراحل الكبرى للحياة
الزراعية ، ولا سيما الحصاد وجني الاثمار ، وتتخللها التطوافات والرقصات المقدسة السعرة احياناً
على انغام الموسيقى . بيد انه لا يمكننا ان نستنتج من ذلك ان هنالك نقلاً أو اقتباساً . ويتخلل

الاحتفالات الديليسة مشهد غريب ، غير المسرحيات التي درجت عند المصريين ايضاً ؛ بل الالعب العامة مع ما يرافقها من معارك الملاكمة والمصارعة وسباق الثيران بنوع خاص ، ولم يعرض ذلك للموت على ما نعلم ، بل كان فرصة يظهر فيها اللاعبون خفتهم ومهارتهم . ولم تتردد بعض النساء انفسهن في الاشتراك في هذه الالعب .

احرزت هذه الالعب نجاحاً اكيداً كبيراً . ولكن هل كان لها ، عملياً على الأقل ، معنى غير ديني ؟ لا نستطيع ثبت ذلك او نفيه . ويبدو على كل حال ان المثل الأعلى الطبيعي للكريتي هو نفسه المثل الأعلى للرياضي . واذا ما استندنا الى الرسوم المصورة فليس من بدين واحد في البلاد التي اكتسب الكل فيها قدراً نحيفاً جداً . وما من شك ايضاً في ان هواية الرياضة هذه ، حتى ولو ارتبطت بالديانة ، تتم عن الأخذ بمفهوم جديد للانسان المدعو لانماء صفاته الطبيعية في سبيل هدف غير الحرب وتحضيراً لجهود فردي بالضرورة .

ولا تتراءى الآراء حول الموت إلا جزئياً ايضاً . فلا يقتصر على دفن الجثة في قبر على هذا المقدار من الغنى أو ذاك . بل توضع على مقربة منها أدواتها المألوفة أي كل ما قد تحتاج اليه في المداومة على حياة لا يضع الموت لها حداً . وتخصص للجثة بعد ذلك التقادم الغذائية وغيرها ، تلك نفسها التي يستحسنها الاله . وهكذا فان الحياة الثانية قد يرافقها شيء على الأقل مما يدنيها من العالم الالهي . ان ناووس الثالث المقدس الشهير المستغشى بالرسوم المصورة يرينا الميت منتصباً أمام قبره ناظراً الى حاملي القرايين وهم يتقدمون نحوه . ويرينا ايضاً عربية قطر بها الاحصنة من جهة والعنقاوات من جهة اخرى . ولكن هل تنقل هذه العربية الميت ؟ الحكمة أولى في هذا الموضوع ايضاً .

ان الفن ، مع التجاره البحرية ، هو النطاق الذي اثبتت فيه الحضاره الكرتية
الفن
صفاتها المميزة واحررت اكمل نجاحاتها التي ليست بحاجة الى توضيح بقراءة النصوص لان صفة الجمال فيها تسحر كل من يشاهدها . هنالك فنون معاصرة تفرض الاحترام بسعة المفاهيم التي تعبر عنها وقوة الوسائل التي تستخدمها ، في حال ان الفن الكرتي لم يسهل باي شيء عظيم ، بل كأنه يتنكر لكل ما هو عظيم متحاشياً تحقيق المواضيع الكبيرة ، ولكنه يستعيز عن ذلك باحساس حاد حيال الحياة وملاحظة الواقع ، وبقابلية لاكتشاف الساحية التزيينية التي يمكن استخلاصها من كافة الاشياء ، وبذوق سليم مكتمل حيال الالوان والاشكال ، وبحيوية عجيبة في الاكتشاف وبمهارة فنية مدبوخة . ان الفنانين الذين انبتقوا من هذا الشعب ولم يتميزوا نوعاً ما عن جمهور الفنانين الآخرين ، لم يروا ما هو عظيم بل رأوا ما هو جميل .

فلا معابد إذن ، ولا مدافن كبيرة ولا مساكن رائعة ايضاً . واكثر القصور اهمية ، بما فيها قصر كنوسوس نفسه ، لم تشيد وفاقاً لتصميم مدروس . لا بل انها تؤلف عوالم قارب بناؤها المتعاقب اقسامها المختلفة التي لا يتسرب اليها حتى النور الخافت من الفساءات الداخلية او من

أروقة طلقة السماء . ويتصل الواحد بالآخر ، كيفما اتفق الاتصال ، بشبكة مستغلقة من الممرات والأروقة ذات الأعمدة — وهذا هو « اللابيرنت » الذي تتكلم عنه الاسطورة . ولكن هذه العيوب في الفوارق بين مستوى وآخر قد سترتها المهارة في انشاء السطوح . ولم يُعْطَ قط باعطاء هذه المجموعة البنائية الجليلة بقياساتها — يبلغ ضلع قصر كنوسوس الاخير ١٥٠ متراً ، وكان مؤلفاً من طبقتين أو ثلاث طبقات — أي تناسق يوحى النبيل والجلال . وكان بالإمكان ، للاستعاضة عن الوحدة الداخلية ، ان تشيّد « واجهة » رئيسية وينشأ فيها باب فخيم ينتصبان امام القادم الى القصر . غير ان الواجهة والباب لا وجود لهما ، بل هنالك ابواب عدة في الاسوار الخارجية تهشم خط النظر العام .

ولكن حداً أدنى من التنظيم يسهم في التقسيم الداخلي . فهناك بهو كبير في الوسط : ٦٠ م × ٢٩ م في كنوسوس . وهو ليس مقفراً ، بل فيه المذابح وما تستتبعه من حفر للضحايا . غير ان « الواجهات » المطلة عليه تكاد تكون رتيبة . وترى حوالبه بعض « الاحياء » : حي قاعات الالهة والاسلحة وأحياء المساكن الخاصة والمكاتب وعامة الشعب . وان في تجمعها بعض التلاحم ، ولكن التشويش يظهر داخل كل حي من الاحياء التي تتوسطها فناءات ثانوية صغيرة جداً اشبه احياناً بالآبار .

على الرغم مما يبدو في هذا التكديس من مغايرة للمنطق ومن ان هذا العالم المشوش يعوزه الجلال ، ومن ان اكبر القاعات — قاعة الأعمدة المزدانة بالفؤوس المزدوجة في كنوسوس — لا تتجاوز ١٢ متراً طولاً و ٨ أمتار عرضاً ، فان في الابتكارات الهندسية الجزئية احياناً انسجام اناقة يستوقف الناظر بسحره : تصميم بعض السلام وتنظيمها ، إحكام الأعمدة التي تقوم مقام بعض الجدران الجانبية ، الموقع الموفق والمقصود في توزيع الظلال والاضواء .

وهناك بنوع خاص زخرف الجدران ، لا سيما في قصر كنوسوس الاخير الذي يثبت ، بذلك وبقياساته ، تميزه عن القصور الاخرى . ولا وجود للتأثيل في هذا الزخرف ، فالحزيرة كلها لم توفر لنا على هذا الصعيد سوى حطام وضيع . وليس من نقوش ناتئة على الحجر ايضاً ، بل هنالك رسوم ملونة على جص ادخل عليه بعض النتوء قبل الرسم . والزخرفة عرف قدم جداً لن يلبث التصوير على الجدران ان يحل محلها ، مع الزمن ، بمشاهده الحية .

عندما يصور الفنان كائناً بشرياً ، يستأثر الوجه كل اهتمامه فيطبعه بالحياة وقوة التعبير والصفات المميزة التي تحملنا على ان نرى فيه رسماً لاحد الاشخاص . وهو لا يهتم ، فيما عدا ذلك ، للتفاصيل التي يعالجها بسرعة . « فباريسية » كنوسوس مثلاً ليس لها اذان ، كما اهل في كل الصور تكوين الجذع والاعضاء . فالمهم هو الحركة حين حدوثها واختلاجها ، ولذلك يتسرب الى المواكب نفسها بعض عدم التناسق والتشويش . وان ما يلفت النظر هو التصميم على الحرية . فالإنسان لا يتقيد بالقدسيات ولا بالأوضاع التقليدية او الاصطلاحية ولا بالحركات المفروضة ،

ولا يخضع إلا لقانون حياته الشخصية . وإذا كان الأمر على ما هو عليه بالنسبة للرسوم التي يحققها الفنان ، فهل يمكن ان يعترف بقانون آخر بالنسبة له شخصياً ؟

نشط الفنان إذن في تصوير حركات الفرد حين حدوثها وعلى طبيعتها ، ولكنه كان أكثر براعة في تصوير الحيوانات فحقق في هذا المجال روائع لا تنسى : التور الواثب ، والنمر القانص ، والقرود المتقدم بين الأزهار ، والطير عند هبوطه ، والسمكة الطائرة عندما تثني جوانحها كي تغط في المياه المزبدة ، والأخطبوط بمجاسته المتأوجة . ليس ثمة من وضع جامد ، بل حركة توحى بما سيقع من حركات وما سيتبعها منها ، أو عمل مختلف المراحل بفصل رسم حيوانين أو ثلاثة في فترات مختلفة من العمل نفسه ، أو استعادة بالغة للحياة في تغييرها ونشاطها ولينها .

بيد أن هذا السعي وراء تصوير الحركة لا يفقد الصورة شيئاً من قيمتها الزخرفية التي يتوصل الفنان الى تحقيقها دونما اعتبار لأي تناسق . ففي سبيل التواء القرن مثلاً ، نراه يحطم حاشية الاطار ، وهو لم يكتف بمراقبة « العدو الطائر » المزعوم عند بعض رباعيات القوائم الكبيرة - وهذا الخطأ الذي يعود إليه قد استمر حتى « ماراي » قبيل السنة ١٨٧٠ - بل جوف احقاء الحيوان وأعلى منه الردف بغية إبراز رتاقة خط الظهر . ويقدر انه استوحى من العالم البحري الذي يعرفه بتمام المعرفة ، بفضل وجوده في جريرة ضيقة ، أكثر من نصف الحيوانات (أسماك وأصداف وغير ذلك) التي صورها ، وان ما يقارب نصف الباقي هو من ضروب العصفير . ومرد ذلك انه يجد عند هذه وتلك أسكالا أوفر لدانة وتموحاً تضع امامه المزيد مما يشبع نهمه للتناسق الزخرفي . وهو يستوحى ، من البحر ايضاً ، غالبية المناظر الطبيعية التي يجعل الكائنات الحية تتجول فيها بين التواءات الأمواج وتحطمتها ، الأشن الرخيصة ، والصخور الناتئة . وتستهويه ، في عالم النباتات البرية ، الحدوع والأزهار كمواضيع تزيينية ايضاً . ولكنه لا يستسلم لفتنة الوصف ولا للإكتار على غير نظام . فإن ما ابطع عليه بالفطرة من اتزان وتميز يجنبه ركوب الشطط والزخرفات التافهة . فالطبيعة ، الى جانب الحركة ، تعذي بنفسها إلهاماً أحسن هو رقابته ، حتى في ميعة الدوار .

وقد برهن عن المزيد من الجرأة في معالجة الألوان التي حمل منها الباهت ، ولجأ الى الخارج دون أن يعبأ بالألوان الثانوية التكميلية او بالألوان الواقعية . فالعصفور والقرود أخضرا اللون مثلاً في « بيت الصور » في كنوسوس ، كما أن خطأ قرمزيًا يحيط ببقع من لون واحد وما كنا لنصف ذلك بغير البرقشة ، لو لم تكن هذه الألوان مختارة عن قصد وتصميم توصلنا الى الفتنة والسحر في الزخرف .

اعتمدت طريقة تعدد هذه الألوان ، أول ما اعتمدت ، منذ القرنين الثامن عشر والسابع عشر في الأواني الخزفية المنسوبة لـ « كاماريس » . ولكن هذه الطريقة لم تلبث ان أهملت في الخزفيات ودام استخدامها في الصور الجدرانة ، في حال ان طريقة التصوير وفقاً للأشكال قد

خضعت لتطور واحد في الصور الجدرانة والأواني الغرينية ، وفي حفر الحجارة ونقش الاواني المعدنية . بيد ان ما قلناه عن المواضيع المطروقة وأساليب طرقها ينطبق على عهد ازدهار الفن الكريتي بنوع خاص ، في القرن السادس عشر وأوائل القرن الخامس عشر . وبعد ذلك تهذب هذا الفن وانقاد لنظامية قد تفسرها نجاحات الملكية الكنوسوسية . وفي التعبير التقليدي « نمط القصر » اشارة واضحة الى مغايرة هذا الخط للخط الطبيعي الحر المستعذب الذي سبقه . وقد أفضى التهذيب تدريجياً الى تبسيط الأشكال دونما قاعدة او منطق . فأحل القرد محل الفرس ، وفصلت المجسة عن الأخطبوط فغدت مجرد طريدة متماوجة فحسب . ولكن هذا التصنع المنحط قد برز بعد انهيار كنوسوس على الأخص في الخزفيات الميسينية التي بقيت رائجة ، بالرغم من ذلك ، في اسواق الخزفيات الكريتية في حوض المتوسط الشرقي .

٣ - الحضارة الميسينية

ان الإرث الكريتي الذي انتقل الى الميسينيين من الأهمية بحيث أننا سنقتصر ، تجنباً لإعادة النافلة ، على الفوارق الملموسة بين الحضارتين ، اي الأشياء الجديدة التي أضافها الأخيون . وليس هؤلاء مدينين بهذه الاشياء الجديدة للبلاد التي عاشوا فيها . فبين جنوبي اليونان وكريت فوارق طبيعية طفيفة لعل أهمها ماينتج عن التفاوت في شدة البرد في فصل الشتاء . فلا شيء من شأنه ان يؤثر جدياً في تطوير الظروف الحياتية ، ثم ان الحضارات التي ظهرت في اليونان قبل مجيئهم لم تترك لهم شيئاً يذكر ، لا بل لم يكن لديها إلا القليل مما تستطيع ان تتركه ، إذ لا شيء فيها يضاهي الحضارة الكريتية . واذا لم يقبلوا بأن ينقلوا تنظيمهم وحياتهم عن الكريتيين ، فمرد ذلك الى انهم قد جاؤوا بنظريات وأخلاق وعادات خاصة بالهنود الاوروبيين ، وبأناس قضوا زمناً طويلاً في بلدان اخرى لا سيما البلدان الشمالية .

تظهر الحدة ، أول ما تظهر ، في التنظيم السياسي والاجتماعي ؛ لأن الآثار الامراء المحرابون
المادية التي خلفها كبار هذا العالم أبعد من أن تقارن بآثار كريت .

ان القصور والمدافن الكبرى تفرض الاعتقاد بتعدد الامراء . وكان منهم في ميسين وتيرنثوس ، وهما موقعان غير بعيدين عن بعضهما في الارغوليد . بيد ان شهرتهم لا تفرض الاعتقاد بعدم وجود غيرهم في غير مكان : في الارغوليد نفسها ، في غربي وجنوبي البلوبونيز ، في القسم الأعلى من أثينا ، في بيوسيا . ولم يوجد بين هذه المجموعات السكنية المتشعبة مجموعة بأهمية كنوسوس . أما ثروة ميسين الذهبية الطائلة فقد يكون الفضل فيها لمجرد الاتفاق في اكتشافها ، وهي على كل حال مقتصرة على المصنوعات دون غيرها ، لا يرافقها اي تفوق في الهندسة والزخرف . وفي القصائد الهوميروسية نفسها ، حيث الخيلة تعظم الواقع ، ليس اغا ممنون ، ملك أرغوس اي ميسين ، ملك الملوك إلا بصورة مؤقتة ولحمة عسكرية معينة .

ويصبح التباين أكثر وضوحاً حين ننظر الى القصور نفسها . فهي حصون قبل كل شيء آخر ،

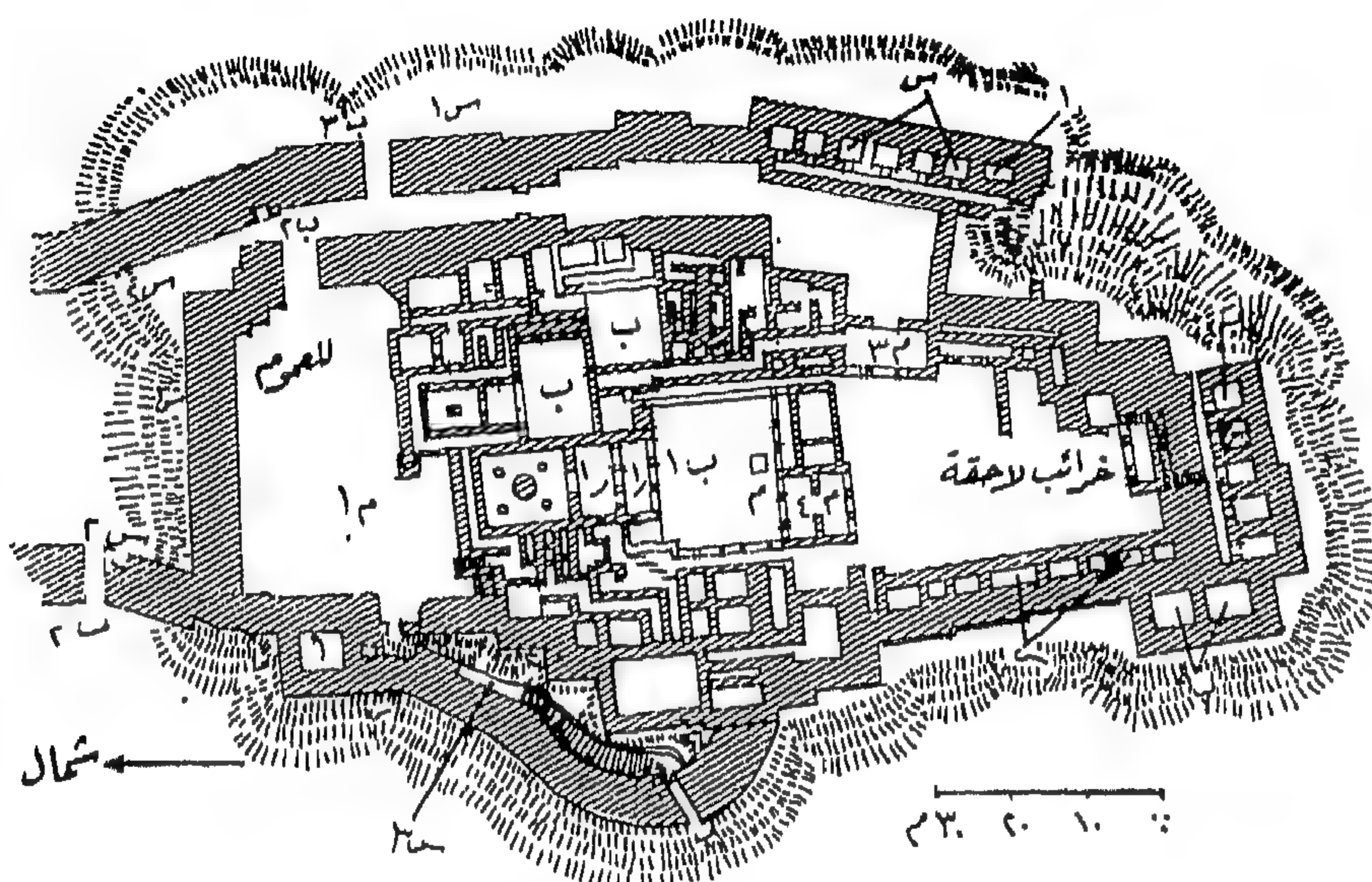
شيئت في موقع تسهل طبيعته الدفاع عنها . وغالباً ما يكون هذا الموقع مرتفعاً مشرفاً على السهل المحيط به . يصعد الى هذه الحصون بسلام خارجية تتخللها العراقل والابواب ، وبسلام محفورة في الصخر وبأبواب خفية . وقد أتى بالصخر من كل مكان لتشييد تلك الجدران التي سيصفها الاغريق « بالسيكلوبية » أي الضخمة ، لأن حجارتها ستبدو لهم هائلة . ففي جزيرة « غلا » في بحيرة كوباييس البيوسية يبلغ محيط السور ثلاثة كيلومترات ، وفي تيرنثوس أنشئت سراديب معقدة في الجدران التي تبلغ سماكتها ستة أمتار .

فلا سبيل ، والحالة هذه ، الى الاعتقاد بملكية واحدة حتى ولو افترضنا انها منحت بعض اصحاب الاقطاعات اجزاء من اراضيها . لذلك وجب القول بقيام امارات مستقلة يغلب على ظننا انها تنافست وتصارعت . اما القول بأولوية شرفية معترف بها لأحد الامراء توليه حق القيادة في المشاريع الجماعية ، فلا يستند الا الى الالياذة . ربما استلمت الارغوليد زمام الامور في النهاية ، لكن ميسين وتيرنثوس قد استمر بقاؤهما جنباً الى جنب ، مما يضعنا امام معضلة مستعصية الحل .

فمن الثابت ان الامراء يهون الحرب ويخوضون غمارها في ظروف كثيرة ويدفنون مع اسلحتهم وخوذهم وسيوفهم الثقيلة وخناجرهم وحرابهم . وقد أُنحت لنا الرسوم التي بلغت الينا معرفة دروعهم وتروسهم ايضاً ، التي كانت كبيرة الحجم اولاً ، يبدو الانسان فيها وكأنه في احد الابراج ، ثم اصبحت سهلة الاستعمال بعد ان استديرت واستصغرت . وكأوا بين حرب وحرب يواظبون ، بغية الابقاء على قوتهم الجسدية ، على ممارسة القنص . وقد أحاطهم الفن الخاص بهم بمشاهد تتم عن نشاط عنيف قلما نرى لها مثيلاً في الفن الكريتي . وأعمال النهب هي مصدر ذهبهم جزئياً . وكل شيء يدل على ان هؤلاء الهنود الاوروبيين الذين بلغوا جنوبي اليونان ، بعد ألف مغامرة ومغامرة نجحها ، وبشق طريقهم بين شعوب طال عهد اقامتها في هذه المناطق ، يحتفظون بميوهم الحربية التي اقترنت بميل الى الجمال الشرقي الذي استوحوه من الكريتيين . فالسلطة عندهم تتباهى بالقوة الفظة ، وتلجأ اليها عند الحاجة .

لم يتيسر كل ذلك إلا على حساب المجتمع .
 الارستقراطية والطبقات
 الكادحة
 بالرغم من الرغبة الواضحة في التقليد ، أقلته في معالجة المواضيع التي لا تنطبق على معطيات التاريخ ، فإن الحياة في البلاط اقل بهاء منها في كريت . وتذهب النساء ، في ملابسهن وترتيب شعرهن وحلاهن مذهب نساء كنوسوس ، ويظهر احد الرسوم الجدران في ميسين بعض هذه النساء يتبخترن في المسرح عند مقدمة مقصوراتهن . ولكنهن أهملن التمارين الرياضية ، ويرجح ان ذلك قد أثر في قوامهن وحرية سلوكهن الخارجي . ويرجح ايضاً ان الحياة داخل هذه الحصون الضيقة (اقل من ١٥٠م × ٥٠م في تيرنثوس) ، أي القصور ، لم تشهد احتفالات على درجة عالية من اللطف والاناقة ، وليس من

يمكن القول نفسه عن العلائق بين الطبقات الحاكمة والطبقات الكادحة . فالقصور المنتصبة



الشكل ١٩ - قصر تيرنثوس

م ، مذبح ؛ ب ، ٣٥ ؛ ب ، ١ ، ٣٥ رئيسي ؛ س ، سرداب معقد ؛ ا ، آبار ؛ س ، ١ ،
السور العلوي ؛ س ، ٢ ، السور السفلي ؛ س ، ٣ ، سلم ؛ م ، ١٣ ، الميعارون الرئيسي ؛ م ، ٢٣ ميعارون
النساء ؛ ب ، ٢ ، ابواب ؛ ب ، ٣ ، باب خفي ؛ م ، ٣٣ ، مدخل كبير ؛ م ، ٤٤ ، مدخل صغير ؛ ر ،
٣٣ ، ٣٣ ، اروقة تؤدي الى الميعارون .

على المرتفعات أشبه بجلاجيء يراقب الاسياد منها عمل بماليكهم في السهل ، لا سيما واننا لا نعلم شيئاً عن العلائق بالسكان السابقين الذين لا يعقل ان يكون الاحتلال قد قضى عليهم قضاء تاماً ، ويستهوينا جداً ان نتصور الباقيين على قيد الحياة منهم خاضعين خضوعاً كاملاً للفتاحين . بيد ان الشيء الواحد الثابت هو أن اسواراً خارجية كانت تحيط بالقصور والمدن على السواء . ولكن هذه الاسوار محدودة الطول على العموم (٧٥٠ متراً في تيرنثوس ؛ اكثر من ١٢٠٠ متر بقليل في ميسين) ، مما يحد من مساحة المدينة . فمن الطبيعي إذن ان يتوزع السكان الباقون في الارياض او ان يقيموا عند لحب المرتفع بحيث يلجأون الى داخل الاسوار طلباً للحماية في ساعات الخطر . وكل ما سوى ذلك فمجرد نظريات .

ويقوم التناقض هنا ، في ان مثل هذه الدويلات ، وهذا المجتمع قد تعاظمت التجارة والثروة
في آن واحد الزراعة والصناعة والتجارة على نحو تعاطيها ايها . أجل ،
قد جرى ذلك ببطء ، وعلى غرار كريت التي ما لبثت هذه الدويلات ان حلت محلها ، بعد
قرنين من التدريب تقريبا . بيد ان نشاطها الاقتصادي قد توسع الى حد بعيد بعد
انهيار كنوسوس .

فأنشئت الطرقات وربما المرافئ ، ولم يشعر سكان الحصون ، القريبة كلها من الساحل ،
بانهم غير قادرين على مراقبة الحياة البحرية وحتى على الاشتراك الفعلي فيها . مارسوا القرصنة
أولاً ثم سيطروا على البحر فجعلت الأسفار التجارية محل الغزوات الاستلابية . وكانت هذه
الاسفار بعيدة أحيانا : فاستورد القصدير الغربي بكميات كبيرة بالإضافة الى قصدير القفقاس
واستخدم لصنع المزينة من الشبهان ، كما استورد - ولا نعلم بأية واسطة - ندى البلطيق الذي لم
يعرفه الكريتيون والذي قدّر الهنود الاوروبيون حق القدر انعكاسه الشاحب الخفي . وقد
جابت المراكب الميسينية البحار القريبة ايضاً : وتؤيد المصنوعات المميزة المكتشفة ، بما توفره
من معلومات ثابتة ، أهمية واتساع انتشار الانتاج المعدني والحزفي . فلما كانوا قد أتوا من الشمال ،
حيث المناخ أشد قساوة ، فإنهم قد أحضروا معهم المشابك المعدنية (الدبابيس) القيمة بإيثاق
ملابس اقل وزناً . فنقلها عنهم سكان البحر المتوسط . وقد ظهر الكثير من مصنوعاتهم الشبيهة
وجواهرهم وحجارتهم المنقوشة ، ولا سيما خزفياتهم ذات الرسوم المبسطة التي تشبه الرسوم
الهندسية ، في مواقع كثيرة جداً : في صقليا وايطاليا الجنوبية والسيكلاد وسواحل آسيا
الصغرى وفينيقيا أخيراً حيث غدت لهم « مينة البيضاء » ، مرفأ أوغاريت - رأس شمرا ،
مستودعاً عارماً بالنشاط يرجع انه كان بمثابة مستعمرة انطلق القصدير منها الى كل مكان حتى
بلغ بعض النقاط في وادي الفرات .

غنيمة حرب وقرصنة ، جزية ، صناعة ، تجارة ، كل ذلك أدّى الى الثروة . ولم يعط أي
موقع في العالم اليوناني كمية الذهب التي اعطتها ميسين (١٤ كيلوغراماً قبل اكتشافات ١٩٥٢) .
وحفظ الاغريق ذكرى هذا البذخ ؛ فالقصائد الهوميروسية تنعت ميسين « بالغنية بالذهب » ، على
انها تقهرت فيما بعد حتى اصبحت قرية صغيرة في ارض ارغوس . ويجب عملياً انتظار العهد
الهليني ورواج الكنوز الفارسية حتى تدخل البلاد كمية كبيرة من معدن هو اثن المعادن .

يبدو ان الديانة لا تختلف كثيراً عن ديانة كريت . ولكنهم يولون عبادة
الفن الميسيني الاموات اهتماماً اكبر شأناً ، لا سيما ما يتعلق منها بأموال عائلات الامراء . وقد
افضى هذا الفرق الى تنمية هندسة مدفنية على قسط كبير من الجدة .
اعتمدت في البدء « المدافن ذات الآبار » الخاصة بميسين التي تحفر بأعداد كبيرة داخل
اطار مستدير من الحجارة المنتصبة ، وقد اكتشفت مجموعة ثانية منها حديثاً .

ثم خلفتها « المدافن ذات الحُجر » حوالي السنة ١٥٠٠ ، واخيراً المدافن ذات القُرب . فكانوا يحفرون في منحدر المرتفع سرداباً يؤلف مع المنحدر زاوية مستقيمة ثم يذشئون حفرة مستديرة الشكل يعززون جدرانها بسافات حجرية محكمة الترتيب تضيق تدريجياً حتى تكون سقفاً للحفرة . ثم يردمون كل شيء باستثناء السرداب الذي ينتهي الى باب . ويكفي للدلالة على سعة الاعمال المنجزة ، ان نذكر ان السرداب يبلغ حتى ٢٥ متراً طولاً والقبة حتى ١٥ متراً قطراً وارتفاعاً .

في هذه « القفران » ، اي في القبور الجانبية ، توضع الجثث باعداد كبيرة أحياناً . فهل تعني هذه الكثرة ان ضحايا بشرية كانت تقدم اثناء الاحتفال بالجناز ؟ لا شيء يحول دون الاخذ بهذه النظرية في بعض الحالات . ومهما يكن من الامر ، فإن الميت يستمر في الحياة بعد موته . وقد اكتشف في حفر الذبائح تحت السرايب عظام حيوانات وتقادم للميت . وقد عثر في المدافن ذات الآبار على الاقنعة الذهبية التي تظهر خطوط وجه الميت بما فيه اللحية . كما عثر فيها ايضاً على الاسلحة والجواهر والحلى والسكاكين والمحالق وغيرها من الادوات المختلفة . وفي اواخر القرن التاسع عشر أثارت اكتشافات « شليمان » دهشة العالم بأسره . وقد حصلت بعد ذلك اكتشافات اخرى عرف بعضها الشهرة ككتشاف الاكواب الذهبية في « فافيو » جنوبي البلوبونيز ، ويستحق بعضها الشهرة ككتشافات دندرا في الارغوليد التي تعود الى خمس وعشرين سنة تقريباً ، كما قد تبلغ الشهرة ايضاً بعض الاكتشافات الحديثة العهد .

لا شيء في هذه المصوغات يظهر تغييرات جوهرية بالنسبة للفن الكريتي . ويمكن القول نفسه عن الفنون الاخرى لا سيما التصوير الذي ازدانت برسومه جدران القصور . فقد اعيرت بعض المواضيع اهتماماً خاصاً كالحرب — أقله في البداية — والقنص مثلاً . ولكن النزعات الجمالية قد بقيت هي نفسها دون تغير . ولا غرابة هنا اذا ما لاحظنا ان هذه النزعات ما زالت تلهم الفنانين الكريتيين الذين راج انتاجهم في اليونان ، او الذين اتوا الى اليونان للعمل فيها مخيّرين او مسيّرين فدرّبوا تلامذة بقوا أوفياء لهم .

على نقيض ذلك ، ادخلت على الهندسة المدنية بعض التجديدات التي لا تقل اهمية واثراً عن تلك التي ادخلت على الهندسة المدفنية .

وقد تناولت هذه التجديدات البيت بنوع خاص الذي كُتِفَ وفقاً لمناخ البلاد . فبينما كان مسطحاً في كريت ، غداً هنا ذا منحدرين تسيل عليه بسرعة مياه امطار اقل ندرة . ثم كان من الممكن في كريت ، حيث البرد أقل شدة ، ان تنتقل العائلات من مسكن الى آخر . وقضت الضرورة هنا باعتماد المسكن الواحد الثابت لا سيما وان السكان قد هبطوا البلاد من مناطق مناخية اخرى وخضعوا لعادات اخرى ايضاً . فنشأ عن ذلك عنصر البيت الأساسي : « الميغارون » الذي ظهر في العالم المتوسطي قبل الأخيين . فاننا نجده في « طروادة الثانية » التي ترقى الى الالف

الثالث ، وفي تساليا وبيوسيا في أوائل الألف الثاني.. ولعل منشأه شمالي آسيا الصغرى التي انتقل منها الى اوروبا عن طريق شمالي بحر ايجه ، ولكن المسيحيين هم الذين وضعوا له شكله النهائي الثابت وعمموا استعماله وطريقة بنائه ، فظهر في السيكلاد حوالي السنة ١٥٠٠ ، وفي كريت بعد هذا التاريخ .

قوام الميغارون بناء مستطيل . ويقوم امامه في الخارج ، بعد الأعمدة التي يستند اليها قسم ناتئ من السقف ، رواق بمثابة مدخل يلججه النور والهواء ويفصله جدار ذو باب واحد عن قاعة كبرى هي الميغارون نفسه الذي تتوسطه موقدة ثابتة مستديرة. وليس هنالك من مدخنة لتصريف الدخان ، بل كوّة في السقف تستند الى أربعة أعمدة تحيط بالموقدة على الأرض . وبفضل هذه التدفئة يصبح هذا المكان قاعة للابهة تزخرف جدرانها ويستقبل فيها الضيوف . وسيرد في القصائد الهوميروسية ان الولاثم تقام فيها ، كما ان «أوليس» سيوتر قوسه ضد الطامعين في الملك في ميغارون قصر ايطاك . ومن وحي الميغارون أيضاً سيشتق المعبد اليوناني .

منذ ذلك الحين اصبح للبيت مركزه ثم انتظمت اقسامه الاخرى كملحقات له . وصدف ذلك في القصور ايضاً التي استلزمّت ، بسبب أهميتها ، قاعتين ذات موائد أو ثلاثاً . ولذلك فهي قد كانت أقل تعقيداً وتشويشاً . ثم خضع البهو الوسطي لقاعدة محددة مع ما تقتضيه من اروقه ومداخل تحف بالأبواب . وان خرائب تيرنثوس ، حتى بدون الاسوار ، خرائب مساكن توحى العظمة والنبيل .

ثم ان الذهنية العامة قد تطورت من جهة ثانية . فليس هناك بعد من جموح إلا في حقل التزيين. وقد بذل الملوك المسيحيون مجهوداً بغية تحقيق الجلال الخارجي الذي اهمله الكريتيون فأثبتوا مرة اخرى انهم لا يأنفون من اظهار قوتهم .

وتحت تأثير هذه الذهنية نفسها ، طاب لهم تنفيذ الأعمال العظيمة التي تبدو وكأنها تفوق الامكانيات البشرية . وقد توفق المهندسون في بناء الحصون و « القفران » الى استعمال قدرات حجرية ضخمة جداً . ومهما كان من خرق المحاولة التي استهدفت النقاشة على الحجر والنقاشة الكبيرة — وهذان فنان جهلها الكريتيون ، ولكنها عاجلا في هذا الحقل موضوعاً كريتيّاً أيضاً — ومهما كان من قبح وترهل وثقل الوحشين المنقوشين في « باب اللبوءات » في ميسين ، فان هنالك جدّة تتصل اتصالاً وثيقاً بنزعة الأخيين الى ضرب من العظمة فيه الكثير من التيه والمجاهاة . وللمرة الاولى نرى ، خارج القارة الآسيوية ومصر ، محاولة لتحقيق مثل هذه التصاميم العظيمة توصلاً الى مقصد ديني وزخرفي في آن واحد . أجل فشل المجهود من الناحية الجمالية ولكنه قد نجح من الناحية التقنية ، اذ ان رفع هذه القدرة والاسكفة التي تتركز عليها فوق جانبي الباب لم يكن من الامور اليسيرة .

بالرغم مما انطوت عليه الحضارة الميسينية من قوّة وإقدام في الحروب ، فقد
إرث المسيحيين وجدت من هم أكثر قوة منها وإقداماً ، أعني الدوريين ، وهم أيضاً من

الاعريق ، الذين سببوا انحطاطها أولاً وزوالها فيما بعد . ولكن هل يمكن ان تزول حضارة ولا تترك للاحقاتها شيئاً سوى آثار مادية ؟

تسلط الحضارة الميسينية قسماً كبيراً من الارث الكريتي وعنيت به . كذلك لم يتح كل شيء منها في اعصار الغزوات الحديدية . فان في اللغة اليونانية بعض المفردات التي ليست بسامية ولا هندية - اوروبية ولعلها تنسب الى لغة قد تكون هي نفسها اقدم عهداً من اللغة الكريتية . ومهما يكن من أمرها ، فان الكريتيين والميسينيين قد استخدموها . كذلك احتفظت الديانة اليونانية بتأليه مبدأ الحصب وبممارسة الالعاب الرياضية . وانما هم الأخيون الذين أمنوا استمرار كل ذلك وانتقاله الى من بعدهم .

لم يقصر الأحيون أنفسهم على دور الوسطاء في هذا المجال . أجل لا يمكن ان ينسب اليهم كل ما أصبح يونانياً فيما بعد ، اذ يجب الا نغفل القسط الذي أداه كل من العناصر التي ستكون الشعب اليوناني . ولكن ذكرى حربهم ضد طرواده واسفارهم في المتوسط وثرواتهم وأسلحتهم وحلهم تلهم القصائد الهوميروسية . وقد ذهب البعض الى القول إن هذه القصائد قد تأثرت مباشرة ، من حيث الوزن والمبنى ، بقصائد ميسينية مماثلة ، ولا يخفى ما في ذلك من جرأة ومغالة . اما نحن فلنكتف بملاحظة على نطاق أوسع . كان الكريتيون قد فتحوا طريقاً معترضة في المتوسط الشرقي فكان ذلك خدمة لبحر ايجه وجزره . فحافظ الميسينيون على هذه الطريق ، وكان ذلك هذه المرة خدمة لليونان البرية . ولن يعوز الاغريق طاقة بشرية ومهارة ونشاط كي يستمروا في السيطرة عليها قومياً واستعادة السيادة عليها اقتصادياً . وخلال قرون طويلة سينشطون الى ابقائها مفتوحة وسالكة خدمة لمصالحهم على غرار ما حدث في عهد ملوك ميسين وتيرنشوس .

الفصل الثاني

كنعان وسوريا

ان جوار البحر المتوسط ، وارتفاع سلاسل لبنان يطبعان بطابع خاص المنطقة التي هي امتداد لصحاري البلاد العربية نحو الغرب : كنعان في الجنوب وسوريا في الشمال . وتشد هذه المنطقة الى هذه الصحاري صلة دائمة من حيث انها تتعرض لهجمات الارياح المحرقة المفاجئة ومن حيث انها تستهوي البدو الرحل فبلغتها منهم موجات متعاقبة واقامت في اقسام كبيرة منها أحياناً . فإنما هي لهم الارض السعيدة بفضل امطارها وانهارها وينابيعها : الزراعة ممكنة فيها وجبالها مكسوة بالإشجار . ثم ان الطرقات المختلفة تؤدي اليها وتمر فيها . وهي المسلك الطبيعي الوحيد بين مصر وجميع بلدان الشرق الأدنى . اجل قد يلفظ البحر فجأة القراصنة ورائدي المغامرات ، ولكن هذا البحر نفسه طريق تؤدي الى البلدان المختلفة . وهنالك اخيراً طرق القوافل التي تصلها بأسفل الفرات وبلاد ما بين النهرين . فهي بلاد صغيرة اذن لا حدود طبيعية لها ولا وحدة فيها ولا ادارة مركزية تجمعها ، ومفترق مستطيل قسمته طبيعة الارض الى طرائد طويلة تتجه من الشمال الى الجنوب . وهي الى ذلك مفتوحة أمام كل سيطرة وتأثير ، طمعت فيها كل الامبراطوريات العظيمة والجماعات البشرية الناهية التي رغبت في ان تقطع فيها لنفسها مكاناً .

بيد ان هذه الجماعات قد برهنت في ضعفها عن انها اكثرت تصلباً من جيوش الفاتحين المتعاقبين الذين خلدوا مرورهم بكتابات على درجة كبيرة من التصلف فطبعت تاريخ البلاد بطابعها الخاص . وباستثناء الفلسطينيين ، كانت هذه الجماعات كلها سامية ، مع انها انتسبت في الحقيقة الى اصول سامية متنوعة دخلت البلاد في عهود مختلفة . وبالرغم من تنوعها هذا ، فانها قد مارست ، أقله في البداية ، الديانة الكنعانية الشديدة التأثير بالطبيعة والزراعة . ولكنها سلكت في تطورها طرقاً متباينة وكونت فسياسة معقدة . لذلك لن يستوقفنا منها سوى بعض جماعات كان لها اثرها في تطور الحضارة القديمة اللاحق .

١ - الفينيقيون

الفينيقيون ساميون استقروا في السواحل . ونراهم منذ زمن مبكر في الساحل الجنوبي الذي يتقدمون منه ، فيما بعد ، نحو الشمال . ومنذ اواخر الألف الثالث كأبعد حدّ نراهم في اوغاريت (رأس شمرا الحالية مع مرفأ مينة البيضا) ، قبالة رأس قبرص الشرقي . ولكنهم لن يتوغلوا الى ابعد منها نحو الشمال . وعلى نقيض ذلك ، فإن الساحل الجنوبي الذي كان ساحلهم قد أفلت من ايديهم وانتقل الى سيطرة العبرانيين والفلسطينيين . ولم يحتفظوا إلا برقعة ضيقة من الارض جنوبي الكرمل . اما نحو الداخل فيبدو ان توسعهم كان محدوداً ولم يبلغوا جبل لبنان الشرقي الا في نقاط نادرة . بيد انهم توفقوا الى الاحتفاظ بعلائق طيبة بالسوريين .

الحياة السياسية
طوال الألف الثالث ومعظم الألف الثاني، توطدت علائقهم بمصر بنوع أخص، وكان مركزها بيبيلوس ، وهو الاسم اليوناني لجبله الفينيقية وجبيل الحالية . ولكن أسياد بلاد ما بين النهرين ، من جهتهم ، بسطوا نفوذهم على اوغاريت . ولم يتح للمدن الفينيقية ان تتمتع بالاستقلال إلا بعد انهيار الامبراطوريتين العظيمتين المصرية والحثية في اواخر القرن الثالث عشر. ولكن هذا الاستقلال كان قصير الامد اذ خضعوا فيما بعد على التوالي للسيطرة الاشورية والبابلية الجديدة والفارسية قبل ان يدخلوا في فلك اليونانيين والرومان من بعدهم . بيد ان هذه الطريدة الساحلية الضيقة لم توفر الارض الكافية لتشييد دولة كبيرة ، بل كانت تحت رحمة الامبراطوريات القوية بسبب ضعف دفاع حدودها البرية .

ولم يكتب لهذه الطريدة ان تتوحد بسبب امتدادها الى اكثر من ثلاثمائة كيلومتر وصعوبة مواصلاتها البرية التي تعترضها وديان ومرتفعات كونتها السيول الجحافة المنحدرة عرضياً من الجبل الى الساحل . لذلك توزع السكان فيها على عدد من المدن احتل كل منها موقعاً مؤثماً للنشاط البحري : جزيرة صغيرة قريبة من الشاطئ أو أرض داخلية في البحر . ولم يجمع بينها اتحاد أو تحالف بل تأكلها التحاسد والتنافس اللذان قاداها الى التعارب احياناً . فتناصبت صور وصيدا بنوع خاص عداً طويل الامد . ولم يتح لمدينة واحدة ، حتى ولو استفادت مما ألحقه الاجنبي بمنافساتها ، ان تبسط نفوذاً واسعاً أو دائماً . ولكن ما يلفت النظر هو ان المدن الفينيقية ، على نقيض المدن اليونانية ، لم تنهك قواها في هذه المنازعات . ويبدو ان الاسياد الغرباء الذين بسطوا عليها حمايتهم قد فرضوا عليهم الاخلاص الى السكينة . ولعلها ايضاً قد انشغلت بمصالح اخرى واستهوتها الآفاق الواسعة فلم تنجرف في تيار الخلافات المحلية . والجراح البالغة التي اصيبت بها صور وصيدا ، فسببت هبوطها ، انما هي نتيجة ضربات عدو خارجي لا انقسامات داخلية .

لا نعلم الشيء الكثير عن تنظيم هذه المدن وعن الحياة فيها . ونحن نرجح ان هذا التنظيم وهذه الحياة قد اختلفا من مدينة الى مدينة ومن عهد الى عهد في تاريخها الطويل . وليس من سبيل الى المقارنة بين مفهوم المدينة عند الاغريق والمفهوم نفسه عند المينقيين . ولم تحل بعض الفوارق الطفيفة دون سهولة تطور المدن الفينيقية ، بعد فتح الاسكندر ، الى مدن من الطراز

حساباً لقوى اخرى . فكاهن إله المدينة الرئيسي ينعم بنفوذ واسع يحدث أحياناً ان يستخدمه لاغتصاب الملك . وقد ثبت خصوصاً استمرار وجود مجلس من « القدماء » والقضاة ، كما درجت على ذلك صور مثلاً حيث تمثل القضاة بشخصين هما « الصافطان » . ويشترك في هذه الاجهزة ممثلون عن طبقة الاغنياء دونما تمييز بين اصحاب الاملاك واصحاب المراكب ، مما يبرهن ان للعائلات الكبرى مصالحها المشتركة . أما الشعب ، حتى ولو قام مجلس يمثله ، فلا كيان له إلا في ظروف البلبلة والفوضى ، إذ يلجأ إليه الزعماء المتنافسون والأحزاب المتناهضة . ولكن هذه الجمهوريات الملكية الارستوقراطية النزعة تمثل ، بالرغم من ذلك ، الى حاسب الملكيات الشرقية الكبرى ، شكلاً مبتكراً في التنظيم السياسي .

ولعل حياتهم الاقتصادية اكثر ابتكاراً ايضاً .

الحياة الاقتصادية

فالزراعة ليست مهمة . وهنالك على منحدرات الجبال جلول منضدة هي ثمرة عمل شاق طويل . ويسدّ محصول الحبوب القسم الاكبر من حاجات السكان الغذائية ، وتربية المواشي بعض حاجاتهم من المنسوجات ، كما يصدر ما يفيض عن حاجتهم من خمر وزيت .

الصناعات المهنية ناشطة جداً في المدن . وقد قصد الصيادون شواطئ نائية جداً فبلغوا افريقيا سعياً وراء طلب اصداغ « الموركس » التي يستخرج منها الارجوان ، مما أتاح للفينيقيين ، زمناً طويلاً ، التفرد تقريباً بصناعة الالفشة الصوفية الملونة . ولم تواجه خزفياتهم منافسة تذكر في الفترة التي تفصل بين هبوط الميسينيين واتساع حركة التصدير في كورنثوس . وقد اكتشفوا أو اكملوا افضل التقنيات لصناعة ادوات الترف والجواهر والزجاجيات والطيوب والمفروشات المنزلة معدناً أو عاجاً . وفي هذا الحقل ، حتى في العهد الروماني ، ستراهم يتنازعون الأولوية مع الاسكندرية .

ثم ان بحشهم عن المواد الخام وعن الأسواق لبيع سلعهم قد دفع بتجارهم دفعاً الى الامام . فتعاطوها منذ عهد سحقي قائمين ، بالاضافة الى مقتضيات ضرورياتهم الخاصة ، بدور السماسرة ، فجنوا الارباح من سلع غيرهم ايضاً التي أخذوا على انفسهم امر تصريفها : هكذا سلك الجبيليون مع مصر منذ الألف الثالث ، وهكذا غدت أوغاريت في الألف الثاني مستودعاً حقيقياً للعالم الايجي . أما في البر فلم يتولوا بأنفسهم نقل البضائع بواسطة القوافل ، ولكنهم أقاموا حيث تؤدي طرق هذه القوافل وحرصوا على ان تقوم أحسن العلائق بينهم وبين السوريين والعبرانيين . وإنما انقطعوا الى التجارة البحرية مستفيدين من موقع مرافئهم ومستثمرين الموارد التي توفرها احراج لبنان لبناء مراكبهم . كان سكان بلاد ما بين النهرين قد اكتشفوا الأصول القانونية والمالية للتجارة البرية ، بينما نحن لا نملك قوانين ولا عقوداً فينيقية ، ولكننا أكيدون من انها قد وجدت واعتمدت في التجارة البحرية أصولاً مماثلة . وعلى كل حال فإن الفينيقيين قد برزوا في تقنية الملاحة التي تفوقت على كل تقنية اخرى ما بين القرن الثاني عشر وأواخر

القرن الثامن . وقام بعض ملاحيتهم ممن كانوا في خدمة نخاوو ، أحد فراعنة سايس ، « بجولة » حول افريقيا مروراً بالبحر الأحمر وجبل طارق استغرقت ثلاث سنوات . وسلكوا يجرأة ، لحسابهم الخاص ، طرقاً غير مطروقة مندفعين بعيداً نحو الغرب ومكتشفين مصاباً الأنهر والمواقع الصالحة للجوء المراكب وللدنو من الشاطئ ومستطلعين ، بتوقعهم الاضطرابي كل مساء ، شواطئ مجهولة ، حرصوا على الاحتفاظ بأسرارها . وقد نشطوا في كل مكان إلى إقصاء كل من تسول له نفسه منافستهم ، لاجئين إلى القوة حين يرون للقوة سبيلاً ، مستعدين لكل مقايضة ، مقدمين على الاستلاب أحياناً ومعرضين أنفسهم لسطو المستلبين أحياناً أخرى . فقد التجروا ، بالإضافة إلى ما التجروا به ، بالارقاء من رجال ونساء واطفال باعهم اسيادهم أو هم خطفوهم بالحيلة أو بالقوة . أما ما جاء في ملحمة « أوليس » عن خطف راعي الخنازير اليافع ، « اوميوس » ، بينما كان ذووه يتباحثون مع احدالتجار الفينيقيين في ثمن عقد من الذهب والند ، فيبدو ان الخطأ فيه مشترك بين الطرفين اذ ان الامة الصيدونية المسؤولة عن الخطف قد خطفت هي ايضاً على أيدي قراصنة من الاغريق . ولكن الفينيقيين قد عرفوا تمام المعرفة ان الاتفاق الجبي مع اهالي البلدان الغربية اولى .

وقد توصلوا في اكثر الاحيان الى تحقيق هذا الاتفاق وتمكنوا من تحويل الاستثمار الاسا كل المبتدئة الى اسواق تجارية دائمة ما لبثت ، بفضل ظروف محلية مؤاتية ، ان اصبحت مدناً جديدة أحياناً . بيد انهم قد صادفوا مقاومة جديده من قبل الاغريق الذين لم يسمحوا بأن يمس حرمهم الايجي ، بل هم أنفسهم خرجوا منه لتأسيس اسواق خاصة بهم . فقُسمت قبرص فيما بينهم على ان الفينيقيين قد حصلوا منها على الشطر الاكبر : فكان لصيدون فيها ، في القرن الثامن ، « قرط حدثت » أو قرطاج ، أي « مدينة جديدة » . وقد وجب التوافق في صقلياً ايضاً . ولكن الفينيقيين لم يواجهوا منافسة ما في سردينيا ولا في شبه الجزيرة الايبيرية ولا في افريقيا الشمالية . ولكن ذلك لم يفض الى قيام امبراطورية بمفهومها المعروف ، بل الى سلسلة من المستعمرات الفينيقية ، قد تتقارب حلقاتها او تتباعد ، ينتظر احداها ، قرطاج الصورية في افريقيا ، مستقبل باهر جداً . وقد نشرت هذه المستعمرات أحياناً الحضارة الفينيقية في اوساط على كثير من التخلف والتأخر .

يتناقض عدد هذه الاسواق وتشتتها تناقضاً كلياً وضيق بلاد مؤسسيها الأم . وهذا دليل على كثافة سكان هذه البلاد حتى ولو سلمنا بالتحاق مهاجرين جدد من هنا وهناك بالنازحين المؤسسين . وهذا ما يعلل ايضاً امتناع المدن الفينيقية عن التوسع في آسيا وربما عدم نشوب أزمات سياسية واجتماعية خطيرة في تاريخها الداخلي . ولكن هذا النشاط قد أدى الخدمات الجللى للعالم الشرقي القديم . فقد أسهمت التجارة الفينيقية ، بفضل انتشارها في الغرب المتوسطي وبفضل اسواقها التجارية في شرقي اسبانيا وفي قادش بعد مضيق جبل

طارق ، في تموين الشرق بالمعادن النادرة لا سيما القصدير المستخرج من الجزر الكسيتيرية .
وهكذا فإن هذه المدن الصغيرة القائمة على شاطئ صخري قد وفرت للأمبراطوريات العظمى
بعض المواد اللازمة لتشييد حضاراتها .

ويا لدهشتنا ، استناداً الى ما سبق ، عندما نرى ان الفينيقيين قد مارسوا ، في
الديانة والفن جوهر معتقداتهم ، ديانة تقسم بطابع زراعي مميز فيما يتعلق بآلهتها وخرافاتها
وطقوسها ، مما يثبت انهم تعاطوا الزراعة دون غيرها قبل ان يصبحوا تجاراً وملاحين .

اطلقوا على إلههم الرئيسي اسم العلم « ايل *El* » الذي ليس سوى اسم نكرة معناه « إله » . وقد
رأوا فيه خالق كل شيء وسيّد الآلهة . ويأتي بعده بعل (السيد) وهو يمثل « حلد » المقتبس
عن سوريا الشمالية اثناء الاستيطان وكان إله الصاعقة والرعد والمطر . اما ابنه « أليان بعل »
فيمثل الآبار وينابيع المياه الجوفية . وكان « داغون » إله القمح و « موت *Mot* » إله الحصاد ونضج
الثمار . وغدت « عشترت » إلهة الخصب وهي لا تختلف عن عشتار بلاد ما بين النهرين كما
يتضح من اسمها . وهناك مجموعة آلهة آخرين كثيرين طراً بعض التطور على نظرة الناس الى
جوهرهم وتنسيقهم . فاستقر ملقرط (ملك المدينة) في صور ، وجمع ادونيس (سيدي) اليه
« اليان » و « موت » . ولا ذكر لهؤلاء الآلهة في نصوص اوغاريت - رأس شمرا ، ولكننا
نجد ، في الاساطير التي تروىها هذه النصوص ، الخطوط المميزة الدائمة . منذ القرن الخامس عشر
قبل المسيح ، موت واليان يموتان مناوبة ثم يقومان كما سيفعل « ادونيس » في اعياد جبيل التي
وصفها « لوقيانوس » في القرن الثاني للميلاد . وكذلك نرى ان العالم الفينيقي قد مارس طقوساً
لازمته زمناً طويلاً بموجبياتها الاصلية . فقد اثبتت اعمال التنقيب ما جاء على لسان المؤرخين
الاغريق ، اذ ان القرطاجيين قد قدموا في عهد متأخر ضحايا بشرية من الاطفال لأيل الذي عرف
عندهم « ببل هامون » . ولعل اسم هذه الذبيحة ('ملتق') هو الذي حدا بالعبرانيين لأن
ينسبوا للفينيقيين إلهاً اسمه مولوخ .

تمكننا من معرفة الفن الفينيقي عن طريق المدافن التي يثبت قدمها وغناها اهمية عبادة
الاموات . ولكنه ليس بالفن المبتكر ، لا بل انه يكشف عن الاثر البعيد الهام الذي اصفته
عليه فنون اجنبية عدة ، وهو حين يؤلف بينها لا يتوفق الى تحقيق صهرها . المدافن في اوغاريت
معقدة ويتقدمها سرداب على الطراز الميسيني . ويمثل ناووس الملك احيرام في جبيل ، تحت
افريز من البردي ، الميت مرتدياً ثياباً مصرية وجالساً على عرش بجانبه تمثالان لابي الهول ، امام
منضدة للتقادم مصرية ايضاً . اما في صيدون ، فان بعض نواويس القرن الرابع على الاقل التي
قد صممت على شكل معابد يونانية صغيرة ، هي دون ريب من صنع النقاشين الاغريق ، كناووس
« الباكيات » مثلاً الذي سبق وعولج موضوعه ، بكثير من الخرق ، على ناووس احيرام ، ولعله
موضوع فينيقي صرف . ولكن أجمل وأثن الادوات الموضوعة في المدافن مصدرها اجني ،

وهو ، في جبيل كما في اوغاريت ، مصر والعالم الايجي . وقد زودها هذا الاخير بنوع خاص بعاجيات تلفت الانظار . ففي هذا النطاق ايضاً جمع الفينيقيون ثرواتهم من التجارة الخارجية .

بيد ان لهم فضلاً خاصاً في تحقيق اكتشاف على جانب كبير جداً من الاهمية هو
الأجدية اكتشاف الابدية . لقد سبق ورأينا ان المصريين ، وربما سكان ما بين النهرين ، قد اعطوا بعض رموزهم قيمة حرف صحيح ، وتمكنوا بالتالي من تحليل الاصوات الاولى . ولكن هذه الرموز قد احتفظت في الوقت نفسه بقيم اخرى كما ان رموزاً اخرى كثيرة ، لا سيما المقطعية منها ، قد استمر استعمالها في آن واحد بقيم مختلفة . ويبدو اليوم ان الخطوة الفاصلة قد خطاها الفينيقيون . فالنصوص الدينية في اوغاريت - رأس شمرا التي ترتقي الى القرن الخامس عشر قد كتبت انطلاقاً من ثلاثين رمزاً مسبارياً فقط يمثل كل منها حرفاً صحيحاً . وكانت هذه الرموز معقدة جداً وصالحة للكتابة على الغرين فقط . ويرجح ان النجاح الاخير قد احرز بعد ذلك بقليل وكان مكتملاً عندما اودعت جثة احيرام ناووسه في جبيل : فقد استخدم في الكتابة المحفورة على غطائه اثنان وعشرون رمزاً اصطلاحياً تقابل اثنين وعشرين حرفاً صحيحاً . فمتى عاش احيرام يا ترى ؟ هناك آنية من حجر الشطوط تحمل اسم رعسيس الثاني وضعت على مقربة من الناووس مما يحملنا على الترجيح انها معاصرة للقبر تقريباً . فلا يرتقي هذا القبر والحالة هذه الى ما بعد آخر القرن الثالث عشر . وهل استقت هذه الرموز من اسلوب كتابي غريب ؟ كل ما تحققنا منه هو انها لا ترد الى تبسيط الرموز الهيروغليفية او المسبارية . ولكن هذا يهيب بنا الى الاعتقاد بان الفينيقيين قد ابتدعوها بمعزل عن أي تأثير . ويتضح بالتالي ان التقليد اليوناني الذي نسب اليهم اكتشاف الابدية قد صادف تأييداً ركيناً بالاكتشاف الذي طلعت علينا به جبيل .

ويستدل من مقارنة الرموز ان ابدية ناووس احيرام كانت مصدر الابديات المعتمدة في كتابة لغات الشعوب السامية والمجاورة : الآرامية والعبرانية . ثم استوحاها الاغريق بدورهم مضيفين بعض العلامات النافلة او الجديدة الى اشكال حروف ابديتهم الخاصة ، لا سيما حروف العلة منها . وما الاسماء التي اطلقوها على هذه الحروف سوى اسماء سامية كألفا التي تأتي من أليف مثلاً ، وغيرها . . . ثم نقل كل العالم المتوسطي الابدية عن الاغريق .

فلا خوف اذن من المغالاة في اطراء اهمية هذا الاسهام بحقيقته
دور الحضارة الفينيقية التاريخي الفينيقيون في الحضارات القديمة . وان لهم عليها فضلاً اخرى أتاح العرض السابق تقديرها وتوقعها : استكمال التقنيات البحرية التي لا نعرفها تماماً على كل حال ؛ استكشاف شواطئ المتوسط الغربي ؛ تنظيم المقايضات فيما بين المناطق والحضارات النائية . واذا اعوزهم النقد الذي لم يظهر في مدنها قبل العهد الفارسي ، فانهم حريصون على ان يكتفي 'ببحارة التجار ، في تعاملهم والشعوب المتخلفة ، بالمقايضة دون صعوبة . وقد استمرت اهمية

دورهم الاقتصادي، حتى بعد ان دخلوا في فلك الامبراطورية المقدونية والامبراطورية الرومانية من بعدها ، وحتى بعد ان اشتركت البلدان الغربية اشتراكاً مباشراً في الحضارة العامة . وقد حافظت صناعتهم الزخرفية على نشاطها الواسع ، وقد انتشر تجارهم الذين لم يميز بينهم وبين « السوريين » في كافة انحاء العالم الروماني ، وأسهموا في اشاعة بعض العبادات الشرقية فيه . بيد ان انطلاق هذه الاشاعة يعود لى عهد مبكر جداً اذ قد مهد لها الطريق وجود البحارة الفينيقيين في كل المرافئ . ففي السنة ٤١٥ قبل الميلاد ، احتفل بعيد ادونيس في البيرة بحضور جماهير شعبية عفيرة ، وكانت النساء تتحسرن على موت الاله الذي لن يلبث ان يقوم ، حين اقلع الاسطول العظيم شطر صقليا حاملاً معه آمال اثينا والقيبادس .

٢ - الأراميون

وراء الطريدة الفينيقية الساحلية ، تقوم سوريا التي هي ملتقى طرق وملتقى شعوب ايضاً . فقد استوطنتها شعوب عدة وتناوبت السيطرة عليها تاركة فيها عنصريات مختلفة القوميات انصهرت رويداً رويداً في كل متجانس وتاركة ايضاً بقايا أثرية يحاول المعاصرون تنسيقها . ولنقتصر بين هذه الشعوب على الاراميين دون غيرهم ، اذ ان حضارتهم تنطوي ، في بعض مظاهرها ، على اهمية راهنة .

الأراميون أيضاً ساميون جاؤوا من احدى مناطق الصحراء السورية العربية . الحياة السياسية كانوا في البدء بدواً رحلاً منتظمين قبائل ، هاموا على وجههم حتى بلغوا الاصقاع العليا من بلاد ما بين النهرين حيث نجدهم ، على بعض الكثافة ، مستقرين في حرّات اولاً . وقد جاء في سفر التكوين ان يعقوب قد اقام طيلة عشرين سنة عند لابان على بعض المسافة من هذه المدينة . ثم هاجروا ، ابتداء من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، الى سوريا حيث أسسوا مستعمرات حضرية . بيد انهم لم يقدموا يوماً على طرد قدامى السكان كلياً ، ولم يتوصلوا الى غنمهم عدداً ، كما انهم لم يؤسسوا يوماً دولة واحدة ، بل بمالك متعددة قد تتحارب احياناً . ولعل أهم ممالكهم تلك التي قامت في واحة دمشق الكبرى عند لحف جبل لبنان الشرقي ، وهي مملكة اسرة « بن حدد » (ابن حدد) ومملكة هازائيل (ايل ينظر) . وباستطاعتنا ان نذكر ، الى جانب مملكة حران ، ممالك اخرى كثيرة : في حلب ، وحماة على العاصي ، وزنجري عند لحف امانوس ، وغيرها . . . وتعدد التوراة ثلاثة وثلاثين ملكاً حليفاً في القسم الثاني من القرن التاسع . ويمكن القول انهم بلغوا اوج الازدهار في القرنين الحادي عشر والعاشر اذ سدّوا الطريق امام الاشوريين نحو الغرب والشمال الغربي . غير ان الملوك الاشوريين منذ اواخر القرن العاشر ، عندوا في تسديدهم الضربات يوم كانت لهم منازعات مع العبرانيين . وفي اواخر القرن الثامن تم القضاء على استقلالهم ، فخضعوا باستمرار بعد ذلك التاريخ الى الدول الاجنبية .

كان لكل مملكة أرامية عاصمتها وملكها وسلالتها ومفتصبوها ايضاً . وقد فرض الاشوريون الجزية والتقادم على هذه او تلك من الممالك محاولين حمل الملك على القبول بدور صاحب الاخاذة والموظف في آن واحد . ولكن هذا الملك كان يهب عند أول سانحة ، لاستعادة استقلاله . وجلي ان لا جديد غير عادي في كل ذلك . بيد انه يجدر بنا ان نذكر الكتابة التي يجعد فيها أحد ملوك زنجري احسانات سياسته الداخلية ، بعد انتصاراته الخارجية : « كان « المشكب » يطوفون كالكلاب . أما أنا فقد كنت لهذا أباً ، ولذاك أمّاً ، ولذلك أخاً . وذاك الذي لم ير في حياته رأس خروف ، جعلته يملك قطيعاً من الماشية الصغيرة . وذلك الذي لم ير في حياته رأس ثور ، جعلته يملك قطيعاً من الماشية الكبيرة ويملك الفضة والذهب . أما الذي لم ير القميص منذ حداثة سنه ، فقد ألبس الخنز في ايامي . أنا امسكت بأيدي المشكب الذين كيفوا أنفسهم كما كيف اليتيم نفسه حيال امه . فاذا ما جلس احد اولادي على العرش بعدي وأقدم على اطلاق هذه الكتابة ، فليضن المشكب باحترام البارير وليضن البارير باحترام المشكب ، . وانما المهم في هذا النص ، ذكر المشكب ، وهم بلا ريب عمال زراعيون ، وربما فداديون ، حسن الملك وضعهم تحقيقاً للالفة بينهم وبين البارير ، « القساء » ، أي العتاة أو الاشراف . وقد يكون لهذه الفكرة سابقاتها في الحضارات الشرقية الاخرى . ولكن قوة التعبير فيها تبدو حدثاً جديداً . ومن سوء الحظ ان ليس من نص حتى الآن يلقي ضوءاً آخر على الحياة الداخلية في هذه الدول الصغيرة .

أما دورها التجاري فأقل غموضاً . فالموقع الجغرافي لسوريا وشمال بلاد ما
الدور التجاري
بين النهرين ، الذي جعل منها طريقاً طبيعياً للتجارة بين الساحل الفينيقي وآسيا الصغرى من جهة وبين مناطق اسفل الفرات ودجلة من جهة اخرى ، قد سمح لهما ، كوسطاء ، باظهار المزيد من النشاط الواسع . فقاموا برأ في بعض اقطار الشرق الادنى بما قام به الفينيقيون بجزراً . وما لبثت الصناعة والتجارة في سوريا ان طبقت اصولاً تقنية افضل فنالت شهرة كبرى وأسهمت في ثروة دمشق . ولكن القوافل كانت قد تقاطرت على هذه المدينة منذ قبل الفتح المقدوني . ثم ان تنقلات الاراميين قبل اقامتهم الحضرية المستقرة ، واقدام الملوك الاشوريين مراراً على نفهم ، وهجرة تجارهم الطوعية الى الامبراطوريات الواسعة الاربعاء التي انخرطوا في عداد رعاياها ، كل هذه الاسباب قد أفضت الى احلال جماعات ، كبيرة أو صغيرة ، ممن يتعاطون التجارة ، في مدن عديدة نائية جداً في بعض الاحيان . وقد استفادوا من هذا الوجود المتزايد في كل مكان ، حتى في عهد السيطرة اليونانية ، وسيصبحون ، في ايام الامبراطورية الرومانية ، التجار في كل امصار العالم القديم تقريباً .

وكانت اولى نتائج ذلك انتشار لغتهم التي انصهرت لهجاتها المتعددة في
الأرامية لغة الشرق
لغة أرامية عامة . وهم لم يكتبوها بحروف مسبارية ، بل طبقوا عليها ايجدية مشتقة من الايجدية الفينيقية . فحملت سهولة استعمالها الملوك الاشوريين على استخدام

يوم من الايام ، المناطق الشاسعة التي شملها حينذاك . ولعل مرد تأثيرهم هو في الاصل فقدان استقلالهم السياسي حين قمع سرجون الثاني الانتفاضات الثورية الاخيرة في حماة ودمشق . وفي التاريخ اكثر من مثل على هذا التناقض الظاهر .

٣ - العبرانيون

ان هذا الشعب السامي الذي عاش زمنا طويلا حياة البدو الرحل ، المتشردين احيانا ، والذي تعنى واستوطن فلسطين نهائيا ، بعد خروجه من مصر ، في اواسط الالف الثاني قبل المسيح قد عرف مصيرا خارقا غريبا . وهذا المصير ليس خارقا بحد ذاته ، اقله حتى منازعاته مع الملوك المقدونيين الاخيرين ومع روما ، فان شعوبا شرقية صغيرة اخرى قد اصابتها ما اصابه من تقلبات الدهر الممثلة ، وانما الفارق الكبير الوحيد هو اننا اكثر معرفة باحوال الدهر فيه منها في سواه ، ثم ليس تاريخه كتاريخ ، ما يجب ان يستوقفنا هنا . لكن مصيره الخارق قائم في غرابة تطوره الديني والاخلاقي وفي اتساع وعظمة دوره في تاريخ البشرية الروحي .

أ - التقلبات الزمنية

القضاة يكفي اذن ان نرسم بسرعة الخط البياني المنحني لتنظيمه السياسي ولنشاطه المادي ، اذ ان الاشكال التي تلبسها لم تبق دون نتائج في النفوس .

فرضت الحياة البدوية على العبرانيين نظام القبائل الجماعي . ثم فرض عليهم الصراع ، بغية احتلال ارض الكنعانيين ، والمنازعات مع الفلسطينيين بنوع خاص ، تنظيما آخر جانب ظهور الروح القومية وسيرها في مدراج التقدم : فالحرب تتطلب رؤساء يستطيعون جمع الحد الاقصى من طاقات العمل والنشاط في مجهود مشترك .

كان الرؤساء الاول « القضاة » ، وهو الاسم الذي اطلق على القضاة المدنيين في المدن الفينيقية . وقد تسربت الاسطورة الى التقليد الذي تكون حولهم . ولكننا نلمس فيهم ، دون عناء ، رجالا تلهبهم الاخطار ويتمتعون ، بفضل صفاتهم الشخصية ، بنفوذ رفيع عسكري وسياسي وديني معا . وقد اعتبرهم الناس اقرب الى الالهية من باقي البشر ، مما اركن سلطتهم على اساس وطيد . ولكن هذه السلطة افتقرت الى ادارة منظمة واكتفت بالاساليب البدائية . « وقضى صموئيل لاسرائيل كل ايام حياته . وكان يذهب من سنة الى سنة ويدور في بيت إيل والجلجال والمصفاة ويقضي لاسرائيل في جميع هذه المواضع . وكان رجوعه الى الرامة ، لان بيته هناك ، وهناك قضى لاسرائيل » . اما شاوول ، فكان يشاور مع معاونيه « جالسا تحت الاثلة في جبعة فوق المرتفع » ، رحمه في يده وجميع عبيده وقوف لديه .

الملكية الاتحادية ومسا لبث شاوول ان منح اللقب الملكي في اواخر القرن الحادي عشر ، على الرغم من المعارضة التي صادفها هذا الحدث . ولكن الملكية لم تصبح اتحادية حقاً الا في ايام منافسه وخلفه داوود الذي حدّد لها اورشليم مركزاً . ثم سلمها لابنه سليمان الذي عرفت في ايامه ، في اواسط القرن العاشر ، ازدهاراً باهراً حقيقياً .

ولكنها لم تتميز باي تفرد خاص في تنظيمها السياسي والاداري ، اذ كانت من المحتم عليها ، حتى في نطاق شعب صغير ، ان تستوحي المثل الشرقية العظمى . وكان داوود يحسب حساباً للقبائل والمدن التي كانت لها بمثابة عواصم صغيرة . اجل انه جنّد مجلساً من الموظفين مع رئيس كتبة ومسؤول عن اعمال السخرة وقوّاد وحرس ومرتزة ، ولكنه كان يستدعي مندوبي القبائل ايضاً التي يلجأ اليها عند تعبئة الجيش . واحرز النظام المركزي تقدماً كبيراً في عهد سليمان ، وازداد عدد موظفي البلاط الذين يعملون الى جانب الملك في ادارة المملكة . وقسمت البلاد الى اثني عشرة مقاطعة اسند امر ادارة كل منها الى « وكيل » وفرض على كل منها تأمين المواد الغذائية للقصر الملكي طيلة شهر كامل . ونظمت اعمال السخرة وثقلت وطأتها ، مما اثار شكاوى الشعب المريرة الحادة . وان الفارق الاساسي الوحيد الذي ميزها عن الملكيات المحاورة ، لا سيما مصر وبلاد ما بين النهرين اللتين كانتا لسليمان مثله الاعلى ، كان في الحقيقة فارقاً دينياً . فلم يكن الملك يوماً من الايام ابن الاله او نائبه على الارض ، بل اقتصر على ان يكون « مسيحه » . واذا كان ذلك قد اضى عليه صفة مقدسة ، فانه ، مع ذلك ، لم يتصل مباشرة وبصورة عادية بالاله ، كما انه لم يمارس قط ، ولو نظرياً ، سلطات رئيس الكهنة . ولكن المركزية قد رافقها ، على الاقل ، تقدم ملموس نحو المركزية الدينية . فاقام داوود ، من قبل ، تابوت العهد في اورشليم ؛ وحين توفى سليمان الى تشييد الهيكل ، سعى جهده لان يتخلى الشعب عن المعابد العديدة المنشأة في زمن الحياة البدوية .

وقد اعارت الملكية الحياة الاقتصادية اهتماماً كبيراً ، سعياً وراء توفير مواردها . فحارث العبرانيون ارضهم واحرزوا نتائج حسنة ، حتى في الحبوب ، فاستطاعوا ان يصدروا الى الفينيقيين القمح والزيت والعسل والشمع والطيوب . وقد حالف سليمان حيرام ملك صور ، على المتوسط ، كما نشط لاجتذاب تجارة القوافل من شرقي الاردن . وقد انشأ في الجنوب قاعدة عاصيون جابر البحرية في اقصى خليج العقبة رغبة منه في ان يحوّل اليها شطراً من التجارة مع الجزيرة العربية التي احتكرتها مصر حتى ذاك التاريخ . ثم بنى المراكب وقدم له حيرام الملاحين . ولعل اسطورة ملكة سبا احياء لذكرى العلائق التي ربطت العبرانيين بدولة زخرت بالكثير من المحصولات المرغوبة . وقد جاء في التوراة ان سليمان « جعل النقد في اورشليم عادياً كاللحجارة » .

وقد استخدم ثرواته لا لتقوية جيشه وحسب بل لتجميل عاصمته ايضاً . فأقام على رابية

صهيون الهيكل و « بيت الملك » الذي اكمله بقصر للملكة التي قيل عنها أنها اميرة مصرية . ولكن التنقيب عن الآثار لم يتوصل الى اظهار هذا او ذاك من هذه الابنية . ولذلك فان كل محاولة لتحقيق تصميمها تكون مجرد اجتهاد . غير ان المعلومات التي توفرها التوراة (الملوك الاول ، الفصلان السادس والسابع) تتيح لنا بسهولة التأكد من واقع تأثير مصر وبلاد ما بين النهرين ، على الرغم من ان الكاتب يشدد باعجاب على المساعدة الفينيقية وعلى الاسراف في البذخ . وقد استعمل ، بسخاء كلي ، خشب الارز والصندل ، والحجارة المنحوتة ، والذهب ، والفضة والشبهان . وصنع العرش الملكي من العاج المغشى بالذهب : « لم يسبق ان صنع شيء مماثل في اية مملكة » . « ما من ائاف فضي » في آنية المائدة الملكية : « اذ لا اعتبار لها في ايام سليمان » . وقد قدم حيرام ملك صور كثيراً من هذه المواد ، كما قدم بدون شك عمالا اختصاصيين . ولم يزدهر الفن عند العبرانيين الا في هذه الفترة القصيرة . ولكن يتعذر تكوين فكرة واضحة عن الاعمال المنجزة حينذاك ولنا نعرف معرفة ثابتة سوى الامور التالية : غنى المواد ، والسعي المقصود وراء العظمة والبذخ ، وفقدان الابتكار والتفرد .

الازمات والديموقراطية يبدو ان عهد الظلم هذا لم يدم طويلا ، اذ ان اولوية اورشليم قد اثارت الشكاوى ، لاسيما من الضرائب الباهظة والمركزية . فتفجرت الازمة السياسية منذ موت سليمان في السنة ٩٣٥ وادت الى انقسام البلاد الى مملكتين : يهوذا ، وعاصمتها اورشليم ، التي التحق بها سبطان فقط ، واسرائيل ، وعاصمتها السامرة ، التي التحق بها الاسباط العشرة الاخرى .

وجاءت الازمة الاجتماعية اكثر عمقا واشد خطراً . كانت الحياة البدوية قد فرضت نظاما حياتيا ، ان لم يكن ديموقراطيا بالمعنى الصحيح ، فقوامه المساواة بين الشعب ، وذلك بفضل اشتراكية الاموال والاملاك . فازالت الحياة الحضرية رويداً رويداً ثم افضى الاقتصاد التجاري الذي شجعت له الملكية الى التفاوت الاجتماعي ، وذلك بوضع الاغنياء والفقراء جنباً الى جنب . فهاج في النفوس الحنين الى الحياة البسيطة . وكان سليمان واورشليم وحدهما في البدء موضوع انتقاد ، اي ان الانتقاد تناول الملكية التوحيدية وانشاءاتها البنائية التي جسّمت ، بلجوها الى محصولات الاجنبية ، الاقتصاد الجديد وعواقبه الاجتماعية الوخيمة . ثم شمل الانتقاد ملوك اسرائيل ايضا الذين لم يبرهنوا قط عن انهم اكثر عدلاً واسمى اخلاقاً من ملوك يهوذا .

ولاح الخطر الخارجي اخيراً ليس من سكان الساحل والملوك الاراميين فحسب كما في الماضي بل من الملكيات العظيمة التي استعادت قدرتها على النهوض بالمهام خارج حدودها . فغدت فلسطين فريسة للدسائس الدولية وساحة حرب تصادمت فيها الجيوش الاجنبية . فحالفت المملكتان ، على التوالي ، هذه الدولة او تلك ، وبحث دون جدوى عن دولة حامية تكون اقل خطراً ، غير انها انتهت الى الزوال . فقد فتح سرجون الثاني السامرة في السنة ٧٢١ ونفى ٢٧٢٩٠

شخصاً من السكان الى بلاد اشور وقضى على اسرائيل. وفي السنة ٥٨٧ كان نبوخذ نصر اشد قسوة في اورشليم اذ انه دمرها نهائياً واجلى عنها كافة السكان الذين نفاهم الى بابل .

بيد ان كورش الاخميني ، بعد ذلك بخمسين سنة تقريباً ، وضع حداً لهذا النفي واذن للebraانيين باعادة بناء اورشليم . ولكن لم يكن هنالك بعد اي عضو من الاسر الملكية القديمة . ولم يكن الفرس ، ولا المقدونيون من بعدهم ، ليرضوا بقيام ملكية قومية جديدة . لذلك لم تعرف فلسطين باشراف المرازبة ، سلطة غير سلطة الطبقة الكهنوتية . وكان على رأس هذه الطبقة رئيس كهنة يدير شؤون البلاد ، يعاونه مجلس اعيان من المدنيين والكهنة ما لبث ان اطلق عليه اسم « سندرين Sanhédrin » (من اليونانية سندريون مجلس) اي المجلس الاعلى . ودام هذا النظام التيوقراطي الذي جعل من الدولة القديمة كنيسة ، بعد ان اصبحت دائرة في ولاية حتى القرن الثاني قبل المسيح ، اذ انتهت انتفاضة المكابيين على السلوقيين باستعادة الاستقلال وارجاع الملكية .

اولوية الديانة
ان هذه العجالة التي توجز ، على الرغم من اسبابها ، تاريخاً كثير التقلبات ،
تتيح لنا منذ الآن بعض الاستنتاجات .

فالebraانيون لم يدخلوا سياسياً ، شيئاً جديداً يستحق الذكر ، على تاريخ الحضارة . فالتیوقراطية نفسها ليست نظاماً جديداً في حياة الشرق ، حتى ولا النظام القبلي من قبل ، وتكوين الوحدة الوطنية بقيادة شخصيات بارزة ، والازدهار القصير الامد الذي عرفته الملكية القائمة على مبدأ المركزية .

وكذلك فان اسهامهم الفني ، بقدر تخيلنا له على الاقل ، مفقود تماماً ، ولم يكن له ، على كل حال ، اي اثر في الخارج .

اما الادب فأكثر حظاً من الغنى . فنحن نعرف تاريخ العbraانيين بفضل التوراة في الدرجة الاولى . واذا كان لهذا المؤلف من قيمة تاريخية ، كثيراً ما نتمنى من جهة ثانية لو تكون اكبر ، - ولكن اي شعب اهتم للتاريخ حينذاك ؟ - فان اكثر من صفحة فيه تم عن نفعة ادبية رفيعة . فان القوة التي توحىها الصورة والعزم الذي تلبض به الكتابة والحياة التي يجيش بها التعبير ، كل ذلك يجعل من بعض القصائد روائع أدب يغذي نضارته نسخ شعبي ايضاً . ومما يلفت النظر ان عدداً كبيراً من اجل القصائد القديمة تنسب لداود نفسه : لا سيما « نشيد القوس » في صموئيل الثاني الذي ألّف بعد موت يوناتان وشاول ، و ٧٣ مزموراً من اصل ١٥٠ . ويلفت النظر ايضاً ، على ما في ذلك من استبعاد ، ما ينسب الى سليمان من مؤلفات شعرية كثيرة جداً - اكثر من الف - بالاضافة الى « الامثال » و « نشيد الاناشيد » و « الحكمة » التي لا شك في انها احدث عهداً . وان الصلة المقامة بين الادب والملكية تثبت المركز الرفيع الذي نخص به الادب ، وهو ، من حيث جوهره ، لم يغتصبه اغتصاباً . ولكن بعض علماء الآثار المصرية قد

برهنوا ان ادب التوراة هو ، اكثر من مرة ، صدى للادب المصري . فالزمور الرابع والتسعون مثلاً مستوحى ، بصورة ظاهرة ، من النشيد لأتون المنسوب لامنوفيس الرابع والموضوع منسب للقرن الرابع عشر . ثم ان الشعر العبراني لم يترك في الخارج ذاك الاثر الذي لا يزال حياً حتى اليوم ، الا بفضل صلته الوثيقة بالحركة الدينية التي ألبسها زينة رائعة : وماذا كان مدى اشعاعها ، لولا ، في الزمان والمكان يا ترى ؟ وهكذا فان الحضارة العبرانية ، على هذا الصعيد ايضاً ، مدينة بالكثير من عظمتها الحقيقية الى الديانة التي هي ملازمة لها .

ويجب ان ننتهي الى الاستنتاج نفسه حيال التطور الاجتماعي . فاهمية هذا التطور ، بحد ذاته ، قائمة في توضيح الانتقال من اقتصاد جماعي وراعوي الى اقتصاد فردي وتجاري . ولا يلمس هذا الانتقال ، في غير مكان ، بمثل هذا الوضوح وفي مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن . ولكن اذا ما نظرنا الى الدرس الذي استخلصه منه الشعب العبراني ولقنه غيره من بعده ، فان الامة الحقيقية الكامنة في هذا التغيير الخطير تبرز في النتائج الدينية التي افضى اليها .

ب - الديانة وتطور النظريات الاخلاقية

ان الديانة العبرانية تنفرد ، منذ نشأتها ، بميزة خاصة . فليس من النادر ، في العالم ، ان يعترف شعب باولوية اله من الآلهة . ولكن ليس من شعب يأبى ان يعبد آلهة آخرين في الوقت نفسه . والى ذلك ، فان العبرانيين ، بالرغم من مخالطتهم للشعوب الاجنبية ، يسرون قدماء في تحديد عقيدتهم الدينية الخاصة . ومن الجلي البين هنا انهم ينتقلون من عبادة اله واحد الى الايمان بوجوده واحد ولكن هذا اله نفسه يتحول ايضاً .

ايهه القديم
اثناء مرحلة « الخروج » التي انتقل العبرانيون فيها من مصر الى كنعان ، جعلهم رئيسهم ، موسى ، يعاهدون لها ظهر له في سيناء ولعله بالاحرى ذلك الذي أكرم في واحدة قدش جنوبي فلسطين . وقد اطلق هذا اله على نفسه اسم « يهوه » اي « الكائن » او « المكون » . وقد دعووه ايضاً « ايلوهم » وهي صيغة الجمع لكلمة « ايلوه » التي معناها « اله » ، لانهم جعلوا منه مجموع كافة القوى الالهية .

كان هذا اله ، من نواح كثيرة ، شبيهاً بآلهة آخرين كثيرين . فكان اله الحياة والنبات والخصب والعاصفة والغيوم ايضاً . وكان حامياً النظام البشري يقتص من الجريمة ويقضي بالعدل ، اوحى الشريعة ولا يزال يمكنه الاستمرار في اجلائها ؛ وهذا ما صنعه شمش مع حمورابي . وقد فرض الحتان . نعم ، لم تعمل شعوب آسيا الاخرى بهذه الفريضة ، باستثناء بعض القبائل العربية ، ولكن عمل بها في مصر حيث عاش العبرانيون . وقد استازمت عبادته ، شأن العبادات

الآخري ، المعابد المختلفة والاعبياد والطقوس والذبائح الدموية . وكان يكشف سر المستقبل ،
أما بظهوره للبشر ، لا سيما في الأحلام ، وأما بواسطة « قرع » خشبية يسترثيها الكهنة . ثم ان
هؤلاء الكهنة قد جئوا في البدء من مختلف الأسباط ثم انحصروا انتخا بهم ، نظرياً على الأقل ،
في سبط لاوي . ولكن كم من الشعوب كان لها طبقتها الكهنوتية ايضاً ؟

ولكن يهوه ، مع كل هذا ، يبقى متميزاً عن كافة الآلهة الآخرين لانه اله العبرانيين ويفرض
على اسرائيل ان لا يكون لها اله سواه . وليس في ذلك نكران لوجود آلهة آخرين ، غير ان
هؤلاء لا يمكن ان يكونوا الا آلهة شعوب أخرى . وقام بينه وبين العبرانيين « عهد » حصري
الزامي لكلا الطرفين . وقد رمز الى هذا العهد « التابوت » ، اي الصندوق الذي اودعت فيه
« لوحات الشريعة » ، والذي رافق العبرانيين في حلهم وترحالهم ، حتى اليوم الذي اقام فيه
داوود في اورشليم . اما الاعبياد التي تمت في البدء بصلة الى الحياة الراحوية والزراعية فقد غدت
حفلات تذكارية لاحداث تاريخ العبرانيين وشدت بالتالي وثاق العهد بين العبرانيين وبين يهوه .
وهكذا فان الفصح ، وهو عيد كثير الرموز يرتبط في آن واحد بعبادة قرية وبترية الحملان
وببدء حصاد الشعير ، كان يذكر ، على حد قولهم ، بالخروج من مصر . وهكذا ايضاً فان
خيم عيد « المظال » الذي يحتفل به في الخريف للدلالة على نهاية الحياة النباتية ولاستئصال المطر
الضروري للمواسم المقبلة ، كانت تذكر بظروفهم الحياتية اثناء اجتياز الصحراء . فالتفسيرات
النوعية حوّرت اذن معنى الطقوس التي لم تنطو بحد ذاتها على اي تفرد وابتكار ، واسهمت في
ابعاد العبرانيين عن الشعوب الأخرى وابعاد يهوه عن الآلهة الآخرين .

ولكن يهوه من جهته لم يبد وكأنه إله شامل يهتم لشؤون الشعوب الأخرى بل خص العبرانيين
وخدمهم بمحبته وعدله وعضده وقدرته الحامية مبغضاً جميع اعدائهم . وقد تجلى ، حيال هؤلاء ،
تحيزه وعنفه وتعطشه للدم . وحبذ كل مكيدة واوصى بكل اباداة واسترذل كل شفقة . وهو
انما كان « اله الجنود » لاقامة شعبه في كنعان ولنصرته على الفلسطينيين .

ذاك كان الاله الذي تطوّر .

اخطار التأثيرات الخارجية

كان بالامكان — ومن الطبيعي — ان يتجه هذا التطور نحو تقارب
من الآلهة الآخرين ، وقد توفرت لذلك ظروف كثيرة . فاقامة العبرانيين في كنعان ، وتشتتهم
واستيطانهم في وسط شعوب كان لها آلهتها وعباداتها ، وصفة هذه العبادات الزراعية ،
وروابط هؤلاء الآلهة القديمة بالمواقع والينابيع والأشجار والصخور والجبال ، كل ذلك كان
مبدعاً للإعداد شبه محتم . وبالفعل فان العبرانيين لم يقفوا احياناً عند حدّ التأثير بمغريات بعزل
وعشيرة الكنعانيين ومعابدهما واصنامها وطقوسها ، بل تجاوزوها الى البلدان النائية التي اثر
آلهتها في الملكية نفسها ، حتى في ايام مجدها ، كما في عهد سليمان مثلاً . فالعلائق التي ربطتهم
بالعرب وبالفينيقيين بغويع اخص لم تقم دون مقابل ، ففرضت عليهم مصالحهم التجارية المسيرة .

والاغضاء عن بعض العبادات . وبعد ذلك ، لم يكن وجود الجيوش الاجنبية المصرية والاشورية والبابلية ، واقدام الفاتحين على انشاء مستعمرات في البلاد ، واقامة المنفيين في بلاد ما بين النهرين ، لتبقى دون نتائج . فكيف سمح اله العبرانيين لنفسه بالتهرب من واجبه في حماية شعبه ونزول كل هذه المصائب به ؟ أفلا تكفي هذه الاحداث كلها للدلالة على تفوق قدرة الآلهة الآخرين الساحقة على قدرته هو ؟ وهكذا فان العهد القديم كان عرضة للنكسات الدائمة .

ولكن قوى اخرى اشدّ قدرة قد نشطت في عملها من جهة مقابلة .
اورشليم
نذكر منها أولاً اولوية اورشليم . ويعود الفضل في هذه الاولوية لبادرة الملكية التوحيدية . وليس من شك في انها بدت كملحق طبيعي لكيثونة هذه الملكية وبرنامجها السياسي القائم على المركزية . ناهضت الملكية ، بعد ان استقرت في اورشليم ، المعابد المحلية رغبة منها في احتكار نفوذ العبادة لمنفعة عاصمتها اي لمنفعتها الخاصة ، وتوصلاً لمراقبة الكهنة مراقبة اجدى . وكانت الغاية البيّنة من تشييد الهيكل الفخيم تسهيل حصر العبادة في مركز واحد ، لا سيما وان الحصر يؤدي بالضرورة الى زيادة عدد التقادم ومحصولها .

ولم يفض قيام المملكتين الى النتائج التي توقع حصولها . ففي مملكة اسرائيل الراضعة ، وجد اتباع يهوه انفسهم اكثر ميوعة وانفلاتاً ، فنزعوا الى التظاهر فيها باستعدادهم لتقبل التأثيرات الخارجية ، ولا سيما الكنعانية منها . فبدأ ايمانهم وما يستلزمه من طقوس اقل نقاء وصفاء . ولم يقدّر يوماً للسامرة ، على الصعيد الديني ، ان تنافس اورشليم ، اذ ان سياسة المركزية ، في مملكة يهوذا ، قد أمنت لها الفوز في هذا المجال . ثم ان السامرة ، من جهة ثانية ، قد سقطت نهائياً في ايدي الاجنبي ، مائة وخمسة وثلاثين سنة قبل اورشليم ، واخضعت لسيطرة اطول مدى اخذت على نفسها افساد الاخلاق . وحين استطاع احفاد المنفيين القدماء العودة الى البلاد ، كانت القضية القومية في حكم المنتهية .

استأثرت اورشليم اذن بالعبادة الحقيقية . ولم يوجد ، خارجاً عنها ، سوى اماكن للصلاة المشتركة . ولم يشذ عن هذا المبدأ ، خلال التاريخ ، سوى تجاوزات نادرة حصلت كلها في العصور القديمة . وبالرغم من تشتت الشعب فقد توجب الاحتفال بالاعياد الكبرى ، ولا سيما الفصح ، وفاقاً للطقوس ، على رابية صهيون ، مما جرّ الى فريضة حجّ دوريّ سنوي الى الهيكل . وهكذا فان اسم يهوذا ، وهو اسم السبط الذي خرج منه داوود واسم المملكة التي كانت اورشليم عاصمة لها ، قد تخلّد في ما نسب اليه ، وهذا هو منشأ كلمة « يهودي » .

فكان على اورشليم بالضرورة ، والحالة هذه ، ان تسعى جاهدة للابقاء وللتشديد على ميزة الديانة التي كانت هي مركزها والتي لم تتميز عنها عملياً . فكل تقرب ، ولو بعيد ، من عقيدة دينية غريبة ، وكل تبني ، ولو بعيد ايضاً ، لممارسة طقسية غريبة ، يثيران الريبة والشبهة . ثم ان عبادة العديد من الآلهة ، خارج اورشليم ، وهي نتيجة شبه حتمية للايمان بتعدد الآلهة ،

كانت لهذه الديانة بالمرصاد . ولذلك فان هذا الاستثثار من قبل صهيون لم يجد ما يبرره سوى الابقاء على العهد وشدّ اواصره .

الانبياء . يجب إذن ألا نهمل دور العوامل الزمنية . ولكن العوامل المقابلة ، وقد سبق تعدادها ، تكاد تكفي لابطالها . لذلك تحتم علينا البحث ، في غير مكان ، عن قوى اخرى حاسمة ، هي القوى الروحية التي احاطت العبرانيين ، بوجودها وبعملها ، بهذه الهالة من الامة التاريخية الحقيقية ، لانها حاجر الزاوية في تفردهم ، وبالتالي في اشعاعهم المستمر . وقد تجسدت هذه القوى في الانبياء الذين تنسب اليهم التوراة ، عملياً ، كل الفضل في الانتصار على التيارات الدنسة والنجسة ، وليس من شك هنا في انها جمّلت دورهم ايّما تجميل . ولكنها ، من جهة ثانية ، لا تقول شيئاً عن التطور . بيد ان التطور يتراءى بالرغم من صحتها . وبالرغم من صحتها ايضاً نرى ان الانبياء هم باعثوه الرئيسيون .

الانبياء عنصر حضارة العبرانيين الجوهري والمميز . وليس من حضارة ، على ما نعلم ، توفر لها مثل هذا العنصر . فقد قدّموا لهم ، على كل حال ، الخير الذي أدّى اختاره الى ابعادهم وفصلهم عن الحضارات التي عاصرتهم والى تأمين عظمتهم ووحدتهم . وطبعوا بطابعهم الخاص حق الادب نفسه الذي سموا به الى مرتبة الآداب الرفيعة .

لقد كثر عددهم جداً منذ القرن الحادي عشر حتى قبيل العهد الميلادي ، بحيث ان عددهم هذا واستمرارهم جعلاً منهم مؤسسة حقيقية خاصة بالعبرانيين لا يمكن ادراك العبرانيين بدونها . وقد خضعت هذه المؤسسة للتطور شأن كل ما يمت الى الانسان بصلة . ولكن الانبياء ، بالتحديد ، هم « الملهمون » - وهذا هو معنى اسمهم الجماعي نبيم *Nebim* - او « الراؤون » او الذين يسكن الإله فيهم . لا يعوزهم جهد حتى يسموا اليه : فانما هو فيهم ؛ يستولي عليهم ويملي عليهم كلماته التي يميزونها بتأكيداتهم : « وحي يهوه » و « هكذا تكلم يهوه » . ولا حاجة للقول ، من جهة ثانية ، ان اكثرهم قد تكلموا ، في جوّ شامل من الغفلة ، دون ان يكون لكلامهم اي تأثير . واذا وجد منهم من فرض شخصيته ، فكم وكم غيره مرّوا ولم يشعر الناس بهم ؟

منذ البداية ، وقبل داوود نفسه ، ظهوروا بشعر طويل اشعث ونفروا من المجتمع وكثيراً ما أثاروا الفضائح ، لانهم لا يراعون احداً ، لا الملك ولا الكهنة ولا الشعب . فان يهوه الذي يتكلم بلسانهم يحيز لنفسه الجسارات وحتى المبالغات . ولم يهتموا لكتابة خطبهم قبل او بعد القاها . وهكذا فاننا لا نعرف شيئاً عن قدامى الانبياء ، حتى ولا اسماءهم احياناً كثيرة . واوسمهم شهرة ، مثل ايليا واليشع في القرن التاسع ، اقرب الى ابطال الاساطير .

ولكنه وجد في بعض الامكنة ، حتى في ايامهم ، ما يمكن ان نعرف عنه بمدارس إعداد الانبياء . وقد استمرت هذه المدارس حتى القرن الثامن ، ويغلب انها هي التي باشرت جمع الكلام الذي يجب ألا يطويه النسيان . فالكلف الالهى ما زال ، من حين الى آخر ، يُنجم

منها ، ومن الجماهير المغمورة ايضاً ، رجالاً خاضعين ليهوه ، غير مكترئين بكل شيء سواه ، عاجزين عن مقاومة القوة التي تدفعهم وتحملهم فوق طاقتهم . ولكن عنفهم لا يلين ولا يخف . فان عاموس ويوشع واشعيا في القرن الثامن ، وارميا في القرن التالي ، وحزقيال إبتان النفي — ولا ضرورة لاطالة القائمة — يوجهون الى المجرمين انفسهم المذمات نفسها والتنبيهات نفسها والنداءات نفسها التي نستطيع اليوم قراءتها في قصائد ملتبهة طويلة او قصيرة .

اما بعد النفي ، فان هذه المؤسسة قد فقدت بعض الالهاب الذي احياها حتى ذاك التاريخ ، فأصبح الانبياء اشدّ ارتباطاً بالكهنوت وبدوا لاهوتين اكثر منهم انبياء .

المثل الاعلى والعمل النافذ في مثل هذه الظروف ، يتضح ان لشخصية كل نبي اهميتها الخاصة التي كان من الجدير بنا ان نتوقف عندها ، لو امكن ذلك . ولكن هناك ، بالرغم من بعض الفوارق الخاصة في التعبير ، نزعات مشتركة بينهم هي التي سنقصر الكلام عليها وعلى اهم النتائج التي حققوها .

ان بعض اهدافهم لم يتحقق قط . ولا يعني ذلك ان الاضطهادات التي تعرضوا لها قد حطمت يوماً وثبتهم او خففت من نتيجتها . ولكن كيف نسقط من الحساب عامل الضعف البشري وتعذر مخالفة تيار الزمن . فان الكثيرين منهم نبضت قلوبهم بالحنين الى الحياة القديمة وما رافقها من مساواة . والاولون منهم حققوا على اورشليم وعلى الهيكل الوافر الثروة ؛ ولم يتعلقوا بمحبته إلا بعد ذلك بزمن بسبب الفوائد التي جنتها منه وحدة العبرانيين ، وهي شرط قيام العهد بين العبرانيين ويهوه . ومقتوا التجارة والثروة لانها من اسباب افساد المجتمع وتفاوت طبقاته . وبالغوا في تحديد موجبات مثلهم الاعلى فاحققوا في تحقيقه . ولكن الهزائم لم تقعس همهم فاحرزوا بعض النجاحات .

ولعل اهم نجاحاتهم واكملها ، وهو ذاك الذي سعوا وراءه يجهد لا يعرف الكلل ، ابقاء العبرانيين بعيدين عن اغراء العبادات الاجنبية ، واعادتهم الى إلههم وحده ، عندما يحيدون عنه . فتوجب عليهم ، لبلوغ هذه الغاية ، تحليل الولايات النازلة بالعبرانيين التي من شأنها ان تثير الشك حول قدرة يهوه على كل شيء وعزمه على حماية العهد . وقد توصلوا الى ذلك باتهام العبرانيين ، او بعضهم ، بتقويض العهد عن طريق الخروج على الشريعة . ففدا اشهار الاخطار المرتكبة ، في الحقلين الديني والاخلاقي ، موضوعهم المفضل ، الى جانب القصص المقاسى او الداني ، وهو دليل الغضب الالهي . فشقوا بذلك الطريق امام تطور عميق تناول في آن واحد ، يهوه وعبادته ، والاخلاق والتشريع ، وجميع النظريات التي شيدت عليها حضارة العبرانيين .

واكثر ما يتجلّى هذا التطور ، بحسب التوراة ، في التدابير المنسوبة ليوشيا ، ملك يهوذا سنة ٦٢١ ، اذ اخرج كافة الآلهة الغريبة ، واقفل كل المعابد ، وحصر العبادة نهائياً في اورشليم دون غيرها . ولكن التوراة تنسب اليه ايضاً نشر سفر « تثنية الاشتراع » ، وهو ليس

بالشريعة « الثانية » بل « نسخة » موجزة عن الشريعة القديمة . وقد 'وصف هذا النص بأنه « كتاب الشريعة الذي عثر عليه رئيس الكهنة في بيت يهوه » ، وهو ينطوي على بيان الاوامر والنواهي التي وجهها موسى الى الشعب باسم يهوه . بيد انه ، في الواقع ، يختلف عن الشريعة القديمة ، حتى في معناها . وما من شك في انه يمثل مجموعة قانونية لقرارات صدرت في تواريخ مختلفة ولاقت ما يبررها في نظرة الى الماضي . ويحدد بعض المؤرخين زمن صدور هذه المجموعة بالسنة ٦٢١ ، بينما يحدده غيرهم بمنتصف القرن الخامس . ومهما يكن من الامر ، فان التطور الذي تكرر منه النتائج يحمل طابع تأثير الانبياء .

وهكذا فقد اصبح يهوه إلهاً شاملاً .

يهوه والعبادة

نعم ، لا يزال حزقيال يؤكد انه « مع اسرائيل » وان « الاسرائيليين خرافه » و « انه إلههم » . ولكنه يكتفي بان يجب العبرانيين فوق محبته للشعوب الاخرى ، اي انه لم يعد واحداً معها . لم يعد يتحيز لها ولا يتردد في الاقتصاص منها في ثورة غضبه من كبائرها . وعوضاً من ان يؤمن لها السعادة الزمنية المستعجلة ، فانه وكل اليها رسالة حددت بعد النفي بما يلي : « انها امتي المختارة التي سكبت عليها روحي حتى تكشف الستار للامم عما هو عدل » . وايضاً : « ستكون نوراً للامم واداة خلاص للجميع ، حتى اقاصي الارض » .

فأي موضوع افضل من موضوع الشعب المختار يمكنه ان يعزي شعباً مستضعفاً ومستعبداً؟ ولكن هذا الموضوع يستلزم يهوه آخر تعالت قدرته رويداً رويداً واتسعت آفاقه . فهو لا يزال ، في نظر انبياء القرن الثامن ، اعظم الآلهة ؛ ومن حيث انه خالق العالم ، فانه يستطيع ان يخاطب العالم بأسره : « انصتي أيتها الشعوب ، انصتي جميعاً ! واصفي ايتها الارض ، انت وكل ما تحتوين عليه » . ولكن هذا لا يحول دون وجود الآلهة الآخرين . فان ارميا يؤكد ان « ليس من نسمة حياة في كافة الآلهة » ؛ كما يؤكد سفر تثنية الاشتراع ان « يهوه إله في السماء وعلى الارض وليس من إله سواه » ؛ وينسبون اليه بعد النفي قوله : « انا إله » ، وليس من هو شبيه بي » . وهكذا تم انتصار الايمان باله واحد .

وقد جرّ هذا بصورة حتمية الى تهذيب اخلاق يهوه وتحويله الى روح . اجل انه يبقى إله « الجنود » ولكن هؤلاء هم الجنود السماويون ، جوقات الملائكة . وهو اكثر من اي وقت آخر ينادي بالعدل : « ان يهوه الجنود سيرتفع بالقضاء ، وإلا اله القدوس سيتقدس بالعدل » . وقد تبرز احياناً الفكرة القائلة إن السعادة المادية ليست دليلاً على عطفه ؛ وهكذا تميزت الروح عن المادة .

فليس ، بعد ذلك ، من محرقات في القرابين . والتقوى الحقيقية انما تقوم في قلب المؤمن لا في الطقوس التي يتمشى عليها . فقد قال يوشع : « انا احب التقوى لا القرابين واؤثر معرفة الله على المحرقات » . وقال عاموس : « أبغضت » ، كرهت اعيادكم . ولست التذ باعتكافاتكم ..

وذبائح السلامة من مسمّاتكم لا التفت إليها . ابعد عني ضجة اغانيك ، ونعمة ربّيك لا اسمع .
وليحجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم . « وقال اشعيا : « ازيلوا من امام عيني خبث اعمالكم ؛
انقطعوا عن عمل الشر ؛ تعلموا عمل الخير ، اطلبوا العدل ؛ احبوا اليتيم ؛ اعطوا اليتيم حقه ؛
دافعوا عن الارملة » .

ثم ان التطور ، في موضوع الطقوس ، لا يقف عند هذا الحد ؛ فتخف فيما بعد مقاومة
البذخ في الهيكل ، لان العبادة فيه قانونية وبعيدة عن التدنيس . وبالإضافة الى ذلك ، فان
النظام الكهنوتي ، بعد النفي ، يؤدي الى حملة محتمة في سبيل طقوس تتصف بالمزيد من اليجاز
والدقة والمراقبة . وسنلتخذ الفرائض الغذائية وحفظ يوم السبت ، بنوع خاص ، صيغاً بالغة
الشدّة قد يفرض الخلاف حولها ، في نقاط طفيفة غالباً ، الى اطلاق العنان للبحث والتمييز
والجدل . ولكن الفريسيين لن يكونوا يوماً كل ديانة اليهود ، وستترك الوثبة الادبية التي نهض
بها الانبياء ، في هذه الديانة ، أثراً لا يمحي .

وهذا ما حدثت لاشريعة ايضاً .

الاشريعة

فان العبرانيين يتفردون منذ ايامهم الاولى بانهم ادخلوا اثار من اي شعب آخر ،
الانحلاف ، في صميم شريعتهم ، وشريعتهم في صميم ديانتهم . فاللاهوتي فيهم لا يتميز عن المشرع
ومهندس الانحلاف . وهذا اذا ما نسا تنافس العهد في كل مكان . بيد ان تطور الشريعة يعكس ايضاً ،
بحرغم الضرورة ، التنظيم الاجتماعي وروحه الفعلي التي تثيرها تغييراته . فان هنالك تطوراً في
الواقع ، بل ان الفرائض الالهية التي تؤلف الشريعة (التوراة) قد جمعت من مصادر مختلفة في
تواريخ لا يحسن تحديدّها . لذلك فاننا سنصدر الحكم على المخطوط الكابري .

ليس من شك سواء بدأ التأثيرات الانجليزية ، والبابلية منها بنوع خاص ، اذ ارب وسايا
موسى العشر بنفسها سيطرة العهد اذا ما قورنت بالقوانين الشرقية الاخرى . وكذلك فان
الشريعة العديدة قد تأثرت بالتنظيم القبلي . احل ان الدائرة قد اتسعت حتى شملت الامة بأكملها .
ولكن الشريعة لم تنفك شريعة شعب جعلتها مسايرة تغييرات الشعوب كره الاجانب . فبها كان من
رئاسة اهل يهود مثلاً ، فان الرواج من الانجزيات ، قد بقي حراً ، والربى ممنوعاً بين
المواطنين ، واستعباد الانجزي غير محدد برمان ، في حال ان استعباد الاسرائيلي يجب ان ينتهي
في اول السنة السابعة . فقد ان البرعة المفاولة قد استمرت ، لا سيما خارج التوراة .
فقد جاء في الامثال : « لا تفرح بسقوط عدوك » ، « واذا جاء عدوك ، فاعطه طعاماً واذا
عطش فاعطه ماء ليشرب » . ولكن الغلبة لم تكن لهذه النزعة .

وما يلفت النظر ان الشريعة العديدة قد دخلت بالسماح للعادات الطقسية بان تنسرب الى
وسايلها . فالوسايل انما تنسب باستعدادات الانسان الداخلية الحادة وبساو كنه الاجتماعي ولم
تدخل عليها سوى حدود من واجبه الاحتمالات والمظاهر الخارجية . فبالمفاولة لمفهوم

الطهارة الجسدية ، افسحت مقاماً واسعاً للطهارة الروحية . فاتيح للانبياء اذن ان يشددوا بسهولة على هذا التمييز . وقد اظهرت عدة نصوص مما سبق الاستشهاد به الاتجاه المتبع في ذلك . ولنصف هنا اللوم الموجه للغني والمقتدر اللذين يضران بالفقير ويسيطان استعمال ما اوتياه من سلطة . فعاموس يصم بالعار اولئك الذين « باعوا البار بالمال والفقير بنعلين » . « يرقدون على اسرّتهم ؛ يستلقون على فراشهم الوثير ؛ يأكلون حملان القطيع والعجول المسمنة ؛ يشربون الخمر في الكؤوس الكبيرة . يمسحون اجسامهم بافضل الزيوت » . ويتوجه يهو ، بفهم نبي آخر ، الى الرؤساء والامراء قائلاً : « أستم انتم من يجب ان يعرف العبد ؟ انتم تبغضون الخير وتحبون الشر . انتم تسلخون لهم الجلد واللحم من فوق العظام . هم يفتارسون لحم شعبي . . . » وهكذا فان الجهد المبذول في سبيل تهذيب الاخلاق قد شارب الثورة الاجتماعية التي كان من شأنها ، لو حصلت ، ان تهدم نتائج التطور الاقتصادي .

وقد انتهى هذا الجهد ، في الواقع ، الى تشريع رائف بالواطينين والضعفاء ، لنا عنه في ثلثية الاشتراع اكثر من مثل : « لا تهضم اجرة مسكين ولا فقير من اخوتك او من الدخلاء الذين في ارضك في مدنك . بل ادفع له اجرته في يومه ولا تغيب عليه الشمس لانه فقير وبها يعول نفسه . . . لا ترتبن ثوب أرملة . . . اذا حصدت حصادك في حقلك فلنسييت حزمة في الحقل فلا ترجع لتأخذها ، انها تكون للغريب واليتيم والارملة . . . واذا فرطت زيتونك فلا تراجع ما بقي في الاغصان . . . واذا قطفت كرمك فلا تراجع ما بقي منه . . . » انها لعمرين آراء أخلاقية السانية غدت تشمل الدخيل نفسه . نعم قد يكون لها سابقاتها في الشرف ، ولكن لم يسبق ان عبر عنها بمثل هذا الحزم ومثل هذه الدقة .

بيد ان التطور قد أصيب بالركود بعد ان أثبتت نتائجه في نصوص التوراة النهائية . وقد تضافر كل شيء لإيقاف هذا التطور بعد تهديئة الحركة الاجتماعية التي أثارها العودة من المنفى : التنظيم التيوقراطي الذي اسبل نفوذاً وقوة على كهنوت حارسين للشريعة ، وبالتسالي تحافظ بالضرورة ؛ مفهوم الشعب المختار الذي جمّد العبرانيين في انفرادهم الملهم بالتحدي لكل ما هو جنبي ؛ تجديد العهد بينهم وبين يهو الذي اسال جمودهم فنييلة . عند ذلك بدأ الجفاف ، اذ ان الامانة للحرف قد جرت الى خيانة المعنى .

غير ان النتيجة كانت ، على كل حال ، فتحاً بالغ الاهمية : التفرد .
التفرد الديني والاخلاقي
واول من سلك طريق التفرد هم الانبياء . فلم يقيم بينهم وبين يهو اي حاجز ، شيئاً كان ام شخصاً . والروح الالهية كانت حالسة فيهم ففعلوا وعبيدها . وقد حاول بعضهم مقاومتها ولكن دون جدوى . ولكن عبوديتهم كانت عبودية مسببة لاشرة لا تعمل اياها وسيط ، بحيث ان كلاً منهم قد تصرف حيال غيره من البشر بكل حرية واستقلال .

وبديهي انه لم يعط لكل انسان ان يطمع بمثل هذا الاستقلال لان العبودية تملك لم تتوفر

للجميع . ولكن تعليم الانبياء قد فرض على كل انسان ان يتوق اليها بكل قواه وفضيلته ، كما ان تطور يهوه وعبادته قد جعلنا من هذا التوق امراً واجباً . وقد اصبحت الديانة ، قبل اي شيء آخر ودون اي شيء آخر تقريباً ، داخلية وفردية وذاتية ، حيال اله روحاني ودمت الاخلاق . فقد ورد في تثنية الاشتراع ان الشريعة «قريبة جداً منك ؛ بل هي في فيك وفي قلبك» . فوضعت بذلك قاعدة يمكن ان ينجم عنها نتائج لا تحصى .

بيد ان اسرائيل قد اقتصرت منها على هذه النتيجة : وهي ان كل انسان يجب ان يكون مسؤولاً عن اعماله وحدها دون غيرها . فحكمت بذلك على المسؤولية الجماعية التي تترتب على المجرم في شخصه وفي شخص انسالة واسرته على السواء . وكانت هذه المسؤولية ركناً من اركان هيكل التنظيم الاجتماعي القديم ، ولكنها لم تكن لتتفق والتعليم الاخلاقي الجديد والفكرة الدينية الجديدة ، حتى والظروف الحياتية الجديدة ايضاً ، لان موجبات التفرد الاقتصادي ، على هذا الصعيد ، تنسجم وموجبات التفرد الديني والاخلاقي : فكيف يجوز تعاطي التجارة دون تحديد مسؤوليات الافراد ؟ وكيف يمكن ، من جهة ثانية ، ان يستمر العمل بالقاعدة القديمة ، في حالة التشتت التي وصلت اليها اسرائيل بفعل الإحن التي نزلت بها ؟ لذلك فلا عجب في ان نرى ارميا اولاً وحزقيال ثانياً يتنكران للمثل السائر القائل إن تضرّس الاولاد مرده الحصرم الذي يأكله آباؤهم : « انما يتضرّس آكل الحصرم نفسه» . فانتهدت تثنية الاشتراع من ذلك الى الاستنتاج التالي : « لن يُمات الآباء بجريرة الابناء ولن يُمات الابناء بجريرة الآباء ، بل كل يمات بجريرة خطيئته » .

ولم تحرز الفردية نجاحات اخرى . لا بل كان من الواجب ايضاً ، لو امكن ذلك ، تقديم البرهان على ان الفضيلة ، تلقى ابداناً ثوابها والرذيلة تلقى ابداناً عقابها في شخص من 'تنسب' اليه دون غيره . ولكن شتان ما بين هذا التمني والواقع . فمعضلة وجود الشر المقضّة كانت حينذاك مطروحة دون حل . فبعد النفي ، اي بعد ان ظهر اثر الثنوية الايرانية ، وضع بعضهم الشيطان او بليال بازاء يهوه ولكن دون مرتبة . وكانوا قبل ذلك يجهلون كل شيء عن ذلك وعن الابالسة ؛ فاسم الابليس ازمودي مشتق من الفارسية مثلاً . وشدد غيرهم على فكرة الدينونة الاخيرة ، تلك الكارثة النهائية التي ينال فيها كل شخص جزاءه . وفي هذا ايضا يبدو الاثر الايراني . ولكن هذين الحلين لم يخرجنا عن اطار النظريات التي لم تصادف تأييداً اجماعياً ولا تأييداً رسمياً . فقد ولّى زمن التطور الخلاّق .

ولكن هذه المساعي توضح الطريق الطويلة التي سلكها العبرانيون .
قسط العبرانيين الكبير
تميز العبرانيون بتفردهم منذ البداية ، ولكن هذا التفرد المحدود نوعاً ما لا يكفي لان يبرر القسط الذي تدين به الانسانية للعبرانيين . فان الاهمية العظمى لدورهم المقبل نشأت من حيث انها باشرت اخراج الانسان من المجموع في الحقل الديني نفسه الذي كانت

الانسان فيه اكثر ما يكون انصهاراً في هذا المجموع. وقد توفقت الى هذه النتيجة ، مثبتة ، في الوقت نفسه ، الانسان في ديالته . اما تفسير هذا التناقض الحقيقي ، في الظاهر على الاقل ، فيجب ان يبحث عنه في ما قام به العبرانيون ، بتأثيرات شتى ، من تنقية واستقصاء المشاعر الدينية .

وقد اصطدمت هذه النزعة بالمقاومات في بلاد العبرانيين نفسها ، حتى انها ، حوالي او اخر القرن الخامس قبل المسيح ، بدت وكأنها تغلبت عليها النزعات المضادة المتمسكة بالشكليات وبالشرعية . ولكن بذاراً لا يفنى كانت قد بقي في الارض ستزيد من قوتها تأثيرات اخرى فينبت في المستقبل حصاداً روحياً لا تزال ملايين البشر تتغذى به حتى يومنا هذا .

الفصل الثالث

الحضارة اليونانية القديمة (أي السابقة للعهد الكلاسيكية)

لننظر الى الاغريق بعد ان تنظم هذا الشعب واستقر في الرقعة المعدة لان تكون وطناً له : جنوبي شبه الجزيرة البلقانية ، والجزر الايحية ، وساحل آسيا الصغرى الغربي الذي سيقم فيه حتى اوائل العهد المعاصر . انتهت حينذاك في تاريخهم حقبة كثيرة الغموض يزيد في بدائية حضارتها ان هذه الحضارة خلفت الحضارة الايحية المزدهرة . والكلام هنا عن «القرون الوسطى» اليونانية ليس بالتسمية التاريخية الكيفية . وفي اوائل القرن الثامن قبل المسيح تبدأ حقبة اخرى .

لما كان من الضروري ان يطلق عليها اسم ما ، وصفت بـ « القديمة » للمقابلة بينها وبين الحقب اللاحقة . وفي هذا الوصف تشديد على الاواصر الوثيقة التي تربط الاغريق حينذاك بالماضي وتعيق حركاتهم . وهم لن يفوزوا بالحرية إلا في اوائل القرن الخامس ، فيستثمرونها ايما استثمار . ولكن طاقات فتية برزت ، حتى في ذاك العهد ، فحدثت في البلاد تغييرات على درجة من الامة . وبانت على الخريطة نفسها تبديلات محسوسة . فتوسع العالم الاغريقي مرة اخرى ، وتأسست اسواق تجارية جديدة على جميع شواطئ البحر المتوسط والبحار الملحقة به تقريباً ؛ وفرضت الامبراطورية الفارسية سيطرتها على الممتلكات الاغريقية في آسيا . ولا حاجة هنا للكلام عن المنافسات التي قامت بين بعض الدول الاغريقية الاخرى . ولكن سرد هذه الاحداث لا يدخل في ما يستهدفه هذا الكتاب ، بل يجدر بنا ان نشدد على احداث اخرى تكشف لنا عن تغييرات في الصميم من هذا الشعب ، لا سيما وان الموضوع يعود بالنتيجة الى يقظته . تلك هي التحقيقات الاولى لحضارة ستعرف مثل ذلك المستقبل الباهر ومثل تلك الشعوب البعيدة . وتلك هي الوعود والدعائم التي اخذ الانسان يكتشفها فيها كي يخرج شخصيته من المجموع أو لا يتركها تختنق فيه على الاقل . وان وجود كل ذلك في طيات هذه الحقبة لبشير بان ايامها لن تطول .

لذلك فان كل من وجد آنذاك امام الحضارة اليونانية قد اهتم اهتماماً حقيقياً للتطور البادي . والتطور ، بحد ذاته ، أمر محتوم يعم كل الشعوب . ولكن الجميع لا يحققونه بمثل هذه السرعة

وبمثل هذا الشمول . ولا يعني الجميع خصوصاً معلولاته المتداخلة ونتائج الطارئة ؛ أو انهم اذا رأوها يشعرون في اغلب الاحيان بميل طبيعي لان يرثوا له . نعم ، لقد وجد بين الاغريق ايضاً من استاء وأبدى استياءه . ولكنهم ، شأنهم في غير مكان ، لم ينجحوا في منع أي شيء ، لا بل انهم لم يلقوا هنا الآذان الصاغية التي لقوها في غير مكان . وقد وجدت خرافة العصر الذهبي ، في هذه الحضارة ، الدواء الناجع الذي تمثلته في توق جديد الى التغيير . فقد جاء الاغريق ، بالفعل ، بحدة روحية هي خيال مجنح لم يخفه اقدم ولم يتراجع عن اكتشاف الوسائل الكفيلة بتحقيق أحلامه . ولكنهم لم يكتفوا بوضع دستور للتقدم او لما اعتبروه تقدماً : فسيأتي يوم يتيهون فيه ويتخيلون « المستحيلات » الاولى . غير انهم لم ينتظروا ذاك اليوم لتحقيق اشياء جديدة كثيرة . ولكن يجب الا نغالي في اهمية هذه الحقيقة حيال هذا العهد . فمنذ اوائل القرن الثامن حتى اواخر القرن السادس ليس هنالك سوى مقدمات فقط جعلها القسم الاكبر من العالم الاغريقي أو لم يأبه لها . ولكن يكفي ان تؤخذ بعض المناطق اذ ذاك بسحر هذه المقومات حتى يكون اتساعها المقبل جديراً باهتمام خاص .

فبرضنا هذه الحضارة لا يمكن ان يعتبرها ، حتى في العهد القديم ، كمعطية ثابتة . بل سيقم فيها عن قصد ، لكل ما يتطور وينبئ بالمستقبل . ولذلك فانه سيهمل اشياء كثيرة ستسبح الفرصة المؤاتية لتوضيحها عندما يكتمل تفتح الحضارة الاغريقية وبصبح باستطلاعنا ان نأخذ لها رسماً اكثر استقراراً .

١ - التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي

ان عوامل التطور السياسي متعددة . ففي الخلايا الصغيرة التي كانت المدن اليونانية قوامها والتي انتظمت في عهد مبكر اجهزة شديدة الحرص على استقلالها والتي اهلت ببضعة آلاف من السكان فقط - عشرة آلاف على الاكثر - ، يمكن لاسباب عابرة او محدودة الاهمية بحد ذاتها ان تفعل فعلها وتترك أثرها : كسيكولوجية الانسان الشخصية مثلاً ، أو حرب تثير الحمية على الرغم من هزال غايتها ، أو تهديد يصدر عن جار قوي الشكيمة . واذا ما ألقينا نظرة شاملة على العالم الاغريقي بأسره ، تبدت لنا العوامل الاقتصادية والفنية والاجتماعية المتداخلة والمتفاعلة . ولكن التطور السياسي الذي تسببه هذه العوامل يمكنه بدوره ان ينعكس عليها .

المجتمع القديم ريفي قبل كل شيء من حيث انه وليد مجازفات الغزو والمعارك الفتح وتسويات الاستيطان . ومثل الانسان الأعلى ، الذي تثبت قوته دلائل كثيرة كتبت لها حياة طويلة احياناً ، هو الاستقلال الاقتصادي الضروري للاستقلال الادبي : فلكي يستطيع الانسان ان يعمل او يتجول على هواه ، يجب الا يكون مقيداً باهواء زبون أو صاحب عمل . ولم يكن تحقيق هذا المثل الأعلى ممكناً إلا لذوي الاملاك الواسعة ، وهم إما أبطال حروب وإما انسال هؤلاء الابطال ، وقد نعموا في الوقت نفسه

المجتمع القديم :
ذو الاملاك الواسعة

بثروة وفيرة . كان تملك الارض ، بالفعل ، عنوان الثروة الوحيد تقريباً ، وكان هنالك اصحاب حرف لا شأن لهم وتجار لم يصل اليها منهم شيء يذكر . فالتجارة البحرية التي مارسها الميسينيون على نطاق واسع قد اصبحت بنكسة اكيدة على الرغم من استيطان الاغريق الباكر في شواطئ آسيا الايجية ، واحتفظ الفينيقيون لانفسهم آنذاك بالمتوسط الغربي وكانوا يظهرون حتى في بحر ايجه . ولم يشر هيزيود ، في القرن الثامن ، بالسفر بحراً إلا على الفلاح التاعس الازح تحت عبء الديون ؛ وتجدر الإشارة هنا الى ان الغاية من ذلك انما هي بيع جزء من الموسم لا لزوم له في الاستهلاك يمكن التصرف به ، في الاوقات العادية ، للهدايا والهبات . وكان هنالك فلاحون صفار يمتلكون بحرية بعض الاراضي ، ولكنهم عاشوا عيشة قاسية في ارض قليلة الخصب حيث تحدد الحرارة الجافة المبكرة من انتاج الحبوب . وقد قام قسم من سكان الارياف بأعمال مأجورة في حقول ذوي الاملاك الزراعية الواسعة .

استطاع هؤلاء وحدهم لا ان يتغذوا عن سعة فحسب - وقد اطلق عليهم ، حتى في العهود المتأخرة ، اسم « البُدُن » - بل ان يكرسوا ايضاً لارضاء شهواتهم قسماً من مواردهم . وقد برهنوا في مراحل تاريخهم المختلفة عن ميل للبذخ والزينة ابرز ما ينطوون عليه من رغائب بدائية . فقد حرصت هذه الارستوقراطية على ان تتميز في استعمال الاسلحة وان تعنى بالمحافظة على صفاتها الجسدية لاجل القنص . وأحييت الولايم الفاخرة والمشروبات الروحية . وقد سخرت لخدمتها في مساكنها الرحبة الكثير من الأرقاء الممثلين لاهوائها . وقد طاب لها عرض ما تنعم به من قوة وثروة . ولكنها اجلت ايضاً الاقشة والحلى النادرة ، والموسيقى وانشاد المغنين . فكانت مثلها الأعلى ، الذي لم يقو تطورهما الاجتماعي اللاحق على ازالته ، ولم يتنكر له على كل حال ، بل عمل جاهداً على تعميم نفعه على الطبقات الأخرى ، يجمع بين جمال جسماني متناسق وتهذيب اجتماعي رفيع ومستوى ثقافي لائق . وكان هذا في الحقيقة المثل الاعلى الاغريقي نفسه : انسان حرّ يمارس حريته لتنمية وارضاء مثل هذه النزعات فيه . ولكن استقلال الاشراف قد قام على ارتباط الغير بهم .

لذلك فان هذه الامتيازات لها ما يبررها غير التملك : فالقيمة الشخصية انما تتجلى في الحرب . كان لذوي الاملاك الواسعة وحدهم متسع من الوقت لاتقان التمرن ، والموارد الضرورية لاقتناء سلاح كامل ثقيل وغالي الثمن ، وامكانية لتربية الأحصنة . وستبقى رياضة ركوب الخيل ، خلال قرون طويلة ، شهادة في الارستوقراطية لأن الارستوقراطية وحدها في البدء تمكنت من الانقطاع اليها . وكان على المحارب الحقيقي المجهز بأسلحة ثقيلة ان ينتقل الى ساحة المعركة على عربة ، يقودها حوذي ثم يقوم بحراستها ، بينما تستخدم المعركة بين سيده وعدوه الرّاجلين . أما المواطنون الآخرون فكانوا ينخرطون في الجنّدية كمشاة ويقتنون الاسلحة التي تمكنهم مواردهم من اقتنائها وقد لا تتعدى المقاليح أحياناً . ولكن عددهم لم يرتفع قط عملياً : فمصدر المعركة يتوقف الى حدّ كبير على مآثر الاشراف .

كان هؤلاء ، اذا ما حاربوا ، يخدمون الدولة ، فيوليهم ذلك حقاً بادارتها . ولكن الحرب من جهة ثانية كانت تعطيهم حق الانتفاع الشخصي بالغنيمة والرهائن . وكان يطيب لهم مزاولة القرصنة . فهناك مشاهد إبحائية مرسومة على آنية « الديبيلون » المدفنية الكبيرة في أثينا : مراكب حربية واعمال نهب وعرض محاربين وعربات عسكرية . تذكر هذه الصور بطبيعة عسكرية تطلب المجد في نشاطها الحربي وتباهي بعرض قوتها وثروتها .

أواخر السدم حدث إذن توزيع اجتماعي فعلي على أساس الثروة والقوة ، رافقه توزيع آخر على أساس الأصل والانتساب . ولكن هذا التوزيع الأخير يكتنفه الغموض لأنه على جانب كبير من الاصطناع ؛ بيد ان نتائجه ثابتة لا يرقى اليها الشك .

وأخذ المواطنون ، داخل المدينة ، ينتظمون جماعات يتدنى عدد افرادها يوماً بعد يوم : القبيلة ، ثم « الأخوية » وأخيراً « الجينوس » الذي يأتي مباشرة فوق الاسرة ، وهو القبيلة المحدودة أو الاسرة الكبيرة . ويبدو ان القبيلة والاخوية قد انتظمتا في كل مكان تقريباً ، في حال ان الجينوس لم يتأكد وجوده سوى في مدن معدودة . ويضم كل من هذه الجماعات مبدئياً ، في درجات نسبية مختلفة ، أولئك الذين ينحدرون من جد واحد والذين يتوجب عليهم ، بالتالي ، الاشتراك في عبادة جماعية . غير ان هذا التفسير ينطوي على الكثير من التبسيط ، اذ انه لا يوضح لنا ، بنوع خاص ، لماذا يسجل المواطنون دون استثناء في القبيلة في حال ان الكثيرين منهم لا ينخرطون في أي « جينوس » أو ليس لهم به سوى علاقة غير مباشرة كزبن لاحد الاشراف .

سنقتصر ، اختصاراً في الجدل ، على التثبت من واقع ، وهو ان النسب قد نام بثقله على التوزيع الاجتماعي وبالتالي على وجود المواطن . فليس لهذا الاخير شأن ، كفرد ، بل كعضو في جماعة يصهره فيها انتسابه اليها وتقوم هي بدور الوسيط بينه وبين المدينة . ولكن شخصيته تعيقها أبداً أواخر الدم التي لم يكن ليتحرر منها إلا بفقدان حسنات تضامن الجماعة بينما يستمر غيره في الافادة منها . ويغلب ان هذه الحسنات قد اختلفت باختلاف الدول ، ولا تتوفر لدينا بعض الدلائل ، في هذا الصدد ، إلا لأثينا فقط . فقد كان محظراً على من يموت دون عقيب ان يوصي بمتروكاته الى غير أعضاء الجينوس ، مما يحيز لنا الاعتقاد بان البيع لم يكن مسموحاً به ايضاً . ومن حيث ان القضاء الجنائي الرسمي لم يكن موجوداً ، فان الاهانة اللاحقة بأحد أعضاء الجينوس انما تلحق بالجينوس بأسره ، مما أفضى الى قاعدة الأخذ بالثأر . فكان المواطن بالتالي امام قياس ذي حدين : البقاء خارج الجينوس والقبول بالعجز ، أو الانخراط في الجينوس والقبول بالخضوع .

وانما تتكلم عن الخضوع لان ذوي الاملاك الواسعة في كل هذه الجماعات ، قد نعموا بنفوذ مسلّم به . والثروة العقارية لا تتميز عن النبل والشرف . فقد طاب للأغنياء التباهي بنسبهم

البطولي ، وحتى الإلهي ، رغبة منهم في الارتقاء الى عالم الاسطورة . وقد هدفوا كلهم من وراء هذا النسب الى الدلالة على الدم الكريم الذي يجري في شرايينهم ، حريصين على إحلال الأبرار في المرتبة الاولى . وهكذا فإن رؤساء الاسر الكبيرة ، باعتمادهم على انسابهم وعلى كل من يرتبط بهم بفعل مكانتهم الاجتماعية وطلاقتهم الاقتصادية ، تمتعوا بنفوذ لا يعادله نفوذ ، وكانوا أسياد « جينوسهم » .

الدولة الارستقراطية لم يكن من العسير في هذه المدن الصغيرة ان يعرف المواطن جميع المواطنين الآخرين . ولذلك لم يعوز الدولة تنظيم قوي متين . فلا ادارة ولا موظفين ، بل بيت مال محدود ، يشرف عليه عدد محدود من المسؤولين لأن النفقات تكاد تنحصر في نفقات العبادة ؛ ولا جيش كثير النفقات لان الجندي هو الذي يؤمن شراء اسلحته ؛ ولا قضاء يستحق الذكر لان الدولة لا تعنى بتوزيع العدل إلا نادراً جداً . وقد أفضى ضعف الدولة هذا الى تقوية نفوذ راهن استأثر به رؤساء طبقة الاشراف ولم يكن باستطاعة احد ان يراقبه او يحد منه .

وكانت الدولة نفسها ، على كل حال ، في قبضة يدهم . اجل قامت الملكية في كل مدينة تقريباً . ولكنهم توصوا الى حصرها في لقب لا حول له او الى إزالتها تماماً في بعض الاحيان . واذا ما حدث واستمر بقاء الملك ، فإن هذا الملك يكون عملياً بمثابة قاض سنوي لا تسند اليه سوى مهام دينية . اما الأشراف فهم الذين يحكمون ، ولا تلتئم جمعية المواطنين الا شكلياً اذا طاب لهم احترام مبدأ السيادة الجماعية . فالسلطة الحقيقية يتمتع بها « المجلس » المؤلف من اعضاء وارثين او منتخبين وفاقاً لأصول هي في الحقيقة مجرد مظاهر خارجية . وكانت مظاهر خارجية ايضاً الاصول المعتمدة لتعيين القضاة السنويين الذين يشرف المجلس على ولايتهم ايضاً . وفي الواقع كان اعضاء المجلس والقضاة ينتخبون من طبقة الأشراف دون غيرها وخصوصاً من كبار هذه الطبقة . وكان القضاء ، مع ان القضاء الرسمي شبه مفقود ، من امتيازاتهم ايضاً ، لاسيما وانه لم يستند الى قوانين مكتوبة ، بل الى اصول تقليدية ، إلهية المنشأ بحسب اعتقادهم ، ينقلها الآباء شفاهياً الى الابناء في أسر قريبة جداً من الآلهة بفعل نسبها وحكمتها الذائعة الصيت . فيتضح ان الاشراف امنوا بذلك ، عملياً ، احتكار القضاء ، وضمتوا اليه تدرجاً بالاسباب نفسها ، احتكار المهام الكهنوتية الرئيسية . وكان من الطبيعي ، بعد ان سيطروا في ساحات الحرب والمجتمع والحياة الاقتصادية ، ان يسيطروا في الدولة ايضاً .

هكذا كان النظام السائد في كل مكان ، بالرغم من بعض الفوارق المحلية التفصيلية . وهذا هو نظام « الارستوقراطية » أي حكومة الأفاضل (نسباً وصفات) ، أو « الأوليغارشية » أي حكومة العدد القليل ، كما سميت ازدهاء في تاريخ لاحق . غير ان هذا النظام لم يوفر الهدوء والراحة . فالمطامع والاحساد والاحتقادات أدت الى انقسام هؤلاء المحظيين . ولعل فقدان

الثقة فيما بينهم سبب من أسباب رغبتهم عن توسيع سلطات الدولة . وكان التحيز في القضاء مدعاة للشكاوى وللاتهام بالرشوة . فهيزيد يصف العظماء « بأسيطة الهدايا » . وكان الفقراء والمستأثرون ينزحون عن الاوطان ساعين وراء الاراضي أو مخاطرين بحياتهم كمرتزقة في خدمة السلاطين الشرقيين . ولكن الاسباب الحقيقية لتقلبات الاحوال خارجة عن النظام نفسه .

فهذه الاسباب متعددة . ولن نهمل منها التطور الذي طرأ على تقنية
اسباب تقلبات الاحوال : الحرب .

اصبحت عدة الحرب اخف وزناً ؛ فخفضت قياسات الترس وادخل
تقنية الحرب
المزيد من الجلد على الدرع . وتعود المشاة من جهة ثانية تشكيل وحدة متراصة ، الكتيبة ، التي يصعب اختراقها بفضل سور الحراب الموجهة نحو الخارج . فعدت العربات دون جدوى حيالها ، ولم تظهر بعد ذلك الا في الاحتفالات الدينية المحافظة على الماضي او في الجيوش القائمة عند حدود الشرق . وظهر الفرسان الذين اختيروا بين النخبة في المجتمع . ولكنهم لن يدسبحوا ، الا بعد زمن طويل ، وحدة قادرة على النهوض بالكرات العنيفة . ولذلك لم يلعبوا سوى دور الكشافة او اكتفوا باعداد الجياد في المواكب . وغدا مثال المحارب ، منذ ذاك الحين ، « الهوبليت » ، اي « الرجل المسلح » ، وفقاً لاشتقاق هذه الكلمة . ولكنه عملياً كان ذاك المواطن المنتمي الى الطبقة الوسيطة القادر على تحمل نفقات عدة حربية اقل كلفة وخادم يساعده في المسير والحياة المادية . وتكامل المركب الحربي ايضاً فصر وسهلت ادارته واستخدم فيه المزيد من الجذافين الذين انتظموا صفوفاً يعلو بعضها البعض الآخر . وقد تحققت في كورنثوس اهم هذه التحسينات التي تعود الى السنة ٧٠٠ كما يؤكد «توسيديد» . وظهر بعد ذلك «التريار» وهو النموذج المعروف للمركب الحربي الذي اعدت فيه ثلاثة صفوف للجذافين ويتسع ل ١٧٠ جذافاً موزعين ثلاث فرق ولمشاة ينقاون الى حيث تدعو الحاجة .

فحد ذلك من احتكار الاشراف للدفاع عن المدينة ، فاضطروا للتنازل عن القسم الاكبر من امتيازاتهم لطبقة الهوبليت الوسيطة ، وقسم اصغر سيتسع مع الزمن في المدن البحرية ، للطبقة الفقيرة التي ينتمي اليها الجذافون وهم اقوياء البنية بالرغم من انهم شبه عراة . فتعذر عليهم بالفعل نفسه ، ان يبرروا عملياً استئثارهم بالسلطة السياسية .

يكشف لنا تطور المركب الحربي ان اهمية الامور البحرية قد زاد
اسباب تقلبات الاحوال : الثورة الاقتصادية
شأنها . فحقى ذلك العهد كاد الاهتمام لها ينحصر في ناحية القرصنة . ولم يتعاط التجارة البعيدة ، في حدود اشتراك الاغريق فيها ، سوى المغامرين العاديين الاعتبار الذين رفضت كل المدن تبني منازعاتهم . ولكن تطوراً اقتصادياً قد حدث ، منذ اوائل القرن السابع بنوع خاص ، هو في الحقيقة ثورة لا تطور .

بدأ الاستعمار اليوناني حوالي اواسط القرن الثامن وقد اتصف في اول عهده بطابع زراعي .

وقد هاجر الذين هاجروا تخلصاً من نظام اقتصادي واجتماعي انتهى بهم الى البؤس او الى الخمول . وقد اسست اقدم المستعمرات ، في ايطاليا الجنوبية كما على البوسفور ، في افضل المناطق تربة ، دونما اعتبار رئيس للمركز الهام على طريق بحرية عظمى . وهكذا فان خلقيدونيا ، على الشاطئ الآسيوي ، قد اسست سبع عشرة سنة قبل بيزنطيه ، على الرغم من افضلية موقع هذه الاخيرة ، مما جعل احد الفرس الذين علموا بهذا الفارق الزمني ، يتهم الاغريق بالعمى . ولكن الامور تبدلت بفعل الاستعمار نفسه . فوفّر المزيد من المواد الغذائية . وزود الصناعة بال خامات فنهضت واتسعت اسواقها . وازدهرت التجارة . وبرزت المنافسة . وكيفت بعض المدن سياستها وفقاً لاغراض جديدة فاخترت للاقامة مواقع هامة يتحتم مرور الطرقات فيها ، بغية مضايقة المنافسين ، وبدأت في الظهور « نزعة استعمارية » لا تزال بدائية الى حد بعيد ، على اصطباغها بمشاغل اقتصادية .

واتفق في الوقت نفسه ان فقد الفينيقيون دورهم كوسطاء وحيدين تقريباً مع الشرق . فاستوطن الاغريق نهائياً على ساحل آسيا الصغرى الغربي الذي تقوم وراءه المملكة الليدية حيث استقباوا على الرحب والسعة ايضاً . واستولوا على الجزر الايحية وعلى رودوس بنوع خاص ، وسيطروا على قسم من قبرص وانتهوا الى تثبيت اقدامهم في دلتا النيل ، فاتصلوا بذلك ، بصورة مباشرة أحياناً وغير مباشرة ابدأ ، بالحضارات الشرقية . فجاءوا منها بالمواد والمصنوعات والتقنيات والمعارف المختلفة . وصرّفوا بسهولة مصنوعاتهم الخاصة .

وحددوا ، في عهد مبكر نسبياً ، احتذاءً بالشرق ، أنظمة الميزان والمكايل التي لم يتوصلوا يوماً الى توحيدها . ولكن بعض هذه الانظمة عرفت انتشاراً واسعاً . وأوجدت معادلات مختلفة ، باضعاف الوحدة واجزائها ، لاسيما في حقل النقد . فالنقد قد ظهر ، هو ايضاً ، في اوائل القرن السابع . اما بصدد نسبة ابتكاره الى اغريق آسيا او اغريق أرغوس او الليديين ، فلا يسعنا الخيار بين التقاليد المتناقضة التي يتعذر الجزم في نصيبها من الصحة . ومهما يكن من الامر فان استعمال النقد قد انتشر ، فضربت المدن الاغريقية في آسيا الالكترون (الكهرباء) خصوصاً ، وهو مركب معدني طبيعي متفاوت العيار . اما في اوروبا فقد ضربت الفضة بالنظر الى ندرة الذهب . فسهلت بذلك المبادلات التجارية الى حد بعيد .

انطبعت الثورة الاقتصادية بهذه التقلبات المتعددة ، ولكنها لم تعمّ كافة المدن الاغريقية حينذاك . لا بل ان مدناً كثيرة امتنعت عن ترويج القطع النقدية او لم تقرر ذلك الا في عهد متأخر . ففي أثينا مثلاً لم تظهر القطع النقدية الرسمية ، حاملة شعارات المدينة دون شعارات الاسر الكبيرة ، إلا خلال القرن السادس . وقد حافظ الشطر الاكبر من بلاد اليونان البرية ، حتى عهد لاحق متأخر جداً ، على اقتصاد زراعي صرف . ولكن الاقتصاد الصناعي - التعدين والمنسوجات والخزفيات - والتجاري قد احرز الغلبة في بعض النقاط ، دون ان يُضَحَّى عن قصد ، بالزراعة يوماً من الايام .

نتحقق من ذلك في آسيا الصغرى ، لا سيما في المنطقة الوسطى من الساحل الايجي ، أي ايونيا . وكانت « ميله » بلا مراء ، اوسع مدن هذه المنطقة نشاطاً ، عند مصب نهر المياندر (مندريس) . فقد نعمت ، وحدها ، بالقوة الكافية لان تفرض حتى النهاية على « المرمند » في مدينة سارد عقوداً بالتفاوض . وقادت حركة التوسع والامتداد نحو المضائق والبحر الاسود فتوصلت ، على ذمة الراوي ، الى تأسيس او استتباع تسعين مدينة أو سوقاً تجارية في هذه المنطقة . واشتركت في الحركة الجماعية التي أدت ، في دلتا النيل ، الى تأسيس بوكراتيس من قبل اثنتي عشر مدينة يونانية منها احدى عشرة شرقية وواحدة اوروبية . وصرفت محصولاتها الى ايطاليا ايضاً ، عن طريق سيباريس المدينة بثروتها الاسطورية لهذه التجارة . لكن جيرانها حاولوا الاحتذاء بها ، ويكفي ، اختصاراً في التعداد ، ان نذكر ان مرسيليا اسسها ايويو « فوقيا » في السنة ٦٠٠ وحافظت على علائقها التجارية الوثيقة بايوبيا حتى احتلال الفرس لهذه البلاد .

أما في اورونافسكانت الحركة أقل اتساعاً. ولكنها برزت مع ذلك في القسم الاوسط من الساحل اليونان الشرقي الذي يعدّه مركزه ، بالتفضيل على غيره ، للعلائق مع آسيا . وقد ظهرت نتيجة ذلك في الازدهار الذي حققته جزيرة « اوبيا » على ضفة المضيق المستطيل الذي يفصل هذه الجزيرة عن اليابسة . بيد ان هذه الحركة تميزت بالنشاط في منطقة بررخ كورنشوس التي أعدّها موقعها الممتاز للمقايضات بين الشرق والغرب ، في منتصف الطريق بين آسيا الصغرى والمستعمرات في ايطاليا وصقليا . فبدلاً من الدوران حول البلبونيز ، أثر التجار ان ينقلوا البضائع من مركب الى مركب عن طريق البرزخ . وقد توصلوا الى اكثر من ذلك بعد حين اذ بقاوا المراكب نفسها على طريق خشبية . وأفادت كورنشوس من ذلك كثيراً لا سيما وان لها مرفأً في كلا الخليجين . فكانت خرفياتها ، لمدة طويلة ، اوسع الخرفيات انتشاراً كما تؤيد ذلك مكنشفات ايطاليا . ولكن النشاط التجاري امتد حولها كما تمتد بقعة الزيت فشمّل « سكيوسي » نحو الغرب ، و « ميغارا » او « ايجينا » نحو الشرق . وكانت اثينا ايضاً على مقربة منها ، ولكنها لم تسنقظ من سباتها إلا في القرن الرابع . غير انها تقدمت تقدماً حثيثاً ، وعند نهاية العهد القديم كانت قد اخذت محل مدن « اوبيا » في التجارة وكانت خرفياتها قد تفوقت على خرفيات كورنشوس . وخلال الفترة الممتدة بين الحربين الماديتين ، اتاح لها اكتشاف عروق جديدة ، في مناجمها الفضية ، بناء اقوى اسطول حربي في دلك العهد ، ذلك الاسطول نفسه الذي لعب ، في السنة ٤٨٠ ، الدور الاول في سلامين ضد الاسطول الفارسي العظيم .

اما في « العالم الجديد » اليوناني الذي ابصر النور بفضل الاستعمار ، فان مستعمرات صقليا وايطاليا الجنوبية وحدها قد لعبت دوراً اقتصادياً مستقلاً جديراً بالذكر في هذا العهد . ولكن يجب ألا ننزلق الى المغالاة . فلا شك في ان اردهارها العام قد فاق ازدهار مدن اليونان نفسها .

ولكن مرد هذا الازدهار الاول زراعة انتجت ، في سهول اوسع منها في اليونان ، محصولاً اوفر لكثافة سكان دنيا ، فامكن بالتالي تصدير الفائض . وكانت بعض المدن بمثابة مستودعات فنهضت بدور الوسيطات لتصريف المحاصيل اليونانية عند ابناء البلاد الاصليين . ولكن اثنتين منها فقط ارتفعتا الى مرتبة المراكز الناشطة بصناعات محلية ناشئة حينذاك ومدعوة لان تنمو وتتقدم : « طارنتا » في ايطاليا وخصوصاً « سيراكوزا » في « صقليا » .

بيد ان الاعتقاد بان الاقتصاد الجديد في العالم اليوناني اتصف باهمية عظمى من حيث قيمته المطلقة او النسبية ، فخطأً جسيماً جداً . فلم يرافقه نموّ شيء من الذبول التي يمكن ان يذكرنا بها درس الحضارات العصرية . ولم يكن هنالك « رأسمالية » ولا « اتحاد » مؤسسات للحيلولة دون المنافسة . وقد بقي الانتاج حصيلة المشاغل الصغيرة ، كما ان التجارة لم تكن وقفاً على مؤسسات كبيرة معدودة . ويجب القول تكراراً ، من جهة ثانية ، ان الشطر الاكبر من العالم اليوناني قد استمر مرتبطاً بحياة منكشحة على نفسها .

غير ان الزمن القديم قد ولّى على غير رجعة .

فمنذ ذلك الحين لم تمثل الثروة العقارية الثروة الوحيدة الممكنة . نعم
الارمة السياسية والاجتماعية
انها بقيت فوق غيرها اعتباراً واحتراماً لانها اثبتت من كل ثروة ولانها وحدها تتيح مقاربة المثل الاعلى للانسان الحر الذي ما كان الرأي العام اليوناني يوماً ليتخلّى عنه تخلية تامة . ولكن واحداً لم يستطع عملياً ان يهمل الثروة المنقولة . وقد حدث في اغلب الاحيان ان هذه الاخيرة لم تتجمع لدى الاشراف الذين أبقتهم اعتبارات قديمة بعيدة عن الصناعة والتجارة ، طالما لم يشعروا بحاجة الى تجديد ثروتهم . وكانت اكثر الاغنياء الجدد غرباء عن ارستوقراطية النسب ، ويرجح ان حالات الزواج المختلط لم تتعد الاحداث العابرة ، فتوجب على الطبقة الحاكمة ، والحالة هذه ، ان تحسب حساباً لرجال جسّهم نجاحهم المادي فرغبوا ، هم ايضاً ، في الاشتراك في شؤون الدولة .

ولم يكن المعارضون ، من جهة ثانية ، ليقصروا هجومهم على الناحية السياسية وحدها حيث التحق بهم اعضاء الطبقة الوسطى العاملين كهوبليت في خدمة الدولة . فبفعل النشاطات نفسها التي تفرغوا لها ، بدا لهم تنظيم القضاء وتنظيم المجتمع على اساس الجينوس غير وافيين بالغرض الذي وضعوا له ، لانها لا يتلاءمان والاقتصاد الجديد . فهذا الاخير يستلزم قواعد قانونية واضحة تكون بآمن من هوى القاضي . ويجب ايضاً ان تظل المسؤولية المالية في المشاريع الفردية محصورة في الفرد دون غيره . وهكذا فقد اصبح كل شيء موضوع انتقاد وتجريح .

وقد حدث ما هو اشد وادهى . ففي بعض المناطق على الاقل ، لا سيما تلك التي بنحلت تربتها بانتاج الحبوب ، اضطر الفلاحون الصغار للاستدانة ، ويرجح ان منافسة المحاصيل الزراعية المستوردة قد ثقلت وطأتها . ولكن الاستعباد بسبب الديون ما فتىء ساري المفعول . وكانت

المدن العاجز عن الوفاء ، على كل حال ، يفقد حقه في تملك ارضه . فاشتدت الازمة الاجتماعية اذن في المناطق الريفية . ومن حيث ان اليد العاملة في المدن تتمثل بالعبيد جزئياً فلم يتبق امام منكودي الحظ الا احد حلين : النزول الى مرتبة المزارعين الذين يعاملون بكل قسوة ، او الهجرة اما شطر المدن الجديدة النائية واما شطر مغامرات الارتزاق في الجيوش الاجنبية . وقد برز بعض الثوريين الاجتماعيين ببرنامج مؤلف من بندين لن يعتا ان يصبحا تقليديين : توزيع الاراضي وإلغاء الديون . فاصابت سهام هذا البرنامج مصالح كل من الثروة القديمة والثروة الجديدة ، على ان ما اصاب هذه دون ما اصاب تلك .

تفاوتت حدة الازمة وفاقاً للمناطق والمدن . فأدت احياناً الى حروب اهلية رهيبة استباح فيها الطرفان حتى التقتيل وتقرر اجمالاً في نهايتها نفي الخصوم وحجز ممتلكاتهم . بيد ان نصاً ثورياً واحداً لم يصل الينا عبر القرون ، في حال ان لدينا قصائد نظمها بعض الحكام من الارستوقراطيين كـ «ألقيا» و«ثيوغنيس» . وكى نكون فكرة عن حدة الاحقاد الثائرة ، يكفي ان نستشهد ببعض المقاطع من ثيوغنيس : «ان مدينتنا لا تزال مدينة ؛ ولكن السكان قد تبدلوا ؛ فاولئك الذين لم يعرفوا فيما مضى لا حقاً ولا قوانين ولم يصلحوا الا للإخلاق جلود الماعز حول كشوحهم للرعاية خارج الاسوار شأن الايائل ، قد غدوا وحدهم الصالحين بينما فقد شرفاء الماضي مكانتهم واصبحوا لا يلوون على شيء ... لست اترأى العقاب يحل بمن انتزعوا مني بالقوة ممتلكاتي ... آه لو يتاح لي ان اشرب دمهم الاسود ! »

وهكذا فقد طرأ التغيير ، في اكثر من مدينة ، على الوضع القديم القائم . وقد
المشترعون
اختلفت اساليب هذا التغيير اختلافاً بيناً . فنحن ولو وضعنا جانباً الحرب الاهلية ، وأخذنا بعين الاعتبار النواحي الكثيرة التي نجعلها ، يحق لنا الجزم بانه لم يحدث ان تعاقت مراحل التغيير وفاقاً لنظام واحد او في تاريخ واحد . واختلفت الوسائل ايضاً ، فهي شرعية حيناً وعنيفة حيناً آخر ، وقد تعاقت هذه وتلك تعاقتاً مطرداً .

فكُلِّفَ إذ ذاك بعض ذوي الاعتبار ، وغيرهم أحياناً ممن اختيروا من خارج المدينة لتجربتهم ، مهمة وضع شرائع مكتوبة . وتحقيقاً لهذا الهدف ، لم يقتصر احد من «المشترعين» على تدوين الاعراف الراهنة ، بل ادخلوا كلهم نصوصاً جديدة يرجح انها اخذت بعين الاعتبار التطور العام . ومهما تكن الاحتياطات التي اتخذوها بغية الحؤول دون التحويرات اللاحقة — اذ انه من الطبيعي ان يعتقد كل منهم بأنه قام بعمل نهائي — فان الشرائع الصادرة عنهم لم تبد وكأنها تعبير للارادة الالهية ، أو انها بدت أقل تعبيراً لهذه الارادة . فلا يمكن باي وجه وسمها بانها لا تمس . ومن جهة ثانية ، حدثت هذه الشرائع من مدى تعسف القضاة .

في غير مكان ، أو غير زمان ، انتزع «المستبدون *Tyrans*»
الإستبداد والحصارة اليونانية
السلطة بالقوة القاهرة . والكلمة ليست يونانية الاصل بل انها



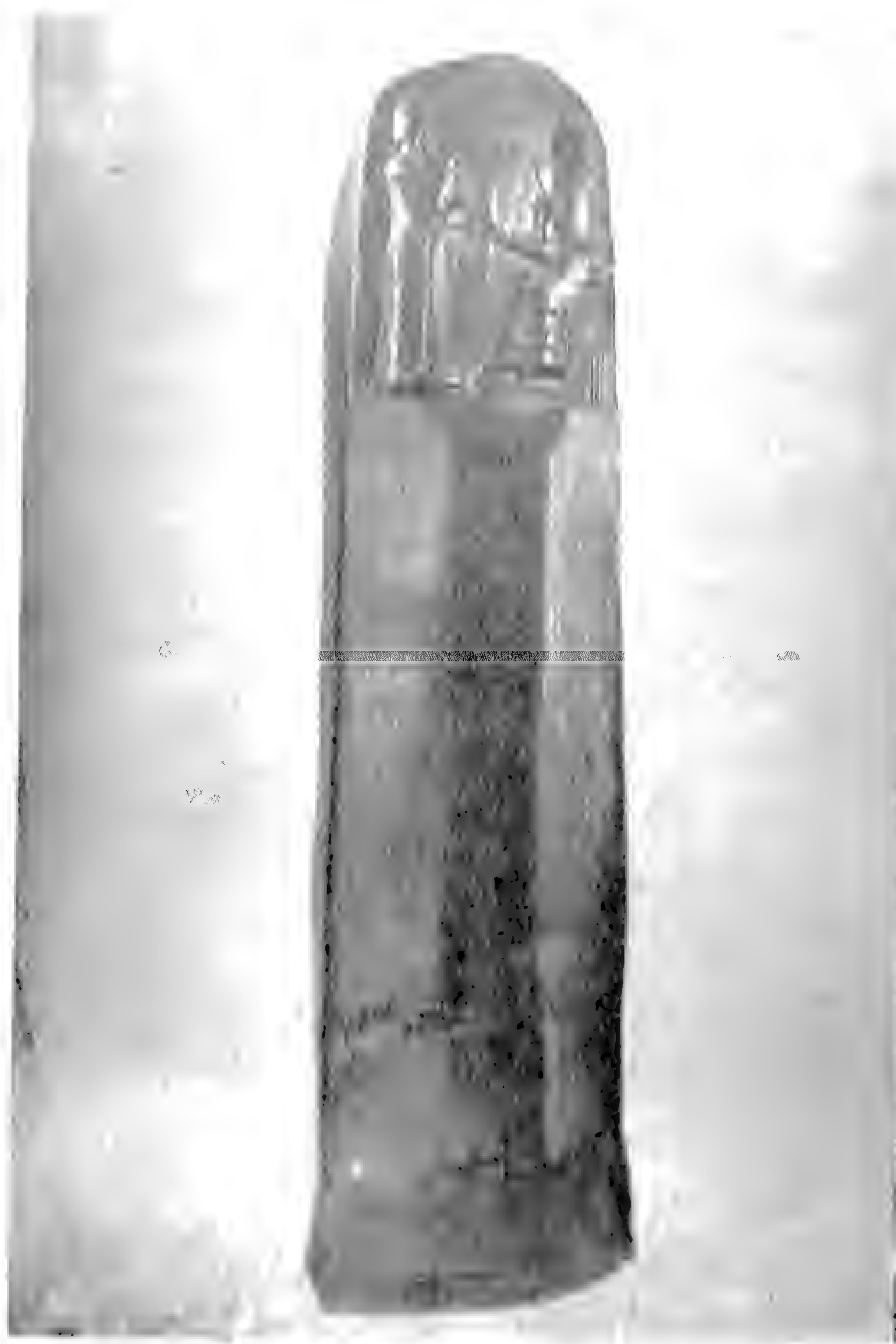
١٧- أور - تاتشي . ملك لاغاش ، وعانتك (حوالي السنة ٢٨٠٠ قبل المسيح) . متحف اللوفر .



١٨ - نصب نصر لنسارام سين ، ملك أغادي (القرن
السادس والعشرون قبل المسيح) . متحف اللوفر .



١٩ - سومريو لاغاش ، بقيادة ملكهم ايناتوم ، يدومون
الجثث في سيرهم الى المعركة (القرن الثامن والعشرون قبل
المسيح) . متحف اللوفر .



٢٠ = تصور حمورابي • ملك بابل (حوالي ١٨٠٠ ق) (١)
 قبل المسيح) - متحف القاهرة -



٢١ - كودورو بابلي . الملك مليشيباك الثاني يضع ابنته
تحت حماية احدى الافلاك (حوالي ١٢٠٠ قبل المسيح) .
متحف اللوفر .



٢٢ : النقل الحجري ، نقش لتقويم بن الابرستو جسنور ،
 قصر خرمسياد (القرن الثامن قبل المسيح) ، متحف اللوفر .



۶۳. نور مینح نو وجه بشری مصدره قسیر سر جون
 الثاني في خرمياد (القرن الثامن قبل المسيح) - متحف
 اللوفر



٢٤ - الملك اشوربانيبال في عربة أبهة . نقش ناتىء
مصدره نينوى (القرن السابع قبل المسيح) .



٢٥ - نقش في الابداناثا في برمسوليس (القرن الخامس قبل المسيح) .



٢٦ - « الملك الكاهن » أو « الأمير ذو زهور الزمهرى » في كنوسوس ، كريتا ، القرن
 حادي عشر ، بعد ترميمه (حوالي ١٦٠٠ قبل المسيح) .



٢٧ - باب اللبؤات في ميسين .



٢٨ : ملخورة الترمذ في مسجده .





٢٠ - غنسل حلف حصون الرشيد - في المارخنة لكبة لاوي - ٣٠٠ م - في الكوفة الكبة سي - ٨٠ م -



٣٨ طريق القمامة في ليدون ديارم (القرن السابع

قبل المسيح)



٢٢ - مشهد وليمة مير اكيس عند افرتيوس . رسم فوطايح كورنثي (القرن السادس قبل المسيح) . متحف اللوفر .

تشتق من اللغات الشرقية ، والاغريق يعتبرون جيفيس الليدي المستبد الاول لانه كان أول ملك غير شرعي . ويبدو ان بعض مدن آسيا الصغرى لقتت العالم اليوناني امثلة اللجوء الى الاستبداد . وكان هنالك مستبدون يدعمهم أو يفرضهم الاجانب : الملوك الليديون وداريوس الاخميني . وتسلم غيرهم السلطة في صقليا او رستخوا اقدمهم فيها ، باستثناء تهديد العدو الخارجي للمدينة . ويحملنا كل ذلك على الاعتقاد بان نظام الاستبداد يحمل طابعاً غريباً عن الذهنية اليونانية . فان هذا النظام ، في الواقع ، يتناقض ومفهوم المدينة نفسه القائم على مبدأ المساواة بين مواطنين احرار لا فرق بينهم إلا في المقياس الوصفي ، وبالتالي في العدد . وهذه النزعة ، المأموسة حتى في الارستوقراطية ، قد افضت من قبل الى زوال الملكية . ولكن مهما يكن نصيب هذه الملاحظات من الصحة ، فان امتداد نظام الاستبداد ونجاحه يميزان ، مع ذلك ، القسم الثاني من العهد القديم ، أي من منتصف القرن السابع تقريباً حتى نهاية القرن السادس . ولا شك ، والحالة هذه ، في ان الاستبداد قد قابل واقعاً داخلياً لم يستطع الاغريق انكاره .

لقد برز في كل مجتمع وفي كل زمان رجال استسلموا لطموحهم نحو السلطة وشغفهم الفطري بها وتحلوا بقوة الجاذب والسحر الضروريين لاستمالة الانصار المتحمسين . وان المجتمعات الشرقية نفسها قد عرفت الاغتصابات من قبل . ونحن نرجح ان عددها قد يرتفع كثيراً لو قدر لنا ان نعرف تاريخ هذه المجتمعات معرفة أعم وأوفى . ولكن الرجال فيها راقبتهم السلطة عن كذب وحالت دون طموحهم وتحمسهم . وقد قامت فيها ايضاً صلة بين الالوهة والسلطة ، مما حمى هذه من المغامرات الجريئة . أما في اليونان فقد احرزت نجاحات اكثر عدداً ، مما يثبت وجود نزعات فردية اسحق منها في الشعوب الاخرى التي لعبت دورها حتى ذاك التاريخ . فالحضارة اليونانية هي الاولى التي استساغت فكرة « الانسان المتفوق » الذي يفضل معاصريه مهارة وسعادة . قد يثير هذا القول دهشة وعجباً ، لأن الرأي السائد هو ان الحضارة اليونانية لا تتميز عن حضارة العهد الكلاسيكي الذي توصل الى حبس هذه الفكرة . ولكنها حبستها حبساً فحسب دون ان تزيلها . فقد ظلت هذه الفكرة كامنة في الحضارة اليونانية ثم ظهرت مرة اخرى ، بقوة نادرة ، في الحضارة الهلينية . ومن حيث انها قد برزت من قبل في العهد القديم ، فلا ريب في انها انطوت على فردية عميقة الجذور في السيكولوجية اليونانية .

وكانت الظروف ، على كل حال ، مؤاتية جداً حينذاك . فالاضطرابات السياسية والاجتماعية اتاحت لذوي الحزم ان يبرزوا في صراع الاحزاب . فأفادوا في آن واحد من عيباء المعتدلين ونخاوفهم ومن غرارة الطبقات الاجتماعية الدنيا في السياسة . وكانوا ينتمون في الغالب الى الارستوقراطية . ولكن الارستوقراطية ، المتحرزة والمترية ، لم تكن لتساندهم بكليتها ولمدة طويلة . ولذلك فهم لم يتبنوا احقادها ، مؤثرين على نقيض ذلك ، التعرض لمدائها ، باستثناء فترات تقارب قصيرة الامد فرضتها عليهم الانتهازية . وقد اعوزهم

العطف الشعبي للاستقرار في الحكم الذي عنى ، عملياً ، استلامهم القلعة والعيش فيها محاطين بحرس من المرتزقة . فليس من النادر اذن ان يكونوا تزعموا الحزب الثوري قبل تولي الاحكام . ولكنهم ، اذا ما استقرت الاحوال ، يظهرون ، بالتفضيل ، بمظهر المحكّمين المصلحين ، رغبة في طمأنة المعتدلين . فينزعون السلاح من ايدي المعتسفين ، ويحرصون ، ما امكن الحرص ، على العمل بموجبيات الدستور ، ويقتصرون ، بالاستناد الى نفوذهم الشخصي والى نفر من الرجال المخلصين ، على القيام بمراقبة فعالة لحسن سير كافة الاجهزة السياسية . وقد سمعوا ، في الحقل الاجتماعي ، وراء معالجة اكثر الآفات ظهوراً ، بفضل حجز ممتلكات خصومهم العنيدين ، اي بعض اسر الاشراف . ولكنهم يكتفون باعتماد التدابير الجريئة التي تخدم انصارهم قبل غيرهم . اما البرنامج الثوري فقد لفه النسيان . فالغاء الوحيد للديون الذي وصلت اليه اخباره — ولعله مجرد تخفيف عن طريق اسقاط قيمة النقد — لم ينهض به مستبد ، بل مشرع يوناني هو صولون . اما اعادة توزيع الاراضي بصورة شاملة ، فلم يجرؤ احد ، لا مشرع ولا مستبد ، على التوغل فيها . لذلك فان الانتهازية والمصلحة الشخصية هما اللتان سيرا عمل المستبدين . وبالتالي ، ارتبط هذا العمل بصفاتهم الفردية وبالظروف المحلية . ولكن القوى المتشابهة التي واجهوها املت عليهم مواقف مشتركة .

كان لبعض هذه المواقف اثر حاسم في تطور الحضارة اليونانية . ففرّج المستبدون الكربة عن صغار الفلاحين وجعلوهم اكثر استقلالاً حيال ذوي الاملاك الواسعة في جوارهم ورفعوا مستوى حياتهم المادية . واذا ما استندنا ، في حكمنا ، على اثينا ، نرى ان هذه النتيجة الاخيرة قد احرزت بفضل تشجيع زراعة بعض الاشجار المثمرة ، كالكرمة والزيتون ، التي ثبت ان انتاجها ، في هذا المناخ ، افضل من انتاج الحبوب . وكان صولون ، قبل « بيسيستراتوس » ، قد وجه الزراعة ، في منطقة اثينا ، شطر هذه الناحية . ثم جاء بيسيستراتوس وسلك الطريق نفسه ، حتى انه سلّف المالكين الصغار بعض الاموال . وقد توصل المستبدون ، في المدن ، الى التوفيق بين نزعتهم الى النفوذ الشخصي وبين تصميمهم على تهدئة من خابت آمالهم بايجاد العمل لهم . ولذلك نراهم يتعهدون بلاطاً بهجاً ، ويحمون الادباء والفنانين ، وينمون الاعياد الدينية ، ويحققون الاعمال الكبيرة في البناء والتجهيز ، ويدعمون التوسع الاقتصادي .

اجل ، لم يفلح احد منهم في تأسيس سلالة تدوم طويلاً ، في حال انهم ، ولا ريب في ذلك ، قد استهدفوا هذا المطلب . فلم تتجاوز اسرة واحدة من اسرهم الجيل الثالث ، حتى في افضل الظروف مؤاناة . وقد كان لانهارهم اسباب متنوعة ، عرضية او خارجية في اكثر الاحيان . بيد ان هذا الانهيار قد وافق تياراً عاماً : ففي السنة ٥١٠ لم يبق مستبد واحد في اليونان البلقانية ، كما زال المستبدون الاخرون ، في صقليا ، بعد ذلك بجوالي خمسين سنة . وقد اصدر عليهم الحكام والفلاسفة احكاماً قاسية . وقد وسم فلاسفة الاخلاقيات كلمة « مستبد » بمدلول

ازدرائي ، بينما لم يميزها من قبل ، اذا وجد التمييز ، عن كلمة «الملك» ، سوى فكرة الاغتصاب .
فدلت في النهاية ، على الحاكم الفرد الذي يعتمد العنف ويحتقر القانون ، على نقيض من لا
يستهدف سوى الخير العام والعدالة .

ولكن الاستبداد سواء كان شجبه مشروعاً ام لا ، قد افضى ، حيثاً وجد ، الى الاسراع في
تطوير المدينة نحو نظم سياسية واجتماعية لن يلبث المستقبل القريب والبعيد ، ان يعممها ايضاً .
لم تزل النظم في آخر القرن السادس متنوعة جداً .

الوضع في آخر العهد القديم
ولكن يجب ان نستثني سبارطة . فهي ، وان كانت نقطة الانطلاق
فيها مماثلة لما في سواها ، - وهذا غير محتمل - قد عرفت تطوراً خاصاً جداً . وهي تفتخر
بتميزها الذي لا مرأى فيه . اجل نحن نرى في كريت اثرأ لنظمها الاجتماعية ، لا سيما تلك التي
تولي الدولة حق المراقبة على تربية وحياة مواطنيها الجنود . ولا يتنافى مبدأ هذا الحق ومبدأ
المدينة اليونانية بوجه عام . ولكن استخدامه في سبارطة قد ارتدى طابعاً من العنف يضيف على
هذه المدينة مظهراً فريداً .

ففي كل مكان آخر تترك الدولة ، كدولة ، حرية أوسع للمواطنين . ولكن الا يخضع هؤلاء
لتأثيرات قوى اخرى ولضغط الجماعات التي ينتمون اليها لاعتبارات اخرى غير صفاتهم كمواطنين؟
ثم من هي الدولة ومن هي الطبقة الاجتماعية التي تستطيع اخضاعها لنفوذها المسيطر ؟ ان محاولة
الاجابة عن هذين السؤالين تضعنا وجهاً لوجه امام آراء مختلفة تكاد لا تحصى ، ولكننا نترأى
منذ الآن اتجاه التطور المقبل .

لا يزال عدد من المدن محتفظاً بحياة ريفية بحتة ، بعضها على الطراز القديم يتحكم بها اشراف
مقتدرون ، وبعضها الآخر تعيش فيها طبقة من الفلاحين تتمتع بقسط من الحرية أوفر . فحيثما
تطور الاقتصاد ونمت الصناعة والتجارة ، تعذر على ارسوقراطية النسب ان تبقي على امتيازاتها
القديمة وتوجب عليها رفع عدد المحظيين . وقد اقدمت على ذلك إما اختياراً وإما قسراً . ولكن
هذا التوسيع كان متفاوتاً ، فلم يستفد منه ، تارة ، إلا ذوو الثروات المنقولة ، فانضموا منذ ذاك
الى الاشراف ووقفوا الى جانبهم في وجه مطالبات الطبقات الشعبية . ففي ميله *Milet* مثلاً ، وطيلة
ستين سنة في أول القرن السادس ، اصطدمت فئة « أولئك الذين يجاربون بأيديهم » - أي الفقراء
العاجزون عن شراء السلاح - بفئة « الثروة » أو « أولئك الذين يركبون البحر دائماً » أي محزبي
المراكب . وقد اشرك ، تارة اخرى ، اعضاء الطبقة الوسطى في الحقوق السياسية . وقد مارس
الفقراء انفسهم ، احياناً ، بعض هذه الحقوق ، واننا نشاهد ، اذ ذاك ، قيام مؤسسات تنفرد
بها الانظمة الديموقراطية ، في كيتوس مثلاً منذ السنة ٦٠٠ قبل المسيح ، وفي أثينا بعد ذلك بزمن قصير .

خلال القرن السادس ، برزت أثينا ، في الواقع ، بروزاً ملموساً . وليس هذا
تقدم أثينا التأكيد نوعاً من تقدير الشيء بعد حصوله أو وهماً جرتنا اليه وفرة نسبية في

المعلومات . فقد بدأ التطور فيها بعد مدن كثيرة غيرها ، ولم يتحرك شيء فيها ، على هذا الصعيد ، قبل السنوات الاخيرة من القرن السابع . ولكن الحركة فيها كانت اكثر عمقا وسرعة ، فحققت في قرن واحد نتائج أهم منها في أي مكان آخر .

تبدل الاقتصاد في الدرجة الاولى . فتكونت طبقة ثابتة الاركان ومستقلة اقتصاديا قوامها فلاحون من اوساط الناس ينتجون غذاءهم ويبيعون النبيذ والزيت والثمار والبقول . وفي اسواق حوض البحر المتوسط ، احتلت صناعة خزفيات اثينا المركز الاول . وسبق ذلك ان نخر البحر اسطول تجاري . وضرب المقد بوفرة ، منذ ذاك التاريخ ، واكتسب شهرة طيبة برّرتها قانونية ورنه وارتفاع عياره من الفضة . ثم ان تقهقر المدن اليونانية في آسيا الصغرى ، على اثر الفتح الفارسي ، الذي أصبح امراً مفعولاً بعد ان قمع داريوس الاول ثورتهم ، قد افسح مكاناً أخذت اثينا تحتله ، على صعيد التجارة في البحر الايجي والعلائق ببلدان البحر الاسود ومصر والغرب . واذا لم تبسط بعد سيطرتها الاقتصادية ، فان انطلاقتها قد برزت منذ الآن .

ورافق هذا التطور الاقتصادي تطور اجتماعي وسياسي . فمنذ السنة ٦٢١ حتى السنة ٥٠٦ ، كانت شرائع « دراكون » و « صولون » ، واستبداد بيسيستراتوس وأولاده ، وشرائع « كليستين » ، بمثابة اوتاد رُسمت بها بسرعة طريق طويلة تترأى في آخرها امكانات وآفاق كلية الجدة . ومما هو اهم من ايجاد بعض الاجهزة السياسية ، ان يحضر المجال القانوني والاجتماعي للديموقراطية كما سيفهمها الاغريق . ولم يُقَصَّ الاشراف عن السلطة ، بل انهم سيقدّمون لاثينا ، طيلة سبعين سنة بعد ذلك ، خيرة حكامها : ميلتيادس وتيمستوكلس واريستيدس وكيمليس وبريكليس نفسه . ولكننا نعتقد ، على قدر امكانية الحكم في هذه الامور ، انهم مدينون بتولي السلطة الى صفاتهم الشخصية قبل كل شيء آخر . ولعله يجوز الاستنتاج ، حيال هذه القضية ، ان الشرائع تقدمت الاعراف والتقاليد ، لان الشرائع لم تكرر سلطة الاشراف قط ، واذا تبقى هنالك من امتيازات ، فانما هي امتيازات واقعية فحسب ، وليست بعد امتيازات قانونية . وهكذا فقد شقت الطريق لارتقاء طبقات اجتماعية جديدة تتولى ادارة الدولة وسيرمز الى هذا الارتقاء بعد موت بريكليس مباشرة ، اسم الدبّاغ كليون .

وقام ايضاً ، منذ دراكون ، قضاء جنائي رسمي . ثم جاء صولون فتبسط فيه . وبالإضافة الى ذلك اعطى صولون حق الشهادة لمن لم يرزق ولداً شرعياً ، وشجع تجزئة الثروات العقارية ، وحظّر المظاهرات الصاخبة في الجنائز . وحقق كليستين اخيراً الاصلاح الحاسم بان اوجد ، بموازة توزيع المواطنين القديم المبني على النسب ، سلسلة جديدة من الفئات البشرية على أساس اقليمي : عشر قبائل ومائة « ديموس » تقريباً . ولم تعتمد الدولة الاثينية ، بعد ذلك ، في تأليف كافة اجهزة الحياة السياسية ، سوى التقسيم الكليستيني .

لقد اوحى هذه التدابير كلها تصميم واحد : انتزاع الدولة من قبضة العائلات الكبيرة بالانتقاص

المنظم المرسوم من امتيازاتها وتلاحمها الداخلي. فوسعت الدولة سلطاتها على حساب هذه العائلات، لا سيما بإنشاء القضاء والجيش، والاسطول بعد ذلك، فلم تعد الدولة حراً لها. ولكن الطريقة التي سير عليها لتحقيق هذا التحرير قامت — ولم يكن بالامكان ان تقوم على غير ذلك — على تحرير الفرد من تضامنه الوثيق مع الفئة التي ادخله نسبه فيها. وقد هدفت الدولة، من وراء ذلك، الى ان تجعل من الانسان مواطناً لا عضواً من اعضاء العائلة. ولعل ما يجب معرفته، بعد ان ساعدته على امتلاك هذه الحرية، هو ما اذا كانت ستجيز له استخداما على هواه او ستحاول قيادته وتوجيهه او ستنوء عليه بسلطتها. ولكن طرح هذا السؤال سابق لأوانه. فالشيء المهم الآن هو حقيقة تحرير مزدوج يبدو مظهرا المترابطان كنتيجة لتطور واحد: تقهر التوزيع الاجتماعي القديم.

وتجدر الإشارة هنا الى ان الشطر الاكبر من هذا التطور قد تحقق في اثينا منذ الآن، ويكفي الاستمرار فيه دون التهرب من ذيله. وقد قدمت اثينا، في عملها هذا، مثلاً ستسير عليه كافة المدن اليونانية. وسيكون لسحر مثلها قوة لا تقاوم، لا سيما وان اثينا، في القرن التالي، ستلمي قوتها العسكرية والسياسية وستحتل، في الوقت نفسه، المرتبة الاولى على صعيد الفكر والجمال حيث تكتفي الآن بان تبقى مع سواها على مستوى واحد.

٢ — التطور الادبي

لم يكن التطور الادبي في العالم اليوناني، طوال هذا العهد اقل عمقاً او اقل تحضيراً للمستقبل. ولكنه يبدو اكثر تعقيداً، في اسبابه وخطوطه العامة والاشكال التي اتخذها، من التطور الزمني. لعب النمو الاقتصادي دوره بفعل الثروة التي وفرها والصلات التي عوامل التطور الادبي اوجدها او وثقها بحضارات اخرى لا سيما الحضارات الشرقية. وكانت بمثابة على الحضارة اليونانية التي هي آخر ما جاء الى حوض المتوسط الشرقي ان تفيده من الاختبارات والتحقيقات التي كدستها حضارات ارسخ منها قدما وأوفر ثروة واسبق فناً وتقنية. فاقترنت عنها الكثير مما سبق واثرتنا اليه. ولا حاجة بنا الآن لان نجمع هذه الاقتباسات في لائحة طويلة كي ندلل على اهمية مجموعها. وقد درج المؤرخون منذ زمن بعيد على الانتقاص من مدلول القول المشهور «الاعجوبة اليونانية» بحصر هذا المدلول في تأويل الاغريق لما تسلموه من الغير، وقد يمتنع بعضهم عن استعمال هذا التعبير اطلاقاً.

ولكن هذا لا يعني وجوب التسليم لسراب الشرق، لان الشعب اليوناني، في اعماقه، غني بالامكانات المميزة التي يمكن التعرف الى القسط الذي ادته دونما عناء. فليست الارستوقراطية القديمة، كما رأينا، لمامة من الاجلاف، بل هي تستهدف بلوغ مثل اعلى في الحياة الفكرية والفنية تدرجت نحوه، مع الزمن، طبقات اجتماعية كثيرة. وقد اثبت المستبدون انفسهم، باهتمامهم لنفوذ بلاطاتهم ومدنهم، انهم استهدفوا بلوغ هذا المثل ايضاً. لا شك في انهم اقتدوا

بالسلطين الشرقيين ، لا سيما الليديين ، اقرب الماوك في الزمان والمكان ، الى العالم اليوناني الذي عرفهم معرفة تامة دون غيرهم . ولكنهم صمموا ايضاً على ان يتفوقوا ، بهمساء و بجلال حياتهم ، على اشهر الارستوقراطيين ثروة وسخاء ، متبئين على غرارهم ، المثل الهوميروسي الاعلى الذي يجعل منهم «رضعاء زفس» يملكون قصوراً غاية في الزخرف ويحسون وفادة الشعراء المغنين . ثم اذا نظرنا الى الشعب اليوناني كمجموع ، توجب علينا الاعتراف ، بما يتحلى به من جرأة فكرية ورغبة دائمة في الاستطلاع واهلية لخلق كل جديد ومن ضمن بالاحترام المتطير للتقاليد . ويمكننا رؤية هذه الحرية الفكرية في التقلبات التي طرأت على تنظيمه الاجتماعي والسياسي . وهو لم يتوان عن التجديد حتى في النطاق الديني الذي يتصف بالجمود اكثر من غيره .

ولكن هل كانت الذمنية اليونانية واحدة يا ترى؟ يغرينا جداً ان نرى فيها نزعتين متزاحمتين : الاولى ذات منطلق بسيط سليم وتقدم غير رصين متناقض ، والثانية ذات جمال يدغدغ بتأثيره الطواس والشموانية . فلا مراء في ان هاتين النزعتين ، الاولى والثانية ، موجودتان في الحضارة اليونانية . ولكن غالباً ما جعل المؤرخون من تراحمهما بالصفة المميزة للعهد القديم ، وهو عهد تأسيس وتقدس وتردد ، فخابوا القساوة الحازمة البارزة في التيار «الدوري» بالسحر الحلال والطلاوة النسائية في التيار «الايوني» ، الى ان جسامت اثينا ، في فجر العهد الكلاسيكي ، وحققت جمعهما في تيار واحد . لا ريب في ان تأثير الشرق الذي استهوى الاغريق بثبات يوضح خطوطاً كثيرة في التيار الايوني . ولا ريب ايضاً في ان الكلام عن هذا التمييز انما يصح عن الفن خصوصاً ويستلزم بعض التبسيط . فالمدينة الدورية الاولى ، سبارطة ، قد تأثرت الى حد بعيد بجاذب الشرق ، خلال فترة ملويلة على الاقل . اما ابونيا الاسيوية ، فاذا صح ان فيها يتم عن رغبة في الافتان المتأنتى ، فقد كان لها فلاسفتها وعلمائها . لذلك لا يجوز الكلام عن «الايونية» و«الدورية» إلا بكل حكمة ، اذ ان الاولى والثانية ، على كل حال ، لا تمثلان بالضبط النزعتين اللتين ستظهران بوضوح ، في عهد لاسق ، في تطور الحضارة اليونانية .

تبدو الديانة كمنصر واحدة في المسالم اليوناني المقسم مدنًا عديدة . ولكن التنوع الديني
الآلهة الذين عبدتهم ينسبون الى مصادر مختلفة . فبعضهم استوردتهم الهنود الاوربيون : آلهة السماء مثلاً ، ولا سيما زفس ، إله النور والزوامة . وتجتبى البعض الآخر من الارث الايجي : آلهة الارض ، كاثينا وديميتر . وجسماء غيرهم اخيراً من الخارج : من اسما كأفروديت ، أو من تراقيا كأريس أو ديونيسوس . ومن العسير غالباً تبيان هذا المنشأ لان هذه العناصر قد اختلطت ببعضها اختلاطاً غريباً . فقد احتفظ احياناً بذكر حدث اختصار . وهكذا فان ابولون الذي جاء من آسييا قد وضع يده على معبد «دلفي» المحروس للإلهة الكريلية العظيمة . واعتُمد الصهر احياناً اخرى ، اما باعتبار اوجه الشبه في اختصاصات الآلهة وامسها بطريقة اكثر بساطة تقضي بان تعزى للاله الواحد شخصيات آلهة مختلفين : وهكذا فان الحصان يشير الى الإله الشمالي في بوزايدون ، بينما يشير الخطاف الثلاثي الشوكلات والسلطة على البحر الى

الإله الجنوبي . ووزع الآلهة أخيراً عائلات مختلفة هي نفسها معقدة التركيب . وقد تم كل هذا العمل في الوقت نفسه الذي تكوّن فيه الشعب اليوناني ، فلا نعرفه ، اذن ، إلا بواسطة نتائجه . وقد اكتمل في أوائل القرن الثامن ، حيث انتصر تشبيه الآلهة بالإنسان أيضاً ، فلم يبق للأصنام والحيوانات ، الى جانب الآلهة ، سوى قيمة الرموز أو الخاصيات .

تتضح اذن حقيقة مجهود قديم مثمر استمر في العهود اللاحقة ، فيرى هيرودوتس ان الشعراء القديمين هوميروس وهيزيود ، قد « حدّدوا نسب آلهة الاغريق ، ووزعوا عليهم صفاتهم وخصوا كلّ منهم بمجاده وصلاحياته ، ورسوموا صورهم » . وفي الواقع كان للشعراء اثر بعيد في الديانة اليونانية . فالإلهم يعود الفضل في انهم اختاروا ، من الكثرة الاولى ، آلهة كباراً يحملون اسماء عالمية الشهرة ، ويتحلون بشخصيات مميزة ، ولهم عائلتهم وتاريخهم ، وانتظموا مجتمعاً على غرار المجتمع البشري . وقد ذهب هيزيود الى ابعد من ذلك ، بانقطاعه عن ادخال الآلهة مباشرة في اوساط البشر ، وبالتشديد على دورهم كحراس للآداب ، وحتى بتأليه بعض التجريدات الادبية كالعدالة (ديكي) والمنافسة (ايريس) ؛ وغالباً ما كانت هذه الشؤون غريبة عن القصائد الهوميروسية .

ولكن هذا المجهود لم يكلّل قط بالنجاح التام . فكان في الواقع لكل معبد إله الخاص به المتميز باحد الفوارق او احد النعوت او احدى الاساطير المحلية . وقد ارتضى المؤمن بهذا التمييز البالغ لانه يطلب عوفاً واضحاً مادياً جداً . وقد بقي دائماً للطقوس نصيبها الهام ايضاً . فترى ، والحالة هذه ، ان نقل الدانة الى الصعيد الروحي كان وقفاً على نخبة فحسب .

لماذا احرزت بعض هذه الطقوس مزيداً من النجاح وصادفت قبولاً
الطقوس مكونة الوحدة :
وتأييداً ؟ ان تضامن الشعب بكليته قد اتضح أخيراً بالاشتراك في
المباريات
الاحتفالات العامة . وهذا التضامن ابعد من ان يكون شاملاً منذ
البداية ، لا بل نحن نستطيع تتبع تدرجه الصاعد من خلال اتساع هذه الاحتفالات نفسه .
ولكن ، من حيث ان التضامن السياسي المقابل لم يحرز اي نجاح ، يتوجب علينا الاعتقاد بان
طبيعة هذه الاحتفالات استجابت لميل عميق في النفوس .

وانما المقصود هنا الالعاب الموروثة فكرتها ، دونما ريب ، عن الكريتين . ولكننا نرى بجلاء ان نجاحها يتفق والمثال الاعلى للإنسان كما تراءى للاذواق الارستوقراطية . فهو يدعو كل فرد لان ينمي في شخصه ما يمكن ان يميزه عن غيره . وانما اللعب مباراة تتجلى فيها صفات الفرد وتفوقه على امثاله . ولكن ما يلفت النظر هو تلك المشاعر والفكر التي تلابس هذه الفردية وتحد من نتائجها . فهناك الفكرة الدينية أولاً : يقدم المتبارون بمجهودهم قرابين للاله الذي يعين من يتقبل قربانه بالرضى ، بايلائه النصر المبين . وهنالك ايضاً الفكرة الاخلاقية المرتبطة بالاولى : فالإبعاد يصيب الخداع وخارق القدسيات والقاتل ؛ اما المكافأة ، وهي تاج من اوراق الشجر ،

فليس لها من قيمة مادية . وهناك أخيراً فكرة المدينة : فهي تضيع الى جانب اسم المنتصر ،
سم وطنه ، وتفسر الاكرام الذي ينال المواطن من وطن يقاسمه مجده .

نحن نجهل كل شيء عن كيفية تكون هذه الفكر وهذه المشاعر . ولا نرى سوى توسع اطار
هذه المباريات المطرد . فان اشهرها واقدمها ، على الاطلاق ، مباريات اولمبيا التي جرت كل
اربعة سنوات في واد صغير الى الشمال الغربي من البلوبونيز ، اكراماً لزنس الاولمبي . ولعلها
تقررت للمرة الاولى في السنة ٧٧٦ ؛ وتكشف لنا لائحة الفائزين عن اتساع اشعاعها المطرد :
الجوار القريب ، ثم البلوبونيز ، ثم اليونان البلقانية ، ثم آسيا ، واخيراً المستعمرات الغربية .
وتكشف لنا ايضاً عن الاطراد في ارتفاع عددها وتنوع ألعابها : سباق الركض ، ثم سباقات
القوى الاخرى ثم سباق العربات . وعلى غرار مباريات اولمبيا تنظمت مباريات اخرى ، على
مقربة من معابد اخرى ، في تواريخ مختلفة . ومن اكثرها رواجاً ما اقيم اكراماً لبوزايدون
في مضيق كورنثوس ، ولزنس في نيميا بين كورنثوس وأرغوس ، ولابولون في دلفي . وقد
جمعت مباريات دلفي بنوع خاص بين سباقات القوى والسباقات الموسيقية . وقد وضع مثل
هذا البرنامج المتنوع ، اكراماً لابولون ، في جزيرة ديلوس الصغيرة الواقعة في وسط السيكلاد ،
وهي الجزيرة التي ابصر فيها النور . ولكن ديلوس لم تجذب اليها عملياً سوى الايويين
دون غيرهم .

نظمت هذه المباريات لمناسبة عيد الاله المحلي . وكان لكل اله عيده اي «بانيجيريا» التي
تعني بالاشتقاق «الاجتماع العام» الذي يضم مؤمنيه ، وهم قديتفاوتون عدداً وقد يأتون من قريب
او بعيد . وكان لبعض الاعياد الاخرى مبارياتها ايضاً : كعيد «أثينا» إلهة مدينة اثينا مثلاً الذي
ظهر قبيل منتصف القرن السادس مع تطواف الـ « بيبيلوس » . ولكن عدد الاعياد التي تترأى
فيها المنافسة على الفوز ما زال ، حتى ذاك العهد ، محدوداً جداً . ولكنه سيرتفع فيما بعد دون
ان يؤثر على مكانة الاعياد الاولى الوحيدة التي بلغت مرتبة يمكن وصفها باليونانية الشاملة .
وقد بلغ سحرها الاوج ، لا سيما سحر مباريات اولمبيا ، في اواخر العهد القديم ، وكانت شهرتها
ادبية اكثر منها مادية . وقد قضى العرف ، في مرحلة انتقال المتبارين والحجاج ، ان تعلن في
كل مكان «الهدنة المقدسة» التي يتقيد بها الجميع خير تقيد . وقد حق لكل يوناني حر ان يشترك
في هذه المباريات . فكانت هذه المباريات اذن مظاهر جليلة لحضارة يونانية قائمة بذاتها تتصف
بالخلاء في وحدتها المتسامية فوق التقسيمات السياسية وفي تناقضها مع «البرابرة» اي مع الاجانب .
وعملت ممارسة الموسيقى والتمارين الجسدية والعري نفسه الذي اهتم الفنانين ، واثرت بالتالي على
تطور الحضارة اليونانية . ولكنها لم تخلق فيها تيارات جديدة بل اقتصرت على تقوية بعض
تياراتها القديمة . ولم تقو قط على القضاء على تيارات اخرى . فان صفتها اليونانية الشاملة مثلاً لم
تتغلب يوماً على انقسام المدن .

لم يختص كل ذلك ، شأن الذبايح ، الا بالطقوس . اما الديانة ، على نقيض ذلك ،
التصوف فقد تأثرت ، في النصف الثاني من القرن السابع وفي القرن السادس بقوى بعيدة
القمر يكتنفها الغموض . فاضطرت لان تفسح مكاناً لتصوف جهله الشعر الهوميروسي جهلاً تاماً
ولم يتخذ ، في شعر هيزيود ، سوى شكل ميول ادبية رفيعة . ولم يكن فيها حتى ذلك العهد ما
يشبع الميول العاطفية عند الكائن البشري . ولم تفتح عبادة الاموات نفسها ، التي كانت تمارس
بالولائم الجنائزية وبالاغراط من شرب الخمر على المدفن الذي يعلوه اناء دون قعر ، الا افاقاً كالحة
عبوسة ؛ ولم يكن استحضر ارواح اكثر الاموات شهرة ، كما تصفه الاوديسه ، ليطمئن احداً
عن حقيقة الخلود الكئيب والواهي الذي ينتظر الآدميين في عالم ما تحت الارض . فالتقوى
البشرية تتطلب حقائق اخرى ، حتى ولو اقتضى ذلك موجبات اخرى . لذلك فهي قد استقبلت
بحرارة الآراء والمراسيم الجديدة او المجددة المستوردة من تراقيا او آسيا والمرتبطة بالتالي باتساع
أفق الاغريق الذي يدينون به لأسفارهم ونشاطهم الاقتصادي .

كان لديونيسيوس مكانه الخاص في جميع مظاهر هذه الذهنية الجديدة فغدا الوارث الرئيسي
لهذه الحركة الواسعة . فتارة عمل مباشرة على امتداد عبادته : وهكذا فان الاستبداد الاثيني
جعل من أعياده اعياداً رسمية ونظم الاحتفال بها ، وهي التي ستنبثق عنها التمثيليات المسرحية .
وأشرك تارة اخرى في عبادات او عقائد انتشرت حينذاك . فكان له مثلاً مكان في معبد آلهة
« الفيسيس » الذي وجب توسيعه بفعل ازدياد عدد المؤمنين الذين استهدفوا ، من وراء الاطلاع
على اوليات علم « الأسرار » ، المازيد من الاطمئنان حيال الحياة الثانية . وقد خصته ايضاً
الأساطير الاورفيوسية بالمركز الاول .

نشرت هذه الأساطير جميعيات انتسبت الى اورفيوس المغني التراقي . وقد روت كيف ان
ديونيسيوس قطعته التيتان ارباً ارباً ، وهم الشر المتجسم ، وكيف ان أباه زفس قد بعثه حياً .
اما الذين نشروها ، تدفعهم الى ذلك غيرة تبشيرية تتنكر للحدود السياسية والاجتماعية ، فقد
استخلصوا منها مثلاً وعبرة . فوعدوا بالسعادة الابدية كل من يسلك سبيل تقشف اخلاقي
وجسدي نصحوا به الى كافة البشر الذين سيفصل الموت أرواحهم عن أجسادهم النجسة . ولا
ريب في ان الاورفيوسيين قد جمعوا في صفوفهم دجالين وعرافين يجوز الاشتباه بهم . ولا ريب
أيضاً في ان السحر كان له مكانه في كتبهم المقدسة . ولكنهم جاؤوا بأراء جديدة كثيرة كان
نجاحها في البدء باهراً ثم تدنى طيلة العهد الكلاسيكي ، على الرغم من استمرارها المستتر ، الى ان
عادت وظهرت في العهد الهليني ، فلم يكن ممكناً ، في الواقع ، ان يبقى دون اثر الوعظ الديني
الذي لم يفرق بين بوناتي و « بربري » اي بين الحر والعبد ، والذي لفت النظر الى تركيب
الانسان ، في ان واحد ، من عنصر فان ومن روح ترتبط بمبدأ آخر ، وتكلم عن دينونة إلهية
تزال الروح بموجبها ، بسبب مسؤوليتها على الارض ، اما ثواباً واما عقاباً . وحين زالت الجمعيات

الاورفيوسية السجسة ، استمرت نظرياتها موسعة وموضحة مفهوم الانسان الذي اعتمده الاغريق حتى ذلك التاريخ .

يبدو ان هذا التيار التصوفي الذي دفع بالمتصوفين الى الانخراط أحياناً، قد كان متافات الغيب
خير معوان لنجاح متافات الغيب . وتعود هذه المتافات الى ما قبل الاغريق الذين ورثوها عن الحضارات السابقة . غير ان القصائد الهوميروسية تكاد لا تتكلم عنها ، خاصة بالذكر الاحلام والدلائل الطبيعية عن المستقبل التي فسرها العرافون . اما بعد ذلك فوجود الكثير من هاتفي الغيب يصبح امراً واقعاً وطيداً يستشيرهم الأفراد والدول في مواضع مختلفة فيجيبون بطرائق متنوعة ، وما العرافة الملهممة سوى إحدى هذه الطرائق ، ولا يرتقي الشك الى نجاحاتها خلال القرون السادس . غير ان الانبياء في الشطر الآسيوي من العالم اليوناني ، هم غالباً من الرجال ، بينما هم كثيراً ما ينتمون الى النساء في الشطر الاوروبي : ففي كلاروس في ايونيا يتصرف الكاهن تصرف العرافة في دلفي . فيمكن بالتالي ان تفسر بعض المراسم ، على هذا الصعيد ، كمظهر من مظاهر تيار ديني قديم تأصل في القرن السادس وقبل به الاغريق اخيراً بعد ان لطفوه بعض التلطيف .

أما الإله الذي كثيراً ما رافق اسمه فن العرافة هذا فهو ابولون الذي لا تقع مراكز الهاتفين بالغيب باسمه تحت عدد أو حصر . وفي أواخر القرن السادس ، ذاعت شهرة بعضها حتى بين الشعوب البربرية ، فيستشير الملك الليدي كرىزوس عدداً منها ويعترف داريوس الأول بان ابولون « قال للفرس الحقيقة الكاملة » . وبين هذه المراكز التي كان ابولون سيدها ، تمثل دلفي أشهرها فحسب . وهو قد طرد منها بالقوة إلهة « الأرض » الكريتية . ولكنه اضطر لان يفسح في معبده مكاناً متعاضداً لديونيسوس . ولا ريب في ان هذه الشراكة قد خدمت نفوذه الذي بلغ الأوج قبيل الحروب الميديدية . غير انه لم يستخدم هذا النفوذ على الصعيد السياسي او انه اساء استخدامه . أما على الصعيد الديني فكان هذا النفوذ أكثر فعالية بتنظيمه للعبادات والماراسم أو باطراء الطهارة الجسدية ، منسجماً في هذا مع الاورفيوسية . وقد تطرق الى الصعيد الاخلاقي نفسه ، فعبثت النصوص الظاهرة في معبده عن بعض اصول الحكمة ، كما ان هاتفي الغيب ، في بعض الحالات ، يوصي باحترام اليمين وتأدية واجبات الضيافة .

ولكن كل ذلك لم يدم طويلاً . فلم يلبث عمل متافات الغيب ان انحصر في النطاق الزمني . وسيقتضي الديانة اليونانية تطوراً روحياً آخر كي تصبح قابلة لان تنفذ اليها النظريات الاخلاقية .

لم تعرف الحياة الفكرية ، لزمن طويل ، طريقة تعبير ثابتة غير الشعر . فالوزن الشعر الملحمي
يسهل الحفظ عن ظهر القلب . واذا افترضنا ان الكتابة عرفت قبل اعتماد الابجدية المشتقة عن الابجدية الفينيقية ، فان استعمالها لم يترك أي أثر ولم يتيح له الشمول إلا في عهد متأخر نسبياً . ثم ان هنالك مصطلحات ، بعضها ديني على الأقل ، قد لعبت دورها ، وهي

تتراءى في بعض الاوزان الشعرية الخاصة وفي استعمال لغة صناعية وصيغ كلامية ، لا سيما في اقدم القصائد الشعرية عهداً ، أي الملحمة .

يمثل هذا الشعر الملحمي عظمة اوائل العهد القديم .

فهناك اولاً هوميروس بل بالأحرى القصائد الهوميروسية . فالتقليد اغنى بالمتناقضات حول الشاعر الذي نسبت اليه من ان نستطيع ان نستخلص منها فارقاً واحداً لا عدة فوارق . ثم ان التشريح الذي اخضعت له هذه القصائد منذ اكثر من قرن ونصف لم يفض بعد الى نتائج اجمع عليها العلماء . « فالقضية الهوميروسية » ليست وشيكة الحل والحالة هذه . غير انه يبدو من الامور المفروغ منها ان الالياذة والوديسه عبارة عن قصائد مجموعة مكرسة في الأصل لحوادث متفرقة ومختلفة ومؤلفة على حدة . ويصحّ ذلك بصورة جليّة عن « غضب اشيل » في الالياذة و « عودة أوليس » في الوديسه مثلاً . ومن المفروغ منه ايضاً ان هذه القصائد قد مضى عليها زمن مديد وادخلت عليها بعض التحويرات ، قبل ان تجمع في كتاب واحد ، كما ادخلت عليها بعض التحشيات حتى في تاريخ نشرها في اثينا ، بامر المستبدين ، في النصف الثاني من القرن السادس . وفي ما عدا ذلك فالخلافاً القائمة بين الاختصاصيين كثيرة جداً ، ولكن القسم الاكبر منهم في الوقت الحاضر يعتبر ان الملاحم ، في جوهرها ، قد صبت في قالبها في القرن الثامن ، على ان الالياذة قد سبقت الوديسه بخمسين سنة تقريباً . ولكن مهما يكن من أمر هذه الارتياحات ، فانها لا تنال من صنعة العمل الذي يعود الفضل فيه ، باستثناء بعض القطع الرائعة ، الى الجامع أو الجامعين . ففي الملحمتين انتظمت الحوادث التي غلب عليها التشويش في البدء ، حول شخص وعمل : اوليس نفسه يروي اسفاره ، وما مغامراته سوى تحضير لمأساة تأره النهائية . واذا ما اضعفنا الى ذلك ان الملاحم الهوميروسية تنطوي على ديانة وميثولوجيا اضفت عليهما سحرهما الشعري ، وتحدد علماً اخلاقياً أو أقله مثلاً بطولياً للانسان ودستوراً للأدب والانس والمجاملة ، نرى كيف انها ، حتى آخر التاريخ القديم ، استطاعت توفير أساس تربوي لفتيان الاغريق .

أما هيزيود ، في أواخر القرن الثامن ، فوجه واضح الخطوط لا يمكننا وصفه بالتاريخي لان واحداً من الشعراء الاغريق لم يعيش الحياة المتواضعة القاسية التي عاشها بعيداً عن القصور . وهو قد اعتمد اساليب وأوزان الشعر الهوميروسي ولكن بذهنية اخرى وبتسليط تخيلته على معطيات الواقع اليومي ومعطيات التقوى الراسخة : فلم يكن أدب مدن آسيا وقصور العظماء ، لا ولا السخرية الباسمة ليعرفا سبيلاً الى مسكن هذا الفلاح المتواضع الذي يبالغ في التردد الى المعابد المجاورة . ولعل ما يحرك منا الشعور فيه هو فظاظته الخرقاء نفسها ، بالاضافة الى اهتمامه للأخلاق والعدالة ، وثقته بالآلهة لضمان قصاص الأشرار ، واستجارته بالخرافات لتفسير وجود الشر على الارض ، ومواعظه الحازمة في سبيل عمل الانسان وواجبه وكرامته . وفي

« نسب الآلهة » ، حيث يحاول تنظيم تسلسل الآلهة ، ببعض هذه الآراء والنظريات . ولكنها تبرز مجموعة بشكل أثقل جفء في كتابه « الأعمال والأيام » . وقد عرف الفلاح في هذا المؤلف المستعذب على ما فيه من خشونة ، ان يبقى ريفياً على الرغم من تجليه شاعراً ومهذباً ، ووصف جهود المالك الصغير وارشاداته التقنية ومعتقداته وخرافات واضطرابه لان يوفق بين حياته وقوى الطبيعة .

نشأة الشعر الغنائي ونضارته
اصيب الشعر الملحمي بذهول سريع . ولكن شعراً آخر قد نشأ حاملاً ، في الوقت نفسه ، طابع الموسيقى الشرقية وطابع فردية الاغريق : الشعر الغنائي .

أما بصدد الموسيقى ، أدوات وأنغاماً ، فالعلائق بليديا التي هي نفسها وريثة فريجيا ، كانت حاسمة بلا مرأ . واذا نسب الاغريق هذا او ذاك من الاكتشافات الفنية لبعض مواطنيهم ، فليس من شأن ذلك ان يخفي واقع استعارات تقدمتها بلا ريب متروكات الحضارة الكريتية . وقد استقر كل ذلك في التركة اليونانية بدخوله في طقوس الاحتفالات الدينية . اما الغناء الجوقي الذي ترافقه الرقصات والحركات الايقاعية التي تقوم بها فرق من الرجال والفتيات والاولاد فلم يلاق في أي مكان ما لاقاه من اكرام واعتبار في سبارطة . وغدت الموسيقى مادة اولية في منهج تربية الفتيان الاغريق ، حتى سن الثلاثين احياناً .

وبالاضافة الى ما اوجده الاغريق لشعرهم الغنائي من اوزان كثيرة ، فقد اقدموا على تسخير ه للتعبير عن مشاعرهم الشخصية ولاتقاء تهم المتهمين ولتوجيه التهم لغيرهم وللمحاولة الظهور دونما حياء وللتغني باحقادهم واهوائهم وآلامهم وافراحهم . واوجدت ، منذ القرن السابع ، المراثي والانشيد والقصائد الانتقادية خاضعة باستمرار للتحسين والتكليف ، فنظمت شعراء عديدون لم يصل اليها منهم ، لسوء الحظ ، أية قصيدة كاملة . وقد لجأ المشترع صولون الى الشعر لدعم عمله السياسي والاجتماعي ، وأفرغ ثيوغنيس الميغاري جام غضبه شعراً ، ووجدت سبارطة في بعض الاجاذب افضل شعرائها في حقل التربية المدنية . بيد ان غالبية الشعراء الغنائيين ، الذين ولدوا أو عاشوا في مدن آسيا الصغرى أو في الجزر ، تغنوا بافراح وحرارة الحياة الشهوانية التي فتحت لها فيها ثروة الشرق القريب منها . وأشهر هؤلاء الشعراء هم ألقيا والشاعرة صافو الميديليان في أوائل القرن السادس اللذان لا يعرفان لضبط النفس من معنى ولا يتقيدان في هيجانها بمصطلحات أدبية نافهة : فصافو تتظاهر بشهوة معثرة منذ التاريخ القديم ، ويمجد ألقيا موت مستبد مكروه بنداء الى معاقرة الخمر .

نشأة العلم والفلسفة
كان الشرق اليوناني اذن مهد الشعر الغنائي ، وكان ايضاً مهد العلم والفلسفة . كانت الحضارات الشرقية السابقة ، اقبله بصدد العلم ، قد جمعت المواد الاولى . ولا ريب في ان الاغريق استعاروها عنها . فان ايونيا ، حيث ظهرت هذه الانظمة

العقلية ، كانت على اتصال بكافة الشرق . وقد أهلها موقعها الجغرافي لان تطلع على جميع تحقيقاته . فمن طريق ليديا التي خدم ثاليس' الميلي سيدها ، لا عن طريق رحلته الى مصر فقط التي ينسبها اليه التقليد ، تمكن من معرفة علم الفلك وعلم الحساب اللذين اشتهر بهما كهان بلاد ما بين النهرين . واذا ما عدنا بالذاكرة الى هؤلاء ، لن يدهشنا ان يكون تنبأ بكسوف الشمس الذي حصل في ٢٥ ايار من السنة ٥٨٥ . ويمكن القول نفسه عن التقنية ايضاً . ويعزى الى ثاليس انه اشرف على حفر احدي الترع لتجفيف مسيل احد الانهار . وبنى مهندسو ساموس رصيفاً في البحر بلغ ٣٦ متراً ارتفاعاً و ٣٦ متراً طولاً لتوسيع المرفأ في الجزيرة ، وحفروا قناة لجر المياه بلغت ١٠٠٠ متر طولاً . ولعن هذه الاعمال الباهرة التي بدت للاغريق وكأنها معجزات لا تصدق سبقتها منذ زمن بعيد اعمال مماثلة في الشرق . ولم تكن الطرائق التقنية المعتمدة ، من حيث مبادئها على الامل ، الاكتشافات بالمعنى الصحيح . اما التجديد الحقيقي فهو انصرافهم ، بمجهود منطقي ، الى مباشرة تنظيم هذه المعارف علماً مجرداً . فحيث لم يتجاوز الشرق التجربة والاختبار ، ولدت الهندسة مع ثاليس ، كما قيل ، فدفع بها بيثاغور الى الامام ، اذا لم يكن هو نفسه قد اكتشفها ، وأوجد في الوقت نفسه علم الاسداد .

ولم يكن دور الايونيين في الفلسفة اقل اهمية . وكان بمكنة الشرق هنا ايضاً ان يوفر لهم بعض الشيء ، اي نظرياته في تكوين العالم التي انطلقت جميعها من مبدأ اولي بغية تحليل خلق العالم . ولكن المبدأ ، وفاقاً لتعليم هذه النظريات ، لم يتميز عن الاله ، كما لم يتميز الخلق عن ظهور الالهة اخرين . اما فضل الايونيين فهو انهم واجهوا المعضلة نفسها منعتين من الفكرة الدينية ومستنديين الى عقلمهم فحسب . ولكن قد يصح ان يقال في هذا العقل الذي لم يزل بعد في عهد الفتوة انه انما يستلزم من تلميذه بنفسه . فحاول ثاليس وتلميذاه اناكسيمندروس واناكسيمينوس اكتشاف المبدأ الواحد الذي ادت تحولاته الى ولادة الاشياء والكائنات . واقتراح بعدهم هيراكليت الافسسي ، وهو ايوني ايضاً ، عنصراً اولاً هو النار ، ولكنه اضاف الى نظريته هذه فكري الصراع الدائم والتطور المستمر . وقد ذهب بعض الايونيين الى ايطاليا الجنوبية ينشرون فيها تعليمهم ؛ فأسس كسينوفابوس الكولوفوني ، الهارب من السيطرة الفارسية ، مدرسة ايليا ، كما أسس بيثاغور الساموسي ، الذي رفض الخضوع للاستبداد ، ندوات للتلاميذ في مدن خليج طارنتا حيث استمر تعليم نظرياته حتى القرن السادس .

اما شهرة بيثاغور الطولية فيفسرها غنى مذهبه حيث رافق تعليمه حول النفس وتعاقب تجسدها المتمص علم اخلاقي وقانون حيائي ، بينما كانت فلسفته ، في سعيها لاكتشاف سر الكون الذي وجدته في تناسق الاعداد ، ماثراً للابحاث العلمية . ولكن حتى ولو لم تعيش طويلاً مدارس الفلاسفة الايونيين الذين لم يفرقوا بين بحوثهم وبين العلم الذي انقطعوا اليه ، فانهم اول من اطلق الفكر اليوناني وشق الطريق امام اقداماته المقلدة .

اصبحت الحياة العقلية عند الاغريق ، منذ آخر العهد القديم ، احدى حياة
اولوية الفكر اليوناني عقلية في العالم المتوسطي . ولم تكن اية حضارة شرقية حينذاك لتتمكن
من الاتيان بشيء حي جديد تنافسها به . كان كورثس الاخميني قد طلب طبيب عيون من
فرعون مصر ، ولكن خلفه الثاني داريوس قد احتفظ في بلاطه بالطبيب ديموسيديس الكوروثي
الذي سبق وتنازعت مدن يونانية عديدة والذي توسط لديه ، بعد ان شفا من التواء في مفاصله ،
خدمة للطباء المصريين المحكوم عليهم بالتعذيب تكفيراً عن جملهم . فيتضح من هذه الروايات
ان انتقال الاولوية منذ ذلك العهد قد غدا محتملاً .

انزل الاغريق الشرقيين عن عروشهم ولكنهم لم يهملوا الاستفادة من اختباراتهم والمشاواتهم ؛
لا بل انهم سيستمرون زمناً طويلاً في الافساده منها ، بمقدار تمكنهم من اتمه ان معرفتها .
ولكنهم ينهجون فيها نهجاً آخر مستيرين العقل البشري ، بقيادة منطقهم الفطري ، في الطرائق
الجديدة التي تتراءى امام فضولهم النهم . وليس من اتفاق الصواب ان يظهر ، في العهد نفسه وفي
ايونيا نفسها ، علماء الجغرافيا والتاريخ . ولا يزال هذان العلمان متعثرين ومليئين بالاساطير عند
واضعيها ، « الناثين » الذين كانوا اول من اقدم على التخلص من الايقاع الشمسي . ولكن
احدهم ، هيكاته الميلي ، قد وضع المبدأ التالي : « انساب ما يلي لانني اعتبره حقيقة » اذ يولي
ان روايات الاغريق المتعددة جدرة بالسخرية . فاذا كان فضل لا يارني فضل مواطنيه العلماء
والفلاسفة ، فانه ، باسناد ابجائه الى النقد ما اسندوها هم الى العقل ، انما يشق الطريق معهم .
امام خلفائه .

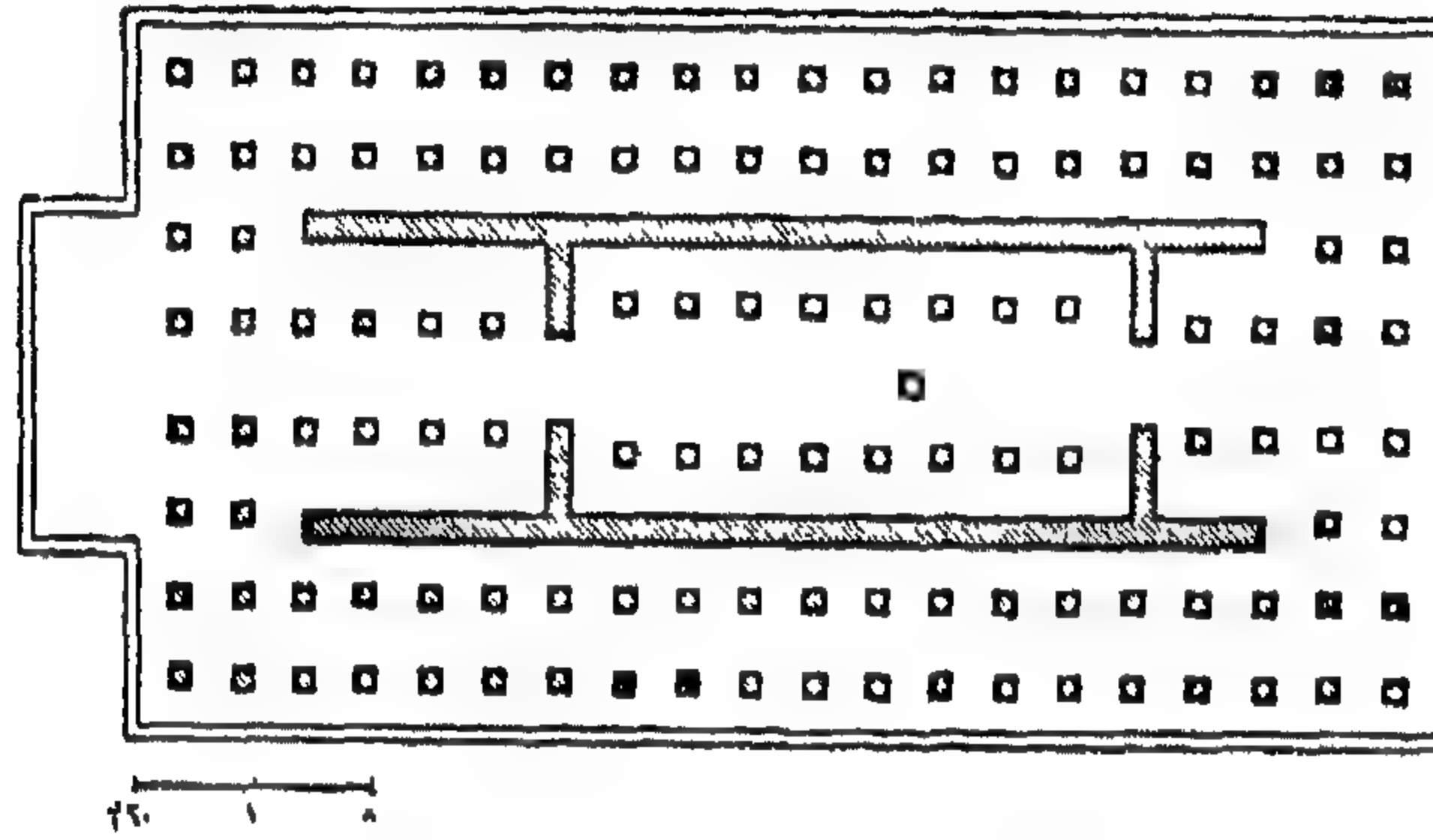
يصبح القول نفسه في الفن الذي انتهى ، خلال هذا العهد ، الى اتمه اد طرائقه
الهندسة المعمارية وتأمين نموه المقبل .

تنحصر الهندسة المعمارية القديمة في المعبد ، باستثناء ما بعض التجهيزات الصغيرة . اليونانيون
والاقلية وتزيين الاماكن العمامة والشوارع في المدن المتوسطة المشيدة دون تصميم سابق .
ويشتق المعبد ، المسمم كسكن للإله ، اشتقاقاً مباشراً من الميخارون الميسيني : سقف ذو منحدرين
وأعمدة امامه وقاعة في الوسط يوضع فيها التمثال . ولكن قياساته قد تجسست منذ القرن
السابع بعد ان اعتمد الحجر مادة للبناء . فأحيط بسقف من الأعمدة وريد على طوله بحيث
تخصص في آخره مذخرة للكنوز ، وزيد في عرضه ايضاً بحيث اسند السقف الى صفوف
من الأعمدة .

فهل من اثر للشرق في مجهود التوسع هذا الذي لم يبلغ حد الضخامة ؟ ان اليون ، على كل حال ،
يبقى شاسعاً جداً . ومن الافضل ان نفكر بالحري بازدهار المدن وتفاخرها وتنافسها . فالأغريق
الغرب لا يعترفون بآية افضلية لاغريق الجزر والساحل الآسيوي ، لا سيما وان معرفتهم بالهندسة
الشرق الضخمة نفسها لم تكن لتؤثر فيهم . وفي هاتين المنطقتين المتقابلتين من المعم ، الم اليوناني

تقاربت قياسات المعابد المشيدة حينذاك : ١١٢م × ٥٦ م في ساموس و ١١٣ م × ٥٤م في سيلينونته من اعمال صقليا . وقد حدث احيانا ان بعض المعابد لم يكتمل بناؤها أو تأخر وقتا طويلا بسبب نفاد الموارد المرتقبة . اما اليونان الاوربية فلم تسوغ لنفسها هذه القياسات ، فاكتمت الاستبداد الاثيني ، على الرغم من رغبته في التظاهر بالتقوى والقوة ، ب ١٠٨ م × ٤٤ م لمعبد زفس الاولبي الذي أسسه والذي لم يكتمل تشييده إلا بعد ذلك بستة قرون ونصف القرن .

لقد برهن الاغريق على كل حال ، في حساب القياسات لأدق عناصر المعبد ولإحكامها ، عن شعور بالانسجام والتوازن يلفت الانظار ولا يتوفر لغيرهم . الى ذلك العهد يعود قيام « النظامين » : الدوري والايوني . ويتصف الاول بأنه أقل تكلفاً وأكثر نقاء واداء ، ويحتفظ



الشكل ٢١ - معبد ارتميس في افسس

شرع في تشييد هذا المعبد الكبير في القرن السادس .

اسم الملك الليدي « كريزوس » في الانفاق عليه . ازدان بالنقوش ٣٦ عموداً من اعمدته المائة والسبعة والعشرين .

في الحجر بذكرى الخشب ؛ عموده لا يرتكز الى قاعدة ويعلوه تاج بسيط جداً ؛ وفوق صف الاعمدة ، تمثل المجموعات الثلاثية التجويف نتوء روافد الصحن المعارضة ، وتمثل اللوحات الرخامية المنقوشة المسافات الجوفاء التي تفصل بينها . أما النظام الايوني فأوفر زينة وأكثر أناقة وتجيلاً ، كما يليق بمنطقة اشتهرت حضارتها بالرقه والذوق ؛ عموده اكثر رشاقة ويرتكز الى قاعدة ويعلوه تاج منقوش نقشاً حلزوني الشكل ؛ ويمتد فوق صف الاعمدة افريز طويل يتسع للنقش . ولكن مهما كان النظام ، فقد قامت نسب دقيقة بين قطر العمود وارتفاعه وفي غلظه المحدث وعدد تجويفاته المستطيلة والمسافات الفاصلة بين الاعمدة . فكل شيء في المعبد اليوناني يخضع ، منذ اواخر القرن السادس ، لحسابات دقيقة يجريها مهندس متمكن في آن واحد من علم الحساب ومن دستور للذوق على بعض التجرد .

أسهمت النقاشة مع الهندسة المعمارية في تزيين المعبد . فقد وضع هذا الاخير امام النقاشة
النحات مساحات حجرية يجب تزيينها بالرسوم . ومن الشذوذ عن القاعدة ما حدث في افسس ، عند اعادة بناء معبد ارتميس الذي حرص كريزوس على الاشتراك في اكلافه ، من

تزيين قسم من الاعمدة بنقوش ناتئة في قاعدته السفلى . فان هذه الطريقة ، المستوحاة مباشرة من الشرق ، لم تعرف الشمول . ولم يفسح المعبد اليوناني مجالاً للنقوش إلا في أمكنة حددها تصميمه الهندسي نفسه . فاتفق النظامان على ان يكون هذا المجال جبهة المعبد المثلثة الامامية وجبهته المثلثة الخلفية وآثروا ، بالتفضيل على النقوش الناتئة ، وضع تماثيل لا ترى ظهورها أمام الجدار الداخلي . اما في الامكنة الاخرى فقد وجب استعمال النقوش الناتئة : فافسح لها النظام الدوري مستطيلات لوحاته الرخامية والنظام الايوني افريزه الطويل .

وضعت الجبهات المثلثة والاوحدات الرخامية الفنان امام مشكلات دقيقة بسبب قياساتها المزعجة . فحيال الجبهات وجب عليه ان يوفق بين النقوش وبين الزاويتين الجانبيتين الحادثتين جداً ، مما فرض عليه الانتقال التدريجي من الاشخاص الواقفين في الوسط الى الكائنات النائمة او الزاحفة . وحيال مجموع اللوحات الضيقة وجب عليه تصميم مشاهد صغيرة تملأ المساحة ضمن الاطار دون ان تتخطاه . فيمكننا والحالة هذه تتبع جمود النقاشين الذين كانوا مترددين 'خرقاً' في البدء ثم استخلصوا من الصعوبة نفسها قوانين الهامهم وفنهم .

اما حيال الافريز الايوني فكان عمل النقاشين اكثر سهولة لان المساحة تتسع لاشخاص عديدين . ولكن وجب عليهم توزيعهم دون تشويش وفاقاً لموضوع عام ، وتنويع الاوضاع والمشاهد دون ضرر بالفكرة العامة . فتوصلوا الى ذلك بعد جهود ناشطة مستوحين ، من جهة ثانية ، طريقة الرسم على الآنية الذي استلزم هو ايضاً توزيع المشاهد في عصابات دائرية . ومنذ الربع الثالث من القرن السادس ظهرت في «مذخرة» معبد دلفي ، التي شيدها اهالي « سيفنوس » القائمة على جزيرة والغنية بمناجمها الذهبية ، مشاهد ميثولوجية وبطولية عظيمة ، كصراع الآلهة والجبابة او كاجتماع الآلهة الاولمبيين لتتبع تطورات معركة امام طرواده . وستستمر معالجة هذه المواضيع على افريز المعبد حتى العهد الهليني نفسه . وتبدو الاوضاع منذ ذلك الحين بتنوعها . والدالة العائلية فيها — يد تلقى على ركبة زفس ؛ ابولون يلتفت الى شقيقته ارميس التي تلامس كتفه بيدها — وفنتها وطبيعتها ، خليفة بالمعهد الكلاسيكي نفسه .

اما صناعة التماثيل المستقلة عن البناء فقد كانت هي ايضاً مرتبطة بالديانة لان كل المواضيع التي عاجلتها تحمل طابع الديانة وتمثل الآلهة ومقدمي القرابين والحيوانات الرمزية . وقد تتلمذت في البدء على الفن الشرقي ، ولا سيما المصري ، الذي اعتمدت بعض مصطلحاته ، فبرز خرقها في جمود الاوضاع وفقدان النسبة الصحيحة في القياسات . ولكن النجاحات ، في هذا الحقل ، كانت حاسمة ايضاً . فتحرر الفنانون من الانقياد للتقليد دونما توغل في الحركة العنيفة ، اذ قد حالت دونها الديانة وحسبهم المرفه بالنبل والتناسق . غير ان الجسم لم يخضع لقاعدة التناسب ، مع ان درسه التحليلي الدقيق ، الذي سهله ميل الى العربي فرضته التمارين الرياضية ، قد اتاح بروز العضلات تحت الجلد . ثم دبّت الحياة في الوجه رويداً رويداً ، فانتهى وقار التماثيل الدورية

الاولى وتصنع التماثيل الايونية وتكلفتها وابتسامتها المفنجة احياناً الى الانصهار في التعبير عن مشاعر رقيقة يهتز لها الناظر .

كان نتاج هذه المرحلة التفتحية القصيرة ، في النصف الثاني من القرن السادس وفي السنوات العشر الاولى من القرن الخامس ، غنياً جداً بالتحف المختلفة . وقد اختلفت آراء الاختصاصيين حول نسبة هذه التحف الى فئة معينة ، وحول المكانة التي تحتلها فيها . فكان ان اسهمت حدة الجدل في ذبوع شهرة عدد كبير منها ، لا سيما بعد الاثر الذي احدثه اكتشاف كثير من القطع الاصلية — بينما هي نادرة جداً في العهود اللاحقة نفسها — اثناء اعمال التنقيب في قلعة اثينا ودلفي وديلوس : فكان لأعمال « البرابرة » هنا نتائج خيرة . ولا ريب من جهة ثانية في الاثر البعيد الذي تتركه ، على كل حال ، نشأة فن عظيم يفوز ، في اقل من قرنين ، بالسيادة الفنية ويحقق ارتعاش الحياة . ومن حيث ان هذه التحف ، البديعة احياناً ، اكثر من ان تعد وتستعرض فاننا نكتفي بالإشارة الى روائعها التالية : اللبوءات الدابلة المنتصبة على قوائمها الامامية الضخمة والمصطفة خطاً مستقيماً في رصيف على مقربة من بحيرة ديلوس المقدسة ؛ ابو الهول في دلفي الذي اجثمه « الناكسيون » في اعلى عمود يبلغ عشرة امتار ارتفاعاً ؛ أحصنة افريز مذخرة سيفنوس واللوحات الرخامية في مذخرة « سيكيوني » أو اللوحات الرخامية في سيلينونته حيث نصّب الهوبليت الأثيني ، اريستيون .

سنةتصر اذن على ايجاز تطور طرازين من التماثيل لا نغالي اذا قلنا عنهما ، بقطع النظر عن مصادرهما ، انهما لم يتميزا عن الحضارة اليونانية ولن يتميزا عنهما . وقد رأى بعضهم مرة اخرى في تضادهما ، التضاد القائم بين الدورية والايونية . ان هذا التضاد قائم بالفعل في النقاشة : تصميم أوفر منطقاً وتقشفاً وخشونة من جهة ، وأناقة اكثر لياقة ومزيد من التخث من جهة ثانية . ولكن ، بصرف النظر عن نسبة هذه التحف التي تثير التسكوك ، لم يقم بين فرعي الشعب اليوناني الرئيسيين حاجز فاصل محكم : فالفنانون كانوا يتنقلون حيث يطلبون والمزارات التي قصدها الاغريق من كل حذب وصوب كانت توفر الالتقاء والتجاور . وان هذين الطرازين وما عرفاه من ازدهار متواز ليرتبطان في الحقيقة بجوهر الحضارة اليونانية المشترك .

فالطراز الاول هو الشاب العريان ، الـ « كوروس » . فهل هو ابولون ، أم مصارع مثالي ، أم مصارع معين ؟ لا فرق . انه يوناني بعريه التام ، على الرغم من الطابع المصري الذي يميز التحقيقات الاولى . ويمكن تتبع تدرّج اكتماله في واقعه التشريحي ورشاقة قوامه ورقة عواطفه . في البدء — شأن الارغوسيين كليوبيس وبيتون ، وهما مثالا حب الوالدين في دلفي — كان الجسم ربعة والكتفان كتفي حمّال والذراعان قصيرين والبطن اصطلاحياً والركبتان كذلك ، والساقان مشدودين والعينان بارزتين . ثم دبّت فيه الحياة وتليّن وتنقّى ، ففقدت نتوءات عضلاته خطوطها الهندسية كما فقدت مفاصله ما فيها من تبسيط ودخلت عيناه في

حجاجيهما ، واستعويض عن الابتسامة الجامدة ، على شفاه « المراهق الأشقر الاثيني » وفي نظره ، بنوع من الحزن الحالم .

أما الطراز الثاني فهو المرأة الملتحفة التي أفضت الى مثال الـ « كورا » . وكان هذا الطراز قديماً ، كما يتضح من تمثال « سيدة أو كسير » المعمّاة أو إلهة ساموس ، « هيرا » ، بملابسهما الطويلة المشدودة التي تتخذ ، مع ذلك اشكال الانحناءات في الصدر وفي الظهر . ولكن الانوثة تبرز بقوة وتنتصر بغلبة ثم تعمدل حياء في وفرة تماثيل الفتيات التي انتصبت في قلعة أثينا منذ القرن السادس . غير ان نجاحاً نهائياً قد أحرز ، يؤيده علم يتقدم تقدماً مطرداً ، أعني به علم اشكال الجسم التي يتهدل على استداراتها الموزونة الـ « بيلوس » الطويل أو الغلالة القصيرة . ولكن هنالك علوماً أخرى لا تزال تتعثر في ترددتها . فكان الاهتمام بالزينة الزاهرة يفرض غنج الخضاب ، وتنوع الألوان في الالبسة وأقسامها المطرزة ، واحكاماً معقداً في مطاويها المتضادة الانحناءات ، والغنى في الحلى . ثم تنظّم هذا الاهتمام ، فغدت الالبسة اكثر تواضعاً في اللون والزينة ، وزاد فيها التهدّل ، وقلّت المطاوي ، وخفّت تجعد الشعر ، وأصبح الزي اقل صخباً منه في أيونيا . وحدث التبدل نفسه في الوجه حيث انخفضت الوجنتان وزالت الابتسامة المسايرة وحل محلها تحفّظ « الحاردة » الوقور : التي يرجّح انها غير حاردة ، على كل حال . فليس بعد من أمر مشكل : حتى ولو كانت هذه التماثيل مصمّمة بغية تمثيل الفتاة كنموذج للجنس اللطيف ، فإن لكل تمثال ، مع ذلك ، شخصيته الطبيعية والأدبية .

وهكذا فقد يكون الشرق الذي ساعد الخطوات الأولى ، قد وجّتها ايضاً . ولكن النقّاش اليوناني ، بتحريره جسم وروح الـ « كوروس » العاري ، وجسم وروح الـ « كورا » التي سينتهي خلفاؤه بتمريتها ايضاً ، قد قام بعمل يفوق مجرد تحسين التقنيات القديمة : فهو ، شأن الفيلسوف والعالم ، قد خضع لمثل أعلى جهله الناس تحت سموات أخرى .

طراً على صناعة الخزف ايضاً مثل هذا التطوّر الهام والحاسم . ولم يكن في صناعة الخزف الحقيقة ليتاح إلا للمعجزة تطوير زخرف هذه القطع السريعة العطب والمصنوعة من مادة حقيرة ، اذا نحن لم نعتبر ان الاهتمام التجاري ، حيالها ، منذ ان نمت الملائق البحرية ، قد رافق الاهتمام الجمالي . اما نتيجة الابتكار ومراعاة الذوق العام والتأثير عليه باستباقه أحياناً ، فكانت ، في احوال النجاح ، زيادة في المبيعات وخسارة للمنافس .

لم يعرف القرنان التاسع والثامن هذه المشاغل لأن التصدير ما زال خلاها على نطاق ضيق . غير ان وحدة العالم اليوناني قد ظهرت مع ذلك في المبادئ الزخرفية المشتركة : كان ذلك عهد النمط الهندسي . ولا يمت هذا النمط بأية صلة الى التبسيط الذي تسيطر فيه الاضلاع المنحنية كما درج في آخر العهد الكريتي وفي العهد الميسيني ، ولكنه يذكّر بوشي تتداخل فيه الخطوط والزوايا بحيث لا تترك مكاناً خالياً منها . أما روائعها فهي الأواني الكبيرة العائدة الى مقبرة

ال « ديبيلون » في أثينا ، التي تتعاقب على بطونها ، بين الخطوط المتقاطعة والمعينات والمثلثات واشكال الساعات الرملية والخطوط المعوجة والصلبان المعقوفة ، مشاهد لاشخاص عديدين ، مبسطين عن قصد لا عن خرق ، يتصفون بطول الساقين ونحافتها وبقوام الزنابير وجذوع مثلثة الزوايا ، ولأحصنة قوائمها شبيهة بقوائم الجراد الكبير وأعرافها منتفشة تليبات .

ثم ظهر ، في القرن السابع ، « النمط الاستشراقي » المعاصر لازدهار أيونيا وللأواصر الوثيقة بشرق غني بالزخرف التزييني وبالحيوانات والمسوخ ايضاً . فعالج الرسامون على الغرين المواضيع التي عالجها بقاشو المعادن على الذهب والعاج ، وهي مواضيع نباتية كالبردي والمان ، وخطوط متشابكة ورسوم وردية الشكل وخطوط حلزونية ورسوم سفوية الشكل ، وكلها مشتقة من الجذوع والازهار . وهي مواضيع حيوانية ايضاً بعضها خيالي كأبي الهول والعنقاء المغربية والتنين والحصان المجنح وبنت البحر ، وبعضها واقعي كالاسود والثيران والكلاب والخنزير البرية والأوعال والوز ، وكلها منقولة عن تقاليد الشرق الخفيفة ، فرسمت بخطوط واشكال أنيقة توافق نخيلة شعب لم تبد له الحياة بحيفة مهما كان من قساوتها . وما لبثت رسوم الاشخاص ان تسربت تدريجياً الى هذه المواضيع . فبرهن الخزافون الكورنثيون بنوع خاص ، عن مهارة كبيرة بابرارهم في هذا الفيض الزخرفي وبإظهارهم في اوضاع متنوعة وجميعهم في مشاهد مستوحاة من الميثولوجيا وبحفر شق حول رسومهم التي يصفون عليها بعض النتوء بواسطة بقع وخطوط حمراء او بيضاء . وهكذا سيطرت الخزفيات الكورنثية ، منذ اواسط القرن السابع حتى اواسط القرن السادس ، على اسواق حوض البحر المتوسط ولا سيما الاسواق الإيطالية .

بيد ان الاولوية انتقلت اخيراً الى اثينا ، المدينة بذلك الى فنانيين متميزين بالالتقان والحدق والابتداع . ويعود اشهر نجاحاتهم الاولى ، « اناة فرنسوا » ، الى السنة ٥٦٠ تقريباً ، وقد رسم عليه ، في عصابة دائرية يبلغ محيطها مترين وارتفاعها ستين سنتيمتراً ، مائتان وخمسون شخصاً ناشطين في اعمالهم وموزعين على مستويات مختلفة بتنوع مدّوخ . ويرمز اكتشاف هذا الاناء في اثروريا الى نهوض اثينا بمنافسة كورنثوس منذ هذا التاريخ . ولكن نجاح هذه المنافسة المستند اساساً الى الطريقة الكورنثية ، قد تركّز على قاعدة اثبتت متانة حين استخدمت ، منذ السنة ٥٣٠ تقريباً ، طريقة جديدة فرضت نفسها تدريجياً ، الا في نواحي اختصاص معينة . فبدلاً من الاشكال السوداء البارزة امام خلفية حمراء ، اعتمد البرنيق الاسود للخلفية واللون الاحمر للرسوم التي امكن ايضاح التفاصيل عليها بالوان اخرى . ثم اصبحت المواضيع في الوقت نفسه اكثر انسانية : فظهرت ، الى جانب الاساطير ، المشاهد العائلية والاعمال ومشاهد الحياة اليومية في الحقل والمدينة والريف . وهكذا احزرت اثينا اولوية ستدوم طيلة العهد الكلاسيكي . هنالك اوان لم تزين باي زخرف وقعها الخزاف الاثيني ، في المكان اللائق ، بزهو له

ما يبرره . وبما لا ريب فيه ان تقدم الصناعة الفنية يلفت النظر بتناسق ونبل وبراعة الخطوط الخارجية وبمميزة انواع البرنيق المستعملة . واذا ما ابتدأنا به إناء فرنسوا ، قبل غيره ، نرى ان الرسامين لم يترددوا في كتابة اسمائهم على مصنوعاتهم كما درج النقاشون على ذلك ايضا . ان توقيعهم لرمز صغير ولا شك ولكنه ذو مغزى رفيع : فالفنان يشعر بفخار بفرديته ويعبر عنها . يستلهم موضوعه بحرية ويحققه بأساليبه الخاصة لا بأساليب تقليد مفروض . وفي الواقع اخذت بعض الشخصيات ، منذ ذاك الحين ، تثبت اقدامها في هذا الفن السريع الذي بوجوب ملاحظة دقيقة ويذا بارعة على السواء . وليس من اتفاق العسدف ان يتوصل هذا الفنان المتحرر الى تحرير حركات الانسان الذي يرسمه والقاء الضوء على -الته النفسية ، بوضع حركة او خط من خطوط الوجه .

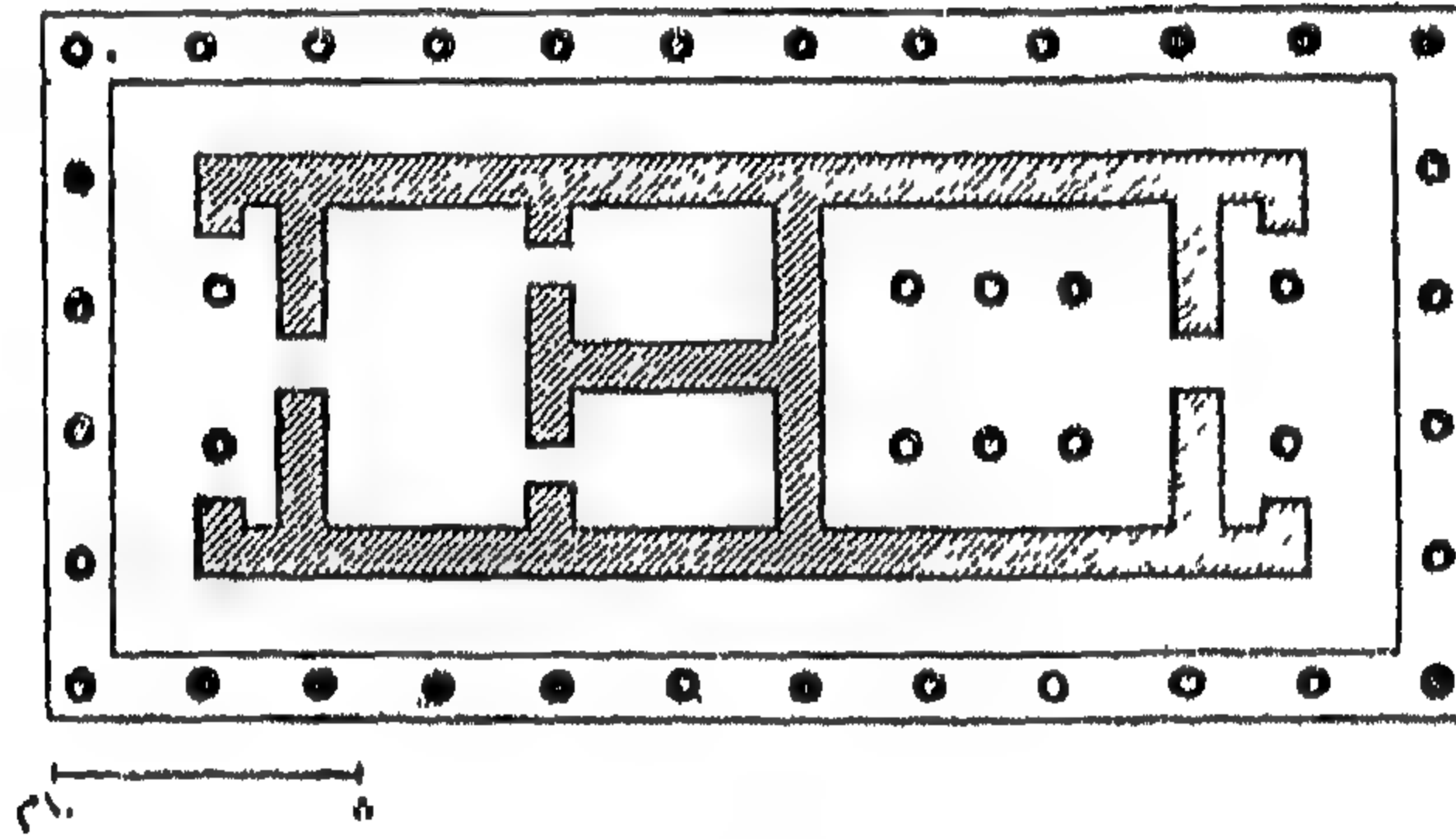
شق العهد القديم اليوناني اذن ، في كل نداء ، الطرقات امام الكلاسيكية التي مراكز الاشعاع ستليه . ولم يتوفر لاية حضارة ، حتى ذاك التاريخ ، ان تسير ، بمثل هذه السرعة ، في رحاب تطور على هذا الشمول ، كما لم يفتح لاية حضارة ايضا ان تحضر بمثل هذا التفوق ، وبمجاحاتها الخاصة ، بنجاحات المستقبل القريب : لم ينته شيء الى الكمال بعد ، ولكن اسس الكمال قد وضعت .

لم تتساو اجزاء العالم اليوناني في الاسهام بهذه التغييرات البعيدة القعر ، كما لم تتساو في الافادة منها . ولا تزال اكثر من منطقة ، في اوائل القرن الخامس ، جامدة في تأخرها ، قابضة في وديان لا يصل بينها غير مسالك البغال ، بعيدة عن التيارات الفكرية الجديدة . ولعب غيرها ، بفضل اتصال اوثق بالعالم الخارجي وظروف أكثر مؤاناة وخدمات بعض الافراد ، دورا متفاوتة اهمية واستمراراً . ولنجمع الآن حول بعض الاسماء ، ايجازا واستنتاجاً ، بعض المعطيات المبعثرة هنا وهناك في الصفحات السابقة . فمن شأن هذا التلخيص السريع ان يبين بوضوح مظهر آخر من « المعجزة اليونانية » لا يقل اهمية عن غيره ، اعني به تنوع الجهود ، ابن الحيوية والتلاحم ، في شعب لم يحل تفتته السياسي ولا منافساته الاقتصادية دون وحدته المعنوية . وقد سبق لنا ان اشرنا اكثر من مرة ، بهذا الصدد ، الى عمل المستبدن الشخصي ؛ وعلى الرغم من ان اغريق العهد الكلاسيكي قد جاهدوا ذلك وتنكروا له ، فان ما تدين به هذه الحضارة اليونانية لابعثيها الاول ، في غير اشكالها المادية ، لعظيم جداً . ولكن عمل المستبدن هذا ابعده من ان يفسر كل شيء لان مرحلة الحكم الاستبدادي لم تطبع بطابعها كافة المدن الهامة ، كما ان بعض المدن التي سيطر عليها هذا الحكم ، لم تجن منه اية فائدة ثقافية . فنرانا هنالك ، اذن ، مهما كان من تفوق الافراد ، امام واقع آخر هو اتحاد الشعب .

لمعت دورها ايضا المعابد التي شملت شهرتها اليونان : اولمبيا ودلفي لمجموع العالم اليوناني ، ودياوس للايونيين . فقد اسهمت هذه المزارات بقوة ، كما رأينا ، في نشر العباد القوى والموسيقى والشعر الغنائي . وكان هنالك علم الاخلاق اشتهرت به دلفي قرظله سقراط نفسه ، كما ان مؤلفين قدامى

كثيرين قد رأوا في ابولون العرّاف أحد المفضلين على الانسانية . وكان هنالك خاصة ، حول آلهة هذه المعابد ، تنافس المدن التقوي ، وقرابينها وابنتيها المختلفة ، التماثيل والاعمدة والمذابح و«المذاخر» بشكل معابد صغيرة ، التي شيدتها هذه المدن داخل الاسوار المقدسة . فغدت هذه الاسوار وبقيت ، حتى اليوم الذي هدمت فيه ، متاحف لم تتقابل فيها السخاوات فحسب ، بل الاذواق والمواهب ايضا . وعلى هذا الصعيد ، غدت العبادات اليونانية الشاملة سببا فعالا ، مباشرا او غير مباشر ، من اسباب تقدم الهندسة المعمارية والنقاشة .

بين مجموعات المدن الاقليمية ، في هذا العهد ، يجب ان نحل ايونيا في المرتبة الاولى . فكل شيء قد ساعدها لمدة طويلة ، لا سيما قربها من الشرق . فكانت بوتقة سكب الايونيون فيها من أنفسهم واخرجوا منها مزيجاً مضطرباً طرّقه وكيفوه لاستخدامات جديدة .



الشكل ٢٢ - معبد الهيكاتومبيدون في قلعة أثينا
يبلغ طول المعبد القديم (المشار اليه باللون الاسود) مائة قدم ، ولذا أطلق عليه اسمه . وسعه أثناء
بيسيستراتوس بأحاطته بالاعمدة .

اما في النطاق الفني ، فان اسهام المدن في صقلها وفي ايطاليا الجنوبية يوازن اسهام المدن الآسيوية . فكان النمط الدوري في الهندسة المعمارية والنقاشة ، من حيث الحياة والصفاء ، شبيها به في البابونيز نفسها . وتوجد اهم مصنوعات الميزة في بوزايدونيا (بيستوم) عند مدخل مقاطعة كمبانيا ، وفي سيلينونته على الشاطئ الجنوبي من صقليا . ولكن الغرب اليوناني ، خارج نطاق الفن ، لم يزل ، في اواخر القرن السادس ، في مستهل توسيع مكانه في الحضارة اليونانية ، فاقام فيه مؤسس مدارس الفلسفة الآتون من ايونيا .

وهاجر كثيرون في الوقت نفسه من ايونيا الى امكنة اخرى ، لان العهد الذهبي لليونان الآسيوية كان قد زال عند نهاية العهد القديم . ودخلت ايونيا في سبات عميق بعد الفتح الفارسي اولا ، بعيد منتصف القرن السادس ، وبعد قمع ثورتها ثانيا ، في اوائل القرن الخامس ، الى ان ايقظتها انتصارات الاسكندر . ولكن اليونان البلقانية كانت خليفة بان تحمل محلها .

كان النشاط قد دبّ فعلا في اليونان البلقانية . وليس باستطاعتنا هنا ان نحصي كافة المدن التي احتلت مقاما محترما في المجهود المشترك ، مع انه كتب لبعضها التواضع الدائم ولبعضها الآخر الالطحات والسقوط . فعلى الرغم مما يحيط بشهرة البيوسيين من ازراء مهين ، فقد كانوا يملكون سلسلة تماثيل ابولونية في معبد « ابولون بتيوس » ، كما كان لهم « بنداروس » ايضا الذي تعود اقدم « عرافاته » ، اكراما لاحد النبلاء التساليين ، الى السنة ٥٠٠ تقريبا . اما سبارطة التي سيغدو اسمها في وقت قريب مرادفا للشدة والحياة الضجرة ، فلم تنكش على نفسها قبل منتصف القرن السادس . فحتى ذلك التاريخ استقبلت الشعراء واستدعت المهندسين والصياغ الايونيين وشيدت الابنية المبتكرة ؛ وهي ستحافظ دائما على اعيادها التي تحييها بالرقص والغناء الجوي . وكان في سيكيوني وفي ايجينا اختصاصيون في صناعة البرونز ونقاشون مشهورون . اما كورنثوس ، وان كانت صبغتها اليونانية اقل صفاء بسبب الروابط التي شدتها الى الشرق ، — بعض السراري المقدسات تكرسن فيها لخدمة افروديت — فقد كانت لها صناعتها الخزفية ايضا . وليست هذه الاسماء سوى قليل من كثير غيرها : فلم يكن لليونان عاصمة ثقافية بعد .

مرد ذلك ان اثينا كانت حديثة العهد في هذا المضمار . فلم يدفعها الى الامام دفعا حاسما سوى الاستبداد الذي ساعدته في عمله هجرة الايونيين اليها في اعقاب استتباب الأمر للسيطرة الفارسية على آسيا الصغرى . فلبيسيستراتوس واولاده يعود توسيع معبد الـ « هيكاتومبيدون » القديم ، وتقدم صناعة الخزفيات التقني وانتشارها ، وتنظيم اعياد ديونيسوس ، ومباريات المآسي التمثيلية ، وتماثيل الفتيات العارية في قلعة اثينا ، ووضع النص النهائي للملاحم الهوميروسية . وبعد ابعاد آخر بيسيستراتوس في السنة ٥١٠ ، لم تحدد المدينة من وثبتها الى الامام بل وجهتها فقط في اتجاه اكثر استقلالاً عن الطريقة الايونية واكل انقياداً لها ، لاسيما على صعيد النقاشة حيث برزت مرة اخرى الحشونة الدورية . ولكن كل هذه الدلائل عديدة القيمة والاهمية لمن لا يقف على التطور اللاحق . فلا مجال بعد ، في آخر العهد القديم ، للكلام عن سيادة اثينا الادبية .

فحتى تتركز الحضارة اليونانية نهائيا وتقف في وجه الحضارات الشرقية ، وحتى تغدو اثينا مركز هذه الحضارة دون منافس ، يجب ان تحدث ازمة الحروب الميديدية .

الكتاب الثاني

المدينة اليونانية والانسان

حضارة اليونان الكلاسيكية (القرنان الخامس والرابع)

الحروب المديدة صراع بين عالمين خافضاً نغمته على غير تساو . فالامبراطورية الفارسية لم تمسك له كل قواها ، على الرغم من انها استهدفت من ورائه غير التوسع الاستعماري . اما اغريقى شبه الجزيرة فقد نوءوا وعياً ناماً ان مصيرهم يتقرر فيه . ولا يغالي أسشيل *Eschyle* حين يطلق هذا النداء الحار ، في يوم سلامين : « يا ابناء الاغريق ، اذهبوا ؛ حرروا الوطن ؛ حرروا اولادكم ونساءكم ومعابد آلهة آبائكم واجدادكم ؛ فانما القتال يقرر اليوم كل شيء » .

مهما يكن من الامر ، فان طرقي هذا الصراع امبراطورية واسعة الأرجاء من جهة ، ومدن غاية في الصغر من جهة ثانية ، عقدت بينها حلفاً سطحياً فرضه الخطر المداهم ما لبث ان تفككت غداة نصرها الذي يتحدى كل منطق . ومهما يكن من الامر ايضاً ، فإن حضارتين تتقابلان : الاولى عساه مع ان الجرح الذي أصابها ليس ببليغ ، والثانية تسير قدماً في وثبتها التي تتصف بالمزيد من القوة والسرعة .

انتصرت اذن المدينة اليونانية . فما عساهما فاعلة بدوتها ؟ أو ما هي ، بتعبير آخر ، علائقها بالانسان ؟ ان الجواب النظري عن هذا السؤال لا يرقى إليه شك : تحالف المدينة والانسان في سبيل تعاون متبادل على السراء والضراء ، في تنمية متوازية ، ولكن المعضلة في معرفة مدى مطابقة الواقع لهذا المبدأ النظري .

الفصل الأول

الشواذب الداخلية في الحضارة اليونانية المنتصرة

انتهت الحروب اليونانية بانتصار عسكري أتاح تفتح الحضارة
مندوحة الحضارة اليونانية
اليونانية الكلاسيكية . ويبدو التطور طبيعياً لنا نحن الذين
نستقرىء البراعم من خلال الثمار الناضجة التي احتضنتها هذه البراعم أملاً ووعداً . وكان من شأن
انتصار الفرس ، لو قُبِضَ لهم الانتصار ، ان يجمّد هذا التطور ، لا بفعل تعسف يلجأ إليه
خلفاء كورش عن قصد وعمد ، بل بمجرد ارتباط الاغريق بامبراطورية واسعة الأرجاء
يحكمها سيد اجنبي ، وبفعل الصعوبات البديهية التي كان من الطبيعي ان يوجد لها وضع لا يقوى
اليوناني على تحمله . ويكفي ، للاقتناع بهذا الرأي ، ان ننظر الى مصير اليونان الآسيوية خلال
سبعين سنة تقريباً خضعت فيها للامبراطورية الفارسية التي فتحتها في منتصف القرن السادس .
فهي قد كانت ، حتى هذا التاريخ ، مركز الحضارة اليونانية المشعّ ، وحافظت بعده ، في
المرحلة الاولى ، على بعض الحيوية والازدهار ، أقله في بعض أجزائها . ولكن ما لبثت انوارها
أن انطفأت ، بعد ثورتها التي قمعها الفرس بكل شدة . وسيصبح من المحتم عليها ان تلتظر
الاسكندر حتى تنهض من الضربات التي كملت لها حينذاك . وما كانت اليونان الاوروبية
لتعرف مصيراً آخر ، لو انها غلبت على امرها في سلامين وبلاطيا . فإذا كانت ، على الرغم من
حريتها ، قد مزقت نفسها بنفسها بفعل جزع كياناتها المتحاسدة ، فكيف نتخيل ما كانت
ستسببه السيطرة الأجنبية فيها من هزات وأضرار وتقتيل .

أما وقد نجت اليونان من خطر الاستعباد ، فانها استعادت وحدة نطاقها العنصري ، غداة
الانتصارات الحاسمة التي أحرزتها في الحرب الميدية الثانية . فانتزعت من الضغط الفارسي القسم
الساحلي الأهل بمواطنيها في آسيا الصغرى . وعاضدت هؤلاء في أسواق البحر الأسود وأتاح

لهم التوصل الى نوع من الاتفاق على الأقل مع سكان روسيا الجنوبية الأصليين . وسادت انتصار الزعماء المصريين على الملك الفارسي ، إذ ان انكسار المصريين لم يمنع مصر من ان تبقى مستقلة عملياً ومن ان تفتح ابوابها للتجار والرحالة اليونان . اما في المتوسط الغربي فلم يتدخل اغريق اليونان نفسها بقوة السلاح ، ولكن المستعمرات المؤسسة في العهد السابق قد توفقت ، على الاجمال ، الى ابعاد خطر الاعداء عنها . فردّ المستبدّون في سيراكوزا هجوم الساميين القرطاجيين على صقليا منذ السنة ٤٨٠ ، وهجوم الاترويين (الاتروسك *Étrusques*) بعد ذلك بزمان قصير في كمبانيا . واستطاعت مرسيليا ان تؤسس أسواقاً تجارية جديدة في سواحل غاليا واسبانيا ، أو ان تعيد تأسيس القديمة منها . فحافظت الحضارة اليونانية في كل مكان ، ان هي لم تتوسع بعد ذلك ، على أهم ما بلغته وحصلته ، وأبعدت عنه الخطر الاجنبي المداهم . واستعادت في كل مكان حرية حركاتها واستطاعت ، في القرن الخامس ، ان تتطور وفقاً لسنة مصيرها الخاص .

لم يخلُ مصير الشعب اليوناني ، بابعاد الخطر الاجنبي ، من الشوائب الداخلية . الحرية والتسلط
فبعد أن ترك الاغريق وشؤونهم ، نسوا أنهم مدينون الى اتحادهم بانتصاراتهم في الحرب الميدية الثانية . وبرهن السبارطيون الذين تسلموا ، باتفاق الرأي ، زمام القيادة العليا في اليونان البلقانية ، عن عزوفهم او عجزهم عن استثمار الانتصارات التي قادوا اليها ، خدمة للخير العام . فوقعت الوثبة الجسورة التي تقاعسوا عنها ، في آسيا الصغرى ومصر والبنوت ، على كاهل الاثينيين خصوصاً الذين حلّوا محلهم بعد خورهم . أما في صقليا وإيطاليا الجنوبية ، فإن سيراكوزا ، بعد ان خاضت المعركة الحاسمة ، لم تتوان قط عن متابعة السير فيها حين دعاها الواجب الى ذلك .

بيد ان هاتين المدينتين ، أثينا وسيراكوزا ، انهما أعطتا درساً في العمل الجاهد وكرستا له خيرة قواهما ، فإن غيرتهما على الخير الجماعي لم تكن منزهة وبجدة عن الغاية . فهما ، يجرهما وراءهما المدن التي يستهويها الصراع ، وبتخريب المدن المستعبدة ، وبمساندة تلك التي يهددها الاجنبي ، انما استهدفتا جمعها تحت ادارتهما لا بل ، قريباً ، تحت امرتهما . فأستتأمرات و نزعتا دائماً الى بسط المزيد من السيطرة عليها . فحلت محل السيطرة الأجنبية الزائلة سيطرة اخرى هي يونانية ولا شك في ذلك ولكنها تتناقل ويصعب تحملها يوماً بعد يوم ، بعد ان ان غلبت صفة التلقائية على الالتفاف الأول العام .

وحاولت مدن عديدة ، على نطاق اكثر تواضعاً ، ان تحقق لمنفعتها الخاصة ما حاولته أثينا وسيراكوزا على نطاق واسع . فالخلافت حول الحدود ، والاحتقاد بين الجيران والحسد التي انتهت أحياناً الى تصميم على التدمير ، كل ذلك لم يكن جديداً في العالم اليوناني . ولم يتوصل الخطر المشترك نفسه أحياناً لخلق هذه المشاعر ، فما عسى الحال ان تكون بعد ان زال هذا الخطر . لقد خلا الجو لمنافسات لا يمكن التكفير عنها .

استهدفت المدن اليونانية جميعها ، كبيرة كانت أم صغيرة ، مثلاً أعلى واحداً ، هو الحرية . ولكنها فسّرت هذه الحرية ، في آن واحد ، كاستقلال شخصي تام يفتت هذا الاتحاد الذي ، لولاه ، لخضعت لسيد أجنبي ، وكحق في التصرف بوحى احقادها وفي ارواء غليل أطباعها من مدن يونانية اخرى . وسيكتب احد المؤرخين اليونانيين فيما بعد ، ما يلي : « لا أدري كيف ان البلوبونيزيين ، وهم اكثر الناس ميلاً الى حياة هائلة انسانية ، كانوا في الماضي دون غيرهم تنعماً بهذه الخيرات ؛ ولكنهم ، كما يقول « اوريبيد » خاضعون أبداً للأعمال الشاقة والرمح في يدهم » . وأفضل تعليل في نظري هو انهم يهون كلهم السيطرة والاستقلال ، حتى انهم لا ينقطعون عن التعارك بعنف في سبيل النفوذ . ولا يصحّ هذا التفسير في البلوبونيزيين فحسب ، بل في كافة الاغريق ايضاً . « فاستهوا النفوذ والاستقلال » ، اي هذه الرغبة في امتلاك ما نريد ان نحرم منه الغير ، هو احدى الميزات الرئيسية في سياسة المدن اليونانية ، واحدى الميزات التي طبعت الى حد بعيد حضارة هذه المدن في القرنين الخامس والرابع .

كانت النتيجة المحتومة حروباً متعددة دائمة . فمنذ مستهل القرن
حالة الحرب حالة طبيعية
الخامس حتى السنة ٣٣٨ ، قضت اثينا اكثر من ١٢٠ سنة في
الحرب من أصل مائة وأربع وستين ، أي اكثر من سنتين من أصل ثلاث . ولم تعرف ، خلال هذه
المدة ، فترة سلم تعدت العشر سنوات .

لا شك في ان مثل اثينا قد يبدو خاصاً ومفرطاً اذ انها ، بتسلم قيادة الصراع ضد الفرس ، وبتأسيس امبراطوريتها ، قد تعرضت لشق الخصومات واضطرت لقمع الانتفاضات . ولكننا نرى ، اذا ما اخذنا الدور السياسي بعين الاعتبار ، ان هنالك نزعة عامة مماثلة على الاقل . اجل ، ليست هنالك بعد حروب تفرض على المدينة تعبئة جميع امكاناتها البشرية والمادية . فالمعارك لا تحصل عادة في فصل الامطار ، وكثيراً ما يقتصر المجهود الاثيني على تسليح خمسين مركباً حربياً تقريباً وارسالها لمدة اشهر الى البحر . ولكن هذا المجهود المحدود نفسه يؤدي عملياً مع ذلك الى تجميد هذه الطاقة وتدميرها البطيء أو السريع ، بفعل المخصصات التي تمنح الى عشرة آلاف بحار تقريباً يسحبون من نطاقات عملهم المنتج .

تقوم هنا اذن عقبة كأداء في سبيل النمو الطبيعي لحضارة لم تكن الطبيعة سخية عليها ، على كل حال . فقد كرّس الاغريق للتقاتل فيما بينهم قسماً كبيراً من القوى التي توصلوا الى تأمين استخداماتها الحثرة . ودفعوا بذلك ثمن الاستقلال الذي ما كانوا ، لولاه ، ليحققوا امكاناتهم الكامنة . ولكن هذا الثمن نفسه قد حال دون تحقيقها كلها او دون تحقيقها على النحو الضروري لتلقين الانسانية درساً فكرياً وفنياً ابهى من ذاك الذي لقنوها اياه .

لما كان للحرب هذا المركز الهام في حياة الاغريق ،
الحروب : الاساليب والخسائر بالادراج
اصبح من الواجب علينا ان نتصور ما كانت عليه حينذاك
وكيف تخاض وما هي النتائج التي أدت اليها .

يجب الانغالي في ما تجر اليه من خسائر بالارواح . فلم يكن بمكنة اية دولة يونانية ان تخوض هذه الحروب الطويلة لو ان هذه الخسائر بلغت ، بالنسبة للسكان ، الخسائر التي تبلغها الحروب المعاصرة . وليس مرد ذلك الى فقدان آلات التقتيل ، اذ ان القتل بجحد السيف أو بأسلحة الرشق ، ولو كان بطيئاً ، ليس بالضرورة عملية محدودة . فالسبب الرئيسي انما هو مفهوم المعركة وكيفية خوضها من جهة ، وعجز الدولة ، من جهة اخرى ، عن تجنيد كل الطاقات البشرية التي تستطيع نظرياً ان تتصرف بها .

ولكن يجب استثناء الحرب البحرية . فالرجال الذين يخاطرون فيها بحياتهم أوفر عدداً على وجه العموم ، لان البحارة ، وهم بالدرجة الاولى جذاфон لا عدة لهم ، يجندون من الطبقات الاجتماعية الدنيا . ثم ان المركب الحربي المعتمد في هذه الحرب مركب ذو ثلاثة صفوف من المجاذيف يبحر بالبرشاقة ، وقد زود في مقدمته « بمهاز » برونزي يحاول البحارة بواسطته شق مركب الاعداء . واذا ما حصل ذلك ، يغدو مركب المركب المبقور في الماء لا زوارق نجاة لديهم ولا امل عندهم سوى التعلق بالحطام العائم . واذا قدر لهم النجاة من القتل بضربات المجاذيف ، يتركهم لمصيرهم كل من الهاربين على غير هدى المغلوبين على انفسهم ، والمنتصرين الذين يعنون ، أول ما يعنون ، برفاقهم الاحياء والاموات . واذا ما هبت ريح هوجاء ، كثيراً ما تحدث الكارثة حتى للأسطول المنتصر الذي تتعطل مراكبه وتتحطم مجاذيفه وينهك بحارته فيذهب طعمة للعناصر الثائرة . فالحرب البحرية والحالة هذه اقتتل من الحرب البرية .

طيلة الشطر الاكبر من هذا العهد ، ووفقاً لسنة المعتقدات الدينية والشرف الحربي ، كما تمشت عليه خصوصاً الدولة العسكرية الاولى ، لا كيديون ، نظر الاغريق الى الحرب نظرتهم الى المباراة . لا ريب في ان تصادم جيشين متواجهين صفوفاً متعددة على حبهتين متوازيتين يسفر عن ضحايا كثيرة بفعل عناد المتحاربين وشجاعتهم التي تشيد بها الكتابات المدفنية والخطب .

ولكن ما ان تحرق الجبهة ويختل توزيع الجنود المشتركين في المعركة حتى يولتي المغلوب هارباً ، بينما لا يحاول المنتصر مطاردته . فعلى المنتصر الباقي في ساحة المعركة واجبات اكثر الحاحاً من استثمار النصر استثماراً عسكرياً سريعاً : عليه ان يشكر للآلهة نصرتهم وان يقوم نحو الاموات بالواجبات الاخيرة . فكما ان المصارع الرياضي الفائز يكرس تاجه للإله ، كذلك يعبر الجيش المنصور عن شكرانه بالاناشيد وتقديم الضحية وجمع اسلحة العدو افتخاراً بالغلبة ، ويجمع جثث موته ويحتفل بجنائزهم احتفالاً يليق بنهايتهم البطولية . وعلى العدو ، اذا سلمت نيته ، ان يخضع لحكم الآلهة ويعترف بكسرتة ويلتمس هدنة لمسع موته واستلامهم .

ولكن هذه الاساليب غير ذات فعالية . فالهاربون يلجأون الى اقرب مركز محصن يستطيعون الدخول اليه ويتجمعون فيه ويستعيدون قواهم بسهولة ، لا سيما وان الوسائل التقنية في ذاك العهد لا تسمح بفرض حصار قوي وان أقل سور يوقف افضل الجيوش طيلة اشهر كاملة . ويعتمد

المحاصر عملياً على المجاعة بنوع خاص ، عندما لا يجد خونة يسلمونه قسماً من السور . أجل قد تستنفد مؤن المحاصر ، ولكن مؤنه تستنفد ايضاً ، ولا مجال للاستعاضة عنها بحصيلة غزو الارياك المجاورة . وتنتشر الوبئة بين الجنود المعسكرين في الهواء الطلق . ويقرب فصل الامطار أو تشق النجذات طريقها الى العدو . فيتوجب رفع الحصار ، اذا كان قد فرض ، ويجب العودة على البدء في السنة التالية .

يتضح ان حرباً على هذا الغرار ليست على الاجمال دامية جداً . اما ما شذ منها عن هذه الوتيرة وعمل في قلب المعاصرين ، فمرده الى ظروف خاصة . من ذلك ان الاثينيين منوا بنكبة في صقليا في السنة ٤١٣ ، لان الجيش الذي قادوه حتى سيراكوزا لم يتمكن من النزول الى البحر للعودة الى اليونان . ومن ذلك ايضاً ، في السنة ٣٧١ ، ان اربعمائة مواطن سبارطي من أصل سبعمائة مجند ، ومن أصل ألفي رجل باقين على قيد الحياة ، قد استهاتوا باجمعهم في لوكترا ضناً منهم بالشرف القومي الذي يحظر عليهم الهرب والاستسلام .

بيد ان تحولات جذرية سبق وطرات على الحرب اليونانية في لوكترا وحتى قبل ذلك في السنة ٤٢٤ في ذيليون حيث أفني ألف هوبليت أثيني من اصل سبعة آلاف . وتزداد هذه التحولات وضوحاً مستمراً في القرن الرابع الى ان تصبح إلزامية في ايام فيلبوس المقدوني وابنه الاسكندر بنوع خاص . فيذمحل إذ ذاك التقيد بالمصطلحات التقليدية أمام الرغبة في فعالية تؤمن النتيجة . فتثبت المناورة المرنة تفوقها على تصادم جبهتين متواجهتين ؛ وتفضي أحياناً الى التطويق ، أي الى تدمير قسم من الجيش المكسور في ارض مكشوفة . ثم يطارد الفرسان الهاربين بعنف ويقضون عليهم او ينعمونهم على الأقل من جميع شملهم . واعتمدت فيما بعد الآليات الفسحة المتقنة التي استخدمها دونيس السيراكوزي لأول مرة ضد القبطاجيين ، فأماحت فتح ثلم في الأسوار ينقض منها المهاجمون .

استهدفت الممارك البرية منذ ذاك التاريخ لا اثبات التفوق على العدو فحسب ، بل افناء قواته المنظمة ايضاً ، فكانت النتيجة ان مني المغاوبون بخسائر بالارواح أفدح منها في السابق . ففي خير وذا مثلاً خسر الاثينيون ، وكان عددهم عشرة الاف ، تقريباً ، ألف قتيل . وألف أسير ، مع أنهم لم يحملوا عبء المعركة الثقيل . ولكن المارد ، بتحولها الى تصادم حاسم يجعل أحد طرفي النزاع تحت رحمة الطرف الآخر ، قد ادسجت بالفعل نفسه بالغة السرعة : لم يضر شهران مثلاً على الاعمال الحربية مع أثينا ، وسنة على الاعمال الحربية مع طيبة ، حتى استطاع فيلبوس ، بعد انتصاره الخاطف في خيرونيا ، فرض سلطته على اليونانيين بأسرها . ولذلك يجوز القول ، بعد كل حساب ، ان حملة عسكرية منفردة ، في سربها هي إحدى مراحلها ، قد تؤدي بالنسبة للحرب كجموع الى خسائر أكثر فداحة .

تسبب الحرب ، مع ذلك ، المزيد من الدمار والويلات الفظيعة .
الحرب : قانونها وويلاتها
عرفت القدماء وطلبوا قانوناً يقضي بنقل السيادة المطلقة الى المنتصر

بمجرد انتصاره . وحين قام الخطباء الاثينيون يناقشون فيلبوس ويزعمون التمييز بين واقع الاحتلال والحق الشرعي بالملكية ، لم تنطل مغالطتهم على احد . وليس هذا التمييز ، اقله فيما يعود للأرض ، بتقديم العهد في حقوق الشعوب المعمول بها حالياً . غير ان الملكية في التاريخ القديم تتعدى الارض نفسها : فالمنتصر يغدو السيد بمجرد انتصاره ويصبح له الحق بالتصرف المطلق بالاشخاص والممتلكات المادية في البلاد التي يحتلها ، بمكنته التقتيل والهدم والحجز والاستهلاك والبيع على هواه . ومن حقه المشروع تقويض الابلية واحراقها دونما عذر أو حجة ؛ ولا يجدر به ان يحترم سوى الممتلكات المقدسة لان الآلهة يعاقبون الكافرين . اما الكائنات البشرية ، فمن حقه المعترف به ، نظرياً ، ان يفنيها دونما تمييز بين جنس وجنس وبين سن وسن . بيد ان فتلانة مثل هذا التقتيل الذي لا يجر اي مغنم تحول دون الاقدام عليه . ولكن استعباد المغلوبين طريقة أقل شذوذاً يسهلها وجود تجار يلحقون بالجيوش ويشترون الاسلاب ، بما فيها الاسلاب البشرية ، ويؤمنون نقلها الى اسواق خاصة . ويعني هذا العمل بوضوح ايضاً ، من حيث المبدأ ، حتى الناصر الكامل على كل ما استطاع الاستيلاء عليه من اشخاص واشياء .

أما عملياً فنادراً ما يطبق قانون الحرب هذا بحذافيره . فالمدن المفتوحة عنوة ، بعد مقاومة دويلة او غارت صدر المعاصرين غيظاً ، هي ذحايا الحروب العادية ، وقد سبق ورأينا ان عددها ليس بالعدد الكبير . ولكن هذا القانون واقع قائم ، ويكفي ان يلجأ اليه احد المتحاربين حتى يحتذي به الثاني ، عند أول فرصة ، ثاراً وانتقاماً . وهناك ظرف واحد على الأقل يطبق فيه هذا القانون بصورة عادية ، اعني به ظرف اسرى الحرب الذين يلتظرون الاستعباد كمصير طبيعي . وليس سوى اقامة السلم ما يُلجج لحكومتهم تحريرهم بتبساط ادل الاسرى ، أو لاهاليهم واصدقائهم بمحاولة اقتدائهم بالمال . واذا ما فكرنا بفدبة الاسرى التي استمر العمل بها حتى القرن الثامن عشر ، لن تدهشنا هذه الذهنية كثيراً . وعليهنا ان نعيد لهذا القانون مفهومه النظري غير المحدود وتطبيقه العملي الواسع جداً ، حتى نقف على مدى الولايات التي سببتها الحرب في العالم اليوناني الكلاسيكي .

بيد ان المحارب ، الذي يبقى في منأى عن الغزو لا يمتنى بخسائر كبيرة نسبياً ، مع انه يعرض بدموعه عن نفقات جيشه ولا سيما عن المعجز في الانتاج بسبب فقدان اليد العاملة الجعنة . امسا المغنم فالقسم الاكبر منها يندرج تجديراً ، ويصيب ان يقتطع من القسم الباقي القربان الواجب تقديمه للالهة الذي نريد من اهميته ، ما بعد يوم ، رغبة في النفوذ والدعاوة . وبادراً ما تنتهي الحرب بالربيع من الوجهة المالية . وان تصبغ الحرب مسافة رابحة مثلاً إلا بقيادة الاسكندر ، الذي ينقلها الى بلاد مردهر ، سيطرته على ثزون الاموال . فمبارطة التي طالما احرزت الانتصار تلو الانتصار لم تكن اثر ذات قبل ، وكل ما حقيقته من هذه الانتصارات انها استطاعت تأمين الانفاق على جيود جيشها الذين هم موادلها . ا ، دون ان يقوموا الى جانب الجنائية باي عمل مأجور . ولم تستطع ائينا ذلك ، بعد قمعها ثورة ساموس ، ان تستعيد مسسا انفقته ، على الرغم من تعويض

حرب فرضته عليها واستوفته طيلة خمسة عشر سنة تقريباً . اجل ، قد اتاحت لها قوتها ، من جهة ثانية ، تأسيس امبراطورية غدت خزانتها وأثرت تجارتها . ولكن هذه الامبراطورية لم تعمّر طويلاً .

اما الاراضي التي يحتاجها العدو فتعاني الأمرين . وليس نصيب الارياف ، على الصعيد المادي ، سوى نهب المحاصيل أو اطلاقها وتحطيم الاشجار المثمرة وتدمير الابنية . اما في المدن ، حيث يلتجئ الفلاحون وراء التحصينات ، فتفتك الاربطة والحرمانات بالسكان ، حتى ولو لم يتعرضوا في النهاية لهجوم المحاصرين . ثم ما هي المدينة اليونانية التي لم تنقلب عليها الحرب في يوم من الايام يا ترى ؟ فقد اضطرت سبارطة نفسها ، التي طالما تباهت بانها تنقل الحرب الى البلدان الاجنبية وبان اسوارها الوحيدة هي صدور ابنائها ، ان ترضى صاغرة ، بعد هزيمة لوكترا ، بان يحتاج الطيبون اريافها الخصبة حيث يحرق الصعاليك اراضي مواطنيها . ولذلك يمكن تلخيص مأساة اليونان الكبرى بانها لم تستطع ، بسبب الاعمال الحربية المتسلسلة ، تأمين الاستقرار الهائىء لفلاحيتها .

كان فلاحو اليونان ، من جهة ثانية ، قوام محاربيها ، اقلته في الجيوش
التجنيد : مبدأ رواقع
البرية . فقد حافظ جيش المشاة ، كما سبق ورأينا ، على مكانته كملك
المعارك التي احتلها في العهد القديم . وكان الهوليت أبدأ الجندي المثالي في هذا الجيش ، يجند ،
بصورة خاصة ، من طبقة المالكين الصغار الذين يزاوون بانفسهم حراثة اراضيهم .

لا ريب في ان مبدأ الخدمة العسكرية للمواطن ولكل رجل يقيم في مسكن ، حتى الاجنبي ،
كان مقررأ ومعترفاً به في كل مكان . فكل رجل سليم البنية اذن قابل التجنيد . وكانت من
الممكن بالتالي ان تنظم جيوش اوفر عدداً وان تشمل التعبئة النبلاء انفسهم في حال فرضها على
كافة الطبقات الاجتماعية . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث عملياً بسبب رسوخ التقاليد وسعجز المدن
في الموارد المالية .

استلزمت الخدمة المجدية في فرق الهوليت المشاة تربية عسكرية سابقة وخدمة حربية .
وكانت هذه العدة ، بالاضافة الى ذلك ، من ثقل الوزن بحيث يصبح من المرغوب فيه ، لا بل
من الضروري أحياناً ، ان يعاون الهوليت خدام شخصي ، يغلب ان يكون عبيداً ، في حمل
اسلحته اثناء المسير وفي تحضير وجبات طعامه . وقد استلزم كل ذلك حداً أدنى من أوقات
الفراغ والبجوبة ممكنة من توفير بعض المال ومن تحمل بعض التضحيات المالية المباشرة وغير
المباشرة . ولم تكن المدينة لتساعده في الظروف العادية ، عامدة ، بسبب فقرها ، الى رواسب
المبدأ القديم الموروث عن الدولة الارستوقراطية الذي بوجب على المحارب شراء اسلحته وتحمل
نفقات غذائه نفسها في أغلب الاحيان . وقد كان من الضروري انقضاء عبيدة عشرات من
السنين ، بعد الحرب الميدية الثانية ، حتى تقدم أثينا ، اكثر المدن ديموقراطية ، على اعطاء مثل
لم يتبعه غيرها إلا ببطء ، في التعويض جزئياً ، عما يتحمله جنودها من نفقات

وعما تحرمهم خدمتهم من ربح . ولكن دولة واحدة لم تفكر يوماً بالتعويض على الفتيان
اثناء مرحلة تمرينهم المختصر على دورهم العسكري المقبل ولا بالمساهمة في شراء العبد المعاون ،
حتى ولا في تأمين العدة للهوبليت ، إلا في حالات الخطر المدام التي تضطرها الى تعبئة اكبر
عدد من المحاربين . وانما سبارطة وحدها حلت هذه المعضلة المالية حلاً غير مباشر بأن أمنت
لمواطنيها امتلاك الاراضي وخدمة الصعاليك ، بفضل فتوحاتها واجهزة امنها .

يستنتج من ذلك ، ان الفقير مدعو للخدمة وطنه كجذاف في الاسطول البحري أو
كجندي في فرق المشاة الخفيفة مزود بعدة بدائية . فهو لا يملك المال اللازم للحصول ، لا على
الرمح والسيف فحسب ، بل على الخوذة والدرع والترس والمسامي التي هي قوام عدة الهوبليت .
وهكذا فإن طبقة سفار المالكين تمثل على العموم الطبقة الوسطى التي تقدم أوفر عدد من الجنود ،
الى جانب المدن حيث يفضي النشاط الاقتصادي الى ايجاد طبقة من ذوي اليسار .

امام هذا الوضع ، لم يزل فيه بعض المعاصرين ، ولا سيما الفنيين منهم ، سوى الحسنات
دون غيرها . ودرج التسليم بأن الفلاحين الناعمين بملكية بعض الاراضي يقدمون افضل الجنود .
فمن الناحية الجسدية ، تختزن الحياة الريفية اجسامهم وتدريبهم على التعب والأسفار الطويلة
والعيش المتقشف ، وتتعمد خفتهم بممارسة القنص . ومن الناحية المعنوية يشرك امتلاك الاراضي
المصلحة الخاصة بالمصلحة العامة . فالذي لا يملك شيئاً يذود عنه لن يحارب بعنف من يخاطر ،
ليس بشخصه وعائلته فحسب ، بل بالامتلاكات التي توفر له الحياة في الاستقلال الاقتصادي والتي
يشده اليها العناء الذي يبذله في سبيلها يومياً . ومن شأن قانون الحرب واعرافها ، وهي أشد
صعوبة على الريفيين منها على المدنيون ، ان تجعل الفلاح يعي بسرعة حقيقة ما يدور حوله الصراع .
« تدفع الارض الفلاحين الى الذود عن بلادهم بقوة السلاح لان ثمار حقوقها تحت رحمة الاقوى ...
لنفترض ان الاعداء يغزون البلاد ولنقسم الفلاحين والصناعيين الى فئتين ولنسأل هذه الفئة وتلك
على التوالي عن رأيها في الدفاع عن البلاد المنبسطة أو في التخلي عن الارياف والحفاظة على
الاسوار . في هذه الحال ... لا شك في ان الفلاحين يقاتلون للدفاع عن الارض ، وان الصناعيين
يقررون العزوف عن الحرب والاستمرار في عطلة عمودها في منأى عن المتاعب والمخاطر » .

من شأن هذه التأكيدات التي ينسبها كسينوفون الى سقراط ان تثير ابتسامة من يمين التفكير .
كل حضارة مدنية لعاداتها وحالاتها الاجتماعية وتقنياتها أو مفاهيمها العسكرية بمشال للجندي لا
تترد في مقابلته بضده . فيقابل الجندي بالفلاح ، والبربري بالمنحط ، والفارس بالمشاة السمجين ،
والابن الضال بأبي العائلة ، والاختصاصي في الآليات بالصناعي المتمرن . وهي أبداً تجعل من هذه
المقابلة مبدأ تسمى وراء نقله الى الصعيد الادبي . فكسينوفون يقتصر على اعطاء شكل منطقي لما
كان في ايامه واقفاً راهناً فقط : فلاحون من ذوي الاملاك الصغيرة يقدمون القسم الاكبر من
الجوش اليونانية التي كانت في غالبيتها نوعاً من « الميليشيا » المدنية . اما سبارطة فلا ينطبق

عليها هذا القول ، لان مواطنيها جنود مهنتهم الجندية من حيث انهم لا يحزثون الارض ولا يارسون اية مهنة اخرى على كل حال . ولكن نسبتهم تتدنى رويداً رويداً حتى تصبح قلة نادرة في الجيوش التي يطلق عليها اسم « السبارطية » والتي هي في الواقع جيوش بلوبونيزية مشككة من فرق المدن الحليفة او التابعة التي يغلب فيها العنصر الريفي . وهذا يعني انه لم يكن باستطاعة اية دولة يونانية ان تتعهد جيشاً كافياً من المتهنين . ولذلك فكل الدول مضطرة للجوء الى الطبقة الوسطى من مواطنيها ، أي الى فلاحها الاشداء القادرين على التسليح وتحمل مشاق الحملات العسكرية والمستعدين لبذل حياتهم ذوداً عن ممتلكاتهم ووطنهم على السواء .

غير ان هذه الطبقة ، والحالة هذه ، هي التي منيت بافدح الخسائر في الارواح ، لا بل ان تكرر التجنيد ، بفعل تكرر الحروب ، قد اعاق هؤلاء الفلاحين الصغار في استثمار اراضيهم ، لا سيما وانهم اعجز ماليّاً من ان يؤمنوا كفاف يومهم دون ان يجهدوا بقوة سوايدهم وعرق جبينهم . فأفضت القومية التي لا تلين في المدن اليونانية ، هنا أيضاً ، الى خلخلة التوازن الاقتصادي والاجتماعي القصيم الذي كان مرتكزاً لحضارتها في ازهى عهودها .

هنالك سيئة اخرى ، ملازمة للذهنية اليونانية على ما يبدو ، حالت دون . . .
الثورات الدائمة
إثمار هذه الحضارة إثماراً كاملاً : تعدد الحروب الاهلية في المدن .

بيد ان الحرب الاهلية ، طيلة الشطر الاكبر من القرن الخامس ، لم تضم ويلاتها الى ويلات الحرب مع الاجانب . فقد عرف العالم اليوناني بأسره حينذاك ، بعد ان حُرق شر تمزيق في داخل الكثير من مدنه ، هدوءاً نسبياً استمر نصف قرن تقريباً . فما هو تعليل هذه الاستراحة المعبرة في وقت توقف فيه النشاط الاستعماري وضؤل عدد المرتزقة الذين كانوا بمثابة دواء وقائي اثر الازمات الاجتماعية الخطيرة ؟ ليس تفسير ذلك ، في الحقيقة ، بالأمر اليسير . غير اننا نرجح ان الطبقات الاجتماعية الدنيا قد عرفت مصيراً اقل حقارة ، وذلك لاسباب وبوسائل نجهاها .

لكن هذه الاستراحة ، التي لا شك فيها ، تبقى قصيرة الامد ، اذ ان النزاعات الداخلية في المدن تعود الى الظهور قبيل الربع الاخير من القرن الخامس . ويقوم في الاساس من هذه العودة الصراع بين مذهبين سياسيين ، حكم الاقلية وحكم الشعب (اوليغارشية وديموقراطية) ، تمثلهما وترمز اليهما وتساندهما المدينتان المتنافستان ، اثينا وسبارطة اللتان انتصبتا في حرب البابونيز الواحدة ضد الاخرى وارغمتا عملياً كافة المدن اليونانية على الانتصار لهذه او تلك منهما . ولكن النزاعات السياسية ، شأنها في القرون السالفة ، تعبر ، بخطورتها واستمرارها وشو لها ، عن نزاعات اجتماعية اكثر عمقا . فانصار الاوليغارشية وانصار الديموقراطية انما هم ، اجمالاً ، الاغنياء والفقراء . ولاسباب غير واضحة ايضاً ، استصعب الفقراء حياتهم من جديد فحلموا بالبلبة والانقلابات .

بعد ان عاد الانشقاق الداخلي الى الظهور ، لم يعرف الى الهدوء سبيلاً ، لا بل انه ازداد مـ . . .

الايام تأزماً وخطورة . فسيطرت الحرب في القرن الرابع سيطرة شبه دائمة ، لا على حدود المدن فحسب ، حيث لم تزل قائمة منذ زمن بعيد ، بل في داخل كل مدينة ايضاً . وقد حدث حينذاك ان المدينتين اللتين تلفتان الانظار ، أثينا وسبارطة ، قد عرفتا سلماً مدنياً غير كامل على كل حال . ومن حيث ان هذا السلم قد ادت اليه ظروف خاصة جداً ، يجب علينا الا نغرر نفسنا به . اما المعاديات حول المدن الاخرى فمن الوفرة بحيث تكفي للدلالة على وجود نزعة عامة على الاقل ولاستعادة « مناخ » الامواء الشائرة فيها .

في الظروف العادية ، تعتمد الاحزاب المتخاصمة - التي قد تتقاتل احياناً - الى فرض الابعاد . ويرافق الابعاد الطوعي والقسري حيز ممتلكات المغلوبين وتوزيعها على المنتصرين او بيعها لمصلحة الخزانة العامة . ولكن عضد الاجنبي ، اذا لم يكن من عضد غيره ، لا بد ان يتيح للحزب المغلوب ، في يوم من الايام ، ان يستعيد السلطة . وعندما يبتسم الحظ ، يعرض المبعدون عما خسروه بممتلكات خصومهم ويحاولون استعادة املاكهم ايضاً . وليست هذه الاستعادة بالأمر العسير للأملاك التي انتقلت الى أيدي الأعداء أو تلك التي لم تبهرها الدولة . ولكنها ، تصبح من المعسوبة بمكان للأملاك التي بيعت أو رهنّت أو انتقلت الى شخص ثالث مهراً أو هبة بموجب وصية . ولذلك ، فإن كل ثورة سياسية تستتبع سلسلة لا حدها من الدعاوى والمنازعات . واذا لم تتوفر الاموال للتعويض عن الاضرار الحاصلة ، يغدو الوضع مستغلقاً لا سبيل الى الخروج منه سوى القوة . واذا ما استخدمت القوة ، تدمر الحرب الاهلية الى ما لا نهاية لها بصورة شبه حتمية .

هدد الخراب اذن الأملاك الموروثة عن الوالدين حتى تلك التي لا شأن لها . وأفنست تقلبات ونتائج الحرب الاهلية الموضعية الى ارتفاع عدد البائسين المبعدين عن وطنهم أو العاجزين عن أن يجدوا فيه أودهم وأود عائلاتهم . فانضموا الى عداد من أفقرتهم غزوات الجيوش الأجنبية ومن تلتهم بهم طبيعة ارض اليونان القاسية الى العوز والفاقة اذا لم يتم - مدد النسل بحكمة . فانتشر الفقر باستمرار ، وقد زاد انتشاره ، وهو معاول وسلة معا ، في خطورة عمليات المعضلة الاجتماعية التي تضاعف حدتها تنافس الاحزاب . وبانتظار معجزة او ثورة تنشلان المعوزين من هذه الضائقة ، لا يبقى امام سوادهم الأعظم غير مورد الخططرة بحياتهم تأميناً لنسب ورياتها .

وهكذا يطل مرة ثانية الارتزاق الذي ما كانت اليونان لتعرفه عملياً ، وعلى نطاق واسع ، منذ اوائل القرن السادس . وتبرز الحلالاته ابان حرب البابونيز ؛ ففي الأساطيل خصوصاً ، أتاحت له الامدادات الفارسية ، في السنوات الاخيرة من هذه الحرب ، اتساعاً كبيراً ، اذ ان اولئك الجناديين الذين تجعلهم زيادة أجر هزيلة ينتقلون من المراكب الاثينية الى المراكب اللاكيدونية ليسوا في الحقيقة سوى طغيات المرتزقة . أما في ما يتعلق بالجيوش البرية فمعلوماتنا

القليلة لا تسمح لنا ببدء رأي صريح . غير ان نهاية الحرب تليها ، بعد فترة قصيرة ، الحملة التي تقود « العشرة آلاف » الى بلاد بابل اولاً ثم الى شواطئ البحر الأسود والتي يسرد وقائعها كتاب كسينوفون المعروف بـ « أناباسيس » . فما من ريب ان هؤلاء العشرة آلاف ليسوا جنوداً مواطنين قدماء فقدوا مذاق الحياة المنتظمة . فسكن بينهم من رواد المغامرات الذين تركتهم نهاية الاعمال الحربية دون عمل ؟

ثم يتسع الارتزاق بعد ذلك باستمرار بحيث يتوجب علينا ، تعليلاً لانتشاره المدهش ، ان نفكر بالمصادر العديدة التي استطاع التزود بالرجال منها . لا شك في ان الابداح السياسي مصدر هام من هذه المصادر . غير ان المبعدين ليسوا جميعهم بحالين للمهنة العسكرية التي تعرض بعضهم للصفات الجسدية . كان الاسكندر بين السنين ٣٣٤ و ٣٢٨ قد جند تحت امرته قرابة ١٥٠٠٠ مرتزق ، وأقام منهم ٢٥٠٠٠ في المدن الحديثة التي أسسها . وشهد عدم غيرهم في امكنة اخرى ايضاً ، في صقليا وفي ايطاليا الجنوبية مثلاً . ولكن هذا « البزل » من مجموع المنفيين لم يندرج مع ٢٠٠٠٠ مبعدين الاجتماع في اولبيا في صيف السنة ٣٣٤ حين شاع الخبر بان أحد موفدي الاسكندر سيذبح فيها امراً صادرأ عن الملك . وموجه لادارة المدن بفتح ابوابها للمبعدين . فيتضح من ذلك ان هنالك واقعاً اجتماعياً ذا أهمية كبرى ، هو احداث افسات اليونان طيلة القرن الرابع .

أضف الى ذلك ان وجود المرتزقة الكثيرين المستعدين للدخول في خدمة من يدفع اجراً اعلى او من تسمح لهم شهرته ان ينتظروا منه السخاء والنظام المرن والنصر والغنيمة ، لم ينعكس عن اعراف سياسية فظة وعن وضع اجتماعي غير مستقر فحسب ، بل انه في تعميق الحرب ايضاً ، لأن الحرب أصبحت ممكنة بالمال اذا لم يتوفر له بالرجال ، وفي جعلها اكثر تدميراً وتخريباً لأن المرتزقة لا يميلون ، من طبيعتهم ، الى مراعاة جانب المدنيين غير المبعدين معها كانت جلسيتهم .

يتضح من ذلك ان اليونان قد غذت في أحشائها أحقاداً دائمة الجياح . فافست المنافسة ، التي ألتهها الشاعر القسديم هيزيود بشخص « ايريس » ، الى البغضاء التي أفسدت بدورها الى التقتيل والتدمير . أجل ، قد تكون الروح اليونانية مدينة لها بقسط من وثبتها المتأججة . ولكن الاغريق قد حرموا ، بسببها ، حسنات السلم والطمأنينة والاستقرار .

بيد انهم ، على الرغم من ذلك ، قد انتفخوا بحضارتهم ، خلال القرنين الخامس والرابع ، الى طور النضج . فلم تعقها هذه الظروف المعاكسة ، في ارتقاها ، بقدر مما عجلت زحفها ، بجرمانها من الاستقرار .

الفصل الثاني

المثل الأعلى والوقائع السياسية

لن نغالي قط في الكلام عن أهمية الـ « بولس » *Polis* ، أي المدينة ، لأنها في الأساس من هذه الحضارة ، لا تكون إطارها فحسب ، بل تعطىها ميزاتاً الرئيسية أيضاً. فالحضارة اليونانية الكلاسيكية ، بجوهرها ، حضارة البولس ، وقد نضج نسفها حين عجزت المدينة عن التغلب على الصعوبات السياسية الداخلية والخارجية التي واجهتها وعن ارضاء نزعات مواطنيها .

١ - سيادة المدينة

المدينة هي بالضرورة دولة محصورة الرقعة . ولا أهمية لهذه الرقعة في تحديدها. المدينة
فهي ، في جوهرها ، المواطنون ، الشعب ، الـ « ديموس » . ولم تأت الكتابات La città
الرسمية في يوم من الأيام على ذكر « أثينا » أو « لاكيديمون » أو « الجمهورية الأثينية » أو الجمهورية « اللاكيديمونية » ، بل اقتضرت ابتداءً على « الأثينيين » أو « اللاكيديمونيين » ، « مدينة الأثينيين » أو « شعب الأثينيين » ، « مدينة اللاكيديمونيين » أو « شعب اللاكيديمونيين » .
فالمفهوم اليوناني ، إذن ، إنما يفرض على وحدة المواطنين حدوداً ضيقة بعض الضيق . فعدد المواطن المثلالي ، في نظر فلاسفة القرن الرابع هو عشرة آلاف كحد أعلى (حتى أن أفلاطون قد حددته بـ ٥٠٤٠) ، وهم قد أخذوا على أثينا ، مسارحة أو مداورة ، أنها قد جمعت أكثر من هذا العدد . فقد كتب أرسطو : « لا نستطيع تكوين مدينة من عشرة رجال ، كما أن عشرة آلاف لا يكونون مدينة أيضاً » . وجلي أن السبب الوحيد لهذا التحديد هو السماح لكل مواطن بأن يعرف شخصياً كل مواطن سواه ، لا في شكله الخارجي فحسب ، بل في أخلاقه أيضاً ، وفي طريقة وأساليب حياته ، وفي ارتباطاته العائلية ، وفي نشاطه اليومي تقريباً .

لوحدة المواطنين هذه مركز هو المدينة التي هي قلب الـ « بولس » . وفي حالة الخطر ، تؤمن أسوارها دفاعاً تؤلف القلعة (اكروبولس) مرتكزها الأخير . هنا تجري الاتصالات على

انواعها ، السياسية والاقتصادية والفكرية . وهذا تقيم سلطات الحياة الجماعية . وهنا تقوم السوق التجارية والمدارس والمنتديات الرياضية والمسارح والمعابد الرئيسية .

ولا غنى عن هذه المدينة من الناحية النظرية ، مع ان وجودها لا يتوفر لبعض الشعوب اليونانية . ففي بعض المناطق الجبلية والنائية من اليونان الوسطى والغربية يعيش الرجال مشتمين في مساكن منعزلة او في قرى صغيرة ، وليس لهم سوى معابد ريفية يجتمعون حولها في ظروف الاعياد التي هي أسواق دورية في الوقت نفسه . ولذلك فانهم يعتبرون متأخرين ، ولا تجنّس عليهم بهذا الاعتبار . فلن يتوصل بعضهم ، قبل اواخر العهد الكلاسيكي ، الى لعب دور سياسي او عسكري ، عاجزين ، على كل حال ، عن ترك اي اثر اقتصادي او ادبي حينذاك .

بيد ان هذه المجموعة السكنية ، حتى في المدن المتطورة ، ليست في الظروف العادية مكان اقامة كافة المواطنين ، باستثناء بعض الحالات التي تبرزها حاجة للوقوف في وجه ثورة ممكنة يقوم بها السكان المنخفضون ، كما حدث في سبارطة مثلاً او في بعض مدن المستعمرات اليونانية . فان نسبة كبيرة من المواطنين تبقى موزعة على الاراضي المجاورة . ولكن المهم من الناحية الحقوقية ان المدينة تعامل بالمساواة المواطنين الذين يقطنون المدينة واولئك الذين يقطنون الاراضي المجاورة . فهي لا تكتفي بأن تترك للقرى الصغيرة امر ادارة شؤونها استقلالياً ولا تتدخل فيها إلا في الحالات الخطيرة وتكلفتها رعاية العبادات المحلية إلا اذا بلغت من الاشعاع ما يؤهلها للارتفاع الى مرتبة العبادات الرسمية ، بل انها تعطي سكان الارياف ، مع مراعاة النسبة العددية ، حق الاشتراك بحكومة المدينة كلها بالتساوي مع المدنيين ، وحقوقاً مدنية وسياسية لا تختلف بشيء عن حقوق هؤلاء . أجل قد تبرز عملياً بعض الفوارق التي تضر بسكان الارياف يجب ردها الى تشتمهم وبعدهم عن المركز المشترك . ولكن هذه الفوارق أعجز من ان تؤثر بشيء على المساواة النظرية .

للمدينة ، من حيث مفهومها ، السيادة المطلقة كدولة .

سيادة المدينة الخارجية

لا تعترف ، خارجاً عنها ، بأي مبدأ اعلى يُعدّ من مندوحتها . فهي تقرر ، لا بل تعلن ببعض التيمه ، انها يونانية . غير ان اتلسابها الى مجموعة عنصرية اكثر منها اتساعاً لا يفرض عليها سوى واجبات أدبية تكاد تفقد فعاليتها حين تتعرض مصالحها للخطر . وليس سوى العبادات اليونانية الجامعة القليلة العدد ، كمادات اولبيا ودلفي في الدرجة الأولى ، ما توصل الى فرض احترام بعض الانظمة . ولكن نفوذ هذه الانظمة لم يتمتع دائماً بقوة رادعة كافية ، فقد أدت بعض الحوادث الخطيرة الى نزاعات مسلحة لم يستطع القانون الديني قط الحؤول دونها او منعها .

ان لفشل دلفي ، في هذا الصدد ، لمغزى كبيراً . كانت اولمبيا مرتبطة بمدينة بلوبونيزية صغيرة هي « ايليس » التي فرض عليها ضعفها موقفاً حكيماً . اما المعبد الدلفي فقد قامت على

ادارته جمعية شعوب « مجاورة » او مجلس اتحادي . نعم كانت هنالك مجالس اتحادية اخرى في العالم اليوناني . ولكن مجلس دلفي لم يكن أشهرها فحسب ، بل اوسعها حظوة بسبب شهرة هتافات الغيب الصادرة عن عرّافتها ، واوسعها نفوذاً بفضل القوة العسكرية التي يتمتع بها هذا المجلس مبدئياً . وكانت اليمين التي يقسمها اعضاء المجلس ، وفاقاً لصيغة قديمة ، توجب عليهم ان يدافعوا كلهم وبكل قواهم عن مصالح الإله ، وتحظر « تدمير أية مدينة اتحادية وقطع المياه الجارية في أيام الحرب وایام السلم على السواء » ، وتواجه امكانية شن الحرب الجماعية على كل من يتخالف هذه الاوامر . وكان مجرد اجتماع مندوبي الشعوب الاتحادية ، مرتين في السنة ، مدعاة لمفاوضات حول المصالح المشتركة . وكان من شأن هذا التصميم الایجازي ، لو اكمل ، ان يفضي الى نتائج بعيدة الأثر : ومن الجائز ان نفكر هنا بتلطيف قانون الحرب وبتحكم أعلى يتولاه جهاز اتحادي وحتى بتوحيد تدريجي . ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق . فقد نشبت أربع « حروب مقدسة » ، واحدة منها في القرن الخامس واثنان في القرن الرابع ، لم تختلف قط عن الحروب الاخرى ، إذ ان الحجة الدينية المتذرع بها لم تخف ، كل مرة ، حقيقة تصادم المصالح السياسية . فدمرت مدن اتحادية وقطعت المياه عن المدن المحاصرة ، دون ان يعترض على ذلك معترض . اما المجلس الاتحادي نفسه فلم يوسع تنظيمه توسيعاً كافياً ولم يكتف قط وفاقاً للواقع السياسي في العالم اليوناني . ولم يكن في الواقع سوى أداة طيعة في ايدي السلطة النافذة في اليونان الوسطى أولاً ، والتساليين *Thessalians* قبل الحروب الميدية ، وسبارطة وطيبة بعد ذلك ، والملك المقدوني أخيراً . وهكذا فان الامكانات التي قد تكونت في دلفي قد أجهضت ايما اجهاض .

من حيث ان المدينة خلية صغيرة شريعته الانانية ومثلها الاعلى الاستقلال التام ، فانها لم ترتبط الا بتعهدات دولية تراها متوافقة ومصالحتها ، ما لم تضطرها قوة قاهرة الى تعهدات اخرى . وعندما ترى ان مصالحها قد تبدلت ، لا تحترم اي ميثاق مهما كانت نصوصه قطعية ومهما كانت الايمان التي رافقته مغلظة . ولم تختلف معاهدة الصلح ، زمناً طويلاً ، عن هدنة قصيرة الأمد . ففي السنة ٤٤٦ ؛ مثلاً ، عقدت أثينا وسبارطة الصلح لمدة ثلاثين سنة ، وفي السنة ٤٢١ لمدة خمسين سنة ، ولكن ذلك لم يمنعها من استئناف الاعمال الحربية منذ السنة ٤٣١ والسنة ٤١٣ . وفي القرن الرابع ، تمدد فترة السلم المتفق عليها وتبرز لأول مرة الصيغة « دائماً » المنقولة عن معاهدات التحالف والمعدة لأن تصبح دارجة الاستعمال ؛ ولكن لم ينخدع احسد بهذه التعهدات السريعة الزوال . فهي انما كانت احدى المعطيات البدائية للدبلوماسية اليونانية ، بل النتيجة الحتمية لمفهوم الـ « بولس » نفسه .

بيد ان بعض المدن كانت اعضاء في اتحادات اقليمية لها صفة الدولة ، لا صفة الحلف فقط ، بفضل أجهزتها السياسية الدائمة . لنهمل الدول البدائية حينذاك التي تجمع شعوباً كالفوسيديين

والايتوليين الذين لم يكن له « بولس » عندهم حيوية او وجود ايضاً . ولكن الدولة البيوسية ، التي لعبت ذلك الدور الكبير في القرن الرابع ، اختلفت في الحقيقة اختلافاً بيناً عن هؤلاء . فقد تكونت من مدن لا تقتصر على ولاية جماعية للمصالح الدبلوماسية او العسكرية المشتركة . وكان للمدن البيوسية مؤسسات متشابهة ، ومنحت كل منها بعض الحقوق لمواطني المدن الاخرى . فحققت اذن فيما بينها وحدة يجوز لنا الاعتقاد بأنها ، لو قبض لها نمو طبيعي ، لانتهت الى الانصهار : فالمنطق يقضي بشد الروابط العضوية ، والانتقال على التوالي من الجبهة الدفاعية المشتركة الى التحالف ومن التحالف الى الدولة الاتحادية ومن الدولة الاتحادية بالتدرج ، الى الدولة الواحدة . ولكننا نعلم علم اليقين ان حالة على هذا الوضوح وهذه المؤاتاة لم تبرز في غير مكان . ففي الاطار الجغرافي الكبير الآخر ، أي سهل تساليا الواسع ، لم تظهر دلائل تطور ممكن نحو الوحدة ، قبل خضوع البلاد لفيلبوس المقدوني ، الا بسرعة البرق الخاطف . ولكن انفراد مثل الدولة البيوسية واقع لا يرقى إليه الشك .

ليس في الحقيقة ، في هذا المثل ، ما يحمل على البحث عن الفوارق ، لا بل انه يؤيد ما يرى في غير مكان . ومما لا شك فيه ان الاختبار البيوسي هذا قد اعترضته القوة الاجنبية فأوقفته : فاذا لم يؤد الانتصار المقدوني الى زوال الدولة البيوسية زوالاً قانونياً ، فانه قد أفضى ، على الأقل ، الى ارتخاء روابطها الداخلية وازعاج بل تدمير طيبة ، مدينتها الرئيسية ، التي كانت قد نظمت هذه الدولة وأشرفت عملياً على ادارتها : ولكن مجرد نجاح اقتصاص فيلبوس والاسكندر من طيبة في ايقاف تطور انطلق انطلاقاً مشجعة لدليل واضح على ان هذا التطور كان مصطنعاً . ويبدو ان المدن البيوسية الاخرى لم تسر سيرة مع التيار الذي اوجدته طيبة . فلو اتيح للدولة البيوسية ان تعيش ، لغدت الدولة الطيبية فحسب .

يجب في الواقع انتظار العهد التالي حتى ترضى بعض المدن ، عن طريق القسر ، بالتضحية بشيء من سيادتها النظرية ، التي دافعت عنها دفاعاً حريصاً حذراً حتى ذاك التاريخ ، بغية ايجاد دول اتحادية حقيقية . ولكن هذا المثال الاعلى ، الذي لن تسمح له القوة الرومانية بالتحيز طويلاً ، غريب عن اليونان الكلاسيكية . فهو انما أوجده اخفاق « البولس » واملته الضرورة ، لانه يحاول بشق طرق المحاولة تحقيق توازن الممالك الهلينية الكبرى بوضع حـد نهائي للتفتت الاقليمي الخاص .

المدينة سيّدة ايضاً ، داخل اراضيها ، على الاشياء والبكائنات على السواء ، المدينة والفرد وقد تمتعت بهذه السيادة ، نظرياً ، منذ البداية وفي كل مكان . وقد استمرت في الواقع ، بفضل تقدم الديموقراطية ، في توسيع النطاق العملي لسيادتها . فالديموقراطية لا تعني قط تراخي سلطة الدولة . ومن خطل الرأي القول بغير ذلك ، انطلاقاً من مثل سبارطة . فحلفاء سبارطة ، في القرنين الخامس والرابع ، المدن (الاوليفارشية) التي تحكمها الاقليات ،

والاوليغارشيون ، في كل مكان ، يستهويهم ، على الاقل ، الاعجاب بمؤسساتها . ولكن ذلك ليس سوى انتهازية ، او بالحرى اختيار اهون الشرور . فإذا ما نظرنا الى مبادئ تنظيم سبارطة ، بدت لنا هذه المدينة ، في النطاق الاجتماعي خصوصاً ، ومن بعض النواحي السياسية ايضاً ، كأكمل الديموقراطيات اليونانية . وفي الصفة « متساوون » التي تنعت بها مواطنيها برهان قاطع على ذلك . فالاوليغارشية الحقيقية تقوم على اسس اخرى . وهي لا تربط المواطن بالدولة مباشرة ، بل تضع بينها هيئات وسيطة او اطارات اجتماعية منظمة ، ليس الفرد فيها سوى عنصر من عناصر الجماعات المشكّلة وفاقاً للنسب ، والمصونة بفضل المحافظة على عادات البنية الحقيقية او الاسطورية ، وهذه العادات أفضل ما يصون تقاليد الجدود . بهذه الهيئات الوسيطة تصطدم الدولة عندما تقرر العمل ، وعندها من القوة ما يجعلها غالباً تسيطر على الدولة نفسها . لذلك يجب ان يتم التطور الديموقراطي على حسابها . اجل ان هذا التطور يحرر المواطن من الروابط التي تقيد . ولكن المدينة ايضاً تفيد منه لأنها تصبح أمتع قوة وطيقة في ممارسة سيادتها المباشرة الفورية على الافراد المنعزلين . حينذاك ، وحينذاك فقط ، يقوى عند الاوليغارشين ميل نحو سبارطة سبق ونما عندهم بفضل عدائهم للاستبداد ، فيحولون انظارهم اليها ، لا سيما وانها لم تعرف قط هذه الهيئات الوسيطة ، وان الدولة فيها تضع كل طاقتها بالتالي في خدمة المحافظة على التقاليد الادبية التي فتحت فيها السلم في غير مكان ؛ ولكن مساندة سبارطة قد اظهرت في النهاية انها عاجزة عن ايقاف التطور العام .

تفرض المدينة ، باسم « نواميس » ، « شرائع » و « عادات » ، كتابية او شفوية ، تسمو على الارادات الفردية او الحالات النوعية . أما القرارات التي تعود الى هذه المبادئ فلا يجوز ان تدعى إلا « مراسيم » ، وتؤخذ كافة الاحتياطات كي لا تتعارض والشرائع . فقد جاء في الكتابة المحفورة في الترموبيل على نصب ليونيداس ورفاقه : « أيها المار ، اذهب وقل لسبارطة اننا متنا اطاعة منا « لنواميسها » . ويضع أفلاطون ، على فم سقراط المحكوم بالموت ظاهراً وعدواناً مناجاة « النواميس » القمينة بتذكيره ، اذا ما حاول الهرب ، بواجبه في الخضوع خضوعاً أعمى حتى الى اخطائها ، تحاشياً لاحدارها ، شأنه في تحاشي احدار ابيه وامه . وتقوم سيادة « البولس » الداخلية على نفوذ « النواميس » والاحترام الذي توحيه والذي لا حياة جماعية ممكنة بدونه .

لا شك من جهة ثانية في ان « الشرائع » ، التي تسمح بموجبات المدينة ، تحددها بالفعل نفسه ، لأنها تفرض على المدينة العمل ببعض القواعد او بعض الطرائق على الاقل . فعقوبة الابعاد مثلاً التي توجد ، بأسماء اخرى وبكيفية مختلفة ، في مدن غير أثينا ، تجيز ان يفرض على المواطن نفي لمدة عشر سنوات دون تقديم أي مبرر ، ودون دعوى او مناقشة ، ودون اتهام أو دفاع . وقليلة في الواقع هي المؤسسات التي تبرز بهذا الوضوح سلطة المدينة البالغة على مواطنيها لأنها

بذلك اعطت لنفسها وسيلة ، يحدث ان قلجاً اليها عملياً ، لتنال ، بمجرد هواها او تخوفها ، من رجل لا تهتم حتى لاعلان ذنبه . ولكن الابعاد لا يجوز تقريره الا بعد اجراءات خاصة ، يوفر القيام بها ، للضحايا الممكنة ، حداً أدنى من الضمانات . وفي بعض النواحي ، كذلك ، قد تتعدى مفاهيمنا العصرية للدولة المفاهيم اليونانية . فالمدينة التي غالباً ما تقرر حجز ممتلكات محكوم ما تجهل الاستملاك باعتبارات تقتضيها المنفعة العامة . فـ « النواميس » ايضاً اذن قد لا تماشي « البولس » احياناً .

ولكن لا شيء ، نظرياً ، يحظر التحوير ، والتوسع في الشرائع . وفي سبيل . اعطاء المزيد من النفوذ ، تطبع بطابع ديني او اكرامي على الاقل . ولكن الجميع يعرفون انها في الواقع عمل بشري لأنهم يذكرون واضعها المعتبرين اشخاصاً حقيقيين حتى ولو تسربت الاساطير الى تاريخ حياتهم ولأن اعادة النظر فيها امر ممكن شريطة العمل باجراءات محددة . فليس اذن ، من حيث المبدأ ، اي حد لنفوذ الشرائع الذي قد يتناول جميع مظاهر الحياة البشرية وجميع مراحلها واعمالها ، كما حدث في سبارطة حيث اخضع المواطن للدولة منذ السنة السابعة حتى السنة الستين . اما في غير مكان فيسفي هذا النفوذ اكثر استتاراً ، ويطيّب للآثنيين ان يتباهوا به . ولكن شرائع أثينا نفسها - وقد عدّها كليسنين للمرة الاخيرة في اواخر القرن السادس ، ثم اعيد النظر فيها وازيفت بعض الشرائع الجديدة اليها - تناول ألف ناحية من نواحي الحياة الخاصة والحياة الجماعية على السواء . فهي تحدد الواجبات الدينية والمالية والعسكرية حيال المجموع كما تحدد شروط الزواج الشرعي والعقود التجارية وتربية الاولاد . واذا لم تواجه استملاك الممتلكات العقارية ، فمحافظة على الاستقرار الاجتماعي وتفادياً لاستغلاله استغلالاً ثورياً ممكناً . وكان باستطاعتها التدخل في كل الحقول التي اهتمت بها دونما تعرض لاي مبدأ اساسي .

فلماذا لم تفعل يا ترى ؟ هل ان الضرورة لم تنتض بذلك ام ان مرد ذلك الى قوة التقليد ، او التحفظ الفطين ، او الاشتمزاز بتأثير المثالية ؟ قليل من كل ذلك في آن واحد . اجل لقد شدد العقائديون القدامى على الفكرة التي لاقت ارفع اصداؤها واجملها في التأبين الذي ينسبه توسيديد الى بريكليس في السنة ٤٣١ : ليس لسلطات المدينة من مبرر سوى حماية المواطن من الضغط الداخلي والضغط الخارجي ؛ تحاول المدينة ، مقابل ذلك ، امانحة الفرص لتفتح شخصيته الفردية تفتحاً كاملاً ؛ تستهدف المدينة تأمين الحرية والعدالة للمواطن . وهذا لعمرى هو المثل الاعلى للحضارة اليونانية الكلاسيكية . ولكن كم من الناس رأوه ولو رؤية غامضة ؟ وكم منهم كانوا مستعدين لتكييف اعمالهم عليه .

من حسن الطالع ان الظروف اتاحت ، خلال وقت قصير وفي بعض المدن المحظية ، ترائي ذلك التعاون العجيب بين المجموع والفرد ، النافع لهذا وذاك ، ومباشرة تحقيقه وتحيزه . . .

وعلى الرغم من بقاءه نظرياً في غالب الاحيان أو من صيرورته نظرياً بسرعة ، فان هذا المثل الاعلى يمثل واحدة من أثنى معطيات الحضارة اليونانية الكلاسيكية التي عرفت ، خلال القرون ، حيوية ناشطة مستمرة .

٢ - خطوط التنظيم السياسي العامة

بديهي ان تنظيم المدن متنوع جداً . فسيادة المدن ، بالإضافة الى المدينة والسلطة الشخصية مرونة الفكر اليوناني واختلاف الحالات التاريخية تستلزم هذه النتيجة . ولكن هنالك بعض الميادين العامة المشتركة أملاها الاختبار او تولدت من تقاليد العهد القديم .

المدينة اليونانية جمهورية اولاً . أجل ، لقد قامت الملكية في كل مكان في البداية . واذا لم تزل قائمة في اليونان الحقيقية ، فان وجودهما إسمي فحسب ، وهي اقرب الى ولاية محدودة الصلاحيات والمدة ينتخب من تسند اليه دونما اعتبار الى منشأه العائلي . وتقدم لنا أثينا أجلى مثال على ذلك : فالملك (الفاسيلفس) فيها واحد من مجلس الأراكنة العشرة الذين يجري انتخابهم كل سنة ، ولا يلعب سوى دور ديني وقضائي غير ذي اثر في الواقع ، ويجري تعيينه بالقرعة كباقي الأراكنة وفاقاً لطريقة أدخلت عليها تحويلات شتى في القرن الخامس بغية الحد بصورة نافذة من امكانات المخاتلة والضغط . لكن سبارطة هنا ايضاً تشدّ عن القاعدة . وليس من أقل مميزات ان تحتفظ بملكين مدى الحياة ينتسبان وراثياً الى أسرتي « الآجياس » و « الايريبنونتس » ، ويتولى أحدهما بالضرورة قيادة الجيش . ولكن الملكية قد ضعفت في سبارطة نفسها . وانظمة الخلافة الوراثية من التعقيد بحيث يتوجب احياناً على المدينة الاختيار بين طلاب هذا المنصب الكثيرين . وقد أعيد النظر بنوع خاص في مبدأ مسؤولية الملوك حتى كقواد جيوش . ونظمت رقابة على أعمالهم خلال الحملة العسكرية ، فدفعتهم بعض السوابق الرهيبة الى الامتثال بحكمة لتعليمات السلطات الادارية . فشتان ، في سبارطة نفسها بين ، ملكية اليوم وملكية الازمنة الغابرة .

لم يكتب البقاء للملكيات الازمنة الغابرة سوى في المناطق البعيدة عن اليونان الأم ، بفعل اتصالها بالشرق الملكي ، كما في قبرص ، ولا سيما في الشمال من شبه الجزيرة اليونانية ، بفعل اتصالها بالقبائل البلقانية البربرية ، كما في الأبير ومقدونيا وتراقيا . فهناك تلعب التأثيرات الشرقية دورها ، ولا سيما الحاجة الى الوقوف في وجه منافسة الفيلقيين الساميين القوية ، المقيمين ، هم أيضاً ، في الجزيرة . وهنا ، بالإضافة الى البعد عن التيار العام للتطور اليوناني ، حافز الرغبة في الوقوف في وجه غزوات الجيران الشغبين . فالملكية في العالم اليوناني ، خلال القرن الخامس والنصف الاول من القرن الرابع انما هي نظام مناطق الحدود . ومما يلفت الانتظار ان هؤلاء الملوك ، في شمالي شبه الجزيرة على الأقل ، لا يطلقون على أنفسهم ولا يلقبون ، في علائقهم

بالاغريق ، بلقب « الفاسيلفس » الذي هو من خاصياتهم والذي أحيط بهالة من الإجلال في الملاحم الهوميروسية . ولن يعمّ استعماله من جديد إلا بعد الاسكندر . فكأن مفهوم الملكية حينذاك اعتبر ، بالاجماع ، مفهوماً غريباً عن الحضارة اليونانية وميزة من ميزات البربرية .

ولم يقف جهل المدينة اليونانية عند الملكية فحسب ، يل تعداها الى الحكم الفردي بوجه عام . أجل انها عرفت الاستبداد احياناً في العهد السابق بشمول كافٍ لأن نرى ، في نظام الحكم هذا ، مرحلة شبه طبيعية من مراحل التطور السياسي . ولكن هذه المرحلة قد دخلت في التاريخ . فالاستبداد ، حيثما قام بفعل ظروف الوضع الداخلي ، قد زال منذ أواخر القرن السادس . اما في غير مكان ، كصقليا وايطاليا الجنوبية مثلاً ، فقد استمر هذا الاستبداد بضع عشرات من السنين بفضل الاسباب نفسها التي أتاحته له تسلم الحكم ، اي الخطر الخارجي . ولكن زوال هذا الاخير يسبب زواله ايضاً . فبعد ان كسر القرطاجيون في هيميرا (٤٨٠) والاتوريون في كومس (٤٧٤) ، حكم على عهد سلالة الديينومينيس بالزوال في سيراكوزا . وقد انهار بالفعل في السنة ٤٦٦ ، فعرفت المدينة الصقلية الكبرى سيادة « النواميس » مرة اخرى ، بعد فترة من البلبلة والتشويش . فبدأ الاستبداد حينذاك ، وحتى السنوات الاخيرة من القرن الخامس ، وكأنه مرحلة سحيقة من تاريخ العالم اليوناني القديم . ولكنه لن يلبث ان يعود الى الظهور ، في سيراكوزا اولاً ، مع دونيس الاول الذي تسلم السلطة في السنة ٤٠٥ مستثمراً خطورة التهديد القرطاجي الذي لاح في الأفق مرة ثانية ايضاً . ويتوسع الاستبداد في القرن الرابع رويداً رويداً بفضل الخطر العسكري اولاً والمتاعب الداخلية ثانياً . ولكن عودته الى الظهور وتوسعه انما هما من ذبول الأزمة التي تمر بها المدينة ، إذ ان المفهوم الكلاسيكي للمدينة يتعارض والاستبداد تعارضاً كلياً .

ف « البولس » الكلاسيكية تخشى الفرد المتفوق الذي قد تكلفها خدماته ، اذا كان له من خدمات ، ثمناً غالياً جداً في النهاية . ويقلقها كل نفوذ فردي ، لانها لا ترى كيف يمكنها ان تضع له حدوداً لا يتخطاها . لذلك فليس من احتياط لا ترى حاجة اليه ، وليس من ظنّة مهينة في نظرها . فلا يدوّن اسم القائد في النذور والانصاب التذكارية الاخرى للانتصارات ، بل اسم المدينة دون غيرها . وسيرد على لسان ديموستينس ما يلي : « ما كان ليخطر على بال احد ان يدعو انتصار سلامين باسم تيمستوكلس لأنه عرف بانتصار الاثينيين ، ولا ان يدعو انتصار ماراثون باسم ميلتيادس لأنه عرف بانتصار المدينة . ولا يمكن لأي رجل في وظيفة عامة ان يطمئن لعدّه او ان ينجو من المراقبة الدقيقة في نطاق عمله . فمهما كان من احترام بريكليس لسيادة الشعب ومن مراعاته لها بكل خلوص نية في تعامله مع المجلس ، فلم يتردد خصومه في ان يصموه بالاستبداد ، وقد جاء اخيراً يوم قلبه الشعب فيه وحكم عليه . وقد قوى التطور اللاحق هذه النزعة . أجل ان تقدم التقنية العسكرية وتكاثر الحروب وتزايد صعوباتها قد

أُتاحت للقواد المنتصرين مزيداً من الشعبية . فإن حرب البلوبونيز التي انتهت بانتصار أحاط ليسندروس بشهرة ونفوذ لا مثيل لهما ترسم بهذا الصدد عطفة حاسمة في تاريخ العادات والاخلاق . وهكذا غدا القواد منذ ذاك الحين موضوع اكرام فردي لم يكن ليخطر على بال . ولكن هذا المحاس الشعبي الهائج يقابله في حالة الهزيمة ، او خيبة الامل فقط ، انهيار صنم الأمس مع ما يرافق هذا الانهيار من حيا غضبة وهيجان . وقد نال بطلا عظيمة طيبة ايپامينونداس وبيلوبيداس ما نال غيرها من ذلك . وليست حياة كل من يتعاطى السياسة في أثينا سوى سلسلة طويلة من الدعاوى يكون فيها اما مدعياً واما مدعى عليه . ونادرون جداً هم رجال الدولة العظام الذين لم يتعرضوا للغرامة او النفي أو حتى لعقوبة الاعدام احياناً .

لقد قيل عن هذه الظنّة انها من قبيل الحسد الذي يتآكل النخبة . وفي هذا القول بعض الحقيقة لأن الجماهير في كل زمان ومكان متقلبة متلونة متحفزة لإسقاط أولئك الذين تبدو وكأنها لم تضعهم داخل الهيكل إلا لتجعل منهم هدفاً لحذرهما . وتجدر الإشارة هنا الى ان هذا السلوك لم يكن قط وقفاً على المدن الديموقراطية حينذاك . فقد سلكته المدن الاوليفارشية ايضاً حيث تسيء الطبقات الحاكمة الظن في من يسعى وراء الظهور من اعضائها . لقد قيل الكثير عن الحسد الديموقراطي او بغضاء الجماهير الطبيعية لكل من يلفت الانظار بسموه عن المستوى العام . ولكن الجدير بنا ، اذا كان لهذا الحسد من اثر ، ان نقول عنه انه يوناني المنشأ وانه جزء لا يتجزأ من سيكولوجية « البولس » . ويجب في الحقيقة ان نبحث عن اصله في اختبار عهود الاستبداد السابق ، الذي يكفي للوقوف موقفاً حذراً من الشعبيات الكاسحة التي يستطيع من يتمتع بها ان يفرض سلطته الشخصية ويستبدل النواميس بارادته . فقد قدرت سبارطة حق قدره الضرر الذي أنزله بها كبرياء الوصي بوزانياس الذي انتصر في بلاتيا ، كما ان أثينا لا تزال تخشى قيام بيسيستراتوس جديد .

ان عودة السلطة الملكية ، ودخولها مرة ثانية في صميم الحضارة اليونانية سيتفق حدوثهما مع نهاية الحضارة الكلاسيكية . كما ان في هذه العودة وهذا الدخول أوضح مصداق لهبوط الحضارة الكلاسيكية وزوالها .

ان هذه المبادئ العامة التي اتفقت الاوليفارشيات والديموقراطيات على الأخذ بها الجمعية قد أفضت بالضرورة الى تشابه في تنظيم السلطات العامة . فليس ، على الخصوص ، من مدينة حقيقية بدون ثلاثة أجهزة سياسية : الجمعية والمجلس والقضاة المدنيون . وقد تتفاوت الاهمية العملية النسبية لهذه الأجهزة لا من حيث توزيع الكفاءات المختلفة فحسب ، بل ، بنوع خاص ، من حيث الذهنية والعادات التي تسيطر نشاطها . ولكنها موجودة في كل مكان . ويؤيد شمولها سوابق راسخة في القدم . ففي الدولة الهوميروسية نفسها لا يقدم الملك عادة (وهو يوازي القضاة المدنيين بمفرده) على اتخاذ أي قرار قبل الاستئناس بآراء مستشاريه ، وفي

الظروف الهامة يدعو الجمعية للالتزام . وقد جعل التطور اللاحق هذه الاجهزة اكثر متانة ،
إذ ان افضل وسيلة للحد من تجاوزات السلطة هي في وضع السلطة تحت رقابة وسيطرة اجهزة
جماعية . لذلك فان الشروط العامة لعلائقها المتبادلة قد فرضت نفسها في كل مكان .

تقوم في الاساس جمعية المواطنين ذات السيادة من الوجهة النظرية . وستلقت انظار الرومان
الذين يخضعون لعادات اخرى ملاحظة تافهة لها مغزاها ، وهي ان اعضاء الجمعية اليونانية
يشاركون في اعمالها جالسين على مقاعد خشبية ، أو درجات معدة في الارض المنحدرة .
فتثبتت الجمعية بذلك رمزياً ، أمام المكتب الذي يرأسها ، سلطتها الاولى النافذة ، كما سيخال
لشيشرون . ولا يمكننا ان نتصور في غير سبارطة الحق القانوني الممنوح للمجلس والملوك في رفع
جلسة الجمعية اذا ما اتخذت « قراراً معوجاً » . ولكن لم يعمل قط بهذا الحق حينذاك . فقد
آمر الحكام في سبارطة والمدن الاوليفارشية تجنب الصعوبة على مجابتهها . فالجمعية ، وفاقاً
للانظمة ، قد تتسع لكثير أو قليل من الاعضاء ، وقد تتعدد اجتماعاتها او تقل ، وقد تفعل فيها
أو لا تفعل تأثيرات تجعل من سيادتها النظرية سيادة واقعية متفاوتة المدى . ولكن المبدأ سليم
ولا اعتراض عليه إلا في سبارطة بفعل تشريعها القديم .

اما الخلافات البيّنة فتدور حول دخول الجمعية الذي وضعت له في المدن الاوليفارشية
شروط مقيدة ، متفاوتة جداً على كل حال . يطيب لهذه المدن مثلاً تأخير السن القانونية التي
يحددها غيرها حوالى العشرين ، وتوجد الفوارق بين المواطنين في ما تفرضه عليهم من رسوم
مختلفة للاشتراك في الاقتراع ، ويذهب بعضها أحياناً الى حرمان الذين يمارسون ، أو حتى الذين
مارسوا ، مهنة أو تجارة صغيرة ، من هذا الحق . فينتج من ذلك ان سيكولوجية الجمعية وسلوك
اعضاءها يختلفان كثيراً باختلاف المدن . يتمتع المشاركون الحاضرون مبدئياً بحقوق متساوية
داخل الجمعية لا سيما حق ابداء الرأي . ولكن مراعاة الفوارق الاجتماعية تجعل من هذا المبدأ
حرفاً ميتاً في المدن الاوليفارشية ، مما يبرّر تباهي الأثنيين بأن ديموقراطيتهم مبنية على
« المساواة في حق الكلام » التي هي بالفعل عندهم واقع راهن .

على الرغم من هذه الفوارق ، ليس شمول وجود الجمعية مجرد تشابه سطحي فحسب . فانما
هو يعني ان حق الاشتراك في حياة المدينة السياسية حق شخصي لا يفوّض به احد : فالإيونان
الكلاسيكية تجهل النظام التمثيلي ولا تدرك معنى لغير ممارسة السيادة المباشرة . وليست هذه
الطريقة بالطريقة السهلة ، على الرغم من انكماش رقعة المدينة العادية . وقد تفضي أحياناً الى
مجرد نظرية ، كما حصل للمواطنين الذين اسكنتهم أثينا في خلقيدونيا أو في الهلليسيبونت
(الدردنيل) ، محتفظة لهم بحقهم النظري في الاشتراك في اعمال الجمعية . فهل مرد هذا الى قوة
الاستمرار ؟ ربما كان ذلك ، ولكن يجب ان نضيف الى هذه القوة سبباً آخر هو في الاساس
من نفوذها ، أعني به الخوف من ان يقوم ، بين المواطن والدولة ، وسيط لا لزوم له لمن لا

يزعجه الحضور شخصياً ، او وسيط يهدد بالخطر استقلال المواطن وسيادته .

لا ريب في ان اليونان الكلاسيكية تتشابه في ذلك بكثير من المجتمعات القديمة ، ولا سيما روما ، حيث يؤدي فقدان النظام التمثيلي الى نتائج أشد مغايرة وتناقضاً . ولكن طريقه التصويت ، على تنوعها في المدن المختلفة ، وفي المدينة الواحدة احياناً ، تكشف عن ميزة خاصة بالاغريق دون غيرهم . فالجمعيات الرومانية تصوت بفئاتها التي تتمتع كل واحدة منها بصوت ، دونما نظر الى عدد الاعضاء الحاضرين ؛ ولذلك فالمساواة المعترف بها قائمة بين الفئات كقوائم ، لا بين المواطنين كأفراد . اما في الجمعيات اليونانية فالتصويت ابدأً فردي فقط ، على ان ينصهر كل عضو ، عند جمع الآراء النهائي ، في مجموع واحد . واننا لنلمس هنا ايضاً ذاك الحرص نفسه على المساواة بين المواطنين المنعزلين وذاك التصميم نفسه على حماية الاستقلال الفردي وتلك الخشية نفسها من ان يقوم بين المواطنين والدولة جهاز يستطيع الحد من التماسك المباشر المتبادل بينهما .

قد يبرز المجلس ، وهو الجهاز السياسي الثاني المشترك بين كافة المدن اليونانية ، اكثر
المجلس
اهمية ايضاً من الجمعية . فليست هذه الاخيرة ، في بعض الاوليفارشيات المتطرفة ، سوى جهاز شكلي فحسب . اما المجلس فيعقد اجتماعات متكررة في كل المدن ويلعب دوراً هاماً في المدن الديموقراطية ودوراً رئيسياً في المدن الاوليفارشية من الناحيتين النظرية والعملية .

انه في كل مكان يراقب نشاط القضاة المدنيين ، ويؤمن الاعمال الادارية الجارية وتنفيذ مقررات الجمعية ، ويعتد هذه المقررات ويوجه بالتالي سياسة المدينة . ولكن الانظمة الاوليفارشية توليه ، بالاضافة الى ذلك ، صلاحيات قضائية واسعة في الحقلين المدني والجنائي ، ومهمة العناية بالمحافظة على العامة والخاصة ، وهي مهمة يزيد في اتساعها غموض الكلام الذي يحددها . وبما يجعله ذا حظوة لدى هذه الانظمة ويحدو بها لتوسيع صلاحيته او بالاحرى للامتناع عن تخفيضها ، كونه هيئة استشارية محدودة العدد ، لانه بذلك اقل تعرضاً للانجرافات الطائشة ، ولان تشكيله ، بنوع خاص ، يمكن ان يحرص في حدود آمنة . وقد يعين اعضاؤه احياناً مدى الحياة ، ولكن يجب ان تتوفر فيهم لذلك بعض الشروط ، لا من حيث السن والثروة فحسب ، بل من حيث النسب احياناً ايضاً . وهكذا يتاح للتأثيرات الاجتماعية ولقوة التقاليد ان تلعب دورها فيه بمزيد من السهولة .

بيدان الديموقراطيات ، اذا هي خففت هذه الحواجز وحاولت بشتى الوسائل تشكيل مجلس يكون صورة مصغرة عن مجموع المواطنين ، تشعر بحاجة لان تتحاشى ، بوجود هذه الهيئة المحدودة وصلاحياتها ، الاخطار الرئيسية العملية لسيادة « ديموس » (شعب) يعبر عن آرائه في جمعية مرتجلة وسريعة الزوال . فالمجلس الذي يمارس صلاحياته سنة كاملة يؤمن حداً ادنى من الاستمرار ويدرس مسبقاً في الوقت نفسه القضايا المعروضة للمناقشة او تلك التي يجب البت بها .

وهكذا فإن الواقع يفرض على المنطق المجرّد تسليّات وتنازلات لا مناص منها .

القضاة المدنيون
لكل مدينة يونانية ، أخيراً ، قضاتها المدنيون الذين يختلف اسمهم وعددهم وطريقة وشروط تعيينهم وتوزيع الصلاحيات فيما بينهم . ولكن بعض الخطوط مشتركة بينهم في كل مكان ، ويستخلص منها — وليس هذا الاستخلاص بالانطباع الغرار — ان القضاء موضع شبهات مركزة وان ما من احتياط الا ويتخذ حياله .

يعين القضاء لسنة واحدة فقط ، وباستثناء الرؤساء العسكريين — وقد تأكد هذا الاستثناء في اثينا — لا يعاد انتخابهم أو لا يعاد فوراً على الأقل . وهم كثيرون العدد في كل مكان حتى في الوظيفة الواحدة ويخضعون لنظام جماعي يوزع السلطة بين عدّة قضاة اصليين . وقد تمتد روماناً ايضاً على هذه المبادئ الحكيمة . ولكن الاغريق قد ذهبوا في حذرهم الى ابعد من ذلك . فلا يستطيع القضاء في اي مكان ان يتخذوا ، مبادهة ، قراراً هاماً . وليس سوى الضرورات العسكرية ما يوجب ، حين يقودون الجيش ، اعطاءهم المزيد من المندوحة . ولكن دورهم العملي ، في الحقل الدبلوماسي والشؤون الداخلية ، يقتصر في كل مكان على التنفيذ فقط . يخضعون في كل مكان لمراقبة المجلس وللمراقبة الجمعية أحياناً . وهم في كل مكان مسؤولون عن اعمالهم ، حتى اثناء ولايتهم في اغلب الاحيان ، ولكن دائماً بعد نهايتها . وليست الامثلة ما يعوزنا ، حتى في المدن الاوليفارشية ، عن الاحكام القاسية الصادرة ضدهم .

ان في هذا لاكثر من فوارق عارضة بين اجهزة مختلفة . ان فيه لعمري دلائل على مفهوم منطقي خاص بالمدن اليونانية . فالمفهوم الاكمل للقاضي ، الذي يستتبع سلطة مستقلة ملازمة ، روماني لا يوناني . وما كانت المدن ، ككل جماعة بشرية مصممة على العمل ، لتستغني عن « طليعة » . ولكنها لم ترض قط ان تكون هذه « الطليعة » أو ان تصبح سيّدة . ولذلك فقد سعت دائماً الى تجنب هذا الخطر الممكن .

الاوليفارشيات والديموقراطيات :
المواطنون الايجايون
والمواطنون السلبيون
اذا ما اقتصرنا على الخطوط الكبرى ، اتضح لنا ان اوجه التشابه بين الاوليفارشيات والديموقراطيات لا تتعدى ما ذكرنا . ومرد اكثرها ، كما سبق ورأينا في سياق هذا البحث ، مثل اعلى مشترك للاستقلال والحرية هو ، كما يبدو لنا ، هدف الاغريق الرئيسي في العهد الكلاسيكي . وهذا يعني استقلال وحرية المدينة والمواطن على السواء . وفي سبيل توفير هاتين النعمتين الكبيرتين للمدينة والمواطن يتوجب على المجموع والفرد التضامن والتعاقد المتبادل . فصوباً للاستقلال ، تحتاج المدينة الى تفاني مواطنيها الفعّال الحر . وهي مقابل ذلك تسعى بشتى الطرق وراء توفير استقلالهم الفردي والمحافظة عليه .

يحل التناقض محل التشابه وتتسع الحفرة بين الاوليفارشيات والديموقراطيات حين يتوجب تحديد المواطن الحقيقي ، اي ذاك الذي له من الحكمة والخبرة والمصالح ما يكفي لمنحه حقوقه السياسية بكمالها . هنا لعمري يمر الخط الفاصل بين النظامين .

ترفض الديمقراطية التفريق بين مواطنين ايجابيين ومواطنين سلبيين . فالقاعدة فيها هي « الايزونوميا » أي المساواة أمام « الناموس » . ومن الطبيعي ان تقدم أثينا المثل بقوة منطق لا يتنافى مع حدّ ادنى من التسليم للصعوبات العملية بنوح خاص . فيكفي ان يكون الانسان مواطناً حتى يتاح له دخول الجمعية وحق ابداء الرأي فيها والفوز بعضوية المجلس وممارسة اكثرية مهام القضاة . ولا ريب من حيث المبدأ ان هنالك بعض الشروط المالية لوظائف القضاء او لأهمها على الاقل . ولكن هذه الشروط يدركها العفاء ، فيما خص الأراكنة ، منذ منتصف القرن الخامس . وليس سوى أمناء الخزينة من يجب ان ينتسبوا الى الطبقات الثرية حتى يتمكنوا من تقديم الضمانات اذا اساؤوا التصرف . اما قواد الجيش والاسطول الذين يتصرفون بالاعتمادات العسكرية والدبلوماسية فيكفي ان يملكوا عقارات في الاثينك وان يكون لهم في الوقت نفسه ولد شرعي . ويستدل من هذا الشرط الاخير ان الغاية المتوخاة ليست تأمين رهن احتياطاً لدعوى ممكنة ، بل ضمان مرشحين يهتمون لأمر المحافظة على ارض الوطن بحافز غيرتهم على عائلة واملاك غير منقولة ، وكلاهما معرض جداً للخطر في ظروف الكوارث العسكرية: فالهدف اذن توفير الرؤساء المستعدين لكل تضحية ، تهرباً من اولئك الذين لا تشدهم الى الوطن صلة العائلة والبيت . تلك هي اهم الفوارق في المساواة النظرية بين كافة المواطنين . ويجب ان نضيف الى ذلك ان القرعة قد اعتمدت قاعدة في تعيين المستشارين والقضاة باستثناء اولئك الذين تستلزم مهمتهم معارف فنية ، كالرؤساء العسكريين مثلاً . ولادراك ظهور هذه الطريقة ، يجب ان نعود بالذاكرة الى مبررها الديني ، كما يجب ، لادراك شمولها ، ان نفسح مكاناً خاصاً لكأبوس التأثيرات المالية والنسبية والدسياسة العادية والمخاتلة نفسها ، وكان من شأنها كلها ان تقضي على المساواة التي هي محك الديمقراطية وإثمن فتح حقيقة « الديموس » .

على نقيض ذلك ، تفرق الاوليفارشيات بين المواطنين ، آخذة باعتبار السن والملكية العقارية ومجموع الثروة والنسب ، وفاقاً لطرائق متنوعة جداً ، متأثرة بهذا او ذاك من العوامل على حدة او بعدة عوامل في آن واحد . وليس هنالك نموذج للأوليفارشية ، بل اوليفارشيات قد يتفاوت عدد حكامها ، حتى ان بعضها قد اعتبر ، في نظر المصنفين الاقدمين ولا سيما ارسطو ، كديموقراطيات معتدلة . ولكنها انتهت كلها الى تخفيض عدد المواطنين الذين يحق لهم الاشتراك في الحكم بالنسبة الى عدد المواطنين العام . وتشعر كلها ، في اعماقها ، بحنين دائم الى الانظمة القديمة ، اذ كان الاشرف ، بفعل تفوقهم ثروة و « صلاحاً » ، يسيطون حولهم ، بقوة التقاليد والاعراف ، نفوذاً مسيطراً . وهي لا تسلم إلا بما هو ضروري للتطور العام . فحيثما تبدلت الحياة الاقتصادية بعض التبدل وتوسعت بعض التوسع ، اضطرت هي للاعتراف ببعض الحقوق للثروة حتى المنقولة منها . غير ان الفقر ، وهو عيب لا دواء له ، لا يحرم من الوظائف العامة فحسب ، بل غالباً ما يحول دون دخول الجمعية التي لا دور نافذ لها على كل حال . وهكذا

تكوّنت المعادلة العملية « اوليغارشيون -- اغنياء » التي تحوّل النزاعات السياسية الى منافسات اجتماعية ، منذ نهاية القرن الخامس بنوع خاص .

٣ - الديمقراطية اليونانية

تقدم الديمقراطية من الخطأ الفادح ان نتصور ، انطلاقاً من اولوية أثينا الفكرية والفنية في عهد بريكليس ، ان الديمقراطية سادت العالم اليوناني منذ القرن الخامس . فما زالت الانظمة الاوليغارشية ، حتى في ذاك العهد ، كثيرة وقوية ، لا بل انها تسيطر سيطرة تامة في اليونان البرية على الاقل . بيد ان النصر الشامل الذي عرفته ، لسنوات معدودة ، بفضل هزيمة اثينا في حرب البلوبونيز وبفضل نشاط سبارطة العطوف بعد انتصارها ، لم يدم سوى فترة قصيرة الأمد جداً . فلم تلبث الديمقراطية ان استقرت في اثينا ، وكانت المصاعب الاولى في سبارطة التي اصطدمت بتصميم الحكومات ، حتى الاوليغارشية ، على الاستقلال ، كافية لأن تلتفس الديمقراطية الصعداء في كل مكان .

استمر تقدم الديمقراطية طيلة القرن الرابع الذي هو قرن انهيار سبارطة بعد انكسارها في لوكترا في السنة ٣٧١ ، وفي الوقت نفسه قرن تسرب الديمقراطية الى اليونان البرية حيث تتوسع توسع بقعة الزيت . ويعود الفضل في وثبة الديمقراطية هذه ، قبل اثينا ، الى طيبة التي تتبنى الانظمة الديمقراطية وتعممها في كافة انحاء بيوسيا ، بعد تحريرها من الاحتلال اللاكيديموني في السنة ٣٧٨ . وبعد معركة لوكترا ادخلت جيوش طيبة هذه الانظمة الى قلب البلوبونيز ، في اقل المقاطعات الجبلية تطوراً حتى ذاك العهد .

بيد ان التدخل المقدوني ، الذي يخطيء من يعتبره خدمة جلّى لاوليغارشين ، قد اخر هذا التطور تأخيراً لامراء فيه . فمن المحتوم على فيلبوس ، في صراعه ضدّ المدن اليونانية التي يحكمها الديمقراطيون اجمالاً ، ان يستميل عطف خصومهم ؛ ومن المحتوم ايضاً على هؤلاء ، شأن كثير من الاغريق الذين يؤثرون الحزبية على الوطنية ، ان يستجيبوا بصورة عامة لدعوته ، بحيث ان انتصاره هنا او هناك يغدو بالتالي انتصاراً لهم . ولكن بالرغم من هذا الحادث العارض الذي اقتعلته انتهازية دبلوماسي وقائد واقعي الى اقصى حدود الواقعية ، فان مصير الصراع الذي قام ، منذ قرون ، بين هاتين المثلثتين لا يدع مجالاً للشك عند نهاية العهد الكلاسيكي . فالاسكندر يقيم انظمة ديمقراطية في المدن اليونانية التي حررها في آسيا من السيطرة الفارسية . وسيتسابق بعض المتنافسين ، ممن سيتنازعون إرثه ، في المبادرة الى مجاملة الديمقراطيين في اليونان نفسها . ولن يبقى لاوليغارشين حينذاك الا ان يتدبروا امرهم المفعول بايجاد انظمة مبتكرة كي يخفوا ، وراء ستار ديمقراطي ، واقعاً آخر غير ديمقراطي .

فما هو تعليل اندفاع الديمقراطية هذا ؟ لقد لعبت الظروف الواقعية دورها ، واهمها هبوط سبارطة . ولكن نظرة واحدة الى التطور الذي رسمنا خطوطه الكبرى تكشف لنا عن اهمية حرب البلوبونيز . فإن هذه الحرب ، بمجد ذاتها ، تفرض نفسها على التاريخ باتساعها وطول امدها .

ثم انها ، بنوع خاص ، كانت منطلقاً لسلسلة حروب القرن الرابع التي عقيبتها وأنت على ما سلم من التدمير في كافة مناطق العالم اليوناني دون استثناء . وقد ضعفت هذه الحروب ، في كل مكان ، التوازن السابق ، وحررت قوى مستترة ، جهلت نفسها فيما مضى وقدّرت ، منذ ذاك الحين ، الخدمات التي قدمتها للمدينة . وأفقرت الطبقة الريفية المتوسطة التي كانت تدعم ، بعدد افرادها وثباتها ، التقاليد القديمة . وأبرزت أو زادت الخصومة بين الاغنياء والفقراء التي لم تكن من قبل سوى مظهر من مظاهر الخصومة بين النظامين المتقابلين ، والتي غدت اليوم مظهرها الرئيسي . فإذا ما عرضت المشكلة على هذا الشكل بمحدثها ، موجزة ومعتقة من عناصرها المعنوية التقليدية ، يتحتم والحالة هذه ، تغلب الديمقراطية لأنها تتفق ، أكثر من منافستها ، مع بعض النزعات العميقة الجذور ، على الأقل في الحضارة اليونانية الكلاسيكية . فالحرية وتفتح الشخصية الانسانية يستتبعان بالضرورة فكرة المساواة ، كما ان المفهوم المتبع للمدينة والمواطن يوصي منطقياً بأنظمة سياسية تمنح الحقوق نفسها لجميع اعضاء الهيئة المدنية . وكان من الواجب ، لإيقاف الدفعة الديمقراطية ، تبديل مثل « البولس » الأعلى بالذات ، وهذا ما لا يتوفق إليه ، على الرغم من حدّة هجماتهم ، فلاسفة القرن الرابع المشهورون اجمالاً برغبتهم عن الديمقراطية . فكانت دعاوتهم ، عند سواد معاصريهم ، صرخة في واد ..

بيد ان الديمقراطية اليونانية لم تسر في المنطق الى ابعد من هذا الحد . وقد يستهويننا ان نصمها بالتناقض لانها حصرت في مواطنيها دون غيرهم ، حقوقاً كان من المتوقع ان تمنحها لغيرهم بمزيد من السخاء . أجل يبدو في تعاليمها بعض دلائل الشمول . ولكن هذه التعاليم لم يتسع نطاقها ، لا بل انها لم تشمل أناساً يقيمون في اراضيها ، منذ اجيال أحياناً ، ويمارسون عملياً حياة المواطنين اليومية . ان هذه الثغرة ، في الناحية الانسانية من الحضارة اليونانية الكلاسيكية التي تشدنا إليها ألف صلة وصلة ، من الخطورة بحيث لا يجوز ان نشير الى وجودها مجرد إشارة فقط .

صحيح ان أثينا ، مثال الديمقراطية اليونانية ، لم تفكر هنية واحدة بالغاء الرق . واكتفت من هذا الأمر ببعض المستجدات الشرعية التي رافقت بعض ما طرأ على الأخلاق من رفق وخففت بعض الشيء من مصير الأرقاء فيها بالمقارنة الى المدن الاخرى .

صحيح ايضاً ان أثينا قد اعتمدت ، حيال الأجانب ، حرماناً شرعياً رافق تقدمه تقدم الديمقراطية . ففي اوائل القرن الرابع ، فكر صولون باعطاء صفة المواطن لمبعدي المدن الاخرى وللأجانب الذين يأتون مع عيالهم للعيش والعمل في « الأتيك » . وحين قام كليستين ، بعد ذلك ، باعادة توزيع المواطنين الطبقي ، استفاد من الظرف لتسجيل مقيمين أجانب عديدين كمواطنين . ولكن هذه المعاملة الكريمة زالت خلال القرن الخامس ، ومع ذلك فقد بقيت أثينا مضيافة . وعاش هؤلاء المقيمون على اراضيها بأعداد كبيرة وكانوا بنشاطهم عنصراً

ضرورياً لازدهارها الاقتصادي . فاختلطوا بالمواطنين وعاشوا مثلهم على مساواة في المهنة والثروة ، أقله في المدينة ، إذ ان الريف لا يستهويهم بسبب حرمانهم من حق التملك . وتلقى اولادهم تربية اولاد المواطنين نفسها ، وفي المدارس نفسها . واخضعوا للواجبات العسكرية والمالية نفسها التي أخضع لها المواطنون ولم يميزهم عنهم ، على هذا الصعيد ، سوى رسم سنوي طفيف فرض عليهم . وحوكموا أمام المحاكم نفسها ، ووفقاً للقانون نفسه . واشتركوا أخيراً اشتراكاً وثيقاً بحياة المدينة الدينية والأدبية . ولكن لا مكان لهم في حياة المدينة السياسية . فلا يسعهم الاشتراك فيها إلا بحصولهم على صفة المواطن ، وقد نجحت أثينا بهذه الأعطية . وفي الظروف العادية لا تمنحها أثينا إلا لبعض الأفراد مكافأة لهم على بعض الخدمات الجلّى في مختلف الحقول . ومن النادر جداً ان يكون المنح جماعياً .

من أوجه التناقض ايضاً ، أن تتلنى أثينا ، في عهد متأخر ، بناء على اقتراح اوسع رجال الدولة الديموقراطيين نفوذاً وأشهرهم ذكاء ، تشريعاً يتصف بنزعتة العنصرية الظاهرة . فخلال وقت طويل - وفي غير أثينا ايضاً - حق لمن كان ابوه مواطناً وأمه أجنبية ان يكون مواطناً : وهذه كانت حال كليستين وحال كيمون بن ميلتيادس مثلاً . ولكن القانون الصادر في السنة ٤٥١ - ٤٥٠ والذي اقترحه بريكليرس نفسه يقصر المواطنة على الاولاد الشرعيين على ان يكون كلا الوالدين أثينيين . اما الاولاد الآخرون فلا يستطيعون الحصول عليها إلا بقرار فردي لأن القانون يجعل منهم أنغلاً أو اجانب . وليس استصدار هذا القرار بالأمر السهل : فقد وجب ، بصورة خاصة ، ان يفقد بريكليرس اولاده الذين أنجبته لهم أمهم الأثينية حتى يصدر مرسوم بمنح صفة المواطن للولد الذي أنجبته له أسباسيا الميلية .

كان بريكليرس هذا نفسه منشئ الامبراطورية الأثينية الرئيسي في الديمقراطية والاستعمار
القرن الخامس التي قضت عليها حرب البلوبونيز والتي أراد أثينيون
القرن الرابع ، الذين ما فتئوا يحنون اليها ، إعادة انشائها . ومن النافل هنا ، ان نسهب في محاولة رسم صورة للاستعمار الأثيني . فإن قسوته التي لا تعرف الشفقة ، وتتصف بالمبرك في القرن الرابع ، وتجاوزاته المستمرة على حريات اولئك الذين تعاملهم أبداً معاملة « الرعايا » على الرغم من انهم يحملون اسم « الحلفاء » ، وععبء متطلباته الثقيل في شتى الحقول ، خطوط لا يستطيع احد ان ينكرها ، ولا ينكرها احد بالفعل . يحاول البعض العثور على خشبة الخلاص في ديموستينس الذي توفق فعلاً ، في بعض نفحات خطبه الرائعة ، الى وضع برنامج اتحاد حر تدخله الدول اليونانية للدفاع المشترك عن استقلالها . ولكن خطباً اخرى للخطيب نفسه تعبر عن التأسف على سيطرة سالفة ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن المشاريع في سبيل تأمين المساواة بين المشتركين في الجهود العام لم تكن سوى مجرد حيل خيرة فرضها تهديد فيلبوس المتفام . واكثر عدداً هم المؤرخون الذين يحاولون ، دفاعاً عن أثينا ، الاستشهاد بالأمثلة الرائعة ، من فكرية

وفنية ، التي وفّرتها للحضارة اليونانية ؛ فقد سبق لبريكليس ، اذا صدقت رواية توسيديد ، ان قال : « أثينا مدرسة اليونان » . أجل ، ولكن المعلم قد تقاضى بشئى الوسائل من تلامذته رسوماً مرتفعة . فليس بعد العيان بيان : اذا كانت هنالك مدينة يونانية توفرت لها الامكانيات ، بفعل قوتها ونفوذها والمبادئ نفسها التي اعتمدتها في تنظيمها الداخلي ، لتحطيم الحواجز التي قسّمت العالم اليوناني مدناً متعدّدة والسموّ بهذا العالم الى وحدة سياسية عليا ، فان هذه المدينة دون ريب هي أثينا . وقد يستهوي انسان اليوم ميل دائم الى الاعتقاد بأن الواجب كان يفرض على أثينا القيام بذلك ، بمجرد تمكنها من محاولة القيام به . ولكنه مضطر للاعتراف بأنها تهربت من هذا الواجب . فكم كنا نتمنى التوفيق الى بادرة او بداية ، ولو وضعية ، تتم عن توسع المدينة الاثينية وانفتاحها ، ولكننا لا نرى ولا نلمس شيئاً يذكر يوازن ابقاء المقيمين الاجانب في ظل نظامهم المتأخر او قانون السنة ٤٥١ - ٤٥٠ .

تبرز الديمقراطية الاثينية ، والحالة هذه ، اذا ما نظرنا إليها بمفاهيمنا الحديثة ، وكأنها أوليغارشية فعلية لا يميزها عن الأوليغارشيات الحقيقية سوى انها اوسع عدداً . ولكن المفاهيم الحديثة لا تكون قياساً كاملاً . والدليل على عدم كمالها يتضح بتسليم كافة المجتمعات القديمة بالرق كضرورة طبيعية او كواقع أساسي . فمن حيث التحديد ، يجب ان يتمتع المواطن بحريته الشخصية . فكيف يمكن ان يصبح العبد مساوياً من الناحية السياسية بمن يبقى سيّده ، وكيف يمكن تجنب هذه الفظاعة دون قلب التنظيم الاجتماعي رأساً على عقب .

الديموقراطية اليونانية
وليدة زمانها

اما من حيث موقفها من الاجانب ، فيجب النظر الى الديمقراطية اليونانية كما هي ، مع ما تستلزمه من ضيق أفق وأنانية ، ولا غرابة بالتالي في ان تكون احدى الأوليغارشيات اكثر ترحيباً بهم ، اذ ان المواطنة السلبية ، لم تحظ بأية مكانة في نظرها . ثم ان عظماء الاشراف من جهة ثانية ، كانوا ابعد من ان يرضوا بحصر تعطشهم للنشاط والمجد ومطامعهم الزوجية وشائج قرباهم في حدود « البولس » الضيقة . وقد استهدف صولون ، من استمالة الاجانب ، انهاء النشاط الاقتصادي ، كما استهدف كليستين ان يصهر ، في الهيئة المدنية التي فرض عليها نظاماً جديداً ، عناصر معادية للنظام القديم . فحين تحررت الديمقراطية المنتصرة من نفوذ العائلات الارستوقراطية الكبرى ، وحين أفضى الازدهار الاقتصادي الثابت الاقدام الى تكاثر المقيمين الاجانب ، كان من الطبيعي ان يتبدّل سلوك الاثينيين .

بالاضافة الى ذلك ، وفوق الاعتبارات الانتهازية ، يجب ان نفسح مجالاً لمثل المدينة الاعلى بالذات . فيجب ألا يغرب عن بالنا ان المدينة اليونانية ليست اقليم المواطنين بل مجموعهم . لذلك فسلامة حدودها البشرية اهم من سلامة حدودها الاقليمية . ثم ان المدينة اليونانية لا تعتبر استقلالها سليماً ومؤمناً إلا اذا اقعدته على سيادتها . فإنما هي انانية المدينة الطبيعية على

الصعيد الدولي التي ترقدي ، بانتقالها الى الصعيد القومي ، شكل انانية المواطنين. وبمقدار ارتفاع قيمة حسنات المواطنة المادية والمعنوية ، يتوجب التمسك الحريص بحق الانتفاع بها . وبمقدار اقبال الاجانب على عاصمة الامبراطورية وعلى وسط ايجه التجاري وعلى مركز اشعاع الحياة الفكرية والفنية ، يزداد خطر ادخالهم في نظام المواطنة ، لأن من شأن هذا الادخال ان يغتمر المدينة ويقضي على صفاتها المميزة التي تجعلها هي بالذات لا غيرها . فماذا نقول اذن عن صهرها في دولة أرحب اتساعاً يصبح فيها جميع الاغريق مواطنين والمدن ذات السيادة مجرد قري ؟ لو ان هذا الحلم ، الذي نراه اليوم طبيعياً في خضم الوحدات القومية ، راود فكر اغريقي في ذاك العهد ، لرأى فيها فظاعة ما بعدها فظاعة ، لأن البولس كانت في نظره المعطية الاساسية والاطار الطبيعي لكل حياة متحضرة .

فلا تناقض اذن في الديموقراطية اليونانية التي حققت المثل الاعلى الكلاسيكي باقامة المساواة بين جميع المواطنين وانقادت له ايضاً باقصار هذه المساواة عليهم وبشبوتهما في وجه تسلل الاجانب ؛ كما ان بريكليس ، بقانون السنة ٤٥١ - ٤٥٠ وبسياسته الاستعمارية ايضاً ، لم يناقض عمله الداخلي ، بل اكمله على قناعة منه انه إنما يعمل على توطيده .

الفصل الثالث

الحياة المادية والاجتماعية

١ - المجتمعات الريفية

من حيث ان اليونان تجزأت سياسياً الى مدن عديدة ، ظهرت الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها بمظاهر متنوعة جداً . فالأسفار بحرية على العموم بسبب فقدان الطرقات . ولكن مدناً كثيرة نائية عن المرافئ تتصل بهذه المرافئ وبمدن داخلية اخرى بواسطة مسالك سيئة فقط . لذلك ، وباستثناء بعض النقاط المحظية ، لا يمتزج الرجال والافكار ولا تقايض المحاصيل إلا بقدر محدود جداً . فعنصر الوحدة الفريد ، اذا ما اردنا ، بأي ثمن ، اكتشاف مثل هذا العنصر ، يكون والحالة هذه سيطرة الحياة الريفية في كل مكان تقريباً ، اذ ان سواد سكان اليونان يعيشون في الريف ومن الارض . اما توسع بعض المدن وتجميلها وحيوية نشاطها البحري فيجب ألا نكون عنها صورة خادعة .

ولكن هذه الحياة الريفية نفسها ، على الرغم من مماثلة ظروفها العامة تربية ومناخاً ، لا تتخذ الاشكال نفسها في كل مكان .

ان في بعض المناطق ثروات عقارية طائلة . وهذه المناطق انما هي تلك التي كبار الملاكين تتميز ارضها بالخصب اقله لزراعة الحبوب ، او تكثر فيها المراعي التي تسمح بتربية المواشي الكبيرة لا سيما الخيل ، أي ، على العموم ، المناطق السهلية التي يجري فيها نهر دائم الهمي تقريباً . ويتمتع المحظيون مالكو الارض بقدر من الثروة يتيح لهم اجراء الاختبارات فيها واعتماد الاساليب الزراعية الجديدة . فالسهم يعود الفضل في انتشار استعمال الاسمدة والمروج الصناعية في القرن الرابع ، فأفضى ذلك الى تخفيض مساحات الارض البور وانتشار تربية المواشي . ويرسم كسينوفون في كتاب « الاقتصاد » صورة مثالية للسيد النابه

الذي يتلقف ذهنه كل جديد ويهتم بفهم لمصالحه ويدير بحزم شؤون بيته بواسطة زوجته التي يغدق عليها النصائح الخيرة وشؤون اراضيه التي يرافق استثمارها عن كثب .

ان كبار الملاكين هؤلاء لا يعملون بأيديهم . فهم النخبة الاجتماعية في الارياف وحق في المدن ، لانهم ، بفعل نبلهم ، مدينون بأموالهم لجدودهم . يقضون ايامهم ، بعد الاستسلام لأهواء شبابهم في المدينة ، في بيتهم العائلي القديم المتوسط عقاراتهم . وما مثل الارستوقراطية القديمة الاعلى في الحقيقة سوى مثلهم بالذات : فلا تمنعهم هواية التمارين الطبيعية والصيد والفروسية والاطعمة الفاخرة من تقدير قصائد بنذاروس ، حتى ولا مآسي أوريبيد التمثيلية في مقدونيا الشديدة البرد . ومن حيث انهم اشراف محليون ، فانهم يهتمون لحياة القرية او المقاطعة الصغيرة اللتين تتقدم فيهما عائلتهم على غيرها واللتين ينظر الجميع الى عباداتهما كإرث خلفه لهم جدودهم . ويلعب اشهرهم نسباً واغنائهم ثروة واكثرهم إقداماً وذكاء دوراً هاماً في حياة المدينة نفسها . ولكن نفوذهم حاسم في دائرة اقل اتساعاً . فالعمال الزراعيون المرتبطون بهم بمثابة زبن يتفانون بالضرورة في سبلهم . ويتأثر بهم ايضاً فلاحو الجوار الاحرار حتى ولو لم تربطهم بهم اية رابطة قانونية . وقد يصح ان نتكلم ، في بعض المناطق المتخلفة كتساليا ومقدونيا ، عن الاسياد واصحاب الاخاذات لان هؤلاء قد توصلوا ، عند الحاجة ، لان يجندوا المزارعين في اقطاعاتهم لاجل الحرب الخارجية او الاهلية .

وهناك اكثر من ارتباط اقتصادي أو امانة في الخدمة احياناً . فليس من مكان الفداية
قط يجري فيه الاستثمار على نطاق واسع بواسطة الأرقاء الموزعين فرقاً بمراقبة رئيس للعمال : لان هذه الطريقة لن يعتمدوا احد قبل الرأسماليين الرومان . ولكن الفداية واقع راهن هنا او هناك ، وهي تعني استثمار الارض بواسطة رجال مرتبطين بها غير مسموح لهم بمغادرتها . واذا كان الفداديون ، في تساليا او كريت مثلاً ، ملك صاحب الارض ، فان اكثر الحالات غموضاً هي حالة الفداديين الرسميين في سبارطة .

للدولة وحدها حق تحرير فداديينها ، وهي التي وضعت نظامهم وألحقهم باقطاعات لم تمنح مواطنيها مبدئياً سوى حق الاقتناع بها . ينشئ الفداديون عائلاتهم بحرية ويزرعون على هواهم قطعة الارض التي أقاموا فيها . ولا يتوجب عليهم ، للمواطن الذي تُخصت به هذه الارض ، سوى فريضة عينية سنوية تحدد مرة واحدة ، ويحتفظون بحق التصرف تصرفاً كاملاً بالفائض من المحاصيل .

يبدو مصيرهم ، من الناحية الاقتصادية ، محتملاً على الاقل . والدليل على ذلك ان ستة آلاف فداي ، في اواخر القرن الثالث ، يمتلكون المال الكافي لشراء حريتهم من الدولة بدفع مبلغ يوازي ، في ذاك العهد ، السعر الوسطي لعبد جيد . اجل هنالك واجبات اخرى تنوء عليهم بثقلها : الخدمات المنزلية التي نجعل نوعيتها ، وتقديم الخدام للمساعدة على حمل العدة وحق

تقديم المشاة الخفيفي التسلح الذين يرافقون المواطن في الحملات العسكرية . ولكن ما يصعب حالتهم ، على ما يبدو ، هو التدابير الشرطية التي تتخذها سبارطة بحقمهم : كإطلاق الحرية للفتيان السبارطيين ، خلال خدمتهم العسكرية ، بقتل كل فدادي يتجول ليلاً ، وكتحذير حمل الاسلحة عليهم . ولعل المسؤولين في سبارطة كانوا يشتبهون خاصة بالمستينيين الذين استعبدوا منذ القرن الثامن وثاروا بعد ذلك اكثر من مرة . ولكن اضطراب جبل الامن قد استمر حتى بعد استعادة مستينيا استقلالها على يد ايبامينونداس في السنة ٣٧٠ ؛ كما ان الملوك الثوريين ، كليومينوس الثالث ونابيس ، في سبارطة الهلينية ، قد لاقوا عضداً لدى الفداديين . فليس الفدادي ، كمزارع مضطر لدفع فريضة غير مرهقة ، من تألم بنوع خاص من هذا الوضع وهذه القسمة ، بل الفدادي كإنسان يتزايد إحساسه بكرامته في عالم تسير فيه الفردية بخطوات حثيثة .

غير ان مناطق الثروات العقارية الطائلة ، حيث تزرع الارض بواسطة عمال صغار الملاكين زراعيين او فداديين ، لا تغطي سوى قسم ضئيل من مساحة ارض اليونان . فهناك نظام زراعي آخر يسود البلاد بشكل ظاهر جلي ، اعني به نظام الثروة العقارية المحدودة التي يستثمرها مالكيها بالذات . نعرف هذا النظام معرفة تامة في افريقيا ولكننا نعرف انه يسود في غير مكان ايضاً ويكون بلا مرأى المثل الاعلى لسواد الاغريق الاعظم . وهو نفسه تلك الحياة التي سعى وراءها في القرنين الثامن والسابع من هاجر منهم الى المستعمرات المؤسسة حول حوض البحر الابيض المتوسط . وهو نفسه الحياة عينها التي سيسعون وراءها في الشرق ، متتبعين خطى الاسكندر ، او ملين نداء الملوك الهلنيين .

اما في أثينا فإن إعادة نظام الاملاك الصغيرة وحمايتها فيها مأثرة القرن السادس ، والقرن الخامس هو عصرهما الذهبي . فلا أجنب في الارياف لأن المبدأ الرئيسي هنا ، شأنه في كل النواحي ، يقصر على المواطنين حتى تملك العقارات . ثم أدى توزيع الارث بين البنين الى تجزئة الارض . ففدا اكثر من نصف المواطنين يملكون شتياً من قطع الارض النائية عن منزلهم الحقيقي . وكثيراً ما طرأت هذه التجزئة نفسها وهذا التشتت عينه على ممتلكات الدولة والجماعات والمعابد . فاستطاع الفلاح بسهولة ان يوسع ملكه الخاص باستثماره ، عن طريق التعاقد الحر ، قطعاً قريبة منه قد تبقى باثرة لولاه .

ولكنه ، على الرغم من عمله الجاهد ، لا يحقق الثروة فيها . وفي المناطق الجبلية يعيش بالتقير حطابون وفحامون تعودوا شطف العيش او رعاة ينتقلون بقطعانهم حيث الكأ والزرع . فالمرج الجيدة نادرة جداً . ولا تعطي الارض الزراعية نفسها سوى انتاج متدن من الحبوب بسبب جفاف وحر الصيف الباكرين وفقدان رؤوس الاموال والنسق المطرد الواحد . وتحول الأدوات البدائية دون الفلاحة العميقة . وتفرض الحاجة الى الاسمدة ، بسبب ندرة

المواشي والتقنية المتأخرة، ترك الأرض بوراً سنة بعد سنة وحرثة الحقول المزروعة ثلاث مرات في السنة ، ربيعاً وصيفاً وخريفاً ، تأميناً لاستمرار الرطوبة فيها . وليس بمكنة الفلاح عملياً ان يبيع الحبوب ولا يوفر له فائضاً انتاجياً ، وبالتالي بعض المال ، سوى الاشجار المثمرة كالسبن والكرمة والزيتون . فكان عمل جدوده وحرمانهم في هذه الحقول المشجرة ، بمثابة رؤوس اموال ينتفع هو بفائدتها السنوية . ولكن المال يعوزه لتحسينها ، او لتجديدها فقط ، اذا ما عبثت بها ايدي الغزاة . ولا مطمع عنده ، من جهة ثانية ، سوى تحصيل ما هو ضروري لحياته ولا يقبل بأي شكل باهمال زراعة الحبوب . لذلك فانه يتعنى كثيراً ، تعاونه عائلته التي تفرض عليه ظروف حياته بأن يقصرها على عدد محدود : بعض الاولاد وعبد او عبدان ، لانه يعجز عن استخدام واعالة عدد اكبر .

ولكنه بذلك سيد نفسه ، يشعر ، في استقلاله ، باعتزاز حلال . ويضيف النظام الديموقراطي الى هذا الاعتزاز حبوراً يولده فيه تمكنه من الاسهام في ادارة الشؤون العامة كعضو في الجمعية الشعبية وممثل او قاض صغير . وتغريه هذه الوظائف بنوع خاص ، عملياً ، حين تحول سنه دون قيامه بالاعمال الزراعية الشاقة ، فلا يرى ضيراً إذ ذاك ، في ان يسير قبل الفجر ، يقوده احد الاولاد على ضوء فانوس خافت ، في الطرقات الموحلة المؤدية الى المدينة حيث تبدأ جلسات الجمعية والمحكمة في موعد مبكر . اما في شيخوخته فيؤثر العمل في املاكه على ضياع يومه سعياً وراء ربح بعض الدريهمات . ولكنه ، حتى في الانظمة الاخرى التي تقصيه عن الحياة السياسية بسبب ضعة نسبه او هزال ثروته ، او في تلك التي تخضعه عاداتها للنفوذ المطلق الذي ينعم به اشراف واثرياء الجوار ، يعمل على هواه ، لا يتلقى الاوامر من احد ، في الأرض الموروثة عن آبائه والمعدّة لابنه . وفي زمن الحرب ، يرتدي دون قلمل ، في سبيل الدفاع عن ذويه وبيته واشجاره وحصائده ، عدّة الهوبليت التي هي إرث والديّ ايضاً . ولكنه يتوق بالسليقة الى السلم الذي يتيح له حياة تتميز بالبساطة والقناعة يرضى منها بأكل شعيره المسلوق وبصل حديقته وعسل قفرانه وتين وزيتون بستانه ، مقصراً طهي الطعام على ايام الاعياد فقط التي يتناول فيها ، مع بعض الاصدقاء من جيرانه ، وجبة تستلزم لحم الخنزير وقارورة نبيذ من كرومه ، متبادلاً معهم احاديث غالباً ما تسيطر عليها السباحة . ورغباته المتواضعة واقراحه المبتذلة وشقاوته هي التي احاطها أرسطوفانوس بشعر فيه نضارة ندى الصباح وحسيس خفقان أجنحة النحل الطائر .

٢ - المقايضات

لم توفر هذه الحياة الريفية للاقتصاد اليوناني سوى قاعدة ضيقة جداً ،
الاقتصاد المركب :
حتى عندما امنت شرّ ويلات الحروب والاضطرابات الاهلية ، في اهنأ
شراء وبيع
ايام العهد الكلاسيكي . وعلى الرغم من قناعة السكان لم تستطع اليونان
تأمين غذائهم بمواردها فقط ، باستثناء بعض المناطق التي اغدقت الطبيعة عليها العطاء ، او تلك

التي ضوّلت فيها كثافة السكان . فتوجب عليها في المناطق الاخرى استيراد المواد الغذائية من صقليا وايطاليا الجنوبية ومصر وشواطئ البحر الاسود الجنوبية . ولكنها اضطرت لأب تصدّر محاصيلها الى هذه البلدان كي تسدّد اثمان المواد المستوردة منها . فباعتها النبيذ والزيت ، وهما الانتاجان الوحيدان اللذان يفيضان عن استهلاكها . وباعتها مصنوعاتا ايضاً ، وهي ضرورات اساسية فرضها عليها « الفقر ، شقيقتها الرضيع » كما قال هيرودوتس ، وأدت الى نمو اقتصاد كثير التعقيد .

فازدياد النشاط الصناعي يستلزم الحاجة الى الخامات التي لا يسدها غير الاستيراد . والبيع والشراء من الخارج يقتضيان اسطولا تجارياً لا تكفي موارد اليونان القديمة ، اذا ما بلغ اهمية معينة ، لأن تؤمن المواد الضرورية لبنائه وصيانتة . ولكن هذا الاسطول نفسه مورد ارباح لأنه يتيح لقادة المراكب القيام بدور الوسطاء والسماسرة في جميع انحاء حوض البحر المتوسط . ومن شأن حركة التجارة المتزايدة اخيراً ان تضاعف عمليات الصرافة ونقل الاموال وان تدفع الى الامام ، بالتالي ، بتجارة النقد التي تتحول الى نشاط مصري .

لم يتغلب هذا الاقتصاد المتنوع على الاقتصاد الريفي الا في نقاط المراكز الاقتصادية الكبرى :
أثينا
معدودة من البلدان اليونانية ، أي في بعض المدن وبعض المرافئ القائمة في مواقع جغرافية ممتازة والآهلة بسكان عالي الهمّة او كثيري التعرض للفاقة ساعدتهم ايضاً ظروف سياسية مؤاتية .

وتبرز في هذا العهد ، من جهة ثانية ، نزعة واضحة الى التجمع والمركزية . ففي صقليا تسير سيراكوزا قدماً في تفوقها السابق الراهن . وفي مناسبات عدة ، يتيح لها نفوذها وقواها العسكرية ، التي امنت لها الانتصارات على قرطاجة ، انشاء امبراطورية ابعد من ان تكون سياسية فحسب ، فتدمر او تخضع مدناً اخرى او تستفيد على الاقل من تدمير الغير لها . وتساعد الهجرة ، الطوعية تارة والقسرية اخرى ، السقي يسهلها او يفرضها المستبدون الذين يوزعون المواطنين بسخاء ، مستهدفين القضاء على تلاحم رعاياهم المعنوي ، على ازدياد عدد السكان ازدياداً عظيماً . وفي ايطاليا الجنوبية ، نرى طارتنتا ، وان لم تعرف مثل هذا النصيب ، تبرز هي ايضاً بروزاً نهائياً خدمها فيه تأخر جيرانها الذين يقرض بعضهم بعضاً او لا يتمكنون مثلها من مقاومة ضغط الايطاليين . وفي اليونان نفسها تصبح مراكز ازدهار الحياة الاقتصادية اقل عدداً من ذي قبل . فلتسقط خلقيس وايرتريا وايجينا او تزول امام نمو اثينا المطرد . وتعيش المدن اليونانية الآسيوية في ضيق ، حتى بعد ان انتهت الاعمال الحربية مع الامبراطورية الفارسية بتحريرها وبعد ان فتحت آسيا اسواقها لتجارها . اما كورنثوس فتحافظ على مكانتها ، بفضل موقعها الممتاز للتجارة مع صقليا وايطاليا ، وبفضل توسطها بين بحر ايجه والبحر الغربي لاسيا وانس الدوران حول البلبونيز يخيف الملاحين . ولكن هذا التجمع كان جليل الفائدة لاثينا بنوع خاص

اذ انها تتقدم تقدماً مطرداً يكاد لا يتوقف حتى حملة الاسكندر وتلعب بلا مرء دور العاصمة الاقتصادية للعالم الايجي .

يعود الفضل في هذا التقدم الى قوتها والسيادة البحرية التي يُعترف بها او تُفرض فرضاً غداة الحرب الميدية الثانية ، والى « الامبراطورية » التي تسيطر عليها حتى هزيمتها في السنة ٤٠٥ ، و « الاتحاد » الذي اسسته في السنة ٣٧٧ والذي يدوم رسمياً حتى السنة ٣٣٨ . فهي تستحلب من حلفائها او رعاياها ، باسم « جزية » او « مساهمة » ، امدادات نقدية تغذي خزائنها بصورة مباشرة . تجمع الملاحين لمراكبها في كافة المدن البحرية الخاضعة لها وتحصل فيها على تسهيلات تجارية وامتيازات حقوقية لمواطنيها . ويساعد النفوذ الذي تنعم به على ذبوع طرائقها الفنية وبالتالي منتجاتها الصناعية ، فيثبت الاسطول الحربي منذ ذاك الحين انه اداة دعاوة نافذة . تساند قوتها السياسية نفوذها الاقتصادي ، وتعاضد قوتها الاقتصادية بالمقابلة نفوذها السياسية . فاثينا مدينة لازدهارها بطاقات مادية وبشرية تتيح لها بناء وصيانة اسطول هو في الاساس من قوتها ، كما ان مكانتها التجارية تضعها في مركز تستطيع معه القيام بالضغط وقطع بعض موارد التموين عن اعدائها ، وحتى فرض حصار شديد حولهم . فيتضح اذن ان هنالك ، في كلا الاتجاهين ، صلة وثيقة بين السياسة والاقتصاد .

ان اثينا التي تستورد المواد الغذائية والخامات على نطاق واسع تصدر نبيذ وزيت حقول الأتيك ومنتجاتها الصناعية ولا سيما خزفياتها التي تكتشف اليوم كسراً على الشواطىء الممتدة من غاليه حتى روسيا الجنوبية . ويغدو مرفأ البيره بفضل اسطوله التجاري الذي تحميه قطعاتها البحرية ، بشهادة ايزوقراط ، « سوقاً تتوسط اليونان ... يسهل الحصول فيها ، بسبب وفرة البضائع ، على المصنوعات التي لا يمكن وجودها في غير مكان الا بصعوبة وبكميات قليلة جداً » . واذا ما أردنا الاقتصار على النواحي الرئيسية ، نقول ان اثينا تصدر المسكوكات اخيراً . فالفضة المستخرجة من مناجم الـ « لوريون » تسمح لها بان تضرب ، باعداد كبيرة وبربح قيم ، نقوداً مرتفعة الميار ودقيقة الوزن تعرف الرواج في كل مكان وتطمع هي ، اقله في امبراطوريتها خلال القرن الخامس ، بان تحتكر بواسطتها النقد الدولي المتداول .

وهكذا تكون ، في شبه الجزيرة الاتيكية هذه ، التي لم تحبها الطبيعة بأية مزية طبيعية ، بفضل تضافر ظروف بشرية مؤاتية جداً ، مركز اقتصادي يتصف بتنوع ونشاط وازدهار لم يعرفها مركز من قبل . ولكن هذا المركز يتصف بالهشاشة ايضاً لانه تحت رحمة كارثة بحرية — ايغوسبوتامي في السنة ٤٠٥ — او رقابة يفرضها عدو برّي — الملك المقدوني فيما بعد — على طريق المضائق والبحر الاسود التي لا غنى عن سلامتها وحريتها لتموين سكان المدن .

٣ — المجتمعات المدنية

لم يؤد اقتصاد المقايضات اذن ، بفضل انحصاره في مراكز معينة ، الى الاقلال من اهمية دور

الحياة الريفية في مجموع انحاء اليونان . ولم تنشط الحياة المدنية الا في بعض الامكنة فقط دون غيرها .

فالمدن اكثر من ان تعد في اليونان ولكنها وضعية في اكثر الاحيان . وهي تؤمن لسكان الارياف ، في ظروف الغزو ، ملجأ اسوارها وقلعتها . أما في ايام السلم فلا تنشط الحركة فيها الا في ايام الاسواق والجمعيات والاعياد الدينية . واذا ما حدث ان كان المعبد الرئيسي خارج المدينة ، تتعرض المدينة لان تهجر عملياً . وهذا ما جرى بالفعل لـ « ايليس » التي اسست في اوائل القرن الخامس والتي ارتبطت بها اولمبيا اولا . ولكنها لم تستطع منافسة نفوذها لدى مواطنيها انفسهم . فكان في اولمبيا في اواخر الالف الثالث ، كما يقول « بوليب » « عائلات على كفاف من الثروة لم يذهب احد من اعضائها ، منذ جيلين او ثلاثة ، لحضور جمعية في المدينة » ، لأن العدل تقرر اجراؤه في الارياف . فيمكننا ان نستخلص ، من هذه الحالة النادرة جداً ، الحياة الهادئة ، والخامدة غالباً ، في غالبية المدن الصغيرة .

اما في المدن الكبيرة فنعرف ، على الاخص ، طرازين حياتيين هما طراز سبارطة وطراز اثينا .

ان سبارطة التي ادهشت الاقدمين حتى الاعجاب قد حيرتهم في الوقت نفسه بمظهرها الحقير . اجل قامت فيها بعض الابنية ، التي شاهدها زائرون قليلون جداً على كل حال ؛ لانها منذ القرن الرابع لم تعد تلك المدينة المضيافة التي كانت . ولكنها ما كانت لتتجاوب مع الفكرة التي كوّنوها الاغريق عن المدينة . فلم تتوسطها القلعة ، ولم تحط بها الاسوار الا في تاريخ متأخر ، بل كانت اشبه بمجموعة قرى كبيرة .

يمارس مواطنوها ، منذ سن السابعة حتى سن الثلاثين ، التدريب والجندية ، ومنذ الثلاثين حتى الستين ، ينتمون الى قوة الاحتياط الدائمة التأهب المستعدة ، في النهار نفسه ، لتلبية نداء التعبئة ، والمفروض على افرادها ايضاً ، الا باذن استثنائي ، ان يتناولوا وجبة العشاء مع اولئك الذين سيكونون رفاقهم في الحميم اثناء الحملات العسكرية . يحظر عليهم كل سعي وراء الكسب ، وكل عمل غير التمرين الرياضي والعسكري . لا تضرب الدولة سوى نقود حديدية ، ويجب الا يقتني السبارطي الحقيقي معادن ثمينة . فالفريضة العينية المتوجبة على الفدائيين في املاكها تكفي نظراً لاعالته وإعالة أسرته دون ان يقوم بأي عمل .

كان من نتيجة هذا النظام العسكري والاجتماعي الصارم ان يضاعف ، الى جانب فئة « المتساوين » ودونها ، اي الى جانب المواطنين الكاملين ، فئات اخرى متدنية : الفدائيون في الارياف ، و « المهنيون » في اطراف الارض اللاكيديمونية الذين يجتمعون في مدن صغيرة ويتعاطون الزراعة الحرة والصناعة اليدوية والتجارة ، و « المتدنون » في سبارطة نفسها ، اي المواطنون المنحطون والانغال والمحروون وغيرهم كثيرون ممن يتوقون الى مثل اعلى هو العودة او الانضمام الى طبقة المتساوين . ولكن هذه العودة وهذا الانضمام ما كانا ليمنححا الا بقرار من

السلطات ، على ان يمتلك المستفيد منها ارضاً منتقلة اليه بالوراثة او بالزواج من وريثة غنية ، لان الفقر الذي يفرض العمل عقبة تتنافى مع وجوده في عداد المحظيين .

ان تعداد نتائج مثل هذا النظام ، الموضوع ، وفاقاً لمنطق لا يخلو من الخطأ ، بغية توفير جنود على مستوى عال من التدريب ، لسبارطة ، يؤدي بنا الى إطالة لا موجب لها . فيكفي ان نشير الى المظاهر الشاذة في الحياة العائلية : العزوبة المتكاثرة وإعالة الاخوة المحرومين من الاملاك والفداديين في بيت البكر ، والتحديد الطوعي للنسل الذي يسبب ، مع النقصان في الرجال ، هبوط سبارطة النهائي بعيد انتصارها في حرب البلوبونيز ، واقدام الدولة على انتزاع الفتيان من والديهم واشرافها اشرافاً كلياً على تربيتهم ، والسلطة التي تمارسها المرأة في عائلة غالباً ما يكون ربها غائباً وتؤمن هي إعالتها بثروتها او بعملها .

لنصف الى هذه المظاهر وتيرة الحياة اليومية الواحدة . فهي توفر ، في الايام العادية ، ملذات محدودة في نادي الرياضة وحقل المناورات وغرفة الاكل . ولا يدخل عليها التغيير بصورة عارضة الا رحلة القنص التي تحسن حصيلتها ، عند المساء ، اصناف وجبة العشاء . ويدخل عليها التغيير ، بنوع خاص في مواعيد معينة ، الاعياد الدينية التي 'يحتفل بها بكل دقة وفاقاً لطقوس قديمة غريبة تنظم تعاقب قيام الجوقات بتوزين مقاطع شعر قديم . فبسبب جمودها في تقاليد تباهى هي بالابقاء عليها ، وبانقطاعها التام تقريباً عن العالم الخارجي الذي لا تربطها به سوى طرقات سيئة او مرفأ « جيثيون » الصغير في خليج بعيد عمن بحر ايجه ، وبتهذيب السفر الى الخارج على مواطنيها والاقامة فيها على الغرباء ، لم تستطع سبارطة الاسهام بشيء في وثبة الحضارة اليونانية .

فستان ما بينها وبين أثينا .

هنالك منطقة واحدة في أرياف الأتيك عرفت حياة ريفية تختلف
مناجم وعبيد الـ « لوريون »
عن تلك التي وصفناها سابقاً ، هي جبل الـ « لوريون » جنوبي شبه الجزيرة . فقد ادى استثمار المناجم الرصاص الممزوج بالفضة ، هنسا ، الى تجمع بشري تباينت اهميته وفاقاً لنشاط الادارة او اهمالها ولوفرة العروق المعدنية المكتشفة او نضبها .

كانت الدولة الاثينية ، من حيث انها تملك الامتيازات ، تؤجرها للمستثمرين محتفظة لنفسها بالفضة التي تجمع بعد معالجة المعدن الخام . وكانت تركز لهذا الاستثمار اموالاً هامة يؤمن المستأجرون بواسطتها حفر الدهاليز ، واثان المواد وأجور اليد العاملة المتشلة بالعبيد . وقد حدث ، توصلًا لهذه الغاية ، أن اسست شركات احياناً . بيد ان بعض الرأسماليين ، من امثال نيكياس الذي لعب دوراً سياسياً كبيراً في أثينا ، ابان حرب البلوبونيز ، فضلوا تأجير الملتزمين عبيداً يعملون في المناجم لقاء اجر يومي . اما كسينوفون ، فقد اقترح في كتابه حول « المداخيل » الاحتفاظ بهذا الاستثمار للدولة التي كان بإمكانها ، بفعل قدرتها على تخصيص الاموال السلافية

لشراء المزيد من العبيد ، ان تضمن ، لا مجموع نفقات تأجيرهم للتلزمي المناجم فحسب ، بل المداخيل المتزايدة بفعل توسع الاستثمار الذي تفضي إليه زيادة اليد العاملة . ولكن هذا المشروع الغريب لم يتحقق قط .

يمكننا ان نتصور ، والحالة هذه ، مصير هؤلاء العبيد العاملين في المناجم بأشراف ملتزم يسعى وراء الكسب السريع ، ولا يهتم لاستبقاء طاقتهم على العمل ، ويدفع لهم أجوراً لا شك في انه يقدّرهما بدقة حتى لا يتأخر استهلاكها . وكانوا يعملون بأدوات بدائية في دهاليز ضيقة تنيرها مصابيح زيتية مدخنة . وكانوا يجمعون ، خارج المنجم ، في « معسكرات » حقيرة ، دون عائلاتهم ، طمعاً في تجنب نفقات تغذية اضافية ، تحيط بهم طبيعة كثيفة قضت الغازات الكبريتية المتصاعدة من المعدن المذوب على كل اثر للحياة النباتية فيها . وقد استهوى الهرب هؤلاء الاشقياء : فخلال حرب البلوونيز ، واستجابة لنداء الاعداء الذين احتلوا قلعة في الأتيك في سيرهم للقضاء على أثينا ، حطّم عشرون ألفاً منهم قيود إقامتهم الجبرية وانتشروا في الارياض التي ألقوا الرعب فيها . وفي هذه المناجم ايضاً انفجرت ، بعد ذلك بزمان ، ثورات عمالية كانت مقدمة لتلك التي ستواجهها روما في صقليا وايطاليا الجنوبية . لذلك فإن منطقة اللوريون وحدها في اليونان الكلاسيكية ، تتيح لنا تخيل ظروف اجتماعية شبيهة بظروف بعض المناطق الصناعية الكبرى في عالمنا المعاصر .

ان العبيد في المدينة ، اذا ما وجد العبيد ، لا يجمعون باعداد كبيرة في مكان واحد ، بل هم ، على العموم ، عبيد منزليون مشتتون ههنا وهناك . فالبيت الذي يخدمه عشرون عبداً تقريباً ، يخرج بعظمته عن النطاق العادي . وفي فقدان العبيد من البيوت ، دليل على الفاقة القصوى . ولكن البيت العادي ، لا يزيد عدد العبيد فيه عن الثلاثة او الاربعة ، وهم نساء بنوع خاص . ويمتزج هؤلاء العبيد بالحياة العائلية ولا يعاملون معاملة سيئة . ويحسد وجود الزوجة شبه الدائم في البيت من بعض تجاوزات الزوج . وليس من النادر ان ينشأ تعلق متبادل بين المرضعة او « المربي » وبين الولد الذي رافقه هذا المربي في نزهاته وعني بتربيته وتعليمه . وقد تسوّهل في عقد الزواج في البيت الواحد بين عبد وعبدة تربي ابنها الذي لن يعرف الحرية ، على كل حال ، شأنه في ذلك شأن والديه .

استخدمت الصناعة والصناعة اليدوية الأرقاء ايضاً . ولكن اكبر معمل وصلت إلينا أخباره ، وهو مصنع اسلحة في ايام الحرب ، لم يتجاوز العبيد فيه مائة وعشرين عدداً . وليس من تجمع صناعي حقيقي في اي مكان . ففقدان الآلة لا يساعد على ذلك واليد العاملة الكثيرة تستوجب رؤوس اموال ضخمة . فمثال المعمل الذي تصوره لنا الرسوم على الآنية هو معمل الصناعات المهني ، كالحداد والسباك والخزّاف ، الذي يعمل شخصياً مع بعض العبيد . فتقيم

الحياة اليومية والعمل المشترك بين هؤلاء وبين سدهم علائق لا تخلو من عاطفة السانية .

وقد يذهب بعض الاسياد الى ابعد من ذلك ، مستوحين في ذلك خرصهم على مصلحتهم الحقيقية . فبعد ان يدركوا ان هذا او ذاك من عبيدهم سيعمل باندفاع اذا ما كان حراً عملياً وأفاد من عمله إفادة شخصية ، يأذنون له ان يمارس ، لحسابه الخاص ، مهنة صغيرة او تجارة صغيرة او يؤسس عائلة ويعيش « على حدة » . غير انه يتوجب على هؤلاء المحظيين ، الكثيرين في مدينة ناشطة كأثينا ، ان يدفعوا فريضة يومية لسيدهم . فيعملون أنفسهم بم عزل عنه ويجمعون ثروة صغيرة بما يفيض عن كسبهم .

في مثل هذه الظروف ، يصبح من الطبيعي ان يتدنى الحاجز الراهن القائم بين الفقراء من الرجال الاحرار وبين العبيد . ولا يميز هؤلاء سوى شعر قصير . وهم لا يرتدون اي لباس خاص ، وكثيرون منهم اغريق أقحاح لم يفرض عليهم العمودية سوى ملابسات الحروب . وأخذ عليهم بعض المراقبين الشكسين صراحتهم الكلامية الوقحة . وقد حماهم القانون من شراسة الغير ولم يفته ان يحدّد بخمسين جلدة العقوبات الجسدية التي يستطيع القضاة أنفسهم ان يحكموهم بها في حالة ارتكاب الجرم . واذا ما كانوا محقين في التشكي من قساوة سيدهم ، جار لهم اللجوء الى بعض المعابد وطلب عرضهم للبيع ؛ واذا ما اقتنع الكاهن بحقيقة شكاويهم ، يرغم السيد ، عملياً ، على القبول بهذا البيع ويمدّد اجل وفادة الشاكي . فأثينا في هذا المجال ، قد سبقت المدن اليونانية الاخرى اسواطاً بعيدة : الاخلاق فيها اكثر عدوابة والقانون نفسه أخذ يتأثر بالاخلاق . وعلى الرغم من ذلك فان التحرير فيها لا يزال امراً نادراً ، كما لا نزال استثنائية نجاحات بعض العبيد المتميزين بنشاطهم وذكائهم الذين يتوصلون الى جمع ثروات حقيقية في التجارة والاعمال المصرفية ويحصلون لا على الحرية من اسيادهم فحسب ، بل على صفة المواطن من الدولة ايضاً التي يؤدون لها الخدمات المالية .

يدخل في عداد السكان الاحرار ، من الناحية القانونية فئتان من الاشخاص :

الاجانب المقيمون

الاجانب المقيمون والمواطنون .

يقيم الاولون في مساكن خاصة بهم . يوجد منهم ، بهذا الاسم او بغيره ، في كافة المدن اليونانية تقريباً ، باستثناء سبارطة التي تتحرز منهم ، وباستثناء بعض المدن المتأخرة جداً ايضاً التي تعتمد على الاقتصاد الريفي دون غيره . ولكن عددهم لم يتجاوز في اي مكان ، بصورة مطلقة او نسبية ، عددهم في اثينا حيث يوجد منهم واحد مقابل مواطنين اثنين او اكثر من واحد ايضاً اذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى الرجال . ومردّد ذلك ان الشهرة الفنية والفكرية التي تنعم بها المدينة ، بالاضافة الى نشاطها الاقتصادي ، تستهوي اولئك الذين يطلبون الاستزادة من المعرفة والشهرة ، ورجال الاعمال المقدامين ، والمهنيين النشيطين الذين يسعون وراء كسب عيشهم .

وهم يلقون في المدينة ضيافة عطوفة ، دون ان يشعروا بالضعة بفعل تمييز مهني . واذا ما استثنينا حرمانهم من الحقوق السياسية والملكية العقارية والرسم السنوي الضئيل الذي يدفعونه ، فلا شيء مما تبقى يفرقهم عن المواطنين ، اذ انهم يؤدون الواجبات العسكرية والمالية نفسها ويتمتعون بتسهيلات كبيرة في ممارسة عباداتهم الخاصة ويحضرون ، الى ذلك ، الاحتفال بالاعياد الدينية الرسمية ، ويستفيدون اخيراً من حماية القانون لاشخاصهم وممتلكاتهم .

يمارسون مهناً متنوعة جداً ، جرة وصناعية وتجارية . فليس تقريباً من فنان او اديب او عالم يوناني غير اثيني ، الا وقضى في اثينا شطراً هاماً من حياته قصيراً او طويلاً . وبين اشهر خطباء القرن الرابع ، الذين حافظ النحويون الاسكندريون على مؤلفاتهم ، لانها خليقة بان تدون في مجموعة « خطباء الأتيك » ، كثيرون ممن شرفوا بلاغة المحاماة في اثينا ، كـ « ليزياس » و « ايزيا » ، كانوا اجانب مقيمين . وكانوا اجانب مقيمين باكثريتهم ايضاً ، لاسيما في القرن الرابع ، اولئك الذين مارسوا المهن الصغيرة والتجارة التفصيلية (المفرق) واولئك الذين اداروا مشاريع اعظم اهمية ، بحرية وحتى تجارية . فمالك مصنع الاسلحة والمائة وعشرين عبداً الذين عملوا فيه كان سيراكوزياً ، وبالتحديد والد الخطيب ليزياس . وهكذا فان مجد وازدهار اثينا مدينان ، الى حد بعيد ، لعمل الاجانب المقيمين .

أجل ان في هذا الوضع لمغايرة للرأي العام إذ انه ، في الحركة الاقتصادية التي تسهم هذا الاسهام الكبير في ثروة وقوة أثينا ، يولي الاجانب اهمية لا تتناسب وعددهم . ولكن له ما يبرره ، دون ريب ، تفرد المواطنين في حقول اخرى . فهم اولاً ينعمون وخدمهم بحق الملكية العقارية الذي يقصر عليهم استثمار الارض وما تحت الارض ، الا اذا حصل المواطن الاجنبي على مثل هذا الحق في ظروف نادرة جداً . وينعمون وخدمهم ، ثانياً وخصوصاً ، بالحقوق السياسية ، وبالتالي بالمكسب المتواضع الكافي لمعيشتهم الذي توفره نجاحات الديمقراطية لمن يمارس هذه الحقوق .

انصراف المواطنين
عن النشاط الاقتصادي

منذ القرن الخامس ، توصل بريكليس الى اقرار هذا التعويض ، الذي تتولاه الدولة ، للقضاة واعضاء المجلس ومخلفي الحاكم الشعبية والمجندين . وفي اوائل القرن الرابع شمل هذا النظام اولئك الذين يشتركون في جلسات جمعية الشعب . وكان الهدف من ذلك السماح للمواطنين الفقراء ان يكرسوا وقتهم لخدمة المدينة وان يشتركوا في الحياة العامة شأن المواطنين الذين تجنبهم موارد المضمونة وسواس الميزانية العائلية اليومية . غير ان هذا التعويض قد بقي طفيفاً على الدوام ، دون اجر العامل الممتاز .

بتأثير التعويض اليومي

كان المهم ، على كل حال ، لا ان يسدّ وحده حاجات حياة متنوعة ، بل ان يساعد على ذلك كدخل اضافي . ومن حيث ان عدد المستفيدين منه كان مرتفعاً بفعل زيادة القضاة والمحاكم ، اذ كان يعين ستة آلاف محلف سنوياً - افضى هذا التعويض تدريجياً الى إثناء المواطنين عن

الاعمال المهنية . فقد بدا لهم الاسهام في تسيير أمور الدولة اكثر بساطة واستمالة من العمسـل الـيدري . وقد هاجم خصوم النظام بعنف هذه الطريقة التي رأوا فيها ، على حق ، احد الاسـس الرئيسية للديموقراطية . ولكن الغاية المقصودة من انتقاداتهم يجب ألا تحفي احدى النتائج المباشرة لتعميم التمويضات : نفوذ الاجانب المقيمين المتزايد في صناعة اثينا وتجاريتها .

وبفعل استمرار الاعتبارات القديمة ليس من سـك في ان عوامل اخرى قد فعلت فعلها في الموضوع نفسه ، لا سيما استمرار الاعتبارات القديمة التي لا تستسـيغ عملاً يُنفذ لخدمة وبأمر احد الزن ، او بانتظار زبون ممكن فقط . فقد جاء في التأبين الذي ينسبه توسـيديد الى بريكليس : « لا غضاضة في ان يعترف الانسان بفقره ، ولكن العيب كل العيب في التقاعس عن تجنب الفقر بواسطة العمل » . وان في هذا القول لاكثر من صدى لاقوال هـيزيود الذي عبر في « الاعمال والايام » عن رأي مماثل . افليس الهدف الحقيقي ، في هذه الحالة وتلك ، تقويم رأي عام لا يشجع العمل ؟ وفي الواقع ، اذا ما تقدم لنا ، بصدد اثينا الكلاسيكية ، ان القانون يعاقب من يأخذ على غيره مهنته ، فمن الامور الثابتة ان ديموستين انما يستهدف الخط من شأن خصمه ، اسـشين ، حين ينوه بان والديه قد تعاطوا منها وضـيعة . فالتقاليد القديمة التي لا تزال تسيـر الاخلاق تثبت اذن انها اقوى من الارادة الرسمية التي تعبر عنها خطب الحكام والشرائع ، كما تثبت ايضاً ان التطور ابطأ من هذه الارادة بالذات .

ان شؤونا كثيرة تصرف اغريق ذاك العهد وستصرف اغريق العهد اللاحق والرومان ايضاً عن ان يستخدموا في اختراع الآلات وصناعتها ، مهارتهم العظيمة ومعارفهم العلمية التي كان من شأنها ، في اكثر من حالة ، ان تحقق هذا الغرض بسهولة . كثيراً ما يقلل المؤرخون هذا الاهمال بوجود الاستعباد الذي يؤمن بقليل من المال ، آلات بشرية وافرة العدد . ويعـلـلونه ايضاً بفقدان اسواق البيع الواسعة التي كان من شأنها ، لو توفرت ، ان تزيد الطلب وتحمل على زيادة الانتاج . غير انه يجب علينا ، بالاضافة الى ذلك ، ان نفكر بالمثل الانساني الاعلى الموروث عن العصور السابقة الذي يحل ، في الاساس من استقلال الفرد الحقيقي ، خيار العمل الحر لمنفعته الشخصية دون اهتمام للمساومة او البحث عن الزن .

لذلك نرى خصوم السفسطيين يثور ثائـرهم عندما يرونهم يطلبون اجراً من تلامذتهم ، اذ ان تعاطي النشاط المأجور من الامور المعيبة . ولا ينجو من هذا الانتقاد سوى المالك الذي يشرف على استثمار ممتلكاته الخاصة . وفي المدينة يستسلم الغني والفقير للبطالة غير ساعيين على العموم وراء استثمار ثروتهما . فتستشري عدوى مثلها ، لا سيما وان المواطنين اقلية في طبقات العمال في المدينة ، فيسيطر الاجانب المقيمون في الاوساط التجارية ، اعني بهم ذوي اليسار والطبقة العمالية . ولن يلعب مالكو المصانع المتوسطة دور الادارة في السياسة الاثينية الا بعد موت بريكليس والاضطراب الذي خلـقته حرب البـلـوبونيز والذي جـسـرف الى داخل اسوار المدينة الريفيين الذين هـددـهم الغزو وافقرهم . ولعل افضل مثل للذين لعبوا هذا الدور هو « كليون » ،

ولكن السهام الساخرة التي وجهها اليه ارسطوفانوس تعبر عن احتقار الاولياغارشيين وعدم الثقة بالريفين . وفي الواقع فان الطبقة الاجتماعية التي مثلها كليون ما لبثت ان غمرها النسيان في القرن الرابع . اما ديموستين ، وهو ابن صناعي مشهور يملك معملين ، فكان الفضل في بروزه للمحاماه . شان اكثر الرجال السياسيين في عهده . فقد مضى زمن طبقة ذوي اليسار من رجال الاعمال . وكان سربع الزوال لان نسبة المواطنين في هذه الطبقة المتوسطة قد غدت ضعيفة جداً .

نرى ، والحالة هذه ، ان الظروف الادبية تحالف الظروف الفنية في فقدان الثروات الطائلة
بمو المشاريع الصناعية والتجارية . ومن حيث ان الاستثمار الزراعي لا يساعد على جمع الثروات الطائلة ، يصبح من الطبيعي ان تكون هذه الثروات الطائلة مادرة جداً .

كان « كالياس » ، في عهد بريكليس ، أوفر الاثنيين ثروة : فقد بلغت ثروته ، الناشئة عن استثمار المناجم بنوع خاص ، مائتي مئناً من الفضة (اي ما يوازي ١٠٢٠٠٠٠٠٠ فريك في السنة ١٩١٤) . وفي عهد لاحق اعتبر نيقياس غنياً جداً من حيث ان دخله السنوي بلغ احد عشر مئناً تقريباً بفضل العبيد الالف الذين كان يؤجرهم للترمي اللوريون . فالاول والثاني يهتان كلاهما ، اذن ، للصناعة المنجمية ، اي للناحية الاقتصادية غير الزراعية الوحيدة المحرمة على سواد الاجانب المقيمين . وبعد هزائم حرب البلوبونيز تدنى الحد الاقصى للثروات . ففي القرن الرابع لا يملك الاثينيون الثلاثة او الاربعة الذين اشتهروا بالثروة اكثر من خمسين مئناً . وقد اكد ديموستين ، بضع سنوات قبيل السنة ٣٥٠ ، « ان في اثينا ثروات توازي او تكاد توازي مجموع ثروات كافة المدن الاخرى » . اجل يجب ان لا ينظر الى هذا التأكيد كحقيقة راهنة . ولكنه اذا كان له ما يبرره ، فلا يمكن ان يصح ذلك الا بالنظر لمجموع سكان المدينة الذين يعيش قسم كبير منهم في البحبوحة واليسار الكريم . ويكفي فقر الطبقات الاجتماعية المتدنية ، التي تعيش يومها بالكفاف ، لان يوجد تبايناً ثابتاً بينها وبين الاغنياء . ولكن تكديس الثروات لم يتجاوز حداً معقولاً .

فهل كانت هذه حال المدن الاخرى في العالم اليوناني ؟ ان التماسيل الدقيقة التي قدمناها بصدد اثينا تغدو ، بصدددها ، نادرة جداً . يروى ان احد رجال المصارف في سيراكوزا توصل في اوائل القرن الرابع الى احتكار الحديد ، بنخمسين مئناً ، وربح في هذه العملية مائة مئناً . ولكنها مضاربة استثنائية قد تبرر نجاحها الحاجات الناتجة عن الحرب ضد قرطاجه . وليس من المعقول ، على كل حال ، ان تكفي اموال هذا الرجل لتحقيقها او ان يكون بالتالي المستفيد الوحيد منها . ثم ان التساهل حيال الاجانب ، خارج اثينا ، اقل منه في اثينا ، كما ان الدولة لا تدفع اي تعويض لقاء الاشتراك في جلسات المحاكم او الجمعية . لذلك فالمواطنون اقل انصرافاً عن النشاط الاقتصادي ولا ينافسهم المقيمون الاجانب منافسة ذات شأن . واذا ما استثنينا

كورنثوس ، استناداً لما يؤكده هيرودوتس ، - وهذا يعني اننا امام حالة شاذة - فان الصناعة والتجارة اقل اعتباراً في هذه المدن منها في اثينا .

ستنتج من ذلك ان الثروات الخاصة الطائلة لم تعرف قط في جميع انحاء العالم اليوناني الكلاسيكي . فهي ستبقى لزمن طويل وقفاً على الشرق . ولم يصعب على هيرودوتس ان يدهش مواطنيه بسرده امامهم اريحية ذلك الليدي الذي اعترف لكسر كسييس ، في السنة ٤٨١ ، ان ثروته المقدية ، دون عقاراته وعبيده ، تبلغ الفي من الفضة وقرابة اربعة ملايين قطعة نقود ذهبية اي ما يساوي مجموعه مائة مليون فرنك في السنة ١٩١٤ . فعند تفكيرهم بهذه الكنوز الاسطورية ، وعند رؤيتهم الملوك والمرازبة الفرس يدفعون الاجور المرتفعة للمرتزقة الذين يجندونهم ، وعند سماعهم روايات الرحالة عن عظمة البلاطات والمدن ، ينظر الاغريق الى الشرق حينئذ نظرتهم الى بلاد تفيض بالذهب . وقد اقتنع اكثر من واحد ، في القرن الرابع ، ان احتلال الشرق من شأنه ان يكون ، لمعالجة الآفات الاجتماعية والاقتصادية التي يتألمون منها ، دواء انجع من ثورة داخلية يدفع اليها الحسد ، محدودة في نتائجها بفعل ضالة الثروات النسبية التي ستتيح تقاسمها . وسيسهل هذا الشعور في تكوين الرأي العام الذي سيرافق الاسكندر في آسيا .

ولكن هذا الوضع يسمح ايضاً بادراك احدى الميزات الجوهرية في الحضارة اليونانية الكلاسيكية . فان تحقيقاتها التي تستلزم نفقات ضخمة تخضع لاشراف الجماعات دون الافراد . لذلك فان هذه التحقيقات انما تعبر عن حاجات ومقاصد الجماعات دون الافراد ايضاً .

٤ - المدن والحياة الخاصة

يتضح لنا والحالة هذه سبب الاعتدال العام في مظهر المدن ، اقله فيما يتعلق البيره راثينا بحياة السكان الفردية والخاصة .

ان اكثر المدن سكانا واكبرها واغناها على الاطلاق هي اثينا التي تكملها ، على مسافة سبعة كيلومترات ، مدينة أتيكية اخرى هي البيره . تحيط باثينا نفسها اسوار محصنة ؛ ويحمي البيره سور آخر يحيط بشبه جزيرة لـ « اكي » ، وتربط بين المدينتين اخيراً وتصل أثينا بالبحر « الجدران الطويلة » او « السيقان » . ولم تخصص اية مدينة اخرى حينذاك مثل هذه العناية والجهود والموارد لايثاق الصلة بين مراكزها الحيوية وللدفاع عنها . فقد توصلت اثينا بذلك الى تحسين مركزها البري والتحول الى جزيرة توحد بين اسطولها وجيشها توحيداً لم يعرف له مثيل في مكان آخر ، حرصاً منها على ضمان سلامتها . وفي الواقع فانها ، دليلاً العهد الكلاسيكي ، لم تستسلم سوى مرة واحدة تحت ضغط الحصار والجماعة بعد تدمير اسطولها . وقد اعطاها هذا التصميم الدفاعي الجبار ما اعوز اكثرية المدن الاخرى ، اعني الرحابة وراء الاسوار التي كثيراً ما تكون ضيقة بسبب الحاجة الى المال ، اي الرحابة الضرورية لراحة السكان . ولكن اثينا لم تحسن قط الانتفاع بهذه الرحابة .

الميدية الثانية ، قبل تفتح نشاطها السياسي والاقتصادي والفكري . ولكنها على الرغم من ذلك لم تمتد الى حيث يبدو ان مصيرها قد دعاها للامتداد .

انها لا تطابق قط ، بسبب قدمها ، الفكرة التي نكوّنها عن مدينة كبيرة ، على الرغم من فخامة القلعة وبعض المعابد او الابنية العامة المشيدة في المدينة المنخفضة . تمر فيها شوارع ضيقة يحظر بناء الشرفات البارزة فوقها ، لا بلاط عليها ولا ارفصة على جوانبها ولا بواليع تحتها ، تتوسطها حجرات خزفية لتصريف المياه . ليس فيها سوى ينبوع ماء واحد سيّده المستبدون في القرن السادس ، ولكن فيها آباراً كثيرة نيل الى الاعتقاد بأن مياهها لم تكن نظيفة وصحية . الساحات العامة قليلة وأهمها الـ « أغورا » التي تظللها اشجار الصنّار . حول الاغورا تنتشر الاسواق : سوق مواد التغذية بفروعها المختلفة لكل فئة من هذه المواد بما فيها لحم الحمار والسماك المجفف ؛ سوق الخيل والعبيد ؛ اسواق الخزفيات والألبسة والاحذية ، حيث يتعاطى الصناعي عمله في حانوته امام عين الزبون ، كما هي الحال في الاسواق الشرقية في ايامنا .

يتكلّم كسينوفون عن عشرة آلاف مسكن في اوائل القرن الرابع . ان هذا المساكن الرّمح لمرتفع جداً بالنسبة لمساحة ضيقة ، وهناك حدائق في الضواحي التي تتسع خارج مداخل المدينة بين المدافن القائمة على جوانب الطرق ؛ ولكن المجتمع الراقي لا يقبل بالسكنى إلا داخل المدينة . ليس لهذه المساكن الوضيعة ، على العموم ، سوى جدران من الطين المجفف يسهل على اللصوص ان يفتحوا فيها ثغرة . ولا تظهر البيوت المؤلفة من عدة طبقات سوى في القرن الرابع ، وكانت الغاية الاولى منها التباهي والتفاخر . اما الغرف فضيقة جداً وارضها ترابية جامدة . أسباب الراحة مفقودة تماماً . ولم تشكل المراحض معضلة قط لأن النظر قد صرف عنها في كل مكان .

ولا افضلية لبيوت الاغنياء سوى في رحابتها واتساع غرفها الموزعة حول فناء تحف به بعض الاعمدة . فلا يظهر البذخ إلا في عهد متأخر مقتصراً على قاعات الاستقبال التي ألبست سقوفها بالخشب وازدانت جدرانها بالمديجات والرسوم . وقد كشفت اعمال التنقيب في منطقة خلقيس ، في موقع مدينة أولنثوس ، التي دمرت في اواسط القرن الرابع ، عن استعمال الفسيفساء التزيينية المصنوعة من الحصباء المستطيلة لا من المكعبات الصناعية ، والتي نرجح ظهورها هناك في اواخر القرن الخامس . وباستثناء هذا الفارق فقد أيدت هذه الاعمال الفكرة العامة التي تكونها عن أثينا النصوص الكتابية . ولا تفخّل البتة في الاثاث . فان أثاث القبييادس نفسه الذي يتألف ، باعداد محدودة على كل حال ، من الصناديق والمقاعد والطنافس والأسرة والاواني ، لم يوفر اثماً مرتفعة حين باعته الدولة بالمزاد العلني .

ما أن يبلغ البيت حدّاً أدنى من السعة والرفاهية ، حتى يفصل بين الغرفة او سيدة البيت
الغرف المحصنة للحياة العائلية البحتة ، اي نطاق الزوجية ، وبين الـ « اندرون »
اي نطاق الزوج .

تنتقل الزوجة مباشرة من البيت الوالدي الى البيت الزوجي ولا تخرج منه الا نادراً . وقد نسب توسيديد الى بريكيليس قوله ! « ان ميزة هذا الجنس قائمة في ان يبلغ ادنى شهرة ممكنة بين الرجال ، خيراً او شراً . » اما واجبات الزوجة الاولى فهي ادارة شؤون البيت الداخلية والاعتناء بالملابس والعناية باولادها : الذكور الذين يخرجون من ولايتها في سن السابعة ، والاناث اللواتي يبقين معها حتى زواجهن . فالشؤون الاجتماعية والفكرية ، ولا سيما السياسية ، لا تعود اليها ، اذا قصدت تحاشي الفضيحة . بيد ان الشاعر لم يتردد ، في الملحمة الهوميروسية ، في اعطاء المركز الاول لوالدة « نوزيقا » في الولايم التي دعا اليها « القينووس » . ولكن هذا المشهد ما كان ليلقى تأييداً في اليونان الكلاسيكية . فجل ما نترأاه في تمثيلات اوريبيد وهزلية ارسطوفانوس وبعض المناقشات الفلسفية هو ان تقدم الفردية كان مدعاة اولى لوضع قضية شخصية المرأة وتحريرها على بساط البحث . ولكن هذه الجسارات لم تخرج عن نطاق النظريات ولن تظهر نتائجها قبل العهد اللاحق .

ان الحياة الخارجية كلها ، مما فيها المشتريات الغذائية من السوق ، حياة الرجل
تعود للرجل .

فهو سيد بيته قانوناً ، الا اذا الجأ حرصه على السكينة الى ان يتراجع ، شأن سقراط ، امام زوجة شكسة عالية الصوت . يستطيع ان يطلق امرأته دون ان يقدم اي مبرر او عذر ، شرط ان يعيد لها البائنة فقط . ويستطيع ان يقرر اهمال « تربية » اولاده ، اي تركهم والقاهم على قارعة الطريق في الايام الاولى بعد ولادتهم . وكثيراً ما اتبعت هذه الطريقة فعلاً ، لا سيما حيال البنات ، لاعتبارات اقتصادية في بلاد فقيرة كان من شأن ارتفاع كثافة السكان فيها ان يؤدي الى كارثة كبرى . ولكن الحياة في هذا المسكن الضيق ، مع امرأة لم تثقفها التربية والعلائق الاجتماعية ، لا توفر له مزيداً من اللهو . لذلك فانه يقضي معظم نهاره خارج البيت ، في الاماكن العامة ، حيث يصادف اناساً ذوي معرفة يحادثهم ويستطلع آراءهم ويوثق عرى الصداقة معهم وعرى علائق اكثر خلوصاً احياناً .

البغيات اكثر من ان تعدّ . ومنهن من اشتهرن بثقافتهن الرفيعة . فهذه « اسباسيا » الملية التي لم يستنكف سقراط من اكرامها والتي جعل منها بريكيليس رفيقة حياته بعد ان طلق زوجته الشرعية ، والتي لا يحيط من منزلتها في اعيننا سوى العلاقة التي ربطتها ، بعد وفاة عاشقها العنليم ، بتاجر اغنام استهوته السياسة هو ايضاً . غير انه لا يجوز لنا ان نلصق صفة الكمال لواقع غالب ما يكون قدراً ، برفع جميع البغيات ، حتى الاثينيات منهن ، الى مستوى اسباسيا . فقد جاء في احدي خطب ديموستين وصف ندخل معه الى عالم كله محاولات اختلاس ومساومات تقزّ منها النفس . ولا مرأى في ان هذا العالم المريب الذي تتخرج منه المغنيات والراقصات ، كان في الواقع اكثر اتساعاً .

اضف الى ذلك ان الحب اليوناني واقع راهن ، منشأه رفقة السلاح ومشهد العري اليومي في

نوادي الرياضة والرغبة - التي ليست دنساً كلبها - ، عند « العاشق » ، في الحماية والتربية ، وعند « المعشوق » ، في التعجب والاطلاع . ففي مجتمع يجعل من مثل الرجل الاعلى ، كلما سمح له وقته بذلك ، تفتح طاقاته الفردية وانماء الجسم والعقل في توازن متوائم وخدمة الوطن في المجلس وفي ساحة القتال ، وفي مجتمع تقضي عاداته بفصل الذكور عن الاناث بالقدر الذي تسمح به الضرورات المادية ، وتحمل الرجال على اقصار معاشرتهم على الرجال وتجعلهم يتباهون بمزايا جنسهم الخشن ، يستحيل ان ينطبق علم الاخلاق على العلم الذي طبعته فينا ديانة وعادات مختلفة .

يتوسع الاثرياء في هذه العلائق الخارجية بدعوة اصدقائهم مساء الى ولائم يحضرونها لهم في منازلهم . ففي « الاندرون » الذي وضعت فيه اجل مفروشات البيت ، يقدم الداعي ، دون ان تعاونه زوجته في ذلك ، الى اصدقائه في الندوة السياسية او الادبية ، في الرياضة او الفجور ، ما لذ وطاب من الطعام الشهي والنبيذ الفاخر . ويتبادل المدعوون اطراف الحديث على هواهم حتى ساعة متأخرة من الليل ، مستلقين على الأسرة ومتوكئين على مرافقهم يخدمهم العبيد وتلقي البهجة في قلوبهم الإلهي المختلفة ولا سيما لعبات المزممار والقيشارة والرباب التي يحدد القانون أجورهن القصوى . ويغاب ان تتحول هذه الاجتماعات المسائية الى مشاهد سكر وثل تقزز النفس يخرج منها اكثر من واحد في حالة يرثى لها . ولكن ليس ما يمنع الاعتقاد بحقيقة او احتمال ما يرويهِ كسينوفون وافلاطون اللذان يقولان ان إيطار « الوليمة » البهجة قد اتسع لمناقشات رفيعة المستوى في السياسة والفلسفة والعلم يشترك فيها سقراط نفسه الذي يبدي من جهة ثانية تصلباً عنيداً في مقاومة السكر .

كثيراً ما سُبِّه المجتمع اليوناني في العهد الكلاسيكي بـ « ناد للرجال » . وان في هذا التشبيه لكثيراً من الحقيقة . فهو في الواقع مجتمع مدن تتأثر انظمتها وعاداتها لا بمصادرها البعيدة فحسب ، بل بشبه ديمومة الحرب ايضاً . فلا تستطيع المدينة الاعتماد الا على الرجال لتأمين سلامتها والدفاع عن استقلالها وكلاهما عرضة لتهديد دائم . لذلك فهي تشجعهم ، بحصر الحقوق السياسية فيهم ، على حياة خاصة تبعدهم عن العواطف المصطنعة الخنثة وتغذي فيهم المشاعر التي تعتقد هي بفائدتها منها . وتسير سبارطة حتى النهاية في هذه الطريق بنظامها العسكري وبوجباتها المشتركة الاجبارية كل مساء . غير ان المدن اليونانية الاخرى لا تتبعها الا من بعيد : فالمثال أبعد من ان يدعو الى الاقتداء به اقتداء كاملاً ، بسبب شكاسته . ولكنها لا تستطيع ولا تريد ان توغل في اتجاه معاكس تماماً ، فتكتفي بمحاولة تسوية ما بين هذا المثال وبين نزعات الفرد .

الفصل الرابع

الكلاسيكية الروحية والجمالية

ان تقدم الحضارة ، في أزهى ما لهذه الكلمة من معنى ، قد انطوى في تبين التقدم الثقافي اليونان الكلاسيكية ، في مثل هذه الظروف ، على فوارق ملموسة . فاليونان هذه متباينة الثروات ، لا تتساوى فيها كثافة السكان ، ولا يتساوى هؤلاء حذقاً وبراعة . وقد اعتمدت فيها جنباً الى جنب ، حتى في اضيئ الدول حدوداً ، النواحي الاقتصادية المختلفة على انواعها . فنهض اكثرها تطوراً في جوار اكثرها تخلفاً . وهي متباينة التعليم والانفتاح على حياة الفكر والنظريات العقلية . وهي اخيراً متباينة الانفتاح على التأثيرات المفيدة ، والحافزة على الاقل ، التي تشع بها عوالم وحضارات اخرى ، وبالتالي متباينة الانتفاع باقتباساتها واتصالاتها : فالفلاح الذي يتغذى من محاصيل ارضه لا يهتم للاهوت كهنة هليوبوليس او للعلوم البابلية اكثر من اهتمامه لتصدير «سلقون» كايوس او «قار» مقدونيا .

يكفي ان نتذكر الصورة الهزلية المؤلمة التي رسم ارسطوفانوس سقراط بها في مدينة استطاع جميع سكانها ان يروا سقراط ويسمعوه ، حتى تراءى لنا ضالة النخبة التي تذوقت أحاديث هذا الفيلسوف . وكلنا يعرف ان هذا الفيلسوف ، الذي تبدو لنا صفاته المدنية سامية جداً ، قد أصدرت احدى المحاكم الشعبية عليه حكماً بتجرع الشوكران السام ، فكان اول واشهر ضحية من ضحايا عداة الجماهير للذين لا يفهمونهم . وفي مباريات ائينا المسرحية لم توزع الجوائز وفقاً لاقتراح المشاهدين بل وفقاً لاقتراح لجنة تنتخب بالقرعة من اصل لائحة روعيت في وضعها الكفاءات . وهكذا فان ارفع نظام ديموقراطي في اليونان كان ابعد من ان يعلل نفسه بالاهام ، بل طابق تلقائياً وضعاً ، أدركه هو بخير ادراك ، تسبب في ابقاء مجالات واسعة في ما تكاد روائع هذا العهد ان تحملنا على الاعتقاد بأن الاضواء الساطعة تغمره بصورة متساوية . فان شطراً كبيراً من اليونان ، وشطراً كبيراً من السكان في اكثر المناطق حظوة ، لم يشتركا في عيد الروح والفكر والمثل .

أولوية أثينا
ان تفوق أثينا على هذا الصعيد ، لا مشاحة فيه . وقد تحمل بعض
تصريحات الخطباء الأثينيين على الابتسام بإفراطها الساذج الذي يتخلّله
الكبرياء والصلف أحياناً . وان ما يخرجون فيه عن الاعتدال هو في الحقيقة محاولتهم استثمار
هذا التفوق استثماراً سياسياً ، كما يخرج عن الاعتدال أيضاً المعاصرون الذين يبررون
الاستعمار الذي نهضت به مدينة « أثينا » باسم نجاحاتها واثرها في حقول الفكر والفن . بيد ان
أشد خصوم هذا الاستعمار حماساً لم ينكروا قط هذه النجاحات ، لا بل انهم أدوا لها ضمناً ما
تستحقه من اكرام بمحاولة السمو بالمدينة التي حققتها الى هذا المستوى . ولكنهم لم يستسيغوا
ان تنتزع أثينا من حلفائها او رعاياها اليونانيين قسماً كبيراً من الموارد المالية التي أتاحت لها
الاتفاق على اعيادها وانشاءاتها البنائية . وان اولئك الأثينيين انفسهم الذين عارضوا بريكليس
لاعتبارات سياسية داخلية ، قد اخذوا عليه استخدام الاموال التي يدفعها حلفاؤه « لتمويه
وتزيين المدينة كالمغناجة وإثقالها بحجارة كريمة وتمثيل ومعابد تبلغ كلفتها ألف منا » . وهذه
المعابد انما هي البارثنون مع تمثال الإلهة « أثينا » المصنوع من الذهب والعاج ، وكثيراً ما
ننسى ، عند الكلام عنها ، اولئك الذين تكبدوا في الواقع ما اقتضته من اموال . فإن أثينا ،
في الوقت عينه ، كانت تنتزع من امبراطوريتها نصف مداخيلها تقريباً . ولولا هذا الخرج الذي
لم تتردد أثينا في استخدام وخداتها البحرية لاستيفائه ، لما قام البارثنون على القلعة .

وقد وافق هذا الاستثمار المالي المباشر ، من جهة ثانية ، أشياء أخرى كثيرة . فبالإضافة الى
مظهرها السياسي ، ارتدت الامبراطورية الاثينية مظهراً اقتصادياً ، اذ ان وجودها يفسّر ، أقل
ما يفسّر ، نموّ مرفأ البيره الذي لم يستعد ازدهاره بسرعة منذ القرن الرابع ، بعد انهيار
الامبراطورية ، الا بفعل التفوق الذي احرزه قبلاً على جميع منافسيه . وهكذا فان نشاط البيره
يوفر مداخيل الجمر ك ويؤمن الخامات والاسواق للصناعة ، مضاعفاً بذلك موارد أثينا . ويكثر
هذا النشاط ، على صعيد اوسم ، من الاتصالات البشرية باجتذاب الاجانب وتسهيل انتقال
الأثينيين ، فتتأثر حياة المدينة شيئاً فشيئاً بنتائجه حتى في الحقول التي لا تمت الى الماديات بصلة .

بيد انه يتوجب علينا الاعتراف بفضل بعض الاسباب الخفية : المؤهلات الطبيعية السّتي تحلى
بها شعب معتدل أدت به صدف الهجرة والانصهار العنصري الى الاقامة في شبه الجزيرة هذا
المتصل باليونان الوسطى ؛ وتحلى ذلك الرجل ، بريكليس ، الذي ادار دفة الحكم في المدينة خلال
السنوات الحاسمة التي احتلت فيها الحضارة الكلاسيكية مركز الصدارة ، بالموهب السياسية التي
فرضته على مواطنيه ، وبميزات عقلية سامية ، في وقت واحد . ولكن يجب ان لا ننسى مثل
« ميله » في العهد السابق : فهنا أيضاً صادف النشاط الاقتصادي والثروة والعلائق المتنوعة المختلفة
الاتجاهات وثبة ثقافية ليست نشأة الفلسفة الايونية سوى اشهر ظاهراتها . ولا يمكن ان يكون
تكرّر هذه المصادفة مجرد اتفاق : فان الحضارة الاثينية في القرنين الخامس والرابع ، شأن

الحضارة الملية في القرن السابع والسادس ، لا تنفصل عن التيارات المختلفة التي تغذيها والتي جعلت حينذاك من المدينة التي نشأت فيها اوسع مراكز الحياة المادية نشاطاً وازدهاراً في المتوسط الشرقي .

لذلك فان كل ما يرتبط اذ ذاك باثينا ويبدو كأنه جزء من رصيدها ليس بالضرورة أثينياً . بنوع خاص . فالاجانب المقيمون وغير المقيمين يلعبون فيها دوراً سبق ونوهنا به قد تكون اهميته النسبية كبيرة احياناً . وبين رجال الادب والعلم والفكر بنوع خاص ، تجتذب اثينا او تضم اليها كل ذي مكانة . فبعد تحصيل العلم على ايدي الاساتذة ، يأتون اليها لتثقيف التلامذة او اقله للبحث عن تثبيت مركزهم لدى النخبة التي نشأت او اجتمعت فيها . فندوة بريكليس واصدقائه مثلاً ، بما فيهم اسباسيا ، والمهندس هيوداموس الميلي ، والفلاسفة وذوو النظريات اناكساغور الكلازوميني وبروتاغوراس الابديري وبيتوكليدس الكايوسي ، والمؤرخ هيرودوتس الهاليكارناسي ، تشمل بين اعضائها الاجانب والمواطنين على السواء . اجل لم يفض هذا الاجتذاب الى احتكار الثقافة ، فقد بقيت هناك مراكز اشعاع مستقلة . ولكن هذه المراكز لا تخرج البتة عن نطاق الاختصاص يدفعها تقليد محلي او تأثير رجل زائل . وقد شبه ايزوقراط اليونان بمدينة واحدة ، فتكلم عن « القرى » الريفية و « المدينة » . ولكن الوقائع العصرية الراهنة تضطرنا الى تحوير التشبيه : مراكز اقليمية تكشفها العاصمة التي يهاجر اليها خير عناصرها . وهكذا فان أثينا التي قيل عنها « مدرسة اليونان » و « يونان اليونان » هي عاصمة اليونان الروحية ايضاً .

١ - الديانة

لا تتجدد الديانة اليونانية تجدداً عميقاً خلال العهد الكلاسيكي ، بل تبقى ما وصلت اليه في العهد السابق ولا تفقد اية نزعة من النزعات التي ظهرت فيها . ولكن حيوية هذه النزعات متباينة وسناها الخارجي غير متساو وتطورها يخرج بالبعض منها عن النطاق الديني بمعناه الحصري .

ان الورع الشعبي ، الذي لانعرفه جيداً لأنه قلماً يستهدف لنظر الناس ولأنه متواضع جداً في مظاهره ، يحافظ على حرارته وعلى كل ما يستتبعه من خرافة وفضاظة احياناً . وتشبع الطبقات الاجتماعية المتدنية ، ولا سيما الريفية منها ، حاجتها الى الايمان والحماية ، بممارسة بعض الطقوس التي غالباً ما يجهلون مغزاها الاصلي وبالتردد على معابد محلية كثيرة يكتفي آلهتها المؤلفون ، الذين اوجدتهم تقاليد قديمة جداً ، بنذوراتهم المتواضعة . ويخلو عملهم هذا من اي سمو ، وما الغاية منه سوى الحصول على عون فوري في الصعوبات اليومية ووقاية المواشي والحصيد المقبل والتخفيف من الم ورهة مراحل الحياة البشرية ، منذ اوجاع الولادة حتى احوال الموت . ولا يخرج عملهم هذا عن مستوى العقول البسيطة التي تحس باستمرار وغموض بوجود قوى فائقة قريبة منها لا سبيل الى ارضائها الا بمراسم لا مكان للمنطق فيها . فانما الخوف هو

الذي يوحى بهذه المراسم، لا الشعور الديني بالمعنى الحصري. ومن شأن قدمها وتفاهتها ان يدهشا كل من لا يفكر بوجود المجالات المظلمة في ارفع الحضارات بهاء .

بيد انه يحدث ان تتغلب هذه الخرافات وتقيّد النخبة على الرغم من اشمئزازها. ففي صبيحة يوم سلامين، كما جاء في بلوتارك، اذ كان تيمستوكليس يقدم الذبيحة، احضر امامه ثلاثة اسرى من ذرية كسر كسيس. فشهد احد العرافين اذ ذاك شهابا يرتفع من وسط الذبائح وسمع عطسة عن يمينه. فأمر في الحال « بالتكريس » اي بتضحية الاسرى لديونيسوس « اومستيس » « آكل اللحم النيء ». فمانع تيمستوكليس اولاً ثم اضطرته الجماهير اضطراراً الى التسليم بذلك. وباستطاعتنا ان نستشهد بأمثلة اخرى كقضية بتر اعضاء ثمائييل هرميس ودعوى القادة في جزر « ارجينوز » والحكم على سقراط بالاعدام بتهمة « انكار آلهة المدينة وادخال آلهة اخرين جدد إليها ». وليست الصوفية ما يبعث انفجار الغضب الشعبي هذا، وباستطاعتنا ان نتصور والحالة هذه عنف ثورة تتميز بفطرة وحشية يندفع فيها الشعب الأثيني نفسه، في ساعات الشدة، على الرغم من اشتهاره بالحلم والشفقة، ومن السمو الفلسفي والجمالي الذي توصلت اليه ديانتة الرسمية.

ولا تزال هنالك عبادات شاملة أيضاً، على ما في ذلك من تناقض، في عالم العبادات الشاملة مزقته الحروب بين مدينة ومدينة.

اجل، ليست هتافات الغيب أقل منها رواجاً في الماضي. فجل ما هنالك أن الدول أقلت من استشارتها أو من التأثر باجوبتها. ففي سبيل دعم بعض التدابير السياسية، استعان بريكلليس بدلفي وحصل على عونها فعلاً. ولكنه لم ينتفع بذلك انتفاعاً يذكر لأن الشعور قد ساد بان هاتف الغيب انتھاري أو أنه يستنشق الريح أو يخضع لتأثيرات يصعب الاعتراف بها دون مس الشرف. فقد اتهم بالرشوة وبالخضوع للعظماء. ولم يستنكف الرأي العام من الاعتقاد والتصريح بان عرافة دلفي، بعد أن سايرت الفرس قبل سلامين، سايرت على التوالي سبارطة وبيوسيا وفيلبوس. وليس في الحقيقة باستطاعة المعاصرين أن يدركوا « الحروب المقدسة »، الاولى في القرن الخامس، والثانية ولا سيما الثالثة والرابعة في القرن الرابع، التي اعلنت باسم الاله على مدنسي القدسيات، الا كحروب عادية تسببها شهوات السيطرة المتقابلة وتستتبع أحلافاً دبلوماسيّة وعسكرية ليست الديانة لها سوى حجة واهية فحسب. وقد كان من سبارطة نفسها، المشهورة بتعبدها العميق لأبولون المنتصر على الحيّة الاصلية، أن ساندت، تشفياً من طيبة، الفوسيديين المقيمين في دلفي على الرغم من استئجارهم المرتزقة بأموال الإله. وحين قام فيلبوس المقدوني في حربه ضد مدنسي القدسيات، بتتويج جنوده بغار أبولون، لم ينخدع احد بهذا المشهد التمثيلي.

وقد اتفق قيام وضع مماثل لوضع دلفي في مكان آخر من اليونان. فقد بلغ من تشيع معبد دياوس لأثينا ما حال دون استمراره في تقبل اكرام الايونيين التلقائي. وليس غير القسر ما

حفظ لأعياده ظاهر الاجتماعات الدولية ، التي تتفاوت في الحقيقة تفاوت نفوذ المدينة الحامية وقد بلغ من ادراك الديلوسيين لهذا الواقع انهم حاولوا ، دون جدوى على كل حال ، حتى قبل انتصار فيلبوس على أثينا ، ان يتوجهوا الى دلفي ، أي عملياً الى الملك المقدوني ، لنيل استقلالهم . وعلى الرغم من بُعدها عن الطرق الكبرى المطموح فيها ومن كونها اكثر المعابد حياداً حتى ذاك العهد بين معابد الدرجة الاولى ، تطراً على اولمبيا نفسها ، في القرن الرابع ، تبدلات سياسية المصدر . فقد فرضت سبارطة الطاعة بالقوة على المدينة التي يرتبط بها المعبد . ثم سكّنت كنوز المعبد نقوداً للانفاق على الحرب ، وقد كان من حدة المنافسات ان جرت المعارك حتى داخل الأسوار المقدسة .

فالعبادات الشاملة إذن لم تخدم قط قضية تهدئة العالم اليوناني ، بل أدخلت الالاب الكبرى عليه جذوات انشقاق جديدة ، اذ ان التنافس بين الدول قد أفضى الى تحطيم الحواجز المعنوية التي كانت تكبحه فيما مضى ، باستثناء حالات نادرة مشينة .

ولكن ذلك لم يمنع هذه العبادات من الاستمرار في البقاء . فما زال الاحتفال بها يجري بأبهة ، وان في التنافس الحاد حيال الاشراف على معابدها لدليلاً على ثروة كنوزها وعلى النفوذ الذي لا يزال عالقاً باسمائها . ولا تنقيد التقوى الفردية بنفور الدول ، فتتهدم الاكتتابات لإعادة بناء معبد دلفي الذي دمره الزلزال في السنة ٣٧٣ . ويرافق ابدأ مواعيد الاحتفال بالالاب الكبرى مهادنات مقدسة لا تحرق إلا في ظروف استثنائية . وتجذب هذه الاعياد ، اكثر من اي وقت مضى ، جماهير الحجاج الذين يعرفون أنهم في امان على طرقات السفر الطويلة أحياناً . وتزداد شهرة الفائزين باطراد ، كما تزداد باطراد ايضاً مظاهر التكريم التي تحيطهم بها اوطانهم الفخورة بمجد ينعكس عليها . وتطلب من الشعراء قصائد مناسبات للاحتفال بمآثرهم . وفي السنة ٣٥٦ ، سار فيلبوس المقدوني على غرار مستبدي القرن السادس واول القرن الخامس وعلى غرار القيبيادس ايضاً الذين استثمروا لشهرتهم لنجاحات جيادهم ، فابتهج بثلاثة احداث تلقى اخبارها في وقت واحد : الهزيمة التي أوقعها احد قواده بالاليريين ، وولادة ابنه الاسكندر ، وفوز جياده في الالاب الاولمبية .

بيد أن استمرار النفوذ وازدياد الابهة لا يخفيان حقيقة الواقع . فالمشاهدون والمتبارون يتناسون رويداً رويداً الاله الذي تؤلف المباريات أهم مرحلة من مراحل الاحتفال بعيده . وتصبح المباريات مجرد مشهد وتفقد عملياً صفة الاحتفال الديني . وينتهد الخطباء فرصة وجود الجماهير ، لإلقاء ، أو أقله لنشر خطب صرفوا الوقت الطويل في صقلها : فليس من ظرف أفضل لبلوغ الشهرة واحتذاب الزين أو التلاميذ . ويحرص المنظمون على الاكثار من المباريات وتنويعها حتى لا يبقى عيدهم دون الاعياد الاخرى وحتى يأسروا انتباه المشتركين ويضاعفوا عددهم . ويكمل المصارعون تقنياتهم ويخضعون انفسهم لتمرين شاق ، ويحترفون المصارعة ، متأكدين من الانتفاع مالياً فيما بعد بالمجهود الذي بذلوه .

وهكذا فان روحية الالعب الكبرى قد تبدلت . اجل ، لا يزال الاغريق ، كما في الماضي ، يحسون فيها بوحدتهم العنصرية واللغوية ، وحتى القومية نوعاً ، على ان هذه الصفة الاخرى غير ذات أثر . ولكن العيد الديني لم يلبث ، يوماً بعد يوم ، أن اصبح مجرد فرصة أو حجة لمظاهر الابتهاج الجماعية . وزالت حرارة التقوى ، وفقدت المباراة مغزاها كتقدمة مجهود تلقائي لاله يولي النصر لافضل المتبارين ويعين بذلك ، لا اسرهم او اقوامهم ، بل اكثرهم اعتباراً وتقديراً في نظره . ولا شك في ان ابولون دلفي كان ينشر ، بفضل المزيد من الحكم القصيرة ، تعليماً اخلاقياً موجزاً : « اعرف نفسك » ، « لا شيء يتجاوز الحد » ؛ ولم يقصر مفهوم الرجس على الصعيد الطبيعي دون غيره . ولكن زفس اولمبيا لم يأت شيئاً من ذلك ، واذا استطاعت الالعب الرياضية التي تبناها ان تعزز الصفات الجسمانية في الشعب اليوناني ، فانها قد فقدت ، خلال العهد الكلاسيكي بالذات ، الصبغة الدينية التي اصطبغت بها في الاصل .

اذا لم تزل هذه الصبغة الدينية تراءى في بعض المعابد التي يتجاور فيها مؤمنون
اسرار الفيسيس
Eleusis
مختلفو التابيعات ، فان ذلك محصور في المعابد التي تلقن فيها اوليات بعض الاسرار . وعدد هذه المعابد كبير في اليونان . ولكن واحداً منها فقط يجمع اتباعه في دائرة تتسع باطراد ، هو معبد الفيسيس ، في الأتيك ، على مسافة كيلومترات من اثينا .

لا عقبات تعترض الدخول اليه . فالعبيد انفسهم يُقبلون فيه ، ولا توصل ابوابه الا في وجه المجرمين والبرابرة . نحن لا نعرف احتفالاته معرفة تامة ، ولكن ما نعرفه عنها يكفي للقول ان كشف بعض اسرار الحياة الثانية كان يتخلل بعض الطقوس المنقولة عن العبادات الزراعية ؛ فقد اشرك في عبادة الفيسيس ثلاثة آلهة من آلهة النباتات : « ديميتير » وابنتها « كورا » و ديونيسوس . وكان ذلك عاملاً هاماً ثابتاً من عوامل نجاح هذه الاسرار . وقد اتفق اسمى مفكري العصور القديمة على تقريرها ، مما يحملنا على الاعتقاد بانها قد انطوت على تفسير رمزي عن طريق عرض غير مثير وتمثيل مختصر . غير ان ذلك كله كان يستدعي فكرة الموت ، مصدر قلق الانسان الدائم . وكان المشترك في هذه الاسرار يغادر المعبد مطمئناً الى المصير الذي سيكون مصيره بعد الاجل المحتوم . فقد كتب « سوفوكليس » ، وعلى غرار كثيرين : « طوبى ، ثم طوبى لأولئك البشر الذين سيذهبون ، بعد مشاهدة هذه الاسرار لمقابلة « هاديس » . اما الآخرون فكل شيء سيكون لهم عذاباً » . اما معرفة طبيعة كشف الاسرار هذا فمن اشد مشاكل الديانة القديمة اخلاقاً . فهل هو وسائل آلية لاتقاء الاخطار الرهيبة ، ام تعليم عقائدي قمين بارضاء القابليات العقلية المختلفة ؟ يتعهد المشتركون بحفظ السر ، ولم يحدث ان حفظ سر كهذا الذي اوتمن عليه ، طيلة قرون ، عشرات الالوف من البشر .

من خواص عبادة الفيسيس انها توجهت الى الفرد كفرد ، بعيداً عن كل نظام قانوني وعن كل أثر عائلي او مدني ، الى الفرد وحده كما سيكون يوم موته . ولذلك كان نجاح هذه الاسرار

موازيًا لنجاح الديمقراطية الاثينية نفسها التي حققت النصر بتحريرها المواطن من ضغط الجماعات العائلية . فاصبح نجاح أثينا ، بفضل الفسييس ، منقطع النظر . فهي قد توصلت الى خلق عبادة شاملة من عبادة تميمها المدينة ويشرف عليها القضاة ويحتفل بها في معبد هو ملكها تتخذ هي حيال ادارته مقررات نافذة . وقد اقتضى منها ذلك الاعراض عن بعض ادعاءاتها ، بدليل فشلها ، في القرن الخامس ، حين اهابت بكافة الاغريق لأن يكرسوا بواكير حصائدهم لآلهات الفسييس اللواتي اطلعن البشر على اسرار زراعة القمح . ولم يصبح النجاح دولياً الا بعد ثبوت الحيايد السياسي وبعد الاقتناع بان عبادة الفسييس ليست عبادة مدنية على الرغم من كونها عبادة المدينة .

ترتبط الديانة اليونانية الكلاسيكية ، على العموم ، ارتباطاً وثيقاً خاصاً بالمدنية نفسها . ويسهم هذا الارتباط الى حد كبير ، والحالة هذه ، في جعل الحضارة اليونانية حضارة « البولس » بالذات ، لان تفتح هذه الديانة يسبب بدوره تفتح مظاهر اخرى في الحضارة .

ان للمدينة آلهتها وعباداتها ، وكلاهما متفاوت مرتبة ومنشأ واهمية حتى في نظرها ، ولم تثبت ما تثبت منها الا في عهود حديثة نسبياً ولاسباب مختلفة كثيرة . فهناك في الدرجة الاولى الآلهة « البولياسيون » اى المروض فيهم ان يحموا البولس بنوع خاص ، لان المدينة تعلن انتسابها اليهم معتبرة عبادتهم كنظامها الاساسي وكنعوان وضمانة لميثاقها الاجتماعي . وهكذا فان اثينا هي مدينة الإلهة « اثينا » التي تُعبد بهذه الصفة وتدعى لذلك « اثينا بولياس » . ولكن « اثينا » نفسها تعبد فيها ايضاً بصفاتها « اثينا ارغاني » (العاملة) و « نقي » (النصر) و « هيجيا » (الصحة) ... فبأية نسبة تبقى « اثينا بولياس » في جوهرها ، والحالة هذه ، يا ترى ؟ ومن جهة ثانية ، فان العبادات « البولياسية » لا ترى ضيراً في قيام عبادات اخرى متوازية كثيرة .

تتنوع طبيعة هؤلاء الآلهة تنوعاً كبيراً جداً . فبعض آلهة الاولمب العظماء الذين قد تميزهم صفة عبادية يحاورون بعض آلهة العائلات القديمة ؛ وبعض الابطال المرتبطين بتاريخ المدينة يحاورون آلهة غرباء توخى الاغريق من تكريمهم تجنب عداوتهم . ولم توضع قط لائحة نهائية بالآلهة ؛ فلا يختصر فيها ، أقله نظرياً ، خوفاً من استياء قوة فائقة الطبيعة ؛ وليس ما يحول دون اطالتهما . لذلك فليس هنالك عبادة لمدينة بل عبادات المدينة . وقد يترابط بعض هذه العبادات ، على تفاوت في قوة الترابط ، تقرب بينها الاسطورة او ظروف تبني الدولة لها . ولكن ليس ما يوحدتها كلها في مجموع بطامي . فقد جعلها قرار المدينة تتجاوز دون انصهار ، وليس ما يجمع بينها سوى الجوار الجغرافي في ارض واحدة وفي بواذر - وربما نفوس - جماهير واحدة .

وتتنوع هذه البواذر نفسها تنوعاً لا نهاية له . فالاعیاد والذبايح والقرايين والصاوات واحده

في جوهرها ولكنها تختلف بتفاصيلها وتنظم وفقاً لبرامج لا تحصى . لا بل ان الانظمة المتعلقة بكل عبادة لم توضع بصيغة لا تقبل التغيير . فهي لا تلغى البتة إلغاء رسمياً بل يكتفى باعمالها الى ان تسنح فرصة ممكنة للعمل بها . ولكنها توسع وتحوّر ويضاف إليها : ويكفي لحدوث ذلك ان تلميه تقلبات الذوق أو الشعبية أو السياسة أحياناً .

التصلب والتساهل
يتضح من هذه الميوعة في لائحة العبادات المدنية وطقوسها ، ان الآلهة البولياسيين لا يهتمون لا لإبعاد حسود ولا لموجبات ملازمة . فتعدد الآلهة مدعاة للتسامح . وليس هناك طبقة خاصة بالكهنوت يميل أفرادها بالفطرة الى العناية بحقوق الآلهة . فالكهنوت وظيفة خامة تسند ، لفترة محدودة ، الى مواطنين لا يفرض فيهم معارف خاصة يعينون بالانتخاب أو بالقرعة وفقاً لطريقة أشبه بطريقة تعيين القضاة . ويحدث غالباً ان يضيف هؤلاء القضاة الى صلاحياتهم الادارية أو السياسية صلاحيات دينية يتبعون في استخدامهم ارشادات موظفين ضليعين في معرفة الطقوس والصيغ . ولا وجود للعقائد الايمانية نفسها لأن الاساطير التي تقوم مقامها تنطوي على فوارق لا عدتها .

يحمي التشريع الديانة المدنية . وذلك ثابت فيما خص أثينا على الاقل حيث يواجه القانون جريمة « الزندقة » التي تعرض مرتكبها لأقصى العقوبات . أجل لم يعمل بهذا القانون إلا نادراً ، ولكن هذا القانون واقع رامن ، وهو سلاح رهيب لا يتردد المسؤولون في شربه عندما تبدو الدولة في خطر او عندما يعتبرون ، مخلصين او غير مخلصين ، بأن بعض الممارسات التقوية تسيء بشكل فاضح الى الاخلاق العامة : فقد استصدر ديموستين ، مثلاً ، حكماً بالاعدام على امرأة وجميع اعضاء عائلتها بتهمة تعاطي السحر والتسميم . فلا يصح اذن ان ننسب ، حتى لأثينا الديموقراطية نفسها ، روح تسامح مثالية .

غير ان ما لا شك فيه هو ان العبادات الاجنبية المنشأ ، لا تتعرض البتة للتحريم ، بهذه الصفة ، لا بل تكاد لا تكون موضوع شبهة او ريبة . فان إله الواحة الليبية ، آمون ، مثلاً ، الذي تمثل بزفس دونما صعوبة ، قد انتقلت عبادته ، عن طريق كيريبي الى القارة الاوروبية حيث أقيمت له المعابد ، ولم ينتظر بعض مشاهير الاغريق ، من امثال ليسندروس ، مثل الاسكندر لاستشارة عرّافيه . وقد اضطرت أثينا ، بسبب مرفأ البيره الذي يؤمه البحارة والتجار والمسافرون من كل البلدان ، ان تبالغ في التساهل . فسمحت في الدرجة الاولى بأن تؤسس جمعيات خاصة يعبد افرادها الآلهة الغرباء كالإلهة « بنديس » التراقية و « وإيزيس » المصرية و « الوالدة الكبرى » الفريجية و « أدونيس » و « عشتار » السورين : ومنذ البدء ، انضم بعض المواطنين ، دونما تستر وتعرض لأي لوم ، الى صفوف الاجانب المقيمين وغير المقيمين في هذه الجمعيات . وأقرت أثينا بعد ذلك دخول العدد الاعظم من هؤلاء الآلهة الى العبادة الرسمية .

ان في هذا التساهل ، أو بالأحرى هذه القابلية للتسرب ، ما يثير الدهشة . فالمدينة التي تصلبت ذاك التصلب في الدفاع عن استقلالها السياسي والحفاظ على قبحاتها مواطنيها العنصرية تفتح الشجر بيديها في تفرداها الديني ولا ترى ضيراً في ان تصاب بعدوى ديانات البرابرة . وقد برهن افلاطون مرة اخرى عن منطقته السليم في حكمه القاسي بالغاء العبادات الاجنبية . غير ان الدولة اليونانية قد استسلمت ، في الحقيقة ، لتيار لا يقاوم ، كما ستستسلم له الدولة الرومانية فيما بعد . فقد كان كافياً لعامة المواطنين ان يتخلصوا بعض الشيء من خرافات الورع الشامي حتى لا يجدوا في الآلهة اليونانيين الحرارة والحمة اللتين تستطيعان اسباع نهمهم للتأثر الداخلي الخالص . لذلك فقد بحثوا عنهما في غير مكان وفرضوا على الدولة العبادات التي وجدوها فيها .

النخبة والديانة المدنية
والاعباد

اقتصرت الديانة المدنية ، ظاهراً ، على الطقوس . ففي حوار وضعه افلاطون ، يحمل سقراط محدثه على التصريح بما يلي : « ان التقوى

و ضمان خلاص العائلات والمدن في معرفة قول ما يرضي الآلهة امّا بتأدية الصلاة واما في تقديم الذبيحة » . فلم تكن عامة المواطنين لترى أبعد من هذا . ولم يتح لغير الفلسفة ان تعيد الى هذه الديانة الآلية عاطفة اكثر عمقاً . وفي القرن الخامس على الاخص ، اكتشف قسم من النخبة — وفي طليعتهم بريكليس — مفتاح سر ذلك في التفسير العقلي : فهو يصعد ديانة المدينة بتجريد روحي واخلاقي يحافظ على بعض البرودة في الأعالي التي تسمو الديانة إليها . اما في القرن الرابع فتستخدم الاساطير ، بفصل افلاطون بصورة خاصة ، دعامة لصوفية تحاول خلق وحدة بين نزعات النفس الخالصة وبعض المبادئ المجردة . ولكن هذه النزعة وتلك تتعديان كلتاها امكانيات المواطن العادي .

بيد ان المشرفين على إدارة البولس قد حاولوا احاطة طقوس الديانة المدنية بهالة من البهاء والنضارة . فان توسيديد ينسب الى بريكليس قوله : « نحن قد وفرنا للروح سبل اراحة لا تحصى عن طريق الالعاب والذبائح الدورية المنتظمة » . وكان في الواقع للتسلية والراحة الضروريتين لاسكان اهميتها الخاصة لا سيما وان الاغريق قد جهلوا « يوم الأحد » الذي يحدد تعاقب اسابيع العمل . ولكن اعتبارات اخرى كان لها اهميتها ايضاً . ويأتي في الدرجة الاولى منها الحرص على تقريب وبالتالي على توحيد جميع اعضاء المدينة في بادرة تكريم جماعي لآلهتها الحامين ، اي للمدينة نفسها عملياً : وهكذا ، تسير الديانة جباً الى جنب مع المصلحة الانانية ، التي هي مرتبطة بها على كل حال ، وتقوم مقام الاساس بالنسبة للوطنية . وتأتي في الدرجة الثانية الرغبة في استمالة هواة المشاهد الجميلة واعلاء شهرة المدينة في حرارة التقوى في اعين الاجانب ، وذلك توطيداً لأركان نفوذها وخضوعاً لطمع مستمر في رفع العيد البلدي الى مرتبة الاعياد الشاملة .

وهكذا فان كل المدن قد اندفعت في المنافسة . فاحتفلت سبارطة نفسها ، التي سخر

خصومها من حياتها المستوحشة الضجورة - وللملة بريكليس التي سبق واستشهدنا بها ما يبررها ويبرر التأبين الذي وردت فيه مقارنة ضمنية لغير مصلحة العدو - بأعياد كثيرة تتخللها الحركات واغاني الجوقات المتعاقبة التي أطنب المعجبون في تمجيد نقاوتها القديمة . غير ان أثينا ، بفضل ثروتها وذوق حكامها وبفضل شمول وقيمة ما تركته للأجيال اللاحقة من مستندات ادبية وفنية قد كسفت كل منافساتها على هذا الصعيد ايضاً . ولكن تجدر الإشارة ، اذا ما استثنينا اعياد الفسيس التي نوهنا بنجاحها النادر ، الى ان قيام الامبراطورية الاثينية هو وحده الذي استطاع ، بصورة عابرة بالتالي ، ان يطبع اشهر اعياد اثينا بطابع شامل جزئياً . وما كانت التقادم التي أتت بها وفود حلفائها الى إلهتها « أثينا » سوى تعبير عن اعترافهم بقوتها المادية : فان تأدية الاكرام فيها لإلهة مدينة اجنبية ، لم يكن ليوافق النزعة الى الاستقلال التي تجيش في كل مدينة مهما بلغ من ضعفها .

اشتهر عيد « أثينا » الكبير باسم « باناثينا » وكان يذكر بتأسيس عيد الإلهة « أثينا » الكبير المدينة نفسها ، بتوحيد كافة الاثينيين سياسياً .

كان الاحتفال به سنوياً ولكنه يحاط بجلال خاص كل اربع سنوات . وينسب احداثه الى صولون او بيسيستراتوس في الربع الاول من القرن السادس . وضع برنامج المتنوع المسندون اولاً وسارت الديوقراطية على خطاهم واصبح يستغرق في النهاية تسعة ايام . وكان يستلزم المباريات المختلفة : المباريات الفنية من إلقاء او « موسيقى » أي غناء على ألحان آلات موسيقية ؛ والمباريات الجيادية او الرياضية ؛ ومباريات الافراد او الجماعات ؛ ومباريات القوى او الحفة ؛ والاختبارات المتناسبة واعمار المتبارين من فتيان وشبان ورجال : السباق على ظهر الجياد والرقص بالاسلحة والسباق بالمشاعل . وكان الفائزون في اشهر المباريات يُعطون الجوائز قوارير مملأى بزيت زيتون الإلهة ، وهي القوارير الباناثينية الذائعة الصيت المصنوعة والمزدانة خصيصاً لهذه الغاية .

ويترك المشهد الرئيسي من مشاهد هذا العيد لليوم الاخير . وهو تطواف طويل تسير على رأسه الشخصيات الرسمية ويشترك فيه المقيمون الاجانب انفسهم . ينطلق من شمالي غربي المدينة مصطحباً معه ، حتى معابد القلعة ، الذبائح والقرايين . وبين القرايين قطعة فاخرة هي « الببلوس » المعدة لتمثال « أثينا » ، تحيكها وتطررها ، طيلة سنوات اربع ، فتيات العائلات الكبرى وفاقاً لقواعد تقرها السلطات تدور حول موضوع دائم هو صراع أثينا ضد الجبابرة . ويشكل هذا التطواف وهذه التقادم اكراماً يؤديه ، للإلهة البولياسية الاولى ، المدينة كلها وكل من يرتبط بها توحد بينهم فكرة واحدة : عرفان الجميل والامل .

أعياد ديوبيسوس اذا كان تطواف عيد « أثينا » الكبير ، الذي يذكرنا به افريز
والتمثيلات المسرحية البارثنون ، يحملنا على الاحساس فوراً بالصلة القائمة بين الديانة والفن ،

فكان اعياد ديونيسوس تنتقل بنا ، عن طريق المسرح ، الى الحياة الادبية .
كان لديونيسوس عدة اعياد في السنة ، خلال الخريف وفي اوائل الربيع . يحتفل ببعضها في القرى الاقليمية ، اي في الارياف حيث عرفت الوجود ، وفي المدينة ايضاً . وقد نظمت في القرن السادس ، خصيصاً لأحد هذه الاعياد في المدينة ، التمثيليات المسرحية التي شملت فيما بعد اعياداً اخرى ، واهتمت الاقاليم نفسها خارج المدينة ، لاسيما في البيرة ، لتنظيم مثل هذه التمثيليات ، بالنظر للنجاح الذي كان يصادفه مثل هذا المشهد في العيد . وكانت هذه التمثيليات في الواقع ، بعد التطواف ، مباريات موسيقية ، مأسائية او هزلية . وقد اخذ بعض اغنياء المواطنين ، « الخوريغي » ، على انفسهم لباس وتدريب الجوقات الموضوعة تحت تصرف المؤلفين الذين وقع اختيار احد القضاة على مؤلفاتهم . وكانت الجوقات ، في المباراة ، تنصير لقضية قبيلة « الخوريغوس » ، وكان فخر النجاح ، بعد قرار الحكام ، يعزى « للخوريغوس » والمؤلف على السواء . وهكذا يتضح نشوء المسرح الاثيني ووثبته السريعة .

تطور الأعياد
يتضح ايضاً من العناية الفائقة التي احاطت بها الدولة هذه الاعياد ومن
الاكلاف التي كانت تقتضيها أنها تتخطى الاطار الديني تخطياً بعيداً . اجل ،
انها تحتفظ ، عن اصلها ، بالخطوط الاساسية : الذبائح والتقدم والتطوافات وشكل المباريات .
وتستجيب المباريات ، في الجهود الذي يبذل اكراماً للاله ، لفكرة التنافس نفسها في المباريات
الرياضية والالعاب في الاعياد الشاملة . ولكن مميزات اخرى ، فرضت بعضها النخبة الحاكمة
ونشأ بعضها الآخر بفعل التطور الطبيعي ، تظهر باكرأ جداً ولا تلبث ان تغلب رويداً رويداً .
وتخدم الاعياد الدعاوة دولياً للمدينة وتقوي التحام الشعب ادبياً وتوفر لهذا الاخير ، بالاضافة
الى اسباب الراحة ، عناصر ثمينة للاستقصاء الفكري والجمالي .

وقد حرص حكام الديموقراطية الاثينية على ان لا تقتصر الافادة من هذه الاعياد على الطبقات
الميسورة دون غيرها لاقتناعهم بنتائجها الخيرة على هذا الصعيد . فمُنذ عهد بريكليس تلقى
الفقراء مساعدة من الدولة تتيح لهم دفع رسم الدخول الى المسرح الذي كان اذ ذاك مجرد مدرج
خشبي يجهزه الملثمون - اذ ان المسرح الرخامي والحجري الدائم لم ينبجس ، في منحدر القلعة
الجنوبي ، قبل اواخر القرن الرابع ، بعد ان انجز اقليم البيرة اعداد مسرحه . ولكن ما لبثت
ان رفعت قيمة هذه المساعدة ودفعتها لمناسبة اعياد لا توجب على المشاهد اي انفاق ، باستثناء
اجره عن يوم يعطله . ففقدت هذه المساعدة ما يبررها وغدت في الواقع مساعدة مالية من شأنها
اذا ما اضيفت الى تعويضات الاشتراك في الحياة السياسية ، ان تشجع بطالة المواطنين وتسهم في
صرفهم عن العمل المنتج لمصلحة الاجانب المقيمين وتقتطع في الوقت نفسه قسماً من الموارد العامة
كان بالامكان الانتفاع به في حقل آخر .

في الوقت نفسه تقريباً من القرن الرابع انخفض عدد التمثيليات الجديدة المعدة لاعياد

ديونيسيوس ودرجت العادة على ان تعتمد ، في كل عيد ، تمثيلية منتحبة بين التمثيليات التي عرفت شهرة واسعة في القرن الخامس . وكان لهذه العادة ما يبررها تدني مستوى التمثيليات الجديدة ، ولكنها لم تتلاف قط هذا التدني . فكانت النتيجة ان افضى الحرص على ارضاء الجماهير بما تنتظره الى اقصار المباراة على التنافس في الاخراج والجوقات والممثلين .

وافضى تطور مواز الى اعطاء الممثل مركزاً اكبر في المباراة المسرحية . وكان هذا المركز في البداية على درجة قصوى من الاغفال اذ كان المؤلف نفسه يقوم بدور الانشاد . ولكن ازدياد عدد الأشخاص في التمثيلية قد رافقه ازدياد الاقتناع بما يمكن لموهبة وخبرة الممثلين ان تضفيها من اهمية على التمثيل ، لا بل من قيمة للتمثيلية احياناً ؛ فظهر حينئذ الممثل الممتحن كما ظهر من قبل ، في الألعاب ، الرياضي الممتحن . ثم شملت المباراة المسرحية الممثلين الذين نالوا التيجان على غرار « الجوريغي » والمؤلفين والذين انتظموا فرقاً وانتقلوا من مدينة الى مدينة عاقدين اتفاقيات كثيراً ما تحدد فيها الغرامات التي يتوجب دفعها على من يخل بشروط العقد . وقد عرف بعض هؤلاء الفنانين شعبية دولية . وقد أتاحت لهم تنقلاتهم ، والعلاقة الطيبة أحياناً التي ربطتهم بالحكام ، ان يتدخلوا في الظروف السانحة في المفاوضات الدبلوماسية . وبما لا ريب فيه ، على كل حال ، ان شهرتهم ، قبل ايمانهم ، هي التي اجتذبت الجماهير الطامعة بالمشاهد الرفيعة النادرة .

تمّ هذه التبدلات المتجانبة عن انحراف في الفكرة التي نهضت ، في البداية ، بالاعياد الدينية ، فغدا فيها جوهرأ ما كان في البدء مجرد مشاهد ثانوية او ملحقات فقط . واضمحلت صبغتها الدينية المميزة امام قيمتها المسلية والجمالية والادبية والسياسية . واصبحت الديانة مجرد فرصة وحبشة .

٢ - الفن

ان هذا العهد لاجمل عهود الفن اليوناني الذي تفيض تحقيقاته اذ ذاك باسمى المعاني الانسانية ، وقد فرضت اهمية تعاليمه العامة والدائمة ان نرى فيه ، حتى في ايامنا هذه ، الفن الكلاسيكي بالذات . وهو ينمّ عن ألمعية وملكة قياس وانسجام خليقتين بارضاء الانسان في كل زمان ومكان شريطة احلال العقل فوق المادة . غير ان هذا الفن مرتبط « بالبولس » وديانتها وظروف حياتها الجماعية ونظرتها الى الانسان ارتباطاً من الوثوق بحيث يفقد عظمة شموله عندما تتخطى « البولس » اوجها وتنحدر في طريق الهبوط . وان إعجب واحب مظهر في « المعجزة اليونانية » هو هذه الموازنة بالذات بين النزعات الجمالية عند جماعة بشرية في فترة من وجودها وبين نزعات الانسان الدائمة . ويحجب البحث عن سر ذلك في مجهود التعبير والتنظيم المنطقي الذي يخضع الفذانون اليونانيون الواقع له لينتقلوا به ، فوق العرض والتركيب والصورة ، الى مستوى مثالي وحقيقي معا يستطيع فيه بلوع جمال غير عابر .

لم تكن هندسة العمارة ، كما سبق ورأينا لتعير كبير اهتمام للمساكن البشرية ، لا بل انها تكاد لا تهتم لحاجات المدينة الدنيوية . فقد بقيت الابنية

التنافس في مجهود
هندسة العمارة

التي شيدها المستبدون من ساحات عامة وينابيع واقنية جر المياه دون منافس في ظل الانظمة التي خلفتهم والتي اقتصر عملها ، في هذا الحقل ، على الابنية ذات المنفعة الفورية كالاسوار ودور الصناعة والمخازن العمومية التي لا اهتمام فيها البتة للناحية التزيينية . فقد كرسست المدينة مواردها لخدمة وتكريم آلهتها متجملتها بما يعبر عن ورجعها الخاص .

لا بل انها تدخر مجهودها الرئيسي لمساكن الالهة اي المعابد . ولا تهمل الابنية المفيدة للاحتفالات او الاعياد الدينية ولكنها تحلها في الدرجة الثانية . ولا يظهر المسرح كبناء دائم ثابت ، على الرغم من فائدته لراحة المشاهدين ، قبل اوائل القرن الرابع . ومهما كان من روعة اعياد ديونيسوس ، فان اثينا قد تأخرت على هذا الصعيد ، عن عدة مدن اخرى .

ومما تجدر ملاحظته من جهة ثانية ان المعابد الكبرى الجامعة تحاول ان لا تتأخر عن ركب المدن . اجل لا تزال بعض المدن تشيد الابنية في حرم بعض المعابد . ولا تزال بعض المداخر ، من امثال تلك التي كرسها الاثينيون لدلفي بعد انتصارهم في ماراتون ، تتبع تقليد القرنين السابع والسادس . ولكن هذه الطريقة تخف رويدا رويدا مفسحة المكان لتتقدم اكثر تواضعا كالتماثيل والنذورات المختلفة . غير ان المشرفين على ادارة المعابد الكبرى يعوضون عن تقاعس المدن باقدامهم على البناء بفضل ثروات الاله الخاصة التي لا تزال تغذيها هبات تأتياها من شتى المصادر . وهكذا فان معبد ابولون ، في حرم دلفي ، بعد ان تهدم في السنة ٣٧٣ ، قد اعيد بناؤه بفضل الاعطيات الدولية . واذا حصل بعض التأخير في هذا العمل — اربعين سنة تقريبا — فمرد التأخير الى اضطرابات الحرب المقدسة الثالثة . وقد بذلت الجهود نفسها وحقت النتائج نفسها حيث تعود ادارة المعبد الى المدينة ، لا الى المقاطعة كما في دلفي ، فأمنت الموارد الضرورية اذ ذاك تبرعات الحجاج التقوية الكثيرة . وهذا ما حدث في اولبيا حيث شيد معبد زفس قبيل السنة ٤٥٠ ، وحيث تعددت الابنية في الـ « ألتيس » . وحدث هذا ايضا في مدينة « ابيدورس » الصغيرة في « الارغوليد » التي استطاعت ، بفضل الشعبية المتزايدة التي عرفتتها معجزات إلهها الشافي « اسكليبيوس » ، وبسرعة مدهشة ، ان تجهز معبدها وتنشئ هيكلها والبناء المستدير السري ومسرحها الذي يتسع لـ ١٤٠٠٠ مشاهد .

بيد ان الغلبة تبقى للمدن التي تقدم لنا اذ ذاك ، على الرغم من ضعف نفوذها الديني ، مشهد تنافس في حقل البناء يزيد في وقعه المؤثر انها بحاجة الى مواردها المحدودة لمتطلبات اخرى كثيرة . لا شك في ان للمجد الباطل بعض الاثر في ذلك ؛ ولكن هذا المجد لا يكفي لتعليل كل شيء ، لاسيما في مدن بعيدة عن طرق انتقال المسافرين الكبرى ، تعلم علم اليقين انها مغمورة وانها ستبقى مغمورة . فيجب ان نفرز فيها مكانا للتقوى الصادقة ولتذوق الاشياء الجميلة . وقد حدث الانطلاق ، في العهد السابق ، من مناطق تكاد تكون خارجة عن العالم اليوناني ، اي من آسيا الصغرى والغرب حيث كان الازدهار الاقتصادي قد بلغ شأواً بعيداً . غير ان هبوط هذا

الازدهار ، في اعقاب تهديد او واقع ضغط البرابرة قد افضى الى إضعاف هذا الانطلاق . وما ان انتهت الحروب الميدية ، حتى استلمت اليونان الاوروبية القيادة في هذا النطاق وغيره ، ومنذ اواسط القرن الخامس تفوقت أثينا على كافة منافساتها بشمول ونجاح مجهودها . وجدير بالاشارة هنا ان ايقاف هذا المجهود ، في السنوات الاخيرة من حرب البوبونيز ، بعد ان اتمت اثينا « الايرخثيون » ومعبد « اثينا نيكى » لم يثن اوروبا اليونانية عن متابعة السير قدما . ففي اواخر القرنين الخامس والرابع ، تتفرع الوثبة وتشمل مدنا صغيرة كقرية « باساي » الاركادية ، وتنتقل في الوقت نفسه الى آسيا الصغرى بفضل النجاح الذي صادفه نشر الحضارة اليونانية بين البلدين . وفي حركة الجزر هذه نحو المركز الذي بدا وكأنه يجتذب اليه كافة التيارات الكبرى في الحضارة اليونانية كي يسمو بها الى القمة ، ثم في هذا المد الذي يعيد الفعل الخلاق الى اصغر الخلايا والى مناطق الحدود التي دب فيها الانتعاش ، يحق لنا ان نرى شبه رمز مختصر للتاريخ اليوناني .

الثقيلد والكمال في مهما يكن من تنوع نشاط الهندسة المعمارية في المناطق الجغرافية المختلفة فاه
هندسة العمارة لا يفضي الى اشكال اقليمية مختلفة الجوهر .

فالمعبد انما يحافظ على المنظر العام الذي خلفته له القرون السالفة ، والذي لم يخالف الا في حالات خاصة جداً لا نستطيع اليوم تبينها بصورة كاملة ، على كل حال . ويبدو هذا الخرق في ابنية ابيندورس المستديرة وفي معبد مرماريا الصغير داخل حرم دلفي مثلاً . ويبدو كذلك في بناء الايرخثيون الاثيني المعقد ، المعد لايواء الذخائر القديمة واقدم التقاليد العبادية العائدة للمدينة ، برواقه الرائع المزدهان باعمدة على شكل تماثيل نساء يستند اليها ساكف المعبد لا يخفي سحرها ما فيها من غموض وابهام . وتمثل هذه التحالفات نزولا عند متطلبات القاهرة خاصة لا احداثا يستجيب لتصميم على التجديد كان من المحتوم ان تقاومه قوة التقليد .

لا تبديل في الرسم العام الذي يؤول ابدا ، بالتبسيط ، الى قاعة مستطيلة تتقدمها ، عند طرفيها ، اروقة تعلوها « الواجبات » الثلاثية الشكل . ولا حل جديد لمعضلة السقف الذي يفرض ، كما في السابق ، تحديد العرض بين الجدران او اللجوء الى الاعمدة الداخلية . ولا يحول هذا التشابه الجوهرى دون الفوارق الخاصة : كوجود الاعمدة حول المعبد او فقدانها ، والمسافات بين الاعمدة وارتفاعها ، وقياسات وترتيب المساحة الداخلية ... غير ان بعض المعابد يحافظ بدقة ، في النسبة بين اعمدتها ، وفي تنضيد الاقسام التي تعلو الاعمدة ، وفي توزيع النقوش الزخرفية ، على مبادئ الطراز الدوري او الطراز الايوني . وهناك معابد تؤلف بين الطرازين تأليفاً زاد في تنويعه ظهور عمود جديد في القرن الخامس هو العمود الكورنثي ذو التاج المليء بالنقوش الذي صادف نجاحا متزايدا . ولكن كل ذلك مجرد فوارق لا يمكن نعت اي منها بالثورية .

بذل مهندسو العمارة جهداً حقيقياً في محاولة تحقيق التناسق العام والكمال في ادق الاجزاء .

واذا ما حصل ، في هذا المجال ، ان انجزت ابنية اكثر تألقا ، في جمال اجزاها الدقيقة ، من البارثنون في اثينا ، فانه ليس من بقاء اعظم منه جلالة عقليا في المطابقة النسبية ، ولا ازهى في انتقاء المرمر المستخرج من الـ « بنتيليك » ولا اروع في نحت هذا المرمر وتنضيده ولا اعمق درسا في تصحيح الانخطاء التي قد يسببها بعد مرمى النظر او تأثير النور الساطع . كل شيء فيه حتى قياسات اصغر حجر ، قد صمم بقوة منطق تحير المخيلة بشموها وافراطها في الدقة ، ونفذ بمهارة تدهش العقل بحرصها على الكمال . ولا يمكن ادخال اية شفرة سكين ، مهما بلغت دقتها ، بين القطع التي تتألف منها الاعمدة والتي تربط بينها كلاليب معدنية . وتنحني سافات الاساس التي تستند اليها الاعمدة الخارجية ، من كلا طرفي المحورين ، بمقدار ٠.٠٥٩ م و ٠.٠٦٧ م في اوجه البناء التي يبلغ طولها ٣٠.٨٦ م ، وبمقدار ٠.١٠٧ م و ٠.١٠٩ م في الواجهة الطويلة التي تبلغ ٦٩.٥١ م : وليس المقصود من هذا التحدث الخفيف تصريف مياه الامطار بل تجنب الشعور بالانخفاض الذي يحدثه ، في وسطه ، خط افقي طويل ، لا سيما وان هذا التحدث يقابله تحذب مماثل في الساكف فوق الاعمدة . وباستطاعتنا الاستشهاد بأرقام اخرى كثيرة تثبت ، شأن الارقام السابقة ، ضبط الدقة الفنية الذي توصل اليه منفذو الاعمال وسيادة اولئك الذين صمموا في الفكر ، كليا وجزئيا ، العمل الواجب تحقيقه .

تنوع النقاشة
اما النقاشة فاكثر تنوعاً . لا شك في ان الديانة لا تزال مصدر الالهام الاكبر للفنانين . فهي تقدم لهم المواضيع ، بصورة شبه دائمة ، مباشرة او غير مباشرة ، للتماثيل والنقوش الناتجة على السواء كما تقدم لهم ابنيتهما او معابدها الامكنة المعدة لها هذه النقوش . ولكن مصدر الالهام قد يكون غير ديني احيانا . فيمثلون شخصيات سياسية او قوادا عسكريين ، على قيد الحياة احيانا - اقله منذ اواخر القرن الخامس . ويمثل النقش على النصب المدفني الميت في حياته اليومية . ويفرض تشبيه الآلهة بالبشر ، حتى في اقدس المشاهد ، نقل الامثلة الالهية عن الدنيويات ، وليس المغزى الديني في هذه الامثلة احيانا سوى عذر وحجة : فهل تفقد افروديت ، التي مثلها براكسيثيل ، انوثتها مثلا عندما لا يطلق عليها اسم البغي « فريني » ؟

ثم ان هذه المواضيع الدينية نفسها اكثر تنوعاً من الابنية التي شيدها المهندسون . فالاسطورة توفر مشاهد تعالج بالتفضيل : اعمال « هيراكليس » والصراع بين شعب « اللابيث » وشعب « الصنطور » ومعارك « الامازون » ... وكم مشهد آخر اختاره الفنانون من الامثال والآلهة اضيف الى ذلك مشاهد الحياة الدينية ، الذبائح وعدتها والتطوافات والمباريات على اختلاف انواعها واطرافها . ثم ان المعبد الدوري اخيرا قد فرض وجود النقوش في لوحاته الرخامية ، كما فرضه المعبد الايوني في افريزه وكما فرضه كلاهما في المثلثين المتقابلين فوق الاعمدة الخارجية ؛ وكان كل بناء ، او كل حرم مقدس ، يتقبل ، اذا ما صادف الاله فيه بعض الاكرام من قبل الافراد والجماعات ، النذورات والتمائيل التي يعتمد الشبهان في تحقيقها بالتفضيل على المرمر .

وهكذا فان النقاش قد اتيح له المزيد من الامكانيات المادية التي حق لمهندس العمارة ان يحسده عليها بسبب تقيده ببعض امثلة الابنية التقليدية .

استمر الفنانون هذه الوفرة استثمارا واسعا كما يفيد منها مؤرخ اليوم . فان التنوع الذي كان نتيجتها الطبيعية يسمح له بان يكتشف ، بوضوح اجلى منه في دراسة التحقيقات الهندسية ، الخطوط الكبرى لتطور رافق ، دون شك ، التطور العام في الاذواق والعواطف والاخلاق والافكار . ومن جهة ثانية ، اقله في بعض الحالات الخاصة ، يتاح لنا ، بفضل بعض القطع الاصلية النادرة ، او بفضل النسخ التي نرجح مطابقتها لهذه القطع والتي لا نراها غير لا ثقة بها ، او بفضل ايضاحات موثوق بها تركها لنا المؤلفون القدماء ، ان نترأى او ان نلمس احيانا نزعات الفنان الخاصة ونبوغه المميز واسهامه الشخصي في تطور فنه .

أوج الكلاسيكية
كان التطور ، في الدرجة الاولى ، تسامياً نحو اوج الكلاسيكية الذي أدرك خلال الربع الثالث من القرن الخامس . فما زالت هنالك ، حتى السنة ٤٥٠ ، بعض آثار العهد القديم : الابتسامة المصطنعة التي يتأخر زوالها على الرغم من تلطفها التدريجي ، ولا سيما بعض الجمود في اوضاع الاجسام واسترسال الالبسة وبعض الخرق في تنسيق المجموعات النقشية . ولكن تحقيق المهارة الكاملة يتم بسرعة بفضل « ميرون » و « بوليكليت » و « فيدياس » .

توفق الاول الى ان يظهر بصورة محسوسة ، في جمود المادة ، الحركة المنتهية والحركة المبتدئة . ويزيد في قيمة هذا التأليف ايضاً ، مع انه بالغ الاتقان بحد ذاته ، ما يوفره في التمثيل للتعبير عن العواطف تعبيراً خفياً : ازدرأ « أثينا » الفتية الغطريسة التي كأنها توقف سيرها هنية وتدير رأسها لتنظر باستخفاف الى طمع « مارسيا » المراثي والخزي الذي يسرع الى تناول الاداة الناقصة التي احتقرتها ، والتوتر المعنوي والجسدي على السواء البادي في تمثال « رامي الاسطوانة » « ديسكوبول » الراغب في اعطاء افضل ما عنده في جهد اخير تستعد له كافة عضلاته .

و درس بوليكليت جسم الرجل درساً مستفيضاً ؛ وألف كتاباً حدد فيه « قانون » هذا الجسم وقياساته المثالية . وقد طبق مبادئه في تماثيل المصارعين الشبان ، كالجندي (دوريفوروس) الذي يحمل ، في سيره ، الرمح على كتفه ، او كذلك الرجل (دياذومينوس) الذي يلف رأسه بعصية المنتصر . ولكن العنف في ضبط نقاشة العضلات في هذه التماثيل يلطّفه تناسق حي لم يستطع تقدّم العلم ان يقضي على بدايته واثر خمي تركه ابسط حركة في الجسم كله .

اما فيدياس ، الذي يجب ان لا تنسينا شهرته الساطعة اننا لا نعرف بصورة اكيدة تمثالا صنعته يداه ، والذي تقاس عبقريته مع ذلك بما تبقى من نقوش البارثنون التي صممها هو ونفذت تحت اشرافه ، فانه قد استطاع ان يضيفي على الآلهة والالهات جلالات لا مثيل له ، وعلى الالبسة رشاقة تليق بالجسم الانيق الكريم الذي يرتديها وعلى الوجوه وقاراً يعبر عن المثل الاعلى

الديني عند النخبة . وقد توافق الناس في الزمن القديم على الاعتراف بان من يشاهد تمثال زفس الكبير ، وهو الذي قد حققه يجمع الصفائح الذهبية والعاجية واقامه على عرش من الابنوس في معبد اولمبيا ، لن يكون بعد ذلك شقيا . وفي هذا الحكم اعتراف بفخامة هذه الطرفة وصفاتها التي لا تنسى . ولكن فيه ايضاً اعترافاً بالثقة التي توحىها للمخلوق الوضيع الطمأنينة العميقة والنبيل العظيم والابوي معا اللذين استطاع فيدياس ان يرسمها على قسبات زفس الاولمي سيد الآلهة والبشر . اما نقوش البارثنون الرخامية التي تمثل ، في المثلثات ، بعض المشاهد من اسطورة « اثينا » إلهة المدينة ، كولاتها الاعجوبة بسلاحها الكامل من جبهة زفس وظهور شجرة الزيتون فجأة حين انكرت على بوزايدون حقه في تملك الأتيك ، والتي تبسط ، على الافريز البالغ متراً ارتفاعاً و ١٦٠ متراً طولاً ، تطواف عيد هذه الإلهة الذي يشمل اكثر من ٤٠٠ شخص و ٢٠٠ حيوان ، فانها بلامرأ ارفع تعبير مصور عن الديانة المدنية ، ذلك التعبير الذي حاول حكام أثينا بواسطته توحيد « البولس » كلها في عبادة إلهتها الحامية .

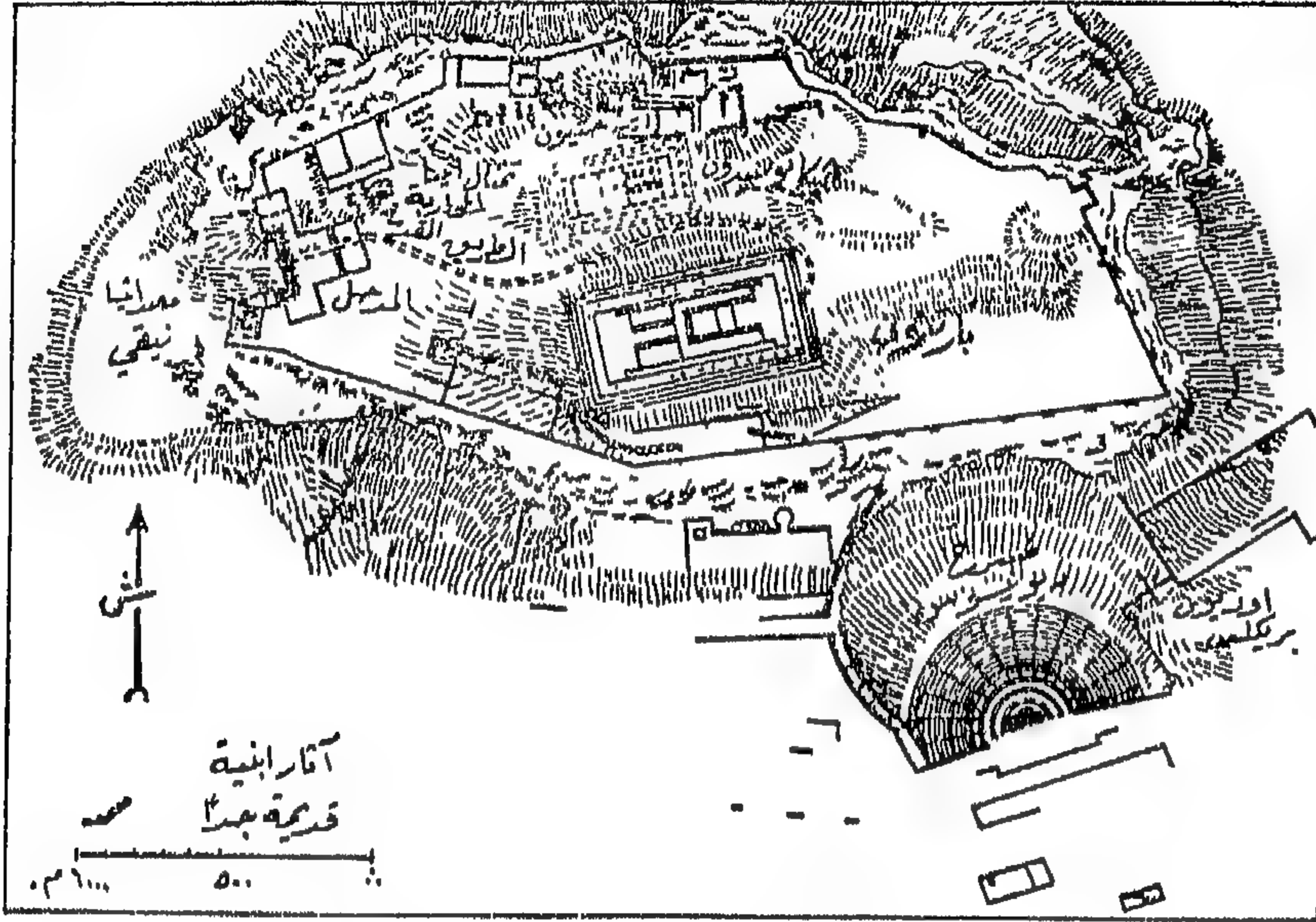
هؤلاء هم كبار الفنانين . ولكن هنالك اسماء لا تخص الى جانبهم ، كما ان هنالك ايضاً عدداً لا يحصى من الفنانين الذين لا نعرف اسماءهم ، كاللئك الذين عملوا في البارثنون تحت اشراف فيدياس ، وعدداً ضخماً ، اخيراً ، من التحف التي قد يتطلب عدداً صفحات وصفحات . وان الشيء العجيب الذي يضيف على نقاشه ذاك العهد ميزتها الكلاسيكية ، هو ، بالاضافة الى كمالها الفني وما تعبر عنه من تحكم الفنان بأنامله والاداة والمادة ، قيمتها العامة المرتكزة الى الاعتدال والمنطق . لا شيء فيها يفرض فرضاً عنيفاً او مباشراً على اعين المشاهد : فان اكثر الاوضاع هدوءاً يسمح له بترائي الحركة ، كما ان الايماءة في اول انطلاقتها والتبدل الخفي في الوجه يكفيان لان يوحيا له العاطفة الخالصة . ولا يرد فيها شيء الى المصادفة : فانها توحى ، باتزانها وانسجام صناعتها ، ان الفنان قد حقق التناقض القائم في ان يفكر ابدأ دون ان يوقف دقيقة واحدة ارتجاج الحياة . وليس فيها شيء مستملح او عارض : فانها تتسامى حتى الأمثلة الطبيعية او الأدبية التي لا أثر في قيمتها المثالية للزمن والبيئة . وجلي انها تتوافق في كل ذلك مع النزعات الواعية التي تجيش في قادة الرأي في « البولس » والنزعات الغامضة التي خضع لها الانسان اليوناني باعطاء « البولس » الشكل الذي كان لها في القرن الخامس . وهي توجب على المدينة ايضاً ان تكون جسماً معتدلاً ، متناسباً ومنظماً من الناحية المنطقية ، ومركباً وفاقاً لقانون داخلي ، ومنقاداً للعقل ، وطامعاً في الانتقال بالمواطنين الى انسانية افضل . وليس من قبيل المصادفة اذا كان فيدياس ، في آن واحد ، معاصر بريكليس وصديقه وبمثابة وزير الفنون الجميلة عندهم .

ولكن هذه المفاهيم الجمالية قد اشتقت من مثل أعلى أرفع سموً
وتجريداً من ان يوفر ارضاء دائماً . فبينما كانت الاحداث تثبت ان

النقاشه في القرن الرابع

مثل البولس الأعلى ، النائي والوعر جداً ، قد اخفق اذ ذاك في تحقيق وحدة المواطنين الادبية السائمين من موجباته وعدم اهليته ، برز تطور مماثل في النقاشة التي عنيت ، منذ ذاك الحين ، بالاستجابة لنزعات انسانية اخرى ليست دونه واقعية ، على الرغم من انها دونه تحليفاً عقلياً . فجاء التبدل سريعاً على غير شكاسة .

على الرغم من ذلك ، نقشت في اثينا ، خلال حرب البلوبونيز ، تماثيل النساء التي تقوم



الشكل ٢٥ - قلعة أثينا في أواخر القرن الرابع قبل المسيح

مقام الأعمدة في منبر « الايرخثيون » ، وهي خليفة بفيدياس بتناسقها وجلال وقارها . ولكن نقشت فيها ايضاً مجموعة آلهة النصر التي تقوم على الدربزين الخارجي في معبد « اثينا نيقى » الصغير ، فوق مدخل القلعة الى الجهة اليمنى ، وقد مثلوا منسغلين في جمع الاسلاب واعداد الذبائح . فبين افريز البارثنون ، الواحد في تنوع مشاهدته التي تحييها فكرة مشتركة تشرف كافة الأوجه والحركات ، وبين هذا الافريز المتكوّن من مشاهد متلاصقة تسحر بما تنطوي عليه من دالة طبيعية وانس جامع ، لاشك في ان هموم ولي العمل والفنانين قد سارت في اتجاه مختلف آخر . وسيقوى هذا الاختلاف مع الزمن باطراد .

ان العواطف ، وهي عواطف انسانية اكثر منها دينية ليس للعقل مراقبة على اثرها في النفس ، تقرأ بسهولة اكبر على الاوجه التي يجرؤ الفنان على اظهار آثار تعذيب الهوى فيها ، بغية خلق التأثير دونما لجوء الى التفكير . وتظهر اشكال جسم المرأة اكثر فأكثر دقة ووضوحاً واكثر فأكثر شهوانية ، في البدء تحت اللباس الخفيف الذي يلصقه الهواء بها ، وبعد ذلك في

عزيمها المتصر ، بفضل ارميل براكسيثيل ، ويغير النقاش نفسه ، على كل حال ، عن شهوانية مماثلة ، في دراسة جسم المراهقين المشوق الاغيد الانيق على بعض التخنت . ثم تتلى الحركات حياة ، لا بل تتخلص من قيودها ، كحركات « الراقصة » التي مثلها « سكوباس » دائرة مضطربة ، او كحركات « الامازون » والاغريق ايضاً الذين يضربون ويدافعون عن انفسهم بشراسة ، على افريز ضريح هاليكارناس الفخم . وفي كل مكان يبرز الحرص على الواقعية التي تجعل حقيقة الحياة اكثر ظهوراً وتعطيها ميزة اكثر شخصية : فأنف الملاكين مسطح واذنهم منتفختان وعنقهم ضخم ، واذا أطال « ليسبوس » ساقى تمثال « ابوكسيومينوس » ، المصارع الذي يكشط العرق عن جسمه بعد الجهد ، فانه لا يتردد في اعطائه شعرا اشعث وعينين جزعتين وفما يكاد يكون منقبضاً لا ينفتح الا جزئياً لنفث قصير لم يستعد بعد انتظامه .

لا شك في اننا نتخطى مع ليسبوس المثال الرسمي للاسكندر ورفاقه في الشطر الثاني من حياته الخلاقة ، عتبة العهد التالي . ولكن هذه الدلائل القصيرة تظهر بما فيه الكفاية ، منذ قبل الاسكندر ، ان النزعات التي ستطبع النقاشة الهلينية بهذه القوة ، لا تترأى ترائياً فحسب ، بل تقرب اكثر فاكثرا الى فن لا يفقد شيئاً من مهارته الفائقة ، ولكنه ينصرف عن المثل الأعلى الكلاسيكي ، الذي يهمل منذ ذاك الحين ، لأنه لا يتفق مع تيار يدفع بالاغريق الى عالم جديد.

نحن نرى ان الفنون الاخرى دون هندسة العمارة والنقاشة
بدرجات . وقد يكون رأينا خاطئاً ، على كل حال ، اما بفعل
جهلنا ، واما بفعل تسلسل جهل اليونان واوجدناه نحن بين نشاطات
فنية تستهدف كلها اصفاء الجمال على الحياة الفردية او الجماعية .

الفنون الأخرى :
التصوير وصناعة الخزف والفخار

لا نزال في جهل مطبق حيال فن التصوير اليوناني لان تحفة واحدة من تحفه لم تصل الينا . ولكن واقع وجود هذا التصوير في ذاك العهد لا يرقى اليه شك ، وقد ارتدى اشكالا متنوعة جداً انطلاقاً من التصوير على الجدران لتزيين الابنية ، وبنوع خاص الرواق والمعبد ، حتى لوحة المسند الخشبية . ففي مدخل القلعة الكبير الذي شيد في عهد بريكليس خصصت احدى القاعات متحفاً للتصوير . وهذا يعني ان هذا الفن كان موضوع تقدير سام ، وسيعرب الرومان حيال الحصول على تحفه ، عن رغبتهم نفسها في الحصول على التماثيل . وقد وردت اسماء اشهر المصورين ، « بوليغنوت » « وزفكسيس » « وباراسيوس » في القرن الخامس « وابيل » في القرن الرابع ، محاطة بمديح كبير وبطرف تؤيد شهرتهم . وقد حظي « ابيل » لدى الاسكندر بالتقدير نفسه الذي حظي به ليسبوس . وباستطاعتنا ان نتبع على وجه التقريب تقدم فنهم الذي لم يزل ، في اوائل القرن الخامس ، اولياً جداً وبطيء التحسن . فبوليغنوت قد جهل التصوير بحسب الرؤية واهمية الظلال والصبغ المتدرج ، وهذه كلها اكتشافات لم تتحقق الا في النصف الثاني من القرن الخامس . وكان « ابيل » اول من اكثر مسن استعمال الالوان الشمعية بفضل طريقة

جديدة تسمح بتلدين الشمع . فهل امكن التعويض عن هذه النواقص الفنية بفضل مهارة الفنانين وتناسق تحفهم ومعرفتهم للاشكال البشرية ودقة سيكولوجيتهم ؟ هناك من يؤكد لنا ذلك ولكن اصدار حكم ، انطلاقاً من التحف نفسها ، لا يزال مستحيلاً علينا .

ليست هذه ، لحسن الحظ ، حال صناعة الخزف التي لا يأتي المؤلفون القدماء على ذكرها الا قليلاً ، ولكن تحقيقاتها قد وصلت اليها .

اما عهد هذه الصناعة الذهبي فهو القرن الخامس الذي احتلت خلاله ائتنا ، مرة اخرى ، مرتبة اولى لا شك فيها . وقد ساعدها في ذلك ، على الصعيد المادي ، سعة تجارتها ، وبنوع خاص تصدير الزيت والنبيد ، اذ ان نقل السوائل قد اوجب عليها ، بالضرورة ، النهوض بصناعة الفخار . ولكن الآنية الفخارية الصفيقة كانت في الحقيقة كافية لهذا الغرض ، وليس ما يستلزم ، والحالة هذه ، انتاجاً رفيعاً . ولكن هذا الوضع قد اسهم في تسهيل ظهور هذا الانتاج ، بتشجيع التقدم الفني ، وباراز الكفاءات بين الصناعيين العديدين ، وبزيادة امكانات البيع . ولذلك فان الاهمية الجمالية التي وفرها قسم من الانتاج ترتدي قيمة دليل هو أوضح وأفصح من ان نستطيع اهمال دلالاته .

فهو يثبت في الدرجة الاولى وجود مواهب فنية فطرية يلفت نحوها الانظار عند بعض العناصر على الاقل من العمال اليدويين . وقد حرص بعضهم على توقيع مصنوعاتهم ؛ ولكن الروائع المغفلة ليست ما ينقصنا ؛ ونحن نترامى من خلال هذا التواضع ، رجالاً مكبين ، في وسط الطبقة العمالية ، على عمل يتنافس في انجازه اهتمامهم في تأمين خبزهم اليومي ومشاكل اخرى اقل صبغة تجارية .

ثم ان رواج هذه المصنوعات لبرهان على سلامة ذوق زين الخزافين . وكان هؤلاء الزين من المواطنين في الدرجة الاولى . فالخزفيات المزخرفة كانت دارجة الاستعمال ، ونادرة هي البيوت التي اكتفت بالفخاريات الصفيقة ولم تقن منها بعض القطع . ومن حيث ان الصفة الفنية لم تتأثر بذلك على العموم فيجب الاعتقاد -- مقارنة بالجاهير العصرية -- ان الجاهير الاثينية لم تكن مبتدلة . وهذا في نظرنا استنتاج إلزامي يفرضه ، بصورة اكثر جلاء من درس الفنون الاخرى التي لا شيء يثبت لنا انها لم تقتصر مبدئياً على ارضاء النخبة ، درس الخزفيات التي يعتبر شراؤها اوسع استفاء يومي يمكن تصوره . ولكن الزين لم ينحصر في الأتيك بل كانوا موزعين ومنتشرين حتى خارج بلاد اليونان . فمنذ العهد القديم ، صدرت روائع خزفية يونانية كثيرة الى البلدان النائية ، كإيطاليا الوسطى والقرم ، حيث عثر على بعضها . وقد حدث الشيء نفسه في ذاك العهد . فقد صدرت ائتنا مصنوعات ، في القرن الخامس ، الى شواطئ البحر الاسود . واذا فقدت ائتنا ، في القرن الرابع ، كثيراً من منزلتها في الغرب الذي نزعت مصانع صقلية وإيطاليا الى سد حاجاته ، فان رؤساء قبائل روسيا الجنوبية ما زالوا زينها الاسخياء . وانما

متحف اللـ « اوميتاج » في ليننغراد مدين جزئياً لمداقتهم بغنى مجموعاته النادر . وان في نجاح هذا الفن الرقيق لدى نخبة المجتمعات الاجنبية التي لها وحدها من الثروة ما يتيح لها اقتناء هذه القطع المختارة ، لبرهاناً جديداً على انتشار الذوق اليوناني الذي هو رائد الحضارة اليونانية والتعبير عنها في آن واحد .

اعتمدت من الوجهة الفنية ، طريقة تغلبت على غيرها منذ اواخر القرن السادس . وهي تقوم في خلفية سوداء ومساحة حمراء للمشهد تعين الرسم فيها خطوط دقيقة سوداء . اما الطريقة القديمة التي كانت تعتمد الصور السوداء على خلفية حمراء فقد زالت الا على بعض الآنية القليلة الطلب او ، احتراماً للتقليد ، على القوارير التي تقدم جوائز للفائزين اثناء المباريات في اعياد الإلهة « اثينا » . وقد خرجت عن القاعدة السائدة فئة اخرى من الآنية هي تلك التي تودع المدافن وبعض الاكواب النفيسة ذات الخلفية البيضاء والمتعددة الالوان الكامدة بسبب استعمالها المدفني .

ولكن الصفة الفنية في أجمل هذه المصنوعات غير ناشئة عن بصيرتها ، بل عن شكلها وعن التحديب النقي الانيق الذي اعطي لمادتها الطيبة القابلة التمديد . ومرد هذه الصفة خصوصاً الى الالهام وسلامة الذوق في الصورة التي تزينها . وتصلح كل المواضيع للفنانين : تمثيل الميت بهيئة مثالية ، والاساطير الخرافية والبطولية ، ومشاهد الحياة اليومية . وتلفت الانظار هذه المشاهد الاخيرة ، الملئية في اغلب الاحيان ، بقيمتها كمستندات اكيده وبدايتها كرسوم اعدادية سريعة وايحائية معاً . فلمعرفة حياة الاغريق الخاصة ، الاستعدادات للزواج والاحتفال به ، اعمال النساء في الحذر ، اجتماعاتهن عند ينبوع ، التمارين في مكان الرياضة ، تسليمات الولاثم ، الاعمال في المدرسة والمصنع والريف ، توفر الفخاريات رسوماً تفوق المستندات الادبية تنوعاً وتفصيلاً وافادة وحياة . فقد برز في اثينا اذ ذاك ، بصورة نادرة ، عدد كبير جداً من المصورين الذين لا نعرف ماذا يوجب الاعجاب بهم في الدرجة الاولى ، خصب ورشاقة الخيلة ، ام حدة الملاحظة ، ام الدقة والضبط والاناقة في التنفيذ السريع . ويضاف الى ذلك احياناً ، وينحصر ذلك في ارباب الفن ، قوة الایحاء ، والخط الذي يحمل الناظر بعيداً ويوحى حالة نفسية شعر بها الفنان في اعماقه واداءها تأدية لطيفة : سرور الجهد الطليق والمنتصر ، الم الام المتضرعة امام جثة ابنها ، استسلام الضحية وشفقة من يضرب الضربة القاضية ، حنان الوداع الذي قد ينذر بخطر انفصال نهائي لا يخفف من احواله اي ايمان يقين بحياة ثانية .

يبرز الاختصاصيون ، في مجد القرن الخامس ، عموداً وطرائق يطيب لهم ربطها بتطور النقاشة وتصوير المواضيع الكبرى . ونحن يكفيننا هنا ان نلفت الانظار الى ما ظهر منذ اواخر القرن ، وازداد جلاء فيما بعد ، من انسافة مواضيع مبسطة ، تدريجياً ، على الرسوم الترينية ، ومن تسقيده في الرسم واستعمال صبغ متنوعة بما فيها التذهيب . وقد فقدت تنزيهات القرن

الرابع البساطة التي اتصفت بها في القرن السابق ، اذ ان الذوق قد تطور على هذا الصعيد ايضاً . وليس من المهم ان يكون الذوق قد تقدم او تقهقر بفعل هذا التطور ؛ فاذا لم يزل هنالك صناعيون ماهرون ، فلم يبرز فنانون محلقون في تصوير الآنية .

ان صناعة الخزفيات ، على ما نعلم ، قد احتلت اعلى مرتبة في تزيين الحياة اليومية . ولا شيء تقريباً يسمح لنا بابداء رأي في تجارة الابنوس والصياغة . وهنالك بعض القطع الرائعة في المسكوكات ، لاسيما بعض تلك التي ضربت في سيراكوزا حاملة رسماً جانبياً نقياً للحرورية اريتوسا ، بينما تبقى اثينا امينة للقاعدة القديمة في رسم البومة الصمعاء ورأس « اثينا » . ولكن ما يجب ذكره حقاً هو التماثيل الفخارية . اجل انها صنعت في امكنة كثيرة ومنذ ازمة بعيدة ، ولكنها تتميز ، في القرن الرابع ، وفي بيوسيا خصوصاً ، بصفات جديدة بالاعتبار . واذا اعوزتها العواطف القوية والغنية ، فان فيها من الرشاقة والاناقة والسحر ما يأخذ بمجامع القلوب . وتؤلف هذه التماثيل ، مع المشاهد المصورة على الآنية ، مستندات ثمينة بحقيقتها ومستعدنة بظرافتها البديهة لازياء المرأة وحياتها في البيت وفي الخارج — لان القسم الاكبر منها يمثل نساء .

ان هذه الروائع الصغيرة التي تمتاز بدقة الملاحظة والابتكار البديع واققان التنفيذ تقودنا الى خارج أثينا . ومن الموافق على كل حال ان يأتي اسم « تناغرا » المدينة البيوسية الصغيرة الذي اشتهرت به ، لان ادق هذه التماثيل واجملها من صنع هذه المدينة ، مناقضاً للغلاظة التي طاب للآثينيين ان ينعتوا بها البيوسيين جيرانهم ، واعداءهم في اكثر الاحيان . ولكن مهما يكن من هذا الامر ومن غيره فان إسهام اثينا في تحقيقات الفن اليوناني الكلاسيكي الرائعة تتفوق على اسهام كافة المدن الاخرى تفوقاً ساحقاً يصبح من التهور معه ان ننهي هذه العجالة باسم غير اسمها .

٣ — الحياة الفكرية

ان النعت « كلاسيكي » غني بالمعاني التي يصعب الاحاطة بها كلها . ولعله من الثابت ، على الاقل ، ان ليس من حضارة كبيرة جديدة حقاً بهذا النعت اذا لم يقترن بهاء مصنوعات الفنية بهاء مؤلفاتها الفكرية ، واذا لم يلمس فيها ، من جهة ثانية ، بعض الانسجام النظري بين النزعات التي يخضع لها المبتكرون في هذين المجالين . هذه هي بالضبط حال العالم اليوناني في القرنين الخامس والرابع . فالحياة الفكرية لم تكن اقل سناء فيهما من الحياة الفنية . وفي كلا الحياتين كان ما خلفه الاغريق للاجيال اللاحقة ذا اهمية رئيسية ، واذا نحن ارغلنا اليوم في بعض الطرقات ، فالفضل يعود لهم في شق اكثرها امامنا . اما تشابه المثل العليا فليس فيه ما يثير الدهشة اذا ما فكرنا ملياً بكل ما بذله الفنانون من مجهود عقلي في فنهم ؛ ومن الاكيد الثابت ، في اوج الكلاسيكية ، ان الفيلسوف اناكساغوروس والشاعر سوفوكليس والمؤرخ هيرودوتس قد عرفوا فيدياس في بطانة بريكلليس ، وان سقراط فيما بعد قد سأل الفنانين عن كيفية ادراكهم للجمال . لذلك فان المشاغل الهامة كانت متجاوزة وقد تبعم تطورها خطأ منحنيّاً واحداً . فكان

الهم الاول الحصول على معرفة منطقية ، اي تنظيم الانسان والطبيعة وفاقاً للعقل ، فاذا بقيمة هذا المثل الاعلى العامة تولى المجهود اليوناني قوة نافذة متبادية . ثم ساد الاقتناع ، بفعل التعمق في هذه المعرفة ، بان العقل لا يفسر كل شيء ولا يتحكم بكل شيء ، وبان هنالك قوى اخرى تعمل عملها لا تقل عنه واقعية واهمية .

يتوجب علينا ، في هذه الظروف ، ان نحل الفلسفة في المرتبة الاولى بالاستناد الى تأثيرها اذ ذاك في كافة النشاطات الفكرية
الفلسفة : التقاليد والجدد في القرن الخامس
الاخرى : ومن النادر جداً ان نرى كاتباً يونانياً لا نلمس عنده طابع المفكرين الذين قرأ مؤلفاتهم او استمع الى احاديثهم .

كان فلاسفة القرن الخامس اوفياء لحلم الطموح الذي دغدغ مخيلة فلاسفة القرن السابق ، فتابعوا في الدرجة الاولى البحث عن تفسير منطقي لطبيعة الاشياء . ولم يختلف امبيدوكليس واناكساغوروس وليسبوس وديموكريت اختلافاً حقيقياً عن الايونيين من حيث الطرائق المعتمدة التي كثيراً ما لجأت الى الخيلة والى الاسطورة احياناً بسبب افتقارها الى وسائل البحث الصحيحة ، ومن حيث صفة الحلول التي تبنيوها . فهم ، شأن الايونيين قد تحتاجوا حول عدد وصفة العناصر الاساسية والقوى التي تؤلف وتفصل بينها لتكوّن منها الاشياء وحركتها الدائمة في آن واحد . وتكفي الاشارة هنا الى ان حدسهم لم يخطئ احياناً ، دونما حاجة منا الى الدخول في تفصيل نظرياتهم الذي لا نعرفه معرفة تامة على كل حال . فنحن نعلم مثلاً ان اناكساغوروس الايوني المنشأ والمقيم في اثينا قد اقيمت عليه الدعوى لانه علّم ان الشمس كتلة متأججة ، نافياً عنها بذلك صفة اللوهية . ومما يلفت الانظار اكثر من هذه النظرية ، وهو موضوع الساعة اليوم ، نظرية الذرات التي تخيلها ليسبوس وتوسع فيها تلميذه ديموكريت . فالذرات ، في نظرهما ، صغيرة جداً ولا عدد لها ، ولكنها متشابهة من حيث تركيبها ولا تختلف الاحجام وشكلاً ووزناً . ومن شأن الذرات الثقيلة منها اذا ما سقطت ، ان تسبب ، بفعل الصدمات وتفاعلها ، حركة لا نهاية لها تتولد منها الاشياء في مظاهرها المتنوعة . وقد كتب لهذا المذهب مصير نادر بفعل قصائد « لوكريس » وبفعل جهود علماء الطبيعة المعاصرين لجهة مبدأ الذرة . ولكن هذا المذهب واحد من مذاهب اخرى كثيرة وهمية وغاشمة ، لا فرق اذا كانت هذه المذاهب توحيدية او ثنوية او تعددية ، واذا ما استندت ، في تحليل نظام الحركة ، الى التضاد بين المحبة والبغضاء او الى الـ «نوس» (Nous) (الفكر) باعث الانطلاقة الاولى او الى بعض الامور الآلية . وقد اخطأت كلها بالثقة العمياء في طاقات الفكر البشري الاعزل من كل سلاح ، اذ ذاك ، امام معاضل شبيهة بتلك التي لم تخش الفلسفة اليونانية ، في اوائل عهدها ، من مواجهتها ومعالجتها .

وحدثت حينذاك ، في النصف الثاني من القرن الخامس ثورة السفسطيين الفكرية والاخلاقية معاً . وليس لاسم السفسطي في حد ذاته اي معنى محط ، اذ انها تعني في اليونانية « رجل المعرفة » .

ولكن الحملة المفرضة اللاذعة التي قام بها ضدهم افلاطون بنوع خاص قد ألصقت بهم سمعة سيئة .
وهم قد نّفروا من جهة ثانية معاصريهم ، المتمسكين بأراء الزمن الماضي ، بفعل تجاسرهم ونجاحهم
والارباح الطائلة التي جنوها من تعاليمهم منزلة التعليم العالي المجرد عن كل غاية ، حسب الاعتقاد
السائد ، الى مستوى نشاط تجاري عادي ، وكلها مأخذ تثير الابتسامة اليوم ، لا تمحو شيئاً من
اثر ما حققه السفسطيون واهميته التاريخية .

فهم قد تجاوزوا إطار الفلسفة تجاوزاً واسعاً متناولين جميع نواحي المعرفة ومعمدين فيها
طريقة واحدة . وهي طريقة ثورية في جوهرها لانهم لم يهتموا للمواضيع المجردة بل اعلنوا ،
كما قال بروتاغوراس ، احد مشاهيرهم ، « ان الانسان هو قياس كل شيء » . فهل عنوا بذلك
الانسان الحقيقي بكمليته ، اي الانسان العاقل والعاطفي معاً ، العضو في الجماعة والكائن الفرد ؟
يرجح انهم قد شددوا ، على سبيل رد الفعل ، على المظاهر المهمة حتى ذاك العهد . ومهما يكن
من الامر ، فان ما نهضوا به فوز لروح النقد التي استسلموا لها ، محتقرين التقاليد احتقاراً كلياً ،
واخذ بمبدأ الذاتية على اساس استحالة اية معرفة موضوعية . وكان من شأن هذا المبدأ ان
يذهب بهم بعيداً : فلا سبيل اذن لاثبات او نفي وجود الآلهة ؛ ولا سبيل لاعتبار الشريعة ،
« الناموس » الذي تأسست عليه « البولس » ، كواقع غير بشري او نبأ من من التقلبات البشرية ؛
ولا سبيل لمعرفة حق مطلق وعدل مطلق يسموان على ما هو مفيد ويتميزان عنه . وهكذا فان
كل شيء قد اصاب بهزة عميقة . فقد حث السفسطيون تلاميذهم في الوقت نفسه على استهداف
النجاح قبل كل شيء . وتحقيقاً لهذا الغرض روضوا جدلهم ولقنوم صيغا خطابية بارعة استطاب
اكثرهم درسها وتعليمها وحددوا لهم كمثل اعلى ، لا سيما امام المحاكم ، « تحويل اقوى حجة الى
اضعف حجة » .

لجأ المؤرخون الالمان ، في تعيين هذه الثورة العميقة الجذور الى الكلمة نفسها التي استعملت
في تعيين ثورة « الانوار » في القرن الثامن عشر : *Aufklärung* . وان هذه المقاربة لواجبة
في الحقيقة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اتساع الحركتين ومغزاهما العام . فقد كان لعمل السفسطيين
اهمية عمل « الفلاسفة » بعد ذلك بثلاثة وعشرين قرناً . فأثروا مباشرة في نخبة المجتمع ، وعن
طريقها في طبقات اكثر اتساعاً ، ونشروا ما يجب تسميته بالثقافة التي كانت وقفاً على دوائر
ضيقة ، اي ، فيما يعنينا هنا ، تذوق بعض القضايا والاهتمام بجميع مظاهر الحياة الفكرية .
وادخلوا ، على الفلسفة والعلم ، روحاً نقدية عميقة وخشية من تجريد لا رادع له ، لن يستطيع احد
بعدهم ان يخرجها منها . وقد كانوا اخيراً في الاساس من انطلاقة الفردية المنتصرة التي لن تلبث ان
تبدل الحضارة ، بادئة في جعل « البولس » نفسها تترجرج على اسسها .

جعل ارسطوفانوس من سقراط ، في كتاب « الغيوم » ، احد السفسطيين لا بل شرهم في نظره .
ولم تنقض اربع وعشرون سنة حتى حكم على من سخر منه بالموت ، فشرب الشوكران السام من

الكوب للذي قدمه اليه الجلاذ . فاذا سلمنا ان ليس هنالك اخطاء اعظم من الجرائم ، فما عسانا نقول عن الاخطاء التي تسهم في التسبب في الجريمة ؟ فالضحك عند قراءة « الغيوم » يستلزم في الحقيقة استعداداً نادراً للنسيان .

يتعذر ، في الحقيقة ، فهم سقراط بدون السفسطيين : فهو على غرارهم ، وبعدهم ، يتحول عن البحوث النظرية حول المادة والحركة التي يعتبرها على جانب كبير من الطموح وعدم الثبات ؛ وعلى غرارهم وبعدهم ايضاً ، يكرس جهودهم واجتهادهم للانسان . ولكنه يفترق عنهم بسلوكه وطريقته . فمن حيث انه اثيني - وهم ليسوا بأثينيين - ومواطن متواضع ومثالي ، لا ينتقل من مدينة الى مدينة للبحث عن المستمعين يلقي عليهم محاضرات جاهزة . وهو يريد في الدرجة الاولى وفاقاً للحكمة الدلفية ، ان يعرف نفسه ويرى جلياً في داخله وبقتنع بحقيقة ما يشعر ويفكر به . وهو يعلم هذا المبدأ بالمثل معتمداً حيال كل شخص مبدأ « السخرية » وطارحاً على محدثيه اسئلة يتظاهر فيها بالجهل حتى يجعلهم « يولدون » ما هو كامن فيهم . ويفترق عن السفسطيين ايضاً بتعليمه الاخلاقي والديني : يؤمن بوجود الالهة وتدخلها لدى البشر والامور البتيرية ؛ ويعتبر ان السعادة الحقيقية مرتبطة بممارسة الفضيلة التي بمكنتها ان تسيطر على الجميع اذا توصل الجميع الى التغلب على الاوهام المشتركة ونبت الآراء السائدة دونما تعليل . وهكذا فانه يلقي بالذاتية جانباً ويعيد مفاهيم الواجب والعدل التي سعى غيره الى ابدالها بمفهوم المنفعة ، تلك المنفعة التي يكفي ان يحسن ادراكها حتى يتخطاها .

كل من اراد ان يوغل في عرض آراء سقراط الجوهرية الى ابعد مما قدمنا ، يحتاج الى اثبات غير متوفر . ولكن ما نترأاه لكاف لان ندرك كل ما احدثه في الحياة الفكرية اليونانية هذا السابق الممهد الطريق امام الشك المنظم والتأمل الباطني ، وامام علم الاخلاق العقلي وحتى امام اللاهوت الادبي . أضف الى ذلك ان توضيحته بحياته على مذهب شرائع وطنه قد جاءت ، بقوة المثل ، تكمل تعليمه وتخلّده ، مع أنه لم يخلف اي مؤلف مكتوب .

يسيطر سقراط ، في الحقيقة ، على فلسفة القرن الرابع ؛ وانما يختلف
الفلسفة في القرن الرابع
اتجاه تلاميذه ، الذين لا يقيّدون أي تعليم محدد ، وفاقاً لاستيحاءهم
بجهود معلمهم المستمر توصلاً للحقيقة اكثر عمقاً . وبصرف النظر عن الشبه المطلق في انتسابهم
الفكري ، فانهم جميعاً يتشابهون في كونهم مؤسسين او أقله معلمين لمدارس معدة لتقدير واسع
ولحياة طويلة ، وفي ذلك ظاهرة واضحة للاهتمام الذي أثارته منذ ذاك العهد معاضل فلسفية
طرحت بشكل جديد على بساط البحث .

فن تلاميذ سقراط ، أنتستين ، الذي يعلم في ملعب « سينوسارغيس » الأثيني ، الذي سيشتق اسم مدرسته منه (*Cynique*) ، ان سر السعادة قائم في احتقار حاجات تولدها في الانسان ممارسة حياة تبعده عن الطبيعة ، ولن يلبث هذا المبدأ ان يؤدي الى تظاهرات

« ديوجين » التي دلت معاصرة ونشرت المحافظين على التقاليد . ولكن في هذه التظاهرات شيئاً آخر غير المناقضة المتجبرة والخارجة عن المألوف : ان فيها نوعاً من حفيظة تلك الفردية المستمرة في تقدمها منذ منتصف القرن الخامس التي بلغ منها هذه المرة ان احتجت على عادات المجتمع وعلى التقسيمات التي يفرضها وحتى على فكرة الوطن كبيراً كان أم صغيراً . فلا قيمة للانسان ، في حالته الفطرية ، الا بصفاته الفردية ، دونما تمييز في مرتبته الاجتماعية وقوميته . وكان ديوجين منطقياً مع نفسه حين نحت ، في زمن الاسكندر ، كلمة « كوزموبوليتس » « مواطن العالم » التي وقعت موقعها الحسن في تقهر وهزيمة « البولس » بينما اتسعت الآفاق اليونانية اتساعاً كبيراً .

ومن تلاميذ سقراط ايضاً ، اريستيبوس ، الذي تنشأ السعادة في نظره ، من قطاف اللذة حتى الشهوانية منها ، المنتخبة ، والحق يقال ، ببصيرة عقلية واهتمام لتجنب سيطرة الاهواء على الانسان . وسينقل « ابيقور » عن نظرة اريستيبوس ، خصوصاً ، ذاك الحد الذي وضعه للانحلال الاخلاقي والذي كثيراً ما امله خصومه في انتقاداتهم .

ومن تلاميذ سقراط اخيراً افلاطون على الرغم مما نجد عنده من تأثيرات أخرى لا سيما البيثاغورية ، ومن ان تفرد القوي ، خصوصاً ، يجعله يسبق معلمه اشواطاً ، في حواراته التي يعطيه فيها ، بمجاز تقوي ، الدور الاول . كان اثينياً ومن عائلة شريفة وقد قُتِرَت نفسه منذ البدء من رد فعل الارهابيين اعداء الديموقراطية ، ومن الديموقراطية نفسها ، ومن العمل السياسي في وطنه ، وخيب امله اخفاقه في العمل الذي حاول القيام به كمستشار لمستبدي سيراكورا ، فاعتزل الحياة السياسية بعد اسفار كثيرة الى اثينا ونظم ، في الاربعين من عمره ، عند مداخل اثينا ، في حديقة البطل اكاديموس ، مدرسة استق اسمها (اكاديمية) منه ، بشكل طائفة تؤدي العبادة لآلهات الشعر . فأقبل عليها التلاميذ من كافة مناطق العالم اليوناني رقد اتى بعضهم حتى من الشرق ، من بلاد ما بين النهرين ومن ايران . ثم جاءت كتبه ، وهي روائع في الحداقة الجدلية والسحر الشعري والطلاوة الاليفة في خدمة فكرة لا تضحي بالفروغ الدقيقة على مذبح الحزم ، فنشرت تعليمه الشفهي وابقت حياً .

ان آراء افلاطون تتحدى التلخيص بتنوعها وغناها وعمقها . ولكن التسدبد على ما فيها من روح دينية زاخرة ليس في الحقيقة مما يرونها . فالفيلسوف يحاول التوفيق بين العقل والعاطفة الدينية ونراها ميالين تقريباً للقول انه انما يحاول التوفيق بين العقل ودفق الروح والقلب . فالحجة ، أي تلك النزعة الحارة نحو الجمال المطلق ، القريبة جداً من الخير المطلق ، هي في نظره معيار الفضيلة ، ويكاد علم المعقولات يختلط عنده بالصوفية . ويستحيل التأكيد ان علم الملك نفسه لا يجاور التنجيم عنده . لذلك فقد رأى بعضهم فيه المسؤول الاول عن « الانهيار

العصبي ، الذي يعزى اليه الله صرف الفكر اليوناني عن متابعة المجهود المنطقي الذي قاده حتى ذلك التاريخ بمثل هذا النشاط وهذا النجاح . ولكن هذا الرأي لا يأخذ بعين الاعتبار كل ما قام في اعظم عهود الكلاسيكية ، الى جانب وخارج مذهب العقليين من النخبة القليلة العدد ، والعجز الذي واجهته هذه النخبة ، حتى قبل افلاطون ، في الحد من ازدياد وثبات نزعات مالت هي بالفطرة الى اعتبارها اقل نبلاً . ولكن ما لا شك فيه ، على الرغم من ذلك ، ان افلاطون قد سلم هذه النزعات نهائياً شهادتها في النبل .

ليست ديانتهم على كل حال الديانة التقليدية الزاخرة بالاساطير التي حكم عليها بأنها غير معقولة . واذا ما بقي وفيماً لمذهب تعدد الآلهة ، فإنه قد صحّحه بتدريج ينتهي ، عند القمة ، باله كامل لامتناه يكون إحكام التأمل فيه اسماً مكافأة ممكنة . وهو يؤمن بخلود النفس والتقمص وهما ذيل لازمة لنظريته حول « المثل » وعلم الاخلاق . فالمثل ، وهي جواهر الاشياء والتصورات ، التي ليس مثل « الخير » بينها سوى الاله المطلق ، موجودة في عالم سام ، وليس باستطاعة الانسان ان يرى ، في العالم الارضي والمحسوس ، سوى انعكاساتها الغامضة . ولكن نفسه ، قبل ان تتجسد فيه ، قد عرفت العالم السامي والمثل . وهي بالتالي ، وفاقاً لصفاتها ، وبقوة متفاوتة ، تتذكر هذا العالم وهذه المثل وتحن اليها . فبها نفسها ، وبالحبة التي هي خليفة بها ، وبالحرارة التي تشدها الى الفضيلة ، يتعلق امر تخلصها رويداً رويداً ، في تجسّدات متجددة متعاقبة ، من عالم الصور ، حتى تقترب الى الله .

يستحيل التفكير هنا في استعراض المظاهر الكبرى الأخرى لرأي افلاطون : شغفه بالعوام وخصوصاً بالرياضيات ، نظريته حول الاعداد المرتبطة بنظريته حول المثل ، نظراته الاجتماعية والسياسية . فهو لا يزال في الدرجة الأولى ، خلال الاجيال المتعاقبة ، « المثالي » الذي يرى في الفضيلة وثبة نحو الألوهة ويوجب على الأسئلة التي شعر الانسان ابدأ بإقضاها بقوله المطمئن ان النفس ، اذا ما انفصلت عن الجسد الناقص والمحسوس ، تستطيع ان تجد ، في الموت ، وبفضل الموت ، فرصة للسمو الى عالم أعلى .

ولم يتردد ارسطو ، وهو تلميذ افلاطون ، في انتقاد وتخطي معلمه . فهو يرى ان المثل ، الحالة في الاشياء والكائنات ، تنحرف في المادة باتخاذها شكلاً يزداد تكاملاً بازدياد مطابقتها لعلته الغائية . فالمادة والشكل والغاية اذن ثلاث معطيات لازمة ، على تباين في اهميتها ، بسبب اختلاف مراتبها ، تستلزم الدرس لتدرك ادراكاً تاماً . فلا يحتفظ ارسطو بعد ، شأن افلاطون ، بالدور الأول للمحبة والحدس في سير الانسان نحو الحق بل للاستدلال والمجهود التجريدي . وهو لا يوحد بعد بين الله والخير بل بين الله والأدراك الخالص ، واذا كان كل شيء ينزع نحو الله بالارتفاع درجة فدرجة في سلك الكمال والعلل الغائية ، فان النفس لا تدبو منه الا بانقيادها للعقل ، وعلى العقل ان يرشد ، بين بقيصتين متناقضتين ، الى « الحد الوسط » الذي هو الفضيلة ،

فضلة عملية قبل كل شيء ، اذ ان مصير الانهيار يتحقق على الارض .

تهرز بذلنا الهوة التي تفصل بين ارسطو وافلاطون . فقد ادعى الخلاف العميق في طبيعتها التي تقوم على الاحساس والخيالة عند افلاطون ، وعلى الملاحظة الدقيقة عند ارسطو ، الى خلاف جوهري في المنهجية والروحانية . فقد اراد ارسطو ان ينطلق من الواقع الحسي ليأني بالبيانات الملزمة التي تسمو الى ارفع تجريد ، فجعل نصب عينيه اولاً ادراك هذا الواقع . اما المدرسة التي أسسها في اثينا في ملعب ابولون ليكاوس (*Le Lycée*) حيث افضت احاديثه مع تلاميذه ، في الممرات الضيقة ، الى اطلاق اسم « المتزهين » عليهم ، فقد كانت قبل كل شيء ، في ايامه ، مركز اجاث منظمة على أعلى مستوى ممكن من الدقة والشمول . ففي جميع الحقول ، من علوم وادب واخلاق وسياسة ، انكب هو نفسه وحمل غيره على الانكباب على البحث عن الوقائع وتنسيقها ، سعياً منه وراء اسناد جدّه في الاستدلال والتعميم على اسس وطيدة . وهكذا فانه يبدو بلا مرأ ، كواضع حجر الزاوية ، في العصور القديمة ، لاحدى القواعد الرئيسية في الاسلوب العلمي الحديث . وهو غير مسؤول عن الخطأ الذي ارتكب زمناً طويلاً في جعل تحقيقاته المرجع الاخير في كافة العلوم : فالروح نفسها التي سيرته كانت تقضي ان لا ينقطع غيره عن توسيع وتعميق تحقيقاته .

بفضل افلاطون وارسطو ، اللذين سيستمر أثرهما طويلاً ، حافظت فلسفة القرن الرابع على مستواها في القرن الخامس ، لا بل ان هذا النظام الفكري لم يسهم يوماً في سناء الحضارة اليونانية بمثل ما اسهم به اذ ذاك . وقد احتلت اثينا على هذا الصعيد ، منذ ذاك العهد ، مركزاً لم تعرفه من قبل . فسقراط وانتستين وافلاطون كلوا مواطين اثينيين ، وفي اثينا اسس الفلاسفة الأجانب مدارسهم التي اقبل عليها تلاميذهم . وقد ثبت واقع سيدوم طويلاً ، هو ان اثينا أصبحت عاصمة الفلسفة في العالم اليوناني .

منذ البداية نظر الاغريق الى الفلسفة نظراً الى علم العلوم المعدي لأن يؤلف
المعوم
منها النتائج في تفسير اجمالي . غير ان التيار الفلسفي اذ ذاك قد سبق التيار العلمي اشواطاً بعيدة . وفي الواقع تأثر التيار العلمي بدروس نظرية عقائدية ، ان لم تكن لاهوتية . وعلى الرغم مما في ذلك من تناقض ، فان علم المعقولات (ما وراء الطبيعة) قد تكون قبل علم الطبيعيات ، حتى اذا اسندنا الى هذه الكلمة معناها الواسع جداً ، الذي ربما انطوت عليه في ذاك العهد كدرس للطبيعة ، ويجب انتظار ارسطو حتى يولي بحث الوقائع المحسوسة الدقيق كل الاهمية التي يعطيها للعلم . ولكن هذا العلم قد اعاقه من جهة ثانية فقدان الاهتمام لتطبيقاته العملية ، ويبرز هذه الحالة الفكرية تنكر المجتمع الراقي لبعض النشاطات المأجورة . ثم ان العلم قد اعوزته الادوات الفنية لأن الصناعة لم تكن ناشطة بعد ، وهي مساعداً العلم وحافزه معاً . وبسبب افتقاره الى نهج اختباري لم يتصوره تصوراً قط ، ربما لأن الوسائل المادية لم تتوفر له

لهذا العرض ، لجأ العلم الى التجريد او اقتصصر على الملاحظة . وقد حملته البزاعات السائدة في الفلسفة على ان يفضل ، لزمن طويل ، اولى الطريقتين المفتوحتين امامه .

فمن الطبيعي اذن ان تكون النجاحات الباهرة قد تحققت في حقل الرياضيات وملحقاتها . فالمدرسة البيثاغورية التي ما زالت ناشطة ، لا سيما في ايطاليا الجنوبية ، على الرغم من الصعوبات التي اقامها في وجهها عداء شطر كبير من الرأي العام ، قد بقيت امينة للابحاث الحسابية والهندسية التي جعلها مؤسسها متممة لعقيدة الطائفة المشايعة له . وقد برز في هذا الحقل اسمان ، كلاهما في القرن الرابع ، هما اسم « ارخيتاس » وهو بيثاغوري لا غش فيه كان حاكماً لطارتنا وطنه واسم « افدوكس » الكنيدي الذي افضت ابحاثه الى تقدم المعارف الرياضية تقدماً حقيقياً . ثم ان افلاطون نفسه ، الذي اطلق على احدى محاوراته اسم المهندس الاثيني « ثييتيت » والذي كان على صلة بالبيثاغوريين في الغرب وفي اليونان حيث انتشر مذهبهم ، قد اهتم اهتماماً حاراً بهذه الابحاث واحلها محلاً مرموقاً في اكاديميته . كذلك استهوى علم الملك جميع هؤلاء الرياضيين الذين تفننوا في ابتكار النظريات حول نظام الاجرام السماوية . فحالمهم التوفيق في احدى المرات . وقد سبق ان اشرنا الى الفكرة التي كونها اناكساغوروس عن الشمس . لاشك ، والحق يقال ، في انه قد اقتصر ، في الالمح الى ضخامة كتلتها المتأججة ، على القول انها « اكبر من البلوبونيز » ولكنه قد علم ايضاً ان القمر شبيه بالأرض تقوم على سطحه ، على غرارها ، الوديان والجبال ، ويتلقى ، على غرارها ، نوره من الشمس . وقد قال احد بيثاغوريي القرن الخامس بدوران الارض والكواكب الأخرى حول نار مركزية . ولكن نظريته التي اسرع من جهة اخرى الى ربطها بنظرية ايقاع الافلاك الموسيقي لم تصادف اي نجاح . فان افدوكس قد انهمك اذ ذاك في ان يثبت ، بوسائل مختلفة ، دوران الكواكب حول الارض . وقد اصطدمت كروية الارض نفسها وقتئذ ببعض معارضات الممارضين . بيد ان هذا الرأي المنبتق عن البيثاغورية قد حظي اخيراً بانضمام اكثرية العلماء اليه . واذا كان الفضل يعود لأحد الايونيين من مدرسة « كيوس » في اثبات انحراف محور الارض على سطح مدار الشمس المستوي ، فسان ارخيتاس وافدوكس هما اللذان حققا الطريقة التي تسمح بحساب قياسات كوكبنا ، واخفها من جهة ثانية في تطبيقها عملياً .

والعلم الوحيد الأخير الجدير بالذكر هو الطب الذي نرى فيه النتائج الخسيرة للبدء العقلي الكلاسيكي الذي هو مدين له بنشأته كعلم . اجل ، مارس الاغريق الطب ابدأ ولكن بشكلليه : « الوصفات » الاختبارية وقد استعيرت احياناً من مصر الغنية بها جداً ، « الوصفات » الدينية او السحرية احياناً . ففي اماكن مختلفة كان للآلهة - الأبطال الشافين معابدهم المتباينة الشهرة ، وكان اوسعها شهرة معابد اسكليبيوس ، ولا سيما معبد ايندورس في الأرغوليد . وكان الطب فيها عن طريق هتاف الغيب ، فيأتي المرضى الى الكهنة ويطلبون منهم تفسير الاحلام التي انعم الاله

بها عليهم اثناء ليلة قضوها تحت بلرواقي ، ولم يكن هؤلاء الكهنة بالاغبياء . فان خبرتهم ، غلى الأقل ، قد سمحت لهم بارشاد المرضى الى طريق الشفاء . فاستثمر الاطباء هذه الاختبارات العملية . ثم تأسست المدارس ، ولم ينفك ملوك الفرس ، منذ اواخر القرن السادس ، عن تعهد اطباء يونانيين في بلاطهم . فحصل في القرن الخامس المجهود المنطقي الذي يلفت الانظار بنسوع خاص في هذا الحقل .

وقد يكون احد اعضاء مدرسة « كروتون » في اليونان الكبرى اقدم على ممارسة التشريح . ومهما يكن من الامر فانه قد اكتشف ان الدماغ مركز الحس والفكر . وقد حدث خصوصاً ان ظهر « ابقراط » في مدرسة « كوس » وهي جزيرة في بحر ايجه قريبة من آسيا الصغرى . وكان ينتمي الى الاطباء الاسكليبيين التي تباغت بانحدارها من الاله وخدمت معبده المحلي . ولكن منشأ الكهنوتي لم يمنعه من ان يخلق حقاً العلم الطبي بتطبيقه المبادئ العقلية دون غيرها على الطب . فأبعد عنه النظريات الفلسفية والحرافات التقوية ، واعلن ان ليس من مرض سببه فائق الطبيعة ، حتى داء الصرع الذي انتقد اسم « المرض المقدس » المشتهر به ، ناعثاً اياه بكذب الممخرقين والجهلة ، وعني واوصى بمتابعة درس الانسان وحتى البيئة الطبيعية التي لمس ما تنطوي عليه من اهمية بسلسلة من الملاحظات قام بها اثناء اسفاره ، وان في اعتباره ابا الطب لاحقاً واجب الوفاء .

بيد ان الجرأة التي ألهبت هذا العقل الحازم لم تتوفر لخلفائه . اصف الى ذلك ان المبدأ العقلي قد فقد مرتبته كنزعة سائدة . ولذلك فان القرن الرابع يبدو وكأنه ، في حقل الطب ، عهد ركود ان لم يكن عهد قهقري . واكتفى الاطباء الاسكليبيون في كوس بحرف تعليم معلمهم الذي نظروا اليه نظرهم الى عقيدة ايمانية . ولكن المعرفة الاختبارية وحدها قد تقدمت في المعابد حيث ازداد اقبال المرضى رائدي الاحلام الشافية . وقد اقتضى حافز جديد لبعث البحث العلمي ، فتوفر هذا الحافز ، على غرار كافة علوم الطبيعة ، في العهد التالي ، عن طريق اسلوب ارسطو — ارسطو ذاك الذي عاد الى خطاه السابق بأن نسب الى القلب الدور الذي سبق لاحد الكروتونيين ، قبله بقرن كامل ، ان تحقق من انه دور الدماغ .

ولو ان القلب قام مقام الدماغ ، والعاطفة مقام العقل ، لاستهوانا ، في اكثر من مظهر من مظاهر الحضارة ، ان نولي هذا التغيير قيمة الرمز وان نحدد بواسطته ، دونما اعتبار لفوارق كثيرة ، التناقض القائم بين القرن الرابع والقرن السابق المكب على المنطق . ولعل ذلك لم يكن خطأ في كل الحقول ، ولكنه كان خطأً فادحاً في الحقل العلمي .

لا شك في ان التاريخ لم يكن علماً في ذاك العهد ، وهل يمكن ان يكونه التاريخ بكل ما للكلمة من معنى ؟ ولكنه مدين لاغريق العهد الكلاسيكي بوعي تدريجي الوضوح لهدفه وواجباته ، لمبادئه الفكرية والمنهجية ، وبكلمة مختصرة لمثله الأعلى

المكوّن بحيث ان التاريخ يصبح اقل بعداً عن الأنظمة العامية من اي نشاط فكري آخر .

كان هيئاته الميلي ، في أواخر القرن السادس . كما سبق ورأينا ، قد برهن عن ملكته النقدية : « انني اكتب ما يلي لأنني اعتبره حقيقياً » . ولكنه يتعذّر علينا ، لسوء الحظ ، الحكم على كيفية تطبيقه لهذا المبدأ . وبعده بخمسين سنة تقريباً يبدو هيرودوتس ، وهو اغريقي آسيوي قام بأسفار كثيرة وظهر في اثينا في بطانة بريكلّيس ، وكأنه يعود خطوة او خطوات الى الوراء . فقد اعلن ان دوره يقتصر على رواية ما نقل اليه : « ان لمن يرى هذه الامور جديرة بالتصديق ملء الحرية في قبول قصص المصريين ؛ اما انا فأقصد من خلال تاريخي الطويل ان ادوّن كتابة ، وفاقاً لما سمعت ، ما قاله سواي » . ولكن مثل هذه التصريحات ، مهما بلغ من عددها وجزمها في كتابه ، يجب الا تخدع احداً . فالحقيقة هي ان هيرودوتس ادهى من ان لا يكون له رأيه الشخصي ، وغالباً ما نراه يستسلم للرغبة في الالمّاح اليه ، وحتى للتعبير عنه احياناً بنخب تراققه الابتسامة الدائمة . فهو ، عندما يروي ، يضطر الى تقديم الشروح ، ويبدو كأنه يفسح مكاناً واسعاً لدور الألوهة في الاحداث البشرية . ولكن من لا تخدعه الظواهر يستطيع غالباً هنا ايضاً ، ان يتلمس بعض الارتياح والتشكك ، اذ ان اضخم سذاجات هذا الرجل الذي يصعب ادراكه ، وهذا الراوي المدهش بمرونته ، نادراً ما تخلو من سخرية مستترة يتعذر اكتشافها على من يقرأ كتبه قراءة سريعة . ان مؤلفاته تأخذ بمجامع القلوب بملاحظاته التصويرية حول اصل الشعوب وعاداتها ، وبصفاته الأدبية الرفيعة ، وبسحر الاستطرادات التي يستهويه اللجوء اليها دون ان تؤثر في تلاحم روايته ، وبـلغة لغة مستعذبة يستثمر مواردها ببراءة يتظاهر بها من شأنها ان تنطلي على الكثيرين وتحول غالباً دون تذوق فنه الرقيق . ولكن فضله الاكبر ، كمؤرخ ، يقوم في انه رأى وأدرك المعنى العميق لثلاثة ارباع القرن التي شهدت طفولته نهايتها . وكان الاول في ادراك العالم اليوناني الشرقي في الوحدة التي وفرها له الاتصال بين الحضارات ، والهجرة ، ومجازفات الفتح . وكان الاول ايضاً في النهوض بحركة تاريخية شعر باهميتها وسعى جهده في اكتشاف اصولها ورواية نشأتها وتعقب نموّها . وتقوم وحدة عمله ، في الحقيقة ، في مصير الامبراطورية الفارسية نفسه التي نظر اليها نظرتة الى محاولة لم يسبقه احد في اعطائها هذا الشمول ، ترمي الى توحيد الشرق اولاً والسيطرة على العالم ثانياً ، تسير بخطى حثيثة من نصر الى نصر حتى تتعظم باخفاق الحروب الميدية . فهو من تلقاء نفسه ، دونما قدوة سابقة ودونما خبرة تاريخية مماثلة ، ودونما تأليف سابق او فلسفة سابقة للتاريخ ، قد ادرك وعرض ، ككل ، تطوراً على هذه الوحدة وهذه العظمة وهذا التعقيد وهذا التأثير ؛ وهذا في الحقيقة هو فضل وفخر ذاك الذي كان شيشرون محقاً في تسميته « ابا التاريخ » .

وقد كانت ثلاثون سنة كافية لأن يحقق التاريخ نجاحات أخرى عظيمة بالنظر الى تفوق « توسيديد » على هيرودوتس بقوة عقله وعمق تحليله السيكلولوجي ومعرفته لدوافع العمل

السياسي والعسكري . فبواسطة توسديد تبدلت الذهنية تبدلاً كلياً . فسلط طرف بعد ، ولا اساطير ، ولا تلكؤ ، ولا احقاد نيميسيس ولا توبيخ هتافات الغيب . وبعد اقضاء الحجج التافهة والأسباب المباشرة ، اعطت الدولة والانسان وحدهما الاسباب الحقيقية ، الدولة بمنطقها العبوس وانانيتها المقدسة ، والانسان ، فردا كان ام خلية لكائن جماعي ، بأهوائه الفطرية : فالبصيرة الحادة هي التي تكتشف ترابط العلل والمعلولات . اصف الى ذلك ان موجبات الطريقة النقدية قد وضعت ونفذت بكل دقة : « اما بصدد الأحداث ، فلم ار من الموافق نقلها عن اي راوٍ يرويها لي او بحسب تأثيراتي الشخصية ، بل بمشاهدتها بنفسي ، او باجراء تحقيق دقيق جداً حيال كل نقطة ، اذا اتصلت بي عن طريق شهود آخرين . وكان البحث عسيراً لأن روايات هؤلاء الشهود للأحداث نفسها لم تتشابه قط ولأن الشهود ، وفاقاً لعظمتهم او لذاكرتهم يميلون بين هذا الحزب او ذاك » .

الاعجوبة هي ان توسديد يضع هذه الطريقة الملزمة ويجسر على تطبيقها على حوادث معاصرة له هو احد ابطالها ، لا بل احد ضحاياها . فهو اثني استلم قيادة عسكرية في اثناء حرب البلوونيز وحكم عليه بالابعاد للتكفير عن هزيمة عسكرية ، ولذلك فهو انما يريد فهم هذه الحرب وافهامها غيره عندما يرويها . فأتضح له باكراً جداً ان الصراع يهدد بالخطر سياسة التوسع الاستعماري التي ينهض بها وطنه ، لا بل سياسة التوسع الاستعماري التي تنهض بها البولس في كيانها ، وتابع بشغفه العقلي المتكبر نفسه التصميم الاول الذي وضعه وبدأ بتنفيذه قبل ابعاده . فاستعاض بجهد العقلي الملح عن الفاصل الزمني الذي توفر لهيرودوتس بفضل تعاقب الحوادث التاريخية وبداية حياته كانسان .

ولكن طموحه يتخطى الى حد بعيد حرصه على الحقيقة حيال الاحداث التي يرويها . فهو يستهدف « الفائدة لكل من يريد الحصول على رأي حقيقي في الحوادث الماضية والحوادث المتشابهة او المماثلة التي ستسبب عودتها دوافع الطبيعة البشرية » ، وهذا هو الذي يقصده في كلامه عن « خير مكتسب دائم القرار » . وهو بذلك يعبر عن مفهوم للتاريخ لم يفقد حيويته حتى اليوم : مختبر لاختبارات قابلة للتجدد ، ومجموعة دروس ودليل للسياسيين والمفكرين . فشتان ، في الحقيقة ، بين هذه النظرة وتلك التي تستهدف ، اول ما تستهدف ، ارضاء نهم القارئ في بحثه عن آفاق اخرى ومغامرات قام بها آخرون .

نرى بذلك تفرد مقصد « توسديد » وسمو صفته المنطقية المطابقة لنزعة عصره العامة . لا شك في ان ذلك يفضي به الى رؤية الواقع رؤية ناقصة : فهو يهمل القضايا الاقتصادية ؛ ثم ان عمق تجريده وتصميمه اللفظي على بلوغ ما هو دائم يحدان عنده حتى المغالاة من دور ما هو عارض . ولكنه يبقى مثلاً فريداً للمؤرخ الفيلسوف او بالأحرى السيكلولوجي ، موغلاً في تشريح وتحليل بعض الحقول بثقة لم يبرهن عنها مؤرخ بعده .

كان من العسير جداً المحافظة على مستوى مثل هذا المعلم ، ولم يلبث الهبوط ان ظهر في القرن الرابع . اجل يبدو التاريخ حينذاك مثيراً لاهتمام عدد اكبر من القراء بسبب ازدياد عدد المؤرخين ومؤلفاتهم . ولكن الذوق والعقلية نفسها قد تغيرا ، بمقدار ما يجوز لنا الحكم على القليل مما نعرفه من هذه المؤلفات التي فقد اكثرها او تقتصر اليوم على شذرات لا اهمية لها .

كان كسينوفون ، بهذا الصدد ، اوفر حظاً من غيره ، لان وضوح واناقة وظرف اسلوبه الكتابي ، قد حافظت ، بإطالة شهرته ، على مؤلفاته المتنوعة ، من فقدان . ولكن هذا المؤلف الذي لم يكن مؤرخاً الا في فترات معينة والذي طرق مواضيع كثيرة تفصله مسافة بعيدة عن توسديد الذي طمع هو في اكمال المحاولة التي توقفت بمئاته . اجل انه ذو بصيرة نيرة ، ولكنه لم يكن بعيد الغور في ادراك الاخلاق والحوادث . يتصف بفهم الحياة ويستوقف القارئ ويثير اهتمامه ؛ ولكن ميله الى تهذيب الاخلاق مما يثير الابتسامة ، على انه سطحي على كل حال ، كما ان تحيزه مما يثير القلق والريبة . ويبرز بعده اثر مسيطر تركه ايزوقراط معلم البيان ، ويكون ثيوبومبوس ، من التطور الذي تم امام ناظريه ، رأياً كافي الوضوح لجعل من فيلبوس المقدوني الموضوع الرئيسي في أحد مؤلفاته . ولكن الشذرات التي لدينا من هذا المؤلف كافية لأن تبين لنا انه لا يتقيد بتأليف مدقق . ويصبح التاريخ بنوع خاص ، كما كتبه هو وايفوروس ، قطاعاً من قطاعات البيان ، يهدف الى الرهرة والحدّة وتحريك العواطف ولا يأنف حتى مما هو مدهش وعجيب : فلم يلبث هو ايضاً ان انحرف في التيار العام . ولن يتحرر من هذا التيار لا بسهولة ولا بسرعة ، على الرغم من مثل ارسطو الذي كان ، في هذا الحقل كما في غيره ، يجمع الوقائع بانتظام ويوحى ، ان لم يؤلف دائماً ، سلسلة من كتب في مواضيع واحدة حول التاريخ الدستوري للمدن اليونانية . ولم يبلغنا من هذه الكتب سوى « دستور الاثينيين » الذي اكتشف بأعجوبة في اواخر القرن التاسع عشر . ولكن هذا الكتاب ، المؤلف بسرعة ، في موضوع عسير ، أدخل عليه الغموض نشره السابق المتعاقب الذي شوّهته الروح الحزبية والخرافات الدينية او الغطرسة العائلية ، ابعد من ان يعبر عن روح نقدية منزّهة عن الضلال . بيد انه ، بصرف النظر عن الخدمات التي يؤديها للمؤرخين المعاصرين ، قد اهاب بالمؤرخين القدماء ، الى الحذر من تفخيم في الكلام مستعذب آنذاك والنهوض بمجهود استقصائي دقيق . وهكذا فان ارسطو قد وجه التاريخ نحو العلم الواسع ، واذا لم يحرز فوزاً اكيداً ، فان اثر توجيهه سيظهر في العهد التالي .

الشعر : الشعر الغنائي
لم يشد الشعر عن القاعدة العامة . ويمكننا ان نتبع فيه ، بين الاجيال المتعاقبة ، تطوراً أقل بروزاً في الشكل منه في الروح يسير بخطى حثيثة ويتفق ، في خطوطه العامة وفي اكثر من قمة من قممه ، مع التطور الذي يلحسي مظاهر أخرى من الحياة الفنية والفكرية .

مهما بلغ من ازدهار الشعر الغنائي خلال العهد السابق ، فإنه قد تسامى حتى القمة في النصف الاول من القرن الخامس ، مع بنذاروس . فقد عبر هذا الطيبي المحافظ ، الذي مارس الغناء في خدمة الملوك والمستبدين والعائلات الكبيرة النبيلة ، عن المثل الأعلى للمجتمع الارستوقراطي المتشرب التقاليد الدينية والمتجسد في مثال من امثلة الانسان وفي نوع من انواع الحياة . فهو يمجّد ، في الاناشيد التي تؤلف جوهر مؤلفاته المعروفة ، هذا الفائر او ذاك في مباريات الفروسية او العاب القوى . ويلجأ الى المزيد من الاساطير في مديحه ومديح عائلته ووطنه . ويدبج حكماً ملهمة من مبادئ ديانة واخلاق الزمن الماضي التي هي في نظره حقائق خالدة . ولا يمنع بهاء استعاراته الجريئة عن ان يكون ممثلاً للماضي في مستهل قرن سيفيض جدّة في كل الحقول .

وهو على كل حال آخر اسم بارز في الشعر الغنائي اليوناني . وانّ في هبوط ، بل في زوال هذا الشعر ، اذا جاز التعبير ، شيئاً من اللغز . فقد كان من الممكن ان يعرف البقاء ، ويكتشف بسهولة مصادر الالهام ، في عاطفة الفرد المتحرر شيئاً فشيئاً من القسر مثلاً . ولكنه لم يسر في هذا الاتجاه الا بعد العهد الكلاسيكي ، ولعل السبب في ذلك انه لم يصادف الا في ذلك الحين ، لدى البلاطات الهلينية ، جمهوراً جديداً من الهواة المتذوقين خليقاً بأن يحلّ محلّ ذلك الذي حرّمه منه تطور المدينة المتزايد نحو الديمقراطية .

من المستحيل ، على كل حال ، الاّ نعزو الى هذا التطور الرواج المتزايد المسرح الذي عرفه الشعر المسرحي . ويستلزم الشعر المسرحي باستمرار ، من جهة ثانية ، اقساماً غنائية موكولة الى الجوقة ، ويظهر بالتالي كوريث وبديل الشعر الغنائي الصرف الذي هو اكثر انسجاماً مع اذواق الندوات الضيقة في المجتمع العالي . لذلك ليس من العجيب ان ينتج الشعر المسرحي روائعه في اثينا ، في المدينة التي اعطت المثل في الديمقراطية والتي لم تتفوق عليها اية مدينة اخرى في رونق الاعياد الدينية .

بين هذه الاعياد ، احيطت اعياد ديونيسوس ، التي تميزت بالتمثيل المسرحي ، بهاء خاص لا يمكن تعليقه اذا نحن لم نربط بينها وبين مفهوم المدينة الديمقراطية بالذات . فليس في الواقع شيء افضل من المسرح ، الذي ترتاده الجماهير بما فيها الفقراء الذين كانت الدولة تدفع لهم رسم الدخول ، لجمع شعب بكامله وتحريكه بمشهد واحد يثير فيه الضحك او القشعريرة من هول المأساة ، ووضعه ، بشكل جذاب حيّ ، امام معاضل هو مدعو للتفكير بها في مكان آخر غير الجمعية السياسية ، وبكلمة موجزة « لتجميل الحياة » عن طريق السمو بالافكار ، وفاقاً لحلم رجال الدولة الديموقراطيين آنئذ . وهذا ما يفسّر ضخامة التضحيات المالية التي فرضتها هذه الاعياد على الخزانة العامة وعلى المواطنين الأغنياء المنوط بهم انتقاء الجوقات واكساؤها وتدريبها : وهذا ما يفسر ايضاً تزايد نجاح وعدد التمثيليات . وهذا ما يفسر اخيراً مجد المسرح

الاثيني الذي بقي زمناً طويلاً دون منافس والذي أدى القسط نفسه الذي أدّته ابنية القلعة في القرن الخامس أو مدارس الفلسفة والبيان في القرن الرابع في سبيل إشعاع مركز الحضارة آنذاك ، مدينة الإلهة « أثينا » .

لا ريب في أن المسرح انتاج ادبي ، ولكنه يستلزم موجبات فنية مادية ايضاً تتعقد يوماً بعد يوم . كان المسرح في القرن الخامس مجرد صقالة خشبية تقام لايام معدودة ، ثم اتخذ ، في القرن الرابع ، وفي كل مكان ، شكل البناء الحجري الثابت ، وحتى الرخامي في بعض اجزائه ، واعدت لاستقبال السوف المشاهدين (١٧٠٠٠ في أثينا) . ويجهز لهذه الغاية منحدر احسدى التلال ، ويجري التمثيل في الهواء الطلق . ولم يؤمن المسرح المزيد من الراحة لان الجلوس على دكات مزعجة ، دون وقاية من الحرّ والمطر ، سحابة عشر ساعات في اليوم لمدة ثلاثة ايام ، كان يقتضي في الحقيقة جلدأ عظيماً . وقد حاول المخرجون ، في مكان التمثيل ، ايجاد الصورة الخادعة بالتزيين المصور الجزئي وبتحسين الأدوات المبتكرة التي كانت بدائية جداً . وكانت الجوقة التي تجول في القسم المستدير من المسرح امام الدكات ، موزنة المقاطع الايقاعية ، اكبر عناصر الفرقة عدداً - ١٢ ، ثم ١٥ للمأساة ، و ٢٤ للمهزلة . ولكن اهميتها تتدنى ، لأن عدد الممثلين يرتفع بسرعة ، منذ اواسط القرن الخامس ، من واحد الى ثلاثة : وبعد ان كان الممثل مجرد « بحيب » على الجوقة ، اصبح بذلك شخصاً يقابل اشخاصاً سواه ، كما ان الرواية دبّت فيها الحياة بفعل التمثيل المباشر وتصادم الآراء وتعاقب الأسئلة والأجوبة السريعة .

بيد ان هذه التغييرات لم تحل دور استمرار مصطلحات مرتبطة بنشأة المسرح وظروفه المادية على السواء . فنحن لا نعلم مثلاً لماذا توجب على كل مؤلف ، في مباراة المآسي ، تقديم ثلاث روايات فاجعة كان من الضروري ، لمدة قصيرة ، ان تؤلف كلاً واحداً . ولكن الرغبة في ان يكون لديونيسوس نصيبه من التمثيليات المعدة لأعياده فرضت على المؤلف ان يرفق هذه الروايات الثلاث بـ « مأساة - مهزلة » مكرسة لأحد احداث اسطورة الاله . ولنضف الى ذلك مثلاً آخر هو تقنع الممثلين . فعند الشعوب المختلفة ، وحتى في أيامنا ، عند الشعوب البدائية ، درج استعمال القناع في الاعياد الدينية او استعويض عنه باعتماد الملونات المختلفة على الوجه . انه ينزع عن الممثل شخصيته وفرديته وينتزعه من الواقع اليومي ويرفعه الى مرتبة المثال العام ، ويسهل الابهام الذي يتيح له لعب ادوار مختلفة في التمثيلية الواحدة او دور ليس الانسان معداً له بالفطرة كدور الاله او البطل او المرأة - اذ ان العادات لا تجيز للمرأة مثل هذا العرض امام الجماهير . ثم ان القناع يضخم الصوت ويجعله اكثر جلاء لجمهور غفير . فليست الاسباب اذن ما يعوزنا لتعليل هذا الاستعمال ، وهو واحد من كثير غيره ، الذي تدهشنا غرابته اليوم .

لا يتجلى المسرح اليوناني بكل معانيه الا اذا اعيد الى جوّه الديني والاخلاقي وحتى

السياسي ، ووضع في اطاره المادي . غير انه يرتفع ، اذ ذاك ، لاسيا المأساة ، الى مستوى القيم الجامعة والخالدة .

كبار مؤلفي المآسي
في القرن الخامس

ليس في الحقيقة ما يشير الاعتبار كرؤية الشعراء مؤلفي المآسي ، في اثنينا القرن الخامس ، يعرضون امام ضمير المشاهدين اعظم المعاضل اهمية . فبفضلهم ادت المسرح قسطه الرئيسي في مهمة التربية الفكرية والاخلاقية التي استلزمها المفهوم البريكليسي للديموقراطية . وهم بقتبسون مواضيعهم ، على العموم ، من الاسطورة الخرافية . وقد نالوا عند بعضهم ، لاسيا في البداية ، ميلا الى معالجة الاحداث القريبة العهد . واذا لم يكن اسشيل اول هؤلاء الشعراء المؤلفين ، فانه كان الاخير في الاستسلام لهذا الميل ، على الرغم من قوة التجلي البطولي في روايته « الفرس » التي تستعيد ، بعد ثماني سنوات ، معركة سلامين التي اشترك فيها كما اشترك في معركة ماراثون حيث قتل اخوه . غير ان هذا الميل ، الذي كان من العسير جداً ان يأتلف مع ميزة التمثيل المسرحي والفكرة الدينية فيه ، لم يحرز الغلبة وما لبث ان انتهى الى الزوال . وقد وفرت العقيدة الخرافية ، على كل حال ، بما يتخللها من فوارق كثيرة يختار الشاعر منها بلاء حريته ، ينابيع حية لا تحصى للالهام الشخصي وللتفسير الشخصي ايضاً . فالأسطورة الواحدة ، كاسطورة « اورستس » مثلاً ، تتناولها على التوالي المعالجات الكثيرة المختلفة ، فتثار حولها مناقشات هي ابعد من ان تنتهي بتوحيد وجهات النظر المختلفة . وتعتبر هذه الفوارق ، شأن ميزة الشعراء الفردية ، عن التطور الفكري والاخلاقي السريع الذي طبع الاجيال اللاحقة .

ان اسشيل الذي حارب في ماراثون يمثل الماضي والخضوع التقليدي لقوى فائقة الطبيعة : فهو قد ولد في الفسيس وامتلات روحه بتدين قديم . وهو يقبل الاعتقادات القديمة ويظهر ، بعظمة منقطعة النظر ، تأثير الالهة على المصير البشري تأثيراً مباشراً فعلاً لا يبالي للعدل والرحمة . ومن حيث خضوع هذا المصير للعنات الوراثية ولثأر وحسد الآلهة ، فانه ينتقل من امتحان الى امتحان . ويكاد لا يجد بعض التعزية الا في الشفقة التي تثيرها مصائبه والتي نادراً ما تفعل فعلها ، على كل حال . وقد اخذت تظهر ايضاً ، بكل صعوبة احياناً ، فكرة تعليل العقوبة بالكبرياء . ولكن ، اذا حصل اورستس على الغفران بفضل محكمة « الاريباغوس » وتمكن من تقديم الذبيحة الى الالهات بنات الارض ، فان « بروميثاوس » ، « التيطان » المحسن للبشر ، سيعرف العذابات الابدية التي استحققتها له جسارته كثائر والحكم المبرم القاسي الذي صدر عن آلهة ارفع من العالم وابعد بالتالي من ان يبرهنوا عن روح انسانية . وهكذا فان مذهب اسشيل قوامه الهول والتواضع .

ولكن الامور قد تغيرت مع سوفوكليس . اجل ان هذا لا يهمل شيئاً من التدين التقليدي ،

ولكنه لا يحتفظ في مآسيه بالمركز الأول للآلهة . فالقدر يبقى سيد الانسان ويفرض عليه الانقياد الدائم ، لا بل الذل نفسه امام قساواته القصبوى . ولكن القدر يصح اقل ظهوراً وتضييقاً ، واكثر انفتاحاً ، في الوقت نفسه ، على مفاهيم العدل والمسؤولية . اصف الى ذلك ان ما أورده سوفوكليس في مأساة « انتيغون » لم يورده عبثاً : « هنالك اشياء مدهشة كثيرة ، ولكن واحداً منها لا يوازي الانسان » . فان سيكولوجيته تتعمق في الاستقصاء وتنوع متدرجة من العنف الحاد حتى ارفع العواطف رقة . وبسلا من ان يتصلب الاشخاص عنده في مخالفة بعضهم بعضاً ، شأنهم عند اسثيل ، فانهم قد اخذوا شيئاً فشيئاً بتقديم البراهين والحجج ، رغبة منهم في التعريف عن انفسهم تعريفاً اكثر مرونة وفي ابعاد التهم الملتصقة بهم . ومن حيث انه عاصر بريكليس الذي زامله في القيادة العسكرية في السنة ٤٤٠ ، فانه يدخل على لاهوته خبرة اوسع تنوعاً وارتفاع انسانية وينقل في الوقت نفسه الى الشعر فن فيدياس المتميز بالجلال والبساطة معاً .

ثم يبرز ، على غيرية كبيرة ، اوريبيد الذي يفصله عن سوفوكليس فرق خمسة عشر سنة في السن فقط ، هي في الحقيقة ثورة فكرية ، ثورة السفستيين . فهو لا يتردد في الانتفاض بصراحة على الاعتقادات القديمة وفي انتقاد التقاليد المستبعدة او المناهية للاخلاق . فليست الاسطورة في نظره سوى حجة فقط وتقتصر الرواية المستندة اليها على مستوى الحياة العائلية . وقد تمتع بمخيلة بالغة الحصب وباحساس فائق الحدة في اشد الظروف عنفاً ادهشاً وهزاً مشاهدي هذه المآسي التي اصبحت مآسي بورجوازية او ريفية احياناً . لا بل يحدث احياناً ان يسمو احقر الناس ، نبلا وفضيلة ، على الابطال والبطلات الذين تحركهم بالمقابلة الاهواء البشرية والضعف البشري . فاطار رواية « اليكترا » ليس قصر ارغوس الملكي ، بل قرية وضيفة في الارغوليد تكون فيها ابنة آغاممنون زوجة لفلاح غفل هو نفسه الذي يتجه اليه عطف الشاعر بصراحة . وقد ذهب اوريبيد الى ابعد من ذلك . فمن حيث هو « الصدى الرنان » لزمانه ، فانه يلم على الاقل بالمناقشات الفلسفية الكبرى ، وحتى ببعض المعاضل السياسية الراهنة ، مضطراً احياناً لايقاف سير احداث الرواية ، ومبرهنناً على الدوام عن بصيرة دقيقة اخذت بمجامع قلوب الهواة انفسهم . ويقال ان سقراط قد داوم على حضور كافة تمثيلياته . ولا شك في ان المتمسكين بالتقليد قد نادوا بالويل والثبور ، ولكن ليس من استجابة افضل لاذواق الجمهور الاثيني الجديدة من مآسي اوريبيد .

ولدت المهزلة ، شأن المأساة ، من ظرف اعياد ديونيسوس نفسها ، « المهزلة القديمة » ولكنها استهدفت إثارة الضحك ، ولذلك فهي منذ البدء قد نعمت بحرية اوسع . وهي ليست على كل حال شبه احتكار اثيني ، مما ادخل عليها المزيد من التمرج . وكان هنالك في الواقع ، في النصف الاول من القرن الخامس ، مهزلة « دورية Dorienne » في سيراكوزا ، اشتهر « ابيخارموس » ممثلها الرئيسي ، استوحت مواضيعها من الحياة الشعبية والملاحظة

اليومية ، ثم استمرت في التمثيل « اليمائي » . وليس من ريب في انها لم تبق دون تأثير في التطور اللاحق الذي عرفته التمثيليات . ولكن هذه المؤلفات قد فقدت كما فقدت مؤلفات الهزليين الاثنيين المعاصرين : فلا شيء يمنع بالتالي ان تكون « المهزلة القديمة » في نظرنا ، مهزلة ارسطوفانوس بالذات الذي غطى نشاطه شطراً من القرن الخامس وآخر من القرن الرابع .

ان هواه ومداعبته حتى وغلاظته ايضاً لا تعرف حدّاً . فهو يلجأ بصورة طبيعية جداً الى المداعبات البذيئة وحتى الى القذارات نفسها . ويردري بالآلهة الذين يصورهم في اوضاع مضحكة احياناً . ويتناول ، شأن الهزليين الآخرين الذين تهكموا تهكماً لا ذعاً من بريكلليس نفسه ، الرجال الاحياء المعروفين المشهورين الذين يصورهم صوراً هزلية تعجز قوة الخيال فيها عن ان تنسي ما فيها من تظلم فطيع . ويظهر في النظام الديموقراطي معارضاً رجعيّاً . وينادي بالسلام حتى في خضم الحرب القومية . وينتقد اوريبيد وجرأته الالحادية ، ولكنه لا يمتنع عن تقليد رفته المجددة . ولا يهتم للتناقض ولا للشطط . ولكن هذه الغرابة المنفلتة ، وهنا سر المعجزة ، يرافقها شعر بالغ الرقة واحساس فائق اللطف بحالات الطبيعة التي يعبر عنها بمهارة نادرة في السبك والايقاع . وليس سوى مؤلفاته المدهشة ما يتيح ادراك مرونة الفكر اليوناني والمناقضات التي اصطدمت فيه بميوعة الحياة . فكيف يتذوق هذا الشعب ويتوج مثل هذه التمثيليات ، وجب ان يكون قريباً من الارض ، على انه كان خبيراً سريع الاحساس قادراً على الضحك الكثير والتأثر بمعاشرة ذوي الاحساس الرقيق ومستعداً للابتهاج باللواذع الموجهة الى آراء ورعامات يحضنها ثقته في غده وامسه . اجل لم يكن منشككاً ولكنه ، في يوم عيد ، طيب له استقبال مناقضاتٍ شعراً بغليانها في نفسه دون ان يضطرب منها .

المسرح في القرن الرابع
في القرن الرابع بلغ تذوق المسرح الذروة . فتعددت الابنية
والاعباد ، ونمت شعبية الممثلين نمواً بالغاً ، وزاد الانتاج زيادة كبيرة
لا سيما وان شعراء كثيرين قد برزوا في غير اثنينا . وعلى الرغم من ذلك فقد كان
التطور عظيماً .

هبطت المآساة هبوطاً لن ترتفع بعده . ولن يكفي لتجديد قوة الحياة فيها ان يتفرغ لها احد عظماء هذا العالم ، مثل دريس المستبد في سيراكوزا ، ويفوز دون دهشة بالجائزة في اثنينا في السنة ٣٦٧ . فمؤلفات القرن السابق العظيمة تنوء بسحرها على المؤلفين وتضطرمهم الى التقليد . لذلك فان الجمهور يستطيب تكرار التمثيليات السابعة ولا سيما تمثيليات اوريبيد التي تعرف شهره لم تعرفها من قبل : وقد سبق لبعض الاثنيين الساقطين في ايدي الاعداء ، ابان حرب البلبونيز ، ان كانوا مدينين بنهاية عبوديتهم لمعرفتهم بعض المقاطع لهذا الشاعر ، وسنكون مؤلفاته ، بعد ذلك بقرن تقريباً ، احدى مطالبات الاسكندر المفضلة . وقد فرض القانون الاثيني ان تمثل رواية ، من لائحة مقررة ، خلال مباريات المآسي المفجعة . فكتب بذلك البقاء لهذه المباريات .

اما المهزلة فقد احتفظت بحيوتها ، ولكنها تحولت تحوُّلاً عميقاً . فان المركز الذي احتله فيها الجدل الكتابي الراهن قد طبع بالهرم والبطلان الروايات القديمة التي كان من شأن فسادها العارم ، على كل حال ، ان يبدو منذئذ معثراً ومشيناً . فأصبح من الضروري ان يؤتى بشيء جديد اكتشفته المهزلة « المتوسطة » أولاً والمهزلة « الجديدة » ثانياً في طريقة ابيخارموس وحق في اوريبيد نفسه ، الباعث الأول للمأساة البورجوازية . وقد استلهمتا الحياة الاجتماعية في عهدهما وخلقتا نوعاً جديداً سندرسه في الصفحات التالية عند كلامنا عن « مينندروس » الذي يكفي اسمه وحده ، مع اسماء « بلوت » و « تيرنس » وحقى « مولير » التي تردّد صدى اسمه ، ليندكروا بمن انتسب اليه بعده بزمان طويل .

اصول ونشأة البيان
حظيت الفصاحة ، شأن المسرح ، بتقدير اعريق العهد الكلاسيكي وانتجت روائع مدهشة .

كان ميل الاغريق للخطابة متأصل النبل فيهم: فهو يُردّ دونما ريب ، الى نجاسة عنصرهم العميقة . فالمثل الأعلى للبطل الهوميروسي يوجب عليه اثبات الخبرة نفسها في تدبيج الكلام وفي استعمال السلاح . وقد عمدت كل الأنظمة القديمة ، ملكية كانت ام ارسوقراطية ، الى تعميم مبدأ المناقشة في المجالس والجمعيات . ولكن فضل الانظمة الديموقراطية ، التي رفعت عدد اعضاء هذه الاجهزة ، انها جعلت من هذه المناقشات عاملاً حاسماً . فهي قد احتفظت بالسيادة الفعلية لجمعية عموم المواطنين وخولت حق البت بالدعاوى الهامة ، العامة او الخاصة ، لمخلفين شعبيين لا يقل عددهم عن بضع مئات من المواطنين . وهكذا في المدن التي غدت اثينا قدوة لها في القرن الخامس ، اصبحت الحياة السياسية كلها ، وشطر كبير من المصالح الفردية ، خاضعين للاقتراع الذي يلي المحادثات الخطابية . ولذلك كان من حق ديموستينس ان يتكلم عن دول « يرتكز الدستور فيها على الخطب » ، وهو لم يكن ليقتصد تحقير هذه الدول لانه يستهدف بذلك وطنه في الدرجة الاولى . وقد بلغت اهمية الكلام شأواً لا نستطيع معه استغراب نجاحاته المستمرة التي تسمو بالفصاحة الى مرتبة الانواع الادبية : فالكمال الفني فيها يسير بمحاذاة الكمال التقني الذي يؤول في النهاية الى تحويل الفصاحة الى بيان .

يتعذر علينا في الحقيقة ، لمدة طويلة ، ان نبدي رأينا في هذا البيان . فنقدّر ان تيمستوكليس قد تمتع ، بغية التوصل الى السيطرة ، بموهبة خطابية ماهرة . ولكنه لم ينشر شيئاً قط ولم يدون احد كلامه . اما بريكلليس ، فيستحيل ان نركن الى الخطب التي ينسبها اليه توسيديد والتي هي في الحقيقة من وضع المؤرخ . فالتصرف الفوري كان كافياً آنئذ للخطباء .

ولكن الرغبة في زيادة فعالية هذا التصرف ، في منتصف القرن الخامس ، هي التي حملت بعضهم في سيراكوزا ، حيث حل النظام الديموقراطي محل الاستبداد ، على محاولة اكتشاف وتعميم اسرار النجاح . في البدء كان السفسطيون ، الذين جاء العديد منهم من الغرب ، ابتداء من

« غورغياس » الصقلي الشهير ، اساتذة في علم الفصاحة ، وقد انبثقت الثورة الفكرية التي مهدوا لها الطريق انبثاقاً مباشراً من تعليمهم الخطابي الذي نشره في المدن المختلفة . فهم لم يكتفوا بالتمادة بالصنعة الانشائية وببشر بعض الصيغ الكتابية بسبل رغبوا في ان يظهروا ايضاً ، واطهروا فعلاً ، كيف تقلب البراهين على الخصم وروّضوا بالتالي عقول تلاميذهم ومرنوم على عرض كل قضية باجلى بيان واقوى استتالة وعودهم اكتشاف الإجمال والخلاف في البراهين والآراء . وهكذا فان الروح النقدية التي تشك في كل شيء قد ولدت من الحاجات العملية التي تطلبتها المجادلة امام الجمعيات والمحاكم الشعبية .

اقبل الاثينيون باعداد كبيرة على دروس السفسطيين ولم يلبثوا ان اصبحوا ، منذ اواخر القرن الخامس ، اساتذة في الفن الجديد . وتعود الى هذا العهد الخطب الاولى التي نشرها واضعوها الراغبون في استمرار اثرها ولا سيما في اركاز شهرتهم : فاصبحت اثينا في القرن الرابع مدينة مدارس البيان كما كانت في الوقت نفسه مدينة مدارس الفلسفة .

نرانا لأول مرة - وللامر اهميته في تاريخ المجتمع والاخلاق - امام الاساتذة ومعدو الخطب
نشاط فكري وعمل حرقمين بتوفير الأرباح الطائلة للذين يمارسونها .
في اثينا
فان عادة مكافأة الاستاذ على دروسه التي ادخلها السفسطيون وانتقدها خصوم تعاليمهم الاخلاقية والفلسفية قد درجت بسهولة كلية في تعليم البيان الذي يؤمن لطالبه عدة نافعة لكسب دعاويهم الخاصة . وكان هنالك اكثر من هذا . فاذا كانت الاصول القضائية تمنع اللجوء الى المحامين ، فانها قد سمحت باللجوء الى « سينيغوروس » قد يكون خطابه اكثر استفادة من الفريق ذي المصلحة في الدعوى . وقد سمحت للمتقاضي ، بنوع خاص ، بان يستعين « بيمعد الخطب » الذي يحضر له سلفاً خطاباً يلقي امام المحكمة والذي يتقاضى بحكم الطبيعة اجر عمله . وهكذا فان الخطباء المتهنين اذا ما بلغوا الشهرة ، كانوا يجمعون الثروات . وهكذا ايضاً فان ديموستينس قد استعاد الثروة التي بددها اوصياؤه بفضل هذه الطريقة ، لا بفضل الذهب الفارسي والاختلاس الذي اتهم به . ولكنه ، في اثينا القرن الرابع ، لم يكن الوحيد الذي عرف النجاح المادي .

اقبل الاساتذة والطلاب من الخارج الى المدينة التي تحتل فيها الفصاحة مثل هذا المركز . فبين الخطباء « الاتيكيين » الذين احتفظ الاسكندرانيون باسمائهم في « قانونهم » اي في مجموعة مثلهم ، يوجد اجانب مقيمون كثيرون : فان ليزياس وايزيا ودينارخوس ينتسبون الى سيراكوزا وخلقيس وكورنثوس . واذا اتصف الاولان منهم بالبساطة المقصودة وبالوضوح المستلطف في افشائهما وبالحدة في اقامة براهينهما ، فهذا لا يمنعها من ان يكونا مثالين لما اطلق عليه اسم الطريقة « الاتيكية » حيث تسمو الملاحظة الاخلاقية الدقيقة والظرف اللطيف والمرونة المستسهلة الى مرتبة الفن العاري الذي يستغويننا دائماً ويقنعنا احياناً . ولذلك فان

مؤلفاتهم ، تضاف اليها « المرافعات المدنية » المعاصرة التي لا نجزم في صحتها والتي تظهر في مجموعة خطب ديموستينس ، ليست فقط شهادات ذات اهمية رئيسية حول القانون المدني أو التجاري وحول الاخلاق في المجتمع الاثيني . فهي تعبير حي عن مثل ادبي اعلى يستجيب ، على الرغم من وفرة زبنهم ، لذوق سليم بالغ الرقة .

كان لبعض الخطباء من جهة ثانية طموح اسى فتركوا اثراً اطول بقاء .
البيان - الفلسفة
ايزوقراط
خضع ايزوقراط بينهم الى شواغل جمالية ملحة اضطرته الى صرف الاوقات الطويلة في تحضير اقل خطبه اهمية السقي نشرها دون ان يلقيها لانه لم يستطع التكلم امام الجماهير او لم يتجاسر على ذلك . فذهب الى اقصى حد في البحث عن التناغم في خطابه الكامل وفي كل من اجزائه حارصاً على توفير الوزن في جملة المتضادة وعلى نحاشي التقاء حرفين صائتين فيها . فابدى بذلك نوعاً جديداً مدعواً لان يدوم ما دام العهد القديم ، اعني به الخطبة الخيالية التي تستهدف الابهة . وغدا باتقانه لتوازن توسيع فكرته وحسن انتقاء مفرداته القدوة المثالية « للخطباء » الذين كان دورهم الفكري عظيماً جداً طيلة قرون وقرون .

فالمبنى جوهرى في نظر ايزوقراط . وقد لجأ هو نفسه الى استخدام الفصاحة لتوجيه مصائر اليونان جمعاء . فقد بشر دونما ملل بالمصالحة والتهندته بين الاغريق وبالحرث الجماعية ضد الملك الفارسي . اجل ان هنالك ، في نظرنا ، كثيراً من الحشو في العدة الميثولوجية والتاريخية التي ينقل عنها جزءاً كبيراً من براهينه ، ولكن كل ذلك لم يكن بعد ميتاً لقرائه . لا بل ان في مؤلفاته مقاطع كثيرة تكشف لنا عن قدرته على التدقيق وحتى على الفراسة في تحليل الآفات التي أملت باليونان آنئذ وتحديد الاتجاه الممكن ان يبحث فيه عن الدواء . فليس اذن هذا الخطيب الاول بين الخطباء كاتباً سياسياً يستهان به ، على الرغم من انه يتعذر النظر اليه كمفكر كبير . وليس هذا ما يقصده عندما يدعي انه « فيلسوف » وينسب الى فلسفته ، التي ليست سوى الفصاحة كما هو يفهمها ويمارسها ، قيمة تهذيب فكري وحق اخلاقي . فهو يعتبر ان الكلام هو مزية الانسان الاولى وان استخدامه استخداماً كاملاً لضمانة لفكر كامل وفضيلة كاملة وحضارة كاملة . وان اتقان الكلام يؤول بالضرورة الى اتقان التفكير ، لانه يرغب على البحث عن الافكار ووزنها وتوضيحها بانتقاء المفردات وتنظيمها منطقياً وجمالياً . فعلم البيان اذن مفتاح كفاءة التعامل : انه في الحقيقة يتناولها جميعها لانه يشتمل على جميع الصفات الانسانية . ومن ثم فان ايزوقراط يجعل نفسه مزاحماً لافلاطون ، وقد تكونت من تعليمه نظرية تربوية لم تدم دوام الحضارة اليونانية فحسب ، بل دوام الحضارة الرومانية ايضاً ، وقد استمرت آثارها بادية حتى يومنا هذا . فان تعلم اصول البيان وممارسته وممارسه طويلاً قد اعتبرا بمثابة التتويج للتربية الفضلى . فهل من غرابة والحالة هذه في ان تطبع عقول الرجال المثقفين بمثل هذا الطابع ؟

لم يمنع ذلك من ان يكون للفصاحة الاثينية، في القرن الرابع ، رجالها ومؤلفاتها في العمل المدني والصراع المباشر . فقد وجه بعض الخطباء ، فعلاً، سياسة المدينة تاركين لرجال الحرب الممتهين مهمة تنفيذها. ولم تكن هذه حال القرن السابق عندما كان بريكلينس يوحى مراسيم الجمعية ويأمر الاساطيل : ان النجاحات التقنية في هذين الحقلين من النشاط قد فرضا التخصص .

ان اعظم خطيب بين هؤلاء الخطباء الذين اثروا مباشرة بكلامهم هو ديموستينيس ، بلا منازع . قد يمكننا مناقشة الرجل السياسي ، لا بل الرجل فحسب ، وبعد نظره ونزاهته . فان اسشين يفوقه مرونة وظرفاً ، كما يفوقه « هيبيريوس » فناً اكثر استسهالاً وحذاقة ، ومع ذلك فإنه سيد الجميع . ففصاحته عمل وحياة ومنطق وحميا . تقنع بقوتها وعمقها السيكلوجي وبراعتها السهلة التي لا تتم عن الجهد وتأخذ بمجامع القلوب برصانتها التي تعترضها نزاعات تمزق القلب . امام هذا القدر من الكمال الطبيعي والقوة المؤثرة ، ينقاد بعض القراء العصريين انقياداً للاخذ بوجهات النظر التي دافع عنها ديموستينيس : فكيف الحال ، كما سبق وقال اسشين المهزوم امامه ، « اذا ما سمعتم النمر بلحمه ودمه ؟ » ؛ واذا ما وصف خطيب سواه بهذا القلب فيما بعد ، فلم تتوفر عند غيره ، وايم الحق ، ميزة خلق الاضطراب في انفس قرائه طيلة القرون المتعاقبة .

لاشك في ان طابع المأساة الذي طبع به مصير ديموستينيس قد أسهم
نهاية الكلاسيكية اليونانية في اعلاء عظمته . فمن حيث انه وجه صراع وطنه ضد مقدونيا ، جرع السم كي لا يقع حياً في ايدي اعدائه . وبذلك يتحد موته ذاتياً بهزيمة « البولس » ، اي الحضارة التي كانت البولس لها السند والاطار ، والمشجع والمنتفع . قد حققت هذه الحضارة اشياء عظيمة ورفعت الانسان عقلياً . وتسامت الى قمم لا تستطيع اية هزيمة عسكرية ان تهويها منها . فهل كان بإمكانها أن تحافظ على قوتها الخلاقة نفسها ، يا ترى؟ وهل كانت 'قدر' لأثينا ، لو انتصرت ، ان تستمر في اغناء تراث الانسانية الثقافي؟ انه لمن الجرأة بمكان أن نغامر في اثبات ذلك أو نفيه . يجب علينا الاكتفاء بأن نلاحظ ان القرن الرابع كان أقل خصباً من القرن الخامس وان أثينا أبعد آتئذ من ان تلعب ، في حياة العالم اليوناني الطبيعية ، دور التوجيه الذي لعبته فيما سبق . فالفلسفة والفصاحة هما الحقلان الوحيدان اللذان أظهرت العبقرية اليونانية فهما ، داخل أثينا ، حيويتها بمؤلفات من المرتبة الاولى . وهذا لعمري ليس بالقليل ، ومن العبث التساؤل عما اذا كان يوازي البارثنون وفيدياس ، ومؤلفي المآسي العظام وتوسيديد . ان معركة « خيرونيا » التي سلّمت أثينا واليونان الى مقدونيا ، واخفاق الثورة التي انفجرت بعد الاسكندر ، يقفلان نهائياً عهداً من تاريخ الحضارة . وبين هذين الحدثين فتح غزو الشرق عهداً آخر جديداً .

الكتاب الثالث

الملكية الهلينية والانسان الحضارة الهلينية (من القرن الثالث حتى القرن الأول)

هزمت المدينة الجمهورية وانتصرت الملكية . فقامت دول واسعة الأرجاء كثيرة السكان على انقاض مقاطعات صغيرة ارتفعت فيها النتوءات ومزق البحر شطآنها، لم تكن كافية لاعالة بضع عشرات الالوف من السكان . وانتقل مركز الثقل في العالم اليوناني نحو الشرق . وانتظم نوع من التعايش الخالص بين اليونان الاوروبية والشرق .

غدا تطور الحضارة اليونانية امراً واجباً ، ولكن في اي اتجاه ياترى ؟

لا تترضي الملكية بمبدأ الحرية السياسية : فأصبح المواطن تابعاً ، وحل القصر الملكي محل جمعية الشعب . اصف الى ذلك ان الشرق قد ناء على الحضارة اليونانية بحماهيره الغفيرة وثرواته وتحقيقاته الضخمة ودياناته الجذابة وكافة تقاليده التي تخنق الفرد خنقاً .

بيد ان الحضارة الهلينية حققت معجزة التزعزع والنمو في العالم اليوناني – الشرقي تحت حماية الملكيات ، مستمرة ، في الوقت نفسه ، في تسهيل تفتح الانسان .

الفصل الأول

الاسكندر

بأعث حضارة جديدة

فتح الاسكندر الشرق ، ويغلب على الظن انه كان يستعد ، عند موته ، لفتح الغرب : ومن الجائز جداً ان تقاس الامبراطورية العالمية وحدها بمقياس روحه الفائقة الطبيعية واقتناعه الوطيد بان زفس يعاون ويلهم ابناً بشخصه هو . بيد انه اذا لم يكن لا اول ولا آخر من دغدغه مثل هذا الحلم ، فليس لعمرى من فاتح غيره ترك عمله أثراً يُمثل هذا الاستمرار ، وفي نطاق جغرافي يُمثل هذا الاتساع ، وعلى نواح من النشاط البشري يُمثل هذا التنوع ، على الرغم من انها ، في طبيعتها ، قليلة التأثير جداً بحولة خاطفة يقوم بها قائد عسكري . فهو ، بنتائج فتوحاته غير المباشرة قبل الفورية منها ، بأعث حضارة جديدة تقوم اهميتها ، في نظرنا ، على ميزتها المسكونية او بالاحرى على طموحها المسكوني .

تقسمت امبراطوريته سياسياً . فقد توفق بعض قواده الى تأسيس
ركائز الامبراطورية السياسية ملكيات متميزة ، واضطر ابناؤهم الى التخلي عن الامل الذي راود رفاق القائد العظماء ، الواحد بعد الآخر ، في استعادة الوحدة الاولى لمصلحتهم . وقرضت رقع هذه الملكيات منافسات المنافسين على انواعهم ، والانتفاضات القومية التي نهضت بها شعوب بلدية عاصية اصلاً او نائمة على اسيادها ، والنزعات الجائشة في المدن اليونانية الى الاستقلال . وينتهي تاريخ سلالات عديدة ، لاسباب مختلفة ليس اقلها المنازعات العائلية ، في حالة من الفوضى يرثى لها . ومن ثم فان تفكك امبراطورية الاسكندر ، الذي بدأ غداة موته ، يستمر ، دونما انقطاع تقريباً ، حتى قيام السيطرة الرومانية .

بيد ان هذا المظهر السياسي في التطور يضل ويخضع لانه يخيب الامل بخطه المنحني العام ويولد الاشمزاز بما يستلزمه من بلبلة متزايدة . وان حصر البحث فيه يؤول الى تبسع ازدياد

الخراب ، في حال ان هذا العهد ينهض بعمل بناء ، والمعنى الحقيقي للبناء الذي يخرج منه من الارض وتعجز قواه عن اتمامه اعظم ما يمكن تصوره .

ان الالهية الحقيقية لحملة الاسكندر تقوم في انها تدفع ، بقوة مسكونية الحضارة الهلينية وجزم ، حركة بدأت قبلها ولكنها انحصرت حتى ذاك العهد في دائرة ضيقة ، اعني بها انتشار الاغريق وحضارتهم خارج العالم اليوناني القديم . ونحن ننتع « بالهليين » العهد الذي يبتدىء بانتصار مقدونيا على الجمهوريات البلدية في اليونان القديمة ولا يلبث ان يتوسع بضم الامبراطورية الفارسية . وتشتق هذه التسمية من اسم « الهليين » الذي اطلق على الشرقيين ، ولا سيما اليهود منهم ، الذين اقتبسوا الثقافة اليونانية . فهي تشدد اذن ، وبحق ، على الفوز في استمالة الشعوب التي كانت موضوع الفتح العسكري . وللمرة الاولى في التاريخ بدأ البشر وكأنهم يسلكون طريق وحدة عظيمة في الحياة والاخلاق والاذواق والاعتقادات ، على الرغم من تعدد التخوم التي ما لبثت ان عادت الى الظهور مرة اخرى . ليس من ريب في ان الاسكندر اراد هذه الوحدة ، فجاء خلفاؤه ، عن قصد او عن غير قصد ، تلقائياً او بقوة الاستمرار ، يسلكون الاتجاه نفسه او يوجهون سواهم فيه .

ليس من ريب ايضاً في ان الحضارة اليونانية ، في نظر الاسكندر ، يجب ان تؤمن لهذه الوحدة عناصرها الجوهرية . فالاستشراق الذي عبره به بعض رفاقه بكل مرارة ، وتبعهم التقليد القديم في ذلك ، لم يكن الا سطحياً . فهم قد اغتاظوا بنوع خاص من تصميمه على تحقيق الصهر العنصري الذي نفذه عملياً بزواجات فخمة وانعامات اغدقها على من انضم اليه من الايرانيين : فهما كانت الديانة التي اراد ان يحلها المربة الاولى ، فان هذه التدابير كانت ضرورية لخلق الوحدة البشرية التي بدونها يضيع كل امل بالوحدة المعنوية . ولكن الاسكندر الذي تتلمذ على ايدي ارسطو لم يخن الحضارة اليونانية ؛ فهو قد اكتفى بأن يطرح عنها ما يثقلها ، مطبقاً على الظروف الجديدة ما كان منها وثيق الارتباط باشكال سياسته اعتبرها هو باطلة بسبب قدم عهدها . وكانت الملاحم الهوميروسية ، في نظره ، كافية للدلالة على ان الملكية ، شأن « البولس » ، تؤلف جزءاً من الارث الذي آل امره اليه . ومن ثم فالان التربية اليونانية هي التي فرضها على ابناء الاشراف الايرانيين المدعويين ، شأن ابناء الاشراف المقدونيين ، لان يكونوا رجال الغد في جيشه وامبراطوريته . وقد خضع للنزعة نفسها خلفاؤه اليونانيو الاصل والمفاجرون بيونانيتهم حتى انقراض سلالاتهم . ولكنه كان من المحتم على الحضارة اليونانية ، بفعل توسيع نطاقها الجغرافي واتصالها اتصالاً متزايداً بحضارات سبقتها بزمان طويل وتكيفها وفقاً لبيئات جديدة ، ان تتطور وتتسرب اليها التأثيرات الاجنبية . وهكذا نشأت وترعرعت الحضارة الهلينية ، اقل نقاء يونانياً من الحضارة الكلاسيكية واقل سمواً ايضاً واقل قوة منطقية ، ولكنها اكثر مرونة وانطباقاً على انسانية متنوعة وواسعة طمحت هي الى استجابة حاجاتها المشتركة .

من نافل القول ان محاولة هذه الوحدة الادبية ، ينهض بها الاغريق ، قد عرفت النتائج غير النجاحات . فان الحركة ، المنطلقة من بلاد صغيرة جداً وقليلة السكان ، قد تناولت على غير تساوي وبصورة سطحية عموماً ، كتلاً بشرية متراسة مرتبطة بحضاراتها القديمة ومتأثرة بها الى حد بعيد . ولذلك فكثيراً ما استمرت هذه الحضارات القديمة ، على الرغم من انها لم تحرز تحقيقات هامة . فهي قد برهنت منذ زمن متفاوت القدم انها عاجزة عن اي تحقيق جديد . اصف الى ذلك انها ، بحرمانها من قادة الفكر والمجتمع الذين تواروا او انضموا الى الفاتحين ، قد اضطرت الى البقاء مغمورة ، برواسبها القديمة ، في ظلام الطبقات الشعبية ، لا سيما الريفية منها ، المتدنية الثقافة التي لم يعرھا الاغريق اهتمامهم ولم يريدوا ان يروا فيها سوى يد عاملة احتياطية يمكن الاستفادة منها في اعمال استثمارية مجدية . فكان من المحتم ان تبوء المحاولة بالفشل ، ان هي لم تقم بانقلاب جذري . وهي لم تنج قط من هذا المصير . فبعد قرون من الخضوع الظاهر ، ستبرز قوميات محلية بلغاتها واخلاقها ودياناتها الخاصة .

بيد انه من الزينغ ان لا نقر بضخامة مجهود الاغريق وبواقع بعض النجاحات المحققة . وتبرز هذه النجاحات داخل الاراضي التي اشرف الاغريق عليها سياسياً : فالمكاسب في بعض الطبقات الاجتماعية على الاقل ، ولا سيما في الطبقات العليا وفي المدن ، لا محاجة ولا جدال فيها ، وهي تزداد كلما اقتربت من الساحل المتوسطي حيث تجري وتستمر الاتصالات الحية . وتبرز ايضاً نجاحات اخرى خارج هذا النطاق مردها جوار احدي الحضارات العظمى وجاذبيتها الطبيعية . فهناك سلالات شرقية المنشأ ، كسلالة « المتريدات » في كبادوكيا البونتيية او سلالة الارساسيين عند الفارتيين مثلاً ، تتباهى بميوها للحضارة اليونانية وتقتبسها فعلاً اقتباساً يختلف عمقه باختلاف السلالات . وقد امتدت الحضارة الهلينية نحو الغرب بنوع خاص . فانطلقت من مرسيليا واخذت تشع في غاليا . وقد بدا اثرها في قرطاجة ايضاً بفضل الحروب في صقليا والتجارة . ولكنها تحرز الانتصار الادبي الفعال في روما بفضل علائق هذه باغريق ايطاليا الجنوبية وحملاتها العسكرية وفتوحاتها في حوض المتوسط الشرقي . وكان من اهمية هذا الانتصار ان روما ، بعد ان تغدو وريثة الملوك الهلينييين ، ستسهل ، عن غير قصد اولاً ، وعن تصميم في عهد الامبراطورية ، نجاحات هذه الحضارة التي استساغت هي جوهرها . ومن ثم فان الوثبة التي وثبتها بفضل الاسكندر ، ستدوم ، بفضل روما ، حتى فجسر عهد الانحطاط في الامبراطورية الرومانية .

الفصل الثاني

المثالية الملكية والحكومة الملكية

كان بالامكان تحديد الحضارة الكلاسيكية بانها حضارة « السولس » . اما الحضارة الهلينية ، اذا ما حاولنا ان نجد لها تحديداً عاماً ، فتبدو وكأنها حضارة « الفاسيلفس » (الملك) ، اي الحضارة الملكية . فقد فرض على البشر اطار سياسي جديد ، اوجدته القوة دونهاريب ، ولكنه جاء موافقاً تطور علائقهم الاجتماعية وحتى مفاهيمهم الاجتماعية .

١ - الرواسب والاقتباسات الجمهورية

ليس المقصود بذلك ان المدن قد زالت او فقدت طموحاً ، هو مبرر وجودها ، المخطاط السولس الى الاستقلال والسيادة . فهي ، في اليونان نفسها ، تحافظ على ديمومتها ، ولكنها منحطة تلجأ الى التسويات . وقد فرض عليها هذا المصير ضيق اراضيها وقلة سكانها ومواردها ؛ وهي آنذاك دون مستوى القوى التي أوجدها توسع العالم اليوناني : فكيف يمكنها والحالة هذه الوقوف في وجه ملوك الدول الكبرى ؟ غير ان خضوعها لم يكن يوماً تلقائياً ودائماً ؛ فهي تثور كلما سنحت لها الظروف ، وتتحرر أحياناً ، ولكنها لن تلبث ان ترضى ، صاغرة ، باقامة حاميات عسكرية جديدة في حصونها ، ودفع الفرائض المالية ، وحتى قيام مستبدين يحكمونها متهمدين بإخلادها الى السكينة .

فقد اضمحلت قوتها الماضية المطلقة ولا سيما النسبية . وحدّ انتقال التيارات المدن والحرب الاقتصادية من مواردها . وكما في السابق ، استمرت الحرب ، وهي ابدأ ضحيتها ، وسببها في اكثر الاحيان ، في اضعافها وتخريبها . فالحرب تتطلب وسائل ترتفع نفقاتها يوماً بعد يوم . وتزداد قياسات البوارج الحربية ، فتنهك أثينا نفسها اولاً ثم تعزف نهائياً

عن الاحتفاظ بمرتبتها في هذا التسابق الى التسليح الذي ينتظرها فيه فشل اكيد . وقد بلغ من تقدّم التقنية في البر ، بفضل استخدام الفرسان والآليات ، وحتى الفيلة ، وتدريب الجنود ، ما جعل المتطوعين المدنيين عاجزين عملياً عن مقاومة الجيوش النظامية . واحتفظ المقدونيون بأولويتهم المعترف بها منذ عهد ديموستينس وفيلبوس الثاني . ومن حيث ان الروح الوطنية المحلية وروح التضحية قد خفتا عند المواطنين الذين خيبت البولس آمالهم في ميولهم وحاجتهم الى الأمن والطمأنينة ، فقد تزايد يوماً بعد يوم ، كما سبق وحدث في القرن الرابع ، اللجوء الى المرتزقة الذين يحدّ من عددهم الانفاق الباهظ عليهم . فاضطرت المدن ، كما لم يسبق لها قط ، ان تحاط بالاسوار - وقد عقدت سبارطة نفسها العزم على ذلك - وان تحسن سلاحها الدفاعي على الرغم مما جرّه عليها ذلك من نفقات طائلة : وغالباً ما كانت هذه الاسوار وهذا التحسين دون جدوى بالنظر للتحسن المتزايد في نهج الحرب والحصار .

أضف الى ذلك ان صرامة قانون الحرب لا ترحم مدناً آلت نهائياً الى الضعف على الرغم من تضحياتها المالية والبشرية الكثيرة . والمدينة التي تفتتح عنوة تصبح تحت رحمة المنتصر . ففي السنة ٣٣٥ مثلاً ، أمر الاسكندر بتقويض طيبة ، ولم يستثن فيها سوى بيت واحد هو بيت الشاعر بنداروس ، احتراماً منه لذكرى هذا الشاعر . وبعد قرن تقريباً ، اعتُمد فيه سلوك أقل فظاظة ، عادت الى الظهور ، وتزايدت بفعل أخذ الثأر ، أعمال الإستلاب المنظم والتقتيل والنخاسة . وإذا كانت هذه حال المدن ، فماذا عسانا نقول عن الارياف حيث تضيف اللصوصية الموضعية المسلحة اعمالها التخريبية الى ويلات الحرب ؟ وليست روما ، الحريصة على وضع حد سريع للعمليات العسكرية النائية وعلى تكنيز خزانها ، ما يمكن ان يعطينا درساً في الحلم والرفق : فهي قد توصلت بكل صعوبة الى أن توفر ، متأخرة ، عن طريق خضوع صامت أو متملّق ، سلباً محموماً لم تلبث أن عكزته المنافسات بين قوادها الطامعين .

وهكذا فان المدن اليونانية التي أفقدتها قوتها السياسية مقدونيا أولاً وروما ثانياً ، لم تحصل مقابل ذلك على الازدهار والهدوء اللذين كان بالامكان ان يفسحا لها مكاناً اوسع في نشأة وترعرع حضارة لم تطبع بطابعها .

الاتحادات
بحث بعضها عن الخلاص في نظام سياسي جديد ، إن لم يكن من حيث مبدأه ، فأقله من حيث تطبيق هذا المبدأ تطبيقاً أكثر شمولاً ومرونة .

منذ زمن طويل ، أتاح صهر دويلات مستقلة في جهاز واحد تكوين مدن أكثر سكاناً وأوسع رقعة ، وبالتالي أقل ضعفاً : فهكذا استفادت أثينا من الاندماج الذي وحد حولها كل الأتيك . والمدينة اليونانية الوحيدة التي تمثل قوة حقيقية ، أقله خلال النصف الاول من العهد الهليني ، هي رودس . ولكنها هي نفسها أيضاً حصيلة اندماج المدن الثلاث التي تقاسمت أرض الجزيرة وبقيت مستقلة حتى أواخر القرن الخامس إلا فيما يعود لعبادة الإله « هيليوس » المشتركة.

وقد حصل الانصهار فيها ، على كل حال ، باحتراز اكثر منه في أثينا ، لأنه جاء في عهد لاحق . ولم يكن « لمدينة » رودس نفسها وجود قبل الوحدة التي تحققت من ثم دون تفضيل مدينة على أخرى ودون اثاره حسد أية مدينة من المدن القديمة الثلاث . أضف الى ذلك أن هذه المدن قد حافظت ، في الدولة الجديدة ، على استقلال اوسع منه في قرى الأتيك . ولا ريب ايضاً في ان السر الحقيقي لقوة رودس يكمن في سبب آخر ، أعني به مركز الجزيرة على طرق التجارة الكبرى في المتوسط الشرقي . فرودس مدينة لهذا المركز بازدهار تجارتها وبثروتها التي أتاح لها ان تتعهد اسطولاً حربياً حسبت له اعظم الدول حساباً ، وعند الاقتضاء جيشاً برياً توفى الى النزول في آسيا الصغرى ووطئ أقدامه فيها على الرغم من الصعوبات التي اعترضته . غير أن مثل رودس ، التي يعود الفضل في توحيدها الى وجود عبادة مشتركة سابقة ، خلق بأن يثبت للجميع بأن التضحية بالسيادات الفردية يمكن ان يقابلها ما يعوّض عنها الى حد بعيد .

بيد أن الشركة التي اعتمدت ، على العموم ، آنشد ، وبصورة فعالة ، لم تسلك هذا الاندماج المنحرف المفضي الى البولس . وقد أدى نجاحها الاكيد ، الذي تبرره رغبة في تنظيم دفاع مشترك ، الى تكوين دول « مركبة » ، أو ، بتعبير أبسط ، الى « اتحادات » ، دون ان يستوقفنا معنى هذا التعبير الخاص الذي يبين المؤرخون ورجال القانون العصريون المضادة التي بينه وبين معنى « الدول الاتحادية » . فقد يشكل علينا ، أكثر من مرة ، توزيع الدول المركبة بين هاتين الفئتين الكبيرتين اللتين لا تعطياننا في التاريخ القديم ، باستثناء بعض الحالات النادرة ، تخوفاً اوضح منها في ايامنا الحاضرة . وليست الكلمة اليونانية المستعملة للدلالة على هذه الدول ما يسهل محاولة هذا التوزيع لانها كلمة عامضة قد تنطبق على الاتحادات بانواعها بما فيها الاخويات الدينية نفسها .

ليس التجديد الهليني في ظهور هذه الاتحادات : فقد وجد منها في اليونان منذ أمد بعيد ؛ وقد يمكننا اطلاق هذا الاسم على « احلاف » سبارطة واثينا اذا ما نظرنا الى بعض مظاهرها . إنما التجديد في تعددها : وقد بلغ من كثرتها ان بعضها قد كوّن اتحاداً آخر يجمع بينها . والجديد فيها ايضاً هو المساواة الحقيقية التي توصلت ، إلا في حالات نادرة جداً ، الى تحقيقها بين المدن المندمجة . وهي قد اخذت درساً ، بهذا الصدد ، من خبرة الماضي . فقد اعترفت الاتحادات السابقة أساساً ، أو تأثرت سريعاً ، « بسيطرة » إحدى المدن ، وحتى اذا كان انضمامها اختيارياً فان المدن الأخرى قد انتهت أخيراً الى التشكي من تجاوزات المدينة المسيطرة وحاولت خلع نير طاعتها . فكانت النتيجة العملية لهذه الاتحادات الاكثار من المنازعات وزيادة الضعف العام . أما آنذاك فقد اعتمدت أساليب أخرى . فليس هنالك من سيطرة ، بل شعور بمساواة حقيقية قد تؤخذ بعين الاعتبار فيها أهمية الإسهام في الجهود الجماعية .

كانت النتيجة المحتومة لهذا الاحتياط ان المدن القديمة الحاكمة قد نظرت شذراً الى هذه الاتحادات التي ليست مستعدة لأن تعترف لها بمرتبة ممتازة . وكانت نقطة انطلاق الدول الجديدة ، المدعوة لمستقبل زاهر ، في مناطق لم تلعب حتى ذلك العهد سوى دور وضيع جداً في تقرير مصير العالم اليوناني سياسياً وأدبياً . فبرزت شعوب جديدة لم تسهم سوى جزئياً في التطور العام للحضارة اليونانية ، شأنها في ذلك شأن المقدونيين قبل فيلبوس الثاني . وكانت لانعزالها هذا الفضل في المحافظة ، اكثر من سواها ، على تضامنها بفضل العبادات المشتركة بينها ، وبفضل ضعف الاقبال على الحياة المدنية ، مما حال دون قيام المدن ، او أقله دون تمتعها باستقلال متعجرف . وكان له الفضل ايضاً في الإقلال من استنزاف قواها في المنازعات العنيفة وفي ابعاد الشبهات الحاسدة عنها .

هذه هي ، بصورة خاصة ، حال الشعبين اللذين كانا الخلايا الأولى للإتحادين الهلنيين الرئيسيين في اليونان القديمة . فقد توصل الايتوليون الذين أقاموا مغمورين على الساحل الشمالي من خليج كورنثوس الى ضم الشطر الاكبر من اليونان الوسطى إليهم بما في ذلك قسم كبير من تساليا . وقد برز ايضاً على الساحل المقابل ، في البلوبونيز ، من مقاطعات جبلية لا ماضي مجيد لها ، اتحاد الآخيين الذين استفادوا من انتصارات روما وتوصلوا الى ضم البلوبونيز كلها .

ما أن ارتسمت حركة الاندفاع هذه بالانتصارات الاولى حتى تجاوزت هذه الانظمة الاتحادية الشعوب حدودها العنصرية . فارتضت أو فرضت أن تنضم اليها مدن غريبة عنها حتى ذلك العهد . وقد حدث ، حتى في افضل هذه الاتحادات تنظيمًا ، أن يكون للمواطنين هويتان لا بل جنسيتان في الواقع ، الاولى محلية تحدد المدينة التي ينتسبون إليها ، والثانية اتحادية يكون اسمها اسم الشعب مؤسس الاتحاد . فالمواطن الذي من فرسال في تساليا يبقى « فرسالياً » ، ولكنه يصبح بالاضافة الى ذلك « أيتولياً » ، على الرغم من المسافة التي تفصله عن أيتوليا نفسها . والمهم في هذه التسمية الخداعة من الناحية العنصرية انها لا تعني مجرد الضم ، إذ أن النظام المعتمد ، بهذا الصدد ، يعطي ضمانات جدية .

لا ريب في ان المدن المنضمة تتخلى عن قسط من استقلالها . فهي مبدئياً تدير شؤونها بحرية ؛ وتفرض الحياة المشتركة عملياً ، حتى على هذا الصعيد ، حداً أدنى من التناسق لا ينطوي ، في أغلب الاحيان ، على مستلزمات خطيرة . بيد أن التخلي الحقيقي يتعلق بالشؤون الخارجية ، الدبلوماسية والحرب ، التي تصبح وقفاً على الحكومة المركزية المنوط بها أمر الاحتكام في الخلافات الممكنة بين المدن المنضمة وتحديد العلائق بالاجانب وتنظيم الجيش الاتحادي واستخدامه . ولكن لا تستطيع مدينة واحدة او مجموع مدن متحالفة التمتع بمركز ممتاز في الحكومة المركزية .

تؤلف الحكومة المركزية على غرار حكومة البوليس . ولنصرف النظر هنا عن التفاصيل

والفوارق المختلفة وغير الثابتة غالباً . هنالك في الدرجة الاولى جمعية شعبية في أيديها زمام الامور أبوابها مفتوحة لكافة المواطنين البالغين السن القانونية : وهي جمعية البولس نفسها التي لا تتميز عنها إلا بفوارق فنية نادرة . ومن نافل القول ان مكان الاجتماع قد يتغير احياناً وان المدن تقترح لا الممثلون ، ولكنه يتعذر علينا الجزم ، بسبب افتقارنا الى الدلائل ، بأن هذه التدابير ، القمينة بضمان المساواة بين المدن ، قد اعتمدت في كل مكان . ويقوم الفارق الرئيسي ، وهو طبيعي بفعل المسافات الواجب قطعها ، في 'ن الجمعية الاتحادية لا تلتئم إلا نادراً . فليس هناك سوى دورات معدودة في مواعيد محدّدة ، اثنتين او اربع في السنة ، على ما نعلم ، واذا ما واجهت امكانية اجتماعات طارئة ، فان العمل بهذه الامكانية كان نادراً . وما من اتحاد حر واحد ، نستطيع ان نبدي رأينا فيه ، أقر النظام التمثيلي رسمياً اي مجلس النواب : فالاعراف القديمة الاستبدادية تقف في وجه هذا الحل الذي كان من الضروري ان يفرضه اتساع رقعة الاتحاد .

يتضح من ذلك ان سيادة الجمعية لا تبرز الا بصورة عرضية ، وان اشرافها يتراخى ، وان الاجهزة الحكومية الاخرى تتمتع في الواقع بحرية عمل اوسع منها في البولس الديموقراطية القديمة . وهذه الاجهزة هي اولا مجلس او عدة مجالس يتفاوت عدد اعضائها ، وثانياً قضاة يعرف القاضي الاول بينهم باسم « ستراتيفوس » اي قائد الجيش . وقد يحدد القانون ، او التقليد في بعض الحالات ، توزيع المراكز في المجلس بين المدن . وحتى اذا لم يُحتط لهذا الامر ، فان تعيين اعضاء المجالس والقضاة يتلافى كل اخطار السيطرة .

من المؤثر حقاً ان نرى الاغريق ، الذين بقوا جمهوريين ورغبوا في الافلات من سيطرة الملكيات الكبرى ، يتلمسون الطريق بغية التوفيق الى حل جديد . فالحق المدني عندهم لم يكن نظاماً قوياً وطيداً كما كان في روما منذ عهد مبكر . ولكن الحق العام قد استأثر بتفكيرهم منذ امد بعيد . وعديدة هي الكتب النظرية او التاريخية المتعلقة بالانظمة التي وضعها اشهر الرجال احياناً . وحين وضع ارسطو او اشرف على وضع ال ١٥٨ دستوراً للمدن ، التي لم يصلنا منها سوى « دستور الاثينيين » ، لم يبتكر قط ناحية قانونية تاريخية . ومن المسلم به ان الطريقة المتبعة بالتفضيل ، اّبان العهد الهليني ، - وهي ستستمر زمناً طويلاً حتى في الامبراطورية الرومانية - تقضي بوضع المقالات عن « الملكية » ، وهي على كل حال مقالات فلسفية اكثر منها عملية . ويفسر هذا الاهتمام المستمر ، عند الاغريق ، لعلم الانظمة السياسية ، تنوع الانظمة المعتمدة في الاتحادات . ولكن هنالك ، الى جانب الابتكارات الاربعة والمعادلات الثاقبة ، احترازات يملحها الماضي وعادات موروثه عن « البولس » وتقاليده مرفوعة الى مستوى المبادئ ، تلجم الخيلة الجاححة وتمنع بعض الجسارات التي قد تبررها ظروف كلية الجدة .

مما يسترعي الانتباه ، في المدن الهلينية والاتحادات الحرة على السواء
الديموقراطية : ظواهر ورقائع
ان مظاهر النظام الخارجية ديموقراطية ابدأ . فالشريعة لا تضع ، في

الظروف العادية ، اي شرط مالي للتمتع بحقوق المواطن المطلقة وممارستها ، وهي من حيث المبدأ متساوية للجميع . فالجمعية العمومية ذات سيادة مطلقة . والقضاة الذين ينتخبون كل سنة ، لا يعاد انتخابهم فوراً ، وذلك لتجنب الاستبداد العملي ولاتاحة الادعاء على ادارتهم . اما ائتنا الكلاسيكية ، فقد استثنت قوادها العسكريين من هذه القاعدة ، رغبة منها في الاستفادة بحريّة من خبرتهم العسكرية . ولكن هذا الاحتياط الصارم ، على الرغم من حراجه الاخطار الخارجية شبه الدائمة ، وعلى الرغم من تقدم فن الحرب واهمية الدور الذي يلعبه فيها الممتحنون ، لم يستثن منذئذ قواد الجيوش انفسهم .

فاذا ما استندنا الى التنظيم النظري ، نرى صحة ما تعبر عنه النصوص المعاصرة ، الرسمية وغير الرسمية ، التي تشدد على « ديموقراطية » هذه الانظمة . اجل ان هذه الكلمة في معجم ذاك العهد لا تعني احيانا سوى « الجمهورية » التي تقابل الملكية السائدة اذ ذاك ، ولكنها في حالات كثيرة ترتدي معناها القديم الذي يقابل « الارستوقراطية » . ويبدو في الواقع من كل القرائن ، في الصراع القديم ، الطويل والدامي ، بين المثلثتين ، ان الديموقراطية هي التي تغلبت في النهاية ، بفضل نفوذ ائتنا وتقهر سبارطة ، كما تراءى ذلك من سير التطور منذ القرن الرابع .

بيد ان ذلك لم يكن الا ظاهراً فحسب . فحيثما نستطع الوقوف على سير الامور العملي نرى ان هذه الأنظمة لا تطبق إلا ديموقراطياً . فحتى في المدينة التي كانت مقررة فيها ، كأثينا مثلاً ، الغيت التعويضات التي أتاح للمواطنين الفقراء تكريس وقتهم لخدمة الدولة سياسياً ، كقضاة او أعضاء مجلس او أعضاء جمعية . وقد أفضى زوال هذه التعويضات من الواقع الديموقراطي الى زوالها بصورة طبيعية من المثل الأعلى الديموقراطي الرسمي أيضاً . وليس العجز المالي دائماً السبب الحقيقي لهذا الإلغاء ، إذ أن المسؤولين لا يترددون في شجبها شجباً مبدئياً ، ناظرين اليها نظرهم الى نظام فوضوي يدعو الى الأسف ؛ وقد حدث ان رفضوا رؤوس أموال هامة مقدّمة لإيجاد هذه التعويضات . فأصبح محتماً والحالة هذه على ممثلي الطبقات الشعبية المرغمين على العمل الدائم لتأمين أودهم وأود عائلاتهم ان يبعدوا عملياً عن الوظائف العامة ، وفي أغلب الاحيان ان لا يشتركوا في أعمال الجمعية ، لاسيما في الإتحادات حيث يستوجب حضور الجلسات اجور نقل باهظة بسبب بُعد المسافات . ولكن هذا التغيير على كل حال ليس سوى أبرز وأهم ما حصل من تغييرات . فهناك اساليب أخرى كثيرة قد لا تكون كلها صادرة عن تدابير مكرية بل عن التطور العام في المجتمع والاخلاق فقط ، ولكن نتائجها كلها تتجه نحو وضع خاص لا جدال فيه : ان هذه الأنظمة الجمهورية الهلنسية ، الديموقراطية نظرياً ، تؤمن في كل مكان تقريباً احتكار السلطة لطبقة اهل المدن الميسورين المثقفين ، المتكبرين لإصلاح اجتماعي من شأنه ان يضرب بمصالحهم .

لما كانت الازمة الاجتماعية قد تفاقمت إذ ذاك لارتباطها بالوضع الاقتصادي ، لم يكن

التوجيه الطبيعي للسياسة الداخلية ليسهل تهدئتها . فرسخت الروح الثورية ، وبعنف في أغلب الأحيان ، في نفوس المستائين الذين ليس امامهم أي مخرج شرعي مفتوح ، ففعل هذا التوتر فعلة في مصير اليونان . وكان خطر الاضطرابات الاجتماعية ، وقيامها الفعلي احياءاً ، عامل بلبلة اضافياً في العلاقات الدولية . فهي تسبب او تعقد الحروب الأهلية والحروب بين الدول ، وتجزيء ، وبالتالي تضعف المقاومة في وجه العدو . وهي تفسر جزئياً الاخفاق النهائي الذي منيت به الحركة الاتحادية التي بدت قوية في منتصف القرن الثالث ولم تفلح مع ذلك ، في انقاذ استقلال اليونان القديمة . وقد استفادت روما بنوع خاص من هذه الشقاكات العميقة الجذور .

٢ - مشالية الملكية الهلنستية

اصول الملكية الهلنستية
بيد ان النظام الجمهوري ، بلدياً كان ام اتحادياً ، لم يستمر إلا في جزء صغير جداً من العالم اليوناني الذي وسعت تخومته فتوحات الاسكندر : فان الملكية هي ما يسيطر على العهد ويميزه سياسياً من كافة الوجوه .

على الرغم من ان الاغريق قد عرفوا الملكية في بلادهم في العهود القديمة ، فانهم قد نظروا اليها ، أثناء العهد الكلاسيكي ، نظرتهم الى نظام أدنى ، خليق بالبرابرة وغريب عن الحضارة اليونانية ، لانها قامت حينذاك في مناطق بعيدة عن اليونان الوسطى ، متاخمة لعالمهم الأصلي . ولكن الفردية ، منذ أواخر القرن الخامس ، قد حطمت طوق المساواة الذي جمعت «البولس» داخله عوم المواطنين ، وذلك بتأثير استهواء الحروب للرأي العام وتأثيرها العميق المتزايد في الأنظمة الاجتماعية والذهنيات . فالجاهير نظرت الى القائد المنتصر نظرتها الى بطل ، مستعدة من جهة ثانية لافقاده حظوته عندها بمثل السرعة التي رفعته فيها الى الأوج . فالقيبيادس وليساندروس مثلاً ، ونكتفي بذكرهما لأنها أشهر القواد ، قد نجوا من القسر المدني ، ورمزت أعمالهما التي لا تضاهي الى قدم المفاهيم الكلاسيكية . أضف الى ذلك ان بعض كتاب القرن الرابع المتكبرين ، بفعل نزعاتهم الشخصية ، للديموقراطية ، والسريعي التأثير بنقائصها قد باشروا تصميم المثل الأدبي والعملي الأعلى للملك ، جاعلين منه رجلاً فوق الرجال بعدله وعقله ومواهبه وسعاداته كرجل دولة وقائد عسكري وصلته بالالهية في آخر المطاف .

جاءت الاحداث فجأة تؤيد وتعزز هذا المثل الأعلى . فمن احدى المناطق المتاخمة ليونان ، برز ملك هو فيلبوس الثاني المقدوني الذي انتصر على المدن . وفتح ابنه الاسكندر الشرق وحقق مآثر بدت وكأنها تفوق الاقيسة البشرية . فتخلص التنافس بين الاطماع الشخصية من قيوده ؛ ولكن انسى له تسهيل عودة النظام والاعراف القديمة ؟ فان هذه الاطماع ، من جهة ، استندت الى وجود جيوش تختلف كل الاختلاف ، بضخامتها وتكوينها وانظمتها ، عن

جيوش المدن الجمهورية ، ولم يكن باستطاعة احد قط ان يعيد تكوين هذه الجيوش الملكية لجعلها مماثلة لجيوش المدن . ولم يكن باستطاعة اية مدينة ، حتى اذا كان لديها من الثروة ما يسمح باستخدام احد هذه الجيوش ، ان تؤمن قيادته . فاذا كان طمع الزعماء قد افضى ، والحالة هذه ، الى بقاء الجيوش ، فان هذا البقاء نفسه قد جعل من الملكية شيئاً لا مناص منه واوجد الزعماء الطامعين . ومن جهة ثانية ، اشتمل إرث الاسكندر ، الذي لم يكن اي اغريقي ليرضى بالتنازل عنه ، على اراض شاسعة- وشعوب غريبة عن الحضارة اليونانية الفت السلطنة الملكية القمينة وحدها بتنظيم استثمارها . فمن الجلي مثلاً انه يستحيل على مدينة ان تحكم مصر وبلاد بابل . ثم ان الملكيات الهلينية التي تباغت بيونانياتها لم تنبثق عن ملكيات شرقية . وهي لم تقتبس سوى النزر اليسير عن الملكية الفارسية التي اعلن الاسكندر نفسه خلفها المباشر . وقد اعتبرها سكان المنطقة الاصليون ، الذين احييتهم بعض الشيء ، بمثابة الملكية الفرعونية او الملكية البابلية اللتين زالتا منذ زمن بعيد . ولكن واقع السيطرة اليونانية على الشرق له من الاهمية ، لتفسير قيام الملكيات الهلينية وبقائها ، ما لواقع منشئها العسكري .

كانت النتيجة رجحان النظام الملكي ، في كافة انحاء العالم الهليني ، حتى امتداد وقوة الواقع الملكي قيام السيادة الرومانية . وقد تغير توزيع اراضي هذا العالم بين الملكيات لا سيما خلال نصف قرن من عدم الاستقرار بعد موت الاسكندر . واذا ما نظرنا نظرة شاملة الى العهد ، تبين لنا ان عدد الملكيات قد نزع باستمرار الى الازدياد . فلما نشاهد اذ ذاك حصر السلطة السياسية ، بل تفتتها ، وهذا يثبت بعد الملكيات عن الكمال .

من الممل والحالة هذه ان نحاول احصاء الملكيات احصاء كاملاً . ولكن الواجب يقضي بان نذكر اهمها . فقد كانت ملكيات الانتيغونيين في مقدونيا السبّاقة في الزوال حين قضت عليها روما في السنة ١٦٧ . وقد تأخر الاطاليون في آسيا الصغرى في الحصول على اللقب الملكي في « برغاموس » ، وساعدهم تحالفهم مع الرومان في السنة ١٨٨ على توسيع اراضيهم توسيعاً هاماً ، ولكن وصية « اطلال » الثالث الذي مات دون عقب في السنة ١٣٣ جعلت من روما وريثة ممتلكاته . وكان السلوقيون في البداية ، بفعل سيطرتهم على آسيا الصغرى وسوريا وبلاد بابل وايران ، الحلفاء الرئيسيين للملوك الفرس ؛ ولكن ممتلكاتهم ، منذ بداية القرن الثاني تنكش بسرعة لمصلحة الاطاليين والفارثيين ، ولم تكن الملكية سوى مجرّد ظل حين ازلتها روما في السنة ٦٣ . وفي مصر اخيراً كانت سلطة البطالسة او اللاجيين الاولى في بلوغ الاستقرار ؛ فامتدت في القرن الثالث امتداداً بعيداً في المتوسط الشرقي ، ثم انحصرت في وادي النيل ولم تعيش بعد الملكيات الاخرى الا بفضل روما التي لم تقرر ضمها اليها الا في السنة ٣٠ بعد موت كليوباتره .

ان هذا الاستعراض السريع الذي يهمل ، في ما يهمل ، سيراكوزا والملكيات الثانوية في

شمالى اليونان كالأبير التى اشتهرت بفضل « بيروس » ، او فى آسيا الصغرى كبيثينيا والبونت ، مما يجعلنا نحس بالخطاط شبه متواصل ينتهى الى ضعف لا علاج له . ولهذا الاحساس ما يبرره على الصعيد العسكرى باستثناء بعض وثبات عارضة . فان روما ، حتى عندما اضطرت فى اوائل القرن الثانى الى توجيه الضربات الحاسمة التى كان الضم نتيجتها ، لم تحتج الى بذل جهود مماثلة لتلك التى فرضها عليها صراعها ضد قرطاجة . ولكن هذا الانحطاط العسكرى يستثنى على الاقل قرناً من العظمة والمجد هو القرن الثالث . وحين اخذت الحضارة الهلينية تعطي ثمارها ، كانت جذورها قد بلغت عمقا استطاعت هي معه البقاء على الرغم من هزائنها . فقد تأثرت هذه الحضارة اذن ، فى تكوينها ، بالملكية القوية والغنية آنذاك والمسيطرة على اراض واسعة تحمي وتنتشر فيها الحضارة اليونانية بين البرابرة : ولم يعد للمدينة امامها سوى دور ثانوي .

من نافل القول ان لكل من هذه الملكيات مميزات الخاصة . وتقوم بينها اختلافات الثالثة الملكية مبدئية احياناً . فالأبير ومقدونيا ، وهما منطقتان كان سكانها يونانيين او اقلم متأثرين بالحضارة اليونانية ، تعرفان ملكيات قومية كان رعاياها فى الوقت نفسه مواطنين اعضاء فى جماعة : فان الملك رئيس وحامي هذه الجماعة يخضع لعرف تقليدي يجعله خادماً لها اكثر منها خادمة له . اما الملكيات الاخرى القائمة فى الشرق فملكيات شخصية . لا شك فى ان بعضها قد خلف بمالك محلية : فالسلوقي يطلق على نفسه ، فى بعض الاحيان النادرة ، لقب « ملك بابل » ، واللاجي يلقب بصورة عادية ، كفرعون ، بـ « هوروس - رع » ، وملك الجنوب والشمال ، وهوروس الذهبي ، وملك مصر العليا والسفلى ، وابن رع ، ويخضع منذ اواخر القرن الثالث تقريباً لمراسم التتويج فى منف . ولكن هذا المظهر ، الذى يختلف كليا عن ذلك الذى يضيفه على الملكية الانتيغونية لقب « ملك المقدونيين » ، لا قيمة له الا للمواطنين الاصليين دون غيرهم . فالاغريقى لا يعرفون سوى « الملك (فاسيلفس) بطليموس » او « الملك سلوقس » ، وتشير هذه التسمية الى الصفة الشخصية فى الملكية ، اذ ان الكلمة الاولى ، التى تقوم مقام الاسم الشخصى ، انما تحدد صفة لا وظيفة : فمن حيث ان الدولة لا وجود خاص ومستقل لها عن الملك ، فانها لا تعتبر الا ملكاً له فحسب .

انتشر هذا المفهوم انتشار بقعة الزيت فتسرب الى الملكيات القومية نفسها . وهو يعبر عن مثالية واسعة الانتشار ايضاً . فان الفلاسفة ، الى اية مدرسة انتموا ، قد تابعوا عمل مفكرى القرن الرابع وتعمقوا فى النظرية الملكية وتوصل بعضهم الى مثال ملك سيد العالم ، فريد فى نوعه ، مماثل للحكيم بالذات ، اقله فى نظر الرواقيين . ولكن نظرية متوسطة واسعة الانتشار قد برزت ، صارفة النظر عن المجادلات وعن هذه الآفاق الواسعة التى تصطدم ، فى الوقائع ، بتعدد الملكيات .

الملك هو ذو الخطوة عند الإله الذى يعضده ويلهمه . وتظهر المواهب النادرة التى هو مدين للإله بها ، ظهوراً لا جدال فيه ، فى الانتصار الذى هو افضل قياس لتفوقه . فالانتصار الذى

يريده الإله ويعطيه يثبت في آن واحد التمتع بالموهب العسكرية وقوة الاشعاع على الجنود الذين لم يحبب اخلاصهم الوفي .

ان الملك هو بالضرورة قائد جيش - كما يؤيد ذلك مثل الاسكندر والمنازعات التي عقيبت موته . عليه ان يسير على رأس جنوده في اشد الظروف خطراً ؛ فمن أصل ١٤ ملكا سلوقيا ، لاقى عشرة حتفهم في ساحات الوغى . وعلى الملك من جهة ثانية ، بفعل السلطة المنبثقة عن صفته وعن شخصه ، وبفعل الاعجاب الذي يشد اليه رجالا آخرين ، ان يحيط نفسه باصدقاء ورفاق وجنود لا يتراجعون ، في سبيل مساعدته ، امام التضحيات على أنواعها ، ويؤيد ثباتهم ، في اشد الساعات حرجا ، صفاته التي لا تضاهيها صفات .

لو طبقت هذه النظرية بصورة الزامية لأفضت الى جعل القلقة عقيدة ايمانية . فان هذه النظرية هي التي بررت الاغتصاب وتجزئة الملكيات الكبرى ؛ وقد بنى الشائرون ، على الانتصار وهتاف جنودهم حقهم في لقب « الفاسيلفس » وهم انما اعادوا بذلك ما فعله قواد الاسكندر عند نشأة هذه السلالات الملكية . ولكن المسؤولين لم يلبثوا ان تفادوا أخطار الفوضى الملازمة لهذه المثالية عن طريق مبدأ الشرعية . فحاولوا بالفعل ان يبدلوا ، لمصلحة السلالة ، مفهوم الانسان المتفوق الحائز على العطف الالهي ، ونثروا الاساطير حول دور هذا او ذاك من الآلهة في مولد احد الجدود . اجل لم يكن النجاح كاملاً ولكنه لم يكن دون اثر : فغدا الانتساب الى سلالة من الملوك المتعاقبين عنصراً طبيعياً من عناصر صفات الفاسيلفس الشخصية .

كثيراً ما يعبر عن هذه الصفات بلفظة « اريتي » التي لا يعبر تعريبها بلفظة « فضيلة » عما تنطوي عليه من ايهام وغنى في المعاني . فلفظة « اريتي » تشتمل في الحقيقة على صفات من كل نوع ، عسكرية ، وسياسية ، وفكرية ، وأخلاقية أيضاً . وتستلزم الشجاعة والعدل والعقل التشريعي والاداري والعزم والرفق و « محبة الناس » والتقوى . واذا ما اضيفت كل هذه الصفات الى القوة والثروة اللتين ينطوي عليهما المثال الملكي أيضاً ، فانها تصبح ملموسة في « احسانات » الملك نحو أعضاء بطائته ورعاياه . فالملك اذن ، في جوهره هو « الحسن » و « النصير » و « المخلص » كما درجت العادة في تسميته رسمياً . وهنالك لفظة أخرى ذات معنى شامل ومبهم ايضاً استخدمت لغايتين : « افنوييا » أي العطف أو بالأحرى الارادة الحسنة والاستعدادات الطيبة . فقد استعملت لتحديد سلوك وعواطف الملك حيال الناس الآخرين ، الأصدقاء والجنود والرعايا والشعوب الخليفة ، ولتحديد سلوك وعواطف هؤلاء الناس أنفسهم نحو الملك .

لا حاجة للفت النظر الى ما تتطلبه هذه المثالية من اصفاء صفات كمالية ، مع ان الملوك الهلنيين بشر ، وبشر حقيرون في أغلب الأحيان . وليست الدعاوة والزلفى وحدهما ما أحاطهم بمثل هذا التجلتي . فان المواطن الوضع الذي تعترضه صعوبات الحياة وتجاوزات

المستبددين المحليين قد رأى في الملك الملجأ الأخير ، الوحيد ، الذي يمكنه ان يضع آماله في عدله وكرمه . فكل شيء إذن قد تبدل وانهار في المبدأ الاساسي للخضارة اليونانية الكلاسيكية المبني على المثل الأعلى للانسان ، المواطن الحر ، المساوي لغيره من البشر الأحرار ، والمتمتع في وحدة المدينة ، بالحماية والبيئة الفضلى لعمله ونموه . فالانسان ، في العهد الهليني يرتفع بأنظاره المليئة بعرفان الجميل والأمل نحو انسان يعترف ويعجب بتفوقه . أجل ، ان الحكيم — وهذا ما انتهت اليه عدة مدارس فلسفية — يحافظ على حريته ، ولكنه يعطي هذه الحرية معنى عقلياً ولا سيما جمالياً : أي ان المقصود هو حرية الفكر ، وحرية الروح حيال الاهواء . فالحكيم ملك والحالة هذه ، أقلته على نفسه . ولكن الانسان الوحيد الحر بكل ما للتعبير من معنى ، والقادر وحده على تحقيق كمال نمو طبيعته الانسانية ، هو الملك .

ان النتيجة العملية لهذه المثالية هي السلطة الملكية المطلقة . لا الحق الملكي والاخلاق الملكية شك في ان الملك مقيد بواجبات ، وبواجبات أدبية في الدرجة الأولى ، ولكن تقيده بها لا يخضع لأية رقابة . فقد درجت العادة يوماً بعد يوم على القول إن الملك هو « الشريعة الحية » ، وسيصادف هذا التعبير نجاحاً متادياً . وهو ينطوي ، في أقوى معانيه ، على ما يقصد اليوم بالتعبير : « الارادة المطلقة » وقد أيدته تأكيدات مثل هذا : « ان ما يقره الملك هو عادل أبداً » .

وقد بلغ من أمر السلطة الملكية المطلقة انها تغلبت على حق سلاي هو حق مطيل ، على كل حال ، وغير مجموع في كتاب . فالخلافة الطبيعية تنتقل الى البكر بين الذكور ، ولكن خيار الملك قد يقف حاجزاً دون ذلك . وكذلك أيضاً ، إذا كانت وحدة الزواج هي القانون وإذا احتلت الملكة مرتبة تفوق مرتبة السراري الى حد بعيد ، فاننا نعرف أبناء زنى أقر بهم شرعاً فضلهم آباؤهم على الأبناء الشرعيين . وقد اعتمدت أحياناً الشراكة في الملك : نادراً بين الاخوة — وتبدو إذ ذاك مفروضة فرضاً على البكر — وأكثر حدوثاً بين الأب وابنه — وهي إذ ذاك في الدرجة الأولى ، حيلة غايتها تجنب شغور مركز الملك حتى لفترة قصيرة . ولكن ما حدث لا يخرج في الحقيقة عن مجرد ولاية مشتركة لا تؤدي الى قسمة المملكة لمدة طويلة . فالميوعة إذن هي الميزة الرئيسية لهذا الحق السلاي الذي هو في طريق التكون البطيء وتعرضه دسائس البلاط وبوادر العصيان أو الثورات ، والذي يخضع فيه نفوذ الحق العائلي اليوناني لصلحة السلالة التي تقضي باستبعاد قسمة الخلافة ، ولسطة الارادة الملكية أحياناً .

ومن الصعوبة بكان أيضاً ان نحاول أحد أغرب مظاهر الملكية الهلينية ، أعني به اشتراك الأخ واخته ، المتحددين بالزواج ، في الملكية . ليس من ريب في ان بعض الظروف الطارئة تفسر قيام هذه الشراكة التي يتعذر علينا تحليلها إذا ما أغفلنا حياة ارسينوي السابقة وطباعها الشخصية وطباع بطليموس الثاني الذي خالف ، في زواجه منها ، الأخلاق اليونانية التي اعتبرت

الزواج بين الاخوة عمل زنى . ولكن لما اذا اتبع البطالسة فيما بعد ، باستثناء حالات نادرة ، هذه الخطة يا ترى ؟ يستحيل ، بكل تأكيد ، ان لا نسلّم هنا بتأثير العادات المصرية التي لم تتنكر للزواج بين الاخوة . غير ان الملكية السلوقية نفسها قد تأثرت بهذا العرف الذي انتقل اليها من الاسكندرية : فمنذ عهد مبكر نسبياً ، لقبّت الملكة السلوقية ، مع أنها غريبة ، بلقب « الشقيقة » الرسمي ، وقد حدث فعلاً في أوائل القرن الثاني ان زوج احد الملوك ابنه من إحدى بناته التي تزوجت على التوالي ، بعد ارمئالها ، من أخوين آخرين عند تسلمها زمام الملك بدورها . هذه هي الحادثة الوحيدة على ما نعلم ؛ فقد حالت المصادفة والاعتبارات الدبلوماسية دون رسوخ وشمول هذه الأعراف خارج مصر . ولكن لهذا الإعداد مغزاه على الرغم من سرعة زواله : ان الحرص على نقاء الدم والاحتياط لمطالبات ممكنة قد يقدم عليها أنسباء بعيدون قد لعبا دورهما في تخطي موجبات الأخلاق اليونانية . وبذلك اثبت الملوك مرة أخرى انهم رجال يختلفون عن البشرية المتوسطة .

أما شارات الملك الخارجية فانها تدعو في الحقيقة الى الدهشة ببساطتها ورصانتها . فالبرة الرسمية هي أبداً البرة المقدونية التي هي في الواقع برّة الميدان أي الشوق والمعطف المتسدلّ والخوذة أو القبعة الواسعة الأطراف ؛ ولم يكن اللون الأرجواني نفسه في المعطف والقبعة وفقاً على الملك ، إذ ان استعماله قد جاز لبعض أفراد البطانة الملكية . ولبعض السلالات شاراتها الخاصة : الصولجان للآشجيين ؛ والخاتم المزردان بنقش المرساة للسلوقيين ، ويطلق عليه اسم هبة ابولون . ولكن الشارة الوحيدة المشتركة حقاً بين كافة الملوك هي التاج الذي بلغ من سعة انتشاره أنه أصبح معادلاً للفظ « ملك » ودخل في سلسلة من التعابير الدارجة ، على غرار كلمة « العرش » في أيامنا هذه . نقله الاسكندر عن الملكية الفارسية واستخدمه كل خلفائه من بعده . والمقصود بالتاج عصية بيضاء ، أو بيضاء وأرجوانية معاً أحياناً ، تحيط بالرأس وتجمع الشعر وتعتد الى الوراء تاركة طرفيها يسترسلان فوق الرقبة . فهل من اشارة أقل لمعاناً من هذه ؟

أضف الى ذلك ان شخص الملك لا يحاط بعد بمعاملات شكلية خاصة . لا بل إننا نلمس استمرار البساطة المقدونية عوضاً عن المراسم الشرقية ولا سيما الفارسية منها : فقد كانت الفلبنة على هذا الصعيد للنفور الذي صادفه الاسكندر لدى رفاقه في السلاح . وإذا أخذت العادة تدرج ، في الاحتفالات الرسمية ، على حمل شمعة أمام الملك ، فإن الأجانب وحتى الرعايا يحظون دونما صعوبة بمقابلة الملك . وإذا ما ساعدت الضرورات الدبلوماسية واختيرت خطيبة الملك اجمالاً ، منذ البداية ، من أسرة ملكية ، وإذا كان عقد الاتفاق نتيجة مفاوضات ، وإذا احتفل بالزواج بابهة عظيمة ، فقد يحدث أحياناً ان يتزوج بعض الملوك من بنات الطبقة المتوسطة ، ان لم يكن من الراعيات أحياناً . غير ان الملوك الذين يرتدون الألبسة البسيطة

ويختلطون بالجمهير قد أصبحوا موقع زلّة منذ أواخر القرن الثالث .
وليس من أقل مظاهر أهمية العهد الهليني أن تتكون فيه ، حول واقع الملكية الحديث العهد المطبوع بقوة بالأخلاق المقدونية على شيء من المساواة وفاقاً للطريقة اليونانية ، نواة أولى من التقاليد والاعراف والمصطلحات القانونية والازياء في الملابس وغيرها . وستتمو هذه النواة رويداً رويداً بفعل تأثيرات غير التأثيرات الهلينية أيضاً . ولكنها ستنتقل من ملكية الى ملكية حتى بيزنطية وما بعدها أيضاً بواسطة روما .

٣ - الأنظمة الملكية

لا نستطيع ان نقدم هنا سوى تلخيص عاجل وعمومي للأنظمة الملكية ، اذ ان فقدان التوازن في التوزيع الجغرافي لمستنداتها يحول دون الاستفاضة : فإمام غزارة الرديات المصرية ، ليس لدينا ، عن مقدونيا والمناطق السلوقية الشاسعة مثلاً ، سوى كتابات نادرة متفرقة . أضف الى ذلك ان عدد وخطورة المعاضل التي يستعصي حلّها أو عرضها عرضاً على بساط البحث ليسا بعقبات أقلّ شأنًا . لذلك يتوجب علينا الاكتفاء باستخلاص بعض الخطوط العامة التي تتيح لنا ادراك الملكية الهلينية ، في حد ذاتها ، ادراكاً أفضل .

السلطة الملكية الملك غير مقبّد ، وهو بهذه الصفة القائد الطبيعي للجيش . وهو المشرع الوحيد : يصدر أوامره في شتى المواضيع ويوجه الكتب الدورية الى الموظفين ويحيب على أسلّتهم . وهو أعلى سلطة قضائية : ولا يشذّ عن ذلك سوى الحق المعترف به تقليدياً للجمعية العمومية في الملكية المقدونية - وهو كثيراً ما يحرق عملياً - في ان تنظر في دعاوى الخيانة العظمى . ولكن القضاء ليس مفصلاً آنذاك فصلاً تاماً عن الادارة ؛ لذلك فان الملك يتلقى في شتى الأمور عرائض لا تحصى يقدمها له حتى الوضعاء من رعاياه : وان هذه العادة التي تأيدت ، فيما خص مصر ، ببرديات تعبر عن آمال كلها سداجة أحياناً ، قد اتبعت في مناطق أخرى أيضاً . يبدو ان بعض الملوك قد برهنوا في النهوض بهذه المهام ، تساعدهم الفلسفة على ذلك ، عن شعور بالواجب ووعي لكرامتهم بلغاً أحياناً مستوى رفيعاً جداً . فقد نسب لأحد الانتيجونيين المتأثرين بالرواقية أنه قال يوماً لابنه : « هل أدركت جيداً ان ملكيتنا امما هي عبودية محاطة بالتكريم والتجاة ؟ » ولكن الملك بحاجة الى العون والمساعدة مهما كان من تقيّده بوحى ضميره . ويتمتع الملك مبدئياً بحماية كاملة في اختيار معاويه واسناد الأعمال اليهم . ويجري هذا الاسناد ، كما يطيب له ، دون اعتبار للثقافة والمرتبة والأقدمية : ليس من مقياس سوى رضاه أي الثقة التي يوحى بها اليه .

بيد ان سمعة الملك تتوطد ، الى حد بعيد ، بنسبة اهلية واخلاق اولئك بطانة الملك والسياسة .
ننذّر يلجأ اليهم لمعاولته . وعليه في الواقع ان يحسب حساباً لرأي الجنود ، ولا سيما الحرس ، واهل البلاط . ويحتل بعض معاويه مراكز شخصية رفيعة ، فيضطر

للتريث والركون الى الحيلة للقضاء عليهم : وقد ارغم احد الملوك السلوقيين ، قبل الفوضى النهائية بزمان طويل ، على التآمر ونصب كمين لاغتيال وزيره الاول . فللسلطة المطلقة حدودها الواقعية اذن ، ولبس في ذلك ما يثير الدهشة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار المكانة التي تخص بها المثالية السائدة صفات الفرد وما توفره له من تسلط على البشر الآخرين .

من حيث ان البلاط ، وهو ذيل من ذبول الملكية ، وبالتالي تجديد هيني ، واقع اجتماعي في الدرجة الاولى ، ينعم بنفوذ فكري وفني عظيم ، فانه يثبت من ثم وجوده على الصعيد السياسي . ومن نافل القول ان الدسياسة ، ولا سيما دسياسة الخادع ، تلعب فيه دورها بصورة حتمية . غير انه يندر جداً ان يكون هذا الدور موقع زلة . ولكن السراري والغلمان والخصيان الذين لعبوا دوراً سياسياً لم يتجاوزوا عدداً ضئيلاً ، حتى اذا اطمأنا الى المستندات الطريفة التي تنتقدهم ، الا في الملكية اللاجبية التي غدت ، منذ أواخر القرن الثالث ، العوبة بين أيدي مثل هذه الجماعات . بيد اننا نخطئ ان نحن شبهنا بهم تلك الملكات اللواتي ارتفعن الى مرتبة المدافعات عن فكرة معينة في المنازعات بين الملكيات الهلينية ، من أمثال أولمبيا والدة الاسكندر ، وكليوباتره العظيمة ، وارسينوي شقيقة بطليموس الثاني وروجه ، ولا ووديكي زوجة انطيوخوس الثاني السلوقي ، وكليوباتره « الالهية » التي كانت « ابنة ملك وشقيقة ملكين » من اللاجبيين و « زوجة ثلاثة وأم أربعة » ملوك سلوقيين . وانما الأمر يعود الى تطور عام في المجتمع حيث أصبح للمرأة مكانة أرفع منها في السابق : فبمكنة الشخصيات النسائية القوية أن تلعب منذئذ دورها بسهولة ، لا سيما وأن وجود البلاط يولي الملكة مرتبة رسمية .

ومما يلفت النظر أيضاً ان النسب والثروة ليسا من العناصر التي تقرر الاوضاع الشخصية في البلاط ، على ان لها بعض الأثر مع ذلك . ف « الأولاد المكيون » ، المختارون في العائلات الكبرى يريون في القصر ويخصصون لخدمة الملك ، وتسهل عليهم التربية التي يتلقونها وبالتاليهم على الأمير الفتى ، ملك المستقبل ، دخول الوظائف العسكرية والادارية . ولكن هذه الوظائف لا يحتفظ بها لهم . ولم تتكون قط ، في أية ملكية ، طبقة من « الكبار » . فان حظهم منوط بالمواهب دونما تمييز اجتماعي أو جغرافي أو عنصري . فالعالم الهليني يتخطى الحدود ويؤلف وحدة بشرية كبرى يتجول الاغريق داخلها دونما صعوبة عارضين خدماتهم على أسياذ مختلفين . الضمان الضروري الوحيد هو الانتساب الى الحضارة اليونانية ، أو الأخذ بها فقط ، أقلته بالنسبة لبعض الملوك . فقد أجاب أحد الأنثيغونيين طالب مصلحة من ذوي النسب . « لا شأن عندي للقيمة الوالدية بل للقيمة الشخصية » .

الحكومة المركزية
الذات ، أكثر من أي رئيس دولة . لذلك فان معاوني الذين يسند اليهم المهام الحكومية الكبرى يعدون بين « البطالة » جئماً الى جنب مع خدامه الخصوصيين . وهم

يؤمنون غالباً وظائف بلاطية . ويحصلون ، على الأقل ، على لقب يربطهم شخصياً بالملك ويتيح لهم التحدث إليه بمزيد من الدالة . فقد درجت في البلاطات الهلينية تسميات بطانية ظهرت سابقاتها في الملكية المقدونية القديمة والملكية الفارسية على السواء ، ثم تعددت وطراً عليها نوع من التفضيم المفرط في الاكرام بسبب ابتذال التعابير البسيطة . فهناك « أهل » الملك و « آباؤه المربون » و « مذبوه » و « اخوته الرضع » أو « تلاميذه » ، ويمكن تقديم الدليل في بعض الحالات على ان المقصود بذلك ألقاب شرفية فقط . وهنالك خصوصاً « الأصدقاء » المنتظمون جمعية حقيقية بدرجاتها المختلفة : « الأصدقاء » دونما صفة ، وفوقهم تسلسل الاصدقاء « المكرمين » و « الأولين » ، و « الأولين والمكرمين تكريماً خاصاً » . ويوزع الانعام الملكي هذه الألقاب لقاء شتى الخدمات مع ما يقابلها من شارات أكثرها رواجاً المعطف الأرجواني . ولا توجد هذه الألقاب سوى روابط شخصية بين من يوزعها ومن توزع عليهم اذ ان « صديق » الاب ليس بالضرورة « صديق » الابن .

وهكذا فان عدد رجال البطانة قد يكون مرتفعاً جداً . وتحمل بعض التعابير الرسمية على الاعتقاد بأنهم يشتركون في السلطة الملكية ، شأن الجيش أيضاً ، كأن هنالك ملكية جماعية . ويتباهى الملك في الحقيقة ، بعدد ووفاء « أصدقائه » وجنوده لأن في ذلك خير برهان على السحر الذي يشع منه ، وعلى سخائه و « انعاماته » ، وبكلمة ، على ما يكسبه نظرياً سلطته كفاسيلفس .

لذلك كان من الطبيعي ان يختار الملك بين هؤلاء الاشخاص من يلمس فيهم الكفاءة لمعاونته . فالمشورات مرغوب فيها أبداً حتى ولو لم يكن هنالك مجلس استشاري دائم ومنظم . ويتلقاها الملك ممن يريد وبالشكل الذي يوافق . ومن المسلم به أنه غير مقيّد بها ، ولكن الاستشارة ضرورية ، اذ ان الملك الذي لا يعبأ بهذه الحيلة يعرض نفسه لأن ينعت بالاستبداد .

ينتخب الملك أيضاً بين بطانته القواد والسفراء والوزراء ، وليس من الضروري ، على كل حال ، ان ينطبق هذا الترتيب المنطقي على الواقع : فالرجل الواحد قد يكون تارة قائداً وأخرى سفيراً ووزيراً ؛ وقد يحدث له أيضاً ، بعد ان يتولى قيادة عسكرية هامة ، ان يسلم قيادة دونها أهمية ، حتى ولو لم يفقد الخطوة التي يتمتع بها . غير ان الشؤون الادارية على الاقل ، اي الحرب والدبلوماسية ، قد اصبحت من التعقيد بحيث انها فرضت حداً ادنى من التخصص والاستمرار . لذلك فاننا نرى في كل ملكية تقريباً رئيس ديوان ورئيس قضاء ومفتوض مالية . وقد يحدث احياناً ان يبرز ، بين جميع الشخصيات الكبيرة ، شخصية أكثر نشاطاً ومهارة يشيرون اليها بتعريض غامض في الكلام ، « المفتوض بالشؤون » ، الذي يبدي رأيه في كل القضايا ويبت في اكثريتها باسم الملك : ذلك هو المستشار الرئيسي والوزير الرئيسي . ولكن جميع هذه التعابير المستعارة من قاموسنا السياسي لا تعبر التعبير الصحيح عن ميوعة التنظيم في الحكومة

المركزية لبلاد واسعة ، والتنظيم شيء حديث جداً بالنسبة للاغريق .

الادارة المحلية
من الامور المستلم بها ان الادارة المحلية قد كانت ، في ما يظهر ، ارسخ
استقراراً من الحكومة المركزية . ولكن معرفتنا بها ضئيلة جداً اذا ما قارناها
بالحكومة المركزية ؛ ويبدو الاختلاف بين الملكيات ، في هذا النطاق خصوصاً ، عظيماً للغاية
لان كل ملكية مرغمة على تكييف انظمتها ومصطلحاتها وفقاً لميزات الاراضي والرعايا التي
تشرف على ادارتها .

لنأخذ مثلاً مصر اللاجية ، وهي الملكية التي نعرفها اكثر من غيرها . فقد احتفظ فيها
بالتقسيمات الادارية التقليدية المعروفة بـ « الاقاليم » مع بعض الفوارق الطفيفة الناتجة عن التطور
الاقتصادي او زيادة عدد السكان في منطقة من المناطق مثلاً . وقد عتبن في كل اقليم ، في البداية ،
حاكم مصري وقائد عسكري يوناني ؛ ثم توارى الحاكم رويدا رويدا وراء القائد حتى زال
نهائياً . وتشتمل المراتب الدنيا على رؤساء الاقضية ورؤساء القرى . ولكن المشاغل المالية
قضت منذ البدء بان يعين ، الى جانب كل من هؤلاء الموظفين ، عميل يرتبط مباشرة بوزير المال ،
هو « الكاتب » الذي يعرف عنه بمرکز وظيفته ، فيقال كاتب القرية ، وكاتب القضاء ، وكاتب
الاقليم او الكاتب الملكي .

ليس في هذه اللوحة البيانية شيء من الخطورة . ولكنها لا تنطبق إلا على مصر ، أي على
بلاد تسهل فيها المركزية بفعل طبيعتها وتاريخها السابق . أما في الملكيات الأخرى فالأمر
يختلف اختلافاً بيناً . نحن لا نعلم في الواقع شيئاً عن مقدونيا ، كما نكاد لا نعلم شيئاً عن الملكية
الاطالية . أما السلوقيون ، وهم الخلفاء الرئيسيون للملوك الفرس ، فقد حافظوا على اسم وواقع
« المرزبانيات » القديمة ، باستثناء تقسيم بعضها الى اثنتين أحياناً . وقد تولى أمور كل مرزبانية
قائد عسكري . فهل قام الى جانبه « مرزبان » وكلت اليه الأمور الادارية ؟ نحن نشك في ذلك ،
ولا نعلم على كل حال بوجود موظف أطلق عليه هذا اللقب في عهد من العهود أو في منطقة من
المناطق . وقد قسمت المرزبانية أخيراً الى أقضية تختلف أسماءها الرسمية وفقاً للمناطق ، وبالتالي
أيضاً أسماء الموظفين المكلفين ادارتها .

بدلاً من ان نضع هذه القائمة الطويلة التي تثير مجادلات شتى وتفضي الى اعترافات بالجهل ،
يجدر بنا ان نعرف كيف سارت هذه الادارة المحلية . ويمكننا في هذا المجال ان نستخلص بعض
النظرات العامة .

من الجليّ ان كل المراكز الرفيعة وجلّ الوظائف الملحق بها قد احتفظ بها للاغريق في
الملكيات الشرقية . أما في البدء ، وفي مناطق لم تخضع إخضاعاً نهائياً كأرمينيا وكبادوكيا
وبيشينيا مثلاً ، فقد وجب مراعاة الأوضاع المحلية والقبول ببقاء بعض المرازبة الشرقيين الذين
ما لبثوا في النهاية ان أعلنوا الانشقاق فغدوا في الأساس من تكوين الملكيات الثانوية . أما في

المنساق التي شعر الملك اليوناني بأنه سيدها المطلق ، فلم يعول إلا على الاغريق أو الشرقيين « المستغرقين » فعلاً ، وكانت اليونانية اللغة الرسمية ، فأقصى بالتالي البلديون الجهال . أضف الى ذلك ان الاغريقي ، بفعل ثقافته والاستعداد الفكري المفروض فيها ان توجده فيه ، قد اعتبر موظفاً أوفر تنظيماً ودقة وأمانة أيضاً ، لأن الواجب يقضي عليه ، بالتضامن مع الملك أمام رعايا يارسون حضارة أخرى .

فهل كان هؤلاء الموظفون عند حسن ظن الملك بهم يا ترى ؟ يمكننا التسليم بذلك ، بصورة عامة ، لجهة الامانة السياسية ، على الرغم من بعض الثورات التي أفضت الى الاغتصابات : وهي تقريباً وقف على الملكية السلوقية التي كانت أراضيها أوسع من ان تمكن مراقبتها مراقبة تامة دائمة . ولكن الامر على خلاف ذلك من ناحية الفعالية الادارية . فالحقيقة هي ان الاغريق الذين دخلوا في خدمة الملوك المستقرين في الشرق كانوا حتماً أقل من ان يتاح انتقاء العدد اللازم بينهم . وكثيراً ما أثارت نزاهتهم الريبة والشك . بيد ان الكتابات الخاصة بآسيا ، وهي على الأغلب نصوص رسمية وتكريمية ، قد تحملنا على الاعتقاد بان الوضع فيها وضع مثالي . أما في مصر فالبرديات التي تصف واقعاً يومياً ومتواضعاً تحتوي على شكاوى أو تأنيبات كثيرة وتطلعنا على سرقات وتجاوزات سلطة لا تدع مجالاً للشك . وان الادارة الحسنة تستلزم ، على كل حال ، خبرة وتقاليد وموظفين لم يتوفروا لهذه الملكيات الفتية التي قامت بعيداً عن الأرض الأم .

وتستلزم هذه الادارة الحسنة أيضاً مواصلات سهلة بغية نقل الاوامر وممارسة رقابة الحكومة المركزية بسرعة . غير ان المركزية في ملكيات ذاك العهد ، والرقابة منهطة بها ، تؤدي الى التعقيد وبطء المعاملات . وهذا البطء جليّ في مصر حيث تتطلب اقل معاملة تحقيقات شتى ومراسلات بين مكتب ومكتب ومروؤوس ورئيس . أما في الملكيات الأخرى فان المستندات المتوفرة لدينا ، وان كانت أقل جلاء ، تضعنا أحياناً أمام وقائع على مثل هذه الغرابة . ففي شهر آذار ، بينما كان احد الملوك السلوقيين في آسية الصغرى — في عصر السلالة الذهبي — اتخذ قراراً هاماً لمصلحة الملكة ، وكان على الموظفين المعنيين ان يسرعوا في إبلاغه ؛ غير ان القرار لم يصل الى الدرجات الدنيا من الادارة في احدى المربزانيات المجاورة إلا في شهر أيار كما ، لم يصل اليها في غربي النجد الايراني إلا في شهر تموز . ويتراءى لنا من ثم ما يمكن ان تؤول اليه ، مع انحطاط الملكيات ، ادارات على مثل هذا النقص ، حين سلبت روما نفوذ الملوك

لذلك ، وفي كل زمان ، لم يتح لسلطة الملك ، وبالتالي لسلطة ادارته ، الوطاء والامتيازات المحلية أن تثبت وجودها في كل مكان بشكل متكافئ وقوي . وفي هذا المجال ، يبدو اللاجئون — في مصر لا في ممتلكاتهم الخارجية — في وضع موافق جداً ؛ ولكن عليهم ، حتى في وحدة وادي النيل ، ان يحسبوا حساباً لثلاث مدن يونانية . أما الملوك الآخرون فيصطدمون بحواجز شتى قوامها التقاليد المحترمة أو التنازلات . ويمكن مبدئياً نقض هذه

التنازلات أو التسليكات ؛ ولكن القوة غير متوفرة غالباً لنقضها فعلاً ، حتى ولو توفر المبرر المعقول لذلك . ثم ان الفاسيلفس قد يعرض سمعته للتخبط اذا نقض « انعاماً » دون تبرير معنوي يختار المنعم عليه بحكمة ساعة توفيره له .

مما لا ريب فيه ، ربما باستثناء مقدونيا حيث يخيم العموض على الادارة الداخلية ، ان الملك قد مارس على الدوام سلطة لا حد لها ، بواسطة عملائه وحدها ، على أعظم أجزاء مملكته اتساعاً . وغالباً ما أطلق المعاصرون على هذه الأجزاء اسم « خورا » أي « الريف » أو « الأرض المنبسطة » لظهور المضادة بينها وبين المدن المحصنة . ولكن أجزاء المملكة الاخرى التي لا جدوى فيها للسلطة المباشرة ، أو التي يجب على السلطة أن تحتال فيها على العقبات ، تشمل على مناطق أخرى كثيرة غير المدن أيضاً .

ان هذه العقبات على أنواع كثيرة جداً وتختلف الاهمية النسبية لكل فئة اختلافاً عظيماً وفقاً للظروف المحلية . ففي مناطق الحدود ملوك ذوو اخاذات يكتفون بتأدية واجب الطاعة حين يمر الملك بالقرب منهم على رأس قوة مسلحة : فيطيب للرسميين ان يصفوا « بالجزية » ما يطلق عليه ذوو الاخاذة اسم « الهدية » . وهنالك « السلايون » الذين يسيطرون على مناطق أقل سكاناً وثروة من أن يتجاسروا على اعلان نفوسهم ملوكاً عليها . وهنالك بعض المعابد التي يدير كهنتها أملاكاً عقارية تؤلف دولاً ثيوقراطية . وهنالك « شعوب » أو قبائل بلدية تخضع لشرائعها الخاصة وتعين رؤساءها : وأشهر مثل عنها الشعب اليهودي مع شريعته الموسوية ومجلسه ورئيس كهنته . وهنالك المدن أخيراً . فان ذوي الامتيازات هؤلاء ، أفراداً كانوا أم جماعات ، نزعوا بالسليقة الى الاستقلال . ولا ينم موقفهم من الملك ، عملياً ، سوى عن نسبة القوى الراهنة . لذلك فان الفوضى الداخلية كانت بالمرصاد للملكيات المتقهرة وأسرع في تفككها .

ان ما يستوقف انتباهنا بنوع خاص هو دور المدن في الحضارة الهلينية . أجل قد تكون هنالك بعض المدن المحلية البلدية . ولكن المدن التي يمكننا ، بفضل الكتابات ، مرافقة حياتها ، هي المدن اليونانية ، أو المدن « المستغرقة » كما في فينيقيا . ويوجد بينها مدن قديمة ومدن حديثة العهد . ولكن لجميعها مثلاً أعلى واحداً لا يستطيع أي اغريقي أن يتنكر له ، هو « البولس » . فهي بحصونها وأسوارها وساحاتها العامة وأبنيتها تؤلف أشخاصاً طبيعية . وتؤلف أشخاصاً معنوية أيضاً بالدستور الذي ينظم مواطنيها جماعة مستقلة ، أي ناعمة بوسائل عمل وقضاة ومجلس وجمعية تستطيع بها أن تدير شؤونها وشؤون البقعة المرتبطة بها .

ويطرح هذا الدستور والنزعات التي من شأنه ان يمهدها ، على بساط البحث ، العلاقات بين المدينة والملك . فالملك لا يستطيع القبول بقيام علاقات مع اجنبي ، هو ابدأ عدو ممكن ، ولا المخاطرة بان يرى يوماً ابواب المدينة تقفل بوجهه او القلعة تستخدم مركزاً محصناً من قبيل الثائرين . فهو بحاجة الى ضمانات . ولديه سلسلة مختلفة من المكافآت والعقوبات ، يعامل بها

المدن وفاقاً لاستحقاقها ، فيرسل اليها حامية او يسحبها ، ويثقل الجزية او يخففها او يلغيا ، ويمنح الامتيازات التجارية او الدينية ، الى ما هنالك . ولكن الطريقة التي كثر العمل بها قامت على ان يرسل الى المدينة « مفوض » يكسّف ، دونما ضرورة لوجود الجيوش ، مراقبة الحياة المحلية ، وابداء الرأي في اختيار القضاة وفي قرارات الجمعية او المجلس ، ويوحى او يحترر احياناً مشاريع المراسيم التي توافق عليها فوراً . ومن الطبيعي ان تفرض رقابة شديدة خاصة على المدينة التي يقيم الملك فيها او على مقربة منها ، كالاسكندرية عند اللاجئين وبرغاموس عند الاطاليين ، فيتولى بعض الموظفين الذين يعينهم قطاعات معينة في الادارة ، ويصبح الاستقلال الاداري مجرد ظاهر فحسب . وتكون هذه المدن الاولى في الاستفادة من سخاء الملوك في توزيع المال وغلوائهم في تشييد الابنية . ولكنها تدفع ثمن هذه الانعامات بفقدان حرياتهما ، ولم يحل ذلك قط دون انفجار السخط الشعبي احياناً ، اقله في انطاكية والاسكندرية منذ القرن الثاني ، وتحوله الى شغب صاحب قد يؤدي الى تقتيل المقربين الى الملك ، وطرد الملك نفسه ، واعلان سواه مكانه . فعلى الرغم من الانظمة الاربعة المعتمدة ، لم تتوصل الملكية الهلينية الى ازالة الاستقلال الاداري الذي اظهر المضادة بينها وبين « البولس » : فان فورة الاستقلال التي جاشت في « البولس » لن تخمدوها سوى قبضة روما بعد اكثر من انتفاضة .

كثرت اذن الصعوبات التي وجب على الملوك محاولة التغلب عليها لفرض الطاعة
الثروة
وتأمين العنصرين المتلازمين آنئذ لمثال الملكية : الثروة والقوة العسكرية .

جاء القسم الاكبر من مواردهم المالية من استثمار « الريف » الذي لم يكن ملكهم المباشر فحسب ، بل ملكهم الخاص ايضاً . وفي كل الملكيات ، حتى في مقدونيا ، كانت اهمية الممتلكات الملكية من العقارات والاحراج والمناجم ، وحتى المصانع ، عظيمة جداً ، لا يقلل منها سوى « الهبات » التي يطيب للملك ان يقتطعها فيها كمكافأة تفاني المتفانين في خدمته او لبعث هذا التفاني . وقلكوا عبيداً يتيحون لهم احياناً استثمار هذه الممتلكات استثماراً مباشراً بأشراف القهارمة . ولكن طريقة الاستثمار العادية ، للاملاك الزراعية بنوع خاص ، هي التلزم الذي قد يفرض فرضاً على سكان « الريف » الذين ، حتى ولو نجوا من العبودية ، يبقون خاضعين لموجبات لا يعين حدودها سوى رضى الملك وحده . وما كانت هذه الممتلكات لتصبح شيئاً يذكر لولا اليد العاملة التي تحرثها .

الى موارد الملاك هذه اضيفت موارد المليك المتمتع بالحق السامي الذي توليه اياه الفتوحات وصفته كفاسيلفس ، اعني بها الضرائب بمحصر المعنى . وهي على انواع كثيرة تختلف باختلاف الملكيات وداخل الملكية الواحدة ، اذ ان على الملك ، بصدها ، ان يأخذ بعين الاعتبار الامتيازات المحلية . واكثر الضرائب رواجاً واعظمها دخلاً الجزية ، رمز السيادة المعترف بها ، التي ورثت عن الامبراطورية الفارسية واعتمدت اخيراً في مقدونيا نفسها . والمقصود بها مبلغ

من المال - يضاف اليه احياناً بعض المساهمات العينية - يحدد تحديداً اجمالياً لكل جماعة ، او
اقطاع ، او قبيلة ، او مدينة ذات امتيازات ، او قرية في « الريف » . ويترك الخيار لكل
جماعة ، لدفع هذه الضريبة سنوياً للخزانة ، في ان تجمعها كما يطيب لها وان توزعها على هواها
بين اعضائها . اما ضريبة الاعناق والرسوم على المواشي والاشجار المثمرة فتبدو اقل شمولاً ،
اد انها تستلزم احصاءات لا تستطيع كافة الملكيات اجراءها بانتظام . وهناك ايضا الضرائب
غير المباشرة ، الجمارك الخارجية والداخلية والمكس والرسوم على المبيعات الخ ، ولكنها
تختلف عدداً وشدة . وهناك اخيراً ، فوق كل ذلك ، المصادرة والسخرة ، اذا ما مسّت
الحاجة ، وحتى « التيجان » اي الهبات الطوعية والاستثنائية في زعمهم التي كثيراً ما كانت
تفرض فرضاً في الواقع في اوقات معلومة ، لمناسبة عيد سنوي او انتصار او ، على العموم ،
اي حدث موافق للتعبير عن تعلق الرعايا بالملك .

لا يوحى هذا النظام ، في أي مكان ، بمثل كماله المنطقي ودهائه وشدته في مصر . فهو يتفق
فيها والمشاغل الاقتصادية التي تفضي الى سياسة تجارية وموجهة معاً . فان الملك اللاجي الذي يملك
القسم الاكبر من أرض البلاد يحصل دخل تلزم الاراضي ويستثمر الامتيازات التي تعود له واقعاً
أم قانوناً . ومن شأن الرقابة الدقيقة التي تقود هذه العمليات وكلاءه الى ممارستها حيال الناس
ونشاطاتهم وحيال المحصول والتجول ان تجعل جباية الضرائب أكثر سهولة وفعالية . وقد
اكثر من هذه الضرائب مخيلة هي أخصب وأساس مخيلة مالية عرفها التاريخ . فبلغ من كمال
هذا النظام ان الجزية ، وهي ضريبة جماعية كما رأينا ، قد أمكن ابدالها بضرائب شخصية ،
كالرسوم العقارية أو المهنية .

كانت النتيجة ثروة الملوك الهلينيين . وأذهلت هذه الثروة اغريق اليونان القديمة الذين لم
يعرفوا سوى الميزانيات الفقيرة في مدنهم الصغيرة . وغدت لهم طعماً جاذباً يحملهم على الهجرة
والبحث عن العمل والمال الوفير في الملكيات . وقد تعهد الاتليغونيون أنفسهم ، وهم أقل هؤلاء
الملوك حظاً ، ان اقتطاع الأراضي والسخرة ليسا بالأمر اليسير عند المقدونيين ، بلاطاً بلغ من
بذخه انه اقتضى عدة أيام لفتح « ربيدنا » كي يعرض مغانمه في روما بعد انتصاره . وليس
ما يضاهاه شهرة ملوك الشرق المشروعة ، لاسيا شهرة اللاجيين الذين ساورت كنوزهم الاسطورية ،
في القرن الأول ، مخيلة الطامعين وأفراد العامة في روما .

في الحقيقة كانت النفقات الملكية باهظة جداً . فان تعهد الموظفين والبلاط ، وساسة السخاء
ونصرة الآداب والفنون ، « والهبات للمدن وعبادة الآلهة » التي اعتبرت اذ ذاك دليلاً على
« ذهنية ملكية حقاً » ، كل هذا كان الثمن المحتم لثروة توفرها سلطة الملك . ولذلك فان كل
مجهود عسكري غير عادي يفرض اللجوء الى استنباط الحيل : إحداث رسم اضافي
كذلك الذي فرض لمحاربة « الغالاطيين » النازحين الى آسيا الصغرى والذي أبقي ، بعد

استيطانهم النهائي فيها ، لضمان هدوئهم ضماناً غير ثابت ؛ حجز الثروات المشينة مع ان الانعام الملكي هو مصدرها ؛ استلاب كنوز المعابد الذي أدى في النهاية الى ثورة المؤمنين ، في مقاطعتي سوسة واليهودية مثلاً ؛ تضخيم النقد النحاسي المتداول في مصر . ولكن الحيلة لم تجد ، فلم يمض وقت طويل حتى عجزت كل الملكيات ، الا اذا حدثت من نفقاتها الاخرى ، عن تعهد جيوش تناسب حاجاتها .

قال مؤرخ معاصر : « العالم الهليني عالم عسكري » . ان مثالية « الفاسيلفس » القوة العسكرية نفسها تفسح للقوة مركزاً ممتازاً . وعلى كل ملك ، في الواقع أيضاً ، أن يكون قوياً للدفاع عن نفسه ضد جيرانه والاحتياط لهجماتهم ، ولابقاء رعاياه البلديين الشرقيين تحت نير الطاعة أيضاً . وقد احتاجت الملكيات ، لهذه المهمة الجديدة ، الى جيش دائم استطاعت المدن قديماً أن تستغني عنه ، هو الحرس الملكي والحاميات الموزعة على الحصون . وهكذا فقد أعرض اعاضة عريضة عن الفترات السامية التي كانت ، باستثناء ولاية الملوك المتعطين « للمجد » — وهم كثر آنذاك بين خلفاء الاسكندر — أطول منها في العهد السابق ، بين حرب وحرب .

غدت الحرب عملية معقدة . فقد استلزمت جيوشاً أضخم عدداً : أجل لم يبلغ أفرادها المائة ألف رجل الذين جمعهم الاسكندر في النهاية ، ولكنه ليس من النادر أن يجمع أو يقاد منهم خمسون ألفاً . وقد سار التقدم التقني باطراد . فاستخدمت وسائل مادية قوية في محاصرة الحصون والدفاع عنها ، وظهرت الآلات الحربية على المراكب وحتى في ساحات الوغى . وزاد بمحمول البوارج الحربية وعدد جذافها ؛ ولكن الاساطيل قد اشتملت أيضاً على مراكب خفيفة للمناوشات والمفاجآت والانتقال السريع . وتنوعت الجيوش كذلك بالوحدات المختصة بالمهام المختلفة : الاستكشاف ، الهجمات الفجائية ، الالهاء ، الاصطدام العنيف ، الملاحقة . وأصبح لديها فرق الفرسان لاستثمار النصر : فان معركة بين جيشين متقابلين تقرر في أكثر الاحيان مصير حملة من الحملات . وكلما استطاع ملك الاتصال بالمناطق التي يسهل عليه فيها القاء القبض على الفيلة ، كانت له فيلة يدرّبها ويستخدمها في الحرب .

كانت هذه التجسينات وهذه التجديدات نتيجة قيام الملكيات الكبرى التي توفرت لها وحدها وسائل تطبيقها . ولكنها استنزفت فيها جهداً أضناها .

أجل لم تكن الملكيات بحاجة الى الرجال . فلملك الحق بتعبئة رعاياه . ولكنه لم يلجأ الى هذه التعبئة على نطاق واسع . فان في تدريبهم أو اعادة تدريبهم على مهنة السلاح بعض المحاذير والاعطال . وللشرقيين بنوع خاص طرائقهم الخاصة في التسليح وخوض المعركة ثبت تأخرها . فباشير الاسكندر توزيع الاسلحة المقدونية والتعليم العسكري المقدوني على الفرس . وتردد خلفاؤه في متابعة الاختبار الذي استاء منه رفاقه . فقام بالمغامرة أحد الملوك اللاجيين ، في أواخر القرن الثالث ، وألف « كتيبة » مصرية . ويضيف المؤلف اليوناني الذي أعلمنا بذلك ان

المصريين ، وقد انتفخوا كبرياء بفعل النصر الذي ساعدوا على احرازه ، اسرعوا الى اعلان الثورة . ولم ينخرط البلديون عملياً الا في قرق المشاة الخاصة الخفيفة وفرق الفرسان ولم يُرق بعضهم بالنقل الى الوحدات اليونانية الا نادراً وبصفة شخصية .

بما لا ريب فيه ان خير الجنود ، ومن الطبيعي ان يثق بهم ملوك من أصل يوناني ، كانوا الجنود اليونانيين ، وفي طليعتهم المقدونيون الذين دلت انتصاراتهم على المدن اليونانية وعلى الامبراطورية الفارسية على تفوقهم العسكري . فهم في فرق المشاة أخف تسليحاً من « هوبليت » العهد الكلاسيكي ، تؤلف « الكتيبة » وحدتهم المقاتلة الرئيسية ، وهي كتلة متراسة من صفوف الجنود المتوازية التي تخفض الصفوف الاولى منها نحو الخارج رماحها التي تتجاوز خمسة أمتار طولاً . وارتدى المقدونيون الدروع في فرق الفرسان ، وتألفت منهم أيضاً فرق الفرسان الثقيلة التي تولت الهجوم بقيادة الاسكندر وجعلته يحرز جميع انتصاراته . وقد اثبتت الخبرة - أو هكذا ساد الاعتقاد اذ ذاك - ان الكتيبة لا تتغلب عليها سوى الكتيبة وان الفرسان المقدونيين لا يتغلب عليهم سوى الفرسان المقدونيين . لذلك ففي كل جيش ملكي كتيبته المقدونية وفرقه وفرسانه المقدونيون . ويجب لتأمين التفوق اما زيادة عدد الجنود في هاتين الوحدتين واما اللجوء الى الاغريق في حال عدم توفر العدد الكافي من المقدونيين . فالاغريق أيضاً ، وهم أخف تسليحاً من الهوبليت وأفضل تدريباً ، كفرسان ومشاة ، من حيث أنهم على العموم جنود محترفون ، يؤلفون وحدات ضرورية لمكاثفة الوحدات المقدونية ويقدمون الفرق المتخصصة في مهام الاستكشاف والمفاجأة .

قامت المشكلة اذن في الحصول على المقدونيين والاغريق . وهي لم تواجه الاثينيون المقيمين في مقدونيا ؛ ولكنها لم تحل بسهولة في الملكيات الاخرى ، فقد احتفظت هذه بكل من أمكنها الاحتفاظ به من جنود الاسكندر وجنود خلفائه المباشرين . واستمرت في اجتذاب واستقبال المهاجرين . وقد وزعت هؤلاء أفراداً أو جماعات مسكنة اياهم في اراض تؤمن لهم أودهم وأود عائلاتهم . واحتفظت لهم بهويتهم الأصلية ووفرت لهم كل التسهيلات كي يؤمنوا لأبنائهم التربية الجسدية والعسكرية التي تجعلهم قادرين على الخدمة العسكرية . ويبدو أن هذا النظام قد طبق في آسيا الصغرى وفي مصر على الجنود الشرقيين أيضاً ، لا سيما على « الفرس » الذين يغلب أنهم أسكنوا بعيداً عن نجد ايران قبل الفتح اليوناني ؛ ويعود لمثل هذا الاستمرار الفضل في وجود « المقدونيين » في آسيا حتى في ظل الامبراطورية الرومانية . وكان لهذه الطريقة حسناتها للملوك الهلنيين : فهي توفر لهم الرجال دونما عناء للوحدات الذائعة الصيت في جيوش ذاك العهد . ويأتلف هذا الاستعمار العسكري بأشكاله المختلفة مع الاستعمار الزراعي الهام جداً في ملكيات غنية « بالأراضي الملكية » المفتقرة الى اليد العاملة .

بعد تقلبات الحنين سنة التي عقب موت الاسكندر مباشرة والتي كثرت فيها الهجرة من

اليونان القديمة، وانتقلت الجيوش من قائد الى قائد ، أصبح من الصعب ، يوماً بعد يوم ، على الملوك المقيمين في الشرق تجنيد الاغريق ، ولا سيما المقدونيين تجنيداً نهائياً . أجل لم تعوزهم الحيلة - التي لجأوا اليها فعلاً ، لاسيما اللاجيون ، منذ أواخر القرن الثالث - في ان يعطوا البلديين جنسية أرفع شأنًا، سعيًا منهم ورا ، امتزاج كاذب. ولكن الحل الذي فضلوه هو اللجوء الى المرتزقة . وقد اتاحت تجنيدهم وسائل عديدة كالاتفاق ، بفضل دبلوماسية سخية ، مع دولة لديها المزيد من السكان ، او استئجار فرقة احد قواد المغاوير ، او ارسال من يجند الرجال ، مع كثير من المال ، الى المناطق التي يكثر فيها طالبو التطوع : فقد قامت لمدة طويلة في رأس « تيناروس » جنوبي اليونان ، ثم في افسس على ساحل آسيا الصغرى ، اسواق يتجمع فيها الرجال الذين يطلبون عملاً . ويخدم هؤلاء المرتزقة في وحدات خاصة اغربها ما يعرف عنه باسمها القومي ، فلبعض الشعوب صيت او اختصاص عسكري يُرغَّب في استخدامها على الرغم من انها دون صيت واختصاص المقدونيين . فكان من الضروري ان يضم كل جيش جنوداً كريتيين نبالين بنوع خاص ، وفرساناً طارتيين مشهورين برشاقتهم ، على انهم اوفر عدداً من ان يكونوا كلهم من مدينة طارنتو . لا بل كان من الضروري ان يضم كل جيش وحدات بربرية من التراقيين ولاسيما من الغالاطيين ، وكان هؤلاء « كلتيين » جاؤوا من شمالي البلقان وأقاموا على مقربة من مقدونيا وفي قلب آسيا الصغرى حوالي السنة ٢٧٥ ، وقد حسب لهم جيرانهم حساباً بسبب شغبهم . ولكنهم قدموا محاربين جليلي الفائدة بصفاتهم الطبيعية واحتقارهم الموت وشغفهم اللفظ بالقتال .

ألقت جيوش الملكيات الهلينية ، بالتالي ، أجهزة كلية التعقيد . فقد اشتملت على وحدات دائمة : الحرس والحاميات ، المؤلفة من المرتزقة في أغلب الأحيان ، في الحصون الصغيرة القريبة من الحدود وحصون المدن المحمية . ولكنه يقتضي أشهر طويلة ، اذا ما لاح خطر الحرب ، لتعبئة وجمع القوى التي ستشارك في الأعمال العسكرية . فان تعبئة الجنود الفلاحين وتجهيز الشرق البلدية، ولاسيما تجنيد وحدات جديدة من المرتزقة ، قد تتطلب سنتين أو ثلاثاً في بعض الأحيان. أضف الى ذلك ان هذه الجيوش تورث أعباء مالية مرهقة ، فتضطر كل ملكية الى تعهد ادارة مالية عسكرية، مهما قل شأنها، ومرابض للخيول ومستودعات للفيلة ومرائب للآليات ، وعليها أيضاً ان تعطي من يحارب لأجلها أراضى وأجوراً . وهي تؤثر ، على كل حال ، في الظروف العادية، اعطاء الاراضي على دفع الاجور، لأنها أوفر ثروة عقارية ولأنها ترى في ذلك طريقة فضلى لأن تقيم في أراضىها رجالاً لا تتطلب تعبئتهم وقتاً طويلاً ويمكنها بعد ذلك ان تستخدم أبناءهم. ولكن مشاكل مادية خطيرة تواجهها لن يسمح لها ضعفها الداخلي والفوضى المتزايدة ، بعد فترة من الزمن ، ان تتغلب عليها .

ثم ان تفوق روما العسكري ، منذ القرن الثاني قبل المسيح ، سيتوطد بشكل ساطع .

فتقاوم الملكية المقدونية خير مقاومة. ويعود الفضل في ذلك الى ارتفاع نسبة العنصر المقدوني الخاص في جيشها . فهي التي تعبىء في اسرع وقت وباقل كلفة جنوداً يتحلون بالصفات العسكرية . ولكن الكتيبة المقدونية نفسها التي فقدت الكثير من مرونة اشتهرت بها في عهد فيلبوس والاسكندر، وغدت على قسط كبير من الالتسكك والجمود، وعجزت عن المحافظة على تلاحمها في ارض غير متساوية ، قد برهنت اذ ذاك انها اداة حرب دون الجوقة الرومانية . اما الملكيات المقيمة في الشرق فليس لديها سوى عناصر مقدونية ويونانية قليلة العدد جداً . وقد اكّد احد القواد الرومان ، بالاستناد الى تأثير الارض والمناخ : « ان المقدونيين الذين يحتلون الاسكندرية في مصر وسلوقية في بلاد بابل والمستعمرات الاخرى المتناثرة هنا وهناك قد انحدروا الى مستوى السوريين والفارتيين والمصريين » . هنالك بعض الحقيقة وكثير من المغالاة في هذه التاكيدات المحقرة . ولنكتف نحن بالملاحظة ان الملوك اليونانيين لم يبذلوا جهداً كافياً في تنظيم المتطوعين البلديين تنظيماً عسكرياً . فبدلاً من ان يعينوا الجنود الممتازين ضباطاً لجيش محتلط ، ابقوهم جنوداً في وحدات خاصة . وهكذا جارت سياستهم الاجتماعية كبرياء الاغريق وحرصت على استثمار سلبية الشرقيين وطمغت على سياستهم العسكرية وأدت بها الى الإخفاق .

٤ - العبادة السلالية

العبادة السلالية : هل يجدر بنا اخيراً ان نربط بالانظمة الملكية ، لا بالديانة ، العبادة السلالية اصولها التي تؤلف بالفعل واحداً من اغرب تجديدات العهد الهليني؟ لا ريب في انها تحتل هنا مكانها الافضل لانها نتيجة مثالية الانسان المتفوق الناعم برضى الإله واقرب الناس اليه ، أي المثالية الملكية السائدة . ومن الجدير بالملاحظة ان العبادة السلالية لم تتسرب يوماً بشكل من الاشكال الى مقدونيا ، أي الى الملكية التي لم تتسرب اليها مثالية الانسان ، سفير العناية الإلهية ، الا تسرباً نادراً وبطيئاً ، لانها اصطدمت فيها بمفهوم آخر هو مفهوم الملكية القومية . فبين الملكية الشخصية والملكية القومية يكن الخلاف الحقيقي مرة اخرى .

اجل قد يستهويننا ان نبحث عن هذا الخلاف في مكان آخر اي ، عندما نلاحظ ان الملكية المقدونية قد حكمت ارضاً اوروبية ، ان ننسب ، الى نشأة العبادة السلالية ونموتوها ، تأثيرات شرقية نها لم تتخط البحر الايجي . ولكن هذا التفسير غير مقبول اذ ان ملوكاً مقدونيين عديدين يرجح كانوا موضوع عبادة في اوروبا ، ولكن في اليونان لا في مقدونيا ، في مدن قد تكون ارتبطت به سياسياً ولكنها غريبة عن المملكة المقدونية بالمعنى الحضري ، واذ ان العبادة السلالية ، كما ورست في الشرق نفسه ، ليس لها سابقات محلية . فالفرعون وحده ، بين كافة الملوك الشرقيين ، كان موضوع عبادة قبل الاسكندر . وقد استمرت هذه العبادة التقليدية باقدم مظاهرها . فاعتبر اللاجيون ، شأن الفراعنة ، ابناء آلهة وآلهة ، ولكن لرعاياهم البلديين فقط .

نم انتظمت في الوقت نفسه عبادة موازية جديدة في مفهومها ومظاهرها نرى عبادات اخرى مماثلة لها في الملكيات الشرقية الاخرى حيث لم يعتبر الملك من قبل اكثر من وسيط بين الالهة والسعب . وهكذا فان العبادة السلالية ، التي هي العبادة الهلينية الحقيقية ، قد اشتقت من اصول يونانية بموع خاص

وفسرت لها المعادات اليونانية مرتكزا كافي المتانة والانساع لتحقيق النهج الذي أبحرته . وكان هذا المرتكز معقداً على كل حال ، أو بالأحرى كثير الأجزاء . فهناك في الدرجة الأولى مثال غامض جداً وقابل بالتالي لشتى التفسيرات هو مثال *Dionion* و *Iyche* (الحظ) والروح أو الكائن الإلهي الذي يحيي ويلهم ويحمي كل فرد . فعند من يستطيع هذا الجزء الصغير من الالهة ان يظهر أعظم قوة وجدارة بالعبادة منه عند لفاسيلفس ، وهو يوفر له النجاة والسلطة ؟ وهناك في الدرجة الثانية عبادة الاموات التي يقوم براسمها أحفاد لم تعورهم الوشائل في هذا المجال ، لاستمالة أصدقائهم والمعجبين بهم بغية الحصول على استراحتهم فيها . وهناك أخيراً عبادة « البطل » ، ذلك الانسان العظيم الذي ألقى المعجزات وانتقل بعد موته الى جوار الالهة ، ولاسيما البطل « المؤسس » ، مؤسس المدن بنوع خاص ، أي ذلك الذي أوجد مجموعة بشرية جديدة تعبر له ، في تأدية عبادتها له ، عن تقواها وشكرها ، وتضمن في الوقت نفسه تلاحمها الداخلي ووثوق الصلة التي تشد جميع أعصائها : فهل يا ترى من ابطال يفوقون الملوك الهلنيين بما ثروهم وتشيد المدن الكثيرة ؟ كل ذلك قد اتحد بعضه ببعض ، وربما بغناصر أخرى أيضاً ، وأعطى المور للعبادة السلالية في كافة الملكيات المقيمة في الشرق .

جرت من قبل محاولات رضي عنها الاسكندر وشجعها لإقامة عبادة لشخصه وهو بعد في قيد الحياة . غير أنها لم تحرر على العموم نجاحاً باهراً . ولكنه كان من الطبيعي ، بعيد وفاته ، ان تضعف أعظم المقارمات . شدة ؛ نظراً لصفاته ومآثره التي فاقت مقاييس الطبيعة البشرية . فقامت المافسة حول إرثه الروحي وحتى حول بقاياه الفانية . فصر ب « أفينوس » رئيس ديوانه القديم ، في وسط المعسكر ، الحيمة الملكية وأقام فيها مذبحاً وعرساً وضع عليه شارات الملكية : وقد اعتبر الاسكندر متربعاً عليه شكل غير منظور وملهماً المذاكرات الجارية بحضوره وأفلح فرزبان مصر ، بطليموس الاول المقبئل ، في ان يستولي بنخسدة على رفات الاسكندر وينقله الى الدلتا . وشيد أخيراً في الاسكندرية صريح صخم غدا مركزاً لعبادة الاسكندر التي فرغت كعبادة رسمية على كافة سكان مصر

ولكن عبادة الاسكندر ، اذا هي كانت سابقة ، لم تكن مثلاً وقدوة . ففي مصر نفسها ؛ حيث نستطيع تتبع تطور العبادة العام ، ظهرت عبادة السلالة اللاجبية . وبعث دون ان تربط بعبادة الاسكندر .

العبادة السلالية:
الاشكال

ان وضع تاريخ هذه العبادة يذهب بنا بعيداً ويغدو بالنتيجة مستحيلاً . لا بل ان درس الأشكال التي انطوت عليها لا يمكننا أن نسير فيه الى حيث نتمنى . ولكن هنالك حقيقة راهنة أعني بها تنوع هذه الأشكال الكثيرة تنوعاً غريباً .

هنالك تنوع في غاية ممارسة العبادة . فيمكن ان تؤدي لهذا الملك الميت أو ذاك من السلالة أو لمجموع ملوكها الموتى أو للملك الذي على قيد الحياة وحده أو للملكة أو لأعضاء آخرين من الأسرة الملكية على السواء ؛ لا بل ان السراري الملكيات أنفسهن ، وحتى غلام الملك ، قد حظوا أحياناً بمظاهر التكريم الالهي .

وهنالك تنوع في العبادة نفسها . فالشخص الذي هو موضوعها قد يشرك بالالوهة التي قد تتنوع هي نفسها الى ما لا نهاية له ، ولكن التفضيل يكون ظاهراً وطبيعياً لمصلحة أفراديت عندما يكون هذا الشخص امرأة . ولكن مرحلة الاشراك هذه ، وحتى مرحلة الممثلة ، لا يقتصر عليهما ؛ فالعبادة تؤدي الى ملك أو ، كما في مصر ، الى ملك وزوجته يؤلهان شخصياً ويضاف الى اسميهما الشخصيين لقب أو عدة ألقاب عبادية أو لقب « ثيوس » ، الاله ، أحياناً .

وهنالك تنوع في مظاهر العبادة : معبد خاص أو مذهب فقط ؛ تمثال مزدان بخصائص مختلفة أو موضوع في معبد إله آخر ؛ صلوات وذبائح وتقادم في مواعيد قد تكون قريبة أو بعيدة يقدمها كهنة أو قضاة من مراتب مختلفة ؛ أعياد خاصة ترافقها احتفالات ومباريات تختلف نوعاً وفخفخة باختلاف الأمكنة .

ان تنوع الاشكال هذا له ما يبرره تنوع المؤمنين والحرية التي تطلقها الحكومة في مبادعات لا يمكن ان تقع منها موقع الاستقباح . ويعلن بعض الأفراد وبعض الجماعات المحدودة العدد عن تقواهم بتقادم متواضعة . وتنشئ المدن عبادات بلدية — وهي اكثر اشكال العبادة رواجاً -- باقرار مراسيم أبعد من ان تقتفي المراسيم التقليدية ، ولكن ذلك لا يمنع الملوك عن الاسهام في النفقات بهبات هي في الغالب اوقاف تستخدم ايراداتها لتوفير المزيد من الزهو والعظمة للاحتفالات . ويقدم الملوك أنفسهم اخيراً على بعض المبادعات ، اما اكراماً لجدودهم ، واما اكراماً لأنسابهم ، او اكراماً لأنفسهم احياناً . وهم يتصرفون في عملهم هذا تصرف الأفراد ، والفارق الوحيد هو ان لديهم وسائل دعاوة وعمل لا تتوفر للأفراد . فلديهم النقود الذي تتداوله كافة الأيدي والذي يلتقون له على هواهم الرسم والخاصيات والنصوص ، ولديهم الأراضي والموارد لفشييد المعابد ومكافأة خدامها وإقامة الاعياد . ولديهم « الاصدقاء » والموظفون الذين لا يرضون إلا بالاشتراك بحماس في هذه العبادات ، ولو كانت عبادات خاصة مبدئية .

عند هذا الحد رقت سلالة الاطالين ، وقد برهنت على كل حال عن ترزّن نادر في هذا المجال انه انها ، من جهة ثانية ، لم تؤله سوى الملوك الموتى ولم تسمح بتأليه غيرهم . ولكن بعض :

الملكيات الاخرى قد ذهبت الى ابعد من ذلك لا سيما وانه ليس هنالك من حدّ طبيعي بسين الملك في حياته الخاصة والملك في حياته العامة ، لا ولا بين أملاك الملوك والمملكة . فقد أضيف في مصر الى عبادة الملك كفرعون التي استمر البلديون في ممارستها ، وفاقاً لطقوسهم التقليدية ، عبادات يونانية فرضت على جميع السكان وسهرت الادارة على الاحتفال بها باللغة اليونانية ووفقاً للطقوس اليونانية : عبادة بطليموس الاول وعبادات سلسلة الازواج الملكييين الموتى واخيراً عبادة الزوج الملكي الذي على قيد الحياة اي الاخ والاخت المتحددين بالزواج والمشاركين في السلطة . اما في اوج سلالة السلوقيين ، في اواخر القرن الثالث ، فاننا نعرف ، بأقل تفصيل ودون جزم في استمرارها اللاحق ، عبادة الجدود وعبادة الملك الحي وعبادة الملكة التي تنظمها الدولة معينة في كل مرزبانية رئيس كهنة ورئيسة كهنات . وهكذا فان اللاجئين والسلوقيين ، على الاقل ، قد اضافوا ، الى عبادات متنوعة جداً ، عبادة رسمية متشابهة الشكل ، شاملة ارض المملكة بأكملها ، موزعة على مقاطعات هي المقاطعات الادارية نفسها ، يخدمها كهنوت قد يشرف رؤساؤه على الكهنة المحليين والعبادات المحلية ، وتستلزم موجبات تفرض على عموم الرعايا . وان هذه المرحلة لنتيجة منطقية للنظام السائد ، اذ ان موالاة السلالة تستتبع في النهاية التعبد للمالك سعيداً .

لفت بعض المعاصرين النظر الى انه ربما كان هنالك ، في بعض مظاهر التقوى العبادية السلافية ؛
نحو الملك ، شعور ، برز بقوة عظيمة عند نشأة شعوب كثيرة ، ثم استمر مفزاهما وأميتها
أو عاد الى الظهور ، في أن حيوية الملك ضماناً للخصب العام ، وبالتالي لرخاء مملكته وسكانها . وهذا أمر ممكن اذ ان الفكرة تتراءى فعلاً في بعض الصيغ النادرة على كل حال . ولكن صدق هذه الصيغ موضوع شكوك مشروعة : فكيف السبيل الى اكتشاف المشاعر الصادقة حقاً في سير ادارة يرضى عنها الولاة حتى ولو لم يستخدموا سلطتهم لفرض الاشتراك فيها ؟ أضف الى ذلك ان ما يعوزنا بنوع خاص هو الصلة الضرورية بين هذه الفكرة والتأليه . فقد كان يكفي الملك ، حتى يكون ضماناً ورمزاً ، ان يكون وسيطاً دونما حاجة لأن يصبح إلهاً : ولنا في أكثر من بلاد من بلدان الشرق القديم مصداق على ذلك .

في الحقيقة ، تعبّر العبادة السلافية نظرياً عن عواطف المؤمنين لا من حيث هم رعايا بل من حيث هم بشر . وتشمل هذه العواطف الاعجاب المبهوت أمام هذا القدر من العبقرية ، وهذا القدر من السلطة في جميع الحقول ، وهذا القدر من السعادة ، وهذا القدر من الانعامات يهبها الآلهة بشرياً سفير العناية الالهية ، وعرفان الجميل للخدمات المؤداة ، والأمل الوطيد باحسانات مقبلة أعظم شأنها أيضاً : وبكلمة موجزة تشتمل مثالية الفاسيلفس نفسها كما وردت في اللغة الرسمية بتسميات « المخلص » والمحسن التي ترتدي قيمة عبادية في الدرجة الأولى . وهنالك لقب أقوى ايماء : فمن حيث الملك هو الـ « ابيفانيس » أيضاً ، فانه إله « يتجلّى » .

ومن ناحية نظرية أيضاً ، يبقى انشاء أكثر هذه العبادات واسهام المؤمنين فيها أعمالاً حرة

وبديهية : فالعواطف التي سبق تحديدها ليست من تلك التي تستطيع سلطة سياسية ان تفرضها . وكانت هذه القاعدة مطردة باستثناء حالتين : حالة العبيد الملكيين المرغمين بالضرورة على ممارسة عبادات سيدهم الخاصة ، مع اننا نجهل ما اذا كانت سلطة هذا السيد قد امتدت اذ ذاك الى فدادبي الأراضي الملكية ؛ وحالة العبادات الرسمية ، مع اننا لا نعلم شيئاً عن مدى موجباتها حيال الرعايا : فواقع الموجبات المالية نفسه لم نتحقق منه الا في مصر فقط . وان فكرة العبادة السلالية ، في الحقيقة ، تذكرنا بالعبادات البلدية العديدة التي ليس من ريب في ان انشاءها يعود الى قرار السلطات في كل مدينة ، كما يتضح ذلك من تنوع أشكالها ومن اختلاف تواريخ انشائها .

حريّ بنا ، بموازاة الناحية النظرية ، ان لا نهمل وضوح الناحية العملية ، فمما لا ريب فيه ان بداهة عواطف المؤمنين ، الراغبين في الاعراب عن تعلقهم أو الخاضعين لضغط ليس ضغطاً معنوياً فقط ، لم تكن في أكثر الأحيان سوى ظاهر بداهة فحسب . ويجوز القول نفسه عن بداهة عواطف المدن التي تنشد أبدأ الانعامات الملكية والتي تدرك ادراكاً مسبقاً أحياناً ايجاءات المراجع العليا . وهكذا فان العبادة السلالية تعبر عملياً عن عواطف كثيرة المفارقات يتعذر علينا ان نميز بين نصيب الصدق ونصيب التملق فيها ، لا سيما وليس أمامنا سوى المسئندات الرسمية التي انتقلت اليها عن طريق الكتابات .

فمن حيث ان العبادة السلالية تحمل ، بمثل هذه القوة ، طابع المثل السياسية والواقع السياسي ، فهل هي تعبر عن عاطفة دينية حقيقية يا ترى ؟ قد يكون من الحكمة ان لا ننفي ذلك نفياً باتاً . وسنعود الى هذا الموضوع في سياق البحث . ولكن الشيء الثابت هو أن الاحتفال بالعبادة قد اقتصر في أغلب الأحيان على القيام بطقوس اصطلاحية لا تتعدى قيمتها قيمة الحركات الرمزية . ولعله يجدر بنا ان نفسر بذلك كيف ان اتساع العبادة السلالية ، وحتى تعميمها كعبادة رسمية ، لم يصادف مقاومة ، على ما نعلم . فان الوثنية ، التي لم تُقِم حدوداً واضحة المعالم بين ما هو بشري وما يفوق قوة البشر وما هو إلهي ، قد أوجدت ، بهذا الصدد ، حقلاً مؤثراً جداً . أجل كان هنالك شعب يؤمن بالله واحد ، هو الشعب اليهودي . ولكن السلطة قد سلكت حيله سلوكاً حكيماً ، وان هو ثار على الملكية السلوقية بعد السنة ١٦٦ ، فالعبادة الملكية أبعد من أن تكون السبب الرئيسي للثورة ، لأنها لم تدخل أورشليم الا بمظاهر عيد لمناسبة ذكرى جلوس الملك ، وليس لهذه المظاهر ، بالضرورة ، أي مغزى ديني . أما في المناطق الأخرى فلم تقم أية صعوبة بوجه السلطة على الرغم من أنها كانت حرة طليقة في تصرفاتها .

اضف الى ذلك ان تأدية العبادة ، سواء كانت بديهية او موصى بها او مفروضة فرضاً ، لم يكن لها ، في ما يظهر ، فعالية سياسية . ولا يعجب من ذلك إلا من يدعى ان الاغريق قد جهلوا ابدأ النظام الشيوقراطي وان آلهة مدنها لم يتدخلوا قط في شؤون مدنها وان اعظم هاتفي

الغيب شهرة قد اخفقوا على العموم عندما خرجوا عن تحفظهم المتحذر . ولعله من المرجح ان الملوك ، بقبولهم تعظيم هؤلاء الهاتفين او بلجوتهم اليه قد استهدفوا اعلاء شأن نفوذهم الشخصي وايثاق تعلق مؤمنين بهم . ولكن هذه الطريقة قد بقيت دون جدوى لأنها طبقت على جميع الملوك دون استثناء ففقدت بالتالي قوتها . فالقرارات الشرعية والمظاهر المؤثرة ، مهما بلغ من امرها ، لم تخدع احداً . ولم تحل دون اقدام المؤمنين على العصيان والثورة عندما تتعرض مصالحهم للضرر او عندما تعطيهم الظروف الراهنة بعض الامل بالنجاح . ومن الامور الثابتة ان كمال تنظيم العبادة هنا او هناك لم ينجح في تأخير المخطاط أية ملكية من الملكيات .

الخلاصة

ان قدرة الاغريق على الابتكار السياسي لم تنطو إذن ، في العهد الهليني ، على أي دليل من أدلة النهضة . فهم قد حاولوا انقاذ المثال الجمهوري بتنظيم الاتحادات وتوسيعها . ولكنهم ابتكروا ، مع الملكية ، أشياء جديدة تنطبق على الظروف التي نشأت عن الفتوحات .

ألفت الملكية ، اقله في الشرق ، بين مثالية الانسان المتفوق وبين النظرية القانونية للشرعية أي نظرية الحق السلالي في التملك . وتكوّن هذه النظرية قاعدة متينة للسلطة المطلقة كحق إلهي وبشري معاً من جهة ، وللخلافة الوراثية التي تجنب الفوضى وتتيح تلافي نتائج الكوارث من جهة أخرى . وانطلاقاً من هذه السلطة تكوّن جهاز اداري ومالي وعسكري كامل توجّهته العبادة السلالية بغية ضمان تنفيذ قرارات الملك وجمع القوى المادية والأدبية في أراضيه بين يديه ، وهو جهاز على قليل أو كثير من التعقيد لأنه يأخذ بعين الاعتبار الظروف المحلية ، ولكنه يقرب من الكمال أحياناً . وفي الحقيقة برهنت العبقريّة اليونانية ، في الملكيات ، عن امكانات عقلية وتقنية فائقة .

غير ان الملكيات كلها قد أخفقت . وقد بدأ الانحطاط يدب فيها جميعها في أوائل القرن الثاني كأبعد حد ، وبرز مادياً في عجزها عن مقاومة قوة روما . فكان أمر زوالها المبكر منوطاً بروما دون غيرها : ولم تضمن هذه أو تلك من الملكيات بقاء أطول الا بفضل تزدّادات روما فحسب . ولكن هذا الانحطاط يبرز أيضاً في حقول أخرى من التنظيم الملكي .

يجب الاعتراف هنا بأن الاغريق قد أخذوا على عاتقهم ، بسبب قلة عددهم ، وفي وجه الكتل البشرية التي كان من الواجب عليهم تحريكها وتطويرها ، مهمة ثقيلة جداً ، لا سيما على الصعيد الاجتماعي .

الفصل الثالث

الاقتصاديات والمجتمعات

لم تكن ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية دون ظروف الحياة السياسية تغييراً ، وإنما الجدة الكبرى هنا هي توسيع النطاق الجغرافي المفتوح أمام مشاريع الاغريق والاتصال الذي أقيم ، للمرة الأولى في التاريخ ، وبهذا القدر من التآلف ، بين اقتصاديات ومجتمعات مختلفة في الأصل اختلافاً كلياً . هذه هي النتيجة المباشرة لفتح الامبراطورية الفارسية على يد الاسكندر ، وقد أبقي عليها ، في جوهرها ، طيلة قرون عديدة ، خلفاء الفاتح . وقد شبه بعضهم حملة الاسكندر باكتشاف أمريكا الذي كان منطلقاً للأزمة الحديثة . ولكن في هذا التشبيه بعض المغالاة ، لأن الامبراطورية الفارسية لم تكن « أرضاً مجهولة » ، للاغريق قبل ان يمسوا أسيادها . غير أن المقارنة بين الحدثين أمر ممكن من حيث اتساع نتائجها وديمومتها في بعض النقاط .

١ - العالمان

اليونان القديمة
فقد أصبح هنالك عالمان متشاركان بفعل تفوق أحدهما العسكري . وقد اختلف وضعهما وحاجاتهما الخاصة اختلافاً شديداً .

في العالم اليوناني القديم ، ظهرت بوادر الهبوط على الحياة الاقتصادية منذ منتصف القرن الرابع ، أو اقله لم يعد هناك التثام حالص بين المجتمع وبين التطور الاقتصادي . فقد صعب على صغار الملاكين ، يوماً بعد يوم ، ان يؤمنوا معيشتهم بتعاطيهم شخصياً زراعة أراضيهم الريفية . وغدت المنافسة بين المدن الصناعية أشدّ عنفاً ، بينما غدت الطلبات الخارجية نادرة ، على اثر ظهور صناعات محلية ، لا سيما صناعة الخزفيات ، في ايطاليا وخلقيس وفي روسيا الجنوبية نفسها . وجاءت الحروب الخارجية أو الأهلية ، الى جانب ذلك ، تزيد البؤس وتساعد على ازدياد الارتزاق : فارتفعت ارتفاعاً تصاعدياً نسبة السكان الاحرار في اليونان القديمة الذين لم يؤمنوا بعد ذلك في وطنهم معيشتهم ومعيشة عائلاتهم ، فأرغموا على المخاطرة بحياتهم في خدمة دول اجنبية

قد تكون أحياناً في عداد اعداء الاغريق . فلم يكن لهذه الازمة من حل سوى عن طريق ثورة اجتماعية او عن طريق العودة الى الاستعمار الذي توقف منذ قرين . فجاءت السيطرة المقدونية على المدن التي مزقتها المنازعات الداخلية تسدّ المنافذ أمام الثورة الاجتماعية . ولكن حملة الاسكندر فتحت الشرق أمام الهجرة اليونانية .

اختلف هذا الشرق اختلافاً لا حدود له .

الشرق قامت فيه اراض بالغة الخصب استثمرتها منذ زمن بعيد استثماراً جيداً جماهير مجتهدة نشيطة اعتادت العمل الدليل تنفيذاً لأوامر السيّد : هذه الاراضي هي مصر وبلاد بابل ، درّتنا الفتح الفريديتان . وقامت فيه مناطق اخرى اقل خصباً لزراعة الحبوب اعتمدت فيها جزئياً زراعة افضل تلاؤماً مع المناخ وضعف الموارد المائية وموجّهة شطر زراعة الاشجار المثمرة ، الكرمة وشجرة الزيتون بنوع خاص : كالشواطىء المتوسطية في آسيا الصغرى وسوريا - فينيقيا مثلاً . اما في واحات سوريا وفي بلاد الفرس ومنطقة البختيار التي لا يعرف عنها شيء الكثير ، فاننا نعتقد على الاقل باستخدام مياه الينابيع والآبار فيها استخداماً دقيقاً لزراعة البقول والخضر . ولكن ما زالت ، بين هذه المناطق الزراعية المتطورة الى حد بعيد ، مساحات شاسعة بقيت الحياة الريفية فيها بدائية جداً غير مختلفة احياناً عن المظاهر الراعية والبدوية .

ونشاهد التناقض نفسه بصدد الانتاج الصناعي . فكانت هنالك يد عاملة واسعة الاختبار لديها تقنيات ابعد تقدماً احياناً من تقنيات الاغريق تعمل في حوانيت المدن وحتى في المصانع الملحقة بالمعابد حيث الاشغال خدميّة بنوع خاص . ولكن القسم الاكبر من الامبراطورية الفارسية ما زال في مرحلة العمل غير المتقن بغية سدّ حاجات العائلة أو القرية .

وتوفرت للتجارة بعض الطرقات لسير القوافل والوحدة اللغوية التي تحققت في هذا الحقل كما في الادارة لمصلحة اللغة الآرامية . ومن الثابت ان التجارة قد اتصفت ، هنا او هناك ، ببعض النشاط ، لا سيما في جوار البحر المتوسط ، على الرغم من ان المرافىء اليونانية في آسيا الصغرى والمرافىء الفينيقية قد فقدت الكثير من اردهارها الماضي . ولكن مياطو واسعة لم تزل تعتمد في معيشتها اقتصاداً شبه مغلق ، منكشّة على نفسها ، حاهلة النقد تقريباً . وكانت المعادن الثمينة متوفرة في كل مكان ، باستثناء الفضة في مصر . وقد ضرب الملك والمراربة الفرس نقوداً ، وبعض المدن التجارية ايضاً ، ولكن بكميات غير كافية . وكثيراً ما لجأوا الى تخزين المعادن الثمينة بشكل سبائك في حصون العواصم وبشكل مصوغات في القصور ومساكن الاثرياء والمعابد التي 'سقف بعضها' بقراميد من الفضة والذهب . وعلى الرغم من النقود البوابة ، لا سيما الاثينية منها ، التي انتشرت في بعض الاحيان بعيداً في الداخل ، كان الاقتصاد النقدي ابعد من ان يحرز الانتصار في كل مكان ويبرر اثره في إنماء اسكال تبادل غير المقايضة الاولى .

ويمكن القول نفسه عن التفاوت الاجتماعي في البلدان التي احتلها الاسكندر . فكانت آسيا

الصغرى الغربية وسوريا وفينيقيا ومصر وبلاد بابل مناطق عرفت فيها الحياة الحضرية ، وهي على العموم قديمة جداً ، نهضة لامعة احياناً . غير ان هذه الحياة كانت في هبوط في كل مكان تقريباً . اصف الى ذلك انها لم تبد في كل مكان بمظهرها في اليونان . فالطبقة الكهنوتية قد لعبت فيها دوراً اعظم اهمية ولم تسيطر عليها قط فكرة وحدة المصالح بين المواطنين المتساوين حتى ولا مجرد فكرة المواطن . وقد خضع القسم الاكبر من الامبراطورية الفارسية خصوصاً لنظام اجتماعي آخر . فالناس توزعوا فيها اجهزة ثيوقراطية مرتبطة بالمعابد اي بكهنتهم وحتى رؤساء كهنتهم ، او قبائل تخضع لرئاسات شبه اقطاعية تشمل ذوي الاخاذات والزعماء وتنتهي عند القمة بشخص الملك . وارتدت الفدادية اشكالاً مختلفة ، حتى العبودية احياناً في جوار المعابد ، وكانت عملياً نظاماً لكتل عمالية كثيرة ، كما كانت ، في كل مكان تقريباً ، نظاماً للفلاحين الملحقين بالاراضي التي يستثمرونها بمراقبة الوكلاء . وقد شبه اغريق القرن الرابع « البرابرة » بفدادي مدينة سبارطة ، وهم لم يأتوا بهذا التشبيه عملاً اعتبارياً .

كان العالمان مختلفين إذن . فهل كنا متكاملين يا ترى ؟ يمكننا اثبات ذلك شركة ام استثمار ؟
لحاجات الاغريق . فان اراضي واسعة الارضاء قد توفرت لنشاطهم وهجرتهم واستعمارهم وتقنياتهم الزراعية والتجارية والهندسية والادارية . وكانت اليونان بحاجة الى الشرق لتأمين بقائها بكل ما في كلمة « الحاجة » من معنى مادي . ومهما كان من قلة عدد مرشديها الذين وعوا ذلك ، فانها قد شعرت شعوراً غامضاً بهذه الضرورة وانتهرت الفرصة السانحة . فما القول عن الشرق اذن ؟ انه لدن قابل للمعالجة غني بامكانات التطور . يقدم اراضيه وموارده الطبيعية ، وهو بحاجة لمرشدين كي يحسن استثمارها واستخدامها . ويقدم طاقاته البشرية ايضاً . ولكن الخيار الذي سيتوقف عليه المستقبل يجب ان يتم عند نقطة الانطلاق . باستطاعة الاسياد الجدد ان يسيروا بهذه الطاقات البشرية شطر تطور مماثل لذاك الذي سبق لجدودهم اليونانيين ان قطعوا مراحله ، بغية اشراكها في الانتفاع بالخيرات المادية التي سيكثرها المجهود المشترك . وباستطاعتهم ، على نقيض ذلك ، ان يحاولوا حصر البلبلة الاجتماعية بالاحتفاظ لانفسهم بفوائد استثمار اقتصادي اقل شمولاً لانه يرتكز الى عمل يد عاملة متدنية ، ولكنه يكفي لسد حاجاتهم الحالية الملحة .

ان التجربة الهلنسية ، التي كان من شأنها ان تؤدي الى نتائج تفوق اهميتها كل تصور ، قد أضرارها تردد الاغريق أو أنانيتهم . فبمقدار رؤيتهم للحلّين واختيارهم بينها اختياراً واعياً — ولم يحدث ذلك باستمرار — قد اختاروا بالتفضيل الحل الثاني الذي كان يحد من نشاطهم . ولا ريب في ان الاسكندر كان أثر الحل الأول ، كما يبدو ذلك من الميول التي ينم عنها سلوكه الشخصي وأعماله السياسية حيال البلديين . ولكن العدد الأكبر من مرافقيه لم يخفوا استنكارهم ، فكان الاهمال ، بعد وفاته ، نصيب محاولاته الامتزاجية . ولم تعد هذه المحاولات الى الظهور الا في عهد متأخر ، تحت ضغط الظروف ، ودون هدف معين اجمالاً ، ولكنها لم تجر ، على كل

حال ، على النطاق الواسع الذي كان من الواجب ان يفرضه عدم توازن الظروف الجغرافية والبشرية . وهكذا فان الاغريق قد ألزموا أنفسهم بعمل يتجاوز حدود طاقتهم ، لأنهم آثروا ، اعتداداً بتفوقهم ، الاستثمار على الشركة .

٢ - الاقتصاد والمجتمع في اليونان القديمة

لم تجن اليونان القديمة فائدة طويلة الأمد من استثمار الشرق هذا .

١ - التطور الاقتصادي

انصهرت اليونان منذئذ في وحدة اقتصادية أعظم اتساعاً ، الى حد بعيد ، منها في السابق . وحدت المسافات وصعوبات النقل البري من مدى هذه الوحدة نحو الشرق . ولكن هذه الوحدة تضم مع ذلك ، بأقل تقدير ، المتوسط الشرقي بأكليته - مع بعض التمديدات نحو صقليا وقرطاجة ، وحتى نوميديا ماسينييسا - حيث تسهل المواصلات البحرية وحيث نستطيع التأكد من مطابقة التطور في الأسعار . فالعالم اليوناني القديم يتأثر اذن بمنافسة بلدان ان لم تكن « جديدة » فان الطبيعة كانت لها أكثر سخاء على الأقل وتوفرت لها ، على كل حال ، يد عاملة ألفت مستوى حياتياً متديناً .

وثنب الاقتصاد اليوناني في البداية وثبة قوية . فالحرب نفسها التي ترفقت
البجوبة الأولى نسبياً آنذاك باليونان وعاثت فساداً في البلدان الأخرى ، وحاجات الجيوش المتنقلة ، التي تستهلك كثيراً ، والاضطراب وحتى الشلل التام أحياناً اللذان يصاب بهما الانتاج وتيارات المبادلات العادية ، كل ذلك ساعد على عودة الازدهار الى حين . وارتفعت أسعار كافة الحاصلات الزراعية والصناعية بسبب تضائل العرض وازدياد الطلب ونمو التداول النقدي بفضل ضرب المعادن الثمينة التي كانت تكنز في الشرق قبل ذاك العهد . أجل طرأت على الأسعار تقلبات كبيرة ومفاجئة . فكان لنشاط بعض المضاربين أثره أحياناً : من ذلك أن مرزبان مصر كليومينوس قد احتكر في أيام الاسكندر القمح المصري المعد للتصدير فأسهم بذلك في رفع أسعاره في جميع حوض بحر ايجيه بغية تحقيق أرباح طائلة . ولكن هذه المضاربات لم تكن سوى ظروف عارضة أظهرت اتجاهات عاملاً نحو رفع الأسعار . ومن حيث أن اليونان تستورد القمح ، فانها قد تضررت من هذا القبيل وشكت من القحط . ولكن ذلك ليس بالنسبة اليها سوى الوجه الثاني المحتمل لوضع جزيل النفع على العموم . فهي تجدد وتنتج لمستهلكين أوفر عدداً لا يعوزهم المال . أضف الى ذلك ان مبيعاتها وعودة الجنود والمهاجرين اليها تنقل اليها قسماً من ثروات الشرق ، فتحصل من ثم على رؤوس أموال يساعد توفرها على انماء حركة الانتاج .

لذلك عرفت عهداً من البجوحة . ولكن هذا العهد لا يدوم عملياً الى ما بعد السنة ٢٨٠ ، أي الى ما بعد استقرار العالم الهليني . فحوالي هذا التاريخ قام توازن اقتصادي جديد وطابق الانتاج الحاجات وانتظمت التيارات التجارية . وان اليونان القديمة ، التي لم تضطلع بالحروب فيها بل تعددت وغدت أشد قسوة ، لم تستمر بعدئذ المستفيدة الأولى ، عن طريق الرجال الذين غادروها ، من العالم الشرقي الذي فتحه الاسكندر أمام مشاريعها .

منذ السنة ٢٨٠ تقريباً تدنت الأسعار ، وقد دام هذا التدني حوالي ثلاثين سنة ، أقله للمنتوجات الزراعية التي ترتدي وحدها صفة الديمومة بطبيعتها ونوعها ، والتي يمكن بالتالي مقارنة أسعارها . وبعد منتصف القرن الثالث ارتفعت بعض الأسعار مرة أخرى . ولكن القسم الأكبر منها لم يطرأ عليه أي تغيير وبقي متدنياً . غير أن اليونان ، في كلا الحالتين ، لم تستفد قط .

مزاخمة الزراعة والصناعة
فالحبوب هي المنتج الرئيسي الذي لم تبق أسعاره في المستوى المتدني الذي بلغته حينئذ من الزمن ، وهي بالضبط ما تفتقر اليه اليونان . وليس لدى الريفيين منها سوى كميات فائضة قليلة للبيع . لذلك فإن ارتفاع الأسعار لم يؤمن لهم الثروة بينما هو أضر بسكان المدن . فبرزت مشكلة التموين في مدن عديدة بشكل مستعص حاد . فاسند أمر حلها أو بالأحرى تخفيفها الى بعض القضاة وأثرياء المواطنين الذين تعهدوا ادارة أموال خاصة كثيراً ما تغذيها الاكتتابات وسعوا وراء زيادة الاستيراد وتنظيمه محاولين تأمين المواد الضرورية للأسواق وبيعها بأسعار معقولة للفقراء . وقد لجأ بعض الملوك الراغبين في اجتذاب إحدى المدن اليهم الى اهدائها شحنات من الحبوب أو الى توفيرها لها بأثمان منخفضة ، لأن السخاء سلاح من اسلحة دبلوماسية . ولكن مهما كان من أربة رجال الدولة اليونانيين ، فانها لم تقض على المشكلة التي تصبح مقضه عند اقل تغير مناخي أو اقل حدث عسكري . وقد اشتكى سكان مدن عديدة من غلاء الغذاء الرئيسي ومن الفاقة أحياناً . وقد جاء على لسان أحد الهزليين في أواخر القرن الرابع قوله ان الناس الجائعين في أثينا يتغذون املاً وهواء عليلاً .

مقابل هذا القحط في انتاج القمح ، اثبتت تربة اليونان جودتها لزراعة الاشجار المثمرة ، واهمها آنثد ، كما في السابق ، الكرمة وشجرة الزيتون . ولكن الزيت لم يرتفع سعره عملياً بعد السنة ٢٥٠ ، واذا ما بدا بعض الارتفاع في سعر النبيذ ، وهو ارتفاع معتدل على كل حال ، فهو لم يتناول نبيذاً تنتجه اليونان القديمة . ومرد ذلك الى ان زراعة هذه الشجيرات أو النباتات الزيتية السنوية ، كالسمسم مثلاً ، قد نمت نمواً كبيراً ايضاً واتقنت في البلدان الشرقية . وثبتت النصوص النادرة التي لدينا ميزات طرائق الاستثمار الريفي المعتمدة في اليونان الأوروبية أو في الجزر . بيد ان ذلك لا يعني ان طبقة صغار الملاكين لا تتمنى ، ولا يوفر لها دخلاً كافياً من أراضيها ،

ولا يحول دون اضطرارها للاستفادة ورهن ممتلكاتها ، أي ان الاثرياء بكلمة موجزة ، قد استطاعوا على حسابها توسيع اراضيهم . فتحسين التقنيات واللجوء المتزايد الى استخدام العلف الاصطناعي خلال سني استراحة الارض وتقدم تربية المواشي التي توفر مزيداً من اللحوم والاسمدة في آن واحد ، كل ذلك عاد امره للملاكين الميسورين المستنيرين ذوي رؤوس الاموال . اما الباقون فقد نهكوا انفسهم في الاحتذاء بهم .

ولم تكن الصناعة اوسع ازدهاراً .

فالاعتقادات القديمة لا تزال مهيمنة والطبقات الاجتماعية العليا لا تزال قليلة الاكثارات بها . غير ان هنالك ظروفاً كثيرة مؤاتية لها . فرؤوس الاموال متوفرة . والشرق يجنيه الغيرة ، مها كان من تدني مستواها الحياتي ، سوق تجارية لا تحدد حاجاتها . ويكفي لتأمين هذه الحاجات بأسعار تستحيل معها المنافسة ان تحسن وتستخدم ، بشكل آلات ، التطبيقات العملية التي توصل العلم اليها حينذاك . ولكن الاغريق لم يسلكوا هذا السبيل . فبقيت الصناعة صناعة يدوية : لا بل اننا لا نعرف ، في بلاد اليونان آنذاك ، مصانع يدوية يبلغ عمالها الهائة والعشرون كما سبق ورأينا في معمل والد ليزياس .

ليس عجيباً من ثم ان تتحمل الصناعة اليونانية ، شأن الزراعة ، بصعوبة ، منافسة الشرق . فقد توصل الشرق الى ان يكفي نفسه بزيادة وتحسين انتاجه الخاص . فأقفلت السوق التي بدا وكأنه فتحها . لا بل انه توفق الى ان يصدر الى اليونان بعض مصنوعات الفخخة التي توفرت له خاماتها او حصل عليها بسهولة . فاستحال الصراع ، او بالاحرى مجرد البقاء ، ما لم يسلم الاغريق ببعض التضحيات في الارباح المعتبرة مشروعة حتى ذاك العهد ، أي ان حالة الصناعي او العامل الجور قد تدنت وكادت لا تفضل حالة العامل العبد .

أما التجارة فما من ريب في انها نمت نمواً عظيماً اذا ما نظرنا الى مجموع المتوسط تطور التجارة الشرقي الذي تجتازه مبادلات لم يعرف لها من قبل مثيلاً ، من حيث النشاط والاتساع . ومن نافل القول ان هذه المبادلات لم تجر كلها خارج شبه الجزيرة اليونانية .

نلاحظ بالفعل ، في اليونان ، فقدان مركزية التجارة البحرية التي نزع مرفأ البيره من قبل الى اجتذابها اليه . فقد دبت الحياة في مرفأء صغيرة عديدة اقتصر نشاطها في السابق على المساحلة المحلية فنجحت في اقامة العلائق المباشرة مع البلدان النائية . غير ان تجارة اليونان قد هبطت من حيث قيمتها المطلقة وقيمتها النسبية . وبعدت عنها الطرق الرئيسية للتجارة البحرية . فانحرفت نحو الجنوب بسبب الأهمية الاقتصادية التي أحرزتها مصر ، وازداد عددها بفضل بروز نشاط المدن اليونانية في آسيا الصغرى ، ولم تتجه بعد ذلك نحو ما كان ، بمغالطة جغرافية ، بمثابة القلب لبحر إيجه ، فتلاقت منذئذ ، بشكل أقرب الى المنطق ، في جزر السيكلاد نفسها .

كان من شأن فقدان المركزية وانحراف الطرق ان سبباً ، مجتمعين ، تأخر اثينا . وهذا

التأخر واقع لا ريب فيه . فقد أتى مسافر تجول في أنحاء اليونان الوسطى في القرن الثالث على ذكر بعض المرافئ الصغيرة دون أن يخص مرفأ البيره بكلمة واحدة وأشار إلى وجود أجانب كثيرين في اثينا ولكنهم من السائحين والطلبة . أجل بدت الحركة المرفئية والتجارية وكأنها تتجدد في القرن اللاحق . فعاد الازدهار إلى اثينا كما يتضح ذلك من ضرب النقود الوفيرة التي اشتهرت « بالطراز الجديد » لأن رسم « اثينا » فيها قد فقد طابعه التقليدي القديم . وصدر مرسوم عن الجمعية المدفعية يقضي بأن تقبل ، في كل مكان ودون مضاربة ، النقود الأثينية من قطع الدراهم الاولى . ولكن هذه النهضة في مدينة كانت العاصمة الاقتصادية للعالم اليوناني الكلاسيكي قد بقيت محدودة : فالنقود الأثينية التي انتشرت في الشرق انتشاًراً واسعاً في عهد الاسكندر لم تشاهد فيه عملياً بعد ذلك .

وحلت مرافئ أخرى آنذاك محل مرفأ البيره .

فهناك أولاً رودس ذات الموقع الممتاز ، جنوبي البحر الايجي ، على طريق ، هي محور حوض المتوسط الشرقي ، تبدأ من البحر الأسود شمالاً وتنتهي إلى سوريا ومصر جنوباً . وقد اتضحت أهميتها منذ أواخر القرن الرابع بعد أن كانت وضعية في أول أمرها . فصدرت الزيت والنبيد في القوارير الرودية التي اكتشفت حتى في نجد إيران وفي قرطاجة . وجمعت في مستودعاتها بنوع خاص منتجات كافة أنحاء العالم المتوسطي التي تولت هي توزيعها . فأتاحت لها الأرباح التي جنتها الدولة والأفراد ، على غرار اثينا في القرنين الخامس والرابع ، أن تشيد الأبنية الفخيمة — ومنها « الجبار » الشهير الذي هو تمثال لإله المدينة « هليوس » أي الشمس — وتتعهد اسطولاً حربياً يحسب له اعظم الملوك حساباً ، وتفرض سيطرتها على بعض الرعايا في المناطق الآسيوية المجاورة لجزيرتها ، وتبسط نفوذها على مدن كارييا وإيونيا .

وبعد رودس بزمناً ، تأتي ديلوس في المرتبة الأولى . فديلوس هذه جزيرة صغيرة تعجز عن التوصل بنفسها إلى القوة المادية . ولكنها جزيرة قائمة في قلب أرخبيل السيكلاد ، وخصوصاً جزيرة مقدسة ساد الاعتقاد بأن البضائع ورؤوس الأموال تكون فيها بأمان من أعمال القرصنة والحرب . خضعت فيما مضى إلى حماية اثينا ثم حصلت على الاستقلال بانعام من أحد القواد في أواخر القرن الرابع ، ثم عادت إلى الحظيرة الأثينية في السنة ١٦٧ بانعام من روما ، فغدت إذ ذاك ، بنوع خاص ، مركزاً تجارياً هاماً لأن روما جعلت منها في الوقت نفسه مرفأ حراً . منذ ذاك التاريخ توافد إليها التجار من كل البلدان ، لاسيما الآسيويون والمصريون والايطاليون . وقد اعتمدها الايطاليون الأقوياء سوقاً رئيسية لهم في الشرق . وهم لم يبيعوا فيها بضائع كثيرة ولكنهم وظفوا رؤوس أموالهم واشتروا فيها المواد والمصنوعات التي كانوا يصدرونها إلى الغرب . وكانت ديلوس ، على الأخص ، سوقاً كبيرة للرق ، قد يباع فيها ١٠.٠٠٠ عبد في اليوم كما يثبت ذلك سترابون ؛ وقد أبحر منها ، نحو مصائر جديدة وبائسة ، عدد كبير جداً من العبيد

اليونانيين - اسرى الحروب واسرى القراصنة - والشرقيين الذين كونوا جماهير الفدائيين في صقليا وايطاليا .

يتضح من ذلك ان النشاط التجاري المستمر او المستعاد في اليونان البلقانية والبحرية تزداد سيطرة روما عليه يوماً بعد يوم . ومرد يقظة ازدهار اثنينا في القرن الثاني الى رضى روما بنوع خاص التي لم تكن لتخشى بعد مدينة عديمة القوة تعيد لها ديلوس فتجعل هي منها قاعدة لعملياتها المالية في الشرق . وانما جرى كل ذلك ضد رودس التي ارادت روما الاقتصاص منها لأنها لم تثق بأمانتها السياسية . وقد حاول موفد رودسي ، بعد انشاء مرفأ رودس الحر بزمان قليل ، ان يثير الشفقة في المجلس الروماني باعلانه ان دخل الجمارك السنوي قد هبط من مليون درهم الى ١٥٠ اجل ليس من ريب في ان هذه الارقام مغالى فيها . ولكن مهما يكن من الامر ، فان تقهقر رودس قد سار سيراً مطرداً . وقد انتهى نشاط روما الى النتيجة نفسها في كل مكان آخر ، وفاقاً لكيفيات مختلفة وفي تواريخ على كثير او قليل من الوضوح وبصورة مباشرة او غير مباشرة . فان كورنثوس ، التي يبدو انها حافظت على نشاطها حتى ذاك التاريخ ، قد نهبتها ودمرها الجيش الروماني المنتصر ، في السنة ١٤٦ ، ولن تستيقظ قبل قيصر . وفي اوائل القرن الاول ، دمرت ديلوس واثينا ايضاً : الاولى تدميراً كاملاً لن تنهض بعده ، على يد انصار ميثريدات الذين أرووا فيها غليل حقدهم على الرومان ؛ والثانية تدميراً جزئياً بسيطاً على يد سيللا الذي عاقبها بذلك على مناصرتها ملك البونت .

أكمل التطور الاقتصادي دورته حينذاك : فلم تبع اليونان القديمة الى الاجانب سوى دروس أساتذتها في الفلسفة والبيان والروائع الاصلية لفنهما السالف أو نسخاً عنها ؛ وليست اثنينا ورودس بعد ذلك سوى مدن جامعات ومتاحف ؛ واتجرت الاسكندرية والمرافىء الآسيوية مباشرة مع روما .

٢ - الطبقات الاجتماعية

كان لهذه الظروف الاقتصادية ، بالضرورة ، ردة فعل على المجتمع اليوناني . طبقة دري اليسار
في المدن اليونانية
ففي كل مكان تقريباً بدا ذوو اليسار باعداد اكبر منها في العهد السابق .
وقد شدد المؤرخ الكبير ميخائيل روستوفتزييف (Rostovtzeff) ، بحق ،
على نمو ما أسماه بكلمة « بورجوازية » الفرنسية . وان هذا التعبير لأفضل في الحقيقة من « الطبقة الوسطى » لأن تركيبها الاشتقاقي يلفت النظر ، على الاقل ، الى الصبغة المدنية و « المتعدنة »
بجميع ما لهذه الكلمة من معان - التي يصطبغ بها اولئك الذين تعنيهم . وسنشاهد هذه
البورجوازية في مدن الملكيات الشرقية حيث يؤلف وجودها وتحقيقاتها وقائع قد تكون أبعد
تأثيراً . ولكنها تبرز وتنمو ايضاً في المدن اليونانية القديمة .

يجب ان لا نتكلم بصدها عن الثروات الكبيرة . فلم تتكون اذ ذاك ، كما لم تتكون من قبل ،

ثروات طائلة ، و « النباب » الممولون موجودون في غير مكان ، أي في الشرق . وقد أوضح « بوليب » ان اعظم اغريق اليونان ثروة ، في اوائل القرن الثاني يملك ٢٠٠ مثقال (٢٠٠ ٠٠٠ ١ فرنك في السنة ١٩١٤) اي بالضبط ما ملكه كالياس اغنى أثيني في القرن الخامس . وتتميز هذه الطبقة بيسار كريم يسمح للشخص بان يعيش وتعيش معه عائلته ، وفاقاً لقواعد الاعتدال ، دون فخفة صاحبة ، ودون اهتمام كبير للأعمال ، مع بعض العبيد البيتين الذين يؤمنون أعمال المنزل .

فما هو في الاصل مصدر هذا اليسار يا ترى ؟ لا نعلم ذلك بمزيد من التفاصيل ، وليس باستطاعتنا سوى الاعتقاد بمكاسب تجارية ، وبنشاط مثمر ، عام او خاص ، في الشرق احياناً . فقد خلقت مهزلة ذاك العهد مثلاً جعلته موضوع تهكم هو مثال المتظاهر بالشجاعة أو بالاحرى قائد الجنود المأجورين الذي يتباهى برباحه الضخمة في خدمة الملوك : انه انتقام البورجوازيين ، البشري ، من ضباط ضاحين متعجرفين يخدمون في الحامية الملكية المقيمة في حصن المدينة . ولكن هذا الانتقام يحمل على الظن أنه اذا كان لأحدهم جد من أمثال « بيرغوبولينيقوس » ، « المنتصر على مدينة محصنة » « فانه يهمله ولا يأتي على ذكره . ولا يشار كذلك الى جد طيب أو محام أو استاذ : ويغلب على الاعتقاد ان هذه المهن الحرة ، مع انها اسمى اعتباراً من دي قبل ، لا تؤمن ، إلا بصورة استثنائية ، ثروة كافية للسمو بالعائلة الى المجتمع الراقي . غير انه من الواضح ان الازدهار الاقتصادي في اوائل العهد ، ودخول رؤوس الاموال الشرقية المستلبة أو المضروبة الى اليونان ، والخدمة في الادارات والجيوش الملكية ، كانت الاسباب الرئيسية لنمو البورجوازية اليونانية . وحين نضبت موارد الاثراء ، كان المهم الجوهرى قد تحقق ، فتمكن الاغريق حينذاك من قصر عملهم على الانتفاع بفائدة أموالهم . وقد تم ذلك بان وظفوا معظم رؤوس أموالهم في المشاريع الزراعية وقسماً ضئيلاً منها فقط في المشاريع التجارية . فعاشت البورجوازية في اغلب الاحيان من المداخل العقارية ، اما بتأجير اراضيها واما باستثمارها مباشرة .

ولم يرتفع قط ، في الحقيقة ، عدد افراد هذه الطبقة الميسورة الذين عاشوا في الريف . فالمدينة هي محل اقامتهم العادي . وهم الذين اداروا في الواقع شؤون المدينة حيث غدا المواطنون الفقراء لا يلعبون سوى دور عرضي . ومرد هذا التطور السياسي الى الغاء التعويضات في كل مكان حتى في اثينا : فقد امسى مجرد اسمها مجداراً ، او رمزاً ، كما يقول الكاتب « بوليب » في القرن الثاني ، لفوضى الحكم الجاحمة . وقد قابل هذا التطور ، بالضرورة ، شيء آخر : فقد توجب على الحكام ان يبرهنوا عن سخائهم ، ويكتتبوا للقروض البلدية ، ويقدموا ، على الاقل ، سلفات لمخصصات التموين بالحبوب ، ويتحملوا ، عن طريق الخدمات العامة كما في العهد السابق ، او عن طريق الهبات ، اعباء بعض النفقات الجماعية . ولكن كيف لا نشك شكاً على الاقل ، كما تجيز لنا ذلك بعض النصوص ، في ان ادارة المدينة ، وخصوصاً ادارة املاكها العقارية ، قد توفر

الارباح احياناً بفضل التلزيقات الموافقة ؟

من الطبيعي والحالة هذه ان يكون هنالك مثال بورجوازي معين وان
يكون له اثره في كل مكان . فالتطبيق الميسورة نزعته الى سعة العيش
وفاخرت بمدينتها في آن واحد .

المثل المورجوازي الأعلى :
المدينة والبيت

تبدلت المدن مادياً . فانتشر البناء في كل مكان : الحصون المتقنة والمعابد والمسارح والملاعب
ومحلات الرياضة والاروقة وغيرها . وفي كل مكان ايضاً اعيد الاحتفال بالاعباد القديمة وقررت
اعباد اخرى جديدة : الولايم العمومية ، المباريات ، الالعب ، التمثيليات المسرحية . وعرفت
هذه الاخيرة ، بنوع خاص ، شهرة ورواجاً يفسران شمول بناء المسارح وتنظيم فرق من الممثلين
المتمهين والمتنقلين اعني بها الاخويات المنتسبة الى ديونيسوس . وغالباً ما اقتصرت الفكرة
الدينية الاصلية على مجرد حجة . واهتمت المدن اهتماماً كبيراً في الواقع بمنافسة بعضها البعض
بمذبحها والالهة التي ترفه بها عن حياة مواطنيها . فأصبح مثال اثينا القديم مثلاً مشتركاً عاماً .

وهكذا فان الملوك الهلنستيين لم تعوزهم الظروف لاطهار سخائم الذي ينطوي في الوقت
نفسه ، من جهة اخرى ، على غاية دبلوماسية وعسكرية . فأسهموا بنفقات كل هذا البذخ .
واسهموا بهباتهم المالية او الفنية في تشييد الابنية حتى ولو لم يتولوا وحدهم الانفاق عليها .
وقدموا الزيت لمحلات الرياضة حيث يستهلكه الفتيان بكيات كبيرة للاعتناء بأجسامهم .
واسسوا اوقافاً تقوية او عامانية خصصت عائداً لها لشتى المشاريع . وقد اخذ « بوليب » على
المدن انها امتهنت كرامتها بتأدية واجب الشكر لهم عن طريق المراسيم التقريظية واقامة التائيل
وحتى التكريم « الالهة » احياناً . وهذا مظهر غير نادر لتجاوب اشرفنا اليه اكثر من مرة ،
بن « الانعامات » و « عرفان الجليل » .

ولكن هذا الاسهام الخارجي ابعده من ان يكفي . فالنفقات الرئيسية مطلوبة من موازنات
الجماعات التي تصاب بالارهاق والتي لا تبقى متاعبها دون انعكاس على الشؤون العسكرية
والسياسية . فيتوجب على المواطنين الاغنياء القيام بتضحيات مالية تكافؤ ، شأن تضحيات
الملوك ، بالمراسيم التكريمية . وهم يقومون بها بداعي التفاني الخالص والمجد الباطل . وتتزايد
الاوقاف المختلفة ، عن طريق الوصية او غيرها ، وتستثمر بشتى الطرق : البيع او التلزيق او
الاعارة مقابل رهونات او استثمار الدخل من قبل قيمين يعينهم الواهبون او تنتخبهم المدينة .
وهكذا تتكون يوماً بعد يوم انظمة بالغة التعقيد احياناً تتعلق بشتى مظاهر الحياة المحلية ،
وحتى حياتها الاقتصادية ، الريفية والمصرفية بنوع خاص . وفي المدن التي يعطيها احد معابدها
شهرة كبيرة خاصة ، كدلفي ودبلوس ، لا تتوقف اعمال التجميل في الابنية ويزداد عدد الاعياد
ازدياداً مطرداً ، فيؤمن شطر كبير من سكانها ، بفضل تحضير هذه الاعياد وتهافت الحجاج اليها ،
سبل معيشتهم . ولكن كل ذلك ، بطبيعة الحال ، عرضة للزوال السريع لانه تحت رحمة

الحروب والانحطاط الاقتصادي . وقد بدأت الازمة فعلاً منذ اواخر القرن الثاني قبل المسيح
ثم اخذت تزداد خطورة حتى تنظم الامبراطورية الرومانية التي ستؤمن البقاء لهذه الحضارة
وتنشر مثالها لعدة قرون .

كان للمثال البورجوازي اثره الجلي ايضاً على صعيد الحياة الخاصة . فاذا جمّلت المدن ، فان
المساكن الخاصة قد جمّلت ايضاً . ولم يكن البذخ رائد البورجوازيين لأهم افتقروا الى الوسائل
المادية الضرورية لتحقيقه . ولكنهم رغبوا ، بصدد رفاهية ولذة حياتهم العائلية ، في جو اوسع
رحابة وأوفر هواء واجمل منظراً . لذلك فقد اتضح آنذاك ، في الاحياء الجديدة أكثر منه في
وسط المدن القديمة ، مثال البيت المنظمة اجراؤه حول فناء تحف به الاعمدة : وهو مثال اتقن
درسه في ديلوس وانتشر في « بومباي » ، اي في اكثر اجزاء ايطاليا انفتاحاً على التأثيرات
اليونانية ، وائر بعد ذلك في « مقصف » العهد الامبراطوري . وقد ازدان هذا البيت باللوحات
الرحامية والرسوم والفسيفساء والتماثيل الصغيرة والتماثيل الكبيرة . وتنوع اثاثه وتحسن نوعاً
وشمل الاسرّة التي نزل فيها العاج والمعادن الثمينة ، والمشاجب ، والشعدانات ، والمصوعات .
وكان للأطعمة الفاخرة وبعض خمور الخمر وآسيا فيه تقدير عظيم ، في الولايم التي قضى قانون
تقييد النفقات المفرطة ، في اثينا ، بتحديد عدد مدعوها بثلاثين شخصاً .

رافق هذا الاهتمام بالرفاهية اهتمام بالثقافة . وقد تجاهت البورجوازية
المثل البورجوازي الاعلى :
الاهلية بالثقافة المجردة عن الغاية . وسهرت على تربية اولادها واقدمت
التربية والثقافة
راضية على الانفاق عليها . وكثيراً ما اهتمت المدينة بها بغية تنظيمها
— وقد ارغمتها على ذلك بعض الاوقاف احياناً — ومراقبتها ، مع انها لم تتولّ الانفاق عليها الا
في حالات نادرة . وقد عين قضاة خصوصيون لهذه الغاية . ومهما يكن من الامر ، فان المدارس ،
عمومية كانت ام خاصة ، قد ارتفع عددها ، كما ارتفع عدد محلات الرياضة وازدادت ، في اعلى
الدرجات ، دروس البيان والفلسفة التي ألقاها اساتذة لم يستغرب احد ارتفاع اجورهم . واذا لم
يفرض المثال المسلم به تعمقاً في المعارف فانه قد انطوى منذئذ على رشاقة فكرية حقيقية او اقله
على رشاقة في التعبير الشفاهي او المكتوب .

وقد حدث تغيير أكثر ظهوراً : لم تعد تربية البنسات محصورة في الامهات وحدهن في
الحرم الذي ليس له أي اتصال بالخارج . فهن على غرار اخوتهن يخلطن الى المدارس وحتى الى
محلات الرياضة : ولم يعد مثل سبارطة امراً شاذاً على هذا الصعيد . فنتج عن ذلك ان حياة
النساء ، في الطبقة الميسورة ، غدت اوفر حرية . اجل لم يتلق كثير منهن العلوم النظرية العالية .
ولكننا نعرف عدة شاعرات ، وليس الحديث ، بعدئذ ، في الأدب والفلسفة والفن وقفاً على
بعض المتحررات المتقدمات . فقد بدأت اقتسارات الزمن الماضي بالتراخي . أجل لم تظهر
سيدات المجتمع الراقي في الولايم ، ولكن اصبح باستطاعتهم ان يخرجوا الى المدينة دون ان يرافقهم

أحد ، وقد سمح لمن ازواجهن بالتقاء رجال غير انسبائهن . ولذلك فقد تطورت الاخلاق نحو ادب اسمى رقة : وتعود الى هذا العهد بعض عادات المجاملة ، كتقبيل الأيدي .

الطبقات الاجتماعية الدنيا
نتمنى لو أننا نعرف جيداً ايضاً وضع وحياة الطبقات الاجتماعية الدنيا . ولكن المعلومات بصدها نادرة جداً كما سبق ورأينا اكثر من مرة . غير انها كافية لظهار تناقض بين مصيرها ومصير البورجوازية اعظم بروزاً منه في الزمن القديم . فقد تمتعت البورجوازية بقسط أوفر من اليسار وتأثر بذلك مثالها وحياتها العملية تأثراً سريعاً . اما الطبقات الاجتماعية الدنيا ، فإما استمرت في عيشتها الماضية واما عرفت ظروفًا مادية أشد قسوة — وهذا ما حدث غالباً — في ما يظهر .

تألم صغار الفلاحين والصناعيون المدنيون أيضاً بسبب منافسة حاصلات الشرق ومصنوعاته . واتجهت الاجور نحو الهبوط كما يتضح من حسابات قهرمة ديلوس المقدسة حيث يتقاضى نقاش الكتابات ، مثلاً ، درهماً مقابل ١٠٠ و ١٣٠ حرفاً في أواخر القرن الرابع ، ومقابل ٣٠٠ حرف فيما بعد ، دون ان يهبط مستوى عمله في هذه الاثناء . ولكن الارباح ، حتى اذا نحن اهلنا مثل هذه الحالات القصوى ، لا تتناسب وتقلبات اسعار المعيشة . فان ارباح الزامرة أو « خادم » المعبد مثلاً ، أي ارباح غير اهل الكفاءات ، قلماً تتجاوز ١٢٠ درهماً في السنة ، يضاف اليها تعويض لباس فتصبح ١٤٠ او ١٥٠ . ولكن غذاء اليافع دون غيره يكلف ، شرط ان يكون معتدلاً ، ١٥٠ درهماً في السنة ٢٨١ ، واذا ما هبطت كلفته الى ٩٠ درهماً في السنة ٢٥٠ فانها قد ارتفعت بعد ذلك الى ١٣٠ درهماً في اوائل القرن الثاني ؛ وفي التواريخ نفسها تبلغ كلفة غذاء عائلة مؤلفة من اربعة اشخاص ٤١٠ و ٢٤٦ و ٣٥٨ درهماً . لذلك كان العمل امراً واجباً على كل شخص في العائلات الوضيعة ، وعلى الرغم من تضافر هذه الجهود ، فان البؤس كان في اغلب الاحيان شديد الخطورة . ويتضح لنا أمام هذه الارقام المشاغل التي واجهتها حكومات المدن بسبب ندرة واسعار الحبوب في السوق المحلية .

ويتضح أيضاً كيف ان مصادر الارتزاق اليونانية لم تنضب . ففي اليونان القديمة ، بقي الارتزاق ، حتى أواخر القرن الثالث ، ظاهرة اجتماعية على نطاق هام ، استفادت منها الملكيات المقيمة في الشرق كل استفادة ممكنة . واذا ما هو اخذ يخف فيما بعد ، فليس السبب الرئيسي لذلك نقصان عدد المرتزقة . بل يجدر بنا ان نرى في ذلك نتيجة لنقصان طلب المرتزقة ، اما بفعل تراخي الروابط السياسية بين الملكيات واليونان ، وأما بفعل منافسة المرتزقة البرابرة وهم محاربون لا يكلفون كثيراً ولا يضمنون بدمائهم ، واما ، خصوصاً ، بفعل افتقار الملكيات وضعفها . ولكنه من الجلي ان احتلال الاسكندر للامبراطورية الفارسية ، الذي اتاح للاغريق الهجرة باعداد كبيرة الى ما وراء البحر المتوسط ، لم يكن الدواء الناجع لهذا الداء ، لأنه لم

طويلة الحالة الاقتصادية والاجتماعية في اليونان .

ان الصعوبة التي تعترض المؤرخ المعاصر تقوم في كيفية تعليل استمرار البؤس في بلاد اصبحت يمثل هذا النقص في سكانها . يجب علينا حقاً ان نبحث عن سبب ذلك في ظروف . فالنشاط الاقتصادي في هبوط على العموم : وهذا يستتبع نقصاً في الحاجة الى . ولكن ديولوس التي جاءتنا منها اهم مصادرها حول الاسعار والاجور تشذ في هذا القاعدة العامة ؛ فانه كان من شأن وجود معبد ابولون فيها ، وارتفاع عدد الاعياد زائرين من جهة ، والنشاط التجاري من جهة اخرى ، ان توفر فيها بسهولة سبل العمل لذين تعوزهم هذه السبل . لذلك يستهويننا ان نبحث عن التعليل في مبررات اخرى ، زدياد عدد العبيد وفي التنافس الذي يبين المضادة بينهم ، شأن المحررين ، وبين رار .

ضاً ، نتمنى لو ان لدينا معطيات واضحة ، ولكننا مضطرون لسوء الحظ للاكتفاء ثيرات .

ريب فيه ان العرض في اسواق الرق قد ازداد ازدياداً عظيماً ، واتسع نطاق «التزود» كبيراً ايضاً ؛ فالحرب والقرصنة اللتان ما رالتا على عنفها موّنتا بهم التجار . ولكن يد ابعد من ان تتدنى ، ان لم يكن في مناطق الاحتلال وراء الحيوش ، فأقله عند مع الاخيرة للمشتري المباشرة : فان رحلاً في شرخ الشباب ، دون ميراث تقنية خاصة ، ير الحرب ، يباع بـ ٥٠٠ درهم تقريباً . ولم تتدن اسعار النقد ، كما يبدو ذلك منطقياً ، توزيع العبيد قد اتسع بمقدار لا بل فوق نطاق التزود : فان روما وايطاليا اللتان لم تين ، قد اشترتا العبيد ، في حوض المتوسط الشرقي ، منذ القرن الثاني قبل المسيح ، ايدت باستمرار .

اليونان القديمة فلا يجوز الجزم بارتفاع عدد العبيد إلا في المناطق الشمالية والشمالية كالأبير مثلاً ، ، بسبب حداثة عهد الحضارة المدنية فيها . وليس ما ينبت ذلك في اخرى . اصف الى ذلك ان المزيد من العبيد الذين امتلكتهم البورجوازية ، بعد ان دها وتكامل يسارها ، قد كانوا عبيداً منزليين بنوع خاص لا يرهق وجودهم ارباح . حرار بل يخفف عن المرأة ، التي تتحرر ، اعباء الاعمال العائلية التي كانت تنهض بها . فيجب والحالة هذه ان تكون الصلة بين العلة والمعلول اشد تعقيداً .

يجدر بنا ان ننظر الى حالي العبد العامل لحسابه الخاص والعبد الحرر . فعلى هذا ي بعض الضوء وثائق التحرير التي انتقلت اليها عن طريق كتابات المعابد ، لا سيما دلهي لت الينامنه اكثر من ألف وثيقة . وقد اخذ التحرير الفردي ، لا الجماعي الذي سنشاهده ، يشق طريقه الى اخلاق الاغريق . ولا يستلزم هذا التطور ، على كل حال ، ازدياد

عدد العبيد : بل يدل غالباً ، بصرف النظر عن نور روح التساهل ، على ان سيد العبد يستفيد من تحريره ، لأنه من النادر جداً ان يحدث ذلك دون مقابل مالي . والاعتقاد السائد هو ان الاله يشتري العبد من سيده ويعطيه حريته ضامناً تنفيذ شروط العقد : هذا هو مصدر الحرص على حفظ نص هذه الشروط في الحرم المقدس .

اما في الواقع فقد قسام كل شيء بطبيعة الحال على الاتفاق السابق بين العبد وسيده . فالسيد يرضى بثمان وبظروف مختلف باختلاف الحالات النوعية التي لا نعلم شيئاً عن عوارضها . غير انه من المفروض في العبد ، كي يستطيع دفع المبلغ المتفق عليه فوراً ، ان يكون قد جمع بعض المال وان يكون قد تصرف ، في عمله المتفاوت حرية ، بجد ادنى من الربح . فان العرف الذي سمح للعبد بان « يعيش على حدة » والذي عمل به في اثينا قد عرف الانتشار والشمول ، في ما يظهر . ومن المفروض في العبد ايضاً ، حتى يرتبط بتعهدات وحتى يقوم بها على الاخص ، ان يكون متأكداً ، بعد تحرره وتصرفه بكافة ارباحه ، من ان يجد عملاً وزبناً . اليك مثلاً عبداً لم يدفع شيئاً عند تحريره ولكنه سيدفع ١٠٠ درهم لمدة ١٣ سنة ؛ واليك آخر يمارس ، في ما يبدو ، مهنة تغدق عليه الارباح ، يدفع على الفور ٦٠٠ درهم على ان يدفع ٢٠٠٠ درهم في المستقبل ، مع انه يعد بالقيام « بكل اشغال » سيده ؛ على اننا نرجح ان هذا الوعد لا يتناول من الاشغال إلا ما هو من اختصاصه ولحاجات عائلته سيده المباشرة فقط . ويغلب ان هذه التعهدات تنفذ بمخادفها لأنها لم تلغ . واكثر من ذلك : فاننا نرى العبد المحرر نفسه في بعض الحالات ، بعد عشر سنوات تقريباً يحضر بدوره عبيده : وهذا يعني انه استطاع ان يفي سيده حقه ويؤمن المعيشة لعائلته ويقتني عبداً ويسمح له بالعمل لحسابه الخاص . ولكننا نتصور ما يتطلبه ذلك من عناء ضار ومن حرمان يدوم سنين طوالاً ، ولا نستغرب المنافسة الشديدة التي يصادفها عامل حر لا يشجع بجهوده مثل هذا الامل .

لا يغربن عن البال ، مع ذلك ، ان معظم هذه المعلومات لا تتناول سوى جماعات بشرية تعيش على مقربة من المعابد . ففي دلفي يؤلف الحجاج ومستشيرو هاتف الغيب ومشاهدو الأعياد زبناً كثيرين يميلون الى الانفاق بسعة اوفر منها في محلات اقامتهم ويعطفون على ممارسة المهن الصغيرة والتجارات الصغيرة المزدهرة . لذلك يستحيل ان نعمم هذه الظروف الاستثنائية على كافة أنحاء اليونان . وليس تفسير البؤس عن طريق العبودية بالامر الاكيد ، ولو بدا محتملاً ومنطقياً .

اضف الى ذلك ، كما سبقت الاشارة ، ان الركود الاقتصادي والهبوط الاقتصادي اللذين يكونان السبب الرئيسي للوضع المتعاضم خطورة في الطبقات الاجتماعية المتدنية ، كان من السهل تلافيهما لو ان الاغريق استفادوا من تفوقهم العلمي لتحسين تقنيات انتاجهم ، ومن وجودهم في الشرق لرفع مستوى المعيشة عند طبقة البلديين ، أي لزيادة طلب أصناف الاستهلاك . ومن ثم

فان البورجوازية الهلينية قد وقفت في وجه مصلحتها الشخصية بعدم تحويل مثالها الثقافي وعدم اكترائها بالانتاج الصناعي ، ان لم يكن الزراعي أيضاً .

٣ - الآفات والاضطرابات الاجتماعية

كانت نتائج هذا الوضع على جانب من الخطورة .

كان من شأن نوع معيشة واخلاق البورجوازية ، دونما ريب ، ان يحدّر تدني عدد السكان
معاصري بريكليس لو انه ساد البلاد في ايامهم . وهو قد كدر ايضاً ، في هذا العهد نفسه ، رجالاً لم يمتنعوا تعليم الاخلاق ولكنهم عزوا اليه احدى احن اليونان التي شكوا منها بعنف ، اعني بها تدني عدد السكان . ولعل اشهر هؤلاء الكتّاب هو « بوليب » الذي عاش في القرن الثاني والذي وصف في صفحة شهيرة الداء باسمه الكلاسيكي « اوليغانثروبيا » أي « نقص الرجال » ، موضحاً ما كان سببه في ما ارتأى : « نلاحظ اليوم ، في كافة انحاء اليونان نقصاً في الاولاد والرجال تقفر معه المدن ويشلّ انتاجها ... أما السبب فواضح والدواء ففي أنفسنا . ان الرجال يعزفون عن الزواج وعن تربية اولادهم حباً بالتظاهر وحباً بالمال وجبناً : فهم ، ان ربوا ، لا يربّون اكثر من ولدين حرصاً منهم على الحفاظ على الثروة وعلى تربيتها في ظل حياة هائلة متخنة . وهكذا فان الداء الخفي قد برز فجأة . فاذا لم يكن هنالك سوى ولد او ولدين واذا ما قضت الحرب او المرض عليها فمن الجلي المحتم ان تقفر البيوت ... ولا يختلف اثنان على القول ان تلافي ذلك منوط بنا وحدنا ، اما بتغيير ما هو هدف التنافس بيننا واما باعتماد شرائع ترغم على تربية الاولاد الذين يبصرون النور » . وقد حاول بعضهم احياناً الانتقاص من اهمية هذه الصفحة باعتبارها بياناً اخلاقياً . قد يكون في ذلك بعض الحقيقة ، ولكنها تنطوي على اهمية لا تنكر .

انها تكشف عن استمرار عادة « اهمال » الاطفال حال ولادتهم التي انتشرت في العهد السابق . وانما هن البنات ، كما في العهد السابق ، اللواتي يرفض الأب تربيتهن . فهل ان هذه العادة ، التي هي أشد خطورة في نتائجها العملية من تحديد النسل الاختياري ، قد أصبحت شاملة حينذاك ؟ ان بوليب يثبت ذلك ضمناً ؛ ولكن الاسباب التي يعزوها اليها لا تتناول سوى الطبقة الميسورة ، وهذا هو العيب الاكبر في استدلاله . والحقيقة هي ان الطبقات الاجتماعية الدنيا تبدو متأثرة بهذه العادة المتفشية تأثر الطبقات العليا نفسها . فلم نر في وثائق التحرير في دلفي أي ذكر لعائلة كثيرة الافراد بين المحررين . وقد اتخذت مدن عدة احتياطات لزيادة عدد مواطنيها بقبول الاجانب في هذه الدرجة الممتازة . وقد نصح ملك مقدوني الى احدى المدن التسالية بالتشبه بسخاء روما في هذا الموضوع . وقد اقام الملك نفسه في مملكته جماعات من البرابرة البلقاسيين

« وارغم جميع رعاياه على المحاب البنين وتربيتهم ، كما كتب احدهم دون ايضاح الكيفية . وكان بوليب على علم بهذه السابقة حين اشار باعتماد مثل هذه الشرائع . ولكن رأيه ومثل فيلبوس المقدوني الخامس ، على ما نعلم ، لم يعمل بهما في اي مكان . لذلك يتعذر نكران تدني عدد سكان اليونان منذ ذاك العهد ولامبالاة الحكام الشاملة تقريباً أو اقله عجزهم امام وضع كان يهدد بالخطر لا استقلال دولهم سياسياً وعسكرياً فحسب ، بل حيوية وحتى وجود حضارة يتباهون بها أيضاً .

وعلى نقيض ذلك لم يتوصل بوليب ، في تحليل الأسباب إلا الى حقيقة جزئية ليست أبعد الحقائق أهمية . ولكننا لا نستطيع إهمالها لاسيما وانه يعطينا في غير مكان تفاصيل دقيقة حول « التخنث » واستهواء الأعياد والولائم . فعندما يتكلم عن البيوسيين – الذين لا يحبهم – في أوائل القرن الثاني ، يجزم قائلاً : « ان اولئك الذين لا أولاد لهم يوصون بممتلكاتهم للأكل الفاخر والسكر ويجعلونها مشاعاً لأصدقائهم ، بدلاً من ان يتركوها لأنسابهم . . . وأخذ كثير من اولئك الذين أنجبوا اولاداً ينفقون على الولائم معظم ثروتهم بحيث ان بيوسيين عديدين أقاموا في كل شهر ولائم تفوق بعددها أيام الشهر » . هذا هو التشويه المحتم لحياة اجتماعية جعلت مطابقة لمثل أعلى في الرفاهية واللذة . وبديهي ان يصعب التوفيق بين هذه الحياة وواجبات العائلة العديدة الأفراد وان تفضي بالضرورة الى استحالة التعويض العددي الطبيعي عن جيل سابق بالجيل اللاحق . وكان للطبقات الدنيا أعذار أخرى كثيرة للتهرب من الواجبات العائلية المرهقة .

يتوجب علينا ، مع ذلك ، دون ان نتوقف عند الحقائق الاخلاقية المسلم بها ، كما فعلنا ، ان نضيف شيئاً الى تفسيرات بوليب .

ففي الدرجة الأولى كانت اليونان منطلقاً ، نحو الشرق الذي احتله وأداره ملوك يونانيون وانتشر فيه واستثمره الاغريق ، لهجرة عارمة حرمتها من عناصر فتية أي من اهم ابنائها نشاطاً وتديباً . ولا ريب في ان هذه الهجرة التي كانت في البدء على نطاق واسع قد خفت بعد ذلك رويداً رويداً ؛ ولكنها لم تنقطع قط انقطاعاً تاماً ولم يعوض المهاجرون العائدون قط عن المهاجرين النازحين . واذا ما نحن أغفلنا هذه الحقيقة استحال علينا إدراك التوازن في مجتمع كان « يربي » ذكوراً أكثر من البنات . فجلياً ان الرجال هم الذين هاجروا بنوع خاص كمرتزقة وموظفين وفنيين ومستعمرين واتخذوا لهم زوجات شرقيات .

ثم ان الصعوبات الاقتصادية المتزايدة التي عرفتها اليونان لم تبق دون نتيجة في هذا المجال أيضاً . فقد ظهر أثر التأخر الزراعي والصناعي والتجاري في البورجوازية نفسها . وحين نضبت المصادر الطبيعية للثراء رأت البورجوازية نفسها مرغمة على عدم زيادة عددها ، ان هي أرادت الحفاظ على مستوى اليسار الذي بلغته ؛ ولم يكن من المستطاع عملياً ان تحافظ عليه ، بسبب هباتها للمدن ، إلا بانقاص عدد اعضائها وجمع ثرواتها بفضل الإرث والهبات عن طريق الوصايا .

ولكن الفقراء خصوصاً ، الذين لم توافق مواردهم ارتفاع الأسعار ، اذا لم تخفض أحياناً ، لم يتمكنوا من العيش إلا بفرض الحرمانات على انفسهم ، وكان اقلها صعوبة مباشرة ، وبالتالى أول ما يقبل به منها ، يستهدف الأولاد . وهكذا فان « نقص الرجال » من حيث هو علة ومعلول في آن واحد قد زاد بدوره من انحطاط اقتصاد البلاد ، وذلك باقلال طلب السوق الاقليمية التي كانت هي في افضل وضع لسد حاجاتها .

هناك آفة أخرى ، هي نتيجة تنحدر مباشرة من بؤس الوضعاء ، الاضطرابات الاجتماعية اضنت اليونان ايضاً ، اعني بها خطر الثورة الاجتماعية الذي ليس جديداً ولكنه ، بعد هدوء العهد الكلاسيكي ، برز مرة أخرى بمزيد من الخطورة الهائلة .

انطوى برنامج ثوار القرنين السابع والسادس على بندين تقليديين : توزيع الاراضي والغاء الديون . ويرى هذان البندان نفسها الآن اكثر شعبية من اي وقت مضى . كلاهما يستهويان الريفيين الذين ارغموا على مغادرة اراضيهم او يخشون ، بفعل الديون المتراكمة عليهم ، من ان يطردها منها ، او حتى من ان ينتهوا الى السجن بفعل عجزهم عن الدفع . واذا كان فقراء المدن اقل اهتماماً للديون — اقل اهتماماً فقط ، لأن الفقير المعتمد وحده يعجز عن ان يتوفق الى من يقرضه مالاً — فانهم لم يهتموا بالامل بأن يصبحوا يوماً ملاكين صغاراً .

غير ان هذا البرنامج الذي لم يفقد شيئاً من عنفه ، اضيفت اليه آنذاك مطالب تتعلق بالعبيد الذين لم يسبق في الماضي ان احيطوا بأي اهتمام . قد يكون مرد ذلك الى التضامن في البؤس الذي يقويه انتساب عبيد كثيرين الى الاصل اليوناني كأسرى الحرب ومخطوفي القراصنة . ولكن الأرجح انهم يمثلون قوة لم يأنف آنئذ احد من اللجوء اليها في ساعات حدة الصراع .

وهم الوحيدون ، على كل حال ، الذين لا يتجاسرون على الحركة . اجل قد تحدث عرضياً بعض الثورات كما جرى في السنتين ١٣٠ و ١٠٣ في أثينا ، وفي السنة ١٣٠ ايضاً في ديلوس . ولكن هذه « الحروب الفدائية » المحصورة في المناطق التي كثيراً ما تخضع فيها جماهير غفيرة من العبيد لنظام شديد القساوة — كديلوس ، تلك السوق الكبرى التي تصدر الى الشرق البعيد دون امل بالعودة ، واثينا حيث لم تتحسن ظروف العمل في مناجم « اللوريون » — لا تحدث من جهة ثانية الا في عهد متأخر جداً : وليست سوى صدى الثورات التي اندلعت في صقليا وآسيا الصغرى في السنتين ١٣٥ و ١٣٣ . ولكن الحركات الثورية التي كانت من الخطورة بمكان هي تلك التي نهض بها الاحرار والعبيد جنباً الى جنب يوحد بينهم البؤس المشترك والحقد المشترك على الملاكين : وان هذا الاتحاد الجدة يعود الفضل فيها الى العهد الهليني .

لم يكن لمثل هذه الاضطرابات دافع عقائدي على ما نعلم . اجل لقد نادى بعض الفلاسفة بالمساواة بين البشر . ولكن هذه المساواة في نظرهم ، شأن حرية الشخص البشري ، كانت شيئاً داخلياً اكثر منه اجتماعياً لأنها تتعلق بالقوة المعنوية الفردية اكثر منها بالنظام القانوني : فالرجل

الحر والغني قد يبقى دون العبد ان لم يكن سيّد نفسه . لذلك فان مثل هذه الآراء لم تدفع الى العمل . وكذلك ، اذا وجد بعض المؤلفين لذة في وضع نظريات خيالية ، فان هذا الفن الادبي الذي درج حينذاك ، لم يكن ليحرّك الجماهير . وهناك بعض نتف لشاعر بلوونيزي من القرن الثالث هي في الحقيقة فريدة من نوعها والوحيدة التي تنبض بروح ثورية في الادب اليوناني ؛ ففيها ان على الغني ان « يتقياً » ، وان للتوزيع صفة إلهية ؛ ويتساءل عما اذا كان للإله عين خلد لأنه يعزف عن اخذ خيرات المراعي لاعطاءها من يعجز عن سد جوعه . ولكن الشاعر ، سرسيداس ، قد لعب دوراً دبلوماسياً وعسكرياً ناشطاً ضد الثورة حين كانت على وشك النجاح ، بحيث لا يمكن اعتباره سوى مناصر التحقق بها في الساعة الحاسمة . وبكلمة موجزة ، فان الثورة الاجتماعية في اليونان قد افتمرت الى رئيس روعي من حيث انها افتمرت الى برنامج عقائدي .

بيد انها ، في بعض الظروف وبعض المدن : قد وجدت رؤساءها اثناء العمل الثوري نفسه . وغالباً ما كان هذا العمل غير منظم ، ونادراً ما كان منسجماً وغير منقطع ، وقد تحطم ابدأ على صخرة مقاومة البورجوازية والتدخل الاجنبي . وقام عند الايتوليين رجال سياسيون من المرتبة الاولى يقترحون الشرائع حول الديون ، فانتهاوا الى الابداع . وفي بيوسيا توقف سير القضاء عملياً لمدة خمس وعشرين سنة : فكان ذلك فوضى فاضحة جاءت جزيلة الفائدة للدائنين . ولو توفرت المعلومات لدينا ، لاتضح لنا دونما شك وجود وتمثل حركة اصلاحية ، ان لم تكن ثورية ، في كل مكان تقريباً .

كانت الازمة خطيرة جداً في سبارطة حيث تفسر خطورتها ظروف الثورة الاجتماعية في سبارطة خاصة جداً . ومعلوماتنا عنها اوفر منها في اي مكان آخر .

سعت سبارطة تقليدياً وراء مثل اعلى لمساواة حقيقية بين المواطنين المتمتعين بحقوقهم الكاملة ، « المتساوين » . ولكن عددهم قد انخفض انخفاضاً هائلاً ، فغدوا سبعمائة فقط في اواسط القرن الثالث بعد ان كانوا تسعة آلاف في الاصل على الأرجح . وقد ادّى الى هذا الانخفاض تحديد النسل الاختياري الذي هو النتيجة المحتمة غير المباشرة لتشريع حظر على المواطنين كل نشاط مأجور ورسم بعدم الاهلية كل من يتدنى دخله الى ما دون حد ادنى . قانوني . وادى اليه ايضاً ارتفاع نسبة الوفيات في ساحات الوغى بسبب تقييد السبارطيين بقانون قاس جداً خاص بالشرف العسكري . وقد ادى اليه اخيراً انزال الذين يخالفون واجباتهم كمواطنين ، مهما كان السبب ، لا سيما الفقر ، الى الفئات الدنيا . فلم يبرز « نقص الرجال » في اي مكان بروره في سبارطة .

افضى هذا التطور - البليّة الى الانحطاط العسكري والى نتائج اجتماعية هامة . فالمساواة ، العملية او النظرية ، قد قضى عليها منذ زمن بعيد . وتجمعت الثروات ، بما فيها الممتلكات العقارية ، في العائلات المحظية ، ولا سيما في ايدي النساء ، الوارثات الغنيات . ولكن قيام

الارستوقراطية الضيقة قابله في الجهة الثانية فقر بقية السكان . فكثيرون منهم كانوا مدينين مهددين بخطر الحرمان من الحقوق السياسية وبعض الحقوق المدنية ؛ وكثيرون ممن أصيبوا بهذا الحرمان راودهم الامل في إعادة توزيع الاراضي الذي سيؤمن لهم حياة سبارطية حقيقية ويعطيهم حقوقاً لم يعتدوا انفسهم غير اهل لها . وقد دفعهم استيائهم الى البحث عن حلفاء ، ان لم يكن بين العبيد القليلين عدداً في سبارطة ، فأقلته بين الفداديين الرسميين المتطرفين ، الذين كانوا يتوقون ، هم ايضاً ، الى وضع قانوني وادي افضل . فظهر الاختار منذ اوائل القرن الرابع وافضى الى اضطرابات عنيفة في النصف الثاني من القرن الثالث .

كان الرؤساء في البدء ملوكاً يتمتعون بشرعية تامة : « أغيس » الرابع و « كليومينوس » الثالث . فشل الأول بسرعة وحكم عليه بالموت . اما الثاني وهو ذو حنكة سياسية عرف كيف يرضي الزهو القومي ويبين الفائدة العسكرية من الاصلاح ويستثمر النفوذ الذي اكتسبه بانتصاراته ، فقد حقق انقلاباً : فأمر بتقتيل القضاة وأبعد المعارضين . فاستطاع بذلك إلغاء الديون وإعادة توزيع الاراضي وزيادة عدد المواطنين . ورفع عدد الجنود أيضاً ووسّع انتصاراته الخارجية وبدأ قادراً على ان يعيد الى سبارطة عظمتها السالفة ، لأن العدو البلوبونيزي الرئيسي ، الاتحاد الآخي ، قد دبّ فيه الانهيار بانتقال العدوى الثورية اليه . ولم يتمكن الحكام الآخيون من التغلب على كليومينوس وإرغامه على الهرب إلا بفضل التدخل المقدوني الذي دفع المقدونيون ثمنه غالياً على كل حال .

هكذا أعيد النظام المحافظ الى سبارطة ، ولكنه لم يدم طويلاً فعادت الأزمة أشدّ عنفاً منذ السنوات الاخيرة في القرن الثالث . وكان نابيس زعيم العصاة الاول ، وهو رجل من اصل ملكي توصل الى الحكم بطريقة غير قانونية . وتمعن المصادر التي لدينا والتي تكرهه في الروايات المحيطة عن قساوته حيال الاغنياء في سبارطة او في المدن التي استولى عليها كأرغوس ، وعلاقاته بالقراصنة وقطاع الطرق المختلفي الجنسيات ، والانعامات التي أغدقها على اقل اتباعه اخلاقاً حسنة . اجل يتراءى لنا ، من خلال هذه البغضاء ، رئيس فظّ ولكنه مدفوع الى القساوة بسبب الحرب الاهلية والخارجية ، ومصلح جريء يتناول في اصلاحه ، لا الديون والاراضي فقط ، بل رؤوس الاموال المنقولة أيضاً ، ويرفع عدد الموظفين الى حدّ بعيد باختيارهم بين المرتزقة والفداديين الرسميين وحق بين العبيد . فهل من استغراب والحالة هذه لما أثاره سلوكه من فضيحة ورعب في اليونان ، ولا سيما في الجوار القريب ، بين اولئك الذين يدعوم بوليب ، المؤرخ الآخي المحافظ ، بـ « ذوي التفكير السليم » ؟ وروما هي التي تدخلت هذه المرة ، دون ان تفرض سقوط نابيس . ولكنها اضعفته إضعافاً كافياً لحرمانه من نفوذه . وما لبث ان مات قتلاً ، فانتفت عن سبارطة صفة المنجم الثوري التي اتصفت بها طيلة نصف قرن .

تبين هذه الامثلة بوضوح كيف تكوّنت المعضلة الاجتماعية في اليونان الهلنستية : فهي لم تبرز يوماً منعزلة مستقلة بل متشابكة أبداً بمعاصل سياسية . وبديهي انها تشابكت بالسياسة الداخلية لانها في جوهرها ،

المعضلة الاجتماعية
والمفاضل السياسية

وفي الدرجة الاولى ، احد عناصر هذه السياسة . ولكنها تشابكت بالسياسة الخارجية ايضاً ، وهذا هو الدليل على خطورتها لان الخوف من العدوى قد لعب دوره في العلائق الدولية اكثر من مرة . فقد استفادت الدول العظمى ، الاكثر اتصالاً وثيقاً بالشؤون اليونانية ، أي مقدونيا وروما ، من البلبلة التي خلقتها هذه المعضلة : فساند الملوك المقدونيون ، دون سابق تصميم ، هذه النزعة هنا وتلك النزعة هناك ، غير مبتغين سوى المنافع الفورية واجتذاب الحلفاء ؛ اما روما ، التي ارتبطت دبلوماسيتها وجيوشها حينذاك بنسلاء مجلس الشيوخ دون غيرهم فقد أبدت نفوراً ظاهراً وفعلاً في أغلب الأحيان من كل ما من شأنه ان يعكر النظام التقليدي ولكنها تورطت أحياناً في تساويات املتها عليها الانتهازية .

كانت نتيجة ذلك الانقسام الذي قاست منه الامرّين طبقة الحكام اليونانيين في كل مكان تقريباً . فقد اضطروا ، في هذه الفترة أو تلك ، الى الاختيار بين مخاطر الثورة الاجتماعية وبين السيطرة الأجنبية ، وقد انحصرت مأساة بوليب وأصدقائه السياسيين ، لا سيما بطله ومعلمه فيليبومين « آخر الاغريق » كما يتضح ذلك مما تبقى من مؤلفاته ، في انهم لم يستطيعوا ، على الرغم من كل جهودهم ، التخلص من ضرورة هذا الاختيار . ففضل بوليب قبول السلطة الرومانية التي لا تقاوم . وصرف بورجوازيون آخرون كثيرون ، أخيراً ، النظر عن مصالح طبقتهم . ولكن المصيبة ، بالنسبة لاستقلال اليونان ، انهم لم يقرروا هذا الاختيار في كل مكان وفي وقت واحد قبل ان يفوت الأوان : فقد أدى به انقسام البلاد الى دول كثيرة ومنازعاتهم القديمة والجديدة الى خوض المعركة الحاسمة بنظام غير موحد . ولم يقرر الزعماء الآخيون إلا في السنتين ١٤٧ و ١٤٦ خوض حرب لا هوادة فيها ضد روما ففرضوا تأجيل دفع الديون وقرروا مساعدات للفقراء وحرّروا وسلحوا ١٢٠٠٠ عبد . فقبلوا بذلك حلولاً آتراً خلفاؤهم عليها ، فيما مضى ، ضد رأي كليومينوس الثالث ، الحماية المقدونية ، وضد نابيس ، الحماية الرومانية . ولذلك لم يكن لتدابيرهم الصدى اللازم حين كانت لا تزال هنالك ملكيات عظمى قادرة على موازنة قوة روما .

بعد ان انتصرت روما على هذه الانتفاضة التي أعوزها التلاحم والعضد الخارجي وطدت حينذاك ، في كل مكان ، النظام الاجتماعي وسيطرتها . ولكن التسليم للأمر الواقع ، في البورجوازية كما في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، لم يتم إلا بكل بطء : ولا نلمسه حقاً إلا في عهد الامبراطورية حين اتيح للبلاد ، التي اضعفها تناقص سكانها من جهة ثانية ، ان تعرف ، بالإضافة الى السلم ، ادارة لائقة ، وان تتوصل الى التوازن الاقتصادي باكمال مواردها الطبيعية بفضل استثمارها السياحة وتصديرها الى الغرب الروائع الفنية والرجال الذين ثقفتهم حضارتها ، الاطباء والاساقذة والصناعيين اليدويين الماهرين .

٣ — الحياة الاقتصادية في الشرق الهليني

كانت الظروف مختلفة كل الاختلاف في الملكيات القائمة في الشرق . فمن الناحية الاقتصادية ، زخرت

اراضيها الشاسعة والواسعة الأفق بالمزيد من الثروات ، وبشوع خاص تانك الدرثان اليتيمتان اللتان وهبتها طبيعة سخية العطاء وكيفها عمل الانسان الجليل طيلة آلاف السنين ، اعني بها بلاد مصر وبلاد بابل . ومن الناحية الاجتماعية ، ألّف الرعايا كتلاً ضخمة ، لم يكن للفرد فيها كبير اعتبار ، اعتادت الخضوع بانقياد الى اوامر السيد مهما كان من امر متطلباته . لذلك فان المعطيات الاولى للاختبار الهليني قد تباينت تبايناً كلياً في الشرق عنها في اليونان . وقد رافق هذا التناقض تناقض آخر اساسي في الظروف التي جرى فيها الاختبار . فبينما بقي الاغريق في اليونان وحدهم لم يدخل عليهم عنصر خارجي آخر غير العبيد ، فانهم لم يؤلفوا في الشرق ، على العموم ، سوى الطبقات الحاكمة وضباط الحيوش . اغريقاً ، اصلاً وحضارة ، كان الملوك الذين اتجهت انظارهم ابدأ نحو اليونان . واغريقاً كان المهاجرون الذين اتوا يبحثون ، في ما وراء المتوسط ، كبطانة وموظفين وفيين وجنود ومستعمرين وتجار ، عن فرص عمل او يسار مادي لم تتوفر لهم في بلادهم . وكان من شأن الاختبار ان يفضي الى نتيجتين قصويين على طرفي نقيض : اما استثمار الشرق واما نشر الحضارة اليونانية فيه . وقد توصل في الواقع هنا او هناك الى هذه النتيجة او تلك . ولكن اتساع الشرق وتنوعه يجعلنا نرى ، بين هذين النقيضين ، فوارق وسيطة كثيرة .

لم يصب اليونان سوى النزر اليسير من عطاء الطبيعة . وكذلك لم يتساو
إسهام الاغريق
في نمو الشرق الاقتصادي
هذا العطاء في جميع مناطق الشرق : فقد قامت فيه جبال محدبة
ومناطق صحراوية او بورية . غير ان المناطق الحصيبة لم تكن قليلة
فيه : فنظر اليه فاتحوه بسببها نظرهم الى جنة نعيم . فعمدوا ، اوّل ما عمدوا ، الى النهب والتبذير .
ثم جاء الاستثمار المنظم ، وركزوا الى الاستفادة من الثروات الطبيعية وتجديدها وفاقا لتعاقب
الفصول .

لم يكن كلّ شيء بدائياً في هذا المجال . ففيما خصّ بعض اشكال الحياة الزراعية على الاقل ، ولا سيما تلك التي استخدمت الري ، وحتى فيما خصّ بعض التقنيات المهنية ، ولا سيما صناعة النفائس والاقمشة والمصوغات والزجاجيات ، لم يكن الشرق دون اليونان تقدماً ، لا سيما وان اليونان لم تعوّض عن كل تأخيرها على الرغم مما حققته من اقتباسات خلال العهد القديم . ومع ذلك فان كفة الميزان اليونانية كانت راجحة بشكل واضح . فاسهم الاغريق الى حدّ بعيد في نمو الشرق الاقتصادي .

فقد وفرت سيطرة الملوك الهلنيين ، اولاً ، ان لم يكن السلم الشامل ، فاقله سلماً اقلّ نقصاً . سبق للامبراطورية الفارسية ان تعرضت لاكثر من ازمة داخلية ، كانت نتائجها الثورات والحروب والضرائب . وحدثت ازمات اخرى زاد من خطورتها تنافس الملوك ودسائسهم وحملاتهم العسكرية وحتى غزوات « البرابرة » من امثال الغاليين الذين اتوا في اوائل القرن الثالث

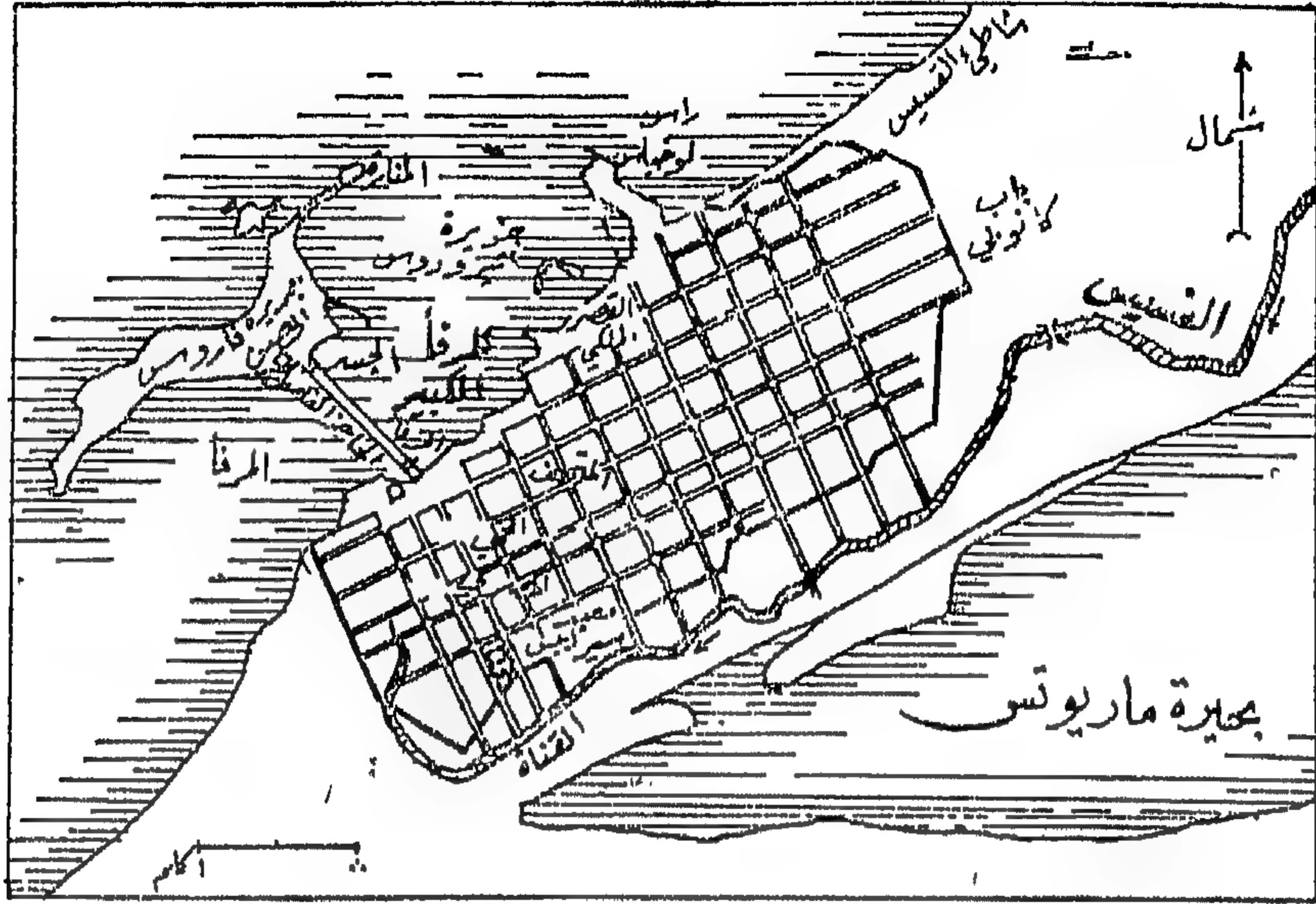
وأستقروا في قلب آسيا الصغرى حيث غدا سجنهم شغلا شاغلا خطيرا للسكان المجاورين. ولكن الامن ، على الاجمال ، كان اعم منه في الماضي .

سهل هذا السلم التسيي عمل الادارة الخيرة . لم تبلغ الإدارة اليونانية يوماً الكمال التام ، ولكنها برهنت ، دون كبير عناء ، عن انها ادقّ من الادارة الفارسية وافضل منها فنياً : فلم ترتبط الادارة الفارسية عملياً ، في النهاية ، سوى بالمرازبة ، الاقطاعيين الايرانيين الذين تراخت رقابة الملوك الاولى عليهم . واستعادت بلاد بابل ومصر ، بنوع خاص ، النظام الطبيعي والتنظيم الضروري لحسن استعمال مياه انهرهما ولاستثمار خصبهما الطبيعي استثماراً منطقياً .

ترتب على الادارة اليونانية واجب اول طبيعي هو انشاء او اصلاح وسائل المواصلات . فبدون هذه الوسائل تصاب السلطة الملكية بالشلل ؛ وبدونها تتوقف التجارة أيضاً . فرمت الأقنية والجسور والطرق التي تضررت كثيراً بفعل الاهمال والفوضى السابقين . وتتوفر لدينا ، في هذا النطاق وغيره ، المعلومات الكثيرة ، لا سيما حيال مصر ، بفضل استخدام البرديات وحفظها : عناية بأقنية الري القديمة وحفر أقنية أخرى جديدة ؛ تجديد العمل في الاراضي المهملة ؛ توسيع الاراضي الزراعية ، لا سيما في الفيوم ؛ بناء الارصفة والسدود والأنابر والمخازن ؛ اكمال أو إعادة فتح القناة التي تصل دلتا النيل الشرقية بخليج السويس ؛ انشاء ورقابة طرق القوافل التي تجتاز الصحراء العربية حتى البحر الاحمر ... الخ .

يدل هذا التعداد الممكن إطلاته ان الملوك قد اقتصروا في أغلب الاحيان على ترميم أو متابعة عمل أسلافهم القريبين أو البعيدين ؛ فنحن نعلم أنه سبق للإنسان ، في عهد السلالات القديمة جداً ، ان اخذ يحسن في الفيوم الاراضي الجديدة للزراعة . ولكن الاغريق أحدثوا أشياء جديدة أحياناً بفضل تقنية وعلم مهندسيهم الذين برهنوا عن مقدرتهم في بلادهم ووجدوا هنا الآن اليد العاملة والمال بوفرة كلية . كانت المرافق بنوع خاص أحد تحقيقاتهم الرئيسية : مرافق عديدة على كل الشواطىء حميتها وحسنتها انشاءات ضخمة احياناً على غرار رصيف ساموس الذي أحدث منذ القرن السادس . ولعل أهم نجاح في هذا المجال انشاء مرفأ لا بل مرافق الاسكندرية . فعند رأس جزيرة فاروس شيدوا برجاً يبلغ علوه ١٢٠ متراً تشتعل فيه نار يراها البحارة على ابعد من خمسين كيلومتراً ؛ وان شهرة هذا البناء ، الاول من نوعه حتى ذلك العهد ، قد حوّلت اسم الجزيرة الى اسم نكره (*Pharo*) . وقد وصل الجزيرة باليابسة سدّ يتجاوز طوله ١٢٠٠ متر ترك عند كل من طرفيه ممر للمراكب يعلوه جسر ، فتكوّن بهذه الطريقة مرفأً واسعاً ومجهزاً بالارصفة . كما وصلت إحدى الأقنية بحيرة داخلية بالنيل . وهكذا فان المهندسين اليونانيين قد حققوا ، قبل المهندسين الرومان بزمان بعيد ، اموراً عظيمة اثار دهشة العالم القديم وكانت له مثلاً يحتذى به . وفي هذه الامور دليل على عظمة اتساع مجهود التجهيز الذي بذله في الشرق اسياده الجدد والذي لم يلبث اثره ان برز في نشاط الحياه الاقتصادية .

كانت اقامة المهاجرين الاغريق في الشرق وتأسيس مدن كثيرة جديدة كسباً آخر للتجهيز الاقتصادي ، اقله من بعض الواجه . فالاغريق ، على العموم ، وفروا الاجهزة الفنية لاستثمار الموارد الطبيعية استثماراً افضل . اما المدن فقد غدت اسواقاً ومراكز تجارية في مناطق كثيراً



الشكل ٢٦ - الاسكندرية الحديثة
القسم الاخير من القناة غير معروف ؛ ولا نعلم الى أي المرفأين كانت تنتهي

ما كانت محرومة منها . واشترى سكانها المحاصيل الزراعية من الارياف المجاورة التي ارتفع انتاجها بفضل هذه الاسواق الجديدة ، بينما قدم صناعيو المدن للريفيين مصنوعات عملهم . فبلغت اراض كثيرة ، لا سيما في آسيا ، مستوى اقتصادياً ابعد تطوراً واعظم نشاطاً .

ادخل الاغريق ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، وبفعل مجرد وجودهم وحاجاتهم واقامة العلاقات مع البلدان النائية ، طرائق استثمار بمجولة ، او حسنوا الطرائق القديمة . فأخذت زراعة الكرم تنشر في كل مكان تقريباً ؛ اما زراعة شجرة الزيتون ، المتعدرة في وادي النيل ، فقد انتشرت الى حد بعيد في آسيا الصغرى . وقد اظهر ملوك عديدون اهتماماً بالغاً لهذه الامور العملية . فاشرفت الادارة في مصر على زراعة الاشجار وقدمت بذار القمح الاجنبي الممتاز ؛ واصدر احد الملوك امراً الى احد المقربين اليه بالسعي سعياً حثيثاً منظمًا للحصول على موسم سنوي ثان ؛ واستحضر احد كبار الملاكين ، وهو موظف ذو نفوذ ايضاً ، من آسيا الصغرى ، اغناماً اصيلة ورعاة اختصاصيين . وقد احتفى احد الملوك الاطاليين ، في جبال « إيدا » الحرجية ، التي استخرجت منها اخشاب وصمغ بطمية شهيرة ، بـ « الصنوبرة العظيمة » التي يبلغ ارتفاعها ٢٠

متراً ودائرة جذعها ٧ أمثار ؛ واشترى آخر ، بأسعار مرتفعة جداً ، خنازير ذات قسامات وأوزان استثنائية ؛ ونشر ملك ثالث « بحثاً في الحقائق » مكرساً لعلم النبات وللأشجار المثمرة بنوع خاص . وكان لجميع السلالات مصانع ملكية حيث تعنى اليد العاملة الفدادية بإنتاج مصنوعات الفخفخة التي تغدو في الأساس من انتشار الأزياء . وكثيراً ما قورن هذا العهد بعهد المستبدن الواسعي العلم في القرن الثامن عشر : ان ما يدرر هذه المقاربة خير تبرير هو عناية الملوك الخاصة بنمو دولهم الاقتصادي .

مهما بلغ من جدة هذه الجهود وتنوعها ونشاطها ، فإن تقنية اثر العمل السياسي على العمل الاقتصادي ما زالت ، بسبب بدائيتها ، ابعد من ان تكون فعالة في جميع الحقول . وان العمل في حقل النقد قد فاق أهمية ، بنتائجه العملية ، جميع الأعمال الأخرى : ويمكننا الكلام ، في هذا المجال ، عن ثورة حقيقية . فالشرق لم يستخدم النقود الا نادراً قبل الاسكندر ؛ ولم تصرب الحكومات منها الكميات قليلة : حتى ان النقود لم تكن متداولة في مصر عملياً . فالملائق التجارية مع اليونان واجور المرتزقة هي وحدها التي اوجبت استخدامها ، وقد قامت القطع النقدية الاثينية - بصعوبة ، كما هو طبيعي - مقام القطع النقدية المحلية النادرة . وكان هذا النقص حاجزاً في طريق نمو المبادلات ، وبالتالي في طريق الانتاج . ولكن كل ذلك تبدل تبديلاً عميقاً في ايام الاسكندر وخلفائه الذين ألقوا في التبادل ، بفضل ضرب المزيد من النقود ، السبائك المكثمة على غير جدوى في مستودعات الملك الفارسي والاوناني والقرامد الذهبية والفضية الموجودة في المعابد . ولكنهم لم يحققوا يوماً وحدة عيار ووزن النقود . فساد في آسيا النظام الاثيني الذي اعتمده الاسكندر في مقدونيا ، بينما كان لمصر نظامها الخاص . غير ان تشابه النظام المصري بالانظمة الفينيقية والرودية قد سهل العمليات الحسابية التي تسبق المبادلة . وهكذا فقد هذا الاطاليون حذو المدن اليونانية في شاطئ آسيا الصغرى وضرروا ، وفاقاً للنظام الاثيني ، قطعاً نقدية كثيرة تبلغ قيمتها ثلاثة دراهم ولكنها توازي عملياً قطع الاربعة دراهم المصرية ، كما توازي قطع الثلاثة دنائير الرومانية . وقامت هنالك صعوبات أخرى كثيرة . فقد اضطر اللاجئون ، للحصول على معدن الفضة الذي افتقرت اليه مصر ، للجوء الى سياسة تجارية . وقد طرأ على نسبة القيمة بين المعادن المضروبة ، لا سيما بين الذهب والفضة المستخدمين للعلائق الدولية من جهة ، وبين النحاس للتداول المحلي من جهة أخرى ، تغييرات هامة عديدة . فقد انخفضت قيمة النقد النحاسي على الاخص في مصر حيث اكثر الملوك ، لتلافي عجز الخزانة ، من اصدار تلك القطع التي ألفها رعائهم البلديون فانتقلت النسبة الاولى ١/٦٠ بين الفضة والنحاس ، اكثر من مرة ، منذ السنة ١٦٠ قبل المسيح ، الى ٤٠٠ وحتى ١/٥٠٠ . ولكن نتيجة سيطرة الاغريق ، على الرغم من هذه السيئات ، كانت عظيمة على هذا الصعيد . فقد ارتد الشرق جميعه الى اقتصاد نقدي ، بينما لم تعتمد مناطق واسعة جداً في ما سبق سوى الاقتصاد الطبيعي والمقايضة . وجلي ان التجارة قد وثبت بفضل ذلك وثبة كبيرة الى الامام .

لذلك فان نمو الحياة الاقتصادية مما يلفت الانظار اذ انها قد بلغت نشاطاً
النشاط الاقتصادي :
الزراعة والصناعة
لم يسبق لها ان عرفت من قبل . غير ان المعلومات تعوزنا لوضع خريطة
للمحاصيل الزراعية . فيجب علينا ان نكتفي بذبوع البشارة الذي عبّر
عنه آنذاك في ما يمكن ان ندعوه اليوم بالكلام السائر ، وبالصادرات التي من شأنها ان تترك
مزيداً من الآثار في مستنداتنا . تفوقت مصر بوفرة الموارد التي حصلت عليها من ارضها .
وحري بنا القول انها تبدو متفوقة فقط لانه يجب علينا ان نأخذ بعين الاعتبار جهلنا المطبق
حيال بلاد البختيار التي نرجح انها كانت كثيرة الانتاج ، وجهلنا شبه المطبق حيال بلاد بابل ،
باستثناء ثروتها في زراعة النخيل والقمح . اما المملكة اللاجية فقد كان لديها كميات كبيرة من
الحبوب للتصدير ؛ والمحاصيل الارضية الوحيدة التي اضطرت الى استيرادها ، الى جانب الخشب
والمواد الصمغية الضرورية لاسطولها الذي لا وجود له في بلاد تفتقر الى الاشجار ، هي التمور
المشهورة او زيت الزيتون المفضل على زيت النباتات السنوية كالسمسم او الخروع . وتمتعت
حينذاك اشجار فينيقيا وسوريا بشهرة ستستمر قروناً طوالاً . اما المناطق الساحلية في آسيا
الصغرى فقد اضطرت الى استيراد القمح ، ولكنها باعت النبيذ والزيت والعسل ، بينما وجدت
المناطق الداخلية في تربية الغنم تكملة لانتاجها الزراعي .

كذلك لا تترامى لنا الصناعة الا من خلال صادراتها اي من خلال مصنوعات التزيينية .
وفي هذا الحقل ايضاً يتضح تفوق مصر الغنية بالمواد الاولية الثمينة وباليد العاملة الاختصاصية :
فهني تباع البردي الذي تكاد تحتكره احتكاراتاً ؛ وتبيع المصوغات والعطور والمنسوجات
والخزفيات والزجاجيات والبرونزيات . ولكن فينيقيا تنافسها في اكثر هذه المصنوعات كما
تنافسها « برغاموس » في الرق والخزفيات التي تقلد البرونز والعطور والمنسوجات التي تتخللها
الخيوط الذهبية والتي تلتجها المصانع الاطالية .

واليك مثلاً محسوساً ابلغ من هذا التعداد يريك وفرة الانتاج في الشرق . في اعقاب زلزال
دمر رودس حوالى السنة ٢٢٥ قبل المسيح تسابقت كافة الدول الهلينية في اظهار بواذر السخاء
نحو المدينة المنكوبة . فلنكتف باهبات العينية التي ارسلها الملكان اللاجي والسلوقي فوراً او
وعدا بارسالها في اجل قريب جداً . فقد قدم الاول ٤٠٠٠٠٠٠٠ ليتر قمحاً ، وكمية من
الخشب تكفي لبناء ٢٠٠٠٠ مركباً و ٢٠٠٠٠ متر من عوارض خشب الصنوبر و ٣٠٠٠٠ ورنه من
الدار و ٣٠٠٠ قطعة قماش للأشعة ، وقدم لاعادة صنع « الجبار » ٣٠٠٠٠٠٠ مثقال من البرونز ،
بالاضافة الى مساهمة ١٠٠ مهندس و ٣٥٠ مدير اشغال ، كما قدم ٨٠٠٠٠٠٠ ليتر قمحاً للمباريات
المقدسة والذبائح و ٨٠٠٠٠٠٠ لتغذية بحارة عشرة مراكب . وقدم سلوقس الثاني من جهته ،
بالاضافة الى عشرة مراكب مع عدتها ٨٠٠٠٠٠٠ ليتر قمحاً ، و « خشباً وقطراناً وشعراً تبلغ
عدة عشرات الآلاف من الاذرع وعدة ألوف من الوزنات » . فيمكننا انطلاقاً من اهمية هذه
الهبات ان نقدر اهمية الانتاج والصادرات .

النشاط الاقتصادي : التجارة
كفى كل هذا لتغذية تجارة ناشطة جداً . ولكن التجارة قد فقدت ميزتها الخاصة في الوقت الذي تطورت فيه . ففي المتوسط الشرقي عجزت الزراعة والصناعة اليونانيتان عن الوقوف في وجه منافساتهما التي لم يعوزها من قبل سوى التجهيز والتقنيات ، وهي التي وفرها لها الاغريق انفسهم . والشرق الذي كان حتى ذلك العهد سوقاً لمصنوعات اليونان القديمة قد اقفل لأنه غدا يسد بنفسه اغلب حاجاته . لا بل اصبح باستطاعته ان ينافس المصنوعات المحلية في اليونان نفسها . اضع الى ذلك انه تعلم كيف يلجأ مباشرة ، دون وسيط اجنبي ، الى المبادلات التي استلزمها فائض انتاجه . فجاءت النتيجة ثورة تجارية حقيقية كانت أثينا اولى ضحاياها .

استمرت اليونان في الاستيراد ، أقله في استيراد الحبوب ؛ ولكن صادراتها تدنت ، ولم تعد تجارة بحر إيجه وقفاً على اسطولها . لا بل ان هذه التجارة قد انتقلت بمعظمها نحو الشرق وأمست تسير في اتجاهين ، شمالي جنوبي وجنوبي شمالي ، بين البحر الاسود ومصر بمحاذاة الشواطئ الشرقية . واستيقظت المرافئ الآسيوية من سبات عميق ولعبت رودس دور الوسيط بفضل موقعها عند ملتقى كافة الطرق البحرية : وقد أطلق على جزيرة في أحد مرفأي الاسكندرية اسم « انتيرودس » أي مقابل رودس . ولكن الاسكندرية ، بنوع خاص ، عرفت نشاطاً غير مألوف غربي الدلتا . فبفضل تيار بحري قريب من الساحل حماها من غزو الرمول الرسوبية ، وبفضل اتصالها بالنهر الكبير الذي هو شريان مصر كلها ، غدت مرفأ مصر الوحيد ومركز جميع المبادلات الخارجية . فكل ما يخرج من مصر أو يدخل إليها يجب ان يمر في أرصفتها ، وإليها تنتهي ومنها تتفرع الملاحة الداخلية التي كان من شأن سهولتها ان تفوقت مصر تفوقاً عظيماً على منافساتها . كان عمر الاسكندر أربعاً وعشرين سنة حين أصدر امره بتأسيس الاسكندرية : ففي ذلك اليوم ، كما في أيام كثيرة من حياته القصيرة ، غيّر وجه ومصير العالم الذي تناوله نشاطه .

ولكن المتوسط لم يحدد افق الشرق التجاري . فالاسكندر قد وسع هذا الافق بادفاعه حتى تركستان ونهر الهندوس والخليج الفارسي . أجل كانت الفتوحات العسكرية عرضة لزوال سريع : فقد اضطر خلفاؤه ، الى الشمال والشرق من ايران ، الى التخلي بسرعة عن بعض المناطق . وقد فقدت هذه المناطق النائية فقداً نهائياً منذ أوائل القرن الثاني ؛ ثم جاء الفارتيون من تركستان وتقدموا نحو الجنوب وأقاموا في بلاد بابل عازلين بذلك اغريق البختيار عن باقي العالم الهليني . ولكن هذا التراجع السياسي لم يحل دون استمرار العلاقات التجارية .

فقد اتاحت هذه العلاقات للمتوسطين الحصول على المصنوعات النادرة التي طبعت بطابع العظمة حياة العلية من الطبقات الاجتماعية . ربما كان من الممكن استحضار بعضها من افريقيا الوسطى ايضاً ، كالعاج والاششاب النادرة ، ولكن نقلها عن طريق المحيط الهندي كان اسهل

منه عن طريق الصحراء او السودان . وقد وفر عالم الشرق الاقصى للمناخي عطور وبخور البلاد العربية وآلىء الخليج الفارسي وآلىء الهند الجميلة والماس والحجارة الكريمة . ثم ظهرت الافاويه فأحرزت نجاحاً مطرداً . واستورد القطن بكميات ضخمة ، والحرير ايضاً الذي فاق ما كانت تنتجه دودة برية هنا وهناك ؛ وقد نسج الحرير في صور وفي جزيرة كوس فأعجب به كل ذي ذوق مرهف ولكنه اخذ ، يوماً بعد يوم ، ينفّر الغيارى على الاخلاق . ولم يكن لدى العالم المتوسطي شيء يبيعه بالمقابلة ، سوى الاقمشة الملونة وانتاج صناعته الرائجة . ولا شيء من هذا يصدر بعيداً على العموم ، على الرغم من توفر الادلة على وصول الاقمشة السورية الى بلاد المغول . ولكن العجز يسد بتصدير النقود ، فتكون منذئذ وضع سيستمر حتى في العهد الروماني .

بيد ان هذه التجارة كانت جزيلة الفائدة لجميع المعنيين ، لا سيما للوسطاء ، على ما نرجح . وقام تنافس شديد بغية الاشراف على طرق هذه التجارة ، وحاولت كل بلاد ايصال هذه الطرقات اليها ، لتأمين الخامات الثمينة ولجني الارباح الطائلة من اعادة توزيعها او تحويلها . وقد تعددت هذه الطرقات . ولم تكن الطريق البحرية في ايدي الاغريق لأن اكتشاف الرياح الموسمية لن يحصل الا بعد زمن . فقد سيطر عليها البحارة العرب ، وحاول البطالس توجيه معظم تجارتها نحو مرفئهم في البحر الاحمر ، وغالباً ما افلحوا في محاولتهم ، بينما عني السلوقيون ، في اقصى الخليج الفارسي ، بمرفأ « الاسكندرية خار كس » التي سيطر عليها فيما بعد اسم انطاكية . وكانت هنالك طريق برية تمر في تركستان وتبلغ بحر قزوين ثم تنتهي الى البحر الاسود بعد ان تجتاز اودية القفقاس : ويبدو انها قد اُهملت . وانطلقت الطريق البرية الرئيسية من البختيار وانتهت ، بفضل القوافل الايرانية ، الى بلاد بابل . واسس السلوقيون هنا مدينة « سلوقية دجلة » التي هي عاصمتهم الشرقية والتي استخدمت مستودعاً لكل البضائع التي تنقل براً او بحراً . ثم تفرعت الطرقات نحو الغرب . ولكنها تبعت كلها - بسبب قلة استخدام وادي دجلة وبلاد ما بين النهرين العليا - مرحلة مشتركة هي وادي الفرات الذي سارت فيه صعوداً مسافات تتفاوت طولاً وقصراً . وقد افترق بعضها بسرعة عن هذا الوادي واجتازت الصحراء التي اخذت تزدهر فيها « مدن القوافل » واتجهت بخط مستقيم نحو مرفأ فينيقيا . وافترقت طريق اخرى عن الفرات في سوريا الشمالية واتجهت نحو انطاكية ، عاصمة السلوقيين الغربية ، ومرفأ « سلوقية بييريا » . واتجهت اخيراً اطول هذه الطرق الى ميله وافسس بنوع خاص ، على بحر ايجه ، مروراً في كيليكيا ووسط آسيا الصغرى . فأثارت هذه النقاط المتوسطية التي انتهت اليها الطرقات اطماع الدول المختلفة : فقد تنازع اللاجيون والسلوقيون بعناد السيطرة عليها . وكانت الغلبة للسلوقيين طيلة القرن الثالث . فسيطروا اذ ذاك على سوريا الجنوبية والشاطئ الفينيقي ، كما سيطروا على سلوقية بييريا حوالي ثلاثين سنة . اما في الشمال ، فانهم قد أمنوا ، حين لم يسيطروا مباشرة ، حماية او تحالف معظم الطريدة الساحلية في آسيا الصغرى . ثم قلب السلوقيون الموقف رأساً على عقب ، واذا طردتهم روما من آسيا الصغرى لمصلحة الاطاليين ، فانهم قد احتفظوا ، حتى

الفوضى النهائية ، بسوريا وفينيقيا. واستهدفت حروب كثيرة فتح او اقفال نوافذ آسيا على البحر المتوسط : فقد حرص الملوك على الاشراف على المرحلة الاخيرة من التجارة مع الشرق البعيد بالإضافة الى العلائق المباشرة مع اليونان القديمة .

وفي ذلك ما يلفت النظر الى صفة بارزة من صفات الحياة
الاقتصادية في الملكيات الهلنسية . ففي كل الحقول تلقى
الانتاج والمبادلات احثاثاً قوياً كانت نتيجته نمواً عظيماً .
ولكن الدولة تدخلت في كل مكان لتوجيه هذا النمو توجيهاً يتلاءم ومصالحها .
رجحان السياسة على الاقتصاد :
الملوك يضعون يدهم على الحياة الاقتصادية

كانت هذه المصالح ، في أغلب الأحيان ، أميرية ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، تستهدف زيادة دخل الضرائب او إقامة احتكارات لمفعتها الخاصة أحياناً . وكانت أحياناً تجارية أيضاً تستهدف زيادة المخزون من المعادن الثمينة في أراضي الملكية . فان زيادة انتاج بضائع الاستهلاك لا تهم الملوك إلا بالنسبة لحاجات الاغريق الذين رغبوا في إرضائهم لاجتذابهم اليهم او لابقائهم على مقربة منهم ، ولكنها لا تهمهم بالنسبة للجماهير البلدية . وكان المهم في نظرهم ، كما كان في نظر المستبدين المستنيرين من قبلهم ، الموارد والمصنوعات المعدة للتصدير التي يجب الحصول عليها بأدنى سعر ممكن ، كي يستطيعوا التغلب على المنافسة . فلم يستهدفوا اذن رفع مستوى حياة الطبقات الريفية الدنيا ، التي تؤلف سواد رعاياهم : فإن إبقاءه منخفضاً ، على نقيض ذلك ، شرط لسعر الكلفة المنخفض . وقد سبق ورأينا ان هذا المفهوم الضيق كان نكبة للاقتصاد اليوناني ، فسبب أيضاً ضعف السيطرة اليونانية على الشرق . فلم يكن الشرق ، في نظر الملوك ، سوى ارض للاستثمار سعوا جهدهم ، بتحسين المناهج ، الى زيادة دخلها بغية زيادة وسائل عملهم السياسي . وقليلون جداً هم الملوك الذين لم يكتبوا بالدخل المباشر القريب ، بل فكروا بالمستقبل : ولعلمهم السلوقيون دون غيرهم ؛ ولكن الهزائم التي منوا بها لم تسمح للمستقبل بأن يبرهن انهم كانوا على حق .

لم يبلغ الاهتمام بالدخل المباشر القريب وتحسين مناهج الاستثمار في أية ملكية ، ما بلغه عند اللاجين . فقد اقاموا في مصر نظاماً يصح في تحديده التعبير « اقتصاد مباشر » بالتفضيل على « اقتصاد موجه » ؛ والمقصود بذلك اضيق تدخل دولي مباشر لا يهتم إلا لجباية الاموال الاميرية . وقد مهدت الطريق امامه كل تقاليد البلاد الناشئة من الظروف الجغرافية نفسها التي فرضت وجوب مراقبة فيضان النيل والاستفادة منه الى ابعد حد ، وهو في الوقت نفسه علة ومعلول لانقياد الفلاحين المنظم . ولكن الملكين الاولين من الملوك البطالسة استفادوا منه بصرامة منطقية ومرونة في الابتكار ودقة في التنظيم تثير كلها دهشة المعاصرين الذين قطعوا ، على صعيد « الاقتصاد المباشر » ، المرحلة التي تجوز فيها الدهشة . فتوصلا ، لخير خزانتهما الاكبر ، الى التوفيق بين « التصميم » والسلطة والرقابة والتلزم والضرائب والاحتكار .

القسم الأكبر من مصر مُلك المليك المباشر . يلزم قطعاً صغيرة وفاقاً لدفتر شروط دقيق جداً ، ويستثمر ، فيما خص الرراعات الرئيسية ، وفاقاً لأوامر الملك . بحدد وزير الاقتصاد كل سنة المساحة الواجب بذرها في كل مقاطعة ، اقله فيما خص القمح والنباتات الزيتية والكتان . ويوزع الموظفون الاوامر العائدة للبذر بين المزارعين ويتأكدون من تنفيذها . وتسلف الدولة حبوب البذار . ويصدر الامر بجمع المواسم التي تحجز وتحزن في مكان عمومي تحت حراسة اشخاص مسؤولين يصادرون في كل قرية . وهكذا تحصل بالتفضيل حقوق الدولة بنسبة متساوية تحددها هي : إعادة البذار مع فائدته ، استيفاء المتأخرات المطلوبة للخزانة ، دفع الضرائب وقيمة التلزم . ثم يرفع الحجز ويستطيع الفلاح التصرف بما تبقى له . . . اذا لم يكن الصنف خاضعاً لاحتكار ما . وهناك في الواقع اكثر من احتكار ، لا على الحبوب ، بل على الزيت مثلاً الذي نعلم عن احتكاره الشيء الكثير بفضل برديّ يحمل نص امر صادر عن بطليموس الثاني . ويتضح من هذا الأمر ان الحبوب الزيتية يجب ان تباع كلها ، دون أي استثناء ، الى ملتزم وانه يحظر على الفلاح ان يفتني في بيته هاوياً او معصرة او اي شيء آخر من هذا النوع . وتخضع العمليات اللاحقة كلها ، منذ نقل الحبوب الى معصرة الزيت حتى بيع الزيت الى المستهلك ، مروراً بعملية السحق والنقل ، الى سلسلة من التلزمات التي تفرض عليها الضرائب واعمال الرقابة التي تعاقب ادنى مخالفة بالجزاء النقدي . اصف الى ذلك ان الدولة تحدد السعر في كل مرحلة من هذه المراحل فتستطيع من ثم ان تعين حداً ادنى لأرباح الملتزمين . فنتج عن ذلك انه كان بالامكان الحصول على زيت الريتون ، مع انه مستورد من الخارج ، بسعر دون سعر الزيت المحلي بمراحل ، لو لم تراقب الدولة استيراده وتفرض عليه رسوماً مرتفعة جداً .

تعطينا هذه الأمثلة من استعراض الاحتكارات والضرائب التي لا حدة لها . وهي تظهر ، بما فيه الكفاية ، ان الحياة الاقتصادية كلها في مصر اللاجية ترتبط بالملك ، وان نموها لا يفيد سوى الملك . وقصد يؤدي رضى الملك ، الذي يظهر باقطاعات عقارية قابلة الابطال توجب استثمار الاراضي الحديدية ، الى انراء بعض المقربين المحظيين . واستطاع الاغريق النشيطون الماهرون ، الذين لقوا كل ترحيب في المملكة ، ان يحصروا فيها بسهولة على قسط وافر من اليسار . ام الجماهير البلدية فقد اضطرت الى العمل كي توفر لسيدها سبل اثبات سلطته وسخائه ، في حال انها لم تتأكد يوماً من انها ستبلغ اوضع مستوى حياتي .

لم يبلغ « الاقتصاد المباشر » هذه الدرجة من الاحكام في الملكية الاطالية التي ارتفعت فيها ، على كل حال ، نسبة الاغريق والشرقيين « المستغرقين » الذين يصعب تطبيق هذه الاساليب الشديدة حيالهم . غير ان اختلاف الاساليب لم يحل دون وجود نرعة عامة بماثلة . ان المثل اللاجي لا يمكن تحقيقه الا في ارض الفراعنة : ويبدو ان الاطاليين قد حاولوا الاقتراب منه جهد المستطاع . فهم قد امتلكوا قسماً كبيراً من السهول واستثمروها بواسطة فلاحين فداديين

ينفلونهم من ارض الى ارض كما يطيب لهم . واقتطعوا قسماً من الحصاد في الاراضي المقطعة للفلاحين اليونانيين . وفرضوا اموالاً اميرية باهظة حتى على المدن اليونانية التي حدث ان حجزوا ممتلكات معابدها مقابل مساعدة سنوية للخدمة الإلهية . وكان لهم مصانع ملكية يعمل فيها العبيد رحالا ونساء . وتصردوا بمواد، خامية او مصنوعة، اتجروا بها او وزعوها لدعم دعاوتهم ودبلوماسيتهم . فلم تستطع الطبقات الاجتماعية الدنيا عندهم ، كما عند اللاجئين ، ان تشعر بأي تعيير في مصيرها المادي ، بفعل السيطرة اليونانية ، غير وطأه ادارة اشد حرصاً على مصالح الملك المباشرة واكثر دقة في تحصيل مطالبها .

لا نجد التراخي في هذا المجال الا عند السلوقيين . ولا يعني ذلك ان هذا المثل الأعلى بالغريب عنهم . فمن حيث هم ملاكون كبار ايضاً ، فان لديهم وكلاء يراقبون اسثمار اراضيهم بواسطة فلاحين مرتبطين بها . وقد حصلوا ، اقله في بعض المناطق ، كبلاد بابل التي تتوفر لدينسا المسنندات حيالها ، ضرائب تستلزم رقابة الاسخاوص والمواشي والاشجار والحاصلات وكافة المبيعات . فلم يأنفوا اذن من رقابة النشاط الاقتصادي رقابة شديدة . ولكن اتساع رقعة مملكتهم قد وفر لهم دخلاً كبيراً دون اللجوء الى الرقابة التي لجأ اليها اللاجئين . لا بل ان مملكتهم اوسع من ان يكون ذلك ممكناً ، لانه يفرض عليهم اختصاصيين وموظفين كثيرين جداً . فاضطروا والحالة هذه الى تنازلات عديدة تاركين لجماعات بشرية مختلفة حياتها الاستقلالية شريطة دفع ضريبة اجمالية سنوية هي رمز خضوعها . ويبدو ، حتى في الاراضي الملكية ، ان ادارة قرى الفلاحين لم تكن ضيقة ولا مزعجة . ونمت ، بقسط اوفر من الاستقلال ، السكان المرتبطون بالامراء ذوي الاخاذات او بالمعابد التي يدير كهنتها « الارض المقدسة » ، وخصوصاً « القوميات » المحلية التي سارت في حياتها ، كاليهود مثلاً ، على شرائعها الخاصة ، اي وفاقاً لتقاليدها ، والمدن ايضاً يونانية كانت أم غير يونانية . اجل قد يحدث ان تلج الحاجة الى الضرائب وان يفرض تموين الجيش ، مثلاً ، بعض المساعدات العينية ، او ان يقرر الملك مؤقتاً ، بسبب حاجته الى المال ، وضع اليد على كنز معبد من المعابد . ولكن ذلك لم يعتمد قاعدة ولم يصطبغ بصبغة النظام اللاجي : فليس ما يقيد عمل الرعايا اليومي بتنظيم دقيق معد للتهديد لما يشبه مصادرة ارباحهم .

٤ - الاتصال بين المجتمعين

من المحم ان يترك هذا الخلاف اثره في الحياة الاجتماعية . اجل باستطاعتنا ان ننظر الى هذه الحياة من زوايا عديدة . ولكن الجدة الكبرى ، في هذا النطاق ، مردها الى دخول الاغريق بين الاجانب بنسبة متزايدة الارتفاع . فقد برزت من ثم معضلة عظيمة الاهمية هي معضلة الاتصال بين حضارات متباينة الجوهر واستساغة جماعة بشرية لجماعة اخرى وتبادل التأثيرات والانفعالات . غير ان معطيات هذه المعضلة تختلف اختلافاً كلياً اذا الملك شجع هذا الاتصال وهذه الاسساغة او لم يشجعهما .

انما المقصود هنا هو المدينة اليونانية .

المدينة اليونانية
والمواطنون الاصليون

لا يستطيع الملوك الهلينيون ، لاجتذاب الاغريق الذين لا غنى لهم عنهم ولإبقائهم عندهم ، ان يكتفوا بتأمين الفوائد المالية لهم . فالاغريقي لا يشعر حقاً انه في جوفه إلا كمواطن في مدينة ، اي ليس فقط كساكن مدينة تتوفر فيها بعض الابنية والتجهيزات المادية ، بل ايضاً كعضو ، بكل ما للكلمة من معنى قانوني ، في جماعة تدير شؤونها بنفسها : بهذا الشرط وحده يمكنه ان يتوق الى تحقيق المثل الاعلى للانسان الذي يكن في جوهر مثله الاعلى للحضارة . ويهنا هنا ، دون ان نعود الى امر العلاقات السياسية والادارية بين المدينة والسلطة المركزية الذي يطرحه هذا المثل الاعلى على بساط البحث ، ان نستخلص نتائجه حيال المجتمع البلدي .

تريد هذه المدن ان تكون ديموقراطية ، وهي ديموقراطية في الواقع . ولكن كما ان المبادئ ذات الاهمية العالمية في الظاهر لم تتناف ، في المدينة الديموقراطية الاولى التي هي أثينا ، مع وجود الاجانب المقيمين والعبيد ، كذلك لم ير الاغريق ، في المدن التي أسست في الشرق ، ضيراً في ان يوجد الى جانبهم في مدنها نفسها ، سكان ينتسبون الى طبقة اجتماعية يعتبرها القانون متدنية . ومعظم هؤلاء السكان عملياً من البلديين المنقطعين للمهن المدنية الحقة وللأعمال الزراعية في الاراضي الريفية التي تمتلكها المدينة . ولهذا التخلف القانوني ما يبرره في نظر الاغريق التخلف الحضاري ، وقد وجدت فيه غطرستهم ومصالحهم ارضاء كافياً لكي ينتقلوا من فكرة الحضارة الى فكرة العنصر : فالبلديون ، بالتحديد ، أدنى من الاغريق وعليهم ان يخدموهم كما يخدم العبيد اسيادهم . تلك هي العقيدة الصافية التي طلع بها العهد الكلاسيكي والتي تركت رواسب عملية كثيرة في العهد الهليني على الرغم من بروز مثاليات تناقضها تناقضاً كلياً .

ولكن الاتصالات تتم على الرغم من كل شيء . فالرجال بين الاغريق أنفسهم كانوا الى حد بعيد أكثر عدداً من النساء : فاقتضى في أغلب الاحيان السماح بالزواج المختلط . اصف الى ذلك ان الحياة اليومية جعلت الشرقيين الذين يعيشون في المدينة يحتكون ، احتكاكاً على الاقل ، بالحضارة اليونانية . وألف الاغريق في المدينة بوجوازية تسيطر الامور على هواها ويقتفي الآخرون أثرها في اللغة والزي والعادات . وتوصل البلديون أحياناً الى دخول بعض الجمعيات والى ادخال اولادهم في الاندية الرياضية التي توزع فيها التربية اليونانية الاصلية . وفي الظروف الملحة ، كالحرب او تدني نسبة الاغريق مثلاً ، استفاد بعضهم ممن تخلقوا بالاخلاق اليونانية من الترفيع رسمياً الى مستوى اعلى بما فيه مستوى المواطنة . اصف الى ذلك ان الملك ، دون ان يتقيد بهذا الشرط ، قد لمس فيهم معاونين جليلي الفائدة فعطف عليهم ورفعهم احياناً الى اعلى المراتب .

كان قيام المدن اليونانية وتعددتها ، بالضرورة ، اذن ، عاملاً قوياً من عوامل نشر الحضارة

اليونانية . ولكن ذلك لم يكن كله لمصلحة الملوك . فالمدينة تولت شؤونها الخاصة ، مما بسط جهاز ادارة الدولة ؛ ولكن ذلك لم يعف من مراقبتها وحتى التفاوض معها ، مما أخر تنفيذ الاوامر . ولم تنشأ ، مادياً ، اية مدينة حديثة الا بنفقات باهظة تتحملها في البداية الخزائنة الملكية . وكانت اراضيها تقتطع من الممتلكات المستثمرة لحساب الملك ، في حال ان الرسم السنوي الذي تدفعه يبقى ابدأ دون دخل هذه الاراضي فيما لو بقيت تحت تصرف الملك ؛ ناهيك عن الاحسانات التي سيري من الموافق فيما بعد ان يتكرم بها عليها . ثم ان البلدي « المستغرق » كان مدعوا ، عاجلاً أم آجلاً ، الى ان يصبح يونانياً ، مما يوفر عليه بعض الواجبات المالية ويخلصه من العبودية الاقتصادية التي كان نظامه السابق يخضعه لها .

كان من ثم على الملوك الهلينيين ان يختاروا احد امرين : اما ترسيخ نتائج فتح الاسكندر عن طريق تشجيع « الاستغراق » بتعمير مملكتهم على الطريقة اليونانية ، واما الابقاء جهد المستطاع ، لا سيما بتحديد انشاء المدن الجديدة ، على الحاجز الفاصل بين المجتمعين مع فوائد ذلك للخزانة الملكية . وبديهي انهم لم يختاروا كلهم حلاً واحداً ، وباستطاعتنا ، انطلاقاً من النزعات الاقتصادية ان نستخلص نزعات السياسة الاجتماعية عند هذه السلالة او تلك . وهناك في الواقع نزعتان : نزعة اللاجئين ونزعة السلوقيين .

١ - الحل الايجي في مصر

احتاج اللاجئون الى الاغريق ، شأن الملوك الآخرين ، فاجتذبوهم الى مصر بتأمين تسهيلات المعيشة لهم ، وبتوفير اجور مرتفعة جداً احياناً اذا كان هؤلاء الاغريق موظفين او عسكريين ، اقله لكبار الرؤساء بينهم . وقد اختلفت علاقات هؤلاء الاغريق بالبلديين خارج المدن عنها في المدن نفسها .

قامت في مصر بعض المدن اليونانية اقتصرت فيها السلطة الملكية ، التي وضعت لها نظامها الاساسي والتي كان باستطاعتها تحويله ، على مراقبة الادارة التي هي مشتركة مبدئياً . وكانت الاسكندرية بين هذه المدن « على مقربة » من مصر لا في مصر نفسها . وألفت هذه المدن ، من الناحية النظرية ، مناطق حرّة داخل البلاد المصرية شعر الاغريق فيها كأنهم في بلادهم . وكان في عداد سكانها جماعات غير يونانية : اًجانب وخصوصاً يهود جاؤوا باعداد كبيرة لا سيما وان فلسطين قد خضعت للاجيين حتى أواخر القرن الثالث ؛ وبلديون أيضاً ، كما هو طبيعي ، حفظ لهم مؤسس الاسكندرية نفسه مكانهم يجعل أسوارها تضم قرية راكوتيس المصرية . وحدث من ثم في هذه المدن التطور المحتوم . فتأثرت العناصر غير اليونانية بسرعة بالحضارة اليونانية مما أرغم منذ البداية على محاولة الحد لا من اقامة هذه العناصر في المدينة بل من تسربها الى المجتمع اليوناني . وتتناول معلوماتنا الاسكندرية بنوع خاص حيث تجلّى الخطر جسيماً بفعل

نشاط الحركة التجارية التي توفر المزيد من ظروف العمل الحر . ولكن هذه المعلومات تكشف الستار عن ذهنية عامة . فقد حرّم الزواج المختلط بين الاغريق والبلديين وقسم سكان المدينة الى فئات متميزة أخضع الانتقال من احداها الى فئة اخرى لتنظيم شديد ليس الخداع معه بالامر اليسير . ولم ينسح حق « البورجوازية » بمعناها المصري دون احتياطات حتى للاغريق العريقين . وما لبثت الاسكندرية ان أمست احدى كبريات مدن العالم القديم ، فأمست بالتالي أكثرها هياجاً بسبب وجود القصر الملكي فيها وما يستتبعه هذا الوجود من صخب سياسي ، وبسبب تنافس الجماعات البشرية التي يبرز اتصالها اليومي الفوارق بين أوضاعها القانونية : وسيلنغ هذا الهياج ذروته في القرون الاولى بعد المسيح في الاضطرابات المعادية لليهود .

وتقع مسؤولية هذا الوضع في المدن على الاغريق أنفسهم اكثر منها على الحكومة بسبب تمسكهم بامتيازاتهم . ولكن الملوك من جهتهم يتحاشون زيادة عدد المدن اليونانية . فقد قام منها ، أولاً واخيراً ، ثلاث في مصر : نوكراتيس ، المستعمرة القديمة على الدلتا ، والاسكندرية التي أسسها الاسكندر ، وبطوليايس ، المدينة اللاجية الوحيدة ، التي أنشأها بطليموس الاول في مصر العليا . ولا يعقل ان يكون الملوك اليونانيون قد اكتفوا بهذا العدد إلا عن قصد وتصميم ، للحدّ من « استغراق » البلديين والحوّل دون قيام مناطق حرة كثيرة في مملكتهم تحدّ من سلطتهم المطلقة . فان رعاياهم يفلتون من أيديهم بعد ان يقيموا في المدن . لذلك بدا الابقاء على الوضع الاجتماعي لسواد المصريين شرطاً للابقاء على وضعهم الاقتصادي : فاللاجيون كانوا بحاجة الى يد عاملة يحصلون عليها ويسخرونها على هواهم .

ولكن وجد ايضاً اغريق في مصر في غير هذه المدن الثلاث . ولم يحدّ شيء من الريف حريتهم في الاقامة والانتقال . غير ان مشاريع الدولة الاحتكارية لم تفسح سوى مجال ضيق لاقدامهم ومبادعاتهم التجارية . لذلك فان اكثر الذين عاشوا في الريف المصري لم يأتوا اليه من تلقاء انفسهم : فالملك الذي يقدر تفوقهم التقني قد اقامهم فيه لاعتبارات مختلفة . وقد استخدمت الادارة ، التي لا تعترف بغير اليونانية لغة رسمية ، عدداً كبيراً منهم حتى في مراتبها الدنيا . وقد اقطع بعض المحظيين منهم اراضي واسعة نشطوا في استثمارها بمساعدة قيمين يونانيين وفاقاً لمناهج افضل . واعتمد اللاجيون اخيراً على نطاق واسع نظاماً استعماريّاً عسكريّاً لمصلحة الجنود اليونانيين في الدرجة الاولى .

ان هذا النظام يعفي الملك من دفع الاجور بين التعبئة والتعبئة . وله الفضل بالاصافة الى ذلك في ابقاء رجال الجندية الممتازين في مصر وفي حملهم على الزواج وانجاب الأولاد فيها . يبقى الجندي مرتباً بوحدة معينة من وحدات الجيش تحت امرة رئيس معين ولكنه في الوقت نفسه يتصرف « بقطعة » ارض تؤمن له زراعتها أوده وأود عائلته وحتى أود حصانه اذا كان فارساً . وتتفاوت مساحة القطعة بتفاوت مرتبته ومركز الوحدة التي ينتمي اليها .

وعلى الرغم من ارتفاع عدد هذه القطع في بعض المناطق لاسيما في الفيوم حيث افضت الاعمال الى توسيع رقعة الاراضي الزراعية ، فانها قد كانت مع ذلك منتشرة هنا وهناك يخضع توزيعها لعاملي الترفيع والشغور : ونادراً ما عاد التصرف بها لشخص واحد ؛ كما لم يكن من الضروري ، من جهة ثانية ، ان يتجاور فيها الجنود المنتمون للوحدة نفسها في الجيش . وتبقى الارض مبدئياً ملكاً للملك ولا يتصرف بها الجندي إلا تصرفاً مؤقتاً : عند وفاته تستعيد الادارة القطعة ويمكنها ان تسلمها لمن تشاء . ولكن تطوراً محتوماً أدى بسرعة الى التنكر لهذا الوضع القانوني . فالملك يكون سعيداً جداً في ان يبقى في القطعة الابوية ابن الجندي المتوفى شرط ان يصبح هو نفسه جندياً . وهكذا غدا الجنود رويداً رويداً يوصون بأراضيهم لأراملهم أو يرهنونها أو يبيعونها للغير : فأصبحت الارض المقطعة للجنود ، عملياً ، ملكاً خاصاً في النهاية .

وهكذا أقام الاغريق في أملاكهم في الريف المصري . عاشوا فيها بين البلديين ، وقد زاد من الاتصال بينهم انه تعذر تشييد بيوت جديدة كافية لجميع هؤلاء السكان الجدد . واستعمل الملك لساكنهم حقه في المصادرة : ففرض على ملاكي البيوت ان يتنازلوا عن نصفها للجنود ، تنازلاً مؤقتاً في البدء ما لبث ان اصبح نهائياً كتملك الارض المقطعة . واذا أدى هذا الوضع أحياناً الى تساكن حقيقي ، فانه كان أبعد من ان يجعل هذا التساكن ذا فعالية من حيث التقارب العنصري . اجل لم يبغض المصريون الاجانب بغضاً مبدئياً ، ولكنهم رأوا في هؤلاء الجنود دخلاء يحرمونهم من قسم من بيوتهم ، وزاد في حقدهم التصادم اليومي المتعدد الذي يسببه الجوار القريب : ولم يرضوا مرغمين بهذا التدبير إلا بعد زمن طويل .

اضف الى ذلك انهم نظروا الى الاغريق نظرتهم الى من يحسم ادارة مزعجة متطلبة يثقل ممثلوها المباثرون والملتزمون مطالبها بتجاوزاتهم . ومن حيث ان البلديين ، من جهة ثانية ، فاقوا الاجانب عدداً الى حد بعيد ، لم ينتشر الاستغراق انتشاره في المدن . لا بل غالباً ما تأثر الاغريق أنفسهم بالاخلاق المصرية ، لاسيما وان الزواج المختلط الذي حرّم في المدن ، قد سمح في الارياف في ما يظهر . ولكن نظاماً شبه مدني خاصاً بمصر ظهر مع ذلك ببطء ، أقله في القرى الكبيرة ، ولا سيما قواعد الاقسام الادارية الهامة : بورجوازية حاولت الاحتفاظ بطابعها اليوناني بفضل جماعاتها وتربية أولادها في الاندية الرياضية وبلغت تقريباً ما حاولته ، ولكن بكثير من الزيف والافساد .

من حيث ان الفلاحين لم يستغرقوا ، فانهم لم يخلصوا يوماً لسلالة كانت أبعد من الملكية اللاجية
ان تصبح سلالة قومية بسبب اعتدادها في الحرص على البقاء يونانية . ومهما والاجتمع البلدي
بلغ من امر انقيادهم السليبي ، فان هدوءهم كان منوطاً بالوضع المادي الذي يوفر لهم . وقد رعى الملوك ذلك ، وانسجماً منهم مع المثالية الملكية ، من جهة ثانية ، أوصوا عملاءهم بالعدل والسنزاهة وتقبلوا شكاوى رعاياهم وتباهوا بتقويم الاخطاء وبتوزيع السعادة .

ولكن شتان بين النظرية والواقع لأنه قام بينها هوّة لم يتح لتقنية الادارة اذ ذاك ان تزيلها . فلم تحمل الرقابات على انواعها دون تجاوزات الموظفين ولا دون اختلاسات ملتزمي الضرائب أو الاحتكارات المسؤولين شخصياً عن كل نقصان والمقضي عليهم من ثم بالافلاس اذا ما برهنوا عن نزاهة كلية . ومن حيث ان النظام الاقتصادي والمالي كان مصمماً بحيث لا يترك للبليدين إلا الحد الأدنى من كفاف العيش ، فقد آل مصيرهم الى بؤس لا يطاق بفعل التجاوزات أو القحط وكلاهما لا مناص منها بين آونة واخرى .

أخذت الآلة بالصريف باكراً جداً . فلجأ الفلاحون المصريون ، بصورة فردية ومتفرقة أولاً واكثر تواتراً ثانياً ، الى ابسط وسائل الاعتراض : الاضراب . وليس المقصود بالاضراب رفض العمل والبقاء في المنزل ، اذ ان للملك حق المصادرة والسخرة ، بل الاختفاء او الهرب الى مكان تجعلهم امتيازاته بآمن من ملاحقة الشرطة ، اي الى أحد المعابد على العموم ، فحاولت الادارة مكافحة ذلك بالحد من الحق الممنوح للمعابد في الحماية وبإضافة قسم على عقود العمل بمتابعة العمل حتى النهاية « وبلا متنازع عن الذهاب الى معبد إله او مذبح ملكي او مكان حماية او مكان محصّن » . ولكن ذلك لم يمنع انتشار المقاومة السلبية .

وقد حدثت في اواخر القرن الثالث واولئل القرن الثاني ، ثورات علنية في مصر العليا وفي الدلتا . وكان مصدرها ، كما يقول بوليب ، غطرسة المصريين الذين ارتكبت الدولة خطأ في تسليحهم وتدريبهم كالجندود المقدونيين لمواجهة ضرورات الحرب ضد السلوقيين والذين نسبوا لأنفسهم الفضل في احراز النصر . ليس من ريب في ان هذه التدابير العسكرية كانت بمثابة اعلان الانتفاضات . ولكن سبب الانتفاضات البعيد العميق كان وطأة الرسوم على انواعها التي اثقلت كاهل البليدين .

التف الثائرون حول زعماء اطلق بعضهم على انفسهم لقب الفرعون ، فعاقبهم اللاجيون عقاباً صارماً . ولكن ما ان تم اخضاعهم حتى عمد عدد من الملوك الى سياسة التنازلات ، لا سيما حيال الطبقة الكهنوتية التي اعادوا اليها امتيازاتها وتكرموا عليها بهبات سخية . ووسعوا مساحة الاراضي المقطعة للجندود المزارعين الذين من اصل مصري ، حتى دون الحاقهم بوحدات عسكرية ارفع شأناً عن طريق تغيير قوميتهم الرسمية . وخصوا ببعض الامتيازات المصريين الذين قبلوا بالاستغراق ، وقد بلغتنا اخبار بعض حالات ذات مغزى في هذا المجال . فاتخذ مصري يدعى « نختسافيس » اسم « مارون » اليوناني ثم حصل على لقب « مقدوني » . وقد حصل مصري آخر يدعى ديونيزيوس — بيتوساراييس على لقب « صديق الملك » . غير ان كل ذلك لم يكن سوى امور استثنائية . فالسواد الاعظم لم يؤخذ بهذه المغريات التي لم تغره قط . ولعله لم ير في مثل هذه التنازلات سوى دافع آخر جديد للاستمرار في تعلقه بتقاليده .

واذا حدث من جهة ثانية ان ضعف السلطة الملكية المتزايد ، الذي أدّى الى الفوضى الادارية

وعقم الانظمة الشكلية ، ، قد خفف من الظلم الذي شكا منه الفلاح ، فانه قد سهل في الوقت نفسه اختلاسات الموظفين التي ما زال الفلاح ضحيتها ، دونما ملجأ بعد بروز هذا الضعف . واستمر الهرب الذي غدا ، عند الريفيين المصريين ، تقليداً لم تقو روما نفسها على استئصاله .

يستحيل إذن نكران الفشل النهائي في كافة الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية الذي منيت به الادارة اليونانية في مصر : وكان بوسع روما ان تقطف هذه الثمرة الناضجة للفتح ، قبل ان تقدم على ذلك بزمان طويل . والشيء الخطر في هذا الصدد هو ان اسباب الفشل كانت داخلية بنوع خاص : فالصعوبات الجدية لم تأت من الهزائم التي اوقعها باللاجيين العدو الخارجي ، بل من داخل مصر ، لأن انضواء الرعايا لم يحصل . ورد بعض المؤرخين المتأثرين بالاقتصاد الحر هذا الضعف الداخلي الى مبدأ النظام المباشر والموجه نفسه الذي اعتمدته الملكية مثلاً أعلى ولكنه لم يلزم باستمرار الانسان ولا الأشياء . ان هذا الاستنتاج مغالى فيه اذا كان المقصود اعطاءه صفة الشمول والديمومة . فالاقتصاد اللاجى لم يكن بعد ليستطيع الحصول والاعتماد على جميع الوسائل التقنية ، البشرية والمادية ، الضرورية لبلوغ الهدف . فالأجدر ان يرد هذا الضعف الى التصميم على اقصى استثمار اناني الذي ساد تطبيق هذا النظام ، لأن اللاجئين لم يسعوا الا الى زيادة مواردهم المباشرة التي جنوها من احتلالهم ومن رعاياهم ، ولم يريدوا استخدام هذه الموارد الا لمصلحة الملك وسلطانه الذي هو اداة سياسته الخارجية بدلاً من استخدامها لرفع مستوى حياة المصريين اي لضمهم الى الاغريق تحقيقاً لمصلحة هؤلاء واولئك المشتركة .

٢ - الحل السلوقي في آسيا

كانت سياسة السلوقيين ارحب آفاقاً . ولعلمهم ادركوا مهمتهم منذ البدء ادراكاً يختلف عن ادراك السلوقيين . وهناك حالة عائلية سياسة السلوقيين الاقتصادية تقدم دليلاً ذا مغزى على هذا التباين . في السنة ٣٢٤ ارغم الاسكندر ، في « سوزة » ، ثمانين من كبار ضباطه على الزواج من نساء ايرانيات ، كما فعل هو نفسه . فكل الذين وصلتنا اخبارهم ابطلوا زواجهم بعد موت الفاتح ، متنكرين بذلك لسياسة الامتزاج التي ارادها الاسكندر ، ومرتدين الى عصبية عنصرية اكثر انسجاماً مع التقاليد اليونانية . ولم يشذ عنهم سوى واحد فقط هو سلوقس نفسه الذي كان مدعواً لأن يؤسس السلالة التي كان القسم الأكبر من آسيا الغربية من نصيبها . فهو لم يطلّق « افاميا » البختياريه او انه لم يطلقها الا في عهد متأخر ؛ واطلق اسمها على عدة مدن انشأها يكاد يوازي عددها عدد تلك التي اطلق عليها اسم والدته « لاوذيكي » ، كما سلّم مملكته الى ابنه انطيوخوس الذي انجبه منها . فلم يأنف السلوقيون فيما بعد ، اقله في بعض الظروف ، من تزويج بناتهم الى بلاطات ثنوية في آسيا الصغرى او التزوج من بنات هذه البلاطات التي لا ريب في انها استغرقت باطراد ولكنها من اصل محلي ، لا سيما اسرة الـ « متريدات » الايرانية ، اسياء كبادوكيا البونتيية . وليس من ريب في انها مصاهرات

دبلوماسية ، ولكنها تناقض بوضوح حرص البطالسة في العهد نفسه على نقاوة الدم التي كان من مبالغتهم في المحافظة عليها انهم رأوا خير حل لها في زواج الملك من شقيقته .

بيد ان الواجب يقضي بأن لا نبالغ في اهمية هذا التفرد من الوجهة العملية . وان هنالك في الحقيقة اسباباً اخرى لسياسة السلوقيين : فهي لا تخضع لمبادئ مقرررة في الحرية حددتها الوراثة خضوعها لضرورات ملحة . فالسلوقيون ايضاً يستهدفون الثروة للتمتع بالقوة . ولكن مساحة مملكتهم وعدد رعاياها ، وكلاهما يفوق مساحة وعدد رعايا مصر ، اتاحا لهم تأمين موارد كافية دون اثقال مطالبهم . اضاف الى ذلك ، وهذا هو الامر الجوهرى ، انهم لم يحكموا ، شأن اللاجئين ، شعباً واحداً ، واحداً بحضارته التقليدية ، ومرغماً على الوحدة بوحدة ظروف المعيشة نفسها وبالنظام الذي تفرضه عليه الطبيعة . فليس ما يشبه دولتهم في اختلاف عنصرياتها : الاغريق والاسيانيين والساميين والايانيين ، وكلهم شعوب يختلفون جنساً ولغة وديانة وتنظيماً اجتماعياً ومستوى تقنياً ونوع معيشة . القوة العسكرية واتفاق الظروف هما اللذان جمعا هؤلاء الرعايا المختلفين تحت سلطة سيد واحد . غير انه لا يعقل ان يتوق هذا السيد الى مراقبة حياتهم اليومية باقامة ادارة تتوفر لديها وسائل العمل والموظفون للسيطرة على هذا الواقع المتعدد الاجزاء ، فاضطر اضطراراً لاعتماد اساليب اخرى .

لا تترك اعمال السلوقيين مجالاً للشك حول الاسلوب الذي اعتمدوه بالتميز على غيره : نشر الحضارة اليونانية . فهم لم يروا فيها حضارة متفوقة تقنياً في الحقلين الاقتصادي والعسكري فحسب ، بل العاد الاكبر المشترك الوحيد بين رعاياهم . اجل بقي امامهم ان يحولهم اليها . ولكنهم لم يخشوا نتائج هذا التحويل بل شجعوه وفاقاً لحطة مرسومة بالاقدام على انشاء المدن وبالتأثير على النخبة الاجتماعية بين الشعوب البلدية .

بلغت جهودهم في سبيل « تمدين » مملكتهم على الطريقة اليونانية السلوقيون والاكثر من المدن شأواً بعيداً يقع في النفوس موقعاً جليلاً : وهم قد برهنوا في هذا المجال ايضاً ، وللأسباب نفسها ، عن تقيدهم بثقل الاسكندر ، ولكن بصورة اكثر ظهوراً واستمراراً منها في الزواج المختلط . ومن اشهر ما انشأوا مدينة « انطاكية - على - العاصي » في سوريا ، ومدينة « سلوقية - على - دجلة » في بلاد بابل . ولكنه من السهل علينا ان نذكر مدناً اخرى كثيرة ، ويعزو التقليد الى سلوقس الاول وحده تأسيس ٥٩ مدينة : ١٦ انطاكية (على اسم ابيه) و ٩ سلوقية و ٥ لاوذيكي الخ ... اجل قد خف هذا النشاط بعد ذلك ؛ ولكن انطيوخوس الرابع ، حوالى السنة ١٧٠ ، قد جدد بعض الشيء .

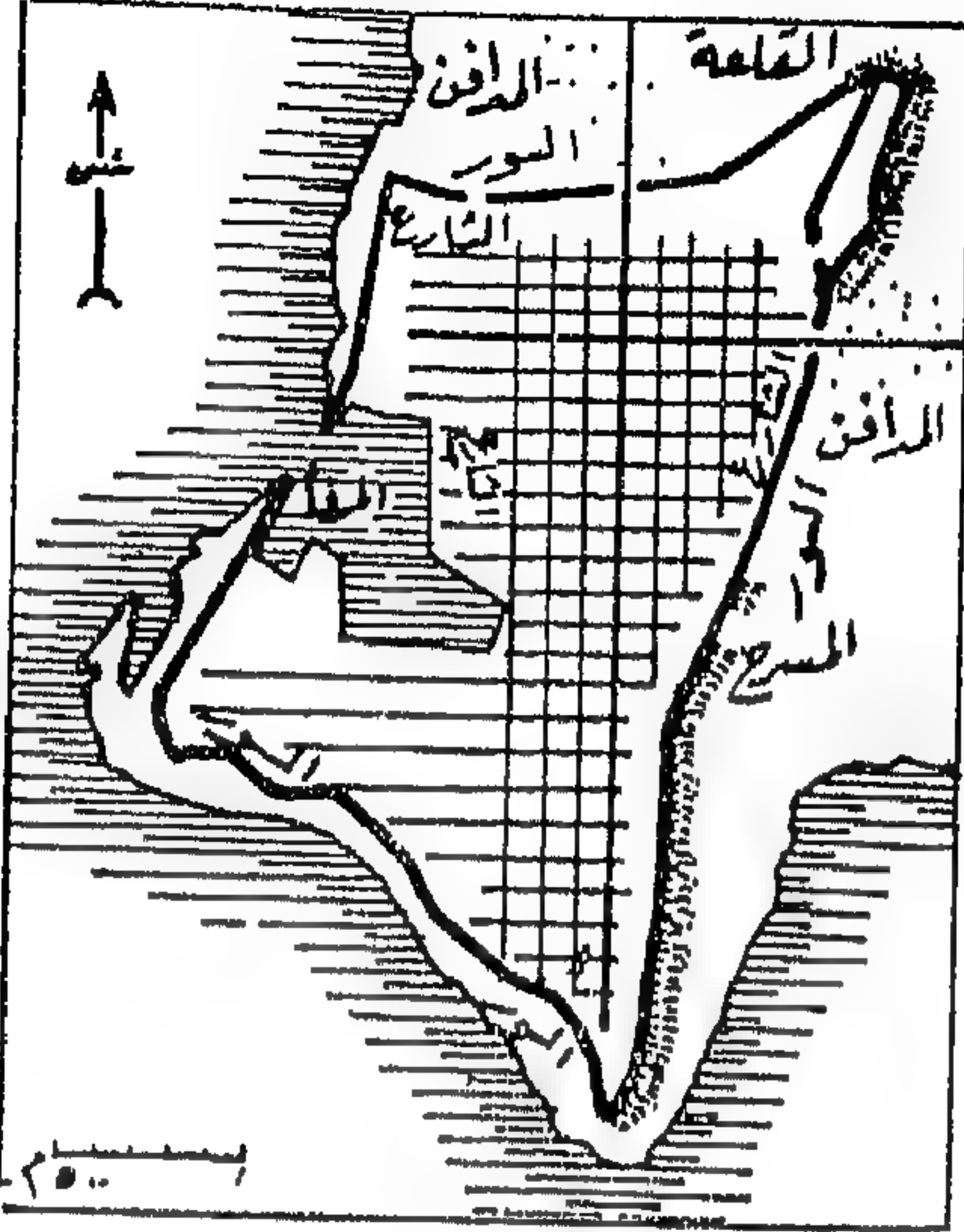
من الثابت ان الملكية قد سيطرت ، اقله في قسم كبير من القرن الثالث ، على الساحل الايجي في آسيا الصغرى الذي سبق له ان كان يونانياً او مستغرقاً ، وانها استطاعت بالتالي ، باكثر سهولة من المملكة اللاجية ، ان تجدد الاغريق في اراضيها نفسها : فعند ما رغب انطيوخوس

الرابع في توسيع مدينة انطاكية في بلاد فارس ، ارسلت له مدينة « مغنيزيا — على — مندريس » جمهوراً من المهاجرين المزارعين ، وهي نفسها التي ارسلت مهاجرين آخرين لتأسيس انطاكية في بيزيديا . ومن الثابت ايضاً ان عدداً من هذه المدن لم ينشأ من العدم ، اذ كثيراً ما يقصد بالانشاء ابدال اسم او وضع ، او رفع مدينة بلدية راهنة الى مرتبة المدن اليونانية . ولكن مهما بلغ من امر شكلية هذا الانشاء فانه قد انطوى دائماً ، اقله ، على اقامة سكان جدد ، اغريق او مستغرقين ، يكتسبون صفة المواطنين ويفقدون قوميتهم السابقة ، وما كانوا ، بالتالي ، ليرضوا بهذا التغيير لو لم يجدوا فيه افادة مادية ، اي ملكاً عقارياً في ما يعيننا .

لذلك يجب الا تستسهل الصعوبات التي تنطوي عليها سياسة تطبق بمثل هذا الاتساع . فحق اذا لم تكن المدينة جديدة بالكلية — وهذا ما نواجهه احياناً — فانها تخضع لبعض التجديد على الاقل : اذ ليس من مدينة يونانية لا تضم في وسطها أسواراً وحصناً وساحة عامة وشوارع ومعابد وأبنية عامة اخرى ؛ وليس من مواطنين اصليين دون بيوت وارض . وانما يقع عبء كل ذلك على الملك الذي يتخلى عن قسم من اراضيه ويتحمل نفقات التأسيس الأول . ولا نعجب من ان يكون التصميم على مثل هذه البساطة — مربعات هندسية تتفق على كل حال مع مبادئ التجميل الهليني منذ القرن الخامس — وان تكون قياسات الساحات العامة والشوارع موحدة تقريباً : ويجب ان نعتقد انه قد قامت ، في خدمة الادارة ، مكاتب دروس ومصالح هندسة عمارة نرجح ان مهامها كانت مرهقة لأنها حاولت ، بنجاح شبه دائم ، التوفيق بين الخطوط الرئيسية للتصاميم الموحدة وبين الظروف الخاصة بكل موقع . فكان المجهود المبذول عظيماً ؛ وعظيمة ايضاً كانت الكلفة التي جرّت اليها ضخامته ومدته في الارواح والأموال .

وبالاستطاعة تقدير تجرد هذا المجهود تقديراً افضل ، اذا لم ننس ان المدينة ، من حيث هي مدينة ، تتمتع بحد أدنى من الحريات الادارية والسياسية احياناً . فالملك ينشئ المدينة في اراضٍ تخضع لسلطته المطلقة : فهو يتخلى اذن ، لهذه الغاية ، عن قسط من سيادته . وغني عن القول انه لا يتوخى مما يقدم عليه مجرد الخسارة . فالمدينة الجديدة التي يقيم فيها حامية عسكرية تؤلف نقطة دفاعية يتوقف امامها غزو الاعداء . ثم ان المدينة تدفع له الجزية ؛ فهي تنشط الحركة الاقتصادية في المنطقة المحيطة بها ، فتزداد بالتالي الموارد الاميرية عاجلاً أم آجلاً . ولكن ذلك لا يوازي ما ينطوي عليه قيامها من انتقاص للسلطة الملكية التي تضطر لأن تحسب حساباً لجهاز يتمتع بنظام خاص ، بعد ان تكون من قبل سلطة مباشرة . فتزول الادارة المباشرة ويصبح على الملك ان يلجأ الى الدبلوماسية حيال رعاياه انفسهم . وحيث كان يكفيه ان يصدر أمراً لفرض ضريبة جديدة او طلب قرض او جمع متطوعين ، اصبح عليه ان يبرهن عن كرمه او ان يركن الى الحيلة للاحتفاظ بتأثيره ونفوذه وان يوجد التوازن في الاستقلال الممنوح للأجهزة البلدية برقابة « وكيل » وان يحاول ضمان ولاء وخوف المواطنين كي يفوز بأيديهم في

حالة الحرب او ان يتلافى ثورتهم فقط . لذلك فان نظام المملكة نفسه قد تبلبل وانقلب بفعل الاكثار من المدن . ولو ان « التحضير » على الطريقة اليونانية نفذ تنفيذاً كاملاً لأدّى الى جمعية من الدول الصغيرة المستقلة المتحاذية لا يكون الملك فوقها سوى عنصر توحيدى مهمته



الشكل ٢٧ - خريطة لارديكيا البحرية الساقية (وتعرف اليوم باسم اللاذقية)

الابقاء على الوحدة وادارة الشؤون العامة اي الدبلوماسية والحرب . ولعل السلوقيين تأقوا الى هذا الهدف توقاً لاواعياً على الرغم من انه لا يغري الملوك اصلاً .

غني عن القول ان المدن اليونانية والبورجوارية اليونانية في آسيا متباينة وفاقا

للمناطق .

كانت المهمة على بعض السهولة في الشطر الغربي من المملكة، لا سيما في السواحل المتوسطية حيث سبق للحضارة اليونانية ان تأصلت وحيث لم يأنف الاغريق ، على انهم كثر فيها ، من ان يأتوا من اليونان نفسها للاقامة

فيها . فالواقع هنا لا يخيب الآمال . لذلك فان جميع المنطقة الغربية من آسيا الصغرى وساحلها الجنوبي وكيليكيا ، شرقي بحر ايجه ، قد غدت ملكاً للمدن اليونانية؛ ويجوز القول نفسه عن سوريا الشمالية حيث اطلقت على الجبال والأنهار والمناطق الطبيعية اسماء جغرافية مقدونية . في هذه المنطقة من سوريا ، وبين مدن اخرى كثيرة، سادت انطاكية، أشهر العواصم الملكية، وقامت على مقربة منها ضاحيتها « دفنى » حيث انشئ معبد الإله السلالي ابولون . وقد ازدادت اهمية هذه المدينة ، مادياً وسياسياً ، بعد ان ضاقت اراضي دولة السلوقيين الذي اصبحوا في النهاية « ملوك سوريا » فعسب : فنقيت حتى آخر العهد القديم احدى اكبر عواصم الشرق المتوسطي ، منافسة الاسكندرية ومشتهرة بثروتها وبذخها، ونشاطها وحتى سجنها ، وملذاتها وحتى فجورها . وتابعت المدن الفينيقية القديمة ، ابعد الى الجنوب ، تلقى الحضارة اليونانية الذي اقدمت عليه نخيرة منذ قبل الاسكندر . ويجوز التأكيد ان النجاح في كافة هذه المناطق قد بلغ الكمال الممكن بلوغه ، ولكن يجب ألا ننسى ان العمل المنجز ، الذي كان منقوصاً عندما استلمت روما الارث السلوقي ، قد اتمته روما بحزم ، واليها يعود بالتالي بعض الفضل في تحقيقه .

يجب ألا نغفل ايضاً ان ساحل آسيا الصغرى الجنوبية وساحل فينيقيا وفلسطين قد بقيا في

السابق ، طيله قرن تقريباً في اوائل العهد الهليني ، في ايدي البطالسة وباشرا خلاله تطبيق هذه السياسة . ويدل تناقض عملهم هذا لسلوكهم في مصر انه استحال على اي ملك الوقوف في وجه نشر الحضارة اليونانية حيث كشف التطور السابق ، التلقائي ، عن ان امكانات هذا النشر لها ما يبررها جدياً . ولكن السلوقيين قد بذلوا الجهود نفسها في مناطق اخرى ، مما يثبت انهم خضعوا لدافع غير ذاك الذي خضع له البطالسة .

ومع ذلك فان الظروف كانت اقل مؤاتة في وسط المملكة وشرقيها . فلم يتوفر الرجال لمهمة على هذا الشأن في مملكة على هذا الاتساع . وقد نفر الاغريق من الابتعاد عن البحر ، كما ان طبيعة الحضارات المحلية ومميزاتها الخاصة التي لم يسبق لهم ان واحوها من قبل قد زادت من شعورهم بابتعادهم عن بلادهم . بيد ان مدناً جديدة كثيرة قد انشئت في بلاد ما بين النهرين وبلاد بابل وبلاد سوزا وحتى في قلب ايران . اما المدينة التي عرفت اعظم نمو فهي « سلوقية - على - دجلة » المؤسسة لمنافسة بابل التي أبعد شطر من سكانها لتكثير السكان في المدينة الجديدة . واعتبرت بابل ، بسبب صبغتها الشرقية العميقة ، ابعد من ان يمكن نشر الحضارة اليونانية فيها ، مما لم يمنع اطيوخوس الرابع ، من جهة ثانية ، من ان يحولها هي ايضاً الى مدينة يونانية بعد ذلك بقرن ونصف . ولكن سلوقية - على دجلة ، في هذه الاثناء ، امست مركزاً تجارياً كبيراً ومستودعاً للتجارة مع الشرق الاقصى واحدى اكثر المدن سكاناً في العالم القديم . وقد ذهب « بلين القديم » ، في القرن الاول من العهد الميلادي ، الى القول ان سكانها يبلغون ٦٠٠.٠٠٠ . وهذا ما يوازي ، على الأرجح ، سكان انطاكية وسكان الاسكندرية ، ولكنه دون سكان روما .

كانت النتيجة المباشرة والملموسة لهذه الجهود انتشار الاغريق في كافة انحاء المملكة . بيد ان نسبة توزيعهم بقيت متفاوتة فكانت مرتفعة هنا ومتدنية هناك ، على ان منطقة واحدة خاضعة للسلوقيين لم تخل منهم . واذا ما حدث ان وجدوا منعزلين ودون تنظيم ، فان ذلك لم يقتصر على المملكة السلوقية ، بل حدث في كافة الممالك الهلينية . كانت ابواب الشرق مفتوحة على مصراعها امامهم ، وكان باستطاعتهم ان ينتقلوا فيه ويتعاطوا التجارة ويتملكوا الاراضي شأن الرعايا الآخرين ، شرط التقيد بالأنظمة ودفع الضرائب . اما ما يميز المملكة السلوقية عن مصر اللاجية ، فهو انهم استطاعوا من جهة ثانية ان يتلاقوا فيها في كل مكان ، منذ البداية ، مؤلفين جماعات منظمة ، بصفة مواطنين لمدن تنعم « بشريعة » هي دستور يحدد حقوقهم وواجباتهم ، وسكان مدن تتوفر فيها المعابد والمنشآت الرياضية الضرورية للبقاء على حضارة يونانية يستطيعون ان ينقلوها بكل حرية الى اولادهم . وان ما لم يحصل عليه اغريق عواصم المقاطعات المصرية الا ببطء ، حصل عليه اغريق المدن السلوقية فوراً ودونما جهد .

كانوا اذن في الواقع ، منذ البداية ، بوجوازين محظيين وفر لهم تملك قطعة ارض يساراً كريماً ، لا باستثمارها بأيديهم ، بل بمساعدة بعض العبيد او يد عاملة لا يدفعون لها اجوراً

مرتفعة . فكانوا بالتالي بورجوازيين يكادون يتساوون ، من حيث المستوى الحياتي ومن حيث ميولهم للحياة الجماعية والحياة الخاصة على السواء ، مع أولئك الذين انتسبت اليهم في الوقت نفسه الطبقة الحاكمة في مدن اليونان القديمة : فقد مهمهم كثيراً ان يتشبهوا بهؤلاء وان تتفوق مدنها على مدن اليونان القديمة بفخخة ابنتها واعيادها وبشهرة مدارسها وفنانيها . وقد توصلوا الى مبتغاهم في اكثر من حالة ، بمساعدة الملوك او دونها ، اقله على مقربة من المتوسط . وهكذا فان ازدياد البورجوازية اليونانية وتفرقها في آسيا يمثّلان احد تحقيقات العهد العظمى وحدثا اجتماعياً كانت نتائجه كبيرة الاهمية على الحركة الفكرية ، كما سنرى . بيد انه من الجلي ان السلوقيين ، بفضل سياستهم التحضيرية والتضحيات التي تحملوها في تنفيذ هذه السياسة ، ان لم يخلقوا هذا الحدث الاجتماعي الذي لاحت دلائله قبلهم ، قد اسهموا على الاقل اسهاماً بعيداً في الاتساع الذي اتسم به في مملكتهم .

عمل المدن اليونانية
كان احد اهدافهم ، من وراء عملهم هذا ، شأن الاسكندرية من قبل ، نشر الحضارة اليونانية . وقد بدا لهم اجتذاب الشرقيين الى حضارتهم الخاصة وسيلة لضمان ولائهم . وهي وسيلة مريبة على كل حال لأن السلوقيين لا يستطيعون الزعم بأنهم الاسرة الوحيدة التي ينتسب اليها فاسيلفس يوناني ، ولأن زعماء آخرين ، اقله في بلاد البختيار ، لم يُقلّمهم السلوقيون على الرغم من انهم نظروا اليهم كمغتصبين ، قد استمروا في بذل جهود مماثلة . وقد صادف السلوقيون في النهاية متاعب سياسية حتى في المدن الملكية ، كالعاصمة انطاكية مثلاً . فهل يستنتج من ذلك ان مصلحة الحضارة اليونانية تغلبت ، عند بعض ممثلي السلالة ، على مصلحة السلالة نفسها ؟ ولكن المرجح انهم اعتبروا ان المصلحتين تتلاقيان ، وفي هذا الاعتبار كل الحق لو بقيت السلالة قوية . وكان العدو الحقيقي ، العدو المشترك ، في الواقع ، البدوي او الجبلي السحجس المستلب الذي رفض الخضوع لادارة منظمة والاكتفاء بعمل منتظم والتكيف وفاقاً لمقتضيات تقنية زراعية عليا ، معترضاً بذلك ما تتوق اليه كافة الحكومات ، اي النظام وزيادة الانتاج والمبادلات . ففي هذا الصراع ضد العاصي ، كانت المدينة افضل سلاح ، لا كمرکز رقابة عسكرية فحسب ، بل كمرکز اشعاعي تنتشر منه العادات الواجب نشرها ، اي كقدوة واداة تحويل وارثداد .

جعل عدد المدن التي انشئت أو حوّلت وفاقاً للطريقة اليونانية ، من المملكة السلوقية ، حقلاً اختبارياً واسع الأطراف صادف فيه كسب البلديين أدبياً ظروفًا أكثر مؤاتاة منها في مصر اللاجية . أجل لم يحصل كل البلديين المقيمين في أرض مدينة من المدن على المواطنة الكاملة . فان المنطقة الريفية التابعة للمدينة قد أمنت استثمارها باستمرار لحساب الملاكين ، وهم مواطنون في أغلب الأحيان ، يد عاملة من الفلاحين الذين لم يطرأ على مصيرهم القسانوني والعملي أي تغيير . وكانت في المدن نفسها فئات من السكان الى جانب المواطنين ذوي الحقوق الكاملة ، أي جماعات

ذات وضع أدنى كالأجانب المقيمين مثلاً . غير أننا لم نر في أية مدينة آسيوية أنظمة أشد تدقيقاً وعداء لقطع الحدود القانونية منها في الاسكندرية . أجل كان الاستغراق بالفعل أمراً محتوماً بسبب الاتصال اليومي وبسبب الاطار المادي نفسه للمدينة ولكل ما يستلزمه زخرفها البنائي ويدخله من عادات شأن المثال الانساني وبسبب الانسجام البيئي الذي كان بالنتيجة لمصلحة الطبقة المحظية الممثلة بالاغريق : كان التطور في كل هذا مماثلاً لذلك الذي حدث في المدن المصرية الثلاث . ولكن الاستغراق القانوني ، خلافاً لما جرى في هذه المدن ، قد تم ، في ما يظهر ، دونما صعوبة ، بعد جيل أو جيلين .

تكوّنت اذن في المدن طبقة من البلديين المستغرقين الذين رفعوا رويداً رويداً الى مرتبة المواطنين أي أصبحوا رسمياً من الاغريق . وقد استلزم ذلك من جهتهم حمل اسم يوناني ، على اننا نرى ، في هذا المجال ، كيفيات كثيرة كان من شأنها تخفيف أثر الانتقال . فلدینسا أمثلة عن أشخاص عرفوا بإسمين واحد يوناني وآخر سامي . ولدينا كذلك أمثلة كثيرة عن أسماء يونانية مركبة يدخل فيها اسم أحد الآلهة ، وهي طريقة تسمية قلما لجأ اليها الاغريق وكثيراً ما اعتمدتها الشرقيون فيما سبق : وليست هذه الأسماء في الغالب سوى أسماء سامية محوَّرة بعد تمثيل إله شرقي بإله يوناني . واستلزم الاستغراق أيضاً اعتماد الزى اليوناني والأخلاق اليونانية واللغة اليونانية : وناس ذلك على كثير أو قليل من التمكن وخصوص النية أو من الشمول لأن النساء لم يتأثرن كثيراً بالنزعة اليونانية لأنهن لا يخرجن كثيراً ويحافظن على التقاليد القديمة .

بيد ان الاستغراق ، عملياً ، كان شاملاً في أكثر من حالة لاسيما بين الطبقات المسورة التي كان لأبنائها متسع من الوقت للتردد على المدارس والأندية الرياضية . فتكوّنت بورجوازية من أصل محلي لم يكن لها وجود من قبل في القسم الأكبر من الشرق حيث كادت الحياة المدنية تقتصر على فينيقية وبلاد بابل ، وكان تكوُّنها أسهل وأوسع منه في مصر . وقد توصلت الى الانصهار في البورجوازية اليونانية الأصل التي كانت مثلاً لغيرها واستطاعت بنبل تنظيمها ان تحافظ على حضارتها . وهذا ما يفسّر ميزة التطور الاجتماعي في المملكة السلوقية : فان هذه المملكة قد اتسمت بالحضارة اليونانية بنسبة تحضّرها أي بنسبة انتسابها الى البورجوازية بنوع خاص .

اختلفت النتائج العملية اذن وفاقاً للمناطق أي وفاقاً لكثافة الاغريق والمدن . وحاصرت النتائج جديرة بالاعتبار في غربي المملكة . فقد بلغ من تأثر منطقتي واسعة في آسيا الصغرى بالحضارة اليونانية ان شعوبها التي اعتبرت « برابرة » في السابق لم تتميز عملياً عن الاغريق بسوء : كالكارينيين والليديين بأجمعهم ، والفريجيين والكيليكين بأكثريتهم . أجل ان هذا التطور الذي بدأ من قبل لم يبلغ الكمال الا في عهد السيطرة الرومانية . ولكن العهد السلوقي أدخل المريد من السرعة على حركته . ويصح القول نفسه عن الساحليين السوري والفينيقي وعن جزيرة قبرص . أما في شمالي سوريا فقد توطدت الحضارة اليونانية في المدن فقط ، اذ أن ظهور اللغات

المهلية فيما بعد، بفعل اندفاع الديانة المسيحية، يدل على أن الأرياف لم تتأثر كثيراً بهذه الحضارة؛ ولكن الريفيين قد حُرِّموا بسبب ذلك من نخبة اجتماعية كان باستطاعتها، لو وجدت، أن تنظم مقاومة حضارتهم التي كتب لها بالتالي جمود قائم.

أما في المناطق الأخرى فكان الاغريق والمدن أقل عدداً وعلى شيء من التشتت والانعزال. ففي بلاد ما بين النهرين الوسطى والسفلى لم يمثلوا سوى جزر صغيرة في محيط المساحات الشاسعة المتروكة لجمهير البلديين. أضف إلى ذلك أن روما لم تستطع مواصلة عمل السلوقيين فيها لأن جزءاً كبيراً من إرثهم، حين استلمته، كان قد انتقل إلى الفارتيين الأرساسيين الذين استقروا في بابل منذ السنة ١٢٩ قبل المسيح والذين اضطرت أكثر من مرة لأن تدافع بصعوبة كئيبة عن حدود الفرات ضد هجماتهم. فالحضارة اليونانية اذن لم تشع عملياً سوى في مدن نادرة لم يتوفر الوقت والطاقة البشرية للاكثار منها في ما دعي بحق « الشرق الأقصى السلوقي ».

وتجدر الإشارة مع ذلك، أقله في بعض المدن، إلى مقاومة الاغريق المدهشة والنافذة لاستشراق كان من الطبيعي أن لا يقف عددهم الضئيل في وجه نجاحه السريع. وإن البورجوارية اليونانية، تساندها البورجوازية المستغرقة على الأرجح، قد دافعت طويلاً عن حضارتها وأبقت عليها على الرغم من تفوق عددي ساحق تمتع به السكان الريفيون الذين حافظوا على قسم كبير من أنظمتهم الاجتماعية التقليدية والدين أعادت لهم انتصارات الفارتيين انظمة غير يونانية. أجل ساندت روما بعض الوقت الحضارة اليونانية في مدينة صغيرة كـ « دورا أوروبوس » على الفرات الأوسط التي كانت إحدى حصون حدودها. ولكن بعض الكتابات المكتشفة في بابل وسوزة القديمة التي أصبحت « ملوقية - على - الافلايوس » تكشف عن استمرار اللغة والتنظيم والأخلاق اليونانية زمناً طويلاً بعد أن حلت السيطرة الفارسية محل السيطرة السلوقية. أضف إلى ذلك أن هؤلاء الملوك الجدد قد أطلقوا على أنفسهم اسم « أصدقاء الحضارة اليونانية »؛ وفي السنة ٥٣ قبل المسيح أرسل البريد الذي اشتمل، فيما اشتمل، على رأس كراسوس الروماني، إلى « ملك الملوك » في أرمينيا حيث كان ممثلون يونانيون يمثلون باللغة اليونانية، أمامه وأمام بطانته، لمناسبة عيد سلالي، رواية كاهنات باخوس لأوريبيد: فيفرض هذا السلوك المستهجن، يسلمكه أولئك الذين كانت انتصاراتهم بمثابة عودة هجومية لحضارة إيرانية هزمها الاسكندر، بقاء عناصر يونانية في المدن تتمتع بنفوذ كاف للتأثير على الملوك وربما بقدر من القوة الفعلية يبد ومن المفيد معه مراعاة جانبهم. وماذا نقول عن بلاد البختيار النائية التي حال الاحتلال الفارسي دون كل اتصال مباشر بينها وبين باقي العالم اليوناني والتي بقيت مع ذلك، حتى بعد العهد الميلادي، مركز إشعاع لحضارة يونانية نبضت بحيوية كافية لأن تبسط نفوذها حتى على المناطق الشمالية الغربية من العالم الهندي؟ وهكذا فإن المدن اليونانية، حتى حيث حالت ضالة كشافتها دون استمالة البلديين الكثيرين إليها، قد دامت مع ذلك في أكثر الظروف مناقضة للمنطق. فليس من

دليل أفضل على حيوية مشاتل رخصة وزعها الملوك طيلة قرنين كاملين بسخاء وجراءة نادرة على هذه الاراضي البعيدة : فماذا عسى النتائج ان تكون لو ان هذه المشاتل حصرت في مكان واحد واقتصرت على غربي الفرات مثلاً .

البلديون خارج المدن
اذا كان تأسيس المدن اليونانية عمل السلوقيين الرئيسي ، فانهم مع ذلك لم يكتفوا به لأنهم قد حاولوا ، في ما يظهر ، التأثير ، خارج المدن ، أقله على بعض طبقات المجتمع البلدي .

انطوى هذا المجتمع على مظاهر مختلفة جداً بسبب تنوع الشعوب التي تألف منها . بيد ان نظامه ، على العموم ، كان يخلو من كل شيء ديموقراطي : فقد أخضع ، في كل مكان تقريباً ، جماهير غفيرة محرومة من اليسار المادي ، وحتى من الحريات القانونية غالباً ، الى سيطرة نخبة محظية . أما فضل هذه النخبة على من سواها فقد يكون النسب ، اذ قد قامت امارات وارستوقراطيات وراثية . وقد يكون المراتب الدينية ، اذ قد قامت ثيوقراطيات أفستت الوراثة منها المبدأ على كل حال . ولكن فضلاً آخر أكثر ظهوراً خارجياً ، بسيطاً وحتى بدائياً ، هو الثروة ، قد رافق في كل مكان الحالة الاولى او الحالة الثانية . فالملكية اليونانية وجدت اذن أمامها في آسيا مجتمعاتاً بلدياً أكثر تفاوتاً منه في مصر حيث كان مستوى حياة كافة السكان وبقي متدنياً جداً ، باستثناء الكهنوت الذي وجه اللاجئين لامتيازاته ضربات قاسية بغية اخضاعه للقانون العام . وفر هذا الوضع للسلوقيين امكانات مناورة واختيار : ولكنهم منذ البداية لم يعيروا اهتمامهم ، عن قصد ، سوى الطبقات الاجتماعية العليا .

كان باستطاعتهم محاولة مزج رعاياهم واعتماد نوع من الاستعمار الداخلي مثلاً للتوفيق بين السكان والموارد المحلية ، ولكنهم لم يفعلوا . أما الحالات الوحيدة التي نعرفها عن « مستعمرين » بلديين فمردها الى أسباب أخرى ، عسكرية قبل كل شيء . وهكذا فان انطيوخوس الثالث ، اذا ما اعتمدنا عل ما أورده مؤرخ يهودي ، قد أصدر أمراً ، في السنة ٢١٠ ، في أعقاب الاضطرابات التي حدثت في ليديا وفريجيا ، بأن ينقل اليها ٢٠٠٠ عائلة يهودية من بلاد بابل يكون أفرادها رعايا أكثر اخلاصاً ويحملون السلاح عند الحاجة للدفاع عن وحدة المملكة . وكذلك أنشأ السلوقيون « مراكز » في غربي آسيا الصغرى ، حاذين بذلك حذو الملوك الفرس الذين سبق لهم وأقاموا هناك بعض الايرانيين . ولكن كلمة « مراكز » كلمة غامضة قد تعني وقائع مختلفة جداً : قد تكون مستعمرات عسكرية كما قد تكون قرى تقام فيها بعض العائلات وتخضع بالتالي لاحصاء سنوي يتناول الشبان البالغين سن الخدمة العسكرية . ومهما يكن من الامر فان المستفيدين من هذه المراكز قد ألفوا جماعات بشرية متراصة في حال أن اللاجئين قد وزعوا جنودهم المزارعين وفاقاً لشغور الاقطاعات الفردية . وهكذا فأننا نعرف جماعات من الفرس والكردوك الآتين من أعالي دجلة ، والفلاطين والميسيين ، دون ان يتيسر لنا التمييز بين

ما حققه الاخيميونيون والسلوقيون والاطاليون في ذلك . ونعرف بنوع خاص « مراكز » للمقدونيين لأن الطريقة قد اعتمدت لهؤلاء أيضاً ، مما أفضى بعد ذلك احياناً ، الى ولادة مدن تباهت بأنها استطاعت ، حتى في عهد الامبراطورية الرومانية ، ان ترسم على نقودها خوذة رفاق الاسكندر . ولكن هذا الاستعمار الريفي كان استجابة لمشاغل عسكرية : فهو قد استهدف اما ان يوطن في أرض المملكة الجنود الذين تخشى هجرتهم واما ان تسهل تعبئة الجيش وإما ان يحفظ الأمن في المناطق المضطربة أو الحدود . ولم يفكر السلوقيون في عملهم هذا بتحسين حال المحرومين من رعاياهم ولا بتخفيف ما يقوم بينهم من فوارق عنصرية .

لا ريب في ان توحيد اللغة قد استمر في ظل سيطرتهم . أجل ان الآرامية قد استمرت في الانتشار ، شأنها في عهد الفرس ، في مناطق واسعة من المملكة لم تنتصر فيها الحضارة اليونانية : فقد حلت أخيراً محل اللغة العبرانية في فلسطين . ولكن الادارة الملكية بقيت اذ ذاك بعيدة عن هذا التطور : فهي لم تعرف ولم تستعمل سوى اليونانية التي لم تتوطد الا في المدن الكثيرة السكان .

ان الوحدة التي كان السلوقيون يرغبون في تحقيقها هي الوحدة في الحضارة اليونانية ، وهي الوحيدة التي كان من شأنها تطوير السكان والبلاد تطويراً حقيقياً . ويمكن ان نقدّم دليلاً على ذلك انهم قد سعوا مباشرة ، أقله هنا وهناك ، الى طبع البلديين بالحضارة اليونانية دون ان يستعينوا بالمدن . ولكن نشاطهم لم يتناول في هذه الحال سوى أعضاء الطبقات الحاكمة . فان نصاً مسامرياً يعود الى السنة ٢٤٣ قبل المسيح يضيف الايضاح التالي الى اسم « أنو — اوباليت » ، « ذي المركز الثاني » ، في مدينة أوروك من أعمال بلاد بابل السفلى : « الذي أعطاه انطيوخوس ، ملك البلدان ، اسماً آخر هو نيكارخوس » . وبعد ذلك باثنتي وأربعين سنة ، اطلق على شخص يحمل هذا الاسم ، قد يكون من أحفاده ، ويحمل اسم سيفالون اليوناني أيضاً ، لقب « زعيم أوروك » . وهكذا أيضاً فان انطيوخوس الثالث يعهد بقيادات عسكرية رفيعة الى بعض البلديين كان أحدهم ميتريدات ابن شقيقته . وحين أصبحت فلسطين في أوائل القرن الثاني مملكة سلوقية انصبت الانعامات الملكية على أعضاء الارستوقراطية اليهودية الذين عرفوا ان يبرهنوا انهم يقدرون تفوق الحضارة التي يمارسها الملك . فقد كان هنالك اذن ضغط على النخبة الاجتماعية التي هي أسهل منالاً وأشد تأثراً بأغراء ما تستطيع حكومة ملكية ان تغدقه على رعاياها الخالصين ؛ ويغلب ان هذا الضغط قد اختلف باختلاف المناطق .

اعوز السلوقيين في الواقع ، للتأثير على الجماهير الشعبية ، جرأة لم يقدموا عليها . فهم لم يحوّلوا نظام اولئك الذين اطلق عليهم الاغريق اسم « الشعوب » ، لاسيما شعوب الريفيين ، المنحطّين ، الذين يقابلهم الجنود . فقد استمرت العبودية والفدائية والتبعية التي تنظمها الاعراف دون أي تغيير . واحتفظت مصانع المعابد بعمالها كما احتفظت الأملاك الريفية بفلاحها المرتبطين

وراثياً بالأرض . واحتفظ كذلك الحكام القدماء بمراكزهم على الرغم من توصل بعض الاغريق الدخلاء الطموحين الى احتلال مكان لهم بين المحظيين . ولم يضع الملوك في أي مكان نصب أعينهم تحرير العبيد الذي كان مع ذلك شرطاً أولاً لاستمالتهم الى الحضارة اليونانية .

من الجلي انه كان أسهل على الملوك ان يبقوا على الأنظمة الاجتماعية القائمة ويحصرها بمجهودهم في احتلال النخبة احتلالاً أدبياً . فان فكرة انقلاب شامل ، أو مجرد اصلاحات تدريجية ، لم تراود قط أفراد اسرتين شريفتين احدهن مقدونية والأخرى ايرانية . ولو راودتهم لكأن الواجب قضى عليهم باهمالها لأن الأنظمة الادارية كانت أوهى ، بسبب بدائيتها ، من أن تقوم مقام الأنظمة الاجتماعية التي يجب القضاء عليها ، ولأن الملكية ، المهددة أبداً بخطر أعدائها الخارجيين ، كانت عاجزة عن الاقدام على عمل داخلي هام .

فهل نجحت هذه السياسة الاجتماعية ، الحرية بأن تمنعت بالتحرز لو كان باستطاعتنا النتائج التغاضي عن تأسيس المدن اليونانية ، في توفير الهدوء الذي صبا اليه الملوك السلوقيون على الأقل ؟ علينا هنا ان نعطي بعض الايضاحات .

لم يحدث ، على ما نعلم ، ثورات حتى ولا اضطرابات بسبب البؤس ، على نقيض مصر والمملكة الاطالية بنوع خاص حيث عقت موت آخر ملوكها ، في السنة ١٣٣ ، اضطرابات ذات طابع اجتماعي ، جزئياً على الأقل ، اذ أن عبيداً ثائرين قد لعبوا فيها دوراً كبيراً جداً . واذا لم يحدث ذلك عند السلوقيين فلأسباب بسيطة . فقد سهل عليهم أكثر من الملوك الآخرين ، كما رأينا ، ان لا يثقلوا كاهل رعاياهم بالضرائب . ثم ان ابقاءهم على النظام الاجتماعي التقليدي قد تلافى خطر الثورات : اذ جاء تواطؤ الأسياد الأجانب مع الطبقات المسيطرة يوفر السلامة لهؤلاء واولئك .

ولا يعني هذا ان الملكية السلوقية لم تعرف الصعوبات الداخلية الناشئة عن البلديين . ولكن هذه الصعوبات تبدو لنا ، بنوع خاص ، وكأنها ردات فعل ضد محاولات النيل من ديانة بعض الشعوب . وليس ما يوازي ، في هذا المجال ، من حيث الشهرة — وهي على كل حال شهرة تبالغ في أهمية الاحداث الحقيقية اذا ما قسنا هذه الاحداث بمقياس المملكة الكبرى — ثورة اليهود التي تعظمها كتب المكابيين كملحمة وطنية . ومن الخطأ ان نتوقف عندها هنا لأننا لا نجد في هذه الثورة مكاناً محترماً لأسباب اجتماعية حقيقية . فهي لا تثبت بأسبابها وتطورها سوى الحقيقة التالية : ان استمالة شطر كبير من الارستوقراطية الحاكمة لم تجد فتية حبال شعب يتميز بمثل هذه الفردية الفظة وتختلط عنده الفكرة الدينية والفكرة القومية وتؤلف حضارته التقليدية جزءاً لا يتجزأ من النظام الذي أراده الإله . لذلك فان مثل اليهود كان استثنائياً بفعل وثوق هذا الاتصال ، كما كانت استثنائية أيضاً الاخطاء الخرقاء التي ارتكبها ضدهم بعض الملوك السلوقيين في القرن الثاني . ولكن كيف يمكن ، آنذاك وفي المشرق ، الفصل بصورة مطلقة

بين الديانسة والحضارة ؟ فتورة المكابيين تثبت اذن أنه استحال على الملوك اليونانيين اعطاء سيطرتهم اساً واسعاً ، لا بل اساً متيناً فقط ، باكتفائهم بأخذ النخبة الاجتماعية ، أخذاً يشكّ باخلاصه ، بالحضارة اليونانية . وقد اتضح ذلك في سوريا الشمالية نفسها حيث أتاح عدد المدن اليونانية استمالة هذه النخبة بكليتها : فالمقاومة قد انفجرت ، عاجلاً أم آجلاً ، من الجماهير الشعبية المهمة الخام .

فلا يجب بالتالي ان يخذعنا نجاح المقاومة في فلسطين . وليس الفضل فيه لعزم الثائرين وحده ، وهو عزم يثير الاعجاب على كل حال . فقد تلقى الثائرون عوفاً غير مباشر من الخلافات العائلية التي مزقت السلالة في انحطاطها ومن تدخل الاحني أيضاً ، فقد ساعدتهم روما في الدرجة الاولى ، وهي التي عظفت على كل ما من شأنه ان يزيد ضعف الملكية . وساعدهم الفارتيون خصوصاً الذين انطلق هجومهم من حدود ايران الجنوبية وأفضى بهم الى احتلال بلاد بابل نهائياً . وخلافاً لما حصل في المملكة اللاجية ، فان المملكة السلوقية قد انهارت لأسباب خارجية أكثر منها داخلية .

غير ان الشيء الاكيد هو ان الفارتيين قد استفادوا من الوضع الاجتماعي القائم في الشرق الاقصى السلوقي . فادا لم يثر البلديون قط على الضغط الاداري ، كما حدث في مصر ، فانهم ، على الاقل ، قد استقبلوا يجمود عدو أسيادهم اليونانيين الذين لم يهتموا بعض الاهتمام إلا للطبقات الحاكمة . ولكن هذه الطبقات ، باستثناء بعض الحالات الفردية المقتصرة عملياً على العناصر المقيمة في المدن ، لم تكن سوى حضارة يونانية للمجاملة ، أي ظاهرية فقط . ومن حيث هي بقيت سليمة واحتفظت بسلطتها ، فقد سببت دونما صعوبة ، بانتقالها الى الاعداء ، انتقال المجتمع البلدي كله اليهم ؛ ففي نجد ايران بنوع خاص أعلن الفارتيون عن أنفسهم جنوداً للعنصرية الايرانية وخلفاء للاخيميذيين .

يتضح بعد كل حساب ان سياسة السلوقيين الاجتماعية قد أفضت بهم الى خيبات أمل خطيرة كما جرى للبطالسة في مصر . فهم شأن البطالسة لم يهتموا قط لرفع مستوى حياة عامة الشعب . وعلى غرارهم أيضاً — وكان الامران مرتبطين على كل حال — لم يفكروا بان يوقظوا ، عند هذه العامة ، الفردية التي تحرر الشخص البشري ، وهي مفهوم أساسي في الحضارة اليونانية . أجل ، بينما أخضع البطالسة رعاياهم للرقابة الشديدة ولاشراف ادارتهم المطلق ، اقتصر السلوقيون على إبقائهم خاضعين للارستوقراطيات الكهنوتية أو العلمانية ، ولكن الخضوع مهباً كان من اختلاف أشكاله واختلاف المستفيدين منه ، قد أفضى في النهاية الى نتائج مماثلة . وقد سبق لنا ورأينا ان الازدهار الاقتصادي في العالم الهليني قد تضرر بفعل ذلك ، لا سيما ازدهار اليونان القديمة الذي قوّضته منافسة الشرق وحرمة من سوق استهلاك كبير لصناعتها ، أعني بها هذه البلدان الجديدة . ولكن الملوك اليونانيين ، بالاضافة الى ذلك ، في مصر كما في آسيا ، باستثناء المنطقة المتوسطة في هذه القارة ، لم يحاولوا ، بفعل محافظتهم وأنانيتهم وعدم ادراكهم ، ان يستميلوا اليهم أدبياً الطبقات الوضيعة بين السكان البلديين ، فدفعوا ثمن هذا الاهمال غالياً لأنهم لم يستطيعوا يوماً إزالة عدااء الخاضعين لهم الذين قامت قوتهم على اخلاصهم ونشاطهم .

الفصل الرابع

المعتقدات والأذواق والأفكار

إذا ما بقي اتساع وفاعلية الاختبار الهليني ، في الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، دون الامكانيات التي بشر بها عمل الاسكندر المحدود ، فالأمر على خلاف ذلك حيال المظاهر الأدبية في الحضارة . وانه لمن الصعب علينا ان نحيط علماً بكافة التجديدات الثورية المدعوة لمستقبل باهر التي جاء بها هذا العهد المضطرب في حقول الديانة والفن والفكر . فهو قد كيّف ، لقرون طويلة ، روح وفكر البشر وفاقاً لمثل جديدة ، بينما سعت الحضارة الكلاسيكية جاهدة الى اخضاعها لأولوية عقل مجرد ، متوفقة في ذلك الى ما هو جوهرى . وقد شق بصورة نهائية طرقاً لم تكد تُعرف من قبل .

من الطبيعي ان هذه الوثبة قد ارتبطت بالنظام المادي الجديد الذي
الحضارة اليونانية والملكية فرضته على العالم اليوناني الظروف والتطور التاريخي .

بقي المثل الأعلى ، في تحديده الجوهرى ، مماثلاً لمثل العهد السابق : فالهدف هو أبداً تشجيع تفتح الفرد وتحقيق أفضل الامكانيات المدين بها لطبيعته البشرية خير تحقيق وأكمله . ولكن هذا المثل الانساني الذي يشرف تصميمه ومواصلة تحقيقه ما ينطوي عليه التاريخ اليوناني من ركافة واخفاق ، قد تجمل اذ ذاك ونما . كانت حضارة البولس ، بتوجيهها إياه وفاقاً لحاجاتها الخاصة وبحصره في إطار ضيق ، قد وضعت له حدوداً هي حدود الشرائع المبنية على العقل وعلى مصلحة المجموع الحقيقية ؛ فكان من المحتم ، في العالم الهليني الذي وسّعه فتح الشرق توسيعاً مفرطاً ، أن تمتد هذه الحدود وأن تتراخى الاقتسارات ؛ فالرقابة والادارة ، اللتان تؤمنها سلطة أكث بعداً ، أقل ثقلاً على الفرد . وليست الانطلاقة بعد اليوم للامكانيات التي تتفق مع العقل ، أي الامكانيات الجسدية والفكرية فحسب ، بل أيضاً للامكانيات التأثرية والعامدة القياس .

بهذا أيضاً طبعت الملكية بطابعها ، الى حد بعيد ، حضارة الأزمنة الجديدة . وان المثالية التي بنيت عليها قد أسهمت في تطوير النزعة الانسانية القديمة بتوسيعها . فقد أحاطت الملك بهالة ،

لا بل باكليل من نور ، يخضع فيه العقل للصوفية ، والبرهان للثقة بقوى فائقة الطبيعة . وقد بدا الملك ، بفضل هذه المثالية ، كمثل يقتدى به وكنموذج للانسان المتجمل بالحاسن والمواهب بما فيها نعمة الإله الذي يمنحه حرية ووسائل عمل تتيح لشخصيته أن تتفتح في كمالها .

أجل ليس باستطاعة الجميع بلوغ الدرجة القصوى من درجات الملكية بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى . ولكن خبرة نصف القرن الذي عقب وفاة الاسكندر تبين ان بلوغها ليس وقفاً على أبناء الملوك ، والتوق الى مثل أعلى لا يستلزم الأمل الوطيد في تحقيقه . ولا ريب أيضاً في أن وجود ملكيات على قليل أو كثير من التنظيم يهدد بالحد من حرية الفرد . ولكن هذا الخطر لا يطال سوى الحرية السياسية . وإذا ما نظرنا الى النزعات الشاملة في البواس الصغيرة ، التي تبرز في شرائعها ، والتي غالباً ما يكفي ضغط الرأي العام لتقريرها ، اذا لم تقررها المحاكم ، يصبح من الصعب ان لا نعتقد بواقع تحرير في نطاقات أخرى ذات ارتباطات لا تحصى ، أولها النطاق الديني . فالتساهل يغدو أمراً واجباً على ملوك مدينين للفتح ، بالتحديد وفي أكثر الأحيان ، بممارسة الملك على رعايا غرباء يمارسون شتى العبادات . أضف الى ذلك ان الاعتراف بتفوق يبرره كل شيء ليس مرادفاً للاستخراء : فلماذا لا يحذر بالانسان الحر ان يعجب ويحب ويبذل نفسه يا ترى ؟ ومن ثم فإن الواقع الملكي يقود الى مفهوم نزعة انسانية أعظم اتساعاً وتنوعاً من النزعة القديمة ومثل أعلى يهز أوتاراً أكثر عدداً فيوقظ اصداً أطول مدى ، لأنه لا يخنق ، باسم عقل متفوق ، بعض النزعات العميقة في الطبيعة البشرية .

ثم ان الملوك قد ناصروا الآداب مناصرة محسوسة جداً بغية احاطة بلاطهم وملكهم بمجد يشعرون أنه أعظم ديمومة ونبلًا من المجد العسكري أو السياسي . وقد حرصوا ، حيال الحضارة التي تباهاوا في الدفاع عنها ضد البرابرة ، لا على تأمين انتشارها فحسب ، بل على التوسع فيها أيضاً . وقد اهتموا ، بفعل ثقافتهم الشخصية وذوقهم المرفه أحياناً ، بالبحث هذه الحضارة ونجاحاتها ، وكرموا الذين حققوها وساعدوهم مادياً ، مرتاحين ارتياحاً تاماً في اجتذابهم اليهم ومعاشرتهم . فواصلوا بذلك تقليد الاستبداد اليوناني وتقليد الملكية المقدونية القديمة التي سبق لها واستقبلت اوريبيد في شيخوخته وغمرته بمظاهر الحفاوة والتكريم ؛ كما ساروا على مثل أقرب عهداً هو مثل الاسكندر الذي أحضر معه أو استحضر الى آسيا كتباً وفلاسفة وفنانيين وعلماء . وليس من اغريقي حقيقي أبعد النزعة الانسانية عن مشاغله : فأسهم هؤلاء الاغريق عن قصد في اعطاء هذه النزعة مزيداً من الفتنة ووسائل العمل وقوة الجاذب . فمن هذه الزاوية أيضاً تبدو الحضارة الهلينية كحضارة ملكية .

لم تتوفر هذه الرعاية دون مقابل ؛ ولكن أنظمة أخرى كثيرة قد تحملت مقابلاً أشد ارهاقاً . ففي هذا النظام نال الهجاءون — وهم قليلاو العدد على ما نعلم — عقوبة قحتهم ؛ وكان هنالك فنانون وشعراء بلاط اتقنوا فن التملق . ولكننا لا نرى تنسيةً علمياً يجب التساؤل ،

في حال وجوده ، عما اذا كان مفروضاً أم تلقائياً ؛ كما لا نرى كلاً عقائدياً يدخل فيه كل مظهر من حركات النفس والفكر في تلاحم مجموع واحد . فالقاعدة هي في التنوع الحر للاضطرابات والمحاولات الشخصية ، ولم تعرف النزعة الانسانية انطلاقتها العجيبة الا لأن نشاط الملوك لم يتعرض للشرط الأول للنزعة الانسانية .

وهناك ارتباط آخر بالظروف الزمنية يتراءى في التوزيع الجغرافي لمراكز الامركية ووحدة اشعاع الحضارة الجديدة .

كان للحضارة الكلاسيكية مركز رئيسي هو أثينا . واحتفظت هذه المدينة ببعض سناها الغابر : وقد حرصت كل السلالات ، في فترة أو أخرى من تاريخها ، على اظهار « عظمها » نحوها ونحو ما تمثله . لم تعد تخلق الا نادراً ؛ ولم تعد الانطلاقة الخلاقة تصدر عنها . فمعظم نفوذها يأتيها من ماضيها ومن اسنثار هذا الماضي على بد رجال مهرة نشيطين . فأخذت في احتلال المركز الذي ستحافظ عليه حتى آخر العصور القديمة ، أي انهاغدت مدينة يأتي اليها أبناء العائلات الميسورة لاكمال دروسهم في البيان والفلسفة والهواة الأثرياء لاختيار النسخ عن الروائع الفنية المشهورة في مصانع الفنانين أو المصنوعات التي يكرسها مصدرها . وقد نعتها أحد المسافرين في القرن الثالث نعتاً ساخراً بقوله عنها أنها « مدرسة لرجال المرمز » : أي ان الحياة الجريئة قد هجرتها .

أما في العالم الجديد فقد لمعت إحدى المدن لمعناً خاصاً نعتي بها الاسكندرية . وقد بلغ من لمعانها هذا ان التعبير التاريخي السائر ، « الحضارة الاسكندرية » ، أصبح مرادفاً لـ « الحضارة الهلينية » . ف عظمت المدينة المادية وسحر دورها وازدهارها الاقتصادي وثروة ملوكها العجيبة النادرة وتفغل بلاطها المرفف ودارا كتبها وآثارها ، كل ذلك أعطاها نفوذاً واشعاعاً لم يضاهيها نفوذ واشعاع آنذاك . ولكن مهما يكن من أهمية أثرها فانه أقل توجيهاً شاملاً من أثر أثينا في العهد السابق .

وكانت هنالك عواصم وبلاطات أخرى . وبذلت سلالات أخرى جهوداً مماثلة لم تبق نجاحاتها ، في هذه الحقول أيضاً ، نجاحات يستهان بها . فاسم برغاموس بنوع خاص قد لفت الأنظار منذ أعمال التنقيب الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر . وكذلك فان انطاكية في سوريا ، وحتى بيلّا في مقدونيا التي كان ديموستينس الأخير في وصف سكانها وملوكها بالبرابرة ، قد تحتلان المركز نفسه ، اذا ما أسفرت أعمال التنقيب فيها عن مكتشفات على أهمية مكتشفات برغاموس ومكنت من وضع بيان كامل بتحقيقاتها .

ويجب خصوصاً ألا نفكر بمراكز اقامة الملوك دون غيرها . فهناك ، الى جانبها ، المدن الكثيرة الآهلة والمنتعشة بتملك البورجوارية التي يؤلف انتشارها أحد الأحداث الاجتماعية الرئيسية في العهد الهليني وتجديداً لم يبق دون نتائج ثقافية . وكان لهذه المدن ، على العموم ،

صفات مميزة ، وقد توصلت ، بفضل جهود أقل تشتتاً ، الى الاحتفاظ باستقلالها في بعض الحقول الاختصاصية . أما أعظمها شهرة وازدهاراً ولمعاناً فمدينة رودس التي بدأت منافستها لأثينا ، منذ القرن الرابع ، في حقل مدارس البيان ، وشملت في النهاية حتى حقول النشاط الفني . ولكن كل مدينة ، في الواقع ، في العالمين اليونانيين القديم والجديد على السواء ، تعز كبرياء وتنشئ المزيد من المعابد والأبنية والمدارس . فابتعدت الحصار اليونانية عن مركزها في منافسة ليس حب التظاهر فيها ، في حال وجوده ، الباعث الوحيد ، ولا الباعث الرئيسي . وكأن الحصار اليونانية تستهدف ، من وراء ذلك ، توزيع ثرواتها توزيعاً أفضل على الأراضي الشاسعة التي انشرت فيها خلاياها الحضرية .

مما يثير الإعجاب ان هذا التنافس لم يقوّض وحدة الحضارة الهلينية . فهي من أقصى النطاق الجغرافي الذي انشرت فيه الى أقصاه ، تنطوي على مميزات عامة مماثلة ترتدي مظاهر خاصة ليس وجودها نفسة قاعدة مطردة . فكما أن الاعريقي يستطيع السفر وتعاطي التجارة في كل مكان ، كذلك فانه يشعر وكأنه في بلاده عندما يلتقي اغريقاً آخرين . وقد انتهى التطور ، الذي استهدف في القرون السابقة إرالة الفوارق الاقليمية في وحدة ثقافية ، الى نجاح يكاد يكون كاملاً . إذ ذاك ، وإذ ذاك فقط ، توحدت القومية اليونانية على أسس أدبية واسعة جداً . أجل لم يكن لهذه القومية وجود سياسي ، شأنها في الماضي على كل حال . ولكنه أصبح من واجبها أن تتكوّن ثقافياً بسبب التمازج بين الاغريق في الاراضي التي هاجروا اليها وبسبب التصاميم الذي أوجده بينهم اختلاطهم اليومي مع ممثلي الحضارات الأخرى ، فاذا كانت الحصار اليونانية عابداً أكبر مشتركاً لرجال يأتون من مناطق نائية جداً ، فاما بالإضافة الى ذلك المقياس الوحيد الذي يميزهم عن أولئك الذين ينظرون اليهم كمرؤوسين . فهم يتقاربون حتى تبرر المصادة بينهم جيداً ، إذ أن هذه الثقافة المشتركة ، في نظرهم ، تدر امتيازاتهم .

ببدايه من الخطأ الاعتماد بأن هذه الثقافة المشتركة ، التي يفسر ظهورها تضامهم واعتزازهم ، لا تمثل سوى ثمالة الحصار الكلاسيكية التي ورثتها ، بعد إرالة الميراث الاقليمية . فهي لم تستلم كل شيء من هذا الارت ؛ وقد تحملت ، راضية ، تفسيحات لم تقتصر على الفوارق فقط . ومقابل ذلك ، فاما قد اغتننت بالامتدادات أو الاكتشافات بفصل جسارات أتاحها لها توسع إطارها العديم وازدياد مواردها المادية . أضف الى ذلك ان الحصار ، أية حضارته ، لا تحيا بلا ضرر في التعايش مع غيرها : فالحضارات التي تنسب اليها النساء والحسد والشعب تدسرب ، أقله بواسطة الولد ، الى الحصار التي ينسب اليها السيد . ثم ان تصدع وتشنت النخب القديمة المحصورة وضرورة ارضاء رغبات بورحوازية تكاثرت تكاثراً عظيماً تبرز كعوامل تجديد أيضاً . أجل قد يكون المستوى الفكري الوسط تضرر هنا أو هناك هذه الظروف العامة . ولكن قيماً عاطفية مهمة حتى ذاك التاريخ قد وجدت لها مكاناً أوسع في برعة انسابية أكثر انطباقاً على تركيب الانسان .

١ - الديانة

العبادات المحلية لم تجرّ السيطرة اليونانية نتائج خطيرة على العبادات التي كان يمارسها البلديون الشرقيون ، إذ أن هذه العبادات قد حافظت ، على العموم ، على ميزتها الخاصة وحيويتها .

ففي مصر بقي كل شيء دون تغيير ظاهر . الملك يراقب الكهنوت عن كثب تلافياً لمقاومته الممكنة التي يخشى أثرها على السكان . ويكلف موظفيه مراقبة ادارة ممتلكات المعابد ، لا ليحد من ثروتها فحسب ، بل ليجعلها مرتبطة به . وليدخل « الأرض المقدسة » نفسها ، أي أملاك الآلهة العقارية ، في النظام الاقتصادي الموجه الذي أخضع له كل وادي النيل . ومنذ أواخر القرن الثالث على كل حال ، حين بدأ البلديون يشيرون الصعوبات الخطيرة ، ارتخت هذه الرقابة ، فحصلت الطبقة الكهنوتية ، التي أمسى عطفها أكثر ضرورة ، على حصانات وامتيازات واعطيات جديدة شتى . ومارس البطالسة ، من حيث هم فراعنة ، حقوقهم كآلهة وكوسطاء بين مصر وآلهتها . ولكنهم لم يهملوا واجباً واحداً من واجباتهم . فرّمت المعابد القديمة وشيدت المعابد الجديدة ونقرت في الجدران النقوش البارزة والكتابات الهيروغليفية التقليدية ، وتؤلف كتابات معبد هوروس في ادنو التي تعود الى هذا التاريخ أحد مصادرنا الرئيسية حول ما كانت عليه الطقوس المصرية منذ أقدم العهود . ومن ثم فقد تأمن الاستمرار الديني ، أو بالأحرى أعيد الى حاله ، لأن إعادة ضم مصر الى الامبراطورية الفارسية ، قبيل فتح الاسكندر ، قد رافقتها أعمال عنف واكراه حتى حيال الآلهة . فقد خلف الاسكندر سيّداً بغيضاً ، ثم جاء الأباطرة الرومان وانهجوا هذه السياسة . فشعر الفلاحون شعوراً ينطبق على الواقع ان ديانتهم القومية ، المحددة ، تواصل حياتها الدائمة .

أما معلوماتنا عن آسيا ، حيث جاءت النجاحات التي أحرزتها الحضارة اليونانية في بعض المناطق بفوارق دقيقة ، فنادرة جداً اذا ما قيست بمعلوماتنا عن مصر . وعلى كل حال فإن السلطة الملكية لم تبلغ ، في أية منطقة من مناطقها ، تلك القوة التقليدية على كافة مظاهر حياه البلاد ، كما لم تبلغ الادارة الهلينية فيها كمال الادارة اللاجية . فهنا أيضاً برهن الاسكندر عن احترامه للمعتقدات والطقوس ، لا بل ، انه تظاهر في بلاد بابل بمظهر المصلح الذي يعوّض عن كفر ملوك الفرس الآخرين . والصعوبات المالية وحدها ، في ظروف نادرة نسبياً على كل حال ، هي التي دفعت بخلفائه الى اعمال العنف . فقد وضع الملك يده ، هنا وهناك ، أو حاول أن يضع يده ، على كنوز المعابد . وأقدم انطيوخوس الثالث بكل قحة على ابتزاع الذهب والفضة من معبد اكباتان في السنة ٢١٠ ، ولكنه قتل على أيدي بعض الجبلين بعد ان نهب أحد المعابد في بلاد سوزة . وبعد ذلك بعشرين سنة تقريباً اضطر ابنه انطيوخوس الرابع الى الانسحاب حين عزم على القيام بعملية مماثلة . وانفجرت الحصومات الأولى بين السلوقيين واليهود حول موضوع

كنوز معبد أورشليم . ولكن هذه السياسة لم تطبق وفقاً لتصميم أو قاعدة ، لأن المستندات الوفيرة العائدة للعهد الهليني التي اكتشفت في مدينة أوروك الصغيرة من أعمال بلاد بابل السفلى تجعل الافتراض الثاني أكثر احتمالاً . فالملوك الذين لم يحملهم شيء على شمل هذه المدينة الصغيرة بعطف خاص قد أصلحوا وأنشأوا بعض المعابد فيها . وقد بقيت هذه المعابد مراكز اقتصادية يبدو أن نشاطها قد تمتع بامتيازات مالية . وعاش الكهنة باستمرار عيشتهم الماضية : فقد استنسخوا كتب الطقوس ووضعوا مجموعات الملاحظات الفلكية بصورة أعظم وفرة وانتظاماً منها في عهد السيطرة الفارسية . ومما لا ريب فيه ، إذا تأخرت الديانة المحلية في بلاد بابل ، ان مسؤولية هذا التأخر ، الذي لا تزال أسبابه الحقيقية سرّاً خفياً ، لا تقع على عاتق الملوك اليونانيين . وفي غير مكان أيضاً لم تنل موجبات الخزينة ، حتى إذا عمل بها ، من الحرية الدينية . ولم يحصل أي اضطهاد ، وقد هورت الديانة المازدية بحرية مثلاً في نجد إيران ، على الرغم من أخطار ارتباطاتها بالآسياد المعروفين وبالروح القومية الإيرانية التي من شأن التهديد الفارقي ان يجعلها مريبة : وفي بلاد فارس ابقى بعض الاخمينيين كرؤساء محليين واطلق عليهم لقب « حراس النار » أي أنهم لعبوا بالتالي دوراً دينياً .

لم يسبب استغراق البلدين نفسه ، حيثما حصل ، أية مشكلة دقيقة ، لأن هذا التطور لم يستلزم أي ارتداد بما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى عصري وديني . أما الاغريق فغالباً ما أعطوا المتل وتبنوا بعض الآلهة الشرقيين أو حاولوا أن يستكشفوا فيهم مظاهر بعض آلهتهم الخصوصيين ، كزفس بنوع خاص الذي تمثلوه في كل « نعل » سوري أو فينيقي . ومن حيث ان لائحة آلهتهم كانت قابلة الاطالة فقد بلغ منها ان الشرقيين المستغرقين وجدوا فيها آلهتهم دونما جهد . ولم يحدث في غالب الأحيان أي تغيير جوهري في الطقوس أو في الواجبات المفروضة على المؤمنين . ومن ثم فقد حدث التطور في كل مكان تقريباً دونما صعوبة .

ولم يشذ بصورة خطيرة عن هذا التعايش ذي الطابع السلمي الحصار اليوناني والديانة اليهودية وحتى الودي في أغلب الأحيان ، سوى فلسطين ، حيث جعل طابع الشريعة الدينية الخاص والسلطة التي كانت لهذه الشريعة على كافة أوقات وعادات الحياة اليهودية ، التعايش أمراً دقيقاً للغاية .

سارت الامور على خير ما يرام طيلة قرن ونصف في عهد سيطرة البطالسة أولاً والسلوقيين ثانياً . فأدار اليهود شؤونهم بحرية ؛ ولم يكتف الملك بأن لم ينل من عبادة المعبد ، بل تحمل نفقات ذبيحة يومية تقدم باسمه ، واستفاد الكهنة من بعض الاعفاءات المالية . ولكن الديانة اليهودية القديمة ، بفعل اتصالها بالحصار اليونانية التي كانت آخذة في التقدم حول فلسطين ، قد تأثرت بصورة حتمية ، أقله في أوساط الارستوقراطية اليهودية ، التي استهوتها هذه الحصار ورغبت في ارضاء الملوك اليونانيين . وانتشرت الحصار اليونانية انتشاراً أوسع في مجتمعات

اليهود المهاجرين المقيمين في مصر أو في المدن الآسيوية . ولكن التطور قد ظهر في فلسطين نفسها أيضاً ، ففسر بعضهم الشريعة على هواهم ، حتى قيل انهم اهلوا الحتان ، ولبسوا ثيابهم وكسوا رؤوسهم ، من جهة ثانية ، على الطريقة اليونانية ، وشجعوا التربية اليونانية التي تعلم في الأندية الرياضية : أعني بذلك ممارسة ألعاب القوى في حالة فاضحة من العري . وبكلمة مختصرة فان تياراً استغرافياً ، هو تيار « المستغرقين » ، قد نما شيئاً فشيئاً في أورشليم ، فكانت ردة الفعل ولادة شيع مختلفة متفاوتة في استقامة رأيها اردادت كراهيتها لكل تسوية يوماً بعد يوم .

انتهت الحوادث المختلفة الى النزاع الدامي . فصمم أحد الملوك السلوقيين على ان يضع يده على كنز الهيكل ، فكان حادث الوزير هيليوذوروس الذي قلبه وطرده فرسان سماويون ، ثم أقدم الملك انطيوخوس الرابع على عمل انتقامي يهدف الى نشر الحضارة اليونانية ، فعين رئيساً للكهنة يستجيب لجميع رغباته ، وظن بأنه أفلح في مجهوده فأطلق على أورشليم اسم « انطاكية » وشيد فيها حصناً أقام فيه حامية عسكرية وانتهك حرمة الهيكل بذبائح دموية وبإدخال تمثال زفس الأولمبي اليه وكرس معابد محلية بأسماء آلهة يونانيين وأراد فرض أكل لحم الخنزير . فانفجرت اذ ذاك ، في السنة ١٦٦ ، من أعماق الشعب ، ثورة المكابيين التي استهدفت الملك والمستغرقين معاً والتي انتهت ، بفضل ضعف المملكة السلوقية ، الى قيام دولة يهودية مستقلة .

لا ترد هذه الأزمة الى تصلب الاغريق بقدر ما ترد الى تناقض الحضارتين وما أوجده من سوء تفاهم متبادل بين المسؤولين عنهما . وقد كان لحرق انطيوخوس الرابع دور كبير فيها ، أو بالأحرى لخطئه في تقدير نضج التطور الذي تحقق والانقياد الممكن لأوامره . ولكن الشر الأكبر مردّه بنوع خاص الى اغراء الحضارة اليونانية لبعض اليهود والى ان الشعبين لم يصعوا الحد نفسه بين الحضارة والديانة . فاستهوى الاغريق ، بالتالي ، أن يفسروا التمسك بالدين كبربرية متصلبة ، كما استهوى الملوك ان يفسروا المقاومة الدينية كمعارضة سياسية .

أضف الى ذلك ان التعايش ، على الرغم من شتى أعمال العنف ، لم يبق دون ثمرة حتى عند اليهود . فقد انتهت دولتهم المستقلة ، في أواخر القرن الثاني قبل المسيح ، الى ملكية حمل أول ملك فيها اسماً يونانياً هو ارسطوبولوس . ويكفي هذا الحدث للدلالة على ان مناهضة الحضارة اليونانية التي بدأت بثورة المكابيين قد انخفضت ، أقله في هذا الموضوع . ثم ان الأدب اليهودي الذي عرف حينذاك تجديداً أكيداً قد تأثر ، مع محافظته على طابعه الديني ، بالفلسفة اليونانية كما نرى ذلك في كتابي « الجامعة » و « الحكمة » . ويتضح ان واضع هذا الكتاب الأخير ملم بالافلاطونية من مفهوم الألوهة التي لا تتصل اتصالاً مباشراً بالعالم . وهكذا فقد تمهدت الطريق لمؤلفات « فيلون » في العهد التالي .

بيد ان مثل هذه الاتصالات ، التي تأثر بها اليهود العائشون بين « الأمم » خصوصاً ، لا سيما

في الاسكندرية حيث نقلت التوراة آنثذ الى اللغة اليونانية على يد السبعين ، كما يؤكد التقليد ، الذين وكل اليهم بطليموس الثاني هذه المهمة - لم تحل دون استمرار سوء التفاهم ، أقله بين الجماهير . فقد سبب سوء التفاهم هذا ، حتى آخر العهد القديم ، مآسي كثيرة أخرى . واستمر تمسك اليهود بديانتهم بفضل الشيع المعسادية لكل خروج على الشريعة التي تفسر تفسيراً حرفياً ملزماً . ثم أكمل السخط والثورات على الملوك اليونانيين او المستغرقين وعلى روما ما كان ناقصاً : فتغلبت الشريعة في النهاية على الرغم من ضغط الحضارة والجيش الاجنبية .

هكذا استمر وجود أشد الديانات الشرقية تميزاً ، في حركة انتفاضية لم يبد الاسياد اليونانيون أي تصلب مقصود أو أية دعاوة دائمة لخلقها أو لتفاتها . واذا ما استثنينا العسادة السلالية ، التي لم يكن ليأنف منها غير اليهود ، لم يفرض الملوك موجبات دينية في الشرق فبقيت الديانات المحلية على ما كانت عليه .

أما معتقدات الاغريق أنفسهم وطقوسهم الدينية فقد طرأت سنى الديانة اليونانية الخارجي عليها تغييرات عميقة . فلم تعرف الديانة اليونانية التقليدية ، ديانة آلهة الاولمب وآلهة المدن ، مثل ذاك السنى الخارجي . وقد أفصى انشاء كل مدينة جديدة في الشرق الى تشيد معبد على الأقل لأن حماية الجماعة الجديدة وتلاحمها يستلزمان عبادة إله مدينة على الأقل . وكثرت الهبات للمعابد المتمتعة ببعض الشهرة : فازدادت النذورات والتأثيل والمذابح في ديلوس ودلفي وأولبيا . وأخذ الاثرياء والملوك على أنفسهم ، ولا سيما الملوك رغبة منهم في الدعاوة ، تخصيص رؤوس أموال ضخمة للقرض أو للأعمال العقارية فأوجدوا بذلك أوقافاً تقوية يستخدم ريعها للتقادم أو للأعياد الدينية . وفي كل مكان زادت الاعياد عدداً وعظمة ترافقها الذبائح والصاوات والتطوافات والالعب التي حاولوا نقلها ، من حيث أنظمة المباريات والمكافآت ، عن الالعب الاولمبية أو الدلفية ، بغية تأمين الشهرة نفسها لها . وقد اسند تبرير هذه المظاهرات التقوية الى انعامات الآلهة ومعجزاتهم ، لا سيما الخلاص الذي تم على يدهم في ظرف خطير او ظهورهم للبشر . وسعوا آنذاك الى الحصول على معاضدة هاتف غيب ، لا سيما هاتف غيب دلفي الذي يبدو نشاطه المتزايد في هذا المجال وكأنه يواصل عمل المنظم الاكبر للحياة الدينية اليونانية . ثم أرسلوا السفراء الى المدن والاتحادات والملوك بغية الحصول على امتيازات للاعياد والمعبد ، وللمدينة نفسها اذا امكن ذلك . وخير مثل معروف هو مثل « مغنيزيا - على - المندريس » حيث تتيح كتابات عديدة تتبع المساعي المحقة في أعقاب ظهورات أبولون وإلهة المدينة الرئيسية ، ارتيميس لفكوفرييني (« ذات الحواجب البيضاء ») . فبعد السفراء الاول بأربعة عشر سنة أرسل سفراء جدد حصلوا على نتائج باهرة : إذ جمع أربعة ملوك وخمسة اتحادات وأكثر من ستين مدينة التصريحات والتعهدات العاطفة على عيد الإلهة الدلفي وعلى المدينة نفسها . وما هذا سوى مثل بين أمثلة كثيرة .

جرى كل ما جرى وكان الديانة اليونانية، التي استعادت شبابها بفضل الانتصارات السياسية التي حققها مارسوها، تشير في أتباعها تقوى أشد حرارة من أي وقت مضى وتحقق بإجماع الرأي على الحمد والشكر، احتلال عالم جديد احتلالاً أدبياً.

بيد أن ازدهار الديانة الكلاسيكية هذا لا يمثل سوى مظهر فقط من
المخطاها الراهن
مظاهر الحياة المدنية أي مظهر من ظاهرة عامة ومميزة في العهد الهليني .
وليس هذا المظهر أشد وقعاً في النفوس من كثير غيره ، ولكنه أكثر صنعة الى حد بعيد .
فالتقوى نحو آلهة المدن كانت تؤلف جزءاً من مصطلحات الحياة المدنية ، ولم يستهدف التنافس في الظهور بين المدن ، في هذا المجال ، سوى غايات زمنية جداً . فهي إنما ابتغت امتداد شهرتها واجتذاب الزائرين والحجاج وتشجيع التجارة المحلية وإلهاء السكان ومحاولة تجنب بعض الحملات عن طريق الاعتراف بـ « قدسية » المدينة و « حقها بالحماية » ، أي ، عملياً ، الاعتراف بمحصانتها حيال شتى أعمال العنف . وعملياً لم يكن لهذا النشاط ، المرهق للدخل المحلي ، أي شيء مشترك مع العاطفة الدينية الحقيقية . وهل كان بالإمكان أن تكون الأمور على غير هذا الوضع حين تقتصر حياة المدينة نفسها أيضاً ، في غالب الأحيان ، على ظواهر شكلية ؟

أضف الى ذلك ان أدلة عدم أهلية الديانة الكلاسيكية قد برزت بشكل جلي أكثر من ذي قبل . فقد أضرب بها على الدوام انها لم تستجب لاضطرابات قلب الانسان وعقله . ولم تأت إلا بتعليم اخلاقي فردي بدائي ، دونما اهتمام لما هو عادل وغير عادل ، مكتفية بالنشاط الخارجي ، لا بل متخذة ، في غالب الأحيان ، شكل ومعنى صفقة تجارية يعقدها المؤمن مع الإله . وقد تركت الفرد دون سند ودون وعد ودون أمل مطمئن أمام شبح الموت المقض . ولم ترتبط أو أنها لم ترتبط ارتباطاً جيداً بمفهوم عام للكون وجوهره وتنظيمه . وقد اضيف الآن ، الى هذه العيوب الدائمة ، حقيقة ومشهد ضعف المدينة أي الإطار البشري الرئيسي الذي ترعرعت فيه وارتبطت به ارتباطاً قلبياً . وقد برهن اخفاق المدينة السياسي للجميع ان الآلهة الذين التمس منهم الحماية لا يستطيعون أو لا يريدون تأمين السلامة والسعادة لمواطنيها . فتعلم الانسان ، على حسابها ، ان مفهوم المواطن لا يحدده تحديداً كاملاً ويهمل منه بعض مظاهر كيانه ، تلك المظاهر بالذات التي يجعلها شقاؤه أبرز ظهوراً .

وكانت روابط الآلهة الاولمبيين بآلهة المدن أوثق من ان تبقى بعيدة عن هذا الفتور . بيد ان بعضهم ، وزفس بنوع خاص ، قد بدا وكأنه لم يتأثر به ، ولكن السبب في ذلك هو ان اسمهم قد استخدم لاستغراق آلهة شرقيين . ويبدو في الحقيقة ان ديونيسوس قد تمتع بتعلق أشد قوة . فالنجاحات التي احرزتها عبادته ، وهي مدهشة اذا ما فكرنا بالمركز الثانوي الذي احتله في السابق ، لم تناسب مشاغل زمنية فقط . اجل اعتبره اللاجئون والاطاليون جداً لهم ، ولم تكن السياسة بعيدة عن التقوى التي تماهوا بها حياله . ولا ريب ايضاً في ان صفته

كإله المسرح قد عينته بصورة طبيعية كي يصبح شفيعاً لجمعية الفنانين الذين تفسر كثرة التمثيليات آنذاك نجاحهم وأهميتهم . ولكن هنالك اسباباً أخرى لنجاحات عبادته . ومن حيث ان هذا الإله تراقيّ المنشأ ، فإنه كان أقرب الى الآلهة الشرفيين من جميع الآلهة اليونانيين الآخرين الذين دخل بينهم في عهد متأخر . فمنذ الاسكندر ، وعلى خطاه ، اتضحت اسطورة أسفاره ونجاحاته في آسيا وتوسعت بعد ان كانت اسطورة موجزة : فكيفته تكييفاً افضل يتفق وظروف العالم الهليني . اصف الى ذلك احيراً ان « طفولاته » قد أوجدت حوله ، بالتفضيل على اي إله آخر ، جوّاً من العدوبة الرقيقة النضيرة قادراً على استغواء مشاعر ذاك العهد . فلو كان على الديانة اليونانية ، ان تستمد من ذاتها ، دون اي اكتساب جديد ، وسائل تجديدها ، لأسمى ديونيسوس ، على الأرجح ، اعظم الآلهة أهمية . وهو الوحيد ، على كل حال ، الذي ابرز عند اتباعه ، آنذاك ، في ما يظهر ، شيئاً آخر غير الحركات الاصطلاحية الخالية من المعنى الديني الحقيقي .

حدثت مع ذلك تجديدات متفاوتة الاهمية لارضاء ميول البشر العاطفية واحتلت كلها مكاناً في الحياة الدينية وعبرت أحياناً عن ايمان عميق حقيقي .

التجديدات الدينية :
العبادة الملكية والسلالية

فهناك في الدرجة الأولى العبادة الملكية والسلالية . وقد عاجلنا فيما سبق أصولها اليونانية والاشكال التي تلبستها وتنظيمها حيث انتهت الى عبادة رسمية . وقد رأينا ، لجهة العواطف التي تتعلق بها ، توافقها العميق مع نظرية الفاسيلفس أي الانسان المتفوق على البشرية المتوسطة تفوقاً يصبح من الشرعي معه ان يمثل بالآلهة التي يمتلك قوتها . فهي قد عسّرت في الوقت نفسه عن الاعجاب وعرفان الجميل واستنزال الانعامات الجديدة .

ولكن هل كل هذا بكاف للكلام عن عاطفة دينية ؟ انه لمن المغالاة نفيه نفيّاً باتاً شاملاً . فاذا كان التطور اللاحق قد عمّق وعقّد ادراكنا لمثل هذه العاطفة فمن الجدير بنا ان نعود الى الفكرة المكونة عنها سابقاً . لنصنع الى النشيد الذي ألفه أحد الشعراء والذي أنشد في أثينا اكراماً لأحد الانتيجونيين : « الآلهة الآخرون بعيدون ، وهم اما لا آذان لهم واما لا وجود لهم واما لا يعيرون حاجاتنا أي اهتمام . أما أنت فنحن نراك هنا ، لا من خشب أو من حجر بل حاضراً حضوراً فعلياً . لذلك فنحن نبتهل اليك انت أيها العزيز بين الأعزاء ؛ اعطنا السلام قبل كل شيء ، لأنك أنت سيد السلام » . تعبّر هذه الجملة عن روحية نفعية لا يقبل بها ذوقنا . ولكن هذه الروحانية أقرب الى الايمان اليوناني الذي انتظر أبداً من آلهته انعامات مباشرة ملموسة : وقد انقضى وقت طويل قبل ان تبدو مثل هذه الملاحظات ناقصة وغير كافية ، فجاءت خبرة الشرق الدينية تفعل فعلها في هذا المعنى بالذات . بيد ان فجاجة الاعتراف ، من وجهة النظر اليونانية ، وفي اوائل العهد الهليني ، لم تقتصص من تأثيره على الجماهير .

فليس اذن باستطاعتنا ان ننكر ان العبادة السلالية ، في حضارة وفي نظر أناس عزوا الى

القوة ، كقوة ، مصدراً وطبيعة الهيّتين ، ربما جاءت تعبيراً عن تدين لا يقل واقعية عن التدين الذي عبّر عنه من قبل في عبادات آلهة المدن . فهذه العبادات الأخيرة أيضاً كانت رسمية ومفروضة ومتحجرة في طقوس اصطلاحية . فلم تضاف العبادة السلالية الى هذه النقائص سوى التسهيلات التي وفرتها لتملق خسيس ولخضوع أكثر سلبية لأوامر سلطة أعظم قوة : وهذا التباين تباين في الدرجة لا في الجوهر . فيجب من ثم ان تفسر هذه العبادة كاستعاضة عن العبادات القديمة التي غدت آنذاك غير كافية لإيقاد ايمان الجماهير . وان هي لم تدخل على الحياة الدينية عواطف جديدة فقد وفرت لها على الأقل أشكالاً جديدة .

لم تخل الفلسفة الهلينية ، أقله في بعض مدارسها ، من الاصداء الدينية .
 التجديدات الدينية .
 عبادة إله الحظ
 فقد ساعد نجاح تعليم افيميروس الذي زعم ان اقدم الآلهة اليونانيين ، بما فيهم زفس نفسه ، قد عاشوا حياة البشر ، لا بل حياة الملوك المحسنين ، فألهم رعاياهم الشاكرون ، على تقبل وازدهار العبادات السلالية . وذهبت تعاليم أخرى الى أبعد من ذلك . فانتهدت الرواقية مثلاً الى مفهوم إله واحد ، خالق وسيد الكون ، ولا يمثل الآلهة المعروفون سوى مظاهره التي يسهل على الانسان الوصول اليها . فتوفقت بذلك الى الاحتفاظ بالاساطير مفسرة إياها كرموز . ولكن هذه النظريات السامية لم تكن لتبلغ وترضي سوى نخبة قليلة العدد .

أما الديانة الشعبية فيبدو انها لم تنقل عن الفلسفة سوى مفهوم واحد هو مفهوم « إله الحظ » . وقد نشأ هذا المفهوم عن المدرسة المشائية التي واصلت تعليم ارسطو ، وعرف نجاحاً كبيراً جداً عند اغريق يتفاوتون مستوى عقلياً . وقد مثل هذا المفهوم حظاً عاماً يرتبط به مصير الاسانية جمعاء ، وليس قط مرادفاً للصدفة الخرقاء أو لجمعية لا تعفو . وعزيت اليه بعض الاهواء ، ولكن عزيت اليه أيضاً بواعث أملاها عقل لا يدركه الفكر البشري لسوء الطالع . واذا لم يكن هنالك أية طريقة لتليينه ، فانه لم يكن من المنوع الابتهاال اليه فحسب ، بل التفكير في اسباب المصائب أيضاً وفي استخلاص النتائج الضرورية : وقد سيطرت فلسفة الحظ هذه على مؤلفات بوليب التاريخية في احدى مراحل تحضيرها . ولكن قد سلّم بالاضافة الى ذلك ، لاسيا في الأوساط الأمية او شبه الامية ، بوجود حظوظ كثيرة ، واحد لكل فرد وواحد لكل جماعة فتمكنت التأثيرات الشرقية ، أقله في هذا الحقل ، من ان تفعل فعلها عن طريق مفهوم « غاد (gad) » السامي ، الحامي الخاص لكل مدينة . وقد درجت عادة مدعوة لديومسة نادرة ، عن طريق تشخيص إله الحظ في اطاكية الذي ذاعت شهرته بفضل تمثال لافتيخيداس ، تقضي بتشخيص المدينة بصورة امرأة تتوج رأسها الابراج . ومن المسلم به ان التقوى كانت أكثر حرارة نحو الحظوظ التي تبدو اعظم قوة ، وبنوع خاص حظوظ الملوك التي كانت موضوع عبادة وتقسيم الايمان باسمها . ويمكن القول ، على العموم ، ان عبادات قليلة عرفت الانتشار الذي عرفته هذه

الدابة : فلم يكن في الحقيقة من ديانة افضل انسجماً مع اختبار عالم مجهول شاهد الكثير من الارتعاعات المحزنة التي عقيتها كوارث فجائية ايضاً .

تتمسك دون صعوبة ، مع العبادة الملكية ، بقدر بعدها عن مجرد التملق ،
الحديدات الدينية : وفي عبادة إله الحظ ، اجماع الرغبة في تأمين السعادة بفضل قوى متفوقة .
القلوب والخلص وقد سكّ الاضطراب النفوس وبحث الناس عن الخلاص بقلق شديد .
وقد عبروا عن هذه النزعة بقوة بادرة في لقب « المخلص » الذي اطلق آنذاك على الكثير من الآلهة القديمة والجدد ، والكثير من الملوك ايضاً : فكان شعورهم بأنهم في مأمن من اخطار الحياة والموت السرط الأول للسعادة .

وقد ابتهاوا بحرارة الى اسكليبيوس ، الإله الشافي ، للتخلص من الآلام الجسدية . فهو قد قبل منذ زمن بعيد في مصاف الآلهة اليونانيين وكان له معابده ، وأشهرها في كوس احدى جزر بحر ايجه ، وفي اينذورس من اعمال الارغوليد . فتوافدت اليها جماهير غفيرة لم يستق لها مثيل من ذي قبل . وكانت شهرة مؤسسته الطبية الدينية التي تخرج منها الأطباء الكثيرون احد مقومات اردهار كوس حيث حرصت الدولة على حمايتها واستمرارها عن طريق المساعدات المالية . اما في اينذورس فقد اقتضى توسيع الابنية حيث كان المرضى يقضون ليالهم ويجمعون ، في الاحلام التي تراود سباتهم ، الدلالات التي يفسرها الكهنة لتوجيههم في معالجة آلامهم : وتشهد اليوم نذورات كثيرة ، ترافقها الكتابات التفسيرية ، بحيل المرضى المدينين لجود الإله بشفاء عجائبي .

ومن الآلهة النصرء والرحماء والمخلصين ، على غرار غيرهم لا بل اكثر من غيرهم ، اولئك الذين استنضعوا طمأننة الانسان حيال اخطار الحياة الثانية . وتوصلوا الى ذلك بايقاف المؤمن على اسرارهم . وقد سبق للحضارة اليونانية الكلاسيكية ان عرفت هذا الشكل من الحياة الدينية التي انتشرت في حينه انتشاراً غريباً في معابد يونانية وشرقية قديمة وجديدة . فعلى بعض المسافة من أثينا حافظت الفسيس الرسمية على زينها واستالت الكثير غيرهم ؛ ولكن الفسيس جديدة قد اسثنت على مقربة من الاسكندرية لم تقم ، والحق يقال ، الا بنشاط ثانوي . غير ان السوق التي راجت هي سوق اسرار اخرى بسبب ما انطوت عليه احتفالاتها من مسرحية وتأثير ، حتى انها قد اتهمت بالشعوذة والدعارة . وكان لديونيسوس ، الذي سبق تكريمه في الفسيس ، اسراره الخاصة التي اصبحت لها فروع كثيرة . واذا وجد الاغريق هذه الاسرار في تراث اجدادهم الديني ، فانهم لم يأنفوا من الاشتراك بغيرها مما يمت بصلة الى العبادات الشرقية كعبادات « اتيس » و « وسيبيل » في آسيا الصغرى وعبادات اوزيريس وايزيس في مصر .

نحن لا نعلم حق العلم تفصيل هذه الاحتفالات التي توجب على المشترك المبتدى ، ان يعتمص بالسمت حياها . ليس من ريب في ان الطقوس والصيغ قد اختلفت باختلاف الآلهة . غير ان

المؤمن قد وجد في كل مكان تهديئة لاضطرابه وقلقه : فانه كان يحضر قيامة إله ميت ، فيقف بذلك على اسرار الموت والتجدد . قد تكون اسرار الفسيس قد وقفت عند هذا الحد . ولكن الاسرار الاخرى قد قادت المشترك الى ابعد من هذا . فبعد تطهيرات مختلفة كان يتمثل بالإله ويشترك في طبيعته الإلهية . وكان أيضاً يتعود حالات نفسية جديدة كالانخطاف ومحبة الإله المتألم للذين من شأنها إدخال الذمول الى قلب اكثر الناس خشونة . كما كان يواجه مفاهيم جديدة لم تتعرض لها العبادات اليونانية قط عملياً ، كمفهوم الخطيئة ، ومفهوم الطهارة ، لا الطهارة الجسدية التي يحصل عليها بالاستحمام والصوم فحسب ، بل الطهارة الأدبية ايضاً . فوفر له كل ذلك ، بالاضافة الى الوعود التي لا تقدر بثمن ، تنمية حياته الداخلية ، التي كانت متروكة لنفسها فغدت منذ ذاك مستنيرة وثابتة . وهذه كلها فتوحات لم تكن النفس البشرية لتقبل بالتخلي عنها بعد الآن .

أضيف كثير من هذه الاسرار الى عبادات آلهة شرقيين : ولكن
 التجديدات الدينية :
 الاغريق ، على الرغم من ذلك ، لم يحيدوا عنها . فقد برهنوا
 العبادات الشرقية لسيرايس
 أبداً ، على الصعيد الديني ، عن قابلية للاقتباس ، معترفين
 بنواقص معتقداتهم الخاصة ومستعدين للاستعاضة عنها باقتباسات عن الشرق . بيد انهم ، عندما
 تبينوا رسمياً عبادات غريبة ، بذلوا الجهد لتكييفها ولتطهيرها ، اذا صح التعبير ، باخضاعها
 للعقل : هذا كان مصير عبادة ديونيسوس في قلب اليونان الكلاسيكية ، اثينا . اما العبادات التي
 بقيت هي هي ، محتفظة بميزاتها وطقوسها الاصلية ، فقد استطاعت التسرب الى بعض المدن ،
 لا سيما الى المرافىء ، ولكن احياناً وبصورة خاصة فقط : هكذا استفادت عبادة إيزيس ، في
 البيرة ، من بعض التساهل ، ولكنها لم تحظ بالاعتراف الرسمي . وتبدل الوضع منذئذ تبديلاً
 كلياً . فأقيمت الاتصالات بالآلهة الشرقيين بصورة حتمية مباشرة وعلى اوسع نطاق ، شئت
 الدولة تسهيلها أم ابت . ولم تحاول الدولة ، في اي مكان ، من جهة ثانية ، التعرض لها
 فسنحت للاغريق فرصة تنميات روحية كثيرة قد تبدو خيانات محضة في نظر الحضارة
 اليونانية الكلاسيكية .

وقد حدثت تقاربات مدهشة . فتعرض يهوه نفسه للضم ، على الرغم من تميره وارتهاطه
 الوثيقي بشعب معين . فإن كلمة « الاعلى » كانت منذ قبل ذلك صفة لزفس . فاعتمدت لاسم
 اكثر غموضاً هو « ثيوس » (الاله) ، فاوجد بذلك اله جديد ، شبه غفل ، يسهل التوفيق
 بينه وبين بعض التعاليم الفلسفية ، لم يتردد الكثيرون ان يروا فيه إله اليهود . وآثر غيرهم تمثيل
 إله اليهود بديونيسوس ، باسمه التراقي ساباذيوس ، الذي كان من السهل ، بصدد ، تلبس بعض
 الكلمات كسبت وصباؤوت . وحملت استدلالات أخرى على الكلام عن زفس الدمشقي وزفس
 الدوليكاني اللذين ليسا سوى الإله حدد في دمشق ودوليكي . ودفعت إذ ذاك نزعة غريزية النفس

اليونانية على البحث عن إله كلتي القدرة يستجيب الصلوات ، وعلى خلقه عند الحاجة . وهكذا فقد شقت الطرق ، ولو بصورة غامضة جداً ، التي كان باستطاعتها ان تؤدي الى التوحيد .

حاول البطالسة توجيه هذا المجهود وفي الوقت نفسه توحيد الاغريق والبلديين المصريين في عبادة مشتركة . فأوجد بطليموس الأول ، توصلاً لهذه الغاية ، إلهاً جديداً هو سيرابيس ، ونظم عبادته بعد ان استشار اغريقيا والكاهن المصري مانيتون ، وهو الذي عهد اليه وضع موجز لتاريخ مصر الفرعونية باللغة اليونانية . وقد شيد المعبد الأول للاله الجديد في منف المدينة المصرية الصرفة ؛ ولم يشيد له معبد آخر إلا في عهد بطليموس الثالث في الحي البلدي من الاسكندرية المعروف باسم راكوتيس . ولم يكن اسم الإله نفسه سوى إله الأموات في منف ، « اوزيريس - أبيس » الذي شوّهه الاغريق فدعوه اوزورابيس وسارابيس وسيرابيس . وقد احتفل بعبادته في هذه المدينة ، وفاقاً لطقوسها الخاصة ، الكهنوتان اليوناني والمصري ، وكان الكهنة المصريون أكثر عدداً الى حد بعيد . غير ان النفوذ اليوناني لم يلبث ان وطد سيطرته ، لا سيما بفضل تماثيل النقاش « برياكسيس » الذي ابتكر طراز الرسم الاصطلاحي للاله ، كما يغلب على الظن . فهو قد سكب فيه خاصيات منقولة عن آلهة يونانيين عديدين كزفس ، بسبب قوته ، والإله الشافي اسكليبيوس وإله الأموات هادس : فاذا به قد مثل انساناً مهيباً ، يفيض محبة عطفاً ورحمة ، كثيف اللحية وأجعد الشعر ، يكسو رأسه المكيال رمز الخصب ، جالساً على عرش ، قابضاً على عصا طويلة بيده اليسرى وملقياً يده اليمنى على كلب . وادا كان الإلهان المصريان ايريس وانوبيس قد اشتركا مع الإله في معبد منف أيضاً ، واذا دفن فيه كل « ابيس » يموت ، فقد وحد فيه من جهة ثانية هيكل لدوبويسوس ، كما قام أمامه ببناء سداسي الشكل أحيط فيه تماثيل هوميروس بخمسة تماثيل لفلاسفة يونانيين وخمسة تماثيل لشعراء يونانيين أيضاً . فكان الإله والعبادة ، بالتالي ، يونانيين ومصريين في آن واحد ، يغلب فيها طابع الحضارة اليونانية . التي لم رض يوماً بالتنكر لما كان ولا يزال سبب عظمتها . ولذلك فليس من الغريب اذا لم يكثر البلدون المصريون عملياً لسيرابيس ، في حال انه تمتع بمركز ممتاز في الأوساط اليونانية ، بفضل ما انطوى عليه من خصائص غريبة عن الحضارة اليونانية الكلاسيكية ، كما رجح . وقد كرست له ، في كل مكان تقريباً ، معابد احتفل فيها بالأسرار أيضاً : في آسا الصغرى ، وديلوس ، وتراقيا ، واليونان نفسها . وهو الذي مهد الطريق أمام انتشار عبادة وأسرار ايزيس في الامبراطورية الرومانية جمعاء .

على الرغم من ان الاحتياطات المتخذة للحفاظ على بصيب العناصر اليونانية ، استمر إذن استقلال ونفوذ الشرق دينياً بلا منازع . وقد اجتذبت عباداته ، دون أي تساهل ، العديد من المؤمنين اليونانيين الذين وصلتنا منهم ، باللغة اليونانية ، شهادات تقوى لا تحصى نحو آلهة « برايرة » لا غش فيهم . فامتدت عبادات هؤلاء الآلهة ، بواسطتهم ، نحو الغرب ، الجزر ولا سيما ديلوس

أولاً ، واليونان ثانياً . وقد أسهمت بعض الاسهام في هذا الغزو بلاد بابل نفسها التي فقدت ديانتها القديمة كل قوة توسعية واقتصرت في نشاطها على محاربة الفناء ، وذلك بواسطة التنجيم والسحر اللذين مارسهما من أطلق عليهم اسم « الكلدانيين » او « المجوس » أيضاً — لأن هذه العلوم الباطلة قد أشيعت ، على العموم ، باسم زرادشت — وتجدر الإشارة هنا الى ان جميع الديانات الشرقية ، التي ستتقاطر الى روما فيما بعد وتنتشر منها في المقاطعات الغربية من الامبراطورية ، قد بدأت تتوسع حتى قبل الفتح الروماني : فلم يكن دور السيطرة الرومانية ، على هذا الصعيد كما على غيره ، سوى توسيع نطاق التطور السابق .

فلا يبدو إذن من الغلو بشيء التكلم ، بصدد الاغريق ، عن ثورة دينية كان فتح الاسكندر منطلقاً لها . فان هذا الفتح ، بتخليصهم من اقتسارات الديانة المدنية ، قد حرر فيهم احساساً وصوفية خفيين ولكن مكبوتين . وقد أتاح لهم ، باقامتهم في عالم اتسعت آفاقه تمكنوا فيه من اغتراف الدروس ، اختبارات أثارت حماسهم الحاد . فاكتشفوا في آن واحد ثروات الشرق المادية والروحية التي سحرتهم لفترة طويلة . وادالم يفرض عليهم استخدام الثروات المادية أي تمرين ، فقد توجب عليهم ، حيال الثروات الروحية التي كالوا أمامها شبه مبتدئين ، ان يرضوا بالتملذ لرعاياهم . فقد أحسوا نهائياً ، في هذه المدرسة ، بما يجعل نفوسهم غير راضية وتململوا تقوى جديدة قوامها القلق والحمية .

٢ — الفن

الهن اليوناني والفنون البلدية باستثناء بعض التقنيات ، لم يكن الشرق ، في الحقل الفني ، ليبرز معلماً حيال الاغريق الذين ثبت تفوقهم فيه منذ زمن بعيد . لا بل ان أثر الفن اليوناني ، منذ قبل الاسكندر ، قد تسرب الى أماكن كثيرة من ساحل آسيا المتوسطي وحتى الى البلاط الفارسي . فكان الفن الهليني بالتالي فناً يوناني الجوهر بصناعيته وبتحقيقاته . ولم تحافظ الفنون المحلية على حيويتها إلا في بعض المناطق المحدودة جداً . واذا ما نظرت الى الشرق في مجموعه ، رأينا ان هذه الفنون لم تجد عملياً فرصة سانحة للظهور ، إذ ان النخبة الاجتماعية ، التي كان باستطاعتها احياءها عن طريق طلباتها ، قد اهتمت او أعرضت عنها بعد ان فقدت روحها القومية .

ولم يخرج عن قاعدة هذا الانحطاط العام سوى شواذ نادرة . وبالإضافة الى اوروك في بلاد بابل ، حيث يفسر استمرار حياة كهنوتية يعطف عليها السلوقيون تشييد وترميم المعابد التقليدية ، تكون مصر السدوذ الرئيسي . وفي وادي النيل تساوى تصميم الملوك اليونانيين على الابقاء على التقاليد الاجتماعية في الحقل الفني وفي الحقول الاخرى . فشيدت المعابد المصرية وزينت جدرانها بالمشاهد الكلاسيكية : ولكن هنالك فوارق طفيفة ، كالسعي وراء التناسق في القياسات ، تحمل على الاعتقاد بجوار بل باشتراك اغريق يخضعون لعلم آخر في سنن الجماليات . أما البناء

الوحيد الذي يبرز فيه الاثر اليوناني بروزاً محسوساً ، بتمثيل أشخاص يرتدون الألبسة اليونانية ، وببعض الجزئيات ، كتكريم ديك أو وجود طفل على ذراع أمه ، فهو مدفن « بيتوزيريس » ، المصري الذي ينتمي الى اسرة كهنة ؛ وقد يكون هذا المدفن سابقاً لفتح الاسكندر أيضاً .

سيطر الفن اليوناني سيطره لم ينازعه فيها منازع ، ولكنه خضع لتجديد
تجديد الفن اليوناني عميق الجذور . بيد ان ذلك لا يعني أنه نقل عن الفنون الشرقية فوق ما نقلت عنه . ويفسر تحولاته ، التي دلّ عليها تطوره السابق ، الظروف المختلفة التي كانت على نشاطه ان يبرز فيها .

نشأ التجديد عن المدد الذي وفّره ، لبعض النزعات الظاهرة منذ أواخر العهد الكلاسيكي ، الميل لاحساس جديد . فدخلت على الفن المعاني الروحية والقدرة على التأثير الديني . فاصطبغت الوجوه ، وحتى المآظر الطبيعية أحياناً ، بصبغة صوفية . ولم يكن كل شيء ، من جهة ثانية ، من النوع نفسه في الميل العاطفي الذي أعرب عنه زين أقل اهتماماً من ذي قبل بالتناسق المنطقي . وكان من شأن التأثير ان ينقلب اضطراباً وعنفاً ، حتى بشكل خارجي . فاستفاد الفن من ذلك عند الاقتضاء ، غير مقتصر على إعادة الأزمات والآلام النفسية ، باحثاً في قوة التأثير والضوء عن وسيلة للتعبير عن هوى النفس .

تحسنت الظروف المادية للحياة الفنية تحسناً عظيماً . فمنذ العهد الكلاسيكي شرعت المدن اليونانية في التزين والتجميل . واستمرت هذه النزعة ، لا بل توطدت ، وخضعت لها المدن الجديدة العديدة في الشرق على غرار مدن اليونان القديمة ، واعتزت كلها بهذا التنافس . وأفضى نمو البورجوازية الى ازدياد عدد الزين الميسورين الراغبين في البذخ الكمال واللذة في الحياة الخاصة والعامة . فنتج عن ذلك ازدياد عظيم في الطلب وارتفاع في عدد الفنانين المهنيين الذين غدت حياتهم اليومية أكثر سهولة ، وأكثر ازدهاراً في غالب الأحيان . غير ان جودة المصنوعات قد تدنت دونما ريب بفعل ظهور وانتشار ما يمكن تسميته بالنماذج القياسية الموافقة لأذواق طبقة اجتماعية أمست أكثر عدداً من ان تبقى نخبة ثقافية واصبحت هي نفسها « قياسية » ، اذا جاز التعبير ، إذ اننا نراها منشابهة جداً في جميع مناطق العالم اليوناني .

أجل كان هنالك ، في الوقت نفسه ، زين آخرون مولعون بالثقافة العليا ومتمتعون غالباً بالوسائل اللارمة لبلوغها ، يطلبون من الفنانين ارضاء أذواق اخرى اعظم رقة ، أعني بهم الملوك وبلاطاتهم . وقد انطوت طلباتهم على البذخ والعظمة ايضاً اللذين من شأنها اعلاء شأن جلال السلطة . ولكن التربية التي أعنتي بها اعتناء خاصاً منذ ان استطاعت السلالة تأمين بعض الاستقرار ، والبطانة التي حرصت على استمالة اولئك الذين يستطيعون ، بفعل شهرتهم ، تجديد حكم الملك ، قد أدخلتا عليها مشاغل وتصنّعات تفوق الى حد بعيد تلك التي اكتفت بها البورجوازية

المدنية . وقد حلت نصره الفنون هنا كافة مشاكل الفنانين المادية حلاً أكثر شمولاً منه في المدن، غير أنها قد وجهتهم شطر تحقيقات، أما فخمة وأما بالغة في الدقة، لم تكن دون غيرها مناقضة لتحقيقات العهد السابق .

١ - هندسة العمارة

كان باستطاعة هندسة العمارة الهلينية أن تنقل عن الشرق القوس والعقد
الابنية الكبرى والقبة مثلاً. غير أنها، على معرفتها بها، لم تستخدمها إلا نادراً جداً، متمسكة بالأساليب الكلاسيكية التي حصرت جهودها في اتقانها . وإذا كان عدد الابنية المشيدة آنذاك عظيماً جداً فلم يأت سوى القليل منها ، في تصميمه وتحقيقه ، ببعض الجودة . وما تجديد هندسة العمارة اليونانية ، خصوصاً ، سوى في جمع العناصر القديمة لتحقيق مجموعات عظيمة .

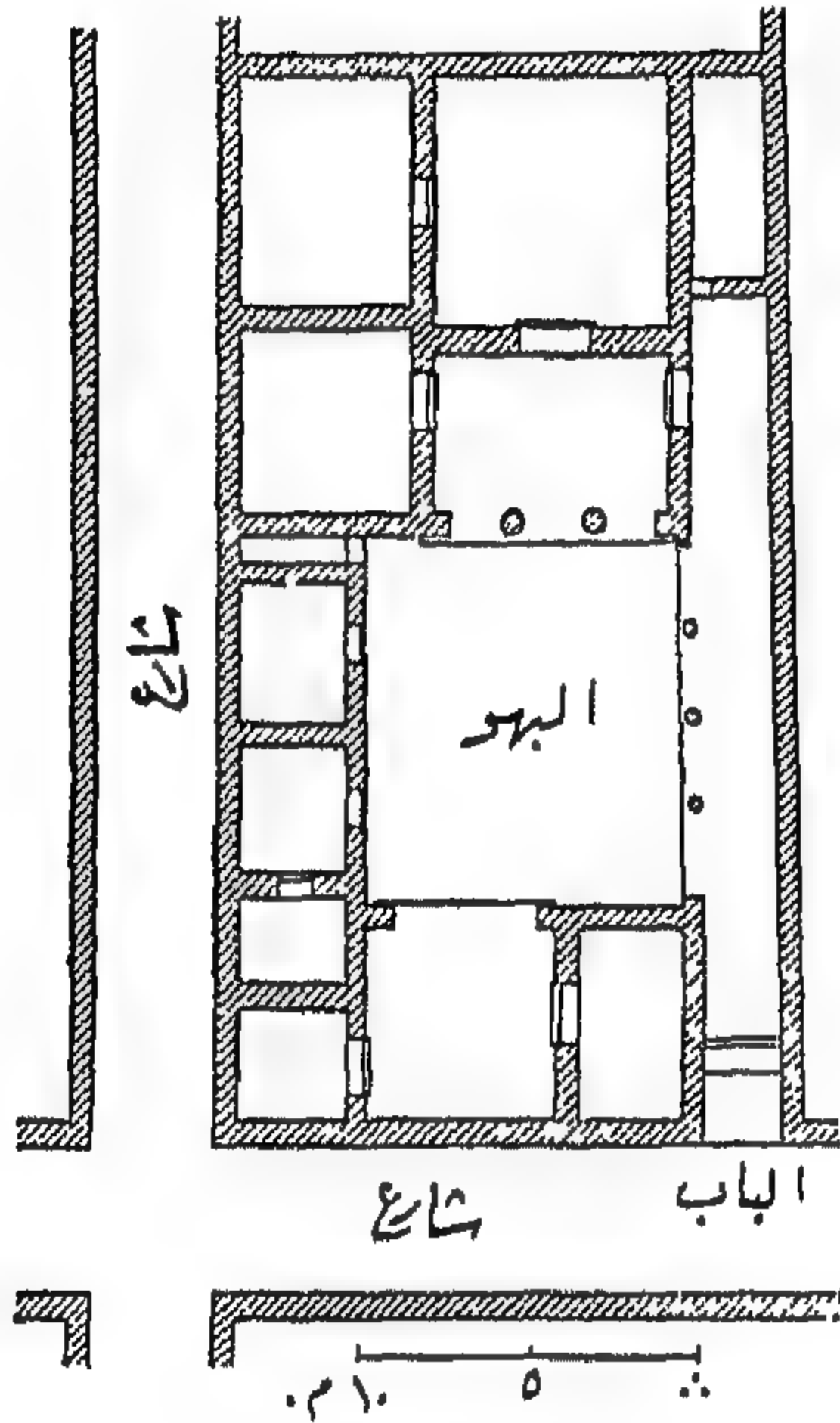
يبرز هذا الاستمرار في طراز المعبد الذي شيدت منه نماذج لا تحصى بسخاء أملت مصطلحات التقوى الرسمية . والجدير بالملاحظة أن الفنانين ، انهم اعتمدوا في بناء المعبد مواد وتزييناً غالباً ما تم عن غنى نلمس فيه التباهي ، لم يعودوا به إلى القياسات الضخمة التي أهملها الذوق السليم في العهد الكلاسيكي . أما تصاميم المعابد الكبيرة التي عكفوا على تنفيذها ، دون التوصل إلى إتمامها قبل زمن طويل ، أي في القرن الثاني بعد المسيح للقسم الأكبر منها ، فقد وضعت أقله في القرن الرابع ، كتصاميم معبد زفس الأولي الذي يعود الفضل في الشروع فيه في أثينا إلى بيسستراتوس . وقد يفرض هذه التصاميم أحياناً استخدام بقايا أبنية سابقة تهدمت عرضاً .

وبما لا ريب فيه أن الأبنية المستهجنة الطراز قد بقيت نادرة جداً . ولعل أغرب مثل عنها، أبرزته أعمال التنقيب ، هو معبد « ديديموس » الذي تعهدت « ميله » إعادة بنائه منذ الإسكندر وواصلتها طيلة قرون . بلغت قياسات أساسه ١١٦ × ٥٢ مقابل ٧٠ × ٣٠ للبارثون . وانتصبت أمام مدخله عند وجه البناء أعمدة أشبه بالحرج بسبب كثرتها ، موزعة على خمسة صفوف ؛ واحاط بالبناء صنفان آخران أيضاً . وفي داخل الجدران ، أدت اثنتان وعشرون درجة تتجه إلى الأسفل إلى فناء طلق قام فيه معبد صغير لأبولون . لا يمكننا ، أمام هذا الخروج عن المألوف ، إلا أن نفكر بالشرق وبقاعات الأعمدة في المعابد المصرية وبالفناءات الداخلية في معابد شرقية كثيرة . ولكن إلى أي تاريخ تعود هذه التأثيرات يا ترى ، ما دام العمل قد تناول إعادة تشييد بناء التهمة النيران ؟ فقد ابقى مثلاً على التماثيل الجالسة القديمة جداً ، العائدة لأسرة البرتخين الكهنوتية ، المرتبة على طول الطريق المؤدية من المرفأ إلى المعبد وفاقاً للطرق المصرية التي تحف بها تماثيل أبي الهول والكباش .

وعلى نقيض ذلك فقد برز هنالك طراز جديد ، يوناني بحت ، على الرغم من خصائصه المميزة ، أن لم يكن لمعبد فأقله لعمل هندسي غايته دينية : المذبح الضخم لزفس المخلص في برغاموس . ارتفع على مقربة من أعلى قمة في المدينة ، داخل شبه مربع واسع يحده رواق

مزدوج من جهاته الأربع . وقام المجموع على اساس ذات درجات وادى اليه من جهة الطريق المقدسة سلم عظيم يشارف عليه جناحان من الرواق . ولكن هذا لم يكن بناء بالمعنى الصحيح بل تنظيماً لمساحة خالية من البناء ؛ وفي الحقيقة كان المهندس المعمار ، هنا ، مهندس تجميل .

يبين هذا المثل ان هندسة العمارة الهلينية لم تنفر نفوراً مبدئياً من التحقيقات الفخمة التي من شأنها ان تدهش العقول بقياساتها غير العادية . لا بل كان من المحتم ان تخضع لهذه النزعة التي تتفق كل الاتفاق والوقائع السياسية والجغرافية والمالية السائدة التي اتسع نطاقها الى ما لا حد له . اجل لقد صمم « جيسار » رودس المجوف كتمثال لهيوس ، الإله الشمس ، إله المدينة ، وصنع من عدة فدرات ضخمة . ولكن يجب ان نخص بالذكر البرج الثلاثي الطبقات البالغ علوه ١٢٠



الشكل ٢٨ - بيت هليني في بريسا (ايونيا)

متراً الذي شيده المهندس المعمار سوستراتوس الكنيدي عند مدخل مرفأ الاسكندرية وكان معداً لأن يرشد ، بواسطة النار المشتعلة في قتمته التي تعكس المرايا لمعانها الى مسافات بعيدة ، المراكب المتوجهة نحو المرفأ . (انظر الشكل ٢٦ - ص ٤٥٧) .

وهناك نزعة تجديدية اخرى في هندسة العمارة الهلينية تفسرها زيادة الامكانيات المالية أيضاً . نحن نجهل كل شيء تقريباً عن القصور الملكية التي لم يكشف التنقيب فيها عن شيء حتى الآن . ويجب في ما يظهر ألا نتصور أبنية عظيمة ، بل أبنية متنوعة ، زاهية ، مجهزة لرخاء العيش اكثر منه للآلهة الرسمية ، موزعة في رياض غناء فتن الملوك الشرقيين أبداً بنضارة اخضرارها . والوصف المفصل الوحيد الذي لدينا يعود للسرادق المعد لبطليموس الثاني لمناسبة عيد سلاي كبير ، ولقصر عائم معدّ لنزه بطليموس

الرابع وبطائنه على النيل : وكلاهما مظهر عظيم وتعبير مؤثر عن الملكية اللاجبية ، ولكن هذا المظهر وهذا التعبير زائلان او عرضيان لا يسدّان فراغ القصر الكبير الذي احجمت عن تشييده ، لأنه ما كان يستجيب لرغبات ملوكها لو شيّد .

على نقيض ذلك ، أظهرت اعمال التنقيب ، لاسيما في المدن الأسيرية كميله وبريننا ، او البحرية كديلوس ، بيوتاً خاصة لا تحصى . وطبيعي ان المساكن الضيقة الفقيرة التي ازدحمت فيها عائلات الطبقة الشعبية قد ألقت سوادها الأعظم . غير أنه قد برز الى جانبها طراز سكني جديد درج الكلام معه عن « البيت الهليني » تمييزاً له عن بيت العهد

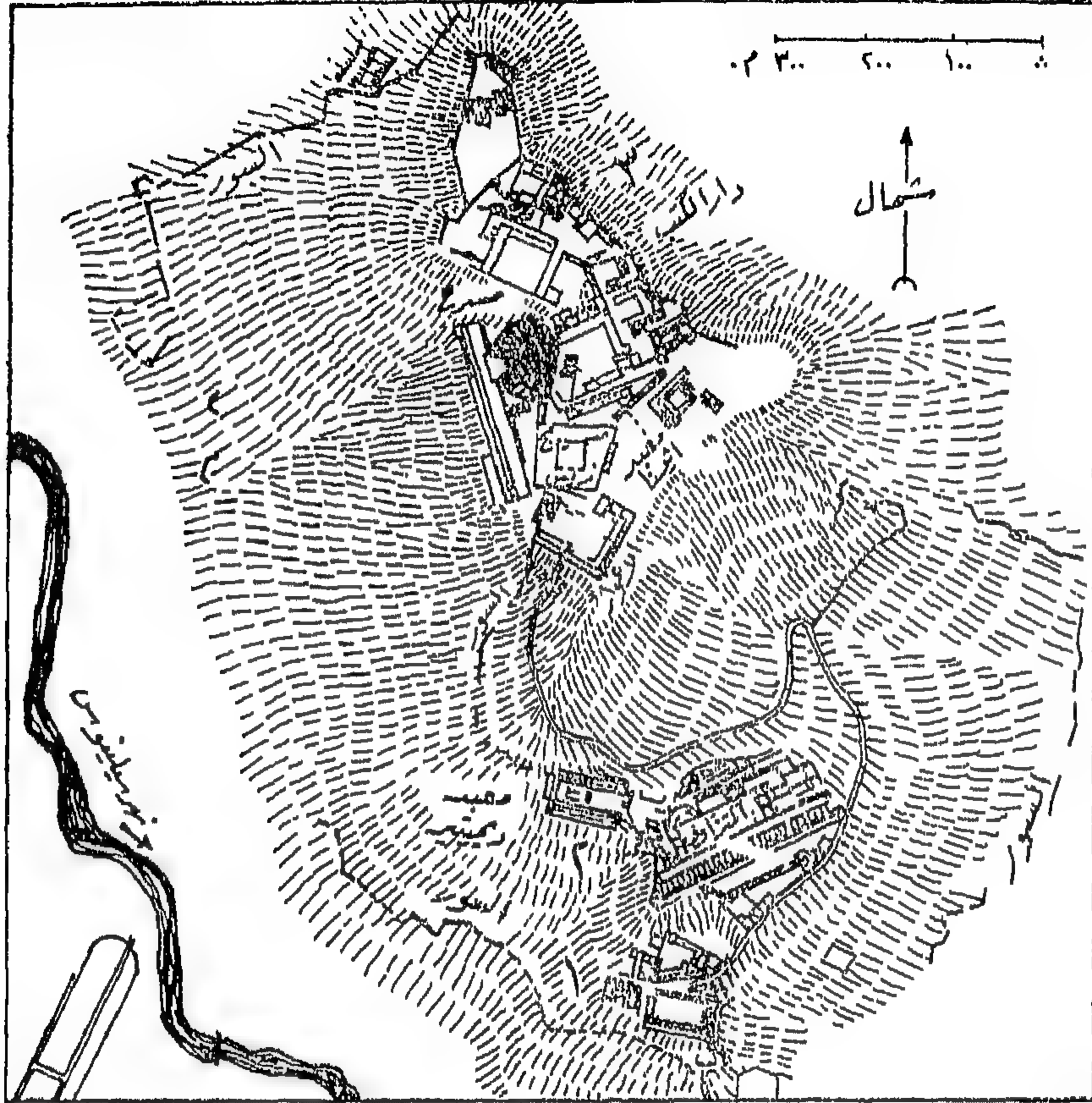
الكلاسيكي . وليس من شك في ان البورجوازية ، الراغبة في سعة العيش والرفاهية ، او الفخفة احياناً ، والمزودة بالوسائل اللازمة لادخال البهجة على حياتها اليومية ، هي التي روّجت اعتماده . يشغل البيت الهليني مساحة اكبر : فمساحات البناء كانت اوسع من ذي قبل في المدن الحديثة وفي المدن القديمة ايضاً التي ضمت اليها احياء جديدة . ولم تفتح فيه نوافذ تطل على الخارج ، بل باب واحد فقط يؤدي الى ممر جانبي مظلم : فالبيت الذي هو ملجأ الحياة الخاصة يجب ان يكون في مأمن من المذال . ولكن الغرف — وهذا هو التجديد الكبير — كانت مفتوحة على فناء وسطي مجهز في الغالب برواق ذي أعمدة يقي من المطر والشمس ، او اقله ، ببعض الاعمدة التي تنتصب أمام مدخل القاعة الرئيسية .

كان هذا البيت كبيراً وحسن التهوية . وكان مزيناً ايضاً . فقد رصفت ارضه بفسيفساء ملونة اعتمدت فيها الرسوم الهندسية او مواضيع تزيينية اخرى . وكثيراً ما ألبس القسم السفلي من الجدران بالصفائح الرخامية . وقد أبدل الرخام النادر احياناً ، في دلتا النيل مثلاً ، بالجنس الملون . ولم يكن من النادر ان تزين الجدران برسوم تمثل الحداثق او المناظر الريفية . هكذا نشأ في الشرق المتوسطي ذلك المسكن الخاص الذي سيتوسع ويتزوق مع الزمن ، وتضاف اليه احياناً حديقة كبيرة ، والذي سيفضي الى بيت بومبي الذي تحملنا المقارنات الكثيرة على الاعتقاد بأنه كان يونانياً اكثر منه رومانيا .

المدينة اذا ما نظرنا الى كل مدينة على حدة ، لم يظهر لنا أي تغيير هام في عناصرها التقليدية ، الاغورا والمتزاوف والمسرح الخ ، التي كوّنت على الدوام الاطار المادي لحياة الاغريق الجماعية . ولكن تجديداً قد حدث مع ذلك : فان هذه العناصر التي كانت مستقلة حتى ذاك العهد قد جمعت كي تؤلف كلاً واحداً وخططت وأعدت وفقاً لرسم عام وحولت الى اجزاء من كل منظم تحقيقاً لأهداف جمالية ومادية . اما قسط الهندسة الهلينية في هذا التجديد فهو مفهوم المدينة : فيبدو انها اكتشفت وجود المدينة ووحدتها ككائن مادي لا يختلف في تميزه وتفوقه على مجرد تلاصق الأبنية العامة والمساكن ، عن تميز البولس وتفوقها على مجرد تجاور الافراد . فنشأ من ثمّ التجميل الذي برز منذ البداية كفن وعلم وتقنية ادارية .

اذا ما اسنثينا بعض المدن التي انشئت في عهد متأخر نسبياً — كمرفأ البيره واولنشوس — اتضح لنا ان المدينة في العهد الكلاسيكي قد بنيت بلا تبصر ولا قصد ولم يواجه فيها المستقبل كما لم يهتم فيها لغير المشاكل الخاصة الحالية . أما المدن الهلينية ، باستثناء بعضها — كديلوس مثلاً — ، فقد صممت وفقاً لخطط كان تنفيذه من الأمور السهلة لأنها على الغالب مدن جديدة . وقد أخذ بعين الاعتبار ، في مخططها الهندسي وشوارعها المتوازية المكونة بتقاطعها زوايا مستقيمة ، توسعها اللاحق ، فأفسحت مساحات طليقة للساحات العامة وللأبنية الضرورية لتفتح الحياة الجماعية ، ووزعت الأبنية العامة توزيعاً منطقياً وفقاً للغاية الموضوعة لها . فأوجب ذلك نوعاً من الوحدة

في القياس والقاعدة. غير ان طبيعة الأرض قد أخذت بعين الاعتبار، أقله، لتحديد تخطيط السور وموقع كل من القلعة والمسرح الذي كان من شأن اسناده الى منحدر احدي التلال ان يخفف نفقات بنائه. ومهما يكن من الأمر، فقد كانت هنالك مشاغل جماعية، جديدة في كثرتها وشموها، أوجب ذوق ذاك العهد النزول عندها.



الشكل ٢٩ - برغاموس الهلينية

ثلاث مدن اضيفت الواحدة منها الى الاخرى : المدينة السفلى (١)، المدينة الوسطى (٢)، المدينة العليا (٣). وقد استلزم توسع المدينة وانحدارها نحو السهل تعاقب تشييد أسوار أعظم اتساعاً.

مشاغل رفاهية في الدرجة الأولى. فقد حدد عرض اكبر للشوارع، عشرة امتار تقريباً للشوارع الرئيسية، وستة الى ثمانية أمتار للشوارع الثانوية. ووضعت أنظمة للأبنية، حفظت لنا الكتابات ما تعلق منها ببرغاموس، قضت بالنظافة والتقيد بمحد أدنى من المسافات بين البيوت : وقد عين قضاة وموظفون خصوصيون، نقلت روما تنظيمهم فيما بعد عن الاسكندرية، مهمتهم السهر على تطبيق هذه الانظمة وتأمين السلامة ليلاً ومكافحة الحرائق. واحيطت المساحات العامة المتميزة بالاتساع بأروقة تتفق مع متطلبات المناخ الشرقي ويحلو للكسالى التنزه فيها. وانشئت المجرات والاقنية لتأمين حاجة المدن من المياه. واذا ما عرفت المدينة الازدهار

وساهم الملوك والمواطنون الاثرياء بسخائهم ، برز البذخ بصورة ابنية جديدة ومعابد ومتراوفات ومذابح وخصوصاً تماثيل برونزية او رخامية غدا عددها في النهاية عظيماً جداً . ومن الجلي ان البورجوازية المدنية المزودة ببيوت انيقة التزيين قد اعارت جمال المدينة الاهتمام نفسه : فكان للتنافس شأنه على هذا الصعيد ايضاً .

اضف الى ذلك ان التجميل الهليني قد خضع لهمّ جديد هو وقع المنظر العام الذي يحصل عليه بتنظيم المدينة تنظيماً جمالياً والتوفيق بين مناظر الأشياء البعيدة توفيقاً متناسقاً وتوزيع الخطوط والمسطحات والمجموعات التي تنتج عن هندسة العمارة توزيعاً متوازناً معتدلاً . ويبدو في هذا الصدد ان مدينتين ، هما مقران ملكيان ، قد انشئتاً بنجاح كامل . فهما قد حددتا على كل حال لأجيال واجيال من الفنانين ، النقاشين والنحاتين والرسميين ، موضوعين من مواضيع مناظر الخلفية . وهاتان المدينتان هما الاسكندرية وبرغاموس . أما الأولى ، وقد بنيت في ارض سهلية ، فقد أعطت الخطوط والمشاهد التقليدية لمنظر المرافئ الذي ألفه جميع المتوسطيين والذي بلغ الكمال هنا بفضل تقدم الاساليب التقنية التي اعتمدت اذ ذاك في كل مكان تقريباً ولكنها لم تعتمد في أي مكان على مثل هذا النطاق الواسع : الجزر الصغيرة والارصفة والبرج المضيء وشتى انواع المراكب ونشاط حركة التحميل والتفريغ ، وتشرف على كل ذلك قمم الاشجار الخضراء في الحدائق الملكية وسقوف الابنية العامة . واما برغاموس ، وقد بنيت على منحدر تلة تشرف على سهل يلتقي فيه نهران ونضدت وفاقاً لمسطحات تفصل بينها سطوح افقية تترامى خلالها جدران واعمدات وسقوف المتراوفات والملاعب وتوجت اخيراً بسلام المسرح الحجرية وبأعمدة المعابد ، فقد اعطت المنظر المدني يحصر معناه ، من حيث انها شيدت كستار خلفي في مسرح ، منظوية احياناً على كل معنى العظمة المموسة ومذكرة تذكيراً مؤثراً بالمجهود البشري الذي فرض نفسه على الطبيعة وبلغ الذروة في التعبير عن جميله نحو الآلهة : فان ما بدأت أثينا في اعطاء مَثَل عنه في منحدر القلعة قد ظهر هنا على نطاق اوسع بفضل اضافة باقي المدينة الى هذه التقدمة التقوية الجبارة . فقد ولد حقاً فن جديد هو في الوقت نفسه نتاج وغذاء احساس جديد .

٢ - الفنون التصويرية

ان الظروف العامة التي كان لها أثرها في الفنون التصويرية تختلف اختلافاً
الظروف العامة
بيننا عنها في العهد الكلاسيكي .

ويظهر التغير بنوع خاص في الظروف المادية . فقيام الملكيات الكبرى وسياستها في نصرة الفنون الجميلة وتضخم الثروة والتنافس بين الجماعات وميل الافراد الى الفخفة ، كل ذلك أحدث ازدياداً عظيماً في طلبات المصنوعات الفنية . واليك بعض الأرقام المدهشة المذكورة عرضاً في الكلام عن بعض أعمال النهب . فيؤكد بوليب ان « ألفي تمثال على الاقل » انتصبت

في ثرموس ، المركز الديني والسياسي للاتحاد الايتولي . واستطاع القائد الروماني الذي دخل امبراسيا عنوة ، وهي مدينة في غربي اليونان كانت مغمورة في القرون الكلاسيكية وبقيت ثانوية بعد ذلك على الرغم من انها أصبحت مقراً للملك بيروس في فترة من الزمن ، ان يعرض ويسير لدى انتصاره ٧٨٥ تمثالاً من البرونز و ٢٣٠ تمثالاً آخر من المرمر ، تاركاً التماثيل الخزفية في أمكنتها مع انها من انتاج زفكسيس . وضم موكب النصر الذي رافق فاتح مقدونيا ، بولس اميلوس ، ٢٥٠ عربة ملأى باللوحات والتماثيل والمنسوجات الثمينة والأواني الذهبية والفضية والشبهية والعاجية . وبدأت المعابد الكبيرة الجامعة ، دلفي واولمبيا وديلوس التي اثبتت الكتابات والاكتشافات عظمتها ، وبعض المدن كاثينا ، اكث من أي وقت مضى ، وكأنها متاحف او معارض دائمة . وتأقت كافة المدن الاخرى الى بلوغ هذا الهدف وتوصلت كثيرات الى تحقيقه ، لا سيما تلك التي كانت مقراً للملوك فاستفادت استفادة كبرى من سخائهم وتنافسهم في التباهي والظهور .

كان لهذا الكلف العام اثره الطيب في حياة الفنانين المادية وفي مرتبتهم في الطبقات الاجتماعية وفاقاً لتطور شبيه بذاك الذي حدث لمصلحة رجال الفكر كما سنرى . فلم يرتفع عددهم فحسب ، بل زادت ظروف العمل لكل منهم ايضاً . فاستخدموا مواهبهم ، اكث من ذي قبل ، في معالجة بعض الخاميات النادرة التمنية التي رفعت من شأن مصنوعاتهم في نظر زبائنهم . فظهرت إذ ذاك تجارة المصنوعات الفنية بما تنطوي عليه من نتائج حتمية : تقليد الروائع الشهيرة وارباح الوسطاء وتوسع الاوساط المهتمة للمشاكل الجمالية واتساع اسواق التصريف وتضائل الأوهام الاجتماعية القديمة . وبموازاة زيادة موارد الفنانين ، شملت الشهرة المحدودة اسماً اكث عدداً وبقيت الشهرة الكبيرة مقتصرة على نخبة قليلة العدد . في العهد السابق شذ فدياس ، المقرب الى بريكليس ، عن القاعدة العامة ؛ اما اليوم ، فعلى غرار ليسبوس الذي طلق بالاسكندر الى آسيا ، كان لفنانين كثيرين علاقة بعظماء هذا العالم . وزادت دعوات هؤلاء من تنقلات الفنانين التي عممت معرفة المصنوعات والتقنيات الفنية فأسهمت إسهاماً عظيماً في الحفاظ على وحدة الفن الهليني .

وهكذا خضع هذا الفن ، بفوارق واشكال خاصة بهذا المركز وذاك ، الى نزعات مشتركة موافقة لميول مجتمع قوى التطور المادي والادبي التحامه الاول . اجل سبق لكثير من هذه النزعات ان ظهرت ولكنها انتصرت الآن . فعبّرت واقعية الصورة عن الفردية العامة التي لم ترض ان تنظر الى الانسان نظرتها الى مثال مجرد . وتوافق البحث عن التأثير ، والتعبير عن العواطف الحادة ، والميل الى الجمال حتى الشهواني منه ، والتلهي الزائل ، مع المذهب الذي ناهض مذهب العقلين في ذاك العهد . وبرز اثر الثورة الدينية ايضاً ، فعكس الفن إيماناً يتميز بمزيد من الفردية والعاطفة وتوجه الى النفس والاحساس ، اقله بواسطة موحيات التفسير الصوفي .

وردد هوى الطبيعة والمناظر نفسه صدىً يختلف عن صدى نداء سكان المدن للآفاق العريضة والماء الجارية والاختضار ؛ فعبّر أيضاً عن تقواهم نحو القوى العظمى سيدة الحياة الأرضية والحياة الثانية .

ويجب من جهة ثانية الى جانب عوامل التجديد هذه ، ان نفرز مكاناً لتقليد الماضي . فان سحر روائع العهد الكلاسيكي لم يزل يفعل فعله في الهواة ، لا سيما الملوك الراغبين في اعلاء مقرهم الى منزلة المناظر التي هي أشبه بالمتاحف في اليونان القديمة . فتكونت إذ ذاك قطعة قطعة المجموعات الاولى التي كلفت رؤوس أموال باهظة . غير ان تعذر اخراج الروائع الاصلية من المعابد والمدن قد أرغم على الاكتفاء بنسخها . فارتفع انتاج هذه النسخ ارتفاعاً مطرداً ، لا سيما عندما فتحت اسواق جديدة ، في ايطاليا أولاً وفي مناطق الغرب الروماني ثانياً . فاضطرت مدينة كاثينا مثلاً ، منذ عهد باكر ، الى ان تخصص لمثل هذه الطلبات قسطاً وافزاً من نشاط مصانعها ، واذا ما استطعنا اليوم محاولة تخيل تمثال « أثينا » الذي حققه فيدياس للبارثون ، فنحن مدينون بذلك ، بصورة خاصة ، الى النسخة التي اكتشفت عنه في برغاموس . ومن الطبيعي ان امانة هذه النسخ لم تكن مطلقة ، إذ ان تقنية التقليد مع ما تستلزمه من افراغ في القوالب وصقل لم تكتشف بسرعة وان الفنان قد تأثر بالذوق السائد في ايامه او لم يكبح ، كما يجب الكبح ، جماح إلهامه الشخصي . وهذا ما يحمل اليوم على التردد والجدل في تحديد تاريخ ، حتى تقريبي ، لعدد كبير جداً من القطع الأثرية . وهذا أيضاً ما أوجد ، أقله منذ القرن الثاني ، ردّة فعل بالعودة الى الفن القدم اخذت في البروز شيئاً فشيئاً حتى بلغ منها انها عبرت عن الاهمال حيال النزعات « العصرية » . وليس من شك في ان هذا التطور ، الذي لا يكون حالة وحيدة في تاريخ الفنون ، انما هو ثمن نمو العلم الواسع الذي احتل هو ايضاً ، كما سنرى ، مركزاً هاماً في الحركة الفكرية : فقد حدث كل شيء ، في النطاقات التي لمعت فيها الحضارة الكلاسيكية بمثل هذا السني ، كأن الحضارة الهلينية شكّست في نفسها فخضعت لتقليد الماضي تقليداً معجباً .

النقاش
ليس في عداد النقاشين الهلنيين الكثيرين سوى اسماء بارزة قليلة هي بالنسبة لنا اليوم غير مجرد اسماء .

واشهرها على الاطلاق هو اسم « ليسبوس » . بدأ نشاطه قبل الاسكندر ، ولكنه غدا النقاش الرسمي لهذا الأخير في آسيا وعرف ان يطبع الصور الرسمية التي نقشها بالملعية سيكولوجية جنببتها عبقريته الاصطلاح . وهي هذه الملعية التي تجيز لنا الاعتقاد بأن تمثال « هرميس ازارا » في اللوفر ، الذي تؤكد كتابة تحملها قاعدته انه تمثال للاسكندر ، نسخة عن احدي روائع ليسبوس . ومهما يكن من الأمر ، فان ليسبوس ، ببحثه عن الحركة والايقاع ، وبتحليله الحاد للمريكة والعواطف ، قد شق نهائياً ، أمام خلفائه ، الطريق التي سلكها براكسيتيل وسكوباس من قبله .

إذا كان هذا الأخير قد علّم برياكسيس واضع التمثال العبادي الأول لسيرايبس ، فإن خاريس ، واضع جبار رودس ، إحدى « عجائب الدنيا » ، وافتيخيداس ، واضع مجموعة إله الحظ في انطاكية ، قد تتلمذا على يد ليسبوس . ولكننا لا نعرف سوى هذه المجموعة بإحدى نسخها التي تتيح لنا تقدير قيمة تصميمها العام : وفرة وبساطة الرموز — تاح الأسوار المسننة ، حفنة السنابل ، السباخ الفتي القوي الذي يمثل نهر العاصي منفجراً من تحت الصخر — ، ومعرفة الحركات كما يتضح من تعقيد وطبيعة الوضع الذي يرفع الرجل اليمنى على كتف السباح واليد اليمنى القابضة على السنابل حتى مستوى الرقبة ، بينما تتكوى اليد اليسرى على الصخر ، والفوارق الرقيقة التي تعبّر عن الجلال والراحة في جلسة كلها مرونة ، وعن العطف والوقار في وجه يتسم بالعدوبة الحاملة .

بقيت فيما بعد أسماء كثيرة يتعذر علينا أن نربط بينها وبين روائع نعرفها . ومهما بلغ من شهرة هذه الروائع ، كفينوس ميلو وإله نصر ساموتراس الفاتح الذي اهدي مقدمة بعد انتصار بحري أحرز في القرن الثالث أو القرن الثاني ، فإن التماثيل قد كتب لها الاغفال والتباس التوقيت . وهنالك عدد لا يحصى من تماثيل افروديت في متاحفنا ، لم تكن صناعتها سوى حجة لتعرية جسم المرأة ، حيرت علماء الآثار ، تشهد بما انطوى عليه الزين الذين اقتنوها من ميل شهواني يفوق حرارة ايمانهم ؛ وقد تذهب أناقة تماثيل ديونيسوس طفلاً ويافعاً ، وجلال تماثيل زفس الملتحية ، وعضلات تماثيل هيراكليس القوية المرهقة أحياناً ، الى أبعد من ذلك لو لم تفرض نماذجها المجيدة امثلة اصطلاحية .

في هذا الفيض من الانتاج ، تراءت بعض النزعات المحلية ، فهل كانت هذه النزعات من القوة بحيث نستطيع الكلام عن « مدارس » كما جازف بعضهم مراراً كثيرة ؟ التعبير مبالغ فيه دون ريب لأن التنقلات الكثيرة قد مزجت فنايين يختلفون منشأً جغرافياً ، ولأن مدرسة واحدة لم تمارس احتكاراً ، حتى فيما يبدو لنا ممكناً أن نجعله مقراً لها . بيد أنه يتوجب علينا الاعتراف بأن هذه أو تلك من النزعات الكثيرة في النقاشة الهلينية قد برزت ، وفاقاً للأمكنة ، في تحقيقات منفردة أو مجموعة على درجة رفيعة من التميز .

وتتحقق هذه الحالة في برغاموس بمزيد من الوضوح ، ولعل ذلك بسبب تأكدنا الترجيحي من نسبة الروائع الصادرة عنها . كان الملوك الاطاليون يهونون روائع العهد السابق ويقتنونها ، وقد أسسوا مدينة — متحفاً لا تضاهيها مدينة في العالم الجديد آنذاك ، فأكثرها من الطلبات لتزيين عاصمتهم ولتوزيع العطايا الثمينة المفيدة لدعاوتهم على عدد من المدن اليونانية في أوروبا وآسيا . وقد استفادوا منها للاحتفال بنزاعاتهم مع الغلاطيين السكتيين الذين غزوا شمالي اليونان وأقاموا في قلب الانجاد الأناضولية فأرهبوا الجوار بسجسهم النهاب . ولم يكن ذلك دون بعض التساهل ، إذ ان السلالة ، بعد أن وجدت فيه فرصة لتوطيد سلطتها وتوسيعها ، لم تترد في

استخدام الغلاطين ضد اغريق آخرين ، ففسرت هذه النزاعات كصراع الحضارة ضد البربرية . فأحيت بعض النقوش هذه النزاعات احياء مباشراً وأشارت اليها نقوش اخرى اشارة رمزية بواسطة مشاهد ميثولوجية او تاريخية . وهكذا فان بعض المجموعات ، في اسفل الجدار الجنوبي من قلعة ائينا ، قد مثلت ، لا هزيمة الغاليين على يد ابطال الاول ، بل هزيمة الجبابرة ايضاً على يد الاولمبيين وهزيمة الأمازون والفرس على يد الأثينيين . وكذلك فان صراع الجبابرة هو الذي أوحى ايضاً موضوع نقوش الافريز الكبير في مذبح برغاموس .

وهكذا فقد استقر مثال افصى نجاحه الى انتاج المزيد من نسخه ، هو طراز الجندي الغالي ، المحارب ، الجريح ، المشرف على الموت ، المنتحر بعد قتل زوجته كي لا تقع في العبودية ، المخيف بعريه وشعره الأشعث وهمته القعساء ، المؤثر بخيلائه في الشقاء ، القادر بعد كل حساب على ارعاب وطمأننة المدنيين الهانئين بسعة عيش مترفة . ومع ذلك فان الانتاج الأعظم هو الافريز الذي ازدادت به ، على ١٣٠ م طولاً و ٢٣٠ م عرضاً تقريباً أساس مذبح زفس الضخم في برغاموس . فان هوى النفس الذي يبلغ فيه حدّ العنف المفرط في المحاربين يتمثل في هيجان الأوضاع وتشنج الأوجه والعضلات المنكشّة في مجهود حاقّد . وتبرز براعة الفنانين الخلاقة في تنوع الأمثلة البشرية او المسيخة ، وفي قريحة لا تنضب تنوّع المشاهد الكثيرة — فحتى الجبار الفتي نفسه يخفض رمحاً أمام جمال افروديت الرائع — ، وفي دقة رسم الأسلحة وحتى الملابس والأحذية . وبالتالي فان النقاشة الهلينية ، على نقيض النقاشة الكلاسيكية وتحفّظها الكالّح ، تفضى ، بما تنطوي عليه من تضخيم وواقعية فظة ، الى مأساة قاسية جسدية واخلاقية معاً .

ويبدو مع ذلك ان البحث عن تحريك العواطف قد بلغ أوجه في رودس ، بعد ذلك بوقت قصير . وان اشهر التحقيقات فيها ، اعني به مجموعة لاووكون وابنيه المذنبين تحت تأثير التفاف الثعابين عليهم ونهشها ، الذي أثار اعجاب ميكال انخلو وليسينغ والذي يتهمه تطور الدوق المعاصر بالعنف المسرحي يبدو اسمى تعبير للألم الجسدي في خير بحث تشريحي . فقد استهوى النقاشة الهلينية ان تنقل عن الميثولوجيا مشاهد الاحتضار هذه ، تعذيب « ديركي » — موضوع المجموعة المشهورة باسم « ثور فارنيز » — او موت النيوبيين . وقد حاولت ان تمثل ، تصويرياً ، آلاماً اعتمدت المأساة تمثيلها منذ زمن بعيد ولم تند لها وسيلة من الوسائل غير لاثقة بها للتأثير في المشاهد رعباً وتقوى .

اما الاسكندرية فقد كانت بلا مرأى مركز فن نرعاته أشد تنوعاً . وغالباً ما ينتقص المؤرخون من اهميتها باقصار انتاجها الممتاز على الفنون المعروفة بالفنون الصغرى . وفي الحقيقة لم يُظهر النقاشون وعماهم ، في أي كان ، على المواد الثمينة — ذهب وعاج وجوهر وحزح — مثل هذا الخيال الخلاق والمهارة التقنية لارضاء بذخ واناقة زين اسمى رقة . غير ان الظرف الرقيق ، المسترخي احياناً ، في كثير من هذا الانتاج ، قد أخفى نوايا ارفع مستوى ؛ فهو قد عبّق بتدبّن

على كثير او قليل من الغموض والواقعية والصوفية ؛ وقد اوحى ، بكثير من الرصانة ، بثقوى ورحمة خفيتين . والسيئة ، اذا كان هناك من سيئة ، تقوم في ان الابداع في الشكل وغرابة الابتكار تحملان على الاعتقاد بلعبة لا بتأمل مراقب .

ان النقاشة الهلينية أحبت الواقعية فدفعت بها عن قصد الى فن تصويري في الموضوع والاملوحة ، محاولة الارضاء تارة والاضحاك او التعطيف تارة اخرى . وكان الولد لها موضوعاً مفضلاً تؤثر فيه تطهيم الوجنتين والإليتين ، رمز الطهارة الصافية ووعد القوة : فكانت نتيجة هذا التفضيل تماثيل ديونيسوس وصغار آلهة الحب والولد الذي يصارع الازرة برصانة مضحكة . وقد دعا تقليد الفن المصري القديم الى السخرية الداعبة التي لم تتراجع احياناً امام التصوير الهزلي : اقزام سمجون ، راقصون وراقصات مضحكون ، من شأنهم تفككة هواة اشمازوا من الجمال الفني . فلوحظت الأمثلة الشعبية ملاحظة دقيقة ، المصارعون من الدرجة الدنيا ، والفلاحون ، والشيوخ ، والعبيد ، فاكشفت فيها ظروف انتقادية على شيء مما يثير الاشفاق . وقد حرص النقش النساتي ، الذي تأثر تأثراً قوياً بفن التصوير ، على وضع المشاهد الميثولوجية ومشاهد الحياة اليومية في منظر مرفأي او مدني او ريفي . ولم ينفصل التمثال الرمزي نفسه انفصلاً كلياً عن الطبيعة ، واننا لنجد الى جانب اولاد يلهون بحرية ، نباتات مستنقعات الدلتا على مقربة من شيخ جليل يمثل النيل : وهذه مجموعة شهيرة اسهمت الى حد بعيد في نشر فكرة تشخيص الانهار ، إن لم تخلقها خلقاً على غرار ما فعلته لمدن مجموعة إله الحظ في انطاكية .

التصوير والتخريف والصياغة
ان ما نعلمه عن تحقيقات فن التصوير الكبرى في العهد الهليني لا يتعدى عملياً ، كما سبق وقلنا عن فن العهد الكلاسيكي ، ما بلغنا عنه بالخبر المنقول . فقد عاش ابيلا في عهد الاسكندر ولم يستحق احد من خلفائه ، فيلوكسينوس او ايسيون او ثيون ، مهما بلغت شهرتهم ، ان يجاري ذاك الذي حقق التحفة الرائعة التي لم تضاهها تحفة من بعده والتي تمثل افروديت خارجة من الماء وهي تعصر شعرها . وكي نكوّن اليوم فكرة عن نتاج هذا الفن يجب ان نتطرق نخيلتنا من بعض قطع الفسيفساء او الرسوم الجدرانبة الكمبانية ، لا سيما في بومبيي ، التي ليس من شك في انها تقليد لما حقق منها في العالم اليوناني .

واننا نرى فيها دون عناء بعض النزعات الظاهرة في النقاشة ، وليس هذا بالأمر المستغرب اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اشتراك الفنانين لا بل تنافسها في تزيين الأبنية . وهذا ما يبرر موازاة تطورها ، على الرغم من ان المصورين قد سبقوا النقاشين ، كما يبدو ، في اصطناع بعض التأثيرات . وبرز معنى الحركة العنيفة في فسيفساء متحف نابولي التي تمثل هجوم الاسكندر الصاعق على داريوس في معركة ايسوس . وقد قدّمت الميثولوجيا بوفرة المواضيع الحركة للمواطن التي عولجت بالتفضيل على غيرها . ولكن الفنانين لم يهملوا وضع الاشخاص في منظر راعوي او غامض ، في

حال ان الواقعية الدقيقة او التخيل المبتكر قد رافقا معالجة الرسوم الرمزية . وكانت للروحانيات وكابوس الموت والفلسفة والأدب أثر في تصميم بعض الزخارف التي يرفع المعبد وتمثال الإله والرمز النباتي او الحيواني من تفهها الراعوي ، وفي تمثيل ربان وحشي الأدباء والفلاسفة والعلماء والخاصيات المسرحية والعلمية . وكان من شأن الانصاب المدفنية المصورة التي اكتشف عدد كبير منها في تساليا وفينيقيا ومصر ان تخرج من الابتذال الاصطلاحي احيانا بفضل طابع الصورة الفردي ، حتى اذا استخدمها زن من الطبقة الوسطى . وكان فن التصوير الهليني على العموم فناً عظيماً من شأنه ان يساعدنا على فهم الفنون الاخرى فهماً افضل فيما لو أحسننا معرفته .

اما فن التصوير على الخزف فقد تقهقر تقهقرأ واضحاً في اعقاب توزع المصابع والحاذب الذي أحدثته مصنوعات ترفية اخرى . فقد فقدت ائينا امتيازها وأنشئت مصانع كثيرة في كافة أنحاء العالم اليوناني ، وحتى في خارجه ، واستخدمت يداً عاملة أقل نجابة ومهارة . أضف الى ذلك ان الزين ، وهم أوفر ثروة ، غدوا يهضلون الأواني المعدنية التي تؤلف أبدأ قسماً هاماً من المغنم التي بهر استعراضها الجماهير الرومانية في مواكب النصر الكبرى غداة حروب الشرق . وقد نقشت على البرونز والفضة مشاهد ناتئة ، ويصح في المواضيع المعالجة ، وفي طريفة معالجتها ، معظم ما قلناه عن التصوير والنقاشة . وهما ايضاً تكشف اثاره الذكريات الفكرية والدينية والمدنية وحتى المأتمية عن ميول راسخة في هواة يتميرون بذوق رقيق . اما الزين المتوسطون فيكتفون بالخزفيات الناتئة التي قلدت الأواني المعدنية وازدانت بالمشاهد نفسها وعرفت إذ ذاك رواجاً مطرداً . فلم يعد الحرف مادة لفن مستقل بل غدا تدريجياً بديلاً رخيص الثمن للمعدن .

حدث الشيء نفسه للتماثيل الصغيرة ايضاً . ففي بيوسيا وغيرها ، وفي آسيا الصغرى بنوع خاص ، ما زالوا يصنعونها بالتراب . ولكن دقة صنعها تدنت فأكثروا ، الى جانب البورجوازيات الأنبيقات والفتيات النصرات ، من تماثيل مستهجنة تستهدف اثاره الضحك . فليس من ريب في ان مستوى الزين الاجتماعي قد تدنى ايضاً ؛ وزاد تقدم اليسار من طلب مصنوعات تكون مادتها أرفع ثمناً .

لذلك أصبح الحد الفاصل بين هذه الصناعة والصياغة غير واضح تماماً . واحتاج سبك المعادن من برونز وفضة او ذهب والعاج والزجاج والجوهر ، ونقشها وتنزيلها ، الى قريحة ومهارة وتقنية فنانين في خدمة أعلى الطبقات الاجتماعية . وتفوقت الاسكندرية على برغاموس ومدن فينيقيا في هذا الانتاج الشرقي . فان عظمة البلاط اللاجى ومبالغته في الترف ، اللتين قامتتا على ثروة لم يضاهها ثروة في أي مكان ، قد خلقتا نمطاً يفسر نجاحه التصديرات البعيدة - اكتشفت أوان زجاجية اسكندرية حتى في افغانستان - والأثر المستمر الذي فعل فعله بعد ذلك في ذوي الثروات من سكان روما . احل ان في هذا النمط محاكاة وتصنعاً واستهجاناً . ولكن فيه ايضاً ، في بعض الأحيان ، شعوراً رقيقاً يرافقه ثقافة وتدين ليسا بسطحيين . ويظهر هذا الشعور نفسه

على وجه بالغ الصفاء تغزوه بعض روائع النقود الذهبية الى بعض ملكات البطالسة .
فقد توصلت هذه الحضارة ، أقله في أرفع نجاحاتها كمالاً ، الى تشريف استخدام المواد التي
وفر لها فتح الاسكندر امتلاكها .

٣ — الحياة الفكرية

كثيراً ما يُبخس حق الحياة الفكرية ، في العالم اليوناني ، بتجاهل حيويتها وتجدها . اجل
انها لم تعط نتائجاً أدبياً عظيماً ، ولكن قوة الفكرة وجرأة الرأي لم يعوزاها . ولا نستطيع ،
اذا ما أردنا اصدار حكم شامل ، ان نتكلم عن تدني القوة الخلاقة ، بل عن اتجاهاها اتجاهاً آخر
فقط . أضف الى ذلك ان هذا النطاق هو الذي اثبتت فيه الحضارة الهلنسية قدرة كلية على
الاستساغة .

١ — رجال الفكر والمجتمع الجديد

لم يكن تأخر البولس ليبقي دونما أثر . وليس من المستغرب مثلاً ان تزول
الظروف العامة الفصاحة السياسية والقضائية بانتهاء القرن الرابع لأنه لم يبق في الظاهر ظرف
واحد من الظروف التي دانت لها بنشأتها وسناها .

قدّمت الملكية ، منذ ذاك العهد ، إطاراً جديداً فرض تكييفاً خاصاً وأحدث كثيراً من
الموجبات والتسهيلات . فنصرة الآداب حدثت من حرية المؤلف او وجهتها . وبلغ من السلطة
المطلقة احياناً ان لاشتها ، واننا نعرف بعض حالات سببت فيها الانتقادات اللاذعة موت الشعراء
بعد تعذيبهم . ولكن العلائق طيبة اجمالاً ، وعلى فوارق كثيرة ، على كل حال ، تتفاوت بين
التملق والكرامة عند هذا ، وبين التنازل والاعجاب عند ذاك . وكثيراً ما لعب التنافس دوره
بين الملوك في اجتذاب فيلسوف او كاتب شهير ، وقد حدثت في نهاية وليمية من الولايم ان منح
انطيونخوس الثالث هدية ولقب « صديق » لشاعر ألقى ابياتاً من الشعر بعد ان رفض الرقص
مدججاً بالسلاح على غرار المدعوين الآخرين . وقد تألف البلاط الملكي على العموم من افراد على
ثقافة عالية لم يكن اعتدادهم بظرفهم الأدبي مجرد ادعاء فقط ؛ فهم قد يتصنعون ، ولا ريب في
ذلك ، ولكنهم يدركون خير ادراك النوايا الخفية التي ينطوي عليها القلب والقالب على السواء .
وحلّ اللطف والرقّة فيه محل الشدة الحازمة التي كانت توافق في الماضي جمهور المواطنين الحشنيين .
واذا تأتى من ذلك بعض الضرر فيجب ان لا ننسى المساعدة المادية الكبرى التي منحت للأدباء
والعلماء والأعطيات السخية التي سهلت معيشتهم والمؤسسات التي سهلت أبحاثهم .

نتج عن ذلك ، على غرار ما حدث في الحياة الفنية ، ازالة المركزية بشكل بيّن . ففقدت

أثينا نفوذها الفكري السابق . أجل انها ما زالت مدينة جامعية شهيرة بمعاهد الفلسفة والبيان التي أخذت العائلات الثرية ترسل اليها ابناءها لإكمال تربيتهم . وقد تباهى الملك المقدوني انتيغونوس غوناتاس بإعلان ما هو مدين به لإقامته يافعاً في أثينا وللمعلمين الذين تتلمذ عليهم . ولكن لأثينا منافساتها حتى على هذا الصعيد ؛ فان شهرة رودس مثلاً كادت توازي شهرتها . وقد تأثرت أثينا ، بنوع خاص ، في البحث العلمي عموماً وفي أكثر التحقيقات الفكرية والأدبية ، باستثناء الفلسفة والمهزلة ، بمنافسة العواصم الملكية الكبرى التي كانت أوفر ثروة وافضل تجهيزاً وأقرب الى العالم الجديد . وكانت الاسكندرية وبرغاموس على الأخص بفضل مجموعات المخطوطات في مكتباتها وسخاء ملوكها ، أقوى استمالة وأجهر لمعاباً : فلم تعد أثينا « مدرسة اليونان » ، او مدرسة العالم اليوناني المتسع على الأقل .

هناك سبب آخر من اسباب التبدل ، اعني به امتداد وانتشار البورجوازية المتوسطة في المدن . فلم تبلغ هذه الطبقة الاجتماعية إلا نادراً مستوى ثقافياً عالياً . ولم يستهوها التصنع المفرط الدقة الذي قد يستهوي المقيمين في البلاطات . ولكنها كمجموع احترمت الامور الفكرية . تمثل الاغريقي « الوسط » في العهد الكلاسيكي بالفلاح الذي لم يكن امياً لعمرى ، ولكنه كرّس بالضرورة ، منذ عهد باكر في حياته ، شطراً كبيراً من مشاغله للنشاطات اليدوية . اما منذ اليوم فقد تمثل ، اقله في الشرق ، بالمديني الميسور ، الملاك ، التاجر ، او الموظف ، الذي يتصرف بمزيد من اوقات الفراغ دون ان يبقى عاطلاً . ويفسر هذا التطور تحسن المصير المادي وبالتالي ازدياد عدد من يتعاطون نشاطاً فكرياً . وقد أثبت هذا النشاط انه لم يكن قيناً بتغذية متعاطيه فحسب ، بل بإيلائه ، بصورة شبه آلية ، حدّاً أدنى من المكانة الاجتماعية .

ان تعلق الاغريق بحضارتهم المتفوقة ، سواء انتسبوا الى الطبقة العليا أم الاغريق والشرقيون الى البورجوازية ، قد حدث من الاقتباس عن الحياة الفكرية في الشرق .

م يظهر الاغريق عموماً ، حيال هذه الحياة ، مزيداً من الفضول ، مع ان كل شيء قد توفر ، لا لتشجيعها فحسب ، بل لفرضها فرضاً ايضاً . فقد جمع مانيثون احد كهنة هليوبوليس ، بإيعاز من بطليموس الأول ، كل ما كان معروفاً عن السلالات الفرعونية ، ولا يزال الترقيم الذي اعتمده متبعاً حتى اليوم من قبل المعاصرين . وقد قام بالعمل نفسه « بيروز » احد الكهنة البابليين تلبية لطلب الملك السلوقي انطيوخوس الاول . ولكن الاغريق لم يقرأوا مؤلفاتها ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأساطير التي ما زال هؤلاء يتناقضونها . وحتى في القرن الاول قبل المسيح ، اي بعد مباشرة طويلة ، لم يتردد اسكندر بوليستور ، عندما وضع تاريخ اليهود ، في جعل موسى امرأة سوية . وقد بقي محدوداً ايضاً الاقتباس عن العلوم الشرقية المشهورة بتقدمها لا سيما علم الفلك . اعتمد اللاجيون والسلوقيون الروزنامتين المصرية والبابلية ، ويتيح لنا اليوم استخدامهم الرسمي لهما ان تحدّد تواريخهم بدقة تامة ، شريطة ان تكون هذه التواريخ قد بلغتنا كاملة .

ولكن الاغريق في جميع المناطق الاخرى قد اكتفوا بروناتهم التقليدية على الرغم من تأخرها . ولم ينتشر حساب خسوف القمر ، الشائع في المعابد البابلية ، إلا في وسط نخبة يونانية محدوده العدد : وحتى في ٢١ حزيران من السنة ١٦٨ ، ألقى اختفاء القمر الرعب في الجيش المقدوني .

فماذا نقول بعد ذلك عن جهل أحاطوا أنفسهم به ، عن قصد ، حيال امور الهند يا ترى ؟ كان الاسكندر ، مع ذلك ، قد تجاوز نهر الهندوس ؛ ولكنه مع رفاقه قد اكتفى بالفرائب السطحية دون ان يبذل جهداً جدياً لإدراك خوافي الامور . فقد شبهوا بالفلاسفة الوقحين اولئك الذين اطلقوا عليهم اسم « الحكماء العراة » ، متعجبين بنوع خاص من الموت الطوعي الذي اقدم عليه احدهم ، كالانوس ، باعتلاء النار المتقدة ، عندما رفض الاضغاء الى الأطباء اليونانيين في معالجة مرض اعتبره هو غير قابل للشفاء ، بعد ان التحق بالجيش ، وهو في طريق عودته ، حتى بلاد فارس : وكانت الدهشة كبيرة ، بعد موت الاسكندر في بابل ، من انه وعد الملك بأى يراه ثانية في هذه المدينة . وسنحت بعد ذلك فرص اخرى . فقد اقترب بعض الملوك السلوقيين من الحدود الهندية . واستحضر احد سفراء سلوقس الاول ، ميغاستينوس ، كتاباً غنيا بالملاحظات الدقيقة والتصويرية حول الرحلة التي قام بها حتى عاصمة المملكة المورية ، « باتاليبوترا » (باثنا) على نهر الغانج ، حيث استطاع ان يرى بعض البراهمة . وطلب احد ملوك الهند ان يرسل اليه بعض النبيذ والتين واحد الفلاسفة . وفي أواسط القرن الثالث ، اوفد آخر ، يدعى « اسوكا » ، وهو بوذي مولع بالتبشير ، مرسلين الى انطيوخوس الثاني وبطليموس الثاني وحتى الى « انتيغونوس غوناتاس » في مقدونيا والى « ماغاس » في كيرينا . ولكن هذه الاتصالات لم ترتد سوى اهمية عرضية .

كان الاغريق ، المقيمون في شرقي ايران ، الذين يبدو ان عددهم قد أولاهم مركزاً على بعض القوة في بلاد البختيار ، افضل استعداداً لمعرفة الهند . وقد استفاد بعض زعمائهم من انخراط الامراتورية المورية وتوصلوا الى ان يقتطعوا لهم ممالك في البنجاب . وكان « ميناندروس » اشهر هؤلاء الملوك الهلينيين الذين تولوا الحكم في بلاد غريبة . وتدعوه النصوص الهندية ميليندا ، ويظهره احد هذه النصوص ، « قضايا ميليندا » ، مستعلماً الحكيم « ناكسينا » عن الديانة البوذية . ولكن المملكة الفارتية الفتية ، منذ هذا التاريخ ، قد اندفعت الى الجنوب من بحر قزوين وقطعت الاتصالات بين اغريق الشرق الاقصى ومواطنيهم في جوار البحر المتوسط . ولم يعد باستطاعة التأثيرات الفكرية ان تنتقل الى هؤلاء : لذلك فان الحضارة الهلينية ، من حيث هي لم تعرف الهند ، لم تقتبس عنها شيئاً ذا اهمية حقيقية .

اما الشرق المتوسطي او بلاد ما بين النهرين فيجب الاعتراف بأن الحياة الفكرية فيها كانت على العموم اضعف من ان تستهوي الاغريق . وعلى نقيض ذلك فان الحضارة اليونانية هي التي استمالت الكثير من الشرقيين . ويكون هذا الانحطاط وهذه الاستساغة مظهرين من حدث

اجتماعي واحد لان الاستغراق قد حصل بنوع خاص عند النخبة البلدية التي كثيراً ما أغرقتها السلالات ، ولدى سكان المدن الذين كانوا على اتصال بالبورجوازية اليونانية . ويستحيل احصاء اولئك التشرقيين الاصليين الذين تكلموا وعلموا وكتبوا باللغة اليونانية بحيث لا يمكن تمييزهم عن الاغريق الحقيقيين . اجل كان عددهم قليلاً في مصر بسبب سياسة التمييز العنصري التي طلع بها وطبقها البطالسة الأولون على الأقل ، وفي بلاد بابل بسبب بعدها وبفعل الفتح الفارتي . ولكنه كان غفيراً في آسيا الصغرى وسوريا وفينيقيا وفلسطين على الرغم من العراقيل التي وضعتها الديانة في طريقهم . ويكفي هنا ان نذكر زينون الذي ولد في كيتيون من اعمال جزيرة قبرص والمنحدر من وسط سامي ولم يتوصل يوماً الى احسان التكلم باللغة اليونانية ، ولكن ذلك لم يمنعه من ان يؤسس المدرسة الرواقية الكبرى التي لا يُرى فيها شيء مما هو شرقي . وهناك مثل آخر كلتي الوضوح هو اضطرار يهود الاسكندرية لنقل كتب التوراة العبرانية الى اللغة اليونانية ؛ فان هذا النقل لم يتم ، كما جاء في التقليد ، على يد السبعين ، بناء لأمنية بطليموس الثاني الملحة ، بل اقتضى زمناً طويلاً واستجاب لرغبة محتمة اعرب عنها اليهود المقيمون في مدينة يونانية بعد ان بدأوا ينسون استعمال لغتهم القومية . لا بل ان اكتشافاً حديث العهد (ايلول ١٩٥٢) حصل في مغارة قريبة من الشاطئ الغربي للبحر الميت يثبت ان استعمال التوراة اليونانية قد جرى في فلسطين نفسها احياناً .

كان نشر الثقافة اليونانية ، إذن ، جدياً في كافة انحاء الجزء الغربي من امبراطورية الاسكندر القديمة ، وتقع على الاغريق انفسهم ، كما رأينا ، مسؤولية حصر ذلك في بعض الفئات الاجتماعية . فهل تعوّض هذه الفتوحات الفكرية عن انضواء اغريق كثيرين الى الديانات الشرقية ؟ يستحيل في الحقيقة احصاء او وزن هذه الارتدادات التي لا تتنافى على كل حال بمجرد حدوثها في اتجاهين متعاكسين . وحين بسط السيطرة الرومانية ، وحتى طيلة عهود الامبراطورية الاولى ، كان ما بقي من الشرق الهليني ، في الواقع ، سائراً تدريجياً نحو حضارة يونانية في الحقل الفكري ، ونحو حضارة شرقية في الحقل الديني . فليس من سبيل والحالة هذه الى الشك في نجاح اليونان على هذا الصعيد ، وهو نجاح غير مقصود على كل حال . ويبرز هذا النجاح اكمل منه في الحقل الفني . فما زألت هنالك فنون محلية تقليدية بفضل مساندة الديانة ، في حال ان جميع الشرقيين الذين اضطروا الى التفكير والتعبير عن فكرهم قد انضوا الى الثقافة اليونانية ؛ ونزيد هذه المكاسب الأدبية ، التي حققت دونما اكراه او ضغط ، من رصيد الحضارة الهلينية . اجل انها لم تعد منطوية على نبل ونقاوة الحضارة الكلاسيكية . ولكن الحضارة الكلاسيكية نفسها تعكرت منذ قبل الاسكندر وخضعت لتطور مماثل حتى في اليونان القديمة حيث كانت بعيدة عن الإعداء الشرقي . ويجب بنوع خاص ان لا نحكم باستخفاف على حضارة حققت مثل هذه النجاحات لدى شعوب مغلوبه على نفسها : فهذه الحالة من الندرة بحيث لا يجوز ان نمر بقدرتها على الاستساغة مرور الكرام .

٢ - في خدمة النشاط الفكري

الوحدة الفكرية : امتدت الحياة الفكرية الهلينية في الشرق وتفوقت على الحضارات المحلية ،
غير مقتبسة عنها سوى القليل ، فليس من العجيب من ثم ان تحتفظ بوحدة
ال « كيني »
« koinè » La تستحق الاعتبار . وتوطدت هذه الوحدة عن طريق اللغة بنوع خاص .

لم يكن هنالك بعد لغة يونانية ، بل لهجات يونانية ، وحتى عدة لغات كتابية . ولم يكف
ان يكون كثير من الكتبة المشهورين اثينيين او ان يعيشوا ويكتبوا في اثينا حتى تصبح اللغة
الاتيكية اللغة الادبية الوحيدة : فقد كتب بنذاروس باللغة الدورية ، وهيرودوتس ، على الرغم
من الروابط التي شدته الى اثينا ، باللغة الايونية . فاللغة الاتيكية لم تكن سوى اعظم لهجات
« الثقافة » سحراً في العالم اليوناني . ولذلك فهي قد اتجهت نحو الانتشار ، يساعدها في ذلك
تقبلها لبعض خاصيات اللغة الايونية ، ولا سيما اهمية الدور الذي لعبته اثينا في الحياة السياسية
والحضارة العامة . وهكذا فقد جعلت منها السلالة المقدونية ، قبل الاسكندر برمن بعيد ، لغة
القصر والادارة : وقد تكلمها الاسكندر في حياته الرسمية واليومية مقصراً تكلم لغة مواطنيه
القومية على بعض الظروف الاستثنائية .

قدمت اللغة الاتيكية ، بفضل ذلك ، جوهر ال « كيني » ، اللغة « المشتركة » ، التي
تكونت تلقائياً وباكراً جداً بعد الفتح . واستجابت هذه اللغة لحاجات ملحة في عالم تجوّل فيه
الاغريق بحرية ، دونما تمييز في منشأهم الجغرافي ، وألفوا فيه جماعات جديدة يوحدتها الشعور
بتضامنهم في وجه البلديين . ولم تكن هذه اللغة ، على كل حال ، اللغة الاتيكية الخالصة . فقد
ظهر فيها اثر اللهجة الايونية ، اوسع اللهجات انتشاراً في الشرق منذ زمن بعيد . واتجه الصرف
والنحو اتجاهاً دائماً الى التبسيط ، بالاستغناء عن بعض الصيغ المعقدة النادرة الاستعمال . اجل
ان الادارة اللغوية قد فقدت بذلك بعض مرونتها وبعض ميزاتها الدقيقة . ولكنها اسهمت اسهاماً
فعالاً ، حتى أواخر العصور القديمة ، - اذ ان روما قد تركت هذا التحقيق الهليني لبيزنطية - ،
في خلق واستمرار وحدة العالم اليوناني الادبية والفكرية .

كانت الكيني اذن لغة الدواوين والادارة ، ودرج استعمالها في المدن المحددة والجديدة ايضاً .
وقد جعلت الاغريق المسافرين او المهاجرين ، شأنها في ذلك شأن وحدة الاخلاق وتشابه
الزخرف المادي في البيوت والابنية العامة ، يخالون انهم في بلادهم ، حتى في مناطق الحدود
النائية . وقد سهّلت في الحقيقة انتشار الحضارة اليونانية في اوساط الشرقيين ، ولكنها لم تتغلب
في الارياض خاصة ، على السنة لم يأخذ الاغريق على انفسهم استئصالها استئصالاً جذرياً . واذا
حدث ان اندثرت اللغات القومية القديمة في الشرق الآسيوي - باستثناء اللغة المصرية - ، فقد
تم ذلك ، في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، لمصلحة اللغة الارامية . واستمرت نجاحات الارامية
داخل المملكة السلوقية على الرغم من انها لم تبقى لغة الادارة . ولم تبقى اللغة العبرانية في فلسطين

الكلغة لاهوتية، بينما اصبحت الارامية في النهاية لغة الشعب . ولكن لغة « السبعين » ولغة الاناجيل ، عملياً ، هما « الكيني » نفسها . وكذلك فان الرومان ، هواة الحضارة اليونانية ، تعلموا وتكلموا وكتبوا « الكيني » .

ثم أمست اللغة الادبية الوحيدة في النثر . أجل لم يحدث ذلك فوراً : فقد احتفظ العالم اليوناني الغربي ، خلال بعض القرون بعد الاسكندر ، باللغة الدورية التي لم يستعملها ثيوكريتوس مثلاً ، على لسان الملاحين الصقليين فحسب ، بل كانت لغة ارخميدس ايضاً . ولكن هذه اللهجات المحلية قد اندثرت تدريجياً او انها لم تستمر إلا بجملة . وقد استعملت جميع الاوساط المثقفة ، عملياً ، اللغة نفسها ، واذا سهلت هذه الوحدة التنقلات الكثيرة التي قام بها اولئك الذين تفرغوا لنشاط فكري فانها قد ، ساعدت الى حد بعيد على انتشار الثقافة .

يؤلف هذا الانشار احدى ميزات العهد الرئيسية .

انتشار الثقافة

لقد جاء المثل من فوق ، من الملوك والمقربين اليهم الذين اعتبروا الجهل أمراً مخجلاً لأن المواهب السياسية والعسكرية لا تكفي لتحقيق مثال الانسان . فان هذا المفهوم لم يغرب عن البال حتى في فترة انفلت اطماع السيطرة بعد وفاة الاسكندر : فقد برز مؤسس المملكة اللاجية ، بطليموس الأول ، كاتباً موهوباً وحرر تاريخ الاسكندر بشكل مذكرات شخصية - إلا اذا كان الامر على نقيض ذلك -- فقدت لسوء الحظ ولكنها كانت ، للمؤرخين اللاحقين ، احد أهم المصادر فيما يعود لحياة الفاتح وحملته العسكرية . ولم يتلاش التقليد حتى بانحطاط الملكيات : فقد كتب آخر الملوك الاطاليين الذي توفي في السنة ١٣٣ بحثاً في علم زراعة البساتين . ولذلك فان الدور الملكية قد اشعت على كافة الطبقات ولا سيما على بورجوازية المدن اليونانية .

وارتدى الاهمية نفسها المثل الذي اعطته النساء في البلاطات الهلينية . اجل غالباً ما اهتمت بعض الملكات عن كذب السياسة . ولكنهن قد اشركن بالاضافة الى ذلك ، بفضل حرية السلوك التي وفّر لها لمن نسبهن ومنزلتهن ، في حياة القصر الفكرية ، وهذا ما لم تستطعه نساء المجتمع الراقي في اليونان الكلاسيكية ، بعيداً عن مخالطة الرجال . ففي الاسكندرية ؟ على الاخص ، أكرمهن الشعراء في قصائدهم ، فأكرم ثيوكريتوس ارسينوي ، وكلياخوس بيرينيس . وانشغلت حاشياتهن بمشاغل مماثلة امتدت الى اوساط اكثر اتساعاً . وهكذا قامت تدريجياً ثورة في الاخلاق التي اقصت النساء الشريفات ، حتى ذاك العهد ، عن امور الفكر . فاختلفت بعض الفتيات هنا وهناك الى المدرسة متملصات من الحرم الذي اكتفت فيه والدتهن بتعليمهن ما كانت تعلمته هي بالاختبار . فسببت بعض الحالات نفوراً في الرأي العام ، كحالة « هيبارخيا » التي ضغطت على والديها للتروح من الفيلسوف الوقح « كراتيس » وعاشت إذ ذاك مثله عيشة علنية وقبلت الدعوات الى الولائم وناقشت الحضور في الفلسفة والآداب . غير ان ابيقور ايضاً قد جمع

بين تلامذته نساء مصونات تزوجت ابنة احدهن من ضابط سلوقي واصبحت نجية لاحدى الملكات . وكان هنالك اكثر من شاعرة ، حتى في مدن اليونان القديمة ، في اللوكريد او في البلوبونيز . لذلك فان بداية تحرر المرأة الفكري يجب ان تدخل بكليتها تقريباً في رصيد الحضارة الهلينية .

ومن حيث ان الثقافة لم تعد وقفاً على جنس واحد ، فهي لم تعد بالتالي وقفاً على نخبة محدودة . ويجب علينا هنا ان نشدد مرة اخرى على اهمية الواقع الاجتماعي الذي تمثل إذ ذاك في انتشار البورجوازية وتطور ادواقها . فقد تكاثرت الطبقة الميسورة في آسيا وحتى في اوروبا حيث اتسع الافق ونشطت العلائق الاقتصادية فحدث شبه اكتشاف لبعض المناطق المتأخرة والمغلقة تقريباً في اليونان الوسطى او الغربية . وقد اجتهدت هذه الطبقة في كل مكان تقريباً ان تترك لأبنائها ، بالإضافة الى امتيازات المواطن اليوناني القانونية ، تربية فكرية تبرز ، في نظرها ، هذه الامتيازات .

كان هذا في الأساس من تعدد المدارس ، او بالاحرى من إيجاد نظام مدرسي التربية الهلينية أخذت الجماعات تهتم له ، يوزع تعليمياً تحقق حوله الاتفاق العملي . وكان هذا التنظيم المزدوج احد التحقيقات الهامة في العهد الهليني ، وقد اعتمد عملياً حتى اواخر العصور القديمة . حتى داك العهد ، اذا ما استثنينا كريت وسبارطة بسوع خاص ، حيث عهد بالتربية الى المدينة دون غيرها ، نظرت المدينة الى التربية كما الى شأن خاص واكتفت بالاقتصاص من سوء اخلاق المعلمين . فبدا هذا النظام ، الذي كلّف العائلات اموالاً كثيرة ، غير ذي فعالية حتى اذا لم يؤدّ الى المهذبن الفرديين . فعينت مدن كثيرة قضاة خصوميين عهدت اليهم مراقبة المدارس ، حتى الخاصة منها ، التي ازداد عددها ازدياداً عظيماً ، واقتصرت استخدام المهذبن على العائلات المشهورة بثرواتها الطائلة اي عملياً على العائلات الملكية تقريباً . ويدل هذا التطور ان اهتماماً جديداً قد برز الى الوجود . اجل لم يفكروا بالاعتراف بحقوق الولد ، الذي هو رجل بالقوة ، وبتفتح امكاناته . ولكنهم أرادوا ، بردة فعل طبيعية للدفاع عن حضارة كانت على اتصال بحضارات اخرى وتباهت بتفوقها وعندت في الحفاظ على نفسها ، ابقساء الولد في حصن الاسرة اليونانية التي يوليها نسبه حقوقاً عليه ويفرض عليها واجبات نحوه .

وهكذا يتضح من جهة ثانية . كيف ان الملوك ، كملوك ، قد فوضوا امرهم في ذلك الى المدن : فلم يقدم احد منهم على سن الشرائع في الحقل المدرسي ، لأن التربية تتعلق بالاغريق دون غيرهم ، ولأن المدينة ، نظرياً ، ما زالت إطار حياة الاغريق ، حتى داخل الملكيات . وقد حدث ان حرصت المدن في ظروف غير نادرة ايضاً ، او تظاهرت اقله انها تحرص على ولاء الشباب للملكية بتشجيع تأسيس ونشاط جمعيات « شبان » تؤدي الاكرام ، بأشكال دينية مختلفة ، للملك ولعائلته . ولكن هذه المؤسسات ، شأن كل ما اختص بالعبادة السلالية في الاطار الملدي ،

لم يفرضها الملوك رسمياً ، واذا ما أتيح للسياسة ان تتسرب الى نظام التربية فانها لم تحتل فيه سوى مركز ثانوي جداً .

لم يبلغ من مشاغل المدينة هذه ان أمنت مجانية التعليم : اذ ان ذلك يقتضي موارد لم تتوفر لميزانية الجماعة . ولكن العائلة قد ارتاحت مع ذلك ، بهذه الموارد او تلك ، اقله من جزء من العبء المالي الذي تحملته وحدها من ذي قبل .

اما مؤسسة الشباب الرسمية فقد كانت مجانية بالضرورة بسبب طابعها العسكري الأصلي . وهي قد اشتهرت في أثينا ، حيث نشأت على ما نرحح ، وتوصلت الى نفوذ عظيم واستقبلت الشبان من سن الثامنة عشرة حتى سن العشرين لتربيتهم تربية عسكرية . ولكن واجب الانتماء الى هذه المؤسسة الذي لم يكن إلزامياً ، على ما يبدو ، إلا خلال فترة قصيرة من النصف الثاني من القرن الرابع ، قد زال وأهمل : ولم يستمر في التقيد به سوى المتطوعين دون غيرهم ، أي بالتالي أبناء العائلات الميسورة . ثم تبدلت روح المؤسسة في العهد الهليني ، فسمح للأجانب بالانتماء اليها . وحلّت فيها التمارين الرياضية في النهاية محل التمارين العسكرية . وظهرت في القرن الثاني المحاضرات الأدبية والفلسفية . فغدت المؤسسة ، من ثم ، بالنظر لسن الدين اختلفوا اليها ، ان لم يكن بالنظر للمستوى الفكري الذي بلغته ، شبيهة بالحامعات . وقد أنشئ مثل هذه المؤسسة في مدن اخرى كثيرة غير أثينا ، فكانت ، شأنها في أثينا ، مجانية ايضاً ، باستثناء النفقات التي فرضها العرف على الشبان المنتهين الى طبقة اجتماعية عليا .

لم يكن الاغريقي ليتصور التربية دون التدريب الرياضي الذي يجري في المتراف . وكان الانتساب الى المتراف بمثابة شهادة في الحضارة اليونانية التي يتزن الشاب بها بكبرياء وطيلة ايام حياته ، لا سيما في مصر حيث حرصوا مبدئياً على اقضاء سكان البلاد عنها . ولكن المتراف عدا اذ ذاك مؤسسة بلدية . فأصبح لكل مجموعة يونانية متراف واحد على الاقل يشيّد ويعنى به على نفقتها ويراقبه قاض اختصاصي يطلق عليه اسم « حاكم المتراف » . أما الادارة المالية ، ولا سيما تقدم الربوت للمصارعة ، فقد سهلتها عطايا الاثرياء السخية الذين لم يكن الملوك في المؤخرة منهم . فكان تقدم الزيت او تأسيس وقف معد لتقدم الزيت « للمتراف » او « للشبان » احد الاشكال التي اتخذتها في غالب الاحيان عادة شاملة في الكرم نحو المدن اي نحو مواطنيها اليونانيين .

وقد بلعنا ايضاً اخبار بعض الاوقاف المؤسسة للمدارس بها . وهكذا فان الرودسين قد قعلوا - مما جعل بوليبيد يلومهم - بالنظر لثروة دولتهم والمكانة التي دعوا بها بفضل هذه الثروة - من احد الملوك الاطاليين هبة توارى ١٥٠.٠٠٠ هكتوليتراً من القمح : فكان عليهم ان يوظفوا المبلغ الذي تتجمع من البيع وبستهملوا فوائده السوية لدفع احوار المعلمين . اما في بعض الاممكة الاخرى فكان الواهبون افراداً . ومن الطبيعي ان هذه الاعطيات قد استبدعت تعيين

المعلمين من قبل جماعة المواطنين التي كان لها الحق ايضاً في عزلهم . ولكن عدد مثل هذه الهبات ، في ما يظهر ، قد بقي ضئيلاً جداً ، فاستمر اهالي الاولاد في دفع رسوم مدرسية . ولذلك فان المجهود الذي فرضه تعميم وتنمية التربية قد مثل بالتالي تضحية حقيقية من قبل العائلات : وقد برهن الاغريق بقبولها - متذمرين احياناً ، كما نرى ذلك في إحدى مهازل هيرونداس الایمائية - عن الایمة الکبرى التي اناطوها بديمومة حضارتهم .

افسحت هذه التربية مكاناً عريضاً للاهتمام بالتنمية الجسدية التي توفرها تمارين المتزاوف . بيد ان المباريات الرياضية القديمة قد استمرت ودخل بعضها في برامج اغلبية الالعاب المستحدثة الكثيرة : ففي جميع هذه الاعياد مثلاً اجريت امتحانات خاصة للفتيان والشبان . فغدت الرياضة اكثر من اي زمن مضى ، بعد ان جردت تدريجياً عن غايتها العسكرية ، جزءاً لا يتجزأ من تربية الاغريق ؛ وقد حفظ عنها اكثر من يافع طعمة دائمة .

اما على الصعيد الفكري فتطهر لنا الاطماع اليوم على كثير من التحديد . فليس هناك علوم ، او ليس هناك سوى علوم قليلة . وقد اصيب رواج الموسيقى الآلية او الغناء الجوقي ، الذي كان كبيراً جداً في ما مضى ، بنكسة اسف لها المحافظون على التقاليد : واذا لم يعرف هذا الفن القائم بنفسه انحطاطاً اذ ذاك ، فانه قد غدا وقفاً على المحترفين . اما الملاحم الهوميروسية فكانت تقرأ وتعلم وتلقى وتستنسخ دون انقطاع ، كما تشهد بذلك مكتشفات لا تحصى بين البرديات المصرية ، وبقيت في الاساس من تربية الولد : وبأدراً ما تجاوز درس الشعراء هذا الحد . وفي آخر الدراسة كان الاهتمام يتحول الى علم البيان .

تفوّق علم البيان تفوقاً واضحاً في ما يجدر تسميته بالتعليم العالي . فهو بفعل تنوّعه ، وعلى الرغم من تدريسه على يد معلمين ذائعي الشهرة احياناً ، ومن التخصص الصارم في قواعده ، قد بقي ناقصاً جداً . اما بين العلوم التطبيقية فقد انفرد الطب دون غيره في اجتذاب الطلاب الى مدارس شبه مقفلة على كل حال اشبه بالجمعيات الدينية من حيث هي ملحقة بمعابد اسكليديوس . وخارج هذه المدارس ، تلقى عامة مهنيي المستقبل علومهم على ايدي اطباء يمارسون مهنة الطب ، اذ ان ممارسة هذا النشاط قد بقيت حرة تماماً . اما التقنيات الاخرى فلم تعلم في اي مكان بسبب استمرار التقليد القديم الذي حرّمها لأنها تقود في النهاية الى نشاط تجاري . ولم تتمثل العلوم المجرّدة الا بالرياضيات وعلم الفلك ، وكان عدد المتخصصين فيها قليلاً ، كما لم يتردد اليها سوى عدد قليل من التلامذة . اما الفلسفة فكان طلابها كثيرين ، مستفيدة في ذلك من النفوذ الذي نعمت به طيلة العهد الكلاسيكي ، لا سيما في اواخره ، بفضل افلاطون وارسطو . غير ان شغفاً عاماً دفع الشبان بالتفضيل نحو علم البيان الذي بلغ الشهرة في عهد السفسطيين أولاً وفي عهد خطباء القرن الرابع الاثينيين ثانياً الذين سبق لهم جميعهم ايضاً ان علموا الفصاحة . اجل لم يعد من شأنه ان يؤدي خدمات عملية كبرى ، بسبب انحطاط الحرية السياسية . ولكن نجاحه لم

يتميز عن نجاح تعليم ايزوقراط الذي مثل علم الادب ، في نظره ، الفلسفة الحقيقية ، لأنه يستلزم وضوحاً في الافكار وبرهنة سليمة وامتلاك فن الكلام الذي هو امتياز الاغريقي على البربري . وقد علم قواعد ، هي اشبه بـ « الوصفات » ، معتمداً ، في وقت واحد ، التعليم النظري ، ودراسة روائع الفصاحة الاتيكية ، واجراء التمارين على مواضيع خيالية لم تلبث ان ألّفت مستودعاً كبيراً . فافضى الى تثقيف عقول رشيقة اتصلت بالمثُل العامة ، لا سيما في الحقل الاخلاقي ، وقابلة لأن تقيم البرهان بفن ، ودون تصنع ، في شتى المواضيع ، ومتوخية ، عند الحاجة ، حتى التوصل الى النتائج المتناقضة .

قد يبدو ذلك اليوم موجزاً وسطحياً . ولكنه طابق مثلاً اعلى للانسان المثقف المعد جسدياً وعقلياً للتكيف وفقاً لشتى المهام التي قد تفرضها عليه الحياة . وقد استمر هذا المثل ، دون تبدل يذكر ، حتى آخر العصور القديمة . ويعود الفضل الى الحضارة الهلينية في توضيح مفهومه وجعله سهل المنال بتشديد نظام تربوي متلاحم الاجزاء .

ما كانت الثقافة المنتشرة هذا الانتشار لتتجاوز ثقافة وسطاً ، ومن جهة
نصرة الآداب والفنون
ومؤسسات الأبحاث
ثانية ، ما كانت الثقافة التي احدثت ورسخت سوى تراث الاساتذة
العظماء . اما التقدم الفكري الحقيقي فقد تمّ على مستويات اخرى
بالبحث الخلاق الذي تمهده نخبة معينة . لم يخل العالم اليوناني يوماً من هذه النخبة التي وجدت
إذ ذاك لدى الملكيات الكبرى عضداً مادياً وأدبياً معاً من نوع جديد . وهنالك مؤسسات
شهيرتان ، المتحف ودار الكتب ، هما افضل مثل عن نصرة الملوك للآداب والفنون وعن التسهيلات
التي وفرتها لانطلاقة الحركة الفكرية . غير انها لم تكونا المؤسستين الوحيدتين في العالم الهليني .

المتحف ، بالتحديد ، هو معبد آلهات الفنون الحرة التي كان من الطبيعي ان تحظى باكرام
رجال الفكر . فخصص لمن مذبوح على الأقل في حداث « الاكاديمية » (الجمع العلمي)
و « الليستة » (المدرسة) حيث علّم افلاطون وارسطو في اثينا . ثم أسس اصداقاً ومعاونو
وتلامذة هذين الفيلسوفين جمعيات استهدفت رسمياً تنظيم العبادة ، على انها استهدفت في الواقع
تأمين ديمومة هذه المدارس التي كانت في الوقت نفسه معاهد ابحاث ، بشراء وصيانة العقارات .
وقدمت الدولة الاثينية في أواخر القرن الثالث ، برئاسة الفيلسوف ديمتريوس الفاليري ، الذي
سبق له واسهم في اعمال خلفاء ارسطو ، كل التسهيلات اللازمة على الصعيد القانوني ، دون ان
تقدم مساعدتها المالية .

يرجح ان ديمتريوس الفاليري الذي حكم عليه بالنفي والتجأ الى بطليموس الاول في مصر قد
اقترح على هذا الأخير انشاء مؤسسة شبيهة ، على ما فيها من اختلاف بيّن . فتلقى متحف
الاسكندرية من الملك مساعدات اكبر ، ولكنه ارتبط ، بالمقابلة ، بالذي احسن اليه . وعوضاً
عن ان يكون معهد فلسفة ينشر تعليماً ويتعمق فيه ، فانه قد غدا مجمعاً لكتبة وعلماء يعينهم

الملك ويعيّن رئيسهم أيضاً . ووضعت تحت تصرفهم ابلية مختلفة قائمة على مقربة من القصر معدّة لحياتهم المشتركة ولنشاطهم . وتعهدت الخزانة الملكية كافة النفقات ، فاستطاع الكتبة والعلماء ان يكرسوا وقتهم للأبحاث دونما اهتمام للماديات او لأي واجب آخر . فكرسوا في الواقع وقتهم لمناقشاتهم ايضاً التي سخر منها بعض الهجّاتين ، بدافع الحسد على الأزعج ، بكلامهم عن « معجون الطيور الذي يوزع بسخاء على العديد من كتبة الدرجة الثانية وأكلة الكتب القديمة التي لا قيمة لها الذين يتخاضمون دونما انقطاع في قفص آلهات الوحي » . وكرّسوه احياناً حتى لمجادلاتهم مع البلاط التي كانت السبب ، في القرن الثاني ، في تفرقهم المؤقت . وكانت هذه المؤسسة لا تزال قائمة في القرن الرابع الميلادي ، متحولة الى جامعة على كل حال ، إذ ان أعضاءها كانوا يعلّمون رهطاً من التلامذة .

وقامت في الاسكندرية ، على مقربة من المتحف ، مؤسسات ملكية اخرى سهّلت عمل العلماء : حديقة الحيوانات ، وحديقة النباتات ، ودار الكتب بنوع خاص . اما هذه الاخيرة التي أسسها بطليموس الاول ، على مقربة من القصر ايضاً ، فقد أمنت مجموعاتها انماء مطرداً بأن اشترت ، في جميع انحاء العالم اليوناني ، المخطوطات المعروضة للبيع وبتنظيم استنساخ المخطوطات الاخرى : وقد سهّلت ذلك انتاج البردي الذي كان وقفاً على مصر تقريباً . فبلغت محتوياتها ، منذ السنة ٢٨٥ ، على ذمة الرواة ، ٢٠٠ ٠٠٠ « مجلد » اي لفافة من البردي ، و ٧٠٠ ٠٠٠ في السنة ٤٨ قبل المسيح ، حين شبّ فيها حريق في ايام قيصر فأتى على جزء منها . وكان هنالك بالاضافة الى هذا العدد ، حوالى ٥٠ ٠٠٠ مجلد في دار كتب ثانية كانت منذ بطليموس الثاني ملحقة بمعبد سيرابيس . وقد عين الملك لدار الكتب موظفين كثيرين دفع لهم اجورهم : فتسلّم أمانتها شعراء من امثال ابولونيوس الرودسي وعلماء من امثال ايراتوستينوس .

حذت سلالات اخرى حذو اللاجئين الاولين . ولكن تحقيقاتها لم تبلغ مثل هذه الهمية وهذه العظمة . ولم تؤسس واحدة منها متحفاً آخر : وليس ما أطلق عليه هذا الاسم في عهد متأخر ، أي في ايام الامبراطورية الرومانية ، سوى مؤسسات بلدية للتعليم العالي . غير ان جميع البلاطات قد حاولت ، عن طريق الفوائد المادية ، اجتذاب الكتبة والفلاسفة والعلماء . أضف الى ذلك ان بعض الملوك أسسوا وتعهدوا دوراً للكتب ايضاً . فكان للسوقيين مكتبتهم في انطاكية ، عاصمتهم السورية . ولكن اهم مكتبة قامت في برغاموس ، وقد أنماها الاطاليون إنماء مطرداً ايضاً : وعلى الرغم من ان البرديات ما زالت اكثر المواد استعمالاً ، فلا يمكننا هنا إلا ان نذكر بالجلد « البرغاموسي » الذي اشتق منه اسم (Parchemin الرق) والذي لم يكن اختراعه ، من جهة ثانية ، لا اكتشافاً ولا احتكاراً برغاموسياً . وكانت مجموعات هذه المكتبة قد بلغت ٢٠٠ ٠٠٠ مجلد حين أهداها انطونيوس لكليوباتره تعويضاً عن الاضرار التي لحقت بمكتبة الاسكندرية بفعل الحريق .

لم تكن نصرة عظماء هذه الارض شيئاً جديداً: فقد سبق لمستبدي العهد القديم ان تعهدوها. اما الشيء الجديد فكان هذه الطريقة في فهمها وممارستها اي في وضع وسائل العمل والبحث تحت تصرف المستفيدين منها . ولا يكفي احترام الشؤون الفكرية ، المنزهة عن كل غاية ، لتبرير تضحيات الملوك المالية . ولكن المجد الباطل وحده لا يكفي لذلك ايضاً ، في حال ان الاهمية السياسية المولاة لتوجيه الدراسات العليا ليست موضوع بحث . اجل لقد ادخلت بذلك وثبة نافذة على بعض الابحاث التي كانت مستحيلة بدون هذه المؤسسات والتي ولدت من وجودها وكان لها أثرها على الحركة الفكرية في مجموعها . ولكن هذه الابحاث ، بحمد ذاتها ، بقيت عادمة الاثر سياسياً ولم يكن باستطاعتها خدمة المثالية والبرنامج الملكي .

٣ - الشغف الفكري والروح العلمية

ان المقصود في الدرجة الاولى هو ما نعرف عنه اليوم بالالسنية والعلم
الالسنية والعلم الواسع .
الواسع .

استلزم جمع المخطوطات تنسيقها ودعاً لمقارنتها ولاختيار افضل الدروس ولتوضيح النصوص بكل ما من شأنه ان يسهل فهمها . وكان هذا الجمع والبحث والتعليق متفقاً والطرائق التي سبق لارسطو ومعاونيه ان اعتمدوها . اما انشاء دور الكتب ، ان هو جعل هذا العمل اشد الحاجة ، فانه قد بسطه ايضاً يجمعه قسماً من المواد اللازمة للمقارنة وجمع المعلومات وجعلها في متناول اليد . وقد قام بهذا العمل رجال من الطراز الاول ، فكرس له بعضهم كل نشاطهم واشتهر بعضهم الآخر ، من امثال كليماخوس وايراتوشينوس ، في حقول اخرى ايضاً .

من نافل القول انهم انقطعوا بالتفضيل الى الملاحم الهوميروسية التي افضت اهميتها في الحياة المدرسية وفي ثقافة الاغريق العامة الى الاكثار من نسخها المغلوط فيها او المحشوة بالتذييلات في اكثر الاحيان والتي جعلت في الوقت نفسه الحاجة الى التوضيح امراً ملحاً . فأنجز عمل عظيم جداً بنشاط ومعرفة ، وذوق سليم غالباً ، يثير الاعجاب : فانتهى الشرح الالسنى الى النقد الادبي . وغدا اسم احد امناء دار الكتب في الاسكندرية ، ارسطارخوس ، اسطوريا من هذا القبيل : وان ما نقرأه من مؤلفاته المندثرة ، في « دروس الندوات » المتأخرة ، لينم عن ألعينته الفائقة ؛ فهو انما آثار معاضل كثيرة لا يزال العلماء المكبون على دراسة هوميروس يحاولون حلها ، غير قادرين على اجمال شكوكه واحكامه .

يمكن القول نفسه عن الخطب ، بسبب الاهمية المولاة لعلم البيان ، وعن نصوص اخرى كثيرة . وقد وضعت اذ ذاك - ولعب ارسطارخوس فيها دوراً كبيراً - « القوانين » الاسكندرية ، اي مجموعات المؤلفين المعبرين قدوة يقتدى بها وبمجموعات مؤلفاتهم التي اعتبرت اصلية . ونحن مدينون لهذه الجهود التي لم تعرف الكلل ليس بالمحافظة على نصوص صحيحة جهد

المستطاع فحسب ، بل بتعليقات تجلو غموض مقاطع كثيرة . فقد وضع كلياخوس وحده ١٢٠ « مجلداً » تؤلف جدولاً بكل الادب اليوناني كما تمثل في ايامه في المكتبة الاسكندرية ، مورداً فيها نبذة تاريخية عن حياة كل مؤلف ولائحة بمؤلفاته ومعلومات تاريخية عنها . ثم اكمل خلفاؤه هذا الجدول .

قادت مثل هذه الابحاث بصورة حتمية الى دراسات نظرية وعملية في علم البيان وعلم الصرف والنحو وفقه اللغة وعلم تاريخ الازمنة . وقد يتطلب تعداد الاسماء الجديدة بالذكر ، في هذا المجال ، صفحات كاملة . فانتهل رواد الندوات في العهد الروماني والبيزنطي باستمرار ، مما جمعه هؤلاء المؤلفون بفضل عملهم الجليل ، معلومات ذات قيمة عظيمة ، مضيفين اليها احياناً ملاحظات واخطاء شخصية . ولنكتف باسم واحد هو احد اعظم الاسماء ان لم يكن اشهرها من غير الاختصاصيين : ديديموس الاسكندري ، معاصر شيشرون وقيصر - اذ ان انطلاقته اوائل العهد الهليني قد دامت طويلاً . ان هذا الرجل ، الذي لقب بـ « ذي الاحشاء القلزية » ، بسبب طول أباته في التهام الكتب وتأليفها ، قد وضع ٣٥٠٠ « مجلد » طرق فيها شتى المواضيع التي واجهها في معالجة النصوص . فلا يجوز ان نستعزى بهذا الجامع الجموح الجريء في وضع واستخدام البطاقات ، لأن مجموعاته التي لا تخلو من الحشو والتطويل ، تحتوي على ما هو حسن لا بل ما هو جيد احياناً . وقد كرّست ثلاثة من كتبه لخطب ديموستينس ضد فيلبوس ، وكان من شأن اكتشاف بردي دونت فيه مقاطع هامة من احد هذه الكتب المحتوي على التعليق التاريخي ، ان سجل ، بصدد معاضل سياسة أثينا الخارجية في القرن الرابع ، حدثاً هاماً في علم التاريخ المعاصر .

لقد غدا تقليدياً ان يجمع هؤلاء العلماء الواسعو الاطلاع تحت اسم « الاسكندريين » . بيد ان نزعاتهم الفكرية لا تؤلف كل ما غدا تقليدياً أيضاً ان يعرف عنه بـ « المدرسة الاسكندرية » . اصف الى ذلك انهم لم يعيشوا كلهم في الاسكندرية وان بعضهم لم يقيموا فيها قط ؛ ولا يجوز ان ننسى ظمناً ان كراتيس العظيم ، الذي نشأ في مالوس في كيليكية ، قد كان ، في القرن الثاني ، أمين مكتبة برغاموس ومقرباً من البلاط الاطالي . وليس من ريب مع ذلك في ان علماء الاسكندرية كانوا اكثر عدداً واوفر انتاجاً ، وبالتالي أعظم تأثيراً ايضاً : فإليهم يعود الفضل في إعطاء المثل وابتكار النهج . ولكن عملهم لم يخل من الصغارة التي برزت في منافساتهم حتى الداخلية . وكان لثقافتهم ، المكتبية الى حد بعيد ، مساوئها أيضاً . ولعل اخطر المساوئ ان هؤلاء العلماء الواسعي الاطلاع ، قد أوجدوا ، يجعلهم من كتب العهد الماضي أمثلة لا يعلى عليها ، وبحصر الطموح المعقول في الاقتراب منها ، تياراً معداً لأن يسود تدريجياً : هو تيار الاحتذاء أو بالاحرى التنظيم الذي جعل من التلقائية طرائق فشلٍ بذلك الالهام الأصلي . فكانت النتائج شبيهة بتلك التي لمسناها في الفن ، إذ ان الحياة الفكرية قد تأثرت بالجفاف الذي أوجده الاعجاب المفرط بروائع الماضي والذي كبح الجموح الخلاق . اصف الى ذلك ان المؤلفات الكلاسيكية

الكبرى نفسها قد فقدت من نضارتها وقوتها المباشرة : فقدر لقراءة التعليق او الخلاصة ، او المنتخبات أحياناً ، ان تحلّ ، او انها حلت فيما بعد ، مكان الاصل . ولكن هذه الملاحظات الانتقادية ابعد من ان تنسينا أهمية الخدمات المؤداة واتساع معارف الكثيرين من هؤلاء الباحثين وشأن الطرائق التي ثبتت صفتها العلمية — العمل الجماعي واستخدام البطاقات ووضع المراجع ؛ وملاحظة الوقائع بدقة ودرس ملاساتها والتأمل في كل منها لاستخلاص القوانين — والتي أتقنوها وطبقوها على الشؤون الادبية . ولم يحل شيء من هذا مبدئياً دون سلامة الذوق ورقعة الحاشية اللتين احسن كبار المؤلفين التعبير عنها ، هكذا أدركت وطبقت مبادئ «المدرسة الاسكندرانية» التي مثلت ثورة في الحياة الفكرية والتي لا تزال نتأثر بنتائجها حتى ايامنا هذه . فما كانت عبقرية الاغريق الخلاقة لتموت بموت حريتهم السياسية ، وما كان دورهم كمرابي الانسانية ، حتى في مستقبل بعيد ، لينتهي بانتهاؤها .

التاريخ
نشطت البحوث التاريخية مؤقتاً نشاطاً نادراً جداً بفعل الروابط الوثيقة التي تجمع بين الاطلاع الواسع والتاريخ : فإن موجبات الشغف الفكري والروح النقدية هي هي سواء تناولت فقه اللغة ، او العلم ، او التاريخ . وان جهود المعلقين في كشف وإجلاء كنهيات المؤلفات الادبية ، التي تتأصل في زمانهم ، قد قادتهم الى بحوث حول الماضي . ثم ما هي السبيل لفهم مؤلف ما دون الاستعلام عن حياة وأفعال وبيئة مؤلفه ؟ فقد سبق لارسطو وتلاميذه ان اعطوا المثل في بحوث دقيقة ونظامية تناولت كافة الحقول ، فانتهوا الى وضع كتب خصوصية ، أشبه بجداول للوقائع أحياناً ، يؤلف « دستور الاثنيين » افضل نموذج عنها في الحقل التاريخي . وتمشيا على الطريقة نفسها وانسجاماً مع الروح نفسها ، — لأن الكثيرين منهم انتسبوا الى المدرسة المشائية التي أسسها ارسطو — كان عدد رجال البحث مرتفعاً جداً طيلة العهد الهليني . لا بل ان بعضهم وضعوا مجرد مجموعات من الوثائق والمراسلات والمراسيم . وانكب غيرهم بعناد على معاضل التاريخ التي من شأن حلها وحده ، قبل أي شيء آخر ، ان يوفر هيكلًا متيناً . ولم يكن هذا التعمق التقني ، من جهة ثانية ، ليسجن القائم به في تخصص ضيق لأن واحداً لم يفقد الشعور بتمعد الظاهرات الفردية او الجماعية وعلها . وعلى نقيض ذلك فقد تقدم التحليل السيكولوجي تقدماً مطرداً ، ولم تحتل قط دراسات الجغرافيا الوصفية ، التي توفر المعلومات حول الاخلاق والميزات المحلية وتوضح المسافات والموارد ، ما احتلته إذ ذاك من مكانة مرموقة . وهكذا فان العلوم الثانوية المساعدة قد جمعت المواد للمؤرخ ، من كل الجهات ، وسهلت مهمته الخاصة .

وكان هنالك ، للاهتمام بالتاريخ في مفهومه العلمي ، بالإضافة الى اوساط ذوي الاطلاع الواسع ، جمهور كبير تؤلفه تلك البورجوازية الوسطى التي كثيراً ما أتينا على ذكرها . فان انتشارها قد اكثرت من القراء الراغبين في الاستطلاع والتفكير وأوجدت في الوقت نفسه رأياً عاماً أقل انقساماً منه في الماضي بفعل تخوم المدن . فازدادت الدعاوة السياسية ، التي اعتمدت منذ زمن

بعيد ، واذا ما اتخذت هذه الدعاوة غالباً أشكالاً لا تتفق مع التاريخ ، فعلينا ان نرى في ذلك شهادة في القوة الفكرية التي تمتع بها من استهدفتهم هذه الدعاوة . وهكذا نشأ مثلاً نمط جديد هو نمط المذكرات التي وضعت كمذكرات او كروايات للأحداث العظيمة التي اشترك فيها المؤلف . فظهر كثير منها حول حملة الاسكندر ، لا سيما مذكرات الملك بطليموس الأول . ثم أصدر رجال دولة آخرون مذكراتهم ايضاً : الأثيني ديمتريوس الفاليري ، وبيروس ملك الأبير ، وأراتوس الحاكم الرئيسي في الاتحاد الآخي ، في القرن الثالث . ولكن مشاغل البورجوازيين وذوي الاطلاع الواسع ، في حقل الثقافة ، قد توافقت في غير هذا الاهتمام بالتاريخ السياسي . فمن حيث انتماء الاغريق الى حضارة حاولت جاهدة المحافظة على سلامتها امام الحضارات الشرقية ، كان من الطبيعي ان يعيروا اهتماماً متزايداً ، حتى في الماضي ، لمظاهر هذه الحضارة التي أوحى لهم المزيد من العُجب الحلال . فلمعت من ثم اضاء جديدة في الحركة التاريخية آنذاك وظهرت وتقدمت دراسات جديدة كرّست للتطور الفكري او الفني . وكان لذلك مغزاه الكبير ، أقله ضمناً : فان جعل التاريخ يقوم بمهمة نقل وتعليل احداث الحياة الفكرية كان معناه ان هذه الحياة ، في نظر الشعب ، توازي في اهميتها منازعات الدول ؛ وان مفكراً كبيراً او فناً كبيراً يوازي رجلاً سياسياً او قائداً عسكرياً . وهكذا فان التاريخ — وهذا في الغالب دوره العملي ، إن لم يكن دوره المثالي — قد اسهم في ان قوّى ، بواسطة هيكل داخلي ، الشعور القومي او ما يقوم مقامه ، اي وحدة اناس تشدهم ، فوق الحدود ، لغة واحدة وتفكير منطقي واحد وتربية فكرية واحدة ، واذواق واحدة ، اي ، بكلمة موجزة ، وحدتهم الأدبية .

كل هذا يفسر قوة العمل المنجز آنذاك والاستقبال الطيب الذي صادفه ، وبكلمة موجزة ، تقدم الشغف التاريخي الذي هو الشرط الاول لتقدم التاريخ . بيد انه بقي بعيد المنال . فقد احتوت مجموعات الرسائل كثيراً من الزيف ، حتى المفتضح احياناً ، ويواجه النقد في ايامنا ، اكثر من مرة ، مشكلة الحكم في صحة المقاطع الاخرى التي يشك فيها كثيراً . ويصح القول نفسه في مجموعات المراسيم التي لم تصل اليها على كل حال ويبدو انها لم تكن كثيرة العدد : وقد يستهويها ان توجه اللوم لذوي الاطلاع الواسع في ذاك العهد لأنهم لم يلجأوا إلا نادراً الى مستندات المحفوظات ، او أقله الى الكتابات التي عرضت عدداً كبيراً منها على مرأى الجماهير . وقد أدخلت المذكرات ، بفعل تحديدها نفسه ، تشويهاً دفاعياً على الوقائع واسبابها الحقيقية . وأثر علم البيان ، بصورة حتمية ، في المؤرخين ، حتى ان الخطب التي استمروا في نسبتها الى بعض الاشخاص لم يكن لها ما يبررها ، كما هي الحال عند توسيديد ، اجمال حالة عامة او عرض اسباب قرار ما : ففدت في اغلب الاحيان قطعاً صناعية جوفاء للأبهة فقط . ثم ان السعي وراء الأثر التصويري او المسرحي الخليق بأن يسلي القراء او يشجيهم قد جعل من الانتاج التاريخي انتاجاً أدبياً بمعناه الازدرائي .

غير ان الرصيد الاجمالي ، مع كل ذلك ، يبقى ايجابياً الى حد بعيد . فقد ادخل النظام على

التأريخ القديم ، عن طريق البحث عن ثوابت ولاية الملوك او القضاة ، في اللوائح المحلية : فنفذ ايراتوشينوس على هذا الصعيد عملاً مجيداً وكان له الفضل في التأكيد ان التاريخ اليوناني ، قبل الشروع بوضع لائحة الفائزين الاولمبيين ، في السنة ٧٧٦ ، يفتقر الى الاروم . وقد ازدادت دراسات التخصص . فعلى غرار أثينا ، استمالت سبارطة ودوا ، اخرى او مناسطق اخرى من اليونان عدداً من الباحثين الشغفين بأصلهم وبماضيهم . ووضع غيرهم التراجم ، وهي لون جديد ، تأثر الى حد بعيد بالتقريظ الخطابي الذي بشأ عنه . ووضعت تواريخ للفن والعلوم المختلفة والفلسفة والأدب : فمن اغرب الدلائل على سعة اطلاع بعض رجال ذاك العهد ان احد النقاشين الذين سبق لهم واشتغلوا في برغاموس ، انتيغونس الكاريستي (من جزيرة اوبيا) ، قد ألف ايضاً تاريخاً للفن وتاريخاً لاهم الفلاسفة منذ ارسطو . ثم اقتضى بعد هذا كله القيام بمحاولة تأليفية في وضع تاريخ للحضارة : فكيف لا يذكر اسم ديكيارخوس الميسيني الذي كان الاول في الاقدام على هذه المحاولة ، باسم « حياة اليونان » ، غير متورع من الارتقاء الى ابعد الأزمنة رسوخاً في القدم ؟

لم نأت ، عن قصد ، على ذكر اسماء كثيرة ، على الرغم من وفرة ما نعرفه منها ، وحتى من المجد الذي أحاط ببعضها في العصور القديمة . فهي ليست جميعها في الحقيقة سوى عناوين لمؤلفات منقودة ، او لمؤلفات لم يبق منها ، في احسن الحالات ، سوى مقاطع صغيرة جداً . وليس من شك في ان ما حققه المؤرخون الهلينيون كان عظيماً ، ولكنه اهم ، مادياً ، واطف ، أدبياً ، من ان تنقلها الينا الاجيال اللاحقة . فقد اكتفت هذه الاجيال بأن انتهلت منه ، لأن كل ما كان بالامكان عمله لجمع ذكريات الماضي والحيلولة دون ضياعها قد انجز عملياً في هذا العهد . وقد استفاد المؤرخون واللغويون وغيرهم فيما بعد ، دونما ملل ، مما غدا ملكاً مشتركاً . وها نحن نفتهل اليوم ، بواسطتهم ، من هذا الملك المشترك نفسه ، سعداء بانهم أشاروا احساناً الى المصادر او اقتطعوا بعض الاستشهادات .

فشاءت الصدف مع ذلك ان يصلنا قسم كبير من مؤلفات بوليب . ولكن هذا الواقع ليس وسده ما يرغمننا على اعتبار بوليب خير مؤرخ في هذه القرون الثلاثة .

لحاً في اسلوبه الأدبي الى صياغة الكلام وفاقاً للطريقة الرسمية آنذاك التي يزيد من ارتباكها ما تنطوي عليه من تعابير مجردة وصيغ بطيئة . وكثيراً ما تناول موضوع الاخلاق معتمداً في ذلك قواعد اخلاقية غير شاملة أملت على كل حال مفاهيم فلسفية تطورت ولم يجهد هو ، او لم ينسج له الوقت ، للتوفيق بينها . وقد اتبع في عرض موضوعه تصميماً صارماً ، سنة فسنة ، ومنطقة فمطقة ، وفاقاً لنظام جغرافي معين . وشغف بفن الحرب فوجد لذة خاصة في سرد تفاصيل الهجمات المفاجئة . بيد ان الدقة التي تباهى بها لم تكن إلا ظاهرة احيانا ، وعلى الرغم من تأكيدات ومن امتيازاته عادة عن المصادر الاخرى ، فانه لم يخل قط من الخطأ والتحيز . فقد

صدرت عنه هفوات عرضية عموماً وخطيرة أحياناً حتى في موضوع جغرافية البلدان التي زارها مثلاً . ولم يتمكن من ان يتجرد من مواطنيته الآخية وبورجوازيته الآخية وحتى انتباهه الى فئة من فئات البورجوازية الآخية .

ولكن هذه النقائص تتلاشى امام صفاته . فان نظريته في التاريخ ، التي لم يأل جهداً في عرضها واتقانها واعادة النظر فيها ، قد أصبحت نظرية علمية . اراد اللجوء الى جميع مصادر الاستطلاع بما فيها الدرس الشخصي للبلاد وحتى لمنطقة معينة فيها . واراد تاريخاً لا يكون صحيحاً ودقيقاً فحسب ، بل « عملياً » ايضاً ، اي قميناً بتربية الانسان النشيط الذي لم يميزه عن الانسان الثاقب المصمم على تعليل عمله المباشر واكتشاف المعنى الكامن في سلسلة من الاحداث . فقد اعترضته اذن معضلة الاسباب ، واذا هو لم يتمكن طيلة حياته كمؤلف ، وبالتالي في جميع مؤلفاته ، من السير في المنطق البشري حتى اقضاء الابر الإلهي - اي اثر إله الحظ - فانه لم يلجأ اليه كتفسير يائس ، لأن الصلة الوثيقة ، في تعاقب الاحداث ، بين العلل الطبيعية ومعلولاتها ، كانت موضوع بحثه المستمر . ولم يكتف بالظواهر ولم يتأثر بمجادلات الدعاوات المتقابلة ، بل دعا الى التمييز ، ويميز هو نفسه ، بين الاسباب البعيدة والاسباب القريبة والحجج التي تخفي الاسباب الحقيقية . وادرك معنى تطور المجتمعات حتى بلغ منه ان توصل الى نظرية « دورية » تتعاقب بموجبها الملكية والارستوقراطية والديموقراطية وتؤدي حتماً في هذا المجال من واحدة الى اخرى لأنها ، كلها ، تفسد حتماً عند التطبيق . وهو لم يبتكر كل هذا ابتكاراً على كل حال ، لأن هذا الرجل الرفيع الثقافة قد نقل ما جاء به عن الفلاسفة وواضعي النظريات الذين سبقوه ، دون ان يتوصل الى نظام متلاحم جداً . ولكن واحداً غيره لم يفكر بمثل هذا الحرم في ان يستخلص ، مما نقله ، النتائج لدراسة التاريخ .

اضف الى ذلك ان الفضل يعود له ، من حيث انه عاش طيلة الارباع الثلاثة الاولى من القرن الثاني ، في انه ادرك الاهمية العامة التي انطبوت عليها الاحداث التي شاهدها او لعب فيها دوراً ثانوياً أحياناً وصمم على درسها كجموع . وقد خدمته مصائب حياته دمسها في هذا الدرس . فقد ارغم على ان يعيش ١٧ سنة منفياً في ايطاليا حيث تقرب الى شيبون اميليانوس وتعرف الى الاوساط الحاكمة في روما ، فاستطاع من ثم في روما ، لا ان يجمع جزءاً كبيراً من مسنداته فحسب ، بل ان يتأمل في الاحداث المتفرقة ويجد الصلة القائمة بينها . وهكذا اتصحت له هذه الحقيقة التي شاهد حيله تحقيقها ، بين السنة ٢١٨ والسنة ١٦٨ اولا ، وبين السنة ١٤٦ والسنة ١٣٣ ثانياً وبصورة اكمل ، اعني بها وحدة العالم المتوسطي تحت سيطرة روما . ولمح اهمية تلك الثورة السياسية والعسكرية التي انتزعت من الاعريق لا استقلالهم فحسب بل فهمهم للعالم دمه والمقياس الذي قاسوه به ، لأنها قد اثبتت لهم ضيق الآفاق التي عاشوا فيها وحقارة تحقيقات كافة الماتحين الذين تمكنوا من معرفتهم ، بعد ان كانوا يعتبرونها بعيدة وعظيمة جداً . فان

الامبراطورية العالمية التي اكتفى اعظم الرجال بأن يحملوا بها كانت في طريق التحيز امام ناظري البورجوازي الآخي الذي احفظه الثوريون السبارطيون والمستلبون الايتوليون . وهو قد آمن بجمية مراحلها الاخيرة لأنه استحال عليه التفكير بأن الفارتيين سيستولون على شطر كبير من تراث الاسكندر الاقليمي . بيد انه ادرك ترابط الاحداث ولمس من نفسه القدرة على تحديد عللها . فأخذ على نفسه اذ ذاك ان يبين ، وفقاً لتحديده الخاص ، « كيف وبفعل اي نظام حصلت السيطرة على كل الارض المأهولة تقريباً التي امست - وهذا حدث فريد من نوعه - ملك امبراطورية واحدة هي امبراطورية روما » . ولعل خير اكرام يجب تأديته لبوليب هو الاعتراف بأنه ، بعد تصميم هذا المشروع العظيم ، لم يكن دونه مستوى .

في الاشكال الجديدة للحياة الفكرية ، اي فقه اللغة والعلم الواسع
النقدم العاسي والتقدم التمي
وحتى الدراسات التاريخية الى حد بعيد ، يبرز اثر الروح العلمية . وقد برزت هذه الروح ابدأ في ما مضى ؛ ولكن الجودة في دورها النافذ السريع واعتماد طرائقها في ما كان متعلقاً من قبل بالادب حين يفكر احدهم بالاهتمام له . ومن الطبيعي انها ارحت باستمرار الابحاث العلمية التقليدية التي ساعد شمول التغلف الفكري والابعامات الملكية على مواصلتها بنشاط وسهولة متزايدة ، وقد احتلت الاسكندرية ابدأ ، في هذا الحقل ، المركز الاول لأن ملوكها تفوقوا على غيرهم ثروة وكرماً . ولذلك فان الطابع الازدراي الذي ارتداه اسم « المدرسة الاسكندرية » في الكلام الدارج لا مبرر له في كافة الحقول تقريباً : ولا مبرر له في هذا الحقل بنوع خاص . وان اسم ايراتوستينوس وحده لكاف لاقضاء تهمة الانحطاط الموجهة الى الحركة الفكرية التي ازدهرت آنشد بازاء قصور اللاجبين . ويكفي لذلك ايضاً ان تسريح حث الموتى قد اجري فيها لأول مرة بصورة صحيحة . فقد اقتضى لذلك جرأة استقصاء وتجهيز مواد لم يعرفا كلاهما من قبل .

بفضل هذه الظروف المؤاتية احرزت بحوث العلماء نجاحات تلفت الانظار . ومما يدعو الى الدهشة هنا ، كما في جميع العصور القديمة ، ان هذه النجاحات العلمية لم تؤد الا الى القليل القليل من التطبيقات العملية . فما زال الاهتمام بهذه الاخيرة معتبراً دون شأن العالم ومقامه . بيد ان الطب وحده قد نجا من هذا الحكم الذي ليس من المعقول ، في الحقيقة ، ان يصدر عليه . ولكن ارحميدس لم يرض الا في ظروف استثنائية بالفهام بأعمال المهندسين . فهو لم يبرل مركباً الى البحر ، بواسطة حمار من المكر والعتل ، الا اكراماً للملك السيراكوزي ، هيرون الثاني ، وبعد ان نسب اليه العجز عن تحقيق ذلك ؛ ولم يصمم الآلات المدهشة الا سعيّاً وراء فك الحصار عن سيراكوزا . وكان كل ذلك في نظره ، كما يؤكد بلوتارك ، « لعباً هندسية تلهي بها لتمضية الوقت » . فتمسر هذه العقلية تأخر « الفنون الآلية » الي لا تتطلها سوى الحاجات الحربية تقريباً والتي تستلزم التجربة والاختبار . اجل لقد صنعت مراكب ضخمة ؛ ولكن

المركب الجبار « سيراكوزيا » الذي كان يتسع لثلاثة آلاف طن من البضائع ، ولستمائة بحار وثلاثمائة جندي ينعمون فيه براحة تامة ، تخلص منه هيرون الثاني بأهدائه لأحد اللاجئين ، بعد ان اتضح له عدم جدواه .

يجب في الحقيقة ان لا ننظر الى نتائج هذا التلمس المتروك بعين الاحتقار . وقد اقتصر العصور القديمة حتى بيزنطية على نقل او تطبيق التحقيقات الهلينية . ولم تحرز تقنية صناعة السفن اي تقدم بين ايدي الرومان ، لا بل انها ما لبثت ان اقصرت طموحها على طراز الـ « تريريم » التي لا تختلف عن « تريير » الاغريق في القرن الخامس ، مع انهم صنعوا سفناً افضل منها منذ القرن الرابع ، ولا سيما في مستهل العهد الهليني ؛ ومرد ذلك الى ان روما ، بعد ان انتهت فتوحاتها ، لم تصطدم بأية قوة بحرية كبيرة . وقد احرز الشرق الهليني نجاحات فائقة في حقل تجهيز المرافئ ، لا سيما في الاسكندرية حيث لم يكن برج فاروس سوى العنصر الاهم في مجموعة بقيت زمناً طويلاً دون منافس . وشيد هيرون الاسكندري بعد ذلك مسرحاً للتماثيل المتحركة ، وموزعين وحجاباً آليين ؛ وابتكر « فستقية » — تلك التي سيعرضها جان حاك روسو امام الفلاحين السافويين — توصل الى استخدام قوة البخار فيها . احل لم تكن كل هذه الابتكارات سوى مجرد آله او بالاحرى حيل تتيح لبعض السحرة — المشعوذين استثمار سرعة التصديق المفرطة عند الشعب . ولكن تحققت اكتشافات مفيدة ايضاً . فقد استخدم لولب لا نهاية له ، اخترعه ارخميدس ، لتجفيف قعر السفن والاراضي المصرية بعد الفيضان . واكتشفت المطحنة المائية ، فحث احد الشعراء ربات البيوت على التضحي في نومهن لأن عرائس الينايع اخذت على نفسها القيام بعملهن ؛ ولكن استخدام هذه الآلة العجيبة كان أبعد من ان يصبح عاماً . وان ما يلفت النظر بالتالي هو انه لم يتحقق سوى حد ادنى من تخفيف الشقاء البشري . اما الافتراض الذي افترضه ارسطو والذي بدا له غير قابل التحقيق على كل حال — « لو ان كل آلة تنفذ مهمتها بناء على أمر او اشارة ... ولو ان المكوك يابسج رحده والمضرب يعزف وحده على القيثارة ، لاستغنى المهندسون عن العمال والاسياد عن العبيد » — ، فلم يخرج عن اطار المستحيلات التي لم يحلم بها احد . وبدلاً من ان يتماشى العلم والتقنية ، نراهما يستمران في تجاهل بعضهما البعض ، لا بل نرى التقنية عائدة في احتقار العلم .

كان من شأن هذه اللامبالاة ان أبقت الادوات الضرورية للعلماء في حالة بدائية .
اطلاقة العلوم
فاضطروا ، بسبب حرمانهم من أدوات القياس ومن المجهر والمزق ، الى الاعتماد على حواسهم ، وعلى عقولهم بنوع خاص . وهذا ما يطبع النتائج المحرزة بمزيد من العظمة .

وكان العالم المعروف قد اتسع اتساعاً نادراً . ففي الوقت الذي تخطى فيه الاسكندر ايران ، متقدماً في تركستان والهند ، قام المرسلين ببيتاس بدورة حول اوربا الغربية . فبلغ المصائق الداعرية والطرف الشمالي للجزر البريطانية . وحين روى ما علمه عن شمس نصف الليل والمحيط

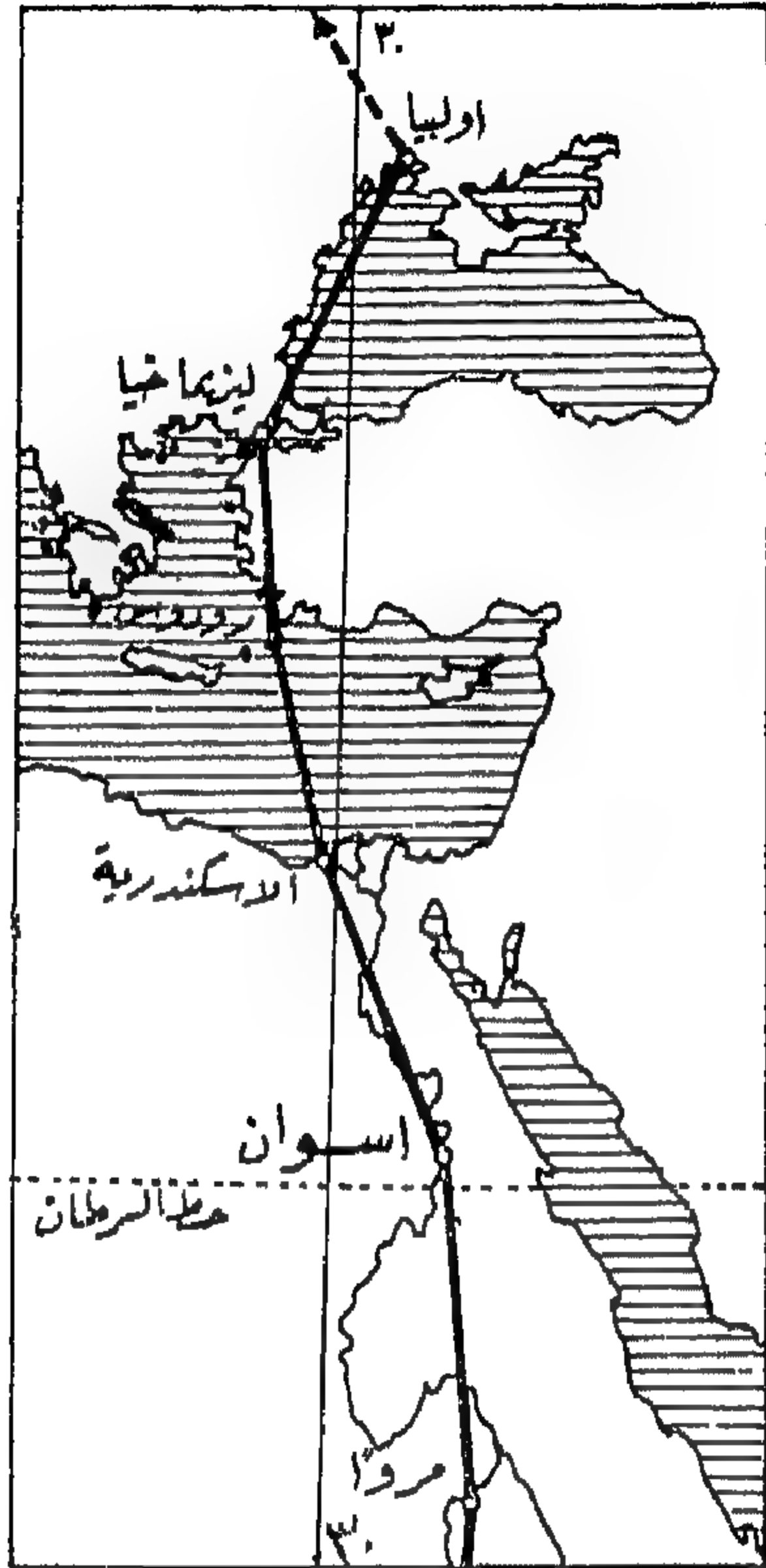
المتجمد الشمالي ، اتهمه الرأي العام بالخرقة والهذر ؛ ولكن بعض العلماء قد استفادوا من رواياته . ولم يخاطر الملاحون اليونانيون بعد ذلك بأنفسهم في السفر نحو الغرب البعيد الذي أقام القادسيون أنفسهم حجاباً لا يركن اليهم عند مداخلة . ولكن الملوك الهلينيون أوفدوا أكثر من بعثة الى بحر قزوين — الذي لم يستكشف كله على كل حال — والهند والجزيرة العربية والبحر الاحمر وأعالي النيل . فنشر بعض هؤلاء الأفئاقين رواية اسفارهم ، مما افرح الجماهير الشغفة بكل غريب عجيب . غير ان الجغرافية العلمية قد أفادت الى حد بعيد من الجغرافية الوصفية . وليس سوى الافتقار الى الادوات ، في ما يبدو ، ما يفسر عدم تقدير الحقائق التي تراءت فترة من الزمن ؛ بيد ان تراثها مما يثير الاعجاب .

فان ملاحظة حركة المد والجزر الهامة في المحيطات قد جعلتهم يواجهون بشكل جديد معضلة اسبابها . فاكتشف بعضهم ، كبيتياس مثلاً ، انها مرتبطة بالقمر ، ولم يتمكن احد من بعدهم ان ينفي ذلك . غير ان الرأي لم يستقر على رفض دور الريح التي نسب اليها ارسطو هذه الظاهرة : ومرد ذلك ان علم الفلك لم يكن بعد علماً صحيحاً .

وكانت كروية الارض امراً معترفاً به ؛ فسعوا سعياً حثيثاً لتحديد قياساتها . وقد حقق ايراتوستينوس في هذا الموضوع لباب الامر ، وبعود اليه الفضل في اعتماد ابطس الطرق . فانطلق من اعتقاده بان اسوان تقع على خط الطول نفسه الذي يمر في الاسكندرية التي تفصلها عنها مسافة ٥٠٠٠ غلوة ، واكتشف ان أشعة الشمس ، في موعد انقلابها الصيفي ، تنحدر اليها عمودياً بينما تنحرف هذه الاشعة ، في الاسكندرية ، عن الخط العمودي مكونة معه في انحرافها زاوية تعادل $\frac{1}{8}$ من محيط الدائرة ؛ فان المسافة بين المدينتين ، بالتالي ، تعادل $\frac{1}{8}$ من خط الطول . أجل لم تخل هذه الطريقة من الاخطاء ؛ فان اسوان تقع في الحقيقة على مسافة ٥٠ كيلومتراً تقريباً الى الشمال من دائرة السرطان ، والاسكندرية على ثلاث درجات الى الغرب من خط الطول الذي يمر في اسوان ؛ أضف الى ذلك انه كان من الصعب قياس المسافة التي تفصل بين المدينتين . واذا ما افترضنا ان التنقيحات التقريبية التي أدخلها ايراتوستينوس على معطياته العددية جاءت صحيحة ، ببقى علينا ان نعرف ما هي الغلوة التي استند اليها عندما انتهى الى خط طول قياسه ٢٥٠٠٠٠ غلوة ، او ٢٥٢٠٠٠ غلوة بحسب « سترابون » . وما كان النقص النهائي ليتجاوز ٦٢٥ كيلومتراً في حساب الاول او ٣١٠ كيلومترات في حساب الثاني على ٤٠٠٠ كيلومتر ، اي ما يعادل ١,٥٦ او ٧,٧٧ ٪ . ولكن علوتين اخريين كانتا معتمدتين ايضاً تؤديان ، لر اسند اليها ، الى فوارق اكبر . ومهما يكن من الامر ، فان الطريقة جديدة بكل اعجاب .

بفضل هذا التقدم ، بذلت الجهود في وضع الخرائط . فجمعت ، في سبيل هذا الهدف ، المعلومات الوجيزة المتوفرة حول المسافات . وفكر هيبارخوس ، في القرن الثاني ، بمراقبة

النجوم لتحديد خطوط العرض كخطوط الطول؛ ولكن الضرورة كانت تقضي بمقارنة الساعات، في حال ان آلات قياس الوقت لم تكن بعد مكتشفة. ومنذ القرن الثالث، قام ايراتوشينوس بجهود تأليف عظيم فتوصل، بواسطة الاحداثيات الحسابية، الى وضع خريطة عامة « للمسكونة » تلفت النظر، على الرغم مما تخللها من اخطاء، في ما يتعلق فيها بالسواحل



الشكل ٣٠ - خط طول الاسكندرية
كما رسمه ايراتوشينوس

المتوسطة وآسيا الصغرى، بينما لا تزال مبسطة جداً في ما يتعلق بالمناطق الاخرى. ثم ان معرفة المحيط الهندي، ورحلة بيتياس، والاعتقاد السائد بأن بحر قزوين ليس مقفلاً من الشمال، بدت لبيتياس مصداقاً للنظرية القديمة القائلة بوجود محيط واحد دائري وبأن الاراضي المعروفة تؤلف حلقة حول البحر المتوسط الذي ليس سوى بحيرة وسطية؛ وهو قد افترض، من جهة ثانية، وجود قارة اخرى بمثابة في المنطقة المعتدلة الجنوبية. اجل لا يعود اليه الفضل في الطلوع بنظرية المناطق؛ ولكن علم الفلك أتاح له ان يرسم للمرة الاولى وبشكل صحيح تقريباً الدائرة القطبية ودائرة الانقلاب وخط الاستواء. واذا قيل ان ايراتوشينوس يحتل المركز الثاني كلفوي ومؤرخ وشاعر، فانه يبدو في نظر المعاصرين، مسيطراً دون منازع على عهده في حقل الجغرافية العلمية.

لا ريب في ان علم الفلك قد استفاد من الملاحظات المتكدسة في المعابد البابلية. ولعل

تفسير هذه الملاحظات العلمي بلغ في الشرق نفسه شأواً بعيداً: فان كيدينو، الذي يطلق عليه الاغريق اسم كيديناس، كان عالماً حقيقياً، حتى ولو لم يكنشف مبادرة نقطة الاعتدال التي تنسب الى هيبارخوس ايضاً. بيد ان تحقيقات علماء الفلك اليونانيين، على الرغم من اجتهاد حدسهم العبقري، لجذير مع ذلك بكل اعتبار. فهم قد رفضوا نظرية الافلاك المجوفة التي طلع بها افدوكسوس في القرن الرابع. واقترح ارسطارخوس الساموسي في القرن الثالث نظاماً تكون الشمس نقطة الدائرة فيه تبناه في القرن الثاني اغريقي بابلي يدعى سلوقوس: اي ان الارض والسيارات تدور حول الشمس خلافاً للظواهر ولكافة الشروح السابقة. ومما يلفت النظر ان هذا الافتراض لم يكن ليتفق مع الملاحظات التي سمحت بها الوسائل التقنية آنذاك.

لذلك فانه قد أثار معارضة الفلاسفة - ولم يتردد احد رؤساء المدرسة الرواقية في ان يتهم بخرق
القدسيات كل من يجرؤ على ازاحة « مركز العالم » - واكثرية العلماء ايضاً من أمثال ارخميدس
وهيبارخوس . واحتال هذا الاخير في تحسين النظام المقابل الذي يجعل من الارض مركز العالم
والذي بقي بمثابة عقيدة ايمانية حتى كوبرنيك : ولم يكرس احد سواه ما كرسه من انتباه
« للظواهر » ، وقد وضع جدولاً بأكثر من ٨٠٠ نجم ثابت . ولكن مبدأه بالذات ، بسبب
حالة التقنية ، حتم عليه الخطأ على هذا الصعيد .

اما في حقل الرياضيات ، فقد أخضع اوكليدس الهندسة ، او بالاحرى الجبر الهندسي ،
لقواعد قياسية مترابطة دائمة . ولكن بعض العلماء الآخرين تفوقوا عليه عبقرية . ولعل اعظمهم
حقاً هو ارخميدس الصقلي الذي مرّ مروراً على الاقل في الاسكندرية . فقد أراد ان ينوّه النقّاش
على مدفنه بما اعتبره هو اهم اكتشافاته : نسبة ٢ الى ٣ القائمة بين حجم الكرة وحجم الاسطوانة
التي تماسّ ضلوعها الدائرة . بيد ان رصيده ينطوي على اكتشافات اخرى كثيرة ، في الرياضيات
والطبيعيات ، إذ انه وضع بصورة خاصة مبادئ حساب الكمية الصغرى وعلم توازن السوائل
وضغطها . ويجب ايضاً ان نذكر على الأقل اسم ابولونيوس البمفيلي المنشأ الذي اهتم ، الى جانب
النظريات الفلكية ، بدرس قيمة (π) والقطع المخروطي وتجاوز فيها ما حققه ارخميدس نفسه .

واستفاد علماء النبات والحيوان من الاتصال بالعوالم الغريبة واستوقفوا انتباه مدرسة ارسطو
بنوع خاص فوضع ثيوفراستوس ، خلفه المباشر ، « جغرافية النباتات » ومؤلفاً في « علل
النباتات » ، فاحرزا بعض التقدم . ولكن علماء التشريح في الاسكندرية اقدموا بجزأة على
تشريح جثث الموتى وحتى اجسام المجرمين الاحياء كما جاء في التقليد . وهكذا توصل
« هيروفيلوس » ، قبل « هارفي » بـ ١٩ قرناً ، الى ان يكتشف ان الشرايين لا تنقل الهواء بل
الدم الذي يدفعه القلب . ثم عاد ايراسيستراتوس الى الهواء غير معترف بوجود الدم الا في حالة
الحصى ؛ ولكنه ميّز في الجهاز العصبي الذي تراءى لسلفه بين اعصاب الحركة واعصاب الاحساس .
ولم يتردد الجراحون في اجراء عمليات هامة : فان ايراسيستراتوس نفسه لم يحجم عن التعرض
للكبِد . وقد اعتمدت مدرستان طبيّتان ، عملياً ، طرائق الشفاء والصحة التي اطراها هؤلاء
العلماء . ولكن مدرسة ثالثة فاقتها في النهاية : فقد عرّفت عن نفسها بأنها « اختبارية » واهملت
التشريح والنظرية واكتفت بالبحث عن الادوية وتوصلت احياناً الى اكتشاف ادوية هامة
ولكنها ارتكبت ايضاً اخطاء هي أقرب الى السحر منها الى الطب . لذلك صادف السحر نجاحاً
متزايداً لدى جمهور المرضى حين لم يدفعهم ايمانهم القلق للاتكال على الاحلام التي يوحى بها
والمعجزات التي يجترحها الالهة الشافون : اسكليبيوس وسيراپيس ، واممحوتب بن هابو في أخربة
المعبد الذي شيدته حنشبسوت في دير البحري منذ ١٥٠٠ سنة قبل المسيح .

باستطاعتنا ان نرى في هذا الزيغان ، الذي لم يكن وحيداً من نوعه ، اكثر من حدث

عارض ، فإن الحركة العلمية في العهد الهليني ، لأعظم حركة علمية نشاطاً وحياة وتنوعاً وانتاجاً في كافة العصور القديمة . ففي حقول الجغرافية وعلم الفلك والرياضيات والتشريح والفيزيولوجيا ، طلعت باكتشافات ووضعت نظريات كتب للعالم المتحضر ان يتمشى على اخطائها نفسها قروناً طويلة . ولم يسبق للفكر البشري ان يربط ، كما انه لن يربط قبل زمن طويل ، بمثل هذا الايثاق ، بين التصميم على التجريد المنطقي وبين هوى المعارف العملية أي الخضوع للواقع . ولكن عجز التقنية قد حدث من فاعليته لأن هذا العجز قد حال ، عملياً ، دون اللجوء الى الطريقة الاختبارية أولاً والبحث عن تطبيقات نجاحاتها العملية ثانياً . ولذلك فلم تصب هذه النجاحات سوى نخبة مثقفة محدودة العدد نسبياً ، وان كانت ارفع عدداً من ذي قبل . ولكنها لم تصب عامة الشعب حتى المتأدبين منها ، لا سيما وان نزعاتهم المخالفة للصواب ، وهي أقوى منها في أي زمن مضى ، لم تكن لتجعلهم يقدررون صرامة الروح العلمية . هذا هو مصدر الجاذب الذي استسلموا له بسهولة ، أعني به جاذب ما هو مستغرب ولا سيما جاذب السرّ الصعب المنال . وهكذا فإن العلوم الطبيعية انخرقت نحو وصف الغرائب النباتية او الحيوانية او المعدنية التي قد تكون صحيحة أو لا تكون والتي كثيراً ما ينسبونها الى قوى فائقة الطبيعية . وهكذا انخرط علم الفلك نحو التنجيم ، كما دعت الى ذلك السوابق البابلية . وهكذا انخرط الطب نحو المعجزة والسحر ، فتحطمت الانطلاقة العلمية الصحيحة وحلت محلها في غالب الأحيان شعوذة رخيصة هي أبعد من ان تبقي على النفوذ الذي تمتع به كبار الاسكندرانيين في القرن الثالث وان تنقله الى خلفائهم .

٤ - المدارس الفلسفية والألوان الأدبية

لازم العلم اليوناني الفلسفة منذ نشأته . ولكن الفلسفة نزعته ، بفعل التقدم الذي
 الفلسفة
 أحرزته ، الى ان يكون لها قوام مستقل . ولذلك تراخت الصلة بينهما دون ان تنفصم : ولم تلعب مدرسة ارسطو دور الحافز الا في البداية ولبعض العلوم أو بالأحرى لبعض الاساليب العلمية فقط .

بقيت أثينا المركز الرئيسي للنشاط الفلسفي . ففيها قامت الاكاديمية الافلاطونية والكلية المشائية المرتبطة بارسطو ، متمشيتين على نظام جمهوري تنتخبان بموجبه ممثلهما . وفيها أيضاً القى الفينيقي القبرصي زينون دروسه في «اللاغورا» تحت «الرواق» (Stoa) الذي كان في الاساس من اطلاق اسم «الرواقية» (Stoicism) على تعاليمه وتبعة مذهبه ، وفيها أيضاً جمع الاثيني ابيقور تلاميذه في الحديقة التي ما زالت اسماً لمدرسته . أجل لا نستطيع الكلام عن احتكار أثيني ؛ فكان لكل من هذه الجماعات فروعها في الخارج ، كما ان جماعات اخرى لم تتخذ من أثينا مركزاً رئيسياً لها . ولكن الفلاسفة وتلاميذهم ، مع ذلك ، لم يكونوا في أي مكان آخر أكثر عدداً منهم في أثينا . ولم يحظوا في أي مكان بالاكرام الذي حظوا به فيها . فقد عين احد الملوك

الاطاليين ، في السنة ١٥٩ ، أمين دار الكتب في برغاموس ، كراتيس المالي ، سفيراً له في روما ، وهو مشهور بسعة علمه فوق شهرته برواقيته ، ويعتبره سترابون واحداً من اثنين - الثاني هو ارسطارخوس - حلقاً في علم الصرف والنحو . ولكن الأثينيين عينوا ، في السنة ١٥٥ ، رؤساء المدارس الفاسفية الهامة ، للدفاع عن قضيتهم امام مجلس الشيوخ الروماني ، على الرغم من انهم ثلاثة اجانب : كرنيا الكيريني من الاكاديمية ، وكريتولاوس الفاسيلي من الكلية ، وديوجين البابلي من المدرسة الرواقية . وهكذا فقد غدت أثينا ، دون ان تقدم الدولة مساعدات مالية للأساتذة ، مركزاً لمعهد فلسفة لا يضاهيه مركز آخر حتى آخر العصور القديمة .

وإنما المقصود هو التعليم لا الخلق والابتكار . ومما يثبت سنى التعليم وشهرته انه كثيراً ما يشبه المحاضرات حيث تلعب النصائح البيانية دورها ؛ اما الفلاسفة الذين يختارهم الاثينيون سفراء لهم في الخارج فقد كانوا في الحقيقة ، من هذا القبيل ، من المرتبة الاولى . ولكن النظريات الفلسفية ، بعد الازدهار الذي عرفته في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث ، فقدت الكثير من اخصائها . ولم يبق سوى الحرارة الاولى التي استطاع العهد الهليني بفضلها تنمية التراث الذي استلمته من العهد الكلاسيكي .

وبديهي انه نمّاه بتحويله إياه ، وليس عجباً ان نرى ، في النزعات العامة لهذه الحركة ، انعكاس الظروف الجديدة . وبلغ من بعض المدارس ، كالمدرسة الكلية (الوقحة) ، والمدرسة الرواقية ، مراوغةً ، ان نادت « بالعالمية » مبينة المضادة بين « العالم » و « المدينة » ومستخلصة بذلك نتيجة توسع الاطارات السياسية . وقد قادتها وفرة وخلوص الاتصالات بين الشعوب وبين الحضارات - فان اكثر من فيلسوف كان شرقي المنشأ على الرغم من اعتماد اللغة اليونانية - الى ان تكتشف مبدئياً أخوة البشر دوناً تميز عنصري او قانوني : غير ان المبدأ لم يطبق قط عملياً . ولكن ما يلفت الانظار حقاً هو ان علم المعقولات قد بدا أقل استهواء في تلك الأيام المضطربة التي ضلّ فيها الانسان طريقه . فان ما حاولوا تحديده بنوع خاص هو المثل الأعلى للانسان الحكيم ، سرّ السعادة الحقيقية ، في علم أخلاقي وعملي أقرب الى آراء السفسطيين وسقراط منه الى آراء افلاطون وارسطو .

لم تترك الاكاديمية والكلية أثراً يذكر في هذا العهد . اجل لقد تهافت عليها طلاب كثيرون ؛ وكان دور الكلية كبيراً في نشأة ونمو العلم الواسع ؛ ولكنها كلفتها حصراً نشاطها في تدريس وتفسير تعاليم مؤسسيها . وبرز الاهتمام الحقيقي في غير مكان .

استمرت المدرسة الكلية بعد ديوجين ، وأضاف عبدان سابقان ، « بيون » البورستيني وميديوس السوري ، الى وعظهما ، كمتسولين تائمين ، نفوذ مؤلفاتها التي لم تراع سخريتها السامة لا الآدميين ولا الآلهة : فغدت « مقارعات » (*Diatribes*) الاولى واهاجي (*Satires*) الثاني في الاساس من لون أدبي عرف الكثير من الاتباع في العالم اليوناني ، وفي روما بعد ذلك .

ولكن وراء هذه الظواهر الخارجية التي تتعارض تعارضاً عنيفاً وكافة المصطلحات ، ووراء هذا التظاهر بالوقاحة التي بلغت حدّ التعثير المقصود ، أخفى أولئك الذين لم ينحدروا الى الشعوذة ، مثلاً أعلى نبيلًا جداً للحكمة والتصميم على الجهد ، يرمز اليه هيراكليس ، للتحرر من الأهواء ومما ليس هو بجوهر الطبيعة البشرية .

وشرعت المدرسة الارتيسابية ايضاً ، مع بيرون الذي تتبع الاسكندر في حملته على آسا ، في الحث على دستور حياتي . فشددت ، في الاغضاء والخضوع للعادات ، على اتزان الروح ، والصراع التحريري ضدّ الاشياء ، وعدم الاضطراب ، وهناءة الحياة . ولكن هذا الدستور قد ارتكز الى حقيقة فاز بها المنطق فغدت مذهباً ، وأعلن الارتيبايون ان الحكم يخطىء كما تخطىء الحواس . لذلك يجدر ارجاء الحكم والاعتصام بالصمت امام منازعات الفلاسفة الذين جعلهم « تيمون » ضحكة للناس باستهزائه برواد المتحف الاسكندري وبحروب العقائديين الكلامية . ويبدو ان هذا الانتقاد اللاذع كان له أثره في الاكاديمية ؛ ومهما يكن من الامر ، فانه قد خدم التقدم العلمي بإيلاء الوقائع اهمية دونها اهمية النظريات وبالحث على ملاحظتها بتواضع .

بيد ان مذهبين جديدين تفوقا الى حد بعيد على كافة المذاهب الاخرى بامتداد واتساع ومدّة أثرهما في أوساط اجتماعية متنوعة ، حتى خارج الأوساط الفكرية .

كان ابيقور ، ناشعاه الشخصي ، وبالمثل البطولي الذي أعطاه في آلام المرض ، في نظر تلاميذه ، المعلم الذي لم ينقطعوا ، في العالم اليوناني وروما ، عن ترداد وتفسير حكمه والتأمل فيها . واذا هو كوّن رأياً في العالم وعلم الطبيعة ، فانه لم يفعل ذلك ، في ما يظهر ، إلا لتحرير الانسان من خوفه الوهمي من الآلهة . انه لم ينكر وجودهم بل دورهم في الأمور التي تهم الانسان ، وجعلهم يعيشون في بطالة دائمة ابعدت صفة ما فوق الطبيعة . واناط كل شيء بالمصادفة واعتبر الاجساد والأرواح مجرد كتل ذرات . وقد تبنى ابيقور بذلك معظم نظرية ديموكريت الابديري . أما ما أدخله عليها بنوع خاص فهو حركة عامة للذرات من فوق الى تحت تفرضها الجاذبية وتنوعها انحرافات طفيفة جداً عن خط الهبوط العمودي ووثوب الذرات بعد مسّها الكتل المتكوّنة . ويستأنم الموت في نظره انحلال الكتل : فليس بالتالي من حياة ثانية ويجب ان يزول الرعب الذي توحيه كما يجب أن يزول الرعب الذي يوحيه الآلهة .

فليس بعد ذلك ما يعترض سلوك حياة تصبح اللذة هدفها الطبيعي . ولكن مقياس اللذة الحقيقية هو عدم الشهوة والألم . فقد أعلن ابيقور : « لسنا نستهدف لذات الفسّاق ، لا ولا اللذات التي يوفرها الاستمتاع » . ولذلك فان ثالبي ابيقور ، من امثال هوراس الذي أسمى نفسه « خنزير » قطيعه ، قد تنكروا دونما خجل لكل تعليم أخلاقي لا يوصي حتى بالافراط في اللذات . أما الحكيم فكان عليه أن يعيش « متستراً » ، دون طموح ، مرضياً شهواته الطبيعية والضرورية معاً بأبسط شكل اذ أن الخبز الأسود والماء يكفيان لذلك ، ومكدساً الحواس الطيبة المعدّة

لأن تستجبل ، في الذكرى ، « لذّة مستقرة » لا تستدعي ، على نقيض « اللذة العارة » ، تجدد السهوه ، ومن شأنها وحدها القضاء على الألم . وكانت تعاليم المعلم وأمثاله ، لهذه الغاية ، وافرة جداً ، تؤلف ارشادات عملية هي في مجموعها نظام دقيق جداً : وكان من شأن تطبيق هذا النظام أن يوفر ، في هناءة الأحاديث المحببة ، ملاذاً ثميناً وأمنناً في خضم الاضطرابات التي تهز سائر البشرية .

أما الرواقية فقد انكرت المصادفة التي لم ترد ان ترى فيها سوى ما لا يمكن تفسيره . وقد نظرت الى العالم كما الى كل ينظمه ويحركه عقل إلهي ، منطلقة ، كما فكر بذلك هيراكليت من قبل ، من النار الأولية . وكان الانسان نفسه في نظرها ، عالماً صغيراً مسجماً مع الكون ، مركباً من جسد تغللت فيه روح هي نفثة نارية متجملة بالذكاء . فتطابق تأليه الكائنات هذا والتفاؤل المطلق اذ أن كل شيء فيه يناسب تسلسلاً عقلياً . ولكن القدرية على نقيض ذلك ، لم تناف وعلم الأخلاق ، اذ أن واجب الفرد قائم في أن « يعيش وفاقاً للطبيعة » أي بحسب نظام العالم بالذات ، حتى يتوق الى الكمال . ويؤمن الانسان السعادة ، بموجب تعاليمها ، باحتقار كافة الخيرات وكافة الآلام وكافة المشاعر ، أي بالخضوع الى العقل الذي يتيح له ممارسة الفضيلة : وان هو فعل ذلك ، فانه يكون غنياً في فقره ، وحرراً في عبوديته ، وسعيداً على الرغم من المرض والتعذيب وحتى الموت .

اقتصى في الواقع تحسين هذا المثال الازامي المتشامخ ، بالمزيد من البراهين اللبقة . فقد أقروا بأن هنالك بعض الحيرات ، في المنطقة المتوسطة بين الرذيلة والفضيلة ، كالصحة والقوة والجمال والفرح ، ليست خليقة بالاحتقار . ثم ان الرواقية ، على نقيض الابيقورية ، لم توص باللامبالاة حيال الشؤون السياسية : فان نظام العالم قد حال دون ذلك ، كما أنها قد حثت على الجهد والنشاط باسم العقل والواجب . فاستطاعت بذلك اجتذاب التبعة والابقاء عليهم ، وقد بذل بعضهم جهداً كبيراً وبرهنوا أحياناً عن نبل نادر كي يكونوا أهلاً لمعتقداتهم . وعلى نقيض الابيقورية أيضاً ، لم تنزو الرواقية في عقيدة ضيقة تحددها تعاليم مؤسسها زينون . فبعد هذا الأخير استحق شرقي آخر هو كريستوس الكيليكى لقب « المؤسس الثاني للرواق » ؛ ونستطيع الكلام في القرن الثاني ، مع « باناييتيوس » الرودسي ، عن الرواقية « الوسطى » كما يصح بعد ذلك الكلام عن الرواقية « الحديثة » . ومنذ العهد الهليني ، قبل كاتون الاوتيكي ، خصم قيصر ، كان هنالك رواقيون جمهوريون نشيطون ، بينما كان هنالك أيضاً ، قبل الامبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس بزمان بعيد ، ملك واحد على الأقل موسوم الى حد بعيد بالتعليم الرواقي ، هو المقدوني انتيغونس غوناتاس . وهكذا استطاع الرواق أن يترك أثراً كبيراً جداً بفضل رغبته في العمل بين الناس وبفضل مرونته في التفسير : ويحتل تبشيره بالجهد العقلي الطوعي الناصب مركزاً هاماً في التراث الذي تركته لنا العصور القديمة .

الادب لعل الحركة الفكرية تكشف حينذاك عن انها أقل ما تكون انتاجاً مفيداً في حقل الأدب . أجل كان الأدب في الحقيقة مخصباً ومتنوعاً وبديعاً . ولا ريب أيضاً في اننا لا نعرف جيداً مؤلفات هذا العهد التي فقد اليوم معظمها على الرغم من بعث بعضها بفضل دراسة البرديات التي كان لها شأنها الكبير في اشهار كليخوس وهيرونسداس ومينانذروس . ولكننا نترامى النزعات العامة مع ذلك ، واذا نحن لم نستطع انكار الأثر الذي كان للحضارة الهلينية، في الحقل الأدبي وجميع الحقول الأخرى ، على الحضارة الرومانية في آخر عهد الجمهورية وأوائل عهد الامبراطورية ، فانه يبدو لنا ان هذا الأثر قد افتقر الى الاستمرار والإعراق . ولا تشابه البتة بينه وبين الأثر الذي تركته الفنون والفلسفة . ولا تشابه أيضاً بينه وبين أصالة وأهمية تقدم الروح العلمية وانتصاراتها .

صمم الادب الهليني في الحقيقة على أن يكون جديداً ، وقد حدث ان توفق الى ذلك . وقد حاول ذلك في جميع الاتجاهات باحثاً عن الجدّة في النوع والوزن والعاطفة والطابع . ولعل عيبه بالضبط ان الافراط قد سيطر على صيغته وتصنعه ورقته . فمن حيث انه اقصى ، بفعل الظروف الجديدة للحياة السياسية والاجتماعية ، عن الجماهير الشعبية ، فقد اتجه الى جمهور مفرط في الرقة أحياناً ، لا سيما في بطانة الملوك . ثم ان العلم الواسع والتأنق في الكلام وقفاه بالمرصاد فلم يقو على الدفاع عن نفسه ضدّهما .

النثر ويبدو الانحطاط ، على كل حال ، أحلى وضوحاً في النثر منه في الشعر . قد نجد بنا ان نستذكر هنا بعض المؤلفين الذين سبقت الإشارة اليهم . ولعل أعظمهم شهرة من الناحية الادبية — إذ انه الوحيد ، في الواقع ، الذي بلغت مؤلفاته ، التي عرفت الحياة ، شهرة حقيقية — هو بوليبي . ولكن مرد شهرته الى المعنى لا الى المبنى الذي تثقله الصيغ والمفردات المجردة في ما صحت تسميته بـ « الرطانة السياسية » ، رطانة دواوين ومراسم ذاك العهد . اما اللغويون وذوو العلم الواسع والعلماء والفلاسفة فليسيوا أهلاً باستيقافنا . فالصفات الادبية ما كانت لتضر بمؤلفاتهم . ولكن ان هي لم تتحلّ بها ، فان صفاتها التقنية تجيز لنا ان لا نغالي في اتهامهم بالتقصير .

عانت الفصاحة سكرات الموت ، لمصلحة علم البيان الذي أقصر على الصيغ النظرية، المطبقة بتصنع على المواضيع الوهمية ، ما كان في الاصل ابحاث واكتشافات فنّ في خدمة المعتقدات الراسخة . أضف الى ذلك زوال ذلك الميل الى وضوح نافذ قارب الجفاف ببساطته الذي كان في الاساس من اهمية ليزياس ، وتلك الجملة الطويلة المتناسقة التي اشتهر بها ايزقراط او تلك القوة الثابتة التي اتصف بها ديموستينس . هذا كان الثمن المحتم لتعميم ثقافة متوسطة وزعها التعليم دون ان يجهزها بما يلزمها ضد النتائج اللماعة الصناعية القادرة على التأثير والافتتان . ومنذ منتصف القرن الثالث بررت الفصاحة المعروفة بالـ « آسيوية » ، المفخمة تارة والمفصلة أخرى، والمتكلفة

والموزونة ابدأ . وعادت فيما بعد ، في عهد الامبراطورية ، الى تقليد كبار الكلاسيكيين . ولكنها أثارت ، اعجاب الرومان . فان هؤلاء ، حين كانوا يقصدون أثينا او رودس لتلقي دروس تفتقر الى الذوق السليم ، كان عليهم في أواخر العهد الجمهوري ، في روما ، ان يعالجوا مواضيع سياسية وقضائية حقيقية . ولم يتوفر هذا الحظ لأساتذتهم الذين لم يكن فيضهم ليستطيع الازدهار إلا على ما وصفه احد معاصري اوغسطس ، دينيز الهاليسكارناسي بالـ « غباوات » .

مارس بعض المؤلفين نوعاً قريباً من القصة ، وربما شجعهم على ذلك النجاح المستمر الذي عرفته بعض مؤلفات كسينوفون ، لا سيما « كيروبيديا » . فليس بعيداً عن القصة مثلاً كتاب « افيميروس » الذي تخيل فيه بلاداً اسطورية استمرت فيها ذكرى حياة الآلهة اليونانيين البشرية والملكية . وليست بعيدة عن القصة ايضاً تلك « العجائب الخارقة » التي تنقل القارئ الى بلاد تجمد الكلمات فيها شتاء ، او « الشماليات » ، او « المصريات » ، وكلها مؤلفات مجهولة لمؤلفين من الصف الثاني تكفي أسماؤها للدلالة على نزعتها . وهي ، من حيث فقدان عقدة القصة فيها ، قد حيرت القارئ بادخال الخيال على الواقع ؛ وساومت على عيائه من حياته اليومية ومن رغبته في الانفلات . فشقت الطريق بذلك أمام القصة الحقيقية التي لم تظهر إلا بعد زمن . ومنذ القرن الأول أقدم شاعر لم تصلنا قصائده ، هو بارثانيوس الذي اقتيد أسيراً الى روما ، على تأليف « آلام الحب » ، وهي مجموعة نثرية من ٣٦ قصة نقلها عن مؤلفين مختلفين . وقد قصد من وراء ذلك تقديم مواضيع رثائية لشاعر روماني نعم هو بحمايته . ولم يكن هذا الشاعر الروماني اوفيد بالذات : واذا حقق هذا الاخير هدفاً مماثلاً ، فان ذلك لدليل على النجاح الذي احرزه المثال الأدبي الهليني لدى المؤلفين اللاتين . ثم ان معظم هذه القصص قد حلت عقدها حلاً مسرحياً ، وان هذه المجموعة ، التي احتل فيها العشق مركزاً كبيراً ، خلقة بأن تعتبر تمهيداً للون الحكاية . لجل انها في الحقيقة تبشير مترددة وركيكة أدبياً ؛ ولكن الأداء الذين تعرضوا لها لم تعوزهم الرغبة في التجديد ، لا ولا الاحساس الثاقب بكل ما من شأنه ان يرضي جمهوراً كبيراً .

أما الشعر فيبدو أفضل تمثيلاً .

الشعر

ليس من الأهمية بمكان في الحقيقة ذلك اللون الشعري الجديد ، او المجدد بالاحرى — إذ ان العهد القديم قد اعتمده لعلم الاخلاق ولللاهوت المرتبط بالعلم حينذاك — والمتلائم مع أوساط فكرية توسع الروح العلمية فيها نطاقه الى أبعد حد ، اعني به الشعر التعليمي المخصص لعرض المعارف العلمية . فظهرت قصائد من هذا اللون في مواضيع الزراعة — ودعيت « بالجيورجية » (الفلاحية) — والطب والنباتات المعدة لتحضير العقاقير والشعابين السامة . الخ . . . ولكن مؤلفاً واحداً ، بين هذه المؤلفات جميعها ، قد عرف شهرة عظيمة وأثار حماس أجيال كثيرة حتى في روما نفسها ، اعني به ذاك الذي خلفه اراتوس الكيليكي السولي المنشأ . فلم يصاننا من

هذا اللغوي الذي نشر مؤلفات هوميروس وعلق عليها ، ومن هذا الرواقي المقرب الى الملوك الذين تباروا في محاولة اجتذابه دون جدوى رابقائه في بلاطاتهم ، سوى قصيدتين فحسب : الاولى في علم الحوادث الجوية ، والثانية ، وهي الأشهر ، وهو مدين لها بمجده ، اعني بها « الظواهر » التي تصف النظام السماوي مفسرة إياه وفقاً لنظريات افدوكسوس الفلكية التي كان قد فات زمانها حين تم وضعها في النصف الاول من القرن الثالث . اما النظم فيتصف بالمهارة وحتى بالظرف ، وتستوقف القارئ أحياناً بعض الاستطرادات الخرافية والفلكية او البحرية . ولكن هذا الانتباه لا يلبث ان ينهكه العياء في كافة المقاطع الاخرى التي يتعاقب فيها هذا القدر من الابراج دون ان يبرز مرة واحدة ، لدى المؤلف ، أقل تأثير شعري عميق يحيش به مثل هذا الموضوع حتى للعالم . وان الاعجاب الاجماعي الذي أثاره هذا المؤلف العبوس الجاف ، حتى في أوائل القرون الميلادية ، لسرّ مغلق لا يمكننا إدراكه .

نرى الجهد والمعارف الجدية ، الاسطورية او الشاملة ، في مؤلفات شعراء آخرين لم ينضب الهامهم بسبب ذلك . وهؤلاء هم شعراء البلاط او الندوة . تغذوا بالنظريات الجمالية والمطالعات المختلفة ، فأحيوا الكناية التي بالغوا فيها ، حتى الغموض أحياناً ، رغبة منهم في جعل القراء يشعرون بلذة ادراك معناها . اما مئلم الهزلي ، على هذا الصعيد ، فهو ليكوفرون - ولكن أي ليكوفرون ؟ ومتى ألّف ؟ أفي أوائل القرن الثالث ام في أوائل القرن الثاني ؟ - الذي وفر كتابه « الكسندرا » ، وهو مجموعة نبوءات اسندها الى « كساندر » الطروادية ، للمفسرين القدماء ولعدد اكبر من المفسرين المعاصرين ، سلسلة من الأحاجي المستبعدة . ولكن الإيجاز يفعل فعله ، عند افضلهم ، كما ان خلوص ظرفهم ورقة ابتكارهم لا يبقيان دوناً تأثير .

ان اطرفهم دون منازع هو كليماخوس الذي حدّد له اللاجيون معاشاً ، وهو فيلسوف كبير وشاعر بلاط ماهر ، في تملّق الملكة ارسينوي وأخيها الذي هو زوجها ، بطليموس فيلدلفوس ، وفي التغني بـ « شعر بيرينيس » ، ولكنه الى ذلك مؤلف أناشيد ومراثٍ وملاحم صغيرة وأهاجٍ ولواذع . كان شغفاً بالأساطير والحوادث المجهولة ، يبذل الجهد في اكتشافها في الأدب القديم وتقاليده المحلية ، ويصل بينها وبين نشأة مدينة او عائلة او احتفال غريب . فقد درج على القول : « لا أسلك طريقاً تسير عليها الجماهير ، ولا اشرب من ينبوع عمومي ، فكل ما هو عمومي تقز منه نفسي » . ولكن هذا الباحث عن الغرائب كان عالماً بأصول الوزن وماهراً في إيجاد التعبير النادر ومتمتعاً بحداقة خارقة . اجل يجوز ان نأخذ عليه عدم تلقائيته لأن ابتكاراته على كثير من الأرابة والتصنع ؛ ولكنه يثير الاعجاب ابدأ بمرونته ويحدث ، في افضل ما سلم من مؤلفاته ، الأناشيد الموجهة الى بعض الآلهة على الطريقة الهوميروسية ، ان يعبر عن عاطفة دينية ليست بالعاطفة المتكلفة . واذا كان نفسه قصيراً ، فان في قصائده الصغيرة لطابعاً وسحراً .

بعد قطيعة صاخبة ، وجه سيلاً من التهمك الى احد تلاميذه ، ابولونيوس الذي أراد الانتساب

الى « رودس » ، على الرغم من ولادته في الاسكندرية ، امتناناً منه لحسن الوفادة الذي صادفه في هذه المدينة حين اضطر لمغادرة البلاط اللاجي . اما سبب المأساة فهو بالضبط ملحمة « الارغونوط » التي بدت أبياتها الستة آلاف وكأنها لا نهاية لها في نظر الاستاذ الذي تباهى بكراهيته « للقصائد الطويلة طول الأنهار » . وقد روى ابولونيوس فيها مغامرات رحلة « جازون » ورفاقه ، على المركب « ارغو » ، الى بلاد « الكولخيد » ، بحثاً عن الجزرة الذهبية . فاستخدم يجد أساليب الملحمة الهوميروسية وأدخل على روايته ، عند كل سانحة ، معطيات فلكية وجغرافية وطبية أو سحرية ، وعرض بتفاخر تقنية وعلماً في غير محلها . أما ما يشفع بالمؤلف ويسمه بطابع جديد ، يؤسفنا ان يكون كليماخوس تنكّر له ، فهو شخص « ميداي » ودقة التحليل السيكلوجي التي امتاز باتقانها في وصف تكون الحب وصراعه واضطرامه وانتصاره النهائي في هذه النفس الفظة والحية معاً .

أقام ثيوكريت السيراكوزي في الاسكندرية أيضاً - ولكن لمدة أقصر على كل حال ، لأنه عاش في كوس أيضاً - ، واذا هو امتدح بطليموس الثاني وبيرينيس ، فانه لم يهمل طلب حماية سيد وطنه ، هيرون الثاني . لم يصلنا منه ، بالإضافة الى بعض الاهاجي ، سوى مجموعة من المختارات يبلغ عددها الثلاثين تقريباً تعرف باسم « قصائد زهرية » . ولا يعني هذا الاسم سوى « قصائد صغيرة » ، ويعود الفضل للنجاح الذي أحرزه بعضها في صفة « الراعوية » التي أضيفت اليها فيما بعد . وانه لنجاح حلال في الحقيقة . أجل لم يخلق ثيوكريت لوناً جديداً بهذه القصائد ، واذا ما وجدنا القوة وطابع المأساة أحياناً ، فأننا نلمس ، أحياناً أخرى كثيرة ، بعض التفه لدى أبطاله الريفيين الذين أرضوا بعض المفرطين في الرقة الشغفين بالحياة الريفية . ولكنه ، بالإضافة الى مهارته في نظم الشعر واتقانه اللهجات - الايونية والدورية والايولية - المتنوعة التي يظهر التصنع في استعمالها ، معجباً صادقاً بالطبيعة ، يحس بالعاطفة الدينية الشعرية التي تنبعث منها ، وقادراً على الشعور بعذوبتها وشهوانيتها وفضاظاتها وعلى إظهارها للقارىء بفن بالغ في الدقة . ومن الخطأ الاعتقاد بسذاجته . فان سحر الطبيعة التي يحن اليها في المدينة يؤثر فيه تأثيراً قوياً ينفذ الى اشعاره . ومن شأن التصنع الاصطلاحي الذي لم يتمكن مقلدوه الكثيرون التخلص منه ، ان يزيد ، بالمقابلة ، من حدة الاحساسات والعواطف التي لم تقض عليها أبحاثه صغاديب نبيه جديداً .

بدلاً من تعداد أسماء أخرى لمؤلفين كثيرين ومؤلفات كثيرة أيضاً ، نرى الاقتصار ، بعد هؤلاء ، على لون يميز نجاحه وصنعتة التقنيه وطبيعته نفسها الشعر الهلنسي المتوسط تمييزاً كافياً . سبق لكليماخوس وثيوكريت ان ألفوا أهاجي قصيرة ، فحذا حذوها كثيرون . واشتقت هذه القطع الشعرية من الكتابات القياسية التي درج على حفرها منذ زمن بعيد على المدافن أو النذور واستوجبت مهارة كبرى للتعبير عن عاطفة لها قيمتها في أشعار معدودة وللإبقاء على بدايتها .

ولم يكن الحذاق قليلي العدد ، لا ولا القراء المستعدون لتقدير نجاحاتهم حق قدرها . لذلك ظهر من هذه القطع عدد لا يحصى في جميع المواضيع : الغرامية ، والنذرية ، والمدفنية ، والاخلاقية ، والجدلية ، الخ . وظهرت حتى القطع الوصفية المكرسة لأحقر واقع أحياناً ، واقع المهن وادوات العمل مثلاً . وألفوا منها مجموعات مختارة ظهرت أولاً باسم «التاج» في أواخر القرن الثاني ، ثم خلفتها بعد ذلك بزمن بعيد ، في بيزنطية ، المختارات البلاطية . أجل ليست هذه المختارات بالمؤلف الكبير ، ويستحيل مطالعتها مطالعة متواصلة . ولكنه من المستطاب ، بفضلها ، استعادة ذكرى البيئة « الاسكندرية » مع رشاقته في الكلام والوزن وبراعتها في الابتكار وثقافتها الواسعة وسحرها وروح نكتتها ورقتها الشهوانية أو الشفوقة .

المسرح والمهزلة الايمائية
أظهر علم اللغات المكانة التي احتلها المسرح في الحضارة الكلاسيكية والروائع الشعرية التي تدين له بوجودها . فحاولوا استعادة نفس ذلك العهد العظيم بمحاولة تأليف التمثيليات الفاجعة أو المآسي الانتقادية . وامتنحن كليساخوس قلمه فيها وأحرز سبعة مؤلفين غيره ، في نظر الاختصاصيين ، شهرة كافية لضمهم تحت اسم « الثريا » . اتقن هؤلاء جميعهم درس نماذج الزمن الماضي ؛ واكتشفوا مواضيع مهمة في الميثولوجيا التي تفوقوا على كل من سواهم في فهمها أو في التاريخ البعيد - كان هنالك تيمستوكليس - والقريب ؛ ولم تعوز الارابة واحداً منهم . بيد ان واحداً منهم لم يتوصل الى ان يعيد الى المأساة حياتها وان يفرغ في قالبها إلهاماً مميّزاً . فما زالت تمثيليات أوريبيد تستأثر بالنجاح وقد أعادت تمثيلها في كل مكان الجمعيات « الديونيسية » في البناء الضخم التي حرصت كل مدينة على تشييده . ولنبذكر هنا ان « كاهنات باخوس » قد مثلت في السنة ٥٣ قبل المسيح في اراتاكسا ، عاصمة ارمينيا ، لمناسبة عرس ابن ملك الفسارتيين وشقيقة الملك الأرمني ، بحضور الملكين : كان هذان « البربريان » المعجبان بالحضارة الهلينية يلجآن اذن الى اوريبيد والى الممثلين اليونانيين لاعلاء شأن الاعياد السلافية . فهل من برهان أفضل على انتشار الحضارة اليونانية وعلى جاذب المأساة التي هي أكثر ابتكاراتها تميزاً وعلى التوافق بين اوريبيد والأجيال اللاحقة الذي استمر طيلة قرون وقرون .

أما المهزلة ، كما تصورها ارسطوفانوس ومعاصروه ، فأبعد من ان يمكن إعادة تمثيلها : فمن حيث هي انتقاد ملؤه التلميح الى الحوادث التي عاصرت التأليف ، يستحيل فهمها دون تفسير مستفيض . أضف الى ذلك ان لون المهزلة نفسه لم يكن لينسجم مع ذلك العهد . فان عنفها الجذالي وهواها الجامح يتنافيان واللفظ الجديد الذي تحلى به مجتمع هذّب ذوقه تقدم الثقافة واليسار . وكذلك فان « المهزلة القديمة » تفرض ديموقراطية تعي سيادتها وتتحلى بقسط من التساهل ترضى معه بان يُسخر من مناقشاتها وبأن يوجه الانتقاد اللاذع حتى الى زعمائها : فقد زالت الآن هذه الظروف السياسية . فأصبح من الواجب ان تتطور المهزلة حتى تعرف البقاء ، وهي قد توفقت الى ذلك ، منذ أواخر القرن الرابع ، مع ميناندرس الاثيني الذي نعرفه اليوم

معرفه مباشرة بنبد واخرة وصلت الينا عن طريق البرديات وأخرى بلغتنا عن طريق الهزليين اللاتين، لا سيما « بلوت » .

تفسر شخصية ميناندروس نفسها اكثر من نزعة في مؤلفاته . فان الثروة التي أتاحت له ، في البيره ، الاستمتاع بحياة بهجة ، دون الاضطرار للنزول عند اغراءات بطليموس الثاني ، ليست بغريبة عن تفأؤله المتساهل . بيد ان تفاؤله هذا لم يخل من البصيرة : فقد كان على شيء من السخرية وحتى السويداء احياناً . ولكن جميع شعراء « المهزلة الحديثة » أحسنوا في الدرجة الاولى مراقبة وتصوير الحياة التي اكتنفتهم . فهل كانت عقد مهازلهم نفسها حقيقية؟ يجب علينا كي نعطي حكماً في ذلك ، ان لا ننسى ان اهمال الاولاد ما زال حينذاك عادة سائدة وان المؤلف والجمهور لم يهتموا ، بصدد الخاتمة ، إلا لأن تكون ناجحة فحسب . وكان من الواجب ان تراعي الخاتمة الناحية الاخلاقية ايضاً لأن حياة غريباً فرض بعض المصطلحات : فليس من « حب يوناني » مثلاً ، على الرغم من أن الحب ، في غير مكان ، كان موضوعاً أدبياً كما يتضح من قصائد ثيوكريت الراعوية ؛ وليس من زنى نسائي ايضاً ، واذا حدث أن سقطت إحدى الفتيات في زلة ، يجب ان تسوى الأمور في النهاية بالتي هي أحسن . ولكن درس الطبائع والأمثلة الاجتماعية كان أهم من العقدة وطفورها الصنعي . فاقتبس ميناندروس طبائعه وأمثله ممن هم حواليه ، الاغنياء والفقراء ، الاسياد والعبيد ، الشيوخ والشبان ، والبغايا والأمهات . ومن السهل علينا ان نهتدي حتى في مهزلة القرن الثامن عشر الى المزيد من وريثة الامثلة التي أوجدها : العاشق المتقلب ، المسرف والحريص ، مستثمر عيوب الغير ، المتحدلق ، الطفيلي ، العبد الوجمل والوقع . ولكن هذه الامثلة لم تكن عنده على شيء من التبسيط . فهو قد اهتم بها بعطف انساني ولوّن سيكولوجيتها بدقة وألف منها معرضاً بلغ من تنوعه وأمانته أن أحد المفسرين القدامى قد تساءل عما اذا كان هو الذي قلّد الحياة او الحياة هي التي قلّدت .

مارست صقليا وايطاليا اليونانية منذ زمن بعيد لونا مسرحياً آخر يختلف كل الاختلاف ، مشاهده قصيرة ، يقلّد المأساة أحياناً ، لا ينطوي على عقدة ، يتصف بالفظاظة العنيفة وبالقدارة أحياناً . ومنذ القرن الخامس اقتبس بعضهم أشخاصهم عن الطبقات الشعبية الدنيا رغبة منهم في الاقتراب أكثر فاكثروا من المشاهدين . فنشأ عن هذه المهازل المضحكة فيما بعد لون أدبي جديد ، هو « المهزلة الإيمائية » التي وضعت نثراً في البداية وشعراً فيما بعد . فهناك ثلاث مهازل إيمائية بين « راعويات » ثيوكريت ، وأتاحت لنا البرديات بنوع خاص الوقوف على اثني عشرة منها لهيروننداس الذي يضيف اسمه سنى الموهبة الشعرية الى الشهرة الطبية التي يتمتع بها وطنه ، جزيرة كوس ، مركز مدرسة ابقراط .

اعتمد هيروننداس شعراً « ذا وتد مجموع أعرج » اعتمده من قبل أحد هجائيي القرن الرابع . ولكنه لم يعبأ بالاخلاقيات ، جاعلاً من الواقعية شغله الشاغل . فان أشخاص مهازله الصغيرة

الذين لا يتجاوز عددهم الاربعة ينتمون الى الطبقة الحقيمة في حياتها اليومية : الام التي تطلب الى معلم المدرسة ان يصرب ابنها الشقي ، وزبن الاسكاف ، و « السمسارة » التي تصرفها امرأة شريفة بدون غضب لا يجدي ، وغير ذلك مما هو أقبح . كلها تمثيلات صغيرة تفيض كلاماً مبتدلاً وقويحة وثرثرة وتدهش بمهارة الوصف . نرى فيها الحياة الشعبية البورجوازية كما هي في أيامنا تقريباً . فهل كانت هذه المهازل معدة للتمثيل ؟ نحن نميل الى الاعتقاد بأنها أعدت للقراءة المسلية القيمة وحدها باكتشاف وتذوق النوايا الخفية التي ترخر بها ألهي كاتب أثر على اللوحة الكبيرة لوحة صغيرة يستطيع اتقان كل جزء من أجزائها .

الختامة

من نافل القول ان هذه الخلاصة ليست كاملة . ولكن الغموض الذي أملاه
علينا جهلنا أو ضرورات عرض الموضوع لم يستطع إخفاء طفوح ثروة الحركة
الفكرية الهللية . وقد حالت ثروتها في نفسها دون وحدتها . ويجب
الاعتراف بأن التناقضات قد جرأتها . فهي قد أعجبت بروائع وحتى بمحاولات القرون
الكلاسيكية التي حذت حذوها عن قصد ووفقاً لحطة مرسومة ، دون ان تتنكر لشيء من
الماضي ؛ ولكنها عن قصد أيضاً انحرفت عنها بدافع بعض النزعات الجديدة . ومن حيث انها
نعمت مادياً وأدبياً بحماية وتشجيع النخبة ، فقد توجب عليها ارضاءها بأفراط لم يكن مجرد
إثرة ؛ ولكنها ارتكزت أيضاً الى شيء آخر هو أهم الى حد بعيد لأنه عملياً مرتكز كل النظام
الهللي : ثقافة واسعة متوسطة كان عليها هي ان تدافع عنها وان تنشرها . وانتهت في القمة الى
ندوات من هواة دقة الفكر وحدّة التصوّر ، ولكنها لم تستطع إهمال الدرجات الدنيا من الهرم
الاجتماعي ، — لأنها انتهلت منها في كل جيل قوى جديدة — تلك الطبقات البشرية المتزايدة عدداً
وانشأراً جغرافياً يوماً بعد يوم والمتمتعة باستعدادات وقابليات فكرية متنوعة جداً ، منذ
التعليم الابتدائي تقريباً حتى مشارف أسمى المعارف وحتى تجارب ونشاط الواقفين على أسرار
الفنون . فكان عليها بالتالي واجبات متشعبة : المحافظة ، والبحث عما هو جديد ، والتعميم في
أفضل معانيه .

بيد ان اختلاف هذه المهام وتناقضها الظاهر على الأقل لم يشل عملها : فهي قد حاولت في كل
مكان ونجحت في أكثر من حقل . فكيف نستطيع التنسيق بين قيم لا تخضع في جوهرها للقياس ؟
ولكننا بالرجوع الى الوراء نرى ان أبعد نجاحاتها تأثيراً وفعالية وشهرة لعله في الحقيقة نجاحها
في حقل التربية : فكل شيء في هذا الموضوع تقريباً ، باستثناء بعض المراكز المحظية ، كان

بحاجة لأن يخلق خلقاً . وعلى الرغم من صعوبات الارتجال ، أعدت ووفرت الاطارات التربوية لجميع درجات التعليم ؛ فاستطاعت من ثم ، بفضل تعليم الموهوبين ، تأمين من يحل محل باعثيها أنفسهم . وبفضلها حافظ الاغريق أينما وجدوا ، وعلى مستوى كريم عموماً ورفيع جداً هنا وهناك ، على الثقافة التي كانت في الأساس من وحدتهم وعزهم . أضف الى ذلك ان هذه الثقافة قد استألت عناصر بشرية جديدة : ومنذ عهد باكر أناب بعض البلديين المستغرقين من آسيا الصغرى وسوريا - فينيقيا عن اليونان القديمة . وبذلك استطاع رجال الفكر في العهد الهليني ، في آن واحد ، انقاذ ما أمكن انقاذه من الماضي وأنموا التراث الذي صار اليهم وحضروا المستقبل .

حضروا المستقبل في الشرق ، لأن الحضارة اليونانية ، التي استلمت بيزنطية إرثها فيما بعد ، لم يحافظ عليها إلا في الجزء المتوسطي من فتوحات الاسكندر . ولكنهم حضروه في الغرب أيضاً وبصورة أكثر جلاءً ، لأن العالم الهليني ، بسبب تفوق حضارته الفكرية والفنية معاً قد غدا مهذب روما .

القسم الثالث
آسيا الشرقية

الكتاب الاول

آسيا الشرقية (من ١٢٠٠ الى ٣٠٠ ق.م)

تقاسم قطران في العصور القديمة رسالة اخضاع آسيا ، قطران يملكان قوى فعالة جبارة ، ولكن لكل منها أهواء وأساليب على طرفي نقيض : أنها الهند والصين . ولا حد لعوامل التباين بينهما من حيث الشكل الجغرافي والأهداف والتطور . ومع أن كلا منها اتبع طرقه الخاصة فقد بقيا على اتصال لا بل تلاقيا مراراً - كما حصل في اندونيسيا - ولكن اختلفت أساليب توسعها حتى استحال على المرء ان يقارن بينهما او يدرس في وقت واحد مراحل حضارتهما . لذا سنعمد ، حباً بالإيضاح ، الى تحديد مدى كل منها ، والتدقيق في خصائصها الأساسية .

ان للهند^(١) قوة تخنيرية تدفع كما يبدو من طبيعتها أرضها . وتفضل الهند ان تستعمر سائماً ، مع أنها عرفت حوادث دامية في مختلف مراحل تاريخها . وان السبب الذي يظهر منذ طور ما قبل التاريخ بين الهند وبلاد آسيا الجنوبية الشرقية يستند في العصور التاريخية الى تعامل تجاري اتسع مداه مع الايام ، وهجرة ترايدت فأنتجت من ثم أجيال خلاسين ، ودعاوة دينية لملتها احترام الغير وسداها الذمامح . وأخيراً هناك تأسيس « ممالك » مستقلة حسب النظم الهندية ولكن بشكل يتفق مع المحيط الذي قامت عليه . وهكذا فقد تدخلت الهند - ولكن على درجات متفاوتة - في برمانيا ، وفي معظم أجزاء الهند الصينية وفي جزر سومطرا وجافا وبالي الهندونيسية ، لا بل حتى في السيليب وبوريو . وفرضت الهند نفسها بخاصة بتفوق ثقافتها

(١) انا لشكر للسفارة الهندية الجليلة في بيروت حسن التفاتها لمساعدتنا عليها على نقل الاسماء الهندية التي وردت في هذا المؤلف الى اللغة العربية نقلاً دقيقاً من حيث اللفظ والكتابة . ويعتزمها صاحبة سعيدة السيد لطيف أحد امناء سرها السيد راح لما أبداه نحوها من عطف .
الناشر

ولكن عجزت عن الاستمرار طويلاً أمام كر التقاليد الوطنية المحلية التي عرفت حياة جديدة .

واختلفت أساليب الصين اختلافاً كلياً : فهي تخضع البلاد حرباً و تفرض عليها قوانينها وعوائدها وديانتها ولغتها وكتابتها . وليست السيطرة بعرف الصين حصيلة تدخل وتسلسل بل نتيجة غزو كامل تفرض معه ، وبالغنى ، مجموعة من النظم متناسقة تتوافق مع تقاليد وأخلاق الشعب المغلوب على أمره . ولم يجبر الذين أخذوا بعظمتها وبأسها وأرادوا حذو حذوها على تبني حروبها فقط بل ايضاً على تقليد نظمها وأساليب ثقافتها .

ولكن هناك مع هذا مناطق تقابلت فيها الصين والهند وتشابكت فيها آثار حضارتها : كالهند الصينية ، ويدل بوضوح هذا الاسم المركب على اقتسام البلدين مناطق نفوذ هناك ، والتركستان الصيني الذي قدر له تاريخياً ان يبقى دوماً ممر عمور ، والنيبال حيث تتشابك الثقافتان بشكل يثير العجب ، والتيت التي تستمد عناصرها الدينية والفنية من هذه الحضارة وتلك . وهناك مناطق عدة تبعد كثيراً او قليلاً عن حدود البلدين تثبت تفوق حضارة الهند او الصين فيها إن دقق المرء في خصائصها . وغدت الديانة البوذية أقوى عناصر هذا التلاقي ، وقد ولدت في الهند في القرن السادس ق. م. وأصبحت من أهم عوامل التوسع الهندي . وقد اقتبلت الصين البوذية في القرون التي تلت العهد المسيحي .

ولم تنفصم دون شك عرى العلاقات بين آسيا الشرقية والعرب طوال هذه الفترة التي حددوها اعتباطاً من سنة ١٢٠٠ الى سنة ٣٠٠ ق. م. ولكن آثار هذه العلاقات هي أشد غموضاً وأقل عدداً من آثار الفترة السابقة حيث سجلنا تارة تسلسل حضارة بلاد الرافدين الى زميلتها « حضارة الهندوس » وطوراً علاقات الصين في طورها السابق للتاريخ مع اوروبا الشرقية .

الفصل الأول

الهند

قد لا يقدرّون في الغرب أهمية الحضارة الهندية حق قدرها .
حسائص الحضارة الهندية الاساسية
فهي رأّت ديانتين من أهم ديانات العالم تترعرعان على أرضها :
البرهمانية والبوذية . ولعبت الهند في آسيا الدور الذي قامت به بلاد اليونان في أوروبا . ونسبة
الى الحضارات القديمة التي تعد الحضارة الهندية جزءاً منها اذنشأت في زمن يحدونه تقريباً ما بين
سنة ١٥٠٠ و سنة ٨٠٠ ق . م . فإن لهذه الحضارة صفة استثنائية اذ هي لا تزال حية حتى
أيامنا دون ان تتخلى عن خصائصها الاساسية التي عرفت بها منذ أوائلها التاريخية ، ان « المغامرة
الهندية تتتابع أمام بصرنا اذ هي لا تستند فقط بكليتها الى الماضي السحيق ، كأحد مصر
وبابل الميتة » (ب . ميل P. Melle) . ولهذا الديمومة بعض الاسباب التي يجدر تحديدها والتي
بدونها يصعب فهم تطور الهند القديم و تجدها المستمر على مر القرون .

هناك ثلاث صفات رئيسية تحدد الهند وتفسر نوعاً ما هذه الديمومة : فالهند تحب التقليد
وهذا ما يسمح انتقال العادات من السلف الى الخلف دون تحوير ؛ وهي تصبو نحو الوحدة مع ان
التمقيد والتناقض هما من مقوماتها ؛ وهي تهوى التشريع والتصنيف والتقسيم ، وهذه عوامل
تهيب بها الى اعتبار أعمال كثيرة تبدو شديدة الاختلاف كأنها أمور طقسية مما يخلق بينها من
نم تجانساً أصيلاً . ولم تظهر هذه الخصائص بمثل هذا الوضوح منذ بدء تكوين الحضارة الهندية .
ولكننا نلاحظ تكوينها رويداً رويداً منذ عهد قديم ، ونشاهد تطورها بصورة حتمية نحو
القصد الذي يوافقون عليه في زمن لاحق ، لا بل نراها تتحد اتحاداً وثيقاً مع مجمل العناصر
الثقافية ، حتى انه يصعب جداً تحديد زمن ظهورها ومراحل تطورها .

ان للتقاليد في الهند قوة عظيمة يصعب على رجال الغرب ان يدركوا مداها . وهكذا فإن
النصوص الأدبية التي تركز عليها النظريات الهندية قد ألفت دون شك منذ عهد قديم جداً ،
وبقوا يتوارثونها بصورة شفوية مدة يعجب المرء لطولها قبل ان توضع كتابة . وان جرى في

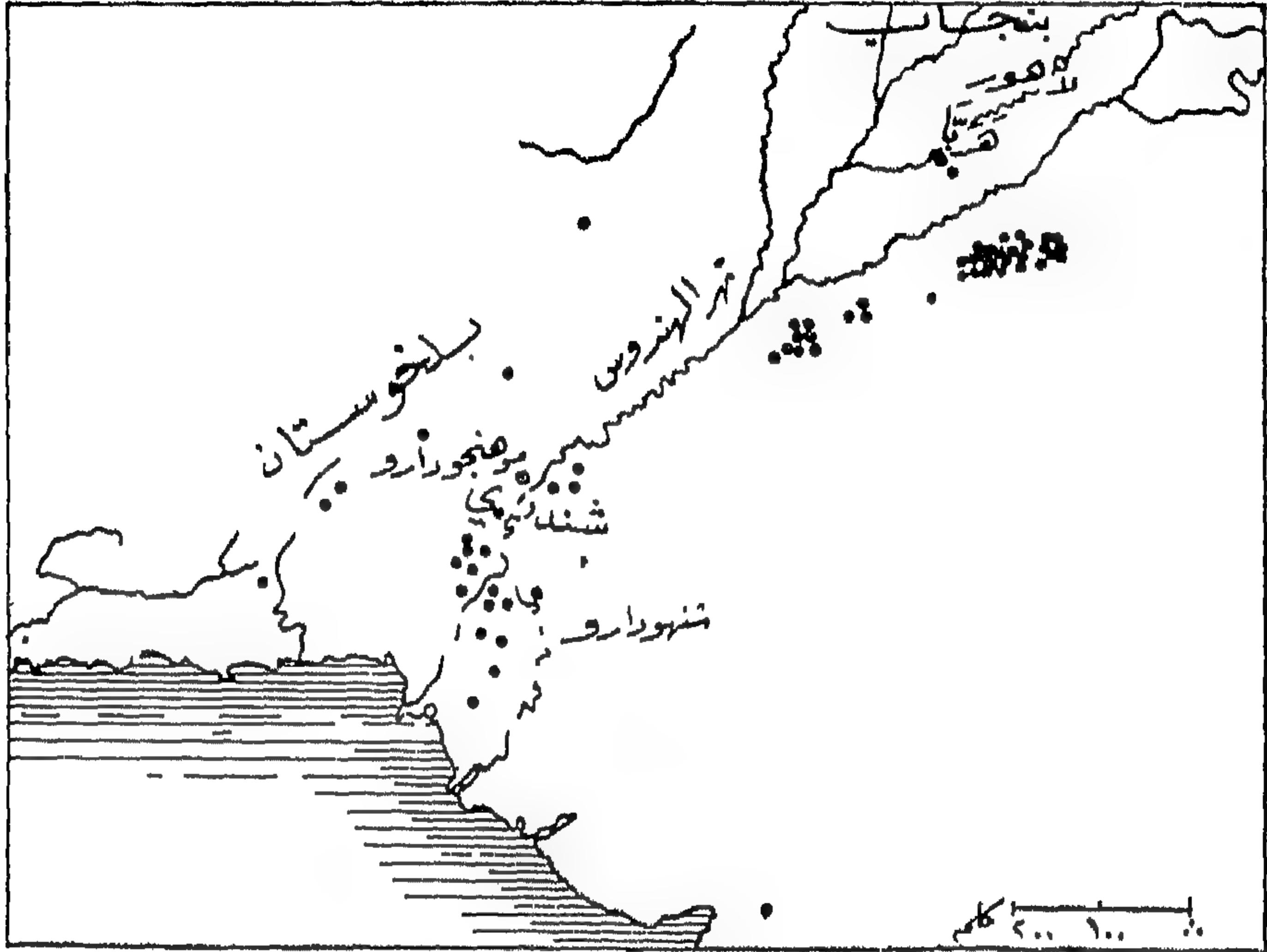
هذا المجال بعض التحوير، فانه يماثل دون ريبة التحوير الذي تعودنا رؤيته في مضمار الفن الهندي أي أنه يظهر رويداً رويداً ، وقد حور شيئاً فشيئاً الموضوع الاولي ، ولكنه أبقى طوال آلاف من السنين على كنه الموضوع الأساسي .

أما اتجاه الهند نحو الوحدة فانه ينمو مع الزمن . ويفقه الفكر الهندي بدقة وسرعة صفة الكثرة والتعدد التي تشمل كل شيء . ولكن بدل ان يتنكر لها او يحولها الى مجار اخرى بقصد اذابتها فانه يكتفي بملاحظة نتائجها وكتابة بيان بها . وهو يجد بين أجزاء هذه الكثرة عروة وثقى : أي الوحدة الإلهية . وهو يفسر هذه الكثرة بأنها تعابير مختلفة لنفس المبدأ الموحد . لذا سعى طوال القرون ان يصنف كثرة المظاهر في فئات محددة المعالم تصبح كلها متماثلة في الاصل . هذه هي حالة الزون الهندي يدور سكانه الإلهيون الذين لا حصر لهم ، في فلك بعض الآلهة الكبار ويصبحون من ثم تعابير مختلفة عنهم ، هذا مع العلم بأن هؤلاء الآلهة ليسوا إلا تجسيدات للكائن الأوحد .

ويستند طبعاً هذا الاتجاه نحو الوحدة على وجوب حصر كل المجتمع الإلهي والانساني ضمن القوانين . وخير مثال في هذا المضمار هو وجود الطبقات ، وهذا مظهر اجتماعي يختص بالهند ، لا سيما في الشكل الذي يرتديه : فالكلمة فرنا Varna ، أي « اللون » تدل بوضوح على المشكلة الاجتماعية التي يسند اليها التقسيم الطبقي والذي كان يقابل الغزاة المنتسبين الى الجنس الابيض والمواطنين الأصليين ذوي اللون المشبع . وقد طبق أولاً هذا المبدأ ، في مراحل التطور التاريخي ، على فئتين من الأشخاص ، هما طبقة رجال الكهنوت ورجال الحرب العلمانيين . ثم طبقوه على فئة ثالثة — فئة « الرجال الأحرار » — وعلى فئة رابعة — فئة « الفلاحين » — وتشعب أخيراً هذا المبدأ على أساس المهنة او الوظيفة ، وذلك بصورة حصرت تدريجاً مع الزمن حتى اعتبر الذين لم يصنفوا في طبقة ما بسبب « دنسهم » المفترض كمنبوذين . وان كان يبدو بأنهم لم يضعوا تدابير في غاية الشدة في بدء الديانة الهندية بين أفراد الطبقات النبيلة ، وإن سمحوا فيما بعد بالتزاوج بين أفراد ينتمون الى فئات مختلفة ، نشهد مع هذا اتساع ذاك المذهب حتى غدا تشريعاً جامعاً شمل مختلف تعاليم ما وراء الطبيعة والسنن الكونية . ونستطيع ان نتخذ أمثلة على وجهة النظر هذه من مختلف مرافق الحياة ، نسردهم مثلاً بحال الاشارات « المتكلمة » (مدرا ، هستا ، أسانا الخ Mudra, Hasta, Asana) الذي يثبت لنا هذا التصنيف المسند الى الفنون الطقسية . انها اشارات طقسية عندما يقومون بها أثناء تقديم الذبائح ، وتستمر على صفتها هذا إن نفذت أثناء الرقص او على خشبة الملهى ، او في فن الرسم الإلهي ، او في المواضع المنقوشة والملونة . ان الطقس الديني يشمل بصورة عملية أقل نشاط في العالم الهندي ، إذ لا وجود للشخص او للشيء إن لم يحمل اسماً (نام Nama) . ويدخلهم هذا الاسم ضمن حلقة يحدد جوهرها أحد الطقوس : وهكذا يستطيع المرء الذي ينتمي الى طائفة الغساليين ان يقوم بأي مهنة اخرى

شرط ان تطفى عليها صفة الفساليين؛ فهو كاهن أقل شأنًا من غيره لأن مهمته مبدئيًا هي غسل الخرق التي تصبح وسخة أثناء الحفلات الطقسية .

لذا غداً لزاماً على الهنود ان يحددوا بكل دقة جميع الأنظمة التي تمت الى طقوس العبادة . وهذا ما سعت اليه كتب الأدب الهندي الكثيرة منذ مجيء الآريين حتى عصرنا الحاضر ، خصوصاً المؤلفات (شاسترا) التي تعنى بهذه الناحية التقنية او تلك . ومن العبث والحالة هذه



الشكل ٣١ - الهند في الزمن السابق للآريين . الحضارة المدعرة حضارة الهندوس .

اذن ان يسعى المرء لتفسير الحوادث الهندية خارجاً عن معانيها التقليدية ، وجلّ ما نستطيع القيام به هو ان نطبق على هذه المعاني أسلوب بحث علمي .

هناك عامل يجعل من هذه الدراسة مسألة دقيقة جداً : اذ لا يقيم الهندي تحديد الوقت والاصول وزناً لمشكلة تحديد الوقت كما يفهم الغربيّ هذا الامر . ولماذا يهتم لهذا الشأن إذ ان لا قيمة للحياة الانسانية ولسرد متطلباتها إزاء السعي للوصول الى الكائن المجرد ، هذا السعي الذي تأمر به ديانة الهندي ومبادئ فلسفته ؟ وعلى من يريد دراسة إطار الهند التاريخي ان يكتفي ببعض المعلومات تكون كالاروم ، أو المقارنات مع حوادث لا تمت الى الهند ، أو

التغريصات أو الاستنتاجات. وان لم يرد التحيز عليه ان يبدي الكثير من أصالة الرأي ويكتفي غالباً بتخمينات تقديرية .

ولا يقدم لنا علم الآثار معونة تذكر حتى القرن الثاني ق . م . هذا ان استثنينا بعض آثار وادي الهندوس التاريخية . إذ لم يتصل بنا أي أثر من مواد صلبة يعود الى ما قبل هذا التاريخ الذي يتفق مع التفتح الأول للفن البوذي . ويظهر بأن استيطان الآريين كان سبب قهقري لفن البناء اذ لا نجد شيئاً مماثلاً لمدينتي موهنجو - دارو وهرابا Mohenjo-daro Harappa . وكانت مباني عهد الديانة الهندية الاول من خشب وآجر ، ولم يبق لها أثر نسبة لطبيعة أرض ومناخ الهند . ومما يثبت هذا الظن بقايا قصر أسوكا في باتلپترا (القرن الثالث ق . م .) والمباني الحجرية الاولى في القرن الثاني ق . م . التي تقلد بصورة واضحة المباني الخشبية

ولوضع دراسة عن هذه الفترة الطويلة جداً التي تمتد من مجيء الآريين (قبل القرن السادس عشر) حتى القرن الثاني ق . م . يضطر المرء الى استقاء معلوماته من النصوص الادبية . ويطلق على هذه النصوص اسم فيدا Veda « المعرفة » وهي مجموعة المعارف التي أتى بها الآريون والتي ازدهرت رويداً رويداً على الأرض الهندية . وتستند هذه النصوص الى وحي هبط على الحكماء (ريشي Rishi) ونقلوه الى الخلف . وهي تقسم ثلاثة أقسام : سمهتا Samhita أو « مجموعة » وهي تحوي خصوصاً على أناشيد دينية وصلوات وعبارات طقسية ؛ برهمانا Brāhmana « شروح » أو تعليقات لما جاء في « السمهتا » ؛ وأخيراً أبنشاد Upanishad أو « دروس » لها صفة السر . وتضاف الى هذا كله الفيدانتا Vedānta أو ملحق للفيدا يوافق مضمونها التقليد والتي لا يزالون الى يومنا هذا يضيفون عليها .

ومن المحال تحديد تواريخ لأجزاء فيدا المختلفة إذ وضعت معظم النصوص وانتقلت الى الخلف بصورة شفوية وذلك حتى عهد قريب (القرن الحادي عشر المسيحي ؟) . ويجمعون على القول بأن السمهتا هي الأقدم عهداً ، وتعود الأفضلية في هذا المجال الى الريغفيدا Rigveda التي تحتوي على عشر « حلقات » (مندولا Mandala) ، هذا مع العلم بأن الحلقة العاشرة هي الأقل قدماً من زميلاتها . وتعيد اليجرفيدا Yajurveda والسامفيدا Samaveda مقاطع عدة من الريغفيدا مما يدل بأنها ظهرت بعدها . ومما لا شك فيه بأن الاتهرفيديدا Atharvaveda التي تحتوي على عبارات سحرية هي أحدثهم عهداً . وان كان ممكناً ان نعيد تاريخ أقدم فصول السمهتا الى عهد وصول الآريين ، أي ما بين سنة ١٦٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق . م . فقد يبدو ان البرهمانا والابنيشاد لم تظهر إلا في الفترة التي تراوح ما بين القرنين العاشر والسادس ق . م . ثم رأت النور نصوص السوترا sūtra التي تعد جزءاً من الفدانتا والتي ترتقي الى ما بين سنة ٤٠٠ وسنة ٢٠٠ تقريباً ، وهي سبقت بقليل الآثار الاولى للفن البوذي . ولكن نعود الى القول بأن هذه التواريخ ليست إلا تقديرية .

اللغات والخطوط
كما طغى الغزو الآري على كنه بلاد الهند العريق السابق ، هكذا فرض هذا الغزو لغته التي غدت بعد فترة قصيرة ، كما يظهر ، اللغة الكهنوتية : أعني السنسكريتية . ولا تزال قائمة عقدة معرفة لغة البلاد التي غلبت على أمرها . فهناك اعتقاد ، لا يرتقي الى عهد بعيد ، بأن هذه اللغة تمت الى اللغة الدرافيدية ان لم تكن شكلها الاساسي اذ لاحظ بعضهم وجود لغة درافيدية في عصرنا الحاضر في بلاد بلوخستان ، أعني اللغة البراهوي Braha التي تكتنفها من كل جانب اللغات الهندو - أوروبية . وبعد ان فصمت جحافل الآريين العرى بين هذه اللغة وأصولها ، غدت البراهوي شاهداً حياً على وجود لغة سادت ، قبل مجيء الآريين ، على جزء كبير من شبه الجزيرة الهندي .

وقد جلب الآريون أنفسهم اللغة السنسكريتية ، لغة فيدا ، وهي تعد الفرع الهندي من المجموعة اللغوية الهندو - أوروبية . وفي النصوص الاشد قدماً (الريغفيدا) تقدم لنا اللغة السنسكريتية الفيدية تشابهاً بارزاً مع لغة افسته الايرانية ، تشابهاً يستمر ولو مجزئاً في النصوص الاخرى . ولكن يوجد اختلاف واضح بين اللغتين الفيدية والافستية بسبب التجديدات . وفي هذا المجال كما في مجالات كثيرة أخرى وفقت الهند بين الجديد والقديم وأتاحت لهما الاستمرار معاً مما ولد تعقيداً يدعو غالباً الى الدهشة .

والسبب هو نفسه الذي نجده دوماً والذي يظهر خصائص الروح الهندية : فالسنسكريتية هي « لغة كهنوتية تحصر مهمتها في التعبير عن فكرة موجهة ذات أهداف سحرية . فلشكل أهمية اكثر من المعنى ، وللمعنى السحري أفضلية على معنى الكلمات ، وتخضع الكلمات لترتيب رمزي معقد » (ل. رنو L. Renou) . لذا نجد بكثرة التعابير القديمة وذلك حرصاً على عدم مس التقاليد مع ما هنالك من ضرورة ملحة للتجديد .

ولكن مع البرهانا تبدو اللغة السنسكريتية الكلاسيكية أكثر تحرراً إذ هي تستند الى قواعد محددة وكلمات دقيقة المعنى جداً . ومع الاوبنيشاد تقترب هذه اللغة أكثر وأكثر من اللغة المتداولة . ولكن تجددت على حالها اللغة التي تكونت وقد وصلت اليها على أشكالها القديمة .

وبصورة موازية للسنسكريتية نجد عدداً كبيراً من اللغات الكهنوتية او العامية التي نشأت وامت وقد اشتق معظمها من السنسكريتية . ولكن احتفظ بلون محلي قد يكون أشد قدماً .

ويستعملون لكتابة السنسكريتية ٤٩ مقطعاً تحتوي على أحرف صوتية ونصف صوتية وغيرها ، وفي اللغة قواعد لتصريف الأفعال واعراب الأسماء . وهكذا فهي تدخل ضمن اطار اللغات الهندو - أوروبية وهي من ثم على طرفي نقيض مع اللغة الصينية التي سنأتي على وصفها لاحقاً .

لحة تاريخية
يبدو أن انشقاقاً حصل ما بين القرنين الثامن عشر والعاشر ق. م. على حدود هضبة ايران الشمالية - الغربية بين القبائل الهندو - أوروبية التي كانت قد

(سرسوتي Sarsûti) ، وشتدري Sutudri (ستلج Satlej) ، واليمنسا Yamuna (جمنا Gamna) شرقاً . وقد عرفوا شمالاً سلسلة جبال حملايا . وتذكر النصوص نفسها المحيط (سمندرا Samudra) ، مما يحمل على الظن بأن الآريين عرفوا مجرى نهر الهندوس السفلي (السند Sindh) حتى مصبه الذي تخيلوه آنئذ في درجة عرض أرفع مما هي عليه اليوم . ولم يتقدم الآريون الا قليلاً نحو الشرق اذ لم يذكروا نهر الغانج Gange الا مرة واحدة .

وحصل تقدم الآريين في هذه المنطقة الجغرافية المحدودة لانتصارهم في الحرب . وبعد ان انهارت كل مقاومة للسكان الاصليين اجبر هؤلاء على الخضوع لسيادة المنتصرين وأصبحوا لهم من ثم عبيداً ، أو هجروا نحو الجنوب والشرق حيث سيخضعون للفتح الاوروبي في خلال القرون اللاحقة .

وبعد ان استقرت القبائل الآرية في منطقة البنجاب تألفت فكوئت أحزاباً ثم اتحدت وأُسست ممالك ، ومن المعتقد بأن هذه الأمور لم تقم دون معارك داخلية . وحوالي سنة ٨٠٠ ق.م (?) حيث ازداد تقدم الآريين نحو الشرق حتى انتقل مركز الثقل من البنجاب الى دواب Doab ، أعني الى المنطقة التي تمتد من سرسفي الى ملتقى الغانج واليمنسا . ولم يتم اخضاع هذه المنطقة عن تغلغل الروح الآرية الا قليلاً اذ اعتبر السكان الأصليون كأنهم يؤلفون طبقة (فرنا : لون) وضيفة جداً . وباستطاعتنا منذ هذه الفترة ان نتحدث عن الممالك الآرية ، وقد غدت دولة الكُرو (Kuru) أعظمها قوة وأشدّها مركزية . وقد تكون هذه المملكة قد أخضعت دولة البنكالا Pancala المجاورة وامتدت سيطرتها نحو الشمال - الغربي حتى وادي تكششلا Takshila (تكسلا Taxila) ونحو الجنوب - الشرقي حتى ملتقى الغانج واليمنسا .

ومن المقدر بأن تكون القبائل الآرية المستوطنة بين مجريي الهندوس والغانج قد بدأت تقدمها نحو الشرق حوالي القرن السادس ، فتأسست إذ ذاك بعض الدول والممالك في مناطق دلهي Delhi ، و « بلاد الوسط » (مدهيديشا Madhyadeśa) ، وفي اوده Audh (كوشالا Kōśala و فيدها Videha) ، وفي البهار الجنوبي Bihar (مغدها Magadha) : وامتدت هذه الدول أيضاً جنوباً حتى جبال فنديا Vindhya وملكت معاً مدناً مهمة عدة منها كوسمبي Kançambi على اليمنسا وكاسي Kasi (بنارس Bénarès) على الفرنافي Varanāvatī .

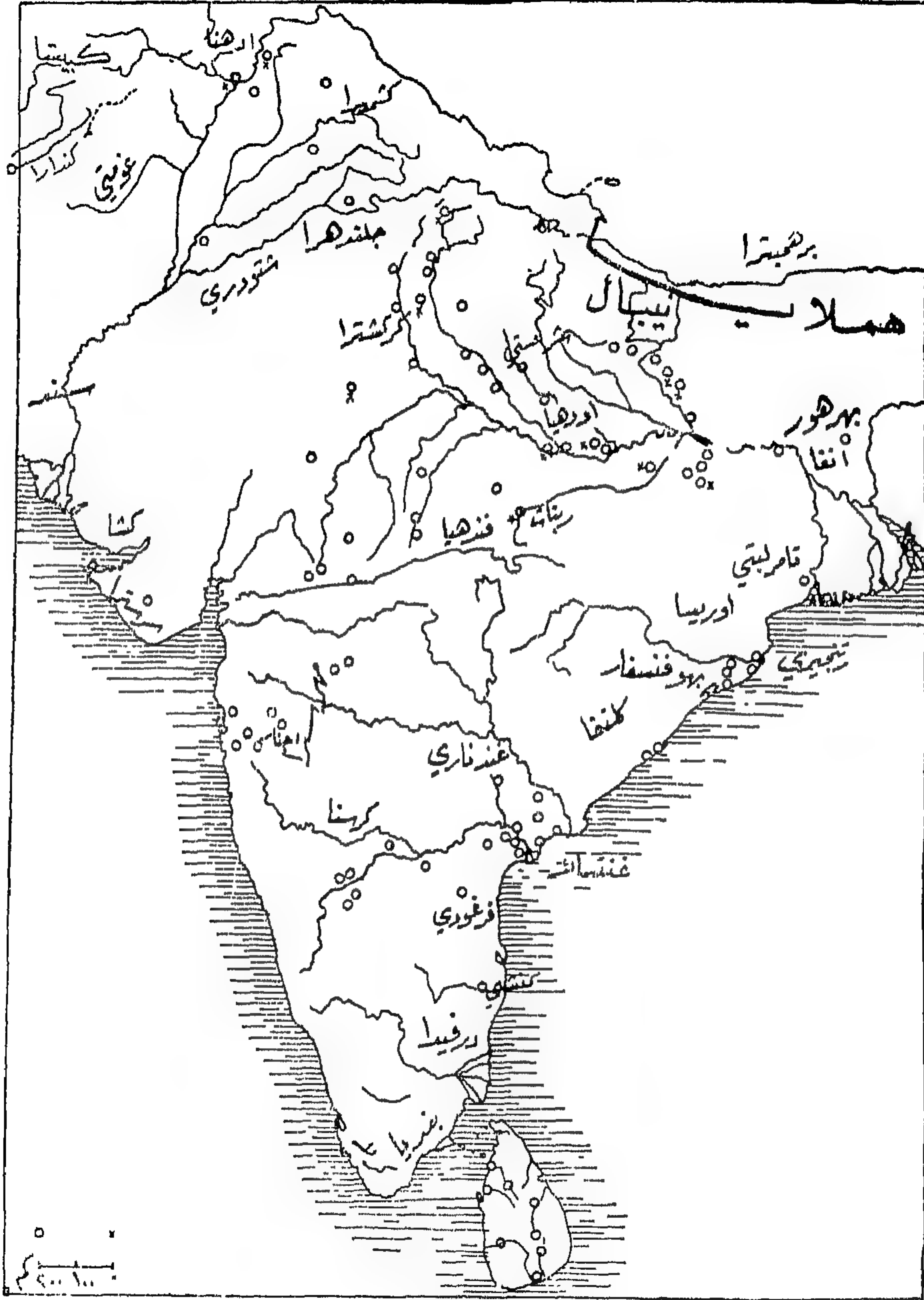
وبعد ان سعت مملكة الكُرو (دلهي) في العهد السابق لبسط سيطرتها حاولت الوصول الى الرئاسة ، وسعت للسيادة دولة مغدها (البهار الجنوبي) وكانت قد تشربت أقل من المناطق الغربية الروح الآرية وبقيت متأصلة فيها الخصائص الوطنية الأصيلة حتى اعتبرها الآريون منطقة شبه بربرية . وأخذت على عاتقها الاستيلاء على حوض الغانج في الفترة التي تتراوح بين القرنين السادس والرابع . وفي هذا الوقت تغلبت سلالة الششناكا Cishnaka الآتية من أفانتي Avanti (أعني من مملكة العهد الآري السابق التي تقع في أقصى الجنوب) على سلالة البرهدرتا

Brihadratha السقي لا نعرف عنها في الواقع أى شيء . وأخضع ملوك السسونانا - ولا نعرف جيداً منهم إلا الملكين بيمبيسارا *Bimbisāra* (٥٣٨ - ٤٨٦ ؟) وأجاثشثرو *Ajātaśatru* (٤٨٦ - ٤٥٤ ؟) وذلك للدور الذي لعباه في الأدب البوذي - البنغال ومنطقة كاسي (بنارس) وكوسالا (اوده) وفيدها (بهار الشمالي) . وبعد ان سيطرت مملكة مغدها على منطقة واسعة يؤلف مجرى الغانج محورها نقلت عاصمتها من راجغريها *Rajagriha* الواقعة في البهار الشمالي الى باتلبترا *Pataliputra* (بنا *Patna*) على ملتقى السون *Sone* والغانج . وفي أواخر القرن الرابع ق . م . استبدل السيسوناغا على عرش مغدها بالنندا *Nanda* . وسيتابع هؤلاء العمل التوحيدي وسيتفرع عنهم الموريا *Mauya* الذين سينجحون حوالى سنة ٣٢٠ بتأسيس أول امبراطورية هندية .

وبينا كانت مقاطعات الهند الآرية الشرقية تسعى لتنظيم نفسها واكتساب وحدتها ، غدت المقاطعات الغربية عرضة لتهديد غزاة جدد: اذ أخذت الامبراطورية الفارسية على عاتقها إخضاع المقاطعات التي على حدود مملكتها وذلك أيام كورش (٥٦٠ - ٥٣٠) الذي استولى على كابيشا *Kapisa* (منطقة كابول) ثم زمن داريوس (٥٢١ - ٤٨٦) الذي ضم الى ممتلكاته الجديدة غندهارا *Candhara* (منطقة بشاور) ومحمل بلاد بنجاب الوسطى حتى بياس *Bias* ، وأخيراً السند . وأصبحت هذه الحوادث بدء عهد اضطرابات أبقت مناطق الهند الشمالية - الغربية زمناً طويلاً على هامش الحياة الهندية السياسية الحقيقية ، إذ دامت السيطرة الفارسية زهاء قرنين وأعقبها تدخل جديد هو غزو جيوش الاسكندر الكبير (٣٢٧ - ٣٢٥) الذي سنأتي فيما بعد على دراسة نتائجه (انظر وجه ٦٠٧) .

لذا نستطيع ان نعتبر حكم الملك بيمبيسارا ذا أهمية إذ يكرس توحيد مناطق شاسعة في الشرق بينما يخلق انشقاقاً اجبارياً في المناطق الغربية تتسرب مرة ثانية من خلالها التأثيرات الايرانية كما حصل ذلك عندما أتى بها الآريون أنفسهم . ولكن يحمل هذا العهد أيضاً طابع حوادث دينية وروحية واجتماعية ستستمر نتائجها وقتاً طويلاً إذ حصلت تغييرات أساسية في الديانة الفيدية بتأثير البراهمة الذي تزايد مع الزمن . وبمناسبة هذه الحوادث ظهر تشريع حصر الجماهير في فئات وطبقات . وفرض البراهمة مبادئ روحية صارمة أخذت تحد من حرية الأخلاق . وبالاختصار فان مجموعة الحوادث التي تتكون منها الحضارة الفيدية أخذت تتطور نحو تشريع شكلي أوجب سلسلة من « الاصلاحات » . وتعددت المذاهب ، يعرض كل منها وسائل مختلفة تتعلق باحترام التقاليد والكهنوت ونيل التحرر ... وفي عهد ملك بيمبيسارا ظهر رجلان يعملان لهدف واحد : شاكيمني *Cakya* الذي أسس الديانة البوذية وذاك الذي يطلقون عليه اسم مهافيرا *Mahāvira* ، مؤسس المذهب الجايني *Jainisme* . وقد وجد كل من هذين المصلحين العقول الهندية مستعدة لقبول تعديل فكري بخصوص المسائل التي كانت تطرح

عليها بقوة متزايدة ولكن علينا ان لا نرى في هذه الاتجاهات المختلفة - ان انتسبت الى الديانة



الشكل ٣٣ - الهند في عهد سلالة الموريا

الفيدية القديمة او الى المبادئ البوذية والجانانية الجديدة - ثورة دامية تستند الى حرب مقدسة ، بل على عكس ذلك فهي تفتح وتوسع للمشاكل الروحية والميتافيزيقية التي تستوحيب قواعد حياة تلتئم

أكثر فأكثر مع متطلبات الفرد. وهذه المشاكل كانت دون شك أساس تحرير التعليقات والشروح (البرهانا) والدروس ذي الصبغة السرية (الاوبنيشاد) التي زيدت على نصوص العهد السابق الفيدية، وهي التي مهدت السبل أمام شاكيمني وأعدت له تجارباً لدى الأمة للمبادئ الخلقية التي كان يبشر بها، هذه المبادئ التي اتخذت لها أساساً محبة جميع الكائنات. وعلينا ان نتخيل اذن هذا العهد - الذي يشمل تقريباً القرنين السادس والخامس - كطور يقظة روحية حقيقية تسير جنباً الى جنب مع مساع حثيثة نحو الوحدة السياسية واتصالات أكيدة مع الغرب. ومع هذا علينا ان ننتظر ردحاً من الزمن قبل ان نشهد التناقض الحقيقي بين التقاليد الفيدية والبوذية. ولا يظهر في هذه الفترة الاختلاف العميق بينهما إذ لا تزال البوذية في مستهل عهدها، وهي تعتبر مجموعة مبادئ روحية أكثر منها دينية ولا تنفي من ثم الزون الشعبي كما لا تتنكر بأي شكل لأسس الحياة التي كانت مقبولة. ولن تظهر هذه الاختلافات بوضوح إلا في القرون الاولى للعهد المسيحي عندما يجعل منها تحرير النصوص البوذية وتفتح الفن البوذي مادة ملموسة. ومع هذا تبقى هذه الاختلافات متسمة بالطابع الديني والاجتماعي دون المادّي.

الفصل الثاني

الحضارة الهندية قبل عهد الموريا

عندما دخل الآريون الى مقاطعات الهند الشمالية - الغربية - بين سنتي ١٦٠٠ و ٨٠٠ ق. م. - وجدوا هناك سكاناً أصليين استرعت انتباههم خصائصهم العرقية ، إذ تنافت جداً ولا شك مع طباعهم . فقد كان لهؤلاء السكان بشرة دكناء ، وجعل منهم هذا اللون (فرنا Varna) أشخاصاً محتقرين في نظر غزاة بشرتهم ناصعة البياض . وكان أنف السكان الأفطس على طرفي نقيض مع أنف الفاتحين الأقنى ، وتكلموا لغة « معادية » أعني لغة لا يفهمها هؤلاء . وأطلق عليهم سادتهم الجدد اسماً شاملاً هو « الدرافيديون » ولكنهم حملوا أسماء في غاية الغرابة : آجا Aja (الماعز) ، سفرو Cighru (فجعل حريف) ، دازا Dasa او دازيو Dasyu ، باني Pani . وكان اسم دارا من الاسماء الأكثر شيوعاً ، واصبح له في العالم الآري معنى في غاية الحطة أي عبد (المؤنث : دازي Dasi) . ولا نعلم إن كان اسماً الماعز والحريف يدلان على نظامين قد زالا هما المبدأ النبائي Végétalisme والمبدأ الذي يجعل من الحيوان جد الخليقة (الطوطمية Totémisme) . ومع هذا فاننا نعلم بأن الدرافيديين كانوا يحيون حياة الرعاة - ويصطادون الجاموس والأسد بالقوس والنبال ، ويحتمون وراء أسوار تعززها كوم من التراب والأوتاد . ويعتقد بأنهم كانوا يمارسون ديانة خاصة Phollique مع أن معرفتنا في هذا المجال محدودة جداً .

ويظهر ان دازا الذين استوطنوا السهول اعتصموا عند زملائهم الجبليين وقاوموا بشراسة الآريين مدافعين بكل ضراوة عن مساكنهم وأسوارهم المنيعة . ومع أن اخضاعهم غداً مراراً صعباً جداً فقد أحال الغزاة رجالهم الى عبيد واتخذوا من نساءهم خليلات . ومع أن الآريين يفتخرون غالباً بأنهم أخضعوا مناطق أعدائهم بالقوة - ولنا أدلة تحملنا على صدقهم - فلا يظهر بأنهم عاشوا بحالة حرب متواصلة مع السكان الأصليين ، إذ نقف على حالات تزواج بين الفريقين مما يثبت بأن الفاتحين في ذلك الطور القديم لم يشعروا - كما سيحدث فيما بعد - بضرورة الحماية من شرور التزاوج الخلاسي المنتظرة .

١ - خصائص الحضارة الفيدية

ان ابرز خصائص هذه الحضارة هي الحياة الزراعية المؤسسة على قوة الذبيحة
المستندات الإلهية الفاعلة . ان عناصر ثروة السكان الأصليين وسادتهم الآريين تقوم
خصوصاً على نتائج القنص والزراعة وتربية المواشي . وعلاوة على القوس والنبال استعمل
الآريون فأساً من النحاس ، ولجأوا الى الفخاخ والحفر للايقاع بالطريدة الكبيرة (الفيل ،
الأسد ، ثم النمر) والى الكلاب لاكتشافها والى الخيل للحاق بها ، كما استعملوا الشباك لاصطياد
العصافير . ويظهر بأن صيد الأسماك لم ينتشر الا في عهد البراهمة ، ومع هذا فان الانهر وبحاري
المياه التي عاشت بقربها القبائل الآرية الاولى كانت قليلة الاسماك .

وغدت الزراعة أهم أعمالهم . وتألفت قطعان الماشية من الابقار الحلوبة والثيران والعجول
والاغنام والماعز . ولجأوا الى كلاب الحراسة لجمع القطيع ، وقاموا بهذا العمل مرة أقله في النهار ،
عند الظهيرة . وكانت البقرة منذ البدء حيواناً شبه مقدس اذ غدا قتلها وأكل لحمها محرمين ، وقد
حلبوها ثلاث مرات في النهار . واستعمل الثور لجر العربات ولأعمال الفلاحة . وجمعوا شعر
الماعز للنسيج . وادخل الحصان بعض المزارع ضمن حيوانات القطيع واستعملوه للحراثة ولجر
العربات عند القيام بالأعمال الطقسية ، وكانوا يعتلونه ولكنهم لم يستعملوه في الحرب . ولم يصبح
الفيل أليفاً الا منذ عهد البراهمة وغدا من ثم خير مساعد للانسان ولم يستعملوه في ذلك الوقت
في الحرب . ولا يظهر بأنهم جعلوا من إله في ذلك العهد حيواناً داخلاً ، وغدا القطيع ملكاً
مشاعاً يجمعونه في بعض الحقول المسيجة وينزلونه معهم في البيت .

وتتم أعمال الحراثة - وللحراثة اسم مشترك بين الهنود والایرانیين - بواسطة محراث يحجره
خروفان . ومع انهم زعموا في عهد البراهمة بأنهم يستطيعون ان يشدوا الى المحراث ٢٤ ثوراً
فان هذه الآلة لم تتطور كثيراً خلال القرون اللاحقة ، اذ تثبت رسوم هذا المحراث التي ترتقي
الى القرن الثاني ق. م . (وهي أقدم زميلاتها) حالة هذه الآلة البدائية . ومنذ أقدم العصور
اعتنوا بري المزروعات . وكانت أعمال حفر قنوات الري وصيانتها أعمالاً مشتركة . وفي وقت
لاحق أضيفت خزانات المياه الى هذه القنوات . وابتداء من عهد البراهمة ، وكان قد توغل
الآريون في مناطق بلاد الوسط الأكثر خصباً ، عرفوا مبدأ تسميد الاراضي واستثمار السلي
والانتفاع من الرياح الموسمية الخيرة .

وشملت المزروعات في أول الامر الشعير (؟) (يافا Yava) ، لتمتد فيما بعد الى الارز
والقطن الذي غدا منذ ذلك اليوم أساس أعمال النسيج . ثم تطورت المزروعات وتزايدت فشملت
الحنطة ، والحمص ، والسهم ، وقصب السكر ، وأنواعاً عدة من الحصار والزهور والثمار . ولا
نعرف شيئاً أكيداً عن مزروعات الاشجار المثمرة ، ولكن نجد ذكر صنفين للتين وهما تين لن

Ficus religiosa Linn وتين روکسب Ficus indica Roxb .

وتتألف سواد التغذية والحالة هذه من حبوب قد تحول الى طحين ، وحليب ، وسمين ، وعسل ، وخضار ، وثمار ، وحتى عهد البراهمة ، ولحوم (تيس وضأن وثور وحصان) ، اذ لم يحرم اللحم الحيواني الا حين أصدر البراهمة قانوناً صارماً بهذا الخصوص . وهناك نوعان من المشروبات المسكرة : السوما soma ويستخرجونه من نبات ايراني الاصل لم يحدد بعد ، ويستعملونه عند تقديم الذبائح - والسورا Sura يستخرجونه من نباتات عدة يشربه الشعب وان كان شبه محرم .

ولم تنتشر التجارة في أول الامر ، ولكن سرعان ما ازدهرت . وقد سهلتها اقامة طرق للمربات بنوها بصورة مشتركة وبنوا عليها منازل تستعمل كملاجئ للمسافرين في مختلف المراحل . والتنقل كثير الشيوخ يقوم به الشحاذون والبراهمة والتجار . وقد ألف هؤلاء نقابات وتجمعوا ضمن قوافل تنتقل على الطرقات والممرات وتصل المدن الرئيسية بعضها ببعض وتنقل من منطقة الى أخرى الاقمشة - القطنية الموصلية والمزركشة والحريية - والطنافس والعقاقير والروائح والحلى والاسلحة والسكاكين . وقد تقوم هذه القوافل برحلات طويلة فتتوطد من ثم العلاقات مع المناطق التي تجاور الهند خصوصاً الاسواق الافغانية والايرانية . وتجري التجارة في المدن في دكاكين صغيرة خشبية تفتح للجمهور او في الاسواق . وكثيراً ما يأتون على ذكر تجار أغنياء مما يثبت ازدهار التجارة . وتوجد أيضاً التجارة النهرية وهي تستعمل قوارب لها من الاهمية ما يوجب استعمال جذافين ومدير دفة .

ويعتمد القانون التجاري على المقايضة ، وقد مثلت وحدة التعامل في البدء البقرة وحلية (نيكشا Niksha) من الذهب والفضة ، ثم استعملوا للوزن نوعاً من الآلات (كرشنالا Kirshnala) وصفيحة أو قطعة من الذهب (ستانا) تسوى مئة كرشنالا . وعرفوا « المفصلة » والدين والقرض . وأتوا على ذكر تجار جشعين ومرايين ، كما تكلموا عن الفائدة التي تتراوح بين ١/٦ و ١/١٦ . وعقد الاتفاق أمر عادي يحيطونه بنوع من الافعال الطقسية . والدين الذي لا يسدد يعرض صاحبه لعقاب صارم : اذ قد يحكم على من يستدين بالعبودية أو بالعذاب .

وتقوم الصناعة على الصناعات الريفية . والصناعات المذكورة هي قليلة العدد في أول الامر : فالنساء تنسج القطن وشعر الماعز ، وهي تخطط وتطرز وتصنع الفرش ؛ ويصنع النجارون الآلات الزراعية والمربات وعجلات الحرب ويعدون الاخشاب ؛ ويشغل الحدادون في معادن النحاس والبرونز والحديد ، كما يعد الدباغون الجلود . وتتألف النقابات بطريقة مطردة ويصبح لكل منها اختصاص استناداً الى المواد المستعملة : فالنجارون والنقاشون يستعملون الخشب ، ويذيب الحدادون والصاغة معادن الحديد والنحاس والقصدير والرصاص والفضة (وكميتها نادرة) والذهب (وكمياته كثيرة جداً) ويصنعون منها الاشياء المختلفة ، ويستعمل اخصائيون العاج لصنع الاقواس والنبال . وتكون الآلات من خشب ونحاس وحديد . ونجد منها أخرى

كثيرة : فهناك العمال لذر الحبوب والفخاريون والصباغون والغسّالون والنسّاجون الخ . ويكثر جداً الحلاقون والمنجمون وكهنة الضيع اذ لا غنى عنهم في كل أعمال الحياة ذات الاهمية . واكثر العملة احتقاراً هم القناصون والصادون واللحامون وكل الذين توجب عليهم أعمالهم قتل الحيوانات (خصوصاً في الدول الشرقية) . وطبعاً هناك الرعاة والفلاحون ، كما يلجأ القوم الى الحراس والرسل ، ويذكرون طائفة من المهن التي لا يستقر أصحابها والذين يأخذون على عاتقهم التسلية والترفيه عن الغير : كالهراج والبهلوان والممثل وناقر الدف والضارب على الزمارة . ويتوارث القوم أغلب الاحيان هذه المهن وقد نجد قري لا يسكنها الا الذين يتعاطون ذات المهنة . ولكن هناك صناع بصورة عبارة يكونون عبيداً ويسمح لهم بالعمل ليستطيعوا تحرير ذاتهم وذلك من ثمرة انتاجهم .

ومن المحتمل أن تكون الحرب أيضاً سبب ربح ، خصوصاً لافراد طبقة الراجانيا ثم الكشتريا الذين يهيمنون على المجتمع الفيدي . ويرافقهم صناعيون وفلاحون سيحل محلهم فيما بعد الجنود المرتزقة . ولكننا لا نملك معلومات تفيدنا عن كيفية اقتسام الغنائم .

٢ - الحياة الاجتماعية

تستند هذه الحياة الريفية والزراعية على المجتمع القروي الذي ينتمي الى ما يدعونه المجتمع بالاسرة الابوية والذي يشمل مع هذا أثراً من نظام الاسرة المنتسب الى الام . وتستند اهم أفعال هذا المجتمع الى الذبيحة . ومع انه منذ البدء اعتبرت فئتا الكهنة (البراهمة) والمحاربين النبلاء (الراجانيا والكشتريا) الطبقتين الحاكمتين فلا يظهر مع هذا بأنه كانت هناك دقة كبيرة في تقسيم المجتمع منذ أول العهد الفيدي . ولكن حصلت في وقت لاحق تجزئة أوضح وتكوّنت فئتان أخريات ، طبقة « الرجال الاحرار » (الفيشيا) وطبقة العبيد (الشودرا Quadra) . ومع هذا لم تكن هناك طوائف محددة المعالم تفصل بينها حواجز منيعة كما سيحصل في العهود اللاحقة . ويصدق هذا بصورة خصوصية في الدول الشرقية حيث تغلغلت الروح الآرية بصورة سطحية . وقد كان لهذا العامل ولظهور البوذية الاثر في تخفيف قسوة المبادئ البراهمانية الحقيقية .

وتتصل الفئتان اللتان توجدان على رأس المجتمع - طبقتا رجال الكهنوت والنبلاء - بعري وثيقة وتتمتعان بحرية كبيرة . ويستطيع البراهمة والكشتريا ان يتخذوا لهم مهنة الزراعة أو التجارة ، ويهتموا بقطعان المواشي أو بالقوافل ، وينقشوا على الحشب الع ويستطيعون أيضاً ان يتخذوا لهم زوجات ينتمين الى فئات دونهم شرفاً ، حتى ان كن من طبقة العبيد . ولكن لا يتعاطى البراهمة غالباً الا الاعمال الطقسية ، وهذا مما يقوي سيطرتهم لانه يتعذر على أي كان الاستغناء عن خدماتهم اذ ترافق حتماً الذبيحة كل عمل مهم ان كان في مجال الحياة الشخصية أو الرسمية . فالبراهمة « رجال الامور المقدسة » هم الكهنة المستديون ، وهم يديرون الاعمال

الطقسية ويتقاضون نصف الاتعاب بينما يتقاضى النصف الآخر الذين يقومون بالاعمال الطقسية بصورة عابرة؛ وقد يختص كل منهم بعمل أو بعدة أعمال . وهم يقومون في القرى بدور الطبيب الساحر . ومن بينهم ينتخب كاهن الملك (البروهيت) الذي يصبح له المركز الديني الاول . واذ يعينه الملك يصبح مرافق العاهل في جميع تنقلاته لا بل يذهب معه الى الحرب ، ويتلو الصلوات ويتم أعمال الرقى ليضمن للملك النصر أو النجاح في الاعمال . انه ينظم أفعال العبادة ، ويرأس الحفلات الطقسية ويقبل الهبات . ويمتن غالباً براهمة القرى مهنة تمت الى بعض الاشكال الطقسية ، كمهنة الحلاق والمنجم والغسّال الخ ؛ ونسبة اليهم يوجد نساك وزهاد عديدون أخذوا على عاتقهم بث الدعوة البوذية في الدول الشرقية منذ بدء انتشار تلك الديانة .

والكشترية هم المحاربون الاشراف ، يتعاطون الادارة والسياسة ويساهمون في المعارك ويكونون عادة طبقة الملاكين العقاريين في البلاد . وينتمي الملك الى هذه الفئة ومنها ينتخب نسبة لحقوقه الارثية والعائلية . وينتخب الشعب العاهل أو أقله يقبل به ، اذ لم يتوج الكهنة الملك الا في زمن لاحق . وتنحصر مهمة الملك الاولى في الدفاع عن أفراد الامة والقيام بأود طغمة من رجال الكهنوت يقفون أنفسهم في خدمته وخدمة شعبه ؛ وهو يستثمر أملاكه التي تتألف من غابات و « أماكن صحراوية » لذا يفرض الضرائب بواسطة الآخرين . وبما انه كان رئيس قبيلة أو جماعة أخذ يهيمن ويسيطر بصورة مطردة ويعزز سطوته بالذبايح العظيمة كتقدمة الحصان (اشفيدها) وبحفلة تتويج زاهية (راجسوي) ؛ وهكذا توطدت منذ البدء صفة الملك الإلهية .

وتشمل فئة الرجال الاحرار الفلاحين والتجار والصناعيين . وان توصل بعض منهم الى جمع ثروة طائلة فانهم يبقون مع هذا عرضة للضرائب والتسخير اذ هم فلاحون عند الكشترية ، يقدمون لهم الغذاء ويرافقونهم في الحرب . ويكون التجار والصناعيون نقابات يصبح رؤساؤها غالباً أصدقاء النبلاء .

والفئة الاكثر احتقاراً هي فئة العبيد ، وقد شملت في البدء دون شك احفاد السكان الاصليين الذين غلبهم الآريون ، على أمرهم . ويضاف اليهم الافراد الذين حكم عليهم لعدم تسديدهم ديونهم ، أو أفراد آخرون أبدلت عقوبتهم بالرق ، أو أسرى الحرب أو حتى رجال تخلوا بملء ارادتهم عن حقوق طبقتهم واعتبروا أنفسهم عبيداً رغبة في التكفير أو قهر النفس . والسودرا هو كائن دنس من طبيعة نفسه يمكن جرحه أو حتى قتله . ولا يحق له دراسة الفيدا أو تقديم الذبيحة ، ولكن قد يجمع ثروة من عمله فيسمح له اذ ذاك بتحرير نفسه . ولكن يلمس المرء من خلال هذا النبذ والخنوع الذي قد يؤدي الى الموت ذكرى المعارك المريرة التي خاضتها القبائل الآرية ضد السكان الاصليين في أيام الفتح .

وهكذا مع ليونة هذا النظام الاجتماعي نشهد محاولة صريحة لتقسيم المجتمع حسب الاعمال

والمهن ، هذا التقسيم الذي يستند الى الضرورات التي تفرضها طقوس العبادة ، وهكذا نرى بان مبادئ الحياة الاجتماعية الهندية أصبحت على وشك اكتساب كل الخصائص التي سنشهدا لها في العهد اللاحق .

الدولة يستند هذا المجتمع الى نظام ملكي تتكافأ فيه ثلاث سلطات : سلطة الملك ، وسلطة رجال الكهنوت ، وسلطة الشعب . ويخضع الشعب والكهنة للملك ولكن بصورة غير مطلقة . وهناك عدد من الموظفين الكبار يؤخذون من طبقة الكشترية ، لا بل من فئة الغيسيا مراراً : قائد الجيش (سيناني) ، شيخ القرية (غرامني) الذي يصبح كنائب الملك ، أمير الأخور ، المنادي أو الشاعر (السوتا) الذين يكون لهم سلطة قضائية . وللشعب كلمة في الحكم . وهو يجتمع في مكان خاص ، تحت أشجار القرية أو في سرادق سقفه من عشب . ويحتوي مجلس الشعب هذا على الشباب والشيب ، أفراد القبائل وسكان القرى . وهو يعين مجلس الشيوخ ولجان تحكيم تتخذ القرارات بإجماع الاصوات .

وتقسم المملكة ادارياً الى غراما (القرية وجماعة مسلحة) ، وفيس (كور أو فخذ قبيلة) ، وجانا (قبيلة أو مجموعة كور) . ولكن هذه المعلومات هي عرضة للتغيير والتبديل ولا نعثر في النصوص الا على القليل من الأوصاف التفصيلية بهذا الخصوص .

أما السلطة التنفيذية فهي منوطة بالملك ، وقد يصدر بعض الأحكام مجلس شعبي (سبها) . ولا نجد شيئاً واضحاً للنظام القضائي ، ولا يأتون على ذكر بعض العادات التي ستسود في وقت لاحق كاهمال الأبوين المسنين ، والتخلي عن البنات ، وجمعيات الخليلات اللواتي ينتسبن الى أصل شريف ، ومع هذا فهم يمارسون الدعارة . وتخضع الجرائم للعقوبات التي يفرضها وينفذها الشخص الذي هضمت حقوقه دون أن يستطيع مع هذا الحكم بالموت . ويقدر ثمن دم الانسان بمئة بقرة عندما تحدث جريمة قتل ؛ ولكن في عهد البراهمة تغيرت هذه القوانين تبعاً للطبقات . وهم يعددون لوائح للجرائم دون أن نعرف مع هذا بصورة دقيقة العقاب الذي يتناسب مع كل منها . وفي بعض الأحيان كان يأمر الملك بتعذيب جسدي . وهم يعاقبون على السرقة والخلع واللصوصية والدين . وتكثر سرقة الماشية حتى انه يوجد أشخاص اخصائيون للبحث عن الحيوانات المسروقة .

الاسرة ان الاسرة هي أساس المجتمع الفيدي . وتخضع الاسرة لسلطة رب المنزل الذي عليه ان يمارسها دون شراسة . وله الحق بتأنيب أولاده وتقرير زواج بنيه وبناته . وهم يفضلون ولادة الذكور ويستعدون لها بسلسلة من الطقوس تمت صراحة الى السحر . وعندما يولد الطفل يشعلون له ناراً خصوصية ويقدمون هدايا من السمسم والأرز مدة عشرة أيام ؛ وينفخ فيه الوالد النفس ويخضعونه للحمام ثم يطلقون عليه اسمين : الاسم العادي والاسم السري الذي لن يكشفوه له بعض المرار الا في وقت لاحق عند حفلة الاشراف . وعندما يبلغ الثالثة من عمره

يقص له الحلاق شعر رأسه لأول مرة حسب الشكل الذي يختص بأسرته . وعند تنفيذ هذا الأمر يقيمون حفلة يطعمون فيها الشعر بعد ان يخلطوه بالأعشاب وزبل البقر . وعندما يبلغ الفتى السادسة عشرة من عمره يعيدون نفس الطقوس عند حلاقة لحيته ، وهذه الحلاقة هي رمزية فقط اذ يبقى رجال العهد الفيدي على لحيتهم بكاملها .

وعندما يبلغ الشاب سنًا يختلف باختلاف الطبقات والظروف يعهد به الى مرب . وقيمون بهذه المناسبة حفلة تكون مقدمة لحفلة الاشراك الدينية ، وعندئذ يدخل الشخص في مرحلة جديدة من الحياة . وعليه ان يسهر ليلتي نار الاسرة مشتعلة ، ويشحن قوت معلمه وقوته ، ويفترش الأرض ، ويحافظ على العفة ويطيع طاعة عمياء ويمتنع عن أكل بعض الأطعمة . وتقام حفلات طقسية اثناء حياته الدراسية في بدء ونهاية الفصول . ولم تحدد مدة هذه الدراسة . وعندما تنتهي يستعد الشاب للعودة الى أسرته ، فيستحم ويعتق من نذور الدراسة ويطرح أمتعته في الماء ويلبس ثياباً جديدة ، ويصبح اذ ذاك أهلاً للزواج ويقوم بدوره باعباء ومسؤولية رب المنزل .

ويستند الزواج في العهد الفيدي الى انتخاب متبادل يجريه الزوجان وهناك أسباب جدية بالاحترام تجذب الزوجين الواحد نحو الآخر . وقد رأينا بأنه يجوز عقد قران شخصين ينتميان الى طائفتين مختلفتين ، ولدينا أمثلة عدة تثبت بأن والدة بعض الشخصيات كانت من طبقة العبيد ، دازي اوسودرا . ومع هذا غدا من المستحب في زمن البراهمة ان ينتخب الزوج زوجه من الطبقة التي ينتمي اليها . وتقع على عاتق الوالدة مسؤولية ايجاد زوج لابنتها ، وهي تقدم لها النصيح في هذا المجال وتشرف على زينتها لتجعل منها فتاة يرغب فيها أكثر وأكثر . وعلى طالب الزواج إذن أن يكسب عطف حماته المستقبلية ، ويتوجب عليه علاوة على ذلك أن يدفع لوالد خطيبته ثمنًا كما لو كان يبتاعها الشلكا (*shilka*) أي مئة بقرة وعربة . ولا نعلم ان كان هذا الأمر أصبح عادة أو غدا فقط شبه عقد . وكثيراً ما يشاهد الخطيب خطيبته دون أي قيد . وترتدي الفتاة ثياباً جميلة لتروق أكثر في عين من سيصبح لها زوجاً ، وهي لا تنام ملء عينيها ليلاً بانتظار بحبيته ولا يفترقان الا عند الفجر . ويعتبرون هذه الاجراءات كطقس يسبق الزواج . واستناداً الى هذه المعلومات فلا يجري الزواج الا بين شابين بلغا أشدهما وهما في ريعان الفتوة ، ولا يذكرون حتى هذا التاريخ — الا حادثة يخيم عليها الشك — زواجاً يجري بين ولدين ، هذا الأمر الذي سيصبح عادة فيما بعد .

ويسير جنباً الى جنب نظام الزوجة الواحدة مع مبدأ تعدد الزوجات الذي لا ينفذ على كل حال الا لدى الطبقات الحاكمة . ولا يذكرون نظام تعدد الأزواج ، ولكن من المحتمل ان يكون قد عمل به في وقت سابق لهذا التاريخ اذ يجدون ذكره في بعض القصص الخرافية الإلهية . ويظهر بأنهم قبلوا في زمن متوغل في القدم بمبدأ نكاح الوالد لابنته أو الأخ لأخته ، ولكنه حرم في العهد الفيدي ، كما حرمت هذه العقيدة الزواج بين ذوي القربى في الدرجة الثالثة والرابعة .

ويسبب الزواج سلسلة من الحفلات الطقسية . ويحدد تاريخ النكاح بكل دقة استناداً الى ارشادات المنجم . وعندئذ يرسل الخطيب رسلاً الى حميه الحفيد . ويمتدح هؤلاء الخطيب واسرته ويتممون العقد . ويقودون بعد ذاك الخطيب الى بيت الفتاة وسط جمهور من النساء حيث يستقبلونه بمظاهر الحفاوة والتكريم كما يستقبلون زائراً مرموقاً . ويقابل الخطيب خطيبته ، ويقدم لها بعض الهدايا التقليدية (الثياب والمرآة) . وبعد ان تقدم الفتاة قرباناً من الحبوب المحسنة يرافقها الخطيب في جولة تستغرق سبع خطوات وهو ممسك بيدها وقد عقدت معها ثيابها . وهذا ما يكرس تلك الخطيب لخطيبته . ويرمز العمل الذي سنأتي على وصفه الى تخلي الفتاة عن اسرتها . فهي توضع في عربة أو تعلقو جواداً أو فيلاً ويقودونها بموكب نحو بيتها الجديد ، ترافقها نار طقسية تصبح نار اسرتها . وهي تدخل المنزل دون ان تمس عتبتها ، ثم تجلس وتضع على ركبتيها ان امرأة لم تلد الا ذكوراً أحياء . وفي الثلاثة أيام التي تلي يحافظ الزوجان على العفة بكل حرص . ولا تبدىء فعلاً حياتهما المشتركة الا في اليوم الرابع بعد ان يقوما ببعض التقادم التكفيرية .

ان الزوج هو السيد مبدئياً ولكن للمرأة مع هذا دورها الهام . وتشير كل الكلمات الفيدية التي تدل عليها الى ائوئتها وقدرتها على انجاب البنين وعاطفتها الوالدية . والزواج هو النهاية الطبيعية لحالتها ويصبح البيت الزوجي مستقرها اذ يستحيل على الزوج القيام بالطقوس العائلية والبيتية ان لم تكن الى جانبه . وان كان دور المرأة في هذا المجال سلبياً فهي تصبح مع هذا الكاهنة في بعض الحفلات الزراعية ان لم يكن لها زوج .

ولا تتوافق المعلومات التي لدينا عن شأن المرأة في العهد الفيدي . ولا يظهر مع هذا بأنهم أساءوا معاملة البنات . فهن قبل زواجهن يساعدن الوالدة في القيام بأعباء المنزل ، ويجلبن الماء من الآبار بواسطة جرار يحملنها على رؤوسهن ، وينسجن الثياب ويطرزنها . والزواج هو سدره الأمل عندهن ، وان لم يتزوجن يبقين عند والدهن ويعتنين بشؤونه . والأخ هو حامي شقيقته ، ويتحدثون بسخرية أو بحسرة عن « الابنة التي لا شقيق لها » . فالابن هو الذي يرث الوالد ويمارس سلطاته . ومع هذا نجد بعض النصوص التي تشير الى عوانس عرفن اليتيم وورثن الأملاك الوالدية وقد فضلن القانون على الأولاد المتبنين أو غير الشرعيين . ولا يعرف معرفة بينة اشكال الملكية . ويظهر بأن ثروة الأسرة استندت على ملكية الأراضي التي كانت تخص كما يبدو الوالد . وقد تكون أيضاً مشتركة تضاف اليها الممتلكات الخصوصية التي تشمل المواشي والأسلحة والحلى . وقد تثقفت بعض النساء ثقافة عالية جداً ، وتحفظ كتب الادب القديم بآثار تقليدية تدل على مركزهن الثقافي . ونجد نساء بين النساك (ريشي) لا بل بين علماء اللاهوت في عهد الاوبنيشاد

وقد تحيا الفتيات حياة هو واستخفاف ويثرن الشكوك بشبابهن الحمر . ويراقب الوالد والأخ سلوكهن ، ولكن كانت الدعارة كما يبدو أمراً كثير الوقوع .

ويبيحون زواج الأرملة ان لم يكن لها ورثة ذكور من زوجها الاول ولكن فقط (?) مع شقيق زوجها المتوفى بغية تأمين استمرار النسل . ولكن يظهر بأنه في وقت لاحق استطاع قريب المتوفى أو تلميذه أو حتى عبده ان يحل محله لينجب أولاداً للأسرة التي غدت تمثلها الأرملة . ومن المحتمل بأن الأرملة ، مثل عهد الريغندا ، كانت تحرق مع زوجها ، اذ يجدون أثراً لهذا الامر في المستندات الطقسية . وقد ألغيت هذه العادة أيام الهند الفيدية ولكنها أعيدت ثانية في العصر البراهماني .

وتحدد طقوس منزلية حياة الأسرة بجميع مظاهرها . ومحور هذه الطقوس هو النار (Agni) التي تشعل داخل البيت وسط إطار من الخطب أو خارج المنزل ، وتعد السيدة الحقيقية (جارهيتيا) وبقرها تقدم القرابين اذ هي السبيل الى كل شيء ، وتمت هذه القرابين غالباً الى أصل نباتي وليس حيواني ، كسمن يذوبونه ثم يصفونه . والطقوس هي في غاية البساطة يقوم بها رب الأسرة ، وقد تؤديها الزوجة أو يتممها مراراً أحد البراهمة . ويقام عدد كبير من هذه التقادم والقرابين في اماكن عدة من المنزل وفي مناسبات مختلفة (على العتبة ، امام مقدمة السرير أو الجهة المناقضة) .

وهناك مناسبات عدة تعد ظروفاً تستوجب القيام بأفعال العبادة أو اعمال طقسية منها اوجه الحياة الزراعية ، وعودة الفصول ، وابعاد الحيات السامة ، واستقبال الضيوف ذوي المقام الرفيع ، وبناء منزل ... وللأعياد الزراعية اهمية خاصة اذ عليها يتوقف ازدهار الزراعة والماشية . وهي تظهر اكثر من سواها تدخل الحياة الدينية المتواصل في حياة القرويين اليومية .

ولكن يوحد طقوس اكثر ابهة وعظمة تأخذ فيها الذبيحة كامل معناها ويظهر فيها مقدمها بدوره الإلهي الحقيقي ، أي الوسيط بين الانسان والإله ، وتثبت الذبيحة من ثم بأنها صلة الرسل بين الامور المقدسة والعادية . وتستوجب هذه الطقوس الحافلة وجود الكهنة واستعمال عدة نيران . وهناك انواع مختلفة منها ما يقام بمناسبة ظهور الهلال وبداية السنة الجديدة وجني الاكابر الزراعية . ويبدو بأن بعضاً منها يعني افتداء حياة رجل بتقديم تيس . واهم هذه الطقوس هي تلك التي تستعمل السوما والتي تدوم مراراً اياماً عدة ، ومن اشهرها الفاجيبيا ولا تعرف العناية منها ولكنها تحتوي على امور غريبة كسباق العربات الذي قد يرمز الى الشمس ، والراجسويا او التتويج الماسكي . وهذه حفلة اقل قدماً من غيرها - حيث يعتمد الكهنة ويمثلو الشعب الملك ويجلسونه على العرش ، والاسفميدها ، ذبيحة الحصان ، وهي من اكثر الطقوس كلفة ، تثبت قوة الملك المظفر وتهبه السيادة المطلقة وتؤمن ازدهار المملكة . وتشير بعض هذه الطقوس - الاسفميدها والراجسويا خصوصاً وبناء هيكل النار - الى تقادم بشرية ، ولكن ينظم بأن هذه العادة غدت امراً رمزياً منذ تأليف اقدم النصوص .

ووسائل التسلية شديدة التنوع ، ومن اكثرها اعتباراً لعبسة الزهر التي يفضلون اسناد

محاولاتهم فيها على الرقم ٤ . ويستهوون كثيراً سباق العربات التي تجرها الاحصنة ، هذا السباق الذي لا يدخل دوماً ضمن نطاق الطقوس الدينية . وتشمل حفلات الفرح رقصاً يؤديه الرجال او النساء على انغام الغناء والموسيقى . ومن آلات موسيقى ذاك العهد الدف والعود والمزمار . وابتداء من عهد البراهمة يأتون اكثر فأكثر على ذكر المهرجين والممثلين والبهالين وناقري الدف وعازفي المزمار .

وعند انتهاء الحياة تأتي طقوس الجنازة . فهم يقومون باللباس وتزيين الميت ثم يأتون به في موكب الى حيث ستحرق جثته ، اما محمولاً على الاكف او على عربة يشدون اليها غصن شجرة يمر على الارض ليمحو آثار ارجل الاقرباء الذين يكونون قد تقدموا الجثة . وعندما يصلون الى المكان المعين يجرون للميت ، ولاحقاً مرة ، اعمال التزيين والتنظيف ثم يضعونه فوق كومة من الحطب . وتجلس امرأته بالقرب منه ثم يدعونها للنزول (وهي ستحرق حقاً معه في الازمنة اللاحقة) وقبول شقيق زوجها المتوفى بعلاً لها . ويضعون بجانب الجثة اشارات الفئة التي ينتمي اليها: قوس مكسور لأحد أفراد الكشتريا، وادوات عبادة ان كان من البراهمة . واخيراً يحرقون مع جثة الميت تيساً او يضحون بقرة . ويقومون في فترة الحزن التي تلي الجنازة بسلسلة افعال تطهيرية (استحمام ، صيام ، تزهّد الخ ...) ، ثم يجمعون العظام المحروقة ورماد الجثة ويطمرونها في حفرة يغطونها بالتربة او الحجارة او باقامة بناء للذكرى . وهذا ما يستدعي ايضاً حفلة تتبعها طقوس تطهيرية ، وهم لا يتناسون الاموات ، بل يقدمون لهم تقادم يومية و يقيمون لهم طقوساً احتفالية في بعض المناسبات (ولادة ، زواج الخ) . وتقلب طقوس الدفن هذه رأساً على عقب اشارات الطقوس العادية وتأخذ اللون الاسود لوناً اساسياً .

وهذا الوصف الموجز لحياة الاسرة والمجتمع يشير اشارات عدة الى قوانين وعادات يشترك فيها الهنـدو - اوروبيون في مناطق شاسعة جداً . وهناك خصائص تنسب الى ايران . وهكذا فان الحضارة الفيدية هي جزء من كل يصلها بحضارتنا ، ولكنها مع هذا تبدو منذ ذاك الوقت مختلفة جداً . ونلمس من خلال النصوص التي عرفتنا بمبادئها الأساسية كثرة في الطقوس السحرية وتقدمة الذبائح . وتكون هذه الطقوس لخدمة الحياة القروية او الرسمية وسداها ، وهي تهيمن عليها وتسيرها اكثر فأكثر نحو شكل محدود وتوجهها نحو قيود وقوانين تزداد مع الأيام دقة وحصرأ .

٣ - المدينة والريف

كانت مدن (يور Vill) الداذا تتألف من مجموعة منازل تملكها اسرة واحدة ، تتجسـد اور داخل حوش تحيط به الأوتاد . وقد تحمي ايضاً بعض هذه البيوت حفر او كوم من التراب . ولا يبدو بأن الآريين قد غيروا كثيراً في هذه المساكن بل اكتفوا على ابعاد تقدير بتطويرها وذلك

بتوسيعها وزيادة عدد اكبر عليها من البيوت والدكاكين والمباني المعدة لاستقبال الجمهور والجماعات وذلك تبعاً لنمو التجارة واطراد الحضارة .

وتبدو المباني بدائية إن نحن صدقنا المعلومات التي تقدمها لنا النصوص التي تشرح لنا هيئة هذه المساكن (شالا) ودور العبادة (غريها ، أغارا) . ويفرض هذا البناء القيام بأعمال تمهيدية عدة كاختخاب الارض استناداً الى نوعية التربة ولونها وطعمها ورائحتها . ويقرر يوم البدء بالاعمال تبعاً لتخمينات المنجم . وبعد ان ينتخبوا الموضع يحددونه على شكل مربع او قائم الزوايا ، ثم يحفرون الارض وينظفونها بمكنسة (ادوها) ثم يقسمونها بصورة تسمح للمياه ان تجري بموجبها بصورة طبيعية الى شمال غرفة النوم ، لذا يعدون بعض الحفر توصلاً لهذه الغاية . وأخيراً يحسبون الحساب لمطبخ في القسم الشمالي — الشرقي وردمة اجتماعات حيث يجتمع رب الاسرة مع ذويه او يستقبل الضيوف .

عندئذ يتبدى البناء . ولا يدخلون فيه آجرأ او حجراً ، أقله في الاعمال العظيمة . ويحفرون في أول الأمر تسعة ثقب (غرتا) يبلغ عمقها حتى الركبة يركزون فيها تسعة أعمدة (ستمها او ستهونا) من خشب الادمبرا . وتوضع ثمانية من هذه العمود ابتداء من الواجهة التي تشرف على الشرق وتتابع من الجهات الجنوبية والغربية والشمالية . ويحمل العمود التاسع اسم «العمود الملكي» (سثوناراجا) ، ويقام آخر ما يكون في وسط (؟) المنزل . ويختلف عدد الأبواب كما تختلف وجهتها ، ولكن لا يجوز قط ان يكون المدخل من الجهة الغربية ، كما يمنع منعاً باتاً ايضاً فتح بابين على نفس النمط حتى لا يستطيع المرء « اجتياز البيت بنظره » ، وأخيراً يعدون العتبة ويجعلون للأبواب دفوفاً ومصاريح . وتتكون الأجزاء المرتفعة من عوارض خيزران (فشا) . وتشد هذه العوارض بحبل الى أوتاد الأساسات ويوجهونها من الغرب الى الشرق في دور العبادة ، ومن الجنوب الى الشمال في المساكن الاخرى . وهناك حواجز (كدي) تفصل بين الغرف وقد تستعمل كجدران . ويستند قسمها الأعلى الى العوارض . ويحمل هذا الكل سقفاً من القش ينتهي على شكل ياقة (ستوبا) .

وفرش المنزل في غاية البساطة كما هو البيت . وهو يتألف خاصة من مقاعد تكون أحقرها مساند من عشب . اما مقاعد العبادة فهي من الخيزران . ويظهر بأنهم ركزوا فيها قطعاً من الخشب او شدوا اليها قديداً من الجلد . وقد يطلون أحسنها بالذهب ، ويصنعون بعض المقاعد ، إن كانت للآلهة او للملوك ، من الخشب وقد يحفرون عليها الرسوم . ولكن لا نجد في هذا العهد التنوع الذي سيصفونه لنا بصورة دقيقة في الأزمنة اللاحقة .

وبالقرب من المسكن يعدون مستودعاً للماء يسندونه الى اربعة حجارة . ويسكنون القطيع (البقر والثيران والعجول والاحصنة) في البيت او في اصطبلات مجاورة ويعودون به الى ذلك المكان كل مساء مع الاولاد . وهناك يسكن الخدم ايضاً .

وللدور العبادة هندسة شبيهة جداً بالهندسة التي وصفت أعلاه، ولكن هناك بعض الاختلافات مع هذا. وتعد هذه الدور لإيواء من يقوم بالطقوس وزوجته والجماعة التي يحتاج إليها، والحيوانات والأدوات الضرورية للعبادة. ويعدون في هذه الامكنة ردهة (سالا) للحضور، وأثراً لإعداد الأطعمة الطقسية التي يكون أساسها اللبن، وغرفة لزوجة القائم بالطقوس، وحجرات للاستحمام الديني تسورها حصر، وغرفاً صغيرة للتقادم، وجناحاً مخصصاً لطقوس الاموات، وحجرتين صغيرتين مربعتين متصلان معاً تصبح احدهما مسكناً لمن يقدم العبادة والثانية موضعاً للنضح، ثم رواقاً مخصصاً للعربات تحيط به حصر تمتد من عمود الى عمود؛ ومقابل هذا الرواق يبنون « المركز » (سادس) وهو قائم الزوايا تعلوه ثلاثة سقوف متتالية .

واحدى الحفلات الاساسية التي تحتم اقامة مثل هذا البناء الديني هي ذبيحة الحصان (اشفميدها) التي أتينا على ذكرها والتي يرتقي اصلها كما يظهر الى زمن اقامة الآريين في ايران، وقد يكون ايضاً اكثر قدماً. ولمراسيم مقدمة الحصان ابهة خاصة اذ لا يستطيع ان يقوم بها الا الملك، او احد افراد الكشتريا الذي تقبل البركة الملكية، او « سيد الارض ». والبناء قسمان عظيمان. فالجزء الخارجي قائم الزوايا ويحتوي على غرفة لمقدم الطقوس، وحجرة استحمام له، وحجرة اخرى لزوجته، وهيكل النار للسيد، وموضع تسند اليه الجرة الطقسية (أكها). وتحيط الاراتاد بالقسم الثاني الذي يحتوي على الهيكل (اغني - كشترا). وعلى طول جهة السور الكبير الشرقية ارتفعت احدى وعشرون ركيزة شدت اليها الحيوانات التي أعدت للتقدمة والتي انتخبوها من الماعز او البقر. وهيكل النار، كما الحال في سائر امكنة الذبائح، هو من الاجر ويسبب بناؤه - وغالباً على شكل عصفور - الى اقامة طقوس دقيقة جداً ابتداء من جمع الخزف حتى وضع النار باحتفال مهيب. ولهذا الهيكل خمس ركائز من الآجر (١٨ ٠٠٠ قطعة !) وقد علق على احد جدرانها رسم من ذهب يمثل رجلاً، وهذه ذكرى للذبائح البشرية القديمة .

وارتدى السكان في اول الامر جلوداً وثياباً من صوف، نسجوها من شعر الماعز. وسرعان ما اضافوا الى هذه الاقشة ثياباً من حرير وكتان وقطن وقنب وقد صبغت باللونين الاصفر والاحمر. ويتزينون بحلى يضعونها في جيدهم واذنهم وكاحلهم، ويدهنون شعرهم بالزيت ويستعملون المشط. وتجدل النساء شعرهن اما الرجال فيحبكون شعرهم بأشكال مختلفة وهم يدعون لحاهم تنمو مع انهم عرفوا الموسيقى وكان من المتداول جداً قصها او تخفيفها .

الديانة يعرف المرء مما تقدم الى اي حد تغلغلت الديانة في حياة الفرد والمجتمع الفيديين . وللقيام بأعمال العبادة على المرء ان يتقيد بقواعد وتقاليد في غاية الدقة - عدا العادات السحرية الكثيرة العدد . انها ديانة معقدة تعقيداً علمياً لا نجد فيها الا آثاراً طفيفة من عبادات « اولية » كالطوطمية او المبداء النباتي او الفتيشية . انها حلوية واسعة تخضع فيها الألوهية

لارادة الانسان الذي يؤثر عليها بأعمال الذبيحة او التقوى . وهي تستند على ميثولوجية تكثر جداً آلهة زونها . ان زعيم الآلهة هو اندرا الذي قد يكون في البدء حارس احدى القبائل المنتصرة . ويرمز الى طبيعته المحاربة والمظفرة الثور الذي يمثله . ويضيفون اليه صفة شارب السوما وهذا ما يشده بعري وثيقة الى الذبيحة .

والفجر هو الربة الميثولوجية ، تمثلها بقرات ترتدي ثوباً وهاجاً والجلد (ديا دس) والارض (برقوي) هما زوجان . وبقرهما نجد الآلهة الشمسية : سوريا وبوشان وفشنو وميترا وفرونا ، وهي آلهة قديمة العهد جداً تتصل اسمائها وخصائصها بآلهة الزون الايراني كما ورد في الافسته . وثبتت هذه الحقيقة بنوع ادق فيما يختص بميترا وفرونا . ويعتبر هذا الاخير حارس النظام ، وإله الكون وينبوع كل حياة وخير . وهناك بصورة ثلوية آلهتي الزوبعة ، رودرا وشيفا ، وقد تميل شخصيتاهما نحو الاتحاد فيحتلان اذ ذاك المنزلة الاولى وتظهر شخصية سيفاً بأشكال متعددة : وتزيد آلهة الرياح ، فايرو وفاتا والماروت ، وآلهة المياه والانهار - التي ترمز اليها الحية بعض المرار - هذه المجموعة الربانية التي يجب ان تدخل فيها ايضاً الشخصيات التي تمثل الاغني والسوما . ويطلقون على هذا الاخير لقب برجاباتي ، سيد المخلوقات الذي سيصبح بعد قليل وحدة خلاقة وحامية جميع الخلائق الحية لابل العالم بأسره . وهناك اخيراً جموع من الارواح الهوائية التي تكمل زون هذا العهد الاول : الربهو ، والاسورا ، والغندهرفا ، والابساسا ، والركسهاسا وكلها بقايا معتقدات شعبية تعادي الذبائح معاداة شيطانية . ولا تزال هذه الارواح ترافق حتى يومنا هذا الآلهة الكبار وتمتزج في كل الاساطير الهندية . ومنذ البدء ظهرت بمظهر الانسان ، وان هم ألصقوا بها مظاهر حيوانية ، يبقى سلوكها مع هذا شبيهاً بسلوك الانسان .

وقد ينتمي هؤلاء الاشخاص الى اساس من المعتقدات الهندو - اوروبية كما تعود اليه الاساطير التي يلعبون دوراً فيها . ولكن مقارنة هذه الامور مع المعتقدات الايرانية هي اشد ثبوتاً ، وهكذا نستطيع ان نقارب اسماء اهورا وميترا وفايو وفريثرغنا الايرانية مع اسماء اسورا وميترا وفايو وفريترهان الهندية . ويوافق ايضاً نبات هاوما السوما ونجد في كل من الديانتين عدداً من الافعال والتقاليد (عبادة النار ، تقدمية الحصان الخ) . وهكذا فبنسبة ما تتصل ايران بالوحدة الاوروبية وتمت الهند بايران يتأكد لنا بكل وضوح بأن الهند هي العضو الذي يقع في اقصى شرق المجموعة الاوراسية الشاسعة .

وتجاه هذه المعطيات الدينية التي تحتل المركز الرئيسي فقد قل جداً اهتمامهم بالمسائل الكونية ومصير الانسان . واعتبرت الفيدية مسألة الخلق امراً لا يرقى اليه الشك ولكنها لم تسع مع هذا لاختراق مراحل ، بل نظرت اليه كأنه عمل محترف او نتيجة مسألة تقنية ، او صنع فيسفاكرمان ، مهندس الكون . وتختلف كثيراً المعلومات التي تمت اليه وقد ينسبونه ايضاً الى ذبيحة بوروشا ، الكائن الكوني والاوولي .

اما مسألة جوهر النفس فهي مذكورة في اقدم النصوص بصورة بدائية ولن يتسع مداها الا منذ عهد الاوبنيشاد . انها مرتبطة بمشكلة الموت . ويقول الجميع بالحياة الاخرى كأمر طبيعي اذ تفتح امام الاموات ثلاث طرق : انهم يتحدون بالمياه والنباتات ، او يحيون بهدوء في مملكة يسيطر عليها ياما ، وهو اول من مات ، او اخيراً يعيشون في عالم واحد ولكن كل على حدة . ويظهر بان مسألة انتقال الانفس (سمسارا) الذي هو ضرب من التقمص لم تكن قد اصبحت عقيدة بعد ، اذ ان النظريات التي ستحظى بالكثير من الاهمية منذ القرن السادس ق.م. لم تكن بعد الا في مهدها . ونتيجة الذبيحة الفاعلة هي اهم بكثير في نظر هؤلاء الريفيين الذين يأملون بواسطتها ازدهار مزرعاتهم وهبوط الامطار المخصبة وتأمين حراسة مواشيهم ومختلف دلائل نجاح حياتهم الزراعية والصناعية . انهم يهتمون برفاحية الاحياء اكثر بكثير من اهتمامهم بمصير الاموات . ومع هذا يلمس المرء ايمانهم بمبدأ مكافأة الاعمال في عالم غير عالم الاحياء هذا : فالسما هي عالم الاعمال الصالحة ، والجحيم هو مستقر الاعداء والكفرة . وتجري الدينونة بواسطة ميزان او امتحان النار وتتحقق بالآلام وعذابات جسدية . ويدعون الموتى « الآباء » (بيتري) وهم يساؤونهم بالآلهة الصغرى ان هم احرقوا ودفنوا وفقاً للطقوس . وقد رأينا اعلاه بأنهم يقدمون لهم عبادة ضمن الاسرة لا بل وبعض الطقوس الاحتفالية ايضاً .

ومع الافعال الدينية نجد تقاليد سحرية تم انتقالها من الخلف الى السلف بصورة شفوية وسرية قبل ان تحرر نصوصها بزمان طويل ، هذا التدوين الذي لا يرتقي إلا الى نحو ٦٠٠ او ٥٠٠ سنة ق. م. وتعنى هذه التقاليد السحرية بجميع اعمال الحياة الهامة كتشييد المنزل ، وانتخاب الروحة ، وتوطيد الحب الزوجي ، وصيانة القطعان وتكثيرها ، والربح في الالعب ، والنجاح في التجارة ، والنصر في الحرب الخ... وهي تستعمل خاصة العبارات المنمنمة (منترا) ، والتحويل الى بعض الاشياء والحيوانات ، واخيراً تعاويذ وطلاسم تؤمن حياة طويلة ، وتشفي من الامراض او تقاومها ، وتبعد المؤثرات الشريرة ، وتأتي على الهموم والهواجس ، وتجلب محبة الشخص الحبيب الخ... وكثيراً ما يلجأون الى العرافة وهم يستنجدون لذلك بالاحلام ، واشارات النجوم ، والدلائل التي يلاحظونها عند تقديم الذبيحة (اتجاه دخان النار ، حركات الحيوان) الخ... ويدخلون في السحر بعض الضروب التقشفية كمرابعة التنفس ، والتسبب في العرق...

وفي عهد يحدونه تقريباً حوالي أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس ق. م. ظهرت عقلية جديدة او بالاحرى استتبت فكرة كانت قد تطورت تطوراً جيداً . وتحتل الذبائح والتقاد� المركز الرئيسي وترافق كل عمل مهم من حياة الفرد او المجتمع . فهي التي تحفظ النظام العام وتصبح الواجب الاول لكل انسان ، إذ تعد كدين يجب فرض تأديته نحو الآلهة . وهي التي تضفي على الكاهن سيطرة كلية . وللاحتفاظ بهذه السيادة يستغل البراهمة بعض الوسائل لإبعاد هجمات الشعب المحتملة والتي تساعد على حصر الامور المقدسة بيدهم : فهم يلجأون الى العبادات التقشفية ، وينسجون حول معارفهم جواً سرياً ، ويتخذون احتياطات دقيقة لإعلان

إيحاءات الآلهة ، ويبقون عمداً على الغموض في بعض الدروس التي يلقونها ، ويفرضون على تلامذتهم عدم البوح بالأسرار . ومع هذا فانهم يقاومون التعاليم الجافة التي تتعلق بالذبايح والتقدم ويتشبثون لأول مرة بالمبادئ الميتافيزيقية (الماورائية) ومع احتفاظهم بالزون الفيدي فانهم أوضحوافكرة الكائن الواحد ، وحدوده بقولهم هو الحقيقة الوحيدة في العالم وهو إله كلي القدرة يشمل سلطانه الكون بأسره . ويحمل هذا الكائن اسم براهمان (اسم نكرة) ، وتمت النفس الفردية (أتمان) الى الجوهر نفسه . وفي « الدروس السرية » او الاوبنيشاد تظهر هذه الوحدة الجوهرية بين النفس العامة او براهمان والنفس الفردية او أتمان : « وانت ايضاً تكون هو » تقول الاوبنيشاد للمؤمن محقة والحالة هذه سبقاً عظيماً في التطور الفلسفي . وتحدد هذه النظرية المسندة الى وحدة العالم المجسمة في وحدة الفرد المبادئ المنطقية الميتافيزيقية (الماورائية) وتتطلب من ثم حلولاً لمختلف المشاكل المطروحة ، لأنه إن كانت هذه الوحدة حقيقية فكيف نفس وضع الانسان وويلاته ؟ وتنسب الاوبنيشاد المصائب الى الفعل (كرم) . فضرورة القيام بالأعمال تولد الكنه الجسدي ، الذي بدوره ينتج العمل . وهكذا نجد حلقة تسعى الاتمان عبثاً للتخلص منها لتعود الى حالتها الحقيقية اي لتذيب نفسها في البراهمان . ولأول مرة يظهر سياق المبادئ هذه التي لا يبحثون لها عن سبب آخر وتصبح من ثم نظاماً : انه انتقال الارواح او التقمص (سمساره) الذي لن يعرف نهاية إلا بالتلاشي في الكل الإلهي (براهمان) . ولكن العودة الى البراهمان لن تتم إلا بعد عدد من الولادات المتعاقبة . وكل مرة تظهر على الجسم دلائل الموت تولد حالاً الاتمان مرة ثانية او تبقى منتظرة في العالم القمري الى ان تتلاشى كلياً فاعليتها فتستطيع إذ ذاك الاتحاد حوهرياً في البراهمان . ويعتبرون هذا الامر الخلاص النهائي (موكشا) . وهكذا وضعت المبادئ التي ستبقى الى يومنا هذا شغل الفلسفة الهندية الشاغل . ونتائج هذا النظام بالغة الأهمية : إذ بعد تقرير مبدأ تجزئة المجتمع الى طبقات يغدو منطقياً ان لا تنسب قوة الخلاص نفسها الى هؤلاء واولئك . وكيف نفسر هذا الفارق إلا اذا اعتبرنا بأن المقدرة على العمل قد ضعفت بدرجة مختلفة تقل أو تكثر : وان ولد شخص في طبقة البراهمة او فئة الكشترية فذلك يعني بأن اتمان قد أتمت عدداً من الولادات التي ضعفت من قوة الكرم وهذا يعني ايضاً بأنه يقترب من الخلاص النهائي . وهكذا تسعى براهمانية هذا العهد لتحديد معطيات مشكلة التقمص ، وتجعلها تتلاقى مع حالة اجتماعية مستقرة بدل ان تجد لها الحلول . ونتيجة لهذا التعليم يعترفون بأنه كلما هوى المرء في سلم الطبقات الاجتماعية وغدا من ثم أشد ابتذالاً واحتقاراً كلما صعب ان يتلاشى الكرم الذي يكبله في سلسلة الولادات المتعاقبة . وإن أتينا على ذكر حالة بعض الافراد اليائسة عرفنا بصورة افضل مدى الاصلاح الذي اقترحه بوذا شاكين . وقد ورد هذا الاصلاح في الوقت الذي ظهرت فيه بعض الانتفاضات في العقيدة البراهمانية نفسها . واعتبر شاكين ، كما اعتبر معاصروه ، بأن السمساره مشكلة أساسية إذ لا تمت فقط الى مصير الفرد بل ايضاً الى التكوين الاجتماعي بكليته . وهكذا اخذ بوذا يحل هذه

المشكلة بشعور انساني عميق ومتناهٍ في اللطف وهو يتعارض وقساوة البراهمة التي لا ترحم ، ويعتقد بأن قيمة الفرد لا تستند الى قوة افعاله بل الى مقديته الشخصية في مجال الرحمة والمحبة والشفقة . انه لا يهتم كثيراً للزون البراهماني ، وهو يبقيه على حاله للذين يبشرهم ، وهو لا يعنى إلا بألم الانسان ويسعى لإيجاد داء له . وهو يشرع بتفكير منطقي يستند الى امور يأنف منها كل كائن ذي احساس : الألم والموت . فالوجود ، كما يقول ، يحمل الألم في طياته ، وينتج الألم عن رغبة لا تتحقق ابداً ، وتتأتى الرغبة عن الجهل الروحي الذي يغرر بالمرء فيجعله يعتقد بأن الظاهر هو الحقيقة . وبالاتيان على هذا الجهل تتلاشى الرغبة وينعدم في الوقت نفسه الألم . ولا أهمية للموت ان لم تلتح عنه ولادة ثانية تعيد النظام الاولي الذي نجبر من جديد ان نأتي عليه حلقة حلقة . وللوصول الى الغاية القصوى ، « الزرفانا » ، الذي ينتهي بها كل شيء ، يجب ان نتبع طريقاً فيه التوازن الكلي الذي لا يقودنا الى التشفات المغالى فيها والتي يمارسها بعض النساك ، ولا الى الملاهي الجموح التي تعرقل سير الروح ، انه « طريق وسط » يطبقه كل على نفسه ويتطلب من رجال الدين اكثر مما يفرض على العلمانيين ، ولكنه يستند الى محبة الغير وعدم الاكتراث بالذات والشفقة نحو الجميع

وكان مؤسس العقيدة الجاينية معاصراً لهذا العهد الذي أحدث تجديداً في المجال الفلسفي . وقد أتى بمبادئه ، إن قيست بالتعاليم البوذية ، تظهر اقل تناغماً مع الرغبات الشعبية . والحلولية التي تشمل الطبيعة بأمرها هي أساس ديانة مهافيرا التي تستند اكثر ما يكون على اللاعنف (أهيمسا) ، ومنع إيقاع الضرر بالحياة مهما كانت مراحل تطورها .

وهكذا نرى بأن هذا العهد الذي يرتقي تقريباً الى القرن السادس ق. م. هو في غاية الاهمية لفهم الحضارة الهندية . وفي هذه الفترة بدأ المجتمع يستقر ضمن اشكال ستتسع فيما بعد ويستند عليها التطور اللاحق . وظهرت أسس الفلسفة الهندية نفسها التي ستضفي على الهند اهم خصائصها . واخيراً فان نشوء البوذية مهد طرق السيادة للعهد اللاحق الذي سيغدو فاتحة تطور فني وادبي يكون له صدى صاعق في كل مناطق النفوذ الهندي اعني آسيا بأجمعها تقريباً .

تبعاً لهذا التطور الديني والفلسفي بدأ يتسع مدى المعارف التي لها الصفة العالمية البحتة العارم مستمدة حيويتها من الرياضيات وعلم الفلك . وهكذا اذ كان الشعب يكرم زونا مؤلفه اغلبية من قوى الطبيعة المؤلهة اخذ « العالم » الفيدي يقسم الكون ثلاثة اقسام — ويميلون الى الاعتقاد بأن هذا التقسيم الثلاثي يتوافق مع وجهة نظر ايران الافستية . فالارض اولا ، وهي على شكل قرص الشمس وتستند الى المحيط ، ثم السماء او الجسد حيث تسبح الغيوم وتقيم الارياح وتقطن البروق ، واخيراً السماوات العليا التي تحتوي الشمس والقمر والنجوم والسيارات . وتكون الشمس ، وهي على شكل دولاب ، القوة الفاعلة الكبرى في هذه المنطقة ، وهي التي تخلق الليل والنهار والشفق والشهر والسنة ، وتسبب هبوب الرياح وتبقي على التوازن بين النجوم

وتضيء وجه القمر . وتدور دورتها على اثنتي عشر مرحلة ، يمثلها اثنا عشر حيواناً ؛ ويعبر عن هذا الامر تقسيم السنة الى اثني عشر شهراً او اثنتي عشر شمساً ؛ ويظهر جلياً بأن هذه المعاومات تعكس حقائق أشد قدماً ، اذ كانوا قد تحدثوا عن الاثني عشر شهراً شمسياً فهناك ايضاً ثلاثة عشر شهراً قمرياً . وحددوا ايضاً بدء السنة عند المنقلب الشتوي ، ولكن يحتفلون بهذا الحدث عند ظهور الربيع . وكان لهم في اول الامر ثلاثة فصول ثم غدت خمسة : الشتاء والربيع والصيف والامطار والخريف . وقسموا غالباً فصل الشتاء قسمين وعدوا كفصل سادس الفصل الذي يسبقه مباشرة ومن خصائصه الانداء .

وتعد ملاحظة كسوف الشمس وخسوف القمر متممة لمراقبة المنقليات والاعتدالات . ويعزون هذه العوامل الى اسباب خرافية . وهم يعرفون الكسوف والخسوف الكليين ووجود سبعة وعشرين كوكباً سياراً يضيفون اليها الشمس والقمر . وهم يكتشفون الجهات الاربع الرئيسية بواسطة آلة خصوصية هي الغنومون .

والدور الذي يلعبه عالم الفلك - وقد احتكر النساك هذه الصنعة - هو عظيم جداً اذ يشترك في كل الذبائح الكبرى : فهو الذي يعين الوقت المناسب لتقدمتها ، وهو الذي يحدد انواعها عند تبدل الفصول وعند عودة بدء السنة . وهذه الذبائح هي الاكثر اهمية ، خصوصاً ذبيحة الربيع التي تفرض تقدمتها استحمام المرء وفقاً للطقوس .

وقد عم معطيات علم الفلك مبادئ هندسية وحسابية مع انه من الصعب فرزها عن فيض المبادئ العلمية التي تحيط بها . اتسع كثيراً مدى اسماء الارقام وعرفوا نحو ثلاثين اسماً اساسياً ؛ واقرروا النظام العشري ، معتبرين رقم المئة كالوحدة فيه . ويبدو بأنهم اهتموا جداً لايجاد كيفية يقسمون بموجبها رقم الألف ثلاثة اقسام متساوية . ولكن ازاء هذا النظام الذي يستند الى رقم ١٠ نعرف انظمة أشد قدماً : خصوصاً وحدة الوقت الذي تتخذ لها اساساً الرقم ١٥ والتي تجزىء مدة النهار الى $\frac{10}{15}$ ($\frac{1}{15}$ = برانا) .

وعرفوا علم النبات ومارسوه اذ يمت بعمرى وثيقة الى العالم ، ومن الضروري الوقوف عليه لتهيئة الذبائح ، وتركيب الادوية الخ . ويعتبر علم النبات مدمكاً في صرح حب الطبيعة الذي لم تنفض قط الحضارة الهندية يدها منه والتي زادت مدى شروط الحياة الريفية او التقشفية . لذا نرى منذ هذا العهد القديم بأنهم اعاروا اهمية قصوى بتحديد الاسماء النباتية ، الاشجار والاغراس ، وسعوا جهدهم لتصنيف هذه الخلائق . وفي الحالة الاخيرة اخذوا بعين الاعتبار علاقة النبات بالمبادئ الكونية والدينية اكثر من نظرهم الى خصائصه الذاتية .

الفصل الثالث

خصائص الحضارة الصينية القديمة

على نقيض حضارة الهند التي كانت لها علاقات مع الغرب «فان الحضارة الصينية قد تطورت وهي تدير ظهرها الى عالم البحر الابيض المتوسط» (هنري مسباروا) . ولم يكن لها معه الا علاقات غير مباشرة بواسطة الجماعات السيبيرية وقد اتجهت عمداً وقصداً نحو المحيط الهادىء، هذا العالم الذي يختلف كلياً عن العالم الذي حقق تطورها الثقافي (التطور الاوروبي) .

وبدل طباع الهند المتعددة والمتقلبة والتي قد يناقض بعضها بعضاً تقدم الصين تلاحماً متيناً يستند بقوة الى وحدة سكان الصين العرقية . وغدا نظامها الاقطاعي ثم الامبراطوري عـامل وحدة ايضاً في ثقافتها ونظمها اذ فرض بشكل مستديم مجموعة متناسقة من الافكار والتقاليد .

وتهيمن الروح الصينية على هذه النظم والآراء ، وتحب هذه الروح الدقة - حتى عندما لا تستند الا الى أمور خرافية - وتقدرها حق قدرها في المكايل والموازن والمقاييس وفي التواريخ والارقام ، في المسافات وفي المبادئ العلمية . ويقترب منطقها من منطق حضارات حوض البحر المتوسط الابيض . فالنظام الصيني هو أساس الحرية ، والسيطرة على الذات - التي توافق معرفة العالم - هي في الحقيقة حكمة وطمأنينة في الحياة . وتعطى هذه الحكمة لمن عرف كيف يهذب نفسه ويتحرر بواسطة أمور تقليدية قديمة : اذ وراء واجهة أدبية وتقليدية تحصل حرية المرء بصورة سرية ولكن كاملة الاستقلال . ولا نجد حياة روحية متقلبة : اذ لا يعترف الصيني للآلهة بأي تفوق . فهي كائنات مجردة ، بعيدة قد تثير السخرية ، وذلك لأن الصيني بطبيعته يميل نحو الكفر بكل شيء وذلك بصورة سمجة وضاحكة . وهو يعتقد بأن لعبر الماضي وأمثلة الحدود المتوفين أهمية أكبر بكثير ، اذ للتجارب التي تمت في القرون الغابرة قيمة عظيمة - وهو يبني سلوكه وحياته على هذه السوابق « التاريخية » والجديرة بكل احترام . لذا فهو يعشق جداً كتب حياة الاقدمين وسير أعمالهم التي ، على غرار كتاب « حياة الرجال العظماء » لبلوترك ، تقوده في الحياة مهما بلغ عمره وجنسه وحاله ودوره في المجتمع ، وهو اذ يحذو حذوهم يكون

(١) يستند هذا الفصل على نطاق واسع الى نظريات، مرسل غرانه .

أكيداً بأنه يبقى جزءاً من كل ينتمي اليه ، اذ الفرد بعرفه لا يعيش وحيداً ، وهو لا ينفصل عن الطبيعة ولا عن المجتمع الانساني ؛ والهدف الذي يصبو اليه هو رفقة حسنة وصداقة — تستندان الى الآداب واللباقات — تؤمنان سلاماً سمحاً يغدو وليد النظام . وتتلخص غايته بأمرين : فهم الغير والوفاق معه . وهكذا يحصل حسن تفاهم الانسان مع أخيه ومع الطبيعة ، هذا التفاهم الذي ينتج النظام الخير . ومع هذا لا نجد صلابة ، ولا قوانين دقيقة متحجرة ، ولا موجبات مطلقة : بل أموراً حسية ولكنها غير محددة حتى تأخذ الحياة مجراها « وتلعب لعبتها » من خلال اللباقات والتقاليد .

وتهيمن فكرة « اللعبة » على النشاط الفردي والجماعي . وعليها تستند الطقوس التي تجدد ، دون انقطاع ، مختلف مراحل الحياة الجماعية واطوار التاريخ وتقلبات الزمن . وتتناغم هذه الفكرة مع قواعد علم الطبيعيات الصيني الذي يغدو العالم الانساني صورة طبق الاصل عنه .

ويستند علم الطبيعيات هذا الى مبدأين اساسيين : الوقت والمدى . ويقسم هذان اقساماً مساوية لهما في الجوهر . فالمدى ، اي الارض ، هو محصور ضمن مربع ، ويجزأ اجزاء مربعة الشكل ايضاً : الحقول والمدن وهيكل التراب والمجالس والاملاك الملكية والامبراطورية بأسرها . ويوجهون هذا المربع بشكل يتلاقى معه كل ضلع مع احدى الجهات الرئيسية وأحد الفصول . ولكل ضلع لون معين : فهو اخضر شرقاً (الربيع) واحمر جنوباً (الصيف) وابيض غرباً (الخريف) واسود او اصفر شمالاً (الشتاء) . ويفصل المدى ، الذي عينوا له هذه الحدود وتلك الجهات ، اجزاء اجزاء يصبح وسطها المبدئي من املاك العاهل . وتعرض هذه النظرية بمثل القواعد الاجتماعية وتحفظ تناسق الدولة في مختلف اجرائها : وبموجب طقوس محددة ومناسبة يحتفظ الوسط وحده بقوة المدى كله ، وعلى الاجزاء التي على الجوانب ان تأتي في أوقات معينة -- بواسطة ممثلها -- لتجدد قواها لدن المدى الوسطي . لذا وجب على حكام ورؤساء المقاطعات ان يأتوا كل سنة الى العاصمة يقدمون تقارير عن حكمهم وادارتهم الى الملك او الامبراطور . وحسب تقليد فديم بطوف الامبراطور مره كل خمس سنوات على المقاطعات ، وليوافق بين الرمن والمدى ينبع الامبراطور في عمله هذا نظام سير الشمس (شرقاً فجنوباً فغرباً فشمالاً) ويتوقف في كل جزء حسب احد فصول السنة الذي يختص به .

ويشبه نظام الزمن نظام المدى هذا . وكما يجب تجديد القوى في مجال المدى ، يجب ايضاً الاحتفاظ بحياة الزمن وذلك بتجديده . وتوزع مواعيد هذا التجديد على مدات غير متساوية ، ولكنها تتبع كلها نظاماً لا يتبدل : فقيام ملك جديد يلزم انشاء عهد جديد تعرف نهايته وتتوقع عودته ويعى طقسياً نهاية تقويم أتى الزمن عليه وبدء تقويم جديد يدوم ما دامت تلك السلطة قائمة . لذا تعطي الطقوس الملك او الامبراطور سلطة احياء الرمن والمدى لصالح اتحاد المقاطعات والمجتمع الفدرالي . وتشعر هذه المقاطعات وتلك الجماعات بضرورة تجديد دوري لا يستطيع

بدونه أي نظام ان يستمر . فالوقت اذن هو الهدف الطبيعي لكل أمر يريد الاستمرار ، وهذه رغبة الصينيين القصوى .

لذا لا تغدو العاصمة مركز الامبراطورية المحيي فقط ، بل أيضاً المقام الوحيد للمدى والزمن . وتصبح مقدسة (حسب بعض التقاليد) ان كان لها « بيت التقويم » (مينغ تانغ) يمثل شكله بصورة مصغرة العالم : فهو يتألف من قسم أساسي مربع يمثل الارض وسقف من العشب على شكل نصف دائرة يمثل السماء . ويقم فيه الامبراطور الحفلات لافتتاح الفصول والشهور المتعاقبة . ولهذا الغرض يدخل تحت القبة السماوية ، ثم يتجه نحو الشرق وهو يرتدي اللون المناسب ليتمم الطقوس التي تجدد الزمن في وسط المدى نفسه .

ونجد مبدأ الوسط هذا في المدى والزمن أيضاً ، والى هذه العقيدة تستند سلسلة المراتب التي اكتسبت أهمية كبرى في الصين الامبراطورية . ولكن هناك أيضاً مبدأ التعاقب والتناقض الذي ينعكس حتى على المعارك الطقسية والرقصات المتناقضة والذي قد يرقى الى تقليد اكثر قدماً . ويقوم مبدأ التعاقب هذا على أمر قوي يليه أمر ضعيف بصورة تتوافق مع مسافة ملأى وأخرى فارغة . واذ نظم الصينيون العالم على هذا الشكل ادخلوا في الاجزاء الخمسة كل الطبقات الاجتماعية مع فضائلها وخصائصها ، والظروف ، والمواقع ، واشكال الفن الخ ، فحققوا والحالة هذه لكل القوى الفاعلة نظاماً لا شائبة فيه ، وقد اخضعوا هذه القوى الى ترتيب اعتبروه في غاية الدقة . وكان تلاحم هذا التقسيم المنطقي كافياً لتأمين فعالية كاملة لكل ما حواه .

ويلاقى التوافق الذي يهيمن على المدى والزمن جواباً له في نظرية « ين » و« ينغ » الشهيرة اللذين يجتمعان في « الطاو » او العالم . والى هذه النظرية يستند كنه الفلسفة الصينية . وقد فتح تحديد هاتين الكلمتين المجال واسعاً امام تفسيرات شتى . ويبدو بأن المعلومات التي تشير ان اليها موجودة في مجموعة المعارف التي تسيطر عليها فكرة التناسق . ولكن لم تظهر الرموز التي تجسدها - والتي اخذوها كما يبدو من مادة علم الفلك - قبل القرن الثالث ق.م . ومع هذا غدا لهاتين الكلمتين قبل هذا العهد بقرنين خصائص تناقض بعضها بعضاً ، كما هو ثابت في « شي - كينغ » مثلاً . ولا يجب ان نتقيد في هذا المجال بتحديد مجرد او شديد الدقة يمثل لنا اموراً متناقضة « ين » اي الشمال والظل والبرد والجنس الانثوي الخ ، وينغ الذي يمثل الجنوب ، والامكنة المشمسة والحرارة والجنس الذكر الخ) ولكن علينا ان نترك ليونة كبرى في هذا المضمار ، « لعبة » تتناسب مع التفكير الصيني . اذ لا يفرق الصينيون بين وبينغ عن الحقائق الاجتماعية التي توحي هذه الرموز الى ترتيبها (مرسيل غراه) . وقد لا يكون في الامر حقيقتان تتناقضان بل رمزان متحدان يلخصان في كنهها بقية الرموز ، و « عنوانان اساسيان » يحتويان على كل شيء آخر . وهذا ما يفضي عليهما القوة والسلطة اللتين يتمتعان بهما اذ يرمان وحدهما الى جموع المتناقضات والى التناسق الذي يكتف العالم . ولا تجعل منها صفاتها التي تبدو على

طرفي نقيض عددين متنافرين ؛ بل يؤمنان بالعكس اكتمال كلٍ تختلف اجزأؤه جوهراً وكنها .
ويبدو الين والينغ ، وهما صلة الوصل بين المدى والزمن التي تظهر على شكل (S) كأنها مبادئ
تعاقب الفصول ؛ هذا هو الاساس الجوهري للحياة الاجتماعية بكاملها . ويعود الى الرئيس ان
ينشط تعاقبها ، وينعش قواها العجيبة ، وينظم فاعليتها الشئائية . ويمثل الين والينغ ، وهما
الغريمان المتضامنان ، اختلاف الاجناس واتحادها ، اي اساس النظام الاجتماعي ومن ثم النظام
العام . فهما يعبران في الوقت ذاته عن تضاد وحدتين وعن كل يكونه نصفان . وهما لا يتعارضان
إلا ليتم احدهما الآخر ويكونا وحدة مستقلة .

وهذه الوحدة هي الطاو (الطريق ، الاتجاه) ، مبدأ نظام ذي فعالية عظمى ، وقوة
تنظيمية ؛ ولا تحتكر المدرسة الطاوية هذه النظرية بل هي ملك التفكير العام . وينتظم كل شيء
في هذا المبدأ كما هو جار في المدى والزمن : ويحتوي الين والينغ ، وهما القسمان الكبيران ،
تقسيمات عدة ثانوية لكل منها خمسة اوستة حقائق تتجراً بدورها حسب الجهات الاربع والسمت ،
فيقابل الشرق مثلاً الربيع واللون الاخضر وعنصر الخشب والعلامة الموسيقية الخامسة ، ويقابل
الوسط منتصف الفصول وعنصر التراب والعلامة الموسيقية الاولى الخ . وتجتمع هذه الاجزاء
المتضامنة وتنتظم معاً لتعطي الطاو وحدته . وهكذا يفسر النظام الكوني وكل مظاهر الحياة
مع اسبابها الموجبة . ونجد ايضاً من ثم حلاً لكل وضع وسلوك وتبديل . ويقرر الطاو التفاصيل
كما يحقق المجموع ، فنظفر من ثم بالنظام الذي يهيمن على القوى العقلية الماعلة كما يسيطر على حياة
العالم ، هذا النظام الفعال والشامل الذي يمثل هدف النفسية الصينية الأعظم . والطاو ، وهو
الطريق والسبيل ، على علاقة وارتباط مع الطرق العظيمة الموجهة التي تنتهي الى وسط العاصمة ،
اعني الى بيت التقويم (مينغ تانغ) او الى المامود الذي يصبوه على مفترق الطرق الرئيسية ،
حيث - عند الظهر - لا يسمع اي صدى ولا يعطي ظلاً اي جسم وإن انتصب مستقيماً . وهذه
الصورة للوحدة المركزية التي تطفو على كل الخلافات هي ، حسب الخرافات ، صورة العالم حيث
ترتفع في وسطه شجرة عجيبة ؛ والامبراطور الذي ينتصب مستقيماً في وسط العالم هو المحور
ويسيطر على الطريق (الطاو) حيث تلتقي السماء والارض . وان وجدنا في هذه النظرية بعض
المبادئ التي لاقيناها في الهند القديمة ، نربأ أن الصين توصلت الى السوط النهائي على مراحل مختلفة
وبفضل قياس حسي اكثر مما هو منطقي .

وداخل هذا البناء المتناسك أكثر الصينيون من التقسيمات التي تختلف رتبة ومنزلة وذلك
بواسطة جداول وفهارس تحير مقاييس المقارنة فيها الفكر الغربي ولكن تستوجبها فكرة وحدة
العالم الدقيقة وتضامن الأمور الذي يلعب دوره في هذا المجال . وتجسد العقلية الصينية مداها
الرحب في هذا المضمار .

ان معظم المعلومات التي نهثر عليها هنا وهناك والتي تتعلق بهذا الطور القدم
المظان والمستندات تأتينا من النقوش المحفورة على العظام أو فلوس السلاحف أو قطع النحاس ،

أو من نصوص الأدب الكلاسيكي الكونفوشياني . وترتقي أقدم هذه النصوص الى القرنين الحادي عشر والعاشر ق . م . ولكن لا يعود أصدقها من الوجهة التاريخية إلا الى فترة تتراوح ما بين سنة ٧٧٢ و ٤٨١ ق . م . ونجد معها غالباً تعليقات خاصة في القرنين الثالث والثاني ، وعلى أساس هذه المعطيات سينسج بلا ملل فلاسفة وأدباء القرون القادمة دون ان يزيدوا إلا القليل القليل من الجديد . وتحتوي الكتب المدرسية (كينغ) مجموعة كبرى من المعلومات المختلفة عبروا عنها بأساليب لا تقل عنها اختلافاً : أمور سحرية في « كتاب التغيرات » (بي - كينغ) ، وخطب سياسية وقرارات وتفاصيل عن سير الأعمال الادارية في « كتاب التاريخ » (شو - كينغ) ، واغاني حب وترانيم دينية وقصائد طقسية وانشيد للأعياد في « كتاب الشعر » (شي - كينغ) ، وسرد تاريخي في « كتاب الاخبار » (تش ، وان تس ، اياو وحرفياً فصول الربيع والحريف) الخ .

وهذه المستندات ادبية في مجملها ولها مسحة اكايدمية ورسمية . وهي لا تدع المجال الا قليلاً للتفكير بالاساس الشعبي ، وردة فعل الجماهير ، ولا تنقل اليها الا مظهر الحضارة الرسمي ، وكل ما يميز الارستوقراطية الصينية بما فيه مغالاتها في الدقة وتمسكها في المسائل الشكلية وحيائها المصطنع الذي يعتبر اللياقات قوانين وقواعد . وفضلاً عن المعلومات التاريخية الدقيقة جداً التي يقدمها لنا « كتاب التاريخ » فإننا نستطيع ان نستخلص فكرة شاملة عن عقائد وتقاليدهم للتشاور . لذا نرى في « كتاب التغيرات » ظهور مبدأي ين وينغ اللذين يكونان العالم او الطاو . وفي « كتاب التاريخ » تأكيد مبدأ الموافقة بين الانسان والعالم بواسطة العناصر والجهات الرئيسية الخ . والطقوس ، اساس الحضارة الصينية ، هي في عهد غوها وتطورها ، ولن نوضع لها نصوص كتابية الا ما بين القرن الرابع والقرن الاول ق . م . في ثلاثة كتب رئيسية هي « طقس التشاو » (تشاو لي) ، وي لي ولي كي . وترتقي هذه الكتب الى عهد لاحق بكثير لكونفوشيوس ولكنها تعبر عن تعاليمه .

وتهيمن على عهد التشاو شخصية كونفوشيوس (حقيقية كانت او حرافية) وخلفائه كمثيوس (مونغ تسو) الذي عاش في القسم الثاني من القرن الرابع ق . م . وسيون كوانغ ما بين سنة ٣٠٠ و سنة ٢٣٠ ق . م .) وتتطور الآداب الكونفوشيانية مستندة الى الطقوس وساعية لنشر وتدعيم السلام في المجتمع وفي نفوس الافراد على حد سواء . وبالمقابلة نرى مبادئ الفلسفة الطاوية تعرض في كتب ثلاثة تظهر في القرنين الرابع والثالث ق . م . وهي : كتاب الطاو والطو (لاو - تسو او طاو - طو كينغ) وكتاب تشوانغ تسو ولي تسو . وتدعم هذه الكتب سلسلة من المنشورات العقائدية التي تسعى لاحياء السلطة الحكومية بواسطة قانون جزائي . ويعتني كتاب كثيرون ينتمون الى مختلف العقائد الدينية « مدرسة القوانين » هذه ، التي يمثلها خاصة كونغ - سوان ينغ (ويعرون اليه كتاب تشوانغ تسو) ويين ون تسو وهان في تسو .

وفي الوقت ذاته نجد عدة مجار فكرية أخرى : مدرسة موئي (بين سنة ٤٨٠ وسنة ٤٠٠ ق. م.) ويعتقدون بأنه مؤلف كتاب موتسيو ، ومدرسة « الحكماء » المدعوة مدرسة الاسماء ومدرسة السياسيين ، ومدرسة الانتقائيين ... وقد قالت كلها بالاصلاحات ، وبالرجوع الى الماضي السحيق او بالقيام بثورات . وهي تسند كل مبادئها الى السياسة والهموم المادية اكثر بكثير من اسنادها الى عقائد فلسفية بحتة .

وبواسطة هذه المجموعة الادبية ، المرسومة او المنقوشة ، نستطيع ان نعيد بناء صرح الحضارة الصينية . ولا يخلو هذا الامر من الخلل اذ يستعين بمظان ومستندات عقلية وارسثوقراطية اكثر مما يجب ؛ لذلك لا نستطيع الاعتماد الا بصورة جزئية جداً الى الاشياء والآثار المادية .

اللغة الصينية لغة ذات مقطع واحد ويعبر عنها باشارات او « حروف » .
وتختلف اللغة المحكية اختلافاً كلياً عن اللغة المكتوبة إذ تخضع كلياً لكيفية النغم في اللفظ . وهي فقيرة جداً من حيث الحروف الصوتية ولكنها على نقيض ذلك دقيقة جداً من حيث استعمال النبرة . وتلاقى في حالتها هذه صعوبات كبيرة للاعراب بصورة واضحة عن الفكرة المجردة . انها لا تليق قط للامور العلمية ولا تصلح لتحليل الافكار بل تجيد الحقائق المعاكسة . وهذا ما يفسر لنا جزئياً بعض تطورات الآداب الصينية التي سهلت هنا وتعثرت هناك . ولكن يستحيل فهم كنه الحضارة الصينية إن جهل المرء تماماً بعض خصائص اللغة الصينية . ويسهل هذا الامر عندما نعرف مثلاً بأن نفس الكلمة ، « وين » مثلاً ، تبدل بالوقت ذاته على الكتابة والرسم والادب والحضارة .

ومع كل هذه الصعوبات بقيت اللغة الصينية لمدة طويلة لغة حضارة زاهية ووسيلة لنشرها في جزء فسيح من آسيا .

لمحة تاريخية
منذ زمن متوغل في القدم — لا نستطيع تقديره بالتدقيق — بدت البلاد الصينية وكأنها قسمان مختلفان : جزء من السهول المزروعة والتي تستثمرها جماعات من الفلاحين ، وقسم من المناطق الغفل حيث يعيش صيادون على شيء كثير من البداوة . وإن نحن قدرنا بأن حكم السلالات الأشد قدماً يرتقي الى ما بين القرنين العشرين والخامس عشر ق. م. استطعنا ان نعزو الى هذه الفترة المصنوعات الخزفية المزينة « بالمشط » التي توافق بعض الموافقة زميلاتها في روسيا الجنوبية او سيبيريا . وحوالي سنة ١٧٠٠ (?) تظهر لنا بعض المصنوعات الخزفية الأكثر تطوراً والتي عثر عليها في هو — نان (ينغ — شاو وكين — ونغ — تشاي) تقدماً حضارياً محسوساً وذلك نسبة لتحسينها التقني ورسومها ، مع ان تلك الحضارة لم تزل في طورها والخرافي السابق للتاريخ . ويعود هذا العهد كما يعتقدون الى حكم سلالة « هيا » . وتعقبها سلالة شنغ (ما بين سنة ١٥٢٣ و١٠٢٨ تقريباً ؟) . وفي فجر حكم هذه السلالة تبرز مصنوعات من الخزف (دعوها مصنوعات بان — شان في كان — سو) وقد بلغ فن تزيينها دقة وجمالاً لا نجد لها

مثيلاً في المناطق التي نستطيع ان نقارن بين مصنوعات الخزفية في الطور الذي سبق التاريخ وبين الخزفيات الصينية التي تتحدث عنها كبلاد اوكرانيا ورومانيا . وبعد فترة (حوالي القرن الرابع عشر ق.م.) تظهر فجأة عاصمة شنغية : نغان - ينغ الواقعة في أقصى شمال مقاطعة هونان الحالية (حوالي القرن الثاني عشر ق.م.) ولها جميع الخصائص التي تتميز بها حضارة كثيرة التطور الى مبانٍ فسيحة ، وقبور ، وآثار قرابين ، وطقوس سحرية ، وأدوات عبادة ، وفنون استثمار النحاس والرخام واليشب ، وكتابات . ويضعنا فجأة علم الآثار وجهاً الى وجه أمام احدي عواصم الشنغ الاخيرة ، إذ لم يعثر بعد على العواصم التي سبقتها في الزمن والتي ترتقي الى حوالي ثلاثة قرون سابقة . وهكذا دون ان نقف على جميع مراحل تكوين حضارة تسترعي الانظار ، نجتاز بصورة مفاجئة من مرحلة مصنوعات خزفية ترتقي الى ما قبل التاريخ الى مرحلة استعمال مواد صلبة كالرخام واليشب والعظم استعمالاً دقيقاً ، ثم الى فن استثمار النحاس الذي يتطلب أدوات خصوصية ويفتح مجالات رحبة عدة . وبصل بعدئذ الى فن اللايقوات يدور كلياً تقريباً على اشكال حيوانية ويدل ، لكثرة الألغاز التي يثيرها ، على رموز ميثولوجية ، ثم اخيراً الى نوع من الكتابة التصويرية . سيتولد عنها رويداً رويداً نظام « الاحرف » الصينية . ومثل لنا نغان - ينغ حقاً ذروة الفن الصيني القديم بما تقدمه لنا من نقوش رخامية وادوات نحاسية طقسية دقيقة الصنع وفائقة الجمال : ولن يتوصلوا قط في الازمنة اللاحقة الى روعة هذه الادوات النحاسية ، كما لن يتوصلوا إلا بعد مرور قرون عدة الى مثل هذه المقوس الحجرية الماثلة . وتتفق هذه الاكتشافات مع التقاليد الصينية التاريخية التي تبرز بكل وضوح أبهة وعظمة بلاط سلالة الشنغ .

ولكن لا تكتسب المعطيات التاريخية قوة ووزناً الا مع بدء حكم سلالة التشاو . وسمحت سيول المهاجرين الصينيين الذين تقدموا رويداً رويداً بفتوحاتهم نحو الشمال والعرب والجنوب ابتداء من السهل الكبير ، نقطة انطلاقهم ، الى استقرار الاسر الارستوقراطية استقراراً ثابتاً . واستوطنت أسرة التشاو في وادي «وي» العالي في شن «ي» (العاصمة تسانغ - نغان) . وعاشت الحياة الاقطاعية المعروفة في ذلك العهد تسيورها ضرورات الانتاج الزراعي والدفاع المسلح عن مناطقها ضد هجمات القبائل شبه البربرية التي كانت تحيط بالاراضي الزراعية . وفوت حياة التقشف والجد هذه أحد أفراد اسرة تشاو (وفا - ونغ) فتار على آخر ملوك الشنغ في القرن الحادي عشر ق . م . بعد ان لمس منه ضعفاً ، ثم هاجمه وطمر به وأعان نفسه ملكاً .

وغدا هذا الحادث فجر عهد سيدوم قرابة ثلاثة قرون تسيطر أثناءها السلالة الجديدة على مصير وتطور الحضارة الصينية . ولم يحدث هذا التطور دون عائق اذ لم يحصر التشاو بين يدهم السلطة المطلقة : لقد حكموا فقط أقوى مملكة في عهدهم واحبروا على خوض معارك دون هوادة ضد الامارات الثلاث الاسد قوة التي كانت تنفاسم بقية المنطقة « المتحصرة » . واتبعوا حياة

إقطاعية تشبه كثيراً الحياة التي ستهيمن في الغرب أيام نظام الفروسية . واصبحت تلك الحروب حروب إقطاعية ضد إقطاعية ومعارك إقطاعية ضد إقطاعية تتبعها سكينه التابع في بلاط السيد المتبوع في وسط أنيق يشبه بلاط القرون الوسطى .

وسنة ٧٧١ ق . م سقطت عاصمة التشاو بيد « برايرة الغرب » أثر هجوم صاعق شنوه على حين غرة . واجبر التشاو على التقهقر نحو هو - نان وفقدوا في مفرهم الجديد صفاتهم الحربية



الشكل ٣٤ - الصين حتى سقوط سلالة الهان

وشكيمتهم التي جعلت منهم أشهر زعماء الصين القديمة واستسلموا لسلطان الامراء الإقطاعيين . واستمروا طويلاً على هذه الحالة كملوك خاملين . ومع هذا ولد (٥٥١ - ٥٥٠) في مملكتهم وإيام حكمهم الفيلسوف العظيم كونفوشيوس (الذي غدا لتعاليمه الصدى البعيد الذي نعرف) . وسنة ٤٤٠ انقسمت سلالة التشاو الى دويتين تتحكمان في وقت اخذت فيه سائر الامارات تتقوى ، خاصة امارات تس إين وتشو وتسين التي كانت تخضع للتشاو او تقترب منهم . وتعددت الحروب الداخلية او المعارك التي خاضتها اماره ضد الاخرى وهكذا جزئت التسين

وقامت على انقاضها ثلاث امارت اخرى،التشاو والهان و«وي». واستمرت هذه الحالة السياسية
القلقة والمتقلبة وفقاً لاهواء واقدار القتال حتى سنة ٣٣٥ ق . م . عندما حقق الامراء
الاقطاعيون الأشد شكيمة تجزئة المملكة واتخذ كل منهم لقب « الملك » : وهذا هو بدء عهد
قيام «الممالك المحاربة» (التي وجدت بصورة عملية منذ سنة ٤٨١) . وهذا العهد هو فترة حروب
متواصلة ، وغالباً غير مشرفة جندت لها الجماهير الشعبية كما جندت فرق المرتزقة ، ولكن
بدأت مملكة تسين منذ سنة ٣١٠ توحيد البلاد لمصلحتها . وقد انتهت عملها هذا سنة
٢٢١ : « وقد اسست الامبراطورية الصينية في نفس الوقت الذي حققت فيه الوحدة
الصينية » . (رفيه غروسه) .



الفصل الرابع

الحضارة الصينية أيام الشنغ والتشاو

١ - عهد الشنغ

مع انه يستحيل علينا تحديد المراحل الزمنية لهذا العهد فقد حصلنا على بعض التفاصيل التي تصفه لنا بصورة قد تكون مجدية . وتتألف الصين في هذا الطور من بقعة متحضرة وسط شعوب من البرابرة . ومن المحتمل بأن شعب هذه الجزيرة قسم قسمين كما سيحصل في الزمن اللاحق . وعلى رأس المراتب يوجد الملك (ونغ) الذي ينظم في الوقت ذاته الامور الدينية والمسائل المدنية والادارية . ولكن من المحتمل بأنه كان لموجباته الدينية ، كما حصل في ازمة ما قبل التاريخ - الافضلية على مهامه المدنية . وعاش الملك ، وهو شخص مقدس ، في قصر منفرد ، يقوم باتمام الطقوس الموسمية والرسمية ، اذ يستند اليه نظام العالم الطبيعي . وقيم المقر الملكي ايام الشنغ ، كما كان ايضاً عهد التشاو ، في احدى ضواحي العاصمة الجنوبية - الغربية . ومع هذا يظهر بأن الملك سكن في العاصمة . وكانت سلطته مبدئياً مطلقة . ولكن بقي الملك مع هذا اساس نظام سياسي محدد ينقل الوزراء وكبار القواد والموظفين اوامره ، وذلك نسبة الى عزله المقدسة التي فرضت قديماً وسطاء بينه وبين شعبه . ويقدم الملك كل الذبائح الكبرى الى الالهة او الجدد الاموات . وهو الذي يستشيرهم بواسطة السحر عن الحصاد وتربية المواشي وهبوب الارياح وهطول الامطار الخ ، وقد يقوم ، عندما يستلم زمام السلطة ، برقصة تذكر بانتصارات جدد الميثولوجية .

ويعيش الملك في قصر قائم في العاصمة . ويحيط به وزيره الاول (كنغ - شه) وكبار قواده الذين ينقلون اوامره وقراراته ، ويسهرون على تنفيذ اصول اللياقات اثناء الاحتفالات الكبرى ، ويعدون ويحفظون المستندات الملكية ، ويقومون ببعض الطقوس ، ويسهرون على الكنز الملكي ويحفظونه . وهناك موظفون آخرون يساعدون كبار رجال الادارة هؤلاء . فهم

الذين يسهرون على تهيئة الطعام للقصر ، ونظافته وامنه . ويوجد بخدم (سُو) مخصصون لخدمة نساء القصر .

ويهتم الملك بالدرجة الاولى بالانتاج الزراعي ، فيعين مفتشوه البذار ويراقبون الحصاد . ولا تختلف حياة الفلاح اختلافاً كبيراً عن الحالة التي ستصبح عليها ايام حكم السلالات اللاحقة ، أو تلك التي ستبقى عليها حتى عصرنا الحاضر . ولكن مع هذا يجب الاقرار بأنها كانت اكثر بداءة . واشهر مزاروعات الحبوب استناداً الى طبيعة الارض هي الجاورس والحنطة والارز . وتحمي الاراضي المزروعة كوم من التراب . ويسكن الفلاحون في مغاور يحفرونها في الصخور وقد تلامس اللس (الارض الرسوبية) في المناطق الشرقية . ولم تكن البيوت - ان كانوا قد عرفوها في ذلك العهد - الا من السياح ، ولا تستطيع مقاومة تقلبات الطقس . واعتنوا بتربية الثيران الداجنة والاحصنة . الخنازير والخراف ، التي كانت تقدم ذبائح .

ويظهر بأن الحرب والقنص كانا من امتيازات النبلاء . واستفتى الملك فلوس السلاحف المقدسة ليعرف اذا كانت الارياح ستعرض اعماله هذه او اذا كان عليه ان يتخذ قراراً تفرضه الحوادث . ويتألف الجيش من الخيالة وعجلات الحرب والمشاة ، وكان هؤلاء من الفلاحين بينما انتمى اولئك الى النبلاء . ويذكرون جيشاً يعد ثلاثة آلاف رجل ، وفرقة من الخيالة تنقسم الى ثلاثة اقسام يضم كل منها مئة خيال . والاسلحة على شيء كثير من الاختلاف والتطور ، يصنعونها خاصة من النحاس اذ ان الحجر واليشب اصبحا يستعملان فقط للأسلحة الطقسية . ولن يظهر الحديد الا في أواخر عهد التشاو . ومن الأسلحة التي يعددونها السيف والقوس (التي تصلح لاطلاق النبال او الكرات) ، والسهم والفأس والحربة . . وكانت الورقة من جلد . وتعاطوا القنص في الادغال التي تحيط بالاراضي المزروعة ، ويقومون به بجيش من المساعدين يقتلون او يقبضون على النمر والفهد والهر البري والسبتي والدب والثور الوحشي والفيل والكركدن والذئب والخنزير البري والضبع . وكانت هناك طرائد اقل شراسة تسرح زرافات زرافات كالایل والوعل والسعدان والارنب والعصفور . . .

وان احتلت الزراعة المركز الاول في الحياة الصينية كما تثبت ذلك السؤالات والاجوبة المنقوشة على الفلوس او العظام السحرية ، فان الآثار القديمة التي وصلتنا تثبت ايضاً قيام بعض الفنون التقنية ومن ثم بعض المهن التي لا نعرف عنها مع هذا اي ايضاح . فهم يشتغلون العظم والعاج ، ويستثمرون وينحتون اليشب ، ويحفرون على فلوس السلاحف وقرود الكركدن والعظم والعاج واليشب والنحاس والخيزران . وقد توصلوا الى إذابة النحاس واعطائه الاشكال التي يريدون ، وعجن الخزف وشيئه واعطائه مختلف الهيئات .

ومن الصعب جداً ايضاً الوقوف على المعتقدات التي سادت في ذلك العصر ، مع الجهود التي بذلت في هذا المجال منذ اقدم الازمنة . ولكن باستطاعتنا التأكيد بأن المعلومات التي وصلتنا والتي تتعلق بالفلاحة والمحراث والطقوس والموسيقى والتقويم واعمال المساحة هي قريبة جداً

من الحقيقة ، ولكنها ستتبلور أكثر أيام التشاؤ . لذا سنأتي فيما بعد على دراستها .

٢ - الحضارة الصينية أيام التشاؤ

ان توسع المجتمع أيام التشاؤ والتطور السياسي والاداري الذي حصل بصورة سريعة في بعض الامارات (كإمارة تس ين مثلاً) منذ أواخر القرن الخامس يجعلان كل وصف يعطى بصورة قاطعة أمراً تحكيمياً . وعلينا ان نفهم بأن كل ما سنأتي على ذكره يختص بصورة أولية بالمناطق التي خضعت مباشرة للإدارة الملكية ؛ وسنقدر من ثم دون صعوبة مدى ما نحن مدينون به لكتاب هنري مسبرو « الصين القديمة » .

أصبح القنص والصيد وسيلتين للهو والتسلية أكثر مما هما وسائل لكسب العيش ،
المستندات ولكنها يعودان مع هذا بالربح الوفير . ويستعملون للقنص الحصان . أما الأسلحة فهي القوس والنبال ذوات الرأس المعدني والشاك والمصائد . والطريدة متنوعة جداً : الرّهُو والتدرج والخضاري والأوز البري والساوى والارنب وعناق الارض واليربوع والضبع والسنور البري والوعلة والاييل والخنزير البري والكركدن والثور والنمر الخ . والقنص هو لهو النبلاء والسادة . وقنص الحيوانات المفترسة هو لهوهم المفضل ، وهو من الألعاب الرياضية الشرسة يقومون به جماعات جماعات وينهونه بإقامة اعياد يفرضون فيها أكلاً وشرباً . ويعتبره الفلاح عمل سخرة يقوم به لإعالة سيده .

أما الصيد فهو أقل ذكراً من القنص ويستعملون له القراطل والشباك الصغيرة والكبيرة . وهم يعددون نحو عشرة اصناف مختلفة من الاسماك التي تستعمل للغذاء .

ولكن تطفو الزراعة على كل نشاط آخر . فان الانتصار على الارض ، وقد اشتد الصراع ضدها بكل شجاعة منذ عهد لا يدرك بداهة عقل ، لا يتيح حتى ذاك التاريخ تخصيص هذه المنطقة لنوع من المزارعات ، كما سيحدث فيما بعد : فالمنطقة الواحدة تنتج كل ما يحتاجون اليه . ومع تطور الجماعات الريفيه كثر عدد الاصناف المزروعة ، واتسعت اعمال قطع الغابات ، وتزايدت افعال تهيئة الارض للزراع بواسطة الماء والنار . وهم يستعملون المحراث والمنجل والفأس ، وكلها من معدن ، وخاصة المجرفة . ويسيرون في زراعتهم على المبدأ المتبع في زراعة الخضار إذ ان الحقول هي قليلة المساحة ويستثمرونها كما يستثمرون البساتين . وتنضد المرووعات حول الارض المرتفعة التي يسكنونها ، تجاور البيت المزارعات الأكثر قيمة : بستان الخضار ثم الاشجار المثمرة ، وعلى بعض المسافة حقول النباتات الفسيحة وأهمها القنب ، ثم الخضار الجافة والحبوب ، وأخيراً في أقصى جهات الارض المروية حقول الارز .

وأضافوا الى مزارعات العهد السابق (الجاورس والحنطة والشعير والارز) الذرة والكوسى والخيار واللوبياء والحمص (وهم يعرفون الاحتفاظ بهذه الاصناف يابسة) والبطيخ والثمار التي تؤكل ، يضيفون اليها العنب البري والبصل والثوم وبعض انواع الاعشاب التي يستعملونها

كتوابل . وتنمو في البساتين شجرة التوت وأنواع عدة من الأشجار المثمرة (كأشجار الكمثرى والكرز والدراقن والمشمش والسفرجل والخوخ والكستنا والعناب ، وقد أدخلوا هذه الثمار الثلاث الأخيرة في بعض ألوان الطعام) . واعتنوا بصورة خاصة بشجرة التوت وغرسة القنب وهما منابع مرابح . وتستثمر شجرة التوت لتربية دود القز التي تغذي خيوطها المستخرجة أيام الحريف أعمال النسيج طوال أسابيع الشتاء . وهم ينسجون القنب في الربيع . ويستثمرون أيضاً بعض أصناف أشجار الغابات (كأشجار البندق والحور والسنديان والدردار ...) . ويعتنون بتربية المواشي ، ولكن يظهر بأنهم لم يوحّدوا قطعاناً كثيرة العدد . وقد تنحصر حيوانات هذه الاقطاع ببعض الأحصنة والثيران والخراف . ولا يعتمدون على هذه الحيوانات لحر العربات إذ يقوم الإنسان بمعظم الاشغال مستعيناً بالسلال والقفف ، مع أنهم عرفوا العربات . ويربون حيوانات داجنة للتغذية . كالحزير والارنب والدحاح والعصافير . ولا بد من اضافة الهر والكلب والوعل الى هذه الاصناف ، وحتى الفيل ايضاً في مناطق الجنوب .

ويختلف المنتج الزراعي باختلاف المناطق ، وتبعاً لخصب الارض وأهمية اليد العاملة وحسن مناخ الفصول . وتنتج بعض المقاطعات الارز بكميات هائلة ، كمنطقة تش رو ، وتستثمر غيرها للحبوب ، كمنطقة تسين التي تستطيع ان تمون ، كما يقال ، المناطق الاخرى في السنين العجاف . وهم يعتنون اعتناء خاصاً بأعمال الري التي تكون عنصراً أساسياً لهذا الازدهار .

وتعود ملكية الاراضي الى السيد . ويستغل الفلاحون هذه الاراضي لصالح المتبوع . واسناداً الى التقاليد الصينية ، التي تعكس كما يبدو الهدف الاعلى ، يوزعون الحقول على الفلاحين ، فتنال كل اسرة حقلاً . ولكل من هذه الحقول مساحة مربعة محددة ، تؤلف تسعة منها مجموعة واحدة . وتستثمر ثمانية من كل مجموعة لإعاشة ثماني عائلات ، اما منتج الحقل التاسع (ويعتبر من الممتلكات العامة) الواقع في وسط الحقول الاخرى والذي تعني به معاً العائلات ، فيخصص للملك او للسيد ويعتبر محصوله كضريبة .

وفي الصيف يسكن الفلاحون على الاراضي المزروعة في اكواخ موقته . وعند اقتراب الحصاد يشددون الحراسة ضد السارقين والخنازير البرية والطيور . إذ للمحصول دور رئيسي في هذا العالم الاقطاعي ، فإن أتى جيداً يعتبرونه علامة نصر أكيد ، وإن كان رديئاً جلب الفساقة والجوع وزعزع نظام المملكة . ويكون هذا المحصول الهدف الذي يرنو اليه كل جيش مطفر .

والصناع والتجار قليلو العدد ، ومع هذا فهم اساس الحياة الصناعية التي عرفت حتى في هذا الطور بعض الازدهار ، ولكنها ستغدو ، في وقت لاحق ، منافسة خطيرة للزراعة . ويحتل النسيج ، الذي تقوم به النساء ، المركز الاول : فيصنعن اقمشة حريرية وقد يطرزها ، وقطعاً من القنب ، وثياباً من خيطان النباتات التي تعترش . وعرف القوم كيف يصفرون الاشواك والاقصاب والقراص والتبن ، ويستعملون الحيزران ويستثمرون الجلود . ويصنعون من الخشب والمعدن

والخزف والحجر واليشب ادوات الفلاحة والعجلات والاسلحة (كالحراب والدبابيس والأقواس
والسهام والتروس وسلام المراكب الخ .) وأدوات الموسيقى التي يكثر عددها حتى في ذلك العهد
(كالطبول المختلفة الانواع والمزامير والأعواد والطنابير والأجراس والصنوج الخ .) وأدوات
متنوعة جداً للاستعمال (كدبابيس الشعر والخارز والمقاص والملاعق والفؤوس والمراجل
والطنابجر الخ) . وهم قد استعملوا النحاس إذ لم يظهر الحديد إلا في أواخر عهد التشاو .

وغدا استثمار الأملاح والمعادن اساس ثروة بعض المناطق ، خصوصاً مقاطعتي تسين
وتسين . وازدهرت أيضاً تجارة هذه المعادن .

ومع هذا لم تتسع التجارة إلا في وقت لاحق . وكان أساسها مبدأ الشراء والبيع او المقايضة .
وقد أتوا على ذكر الارباح التي بلغت مراراً حداً عالياً إذ يؤكدون وجود تجار أثرياء ، صاحبوا
الامراء الاقطاعيين ، وعاشوا حياة بذخ ورفاهية ، يرتدون الثياب الحريرية المزركشة ويتنقلون
في عربات يزينها الذهب واليشب . وجرى التعامل التجاري بواسطة نقد كان ، ايام التشانغ ،
عبارة عن نوع من الأصداف ، ثم اصبح قطعاً عظيمة ، الى ان غدا من النحاس وكانت وحدة هذا
النقد اولاً «وان» (نحو ثلاث اواق ؟) ثم - أيام التشاو الشرقيين - الكين (نصف اوقية ؟)
وقد جعلوه سبائك تزن كل منها عشر اوقيات او اثنتي عشرة اوقية (؟) . ولم يسكوا النقود
الاولى بأشكال مختلفة (كالسيف والجرس الخ .) إلا في أواخر القرن الخامس .

ومع نمو واطراد التجارة غدت مشكلة ايجاد طرق المواصلات وصيانتها هم الادارة الاكبر .
ولا تسير فقط على الطرق قوافل التجار بل أيضاً العربات التي جهزت خصوصاً لتنقل الجمهور .
ولم يستعملوا الانهر للتنقل قبل قيام الدول المحاربة . وكانوا يعبرون مجاري المياه سباحة او عند
المجازات . وبواسطة وسائل النقل هذه تبادلت مختلف المقاطعات المواد الغذائية والاولية كالسمك
والمالح والنحاس والذهب والجلد والخيزران والخشب والزنجفر والحبوب .

ومع الزمن وتحسين سبل المواصلات وازدهار الصناعة اصبحت التجارة تنافس بصورة جدية
الزراعة . ومنذ القرن الخامس ق. م. يلاحظ المرء سعي حكام المقاطعات لحفظ التوازن بين
الزراعة والتجارة وميلهم المتزايد لمساندة سكان الأرياف وحمائيتهم وتأمين الأرباح التي
تعود اليهم .

وتشمل الحياة الاقتصادية التي أتينا على وصفها الضرائب والأرباح والخسائر التي تسببها
الحروب . وهو يختلف باختلاف المناطق ويزداد كلما ابتعد المرء عن العاصمة . وتسدد هذه
الضريبة اكثر الاحيان باعطاء مواد طبيعية ، بينما تسدد الضرائب والمكوس في الاسواق بدفع
قطع نقدية نحاسية . وقد تبلغ اكثر الضرائب فداحة ربع المنتوج ، ولكن لا يصل منها الى
الخزينة الملكية إلا جزء ضئيل بسبب بطء المواصلات وكثرة عدد الوسطاء الاداريين بين العاصمة
والمقاطعات . ويفرض ذوو السلطة الاقطاعيون ضرائب مباشرة ، كما تجبى مكوس من أثاث

السلع المتبادلة كالسمك والملح . وتجني الدولة علاوات اضافية من الغابات والاملاح والمعادن التي تحتكرها . ومع هذا يبقى ريع الخزينة أقل من الربيع الذي كان من الممكن ان يحققه نظام يقوم على المراقبة الدقيقة والجدية . وان هم أمنوا ما تطلبه الحياة العادية فان المصاريف الاستثنائية تجدد خزينة فارغة .

المجتمع يظهر أن المجتمع ، أيام حكم التشاو الغربيين ، لم يقسم فئات محكمة الوضع كما سيجري ذلك بصورة مطردة عندما سيسعون الى تحقيق الوحدة السياسية وتثبيت السلطة المطلقة . فهناك طبقتان كبيرتان تضم أفراد المجتمع : طبقة الفلاحين السفلى ، وطبقة النبلاء العليا (شي Chie) وهم الأشراف بالوراثة . ولكن سرعان ما تشعبت الطبقتان فرقاً فرقاً ، تبرز الواحدة زميلاتها حقوقاً . ففي المقام الدون ، نجد العبيد والفلاحين ثم ترتفع تدريجاً الى العمال الصناعيين والتجار فالأدباء فالموظفين فالوزراء فالموظفين الكبار فالنبلاء فالأمراء حتى الامبراطور الذي يسيطر على هرم الرتب .

ان أساس المجتمع هو دون شك عامة الشعب . وللغامة هذه نظام يختلف في كل شيء عن نظام النبلاء . فالفلاحون ، وهم يشتغلون سوية ويعيشون معاً ، لا يتمتعون بشخصية ما ولا يأتون بمبادرة ما . انهم تباع الارض التي يستثمرون ، وينتقلون معها من يد الى أخرى دون أن يصبحوا لها مالكين بالمعنى الحصري . انهم لا يتبعون طقساً بل يخضعون فقط للتقاليد .

ومن المفروض ان يحني الفلاح من عمله كل ما يحتاج إليه ليقوم بأود أسرته ويبيع ما يفيض في اسواق المدينة . وهذه هي علاقته الوحيدة مع العالم الخارجي والادارة . ومع هذا فلا تختص هذه العلاقة بالفرد بل بالطبقة التي ينتمي إليها والتي لها وحدها شخصية معنوية أمام رجال الحكم والادارة . ان حياته رهن بالفصول . ففي الشتاء ينروي الفلاح بحكم الضرورة ويعود الى قصبته مع أفراد أسرته ليعيش ضمن اطار بيته وبستانه الصغير ويقوم بالأعمال التي يتطلبها المسكن . وعند حلول الصيف يترك الفلاح قربته ويقيم مع امرأته وأولاده على الأرض التي يزرعها ، وقد حمل أدواته الضرورية وأشعل ناراً جديدة في بقعة حددت خصوصاً لهذه الغاية في الحقول . ومع الحياة هذه في الهواء الطلق تنكش على نفسها نظم حياة الاسرة إذ يخضع كل شيء عندئذ للحياة الجماعية .

ولا يعرف أفراد العوام هؤلاء الزواج (هوان Houen) ، إذ لا طقوس خصوصية لهم ، بل موافقة الرجل على العيش مع المرأة معاً (بن Pen) . ويجري بهذا الأمر عادة في الربيع ، وذلك استناداً الى رأي الوسيط ، في وقت يقيمون فيه اعياداً كبيرة تسعف اقامة الفلاحين على الارض التي سيستثمرونها . وهذا الاتحاد هو حر طليق من كل شرط ، يثبتونه ان تحقق الأمل بانجاب البنين ، أثناء حفلة عمومية .

وتختلف الطبقة الاجتماعية الاخرى ، فئة النبلاء ، عن العوام اختلافاً أساسياً بمسألتين

رئيسيتين : فلكل من افراد هذه الطبقة جدود ، وهو ينتسب الى اسرة . وتنتج عن هذه الحقيقة سلسلة اختلافات جوهرية : فالجد ، وقد كان رجلاً نبيلاً ، او بطلاً او امبراطوراً ، امثلك دون شك ارضاً او قام بوظيفة رسمية . واستناداً الى هذا الواقع فهو قد أدّى طقوس العبادة واعطي اسم جماعة . لذا غدا من الطبيعي ان يصبح أحفاده اعضاء في قبيلة ما ، فيقيمون طقساً ، ويعطون ارضاً او تسند إليهم وظيفة . وبينما يضيع الفلاح وسط جماعة لا اسم لها ولا خصائص ، يصبح للفرد النبيل شخصية محددة ضمن عشيرته .

ولهذه الجماعات ايام التشاور ، مهما كان اصلها ونسبها ، خصائص جماعة دينية تحرم على افرادها كل علاقة زواجية فيما بينهم . ويبدو بأن عدد هذه الجماعات كان محدوداً ولم يتجاوز المئة . وكرّمت كل جماعة جِداً كان بعرفها إلهاً او بطلاً (إله الجاورس ، إله قمة الشرق الح. .) . وكان لبعض من هذه الجماعات جدّ واحد . ونجد في هذه العبادات التي قدموها للجدود ، وقد يكونون بعض المزارع حيوانات او نباتات كالجاورس ، آثاراً قديمة جداً ، ولكن يصعب الوقوف عليها في هذا العهد .

وان كان التقسيم العشائري يقيم من النبلاء جماعة دينية فان التقسيم الذي يسيطر على تنظيم الاسرة والفرع والبيت هو تقسيم اداري ومدني بحت ويعتبر فرعاً من الاول . ان رأس البيت او الاسرة هو السيد المطاع : فهو الذي يقرر الزواج أو يبطله والذي يقبل او يرفض الأولاد ؛ وهو يمثل بشخصه كل أفراد المجموعة ، ويقاضيه ويعاقبهم مباشرة دون ان يتدخل قضاء الدولة . ولا يخضع لسلطانه فقط افراد الاسرة المقيمون معه بل ايضاً الذين استقروا بعيداً .

وامتياز النبلاء الأساسي هو تملك الارض ، إن أعطيت لهم على سبيل الاقطاع او الملك الصرف . والنبلاء فئات عدة تتفاوت أوضاعها ان كانوا نبلاء ريفيين او قواداً كباراً او موظفين اداريين . وهناك مبدئياً خمس درجات بين الاشراف توازي تقريباً فئات من بدعوم اليوم دوق ومرّكيز وكونت وفيكونت وبارون وتختلف مساحة ممتلكاتهم باختلاف ألقابهم . ومع هذا تختلف ثروتهم المادية باختلاف الظروف . فقد نجد نبيلاً وافر الغنى يملك أراضي تدر عليه أرباحاً طائلة ، كما يلاقي شريفاً ذا ثروة بسيطة او حتى فقيراً جداً يجد نفسه مضطراً لخدمة سيده الذي يدافع عنه ويقدم له الغذاء وذلك بدل طاعته وخضوعه له : فهو يسير معه الى الحرب ويسلك في كل شيء كأنه تابعه ، ويقوم بوظائف مختلفة في بيت متبوعه كأن يصبح امير أخوره او سائق عربته او احد جنوده او حارس ثروته او احد طهاته الح . وقد يختار بعض النبلاء القليلي المال أعمالاً اكثر حرية (كمعلم في مدرسة قروية او كاهن او ساحر او منجم او طبيب الخ . . .) كما يتعاطى بعضهم التجارة او يصبحون وكلاء عند كبار اصحاب الأملاك ولكنهم يبقون ، مهما أصبح مركزهم ، أهلاً لتبوء اعلى الوظائف ولا يختلطون قط مع طبقة العوام إذ للنبلاء فضيلة

(طاو - طو) تعد اساس قوة وثروة الرئيس وهي التي تحيي بصورة معاكسة - ونستطيع ان نقول بالعدوى - البلاد بأجمعها من طبيعة الى حيوان الى انسان ، وتحفظ لكل شيء الازدهار وتبعده عن الوهن وحتى الموت . وهكذا يستند كل امر الى السيد وروحه هذه ذات المفعول السحري وهو يعد اساس هذا المجتمع الاقطاعي . انه يختصر في ذاته كل القوى الفاعلة ويحددها بواسطة الطقس .

ان امتلاك الاقطاع التي يقرر الملك تقليدها ، يجعل من النبيل أميراً او تابعاً لسيد الملك او لأمير آخر اكثر قوة. وتجري هذه التولية أثناء احتفال مهيب وتعطي النبيل حقوقاً وموجبات جديدة فيما يتعلق باقطاعه وأتباعه وسيدته .

ان الملك هو في الوقت نفسه أمير الأمراء ، والنبيل الاول ، وابن السماء الذي وكل اليه سيد الاعالي مهمة حكم الشعب النبيلة والابقاء على نظام العالم الطبيعي إذ تعادل فضيلته المهمة المسنودة اليه . وهكذا يتم التوازن ما بين سلطاته الكهنوتية والسياسية . فهو يجدد الوقت في كل شهر ، ويقر القوانين ، ويسمح بمقابلته ، ويلغظ الاحكام الخ . والسلطة الملكية ارثية يرثها الابن عن الأب . ويعتبر ابن الامراة الشرعية البكر الوارث القانوني . وعلى النساء ان ينظرن ويقررن هذا الامر قبل حدوثه إذ لا بد من إقامة طقس خصوصي حتى ينقل اخو الملك المتوفى او ابن شقيقته ولو بصورة رمزية السلطات الى الوريث صاحب الحق .

مع اتساع مدى الزراعة والتجارة والمدن غدا من الضروري ان تصبح الهيئة الادارية الادارة ايام التشاور اكثر تنظيماً . وشبهوا الادارة هذه بهرم يسيطر على قمته الملك ووزيره الاول الذي لا يقل عنه بالواقع سلطة ونفوذاً خصوصاً اذا كان الملك ضعيف الارادة . ثم يلي الملك ورئيس وزرائه الوزراء الثلاثة الأكثر أهمية وهم وزراء الزراعة والحرب والاشغال العامة . ولوزير الزراعة دون شك الأهمية الكبرى في بلد زراعي وحضري في الدرجة الأولى . وهو يدير جهازاً محلياً يقرر بكل دقة أعمال الحقول ، وكيفية تصريف المحاصيل ، وبصورة أعم حياة الفلاحين أنفسهم ، وزواجهم وأعيادهم واجتماعاتهم . ويعتني وزير الحربية بكل الشؤون العسكرية كتجنيد الجيوش ومواسم الصيد والاستعراضات والتدريب الحربي : وهو يراقب مستودعات الذخائر والعربات والحيول وزرائب الأحصنة الأصيلة . وهو الذي يمثل معنوياً الامبراطورية اذ يُحمل بكل عظمة وقت إحراز النصر ويرتدي ثياب الحزن ان اندحرت جيوش الدولة . ولا يهتم وزير الأشغال العامة إلا في الحقول وما يعود اليها . فهو الذي يقيس الحقول ويوزعها ويقيم الطرقات ويسهر على صيانتها ، ويبني القنوات والسدود الخ . وعلاوة على هذا فهو يهتم أيضاً بشؤون العمال الصناعيين .

ويلى هؤلاء الوزراء ثلاثة وزراء آخرين يعتنون بأمور الملك الخصوصية وبالقضاء الجزائي . ويهتم الاول بصيانة القصر الملكي وتموينه وتأمين سير الخدمة فيه سيراً حسناً ، وبالأموال الملكية

ويعتني الثاني بصورة خاصة بشؤون العبادة ويراقب الكهنة والمنجمين والسحرة والأطباء الخ . ويعود الى مدير الشؤون القضائية الجزائية تطبيق القانون وإنزال العقوبات . وتتراوح العقوبات ما بين أحكام الموت ووشم الوجه مروراً بقطع الاعضاء التناسلية والأرجل وجذع الأنف . وهو لا يتعاطى القضاء بصورة شخصية إلا متى عوقبت الجريمة بالموت . ومع هذا يمكن استبدال كل عقوبة بدفع بدل حسب معدل مقرر يبلغ ألف سبيكة نحاس لإنقاذ حياة الرجل . ويحيط بهؤلاء الوزراء (وقد أطلقوا عليهم منذ القرن الرابع ق . م . اسم « الوزراء الستة ») عدد كبير من الموظفين . وهكذا غدا هيكل رجال ادارة البلاد معقداً جداً .

ولا تقتصر بطانة الملك على من ذكر ، اذ نجد ايضاً مجلساً يحمل اعضاؤه ألقاباً شرفية دون ان تحدد مع هذا وظائفهم . وعلاوة على ذلك فهناك وظائف في القصر الملكي وهي غالباً ما تكون إرثية يسعون اليها بكل نشاط اذ تقرب أربابها من الملك : رئيس الخوان ، وأمناء سر المال ، وكبير الكتبة الخ . ولا يخلو نظام الادارة هذا من بعض الشوائب . وخطؤه الأكبر انه يعهد بوظائف مختلفة الى الاشخاص انفسهم . لذا - عندما يضعف الملك - تتفكك عرى هذا النظام وتعمق الهوة التي تفصل بين الواقع والمبادئ .

وتقسم ممتلكات الملك الى مقاطعات (هيانغ) يحكم كلا منها قائد كبير (تي - فو) . وتتجزأ هذه المقاطعات بدورها الى محافظات فنواح فديريات فمدن فقرى يتولى شؤون كل منها موظفون تقل رتبهم بصورة تدريجية . وينتخب هؤلاء الموظفون من الاشراف والنسلاء المحليين ، وهم يهيمنون تماماً على حياة الريف والمدينة فيقدمون الذبائح المقررة وينظمون اعمال المساحة واحتفالات الحياة الشخصية ، ويشرفون على عائدات المحاصيل الزراعية ويستوفون الضرائب . وهم يقدمون سنوياً تقارير لرؤسائهم عن اعمالهم ، ويوجد مفتشون يراقبونهم ويضعون التقارير عن كيفية ادارتهم ، ويساعدهم جيش من الموظفين ذوي الاختصاص يكون الشعب على اتصال مباشر معهم كالمشرفين على المستودعات والجباة والموزعين الخ . ولا تقتصر مهمة رجال الادارة هؤلاء على تصريف شؤون البلاد المدنية بل تتعداها الى الاعمال القضائية يساعدهم فيها قضاة محليون . وتخضع القضية التي تتجاوز صلاحياتهم الى سلطات قضائية اعلى . وتضاف اخيراً الى وظائفهم المدنية والقضائية هذه مهام حربية اذ يصبح رجال الادارة هؤلاء في زمن الحرب تحت تصرف وزير الحربية . والتنظيم الحربي هو صورة طبق الأصل للنظام المدني وقد كان ذاك مثلاً لهذا في القرون الغابرة .

ويتألف الجيش من رجال تجبر الأسر على تقديمهم (وعلى كل اسرة ان تقدم محارباً) . ويبلغ عدد الجيش (١٢ ٥٠٠) جندي يقسمون خمسة فيالق ، ويحزأ الفيلق الى خمس كتائب والكتيبة الى خمس فرق ، توافق كل منها منطقة . وللممتلكات الملكية ستة جيوش ، ولا يحق للاتباع إلا حشد ثلاثة جيوش او جيشين او جيش واحد . ويشمل كل جيش ، علاوة عن فرق

الخيالة ، عربات قتال تجرها الخيل . وسلاح المعركة هو الحربة والقوس ، وتعطى الأوامر بواسطة الطبول والاعلام . ويجهلون خطط القتال ، التي لن تعرف التطور والرقى إلا مع ظهور الممالك المحاربة ، عندما يحل الخيالة مكان العربات . ومع هذا فللجيش منزلة رفيعة في حياة الرجل النبيل ؛ ففي هذا العهد الاقطاعي حيث تلعب المعارك والفتوحات دوراً عظيماً غدت الحرب عمل بطولة شريفة تخضع لقوانين المدينة التي تنعكس أنظمتها على كيفية ترتيب المعسكر والتي توافق سلسلة درجاتها الادارية مع سلسلة المراتب العسكرية .

ولكل امارة واقطاعة نظام اداري يشبه نظام ادارة الأملاك الملكية . وسعى ملوك التشاو لجمع هذه المناطق وتوحيد حكمها : لذا قسموا البلاد الى تسع مقاطعات (تشاو) يعين على رأس كل منها حاكم (بو اومو) يمثل السلطة الملكية ويحافظ على الأمن ويصدر الأحكام القضائية . ويكون عادة هذا الحاكم نبيلاً من المنطقة ، ويجبر بصفته من أتباع الملك المباشرين ان يقدم للعاهل الخضوع في اوقات محددة ويؤدي له ضريبة عينية - تتكون عادة من المنتوجات التي تتفرد بها المنطقة - ويقدم له العون في زمن الحرب .

وهذا النظام هو بعيد عن الكمال والدقة إذ يسعى غالباً هؤلاء الحكام ، وقد غدوا بمعزل عن المراقبة الملكية ، للتحرر من السلطة المركزية لا بل للتحالف ضدها احياناً . ولن تجدي مساعي التوحيد الاولى حتى ولو قام بها ملك متجبر وقوي الشكيمة إذ ان عزلة كل مقاطعة واستقلال الحكام وصعوبة المواصلات تؤلف عوامل تساعد الانتفاضات الفردية وتحول دون قمعها . ويقوم الأمراء انفسهم بأعمال الأمن ويفرض بعض منهم قوانين أشد صرامة من قرارات الحكم المركزي ، ومن أشهر هؤلاء الكونت هياو من تسين في القرن الخامس الذي أقام ، بمساعدة وزيره يانغ ، حكماً مطلقاً تعد اصلاحاته امراً ثورياً بالنسبة الى السلطة المركزية . ففي كل ناحية من نواحي الصين الغربية المتمدنة ظهرت اصلاحات مماثلة تهدف الى تعديل النظام الاجتماعي وتحسين انتاج الارض وتوزيع المهام الادارية وتأمين موارد منتظمة . وهذه هي تباشير سقوط حكم التشاو وسيادة الممالك المقاتلة .

ينقسم رجال الكهنوت فئتين لكل منها منزلة على طرفي نقيض مع الاخرى .
رجال الكهنوت ويتخذ افراد الفئة الاولى من النبلاء ويتفرعون طبقات عدة فمنهم الكهنة الرسميون والمصلون والمنجمون والسحرة ومفسرو الاحلام والمظاهر الطبيعية والفلكيون ، وتشمل الثانية رجالاً ونساء ينتمون عادة الى فئة اجتماعية وضيفة لذا أعدوا محتقرين يتعاطون السحر ويكونون كمن اعتراهم مس شيطاني .

وينتمي عادة رجال الكهنوت الرسميون الى أسر تحتفظ بكل ضراوة بامتيازاتها وخصائصها ويتدخل هؤلاء الكهنة في كل المناسبات الكبرى ، ولكل منهم اختصاصه الدقيق ولا يستغنى قط عن خدماتهم . فهم الذين يديرون اعمال الذبائح ، ويتلون الصلوات التي تكرس الاتفاقات

والمعاهدات، ويراقبون حفلات الدفن، ويتنبأون عن مصير الحرب والصيد والزرع، ويفسرون الاحلام والعلامات والرقى (بواسطة اسقاط السلاحف كما جرى ايام الشانغ) ، ويسدون النصح للنبيلى أو للملك عند اتخاذ القرارات العويصة .

ولرجال الكهنوت هؤلاء (وقد غدت بعض وظائفهم وراثية) عدد من المساعدين الثانوين يقومون بدور ما في اتمام اعمال العبادة : الموسيقيون والكتبة والخدام والموظفون ، ولكل اختصاصه ويرتبط بفئة معينة من فئات رجال الكهنوت .

ولا يؤلف رجال البيعة طبقة كهنوتية مع انه لا غنى عنهم نسبة لما يقومون به من وظائف، وان تمتعوا ببعض النفوذ في الدواوين فقد ألحق كهنه املاك الملك بوزارة الشؤون الدينية واعتبروا كموظفين . ولا يبدو بأنهم خضعوا لقوانين حياة معينة إذ لا يميزهم شيء عن النبلاء . إنهم رجال مهنة يتوارثون فنهم اباً عن جد .

ويختلف عنهم كثيراً السحرة (هي) والساحرات (وو) الذين ينسبون الى العوام او الى الطبقة النبيلة وتغدو مهنتهم كأنها دعوة ورسالة وليس إرثاً . والأطباء ومستدعو الامطار ومخرجو الأرواح النجسة الح، هم وسطاء ينشئون علاقات مع الآلهة والأرواح فيصبحون مطية لهم، لذا يتخذهم الآلهة والارواح أداة يعملون بواسطتها وينطقون بلسانها أثناء حفلات الاستلهم التي تشمل حركات تمثيلية ورقصاً وأناشيد لم يعدوا العدة لها ، يقومون بها على أنغام الطبل والمزمار التي تثير حماساً جنونياً . ومع ان رجال الكهنوت الرسميين قد استنكروا وجود السحرة (وقد يعمل هذا الاستنكار الى درجة حرقهم أحياء) فان هؤلاء السحرة يلعبون دوراً هاماً في حياة النبيلى ويكفونون من عداد بطاننته . وتزداد اهميتهم في القرى حيث تعيش طبقة العوام الذين لا طقوس لهم ، لا بل نشاهد في بعض المناطق جماعات لتعاطي اعمال السحر .

اختلفت الثقافة وطرق الحياة اختلافاً بيناً تبعاً لطبقات المجتمع إذ ، كما سبق أسرة الفلاحين ورأينا ، يستحيل المقارنة بين العوام وطبقة النبلاء .

والفلاح هو ثمرة بجامعة (بن) وليس زواج قانوني (هوان) كما هي الحالة عند النبيلى . ففي ربيع كل سنة ، بعد افتتاح موسم الزواج الذي يقوم به العاهل وقبل الخروج الى حقول الزراعة، يذهب الشباب والصبايا للغناء في الحقول اما جماعات واما ازواجاً . وتتم الجامعة في الهواء الطلق ولهم الحق في التلاقي كما يريدون طيلة موسم الاعمال الزراعية . ولكن عندما يحين موعد الرجوع الى القرية في بدء الشتاء وتعود كل اسرة الى الانزواء في بيتها وتنتهي إذ ذاك الحياة الجماعية يفترق الأزواج ولا يستطيعون التلاقي بعدئذ إلا بصورة خفية . وعند عودة فصل الربيع اللاحق يتلاقى الأزواج ثانية او ينتخب الواحد رفيقاً آخر . وعندما تبلغ الفتاة العشرين ربيعاً تتزوج - إلا اذا كانت قد حملت قبلاً - أما الفتى فلا يتزوج إلا في الثلاثين من عمره . ولا يتم اتحاد الأزواج لما يلاقي الواحد في الآخر من جاذبية شخصية ، كما قد يتبادر الى الذهن بسبب ما سبق قوله ،

ولكن لضرورة التقارب بين الأسر . ويبدو بأنه كان محرماً ان يتحد الشخص مع شخص آخر من قريته . ويبدأ الوسيط المحادثات ويتابعها وتتم الحفلة برئاسته في الخريف ، وقد يتم اقد الأزواج اثناء عيد جماعي واحد . إذ ذاك تغادر الفتاة قرية اهلها لتلتحق بقرية زوجها وتنقطع عن الغناء في أعياد الربيع . ويصبح اتحاد الأزواج من ثم غير قابل للانفصام .

وتحدد التقاليد بكل دقة علاقات الزوج بزوج ، ويحرم التعاطي الجنسي مدة فترات عدة في غضون السنة . وتفرق الزوجين الواحد عن الآخر طبيعة الأعمال التي يقومون بها فتخلق من ثم مجتمعاً للذكور وآخر للاناث . فالرجال يقومون بأعمال الحراثة وتربية المواشي بينما تعني النساء بالمنازل (حيث لا يدخل الرجل إلا نادراً) والغزل .

ولا نجد تحديداً واضحاً لدرجات القربى او كلمات تميز بوضوح الابناء والاخوة وابناء العمومة . فهناك علاقات قريى جماعية تربط بعض الافراد فيما بينهم وتجعل منهم فئة اكثر وحدة وأقل انفتاحاً . ويشارك اعضاء المجتمع العائلي الواحد أحزان بعضهم ويأكلون طعاماً أعد على نار واحدة .

وتتأثر حياة القرى بتتابع الفصول . ففي الخريف والربيع يجتمع الرجال والنساء ويقضون وقتهم في اللهو والعبث : سباق للثور على بيض العصافير التي تهجر من بلد الى آخر ، ومصارعة ورقص وغناء وقطاف النباتات البرية وتراشق بالزهور وصراع يتنافس فيه الشباب والصبايا وهم يرقصون على إيقاع أغان مرتجلة الخ . ويختتمون هذه الملاهي بالأكل والشرب وقد يعقدون عقوداً ومبادلات كما لو كانوا في الأسواق .

وعندما تنتهي السنة الزراعية ويحين موعد الرجوع الى القرية يحتفل الرجال معاً بانتهاء الموسم ، ويتبادلون الهدايا . ويبتدىء إذ ذاك الفصل الموات باقامة حفلة الـ « نو الكبير » الذي ينذر بحياة الشتاء للانسان والحيوان . ولا يشترك في هذه الحفلة إلا الرجال فقط فيرقصون ، وقد تنكروا بأشكال حيوانية ، على نغم دف من الخرف ، وينغمسون في الأكل والشرب لينتهوا الى السكر والجون بعد ان يكونوا قد انفقوا بسعة ؛ ويشرف الشيوخ على هذه المهازل العمومية . وتختتم اعياد باتشا اوقات العمل التي تسبق مباشرة فصل الشتاء ويقوم بهذا الاحتفال شيوخ القرية فيرتدون ثياب الحزن ويمسكون بأيديهم العصي ويدعون الرجال لبدء فترة العزلة التي ستعد بدورها بعث سنة جديدة .

وترتبط الولادات عند الفلاحين بطقوس الماء ؛ وتتم عادة حفلة اشراك الولد عند الاحتفال بأعياد الربيع . وترمز كل مرحلة من مراحل الحياة الى الفصول وتبدلات الطبيعة المقدسة .

تنحصر مهام حياة النبيل في ضرورة تأمين استمرار الطبقة وعبادة الجدود .
حياة النبلاء
لذا فان الزواج عمل ديني يخضع لضمانات محددة . وتعدد الزوجات هو القاعدة ولكن لا يستطيع النبيل ان يتزوج إلا مرة واحدة ، لذا يعقد قرانه في الحفلة نفسها على امرأته

الاساسية وعلى نسائه الثانويات. ويحرم على الزوج ان ينتخب نساءه من اسرته . ويختلف عددهن تبعاً لمقامه : فله الحق بامراتين إن لم يكن صاحب مركز مرموق ، وبثلاث نساء إن كان قائداً ، ويتسع إن كان أميراً. وللملك الحق باتخاذ اثنتي عشر زوجة. ويضاف الى هؤلاء الخليلات عدد من الخليلات إن كان الزوج غنياً واستطاع ان يبتاعهن . ولا يكون الوسيط إلا احد الأقارب او صديقاً انتخب لهذه الغاية ، وهو يقوم بالخطوات الضرورية حتى اعلان الخطبة . ويوم الزواج يأتي الشاب ليأخذ الفتاة ويبدو كأنه يريد سوقها في عربة . وعندما يصلان الى البيت الزوجي يأكلان معاً طعاماً يتكون من ثلاثة صحون أريقت عليها ثلاث كؤوس من الخمر . وتتكون الكأس الاخيرة من ثمرة كوسى قسمت قسمين . ثم يأتي العروسان الى غرفتهما الزوجية حيثما ينزعان ثيابهما وفقاً لتقاليد خصوصية . وفي الغد يقدم الرجل امرأته الى أقاربه الأحياء والأموات؛ وبعد انقضاء ثلاثة اشهر على وصول الزوجة الى اسرتها الجديدة تصبح حقاً من افرادها إذ تشارك طقسياً بالذبيحة الاحتفالية التي يقدمها الزوج لأجداده . وبعد الاشتراك فقط بهذه الحفلة تصبح الى الأبد زوجته الشرعية .

ولا تستدعي ولادة الاطفال ، شرعيين كانوا او لا ، إلا القليل من الطقوس . ولكن لن يترك جميع هؤلاء الاطفال على قيد الحياة : فهم يقتلون او يهملون المولود الذي يرى النور في وقت يحسبونه شؤماً ، او في الشهر الذي ولد فيه ابوه ، او التوائم الثلاثة الخ . وعلى كل فالمولود، ذكراً كان أم أنثى ، يترك وحيداً في غرفة دون أكل ولا عناية ، وذلك طيلة الأيام الثلاثة التي تلي رؤيته النور . وإن صمم رئيس الاسرة بعد انقضاء هذه الفترة على قبول الطفل ، ينقل هذا الاخير إذ ذاك الى مساكن النساء ويرضع الحليب لأول مرة . وعندئذ يعلن الوالد رسمياً مولد طفله وذلك بتقديم ذبيحة للجدود ؛ ثم بعد ثلاثة اشهر فقط يعرض عليه ابنه .

ويقيمون أثناء عهد الصبا بعض الطقوس : حفلة قص الشعر ، وقد يترك للصبي خصلة شعر على قمة رأسه بشكل قرن وللفتاة على شكل صليب ، ثم حفلة انتخاب الاسم (منغ) التي تدحل المولود حقاً في سجل الاسرة التي تهبه من ثم الوجود وتقرر مصيره .

وتختلف الثقافة باختلاف الجنس . فالصبي يتلقى العلم في مدرسة المنطقة اما الولد الكبير فله الحق بالذهاب الى المدرسة الملكية في العاصمة ، ويمنح هذا الحق ايضاً للمتفوقين من تلامذة المناطق . وتستمر سنو الدراسة من العاشرة حتى العشرين وهي تشمل الفضائل الثلاث والطقوس والعلوم الست (الرقص والموسيقى وقيادة العربة والرمي بالقوس والكتابة والحساب) . ولا يتعاطى قط التلامذة مع العالم الخارجي بل يسجنون داخل مدرستهم او جامعتهم . وعند انتهاء الدروس يصار الى اعطاء القبة الرجالية (كوان) التي ترمز الى انتقال الصبي الى عهد الرجولة؛ وعندما يرجع الى ذويه يدع شعر رأسه ينمو ويبتظر شهرين لاقامة هذه الحفلة الرسمية فيعطونه اثناءها اسماً جديداً (تسيو) . وتبقى الفتاة مع الذكور حتى ربيعها العاشر ثم تعزل داخل بيت

الحريم حيث يلقنونها اساليب الطاعة والاعمال النسائية ويطلعونها على الدور الذي ستدعى للقيام به في الحفلات الدينية . وعندما تبلغ العشرين من عمرها ، او قبل ذلك ان نخطبت ، تعزل لمدة ثلاثة اشهر في هيكل الجدد ثم تعطى دبوس الزينة للشعر (كي) واسماً جديداً .

ان واجبات وامتيازات النبيل هي مبدئياً واجبات وحقوق المحارب . وهناك شبه دستور شرف يسيطر على اعماله مهما كانت وظيفته : يحرم عليه قبل كل شيء خاصة معلم او مرب قديم . ومن اهم واجباته الثأر للأسرة ، ويزول امام هذا الواجب كل نفع شخصي وقد يؤخذ الثأر من الأموات . والذي يقلد اقطاعة يشترك في حفلة رسمية تعد حدثاً هاماً في حياته ، فيستلم من يد ممثل الملك - وحسب طقس محدد - كومة من التراب وضعت على هيكل الارض الملكي ، ويجعل منها نواة هيكل إله الارض الذي سيقبمه في ملكه . ولا تختلف واجباته وحقوقه عن حقوق وموجبات سائر الاشراف ما عدا العبادة التي عليه ان يقدمها لأرواح اقضاعته وحسن ادارة الجماعات التي تخضع له .

ولا تنتهي اعمال النبيل الا عندما يبلغ السبعين من عمره ، لا بل غالباً ما يستمر في تأدية خدماته حتى موته وان كان قد اجبر على فقدان احد اعضائه التناسلية او بتر رجله ليتولى بعض الوظائف . وطقوس الحداد على النبيل ودفنه محددة بكل دقة حتى تستطيع نفسه «العالية» ان تصبح من عداد الجدد وتنعم في مقرها السماوي بالامتيازات نفسها التي تمتعت بها على الارض . ويفرض على جميع افراد الاسرة ان يساعدوا الشريف لبلوغ هذا الهدف بعد ان يكونوا قد تأكدوا من موته . واثناء غسل جثة الميت يضعون في كل من نوافذها حجراً صغيراً من اليشب ، ثم يلبسونها ثوباً خاصاً (منغ بي) ويسجونها على سرير مزخرف بالقرب من بريق كتب عليه اسم الميت . واثناء النسجية - التي تختلف مدتها تبعاً لمنزلة المتوفى - يهرع الاقارب والغرباء يقدمون تعزيزتهم الى اولاد الفقيد الذين يرتدون ثياب حرن بيضاء اللون . وتوضع الجثة في تابوت حشوا داخله بالحريز الاسود ثم ينقلونه الى مدفن موقت . ويحمل اولاد الميت اذ ذاك عصا الحزن ، رمز قنوطهم . ويتكون القبر الاصلي من عرفة تعلوها كومة من التراب ويتقدمها ممر مكشوف فرشوه بالبلاط . وبعد فترة تقصر او تطول نسبة الى مقام المتوفى يأتون الى هذا القبر بالنعش وقصد لفوه بقياس ابيض . ويرافق النعش موكب كبير ينوح افراده ويصرخون وقصد سار على رأسهم الساحر ؛ ويأتي المشرف على القبور لينزل الى حنب النعش في الحفرة الاشخاص الذين اعدوهم ليرافقوا المتوفى ويكونون له خدما اذ يجب ان يحيا الميت في عالمه الجديد حياته العسادية مع اسلحته وبلاطه وخدمه . وعند الاسر الفقيرة يستبدلون بدمى من القش او الحشب هؤلاء الضحايا الذين يدفنون احياء والذي يختلف عددهم اسناداً الى منزلة الميت . وعندما تنتهي اعمال الدفن يذهب ابن المتوفى الى هيكل الجدد ليضع لوحة ابيه الموقرة ويقدم القران ، ثم يقيم مأدبة يشترك فيها ممثل عن الميت (سه) . وهكذا تنتهي سلسلة حفلات الدفن .

وان كان الملك ، بصفته بديلاً ، يحيا حياه خاصة لا تختلف الا قليلا عن حياه افراد رعيته ،

فانه مع هذا ينسق منهجه كما تفرضه واجباته الدينية والسياسية فيقسم وقته بين الذبائح الشهرية والاستقبالات الحافلة واصدار الاحكام القضائية واقامة المآدب . فهو في كل صباح يبحث مع وزرائه شؤون الدولة ، اما الملكة فتقرر امور القصر . ويسبب موت الملك اقامة حفلات اكثر ابهة وشمولاً من وفاة النبيل العادي . وقبل ان يشعر الملك بدنو اجله يعهد الى الحارس الاكبر (وهو واحد من ثلاثة نبلاء يدعى كل منهم دوق) بتسليم الحكم الى الابن البكر من زوجته الشرعية . وبعد موت الملك يعد الحارس الاكبر حفلة الدفن ، ويسجل وصية المتوفى بواسطة الكاتب الاكبر ، ويرشد الامير الوريث في فترة الحزن ثم يعد العدة لحفلة تتويجه . وتم حفلة التتويج بنقل لوحة اليشب ، رمز السلطة الملكية ، الى الملك الجديد .

يقطن الفلاحون في كهوف حفرت في التربة الصفراء ، او في اكواخ من مجتمع القرية والمدينة
الاغصان اقيمت مؤقتاً في الاراضي الزراعية ، او اخيراً - في الشتاء - في بيوت جمعت فكونت قرى ودساكر . وتصنع هذه البيوت من الطين ، على شكل مكعب ، وتغطي بالقش . وتحيط بكل بيت حيطان او سياجات تحمي بالوقت نفسه البساتين الصغيرة التي تؤمن العيش اثناء الشتاء . وترتفع القرى غالباً حول منزل سيد البقعة يحميها جميعاً سور ، وارض البيت من التراب المرصوص ، وفيه موقد من حجارة يقترب بعضها من بعض ، وينطلق دخانه من ثقب اعد في وسط السقف . ولا يحتوي المنزل الا على باب ونافذة اعدا على الواجهة الجنوبية . ويتألف الاثاث بنوع خاص من سرير بدائي هو سرير الزوجين . ومع بساطة وحقارة البيت فان كل جزء من اجزائه يرمز الى امر ما ، ويظهرون نحوه الاحترام العميق .

وللقرية التي لها بعض الامة هيكل لاله الارض ومدرسة وسوق يتكون من مساحة مربعة يبقون وسطها مبدئياً فارغاً ويتوزع البائعون في الاحياء تبعاً لنوع بضاعتهم ، وتخضع كل فئة لرئيس المحلة الذي يأتمر بأمر مدير الباعة . ويقرر هذا الاخير الاثمان والضرائب التي يسهر على تطبيقها المراقبون ، بينما يعنى رجال الشرطة باستتباب الامن والنظام .

ويسكن في المدينة الرئيسية صاحب الاقطاع مع نسائه واولاده وخدمه وتابعيه ، وهي تضم ايضاً الكهنة والكتبة والمحاربين . وللقرية مساحة صغيرة (اذ لا يتعدى محيط العاصمة ثلاثة كيلومترات ونصفاً) يحيط بها سور جماعي يشتد او يقل مناعة ويرتفع في وسطه سور اقل شأناً هو سور بيت السيد . ويكون هذا المنزل مدينة صغيرة ضمن المدينة الكبيرة ، ويحتوي على عدة فسحات لكل منها باب عظيم وعلى ردهة الاستقبال التي يرتفع بجانبها هيكل الجدود وهيكل إله الارض ، واخيراً على مسكن الزعيم . وحوالي هذا السور الداخلي تبنى بيوت تابعي السيد ابتداء من المستشارين حتى رجال الصناعة . ولم يتطور بعد نظام تنسيق المدن ، هذا النظام الذي لا نعثر عليه الا من خلال المبادئ التقليدية ، لذا نجد نقصاً كبيراً في تنسيق المدن الداخلي . ومع هذا فان المدن الكبيرة هي احسن هندسة يقسمونها احياء احياء وتخرقها شوارع مستقيمة .

الجنوبية . ويحتوي هذا السور على فسحة اولى نصب في وسطها حجر على شكل عامود يربطون اليه الذبيحة قبل تقديمها وترتفع على جانبي هذه الفسحة الشرقي والغربي بنائتان لاعداد الخدمات اللازمة . ويشيد هيكل الجدران في شقة السور الشمالية ويكون باب من الجنوب وهو عبارة عن بناء فسيح تكثر فيه العمد . وله سلمان ، احدهما نحو الشرق والآخر للغرب . وفي الوسط ، في المربع الذي يتسع بين العمد ، اعدوا معابد صغيرة يكون عددها خسا تحوي كل منها على لوحة احد الجدران ، وتوضع لوحة الجدار الاكبر في المعبد الذي يقوم في الوسط .

ويعتبرون كل بيت وكل مدرسة امكنة للعبادة . ولا تصبح هذه الابنية المقدسة صالحة للعبادة الا بعد تكريس يلعب فيه دم الذبائح دور السائل المقدس . ويستدعي تشييد كل مدينة وكل بيت اقامة طقس خصوصي اذ ان كل قسم من البناء وكل شكل يعطى للأرض مما من الامور الرمزية لا بل الإلهية التي لها اهمية كبرى . ويقررون بكل دقة الترتيب الذي يتبعونه لتنفيذ الاعمال ، وينتخبون المواد نسبة لدقائقها الرمزية . ويعيرون اهتماماً خاصاً الابواب اذ ان الآلهة التي تسكن فيها هي قديرة جداً ، ويصدق القول هذا عن آلهة الجدران .

ان ديانة الصين القديمة تخضع لقوانين ورتب شبيهة بقوانين ورتب المجتمع الذي يغدو الديانة لها مثلاً . ان الحق بالاشتراك بأفعال العبادة هو محصور بالنسبة دون سواهم ، اذ ان افراد طبقة العوام يستفيدون من ثمار العبادة دون ان يشتركوا فيها . ولأعمال العبادة والذبيحة هدف جماعي وليس فردي ، وهي لخير الامة او الجماعة وليس لمنفعة الفرد لذا ينحون باللائمة على من يتوخى منها فائدة شخصية لا بل يعاقبونه اذ يعتبرونه عنصر ضرر يقلل من الخبز الذي يرجونه من تلك الافعال..

وللآلهة — ولا حصر لعددها — اهمية اقل شأناً من تطبيق القوانين والتقيدها تقيداً اعمى ، اذ هي التي تحفظ النظام العام وتجده ؛ وليست الآلهة على كل كلية القدرة وهي تجسم عادة قوى العالم الطبيعي . ومنها ما يختص باجزاء البيت ، واعمال الحقول ، والاشغال النسائية ، والنقابات والحيوانات . ويضيفون الى هذا الزون العظيم ، وان كان جوهره قليل الشأن ، جيش الشياطين والارواح الشريرة (كوي) والانفس المهمة (لي) . ومع هذه المجموعة الإلهية والشيطنانية نجد رب الأعالي ، شنغ — تي ، وإله السماء وسيد الارض ، هيو — تو ، وإله أرض المملكة ، والجدران الملكيين .

ان رب السماء هو سيد الآلهة والانسان ، وملك الموتى ، وصانع الملوك ، والاداري والقاضي الذي لا يعلى عليه . وهو يعيش في قصر شيد في مجموعة بنات نعش ويسير الامور بواسطة مندوبين مجهولين تقلل أهميتهم زمن التشاور . ورب الأرض هو قبل كل شيء إله مساحة المملكة . وهو زعيم آلهة أراضي النبلاء ويرأس حفلات تقليد السلطة ؛ وهو يسهر على ازدهار المملكة ، وعلى محاصيل الزرع وجميع الحوادث التي تهم حياة المجتمع . وهم يقدمون له كضحايا أسرى

الحرب (ويبدو بأن هذه العادة الدموية أخذت بالتضاؤل منذ القرن السابع ق.م .) ، وهو يسود على المذبح الذي يعدونه له في سور القصر الملكي . ولكل إقطاعة ربان للأرض وهما دون هيو - تورقة : إله للأملأك الخصوصية وإله للأملأك المشتركة التي تخص الامارة ؛ وكانوا يعتبرون الاله الاول مطارداً وميتاً عند تبديل السلالة ، ولكن استمروا مع هذا بتقديم العبادة له .

والجدود الأموات هم حراس الأسرة النبيلة المباثرون . وتكشف لنا حقيقة هذا المبدأ عقائد الصين القديمة بما يختص بغايات الانسان الاخيرة : فلكل إنسان عدة أنفس في الوقت ذاته ، وتنفصل إحداها ، الهون ، عن الجسد حالاً بعد الموت وتقطع طريقاً مليئاً بالخطر قبل ان تصل الى السماء حيث تعطى المركز الذي يحث لها استناداً الى المركز الذي كان يحتله الجسم وهو على قيد الحياة . أما النفس السفلى « البو » ، فتبقى مع الجثة ويخشى ، ان لم تقدم لها الفروض المقررة ، ان تصبح شيطانياً ، كوي ، أو عائداً يهيم على وجهه يزرع الرعب في أسرة الميت . وان بقيت بو ، تذهب لتحيا في عالم جوفي . وتحيا الانفس الهون والبو ، كل منها في عالمها الخاص ، حياة الانسان ذاتها محتفظة برتبها وخاضعة للمرض أيضاً . ولكن لا يهتم التشاؤ لمصير الأنفس اهتمامهم للعلم الذي يجعل منها جدوداً . وهناك طقس في غاية البساطة يسهل هذا التحويل الذي يتم بعد انتهاء فترة الحزن التي تدوم مبدئياً ثلاث سنوات . وفي هذه الفترة الانتقالية تكرم لوحة موقتة في غرفة الميت ؛ وبعد انقضاء زمن الحزن تنقل اللوحة الى هيكل الجدود وتستبدل بلوحة نهائية تصنع من خشب الكستنا وعندئذ يقدمون للميت قرابين بصورة مستمرة فيصبح حامى الاسرة . ولكن تقل قدرته مع الزمن ويلقونه أخيراً بين مجموعة الجدود الذين لا تقدم لهم أي تقديم شخصية .

وهناك اذن والحالة هذه عالمان إلهي وشيطاني يجب اكتساب عطفها . وقبل كل شيء ، على المرء ان يعرف معرفة دقيقة الآلهة والأرواح التي له علاقة بها بالنسبة الى مركزه الاجتماعي ووظيفته وواجباته . وبما أن الدقة في اقامة الطقوس وتلاوة الصلوات والمراسم هي أمر في غاية الخطورة وجب من ثم الاستعانة برجال كهنوت علماء يقظين .

وتقوم العبادة بصورة أولية على القرابين والصلوات والرقص ، مع ان التفاسيل تختلف باختلاف المكان والإله والظرف . وتقدم طقوس العبادة على أنغام الموسيقى . وتكون القرابين دموية بصورة شبه مستديمة ويختلف حيوان الذبيحة حسب الظروف ، ويكون لونها كما يفرضه مركز المقدم . وتكثر القرابين البشرية ولكنها تقتصر على بعض الطقوس الخصوصية : فتيات يقدمن كزوجات للآلهة ، أو أسرى الحرب يقدمون لرب الارض والجدود ، أو سحرة ومشوّهون لاستدراار المطر في أوقات الجفاف الشديد ، أو بطانة النبيل أو الملك لمرافقتها في قبرها . وقد تذبح هذه القرابين أو تحرق أو تدفن أو تغرق . ويقدمون أيضاً النباتات (الجاورس) أو الحرير أو الماء أو النار التي تنتج عن انعكاس الشمس على مرآة مقعرة النح . وللصلاة قوة شبه سحرية

وتثمر ثمارها ان تليت بصورة دقيقة وفي الوقت المناسب وفي الظروف المتوجبة . ويقوم الرقص على حركات مقدسة تمثل الامور التي يريدون ان تحدث ، وتعيد الى الذاكرة المغامرات الميثولوجية التي يتوجب على المرء ان يحققها لنجاح العالم . والموسيقى هي عربة الآلهة ، فهي التي تجذبهم وتحملهم وتحفظ بهم ، وتشترك فيها الاصوات والآلات (العود والطبل والقيثارة) . وفي طقوس بعض القرايين كالتي تقدم الى الجدد يوجد وسيط (شي ، جثة) ينتخب من اقرباء الميت الذكور يمثل المتوفى الذي ينطق بلسانه ويتقمص فيه لمدة من الزمن . ونجد هذا الطقس في عبادة إله الارض الذي يعد كيت ايضاً .

ويتطلب تقديم الذبيحة بطبيعة الحال دقة ونقاوة في الطقوس ليس فقط بما يختص بالأدوات والتقدم ولكن ايضاً بمقدمي القرايين والاشخاص الحاضرين .. وينال الجميع هذه النقاوة بطقوس تطهيرية وممارسة فترات تقشف تطول او تقصر .

وتقسم السنة فترات فترات أعياداً وطقوس يتعلق بعضها بالمواسم الزراعية والاخرى بعبادة الجدد . وتضاف الى هذه الأعياد الموسمية الاحتفالات الطارئة وسائر احتفالات العبادة العادية التي توحى بها الحوادث اليومية او الظرفية (الصيد والحرب ومراحل الفتوة الخ) . ولكل منها عبادة معينة ومقررة بكل دقة وقد يقدو وبالأا اقامتها في ظروف غير التي حددت لها . ولا يلحق هذا الضرر مباشرة بالفرد ، ولكن بتعاقب الفصول وبمحسن سير النظام العالمي ، لذا غدا القيام بها فرضاً لازماً على الذين نيط بهم السهر على النظام الكوني ، اعني النبلاء وبالدرجة الاولى الملك . ويحدث موت الملك وحده بعض البلبلة في سلسلة الاعياد العادية اذ تتوقف بعضها أثناء فترة الحداد .

ان الملك هو دون شك مقدم القرايين الاول . فعليه وعلى فضائله يستند تنظيم السنة الزراعية . فهو يبدأ الربيع بتقديم ذبيحة كبرى لرب السماء ، ثم يقوم بأول عمل فلاحة فيشق ثلاثة أثلام في حقل مقدس ، ويحذو حذوه في هذا العمل الرمزي جميع اصحاب الارض النبلاء في كافة أرجاء المملكة . ويفتتح الملك ايضاً موسم الزواج ، ثم تقيم كل قرية حفلات مماثلة . ويحددون النار ويستعيدون من جديد النشاط في مختلف مرافق الاعمال . وفي الصيف تقدم القرايين الى آلهة الجبال والانهار والينابيع والامطار ، ثم تأتي أعياد الحصاد واختتام الحياة الزراعية . وتبتدىء فترة الشتاء بذبيحة كبرى لإله السماء بواسطة جد السلالة ، الملك «ون» ، وتواً أثر ذلك يذهب الملك الى الضاحية الشمالية لاستقبال الشتاء واصدار الأمر بحجز الفلاحين في القرى . ثم يأتي دور القرايين الملكية لرب الارض والجدد الى ان يحين أخيراً عيد الحصاد ، وهو من أهم أعياد السنة . وتعاد حلقات هذه الحفلات والأعياد في الربيع دون ان يتبعوا التقويم الرسمي الذي يحمل في طياته شوائب فادحة بل حلول الفصول الطبيعية .

وتتخلل هذه المواسم أعياد مقررة يحددون أوقاتها ايضاً تبعاً لحلول الفصول دون اعتبار

التقلبات الرسمية ، وهي تتعلق بصورة أولية بالجدود الذين تقدم لهم مع هذا عبادة يومية . ومن هذه الاعياد ما يقام مرة كل ثلاثة أشهر او كل سنة او كل خمس سنوات ، وأشهرها الذبيحة الملكية التي يقدمونها للجدود كافة بما فيهم الجد الاول . وبهذه المناسبة تقام وليمة جماعية وحفلات رقص صاخبة يشترك فيها الملك وأولاد الأسر الكبرى الذين يقبلون في البطانة الملكية.

وهكذا فالحياة كلها في الصين القديمة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأفعال دينية حددوا جميع دقائقها بعناية كلية ، وبدونها لا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً منظماً ومفيداً . والديانة ، وقد أُسست على الامور الطقسية ، هي قبل كل شيء ديانة جماعية ترجى منها المنفعة وتوافق كلياً تقسيم المجتمع الى طبقات وفئات . ولكن نلاحظ تطوراً دقيقاً يظهر في منتصف دور النشاو سيقود الديانة القديمة الى حالة جمود وتنظيم عقيم يستبجح معها الصينيون الذين وقفوا على مبادئ الفلاسفة ورجال الأدب بعض التحرر .

تشتد الحركة الفكرية منذ أواخر القرن السادس ق . م . اذ يظهر في هذه الحقبة الفلسفة الرجل الذي لعب أعظم الادوار في الحياة الصينية العقلية : كونفوشيوس (كونغ كيو الملصق بتشونغ - ني) ويميل رجال الأدب الأكثر تحملاً نحو الشك والارتياب في كل شيء حتى نفي وجود الآلهة والارواح واستنكار بربرية بعض طقوس العبادة كتقدمة الذبائح البشرية . ويسعى كونفوشيوس في تعاليمه للإبقاء على التقاليد مستنداً الى كتب العصور القديمة والى طقوس وسياسة العهد المنقرض . لذا فإن تعاليمه الروحية هي موجهة أساساً الى الطبقة الارستوقراطية وتهدف الى حسن قيادة وحكم الشعب استناداً الى الدرس وترويض النفس الروحي ، هذا الترويض الذي لن يعود بالنفع على صاحبه بل عكس ذلك على الآخرين فيستتب اذ ذاك حسن التفاهم الذي هو الدعامة الكبرى للنظام العام . والوسائل الكفيلة بالوصول الى هذه الغاية هي طقسية ، كما كانت في عهد التنظيم الديني ، وتساعد الفرد ليصبح إنساناً أسمى ، وذلك لخير المجموعة ، ولخير الشعب بكامله . ويستند كونفوشيوس ببراهينه وإثباتاته وأمثالته الى ضرورة التشبه بقديسي العهود القديمة والوصول الى فضائلهم ، اذ هذا هو الشرط الاساسي لحفظ النظام والتوازن العالمين .

وقد أنجبت تعاليم كونفوشيوس فيلسوفاً عظيماً هو موتي ، أو بالاحرى موتسو ، الذي عاش في القرن الخامس . وتصغر لديه المعطيات الميثولوجية أمام الاستنتاجات الفلسفية أو تفقد التقاليد الكثير من امتيازاتها اذ يكره تنظيم الطقوس المادي الذي لا روح فيه . واستناداً الى تعاليمه تفقد الديانة صفتها الجماعية والاجتماعية لتصبح حقاً ديانة الفرد اذ لا يؤسس تفكيره على نفوذ وسلطة قديسي العهود القديمة بل على قوة القياس الفلسفي . ان مبادئ محبة الغير التي نادى بها كونفوشيوس والتي كانت غايتها خير إحدى الجماعات أصبحت مع موتسو تعاليم المحبة الجامعة الشاملة حيث تتساوى كل الفئات الاجتماعية وطبقات الأفراد . وأساس تعاليمه هو الخضوع

لإرادة رب السماء وعبادة الآلهة . وتوافق هذه النظرية ، وإن كانت ثورية في بعض نواحيها ، التغييرات الجذرية التي شهدتها المجتمع في ذلك العصر ، كما أنها تتناغم مع الوثبة الروحية والحنو على الغير الذي كان يغذيها في الهند تلامذة شكيموني ، والتي لم تعرفها الصين إلا في وقت لاحق جداً .

وبجانب جهود هذين المعلمين الكبيرين ، فقد قامت مدرسة ميتافيزيقية على مبادئ السحرة الأقدمين . وهم يقارنون بالعالم الحسي عالماً وهمياً ويؤكدون مبدئياً بأن الأساليب السحرية تؤثر على أحدهما بواسطة الآخر . وهم يلجأون إلى الين واليانغ لتفسير تتابع السنة الزراعية وكل المظاهر التي تنتج عنه . ولا تتعدى هذه النظرية في أول الأمر محيط فئة مختارة من النبلاء ولكن منذ أواخر القرن الخامس ق. م. يعتنقها كل الفلاسفة ، ثم تتسرب رويداً رويداً إلى فئات أقل ثقافة ، وتستمر إلى يومنا هذا محوراً للفكرة الصينية .

وهكذا تتكون رويداً رويداً تفاسير دينية وفلسفية جديدة تؤلف وحدة منذ القرن الرابع قبل العهد المسيحي ، عندما تحدث العوامل الحضارية المتوسطة تحويراً في الميثولوجيا وتأتي بمعلومات فلكية جديدة مختلفة . ويتألف مع الزمن هذان العاملان الطقسي والفلسفي دون أن يظهر بينهما تناقض ويكونان عقلية لا تزال الصين تحتضنها إلى عصرنا الحاضر .

ليس لدينا عن أبنية ذلك العصر إلا معلومات أدبية إذاً المواد المستعملة — الطين الفن والخشب والآجر والنقش — هي بحد ذاتها مواد عرضة للتلف . ولا يبدو بأنه كان للأبنية التي خصصوها للموتى حظ أوفر بالديمومة . ونعرف معرفة أكثر وضوحاً وثبوتاً الأدوات التي استعملوها في إقامة العبادة ومختلف الطقوس ، وهي تتألف ، كما كان الأمر في العصر السابق ، من أوان وأدوات نحاسية وأسلحة وأشياء رمزية من الخشب . ولا نجد إلا أدوات قليلة جديدة تمثل الإنسان . ويتكون الإطار بصورة مستمرة تقريباً من عناصر حيوانية عبروا عنها بفن خصوصي وشملت حيوانات ميثولوجية وهمية نظروا إليها وجهاً لوجه أو من جوانبها . وقد نقشوا على سطح قطعة النحاس بكاملها نقشاً دقيقاً جداً ، تبدو عليها الحيوانات بصورة نافرة بينما تتشابه على سطح المعدن خطوط ملتوية . إننا نجعل الرمز الذي يهدف إليه هذا النقش ، ولكن تساعدنا أشكال الأواني على تنظيمها فئات فئات محددة العالم ، توافق كل منها الطقوس الذي صنعت لأجله . ولا جدل في حقيقة صفة هذه الأواني المقدسة . وكان الملك نفسه يحترمها ومنها الآلات الشهيرة ذات الثلاثة أرجل التي حفظت في باب من أبواب العاصمة . ويصعب علينا أن نميز بوضوح مراحل هذا التطور الفني للنحاس منذ عهد الشانغ حتى أواخر زمن التشاو . ولكننا نستطيع مع هذا أن نلاحظ تطوراً فنياً بطيئاً تصبح تفاصيله رويداً رويداً جامدة لا حياة فيها ، ثم تتشابه وتتضخم إلى أن تصبح في عهد الممالك المتقاتلة أمراً بسيطاً جداً فيه عوامل تزيين أكثر دقة وبساطة — وهي تظهر فعلاً ذوقاً أشد رسوخاً وأعمق دقة ولكنه ذوق يفقد في الوقت نفسه التعبير الصاخب والقلق الذي كان سائداً أيام الشانغ والتشاو .

الكتاب الثاني

من القرن الرابع الى أواخر القرن الأول ق.م.

ان كنا تسهيلاً لسرد وقائع الجزأين الاولين من المجموعة قد اعتبرنا آخر القرن الاول ق.م. فاصلاً تاريخياً فلا يجب الاستنتاج من ثم بأنه من الهين إقامة مثل هذه المراحل الفاصلة عند درس الحضارات الآسيوية ، اذ لا يحق لنا ان نتحدث عن تغيير جذري في هذا الطور أصاب الهند والصين، لا بل نؤكد بأنه من الصعب جداً فصل العصر الذي سبق هذا التاريخ عن المرحلة التي تلته . ولكننا مع هذا عملاً بالخطأ التي انتهجناها في وضع هذه المجموعة فقد سعينا جهداً في تأليف هذا الجزء بالاعتماد فقط على المعلومات التي سبقت أواخر القرن الاول ق.م. ولكننا لا نخفي مع هذا بأن مثل هذا الحد الفاصل لا أثر له تاريخياً وبأننا نجد وحدة حقيقية تستمر حتى حوالي القرن الثاني للمسيح فيما يختص بالهند وحتى سقوط الهان سنة ٢٢٠ بعد المسيح فيما يختص بالصين . لذا سنضطر ، لحسن اظهار تطور هاتين الحضارتين الآسيويتين ، ان نعود - في المجلد الثاني - الى بعض المواد التي بحثناها في المجلد الاول .

الفصل الأول

آسيا الشرقية من القرن الرابع حتى القرن الاول ق.م .

ان كان من خصائص العهد السابق تحديد مختلف معالم المناطق الآسيوية الحضارية السياسية منها والاقتصادية والدينية ، فان العهد الذي نعرض له الآن يزيد في هذه المزية لاتساع وتطور التبادل التجاري والثقافي ، ولقيام سلطات أكثر مركزية ولانتشار الديانات الكبرى .

فقد انتهت في آسيا الازمة الكبرى التي سببت الاصلاحات الروحية والفلسفية والدينية كالبودية في الهند والطاوية في الصين . وبعد ان كانت الاصلاحات هذه مجرد بذور فكرية أصبحت عرى وثيقة بين شعوب متناقضة ، تعد لنفسها حياة تتلاءم والمحيط الذي ولدت فيه وتتطور رويداً رويداً لتتوافق وميول كل قطر انتشرت فيه . وسيكون للبودية خاصة رسالة تبشيرية في القرون التي تهمنا .

ومن الناحية السياسية ستؤكد الصين والهند جهودهما في السعي نحو الوحدة ؛ فستحرر الهند أرضها من الاستعمار الإيراني وستقصي على غزو الاسكندر دي القرزين لوادي الاندوس سنة ٣٢٥ وتدحر « الغرباء » نحو المقاطعات الهندو - افغانية . وبعد ان تكون الهند قد قطعت مرحلة الاستيطان الآري تصبح قادرة على تصدير حصارها وقبول كل مستورد وتحقيق وحدة سياسية في ظل سيطرة سلالة الموريا الوطنية . وفي الوقت ذاته تتخلص الصين من دياجير قرون الحكم الاقطاعي لتقيم ، ببطء وعناء ، سيادة وطنية سياسية ينتج عنها ازدهار تجاري وتوسع اقليمي يغدوان من بواكير عظمة مدهشة . ويبعث عهد الملكين اشوكا في الهند وتسن شه - هوانغ - تي في الصين ، وكانا متعاصرين ، حماساً نحو الوحدة والسيادة لم يعرفها من قبل البلدان الآسيويان الكبيران . وهناك اقطار عدة على حدود هاتين الدولتين العظيمتين او ضمن مدى منسافعهما تبرز من طيات النسيان لتدور في فلك هذا النفوذ التاريخي او ذاك : كالهند الصينية والتركستان الصيني وكوريا ثم بعد فترة من الزمن اليابان .

وتتقوى رويداً رويداً العرى التي تشد مختلف هذه الاقطار الآسيوية الى بعضها البعض او توطد العلاقات بين آسيا واوروبا . وقد وجدت هذه العلاقات منذ تاريخ سائق كما تشير اليه أدلة

عدة ، ولكن لن تظهر بوضوح وجدية إلا منذ القرن الرابع ق. م. وبعد قطع البوسفور النقدية التي ترتقي الى حوالي ٤٠٠ سنة ق. م. والتي وجدت في منطقة ايلي ؛ فقد عثرت بعثة كوزلوف في شمالي اورغا على اشيء للمقايضة والتبادل نستطيع معها ان نعتبر منغوليا احدى مناطق التقارب بين اليونان والشرق الاقصى . ان الأدلة التي تثبت لنا وجود مثل هذا التبادل لا تزال غير كاملة ولكنها مع هذا تجيز لنا الظن بأن الاتصالات بين الشعوب كانت أشد وأقوى مما نعتقد عادة وتكشف لنا من ثم سلسلة حوادث تتوغل في القدم . وباستطاعة علم الآثار ان يضيف الى أدلة المؤلفين التقليدية المعروفة اثباتات يكشف النقاب عنها مجرى سير الحضارات وتأثيراتها. وتنسج هذه التأثيرات شبكة يستعصى حلها على القارة الاورو - آسيوية وتظهر سلسلة من التصادم والتفاعل يصعب مراراً تقصي اتجاه حوادثها ويذهل المرء غالباً لنتائجها ، ولكن كثيراً ما تبررها العوامل السياسية . وهكذا فان الصين ايام حكم الهان ، وقد أرادت استخدام اليوتشى ضد الهيونغ - نو ، اتصلت بالغرب عن طريق منطقتي سوغديان وبكتريان ، وأقامت علاقات دبلوماسية مع هذه الاخيرة حوالي سنة ١١٤ ق. م. وعرفت من ثم بلاد فارس والشرق الروماني . وعندما تنعدم الحقائق التاريخية - وهذا ما يحدث اكثر الاحيان لسوء الحظ - فان الحفريات تسد هذه الثغرة وتأتي الاشياء التي يعثر عليها لتثبت حقيقة امتداد الحضارات وتنقل معالمها . فقطعة العاج مثلاً التي نقش عليها في الهند ووجدت في بومباي او نقود السلالة الانطونية التي اكتشفت مؤخراً في الكوشنشين ، او أواني ارزو الخزفية التي عثر عليها بالقرب من بونديشاري - وتقع هذه الأماكن على حدود القارة الاورو - آسيوية المتناقضة - كلها اثباتات وشواهد على تنقل الحضارات بسبب الحروب او التجارة او الاسعار .

ونعرف عدة طرق للقوافل لم تسلكها الأشياء المادية فقط بل سارت عليها أيضاً الافكار والروايات . وتبدو لنا اذ ذاك آسيا العليا كممر لا يعرف سكينه اذ تخترقها على أقل تقدير ثلاث طرق : فيصل احدها الى ضواحي بكين مخترقة منغوليا الشمالية بعد ان تكون قد مرت شمالي البحر الاسود وبحر قزوين ، وتتصل الاخرى بشمالي الجبال السماوية بعد ان تكون قد لفت جنوباً صحراء منغوليا . ومنذ عهد الاسكندر ذي القرنين اتصلت الهند ببحر قزوين والبحر الاسود بواسطة الملاحة النهرية وخصوصاً مجرى نهر الاوكوس . وأشهر هذه الطرق لا بل أهمها كانت « طريق الحرير » وقد بدأوا بالاتيان على ذكرها منذ أواخر القرن الثاني ق. م ، ولكنها ترتقي مع هذا كما يظهر الى زمن أكثر قدماً . وقد أقيمت عليها أسواق زاهرة وسلكت ممرات افغانستان الحالية واخترقت التركستان الصيني باتجاه مناطق الحدود الصينية التي بلغت أقصى امتدادها الى واحة توان - هوانغ التي أصبحت حتى القرون الوسطى ممراً لجميع طرق القوافل الواصلة الصين ببلاد بكتريان ؛ وقد تفرعت عن هذه الطريق الاساسية مسالك ثانوية تتجه نحو الهند ، مخترقة بكتريان ، والسنجاب الخ ، ومنتبهة الى الشواطىء الهندية الغربية حيث كان يزدهر الاتصال البحري مع الغرب .

وكانت بضائع مصر وسورية تصل بحراً الى مرافئ الهند على شواطئ ملابار ، وخاصة موزيريس ، المدعوة اليوم كرانغانور . وكانت هذه التجارة مزدهرة جداً دون شك وستزداد نمواً مع القرون اللاحقة .

وهكذا انتقلت الاشياء التي تمثل حقاً بلادها الاصلية من حوض البحر المتوسط الى آسيا ، والعكس بالعكس . وبهذه الوساطة بعثت الهند والصين ، البلدان الكبيران المتحضران ، نحو المناطق التي دارت في فلكهما التجاري والسياسي كل المؤثرات الحضارية التي وصلت اليها . ولم يكشف لنا علم العاديات إلا آثاراً قليلة عن القرن الرابع ق . م . ولكن تعد هذه الآثار أدلة كافية مع هذا للنسب النتائج المتبادلة لهذا الاتصال الذي أتينا على ذكره : كآثر الحضارة الاخمينية على بلاد الهند وقد مهتت الاساليب الفنية أكثر من الاشكال ، وآثر الحضارة المكيدونية والايونية كما تثبت ذلك بعض الادوات التي عثر عليها في تكسيلا ، ونقود البوسفور التي وجدت في منغوليا النخ ، وهذه هي الفترة التي يغادر فيها الاخمينيون مناطق الهند ، في وقت يتوغل فيها الاسكندر ذو القرنين في غزوته حتى حوض الاندوس ، كما تتعرف فيها الهند الى وحدة سياسية حقيقية تحت حكم سلالة الموريا التي استولت على السلطات حوالي سنة ٣٢٢ ق . م . أي بعد سنوات قليلة من حدوث غزو الاسكندر .

وفي القرن الثالث ، اذ كانت روما وقرطاجة تتصارعان ، نعمت الهند المورية بفترة من الوحدة تحت حكم الامبراطور العظيم أشوكا الذي نشر في أرجاء مملكته قرارات روحية أوحى بها اليه الديانة البوذية التي كان قد اعتنقها . ولكن غدت هذه الفترة عهداً دموياً للصين في زمن حكم تسن شه هوينغ - تي الذي كان يبني وحدة بلاده السياسية والذي بدأ حمايتها بتشديد السور الأكبر . وتأسست سلالة الهان سنة ٢٠٦ ، وستفتح هذه السلالة بلاد الصين على مصراعيها للحضارات الاجنبية وتحفظ بالسلطة زهاء أربعة قرون .

وسيشهد القرن الثاني ق . م . نمو واطراد مملكتي سوغديان وبكتريان الهندو - يونانيتين اللتين ظهرتتا بعد غزو الاسكندر ذي القرنين . وسيوسع الهندو - يونانيون ممتلكاتهم باتجاه الهند فيستولون على البنجاب ، في الوقت الذي تمرد صين سلالة ملوك الهان فتوحاتها حتى كوريا شرقاً وواحة توان - هوانغ غرباً والتونكان جنوباً . وتعرض الشعوب المجاورة للصين لتقلبات مختلفة ، وهكذا يصل اليو - تشي ، وقد دحرهم الهيونغ - يو ، الى بكتريان حيث يحولون الممالك الهندو - يونانية الى امبراطورية هندو - سينية (حوالي سنة ١٣٠ ق . م .) وهكذا يصبحون من ثم الوسطاء بين الصين والغرب . وسيساعد هذا الوسط الاورو - آسيوي أكثر من سواه على نشر مبادئ ثقافة القرون القديمة الكلاسيكية في وقت تشهد فيه الهند الجنوبية قيام حكم الاندورا الذي سيزدهر خاصة ما بين القرنين الثاني والرابع المسيحيين والذي سيتأثر ، ولو بصورة لطيفة ، بالحضارة الرومانية .

وفي القرن الاول ق . م . ستتخذ العلاقات التجارية بين مصر والهند مجراها الطبيعي . وستتطور وتزدهر بعد فترة قصيرة ونرى نتائجها في القرن اللاحق .

وسنشهد لهذه العلاقات بعض الآثار في مجالي الأدب والعلم ، وان كان يصعب تحديد تواريخ دقيقة لهذه الحقيقة . ولكن من الثابت بأن المسافرين « المثقفين » قد ساروا على الطرق التي خطتها التجارة . والاقتباسات التي أخذتها الهند عن ايران الاخمينية هي دون شك ذات أهمية كبرى وان كان يصعب اكتشافها جلياً لوحدة المصادر التي استقت منها حضارة كل من هذين البلدين . ولكن تظهر هذه الاقتباسات بكل وضوح في مضمار الفن : إذ ان قصر اشوكا في باتلپترا مثلاً يظهر بعض الشبه مع قاعة العرش التي شيدها داريوس في برسبوليس . ويوافق الوصف الذي تركه لنا المؤلف اليوناني ميغستين بقايا القصر التي عثروا عليها . وهناك تشابه أيضاً بين تيجان العواميد التي نقش عليها اشوكا بعضاً من قوانينه والفن الذي كان سائداً في برسبوليس .

وتضاف الى شواهد تأثير الحضارة الايرانية (التي يثبتها احتلال ايران للبنجاب حتى آخر القرن الرابع ق. م.) الآثار التي هي وليدة تأثير الحضارتين المكدونية والايونية والتي نشاهدها خاصة في مدينة تكسيلا .

ومن المعتقد بأن آسيا التي اقتبست الكثير عن الغرب قد وهبته بعض الامور بالمقابلة . ويتساءل المرء ان لم تكن بعض العادات الهندية هي التي أوحى بحفلة العرش الفارغ التي أقيمت في كيليكية لاسكندر ذي القرنين سنة ٣١٨ ق. م. — أي خمسة أعوام بعد موته — ويميل الانسان أيضاً الى الاعتقاد بأن هذه الناحية من القصة اليونانية او تلك النظرية الفلسفية هما من ثمار تأثير الحضارة الهندية .

٢٤٠ - الحمر أبو ك في أولسنا .





٣٤ - عداؤن اولمبيون . رسم على قارورة (القرن السادس قبل المسيح) متحف الفاتيكان .



٣٥ - زفس هيستيا (ويعرف بزفس ارقميسيون ايضاً)، وهو من البرونز وينسب الى
كلاميس (حوالي ٤٦٠ قبل المسيح) . المتحف الوطني في اثينا .





٣٧ - المعبد ذو الشكل D ، ويعرف بمعبد « جونون
الاسينية » ، في اغيريجنته (القرن الخامس قبل المسيح) .



۳۸ - مرقا سلامین الطبعی کا یری من برج اثنا نیقی .



٣٩ - قلعة اثينا .



٤٠ - تطواف عيد الالهة « اثينا » . قسم من افريز البرثوتون . متحف اللوفر .



١١ - الهرماتون (في حالته الحاضرة) .



٤٢- ائينا برنوس ، مدالية من البرونز المذهب ، ويرجع
انه مستوحى من تمثال فيدياس في البرثون .



٤٣ - الاتيك او كورنثوس ، اواخر القرن الخامس او
اوائل القرن الرابع قبل المسيح الالهة « نيقى » في ساموتراس



٤٤ - اناة شنفى ثلاثى القوائم مصدره نغان - ينغ ، عهد شنغ .



٤٥ - تمثال نصفي لرجل صدره موهنجو - دارو .

الحضارة المعروفة بحضارة الهندوس . متحف الآثار ، نيودلهي



٤٦ - المدخل الجنوبي للشتوبا في سانشي (الهند) . القرن
الاول قبل المسيح .



٤٧ - اناه طقسي بشكل رأس رجل تعلوه الخوذة . طرف
قناة من البرونز عهد شنغ .



٤٨ - حصان من حجر وقبر هوو - كيو - بنغ الخروطي الشكل . هيان - يتغ ، مقاطعة شن - سي (السنة ١١٧ قبل المسيح) .

الفصل الثاني

الهند أيام حكم الموريا وخلفائهم

استمرت حركة البعث التي أوجدها الموريا دون توقف مدة حكم خلفائهم المباشرين الشونغا والكانغا (حوالي السنة الخمسين ق. م.) . وغدت هذه الفترة عهداً بنّاءً ومن أغنى أطوار الحضارة الهندية وستبقي أثرها العظيم في التقاليد الهندية حتى عصرنا الحاضر . وإن كان مركز الثقل السياسي قد استقر منذ القرن الاول او الثاني للمسيحية في منطقة غير وادي الغانج ، أي في شمالي البلاد والشمال - الغربي مع سلالة الكوسانا وفي الجنوب - الشرقي مع ملوك الاندهرا فان النتائج التي حققها الموريا لم تندثر بل مهدت الطريق امام ازدهار الدور اللاحق الذي سيعلم عليه عمل الغوبتا التوحيدى المشر (القرن الثالث الى القرن الخامس) ، هذا مع العلم بأن هؤلاء الغوبتا سينتسبون الى الموريا لتثبيت سلطتهم .

ان أهم حدث هو دون شك سعي الموريا لتحقيق الوحدة السياسية التي شيدوا عليها امبراطوريتهم . فقد أوجدوا نظاماً سياسياً مستبداً لتسهيل ازدهار البلاد الاقتصادى فدعوا علاقات الهند الدبلوماسية والاقتصادية مع سائر أقطار آسيا والغرب ، واستعملوا البوذية كأداة قوية نشروا بواسطتها في مختلف أجزاء الامبراطورية القوانين الروحية التي ستحقق الوحدة . وعمموا هذه الديانة في سبلان ، وسينتشر هذا المعتقد بعد قليل من الزمن في آسيا الوسطى والشرق الاقصى . وعرف الفن نهضة مجيدة واستعملوا لأول مرة مواد صلبة ، وسيفدو جمال هذه الحقبة أساساً للازدهار اللاحق . وأخيراً سيمضي التأليف الأدبى قدماً في الازدهار ، حتى القرون التي ستلي ، كما سيحدث الفولكلور الوطنى وبجاريه تحويراً عميقاً في الامور الرسمية . اننا امام عصر يدعو الى الدهشة ، تزدهر فيه مبادئ الفروسية ، وتصبح فيه الثقافة ارستوقراطية ، وتستند فيه المذاهب الدينية الى عوامل التسامح واحترام المؤمن ، وينتصر فيه اللاعنف ولو أقله بصورة مبدئية . ومع هذا فان تاريخ هذه الحقبة السياسى لا يعرف استقراراً إذ تقوم في المناطق الشمالية - الغربية سلطات غير ثابتة تحدث تغييرات مستمرة في مجرى الفتوحات الهندية . وتقوم هذه الحالة قرونًا عدة .

ويبتدىء عز الهند السياسي أيام شندراغوبتا موريا الذي عرفه اليونان باسم سندراكوتوس أو سندروجييتوس . انه أحد أفراد الكشتريا ، وقد ينتسب الى سلالة نندا التي كانت تملك في مغدها ، وقد خلفها على السلطة حوالي سنة ٣١٣ ق . م . (استناداً الى بهتسالي) وقبل استيلائه على العرش من الجائز ان يكون قد تقابل مع الاسكندر ذي القرنين ، وتزعم الثورة التي نشبت ضد حكام المناطق الشمالية - الغربية الهندو - يونانيين . وبعد ان أصبح ملكاً بدأ فتوحاته في كافة أرجاء الهند الشمالية . سنة ٣٥٠ أجبر سلوقس نيكاتور ، مؤسس المملكة السلوقية ، على عقد اتفاق وأقام معه علاقات دبلوماسية بواسطة اليوناني مغستين . وقد عاش هذا الأخير في عاصمة الملك الهندي ، باتليبترا ، وترك لنا وصفاً شيقاً لها . وفي هذه الفترة عرف اليونان حقيقة حضارة الهند المورية وغدت لهم أنظمتها وثقافتها عامل دهشة وإعجاب . وهكذا عرف اليونان مبدأ تقسيم المجتمع الى فئات ، وسيادة البراهمة الوراثة ، وزعامة أفراد الشرمانا التي حصلوا عليها بنبوغهم وتفوقهم . ونقف في كتاباتهم على مدى تفوق حضارة الموريا التي سعت مصر وسورية لتوطيد علاقاتها لها . وسرى فيما بعد دقائق هذا التنظيم (وجه ٦١٢) .

وستبلغ سلالة الموريا ذروة عزها مع أشوكا بريادرشين ، حفيد شندراغوبتا ، وذلك لكمال ثقافته واتساع فتوحاته . وقد بدأ حكمه (حوالي سنة ٢٦١ - سنة ٢٢٧) بارتكاب جريمة اذ قتل أخاه البكر ليستولي على العرش . ثم قام بحملة دموية على كالنغا . ولكن سرعان ما اعتنق اشوكا البوذية وغدا مثال الامبراطرة . ومن الحق القول إن لا مثيل له بين معاصريه . وتظهر لنسبنا تعاليمه الواصلة الينا بواسطة « قوانين النظام » التي نقشها في مختلف أرجاء المملكة سمو مبادئه الروحية وفضائل شخصيته الفذة . وان كانت هذه القوانين قد استلهمت البوذية فهي مع هذا هندية الروح ودون أي تحيز ديني ، تسند النظام الاجتماعي والسياسي والروحي حتى نظام الكون نفسه الى شخص الملك . ويحافظ على هذا النظام موظفون ومبعوثون ونظار ومراقبون عموميون النخ ، ومهمتهم حمل القوم على احترام قرارات الملك وتوثيق العرى مع البلدان المجاورة . وأساس هذا الحكم - الذي ابتداء مع هذا بالبطش واغتيال الاخ - هو مبدأ اللاعنف دون سواه . ويسعى هذا النظام جهده لاسعاد الجميع ، وعدم إرهاب الحيوانات ، وانزال القصاص العادل بمستحقه ، والسهر على صحة الافراد وخلصهم . ومع ان اشوكا أثار ضجة كبرى حول اعتناقه البوذية وانهم الحجاج الكبرنى فانه حمى المعتقدات الاخرى كما يؤكد ذلك ما قدم من هدايا ملكية عدة الى الاجيافىكا . وقد يكون التأم أيام حكمه مجمع بوذي كبير في باتليبترا ، وتأسس المعتقد البوذي في سيلان (حوالي سنة ٢٤٥ ق . م ؟) التي ستغدو في القرون اللاحقة عاصمة البلاد الاندو - صيدية الدينية .

وشملت مملكته عملياً كل أجزاء الهند الشمالية والشمالية الغربية . وامتدت جنوباً حتى منطقة الاندهرا . وأقام الملك علاقات دبلوماسية مع سوريا ومصر ومقدونيا والقيروان والابير أو كورنثيا .

وبعد موت اشوكا تجزأت مملكته رويداً رويداً ، واستقر الحكم المركزي في مالفا ومفدها بزعامة الشونغا (١٧٦ - ٦٤ ق. م. ؟ بالاعتماد على فيليوزات) ثم بزعامة الكانفا (٦٤ - ٥٠ ؟) الذين تولوا السلطة في ذات الوقت مع آخر حكام الشونغا ، بينما كانت الاضطرابات تغير من وضع الممالك الهندو - يونانية وتتقوى زعامة الاندهرا في الجنوب - الشرقي . ومع أننا لا نستطيع ان نتحدث عن نظام مثالي أقامه الشونغا والكانفا كالنظام الذي حققه اشوكا نلاحظ بأنهم غدوا تقاليد ثقافية وفنية زاهرة في المناطق التي سيطروا عليها اذ ترقى الى عهد ملكهم آثار بهرهوت وسانشي البوذية الجميلة . وحذوا حذر سلفائهم فوطدوا العلاقات مع الغرب كما يشهد بذلك العامود الذي أقامه هليودوروس حوالي السنة مئة ق. م. (؟) بالقرب من فيديشا ، وقد كان من مواليد تكسيلا ومندوب الملك انتيالكيداس .

ولكن تتابعتم أثناء القرن الذي دامت فيه سيادة الشونغا والكانفا حوادث في المناطق الشمالية - الغربية سيكون لها تأثير عظيم على مصير الهند بالذات . وبعد تجزئة مملكة السلوقيين حوالي سنة ٢٥٠ ق. م. ، على يد البرثيين ظهرت دولة جديدة مستقلة في بكتريان يحكمها المرازبة وأجبر هؤلاء المرازبة للبقاء على استقلالهم على قتال البرثيين واليرانيين واليونان الذين طمعوا دوماً بهذه المنطقة . ولكن كان هؤلاء المرازبة ذوي طموح وعقلية حربية لذا سعوا ايضاً لتوسيع ممتلكاتهم على حساب المناطق الهندية ؛ وقاموا بغزوات عدة فاستولوا على غندهارا وتوغلوا حتى خليج كبي ، لا بل أخضعوا ايضاً لفترة من الزمن باتليبترا واحتفظوا في البنجاب بمملكة يسوسها الملك مناندر ، بطل « مسائل ميليندا » الشهيرة . وقد توفي هذا الاخير في الفترة الواقعة ما بين سنة ١٥٠ و سنة ١٤٥ ق. م. (؟) . وحوالي الفترة نفسها حصلت اضطرابات سببتها غزوة هون منغوليا الداخلية جرفت معها الى بكتريان جماعات مختلفة وعلى شيء من البداوة كانت قد أتت من آسيا الوسطى ، بينها شعب « السيت » الذي أطلق عليه الهنود اسم شاك . فتضعفت إذ ذاك تضعف شديداً مملكة بكتريان لقدوم هؤلاء المهاجرين اليها بصورة جماعية ، إذ كان هؤلاء المهاجرون يتحاربون دون هوادة . وزالت هذه الدولة نهائياً سنة ٨٠ ق. م. في وقت استقر به الشاك تحت رعاية البرثيين ، في كشمير ثم في وادي الهندوس ووصلوا الى البنجاب ومالفا .

وهكذا حل محل تأثير الحضارة اليونانية في الهند تأثير سיתי - برثي ذو صبغة ايرانية حاملاً معه مبادئ وعوامل من آسيا الوسطى . وغدت قوى البرثيين والشاك المتكاثفة في الشمال - الغربي وقوى الاندهرا في الجنوب سبب سقوط سلالة الكانفا .

١ - إطار المدينة والريف

ان المدينة المثالية الموصوفة في كتب الأدب هي العاصمة الملكية او الامبراطورية . وتتوافق هذه الأوصاف مع الأشكال التي وجدت هنا وهناك في الرسوم المنقوشة ومع الآثار التي عثروا

عليها . وقد تغطي العاصمة بعض المزارع مساحة شاسعة كباتليترا مثلاً التي امتدت ، على ملتقى الغانج والسون ، على طول (١٥) كلم وعرض (٣) كلم . وللعاصمة مظهر مكان محصن ، تحيط بها حفر من الماء تزدهر فيها نباتات الخندقوق وتستعمل كبواليع عمومية . وتتكون الأسوار من آجر غير مشوي وكميات هائلة من الخشب : وقد وجدوا لهذه الأمور بعض الأمثلة ترتقي الى عصر الموريا في راجفريها . وعلى مسافات متفاوتة ترتفع أبراج للمراقبة فيها الشرفات تظهر أثر الحضارة الايرانية ، وتشق السور أبواب ضخمة عدة (غوبورا) ؛ وإن نحن صدقنا مغستين فقد حوت عاصمة اشوكا (٥٧٠) برجاً و (٦٤) باباً ! وتؤلف هذه الأبواب أبنية بكل ما في الكلمة من حقيقة إذ لها أساس من الآجر وينتصب عليها طابقان او ثلاثة طوابق أعدوا فيها منارل ومكاتب لضريبة المرور واهراءات . وأمام الغوبورا يرتفع جسر فوق حفرة السور ويتصل عادة برواق يكونه عمودان تصل قمتها قطعة او عدة قطع من الخشب .

ويضاوي القصر الملكي أو الامبراطوري ، كما يقال ، قصور اكبتان او سوزة عظيمة ، إذ ان آثار قصر اشوكا التي عثروا عليها في باتليترا تظهر تشابهاً مع قصر داريوس في برسبوليس . ولكن لا بد من القول بأن الهندسة هي من وحي هندي اذ دقائق التزيين والتجميل ، كتيجان العمود مثلاً ، تثبت فقط فناً أحياناً . ومبدأ هندسة هذا العصر هو اقامة بناء محكم الاجزاء . وتتألف غالباً الأبنية من طابقين ، وتسقف على شكل قبة أو مهد . ويحيط بالخروق - أبواباً كانت أم نوافذ ام كوى - سهم على شكل دحل القوس ، تصل الى داخلها أخشاب تحمل طناً بصورة مهد . وتسند هذه المجموعة شبكة من الأخشاب ركزوها على عمودين أقاموها على جانبي المدخل . وللطوابق شرف . وتحيط بالقصر الملكي جنائن للترفيه جمعوا فيها العصافير وأقاموا فيها الأحواض لتربية السمك . ومحافضة على سلامة وأمن الامبراطور فقد أعدوا داخل القصر دهايز وأروقة أرضية .

وبيوت القرى هي دون شك أقل عظيمة ، تتألف من بناء مستطيل ذي طابق واحد من السياج ، ولا يقيمون له إلا باباً واحداً وكوة . وسقف هذه البيوت من القش يكون منحنيّاً أو على شكل مهد . ولأبواب القرية والأبنية التي تضم غرف الفيلة سقف منحن يحمي على قطع من الآجر لم يحسن شيها ، وهي كبيرة الحجم (حوالي ٣٠ × ١٨) وتكون أكثر سماكة على أحد أطرافها .

ويوجد نوع من المساكن للنسك والزهاد ، وهي عبارة عن أكواخ من القصب أو الطين تغطيها الأوراق وتنفرد وسط الغابة أو الحقول . وبعض هذه الأكواخ هو أحسن صنماً ، يبنونها دون شك من الطين ويعلو سقفها الذي يكون على شكل قبة وعاء لجمع مياه الأمطار .

وكانت المعابد في أول الامر دون شك حقلاً يحيط به حاجز من خشب (فديكا) ويحتوي على

شجرة ووثد أو حجر مقدس . ولم تتسع كثيراً الهياكل الأولى . وعندما بدأوا يستعملون المواد الصلبة للبناء ، حوالي القرن الثاني ق . م . كانوا قد قضوا دون شك فترة طويلة من الزمن لم يلجأوا فيها إلا إلى الخشب . واستعملوا حجارة صخرية وقد جوفوها ونقشوا عليها نقوشاً ساعين جهم لإظهار دقائق مجموعة الأخشاب التي تشد إلى بعضها بعضاً وتساعد العملة عند تشييد الأبنية . ومنذ هذا الوقت أيضاً أخذوا يبنون معابد ضخمة ، تدعى ستوبا ، تعيد ، بالحجارة والآجر ، شكل التومولي القديمة . وتتكون هذه الآثار من قبة نصف دائرية تستند إلى أسس قليلة السماكة ويعلوها سطح صغير مرتفع ترتكز عليه مظال عدة . ويحيط بهذا المبنى درابزون يضعون فيه خرقاً أو أربعة خروق بشكل ملتو لكل منها باب (تورنا) . وترتقي أجمل أمثلة هذه الستوبا إلى القرنين اللذين سبقا العهد المسيحي وهي تقوم في بهرهوت وسانشي .

وهناك نوع آخر من المعابد ، خاصة معبد بوددهايا ، من أجل موجوداتها الشجرة المقدسة التي تحت ظلها هبط الوحي على بوذا شكيمن . ولا نملك إلا أشكالاً لبيوت العبادة هذه إذ يرتقي المعبد الحالي إلى زمن لاحق جداً . وهو يبدو ، كما تظهر معابد أخرى تحضن نار ذاك العهد الطقسية ، مستدير الشكل ، أي عبارة عن فسحة ذات أعمدة يعلوها سقف على هيئة مهد وتحيط بالشجرة .

وباستثناء الستوبا فإنهم لا يتقيدون لتشييد المعابد بالمبادئ الهندسية ذاتها التي اتبعوها في الأبنية المدنية .

وتطور أثار هذه المعابد ففاق عظمة أثار هياكل الطور الفيدي وقد أطنبت الآثار الأدبية بوصفه ، ولكن لا يبدو بأن أصناف الموجودات قد تعيرت كثيراً ، إذ تقوم أساساً على الأرائك والعروش والأسرة والمقاعد . وهناك أوصاف زاهية لأواني الطبخ والمائدة . إن الأجناس متنوعة فمنها ما هو مخصص للأغراض الطقسية كالأواني الشجلاء (الكومبها) النحاسية ، والأواني ذوات القوائم والعنق (بورنا كلشا) ، والأباريق (كوندريكا) والأواني لماء النساك (كمندالو) . . . وكلها أوانٍ ستكتسب أهمية كبرى في المعتقد البوذي . وللملاعق أيضاً غاية طقسية إذ تستعمل في تقديم الذبيحة البراهمانية . ولأكل يلجأون إلى القصاع دون الصحون إذ عليهم أن يرموها بعد استعمالها ويستبدلونها بأوراق . وعندما للشراب قناني وقوارير — يحملونها في شباك — وأقداح وكؤوس . ويغربلون الحبوب بواسطة مزار مستطيلة (شوربا) ثم يسحقونها في أجران بمدقة خشبية ، ويصنعون عجناً للحلوى يسوتونها بمطمة على أخشاب تستند إلى الأرض بواسطة أربع قواعد قصيرة المدى . وهناك طباق وسلال من القش تتم هذا الأثاث ؛ ويمكننا أن نضيف إليه الشعاع والقناديل وعدداً كبيراً من العلب والصناديق الصغيرة (المعدة لحفظ الأفاويه والطيوب والحلى والثياب والذخائر) والمرايا المصنوعة من قرص معدني مصقول مثبت إلى مقبض غالباً ما يكون من العاج . ويجب أيضاً تعداد المذبات والمظال والاعلام التي ترافق العاهل في حله وترحاله

والتي تستعمل في تقديم بعض الذمائم . والمظلال مقبض طويل من الخيزران تنطلق من قمته قطع صغيرة تحفظ المظلة مفتوحة . وتتكون الاعلام من مقبض قد تؤلفه مراراً مجموعة من العصي تربط هنا وهناك . ويعلمو هذا المقبض رمز وتشد اليه خرقة طويلة نقشت عليها مراراً اشكال شمسية وهريفة او نجمية . وللتسلية يصنعون ألعاباً من الزهر بواسطة أثمار مجففة او قطع خشب او عاج . وللموسيقى اخيراً مقام ممتاز ان كان في التطوافات الملكية والغدوات الحربية وأعياد القصور والهيكل . وتتألف المجموعات الموسيقية من النساء - للرقص - والرجال . ويحمل أفراد هذه المجموعات طبولاً مختلفة الاحجام والاشكال ينقرون عليها بمخاصر مستقيمة او معكوفة مشدودة الى معانق . وترافق الأناشيد التي يدعمها نقر الدف أنغام المزمار والعود . وسيبقى العود ، وقد استعملته النساء خاصة ، الآلة المفضلة عند الفئة النبيلة وذلك حتى القرن السابع تقريباً .

وللأسلحة مركز مرموق في هذا التعداد الذي يعكس حياة النبلاء - المحاربين اذن - أكثر من حياة العوام . والسلاح الأساسي هو القوس ، ترافقها طبعاً النبال والأتراس . وعندما يوترون القوس يرفعونها الى مستوى الكتف ويشدون الوتر حتى الأذن . والنبال ذات رأس مثلث الزوايا قد يريشونها أو لا ؛ وتوضع داخل جعبة يحملونها على ظهرهم دون ان نعرف شكلها اذ لا يظهر إلا أعلاها . ومن أسلحتهم « البيضاء » الحسام والسيف يضعونها في غمد تغطيه قدد من جلد متشابكة . وتعلو رمانة السيف قطعة تفصل بينها وبين النصل وتزيد عنه قليلاً . وتبدو الشفار الحادة التي عثروا عليها ، خاصة السكاكين ، منفوخة في وسطها . ويجب عند جرد الاسلحة ذكر الحراب ذات الرأس المتناسق . ومن أصناف الأدوات نعرف الفؤوس ذوات المقبض والمناجل لقطع الاعشاب . ويستعمل الباحثون عن العاج منشاراً يدوياً صغيراً . ويلجأ عادة سواس الفيلة الى نوع من السياط محددة الرأس كالكلاب تنفصل اسنانه الحادة عن المقبض بشكل شبه عمودي . ولا نجد إلا اشكالاً قليلة للتروس ، وهي مستطيلة ، مستديرة في أعلاها ، مستقيمة الاضلاع في أسفلها نقشوا عليها رسوماً للتزيين او تحمل قدداً متشابكة على جهتها الداخلية .

ويعد الفيل والحصان والجل من حيوانات الركوب . ويقبضون على الفيل البري بواسطة فيلة قد دجنوها وأعدوها لهذه الغاية . وقد يحمّدون حركة الفيل لفترة ما يربط ذنبه الى خرطومهم بواسطة حبل يمر تحت بطنه ، ويثبتون الخرطوم دون حركة بواسطة قطعة خشب تثبتها بدورها الربط . ويلبسون الحيوان لتزيينه عقداً وتاجاً ، ويغطون ظهره بطنفسة تحمل رسوماً هندسية تثبتها في مكانها حبل قوي يمر تحت البطن ، ويشدون الى قدميه الجلاجل ، ويلقون على عنقه وشاحاً طويلاً يحمل في طرفيه جرسين يتدليان حتى ركبتى الحيوان الذي يصطدم بهما عندما يسير .

ويلقى على ظهر الحصان وشاح قد يصل الى الذنب توضع عليه طنفسة كالبردعة ، وحزام مردوج قد يستعمل كربط ، ولكن لا يظهر أي أثر للركاب حتى ان استعمال الربط أمر نادر

ومشكوك فيه . وقد يظهر مراراً نوع من الغطاء على ركبتي الرجلين الاماميتين . ويحمل الرأس لهماً تثبت فيه ريشة شبيهة بالمذبة وحكمتين تثبتان أيضاً برباطين يمر أحدهما على الناصية والآخر تحت العنق ، ورسناً و « سيراً للأنف » وهو عبارة عن رباطين يمر أحدهما على قسم الرأس الممتد من الاذنين حتى الخيشوم والثاني تحت الذقن ، وشكيمة في الفم .

وفي الشمال يركبون الجمل أيضاً ، وتوصلاً لهذه الغاية يربطون حبلاً بقطعة صغيرة من الخشب توضع في أعلى الخيشوم ، كما يفعلون اليوم .

والحصان والثور هما من حيوانات الجر . ويجر الفرس عربية لها دولابان يذكّر شكلها عربية الرومان . ويشدون الى هذه العربية حصانين أو أربعة على كلا جانبي بحر العربية المعقوف الذي يحمل نيراً عمودياً ، وتربط الاذنان بكل دقة الى جوانب الحيوانات ؛ ويحشا على السير سوط من قدد الجلد المحبوكة والتي يربطونها مراراً بعضى . ويجر الثيران ، وقد زين جيدهم بعض المرار بعقد ثقيل ، عربات من دولابين ، وقد يلقون عليهم غطاء ويضعون على رقبتهم النير . أما الاحمال الخفيفة فينقلها الرجال على ظهورهم مستعملين قطعة خشبية مقعرة تثبت على جانبيها حبلان يحفظان التوازن .

ولا بد من الاشارة ، عند ذكر وسائل النقل ، الى المراكب والسفن التي لا تملك عنها إلا رسوماً نادرة . وللمراكب كوئسل معقوف ، ويرى المرء بوضوح الربط التي تشد قطع الخشب بعضها الى بعض : ويظهر بأنها كانت تدفع الى الامام بواسطة مجداف يعتبر كالمجدف الخلفي ودقة قصيرة على شكل الآلة التي تضرب بها الكرة الطائرة . ولبعض مراكب الأبهة جدران على شكل عقاب يستند اليها ضرب من السرادق ذي الأعمدة .

٢ - الحياة الاجتماعية

تحتفظ الزراعة بالمركز الاول في لائحة الاعمال الهندية ، ولكن تقدمت كثيراً مع المصادر هذه التجارة والصناعة حتى أصبحتا تؤلفان حقاً أساس ازدهار المملكة . فقد أحسنوا تنظيم التجارة أكثر من العهود السابقة ، وألّف التجار نقابات وخضعوا لقوانين وضعت بكل عناية . وهناك مراقبة على الاثمان والموازين والمكايل . ونظموا أيضاً أمور القوافل وفرضوا عليها دفع ضرائب ومكوس . وهي تتألف من عدد كبير من العربات يقودها ادلاء لاختراق الصحارى وترافقها الاطواف لاجتياز الانهر . واشتد التبادل التجاري مع البلاد المجاورة كاستيراد الجلود والحرائر من آسيا الوسطى والصين وتصدير الحلى والاسلحة والافاويه . وازدهرت أيضاً التجارة البحرية في البحار او على الطرق النهرية . وألحقوا هذه التجارة بشؤون بحرية الدولة التي تقرر الملاحة وتعد المراحل وتراقب المرافىء وتدافع عن الشواطىء ضد القراصنة . وتشمل أيضاً الصناعة التي تغذي التجارة اعمال النسيج وتصنيع المعادن .

والصيد هو تسلية كبرى عند العظماء وأداة كسب القوت عند صغار القوم . ولموسمه عز وعظمة عند الملك والنبلاء الذين يذهبون الى جولات شاسعة ترافقهم نساؤهم ووزرات خدمهم ، ويتقدمهم رجال الموسيقى حاملين الدفوف والصنوج ، وينتظمون مواكب مواكب على صهوات الاحصنة أو ظهور الفيلة أو العربات يحيط بهم حراس مدججون بالسلاح . وتجنس من الحرب عندما تكون مظفرة فوائد كبرى ، وقد أتوا على وصفها أكثر فأكثر . ويستلم القيادة فيها رجال الكشتريا والملك بالذات اذ هو محارب لا بسل مبدئياً المقاتل الاول . ويتألف الجيش من المشاة وفرق الخيالة وبمجموعات من الفيلة والعربات . ويكون الجنود من المرتزقة أو من الرجال الذين يدعون للسلاح في الوقت المناسب . وهناك فرق مختصة للهجمات في الجبال أو الغابات . ويشمل فن الحروب ، في ما يشمل ، علم بناء الحصون الذي يفرض معلومات مختلفة ومتعددة .

وتكون الضرائب اخيراً مورداً خصباً يقررونها حسب معدل محدد وتستعمل للقيام بنفقات الملك والوزراء والموظفين والجيش والأرامل والبؤساء . وتضاف هذه الضرائب الى الارباح التي يجنيها الملك من أملاكه التي تتكون من أراض زراعية وغابات ومناجم ومصانع وسجون . وينفقون أيضاً هذه الضرائب على الاشغال العمومية التي تهتم بالطرق وقنوات الري والخزانات النخ . ويستفيد البراهمة أيضاً من الضرائب ، وفي البلاد التي اعتنقت البوذية ، الرهبان الذين يعطون علاوة على ذلك التقادم والهبات . ويخصص الملك - وله وحده الحق بسك النقود - مبالغ كبيرة لتأسيس أماكن دينية ويهبها ملكية الاراضي الزراعية ويعين لها الأشخاص الذين يتطلبهم استثمارها . ويحذو حذوه النبلاء والتجار الأثرياء اذ يعدون من اعمال الرحمة والعبادة الهبات التي يقدمونها بصورة مستمرة لرجال الكهنوت .

ان المجتمع هو اكثر تنوعاً وأحسن تقسيماً من مجتمع العمود السابقة ، مع أن التجزئة الاجتماعية لم تصبح بعد أمراً مؤكداً وهي تختلف باختلاف المناطق والمعتقدات السائدة . ويظهر عدد كبير من الوظائف في الحاشية الملكية أو الأوساط البوذية ، لم يأتوا على ذكرها سابقاً .

ومع ان رجال الكهنوت هم منافسون أشداء للملك وسلطته ، يبقى العامل الشخصية الاولى في السلم الاجتماعي . وينتخبه مبدئياً النبلاء والشعب استناداً الى فضائله او بعض العوامل الخصوصية ، ولكن غداً عملياً انتقال السلطة الملكية أمراً وراثياً . ويمسح ملكاً باحتفال مهيب ترافقه زوجته الملكة ، ويكون هذا التكريس برش الملك بالماء (ابهيشكا) يقوم به الكاهن المحتفل وكبار البراهمة والكهنة وجمهور الحاضرين . وتمشياً مع تقاليد العهد السابق يقدم الملك (ان كانت له المقدرة المالية) ذبيحة الحصان ، وهذه الذبيحة تثبت سلطانه . وللملك منازل عدة ، حتى في عاصمته ، ولا يقضي قط ليلتين في الغرفة نفسها . ويرقظونه من النوم كل

صباح في ساعة محددة وعلى أنغام الموسيقى ، ثم يأتي حالاً كاهن القصر ليسدي له التحية ، ثم يستمع الملك الى تقارير وزرائه ويأتي الى قصر العدل . وبعد ذلك يستحم ويسدل ويتناول طعامه .

وبعد ان يتم المعامل واجباته الدينية يستقبل مراقبي الدولة ورجال الاستخبارات . وبعدئذ يحق له اللهو والتسلية ، فيقوم ببعض الالعاب (رمي القوس ، لعبة الزهر النخ) ويتنزه في حدائق القصر ويستعرض الفيلة والخيالة . ولكن يجب ان يطلعوه دوماً على أمور الدولة ان كان على مائدة الطعام او وجد في دار الحرم ، او في غرفته ، او في مزارعه ، او في العربة ، او في حدائقه . وللعامل الحق في التقرير ايما كان ، ويجب ان تنفذ اوامره بسرعة كلية حتى ولو كانت شفووية . واخيراً يحتفل بطقوس غروب الشمس ، ويستحم ويتناول طعامه ثم يختلي في جناحه ترافقه انغام الموسيقى . ويعتنون اعتناء دقيقاً بكل ما يمت الى شخص الملك ؛ ويربون في القصر ببغاوات وطواويس وبطاطا لتكشف بأصواتها عن وجود حيات سامة ، كما يعتنون بالسموس لقتل هذه الزحافات . وهم يخضعون للتفتيش الادوات التي يلجأ اليها العامل لاستعماله الخاص كما يراقبون الاطعمة التي تقدم له والادوية التي يقررونها له .

ويحيا الملك حياة بذخ وعظمة ، ولكنه يبقى بالدرجة الأولى مقاتلاً يشترك شخصياً بأعمال الحرب والصيد . وأساليب لهوه هي أساليب الرجولة تقوم على اعمال الصيد والمصارعة والالعاب اخرى مختلفة تشترك فيها غالباً معه نساء القصر . ولا يجب ان يصبح مطلق الصلاحية مستبداً ، وهو يحكم المملكة يحيط به مستشاروه واصدقاؤه واقرباؤه ، ويأخذ بعين الاعتبار آراء رؤساء النقابات وفصائل رجال الامن . وتشدد النصوص كثيراً على صفته الملكية : فهو من اصل ديني ومحور العالم الانساني وصورة الآلهة على الارض وخاصة تجسيد رب الارباب ، اندرا ، الذي يعيد على الارض بلاءه في الحروب وعدالته ، كما انه يتصل اتصالاً وثيقاً بالكوسموس ويعكس من ثم في هذا العالم افعاله وخصائصه .

ويستند تنظيم المملكة الاداري والسياسي الى سلسلة رتب شبيهة بزميلاتها في العهد الفيدى : مختير القرى فنواب المديرين فالمديرون فحكام المحافظات فنواب الملك فالوزراء . ويقوم هؤلاء الاخرون بتسيير أمور الاشغال العامة والمسائل المالية والشؤون الداخلية ، ويحتكر الملك حق سك النقود . ويوجد مبعوثون ومراقب وحاكم يتجولون في فترات محدودة (كل ثلاث أو خمس سنوات) في مختلف أرجاء المملكة للمراقبة والتفتيش .

وتشدد وطأة المراقبة الملكية الدقيقة على كل شيء وفي كل مكان : في بيوت الحرم وفي الحقول حتى لدن المؤسسات الدينية . ويقوم بهذه المراقبة مفتشون ملكيون لا يخضعون إلا لسلطة الملك ويحققون العدالة استناداً الى أصول محاكمات موحدة . وللقضاء محاكم مختلفة يلحق بها قضاة اختصاصيون أنيطت بهم مهمة إحقاق الحق ومعاقبة الجرائم . ومع هذا فقد احتفظوا بمبدأ

العذاب الجسدي كالتعذيب وبثر الاعضاء . ويقررون السياسة الخارجية استناداً الى المعلومات التي يقف عليها الجواسيس ورجال الشرطة . وتصلح جميع الوسائل للاستفادة من ضعف العدو مما يدعو من ثم الى تقدير امكانياته تقديراً دقيقاً ، كما يصدق هذا القول عن الشعوب الخليفة . وهم يحبذون كثيراً تنمية واستمرار الشقاق بين الاعداء الذين يكونون قد تحالفوا معاً . ويعتبرون الخيانة ويعترفون بها وسيلة على نفس المستوى الذي ينظرون فيه الى قوى السلاح .

ان وضع وطرق حياة الكشتريا ، من نبلاء ومحاربين ، هي شبيهة جداً بوضع وطرق حياة الملك . وللكتيرين منهم وظائف مهمة جداً كقائد الجيش الذي تعيد حفلة استلامه السلطات ذكرى حفلات تتويج العاهل . ويتمتع أفراد الكشتريا بأفضل الامتيازات فهم يستطيعون تقديم الذبائح ودرس الفيدا وعليهم ان يجزّلوا العطاء المستمر لرجال الكهنوت .

ويعتبر البراهمة غالباً أكثر قوة وأهمية من افراد الكشتريا وحتى من الملك نفسه . ومنذ العهد الفيدي ازداد سلطانهم وذلك بالاستناد الى معرفتهم فنون السحر الذي يسيطر على جميع أعمال الحياة الفردية والرسمية . وتزداد كثيراً ثروتهم للهبات التي يقدمها لهم باستمرار الملك ورجال الكشتريا والتجار . ويغدو أعظمهم سلطة كاهن الملك الخاص (بوروهيتا) وينتخبونه نسبة لمعرفته معرفة دقيقة جداً الفيدا والسحر والسياسة . ويلعب البراهمة في الدولة دوراً عظيماً إذ هم الذين يقومون بأفعال العبادة والطقوس ، ويصبحون من بطانة الملك الخاصة ، ويغدون له مستشارين . ويحترّمهم الشعب ويرهبهم . وللنساك منهم ، رجالاً كانوا أم نساء ، الاحترام الأكبر ، وهم يقضون حياتهم في صوامع ويتبعون طرق عيش قشف .

وقد عاد نمو وازدهار التجارة بالغنى على فئة من التجار الذين ألفوا نقابات وانتدبوا رئيسهم ليمثلهم أمام الملك . وقد يصبحون من موظفي العاهل . ويتضح غناهم غالب الاحيان لكثرة وأهمية الهبات التي يقدمونها للأماكن المقدسة . ويتصل بهذه الفئة رجال المصارف الذين يملكون غالباً ثروة طائلة . ويؤلف عامة الشعب الفلاحون وكل الذين يرتزقون من تربية المواشي والصيد ، والعمال والصناعيون . ولا بد من الاضافة الى هذه الجماعات المهرجين والمصارعين والمغنين والسحرة والأطباء . وقد امتدح مغستين مهارة رجال الطب الذين لا يستنكفون عن الاعتناء بالحيوانات ايضاً . ونجد في اسفل السلم الاجتماعي فئات عدة من الموظفين ورجال المهن : سكان الأدغال ، الغرباء ، الصيادين ، قاطعي الاعشاب ، سواقي العربات ، سواس الفيلة ، ساسة الخيول ، حاملي وحاملات المظال والمذبات والاعلام ، الجنود ، الموسيقيين وأخيراً الذين يقومون بأعمال شاقة ، كالذين يفرشون البلاط في الحدائق ويحملون الأثقال الخ .

ومع الزمن وضعوا قواعد وقوانين لحياة الطبقات الرفيعة ، وان هي لم تتبدل بصورة جوهرية . ومنذ هذا العهد قسموها أربع رتب تدخل في اطارها مختلف مراحل حياة الرجل . وينتقل أفراد هذه الفئات بصورة تدريجية من صفة طالب (براهماشارين) الى منزلة رب البيت (غريهستا)

الى رتبة زاهد (فانبرستا) واخيراً الى سلك ناسك او راهب (سميناسين) . والبراهماشارين هو فعلاً خليفة الطالب الفيدي . وتستمر دراسته على أقل تقدير اثني عشر عاماً وقد تدوم ثمانية وأربعين عاماً ، وبصورة استثنائية ، الحياة كلها ا وليقبل الشاب في فئة البراهماشارين عليه ان يتقدم بطلب الى معلمه (غورو) ، وان يهديه اطعمة وتقادم تعد لاضرام النار المقدسة . ويستفسر الغورو اذ ذاك عن مولد واسرة الطالب . وان أسفرت تحرياته عن نتيجة حسنة يقبل الطالب اذ ذاك في بيته حيث يجتمع والحالة هذه اربعة او خمسة شباب . وتقام الحفلة التي ترمز الى بدء عهد التلمذة وهي تشير الى ولادة البراهماشارين الروحية . ومنذ ذاك الحين تصبح حياته صعبة جداً ويلزم نفسه بفروض في غاية الشدة . ومن أسس المبادئ التي يخضع لها قهر الجسد والنفس والقيام بأعمال جسدية وعقلية . وفي كل حال عليه ان يطيع معلمه طاعة عمياء . وهو لا يلبس إلا رداء واحداً قائماً مصنوعاً من جلد وعل اسود ، ويبدأ يومه بالنهوض باكراً قبل معلمه ، فيقدم واجب العبادة للشمس ويكرّس قلبه للآلهة ، ثم يذهب لتحية استاذة . وهو يستحم ثلاث مرات في اليوم وياً كل بعد معلمه طعاماً حددوه بكل دقة . ويقضي هذا الطالب نهاره واقفاً وليله جالساً ، وهو لا يسعى لإيجاد ملجأ عندما تنهمر الامطار ولا يغطي رأسه عندما يشتد البرد ويحتاج الانهار سباحة . وعليه ان يحافظ على العفة بكل دقة ويتم بعض الاعمال اليومية كاستجداء الطعام لمعلمه والعناية بنار التقادم وتنظيف المنزل والاعتناء بالماشية وزراعة الحقول . وهو يرافق الغورو في اسفاره ويساعده في اقامة الحفلات الطقسية . وتصبح علاقاته مع الغورو كعلاقات الابن مع ابيه . وعليه اخيراً ان يعكف على الدرس . وتختلف الدراسة تبعاً للفئة الاجتماعية ، فان كان من البراهمة أعدوه ليصبح معلماً ، وان كان من افراد الكشترية علموه استعمال القوس والسيف وحيل المصارعة والقتال وقيادة الفيل او العربية وركوب الخيل والقفز والسباحة . ويعلمونه ايضاً فنون الكتابة والرسم والتعميل والطب . ويعدونّه ، ان انتمى الى طوائف البراهمة والكشترية او الفيشيا ، ليصبح رب منزل ممتاز . وعلى كل حال عليه ان يحفظ عن ظهر قلبه الفيدا ويتمرن على حسن الالقاء . ومواد هذه الدراسة هي خاصة نصوص الريفندا والياجوس والسامتن ، وعلوم اللفظ والطقوس والصدف والتفسير والقياس والفلك الخ . وطرق التعليم التي يتبعها الغورو لتدريس الطالب هذه المواد هي طريقة التعليم الديني اي القاء السؤاـل وسماع الجواب . وعلى هذه الطريقة ان تقود الطالب الى مراقبة ذاتية دقيقة تثبت فيه كل هوى وتسيره نحو السامنياسا او الى الستامل الروحي الذي يقتل فيه معنى الازدواجية ويقوده نحو اليوغا .

وتختلف مدة الدراسة عند البراهماشارين ، مع أنهم حددوها مبدئياً بثمانية أعوام ان كان الطالب من الكاشترية ، واربعة فقط ان كان من البراهمة . ولكن لا ينتهي طور الثقيف هذا على كل حال قبل ان يتم الطالب ربيعه السادس عشر . وعندما تنتهي سنو الدراسة يأخذ البراهماشارين حماماً طقسياً ويبدل ثيابه كما كان يفعل قبل الطالب الفيدي . ويمنح البراهماشارين

رثبة جامعية تتناسب مع العلوم التي يكون قد اقتبسها في سني الدراسة ، ويهجر اذ ذاك معلمه مقدماً له الهدايا .

وحالما ينتهي الشاب من حالة البراهماشارين يعود الى أسرته حيث يستقبل بكل حفاوة وترحاب . ويكرمون وفادته اينما حل ويعلنون بأنه أصبح اهلاً للزواج . ويمكنه مع هذا ان يدد سني تثقيفه ليصبح رب منزل (غريستا) ممتاز . ولبلوغ هذا الهدف عليه ان يتابع تعاليم اختصاصيين مشهورين وأدباء مشهود لهم يتجولون دوماً في انحاء البلاد . وباستطاعته ان يذهب الى جامعات مختلفة (اشراما) حيث يلقي الفن والأدب وأصول تجميل الجسم وعلم الحيوان والطبيعة والهندسة الخ ، وبإمكانه ان يشارك في مجاملات الاكاديميات التي تجتمع في مختلف المحافظات ، ويحضر المؤتمرات التي يدعو اليها الملك والتي تفتح له أبحاثها وتبادل الآراء فيها آفاقاً أوسع على ثقافته الفلسفية والطقسية .

وبعد ان يصبح غريستا عليه ان يؤسس اسرة ويتخذ زوجة تنتمي الى فئته الاجتماعية . وعليه ان يقوم بالطقوس الخاصة ، ويعتاش من مهنته ، ويكون مثلاً للتقوى وضبط النفس . وتخضع حياته كلها للمقررات الطقسية التي لا حصر لها والتي تعنى بأدق الاعمال اليومية وأقل ظروف الحياة شأنًا . وهو الذي يربح أود أسرته ويمد طعامه ويرحب بالشحاذين ، ويقدم الهبات ويدوم كل صباح على درس الفيدا .

ولا يعتبرون الغريستا رجلاً كاملاً الا اذا اتخذ له زوجة . ولكن لهذه الزوجة منزلة اجتماعية أقل امتيازات من زميلتها في العهود الفيدية . ومع هذه يقبلونها في «الاشراما» حيث تتلقى ثقافة عالية تكون موادها الرقص والغناء والفلسفة . وهي تخضع الخضوع الكلي لزوجها ، أو بحالة موته ، لابنها البكر ، وان هي ساهمت مع هذا كلياً بحياة الاسرة واحتفظت كأم بمركز مرموق (حتى غدا لها في هذا المضمار الاحترام الذي أبدوه للوالدة الإلهية أو الآلهة الكبرى) . ومع انها تشارك في الطقوس اليومية وتبقى موضوع احترام عميق فهي لا تشترك قط في إقامة الذبائح الكبرى . ويحرم عليها بصورة جازمة ان تعقد زواجاً آخر ان تزلت ، اذ ان الزواج سر لا يجوز هتكه . ولا تستنكف الزوجات الأكثر صلاحاً من حرق أنفسهن على كومة الحطب المعدة لحرق جثة الزوج . ونجد في كتب الادب امثلة على نساء قد تكون على طرفي نقيض ، وخير مثال للمرأة هو « سيتا » زوجة « راما » في الرامايانا التي تصبح مثلاً للسعادة الزوجية لأمانتها وجمالها وطهارتها وصفاتها العائلية . ولكن هناك تلميحات عدة تصور لنا المرأة شخصاً فاسقاً أصلاً وسيء الاخلاق ومحبةً للمشاجرة وغير صادق لا يؤمن شره وتصعب قيادته . لذا ينصحون الزوج ليبقى « على حذر من زوجه » . ولكن يجب دوماً مساعدة الزوجة حتى ولو تركت البيت الزوجي .

وينتقل المرء الى حالة ثالثة عندما يشعر باقتراب الشيخوخة اعني حالة الزاهد . فهو ينفرد اذ ذاك في الغابة ، وتستطيع زوجه اللحاق به . ويسكن في منسك يجاور نبع ماء ، ويكون

عبارة عن اكواخ من الاغصان او بيوت حقيرة من القش . وتخصص احدى الغرف لنار الذبيحة التي يكون الفانبرستا قد حملها من بيته عندما غادره . ويرتدي ثوباً من قشر الشجر تكون خيوطه قد اتخذت من ضغط قشرة بين حجرين . ويرخي شعر رأسه ويقتات من الثمار والجذور ويضيف جميع من ينزلون على الصومعة دون النظر الى فئتهم الاجتماعية . وهو يعيش بين عصافير وحيوانات الغابة يقيتها ويعتني بها . ويقوم عمله الاساسي بايجاد الحطب لابقاء نار الذبيحة ملتهبة . وهو يرزم قطع الحطب هذه رزماً ويحملها الى الصومعة يغذي بها النار التي يقيم عليها الطقوس المقررة بواسطة ملاعق مختلفة الاشكال والاحجام . وعليه ان يحافظ على عفة دقيقة ، لذا فهو يحيا من جديد بعض مظاهر حياة البراهماشارين ، ويستحم ثلاث مرات في اليوم ، ويفترش التراب وينهك جسده بالتقشف ، ويطالع الفيدا ويتأمل بمحتوياتها .

واسمى مرتبة يصل اليها الانسان هي السميناسين ، اذ يصبح ناسكاً متجولاً وشحاذاً . وهو يتبوأ اذ ذاك أعلى المراتب واكثرها احتراماً . وهو يقر بذنوبه جهراً ويستوعب مبدئياً المعلومات الأكثر دقة وعمقاً عن الفيدا والسحر والطب واساليب النسك .

وفي هذا العصر غدا سهلاً على الفئات الشعبية ان تساهم في اعمال العبادة . ولكن لن يعم هذا المبدأ ويبلغ الدروة إلا في العهد اللاحق . وتبدل افعال العبادة الخصوصية اذ تحمل السمدهيا محل عبادة النار ، وهي تقوم على عبادة الشمس عند شروقها ، واعمال تطهير متنوعة ، وتمارين تنفسية ترافقها التأملات . وتحفظ تقادم الانواع النباتية بمرکزها المرموق .

والارز هو اساس المواد الغذائية . وسيحرم اكثر فأكثر أكل اللحم ، وكان مادة غذاء في العهد الفيدى ، خاصة في الاوساط البوذية : فقد لاحظ اليونان بأن الهنود لا يتناولون اللحم ، وحرّم اشوكا ذبح الحيوانات في الطقوس وقتل الماشية . اما الارز ، فهو على قول اليونان ، عماد الغذاء . ولا يبدو بأنهم قد حرّموا شرب الكحول ، ولكن من الممكن ان يكون تعاطيها قد حصر ضمن النطاق الطقسي . ويبقى الارز في هذا المجال الأساس ايضاً .

ان الجماعة التي سبق لمغستين وعددها ستظهر بعد فترة قليلة على النقوش النافرة .
الثياب والحلى
وباستطاعة المرء ان يتحقق بسهولة عن تقدم وتطور فن الحياكة والصباغة . وتبدو منوعات عدة من الثياب والحلى ، تبعاً للفئات والوظائف . والاقمشة الاكثر تداولاً هي من القطن والحرير . وقد استرعت نعومتها المؤلفين اليونان فامتدحوا صفات الثياب الموصلية . اما الثياب الحريرية فهي شفافة ولينة وخفيفة الوزن جداً . والالوان كثيرة العدد ايضاً . وتأتي أشهر هذه الاقمشة الحريرية من الصين وبناريس .

ويرتدي الملك وأفراد الكشترى قطعتين من القماش : تلف الاولى حول العنق وتتدلى حتى الكتفين (اوتتاريتا) ، وتربط الثانية حول الوركين وتمرب بين الفخذين لترتفع الى الظهر حيث تثبت بواسطة زنار . وفي ذاك الزمن القديم استطال الثوب السفلي (حتى وصل الى الكعبيين)

وتركوا فيه طيات ملتوية . ويحذو الموظفون الكبار وذوو المقام الرفيع والوزراء حذو العاهل او الامبراطور فيلفون حول رأسهم وشاحاً طويلاً يعطونه شكل العمامة . وللعمامة اشكال مختلفة جداً تحمل عقدة كبيرة على قمة الرأس او على الجانب . ويحتذي الملك في بعض الظروف نعلاً يكون عادة من قطعة جلدية او خشبية ثبتت عليها قدة تمر فيها الرجل .

ويرتدي الحياالة والحراس والصيادون وسواس الفيلة والعربات الخ . . غلالة ضيقة ذات اكمام قصيرة او طويلة تحمي صدرهم ضد الجروح التي تصبغ من صميم وظيفتهم . وقد يكون لهذه الغلالة ، علاوة عن الهدف التي اتخذوها لأجله ، اصل غربي تبنيوها في الهند كما كانوا قد اقمروها في ايران . ويضيفون الى هذه الغلالة ضرباً من التنانير المسننة او ذات الطيات والتي تستقر عند الركبة ، او من انتاريات قصيرة . وهذا هو زي الجنود ايضاً الذين يبقون مراراً نصفهم الاعلى مكشوفاً ، ويلفون حوله مع هذا حبلاً ، وقد استمر الشبراسي على هذه الحالة حتى الفترة المعاصرة . وهذا هو زي « الغرباء » ايضاً : وهم غالباً سكان المناطق الشمالية والغربية حيث اهاب بهم المناخ وتأثير الوسط الايراني على لبس زي آخر يكون اكثر حرارة . فهم يرتدون ثوباً اطول ، ونوعاً من السراويل ونعلاً تشدها الربط الى الساق ، وقبعة مخروطية الشكل تعيد الى الدهن لباس الرأس « السيتي » .

ويكتفي الفلاحون وسكان الغابات بوزرة بسيطة من القماش او الاوراق . اما النساء فيستعملون جلد الوعل او نسيج قشور الشجر (فلكاللا) . ويبقى الزهاد عراة (ديمبارا) او يكتفون بوزرة صغيرة جداً . وهم يبدلون شعر رؤوسهم الطويل على اشكال مختلفة ويبقون بعض المرار على لحاهم . ويرتدي الرهبان الشعاذون ثياباً رثة يخيطنون بعضها فوق بعض على شكل معطف . اما رهبان المدن فيرتدون ثوباً (كشايا) صبغ باللون الاحمر . ولا يدعون وبراً على ابدانهم كما يملقون رؤوسهم .

ويتألف زي النساء من وشاح وتنورة خفيفة جداً . ويضعن على رؤوسهن عمامة كثيفة يعطونها شكلاً يخالف شكل عمامة الرجال او حجاباً يغطي الشعر بكامله ويتدلى الى الظهر . وشعر النساء كثيف وطويل جداً ومن يصففنه صفائر صفائر او يعقدنه عقداً تتخللها الازهار . ويضع سكان الغابات على رؤوسهم ضرباً من التيجان ذات الريش (؟) ويقصون شعرهم حتى الكتف . اما النساء المتقشفات فيضعن على رؤوسهن ما يضعه الرجال المتقشفون .

ويبقى الأولاد عندما يكونون صغار السن عراة او يضعون وزرة ضيقة . اما الصبيان والصبايا فيرتدي كل منهم ثياب جنسه كما يفعل الفتيان والفتيات . ولكن يضع الصبيان مع هذا عمامة خصوصية لها ريشة او شرابة تستوي على قمة الرأس ، كما سيفعل لاحقاً ممثلو بالا كريشنا .

وتكمل هذا الزي اشياء عدة للزينة مصنوعة من الذهب او الفضة او العاج او الصدف او قرون الحيوانات او الحجارة الملونة . ويتزين الرجال كالنساء ، ولا نجد فرقاً كبيراً بين ادوات

تبرج هؤلاء وأولئك . وهم يضعون عادة عقدين ، ويكون أحدهما ، وهو الأقرب إلى العنق ، مستدير الشكل ، بينما يتهدل الآخر على الصدر .

ويحتوي عادة العقد الأول عامل زخرفة من الزهر ويربط إلى الظهر بسلكين معقودين ينتهي كل منهما ببلوطة مذهبة . ويتألف الآخر من سلاسل عدة ثبتت الواحدة بجانب الأخرى بواسطة قطع على شكل قلانس فاصلة عثروا على أمثلة منها في الحفر التي أجروها سنة ١٩٥٠ في مورتاليون (مقاطعة بونديشيري) . ولدينا مجموعة كبرى من هذه العقود والقطع يتوافق بعض منها مع ما استعملوه لتزيين الثيران والجمال والأحصنة .

ويضع الرجال على سواعدهم بعض الأشياء وهي تتألف من حلقة تحمل سعة صغيرة تظهر على أعلى الذراع . ويلبجأون أيضاً إلى أساور تكون بعض المرات ضرباً من الأكام الصغيرة فتتألف من جواهر تتعاقب مع حلقات حلزونية الشكل أو مفروضة . ويضع الرجال كذلك أقراطاً في آذانهم مربعة الشكل أو على هيئة «قباب» تلتف حولها شحات الأذنين الممددة . ويغرز سكان الأدغال في شحمة آذانهم القصيرة قطعة من العظم أو الخشب أو العاج . وقد تلاقى هنا وهناك بعض الخواتم في أصابع الرجال . ولا نجد حلقات في أكعاب الأرجل إلا بصورة استثنائية كلية . ولا تزيد كثيراً أغراض الزينة النسائية عن التي تقدم ذكرها : إذ نجد علاوة على ما سلف زناير للمناكب وعقوداً وحلقات لكعب الرجل قد تكون كبيرة جداً . وكثيراً ما تحمل العقود على الدهشة إذ تتدلى حتى السرة وتتألف من مواد عدة تغدو بعض منها رمزية دون شك . وتكون حلقات وأساور الكعب على شكل حلزوني تلتف حول العضو كما لو كانت آلة لولبية . وتضاف بعض المرات إلى هذا « الكم » أو ذاك « الحذاء » حلقة كبيرة . وتتألف زناير المناكب من مجموعة حجارة كريمة أو مواد مذهبة يمر فوقها زنار من القماش يعقد إلى الجهة الأمامية وقد يتدلى أيضاً إلى هذه الناحية قسم من أسلاك الحجارة الكريمة . ويحمل الأولاد عقداً نشاهد عليه برائن حيوانية ، وهي كتميمة ضد المؤثرات الشريرة .

٣ - الديانات

يتميز العهد الذي يهمننا الآن بعاملين أساسيين : تحوير الديانة الفيدية (انظر وجه . .) التي تعرف من الآن وصاعداً باسم الديانة البراهمانية ، وتطور البوذية التي تصبح قوانينها محددة المعالم . ومن مميزات هذا العصر أيضاً استعمال الكتابة التي نعثر على أقدم أمثلتها المؤرخة في كتابات أشوكا الحجرية . وقد لعب دون شك هذا الاستعمال دوراً عظيماً في تكوين المجموعة الأدبية الكبرى التي تم تأليفها ما بين القرن الرابع ق . م . والقرن الثاني المسيحي . وترتقي قوانين « مانو » إلى حوالي القرن الأول ق . م . أما فيما يختص بالبوذية فأننا نستطيع أن ننسب إلى هذا العهد أيضاً أقدم كتابات قانون بالي (حوالي القرن الثاني ق . م .) والنص النهائي للجاتكا (القرن الأول المسيحي) .

وتتسلسل الديانة البراهمانية من المعتقد الفيدي بشكل يضعف ملاحظته ، ولكنها مع هذا تختلف عنه روحاً . فعوضاً عن التقيد بأساليب الفيدية الطقسية الدقيقة تعتمد البراهمانية على الاختبار الروحي . ورويداً ورويداً تحل أعمال العبادة (بوجا) محل الذبيحة . ومن الطبيعي ان يسدي هذا التطور على الآلهة الكبرى شخصية تتحدد معالمها أكثر فأكثر مع الزمن ، وتتولد منه عقيدة عبادة الصور . ان الصفة الطبيعية للمعتقد الفيدي الذي دعا الى عبادة قوى الكون معطياً إياها اسماء دينية لا تزال تهيمن على الآلهة ، ولكنها لم تعد تصلح فعلاً إلا لوصف الخصائص الميثولوجية لكل من هذه الآلهة . وقد عادت الى الظهور تقاليد شعبية عدة كانت الفيدية قد أهملتها ، ويشهد المرء اذ ذاك انتشار عبادات محلية لا عد لها وتكوين مبدأ عبادة الصور التي ستتلور أكثر فأكثر ، إذ ستقسم الآلهة فئات فئات وتتخذ اكبرها اشكالا فردية محددة . وسيوجهون ايضاً المعتقدات والطقوس لخدمة اهل المذهب . ومع هذا ستظهر رغبة توحيدية تلحق الآلهة الصغرى بالآلهة الكبرى وتعبر عن تطور حقيقي نحو الوحدة ، اذ امام عدد المعتقدات والعبادات التي لا حصر لها غدا من الضروري ان تستوعب الديانة الرسمية الأماي الشعبية : فالتأكيد بوجود وحدة اساسية بين الآلهة كان السبيل المناسب الوحيد ، وعلى كل لم يكن هذا النهج غريباً عن النفسية الهندية .

وهكذا احتفظ الزون بالآلهة الفيدية الكبرى ، واقتبل عدداً وافراً من الآلهة الثانوية ، ولكنه أشار الى الفروق التي تفصلها . وتصبح آلهة فيدية عدة في المرتبة الثانية كالفجر والسماء والارض والشمس وبوشان وميترا وفرونا الخ . . . في حين ترتقي آلهة اخرى الى المركز الاولي : اندرا ، ملك الآلهة ، فيشنو وشيفا . ويتحول موضوع الذبيحة الفيدية القديم ، براهمان ، الى الإله براهما وان لم تبلغ شخصيته المركز « الانساني » الذي احتلته الآلهة الاخرى الكبيرة . وينغدو الإله ، البطل ، كريشنا ، التجسيد الاكبر لفيشنو ، وقد كان الموضوع الاساسي لقصيدة بهاغافاد - جيتا الروحية . وتضاف الى هذه الآلهة الرئيسية الآلهة الفيدية المذكورة أعلاه : القمر ، السيارات ، النجوم ، النار (أغني) ، إله الموت (ياما) ، إله الفن (كوبرا) والحب (كاما) والحرب (سكندا) ، الإله - الفيل (غنيشا) ، الربات التي ستعظم أهميتها مع الزمن ، جيش من الأرواح والشياطين كالاسورا التي تمت الى اصل فيدي ، والناجا (الحيات) واليكشا والغندهرفا (الموسيقيون السماويون) والابسرا (الراقصات ، زوجات الغندهرفا) ورياث القرى والأمراض الخ . وقد ألهت ايضاً الحيوانات - خاصة البقرة والحصان والحيات - والنباتات والاشجار ومياه المحيط .

والميثولوجيا معقدة وغنية بالروايات المختلفة ، خاصة القصص التي تمت الى فيشنو اذ يعادلون به بعض الآلهة الثانوية بشكل « تجسد » على الارض (افتارا) . وقد أحدثت عبادته ، كما أحدثت عبادة شيفا ، ازدهاراً دينياً يثير الاعجاب في الاوساط الشعبية والاوساط الفلسفية على

السواء . وفي العهد الذي يستوقفنا هنا تظهر صفته الشمسية على شيء من الوضوح . ويلاحظون منذ هذا التاريخ اتجاهها لجمعها مع شيفا وبراهما في ثلاثي ، التريورتى ، الذي سيهيمن على الديانة البراهمانية في وقت لاحق .

وتعيش الآلهة كما يحيا الانسان وهي شبيهة به . وهي تحتفظ بمظهر الصبا ، متى بلغت اشدها ، باستثناء كريشنا الذي يعتر كصبي صغير . ولها مزايا الجمال وستخلد حتى انتهاء هذا العالم . وهي تتميز بما يرافقها من حيوانات معينة تصبح كمطية لها (فاهنا) وبما لها من صفات ذات مغزى رمزي . ومن العبث القول إن قدرة هذه الآلهة تفوق قدرة الانسان ، وهي تكبر او تصغر كما تريد ، وباستطاعتها ان تصبح غير منظورة او تظهر في الوقت نفسه في اماكن عدة الخ ؛ وهذه الآلهة عرضة للشوائب نفسها التي تكون للانسان ، وقد تجبر بعض الممار على طاعته .

ومن خلال القصص الميثولوجية والنصوص « اللاهوتية » يقف المرء على الاتجاه المزدوج الذي تتميز به الروح الهندية الى يومنا (انظر وجه ٥٤٥) فتارة حلولية مبهمه وطوراً سعي للتوحيد ، وسينتهي هذا السعي ، في القرون الوسطى والحديثة الى مبدأ وحدوي نستطيع ان ننتعه بالتوحيد . وسيبرز عامل آخر مهم جداً سيكون له من الآن وصاعداً تأثير قوي : العبادة الروحية . وستتوجه هذه العبادة الى آلهة شخصية كفيشنو وكريشنا ، وقد اوجدها الاندفاع الشعبي الذي يتصح في المهابهارانا والاقبال على البوغا . وتعتبر عنها ببرات شعرية زاهية ، خاصة اشعار بها غافاد جنتا السبعمة الموجودة في المهابهاراتا . وهي ستتلور في عقيدة البهكتي « الاشتراك في الالهية » التي ستظهر حوالي القرن الثالث المسيحي بشكل تنظيمي عجيب .

وإزاء المشاكل الفيدية ، التي كانت نفعية فإن الطريف التي شقتها الاوبنيشاد والبراهمانا نحو المسائل الميتافيزيقية والنظرية قد وجهت الديانة البراهمانية نحو مبدأ التوحيد ونحو تجارب روحية تصبح مع الزمن اكثر عمقا وتبلغ ذروتها في العهود اللاحقة . ولعلم « اللاهوت » الادبي مركز مرموق : فاللاعنف هو اساس التعليم الذي يهدف الى دستور حياة روحية وحياة روحية طبقية . ومع ان تحاديد الالهية قد اختلفت وتعددت يشعر المرء بأن هذا المبدأ غداً قوياً جداً يعطي نتائج كاملة ويصبح الهدف الذي يجب على كل فرد ان يصبو اليه . وباستطاعة المرء ان يتبع طرقاً عدة للوصول الى الغاية : معرفة الامور المقدسة ، التقشف ، العبادة او فقط الجهد الروحي والفردى . وعلاقات الفرد مع الآلهة هي ايضاً محدودة بأشكال مختلفة جداً ، إذ تصبح النفس موضوع جدل لا يسبر له غور بين الطوائف والمدارس الفلسفية : فالنفس جوهر غير مخلوق ، او هي ذرة من الالهية سجنّت في الجسد وألقيت في خضم تيار الهجرات التي لا تعرف نهاية ، او هي مبدأ مادي غداً روحياً . . . وهذه كلها نظريات توافق بالاعتماد الى الفياساب الدقيقة صفات ودور الالهية .

وفما يظهر العلم الذي ينظر في غايات الوجود - والذي لم يطرأ عليه إلا تغيير طفيف منذ

العهد الفيدي — بأن العامل الشعبي هو على تناقض مع هذه المعطيات الفلسفية، تسيطر مشكلة التقمص (سمسارا) التي أثارها الاوبنيشاد على الديانة البراهمانية، ويصبح الفعل (الكارمن) نقطة العقيدة الجوهرية. ولم يعد هذا العمل الطقسي كما كان في العهد الفيدي بل غدا الفعل «الذي يلد من الفكر والقول أو الجسم». ويعتبرون الفعل كعامل لا يسبر له غور، يتسرب الى الكون بأسره، ويلاحق الانسان في مختلف مراحل تقمصاته وذلك رغم أنف الموت. وهو يكون حاضراً وقت الحمل ويبيع الاكثار منه الولادات المتتالية ولن يعدم إلا بعد طول الزمن إذ لا يستطيع الانسان ان يتخلص من مجموعة الكارمن إلا بمحاربته بالكفير. وهذه النظرية جعلت الفكر الهندي يتأرجح بين التشاؤم الكلي وجمال الكارمن. وبصورة متوازية لعقيدة الكارمن فإن الايمان بالتناسخ قد تطور وغدت له أنظمتها؛ وهو يشبه دولاب الناعورة الذي يدور دون توقف ويكون من ثم مجموعة ولادات لا نهاية لها على المرء ان يتقبلها ليأتي على الكارمن متنقلاً دون هوادة بين حالات النبات والصخر والحيوان والمرأة والرجل تبعاً للتقلبات التي تعرضها أعمال المرء الصالحة أو الطالحة، دون ان يستفيد من ذكرى اختباراته السابقة.

وتختلف طرق الخلاص باختلاف المذاهب البراهمانية: فالعلم التقشفي، والمعرفة الروحية، والحب الروحي هي الطرق الرئيسية المعدة للخروج من هذا المأزق الذي يوصف بحق بالجهنمي.

وتكون هذه المبادئ التي عرضناها هنا بصورة مختصرة جداً المادة الاساسية للنظريات البراهمانية. ويضاف اليها اللجوء الى استعمال الطقوس الجماعية والفردية، والى فاعلية الصلاة والابتهالات شبه السحرية والى التلفظ الطقسي بالكلمات المقدسة، والى قوة الاسارات (مودرا و هستا) والعلامات الدينية، هذا الاستعمال الذي أخذ ينشر باردياد، وتكنسب الصور والهيكل أهمية تصاعدية. ويبلغ التطور أشده في هذا العصر فننتقل من الشجرة والحجر المنتصب الى الصورة والبناء. وتصف النصوص الأدبية العظيمة والفخامة اللتب توصلوا اليها في هذا المجال بما عاد دون شك على العبادة بالشيء الوافر من حيث الابهة. فهم يقيمون البوجا أو «الاکرام» الذي حل محل الذبيحة الفيدي في المداخل الخصوصية وفي الهياكل. وهم يحتفلون بهذه العبادة بأبهة بحضور جمهور عظيم ويلجأون الى التفادم والرقص والموسيقى. وهناك طقوس خصوصية لحفلات تكريس الهياكل والاصنام، وتقدم الذبائح التكفيرية، وتشيد الأبنية مها صغرت، واستقبال الحوادث الجماعية أو الفردية، والاحتفال بمسح الملك أو تسليم السلطات الى الزعيم، وبصورة مختصرة لكل ما تتألف منه الحياة الاجتماعية والفردية.

وبغدو الدين محور هذا العالم. ونجد تفسيراً لوجود كل شيء في قاعده دينية تكون فيها حصبة اللاهوت أقل شأنًا مما كانت عليه في الطقوس السابقة. وهكذا تغدو البوذية في هذا العالم اصلاحاً اجتماعياً تؤثر على الحياة السياسية والاخلاق بما لها من مبادئ روحية وميتافيزيقية وقياسية. ولا تنكر البوذية لما كانت تحمله الديانة البراهمانية من خصائص هندية. ولكن خلافاً للبراهمانية التي

جعلت من واقع وجود الفئات مبدأ صارماً والتي أشادت كثيراً بالطبقتين الحاكمتين ، اي البراهمة والكشترية ، تعتمد البوذية القديمة على الفئات الاجتماعية الأقل شأنًا ، دون ان تسعى مع هذا للمساواة بين مختلف الطبقات مبتدئة « من الاسفل » . وهي تتشبث فقط بوجوب تخفيف سلطة البراهمة اللاحدودة إن لم يكن القضاء عليها . وتعتقد البوذية القديمة بحقيقة التقمص والحياة الاخرى ، وتسند مبادئها الروحية الى وجود الكارمن والمصير الذي يخضع له الانسان ، ولكنها تؤكد مع هذا بأن الاحتفال الطقسي الدقيق كما تقرر القوانين لن يوقف مجرى وعدد الولادات بل يؤثر عليها الخضوع للفضائل التي تنتج عن المسؤولية الشخصية . وهكذا يقضى قضاء تاماً على امتيازات الحسب والنسب الاجتماعية والوراثة الطبقية التي هي أسس المجتمع البراهماني؛ لذا ترحب البوذية دون تفرقة بجميع الدين يودون نقض سلطة البراهمة - وتغدو من ثم ثورة اجتماعية .

وتستند تعاليمها الروحية الى مبدأ صراع الخير والشر وتصف كدواء لداء التقمص ممارسة فضيلة المحبة نحو جميع المخلوقات والتواضع والكفر بالذات . وعلاوة على ذلك فهي تأتي بنظرية الفداء: إذ دون مخلص سيخضع الافراد دوماً الى نتائج أعمالهم . وهذا المخلص هو بوذا شاكيمني للطور الكوني الحالي ، يليه بوذا ميتريا الذي سيغدو سيد العهد المقبل والذي سيسبق مجيئه زوال العالم . وتضيف بوذية هذا العهد الى البوذيين السابقين الذكر كائنات من كنهها محبة الغير ، البودهمستا ؛ ولكن لا تزال عبادتها في مهدها ولم تبلور بعد ، وستكتسب هذه الكائنات أهمية متزايدة خلال القرون اللاحقة . وتصبح البوذية ، استناداً الى مبادئها ونظرياتها ، ديناً جديداً ، وهي تلجأ لتنتشر الى مختلف وسائل الدعاوة الدينية والتبشير ، ابتداء من اعطاء المثل الشخصي حتى وعظ المبشرين . وهي لا تستنكف ، مع ما تبديه الأوساط المحافظة من شديد استنكار ، من قبول النساء في عداد المؤمنين وارسال رهبانها ينشرون معتقدها في مختلف أرجاء آسيا .

وخلال العهد الذي يستوقعهنا يرى البوذية تبتدئ وتنظم وتثبت قدمها . ومما يزيد أهميتها ونفوذها انتخابها كدين دولة من قبل الملوك كأشوكا مثلاً ، ولكن أدت هذه العوامل الى تحويل مبادئها الاولى : وهكذا يصبح الملك ، وقد اعتمد على نظام اجتماعي محكم الحلقات ، سيد الجميع يتحد ذاتياً مع بوذا الذي يفقد رويداً رويداً صفته كرجل قديس ليصبح ملك الملوك (وذلك بالاستناد الى نظريات مختلفة منها رأي جان برزياوسكي) . وهكذا يغدو المجتمع البراهماني القسالب الذي يهر بشكله المجتمع البوذي .

ان هذا العهد الذي نخصه بدراستنا هو من أخصب العهود في مجال الفن التصويري :
الفن
ففيه بلغ الامبراطورة الموريا وخلعواؤهم ذروة مجدهم ، وفيه استعمل الحجر لأول مرة بدل المواد القابلة للتلف ، وفيه تكونت الفنون العظيمة وولد الفن التصويري البوذي المقدس وتطور قليلاً ؛ وقد تقبلت هذه الفنون تأثير زميلاتها الغربية ولكنها أذابتها في مجموعة العناصر الهندية .

ويظهر التقليد ، وهو إحدى خصائص الحضارة الهندية ، بكل وضوح في الفن التصويري : فقد قلّد النقاشون على الحجر دقائق فن النقش على الخشب والعاج الذي سبق استعمالها دون شك استعمال المواد الأكثر صلابة . ونرى الهياكل المنحوتة في الصخر تعيد بكل دقة أوصاف « الاسقالة » الخشبية بما فيها من فراض حتى أنهم يشيرون الى مواضع المسامير . وتعيد أيضاً الأبنية التذكارية (ستوبا) التي يبنونها من الآجر أو الحجر بشكل التومولوس التراي الذي كان على هيئة نصف دائرة . وبعد ان اوجدوا الصور المقدسة التي مثلت الاشكال الاساسية استمروا زمناً طويلاً على تكريم الاشجار المقدسة والحجارة التي حولوها الى مذابح او عروش إلهية ، كما استمروا على إقامة العواميد التي تنوب مناب أخشاب تقدمة الذبائح : وهكذا فإن الاشكال القديمة تبقى جنباً الى جنب مع الاكتشافات الجديدة ، وذلك مدة طويلة جداً .

وندهش لواقع قد نجد له تفسيراً من خلال كنه الديانة البراهمانية المجردة والجافة ، وهو ان آثار هذا العهد هي ذات صفة بوذية دون سواها . ولكننا مع هذا نستطيع القول إن تلك الآثار التي تضيف عليها المزايا البوذية رونقاً وحلاوة تجسد قبل كل شيء الروح الهندية وتصور لنا بكل دقة حياة سكان الهند وأخلاقهم .

ومع تطور الفكر واتساع انتشار البوذية غدا لزاماً على الفن ان يتقدم وينمو . ولم يعد باستطاعتهم الاكتفاء بأبنية وضيفة وسريعة الزوال وبأصنام لا شكل لها ولا جمال . انه يلزمهم صور مقدسة تدعوهم الى الصلاة ، وهياكل فخمة يلجأون اليها ، وقاعات فسحة تتسع للجمهور المؤمنين الذي يتكاثرون عددهم ، واديرة تستوعب الرهبان والراهبات ، وآثار تحمل طابعاً تاريخياً تنطق بفضل شاكيمني التقليدي . لذا تظهر في وقت واحد المبادئ (شاتيا) المنقورة في الصخر والآثار التذكارية (ستوبا) التي يشيدونها من آجر وحجر في الهواء الطلق . وعلى هذه الابنية الاخيرة خاصة تزدهر النقوش التاريخية التي تغدو دون شك إحدى جواهر الفن الهندي ، اذ تمثل لنا التقاليد البوذية بطلاوة وحرية تثيران السرور والاعجاب .

ان هندسة الأبنية الصخرية تعيد بآمانة — كما أشربا اليه أعلاه — جميع دقائق واوصاف ما كانوا قد شيدوه من خشب . وهذه الأبنية هي غالباً ضخمة وشديده الاتساع . ولأقدمها شكل اهليلجي ، وهي عارية عن كل فنون الزخرفة الداخلية ، وتطل على الجدار الصخري بسبب عدم يعلوه القوس الهندي . وتشبه هندسة هذه الأبنية الأكثر اتساعاً هندسة الكاندرانيات ، تحيط بصحنها ساحتان تنتهيان بأعمدة على هيئة براميل منحوتة دون ان يكون لها تاج او قاعدة . وفوق افريز عريض يعلو الأعمدة يمتد السقف ، وقد أعادوا بكل دقة اسكال الاخشاب الأولية في القبة الصخرية . ووفي داخل المعبد نجد مصغراً للستوبا يدعوه داغوبا ينوب مناب المذبح ، يظهر ان احترامهم له بالدوران حوله دوراناً طقسياً (برداكسينا) ؛ واستعملوا ساحات المعابد هذه كأمكنة اجتماعات وصلوات ، وقد سكنها الرهبان الذين انصرفوا عن العالم ، وغدت دون

شك مزارات اذ بعدت عادة عن الوسط الأهل بالسكان وحفرت في مناطق برية . وبعد ان تفننوا في النقش على الحجر وازداد حبهم للزخرفة غدا داخل هذه المعابد اكثر زينة وفناً: فأضحى للعواميد قواعد على شكل اداء ولها تيجان قد تحفر عليها جماعات من الخيالة والمطايا ، كما يزينون بالنقوش الافريز والداغوبا . ومع الزمن تتسع الواجهة فتصبح والحالة هذه كطنف فسيح تظهر فيه الرفود التي كان من المفروض ان تسنده .

وآثار الستوبا التي عثروا عليها في بهرهوت وأمثلة الستوبا التي لا تزال قائمة في سانشي (بهوبال) هي شواهد ثمينة تدخل ضمن اطار هذه الهندسة الحجرية التي تعيد لنا فن البناء الخشي . وغطى ملاط مذهب وذو ألوان عدة القبة الحجرية النصف دائرية . وأقاموا من حجر الدرايزون الذي يحيط بها والأبواب الضخمة التي ترتفع في الجهات الرئيسية . وجعلوا للمصاريع والعوارض والعواميد والعتبات فراضاً كما كانوا يصنعون للقطع الخشبية .

وعلى درابزونات وشرفات بهرهوت وستوبا سانشي الثانية ، وعلى أبواب ستوبا سانشي الاولى والثالثة — خاصة — نرى نقوشاً نافرة تساعدنا مساعدة جلى على درس الحضارة الهندية في ذاك العصر . ونظير رجال العهود البدائية في الغرب فقد نقش رجال الفن أساطير او قصصاً شبه تاريخية يرتدي أبطالها ثياب معاصريهم ويتبعون أساليب حياتهم . وقد وصلوا الى درجة رفيعة من المهارة ، وإن كان فن رسم الأشياء بحسب رؤية العين لا يزال بدائياً في بهرهوت فقد تقدم كثيراً في آثار سانشي الاولى والثالثة . ومنذ البدء يظهر في كل شيء ميلهم لاعطاء رسومهم الاشكال الحيوانية ، وهذه صبغة ستلازم رجال الفن طوال تطور وتقدم الفن الهندي . وإن نظرنا الى نقوش بهرهوت البديعة التي تمثل لنا مراحل حياة بوذا القديمة حيث تظهر الحيوانات كأبطال الحوادث ، او الى ما حققه النحت على الصخر فإننا نعجب لما نشاهد من فن ينشد طبيعة الاشياء ، يضاف اليه تفهم حقيقي للجماعات وبراعة عفوية وساذجة تتم مع هذا عن ملاحظة دقيقة ورقيقة للطبيعة .

ولنا على فن نحت التماثيل أمثلة صنعت من كتلة واحدة . وأقدم هذه التماثيل (يكشا باركهام النخ .) هي ثقيلة الصنع وقد أسدوا عليها مسحة دينية لا تخلو من عظمة . وقد أجادوا إجادة كلية في التعبير عن مختلف تفاصيل الثياب والحلى ، وذلك تمشياً مع عنايتهم للتعبير بدقة عن الاشياء ، هذا الاهتمام الذي نشاهده ايضاً في فن البناء .

وهكذا يبدو لنا الفن الهندي ، حوالي القرنين الثالث والثاني ق.م. ثابت الدعائم وان كنا لا نستطيع إلا ان نتخيل المراحل الطويلة التي سبقت هذا الطور إذ لم تبق آثار عن تلك العهود السابقة نسبة للمناخ . ويظهر لنا هذا الفن قوي المعالم ومعداً لبلوغ شأن خطير . ويستسيغ هذا الفن تطوراً ستثبت القرون اللاحقة قيمته وعظمته .

الفصل الثالث

صين ملوك التسين والهان

تطور الصين التاريخي (١) بعد تجزئة الامارات التي انبثقت عن التشاو ابقت « الممالك المقاتلة » الصين في حالة جرب مستمرة (من سنة ٣٢٥ الى سنة ٢٢١ ق .م .) وستنشأ عن هذه الاضطرابات وحدة البلاد . وتسترعي أنظارنا ثلاث من هذه الامارات - التشاو والتسين والتشو - ولكن استطاعت امارة التسين ان تستولي ، منذ سنة ٣١١ ، على المراكز الحساسة في البلاد وبدأت تخضع سائر الاجزاء . وقد أتم هذا العمل المجيد الملك تشنغ الذي اتخذ له فيما بعد اسماً غداً شهيراً هو تسن - شه - هوانغ - تي (٢٤٦ - ٢١٠) . ولد تسن سنة ٢٥٩ ولم يكن له من العمر إلا ثلاثة عشر عاماً عندما ارتقى العرش . ولكن منذ ان بلغ التاسعة والعشرين اخذ يحرز الانتصار تلو الانتصار على منافسيه : وهكذا منذ سنة ٢٣٠ الى سنة ٢٢١ كرّس نفسه للحرب . ويعتد ان عدا سيد الصين المعروفة آنذاك اتخذ لقب امبراطور وسعى لتحقيق وحدة بلاده السياسية والاجتماعية والفكرية .

وتظهر اعمال تسن - شه - هوانغ - تي كصدي لما قام به الامبراطور اشوكا في الهند ، وان لم يجر بين البلدين صلات او تبادل حقيقيين . وأوجبت ظروف الصين السياسية عملاً جذرياً عنيفاً لاقتلاع ما تبقى من آثار الحكم الاقطاعي . وخوفاً من رجوع مثل هذا النظام جعلوا الحكم مركزياً . وتسهيلاً لتقارب المناطق فرضت على الجميع نفس الاساليب الكتابية . وأخذ الامبراطور الجديد على عاتقه تأمين السلام في بلاده والدفاع عنها ضد الغزوات التي كانت تهدد غالب الاحيان المناطق الشمالية والشمالية - الغربية ، لذا وحد في خط دفاع الاسوار التي كان ملوك التسين والتشاو والدين ، قد اقاموها على طول الحدود . انه الحائط الكبير الذي يمتد على مسافة ثلاثة آلاف كلم ، والذي يُعد من اعظم الافعال التي حققها الانسان .

(١) سبق ان اشرنا الى إنه من المتعذر ان نضع للصين فاصلاً زمنياً في آخر القرن الاول ق . م . ومع قيام حكم ونغ ونغ الذي يقع في اوائل العصر المسيحي ، فان الحضارة الصينية ايام سلالة الهان هي سلسلة مستمرة الحلقات دون تقاطع وتستند الى ذات المبادئ والصفات . لذا يمتد بحثنا هذا حتى سقوط الهان سنة ٢٢٠ بعد المسيح .

ولكن مع هذا لم يستتب النظام في الامبراطورية إلا لسطوة شخصية تسن - شه - هوانغ - تي ، لذا غدا موته سنة ٢١٠ نذير قيام الثورات واشتعال الاضطرابات السياسية التي دمرت البلاد في فترة لا تتجاوز بعض السنوات . وسنة ٢٠٦ نشأت عن هذه الحروب الداخلية سلالة الهان التي ستحكم الصين حتى سنة ٢٢٠ مسيحية ، ما عدا فترة قصيرة تتراوح من سنة ٩ الى سنة ٢٢ بعد المسيح . وبأساليب لطيفة المظهر سعى امبراطور سلالة الهان الاول الى إعادة المركزية التي حققها تسن - شه - هوانغ - تي . واتبع مبادئ ادارة البلاد التي كان قد سار عليها هذا السلف . ومع انه منح امتيازات لبعض النبلاء فانه سعى لجعلها دون خطر على سلطته . ولكن لم تستعد قط صين الهان الوحدة الداخلية التي كان قد حققها وابقى عليها تسن - شه - هوانغ - تي . بل غدت الصين ايام الهان مجموعة مقاطعات لا توحد اعمالها وجهودها إلا عندما يهددها خطر خارجي . وغدا هذا الخطر شبه مستديم وكان مصدره « البرابرة » الذين هددوا دوماً مناطق الحدود الشمالية والغربية والذين توغلوا مراراً في غزواتهم حتى داخل الامبراطورية . وقد تفاقم هذا الخطر اذ لم يتردد بعض المغامرين من الاعتماد على هؤلاء البرابرة للاستيلاء على الحكم ؛ وعلاوة على هذا فقد تنافس امراء السلالة وتحاربوا للوصول الى العرش . واستمرت سلالة الهان على هذه الحالة من قمع غزوة الى اخماد ثورة حتى سنة ١٤٠ ق . م . وفي هذا التاريخ ظهر الامبراطور « وو » الذي لم يكن له من العمر إلا ١٦ سنة عندما اعتلى العرش والذي سيستمر في الحكم زهاء ٥٣ عاماً ، متبعاً سياسة الحكم المطلق (١٤٠ - ٨٧) . انه استند الى اساليب غير مباشرة ولكن شديدة الوطأة للقضاء رويداً رويداً على النبلاء والاستعاضة عنهم برجال قانون ينتمي معظمهم الى عامة الشعب . وقد ثبت بواسطتهم سلطة الحكم المركزي . ونشأت عن هذه التدابير طبقة جديدة من الاشراف وازدهرت الحضارة الصينية ازدهاراً عجبياً .

والى جانب أعماله الداخلية هذه أعد الامبراطور حملة ضد الهيونغ - نو الذين كانوا يهددون بصورة مستمرة حدود الامبراطورية . وأرسل لهذه الغاية بعثة استكشاف واستعلامات بزعامة تشنغ - كيين وقد استمرت هذه البعثة في مهمتها من سنة ١٣٨ حتى سنة ١٢٥ تقريباً ووصلت الى افغانستان . وأضيفت اليها بعثات اخرى وقفت على حالة البلاد السياسية التي وقعت على الطريق التجارية الممتدة من كانتون حتى البنغال - وهي « طريق برمانيا » الحديثة . وغدا هذا العمل فاتحة هجمات مظفرة أسدت على الصين صفة الفاتح . واتسعت البلاد الصينية غرباً حتى توانغ - هوانغ (التي تشرف على مجازات ألثاي) وجنوباً حتى كانتون . وهكذا استعمرت منطقة كان - سو ، وخضعت بلاد يونان وشمالي أتام وفرغانا ، وأجبر الهيونغ - نو الأشداء على التزام السكينة ولو الى حين .

ومع انه حدثت اضطرابات بعد موت وو فقد تابع أحد حفدته سيوان - تي (٧٣ - ٤٩ ق . م .) الفتوحات الصينية في التركستان الصيني ، واستولى على النقاط الرئيسية في حوض تاريم

وقضى لقرون عدة على القبائل الهونية في منغوليا ، ولكن عقببت هذا العهد فوضى شديدة كادت تقضي على حكم الهان . وتعاقب على العرش في الفترة الواقعة بين سنة ٤٨ ق . م الى سنة ٩ ب . م . ثلاثة ملوك تحقق معهم انحطاط ووهن السلالة . واغتصب الحكم ونع منع وهو يمت بالقرابة المنحرفة الى الاسرة الامبراطورية ، وسعى لاصلاح الامور معتمداً على الطبقة المثقفة (٩ - ٢٢) . ولكنه كان خيالي الاهداف ، وقامت ضده جموع الفلاحين وقد عضها الجوع بنابه فتنازل عن العرش أمام مطالبة ذوي الحقوق الشرعيين . واغتتم الفرصة أحد الهان ليو سيو فأعاد سلطة سلالته واتخذ اسم كوانغ وو - تي (٢٥ - ٢٧) .

وبدأ اذ ذاك عصر استعمار صيني زاهر : فأعيد السلام الى بلاد الاثام والتونكين (٤٢) واخضع الهون في منغوليا الداخلية (٤٨) ، وثبتت الحماية الصينية على واحات تركستان اثر غزوات القائد بان تشاو المظفرة (وقد انتهت سنة ٩٤) . وهكذا انفتحت الطريق نحو الغرب واستطاعت الصين بواسطة الخيول المدربة والمحطات المتعددة ان تتصل مع افغانستان والهند وايران والشرق الروماني - وكان الامبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧) قد أوصل تأثير روما في آسيا الى الأوح . وستغدو هذه الطريق « طريق الحرير » ستموود بالثروة لمدة قرون عدة على البلاد التي استطاعت ان تسلكها ، واصبح لها علاوة على ذلك أعظم الأثر الثقافي والفلسفي إذ بواسطتها أدخلت البوذية الى الصين حوالي ستين او سبعين سنة بعد المسيح .

ومع هذا عادت سلالة الهان الى انحطاط لن تقوم لها بعده قائمة . واعتماداً الى هذا الضعف استعاد الهون هجماتهم وعظم شأن الحكام المتنافسين في المقاطعات . وبعد معارك دامية - دامت حوالي خمسة وسبعين عاماً - عزلت رسمياً سلالة الهان (٢٢٠) واعترف اذ ذاك بثلاثة امبراطرة في لويانغ ، وتشنغ - تو (٢٢١) ونانكين (٢٢٩) . وهكذا جزئت الصين ثلاث ممالك واجتاح الهيونغ - نو شمالي الامبراطورية القديمة . وأعطيت السلطات الرئيسية اذ ذاك لاسرة التسين في نانكين (٣١٨ - ٥٨٩) . اما في الشمال فقامت مملكة صينية - تركية عرفت باسم وي (٣٩٨ - ٥٨١) ستعد الطريق لقيام سلالة صينية جديدة ، اعني سلالة التانغ التي ستخلف سلالة السوي (٥٨٩ - ٦١٨) .

عندما حقق تسن - شه - هوانغ - تي وحسدة الصين طرأت على المجتمع السلطة الامبراطورية واحوال الملك تغيرات هامة وعميقة الجذور . اذ في زمن الممالك المتحاربة لم ينفك النظام الاقطاعي عن ترسيخ قدمه ولم ينفك النبلاء عن اكتساب امتيازات في وقت ضعفت فيه السلطات الملكية وفقدت سيطرتها . ولم يستطع تسن - شه - هوانغ - تي فرض سلطانه المطلق إلا باللجوء الى اساليب عنيفة قلبت الوضع رأساً على عقب . وحذا تسن - شه - هوانغ - تي حذو المستبدين لترسيخ هذه النظرية الجديدة المتعلقة بسلطة وشخص الملك ، ولكن عمد امبراطرة الهان ، خلفاؤه الحقيقيون ، الى اساليب اكثر نعومة والتواء لينعموا بثمار ذاك الوضع .

لقد اختلفت حتماً وجهات نظرهم الى الامور ولكن تساوت اهدافهم : فقد عزف تسن - شه - هوانغ - تي ، وهو الكلي القدرة ، عن الطقوس - اذ اعتبرها بالية اكل الدهر عليها وشرب - التي كان ملوك التشاو والاقدمون يقيمونها بصفتهم ابناء السماء. ولكن يبدو مع هذا بأنه رغب في لقناع مروؤسيه بالصفة الالهية التي تلازم شخص الامبراطور ، لذا احاط نفسه بسرية كلية ، وعاش في قصر منفرد ، لا يراه شعبه . وكان يرمز قصره الى عالم الالهة ، وهو لم يظهر إلا في ظروف استثنائية رسمية كارتقاء جبال الامبراطورية المقدسة التي كانوا يقومون بها باحتفال مهيب .

اما امبراطرة الهان فأظهروا أنفسهم بباعثي النظام القديم . ولكنهم لم يتنكروا لمبدأ الوهية الامبراطور التي نادى بها الحكم المطلق وقد فطنوا للاخطار التي تتعرض اليها سلطاتهم بسبب طموح ومشاغبات السبلاء . لذا عمدوا الى الليونة والحيلة : فبدل ان يحصروا إقامة الطقوس الامبراطورية في المينغ تنغ (صفحة ٥٧٦) كما كانت الحال أيام التشاو فإنهم عمموها في مختلف أرجاء المملكة . وهكذا غدت جولات الامبراطرة الى جهات المملكة الأربع معادلة لدوران ان السماء داخل بيت التقويم ، وتجدد نظيره تعاقب الازمنة . ومع ان الخصائص التي ستحدد لاحقاً بصورة ثابتة ألوهية الامبراطور لم تكتمل بعد ، ومع أننا لا نزال في طور انتقالنا فان كنه النظرية الصينية التي تتعلق بشخصية الامبراطور قد أثبتت مبدئياً . وستستمر هذه المميزات حتى سقوط الامبراطور سنة ١٩١٢ .

والى جانب هذه العقيدة تظهر فكرة الدولة وتفرض القوانين التي لا تقتصر غايتها على «معاقبة الاشرار» بل ايضاً على «تشجيع الصالحين» .

وهكذا يتقبلون المبدأ القائل بأن عمل السماء يعود بالخير على النظام العالمي بينما يعنى الامبراطور بالنظام الاجتماعي . ويبدو الامبراطور عملياً اكثر أهمية من السماء ما دام قادراً على ترسيخ النظام الروحي اذ ان الامبراطور هو وحده المسؤول عن مثل هذه الامور ، وفضائله الشخصية هي خير كفييل لتحقيق سعادة الجميع . وتمثل مجموعة الموظفين ضمير الامبراطورية . والامبراطور ورجال الادارة هم معدون لتثقيف الشعب وتوجيهه وابقائه في مستوى معيشي نبيل .

تهدف ادارة الامبراطورية والاصلاحات الى غاية رئيسية : الابقاء على الجيش الذي جعلت منه الحروب ضد البرابرة أمراً لا غنى عنه . وقد تطور الجيش تطوراً جذرياً منذ ان أصبح يتألف بكامله تقريباً ، في عهد الممالك المقاتلة ، من فرق الخيالة التي ، لحقتها وسرعة تنقلها ، غدت تصلح اكثر من عربات التشاو الثقيلة لصدهجمات فوارس الهون الصاعدة . ومنذ هذا العهد أخذ الخيالة الصينيون يرتدون ثياب البرابرة ، اعني السترة القصيرة والسروال ، بدل ثياب خيالة العصور السابقة الفضفاضة . ويضعون ايضاً دبابيس وأقراطاً من المعدن وقد اقتبسوا هذا الامر عن أعدائهم ايضاً . ويتخذون كذلك القوس والنشاب فيقاتلون والحالة هذه الرماة البرابرة بنفس الأسلحة . ولتأمين انتصارات مستديمة لهؤلاء المحاربين يوجهون قسماً من

المصادر

اقتصاد الامبراطورية نحو الانتاج بكميات هائلة : فرجال الحدادة يشتغلون لهم ، ويشجعون كثيراً الافراد لتربية الأحصنة التي تضاف الى خيول الاصطبلات الامبراطورية ، وتقدم لهم المزارع العمومية الوفرة من لحم الضأن والحبوب والعلف للحيوانات ، وتؤمن لهم مؤسسات النقل ، بواسطة قوافل من مئات العربات ، ما يحتاجون اليه من مواد واسلحة ورجال . واخيراً يعملون جاهدين في اهراء العاصمة ودور صناعتها ومخازن اسلحتها لتأمين ما يطلبونه من ذخيرة وميرة ، ويسهل تنقلهم في مختلف أرجاء الدولة ما يقيمونه من طرق جديدة وقنوات .

وتشجع كثيراً هذه الاحتياجات الزراعة وتربية المواشي . فهم يصلحون الاراضي التي لم تزرع ، وينشئون الممتلكات الفسيحة التي تأتي على الاملاك الصغيرة . وازدهرت ايضاً الملاحات وأكوار الحدادة . وتستدعي جميع هذه الاعمال توحيداً في بعض أمور الدولة : لذا فرضوا نظاماً واحداً للكتابة والموازين والمكايل والمقاييس . وأثرى كثيراً بعض المواطنين خاصة بين الذين يملكون الاراضي ويتوسطون في الاعمال التجارية ويقدمون للجيش ما هي بحاجة اليه . وتكثر اليد العاملة المتوجة للقيام بالمشاريع العظمى إذ القضاء على الملكية الصغيرة والوسطى ألقى في أحضان الشفاء والعوز عدداً وافراً من رجال الزراعة والصناعة . وقد يسخرون العبيد كما تلجأ الدولة الى استخدام عدد من رعاياها الذين يكون قد حكم عليهم جزائياً لما اقترفوا من أعمال تخالف القوانين .

وتستفيد الدولة بأساليبها الخاصة من ثراء الاغنياء المتصاعد فتقر أساليب قاسية ثم تنقضها وتستبدلها بقرارات أشد وطأة : ملاحقات قضائية ، وضع اليد على الاراضي والعبيد ، ضرائب مختلفة ، غرامات ... وكلها طرق تعطي الدولة الحق بوضع يدها على جزء من الثروات التي اكتسبت بوسائل تخالف كثيراً او قليلاً القوانين . وهكذا تتكون ثروة الدولة التي يهتم بها رجال مال ينتسبون الى فئة التجار . وتتوالى التشريعات المالية لتزيد في كميات هذه الثروة : فهم يبيعون تارة سك النقود ويحرمونه طوراً ، ويحل النقد الخفيف محل الثقيل - وعند كل تغيير تفرض الضرائب على مخالفتي القانون .

وتساعد هذه العوامل كلها على خلق طبقة نبيلة في المدن ، تهوى البذخ وتحيا حياة رفاهية وتستثمر اليد العاملة بأجر بخس تعثر عليها بسهولة نسبة لغناها وفقر هذه الطبقة العاملة . وسيثير حتماً هذا التفاوت في الثروات ثورات واصلاحات سيجبر خلفاء الهان على تحمل نتائجها .

على أثر الحروب الاقطاعية والاستبداد حصلت تغييرات جذرية في تكوين المجتمع
المجتمع والروح الاجتماعية : فينجي المغامرون والأثرياء الجدد والجنود والملاكون الكبار نبلاء العهد القديم عن السلطة ويعتبرون الثروة أساس النظام العالمي إذ يصبح الغنى الأداة المفضلة للنجاح . ويبتدىء أعظم رجال الدولة الجدد حياتهم بامتهان أحقر الأعمال : فيصبح راعي الخنازير مستشاراً أكبر ، والجندي البسيط مركزاً ، والأسير قيماً على الامبراطورية ؛ ويغدو

الاستحقاق والحظ والتفوق الحربي والربح الوافر عوامل تكفل النجاح أكثر من الحسب والنسب والامتيازات الارثية .

وتستفيد الصناعة والتجارة من حياة الترف التي يعيشها هؤلاء الأثرياء الجدد مها أسدوا لهم من نصح . ويعطي المثل القصر الامبراطوري وينشط الجميع لحذو حذوه على احسن وجه : ويتسابق القوم لإقامة الولائم والاعیاد والصرف دون حساب واعداد حفلات الصيد والقنص واحياء الروايات التمثيلية غير آبهين للقوانين التي تحرم دعوة أكثر من ثلاثة ضيوف الى بيت واحد والتي تفرض غرامة على من لا يتقيد بها .

ومع هذا فان الامبراطور ورجال بطانته - أيام الهان - يحرضون كل فرد على التقيد بأهداف الحياة القديمة والعودة الى بساطة العهود الغابرة . وقوانين الدولة الروحية صارمة وجازمة : فهي تؤكد سلطة الأب المطلقة ، وتستنكر الزنى وتحرم على الأرامل ان يتزوجن ، وتفرض عفة الاخلاق . وينشر التعليم هذه المبادئ ويسعى لتعميمها في الملحقات ايضاً : إذ للدساكر والمراكز الحكومية مدارس يدرسون فيها المنهج نفسه الذي يسرون عليه في العاصمة . ويدوم عهد الدراسة تسعة أعوام ، وتتناوب في كل سنة مجموعة « العلوم » استناداً الى الفصول وتنتهي بامتحان ؛ انه تدريس نظري فقط يعلم الاولاد الطقوس والموسيقى ورمي النشاب وقيادة العربية والكتابة والحساب وقواعد الآداب ، وتحتوي مواد تدريس الفتاة النسيج والخياطة والنقر على العود والشعر والتاريخ . ومنذ هذا العهد نامس ميل الصينيين نحو البحث في الكتب المدرسية عن مبدأ الحكمة والفضائل الاجتماعية والشجاعة .

ولم تتغير إلا قليلاً نواحي الحياة اليومية : فالطقوس وحفلات الولادة والزواج والدفن تتبع القوانين التي ساروا عليها قديماً . وتستمر الحياة الزراعية على الخضوع لتقلبات الفصول وضروريات المزروعات . وما حياة النبيل إلا صورة مصغرة لحياة الامبراطور ، فهو يمتلك العبيد - ولا يجوز ان يتعدى عددهم الثلاثين - ويستأجر الخدم . ويحتوي قصره نساءه وخدمه وكل ما هو ضروري للحياة العادية من ألواح الجودو حتى المؤن . وهو يستيقظ باكراً ، ويغسل يديه وفمه ويسرح شعره ويستحم مرة كل خمسة أيام ولا يخرج من البيت في ذاك النهار . ثم يرتدي ثياباً تليق بمقامه ويتناول وجبة خفيفة ، ويستقبل أولاده الذين يفدون لتحيته ثم يعكف على الدرس . ويحدثه مدير أعماله عن مختلف الشؤون . وبعدئذ يرتدي ثيابه الرسمية لتناول الغداء ويكرس ما تبقى من وقت نهاره للأعمال التي تفرضها عليه وظيفته .

وتخصص النساء وقتاً أطول للاعتناء بتبرجهن . وتعيش المرأة في غرفة خصوصية تحيط بها خادماها يعتنين بها . وهي في كل صباح تمشط شعرها بعناية وتضع في رأسها دبابيس طويلة . وتملك المرأة كل ما تحتاج اليه للزينة في صناديق من اللك نقش عليها بكل دقة : مسحوق الارز المدعو المسحوق البربري تبيض به وجهها وكتفها وظهرها بواسطة شرابة من وبر الحيوانات ،

ومسحوق الزنجفر او العصفور الاحمر تضعه بصورة مستديرة على وجنتيها ، ومساحيق قائمة تضع بواسطتها بقعاً تبعثرها على وجهها تبعاً للعادات المتبعة ، وهي تسود حواجبها بواسطة ابرة خشبية طويلة ومعقوفة .

وتتناول طعامها في غرفة منفردة بصحبة سائر نساء القصر . ويتألف الطعام من لحم الخنزير وضعوا عليه البصل . ويزيدون اليه بعض الانواع المجففة وأصنافاً من اللحم والجساورس والذرة والارز — ولكن لم يعرف الارز في ذاك العهد الانتشار الذي سيلقيه فيما بعد . وترافق الاطعمة الكحول التي يستخرجونها من الذرة ، او الماء او الشاي (في مناطق جنوبي النهر الازرق فقط) . ويقطعون غالباً اللحوم النيئة قطعاً نحيفة ويجففونها ويطيّبونها بالزنجبيل ، او ينقعونها في خل أضافوا اليه البصل ، وتحتوي الولاثم على خمسة اصناف من الطعام هي : المرق ، ولحم العجل والضأن أضيف اليه الارز ، ولحم الخنزير مع الجاورس ، والسمك ، والطيور . وتظهر على موائد النبلاء اللوس أصناف أطيب طعماً : حلزون نقع في الخل ، وخنزير صغير حشوه بالحماس ، وسلحفاة ، ولحم الكلاب ، ولحم نيء طيبوه بالزنجبيل وتبلّوه ببويض النمل المحفوظ في الملح .

وتقام الولاثم على أنعام الموسيقى والرقص ، وقد يشارك فيه المدعوون انفسهم . ولكن يأتي غالب الاحيان رب البيت بالرقاصين الذين اتخذوا الرقص مهنة لهم والبهاليل والبهالين .

ان كانت العاصمة الامبراطورية قد اتسعت اتساعاً كبيراً لتحتوي بن طهرايسها ،
إطار المدينة كما صدرت بذلك ارادة الامبراطور ، أقوى أسر المملكة ، وان كان تسن — شه — هوانغ — تي قد أبدع في تجميلها ، فان مدن الارياف تبقى مع هذا ضيقة . ويشبه القصر الامبراطوري قصور امبراطرة العهود السابقة ، وله باحاته وأبنيته التي أحسنوا اعطاءها الوجهة المقررة . وهو يمثل بصورة رمزية العالم ، يقيم في وسطه الرجل الأوحده ، اعني الامبراطور ، الذي يستمر على اتصاله مع قوى النظام العالمى .

ويعيد بيت الغني أقسام القصر الرئيسية ، ولكنه يبقى مع هذا شبيها بمنزل الفلاح الذي طرأ عليه بعض التطور . وتشرف ساحته نحو الجنوب . وفي قعر هذه الساحة يمتد بناء طويل قسم ثلاثة اقسام : ففي الوسط قاعة الاستقبال ، والى اليمين واليسار الغرف ومستودعات المونة . وتحيط بالجناح الاساسي أبنية عدة : فالى الشرق بيوت الضيوف ، والى الغرب مساكن الاولاد المتأهلين ، والى وراء المراحيز . ويحتوي البناء الاساسي على طابقين او ثلاثة : ويسكن رب الاسرة في الزاوية الجنوبية — الغربية ، وهي الجهة الأكثر شرفاً حيث تحفظ ألواح الجودود . وللنساء غرفة يستقبلن فيها تقوم عادة فوق القاعة الوسطى ، وتزينها عمد صبغت باللون الاحمر . أما الجدران فهي من الآجر المطلي بالكلس ، وقد يغطونه بالقماش في المناسبات الكبرى . وتظهر في السقف أخشاب ملونة ومنقوش عليها ، ويبسطون على ارض الغرفة طنافس كشميرية . وينتصب مقعد رب الاسرة تحت مظلة أقيمت في وسط القاعة .

وأثاث البيت بسيط . والمضاجع هي عبارة عن لوح خشب أسند على أربعة قوائم قصيرة جداً ، يعلوه فراش ويمتد على مساحة الغرفة بكاملها ، ويتمدد المرء عليه ملتجئاً بغطاء من القطن المبطن (ويكون من القماش عند الفقراء) أما الوسادة فهي من الخشب قد يضيفون إليها عوارض من الخيزران تخفف مرونتها وطأة تلك الوسادة . وتحجب السرير بعض السجوف وتعلوه مظلة عليها الستائر . ويجلسون على حصر . وما الطاولات إلا عبارة عن مقاعد طويلة ومنخفضة ، وهم يتكثون على مقاعد أقصر من السابقات . وحوالي القرن الرابع فقط تظهر الكراسي ذوات القوائم الأربع والمقاعد المشبوكة القوائم ، وقد اتخذوها عن الغرب . ومن أدوات الأثاث أيضاً القناديل : وهي عبارة عن مصابيح لها تسعة مشاعل أو مصابيح زيت بسيطة وجميلة من السهل حملها . وتصنع هذه القناديل من الخزف أو النحاس . وتوجد مكتبة في إحدى غرف البيت وتتألف الكتب من قطع خشبية رقيقة ربطت إلى قديتين من الجلد . وأدخلت عادة جديدة أيام سلالة الهان وهي استعمال لفات طويلة من الورق توصلوا مؤخراً إلى اكتشاف المادة التي صنعت منها ، ويستعملون للكتابة حبراً ومراقم خشبية صغيرة محددة الرؤوس أو مناقيش .

وأثبتوا مزولة على حائط في عرصة الدار . ويوجد في القصر ساعة مائية مؤلفة من عدة أحواض نحاسية تحدد الوقت بشكل علمي أكثر دقة .

وهناك أخيراً مكان هام خصصوه للمطابخ . وفي البيوت الحظيرة نجد هذه المطابخ في قسم المنزل المخصص للسكن . ولكن في بيت النبيل أو في قصر الإمبراطور تتخذ هذه المطابخ لها موضعاً في أقبية قاعة الاستقبال ، أو بصورة أفضل في أماكن معينة يكون قربها دوماً بئر ماء . ونجد في هذه المطابخ كوراً كبيراً له ثقبان تغلي فوقهما مراجل كبيرة . ويملأون هذا الكور وقوداً من خلال موقد مربع الشكل ويؤججون النار بواسطة عصى طويلة بحوفة . وبالقرب من هذا الكور يعلقون المونة على خشبة فيها كلاليب . أما أواني المائدة فهي في غاية التنوع : أكواب مختلفة الأحجام ، أوعية مستديرة القعر ، أجران وأحواض ، وتكمل هذه الأواني أطباق وطاولات صغيرة يأتون بها بعد أن يكونوا قد أعدوها .

ولا تختلف كثيراً ثياب الرجال عن ثياب النساء . ويرتدي الرجال سروالاً داخلياً قصيراً من القماش وقميصاً قصيرة لا أكمام لها ، ثم يضعون فوقها سترة وسروالاً يطول أو يقصر . وتربط النساء على قسم جسمهن الأعلى قطعة قماش أهليلجية الشكل تغطي صدرهن وبطنهن ، ولكنهن يتركن الظهر والجانبين بحالة العري . وتشبه ثيابهن الداخلية ثياب الرجال ولهؤلاء ، علاوة على ما تقدم ذكره ، قطع من الجلد الأبيض على الركب ، وجوارب من حرير تثبتها إلى الساق بعض الربط ، واحذية جلدية وقبعة أو عمامة . وفيما يرتدي العملة ورجال العامة ثوباً قصيراً أو يكتفون فقط بقطعة ضيقة من القماش تستر عورتهم يلبس النبلاء وخدامهم ثوباً طويلاً . أما ثياب رجال البلاط ، وقد استلهموا شكلها من ثياب رجال الأدب ، فتغطي الثياب الموصوفة أعلاه ، وهي

عبارة عن ثوب ذي مطاو تتناسب والقوام يبطنونه بحريز ابيض (باو) ، او عن ثوب فضفاض يتدلى من الكتفين حتى الرجلين (تشونغ - تان - ي) . ويشد الثوب الى الجسم زمار يرتبط بعقدة تمر في ابريم من المعدن المنقوش عليه ، وسيفضلون أكثر فأكثر الرداء باو الذي كان كثير الاستعمال في زمن الهان ؛ اما ابريم المعدن فهو مأخوذ عن عادة بربرية .

الآداب
ان عهود الممالك المقاتلة التي سادتها الاضطرابات ، وقيام الحكم الاستبدادي ثم تفشي الفوضى التي سبقت استرجاع الهان السلطة عوامل لم تخلق جواً يساعد على انتشار وازدهار الآداب . فتسن - شه - هوانغ - تي مثلاً الذي أراد فرض الوحدة على بلاد الصين أمر باشعال نار أتى لهيبها على كثير من الكتب الادبية الكلاسيكية (سنة ٢١٣ ق.م.) . ولكن نجحت مع هذا المؤلفات الفنية (الطب ، والسحر ، والزراعة الخ) . وعندما أراد الهان بعث الأدب الصيني كانت الكتب قليلة جداً وقد زالت نصوص عدة . وسعى الأدباء الكونفوشيانيون لحياء جوهر الادب القديم . ولم يحقق هؤلاء الادباء ، عمداً او عن غير قصد ، إلا عملاً دعائياً وليس علمياً : وهكذا غدا لجهودهم غاية توجيهية ونادى بأهداف كونفوشيانية رسمية قالوا إنها تنتسب الى العهود القديمة ولكنها فرضت بالفعل فرضاً .

واكتسب منذ ذاك الوقت رجال الأدب أهمية كبرى كان قد حرّمهم منها شن - هوانغ - تي وملوك الهان الأولون . وفرض الكونفوشيانيون على طلاب الوظائف الادارية تقديم امتحان ؛ وأضيفت الى الكتابة « العصرية » او الشعبية (كين - ون) - التي كانت قد ساعدت على ازدهار التجارة - كتابة علمية (كو - ون) أدت الخدمات الى رجال العلم دون سواهم . ونالت المؤلفات « العلمية » - ولم يذكر غالباً اسم واضعها - استحساناً متزايداً . ولكن أفسح هذا الامر المجال رحباً امام المناقشات التي لا تعرف حداً ، والى الجدل المدرسي والتنافس السياسي إذ وقف الكونفوشيانيون جهمهم على خدمة القضية الامبراطورية . وتصارع بشدة مشايخو الكين - ون والمتحزبون للكو - ون ومفسرو (وي - شو) النصوص القانونية الجديدة . وقد فاز المنتصرون للكو - ون (نصف القرن الثالث المسيحي) . وبما لهؤلاء من نفوذ وسطوة غدت التعاليم الكونفوشيانية الفلسفة الرسمية ، وكون القائلون بها طبقة نبيلة جديدة نفذ أعضاؤها الى مجلس الامبراطور ومهدت السبيل امام رجال الادب لمراقبة الحكومة . وقد رسخت هذه النظرية الجديدة على يد تونغ تشونغ شو خاصة (مات حوالي سنة ١٠٠ ق.م.) .

ونشهد إذ ذاك ازدهاراً في الآداب الصينية : رجال نثر موهبون - ومنهم كياي (١٩٨ - ١٦٦ ق.م.) - وناشرون (ليو هينغ ٧٧ - ٦ ق.م.) - وشعراء (سو - ماسيانغ - جو الذي مات سنة ١١٧ ق.م. ويانغ هيونغ سنة ٥٢ ق.م. الى سنة ١٨ بعد المسيح) - ومؤرخون ورواة (سو - ماتسيان ١٤٥ - ٨٦ ق.م.) ... وهؤلاء الأدباء جميعهم هم فخر عصر الهان . وعرف الشعر خاصة تجدداً ارسى أسس القصيدة الصينية للأجيال اللاحقة ، ونجدتهم في الفترة التي

تقاروح ما بين ١٩٦ و ٢١٩ بعد المسيح يخوضون في مختلف المواضيع التي سيعيدون البحث فيها فيما بعد . وفي الوقت نفسه يتبلور ميلهم نحو جمال الاسلوب فتظهر إذ ذاك « قواعد الألحان » — والتي ستصبح اجبارية في الزمن اللاحق .

إننا نجد نزعتهم الى الجمال الحسي في مجال الفن ايضاً وقد دعمتها امكاناتهم على الفنون والتقنيات تحقيق الأحسن، تلك الامكانيات التي ساعدتها الظروف. وتحفظ المصنوعات النحاسية التي تلت عهد التشاو بنفس المواضيع الحيوانية وتخضع لنفس القوانين، ولكن هناك روحاً جديدة تبث الحياة فيها : فعوضاً عن نقوش فن التشاو النافرة وأشكاله الفظة نرى رسوماً مستقيمة تتشابه فيها الاجزاء المستوية الشكل والاقسام التي تملؤها خطوط ملتوية فيظهر الفن في تناسق وتناغم الملء والفراغ واتحاد الاشكال الحيوانية والزخرفة الهندسية . انها نقوش قوية وحيوية كزميلاتها السابقة ولكنها أكثر وضوحاً وليونة. وأشكال الاواني هي أكثر بساطة واستدارتها أكثر نقاوة . ويبدو بكل وضوح في حلقات الزنانير التي نقشت عليها نقوشاً دقيقة أثر علاقات الصينيين مع البرابرة الهون . وثبتت هذه الحلى والمرايا واواني المائدة النحاسية ذوقاً دقيقاً وشعوراً حقيقياً .

وتتكاثر التأثيرات الغريبة وتظهر بكل وضوح في صناعات عدة وذلك لازدهار التجارة الصينية أيام الهان واتساع الامبراطورية والعلاقات التي توطدها الصين مع الغرب . وقد صهرت هذه التأثيرات في البوتقة الوطنية وغدت صينية تماماً . ان الفن ايام الهان — أقله في الآثار التي وصلت الينا — هو أكثر تشعباً من الفنون السابقة : فقد أضافوا الى المرايا واواني المائدة النحاسية وأدوات الزينة التقليدية هندسة تشييد الابنية للموتى ، ونقوشاً نافرة ، وسلسلة أشياء صنعوها من الفخار المشوي ، ونماذج أولية للفن الخزفي المزخرفة بالميناء ، وأقمشة حريرية ، وأدوات من اللك المزينة بالنقوش . وتميط هذه الصناعات اللثام عن تقدم كبير في استثمار المواد المختلفة ، وابحاث سيكون لها نتائجها الباهرة ، وتقدير مستمر لحقيقة الأمر. وهكذا فانهم يزينون النحاس بالذهب والفضة ، ويرصعونه بالميناء واللك والحجارة الثمينة (الفيروز والدهنخ واليشب) . ومن مميزات الفن ايام الهان حرية كبرى في التأليف وترسيخ الخطوط وحماسة وحياة في الاشكال وتدوق عميق مليء بالليوننة للحقيقة الطبيعية. ان هذا الفن هو خير انعكاس لعهد جذاب تأسست فيه الوحدة الصينية بالاستناد الى مجتمع مجدد ، يحب البذخ والرفاهية ، ويعشق الجمال ، قوياً كان أو دقيقاً ناعماً .

الخلاصة

ان هذا الكتاب يهمل درس أكثر من حضارة نسبة لاثساع العهد الذي يبحث فيه أعني منذ ان وجد الانسان على الارض حتى ظهور العهد المسيحي . وكان لا بد من بعض التوضيحية وذلك لانعدام الآثار والمصادر : ولن نستطيع إلا في زمن لاحق الكتابة عن بعض الشعوب التي عاشت في قارات فسيحة إلا بعد ان ينهتك ستر دياجيرها وتشتع عليها الأنوار التاريخية الاولى . وقد نفسر أمراً معقولاً فرض علينا توضيحات أخرى موقته : إذ كيف لا نبقى لدراسة واحدة تاريخ روما وشعوب الغرب المتوسطي الذي غدت حضارتها ، في القرون القديمة ، صورة لحضارة روما تلك ؟

ومع هذا غداً لزاماً علينا ان ندرس بالتتابع اثني عشرة حضارة . وقد أجبرنا على تتبع تطور البعض منها في مراحلها المختلفة ، هذا التطور الجذري العميق الذي يحرم علينا من ثم اعتبارها كوحدة لا تتجزأ . وفي مثل هذا المحيط الجغرافي الضيق لن يبرز قط درس الحضارات ، في عصور التاريخ اللاحقة ، مثل هذه الصفة في التنوع والتجزئة . وهذا الأمر أكيد لا ريب فيه . وان توغلنا في عصور ما قبل التاريخ الاكثر قدماً ، يصبح هذا الاعتبار أشد وطأة إذ ان نقطة الانطلاق كانت وحدة الشعوب في تكوينها الطبيعي وحياتها المادية والروحية . وهكذا يبدو بأن تطور الحضارة وتقدمها قد وضعاً حواجز بين الأمم ، واهابا بها الى تشييد حضارات استقرت على ما بينها من تضاد .

وقد حصل فيما بعد تقارب واندماج . ولكن لم يمنع هذا المصير ، نتيجة الارادة كان او عوامل الحروب ، من تكوين ثلاثة عوالم : عالم الشرق الأدنى ، وعالم الهند وعالم الصين . وعندما بدأ العهد المسيحي ، كان كل منهم قد أرسخ وجوده وخصائصه منذ قرون عدة : وباستثناء مقاطعاتهم المتجاورة لم تقم فيما بينهم إلا علاقات لم تمس الجوهر . ولم يكن هناك تأثير مشترك أصاب الكنه . وعندما وجدت الامبراطورية الرومانية غدت هذه العلاقات اكثر عدداً وأوسع مدى ، ولكن بقيت مع هذا سطحية محصورة ضمن نطاق تبادل السفراء الوقتي او المواد او المصنوعات الفنية القيمة . وسينقضي وقت طويل قبل ان تتخذ لها مجرى آخر . ان التناقض بين هذه العوالم الثلاثة قد أصبح ، مدة قرون إن لم يكن آلاف السنين ، من المعطيات الأساسية لتاريخ الحضارات .

وهناك حقيقة أكثر رسوخاً إذ يخضع كل شيء انساني لظروف الزمان وتغيير القوانين ، فائثناء الفترة الطويلة جداً التي كانت موضوع بحثنا في هذا المؤلف خضع العالم الهندي مثل العالم الصيني للغزوات او تمتع باتساع الرقعة ، وسيعرف كل منهما في القرون اللاحقة حركات اخرى من المد والجزر . وقد تطورت حضارتها وستطور ايضاً ، ولكن منذ أواخر الألف الثاني ق. م. وعندما ثبتت القبائل الآرية قدمها في الهند حصل تطور هذين العالمين الثقافي دون حوادث تبدل او انقلاب فجائية ، وذلك بصورة مستقلة وبتأثير القوى الداخلية وحدها ، ولا نجد للصين او للهند ما ندعوه « القرون القديمة » اعني ذاك الطور التاريخي الذي يستحق اسمه ان قابلهما « بالقرون الوسطى » التي تلتها « النهضة » . فللهند وللصين بدء تاريخ فقط . وان كانت القرون التي سبقت العهد المسيحي تختلف عن سواها فذلك لأن هذه القرون شهدت تكوين الحضارتين الهندية والصينية ، وكل منهما مدعو الى الاستمرار ، حتى زمن قريب جداً منا ، على نهج حياة قد تبدو ثابتة لا تتغير معالمها .

ويختلف الأمر إن نظرنا الى العالم المتوسطي ، ففي مصر وبلاد ما بين النهرين خاصة كان لهذا العالم حضارته التي نشأت في اطار ضيق وعاشت على نفسها ومن حيويتهما دون أي جلب من الخارج . لقد كان لهذا العالم نفس الحضارات تقريباً وهي استمرت زمناً طويلاً ، ولكنها انقرضت منذ آخر القرون القديمة على أبعد حد . وقد قضت عليها شيخوختها دون شك ، هذا إن لم نقل بالاولى بأنه قد أصابها الكسح ، وأذابت حيويتها وخنقتهما حضارات أقل عهداً وذات طاقات أكثر لقبول التجدد . ولقد نشأت هذه الحضارات الاخيرة في عالم غير العالم المتوسطي وفي زمن أقل قدماً . انها استثمرت تجارب الآخرين او بالأحرى كونت معظم أجزائها مما أخذته او ورثته عن الغير . ومع هذا لم تقف مميزات الجوهريّة القليلة حائلاً دون انتصارها ، ولكن عرفت بدورها الاضمحلال بتأثير قوى خارجية وجديدة .

وهكذا منذ القرون القديمة يبرز عالم الشرق الاقصى كعالمي الاستقرار والديمومة ؛ اما العالم المتوسطي ، مهد العالم القربي الآتي ، فهو عالم الثورات الدامية والتحول المستمر . وفي القرون الاولى المسيحية التي سنخصص لها كتابنا الآتي لن نخفف مصير روما او مصير المناطق الآسيوية من هذا التناقض البيّن .

المصادر

(١) الشرق المتوسطي واليونان

١ - دراسات شاملة

- L. DELAPORTE, **Le Proche-Orient asiatique** (3ème éd., 1948).
- E. DRIOTON et J. VANDIER, **L'Égypte** (3ème éd., 1952).
- R. COHEN, **La Grèce et l'hellénisation du monde antique** (3ème éd., 1948).
- P. LAVEDAN, avec la collaboration de S. BESQUES, **Antiquité** (1949), t. X, **Histoire de l'art**.
- L. DELAPORTE, E. DRIOTON, A. PIGANIOL et R. COHEN, **Antiquité** (1937) t. XII **Atlas historique**.
- J. DELORME, **Chronologie des civilisations** (1949).
- P. JOUGUET, J. VANDIER, G. CONTENAU, E. DHORME, A. AYMARD, F. CHAPOUTHIER, R. GROUSSET, **Les premières civilisations** (nouvelle rédaction, 1950).
- P. ROUSSEL, avec la collaboration de P. CLOCHÉ et R. GROUSSET, **La Grèce et l'Orient, des guerres médiques à la conquête romaine** (2ème éd., 1938).
- A. MORET, **Histoire de l'Orient**, 2 vol. (1929-1936).
- G. GLOTZ, avec la collaboration de R. COHEN, **Histoire grecque** t. I., **Des origines aux guerres médiques** (1952).
- t. II, par les mêmes, **La Grèce au V^e siècle** (1931).
- t. III, par les mêmes, **La Grèce au IV^e siècle ; la lutte pour l'hégémonie, 404-336** (1936).
- t. IV, G. GLOTZ, P. ROUSSEL, R. COHEN, **Alexandre et l'hellénisation du monde antique** (1938).
- **Encyclopédie photographique de l'art** (éditions «Tel») (1935-1938).
- CH. PICARD, **La sculpture antique** (Paris, Laurens) t. I, (1923-1926).

٢ - حول ما قبل التاريخ

- G. GOURY, **Précis d'archéologie préhistorique; origine et évolution de l'homme**, 2 t.

- H. BRÉUIL et R. LANTIER, *Les hommes de la pierre ancienne, paléolithique et mésolithique* (Paris, Payot, 1951).
- J. DECHELETTE, *Manuel d'archéologie préhistorique, celtique et gallo-romaine*, 2 t.

٣ — حول مصر وبلاد ما بين النهرين

- H. FRANKFORT (1948), trad. par J. MARTY et P. KRIEGER, *La royauté et les dieux ; intégration de la royauté à la nature dans la religion de l'ancien Proche-Orient* (Paris, Payot, 1951).

٤ — حول مصر

- A. MORET, *L'Égypte pharaonique* (Paris, Plon, 1932): t. II de G. HANOTTAUX, *Histoire de la nation égyptienne*.
- A. ERMAN, trad. par H. WILD, *L'Égypte des pharaons* (Paris, Payot, 1939).
- A. ERMAN et H. RANKE, trad. par CH. MATHIEU, *La civilisation égyptienne* (Paris, Payot, 1952).
- A. MORET, *Le Nil et la civilisation égyptienne* (Paris, A. Michel, 1926).
- P. MONTET, *Les scènes de la vie privée dans les tombeaux de l'Ancien Empire* (Strasbourg, Istra, 1925), et *La vie quotidienne en Égypte au temps des Ramsès, XIII^e, XII^e siècles avant J.-C.* (Paris, Hachette, 1946).
- J. VANDIER, *La religion égyptienne* (2^e éd., 1949).
- A. ERMAN, trad. par H. WILD, *La religion des Égyptiens* (Paris, Payot, 1937).
- J. SAINTE FARE GARNOT, *La vie religieuse dans l'ancienne Égypte* (Paris, P.U.F., 1948).
- CH. DESROCHES - NOBLECOURT, *Le style égyptien* (Paris, Larousse, 2^e éd., 1946).
- J. VANDIER, *Manuel d'archéologie égyptienne* (Paris, A. Picard, 2 vol., 1952-1953).

٥ — حول آسيا الغربية

- G. CONTENAU, *Manuel d'archéologie orientale, depuis les origines jusqu'à l'époque d'Alexandre* (Paris, A. Picard), t. I-III (1927-1931) ; t. IV, *Les découvertes archéologiques de 1930 à 1939* (1947).
- Du même, *L'art de l'Asie occidentale ancienne* (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1928).
- M. RITTEN, *Arts et styles du Moyen-Orient ancien* (Paris, Larousse, 1950).

٦ — حول بلاد ما بين النهرين

- L. DELAPORTE, *La Mésopotamie, les civilisations babylonienne et assyrienne* (Paris, A. Michel, 1923).

- Du même, les chapitres sur l'Elam ajoutés à la nouvelle édition de C. Huart, **L'Iran antique** (Elam et Perse) et **la civilisation iranienne** (Paris, A. Michel, 1948)
- = G. CONTENAU, **Les civilisations anciennes du Proche-Orient** (Paris, P.U.F., 2^e éd., 1948).
- Du même, **La civilisation d'Assur et de Babylone** (Paris, Payot, 2^e éd., 1951), et **La vie quotidienne à Babylone et en Assyrie** (Paris, Hachette, 1950).
- = SIR LEONARD WOOLLEY, trad. par J. LEVY, **Ur en Chaldée** (Paris, Payot, 1938).
- = M. RUTTEN, **Babylone** (Paris, P.U.F., 1948).
- A. PARROT, **Archéologie mésopotamienne, les étapes** (Paris, A. Michel, 1946).
- H. R. HALL, **La sculpture babylonienne et assyrienne au British Museum** (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1928)
- E. DHORME, **Les religions de Babylone et d'Assyrie**, dans le fasc. 2 du t. I, **Les anciennes religions orientales**, de la collection « Mana » (Paris, P.U.F., 1945)
- CH. VIROLLEAUD, **Légendes de Babylone et de Canaan**, fasc. 1 de la coll. « L'Orient ancien illustré » (Paris, A. Maisonneuve, 1949).

٧ - حول آسيا الصغرى

- = L. DELAPORTE, **Les Hittites** (Paris, A. Michel, 1936)
- = G. CONTENAU, **La civilisation des Hittites et des Hurrites du Mitanni** (Paris, Payot, 2^e éd., 1948).
- = R. DUSSAUD, **Les religions des Hittites et des Hourrites**, dans le fasc. 2 du t. I, **Les anciennes religions orientales**, de la collection « Mana » P.U.F., 1945).
- = Du même, **Préludiens, Hittites et Achéens** (Paris, Gentner, 1953).

٨ - حول فارس

- = G. HUART et L. DELAPORTE, ouvrage cité plus haut pour la Mésopotamie (éd. 1952).
- = A. T. OLMSTEAD, **History of the Persian empire, Achaemenid period** (Chicago, The University of Chicago Press, 1948).
- J. DUCHESSE - GUILLEMIN, **Zoroastre**, étude critique avec une traduction commentée de Gâthâ (Paris, G.-P. Maisonneuve, 1950).
- R. GROUSSET, E. BENVENISTE, etc., **La civilisation iranienne** (Paris, Payot, 1952).
- F. SARRE (1922), trad. par P. BUDRY, **L'art de la Perse ancienne** (Paris, Crès, 1924).

٩ - حول الإيجيين

- = G. GLOTZ, **La civilisation égéenne** (Paris, A. Michel, réédition procurée par P. Demargne en 1953).

- CH. PICARD, **Les religions préhelléniques**, fasc. 1 du t. II., **Les religions de l'Europe ancienne**, de la collection « Mana » (Paris, P.U.F., 1948).
- J. CHARBONNEAUX, **L'art égéen** (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1929)

١٠ - حول كنعان ، سوريا ، العبرانيين

- G. CONTENTAU, **La civilisation phénicienne** (Paris, Payot, 3^e éd., 1949)
- R. DUSSAUD, **L'art phénicien au II^e millénaire** (Paris, Geuthner, 1949).
- A. DUPONT-SOMMER, **Les Araméens**, fasc. 2 de la collection « L'Orient ancien illustré » (Paris, A. Maisonneuve, 1949).
- R. DUSSAUD, **Les religions... des Phéniciens et des Syriens**, dans le fasc. 2 du t. I, **Les anciennes religions orientales**, de la collection « Mana » (Paris, P.U.F., 1945).
- CH. VIROLLEAUD, **Légendes...** ouv. cité plus haut pour la Mésopotamie.
- A. BERTHOLET, **Histoire de la civilisation d'Israël** (Paris, Payot, 1929).
- AD. LODS, **Israël, des origines au milieu du VIII^e siècle, et Des prophètes à Jésus ; les prophètes d'Israël et les débuts du judaïsme** (Paris, A. Michel, 1930 et 1932).

١١ - حول اليونان

- J. HATZFELD, **Histoire de la Grèce ancienne**, réédition procurée par A. Aymard (Paris, Payot, 1950) et **La Grèce et son héritage** (Paris, éditions Montaigne, 1945).
- A. JARDE, **La formation du peuple grec** (Paris, A. Michel, 1923).
- M. CROISSET, **La civilisation de la Grèce antique** (Paris, Payot, 1932).
- G. GLOTZ, **Le travail dans la Grèce antique** (Paris, Alcan, 1920).
- P. CLOCHE, **Les classes, les métiers, le trafic** (Paris, Belles-Lettres, 1931).
- L. GERNET et A. BOULANGER, **Le génie grec dans la religion** (Paris, A. Michel, 1932).
- M. P. NILSSON, **Geschichte der griechischen Religion** (Munich, C. H. Beck, 2 vol., 1941 et 1951).
- H. MARROU, **Histoire de l'éducation dans l'Antiquité** (Paris, Editions du Seuil, 1948).
- A. et M. CROISSET, **Histoire de la littérature grecque** (Paris, de Boccard, 5 vol., 3^e éd., 1910-1921).
- L. ROBIN, **La pensée grecque et les origines de l'esprit scientifique** (Paris, A. Michel, 1923).
- CH. PICARD, **Manuel d'Archéologie grecque. La sculpture** (Paris, A. Picard) t. I, **Période archaïque** (1935), t. II, **Période classique, V^e siècle** (2 vol., 1939); t. III, **Période classique (IV^e siècle), première partie** (2 vol., 1948).
- H. LECHAT, **Sculptures grecques**, album commenté (Paris, Hachette, 1925) et un exposé rapide et précis, **La sculpture grecque** (Paris, Payot, 1927).
- CH. DUGAS, **La céramique grecque** (Paris, Payot, 1924).

١٢ - حول اليونان في العهد القديم

- J. BURNET (1914), trad. par A. RAYMOND, *L'aurore de la philosophie grecque* (Paris, Payot, 1919).
- P.-M. SCHUHL, *Essai sur la formation de la pensée grecque*. Introduction historique à une étude de la philosophie platonicienne (Paris, P.U.F., 2^e éd., 1949).
- J. CHARBONNEAUX, *La sculpture grecque archaïque* (Paris, éditions de Cluny, 1939).

١٣ - حول اليونان في العهد الكلاسيكي

- G. GLOTZ, *La cité grecque* (Paris, A. Michel, 1928).
- V. MARTIN, *La vie internationale dans la Grèce des cités (VI^e-IV^e siècle avant J.-C.)* (Paris-Genève, 1940).
- CH. PICARD, *La vie privée dans la Grèce classique* (Paris, Rieder, 1931), ou *La vie dans la Grèce classique* (Paris, P.U.F., 2^e éd., 1949).
- J. CHARBONNEAUX, *La sculpture grecque classique* (Paris, Editions de Cluny, 2 vol., 1943-1945).

١٤ - حول اليونان في العهد الهليني

- M. ROSTOVTZEFF, *The social and economic history of the Hellenistic world* (Oxford, Charendon press, 3 vol., 1941).
- P. JOUGUET, *L'impérialisme macédonien et l'hellénisation de l'Orient* (Paris, A. Michel, 1926).
- W. W. TARN, trad par E. J. LEVY, *La civilisation hellénistique* (Paris, Payot, 1936).
- E. BIKERMAN, *Institutions des Séleucides* (Paris, Geuthner, 1938).
- CL. PREAUX, *L'économie royale des Lagides* (Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Elisabeth, 1939), et *Les Grecs en Egypte d'après les archives de Zénon* (Bruxelles, Office de Publicité, 1947).
- P. ROUSSEL, *Délos* (Paris, Belles-Lettres, 1925).
- A.-J. FESTUGIERE, *Epécure et ses dieux* (Paris, P.U.F., 1946).

(٢) حول آسيا الشرقية

١ - دراسات عامة

- RENE GROUSSET, J. AUBOYER, J. BUROT, *L'Asie orientale des origines au XV^e siècle* (Paris, P.U.F., 1941).
- J. SION, *L'Asie des moussons* (Paris, A. Colin, 1929).

٢ - حول الهند

- L. BACHHOFFER, *Early Indian Sculpture*, 2 vol. (Paris, 1929).
- G. COMBAZ, *L'Inde et l'Orient classique*, t. I, 2 vol. (Paris, 1937).
- G. COURTILLIER, *Les anciennes civilisations de l'Inde* (Paris, A. Colin, 1930).
- A. FOUCHER, *Beginnings of Buddhist Art* (Paris, 1917).
- A. FOUCHER et SIR J. MARSHALL, *The monuments of Sanchi*, 3 vol. (Calcutta, 1940).
- A. FOUCHER, *La vie du Bouddha* (Paris, Payot, 1949).
- L. DE LA VALLEE-POUSSIN, *L'Inde au temps des Maurya et des Barbares*, dans *l'Histoire du monde*, t. III, (Paris, de Boccard, 1930).
- E. MACQAY, *La civilisation de l'Indus*, trad. A. et H. COLIN-DELAVALD (Paris, Payot, 1936).
- P. MASSON-OURSSEL, H. DE WILLMAN-GRABOWSKA et STERN, *L'Inde antique et la civilisation indienne* (Paris, Albin Michel, 1933).
- L. RENOU, J. FILLIOZAT, P. MEILE, A.-M. ESNOUL et L. SILBURN, *L'Inde classique*, t. I (Paris, Payot, 1947-1949).

٣ - حول الصين

- CREEL, *Naissance de la Chine*, trad. M. CLERC-SALLES (Paris, Payot, 1937).
- M. GRANET, *la civilisation chinoise* (Paris, Albin Michel, 1929).
- R. GROUSSET, *La Chine et son art* (Paris, Plon, 1951).
- B. KARLGREN, *Prehistory of the Chinese*, *Bull. of the Museum of Far-Eastern Art*, N° 15 (Stockholm, 1943).
- H. MASPERO, *La Chine antique*, t. IV de *l'Histoire du monde* (Paris, de Boccard, 1927).
- DU même, *La vie privée à l'époque des Han*, *Revue des arts asiatiques*, t. VII (Paris, 1932).
- Du même, *Les religions chinoises*, Publ. Musée Guimet, Bibl. de Diffusion, t. LVIII (Paris, 1950).
- Du même, *Le taoïsme*, Publ. Musée Guimet, Bibl. de Diffusion, t. LVII (Paris, 1950).
- Du même, *Etudes historiques*, Publ. Musée Guimet, Bibl. de Diffusion, t. LIX (Paris, 1950).
- A. RYGALOFF, *Vie de Confucius* (Paris, P.U.F., 1946).
- A. WALEY, *Trois courants de la pensée chinoise*, trad. G. DENIKER (Paris, 1949).

جدول زماني مقارن

- ان التوقيت القديم غير أكيد في الغالب . لذلك اضطررنا الى الاكتفاء ببعض الاشارات الغامضة من جهة والى بعض المصطلحات من جهة اخرى :
- إن كلمة « حوالى » بصدد العهود القديمة ، لا تشير الى التاريخ ، بل الى توقيت تقريبي : فالتفاوت قد يبلغ قرناً أو قرنين أو أكثر أحياناً .
- إن كلمة « تقريباً » تشير الى تفاوت أقل اتساعاً في الزمن : بين نصف قرن وعشر سنوات على وجه التقريب .
- إن علامة الاستفهام (?) تشير الى تاريخ متأرجح يبلغ التفاوت فيه عدة سنوات فقط

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٤٢٤٥ - ٤٢٤٢	الوقت الأساسي لتقرير التقويم المصري	اولى حضارات بلاد ما بين النهرين	بدء الحضارة العيلامية	
حوالي ٤٠٠٠				
حوالي ٣٥٠٠				
حوالي ٣٢٠٠	الملكة الموحدة في مصر			
٣٢٠٠ - ٢٦٠٠		الطور السومري الاول ؛ مدن لاغاش وأور وأوروك الح تتحارب . تسلل الساميين الى بلاد بابل		
حوالي ٣٠٠٠				
بدء الالف الثالث				بدء العلاقات الوثيقة بين حبييل ومصر
من ٢٨٠٠ - الى ٢٢٠٠ تقريباً	ملكة منف القديمة			
٢٧٥٠				التاريخ التقليدي لتأسيس صور
٢٧٢٣-٢٥٦٣ (?)	السلالة الرابعة ، وبيني ملوكها الثاني والثالث والرابع خوفو وخفرع ومنكورع الامرام الكبرى			
٢٦٠٠ - ٢٤٠٠		طور أكاد . في البدء يؤسس سرجون مملكة أكاد السامية، وله نفوذ كبير على آسيا الداخلية؛ تقضي على المملكة غزرة من القبائل الجبلية		
٢٦٠٠			سرجون الأكادي يخضع بلاد عيلام	
حوالي ٢٥٠٠ - ١٥٠٠				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			٤٢٤٥ - ٤٢٤٢
			حوالي ٤٠٠٠
			حوالي ٣٥٠٠
			حوالي ٣٢٠٠
			٣٢٠٠ - ٢٦٠٠
			حوالي ٣٠٠٠
استمرار حضارة العصر الحجري الجديد في اليونان، وبدء استعمال المعادن في جزيرة كريت			بدء الالف الثالث
			من ٢٨٠٠ - الى ٢٢٠٠ تقريباً
			٢٧٥٠
			٢٧٢٣ - ٢٥٦٣ (?)
			٢٦٠٠ - ٢٤٠٠
			٢٦٠٠
			حوالي ٢٥٠٠ - ١٥٠٠
	حضارة وادي الهندوس (موهنجو - دارو ، هراپا) لم تفسر بعد الكتابة	سلالة الهيا (١٩٨٩ ؟ - ١٥٢٣ ؟)	

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والأناتول
من ٢٣٥٠ الى ٢١٥٠ تقريباً	الفوضى في العهد الاول الذي يفصل بين الملكتين			
حوالي ٢٣٠٠		عرديا ملك في لاغاش ؛ سلالة أور الثالثة	السومريون يخضعون بلاد عيلام	
٢٣٠٠ - ٢٠٠٠		الطور السومري الثاني		
من ٢١٥٠ الى ١٦٨٠ تقريباً	دولة طيبة الوسطى			
حوالي ٢١٠٠		خواب ملكة أور	العميلاميون يتقدمون على مملكة أور	
٢١٠٠ - ١٩٠٠		بيلالات ايسن ولربسا رازياد نفوذ سامي الغرب اور الاموريين	اردهار جماعة من السحار الاشوريين في كبادوكية	
حوالي ٢٠٠٠			استقرار الجندور-اوربيد في إيران	استقرار الحثيين في الإناضول ، ازدمار ارغاريت في فينيقية ، توسع علاقاتها مع بلاد ما بين النهرين وخاصة مع العالم الإيجي
من ٢٠٠٠ الى ١٧٨٥ تقريباً	السلالة الثانية عشرة ، وأشهر فراعنتها هو منوسرت الثالث المعروف بسوسنرس عند اليونان (١٨٨٧ - ١٨٥٠)			
٢٠٠٠ - ١٦٥٠		السلالة البابلية الاولى		
١٩٠٠ - ١٨٠٠				استيلاء الى التوراة العميلامون يحتازون سوريا و فلسطين بطريقهم الى مصر
١٨٤٠		حكم حمورابي		الاشوريون سادة ماري على المهرات
أواخر القرن التاسع عشر				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
عر طروادة الثانية			من ٢٣٥٠ الى ٢١٥٠ تقريباً
			حوالي ٢٣٠٠
			٢٣٠٠ - ٢٠٠٠
			من ٢١٥٠ الى ١٦٨٠ تقريباً
بناء القصور الاولى الكريتية			حوالي ٢١٠٠
			٢١٠٠ - ١٩٠٠
			حوالي ٢٠٠٠
			من ٢٠٠٠ الى ١٧٨٥ تقريباً
			٢٠٠٠ - ١٦٥٠
			١٩٠٠ - ١٨٠٠
			سنة ١٨٤٠
			أواخر القرن التاسع عشر

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
١٨٠٠	استناداً الى التوراة، قدوم العبرانيين الى مصر			
١٧٣٠ تقريباً - ١٥٨٠	غزو وحكم الهكسوس . الطور الثاني الفاصل بين المملكتين			
١٧٠٠ تقريباً				
القرن السابع عشر				تأسيس مملكة الهوريين في بلاد ميتاني ؛ ازدهار الامبراطورية الحثية
١٦٥٠		الغزوة الحثية على بابل وقيام السلالة الكاسية		
١٥٨٠ - ١٠٩٠	المملكة الطيبية الجديدة			
ابتداء من ١٥٨٠				حملات فراعنة مملكة طيبية الجديدة على بلاد كنعان
١٥٨٠ - ١٣٢٠	السلالة الثامنة عشرة			
حوالي ١٥٠٠				
القرن الخامس عشر - النصف الاول من القرن الرابع عشر		تأثير مصر الهوي على بلاد ما بين النهرين		
١٤٨٤ - ١٤٥٠ (?)	حكم تحوتس الثالث الذي بسط سيادة مصر حتى الفرات			
ابتداء من ١٤٨٣				غزوات تحوتس الثالث المظاهرة وهو ينشئ الامبراطورية المصرية في آسيا

العالم الايجيبي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			١٨٠٠
			١٧٣٠ تقريباً - ١٥٨٠
			١٧٠٠ تقريباً
			القرن السابع عشر
			١٦٥٠
			١٥٨٠ - ١٠٩٠
			ابتداء من ١٥٨٠
			١٥٨٠ - ١٣٢٠
أر ح عظمة دولة مينوس البحرية	وصول الآريين الى حوض الهندوس	سلالة الشانغ (١٥٢٣ ؟ - ١٥٢٨) وقد دعوا الى «ين» منذ سنة ١٣٠٠	حوالي ١٥٠٠
			القرن الخامس عشر - النصف الأول من القرن الرابع عشر
			١٤٨٤ - ١٤٥٠ (?)
			ابتداء من ١٤٨٣

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزة)
١٤٠٠ تقريباً	خروج العبرانيين		
١٣٨٨ - ١٣٥٠ تقريباً			
١٣٧٠ - ١٣٥٢ (?)	حكم امنوفيس الرابع - اخناتون طور تل العمارنة	تضعف الامبراطورية المصرية في آسيا	
١٣٢٠ - ١٢٠٠ تقريباً	السلالة التاسعة عشرة		
القرن الثالث عشر			
القرنان الثالث عشر والثاني عشر		عصر العظيمة الآشورية الاول : حوالي سنة ١٢٧٠ يمتاز شلصير الاول الفرات . من سنة ١٢٦٠ الى سنة ١٢٤٠ حكم توكلاتي - بينورتا الاول الذي ينتصر في كل حمة ريستولي على بابل . حوالي سنة ١١٠٠ يلغ تملت فلاصر الاول البحر الابيض المتوسط في فينيقيا	
النصف الثاني من القرن الثالث عشر			
١٢٩٨ - ١٢٣٢ (?)	حكم رمسيس الثاني الذي ينتصر في قادش في فلسطين ويعقد تحالفاً مع الحثيين		
سنة ١٢٧٨			
ابتداء من ١٢٣٠	هجمات « شعوب البحر »		

بلاد كنعان وسوريا والاناطول	العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
نصوص اوغاريت الدينية . تحركات الشعوب الكبيرة . استقرار العبرانيين في فلسطين . الشعوب البحرية تتسدىء بالتحرك . تززع الامبراطورية المصرية	دمار قصر كنوسوس . ذروة ازدهار الحضارة الميسينية والملكة الاخية			١٤٠٠ تقريباً
حكم الملك الحثي سوبيلوليوما الذي يسيطر سلطانه على ميتاني ويصل الى فلسطين				١٣٨٨ - ١٣٥٠ تقريباً
تضعف الامبراطورية المصرية في آسيا				١٣٧٠ - ١٣٥٢ (?)
				١٣٢٠ - ١٢٠٠ تقريباً
ماوس احيرام في جبيل ؛ وجود الايجدية الفينيقية				القرن الثالث عشر
				القرنان الثالث عشر والثاني عشر
	التاريخ الذي اعتمدته القرون القديمة لحرب طروادة			النصف الثاني من القرن الثالث عشر
				١٢٩٨ - ١٢٣٢ (?)
				سنة ١٢٧٨
بعد صراع وعيسى الثاني مع الحثيين تقاسم النفوذ بين الفراعنة والملوك الحثيين ؛ وقد هددتهم جميعاً حركات شعوب حوض المتوسط الشرقي				ابتداء من ١٢٣٠

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
نهاية القرن الثالث عشر والثاني عشر قبل ١٢٠٠				اقامة الفلسطينيين على شاطيء فلسطين والآراميين في سوريا تقهقر الامبراطورية الحثية ؛ انشاء الدولة الفرجية في وسط آسيا الصغرى
ابتداء من القرن الثاني عشر				حروب العبرانيين ضد الفلسطينيين
القرن الثاني عشر -- القرن الحادي عشر		ملك عيلام شوتروك ماخونتيه الاول يفتز بلاد بابل		
١١٧٥				حكم الملكين داود وسليمان حكم احيرام ملك صور
انتهاء القرن الحادي عشر - ابتداء القرن العاشر				
القرن الحادي عشر - القرن السابع	فوضى ، حكم رؤساء كهنة امون ، السلالات الليبية والنوبية			
١٠٢٧				
٩٦٦(?) - ٩٥٩(?)				بناء هيكل اورشليم
بعد ٩٣٥ (?)				انقسام ممالك اسرائيل ويهوذا
من القرن التاسع - القرن السابع		الفتوحات الاشورية الكبرى	منذ القرن التاسع عزوات الاشوريين المتكررة على بلاد عيلام	عزوات الملوك الاشوريين احضاعهم ارمينيا وسوريا وفينيقيا وفلسطين

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			نهاية القرن الثالث عشر والثاني عشر قبل ١٢٠٠
الغزو الدوري		نغان يانغ عاصمة الهوان	ابتداء من القرن الثاني عشر القرن الثاني عشر - القرن الحادي عشر ١١٧٥
			انتهاء القرن الحادي عشر - ابتداء القرن العاشر القرن الحادي عشر - القرن السابع
		سلالة التشاو (١٠٢٧ - ٢٥٦) الانتاج (?) الادبي الاول	١٠٢٧
			٩٦٦(?) - ٩٥٩(?)
			بعد ٩٣٥ (?)
			من القرن التاسع - القرن السابع

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٧٠٠ -- ٩٠٠				
حوالي ٨٠٠				
القرن الثامن				نبوءات عافوس واشعب
٧٧٦				
٧٧١				
منتصف القرن الثامن - آخر القرن السادس				
النصف الثاني من القرن الثامن				
٧٤٧		اعتماد الحلقة المكونة من ١٩ عاماً للتقويم البابلي		
٧٢١ - ٧٠٥		حكم سرجون الثاني الاشوري		
٧١٥			ابتداء المملكة المادية	
٧١٠				سرجون الثاني الاشوري يقضي على دولة العبرانيين
آخر القرن الثامن				
القرن السابع				التنافس بين المصريين والبابليين في فلسطين . نبوءات ارميا .

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
الأواني الخزفية الهندسية			٧٠٠ - ٩٠٠
	امتداد المنصر الآري نحو الفانج، الأوبليشاد الأساسية		حوالي ٨٠٠
			القرن الثامن
بدء جدول المتصرين في الألعاب الأولمبية			٧٧٦
		سقوط عاصمة التشاو بيد برايرة الغرب . تأليف تقويم الربيع والخريف : بين ٧٧٢ و ٤٨١	٧٧١
الاستعمار اليوناني . تأسيس كوم في كيبانيا (٧٥٠) وسرقسطة (٧٣٣) وترث (٧٠٨) وبيزنطية (٦٦٠) ومرسيليا (٦٠٠) ونكراتيس (بعد ٥٦٩ بقليل)			منتصف القرن الثامن - آخر القرن السادس
قصائد هوميروسية			النصف الثاني من القرن الثامن
			٧٤٧
			٧٢١ - ٧٠٥
			٧١٥
			٧١٠
			آخر القرن الثامن
هسيود			
أدوات الفخار ذات الطابع الشرقي. ابتداء القدر في اليونان			القرن السابع

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والأناضول
٦٨٥ ؟				أيام جيفس ، حكم سلالة المرمناد في ليدية. ظهور التقودعري آسيا الصغرى
٦٧١	اسرحدون الاشوري يخضع مصر السفلى			
٦٦٥	اشوربانيبال يخضع مصر العليا			
٦٦٨ - ٦٢٦		حكم اشوربانيبال		
٦٦٣ - ٦٢٥	السلالة السادسة والعشرون الصائية			
٦٤١			اشوربانيبال يستولي على سوزة ويدمرها	
٦٢٦ - ٥٣٩		المملكة البابلية الجديدة		
٦٢١				اصلاح عزيا الديني في مملكة يهوذا وكما تقول التوراة لشر سفر تثنية الاشراع
٦١٤		الماديون يدمرون اشور ضد الاشوريين	تحالف الماديين والبابليين	
٦١٢		دمار نينوى على يد الماديين والبابليين		
٦٠٥ - ٥٦٢	باية القرن السابع بدء القرن السادس	ملك نبوخذ نصر في بابل		
القرن السادس				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			٦٨٥ ؟
			٦٧١
			٦٦٥
			٦٦٨ - ٦٢٦
			٦٦٣ - ٦٢٥
			٦٤١
			٦٢٦ - ٥٣٩
(?) قوايين دراغون في اثينا			٦٢١
			٦١٤
			٦١٢
سافو وألسي			نهاية القرن السابع وبدء القرن السادس
			٦٠٥ - ٥٦٢
	التوسيع الآري نحو الشرق والجنوب ، زعامة مغدها		القرن السادس

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٥٩٧				استيلاء نبوخذ نصر على اورشليم
٥٩٤ (?)				
٥٨٨				دمار الهيكل . « سي بابل » ونبوذة حزقيال
٥٨٥				الحرب ثم التحالف بين الماديين والليديين
٥٦٦				
٥٦١ (?) - ٥١٠				
٥٦٠ - ٥٤٦ (?)				حكم كرسوس في ليديا
٥٥٩ (?) - ٥٣٠			كورش ملك الفرس	
٥٥٩				
٥٥٥ تقريباً (?)				
حوالي ٥٥٣ (?)				
٥٥١ (?)				
النصف الثاني من القرن السادس				
٥٤٩ - ٣٣٠			العهد الفارسي	
٥٤٩			إخضاع كورش لمملكة الماديين	

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			٥٩٧
قوانين صولون في اثينا			٥٩٤ (?)
			٥٨٨
٢٨ ايار : الكسوف الذي تلبأ به فاليس			٥٨٥
تأسيس اعياد بانثينا الكبرى			٥٦٦
حكم الظالم بسترات وارلاده في اثينا			٥٦١ (?) - ٥١٠
			٥٦٠ - ٥٤٦ (?)
	حكم كورش ، قاهر كيشا « كابل »		٥٥٩ (?) - ٥٣٠
	ميلاد بوذا		٥٥٩
ميكل ارتيس في افسس			٥٥٥ تقريباً
	ابتداء حكم بيمبيسارا		حوالي ٥٥٣ (?)
		ميلاد كونفوشيوس	٥٥١ (?)
ذوال عز الآلية الفخسارية الكورنثية بعد خضوع آسيا الصغرى للفرس . هجرة رجال الفن والادب « كسوفان » نحو اوربا			النصف الثاني من القرن السادس
			٥٤٩ - ٣٣٠
			٥٤٩

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٥٤٦ (?)			استيلاء كورش على آسيا الصغرى	
٥٤٠ (?)				
٥٣٩ - ٣٣١		السيادة الفارسية		
٥٣٩		كورش يستولي على بابل		انتهاء سبي بابل
٥٣٤				
٥٣٢ - ٥٢٢				
حوالي ٥٣٠			سنة ٥٣٠ موت كورش أثناء حملة في الشمال الشرقي من ايران	
٥٣٠ - ٥٢٢			حكم قمبيز	
٥٢٥ - ٣٣٢	الحكم الفارسي			
٥٢٥	خضوع مصر للملك الفرس قمبيز			
٥٢٢ - ٤٨٦			حكم الملك داريوس الاول	
٥١٩ - ٥١٨	داريوس الاول في مصر. اصلاح القناة ما بين النيل والبحر الاحمر			
٥١٨			نهوش هستون	
٥٠٧				
آخر القرن السادس - بدء القرن الخامس			عملا نارامر داريوس رحلة سكيلكس	

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			٥٤٦ (?)
	ولادة جينا مؤسس الديانة الجانية		٥٤٠ (?)
			٥٣٩ - ٣٣١
			٥٣٩
اول سباق دموي بأثينا في اعياد ديونيسوس			٥٣٤
طفيان بوليكرات في ساموس . ذهاب بيتاغور الى ايطاليا الجنوبية			٥٣٢ - ٥٢٢
الاولي ذات الوجه الاحمر . توسيع هيكل هيكاثومبيدون في اثينا			حوالي ٥٣٠
			٥٣٠ - ٥٢٢
			٥٢٥ - ٣٣٢
			٥٢٥
			٥٢٢ - ٤٨٦
			٥١٩ - ٥١٨
	انتصارات داريوس في شمالي الهند		٥١٨
قوانين كليستين في اثينا			٥٠٧
نشاط هرقليت الادبي وميكته الميلي . تمثيلات اشيل الاولى . قصائد بندار الاولى			آخر القرن السادس - بدء القرن الخامس

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و ايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٤٩٠				
٤٨٦ - ٤٦٥	ابتداء من سنة ٤٨٦ ثورة مصر على الفرس		ملك كسرخوس الاول	
حوالي ٤٩١ او ٤٨٦ (?)				
٤٨٣				
٤٨١				
٤٨٠				
٤٧٩				
٤٧٨ (?)				
٤٧٧				
٤٧٤				
حوالي ٤٧٠				
٤٦٨				
٤٦٢				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
الحرب المادية الاولى . هزيمة الفرس في مراتون			٤٩٠
			٤٨٦ - ٤٦٥
	بدء حكم اجاثشتر		حوالي ٤٩١ او ٤٨٦ (?)
ثينا تبتديء ببناء اسطول حربي عظيم			٤٨٣
		الممالك المتحاربة (٤٨١-٢٢١)	٤٨١
الحرب المادية الثانية . انكسار الفرس في سلامين . وفي هذا اليوم انتصار حاكم سرقسطة على القرطاجيين في ميار		حياة الفيلسوف مورتسو (سنة ٤٨٠ - ٤٠٠) تقريباً	٤٨٠
معركة بلاتيه التي تطرد الفرس من اليونان . معركة ميكال التي تحرر يوناني آسيا من حكم الفرس		موت كونفوشيوس (?)	٤٧٩
	موت (نرفانا) بوذا		٤٧٨ (?)
تأسيس حلف ديلوس الذي يهدو مستعمرة لاينا بسبب الحرب ضد الفرس ثم ضد سبرطة			٤٧٧
انتصار حاكم سرقسطة على الأتروسك في كوم			٤٧٤
مولد سقراط			حوالي ٤٧٠
تفوق سوفوكل على ايسل في المسرح التمثيلي	موت جينا (?)		٤٦٨
اصلاحات افبالت الديموقراطية في اثينا . باغتيال افبالت بعد مدة وجيزة يصبح بركليس زعيم الحركة الديموقراطية . بدء حرب اثينا ضد سبرطة			٤٦٢

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و ايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
حوالي ٤٦٠				
٤٥٦				
٤٥١				
بعد ٤٥٠ بقليل				
٤٤٨				
٤٧٤				
٤٤٦ (?)				
٤٤٣				
٤٤٠				
٤٣١				
٤٢٩				
٤٢٧				
٤٢٣				
٤٢١ — ٤١٣				
٤١٥ — ٤١٣				
٤٠٦				
٤٠٥ — ٣٦٧				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
تأسيس المسابقات للتمثيليات الهزلية في اثينا			حوالي ٤٦٠
اولى مسرحيات اوربيدوس			٤٥٦
قانون حقوق المواطن في اثينا			٤٥١
الصلح بين اثينا والفرس ثم بينها وبين سبرطة			بعد ٤٥٠ بقليل
تمثال زفس بيد فيدياس في اولمبيا			٤٤٨
بدء اعمال الاكربول في اثينا . تشييد البارثون (٤٣٨ - ٤٤٧) والاركتيون (٤٣٥ - ٤٠٧) بهيكل اثينا المنتصرة (بدء الاعمال به سنة ٤٢٠)			٤٧٤
هيرودوتس يقيم في اثينا			٤٤٦ (?)
بعد نفي زعيم المعارضة ، بركليس يتصرف بضرائب الامبراطورية لإقامة الاعمال العظيمة التي تأسس بها ويفقدو سيد اثينا . ويعاد انتخابه زعيماً لمدة ١٤ سنة دون انقطاع			٤٤٣
		أنقسام التشاو	٤٤٠
بدء حروب البلوبونيز بين اثينا وسبرطة وخلفاء كل منها			٤٣١
موت بركليس			٤٢٩
مسرحية ارستوفان الهزلية الاولى . اقامة الاديب غورجياس في اثينا			٤٢٧
نفي توسيديد الذي يقيم في تراقيا ويسهي فيها تأليف كتابه تاريخ حروب البلوبونيز			٤٢٣
توقف القتال رسمياً بين اثينا وسبرطة			٤٢١ - ٤١٣
غزوة اثينا لصقلية التي تلتها بانكسارها امام سرقسطة			٤١٥ - ٤١٣
موت سوفوكل واوربيدوس			٤٠٦
طفيان دونيس القديم في سرقسطة وهو بجالة حرب مع قرطاجة . افلاطون يسافر مراراً الى سرقسطة			٤٠٥ - ٣٦٧

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران بلاد (سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٤٠٤				
٣٧١ - ٤٠٤				
٤٠٣ - ٤٠٤				
انتهاء القرن الخامس وبدء القرن الرابع			كتيسياس اليوناني اطبيب في بلاط فارس	
أثناء القرن الرابع				ثورات المرازبة المتعددة ضد ملك الفرس في آسيا الصغرى وفي سوريا
٤٠١ - ٤٠٠		غزوة العشرة آلاف		
٣٩٩				
٣٩٤				
٣٨٧				
٣٨٠				
٣٧٧ - ٣٥٣				موت موزول كرزبان كاريه. بعد موته تشييد قبره في هلكرناس
٣٧٧				
٣٧١				
٣٦٧		تقرير التقويم البابلي		
٣٥٩				
٣٥٤				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
بعد اكسار اعوس بوموس زوال امبراطورية اثينا واستسلام اثينا			٤٠٤
سيادة سبرطة في اليونان			٣٧١ - ٤٠٤
اوليعرشية الثلاثين سم اعادة الديموقراطية الى اثينا			٤٠٣ - ٤٠٤
	كتاب القواعد باني		انتهاء القرن الخامس وبدء القرن الرابع
	بدء تنظيم مهاباراتا		أثناء القرن الرابع
			٤٠١ - ٤٠٠
محاكمة وموت سقراط			٣٩٩
سبرطة تتخلى عن يوناني آسيا فيخضعون للفرس			٣٩٤
تأسيس الاكاديمية على يد افلاطون			٣٨٧
تأبين ايزوكرات			٣٨٠
			٣٧٧ - ٣٥٣
تأسيس الحلف الاثيني الثاني			٣٧٧
اكسار جيش سبرطة في لوكترا على يد ابيمينونداس الذي يبقى حتى سنة ٣٦٢ السيادة في اليونان لطيبة			٣٧١
			٣٦٧
بدء حكم فيلبس في مقدونيا . لشوب الحرب مع اثينا (وبعد هدنة من ٣٤٦ - ٣٤٠) التي ستدوم حتى ٣٣٨			٣٥٩
اول دفاع لديوستينوس أمام مجلس الشعب في اثينا			٣٥٤

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
حوالي ٣٥٠				
٣٤٣				
٣٣٨				
٣٣٦				
٣٣٤ - ٣٢٣	سنة ٣٣٢ - ٣٣٠ الدور اليوناني. سنة ٣٣٢ وصول ذي القرنين الى مصر. سنة ٣٣١ تأسيس الاسكندرية	سنة ٣٣١ - ١٢٩ السيادة اليونانية . سنة ٣٣١ انتصار ذي القرنين على داريوس الثالث في اربيل . دخول ذي القرنين الى بابل	سنة ٣٣١ يستولي ذو القرنين على سوزة ورسبوليس وسرعاد واكبتان . سنة ٣٣٠ موت داريوس الثالث . سنة ٣٣٠ - ٣٢٧ غزوة ذي القرنين لإيران	سنة ٣٣٢ - ٣٣٣ نزول ذي القرنين الى آسيا الصغرى . انتصاره على العرائق . حادثة العقدة العوردية . بعد انتصاره في ايسوس في كيليكية يعود الى سوريا . ٣٣٣ - ٣٣٢ الاسكندر يحاصر صور ويستولي عليها .
٣٢٥			يحترق ذو القرنين إيران الجنوبية من الشرق الى الغرب . امير بحريته نبارك يجاور بحري الهندوس على الخليج الفارسي	
٣٢٤			حفلة الزواج في سوزة	
٣٢٣	بظليموس حاكم مصر	موت ذي القرنين في بابل		بعد سنة ٣٢٣ صراع قواد ذي القرنين
حوالي ٣٢٢				
٣٢١				
٣١٣ - ٣١٢ (?)		سلوقس حاكم بابل		
٣١٠				
٣١٠ - ٣٠٦			استيلاء سلوقس على إيران . ارامه تحالفاً مع الملك الهندي شندراغوبتا	

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
ارسطو يصبح معلم الاسكندر الذي بلغ الثالثة عشرة انتصار فيلبس في كرونيه اغتيال فيلبس ، بدء حكم الاسكندر		حياة منشيوس (مونج - تسيو)	حوالي ٣٥٠ ٣٤٣ ٣٣٨ ٣٣٦ ٣٣٤ - ٣٣٣
سنة ٣٣٤ ارسطو يستقر في اثينا وينشئ الأكاديمية			
	سنة ٣٢٦ - ٣٢٥ غزوة ذي القرنين حتى ضفاف الهندوس		٣٢٥
			٣٢٤ ٣٢٣
سنة ٣٢٣ - ٣٢٢ بعد موت ذي القرنين ثورة اليونان على مقدونيا. قمع الثورة. ديموستينوس يحرع السم	سلالة الموريا (٣٢٢ - ١٧٦)		حوالي ٣٢٢ ٣٢١ ٣١٣ - ٣١٢ (?) ٣١٠ ٣١٠ - ٣٠٦
اول تمثيلية هزلية ليناندر	بدء حكم شندراغوبتا	بدء تأسيس مملكة تين	

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٣٠٦	يتخذ بطليموس لقب الملك	سلوقس يتخذ لقب ملك		
٣٠١				اتفاق يترك سوريا الجنوبية (سوريا المجوفة) الى بطليموس الاول ملك مصر
نهاية القرن الرابع وبدء القرن الثالث	تأسيس متحف ومكتبة الاسكندرية . مانتون الكاهن المصري يكتب تاريخ مصر الفرعونية ويحدد تعاقب السلالات	الكاهن الكلداني بيروسوس يؤلف تاريخ بلاد ما بين النهرين		يوطد بطليموس الاول واسه بطليموس الثاني حكمهما المباشر او حمايتها على جميع شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية
٣٠٠ - ٢٣٠				
٢٨٧ - ٢١٢				
٢٨٥ (?) - ٢٤٦	حكم بطليموس الثاني . في بدء عهد هذا الحكم تشيد منارة الاسكندرية على يد المهندس سوستراتوس			
٢٨١				سلوقس الاول يخضع معظم أجزاء آسيا الصغرى ولكن السلطة على برعام تنقى الى الملك الاول الاتليدي
٢٧٨ - ٢٧٩ حوالي ٢٧٥				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
في أواخر القرن الرابع يتخذ بعض قواد الاسكندر لقب ملك. ازدهار رودس الاقتصادي وهي من سنة ٣٠٥ الى سنة ٣٠٤ تدافع ضد حصار مريز. يؤسس ابيكوروس ورينون مدرستها في اثينا. في بدء القرن الثالث يسيطر بطليموس الاول على بحر ايجه			٣٠٦ ٣٠١ نهاية القرن الرابع وبدء القرن الثالث
حياة ارخيدس	سفارة ميفستين في باتليترا (حوالي سنة ٣٠٠)	سيون كوانغ	٣٣٠ - ٣٠٠ ٢٨٧ - ٢١٢ ٢٨٥ (?) - ٢٤٦
غزو السلتيين لمقدونيا حتى دلف. تثبيت العالم الهليني مع الممالك الثلاث : اللاجيون في مصر والسوقيون في آسيا والانتيجونيد في مقدونيا. يحكم برعام ملك اقليدي. وفي اليونان يتقوى الحلف الايتولي. أما الحلف الآخي الذي ألف منذ زمن قصير ، يبتدىء بالازدهار في البلوبونيز			٢٨١ ٢٧٩ - ٢٧٨ حوالي ٢٧٥

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران بلاد (سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٢٧٥ - ١٩٤				
القرن الثالث				تتجزأ مملكة السلوقيين في آسيا الصغرى حيث يستقر الغلاطيون وحيث يفوز بالاستقلال التام ملوك بيلينيا وكبادوكيا والبنطس وبرغام . وفي هذه المدينة يتخذ اقلوس الاول لقب ملك حوالي سنة ٢٤٠ . وبعد حروب طويلة «حروب سوريا» يعجز الملوك السلوقيون عن استرجاع سوريا المحوفة من ملوك مصر البلاجيين
٢٦٤ - ٢٦١ (?)				
٢٥٩				
٢٥٠ (?)			ابتداء من سنة ٢٥٠ بدء حكم سلالة البرثيين الارساسيد	
٢٤٦				
حوالي ٢٤٥				
٢٢٧ - ٢٢٦ (?)				
٢٢٣				ملك انطيوخس الثالث الذي سيعيد عز السلوقيين في آسيا الصغرى ويستولي على سوريا المحوفة منتصراً على بطليموس الحامس ويفقد هذا الاخير آخر المعاقل المصرية في آسيا الصغرى
٢٢٢				
٢٢١				
٢١٣				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
حياة ارتوستين	بدء تقرير الراماينا	تأليف تار - توكنغ، مؤلف يمت الى الخرافة	٢٧٥ - ١٩٤ القرن الثالث
	استيلاء اشوكا على العرش	مولد تشنغ (الذي سيصبح تسن - شه - هوانغ - تي)	٢٦٤ - ٢٦١ (?) ٢٥٩
	اعتناق اشوكا البوذية . تصبح البكتريان مستقلة مع اليوناني ديودوت الاول		٢٥٠ (?)
	تأسيس الكنيسة البوذية في سيلان	بدء حكم تسن - شه - هوانغ - تي (٢٤٦ - ٢١٠). البدء ببناء السور الكبير	٢٤٦
سنة ٢٢٧ اصلاحات الملك كليومين في سهرطة	موت اشوكا		حوالي ٢٤٥ ٢٢٧ - ٢٢٦ (?)
آخر القرن الثالث : انحطاط السلطة الالاجية التي لن يحسب لها حساب في اليونان وبحر ايجيه			٢٢٣
الملك المقدوني يسحق كليومين في سلازيا			٢٢٢
		سلالة التسن (٢٢١ - ٢٠٧)	٢٢١
		حرق الكتب الكلاسيكية	٢١٣

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والاناطول
٢١٢ - ٢٠٥			غزوة انطيوخس الثالث الى الشرق	
٢٠٦				
٢٠٧ - ١٩٢				
انتهاء القرن الثالث و بدء القرن الثاني	نقل التوراة الى المصرية اليونانية في الاسكندرية			
القرن الثاني				
٢٠٠ - ١٩٦				
النصف الأول من القرن الثاني				
١٩٢ - ١٩٨				سنة ١٨٩ الرومان ينتصرون على انطيوخس الثالث في معنريا . معاهدة امامة (١٨٨) تفقد السلوقيين آسيا الصغرى ويعود قسمها الأكبر الى الاتليد
١٨٩				
١٨٧			موت انطيوخس الثالث في غربي ايران سنة ١٨٧ . انتهاء السيادة السلوقية على ايران . استقرار البرثيين واستقلال مملكة بكتريان اليونانية	
١٧٦				قبل سنة ١٧٦ نقليل يسمى هليودور ، وزير سلوقس الرابع للاستيلاء على كموز ميكل اورشليم

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
الحرب المقدونية الاولى بين روما وفيلبس الخامس. تعقد روما معاهدات مع العالم اليوناني وترسل سفناً الى بحر ايجه			٢٠٥ - ٢١٢
		سلالة الهان (٢٠٦ ق.م - ٢٢٠ بعده)	٢٠٦
حكومة نابيس الثورية في سبرطة			٢٠٧ - ١٩٢
			انتهاء القرن الثالث وبدء القرن الثاني
	قوانين بالي . اول ذكر لطريق التحرير	قوانين شه - كينغ	القرن الثاني
حرب مقدونيا الثانية. انتصار فيليبس الخامس في كنفاليس (١٩٧) . السلم يطرد مقدونيا من اليونان			٢٠٠ - ١٩٦
بناء مذبح زفس العظيم في رغام			النصف الأول من القرن الثاني
الحروب السورية الاتليدية . روما تنتصر على انطيوخس الثالث في ترموبيل (١٩٢) وتبسط نفوذها على الحلف الاتولي. سلطة الحلف الآخي على جميع أجزاء البلوبونيز وذلك بمساعدة روما			١٩٢ - ١٩٨
	غزوة ديمتريوس للبيجاب		١٨٩
			١٨٧
	بدء حكم شنغا (١٧٦ - ٦٤)		١٧٦

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و ايران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
١٧٢ - ١٦٨				
١٧٤ - ١٦٤				حكم انطيوخس الرابع
١٦٩				انطيوخس الرابع يتبع سياسة هليانية في فلسطين . ثورة المكابيين
١٦٨				
١٦٧				
بعد ١٦٤				الانحطاط والفوضى المتزايدتان في المملكة السلوقية أثر صراع السلالات الحاكمة ، وتقدم البرثيين وانتصارات اليهود الذين تعاضدوا روما سياسياً
١٤٨				
١٤٦				
١٤٥				
١٤٠				
١٣٣				موت أتالوس الثالث الذي يهب كنوزة الى الشعب الروماني
حوالي ١٣٠				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
الحرب المقدونية الثالثة تشنها روما على الملك برسيه ؛ سنة ١٦٨ بول - اميل يسحق برسيه في يديه	او كراتيدس ينتزع بكترين من ديمتريوس		١٧٢ - ١٦٨
			١٧٤ - ١٦٤
			١٦٩
	ميناندر في البنجاب (مات حوالي سنة ١٥٠ - ١٤٥) . تصل غزواته الى باثليترا		١٦٨
القضاء على مملكة مقدونيا . الرومان ينزلون باليونان عقوبات صارمة . نفي بوليب وآخرون الى ايطاليا . تعطى ديولوس الى اثينا ولكنها تبقى ميناء حراً . ازدهار ديولوس الاقتصادي التي تصبح سوق التجارة الايطالية في الشرق			١٦٧
			بعد ١٦٤
بعد القضاء على ثورة قامت في مقدونيا اخضاع البلاد وجعلها مقاطعة رومانية . يراقب حاكمها بلاد اليونان			١٤٨
بعد حرب قصيرة مع الحلف الآخي يدمر الرومان كورنثيا			١٤٦
		حياة المؤرخ سه مائسن (١٤٥ - ٨٦)	١٤٥
		حكم وو (١٤٠ - ٨٧) اتساع الفتوحات نحو تركستان الصينية	١٤٠
			١٣٣
	يصل اليو - تشه الى بكترين ويخضعونها		حوالي ١٣٠

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران بلاد (سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
١٢٩		افقراض السيادة السلوقية: يستولي البرثيون على بابل بدلاً من اليونان		
١٢٦				بعد ان سحق تروما ثورة ارستونيكوس تأخذ على عاتقها تنظيم مقاطعة آسيا
حوالي ١١٤				
١١٢				ميتريدات ملك البنطس . سنة ١٠٧ يستولي على مملكة البوسفور البحرية (مضيق كرتش في القرم)
١٠٤				يأخذ كاهن اورشليم الاكبر ارستبولوس لقب ملك
حوالي ١٠٠				
القرن الأول				
٨٨				
٨٨ - ٦٤				من سنة ٨٨ - سنة ٨٤ حروب روما ضد ميتريدات
ابتداء من ٨٠				
٧٣				
٧٠				
٦٤				بومبي في سوريا

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			١٢٩
			١٢٦
		علاقات سياسية مع بكتريان	حوالي ١١٤
			١١٢
			١٠٤
	عمود هليودوروس في فيديشا		حوالي ١٠٠
	قوانين مانو		القرن الأول
تلبية لنداء ميتريدات مجزرة الايطاليين في آسيا الصغرى الغربية ودياوس			٨٨
حروب سيل في اليونان ضد جيوش ميتريدات . حصار ودك اثينا (٨٧ - ٨٥)			٨٨ - ٦٤
	يهبط الشاكا نحو السهول ومالفا		ابتداء من ٨٠
		حكم سيونتي (٧٣-٤٩) فتوحات جديدة نحو الغرب	٧٣
	بدء حكم الاندھرا في الجنوب. انهاء ستوبا سانشي الاولى		٧٠
	بدء حكم السكانفا (٦٤ - ٥٠)		٦٤

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٦٣				استيلاء رومي على اورشليم . يعيبد رومي تنظيم الشرق ، ويخلق مقاطعتي سوريا وبيثينيا الرومانيتين ، وينشئ على طول الفرات الوسط سلسلة من الدويلات التابعة ضد البرثيين
٥٣		يلتصر البرثيون على كرسوس في كار ويقتلونه		
٤٨	مقتل رومي أمام بلوذه . وصول قيصر الى الاسكندرية . بدء حرب الاسكندرية التي تتحرق في أثناءها مكتبة الاسكندرية			
٤٧	موت بطليموس الرابع عشر شقيق كليوباتره			
٤٢				
٣١				
٣٠	موت كليوباتره . مصر تصبح رومانية			

التواريخ	الصين	الهند	العالم الايجي والعالم اليوناني
٦٣			
٥٣			
٤٨			
٤٧			
٤٢			انتصار الطونينوس واغسطس على الجمهوريين في فيليبس في مقدونيا
٣١			انتصار اغسطس على انطونينوس وكليوباتره في اكسيوم في الابر
٣٠		حوالي سنة ٣٠ بدء حكم الكوشا في الشمال	

جدول الاعلام

- ١ -

١١٤ ، ١٣١ ، ٢٦٩ .	ابراهيم : ١٤٨ ، ١٦٦ .
اتيس : ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٤٩٣ .	ابساراس : ٥٦٩ .
اتيك : ٣٣٥ ، ٣٧٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ،	ابسرا : ٦٢٤ .
٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٣٦٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ ،	ابقراط : ٢٣٠ ، ٣٨٩ ، ٥٤٠ .
٤٠٧ ، ٤٠٨ .	ابن خلدون : ١١ ، ١٢ .
أثينا (الإلهة) : ٣٦٠ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ،	أبو سنبل : ١١٨ .
٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٩٤ .	ابولون : ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٣٤ ، ٢٩٤ ،
أثينا — الاثينيون : ٢٤٠ ، ٢٤٨ ، ٢٦٢ ،	٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ،
٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،	٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٧١ ، ٣٨٧ ، ٤١٧ ، ٤٤٧ ،
٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،	٤٧٣ ، ٤٨٩ ، ٤٩٨ .
٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ،	ابولونيد : ٢٣٠ .
٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،	ابولونيوس : ٥١٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ .
٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ،	ابيخارموس : ٣٩٦ ، ٣٩٨ .
٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ،	ابيدوس : ١٠٤ ، ١٠٧ .
٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ،	ابيدورس : ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٨ ، ٤٩٣ .
٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ،	اير : ٤١٤ ، ٤٤٧ ، ٥٢٣ ، ٦١٠ .
٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ،	ايس : ٨٧ ، ٨٨ ، ٤٩٥ .
٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ،	ايقور : ٣٨٥ ، ٥٣١ ، ٥٣٣ .
٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨ ،	ابيل : ٣٧٨ ، ٥٠٧ .
٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ،	ابيل — ايل : ١٩٥ .
٤١١ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ،	اكارغاتيس : ٢٦٤ .
٤٦٥ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ،	اتروريا الاتروسكيون : ٢٠٧ ، ٣٠٧ ، ٣١٣ ،
٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ،	٣٣٠ .
٥١٠ ، ٥١٣ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢١ ،	اتمان : ٥٦٩ .
٥٢٤ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٦ .	اقوم : ٩٤ .
اثيوبية — الاثيوبيون : ٣٩ ، ٢٢٧ .	اتون : ٥٠ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١١ ،
اجاتشTRO : ٥٥٤ .	

ارغوس : ٢٣٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٨٥ ،
 ٢٩٦ ، ٣٠٥ ، ٣٩٦ ، ٤٥٣ .
 ارغوليد : ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ،
 ٣٧١ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦ ، ٤٩٣ .
 ارميا : ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ .
 ارميتاج : ٣٨٠ .
 ارمينيا : ١٥٧ ، ٤٢١ ، ٤٧٧ ، ٥٣٩ ،
 اركيوسا : ٣٨١ .
 اريدو : ١٦٧ .
 اريستيبيوس : ٣٨٥ .
 اريستيدس : ٢٩٢ .
 ارينا : ٢٠٦ .
 آريون : ٢١٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ،
 ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ، ٥٦٦ ،
 ٥٦٨ .
 اسانا : ٥٤٨ .
 اسباسيا : ٣٣٨ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ .
 اسبانيا : ٣١٣ ، ٢٥٩ .
 استير : ٢١٩ .
 اسرائيل : ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ،
 ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ .
 اسرائيل (مملكة) : ٢٦٧ ، ٢٧١ .
 اسشيل : ٣١١ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ .
 اسشين : ٤٠١ .
 اسكليبيوس : ٣٧١ ، ٣٨٨ ، ٤٩٣ ،
 ٤٩٥ ، ٥١٧ ، ٥٣٠ .
 الاسكندر الكبير : ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٩ ،
 ٧١ ، ١٢٦ ، ١٣٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ،
 ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ،
 ٢٣٠ ، ٢٥٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ،
 ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ،
 ٣٥٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٣٩٧ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤١٢ ،
 ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ،
 ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩

اخشويروش : ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢٣٠ .
 احيرام : ٢٦٠ ، ٢٦١ .
 اختاتون : ٩٨ .
 الاخينيوت : ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٦٤ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٤٨٧ ،
 ٦٠٧ .
 اخناتون : ٥٠ ، ٦٥ ، ٧٩ ، ٩٦ ، ٩٨ ،
 ٩٩ ، ١١١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٨ .
 الاخيون : ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥٢ ،
 ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٤٠٩ .
 ادفو : ٨٩ ، ٤٨٦ .
 ادونيس : ١٦١ ، ٢٠٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ،
 ٣٦٦ .
 اراتاكسا : ٥٣٩ .
 اراتوس : ٥٢٣ ، ٥٣٦ .
 الاراميون : ١٥٨ ، ١٧٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ،
 ٢٦٤ .
 اربيل : ١٦٦ .
 ارتخششتا : ٢٢١ .
 ارميس : ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٤٨٩ .
 ارجينوز (جزر) : ٣٦٢ .
 ارجيه (جبل) : ١٥٨ .
 ارخيدس : ٥١٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٠ .
 ارخيتاس : ٣٨٨ .
 الاردن : ٢٦٦ .
 ارزو : ٦٠٦ .
 الارساسيون : ٤٠٥ ، ٤٧٧ .
 ارسطارخوس : ٥٢٠ ، ٥٢٩ ، ٥٣٢ .
 ارسطو : ١٤ ، ٣٢٣ ، ٣٣٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ،
 ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٤٠٤ ، ٤١٠ ، ٤٩٢ ، ٥١٧ ،
 ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٣٠ ،
 ٥٣١ ، ٥٣٢ .
 ارسطوبولوس : ٤٨٨ .
 ارسطوفانوس : ٣٤٤ ، ٤٥٣ ، ٣٥٧ ،
 ٣٥٩ ، ٣٨٣ ، ٣٩٧ ، ٥٣٩ .
 ارسينوي : ٤١٩ ، ٥١٤ ، ٥٣٧ .

٤٤١ ، ٤٤٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ،
 ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٧ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ،
 ٤٨٦ ، ٤٩١ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠٣ ،
 ٥٠٤ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ،
 ٥١٤ ، ٥٢٣ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٣ ، ٥٤٢ ،
 ٥٥٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦١٠ ،
 الاسكندرية - الاسكندريون : ٤٥ ،
 ٧١ ، ٢٥٨ ، ٣٥١ ، ٤١٧ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ ،
 ٤٣٠ ، ٤٤٢ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦٦ ،
 ٤٦٧ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٨٤ ، ٤٨٩ ،
 ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٩ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٦ ،
 ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ،
 ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ،
 ٥٣٠ ، ٥٣٨ ،
 الاسكندرية خار كس : ٤٦١ ،
 اسوان : ٥٢٨ ،
 اسورا : ٥٦٩ ، ٦٢٤ ،
 آسيا : ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٥٠ ، ٦١ ،
 ٨١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ١٧٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ،
 ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٣٦ ،
 ٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٣٥٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٧ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ،
 ٤٤٥ ، ٤٥١ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢ ، ٤٧٠ ،
 ٤٧٣ ، ٤٧٥ ، ٤٧٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٦ ،
 ٤٩١ ، ٤٩٦ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥١٥ ،
 ٥٣٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٧٢ ، ٥٧٩ ،
 ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١١ ،
 ٦١٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٢ ،
 آسيا الصغرى : ٢٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،
 ١٧٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،
 ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٢ ، ٢٣٧ ،
 ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
 ٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠٠ ،
 ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٩ ، ٤٠٨ ،
 ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٦ ،
 ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٧٠ ،

٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ،
 ٥٠٨ ، ٥١٢ ، ٥٢٩ ، ٥٤٢ ،
 الاسيانيون : ٤٧١ ،
 اسين : ١٥١ ،
 اشرار : ١٤٠ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٨٤ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ،
 اشعيا : ٢٧٣ ، ٢٧٥ ،
 اشوننا : ١٥١ ، ١٧٩ ، ١٩٠ ،
 اشور : ٤٠ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ،
 ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،
 ١٧٥ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ، ٢٦٤ ،
 ٢٦٨ ،
 اشوربانيبال : ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ،
 ١٦٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٩٧ ،
 اشورناسيرابلي : ١٤٠ ،
 اشورية - الاشوريون : ٣٩ ، ١٣٧ ،
 ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ،
 ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،
 ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٨ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٣ ،
 اشوكا : ٥١١ ، ٥٥٠ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ ،
 ٦٠٨ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦٢١ ، ٦٢٣ ،
 ٦٢٧ ، ٦٣٠ ،
 اشيل : ٢٩٩ ،
 اطلال : ٤١٣ ، ٥٠٦ ،
 الاطاليون : ٤١٣ ، ٤٢٤ ، ٤٣١ ،
 ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٧٩ ، ٤٩٠ ، ٥٠٥ ،
 ٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٣٢ ،
 اغامنون : ٢٤٨ ، ٣٩٦ ،
 الاغريق : ١٥ ، ٤٠ ، ٥٢ ، ٦٣ ، ٧٢ ،
 ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٩٤ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٦ ،
 ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ،
 ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ،
 ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،

٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤٠٠ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٣٢ .

افينوس : ٤٣٠ .

افيميروس : ٤٩٢ ، ٥٣٦ .

الاقصر : ١١٥ .

أكّاد (اغاده) الاكّاديون : ١٣٦ ،

١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٦٣ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ٢٢٠ .

اكاديموس : ١٢٨٥ .

اكبتانا : ٢٢٠ ، ٤٨٦ ، ٦١٢ .

اكتي : ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

الالتاي : ٢٥ ، ٦٣١ .

ألّيس : ٣٧١ ، ٣٧٣ .

السه (القيا) : ١٤٥ ، ٢٨٨ ، ٣٠٠ .

الفسيس : ٢٩٧ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ،

٣٩٥ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ .

القييادس : ٢٦٢ ، ٣٦٣ ، ٤١٢ .

القينودس : ٣٥٧ .

الكمّان : ٢١٢ .

الالياذة : ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٩٩ .

اليان يعل : ٢٦٠ .

امازون : ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٥٠٦ .

امانوس : ٢٦٢ .

امبراسيا : ٥٠٣ .

امبيندوكليس : ٣٨٢ .

امحوتب : ٩١ .

امنحوتب : ٩١ ، ٥٣٠ .

امنمحت : ٩٥ .

امنوفيس : الثاني ١٢٠ - الثالث ٦٤ ،

٩١ ، ٩٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ - الرابع : ٥١ ،

٦٤ ، ٦٥ ، ٧٩ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ،

١١١ ، ١٢٨ ، ٢٦٩ .

امورّو : ١٣٧ .

امون : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ،

٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ،

٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،

٣٦٦ .

٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ،

٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ،

٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ،

٣٥٤ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٨ ،

٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٨ ،

٤٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ،

٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ،

٤٢٩ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ،

٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ،

٤٥٠ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،

٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ،

٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ،

٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٣ ،

٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ،

٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠٠ ، ٥٠٦ ، ٥١٠ ، ٥١١ ،

٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٥ ، ٥٢٠ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ،

٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٤٢ .

اغني : ٥٦٩ ، ٦٢٤ .

اغيس : ٤٥٣ .

افانتي : ٥٥٣ .

افاميا : ٤٧١ .

افتارا : ٦٢٤ .

افتيخيداس : ٤٩٢ ، ٥٠٥ .

افدوكسس : ٣٨٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٧ .

افروديت : ٢٩٤ ، ٣١٠ ، ٣٧٤ ، ٤٣١ ،

٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

افريقيا : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٥٩ ،

٣٤٣ ، ٤٦٠ .

افستا : ٥٦٩ .

افسس : ٣٠٣ ، ٤٢٨ ، ٤٦١ .

افغانستان : ٢٢٣ ، ٥٠٨ ، ٦٠٦ ،

٦٣١ ، ٦٣٢ .

الافلاسيون : ٤٧٧ .

افلاطون : ١٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤١ ،

٢٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ،

۱۶۲ ، ۱۶۳ ، ۱۶۶ ، ۱۷۹ ، ۱۸۸ ، ۲۶۴ .
 اوروبا : ۱۷ ، ۲۰ ، ۲۴ ، ۲۵ ، ۲۶ ،
 ۱۷۸ ، ۱۸۵ ، ۲۰۷ ، ۲۱۴ ، ۲۱۷ ، ۲۴۳ ،
 ۲۵۳ ، ۲۶۴ ، ۲۸۵ ، ۲۸۶ ، ۴۲۹ ، ۵۰۵ ،
 ۵۱۵ ، ۵۲۷ ، ۵۴۶ ، ۵۴۷ ، ۶۰۵ .
 اورستس : ۳۹۵ .
 اورشلیم : ۲۲۴ ، ۲۶۶ ، ۲۶۷ ، ۲۶۸ ،
 ۲۷۰ ، ۲۷۱ ، ۲۷۳ ، ۴۳۳ ، ۴۸۸ .
 اورغا : ۶۰۶ .
 اورفیوس : ۲۹۷ .
 اورموزد : ۲۱۷ ، ۲۱۸ ، ۲۲۵ ، ۲۲۶ ،
 ۲۲۷ ، ۲۲۸ .
 اور — نامو : ۱۷۹ .
 اوروك : ۱۳۷ ، ۱۶۳ ، ۱۶۶ ، ۱۶۷ ،
 ۱۶۸ ، ۱۷۱ ، ۱۷۵ ، ۴۷۹ ، ۴۸۷ ، ۴۹۶ .
 اوریبید : ۳۱۴ ، ۳۴۲ ، ۳۵۷ ، ۳۹۶ ،
 ۳۹۷ ، ۳۹۸ ، ۴۷۷ ، ۴۸۳ ، ۵۳۹ .
 اوزریس : ۴۶ ، ۷۳ ، ۹۱ ، ۹۲ ، ۹۳ ،
 ۹۴ ، ۹۵ ، ۱۰۱ ، ۱۰۳ ، ۱۰۴ ، ۱۰۶ ،
 ۱۰۷ ، ۱۰۸ ، ۱۱۴ ، ۱۲۱ ، ۴۹۳ ، ۴۹۵ .
 اوزورابیس : ۴۹۵ .
 اوستراليا : ۱۹ .
 اوغاریت : ۲۴۲ ، ۲۵۱ ، ۲۵۶ ، ۲۵۸ ،
 ۲۶۰ ، ۲۶۱ .
 اوغسطس : ۱۸۹ ، ۵۳۶ .
 اوفید : ۵۳۶ .
 اوقیانیا : ۱۹ .
 اوکرائیا : ۵۸۰ .
 اوکسیر (سیّدہ) : ۳۰۶ .
 اوکلیدس : ۵۳۰ .
 اوکوس (نہر) : ۶۰۶ .
 الاولب : ۴۸۹ .
 اولبیا (مدینہ) : ۲۹۶ ، ۳۰۸ ،
 ۳۲۲ ، ۳۲۴ ، ۳۴۷ ، ۳۶۳ ، ۳۶۴ ، ۳۷۱ ،
 ۳۷۳ ، ۳۷۶ ، ۴۸۹ ، ۵۰۳ .
 اولبیا (والدہ الاسکندر) : ۴۱۹ .

الاناضول : ۲۰۴ .
 اناکساغور : ۳۶۱ ، ۳۸۱ ، ۳۸۲ ، ۳۸۸ .
 اناکسیمندروس : ۳۰۱ .
 اناکسیمینوس : ۳۰۱ .
 انتام : ۶۳۱ ، ۶۳۲ .
 انتوم : ۱۶۵ .
 انتیالکیداس : ۶۱۱ .
 انتیروڈس : ۴۶۰ .
 انتیستین : ۳۸۷ .
 انتیفون : ۳۹۶ .
 انتیفونوس : ۵۱۰ ، ۵۱۱ ، ۵۲۳ ، ۵۳۴ .
 الاتلیفونیون : ۴۱۳ ، ۴۲۵ ، ۴۲۷ .
 اندرا : ۵۶۹ ، ۶۱۷ ، ۶۲۴ .
 اندھرا : ۶۰۷ ، ۶۰۹ ، ۶۱۰ ، ۶۱۱ .
 اندونیسیا : ۵۴۵ .
 انطاکیہ : ۴۲۴ ، ۴۶۱ ، ۴۷۱ ، ۴۷۲ ،
 ۴۷۳ ، ۴۸۴ ، ۴۸۸ ، ۴۹۲ ، ۵۰۵ ، ۵۰۷ ،
 ۵۱۹ .
 انطونیوس : ۵۱۹ .
 انطیوخوس : ۴۱۹ ، ۴۷۰ ، ۴۷۱ ،
 ۴۷۱ ، ۴۷۸ ، ۴۷۹ ، ۴۸۶ ، ۴۸۸ ، ۵۰۹ ،
 ۵۱۰ ، ۵۱۱ .
 انقرہ : ۲۰۹ .
 انلیل : ۱۶۶ ، ۱۶۷ ، ۱۶۸ ، ۱۸۵ .
 انہیتا : ۲۰۷ ، ۲۲۵ .
 اہورا : ۵۶۹ .
 انو : ۱۶۵ ، ۱۶۶ ، ۱۶۷ .
 انویس : ۴۹۵ .
 اہریان : ۲۲۵ .
 اوبنیشاد : ۵۶۴ ، ۵۷۰ ، ۵۷۱ ، ۶۲۵ ،
 ۶۲۶ .
 اوبویہ (جانین) : ۱۲ .
 اوبیا : ۲۸۶ ، ۵۲۴ .
 اُودہ : ۵۵۳ ، ۵۵۴ .
 الاودیسیہ : ۷۱ ، ۱۷۵ ، ۲۹۹ .
 اور : ۱۳۷ ، ۱۴۸ ، ۱۵۱ ، ۱۵۷ ،

اولنثوس : ۳۵۶ ، ۵۰۰ .

اولیس : ۱۳۱ ، ۲۵۳ ، ۲۵۹ ، ۲۹۹ .

اومستیس : ۳۶۲ .

اومیوس : ۲۵۹ .

ایا : ۱۶۷ .

ایبا مینونداس : ۳۳۱ ، ۳۴۳ .

ایبور : ۵۲ .

ایتولیا - الایتولیون : ۴۰۹ ، ۴۵۲ ،

۵۲۶ .

ایجه (بحر) : ۲۱۴ ، ۲۵۳ ، ۲۵۴ ،

۲۵۸ ، ۲۹۲ ، ۳۴۰ ، ۳۴۵ ، ۳۴۸ ، ۳۸۹ ،

۴۲۹ ، ۴۳۸ ، ۴۴۰ ، ۴۴۱ ، ۴۶۰ ، ۴۶۱ ،

۴۷۳ ، ۴۹۳ .

ایجینا : ۲۸۶ ، ۳۱۰ ، ۳۴۵ .

الایجیون : ۷۱ ، ۲۳۹ .

ایدا (جبال) : ۴۵۷ .

ایراتوشینوس : ۵۱۹ ، ۵۲۰ ، ۵۲۴ ،

۵۲۶ ، ۵۲۸ ، ۵۲۹ .

ایراسیستراتوس : ۵۳۰ .

ایران - ایرانیون : ۲۶ ، ۱۷۳ ، ۲۰۱ ،

۲۰۵ ، ۲۱۴ ، ۲۱۶ ، ۲۱۷ ، ۲۱۸ ، ۲۲۳ ،

۲۲۴ ، ۳۸۵ ، ۴۰۴ ، ۴۱۳ ، ۴۴۱ ، ۴۶۰ ،

۴۷۱ ، ۴۷۴ ، ۴۷۸ ، ۴۸۱ ، ۴۸۷ ، ۵۱۱ ،

۵۲۷ ، ۵۵۱ ، ۵۵۲ ، ۵۵۸ ، ۵۶۶ ، ۵۶۸ ،

۵۶۹ ، ۶۰۸ ، ۶۱۱ ، ۶۲۲ ، ۶۳۲ .

ایرتیا : ۳۴۵ .

ایرخشیون : ۳۷۲ ، ۳۷۷ .

ایریس : ۲۹۴ ، ۲۹۵ ، ۳۲۲ .

ایزوب : ۲۱۲ .

ایزوقراط : ۳۴۶ ، ۳۶۱ ، ۳۹۲ ، ۴۰۰ ،

۵۱۸ ، ۵۳۵ .

ایزیا : ۳۵۱ ، ۳۹۹ .

ایزیس : ۷۳ ، ۹۱ ، ۹۲ ، ۹۳ ، ۱۲۹ ،

۱۳۲ ، ۳۶۶ ، ۴۹۳ ، ۴۹۴ ، ۴۹۵ .

ایسوس : ۵۰۷ .

ایسیون : ۵۰۷ .

ایطاک : ۲۵۳ .

ایطالیا : ۲۵۱ ، ۲۸۵ ، ۲۸۶ ، ۲۸۷ ،

۳۰۱ ، ۳۰۹ ، ۳۱۳ ، ۳۲۲ ، ۳۳۰ ، ۳۴۵ ،

۳۴۹ ، ۳۷۹ ، ۳۸۸ ، ۴۳۵ ، ۴۴۱ ، ۴۴۲ ،

۴۴۵ ، ۴۴۷ ، ۵۰۴ ، ۵۲۴ ، ۵۴۰ .

ایغوروس : ۳۹۲ .

ایغوسبوتامی : ۳۴۶ .

ایفتور : ۵۰ .

ایل : ۲۶۰ ، ۲۶۴ .

ایلی : ۶۰۶ .

ایلیا (مدینه) : ۳۰۱ .

ایلیا (النبی) : ۲۷۲ .

ایلزیه (حقول) : ۱۰۴ .

ایلیس : ۳۲۴ ، ۳۴۷ .

ایمار (اندریه) : ۱۲ ، ۱۳ .

ایونیة : ۲۱۳ ، ۲۲۷ ، ۲۸۶ ، ۲۸۷ ، ۲۹۴ ،

۲۹۸ ، ۳۰۰ ، ۳۰۶ ، ۳۰۷ ، ۳۰۹ ، ۳۸۳ ، ۴۴۱ .

- ب -

بابل - بابلیون : ۳۷ ، ۳۸ ، ۱۳۷ ،

۱۴۴ ، ۱۴۸ ، ۱۵۰ ، ۱۵۲ ، ۱۵۴ ، ۱۵۵ ،

۱۵۶ ، ۱۵۷ ، ۱۵۸ ، ۱۵۹ ، ۱۶۲ ، ۱۶۳ ،

۱۶۶ ، ۱۶۷ ، ۱۷۸ ، ۱۷۹ ، ۱۸۲ ، ۱۸۴ ،

۱۸۵ ، ۱۸۶ ، ۱۸۸ ، ۱۸۹ ، ۱۹۱ ، ۱۹۷ ،

۱۹۸ ، ۲۰۳ ، ۲۰۴ ، ۲۱۴ ، ۲۱۶ ، ۲۱۷ ،

۲۱۸ ، ۲۱۹ ، ۲۲۰ ، ۲۲۲ ، ۲۲۴ ، ۲۲۷ ،

۲۶۸ ، ۳۲۲ ، ۴۱۳ ، ۴۱۴ ، ۴۲۹ ، ۴۳۶ ،

۴۳۷ ، ۴۵۵ ، ۴۵۶ ، ۴۵۹ ، ۴۶۰ ، ۴۶۱ ،

۴۷۱ ، ۴۷۴ ، ۴۷۶ ، ۴۷۷ ، ۴۷۸ ، ۴۷۹ ،

۴۸۷ ، ۴۹۶ ، ۵۱۱ ، ۵۱۲ ، ۵۴۷ .

باتالیبوترا : ۵۱۱ ، ۵۵۰ ، ۵۵۴ ، ۶۰۸ ،

۶۱۰ ، ۶۱۱ ، ۶۱۲ .

باتشا : ۵۹۴ .

باتنا : ۵۱۱ .

باخوس : ۴۷۷ ، ۵۳۹ .

باراسیوس : ۳۷۸ .

بارثانیوس : ۵۳۶ .

بارثنون : ٣٧٦ ، ٣٧٥ ، ٣٧٤ ، ٣٦٨ ، ٣٧٧ ، ٤٠١ ، ٤٩٨ ، ٥٠٤ .
 البارسيس : ٢٢٠ .
 باريس : ١٢ ، ١٣ .
 باساي : ٣٧٢ .
 بالي : ٥٤٥ ، ٦٢٣ .
 بابايتيوس : ٥٣٤ .
 البحر الاحمر : ٥٠ ، ٧٠ ، ٢٠٧ ، ٢٥٩ ، ٤٥٦ ، ٤٦١ ، ٥٢٨ .
 البحر الاسود : ٢٢٢ ، ٢٤٣ ، ٢٩٢ ، ٣١٢ ، ٣٢٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٧٩ ، ٤٤١ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٦٠٦ .
 البحر المتوسط : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ١٣٧ ، ٢٠٩ ، ٢٢٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٧٩ ، ٢٩٢ ، ٣٤٣ ، ٤٣٦ ، ٤٤٦ ، ٥١١ ، ٥٢٩ ، ٥٧٤ ، ٦٠٧ .
 البحر الميت : ٥١٢ .
 البختيار : ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ .
 البرابرة : ٣٠ ، ٣٠٥ ، ٣٧٢ ، ٤٥٥ ، ٤٧٦ .
 براكسيتيل : ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٥٠٤ .
 براهما : ٦٢٤ ، ٦٢٥ .
 براهمان : ٥٧١ ، ٦٢٤ .
 براهمانا : ٦٢٥ .
 برنبيان : ٤١ .
 برتوي : ٥٦٩ .
 برزيلوسكي (جان) : ٦٢٧ .
 برسبوليس : ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٦٠٨ ، ٦١٢ .
 برغاموس : ٤١٣ ، ٤٢٤ ، ٤٥٩ ، ٤٨٤ ، ٤٩٨ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٩ ، ٥٢١ ، ٥٢٤ ، ٥٣٢ .
 برلين : ١٢٣ .
 برمانيا : ٥٤٥ ، ٦٣١ .
 برهدرتا : ٥٥٣ .
 بروا (ادوار) : ١٣ .

بروثاغوراس : ٣٦١ ، ٣٨٣ .
 برومبياوس : ٣٩٥ .
 برياكسيس : ٤٩٥ ، ٥٠٥ .
 برياموس : ٢٠٩ .
 البريطانية (الجزر) : ٥٢٧ .
 بريكليس : ٢٩٢ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٠ ، ٣٩٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٤٩ ، ٥٠٣ .
 بريينا : ٤٩٩ .
 بسرغاد : ٢٢٠ ، ٢٢٦ .
 بستينونت : ٢٠٧ ، ٢١٠ .
 البطالسة : ٥٣ ، ٦٩ ، ٨٠ ، ٩٥ ، ١٣٠ ، ٤١٣ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٨١ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٥ ، ٥٠٩ ، ٥١٢ .
 بطليموس : ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩٥ ، ٤٩٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٣ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ .
 بطولياييس : ٤٦٧ .
 بعل : ٢٠٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠ .
 بعل هامون : ٢٦٠ .
 بكتريه : ٢٢٧ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦١١ .
 بكين : ٢٣ ، ٦٠٦ .
 بل : ١٦٧ .
 بلاتيا : ٣١٢ ، ٣٣١ .
 بلجيكا : ٤١ .
 بلشاصر : ١٨٥ .
 البلطيق (بحر) : ٢٨ .
 البلقان : ٢٦ .
 بلونيز : ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٦ ، ٣٦٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٧ ، ٤٠٩ ، ٥١٥ .

بلوت : ۳۹۸ ، ۵۴۰ .
 بلوتارك : ۹۱ ، ۹۲ ، ۳۶۲ ، ۵۲۶ ، ۵۷۴ .
 بلوستان : ۵۵۱ .
 بلين : ۴۷۴ .
 بنارس : ۵۵۳ ، ۵۵۴ ، ۶۲۱ .
 بنتاوار : ۵۱ .
 بنتيليك : ۳۷۴ .
 البنجاب : ۵۱۱ ، ۵۵۲ ، ۵۵۳ ، ۵۵۴ .
 ۶۰۶ ، ۶۰۷ ، ۶۱۱ .
 بن حدود : ۲۶۲ .
 بنديس : ۳۶۶ .
 بنساروس : ۳۱۰ ، ۳۴۲ ، ۳۹۲ ، ۴۰۷ ، ۵۱۳ .
 بنغال : ۵۵۴ ، ۶۳۱ .
 بنسكالا : ۵۵۳ .
 بهار : ۵۵۳ ، ۵۵۴ .
 بهافادجيتا : ۶۲۵ .
 بهتسالي : ۶۱۰ .
 بهرهوت : ۶۱۱ ، ۶۱۳ ، ۶۲۹ .
 بهستون : ۲۲۷ .
 بهكيتي : ۶۲۵ .
 بهوبال : ۶۲۹ .
 بوجا : ۶۲۶ .
 بوخوروس : ۵۴ ، ۶۹ .
 بوخيس : ۸۸ .
 بوددهغايا : ۶۱۳ .
 بوذا : ۵۷۱ ، ۶۱۳ ، ۶۲۷ .
 بورسببا : ۱۷۶ ، ۱۸۹ .
 بورنيو : ۵۴۵ .
 بوروشا : ۵۶۹ .
 بوزانياس : ۳۳۱ .
 بوزايدون : ۲۹۴ ، ۲۹۶ ، ۳۷۶ .
 بوزايدونيا : ۳۰۹ .
 بوزريس : ۹۲ ، ۱۰۳ .
 البوسفور : ۲۸۵ ، ۶۰۶ ، ۶۰۷ .

بوشان : ۵۶۹ ، ۶۲۴ .
 بوغاز - كي : ۱۷۳ ، ۲۰۳ .
 بولس اميليوس : ۵۰۳ .
 بول (مرسلين) : ۲۷ .
 بوليپ : ۳۴۷ ، ۴۴۳ ، ۴۴۴ ، ۴۴۹ .
 ۴۵۰ ، ۴۵۳ ، ۴۵۴ ، ۴۶۹ ، ۴۹۲ ، ۵۰۲ ، ۵۲۴ ، ۵۳۵ .
 بوليغنوت : ۳۷۸ .
 بوليكليت : ۳۷۵ .
 بومباي : ۶۰۶ .
 بومباي : ۴۴۵ ، ۵۰۰ ، ۵۰۷ .
 البونت : ۵۰ ، ۷۰ ، ۳۱۳ ، ۴۱۴ ، ۴۴۳ .
 بوقديشاري : ۶۰۶ ، ۶۲۳ .
 بياس : ۵۵۴ .
 بيبلوس : انظر جبيل .
 بيبي الاول : ۱۲۲ .
 بيت ايل : ۲۶۵ .
 بتيوزريس : ۴۹۷ .
 بيتوسارابيس : ۴۵۹ .
 بيتوكليس : ۳۶۱ .
 بيتون : ۳۰۵ .
 بيتياس : ۵۲۷ ، ۵۲۸ ، ۵۲۹ .
 بيتاغور : ۳۰۱ .
 بيتينيا : ۴۱۴ ، ۴۲۱ .
 بيدنا : ۴۲۵ .
 بيرغوبوليتيقوس : ۴۴۳ .
 البيره : ۱۸۵ ، ۲۶۲ ، ۳۵۴ ، ۳۵۵ .
 ۳۶۰ ، ۳۶۹ ، ۴۴۰ ، ۴۴۱ ، ۴۹۴ ، ۵۰۰ ، ۵۴۰ .
 بيروز : ۵۱۰ .
 بيروس : ۴۱۴ ، ۵۰۳ ، ۵۲۳ .
 بيرون : ۵۳۳ .
 بيرينيس : ۵۱۴ ، ۵۳۷ ، ۵۳۸ .
 بيزنطية : ۲۸۵ ، ۴۱۸ ، ۵۱۳ ، ۵۳۹ ، ۵۴۲ .
 بيريديا : ۴۷۲ .

٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ،
 ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠٣ ،
 ٦٣٠ ، ٦٣٣ ، ٦٣٩ .
 تش رو : ٥٨٦ .
 تشو : ٥٨١ .
 تشنغ : ٦٣٠ .
 تشنغ - تو : ٦٣٢ .
 تشنغ - كين : ٦٣١ .
 تشو : ٦٣٠ .
 تشو كوتيان : ٢٣ .
 تفلا تفلاس : ١٧٥ .
 تكسيلا : ٥٥٣ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦١١ .
 تل برسيب : ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٧ .
 تل العمارنة : ٩٩ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١٢٢ ،
 ١٢٣ ، ١٣١ .
 تموز : ١٦١ .
 تناغرا : ٣٨١ .
 تنيس : ٤٥ .
 توان - هوانغ : ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٣١ .
 توت عنخ أتون : ٩٩ .
 توت عنخ امون : ٩٩ ، ١٢٥ .
 التورين (مقاطعة) : ٢٨ .
 تورينو : ١٢٣ .
 توسيديد : ٢٨٤ ، ٣٥٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ،
 ٣٩٢ ، ٤٠١ ، ٥٢٣ .
 تونغ تشونغ شو : ٦٣٨ .
 تونكان : ٦٠٧ ، ٦٣٢ .
 التيبست : ٥٤٦ .
 تيرنثوس : ٢٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،
 ٢٥٣ ، ٢٥٤ .
 تيرنس : ٣٩٨ .
 تيشوب : ٢٠٧ ، ٢٤٠ .
 تيمستوكلس : ٢٩٢ ، ٣٣٠ ، ٣٦٢ ،
 ٣٩٨ ، ٥٣٩ .
 تيمون : ٥٣٣ .
 تيناروس : ٤٢٨ .

بيس : ٩١ .
 بيسيستراتوس : ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠٩ ،
 ٣١٠ ، ٣٣١ ، ٣٦٨ ، ٣٩٨ .
 بيلا : ٤٨٤ .
 بيلالاما : ١٧٩ .
 بيلوبيداس : ٣٣١ .
 بيلوس : ٢٣٩ .
 بيمبيسارا : ٥٥٤ .
 بيوسيا : ٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٣٣٦ ، ٣٦٢ ،
 ٣٨١ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٥٠٨ .
 بيون : ٥٣٢ .
 - ت -
 تاليس : ٢١٢ ، ٣٠١ .
 تانغ : ٦٣٢ .
 تانيس : ١٢١ .
 تحوتمس : ٤٢ - الثاني ٤٩ - الثالث ٥١ .
 تراجان : ٦٣٢ .
 تراقيا - تراقيون : ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ،
 ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٢٩ ، ٤٢٨ ، ٤٩٥ .
 ترانسفال : ٢٤ .
 تركستان : ٢٦ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ ،
 ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٥٢٧ ، ٥٤٦ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ،
 ٦٣١ ، ٦٣٢ .
 تريورتي : ٦٢٥ .
 تريليل : ٢٣ .
 تساليا - تساليون : ٢٥٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،
 ٣٤٢ ، ٤٠٩ ، ٥٠٨ .
 تس - اين : ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ .
 تسن - شه - هوانغ - تي : ٦٠٥ ، ٦٠٧ ،
 ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٦ ، ٦٣٨ .
 تسين : ٥٨١ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٩٢ ،
 ٦٣٠ .
 تشانغ : ٥٨٧ .
 تشانغ - نغان : ٥٨٠ .
 تشاو : ٥٧٨ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ .

- ث -

- ثرموس : ٥٠٣ .
ثيوبومبوس : ٣٩٢ ..
ثيوغنيس : ٣٠٠ ، ٢٨٨ .
ثيوفراستوس : ٥٣٠ .
ثيوكريتوس : ٥١٤ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ .
ثيون : ٥٠٧ .
ثيتيت : ٣٨٨ .

- ج -

- جازون : ٥٣٨ .
جافا : ٢٣ ، ٥٤٥ .
جبعة : ٢٦٥ .
جبل طارق : ٢٨ ، ٢٥٩ .
جيل - جيليون : ٧٠ ، ٩٢ ، ٢٤٢ ،
٢٤٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ .
الجلجال : ٢٦٥ .
جوبتير : ٢٠٧ .
جيثيون : ٣٤٨ .
جيحس (جيفيس) : ٢١٠ ، ٢١١ ،
٢٨٩ .
جيسر : ٩١ ، ١١٩ .

- ح -

- حاتور : ٨٧ ، ٨٨ ، ١١٤ .
حتشبسوت : ٧١ ، ٧٤ ، ٩١ ،
٩٥ ، ١١٨ ، ١٢٣ ، ٥٣٠ .
الحثيون : ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ،
٢٠٩ ، ٢١٠ .
حدد : ٢٠٧ ، ٢٤٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ .
حران : ١٦٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ .
حزقيال : ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ .
حلب : ٢٦٢ .
حماة : ٢٦٢ ، ٢٦٥ .
حص : ٢٦٤ .
حلايا : ٥٥٣ .

- حمورابي : ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ،
١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،
١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ،
١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩٠ ، ٢١٩ ، ٢٦٩ .
حورحبيب : ٦٤ ، ٨١ ، ٩٩ ، ١٤٦ .
الحوريون : ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،
٢٠٨ .
حيرام : ٢٥٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

- خ -

- خاريس : ٥٠٥ .
خرساباد : ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ،
١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٦ .
خطوش : ٢٠٣ .
خفرع : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ .
خلقيدونيا : ٣٣٢ .
خلقيس : ٣٤٥ ، ٣٩٩ ، ٤٣٥ .
خنصو : ١١٦ .
خوارزم : ٢٢٧ .
خونو : ١١٩ .
خيرونيا : ٣١٦ ، ٤٠١ .

- د -

- داريوس : ١٢٨ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ،
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،
٢٢٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٥٠٧ ، ٥٥٤ ،
٦٠٨ ، ٦١٢ .
دازا : ٥٦٦ .
داغون : ٢٦٠ .
الدائوب : ٢١٦ .
دانيال : ٢٦٤ .
داوود : ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
٢٧٢ .
دجلة : ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٥٨ ، ١٨٥ ،
٢٠٥ ، ٢٦٣ ، ٤٦١ ، ٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ .
الدرافيدون : ٥٥٧ .

دراكون : ٢٩٢ .

الدردنيل : ٣٣٢ .

دقنى : ٤٧٣ .

دلتا : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، ١٥٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٥٠٧ .

دلفى : ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٥٠٣ .

دهلي : ٥٥٣ .

دمشق : ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٤٩٤ .

دندره : ٨٩ ، ٢٥٢ .

دنكرنك : ٤١ .

دواب : ٥٥٣ .

دورا وروبوس : ٤٧٧ .

دور - شروكين : ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩١ .

دوريفوروس : ٣٧٥ .

الدوريون : ٢٣٨ ، ٢٥٣ .

دوليخه (دوليكي) : ٢٠٧ ، ٢٦٤ ، ٤٩٤ .

دوموزي : ١٦١ .

دونيس : ٣١٦ ، ٣٣٠ ، ٣٩٧ ، ٥٣٦ .

ديادس : ٥٦٩ .

ديديموس : ٥٢١ .

دير البحري : ٧١ ، ٩١ ، ٩٥ .

ديركي : ٥٠٦ .

ديسكوبول : ٣٧٥ .

ديكي : ٢٩٥ .

ديكيارخوس : ٥٢٤ .

ديلوس : ٢٦٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٦٢ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٥١ ، ٤٨٩ ، ٣٩٥ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٣ .

ديثريوس : ٥١٨ ، ٥٢٣ .

ديموستينس (ديموستين) : ٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٥٣ ، ٣٦٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤٨٤ ، ٥٢١ ، ٥٣٥ .

ديموسيدس : ٢٣٠ ، ٣٠٢ .

ديموكريت : ٣٨٢ ، ٥٣٣ .

ديميتير : ٢٠٧ ، ٢٩٤ ، ٣٦٤ .

دينارخوس : ٣٩٩ .

ديوجين : ٣٨٥ ، ٥٣٢ .

ديونيزيوس : ٤٦٩ .

ديونيسيوس : ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣١٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٤٤٤ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ .

الدينومينيس : ٣٣٠ .

- ذ -

ذياذومينوس : ٣٧٥ .

ذيليون : ٣١٦ .

ذوذوروس الصقلي : ٥٤ ، ٦٩ ، ١٣٠ ، ١٨٩ .

- ر -

راهو : ٥٦٩ .

راجايا : ٥٦٠ .

راجفريها : ٥٥٤ ، ٦١٢ .

رأس شمرا : ٢٤٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ .

راكوتيس : ٤٦٦ ، ٤٩٥ .

الرامة : ٢٦٥ .

رامون : ٢٦٤ .

رع : ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ٤١٤ .

رعسيس : ٦٥ - الثاني : ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٣ ، ٢٦١ .

رگسپاسا : ٥٦٩ .

رودرا : ٥٦٩ .

رودوس : ٢٨٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٤١ ،

٤٤٢ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٨٥ ، ٤٩٩ ، ٥٠٥ ،

٥٠٦ ، ٥١٦ ، ٥٣٦ ، ٥٣٨ .

روستوفتزييف (ميخائيل) : ٤٤٢ .

روسو (جان جاك) : ٥٢٧ .

روسيا : ٣١٣ ، ٣٤٦ ، ٣٧٩ ، ٤٣٥ ،

٥٥٢ ، ٥٧٩ .

رومانيا : ٥٨٠ .

روما - الرومان : ١٣ ، ٣٠ ، ١٣١ ،

١٧١ ، ٢٠٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٣٣٢ ،

٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٧٨ ، ٤٠٥ ،

٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٨ ،

٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ،

٤٤٧ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٦١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ،

٤٧٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩٦ ، ٥٠١ ، ٥٠٨ ، ٥١٤ ،

٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٦ ،

٥٤٢ ، ٦٠٧ ، ٦١٥ ، ٧٣٢ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ .

ريفندا : ٥٦٥ .

- ز -

زرادشت : ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٤٩٦ .

زغروس : ١٣٨ ، ٢٠٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٧ .

زفس (زوس) : ٢٠٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ،

٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ،

٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٤٠٣ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ،

٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٨ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ .

زفكسيس : ٣٧٨ ، ٥٠٣ .

زنجري : ٢٦٢ .

زندافستا : ٢٢٦ .

زينون : ٥١٢ ، ٥٣١ .

- س -

ساباديوس : ٤٩٤ .

سارابيس : ٤٩٥ .

السامرة : ٢٦٧ ، ٢٧١ .

ساموتراس : ٥٠٥ .

ساموس : ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣١٧ ،

٤٥٦ .

سامون - رامات : ١٤٨ .

الساميون : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،

٢٠٣ ، ٤٧١ .

سائشي : ٦١١ ، ٦١٣ ، ٦٢٩ .

سايبس : ٤٠ ، ٤٥ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٨٠ ،

١١١ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٤٥ ، ٢١٩ ،

٢٥٩ .

سبا : ٢٦٦ .

سبارطة : ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣١٠ ،

٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ،

٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ،

٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ،

٣٥٠ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ ،

٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١١ ، ٤٣٧ ، ٤٤٥ ، ٤٥٢ ،

٤٥٣ ، ٥١٥ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ .

السبعون : ٥١٤ .

سترابون : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٨٩ ، ٤٤١ ،

٥٢٨ ، ٥٣٢ .

سد : ١٠٧ .

سرجون : ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٦٧ ،

١٨٦ - الثاني : ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،

١٩٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ .

السرجونيون : ١٣٧ ، ١٥٤ .

سرخنس (كسر كسيس) : ٢١١ ، ٣٥٤ ،

٣٦٢ .

سردانابال : ١٨٥ .

سرديس (سارد) : ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ،

٢٢٠ ، ٢٢٧ ، ٢٨٦ .

سردينيا : ٢٥٩ .

سرسفي : ٥٥٢ ، ٥٥٣ .

سرسيداس : ٤٥٢ .

سسوناغا : ٥٥٤ .

السلييب : ٥٤٥ .
سيلينوتته : ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ .
السياريون : ١٤٤ ، ٢١٦ .
سيناء : ٥٠ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٨ ، ٧٢ ،
٢٦٩ .

سينوسارغيس : ٣٨٤ .
سيوان - قي : ٦٣١ .
سيون كوانغ : ٥٧٨ .

- ش -

شاك : ٦١١ .
شاكيميئي : ٥٥٤ ، ٥٥٦ ، ٦٠٣ ، ٦٢٧ ،
شاوول : ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ .
شتدري : ٥٥٣ .
الشرق الأدنى : ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
٥١ ، ٦٩ ، ١٣١ ، ٢٠١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ،
٢٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٦٤٠ .
الشرق الأقصى : ٢٠ ، ٢٢٣ ، ٤٦١ ،
٤٧٧ ، ٦٠٩ .

الشرق الأوسط : ٢٦ .
شرمانا : ٦١٠ .
ششناكا : ٥٥٣ .

شليان : ٢٥٢ .
شمبوليون : ١١١ ، ٢٣٩ .
شمش : ١٤١ ، ١٥٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢٦٩ .
شندراغوبتا : ٦١٠ .
شن سي : ٥٨٠ .
شنغ : ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨٣ ، ٥٩٣ ،
٦٠٣ .

شنغ - قي : ٥٩٩ .
شنيرب (روبر) : ١٣ .
شوتروك ناخوتته : ١٧٩ .
شونغا : ٦٠٩ ، ٦١١ .
شيبون اميليانوس : ٥٢٥ .
شيت : ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ .

٧٠٢

شي - كنغ : ٥٧٦ .
شيشرون : ٣٣٢ ، ٣٩٠ ، ٥٢١ .
شيفا : ٦٢٤ ، ٦٢٥ .

- ص -

صافو : ٣٠٠ .
صقلييا : ٢٥١ ، ٢٥٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ،
٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٧٩ ، ٤٠٥ ،
٤٣٨ ، ٤٤٢ ، ٤٥١ ، ٤٤٠ .

صموئيل : ٢٦٥ .
الصنطور : ٣٧٤ .
صهيون : ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ .
صور : ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ،
٢٦٦ ، ٢٦٧ .
صولون : ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠٠ ، ٣٣٧ ،
٣٣٩ ، ٣٦٨ .

صيدون : ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .
الصين : ٢٢٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٧٤ ،
٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٨١ ، ٥٨٣ ، ٥٨٥ ، ٥٩٢ ،
٥٩٩ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ،
٦٠٧ ، ٦١٥ ، ٦٢١ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ،
٦٤٠ .

- ط -

طارنتا : ٢٨٧ ، ٣٠١ ، ٣٤٥ ، ٣٨٨ ،
٤٢٨ .
طاو : ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ .
طروادة : ١٢١ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٨ ،
٢٤٣ ، ٢٥٢ ، ٣٠٤ .

طوخ : ٨٩ ، ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٢٨ .
طيبة - الطيبون : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ،
٥٧ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩١ ،
٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
٢١٦ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٣٦ ، ٣٦٢ ، ٤٠٧ .

- ع -

- العاصي : ٢٦٢ ، ٤٧١ ، ٥٠٥ .
عاصيون جابر : ٢٦٦ .
عاموس : ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ .
العبرانيون : ٢٢٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ،
٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،
٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،
٢٧٧ ، ٢٧٨ .
العرب : ١٤ ، ٢٧٠ .
عشرت : ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ ، ٣٦٦ .
العقبة : ٢٦٦ .
عيلام : ١٣٨ ، ١٧٥ .

- غ -

- غاد : ٤٩٢ .
غاليا - غاليون : ٣١٣ ، ٣٤٦ ، ٤٠٥ ،
٤٥٥ .
غلاطيون : ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٧٨ ، ٥٠٥ ،
٥٠٦ .
الغانج : ٥١١ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٦٠٩ ،
٦١٢ .
غرانيه (مرسيل) : ٥٧٤ ، ٥٧٦ .
غروسيه (رنيه) : ٥٨٢ .
الغز (السيت) : ١٤٤ ، ١٦٢ ، ٢١٦ .
غلا (جزيرة) : ٢٤٩ .
غندهارا : ٥٥٤ .
غندهرفا : ٥٦٩ ، ٦٢٤ .
غنيشا : ٦٢٤ .
غوبتا : ٦٠٩ .
غوديا : ١٦٢ ، ١٩٥ .
غوردياس : ٢٠٩ .
غورديون : ٢٠٩ .
غورغياس : ٣٩٩ .
غورنيا : ٢٤١ ، ٢٤٣ .
غوغو : ٢١٠ .
غومتي : ٥٥٢ .

غيسيا : ٥٦٢ .

- غيلغميش : ١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٩٣ ، ١٩٦ .
غيمه : (متحف) : ١٣ .

- ف -

- فاتا : ٥٦٩ .
الفارتيون : ١٨٩ ، ٤٠٥ ، ٤١٣ ، ٤٢٩ ،
٤٦٠ ، ٤٧٧ ، ٤٨١ ، ٦١١ .
فارس : ١٧٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٤٧٢ ، ٤٨٧ ، ٥١١ ، ٦٠٦ .
فاروس : ٤٥٦ ، ٥٢٧ .
فافيو : ٢٥٢ .
فان (بحيرة) : ١٣٧ .
فايستوس : ٢٣٧ .
فايو : ٥٦٩ .
فتاح : ٨٧ ، ٩٤ .
الفرات : ٤٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ،
١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٦ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ،
١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٥ ، ٢٤٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ،
٢٦٣ ، ٤٦١ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ .
فرترهان : ٥٦٩ .
الفرس : ٣٠ ، ٣٩ ، ٧١ ، ١٢٦ ، ١٤٥ ،
٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،
٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،
٢٦٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٨ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ،
٣٥٤ ، ٣٦٢ ، ٣٨٩ ، ٤١٣ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ،
٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٦ ، ٥٠٦ .
فرسال : ٤٠٩ .
فرغانا : ٦٣١ .
فرنافتي : ٥٥٣ .
فرنسا : ١٨ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٤١ .
فرنسوا . (اناء) : ٣٠٧ ، ٣٠٨ .
فرونا : ٥٦٩ ، ٦٢٤ .
فريثرغنا : ٥٦٩ .
فريجيا - الفريجيون : ٢٠٧ ، ٢٠٩ ،
٢١٠ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ .

القاهرة : ٤٥ .
 قبرص : ١٣٨ ، ١٥٧ ، ٢١٠ ، ٢٣٧ ؛
 ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٨٥ ، ٣٢٩ ، ٤٧٦ ،
 ٥١٢ .
 قدش : ٥١ ، ٢٦٩ .
 قرطاجة - قرطاجيون : ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
 ٣٣٠ ، ٣٤٥ ، ٣٥٣ ، ٤٠٥ ، ٤١٤ ، ٤٣٨ ،
 ٤٤١ ، ٦٠٧ .
 قرطاجة (في قبرص) : ٢٥٩ .
 قزوين (بحر) : ٤٦١ ، ٥١١ ، ٥٢٨ ،
 ٥٢٩ ، ٦٠٦ .
 قمبيز : ٢١٤ .
 كورش (كورش) : ١٣٠ ، ١٣٩ ،
 ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ،
 ٢٢٧ ، ٢٦٨ ، ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٥٥٤ .
 القوقاس (القفقاس) : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ،
 ١٥٧ ، ١٥٨ ، ٤٦١ ، ٥٥٢ .
 القيروان : ٢١٤ ، ٦١٠ .
 قيصر : ٤٤٢ ، ٥١٩ ، ٥٢١ ، ٥٣٤ .
 - ك -
 كا : ٨٥ .
 كابول : ٥٥٢ .
 كابيشا : ٥٥٤ .
 كاتون : ٥٣٤ .
 كارية (كاريون) : ٢٢٧ ، ٤٤١ ، ٤٧٦ .
 كاريندا : ٢٢٣ .
 كاسي : ٥٥٣ ، ٥٥٤ .
 كالانوس : ٥١١ .
 كالنغا : ٦١٠ .
 كالياس : ٣٥٣ .
 كاما : ٦٢٤ .
 كاماريس : ٢٤٧ .
 كانتون : ٦٣١ .
 كان - سو : ٦٣١ .
 كانفا : ٦٠٩ ، ٦١١ .
 كايوس : ٣٥٩ .

فريني : ٣٧٤ .
 فلسطين : ٥١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٦٤ ،
 ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٤٦٦ ، ٤٧٣ ،
 ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٥١٢ ، ٥١٣ .
 الفلسطينيين : ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٥ ،
 ٢٧٠ .
 قندھيا : ٥٥٣ .
 فوقيا : ٢٨٦ .
 فيدا : ٥٥٠ ، ٥٦١ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ،
 ٦٢٠ ، ٦٢١ .
 فيدما : ٥٥٤ .
 فيدياس : ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ،
 ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ .
 فيديشا : ٦١١ .
 فيسفا كارمان : ٥٦٩ .
 فيشنو : ٥٦٩ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ .
 فيفر لوسيان : ١٧ .
 فيلبوس : ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٦ ، ٣٣٦ ،
 ٣٣٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٩٢ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ،
 ٤١٢ ، ٤٢٩ ، ٤٥٠ ، ٥٢١ .
 فيلبومين : ٤٥٤ .
 القيلة : ٨٧ .
 فيلو كسينوس : ٥٠٧ .
 فيلون : ٤٨٨ .
 فيليوزات : ٦١١ .
 فينوس : ٥٠٥ .
 فيليشيا - الفينيقيون : ٩٨ ، ٩٠ ، ٩٢ ،
 ١٦١ ، ١٧٤ ، ٢٠٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ،
 ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٣٢٩ ، ٤٢٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ،
 ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦ ، ٥٠٨ ،
 ٥١٢ ، ٥٤٢ .
 الفيوم : ٧٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦٨ .
 - ق -
 قادش : ٢٥٩ .

كبادوكية: ١٣٩ ، ٢٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٢١ ، ٤٧٠ .
 كتيسياس : ٢٣٠ .
 كراتيس : ٥١٤ ، ٥٢١ ، ٥٣٢ .
 كراسوس : ٤٧٧ .
 كرانغاور : ٦٠٧ .
 الكردوك : ٤٧٨ .
 الكُرْم : ٥٥٢ .
 الكرمل : ٢٥٦ .
 الكرنك : ٦٥ ، ٧٠ ، ٨٢ ، ١١٥ ، ١٦٦ .
 كرنياد : ٥٣٢ .
 كُرُو : ٥٥٣ .
 كروتون : ٣٨٩ .
 كروزيه (مورييس) : ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ،
 كريت - كريتيون : ٧١ ، ٢٣٦ ،
 ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،
 ٢٥٤ ، ٢٩١ ، ٣٤٢ ، ٥١٥ .
 كريتولوس : ٥٣٢ .
 كريزوس : ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٩٨ ، ٣٠٣ .
 كريسبوس : ٥٣٤ .
 كسابدر : ٥٣٧ .
 كريشنا : ٦٢٤ ، ٦٢٥ .
 كسلتوس : ٢١٢ ، ٢٢٤ .
 كسينوفانوس : ٣٠١ .
 كسينوفون : ٢١٩ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ،
 ٣٤١ ، ٣٤٨ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٩٢ ، ٥٣٦ .
 كشتريا : ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٦ ،
 ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٦١٠ ، ٦١٦ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ،
 ٦٢١ ، ٦٢٧ .
 كشمير : ٦١١ .
 كلاروس : ٢٩٨ .
 الكلدان : ١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٧١ ،
 ١٧٦ ، ٤٩٦ .

كلرمون - فران : ١٣ .
 كليستين : ٢٩٢ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ .
 كليماخوس : ٥١٤ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ،
 ٥٣٥ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ .
 كليوباتره : ٤١٣ ، ٤١٩ ، ٥١٩ .
 كليوبيس : ٣٠٥ .
 كليومينوس : ٣٤٣ ، ٤٣٨ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ .
 كليون : ٢٩٢ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ .
 كمبانيا : ٣٠٩ ، ٣١٣ .
 كمبي : ٦١١ .
 كنعان : ٢٣٨ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ .
 كنوسوس : ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ .
 كوانغ - وو - تي : ٦٣٢ .
 كوبابا : ٢٠٧ .
 كوباييس : ٢٤٩ .
 كوبرا : ٦٢١ .
 كوبرنيك : ٥٣٠ .
 كوتا : ١٦٦ .
 كورثوس : ٢٥٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ،
 ٢٩٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٣٩٩ ،
 ٤٠٩ ، ٤٤٢ ، ٦١٠ .
 كوريا : ٦٠٥ ، ٦٠٧ .
 كوزلوف : ٦٠٦ .
 كوس : ٢٣٠ ، ٣٨٩ ، ٤٦١ ، ٤٩٣ ، ٥٤٠ .
 كوسانا : ٦٠٩ .
 كوسمي : ٥٥٣ .
 كوشالا : ٥٥٣ .
 كوشنشين : ٦٠٦ .
 كولنجيد : ٥٣٨ .
 كوماجين : ٢٠٧ .
 كومس : ٣٣٠ .
 كونغ - سوان ينغ : ٥٧٨ .

كونفوشيوس : ٥٧٨ ، ٥٨١ ، ٦٠٢ .

كوي : ٥٩٩ ، ٦٠٠ .

كياي : ٦٣٨ .

كيتون : ٥١٢ .

كيديناس (كيدينو) : ٥٢٩ .

كيريني (كيرينا) : ٣٦٦ ، ٥١١ .

كيزيل - ارماك : ٢٠٣ .

كيش : ١٣٨ .

كيليكية : ١٣٧ ، ٢٢٢ ، ٤٦١ ، ٤٧٣ ،

٤٧٦ ، ٥٢١ ، ٦٠٨ .

كيمون : ٢٩٢ ، ٣٣٨ .

كين - ونغ - تشاي : ٥٧٩ .

كيوس : ٣٨٨ .

- ل -

لابان : ٢٦٢ .

لابروس (ارنست) : ١٣ .

اللابيث : ٣٧٤ .

لاتان (بحيرة) : ٢٦ .

اللاجيون : ٤١٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٥٨ ،

٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ،

٤٧٠ ، ٤٧٨ ، ٤٩٠ ، ٥١٠ .

اللاذقية : ٤٧٣ .

لارسا : ١٦٣ .

لاغاش : ١٣٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ،

١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٩٥ .

لاكيديمون : ٣١٥ ، ٣٢٣ .

لاووديكي : ٤١٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ .

لاووكون : ٥٠٦ .

لاوي : ٢٧٠ .

لبنان : ١٨٧ ، ٢٢٧ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،

٢٥٨ ، ٢٦٢ .

اللودو : ٢١٠ .

لوريون : ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ ،

٤٥١ .

اللوفر : ١٢٣ ، ١٤١ ، ١٧٩ ، ١٩٥ ،

٥٠٤ .

لوقيانوس : ٢٦٠ .

لوكترا : ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٣٦ .

لوكريس : ٣٨٢ .

لويانغ : ٦٣٢ .

لي : ٥٩٩ .

الليبيون : ٣٩ ، ٥١ ، ٧٢ .

ليديا - ليدون : ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٣ ،

٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧ ، ٣٠١ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ .

ليزياس : ٣٥١ ، ٣٩٩ ، ٤٤٠ ، ٥٣٥ .

ليسبوس : ٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ،

٥٠٥ .

ليسندروس : ٣٣١ ، ٣٦٦ ، ٤١٢ .

ليسينغ : ٥٠٦ .

ليشع : ٢٧٢ .

ليكوفرون : ٥٣٧ .

ليوسيو : ٦٣٢ .

ليونيداس : ٣٢٧ .

ليوهنغ : ٦٣٨ .

- م -

ما بين النهرين : ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٦ ،

٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٣ ،

١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،

١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ،

١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،

١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ،

١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،

٢١٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،

٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،

٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٣٠١ ، ٣٨٥ ، ٤٦١ ،

٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٥١١ ، ٦٤١ .

مآت (ماهات) : ٥٢ ، ٥٣ ، ٩٨ ،

١٣٣ ، ١٣٥ - ١٣٧ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ،
 ١٧٣ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٠ - ٢٠٢ ، ٢٠٤ ،
 ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٨ - ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ،
 ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ،
 ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ -
 ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،
 ٣١٣ ، ٣٤٥ ، ٣٨٨ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ،
 ٤١٨ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ - ٤٣٣ ، ٤٣٦ -
 ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٥٥ - ٤٦٠ ، ٤٦٢ ،
 ٤٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ - ٤٧١ ، ٤٧٤ ،
 ٤٧٥ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ ،
 ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠٨ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ،
 ٥٤٧ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦٤١ .
 المصفاة : ٢٦٥ .
 مغدها : ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٦١٠ ، ٦١١ .
 مغنيزيا : ٤٧٢ ، ٤٨٩ .
 مقدونيا - المقدونيون : ٣٩ ، ٥٣ ،
 ٢١٨ ، ٢٦٨ ، ٣٢٩ ، ٣٤٢ ، ٣٥٩ ، ٤٠١ ،
 ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٨ ، ٤٢١ ،
 ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ،
 ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٨ ، ٤٧٣ ، ٤٧٩ ، ٤٨٤ ،
 ٥٠٣ ، ٥١١ ، ٦١٠ .
 المكابيون : ٢٦٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٨ .
 ملابار : ٦٠٧ .
 ملقرط : ٢٦٠ .
 ممنون : ١٢١ .
 منتوحوتب : ١١٨ .
 مندريس : ٢٨٦ ، ٤٧٢ ، ٤٨٩ .
 منديس : ٨٨ .
 منشيوس : ٥٧٨ .
 منغوليا : ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦١١ ، ٦٣٢ .
 منف : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٧ ، ٨٧ ،
 ٩٤ ، ١٠٧ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ، ٢١٦ ،
 ٤٩٥ .
 منكورع : ١١٩ ، ١٢٠ .
 منيقليس : ٨٨ .

١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ .
 الماديون : ١٣٧ ، ١٤٤ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ،
 ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ .
 ماراتون : ٣٧١ ، ٣٩٥ .
 مارسيس : ٣٧٥ .
 ماراي : ٢٤٧ .
 ماركوس اوريليوس : ٥٣٤ .
 ماروت : ٤٦٩ .
 ماري : ١٣٨ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،
 ١٩٧ .
 مارييت : ٨٧ ، ١٢٣ .
 ماغاس : ٥١١ .
 مالغا : ٦١١ .
 مالوس : ٥٢١ .
 ماليا : ٢٣٧ .
 مانيتون : ٤٩٥ ، ٥١٠ .
 مترا : ٢٠٦ ، ٢٢٥ ، ٥٦٩ ، ٦٢٤ .
 متريا : ٦٢٧ .
 متريدات : ٤٠٥ ، ٤٧٠ ، ٤٧٩ .
 مجدو : ٥١ .
 المحيط الاطلسي : ٢٧ .
 مدرا : ٥٤٨ .
 مدهيديشا : ٥٥٣ .
 مردوك : ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،
 ١٩٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ .
 مرسليليا : ٢٨٦ ، ٣١٣ ، ٤٠٥ .
 مرماريا : ٣٧٢ .
 مرمناد : ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٨٦ .
 مريكاره : ٦٤ .
 مسبارو (هنري) : ٥٧٤ ، ٥٨٥ .
 مسينيون : ٣٤٣ .
 المشكب : ٦٦٣ .
 مصر - مصريون : ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ،
 ٣٥ - ٨٥ ، ٨٧ - ٩٢ ، ٩٤ - ٩٦ ، ٩٨ -
 ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٠ ،
 ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ -

مهاباراتا : ٦٢٥ .
 مهابيرا : ٥٧٢ ، ٥٥٤ .
 موت : ٢٦٠ .
 موتربليون : ٦٢٣ .
 موتسو : ٦٠٢ .
 موتي : ٦٠٢ ، ٥٧٩ .
 موريا : ٦٠٧ ، ٦٠٥ ، ٥٥٥ ، ٥٥٤ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١٢ .
 موزيريس : ٦٠٧ .
 موسى : ٢٧٥ ، ٢٧٤ ، ٢٦٩ .
 موس (مارسل) : ١٨ .
 الموشكو : ٢٠٩ .
 مولوخ : ٢٦٠ .
 مولير : ٣٩٨ .
 مونيه (رولان) : ١٣ .
 موهنجو - دارو : ٥٥٢ ، ٥٥٠ ، ٢٨ .
 ميتاني : ٢٠٨ ، ٢٠٣ .
 ميداس : ٢٠٩ .
 ميداي : ٥٣٨ ، ٢٢٧ ، ١٩٢ .
 ميرون : ٣٧٥ .
 ميريس (بحيرة) : ١١٣ ، ٨٧ ، ٧٥ .
 ميسين - ميسينيون : ٢٤٨ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٨١ .
 الميسيون : ٤٧٨ .
 ميغارا : ٢٨٦ .
 ميغاستينوس : ٦١٠ ، ٦٠٨ ، ٥١١ ، ٦١٢ ، ٦٢١ .
 ميكال انجلو : ٥٠٦ .
 ميل ب : ٥٤٧ .
 ميلتيادس : ٣٣٨ ، ٣٣٠ ، ٢٩٢ .
 ميله : ٢٩١ ، ٢٨٦ ، ٢١٢ ، ١٨٥ .
 ٤٩٩ ، ٤٦١ .
 ميلو : ٥٠٥ .
 ميلوس : ٢٤٢ ، ٢٣٧ .
 ميليندا : ٦١١ ، ٥١١ .
 مينة البيضا : ٢٥٦ ، ٢٥١ .
 مينس : ٤٥ ، ٤٤ .
 مينغ تانغ : ٥٣٣ ، ٥٧٦ .
 مينندروس : ٥٣٥ ، ٥١١ ، ٣٩٨ ، ٥٣٩ ، ٦١١ ، ٥٤٠ .
 مينوس : ٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٧ .
 مينوطور : ٢٤٤ ، ٢٤٠ .
 مينويس : ٥٣٢ .
 - ن -
 نابو : ١٨٩ .
 نابولي : ٥٠٧ .
 نابوليون : ١٨٠ .
 نابونيد : ١٦٢ .
 نابيس : ٤٥٤ ، ٤٥٣ ، ٣٤٣ .
 ناجا : ٦٢٤ .
 نارام سن : ١٤٢ .
 ناكسينا : ٥١١ .
 الناكسيون : ٣٠٥ .
 نانكين : ٦٣٢ .
 نبوخذ نصر : ١٦٧ ، ١٥٨ ، ١٤٥ ، ١٨٤ ، ١٩٢ ، ١٩٧ ، ٢٢٤ ، ٢٦٨ .
 نجاو : ٢٥٩ .
 نختسافيس : ٤٦٩ .
 نرغال : ١٦٦ .
 نغان - ينغ : ٥٨٠ .
 نفرتيقي : ١٢٣ .
 نكش - أي - روستم : ٢٢٨ .
 النمسا : ٢٦ .
 نندا : ٦١٠ ، ٥٥٤ .
 نو : ٥٩٤ .
 النوبة - النوبيون : ٥٧ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٩٦ .
 نوزيقا : ٣٥٧ .
 نوكراتيس : ٤٦٧ ، ٢٨٦ ، ٧١ .
 نوميديا : ٤٣٨ .

مهاباراتا : ٦٢٥ .
 مهابيرا : ٥٧٢ ، ٥٥٤ .
 موت : ٢٦٠ .
 موتربليون : ٦٢٣ .
 موتسو : ٦٠٢ .
 موتي : ٦٠٢ ، ٥٧٩ .
 موريا : ٦٠٧ ، ٦٠٥ ، ٥٥٥ ، ٥٥٤ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١٢ .
 موزيريس : ٦٠٧ .
 موسى : ٢٧٥ ، ٢٧٤ ، ٢٦٩ .
 موس (مارسل) : ١٨ .
 الموشكو : ٢٠٩ .
 مولوخ : ٢٦٠ .
 مولير : ٣٩٨ .
 مونيه (رولان) : ١٣ .
 موهنجو - دارو : ٥٥٢ ، ٥٥٠ ، ٢٨ .
 ميتاني : ٢٠٨ ، ٢٠٣ .
 ميداس : ٢٠٩ .
 ميداي : ٥٣٨ ، ٢٢٧ ، ١٩٢ .
 ميرون : ٣٧٥ .
 ميريس (بحيرة) : ١١٣ ، ٨٧ ، ٧٥ .
 ميسين - ميسينيون : ٢٤٨ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٨١ .
 الميسيون : ٤٧٨ .
 ميغارا : ٢٨٦ .
 ميغاستينوس : ٦١٠ ، ٦٠٨ ، ٥١١ ، ٦١٢ ، ٦٢١ .
 ميكال انجلو : ٥٠٦ .
 ميل ب : ٥٤٧ .
 ميلتيادس : ٣٣٨ ، ٣٣٠ ، ٢٩٢ .
 ميله : ٢٩١ ، ٢٨٦ ، ٢١٢ ، ١٨٥ .
 ٤٩٩ ، ٤٦١ .
 ميلو : ٥٠٥ .
 ميلوس : ٢٤٢ ، ٢٣٧ .
 ميليندا : ٦١١ ، ٥١١ .

نيارك : ٢٢٣ .

نيبال : ٥٤٦ .

نيبور : ١٦٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ .

نيقياس : ٣٤٨ ، ٣٥٣ .

النيل : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ .

٥٣ ، ٥٧ ، ٦٧ ، ٧٥ ، ٩٢ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،

١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ،

١٥٥ ، ١٦٥ ، ٢٤٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٤١٣ ،

٤٢٢ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٢ ، ٤٧٩ ، ٤٨٦ ،

٤٩٦ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٧ ، ٥٢٨ .

نيميا : ٢٩٦ .

نيميسيس : ٣٩١ .

نينوى : ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٦٦ ، ١٧٦ ،

١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ٢١٤ .

النيوبيون : ٥٠٦ .

نيوسري : ١١٤ .

- ه -

هابو : ٩١ .

هاديس : ٣٦٤ ، ٤٩٥ .

هارابا : ٢٨ ، ٥٥٠ ، ٥٥٢ .

هارفي : ٥٣٠ .

هازائيل : ٢٦٢ .

هاليس : ٢٠٣ ، ٢١١ .

هالكارناس : ٣٧٨ .

هانت ، ٥٨٢ ، ٦٠٤ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ،

٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٥ ، ٦٣٧ ،

٦٣٨ ، ٦٣٩ .

هان في تسو : ٥٧٨ .

هرموبوليس : ٩٤ ، ٩٥ .

هرميس : ٣٦٢ ، ٥٠٤ .

هريجور : ٦٥ ، ٧٠ .

هستا : ٥٤٨ .

الهكسوس : ٥٠ ، ٩٠ ، ١١٠ .

هليوبوليس : ٤٦ ، ٤٩ ، ٩٤ ، ٩٥ ،

٩٦ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١١٤ ، ١٢٩ ،

١٣١ ، ٢٦٤ ، ٣٥٩ ، ٥١٠ .

الهند : ٢٠ ، ٢٦ ، ١٥٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،

٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٤٦١ ، ٥١١ ، ٥٢٧ ، ٥٤٥ ،

٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ،

٥٥٥ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٩ ، ٥٧٢ ، ٥٧٤ ،

٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ،

٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٣٢ ،

٦٤٠ ، ٦٤١ .

الهند الصينية : ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٦٠٥ .

الهندوس : ٢٨ ، ٧٠ ، ١٥٨ ، ٢١٤ ،

٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٤٦٠ ، ٥١١ ، ٥٤٦ ، ٥٥٠ ،

٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ ، ٦١١ .

هو . ٥٢ .

هوراس : ٥٣٣ .

هوروس : ٤٦ ، ٤٨ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ،

٩٣ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٢٢ ،

٤١٤ ، ٤٨٦ .

هوستاب : ٢٦ .

هوميروس : ٢٤٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ ،

٤٩٥ ، ٥٢٠ ، ٥٣٧ .

هون : ٦١١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٩ ،

هو - نان : ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ،

ميا : ٥٧٩ .

ميار : ٥٩٢ .

ميبارخوس : ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ،

ميبارخيا : ٥١٤ .

ميبوداموس : ١٨٥ ، ٣٦١ .

ميبيريوس : ٤٠١ .

ميرا : ٣٠٦ .

ميراكليت : ٣٠١ ، ٥٣٤ .

ميراكليس (هيرقل) : ١٧٥ ، ٣٧٤ ،

٥٠٥ ، ٥٣٣ .

ميرودوتس . ٤٠ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٧ ،

١٠٧ ، ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ،

١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ،

٢٢٩ ، ٢٩٥ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٣٦١ ، ٣٨١ ،

٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٥١٣ .

هيراكليس : ٥٣٠ .

هيرون : ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٨ .

هيروانداس : ٥٣٥ ، ٥٤٠ .

هيزود : ٢٨١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ،

٣٢٢ ، ٣٥٢ .

هيسارليك : ٢٤٣ .

هيكاتومبيدون : ٣٠٩ ، ٣١٠ .

هيكاتيه الميلي : ٤٠ ، ٣٠٢ ، ٣٩٠ .

هيكوب : ٢٠٩ .

هيليوذوروس : ٤٨٨ ، ٦١١ .

ميليوس : ٤٠٧ ، ٤٤١ ، ٤٩٩ .

هيميرا : ٣٣٠ .

هيو - تو : ٥٩٩ ، ٦٠٠ .

هيونغ-نو : ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ .

- و -

وازيستان : ٥٥٢ .

وفا - ونغ : ٥٨٠ .

ون : ٥٩٨ ، ٦٠١ .

ونغ - منغ : ٦٣٢ .

وو : ٦٣١ .

وي : ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٦٣٢ .

- ي -

اليابان : ٦٠٥ .

ياما : ٦٢٤ .

يانغ : ٥٩٢ .

يسوع : ٢٦٤ .

يعقوب : ٢٦٢ .

يكشا : ٦٢٤ .

مينيا : ٥٥٣ .

ين : ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٦٠٣ ، ٦٣٠ .

ينغ : ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٦٠٣ .

ينغ - شاو : ٥٧٩ .

ينغ - هيونغ : ٦٣٨ .

اليهود : ٢٢٤ ، ٤٦٧ .

يهودا : ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ .

يهوه : ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،

٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

يوتشي : ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

يوسف : ٧٣ .

يوشع : ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

يوناتان : ٢٦٨ .

يونان : ٦٣١ .

اليونان : ١٢ ، ٢٦ ، ٤٠ ، ٥٤ ، ١٤٥ ،

٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ،

٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ،

٢٥٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،

٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،

٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ،

٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ،

٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ،

٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ،

٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٧٢ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٨ ،

٣٨٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ،

٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ،

٤٢٩ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ،

٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ،

٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ،

٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٥ ، ٤٨١ ،

٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ،

٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥٢٤ ، ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٦٠٦ ،

٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٢١ .

يين ون تسو : ٥٧٨ .

فهرست الخرائط والنصاميم

صفحة

- ١ - مصر (خارطة) ٤٣
- ٢ - مدينة مصرية في عهد الامبراطورية الوسطى (تصميم) ١١٣
- ٣ - معبد شمسي شيده الملك نيوسري (تصميم) ١١٤
- ٤ - منطقة طيبة (خارطة) ١١٥
- ٥ - معبد خنصو في الكرنك (تصميم) ١١٦
- ٦ - منطقة منف (خارطة) ١١٧
- ٧ - معبد خفرع المدفني (تصميم) ١١٩
- ٨ - ديماس امنوفيس الثاني (تصميم) ١٢٠
- ٩ - بلاد ما بين النهرين (خارطة) ١٣٤
- ١٠ - امتداد الامبراطورية الاشورية في عهد اشور بانيبال ١٣٨
- ١١ - رسم نيبور : ١ - على لوحة مسارية ، ٢ - حسب أعمال التنقيب الحديثة ١٧٧
- ١٢ - مدينة اشور (المدينة) ١٨٥
- ١٣ - دور شروكين ، خرساباد اليوم (تصميم) ١٩١
- ١٤ - بابل عشية الفتح الفارسي (تصميم) ١٩٧
- ١٥ - امبراطوريات آسيا الوسطى نحو منتصف القرن الخامس قبل المسيح (خارطة) ٢١٠
- ١٦ - امتداد الامبراطورية الفارسية في بدء القرن الخامس قبل المسيح (خارطة) ٢١٥
- ١٧ - منطقة برسبوليس (خارطة) ٢٢٧
- ١٨ - العالم الايجي (خارطة) ٢٣٥
- ١٩ - قصر تيرنثوث (تصميم) ٢٥٠
- ٢٠ - كنعان وسوريا (خارطة) ٢٥٧
- ٢١ - معبد ارتميس في افسس (تصميم) ٣٠٣
- ٢٢ - معبد الهيكاتومبيدون في قلعة اثينا (تصميم) ٣٠٩
- ٢٣ - اثينا والبيرة في القرن الرابع قبل المسيح (تصميم) ٣٥٥

صفحة

٣٧٣	٢٤ - الألتيس ، نطاق زفس المقدسي في اولمبيا ، في أواخر القرن الرابع قبل المسيح (تصميم) .
٣٧٧	٢٥ - قلعة اثينا في أواخر القرن الرابع قبل المسيح (تصميم)
٤٥٧	٢٦ - الاسكندرية الهلينية (تصميم)
٤٧٣	٢٧ - خريطة لاوذيكييا البحرية السلوقية (اللاذقية اليوم)
٤٩٩	٢٨ - بيت هليني في بريينا (ايونيا) (تصميم)
٥٠١	٢٩ - برغاموس الهلينية (تصميم)
٥٢٩	٣٠ - خط طول الاسكندرية كما رسمه ايراتوشينوس (تصميم)
٥٤٩	٣١ - الهند في الزمن السابق للآريين . الحضارة المدعوة حضارة الهندوس (خارطة)
٥٥٢	٣٢ - الهند البراهمانية قبل سلالة الموريا (خارطة)
٥٥٥	٣٣ - الهند في عهد سلالة الموريا
٥٨١	٣٤ - الصين حتى سقوط سلالة الهان (خارطة)

فهرست الصور

- ١ - افريز الأياثل السوداء في مغارة لاسكو .
- ٢ - سيدة دامارالند البيضاء .
- ٣ - هرم سكترة ذو الدرجات .
- ٤ - أهرام الجيزة .
- ٥ - أبو الهول في الجيزة .
- ٦ - نقش ناتىء في مصطبة أخوتحوتب .
- ٧ - جبارا ممنون .
- ٨ - معبد حتشبسوت في دير البحري .
- ٩ - معبد امنوفيس الثالث في الأقصر .
- ١٠ - غداء الأميرة .
- ١١ - قاعة الأعمدة في الكرنك .
- ١٢ - معبد أمون في الكرنك .
- ١٣ - سيتي الاول والإله حاتور .
- ١٤ - معبد سيتي الاول في ابيدوس .
- ١٥ - التماثيل الجبارة في معبد أبي سنبل . السلالة التاسعة عشرة .
- ١٦ - المعبد المدفني لرعمسيس الثاني في طيبة . السلالة التاسعة عشرة .
- ١٧ - أور - ناتشي ، ملك لاغاش ، وعائلته (حوالي السنة ٢٨٠٠ قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ١٨ - نصب نصر لنارام سين ، ملك اغادي (القرن السادس والعشرون قبل المسيح) .
- ١٩ - سومريو لاغاش ، بقيادة ملكهم ايناتوم ، يدوسون الجثث في مسيرهم الى المعركة (القرن الثامن والعشرون قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٢٠ - دستور حمورابي ، ملك بابل (حوالي ١٨٠٠ (?) قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٢١ - كودورو بابلي ، الملك مليشيباك الثاني يضع ابنته تحت حماية اجدى الآلهات (حوالي ١٢٠٠ قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٢٢ - النقل البخري . نقش ناتىء من الالبستر مصدره قصر خرسباد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٢٣ - ثورة مجنح ذو وجه بشري مصدره قصر سرجون الثاني في خرسباد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٢٤ - الملك أشورباتيبال في عربة أبهة . نقش ناتىء مصدره نينوى (القرن السابع قبل المسيح) .

- ٢٥ - نقش في الابدانا في برسبوليس (القرن الخامس قبل المسيح) .
- ٢٦ - « الملك الكاهن » أو « الأمير ذو زهور الزنبق » في كنوسوس (كرتيا) . نقش جصي ملون ، بعد ترميمه (حوالي ١٦٠٠ ق . م .) .
- ٢٧ - باب اللبوءات في ميسين .
- ٢٨ - « مذخرة أتريا » في ميسين .
- ٢٩ - البرناس كما يرى من زيمينون .
- ٣٠ - عند لحف حصون ارغوس . في المؤخرة أكمة لاريسا (٣٠٠ م .) . في المقدمة أكمة اسبيس (٨٠ م .) .
- ٣١ - طريق اللبوءات في ليتوون ديلوس (القرن السابع قبل المسيح) .
- ٣٢ - مشهد وليمة : هيراكليس عند افريتوس . رسم ذو طابع كورنثي (القرن السادس قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٣٣ - الهيرايون في اولمبيا .
- ٣٤ - عداؤون اولمبيون . رسم على قارورة (القرن السادس قبل المسيح) . متحف الفاتيكان .
- ٣٥ - زفس هيسثيايا (ويعرف بزفس ارتميسيون أيضاً) ، وهو من البرونز وينسب الى كلاميدس (حوالي ٤٦٠ ق . م .) . المتحف الوطني في أثينا .
- ٣٦ - مسرح ابيدورس .
- ٣٧ - المعبد ذو الشكل D ، ويعرف بمعبد « جونون اللاسينية » ، في اغريجنطا (القرن الخامس قبل المسيح) .
- ٣٨ - مرفأ سلامين الطبيعي كما يرى من برج أثينا نيقى .
- ٣٩ - قلعة اثينا .
- ٤٠ - تطواف عيد الإلهة « اثينا » ، قسم من افريز البرثنون . متحف اللوفر .
- ٤١ - البرثنون (في حالته الحاضرة) .
- ٤٢ - اثينا برثنوس . مدالية من البرونز المذهب ، ويرجح انه مستوحى من تمثال فيدياس في البرثنون .
- ٤٣ - الإلهة « نيقى » في ساموتراس .
- ٤٤ - إناء شنفي ثلاثي القوائم مصدره نفان ينغ . عهد شنغ .
- ٤٥ - تمثال نصفي لرجل مصدره موهنجو - دارو . الحضارة المعروفة بحضارة الهندوس . متحف الآثار ، نيودلهي .
- ٤٦ - المدخل الجنوبي للشتوبا في سانشي (الهند) . القرن الأول قبل المسيح .
- ٤٧ - إناء طقسي بسكل رأس رجل تعلوه الخوذة . طرف قناة من البرونز . عهد شنغ .
- ٤٨ - حصان من حجر وقبر هوو - كيو - بنغ المخروطي الشكل . هيان - ينغ ، مقاطعة شن - سي (السنة ١١٧ ق . م .) .

فهرست عام

صفحة

- ١١ مقدمة الطبعة العربية
١٧ مقدمة عامة لتاريخ الحضارات العام
٢٣ مدخل - من وحدة العصر الظراني الى التنوع التاريخي
ظهور الانسان - العصر الحجري القديم - من حضارة العصر الحجري الحديث الى عصر الحديد -
غزوات وتهجين - وحدة الحضارات وتنوعها - الامبراطوريات القديمة ووحدة الحضارة .

القِسْمُ الأول

حضارات الشرق الأدنى والامبراطورية

- العوامل التي ساعدت على النجاح في مصر وما بين النهرين - سر هذا النجاح -
٣٥ أهلية الشرق الادنى للسيطرة والسؤدد .

الكتاب الأول

الحضارة المصرية

- ٣٩ مدى الحضارة المصرية واستمرارها - وحدة وموضى - عزلة وأصاله .

٤٤ الفصل الأول . - النظم السياسية

٤٤ ١ - الملك

الملك محور الوحدة وخالقها - اختيار العاصبة منف واثر ذلك - الملك الإله - تعيين الملك وتنويحه -
حياة الملك - وظائف الملك : الدين - وظائف الملك : الحرب - وظائف الملك : استتباب
النظام واشاعة العدل .

٥٤ ٢ - الحكومة والادارة

الصفات العامة - الحكومة المركزية - الادارة الاقليمية والمحلية - الادارة والحياة المادية في مصر -

مراقبة الحياة المادية وغنى التاج - الموظفون والنظام الملكي - المحلل الامبراطورية القديمة
وزوالها - الاصلاح الاعرج - رئيس كهنة أمون .

٦٦ الفصل الثاني . - النظم الاقتصادية والاجتماعية

النظام المثالي

٦٧ ١ - الحياة الاقتصادية

المواد الطبيعية واستثمارها - التحويل والمقايصات - التجارة الخارجية - عزلة مصر الاقتصادية
ون نتائجها .

٧٢ ٢ - المجتمع

الارضاع الاجتماعية : الرق - الأسرة : المرأة - الولد والاحصائيات البشرية - الاتجاه المحتوم الى
الطبقات الوراثية - الأمثلة الاجتماعية : الفلاح - العامل - الجندي - الصابط -
الكاهن . - الكتائب .

٨٤ الفصل الثالث - المظاهر الدينية

٨٤ ١ - الآلهة

التعدد الاساسي - الواقع والخيال في الفكرة الدينية - حدود تشبيه الآلهة بالانسان - الآلهة المحليون :
تعدد وجمعهم - الآلهة الكونيون - الآلهة الشعبيون - اوزيريس - المذاهب اللاهوتية - مذاهب
هليوبوليس ومنف : «رع» و «فتاح» - أمون وأمون رع - الثورة « الاتونية » وفشلها .

٩٩ ٢ - عالم ما بعد الموت

الايان بالحياة الثانية - نقل العقائد حول الحياة الثانية الى مستوى الشعب - العقيدة الشمسية في
الامبراطورية القديمة - تعميم العقيدة الشمسية - انتصار عقيدة اوزيريس - وزن النفس
وما يعنيه .

١٠٥ ٣ - العبادة

عبادة الآلهة - المراسم الجنائزية وعبادة الاموات - الدين والحصارة .

١١٠ الفصل الرابع . - المظاهر الفنية والعقلية

١١٠ أ - الفن

ابداع الامبراطورية القديمة - التطور اللاحق - مصر القديمة في فنها .

١١٢ ١ - الهندسة المعمارية

مساكن الاحياء - المعبد - المدفن .

١٢١ ٢ - النقاشة والتصوير

صناعة التماثيل - النقش الناتئ والتصوير - الفنون الثانوية .

١٢٦ ب - الحياة العقلية

الكتابة- الكاتب؛ المدارس و «بيوت الحياة»- العلوم الصحيحة- العلوم الطبيعية والسحر- الادب،
الخاتمة . - الحضارة المصرية والعالم القديم

١٣٢

الكتاب الثاني

حضارة بلاد ما بين النهرين

مصر وبلاد ما بين النهرين ؛ تشابه في المصير والحضارة - مصر وبلاد ما بين النهرين ؛ حضارات
موحدة ومفتلة . - وحدة حضارة ما بين النهرين .

١٣٦

الفصل الأول . - الأشكال السياسية

التجزئة - الاستمرار على مفهوم مقومات البلدة - مفهوم الامبراطورية - تعزيز الامبراطوريات -
النظام الملكي وجماعة المواطنين - الملك «نائب الآلهة»- تعيين وتنصيب الملك - واجبات الملك
الدينية - الملك صلة الوصل بين الشعوب والآلهة - السلطات والنظم الملكية - القيادة
الحربية - الجيش الاشوري - التعبئة - الادارة والموظفون - المركزية زمس
حمورابي - الالهة الملكية .

١٤٨

الفصل الثاني . - الأشكال الاجتماعية والاقتصادية

القصر - الهيكل - المجتمع العلمي - الرؤوس - العبد - تشريع الاسرة - العمل الصناعي - المواد
الاولية - وسائل النقل - التجار ومستعمراتهم - تنظيم المعاملات - المعايير والقيم .

١٦١

الفصل الثالث . - الحياة الروحية

١٦١

١ - الأفكار والوقائع الدينية

الديانة ؛ السومريون والساميون - تكريم الموتى ؛ عدم النظام في قبور اور - الافكار المتداولة
بخصوص الموت - خوف وتقوى - الآلهة الكبرى - الصلة الشخصية بين الإله والفرد -
الآلة والمزايا الانسانية - الآلهة والدول - الهيكل - العبادة ورجال الكهنوت - السحر -
العيرافة - علم التنجيم - معطيات ديانة بلاد ما بين النهرين المستديمة .

١٧٢

٢ - الاكتشافات الفكرية

الوثائق - الكتابة المسارية - اللتان السومرية والاكادية - اللغة الارامية - المؤلفات الادبية -
الاناشيد الميثولوجية الكبرى - المكاتب - العلوم ؛ الطب وعلم الفلك - الرياضيات وعلم
الموازين - علوم الطبيعة - العلم والسحر في الفنون - الحقوق ؛ العقود - القوانين ؛ قانون
حمورابي - حدود الجهد الفكري .

١٨٣

الفصل الرابع . - الآثار الفنية

المدن والحصون - استعمال الخزف - النتائج - السقف ودعاه - الهيكل - البرج ذو الطبقات -
الملوك والمباني الدينية - القصر - الجنائس - الاوصاف العمومية لفن النقش - مقوماته -
شروط التقنية - فن صنع التماثيل - قيم ماري، غوديا - النقش البارز - التزيين المرسوم
والمزخرف بالمينا . - فن النقش على الحجر .

٢٠٠

الخاتمة

الكتاب الثالث

آسيا الصغرى وإيران

٢٠٣ الفصل الأول . - الحضارة الحثية

الحضارات الحثية والحورية : الخطوط الكبرى - الدولة - النصوص القانونية وتعاليمها - الفن والدين - استمرار هذه الديانة وانتقالها .

٢٠٩ الفصل الثاني . - الحضارة الليدية

الفريجيون - المملكة الليدية - الحياة الاقتصادية - الحضارة الليدية والحضارة اليونانية .

٢١٤ الفصل الثالث . - حضارة بلاد الفرس الاخمينية

روح السيطرة الفارسية - الروح الايرانية - إرث « الشرق الكلاسيكي » - النظام الملكي - الحكم والادارة - أهداف الادارة - الديانة - الحياة الفكرية - الفن - الميزة الايرانية والهلينية .

القِسْمُ الثَّانِي

حضارات الانسان في الشرق الأدنى

الكتاب الاول

المقدمات

٢٣٦ الفصل الأول . - الحضارة الايجية

٢٣٦ ١ - وحدة الحضارة الايجية وازدواجيتها

المهد الكرويقي - المهد الميسيني - وحدة وازدواجية - حدود المستندات .

٢٣٩ ٢ - الحضارة الكريتية

الملكية المينوسية - النشاط الاقتصادي - طريق بحر ايجه المعترضة - المجتمع - الديانة - الفن .

٢٤٨ ٣ - الحضارة الميسينية

الامراء المحاربون - الارستقراطية والطبقات الكادحة - التجارة والثروة - الفن الميسيني - إرث الميسينيين .

٢٥٥ الفصل الثاني . - كنعان وسوريا

٢٥٦ ١ - الفينيقيون

الحياة السياسية - الحياة الاقتصادية - الاستعمار - الديانة والفن - الإيجدية - دور الحضارة
الفينيقية التاريخي .

٢٦٢

٢ - الأراميون

الحياة السياسية - الدور التجاري - الأرامية لمة الشرق - الديانة .

٢٦٥

٣ - العبرانيون

٢٦٥

أ - التقلبات الزمنية

القضاة - الملكية الاتحادية - الازمات والتيوقراطية - اولوية الديانة .

٢٦٩

ب - الديانة وتطور النظريات الاخلاقية

يهوه القديم - أخطار التأثيرات الخارجية - اورشليم - الأنبياء - المثل الأعلى والعمل النافذ - يهوه
والعبادة - الشريعة - التفرد الديني والأخلاقي - قسط العبرانيين .

٢٧٩

الفصل الثالث . - الحضارة اليونانية القديمة

٢٨٠

١ - التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي

المجتمع القديم : ذرو الأملاك الواسعة - أواصر الدم - الدولة الارستوقراطية - أسباب تقلبات
الاحوال : تقنية الحرب - أسباب تقلبات الاحوال : الثورة الاقتصادية - الأزمة السياسية
والاجتماعية - المشترعون - الاستبداد والحضارة اليونانية - مناهضة الاستبداد وعمله -
الوضع في آخر العهد القديم - تقدم اثينا .

٢٩٣

٢ - التطور الأدبي

عوامل التطور الادبي - التنوع الديني - الطقوس مكونة الوحدة : المباريات - التصوف -
متافات الغيب - الشعر الملحمي - نشأة الشعر الغنائي ونضارته - نشأة العلم والفلسفة -
اولوية الفكر اليوناني - الهندسة المعمارية - النقاشة - صناعة الخزف - مراكز الاشعاع .

الكتاب الثاني

المدينة اليونانية والانسان

حضارة اليونان الكلاسيكية (القرن الخامس والرابع)

٣١٢

الفصل الأول . - الشوائب الداخلية في الحضارة اليونانية المنتصرة

مندوحة الحضارة اليونانية - الحرية والتسلط - حالة الحرب حالة طبيعية - الحروب : الاساليب
والخسائر بالارواح - الحرب : قانونها وريالاتها - التجنيد : مبدأ وواقع - الثورات
الدائمة - العوز والنفي والارتزاق .

٣٢٣

الفصل الثاني . - المثل الأعلى والوقائع السياسية

٣٢٣

١ - سيادة المدينة

	المدينة - سيادة المدينة الخارجية - المدينة والفرد .
٣٢٩	٢ - خطوط التنظيم السياسي العامة
	المدينة والسلطة الشخصية - الجمعية - المجلس - القضاة المدنيون - الاوليفارشيات والديموقراطيات : المواطنون الإيمانيون والمواطنون السليبيون .
٣٣٦	٣ - الديمقراطية اليونانية
	تقدم الديمقراطية - حدود الفكرة الديمقراطية اليونانية - الديمقراطية والاستعمار - الديمقراطية اليونانية ولادة زمانها .
٣٤١	الفصل الثالث .- الحياة المادية والاجتماعية
٣٤١	١ - المجتمعات الريفية
	كبار الملاكين - الفدادية - صغار الملاكين .
٣٤٤	٢ - المقايضات
	الاقتصاد المركب : شراء وبيع - المراكز الاقتصادية الكبرى : اثينا .
٣٤٦	٣ - المجتمعات المدنية
	الحياة في سبارطة - مناجم وعبيد الـ « لوريون » - العبيد المدنيون في اثينا - الاجانب المقيمون - انصراف المواطنين عن النشاط الاقتصادي - بتأثير التعويض اليومي - بفعل استمرار الاعتناوات القديمة - فقدان الثروات الطائلة .
٣٥٤	٤ - المدن والحياة الخاصة
	البيره واثينا - المساكن - سيدة البيت - حياة الرجل .
٣٥٩	الفصل الرابع . - الكلاسيكية الروحية والجمالية
	تباين التقدم الثقافي - اولوية اثينا .
٣٦١	١ - الديانة
	الورع الشعبي - العبادات الشاملة - الالعب الكبرى - أسرار الفسيس - العبادات المدنية - التصلب والتساهل - النخبة والديانة المدنية والاعبياد - عيد الإلهة « اثينا » الكبير - أعياد ديونيسوس والتمثيلات المسرحية - تطور الاعبياد .
٣٧٠	٢ - الفن
	التنافس في مجهود هندسة العمارة - التقليد والكمال في هندسة العمارة - تنوع النقاشة - أوج الكلاسيكية - النقاشة في القرن الرابع - الفنون الاخرى - التصوير وصناعة الخزف والفضار .
٣٨١	٣ - الحياة الفكرية
	الفلسفة : التقاليد والجدة في القرن الخامس - الفلسفة في القرن الرابع - العلوم - التاريخ - الشعر : الشعر الغنائي - المسرح - كبار مؤلفي المآسي في القرن الخامس - « المهزلة القديمة » - المسرح في القرن الرابع - اصول ونشأة البيان - الاساتذة ومعدو الخطب - البيان - الفلسفة : ايزوقراط - البيان - الفعل : ديموستينس - نهاية الكلاسيكية اليونانية .

الكتاب الثالث

الملكية الهلينية والانسان

الحضارة الهلينية (من القرن الثالث حتى القرن الأول)

صفحة

٤٠٣	الفصل الأول . - الاسكندر باعث حضارة جديدة ركاكة الامبراطورية السياسية - مسكونية الحضارة الهلينية - النتائج .
٤٠٦	الفصل الثاني . - المثالية الملكية والحكومة الملكية
٤٠٦	١ - الرواسب والاختصاصات الجمهورية محطات البولس - المدن والحرب - الاتحادات - الانظمة الاتحادية - الديمقراطية : ظواهر وقائع .
٤١٢	٢ - مثالية الملكية الهلينية اصول الملكية الهلينية - امتداد وقوة الواقع الملكي - المثالية الملكية - الحق الملكي - الاخلاق الملكية .
٤١٨	٣ - الأنظمة الملكية السلطة الملكية - بطانة الملك والسياسة - الحكومة المركزية - الادارة المحلية - الوسطاء والامتيازات المحلية - الثروة - القوة العسكرية
٤٢٩	٤ - العبادة السلافية العبادة السلافية : اصولها - العبادة السلافية : الاشكال - العبادة السلافية : مفزاهها وأهميتها .
٤٣٤	الخاتمة
٤٣٥	الفصل الثالث . - الاقتصاديات والمجتمعات
٤٣٥	١ - العالمان اليونان القديمة - الشرق - شركة أم استثمار ؟
٤٣٨	٢ - الاقتصاد والمجتمع في اليونان القديمة
٤٣٨	١ - التطور الاقتصادي المحبوحة الاولى - مزاحمة الزراعة والصناعة - تطور التجارة .
٤٤٢	٢ - الطبقات الاجتماعية طبقة ذوي اليسار في المدن اليونانية - المثل البورجوازي الاعلى : المدينة والبيت - المثل البورجوازي الاعلى : القرية والثقافة - الطبقات الاجتماعية الدنيا - العبيد .

- ٤٤٩ ٣ - الآفات والاضطرابات الاجتماعية
تدني عدد السكان - الاضطرابات الاجتماعية - الثورة الاجتماعية في سبارطة - العضلة الاجتماعية والمعاصل السياسية .
- ٤٥٤ ٣ - الحياة الاقتصادية في الشرق الهلنبي
اسهام الاغريق في نمو الشرق الاقتصادي - النشاط الاقتصادي : الزراعة والصناعة - النشاط الاقتصادي : التجارة - رجحان السياسة على الاقتصاد : الملوك يضعون يدهم على الحياة الاقتصادية .
- ٤٦٤ ٤ - الاتصال بين المجتمعين
المدينة اليونانية والمواطنون الأصليون .
- ٤٦٦ ١ - الحل اللاجي في مصر
الاغريق والبلديون في مصر : المدن - الريف - الملكية اللاجية والمجتمع البلدي .
- ٤٧٠ ٢ - الحل السلوقي في آسيا
سياسة السلوقيين الاقتصادية - السلوقيون والاكثار من المدن - المدن اليونانية والبورجوازية اليونانية في آسيا - عمل المدن اليونانية - البلديون خارج المدن - النتائج .
- ٤٨٢ الفصل الرابع . - المعتقدات والأذواق والأفكار
الحضارة اليونانية والملكية - لامركزية ووحدة .
- ٤٨٦ ١ - الديانة
العادات المحلية - الحضارة اليونانية والديانة اليهودية - سى الديانة اليونانية الخارجي - انحطاطها الراهس - التحديدات الدينية : العبادة الملكية والسلالية - التحديدات الدينية : عبادة إله الحظ - التحديدات الدينية : القلق والخلاص - التحديدات الدينية : العبادات الشرقية وسيرايس .
- ٤٩٦ ٢ - الفن
الفن اليوناني والفنون البلدية - تجديد الفن اليوناني .
- ٤٩٨ ١ - هندسة العمارة
الأبنية الكبرى - البيت - المدينة .
- ٥٠٢ ٢ - الفنون التصويرية
الظروف العامة - النقاش - التصوير والتخريف والصباغة .
- ٥٠٩ ٣ - الحياة الفكرية
١ - رجال الفكر والمجتمع الجديد
الظروف العامة - الاغريق والشرقيون .
- ٥١٣ ٢ - في خدمة النشاط الفكري
الوحدة الفكرية : الـ « كيني » - انتشار الثقافة - التربية اهلينية - نصرة الآداب والفنون ومؤسسات الأبحاث .

- ٥٢٠ ٣ - الشغف الفكري والروح العلمية
الأسنية والعلم الواسع - التاريخ - التقدم العالمي والتقدم المقني - انطلاقة العاوم .
- ٥٣١ ٤ - المدارس الفلسفية و الألوان الأدبية
الفلسفة - الأدب - النثر - الشعر - المسرح والمهزلة اليمائية .
- ٥٤١ الخاتمة
مهام ونجاح الحركة الفكرية .

القِسْمُ الثالث

آسيا الشرقية

الكتاب الأول

- ٥٤٥ آسيا الشرقية من (١٢٠٠ الى ٣٠٠ ق . م)
- ٥٤٧ الفصل الأول . - الهند
خصائص الحضارة الهندية الأساسية - تحديد الوقت والاصول - اللغات والخطوط - لهجة تاريخية .
- ٥٥٧ الفصل الثاني . - الحضارة الهندية قبل عهد الموريا
٥٥٨ ١ - خصائص الحضارة الفيدية
المستندات .
- ٥٦٠ ٢ - الحياة الاجتماعية
المجتمع - الدولة - الاسرة .
- ٥٦٦ ٣ - المدينة والريف
الديانة - العلوم .
- ٥٧٤ الفصل الثالث . - خصائص الحضارة الصينية القديمة
المطان والمستندات - اللغة والكتابة - لهجة تاريخية .
- ٥٨٣ الفصل الرابع . - الحضارة الصينية أيام الشنغ والتشاو
٥٨٣ ١ - عهد الشنغ
٥٨٥ ٢ - الحضارة الصينية أيام التشاو
المستندات - المجتمع - الهيئة الإدارية - رجال الكهنوت - أسرة الفلاحين - حياة النبلاء - مجتمع القرية والمدينة - الديانة - الفلسفة - الفن .

الكتاب الثاني

من القرن الرابع الى أواخر القرن الأول ق. م.

٦٠٥ الفصل الأول . - آسيا الشرقية من القرن الرابع حتى القرن الأول ق. م.

٦٠٩ الفصل الثاني . - الهند أيام حكم الموريا وخلفائهم

٦١١ ١ - إطار المدينة والريف

٦١٥ ٢ - الحياة الاجتماعية

المصادر - المجتمع - الثياب والحل .

٦٢٣ ٣ - الديانات

الفن .

٦٣٠ الفصل الثالث . - صين ملوك التسين والهان

تطور الصين التاريخي - السلطة الامبراطورية - المصادر - المجتمع - إطار المدينة - الآداب -
الفنون والتقنيات .

٦٤٠ الخاتمة

٦٤٣ المصادر

٦٤٩ جدول زمني مقارن

٦٨٩ جدول الأعلام

٧١١ فهرست الخرائط والتصاميم

٧١٣ فهرست الصور

٧١٥ فهرست عام

انتهى المجلد الأول، يليه المجلد الثاني،
رومًا وامبراطوريتها

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

Publiée sous la direction de

MARCEL CROZET

TOME 1

L'ORIENT ET LA GRÈCE ANTIQUE

par

André AYMARD et Jeannine AUBOYER

Texte traduit en Arabe

par

Faouf M. DAGHIR et Fouad ABOU-RIHAN

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth — Paris

